البحر المديد

في تفسير القرآن المجيد

لأبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة

١١٦١ هـ - ١٢٢٤ هـ

تحقيق وتعليق

أحمد عبدالله القرشي رسلان

المجلد الثالث

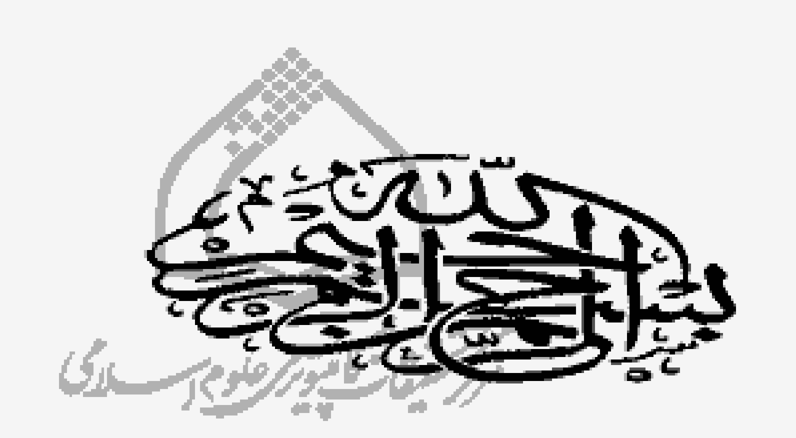
من أول سورة الرعد حتى آخر سورة المؤمنون

طبع على نفقة د. حسن عباس زكي

القاهرة ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

تفسير ابن عجيبة

«البحر المديد»


بسم الله الرحمن الرحیم



سورة الرعد

مكية إلى قوله: ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾، والباقى مدنى، وقيل: مدنية كلها. وآيها: خمس وأربعون. ومناسبتها لما قبلها: قوله: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾، مع قوله ﴿ تلك آيات الكتاب والذي أُنزل إليك من ربك الحق ﴾؛ فإنه كالدليل على كونه غير مفترى.

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * الٓمٓرۚ ... ﴾.

قيل: معناه: أنا أعلم، الله أعلم وأرى. وقيل: مختصرة من لفظ المرسل، على عادة رمز المحبين. أو إشارة إلى العوالم الأربعة: فالألف لوحدة الجبروت، واللام لتدفق أنوار الملكوت، والميم لحس عالم الملك، والراء لسريان أمداد الرحموت.

قال تعالى: ﴿ ... تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾

قلت: ﴿تلك﴾: مبتدأ، و﴿آيات﴾: خبر، و﴿الذى أُنزل﴾: مبتدأ، و﴿الحق﴾: خبر، والجملة الثانية كالحجة على الجملة الأولى.

يقول الحق جل جلاله: أيها المرسل المعظم، والحبيب المفخم، ﴿ تلكَ ﴾الآيات التى تتلوها على الناس هى ﴿ آياتُ الكتابِ ﴾ المنزل من حضرة قدسنا. ﴿ و ﴾ الكتاب أى: القرآن ﴿ الذى أُنزل إليك من ربك ﴾ هو ﴿ الحق ﴾ الذى لاريب فيه، ﴿ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يؤمنون ﴾؛ لإخلالهم بالنظر والتأمل فيه.

الإشارة: لَوْ صفَتْ القلوب من الأكدار، ومُلئت بالمعارف والأنوار؛ لفهمتْ أسرار الكتاب، وجواهر معانيه، ولأدركت معرفة الحق من كلامه؛ لأن الكلام صفة المتكلم، ولكن أكثر الناس اشتغلوا بمتابعة الهوى، فصُرفوا عن فهم الكلام، وفاتهم معرفة المتكلم، ولذلك لم يكتف الحق تعالى بآيات الكتاب حتى ذكر دلائل توحيده وكمال قدرته، فقال:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾

قلت: ﴿الله﴾: مبتدأ، و﴿الذى رفَعَ﴾: خبره، ويجوز أن يكون الموصول صفة، والخبر: ﴿يُدبر الأمر﴾، و﴿عمَد﴾: اسم جمع عمود، وقياس جمعه: عمُد، كرسول ورسُل، وشهاب وشُهُب، وليس جمعاً خلافًا لأبى عبيد. قاله ابن عطية. وقال البيضاوى: جمع عِماد، كإهاب وأُهب. وجملة: ﴿ترونها﴾: إما حال، أو استئنافية؛ فالضمير للسماوات، وإما صفة لعمَد فالضمير لها، أى: ليس لها عمَد مرئية، فيقتضى بالمفهوم أن لها عمداً لا تُرى. وقيل: إن عمدها جبل قاف المحيط بالدنيا. والجمهور: أنه لا عمد لها البتة. فالمراد نفى العمد، ونفى رؤيتها. قاله ابن جزى.

يقول الحق جل جلاله مستدلاً على وجوده، وكمال قدرته: ﴿ اللهُ الذى رفعَ السموات ﴾ فوقكم كالسقف المرفوع ﴿ بغير عمَد ﴾: أساطين، بل بقدرة أزلية، ﴿ ترونها ﴾ مرفوعة فوقكم. أو بغير عمد مرئية، بل بعمد خفية، وهي: أسرار الذات العلية؛ إذ لا فاعل سواه. ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ استواء استيلاء وإحاطة، حتى صار العرشُ غيباً فى إحاطة قهريته وأسرار ذاته. وقد كانت العرب تجعل لملوكها سريراً يجلسون عليه لتدبير المملكة، فخاطبنا الحق تعالى بقدر ما نفهم[1]، ولذلك رتب عليه قوله: ﴿ وسَخَّر الشمسَ والقمر ﴾؛ لأن هذا من تدبير ملكه، أى: ذللهما لما أراد منهما، كالحركة المستمرة على حد من السرعة؛ لينتفع بهما عباده فى معاشهم ومعالم دينهم. ﴿ كلٌّ ﴾ منهما ﴿ يجرى لأجَلٍ مُسمى ﴾: لمدة معينة تتم فيها أدواره، أو لغاية مضروبة ينقطع فيها سيرهما؛ وهى يوم القيامة حين تكوّر الشمس والقمر. ﴿ يُدبر الأمر ﴾؛ أمر ملكه من الإيجاد والإعدام، والإحياء والإماتة، وغير ذلك، ﴿ يُفصل الآياتِ ﴾: ينزلها، ويبين معانيها مفصلة، أو يُحدث الدلائل واحداً بعد واحد؛ ﴿ لعلكم بلقاء ربكم تُوقنون ﴾: لكى تتفكروا فيها، وتتحققوا كمال قدرته، فتعلموا أنّ مَنْ قدر على خلق هذه الأشياء وتدبيرها قادر على الإعادة والجزاء.

الإشارة: الله الذى رفع سموات الأرواح، وزينها بنجوم العلم وقمر التوحيد، وأشرق عليها شموس العرفان وأسرار التفريد، ثم استوى بأسرار ذاته وأنوار صفاته على العرش، وهو قلب العارف؛ لأنه سرير المعرفة، ومحل بيت الرب، وسخر شمس المعرفة وقمر التوحيد، يجريان بالترقى إلى محل التمكين، وهو الأجل المسمى لهما، يدبر أمر السير والترقى، ويُفصِّل دلائل الطريق الموصلة إلى عين التحقيق؛ لعلكم بالوصال إلى ربكم توقنون، حين يكون ذوقاً وكشفاً. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر العالم السفلى، فقال:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ

(١) سئل الإمام مالك، عن الاستواء على العرش، فقال: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب..)، وإذا كان علم حقيقة الصفات فرع عن علم حقيقة الذات المقدسة، وإذا كنا لانحيط بالله علما، فإننا لن نحيط بصفات الله علما، كذلك، فنقول: آمنا به، كلٌّ عند ربنا.

﴿أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

قلت: ﴿رواسي﴾: جمع راسية، من رسى الشيء: ثبت، و﴿جنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان﴾ مَنْ خَفَضَ عطف على ﴿أعناب﴾، ومن رفع عطف على ﴿جنات﴾. و﴿صنوان﴾: نعت تابع، و﴿غير﴾: عطف عليه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهو الذى مدَّ الأرض﴾؛ بسطها طولاً وعرضاً؛ لتثبت عليها الأقدام وتتقلب عليها الحيوان والأنام، ﴿وجعلَ فيها رواسى﴾: جبالاً ثوابت لتستقر وتثبت، فلا تميد كالسفينة، ﴿و﴾ جعل فيها ﴿أنهاراً﴾ مطردة دائمة الجرى، من غير نفاد ولا فتور. ضمها إلى الجبال؛ لأنها أسبابٌ لتولدها فى العادة. ﴿ومن كل الثمراتِ جعل فيها زوجين اثنين﴾ أى: وجعل فيها صنفين اثنين من كل الثمرات؛ فكل ثمرة فيها صنفان؛ أحمر وأسود، أو حلو وحامض، قال ابن جزى: فإن قيل: تقتضى الآية أنه تعالى خلق مِن كل ثمرة صنفين، وقد خلق من كثير من الثمرات أصنافاً كثيرة؟ فالجواب: أن ذلك زيادة فى الاعتبار، وأعظم فى الدلالة على القدرة بذكر الاثنين؛ لأن دلالة غيرهما من باب أولى. هـ.

﴿يُغْشى الليلَ النهارَ﴾، أى: يجعل الليلَ غشاءً على النهار ولباساً له، فيصير الجو مظلماً بعدما كان مُضيئاً. ﴿إنَّ فى ذلك لآيات﴾؛ دلائل وجوده وباهر قدرته ﴿لقوم يتفكرون﴾ فيها؛ فإن وجودها وتخصيصها فى هذا الشكل العجيب، دليل على وجود صانع حكيم، دبر أمرها، وهيأ أسبابها.

﴿وفى الأرض قِطَعٌ متجاورتٌ﴾؛ قريب بعضها من بعض، مع اختلاف أوصافها، بعضها طيبة وبعضها سبخة، وبعضها رخوة وبعضها صلبة، وبعضها يصلح للزرع دون الشجر، وبعضها بالعكس، وبعضها معادن مختلفة. ولولا تخصيص قادر مخصص لتلك الأفعال، على وجهٍ دون وجه، لم يكن الحكم كذلك؛ لاشتراك تلك القطع فى الطبيعة الأرضية، وما يلزمها ويعرض لها بتوسط ما يعرض من الأسباب السماوية، من حيث إنها متضامة متشاركة فى السبب والأوضاع. قاله البيضاوى. ﴿وجناتٌ من أعناب وزرعٌ ونخيلٌ﴾؛ أى: وفى الأرض أيضاً بساتين فيها أنواع من الأعناب والزروع، والنخيل، من صفة تلك النخيل: ﴿صِنْوَانٌ﴾ أى: نخلات كثيرة متفرعة من أصل واحد، ﴿وغيرُ صنوانٍ﴾ أى: غير متفرعة، بل كل نخلة منفردة بأصل واحد، ﴿يُسقى بماءٍ واحد. ونُفَضّلُ بعضها على بعضٍ فى الأُكُلِ﴾ أى: فى الثمر المأكول؛ قدراً وشكلاً، وطعماً، ورائحةً ولوناً،

مع اتفاق الماء الذى تُسقى به. وذلك مما يدل أيضاً على الصانع القادر الحكيم، فإن إيجادها، مع اختلاف الأصول والأسباب، لا يكون إلا بتخصيص قادر مختار. وفيه رد على الطبائعيين. ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾: يستعملون عقولهم بالتفكر والاعتبار، فيُدركون عظمة الواحد القهار.

الإشارة: ذَكَرَ أولاً سماء الأرواح، وما يُناسبها من أنوار التوحيد وأسرار التفريد، وذكر هنا أرض النفوس، وما يلائمها من جبال العقول وأنهار العلوم، فقال: وهو الذى مد أرض النفوس، وجعل فيها جبالاً من العقول الشامخة، حتى أدركت الصانع، وتحققت بوجوده ووحدانيته، بالدلائل الواضحة، والبراهين القطعية. وأنبع منها أنهاراً من العلوم الرسمية، والرقائق الوعظية. وجعل فيها من كل صنف؛ من ثمار ما جنت بمجاهدتها صنفين اثنين: قبضاً وبسطاً، منعاً ووجداً، ذُلاً وعزاً، فقراً وغنىً. يغْشيانها غشاء الليلِ للنهار؛ فإذا كان ليل القبض غشيه نهار البسط، فيزيله، وإذا كان المنع غشيه الوجد، وإذا كان الذل غشيه العز، وإذا كان الفقر غشيه الغنى، وهكذا. ودوام حال من قضايا المحال.

وفى أرض النفوس أيضاً قطع متجاورة، مع اختلاف ألوانها وطبائعها، وعلومها ومعارفها، ومواجدها وألسنتها. وفيها أيضا جنات المعارف ـ إن اتصلت بطبيب عارف ـ من أعناب الحقائق الناشئة عن خمرة الأزل، وزرع الشرائع الناشئة عن الكسب والتحصيل، ونخيل الأذواق والوجدان، صنوان وغير صنوان ـ يعنى من تعتريه الأحوال، ومن لا تعتريه لكمال رسوخه، تُسقى بخمرة واحدة، وهى الخمرة الأزلية، على أيدى الوسائط، أو بلا وسائط، وهو نادر. ونُفضل بعضها على بعض فى الأذواق والوجدان؛ فترى العارفين بعضهم قطب فى الأحوال، وبعضهم قطب فى المقامات؛ كان الجنيد رضي الله عنه قطبًا فى العلوم، وكذا الشاذلى والجيلانى والغزالى، وأمثالهم. وكان الشيخ أبوزيد قطباً فى الأحوال، وكان سهلُ التسْترى قطباً فى المقامات. والأولياء كلهم لا يخرجون عن هذا التقسيم، كل واحد وما يغلب عليه، مع مشاركته لغيره فى الثلاث[1]. والله تعالى أعلم.

ولما ذكر دلائل قدرته ذكر وعيد من أعرض عنها حتى أنكر البعث، فقال:

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥ ﴾

(١) هذه الإشارة ينبغى أن تتضمن توجيهاً: لدراسة الكون دراسة علمية؛ والاستفادة فى ذلك فى إعمار الأرض، وإنقاذ المسلمين من التخلف العلمى والحضارى، ومن التبعية لحضارة الغرب المادية؛ فانظر إلى قوله تعالى: (يتفكرون)، (يعقلون) ومتعلقهما، أعنى: الأرض، والرواسى، والأنهار، والنبات، والرى.. وغير ذلك، كيف غفلنا نحن المسلمين عن التفكر، والتعقل فى هذه الموضوعات؟ وما العلم الطبيعى إلا مبنى على هذا الأصل، فلله الأمر من قبلُ ومن بعد.

قلت: ﴿فعجب﴾: خبر، و﴿قولهم﴾: مبتدأ، و﴿أئذا كنا...﴾ الخ ـ محكي به. واختلف القراء هنا، وفي مواضع من القرآن، فمنهم من قرأ بالاستفهام في الأول دون الثاني، ومنهم بالعكس، ومنهم من قرأ بالاستفهام فيهما. فمن قرأ بالاستفهام في الأول دون الثاني فإنما القصد هو الثاني؛ لأنهم إنما أنكروا كون الإنسان يصير تراباً ثم يُبعث، وأما كونهم يصيرون تراباً فلا إنكار عندهم فيه. ومَن قرأ بالاستفهام في الثاني فعلى الأصل، ومن قرأ بالاستفهام فيهما فزيادة تأكيد. والعامل في ﴿إذا﴾ محذوف، دل عليه: ﴿لفي خلق جديد﴾ أي: أنُجَدّدُ إذا.... إلخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإن تعجبْ﴾ يامحمد من إنكارهم البعث ﴿فعجبٌ قولُهم﴾ أي: فقولهم حقيق بأن يتعجب منه، فإنَّ من قدر على إنشاء ما قصَّ عليك من عجائب السماوات والأرض، وأنواع الثمار على اختلاف أصنافها وألوانها، كانت الإعادة أيسر شيء عليه، فالآيات المعدودة كما هي دالة على وجود المبدأ، فهي دالة على إمكان الإعادة، لأنها دالة على كمال قدرته تعالى. ثم فسر قولهم في الإنكار: قالوا: ﴿أئذا كنا تراباً أئنا لفي خَلْقٍ جديد﴾ أي: أنُجَدَّدُ إذا متنا، وكنا تراباً، ﴿أولئك﴾ القائلون ذلك، أو المنكرون البعث، ﴿الذين كفروا بربهم﴾؛ لأنهم كفروا صفة القدرة، ﴿وأولئك الأغلالُ في أعناقهم﴾ أي: مقيدون بالضلال، قد أحاط بهم الشقاء، لا يُرجى خلاصهم، أو: يُغلُون يوم القيامة. ﴿وأولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون﴾ لا ينفكون عنها. وتوسط ضمير الفصل؛ لتخصيص الخلود بالكفار، ففيه رد على المعتزلة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إنكار بعث الأرواح من غفلاتها وجهلها، كإنكار بعث الأشباح بعد موتها، يُتعجب من الأول كما يتعجب مِن الثاني؛ فالقدرة صالحة، فمن قدر على بعث الأشباح بعد موتها الحسي قدر على بعث الأرواح بعد موتها المعنوي. «من استغرب أن ينقذه الله من شهوته، وأن يخرجه من وجود غفلته، فقد استعجز قدرة الإلهية؛ ﴿وكان الله على كل شيء مقتدرا﴾» . وقد أحيا الله أرواحاً كثيرة كانت ميتة بالجهل والمعاصي، فصارت عارفة بالله، من خواص أولياء الله مَنْ كانوا لصوصاً فصاروا خُصوصاً، ومنهم من كانوا كفارا، فصاروا أبرارا. وبالله التوفيق.

ثم استمر بهم الإنكار حتى استعجلوا ممن أوعدهم بذلك العذاب، فقال تعالى:

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾

قلت: «المثّلات»: جمع مثُلَة، كسَمُرة، وهي العقوبة العظيمة، التي تجعل الإنسان مثلاً لمن بعده. وفيها لغات وقراءات شاذة. و﴿على ظلمهم﴾: حال، والعامل فيه: المغفرة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة﴾ أي: بالنقمة قبل العافية، طلبوا نزول العذاب الذي أوعدهم به؛ استهزاء، ﴿وقد خَلَتْ﴾: مَضَتْ ﴿من قَبلِهِمُ المَثُلات﴾: عقوبات أمثالهم من

المكذبين، أو المصيبات الدواهي، حتى صاروا مثلاً لمن بعدهم. فمالهم لم يعتبروا، ولم يخافوا حلول مثلها عليهم؟ ﴿ وإنَّ ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ أي: مع ظلمهم أَنْفُسَهُمْ بالكفر والمعاصي، فسترهم وأمهلهم في الدنيا. فالمغفرة هنا لغوية، وقيل: يغفر لهم بالتوبة. وقيل: بلا قيد التوبة، بل بمجرد الحلم. قال البيضاوي: وفيه جواز العفو قبل التوبة، فإن التائب ليس على ظلمه، ومن منع ذلك خص الظلم بالصغائر المكفرة باجتناب الكبائر. هـ. ﴿ وإنَّ ربك لشديدُ العقاب ﴾ لمن يريد تعذيبه، أو للكفار. وعن النبي ﷺ أنه قال: «لَوْلاَ عَفْوُ اللهِ وتَجَاوُزُه مَا هَنأَ أَحَدَ العَيْشِ، ولَوْلاَ وَعِيدُهُ وعِقَابُه لاتَّكَلَ كُلُّ أَحَدٍ»(١) . قاله البيضاوي.

الإشارة: ترى بعض المستهزئين بالأولياء يؤذيهم بلسانه، أو بغيره، ويقول: إن كان بيده ما يفعل يفعله بي، والله تعالى يقول: «مَنْ آذَى لِي ولياً فقد آذَنْتُهُ بالحَرْب». ولكن الحق تعالى يمهل ولا يُهمل؛ ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾.

ثم طلبوا المعجزة، كما قال تعالى:

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ ... ﴾ .

قلت: ﴿وسارب﴾ : عطف على جملة ﴿من هو﴾ أي: ومن هو سارب، ليكمل التقسيم أربعة: من أسر، ومن جهر به، ومن استخفى، ومن سرب؛ أي: برز. انظر ابن جزي. و﴿المتعال﴾ : منقوص، يجوز في الوقف عليه حذف الياء وإثباتها، وكذلك: هادٍ، و واقٍ، وشبهه، غير أن الراجح في المعرَّف بأل الإثبات، وفي المُنَوَّنِ: الحذف. قال ابن مالك:

وحَـذْفُ يَا المنقُوصِ ذِي التَّنوينِ مـا لَمْ يُنْصَب) أَوْلَى مِنْ ثُبُوتٍ فـاعْلَمـا
وَغَـيْـرُ ذِي التَّنْـوِينِ بِالْعَـكْسِ، وفِي نَحْـوِ مُـرٍ: لُزُومُ رَدِّ اليَـا اقْـتُـفِي

وأثبتها ابن كثير في الجميع، ووافقه يعقوبُ في المُعَرَّف بأل، وحَذَفَهَا غيرُه مطلقاً.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٢١٤٥) عن سعيد بن المسيب، مرسلاً، وزاد في الفتح السماوي (٢/٧٣٨) عزوه للثعلبي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ويقول الذين كفروا﴾ من أهل مكة: ﴿لولا﴾: هلا ﴿أُنزل عليه آيةٌ﴾ أى: معجزة واضحة ﴿من ربه﴾ كما أوتى موسى وعيسى. ولم يعتدوا بالآيات المنزلة عليه؛ كانشقاق القمر وانقياد الشجر، وتسليم الحجر، وأعظمها: القرآن العظيم. وذلك عناد منهم. قال تعالى: ﴿إنما أنت مُنذرٌ﴾؛ مُرْسَل إليهم لتنذرهم كغيرك من الرسل، وما عليك إلا الإتيان بما تصح به نبوتك من جنس المعجزات، لا مما يُقترح عليك. ﴿ولكل قوم هادٍ﴾؛ رسول يهديهم إلى الحق والصواب، مخصوص بمعجزات من جنس ما هو الغالب عليهم؛ ففى زمن موسى عليه السلام كان الغالب عليهم السحر، فأوتي بالعصا تنقلب حية؛ ليبطل سحرهم، وفى زمن عيسى عليه السلام كان الغالب عليهم الطب، فأوتى إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى الذى يعجزون عن مثله، وفى زمن نبينا محمد ﷺ كان الغالب عليهم البلاغة والفصاحة، بها كانوا يتباهون ويتناضلون، فأوتى القرآنَ العظيم، أعجز ببلاغته البلغاء والفصحاء. أو: ولكل قوم هاد، يقدر على هدايتهم، وهو الله تعالى، أى: إنما عليك الإنذار، والله هو الهادى لمن يشاء، أو: ولكل قوم واعظ ومذكر من نبيٍّ أو ولِيّ. رُوى أنها لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «أَنَا المُنْذِرُ، وأَنْتَ يا عَلِيُّ الهَادِى»(١).

ثم أردف ذلك ما يدل على كمال علمه وقدرته، وشمول قضائه وقدره؛ تنبيهًا على أنه تعالى قادر على إنزال ما اقترحوه، وإنما لم يُنزله؛ لعلمه بأن اقتراحهم كان عنادًا لا استرشادًا. أو أن وقت الإنزال لم يحضر، فقال: ﴿الله يعلمُ ما تحملُ كلُّ أنثى﴾ هل هو ذكر أو أنثى، أو تام أو ناقص، أو حسن أو قبيح(٢). وهو من الخمس التى اختص بها. ﴿وما تَغيضُ الأرحامُ وما تزداد﴾ أى: ما تنقص فى الجثة بمرض الجنين أو إسقاطه، وما تزداد بنمو الجنين إلى أمده أو أكثر. قال البيضاوى: مدة الحمل عندنا أربع سنين، وخمس عند مالك، وسنتان عند أبى حنيفة. رُوى أن الضحاك وُلد لسنتين، وهرم بن حيان لأربع سنين. وأعلى عدده لا حد له. (٣) ـ قلت: يعنى مع تحققه ـ وقيل: المراد نقصان دم الحيض وزيادته. هـ. ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾: بقدر محدود، ووقت مخصوص، لايجاوزه ولا ينقص عنه، فالحق ـ تعالى ـ قد خص كل حادث بوقت مخصوص معين، وهيأ له أسبابًا تسوقه إليه على ما تقتضيه حكمته.

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (١٣/١٠٨) عن ابن عباس. وانظر تفسير ابن كثير (٢/٥٠٢) والألوسى (١٣/٨).

(٢) هذا النوع الذى ذكره الشيخ المفسر، من المعرفة، ليس هو النوع الذى اختص الله نفسه بعلمه ـ وهو يعلمه أيضاً ـ فإن هذا العلم ممكن للإنسان، بل قد علمه فعلاً عن طريق الأشعة وغيرها. والأساس فى فهم الآية قوله تعالى فى الآية «ما»، وهى التى تدل على الماهية. فقوله تعالى: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ أى: يعلم ماهيته وحقيقته، هل يكون شخصاً مؤمناً أو كافراً، سعيدا أو شقياً فى الدنيا والآخرة، يعلم كنهه وهويته ومعتقده، واتجاهاته وميوله، وفكره وعمله، ونيته ومصيره، علماً كلياً وتفصيلياً، وهو ما يستحيل على العقل البشرى أن يعلمه، فالله هو المختص وحده بعلم ذلك كله، فضلاً على علمه: هل هو ذكر أو أنثى.. الخ ما يعلمه الإنسان بأدوات العلم التجريبى.

(٣) ما قاله الإمام البيضاوى عن مدة الحمل يرجع فيه إلى أهل الطب المختصين، ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾، وقد قال أهل الاختصاص: إن الجنين إذا ظل فى الرحم أكثر من مدته، فإن الرحم قد ينفجر. الخ ما قالوا.

﴿ عالمُ الغيبِ والشهادة ﴾ أي: الغائب عن الحس، والظاهر فيه ﴿ الكبيرُ ﴾: العظيم الشأن، الذى يصغر كل شيء دون عظمته وكبريائه، ﴿ المتعال ﴾: المستعلى عن سمة الحوادث، أو: المستعلي بقدرته على كل شيء. ﴿ سواءٌ منكم من أسرَّ القولَ ﴾ فى نفسه ﴿ ومن جهر به ﴾ لغيره، ﴿ ومن هو مُستخف بالليل ﴾: طالب للخفاء مستتراً بظلمة الليل، ﴿ و ﴾ من هو ﴿ سارب بالنهار ﴾ أى: بارز فيه. فقد أحاط الله بذلك، علما وسمعا وبصراً. فالآية مقررة لما قبلها من كمال علمه وشموله.

﴿ له معقباتٌ ﴾ أى: لمن أسر أو جهر، أو استخفى أو برز، ﴿ معقبات ﴾ : ملائكة تعتقب فى حفظه، أى: يعقب بعضُها بعضاً، اثنان بالليل واثنان بالنهار، أو : لأنهم يعقبون أقواله وأفعاله فيكتبونها. أو: جماعة من الملائكة وَكَّلهم الله بحفظ الآدمى، يعقب بعضُهم بعضًا، وهو مناسب لقوله: ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ أى: يحرسونه من الآفات التى تنزل من أمر الله وإرادته. أو: يحفظونه من عقوبة الله وغضبه. إذا أذنب ذنبًا أمهلوه واستغفروا له. أو: يراقبون أحواله من أجل أمر الله، إذ أمرهم الله بذلك، أو يكون صفة للمعقبات، أى: له معقبات من أجل أمر الله، حيث أمرهم بحفظه. وقيل: الضمير فى ﴿ له ﴾: يعود إلى النبى ﷺ، المتقدم فى قوله: ﴿إنما أنت منذر﴾، فتكون نزلت فيمن أراد غدر النبى ﷺ سراً، على ما يأتى فى الآية الآتية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد تقدم مراراً حالُ من طلب الكرامة من الأولياء، وأنه جاهل بهم، ولا يعرفهم مادام يلتمس الكرامة منهم. وأيُّ كرامة أعظم من الاستقامة، والمعرفة بالله، على نعت الشهود والعيان؟!. وقوله تعالى: ﴿ولكل قوم هادٍ﴾ أى: ولكل عصر عارف بالله، يهدى الناس إلى حضرة الله، وهم ورثة الهادى الأعظم والنبى الأفخم، نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ أولهم سيدنا على ـ كرم الله وجهه؛ للحديث المتقدم، لأنه أول من أظهر علم التصوف وأفشاه، ثم أخذه عنه الحسن البصرّى وهذبه، ثم حبيب العجمى، ثم داود الطائى، ثم معروف الكرخى، ثم سرى السقطى، ثم إمام الطريقة: أبو القاسم الجنيد، ثم انتشر فى الأرض، فلكل عصرٍ رجالٌ يحملون لواء الحقيقة، ويهدون الناس إلى لباب الشريعة. وهم العارفون بالله. قال رسول الله ﷺ: «يَبْعَثُ اللهُ علَى رأس كُلِّ مائةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لهذِه الأُمَّةِ أمْرَ دِينِهَا»[1] أى: يجدد الطريقة بعد دروسها، ويحيى الحقيقة بعد خمود أنوارها، ويُظهر الشريعة بعد خفاء أعلامها. وقد يكون واحداً ومتعددا. وقد بعث الله فى رأس هذه المائة الثالثة عشر، أربعةً، أحيا الله بهم الحقيقة، وأظهر بهم أنوار الشريعة، يمشون فى الأرض بالنصيحة، ويهدون الناس إلى رب العالمين، والله ولى المتقين، وشهرتهم تُغنى عن تعيينهم، وتقدم اثنان فى العقود.

(١) أخرجه ابن داود فى (الملاحم، باب ما يذكر فى قرن المائة) من حديث أبى هريرة، وصححه السيوطى فى الجامع الصغير (ح ١٨٤٥).

وقوله تعالى: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾: ما تحمل كل نفس من العلوم، وما تحمل كل روح من الأسرار. وما تغيض الأرحام، أي: القلوب، فقد تنقص أنوارها بمباشرة الأغيار، وقد تزداد بالتفرغ أو صحبة العارفين الكبار. وكل شيء عنده بمقدار، فالفتح له وقت معلوم، وحد محدود، والمراتب والمقامات مقسومة محدودة في الأزل، كل أحد يأخذ ما قُسِم له. وقوله تعالى: ﴿سواء منكم من أسر القول...﴾ إلخ، فيه تحقيق المراقبة وتشديد المحاسبة على الخواطر والقلوب. والله تعالى أعلم.

وإذا كان العبد على هدايةٍ من ربه أو نعمة، فلا تزول عنه إلا من جهته، كما قال تعالى:

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾

قلت: ﴿وإذا﴾: ظرف، والعامل فيه: مادل عليه الجواب، أي: لا يرد ما قضى إذا أراد إنفاذه. و﴿خوفاً وطمعاً﴾: منصوبان على العلة بتقدير المضاف، أي: إرادة الخوف والطمع؛ ليتحد الفاعل. أو بتأويل: يجعلكم ترون البرق خوفاً وطمعاً. و ﴿الثقال﴾: نعت للسحاب، وجمعه؛ لأن السحاب جنس بمعنى الجمع. وجملة: ﴿وهم يجادلون﴾: إما استئنافية، أو حال من الموصول. و﴿المحال﴾: المكر والخديعة. من مَحَلَ بفلان إذا كاده وعرّضه للهلاك، ومنه تمَحّل: إذا تكلّف استعمال الحيلة، فالميم أصلية، ووزنه: فِعَال، وقيل: مشتق من الحيلة، فالميم زائدة، ووزنه: مِفْعَل، وأصله: مِحْيَل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الله لا يُغيّرُ ما بقومٍ﴾ من النعم والعافية إلى النقمة والبلية ﴿حتى يُغيّرُوا﴾ هم ﴿ما بأنفسهم﴾ من الطاعة وترك المعصية، إلى ارتكاب الذنوب. فلا يسلب النعم عن قوم إلا بارتكاب ذنب، ولو من البعض إذا سكت الكل. ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له﴾ أي: فلا رادّ له ولا معقب لحكمه، ﴿وما لهم من دونه من والٍ﴾ أي: ليس لهم من يلي أمرهم، ويدفع عنهم السوء الذي قضاه الله عليهم، وأراد نزوله بهم؛ لأن وقوع خلاف مراد الله تعالى محال.

﴿هو الذي يُريكم البرْقَ خوفاً وطمعاً﴾ أي: خوفاً مما ينشأ عن البرق من الصواعق والأمور الهائلة، وطمعاً في نزول الغيث الذي يكون معه غالبًا، ﴿وينشئ﴾ أي: يخلق ﴿السحاب﴾؛ الغيم المسْحب، ﴿الثّقَال﴾:

المثقل بالمطر الحاملة له، ﴿ ويُسبحُ الرعدُ بحمده ﴾ أى: متلبساً بحمده، يقول: سبحان الله وبحمده. أو: يدل الرعد بنفسه على وحدانيته تعالى وكمال قدرته، ملتبساً بالدلالة على كمال فضله، ونزول رحمته. وعن ابن عباس رضي الله عنه: سُئل النبى ﷺ عن الرعد؛ فقال: «ملَكٌ مُوكَّلٌ بالسَّحابِ، لَه مَخَارِيقُ مِنْ نَارٍ يَسُوقُ السَّحَابَ»(١).

﴿ و ﴾ تسبح أيضا ﴿ الملائكةُ من خِيفتِه ﴾ أى: من خوفه وإجلاله، ﴿ ويُرسل الصواعقَ ﴾؛ نار تنزل من السماء وقت ضرب الرعد، ﴿ فيصيب بها من يشاء ﴾ فيهلكه، ﴿ وهم يجادلون فى الله ﴾ أى: الكفار، حيث يكذبون رسوله فيما يصفه به من كمال العلم والقدرة، والتفرد بالألوهية، وبعث الناس وحشرهم للمجازاة، ﴿ وهو شديد المِحَال ﴾ أى: شديد المكر بأعدائه، الذين أرادوا أن يمكروا بنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

رُوِى أن عامر بن الطُفَيْل وأرْبَدَ بن ربيعة وفدا على رسول الله ﷺ قاصدين لقتله، فأخذ عامر بالمجادلة مع سيدنا رسول الله ﷺ ليشغله، ودار أرْبَدُ من خلفه؛ ليضربه بالسيف، فتنبه له الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقال: «اللَّهُمَّ اكفنيهما بِمَا شِئْتَ» ، فأرسل الله على أرْبَدَ صاعقة فقتلته، ورُمِيَ عامرٌ بغدة، فمات فى بيت امرأة سَلُولِيَّة، فكان يقول: غُدَّة كغُدَّة البعير، وموت فى بيت امرأة سَلُولِيَّة! فنزلت الآية من أولها(٢)، وهو قوله: ﴿له معقبات ...﴾ إلخ، على قول.

الإشارة: من جريان حكمته تعالى فى خلقه أنه لا يسلب النعم عنهم إلا بسوء أدبٍ منهم، كلٌّ على قدر مقامه، فالنعم الظاهرة يسلبها بترك الطاعة الظاهرة، أو بالمخالفة الظاهرة، والنعم الباطنة يسلبها بترك المراقبة الباطنة أو المشاهدة الباطنة. فلكل مقام حقوق وآداب؛ فمن أخَلَّ بحقوق مقام نقص له منه، إلا أن يتوب. وقد يسيء الأدب فتؤخر العقوبة عنه، فيظن أنه لم يُسْلَب. ولو لم يكن إلا ترك المزيد. وقد يبعد، وهو لا يشعر، ولو لم يكن إلا وتركه وما يريد. كما فى الحِكَم.: «إن الله لا يغير ما فى القلوب من أنوار الشهود والعيان، حتى يغيروا ما بأنفسهم من حسن الأدب بسوء الأدب». وهذا ما لم يتحقق له مقام المحبوبية والتمكن مع الله فى المعرفة. وإلا فالرعاية والعناية محفوفة بقلبه، فقد يبلغ الولي إلى مقام يقال له: افعل ما شئت فقد غفرتُ لك، كما وقع لأهل بدر، وراجعْ ما تقدم عند قوله: ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾(٣) وقد يُغير الله قلب عبده اختباراً له، فيسلبه حلاوة المعاملة أو المعرفة، فإن هو اضطرب وتضرع ردَّ له حاله، وإن لم يضطرب ولم يفزع إلى الله لم يرد له شيئاً. وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مَردَّ له . . . ﴾ الآية.

(١) أخرجه فى سياق طويل، أحمد فى المسند (١/ ٢٧٤) والترمذي في (تفسير سورة الرعد)، وقال: حسن غريب.

(٢) أخرجه ابن جرير فى التفسير (١٣/١٢٦) عن ابن عباس رضي الله عنه فى سياق أطول من هذا. وهو ضعيف لوجود السدى والكلبى فى السند.

(٣) الآية ٨٢ من سورة الأنعام.

هو الذى يُريكم بَرْقَ لمعان أنوار المشاهدة، عند الاستشراف على الحضرة القدسية، خوفًا من الرجوع؛ لعدم إطاقة ذلك النور، وطمعاً فى الوصول إلى التمكين، فلا يزال تترادف عليه البروق حتى يستمر ذلك كبرق متصل، وهى أنوار المواجهة. وينشئ سحاب الواردات ثِقالاً بالعلوم والأسرار، ويرسل الصواعق تصعق وجود الحس عن أسرار المعانى، فيصيب بها من يشاء ممن سبقت له العناية. وأهل الإنكار والتكذيب بطريق الخصوص يجادلون فى الله بتكذيب أوليائه وإنكار هذه الأنوار، وهو شديد المحال، فيمكر بهم ويتركهم فى مقام البُعد، وهم لا يشعرون.

ومن جملة التغيير الذى يسلب النعم ويوجب النقم: الركون إلى غير الله بالدعاء وغيره، كما قال تعالى:

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿له دعوةُ الحق﴾؛ لأنه الذى يحق أن يُدعى فيجيب، دون غيره؛ فإنما له الدعاء الباطل؛ لأنه يُدعى فلا يسمع ولا يجيب. أو: له دعوة الحق، وهى كلمة التوحيد؛ «لا إله إلا الله»، فمن دعا إليها فقد دعا إلى الحق. والأول أرجح؛ لمناسبة قوله: ﴿والذين يَدْعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء﴾، أى: والأصنام الذين يدعونهم من دونه لا يستجيبون لهم بشيء مما طلبوا، أو: والمشركون الذين يدعون أصناماً من دون الله لا يستجيبون لهم بشيء، فحذف المفعول؛ للدلالة عليه، فلا يستجيبون لهم ﴿إلا كباسط كَفَّيْه إلى الماء﴾؛ إلا استجابة كاستجابة من بسط كفيه إلى الماء يشير إليه، ﴿ليبلغ فاهُ﴾؛ أى: يطلب منه أن يصعد إليه ويبلغ فاه ﴿وما هو ببالغه﴾ أى: ليس الماء ببالغ فاه؛ لأنه جماد لا يشعر بدعائه، ولا يقدر على إجابته من حيث هو، شبَّه إجابة الأصنام لمن عبدهم بإجابة الماء لمن بسط إليه كفه، وأشار إليه بالإقبال إلى فيه، ولا يبلغ فاه أبداً؛ لأنه جماد لا يسمع ولا يعقل، وكذلك الأصنام لا تسمع ولا تجيب من بسط إليها يده ليطلب منها؛ لأنها خشب وأحجار. ﴿وما دعاء الكافرين﴾ للأصنام ﴿إلا فى ضلال﴾ وخسران وضياع.

ثم ذكر الحقيق بالعبادة والطلب، فقال: ﴿ولله يسجدُ من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ يحتمل أن يكون السجود حقيقة، فالملائكة والمؤمنون يسجدون طوعًا فى الشدة والرخاء، والكفار يسجدون كرهًا فى الشدة والضرورة. أو يكون مجازاً؛ وهو: انقيادهم لما أراد منهم، شاءوا أو كرهوا. ﴿و﴾ تسجد أيضا ﴿ظلالهم﴾؛ بانقيادها لله تعالى فى طولها وقصرها، وميلها من جانب إلى جانب، ﴿بالغدو والآصالِ﴾، أى: طرفَىْ النهار. وخَصَّ هذان الوقتان ـ وإن كان سجودهما دائما ـ؛ لأن الظلال إنما تَعْظُم وتَكْبُر فيهما. وقال الواحدى: كل شخص مؤمن أو كافر ظِله يسجد لله تعالى، ونحن لا نقف على كيفية ذلك. هـ.

وقال القشيري: ذلك سجود شهادة، لا سجود عبادة، فإن امتنع من إقامة الشهادة قوم قالةً فقد شهد كل جزء منهم من حيث البرهان والدلالة، فكل مخلوقٍ من عين وأثر، حجر ومدر أو غير ذلك؛ فمن حيث البرهان لله ساجد، ومن حيث البيان للواحد شاهد. هـ.

وقال أبو حيان: عن الفراء: الظل في الأصل مصدر، ثم أطلق على الخيال الذي يظهر للجرم طولُه بسبب انخفاض الشمس، وقصره بسبب ارتفاعها، فهو منقاد لله تعالى في طوله وقصره وميله من جانب. ثم قال: والحاصل أنها جارية على مقتضى إرادته تعالى ومشيئته، من الامتداد والتقلص، والفيء والزوال. هـ.

وقيل: لا يعلم تسبيح الجماد والنبات والحيوان البهيمي وسجودها؛ إلا مَنْ كاشفه الله تعالى بحقيقة ذلك من نبي أو ملك أو صدِّيق. وأما حمدها لله تعالى وتسبيحها بلسان الحال فيعلمه العلماء. قاله المحشي الفاسي.

الإشارة: كل من تعلق في نوائبه بغير الله، أو ركن في حوائجه إلى غير مولاه، فهو كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه، وليس ببواصل إليه، ولا ببالغ قصده ومناه، بل دعاؤه في تلف وخسران، وجزاؤه الخيبة والحرمان. فالواجب على العبد أن يقْصر حوائجه على مولاه، وينقاد إليه بكليته في حال الطوع والإكراه. إما أن ينقاد إليه بالإحسان، أو بسلاسل الامتحان. «عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إلى الجنَّةِ بالسَّلاَسِلِ»(١).

ثم ذكر الحقيق بالدعوة، والعبادة، فقال:

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل﴾ يا محمد للمشركين: ﴿من ربُّ السموات والأرض﴾ أي: خالقهما، ومدبر أمرهما، ﴿قل﴾ لهم: هو ﴿الله﴾ لا خالق سواه، ولا مدبر غيره، أجاب عنهم بذلك، إذ لا جواب لهم سواه؛ لأنهم يقرون به، ولكنهم يشركون به. فأبطل ذلك بقوله: ﴿قل أفاتخذتم من دونه أولياء﴾؛ أصناماً جامدة تتولونها بالمحبة والنصرة والدفع، وهم جوامد ﴿لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً﴾ أي: لا يقدرون أن يجلبوا لأنفسهم نفعاً، ولا يدفعون عنهم ضراً، فكيف يقدرون أن ينفعوا غيرهم ممن عبدهم، أو يدفعون عنه ضراً؟!. وهو دليل على ضلالهم وفساد رأيهم، في اتخاذهم الأصنامَ أولياء، رجاء أن يشفعوا لهم.

(١) هذا لفظ حديث صحيح أخرجه البخاري في (كتاب الجهاد، باب الأسارى في السلاسل) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ قل هل يستوى الأعمى والبصيرُ ﴾ أى: الكافر الجاهل، الذى عميت بصيرته بالجهل والشرك، والمؤمن الموحد الذى انفتحت بصيرته بالإيمان والعلم. أو المعبود الغافل عن عبادة من عبده، والعالم بأسرار عباده. ﴿ أم هل تستوي الظلماتُ والنور ﴾؛ الكفر والإيمان، أو الجهل والعلم. ﴿ أم ﴾: بل ﴿ جعلوا لله شركاءَ ﴾ من صفتهم، ﴿ خَلقوا كخلقه، فتشابه ﴾؛ التبس ﴿ الخلقُ عليهم ﴾ فلم يدروا ما خلق الله مما خلق أصنامُهم، وهذا كله داخل فى الإنكار. والمعنى: هل خلق شركاؤهم خلقًا كخلق الله، فالتبس الخلق عليهم، فلم يُميزوا خلق الله من خلق أصنامهم، حتى ظنوا أنها تستحق أن تُعبد مع الله، أو يُطلب منها حوائج دون الله؟!.

ثم أبطل ذلك بقوله: ﴿ قل اللهُ خالقُ كل شيء ﴾، قال البيضاوى: والمعنى أنهم ما اتخذوا له شركاء خالقين مثله حتى يتشابه الخلق عليهم، فيقولوا: هؤلاء خلقوا كما خلق الله، واستحقوا العبادة كما استحقها، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلاً عما يقدر عليه الخالق. هـ. ﴿ قل اللهُ خالق كل شيء ﴾؛ لاخالق غيره فيشاركه فى العبادة. جعل الخلق مُوجبَ العبادة، ولازم استحقاقها، ثم نفاه عما سواه؛ ليتحقق انفراده بالربوبية والقهرية كما أفاده قوله: ﴿ وهو الواحدُ ﴾ فى الألوهية، ﴿ القهار ﴾ بتصريف أحكام الربوبية. هـ.

الإشارة: إذا علِم العبدُ أن ربه قائم بأمر خلقه، مدبر لشأن ملكه، من عرشه إلى فرشه، جعل حوائجه كلها وَقْفاً عليه، وانحاش بكليته إليه، ورفع همته عن خلقه، إذ ليس بيدهم ضر ولا نفع، ولا جلب ولا دفع، بل هم عاجزون عن إصلاح أنفسهم، فكيف يقدرون أن ينفعوا غيرهم؟! وفى الحِكَم العطائية: «لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك، فكيف يرفع إلى غيره ما كان هو له واضعًا، من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه: فكيف يستطيع أن يكون لها من غيره رافعا». وقال بعض العارفين من المُكَاشَفين ـ رضى الله عنهم ـ: قيل لى فى نوم كاليقظة، أو يقظة كالنوم: لا تُبْدِيَنّ فاقة فأُضاعفها عليك؛ مكافأة لسوء أدبك، وخروجك عن حد عبوديتك. إنما ابتليتك بالفاقة لتفزع بها إليّ، وتتضرع بها لديّ، وتتوكل فيها عليّ. سبكتك بالفاقة لتصير ذهباً خالصاً، فلا تزيغن بعد السبك، وسَمَتُّكَ بالفاقة وحكمت لنفسى بالغنى، فإن وصلتها بى وصلتك بالغنى، وإن وصلتها بغيرى قطعت عنك مواد معونتى، وحسمت أسبابك من أسبابى، طرداً لك عن بابى. فمن وكلته إليّ ملك، ومن وكلته إليه هلك . هـ.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي الله عنه: آيست من نفع نفسى لنفسى، فكيف لا آيس من نفع غيرى لها، ورجوت الله لغيرى فكيف لا أرجوه لنفسى؟. هـ . فالبصير من اعتمد فى أموره على مولاه، والأعمى من ركن فى حوائجه إلى سواه. فأنوار التفويض والتسليم لا تستوى مع ظلمات الشرك والتدبير؛ ﴿قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور﴾. وبالله التوفيق.

ثم ضرب مثلاً لنور العلم مع ظلمات الجهل، فقال:

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) ﴾

قلت : ﴿جُفاء﴾: حال. و﴿الحسنى﴾ : مبتدأ، و﴿للذين﴾: خبر مقدم. و﴿الذين لم يستجيبوا﴾: مبتدأ، و﴿لو أن﴾: خبر، أو (للذين): متعلق بيضرب، و﴿الحسنى﴾: نعت لمصدر محذوف، و﴿الذين﴾: معطوف على ﴿الذين﴾ الأولى، أي: يضرب الأمثال للذين استجابوا الاستجابة الحسنى وللذين لم يستجيبوا، ثم استأنف قوله: لو أن... إلخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أنزل من السماء﴾ أي: السحاب، أو ناحية السماء، ﴿ماءً﴾؛ مطراً، ﴿فسالتْ﴾ به ﴿أودية﴾ : أنهار، جمع واد، وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة، فاتسع واستعمل للماء الجاري فيه. ﴿بقدَرها﴾ أي: بقدَر صغرها وكبرها، كل يسيل على قدره، أو بقدرماقسم في قسمة الله تعالى، وعلم أنه نافع غير ضار، ﴿فاحتمل السيلُ زَبَداً﴾ أي: رفعه على وجه الماء، وهو ما يحمله السيْل من غثاء ونحوه، أو ما يطفو على الماء من غليانه، ﴿رابياً﴾ : عالياً على وجه الماء، ﴿ومما تُوقدون عليه في النار﴾(١) من ذهب وفضة، وحديد ورصاص ونحاس، وغيره، ﴿ابتغاءَ﴾ أي: لطلب ﴿حلية﴾ كالذهب والفضة، ﴿أو متاعٍ﴾ كالحديد والنحاس يصنع منه ما يتمتع به؛ من الأواني وآلات الحرب والحرث. والمقصود بذلك: بيان منافعها، فكل واحد منهما له ﴿زَبَدٌ مثله﴾ أي: مثل زبد الماء، وهو خبثه الذي تخرجه النار عند سبكه.

﴿كذلك يَضْرِبُ اللهُ الحقَّ والباطل﴾؛ فمثل الحق ـ وهو العلم بالله وبأحكامه ـ كمثل الأمطار الغزيرة، ومثل القلوب التي سكن فيها، وجرت حِكَمه على ألسنة أهلها؛ كالأودية والأنهار والخلجان، كلٌ يحمل منه على قدره، وسعة صدره. ومثل الباطل الذي دمغه وذهب به؛ كالزبد وخبث الحديد والنحاس، أو الذهب والفضة. وسيأتي في الإشارة تكميله إن شاء الله. ورُوِي مثل هذا عن ابن عباس. وإنكار ابن عطية له جمود، وتَذَكَّرْ حديث البخاري:

(١) قرأ حمزة والكسائي وحفص (يوقدون) بالياء. على أن الضمير للناس. وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب.. انظر الإتحاف (٢/١٦٢).

«مثل ما بعثنى الله به من الهدى...» الحديث[1]، فإنه يشهد لذلك التأويل. وتقدم له بنفسه فى قوله: ﴿ أأرباب متفرقون ﴾[2] ما يشير إلى تفسير أهل الإشارة والرموز. وراجع ما تقدم لنا فى خطبة الكتاب يظهر لك الحق والصواب.

قال البيضاوى: مَثَّلَ الحقُّ فى إفادته وثباته، بالماء الذى ينزل من السماء، فتسيل به الأودية على قدر الحاجة والمصلحة، فتنتفع به أنواع المنافع، ويمكث فى الأرض، فيثبت بعضه فى منابعه، ويسلك بعضه فى عروق الأرض إلى العيون والآبار، وبالفِلِزِّ الذى ينتفع به فى صَوْغ الحلى، واتخاذ الأمتعة المختلفة، ويدوم ذلك مدة متطاولة. والباطلُ، فى قلة نفعه وسرعة ذهابه، بزبدهما، وبيَّن ذلك بقوله: ﴿ فأما الزَّبَدُ فيذهب جُفَاءً ﴾، أى: مَرْمِياً به، من جفاه: رمى به وأبعده، أى: يرمى به السيل والفلز المذاب. هـ. ﴿ وأما ما ينفع الناس ﴾ كالماء، وخالص الذهب أو الحديد، ﴿ فيمكثُ فى الأرض ﴾ لينتفع به أهلها. ﴿ كذلك يضرب اللهُ الأمثالَ ﴾ لإيضاح المشكلات المعنوية، بالمحسوسات المرئية.

﴿ للذين استجابوا لربهم ﴾ بالإيمان والطاعة، ﴿ الحسنى ﴾ أى: المثوبة الحسنى، أو الجنة. ﴿ والذين لم يستجيبوا له ﴾ من الكفرة ﴿ لو أنَّ لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به ﴾ من هول ذلك المطلع. أو: يضرب الأمثال للذين استجابوا الاستجابة الحسنى، وللذين لم يستجيبوا له. ثم بيَّن مثال غير المستجيبين بقوله: ﴿لو أن لهم...﴾ إلخ: ﴿ أولئك لهم سُوءُ الحساب ﴾؛ أقبحه وأشده، وهو أن يناقش فيه، بأن يحاسَب العبد على كل ذنب، ولا يغفر منه شىء، ﴿ ومأواهم ﴾: مرجعهم ﴿ جهنمُ وبئس المهادُ ﴾؛ الفراش والمستقر، والمخصوص محذوف، أى: هذا .

الإشارة: قد اشتملت الآية على ثلاثة أمثلة: مثال للعلم النافع، ومثال للعمل الخالص، وللحال الصافى. فمثَّل الحقُّ تعالى العلم النافع بالمطر النازل من السماء، فإنه تحيا به الأرض، وتجرى به الأودية والعيون والآبار، ويحبس فى الخلجان والقدور لنفع الناس، وتتطهر به الأرض من الخبث؛ لأنه ترمى به السيول فيذهب جفاء، كذلك العلم النافع تحيا به النفوس بعد الموت بالجهل والشك، وتحيا به الأرواح بعد موتها بالغفلة والحجاب، وتمتلئ به القلوب على قدر وسعها وسعتها، وعلى قدر ما قُسم لهم من علم اليقين، أو عين اليقين، أو حق اليقين، وتتطهر به النفوس من البدع وسائر المعاصى.

---

(١) لفظ الحديث كاملاً: «مثل مابعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير، أصابت أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادِب، أمسكت الماء فنفع الله الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دِينِ الله، ونفعه الله به، فعلِم وعلَّم. ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به». أخرجه البخارى فى (العلم، باب فى من علِم وعلَّم) ومسلم فى (الفضائل، باب بيان مابعث النبى به من الهدى والعلم) من حديث أبى موسى ﷺ.

(٢) من الآية ٤٠ من سورة يوسف.

ومثَّل العمل الخالص الذى تَصَفَّى من الرياء والعجب وسائر العلل، بالحديد المصفى من خبثه؛ لتصنع منه السيوف والآلات، أو النحاس المصفى لتصنع منه الأوانى، وغيرها مما ينفع به الناس.

ومثَّل الحال الصافى من العلل بالذهب المصفى، أو الفضة، إذا صفيت وذهب خبثها؛ ليصنع بهما الحلى والحلل؛ ليتزين بها أهلها، فأشار إلى المثال الأول - وهو العلم - بقوله: ﴿أنزل من السماء ماء﴾ إلخ. وأشار الى الحال بقوله: ﴿ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية﴾، وأشار إلى العمل بقوله: ﴿أو متاع زبد مثله﴾. وقدَّم الحال، لشرفه، ومثَّله بالذهب والفضة؛ لزيادة الرغبة فيه؛ لأنه ثمرة العمل، ومرجعه إلى الوجدان والأذواق، وهو عزيز لا يجده إلا المقربون.

والحاصل: أن المراتب أربعة: العلم، والعمل، والحال، والمقام. وإنما لم يضرب الحق تعالى مثلاً للمقام؛ لأن النزول فيه لا يكون إلا بعد التصفية، فليس فيه علة، يحتاج إلى التصفية منها. فمقامات اليقين كلها يجرى فيها العلم، والعمل، والحال، والمقام. فالتوبة مثلا: يتعلق العلم بمعرفة حقيقتها، وفضليتها، ثم يسعى فى العمل بالمجاهدة والرياضة حتى يذهب زبده وخبثه، حتى يذوق حلاوة الاستقامة مع بقية الخوف من السقوط، وهذا هو الحال، ثم تطمئن النفس، وترسخ التوبة النصوح، وهذا هو المقام. وكذلك الصبر، يتعلق به العلم أولاً ثم يسعى فى مرارة استعماله حتى يذوق حلاوة الشدة والفاقة ثم يرسخ فيه، وهكذا يجرى فى المقامات كلها.. وهى اثنا عشر مقاماً: التوبة، والخوف، والرجاء والورع، والزهد، والصبر، والشكر، والرضى، والتسليم، والمحبة، والمراقبة، والمشاهدة. وهى: بروج شمس المعرفة، وقمر التوحيد. وكذلك معرفة الشهود والعيان: يتعلق العلم أولاً بأسرار التوحيد، ثم يعمل فى خرق عوائد نفسه حتى تموت، فيشرق عليها أنوار التوحيد، غير أنها تظهر وتخفى، ثم يصير الشهود مقاماً، رسوخاً وتمكيناً.

وقد أشار فى الحكم إلى بعض هذا فقال: «حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال، وحسن الأحوال من التحقق بمقامات الإنزال». وكل واحد من الثلاثة يحتاج إلى تصفية حتى يذهب زبده وخبثه؛ فتصفية العلم بالإخلاص والتحقيق، فيذهب عنه قصد الرئاسة والجاه، أوالتوصل إلى الدنيا، ويذهب به الشكوك والأوهام؛ فهذا زبده. وتصفية العمل بالإخلاص فى أوله، والإتقان والحضور فى وسطه، والكتمان فى آخره، فيذهب عنه الرياء والعجب به، والتوصل به إلى حظ نفسانى. وتصفية الحال بصحة القصد وإفراد الوجهة، وإذا هاج عليه الوارد ملك نفسه وأمسكها، فيذهب به قصد الظهور، وطلب المراتب الدنيوية والكرامات الحسية، التى هى من حظ النفس وتشتيت القلب، إن لم يفرد وجهته لله، وانحلال عزمه وخمود نوره، إن لم يمسك نفسه عند هواجم الحال. فهذا زبد الحال الذى يذهب عنه بمجاهدة النفس، ويمكث فى أرض القلوب صفاء اليقين والمعرفة وخالص العمل فى مقام العبودية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر حال من عرف هذا العلم النازل، وحال من أنكره، فقال:

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾

قلت: ﴿أولئك..﴾ الخ: جملة خبر الموصولات، إن رفعت بالابتداء، وإن جُعلت صفاتٍ لأُولي الألباب: فاستئناف بذكر ما استوجبوا بتلك الصفات. و﴿جنات﴾: بدل من ﴿عُقبى الدار﴾. و﴿من صلَح﴾: عطف على الواو بفصل المفعول، و﴿سلام عليكم﴾: محكي بحال محذوفة، أي: قائلين سلام عليكم، وحذفُ الحال ـ إذا كان قولاً ـ كثيرٌ مطرد.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أفمن يعلم أنما أُنزِل إليك من ربك﴾ هو ﴿الحقُّ﴾ فيستجيب له، وينقاد له ﴿كمَنْ هو أعمى﴾ عمى القلب، لا يستجيب ولا يستبصر؟ أنكر الحق ـ جل جلاله ـ على من اشتبه عليه الحق من الباطل، بعدما ضرب المثل، فإن الأمور المعنوية، إذا ضرب لها الأمثال المحسوسة، صارت في غاية الوضوح لاتخفى إلاّ على الخفافشة، الذين انطمس نور قلوبهم بالكفر أو المعاصي. ولذلك قال: ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾؛ ذوو العقول الصافية والقلوب المنورة، التي تطهرت من كدر العوائد والشهوات، ولم تركن إلى المألوفات والمحسوسات.

ثم وصفهم بقوله: ﴿الذين يُوفون بعهد الله﴾؛ ما عقدوه على نفوسهم من معرفة عظمة الربوبية والقيام بوظائف العبودية، حين قالوا: ﴿بلى﴾[1]. ﴿ولا ينقُضُون الميثاق﴾؛ ما أوثقوه على نفوسهم، وتحملوه من المواثيق التي بينهم وبين الله، وبينهم وبين عباد الله. وهو تعميم بعد تخصيص؛ تأكيداً على الوفاء بالعهود. ﴿والذين يَصِلُونَ ما أمر الله به أن يُوصَلَ﴾ من الرحم، وموالاة المؤمنين، وحُضور مجالس الصالحين، والعلماء العاملين، والاقتداء بقولهم والاهتداء بهديهم. ﴿ويخْشون ربهم﴾: غضبه وعذابه، أو إبعاده وطرده، ﴿ويخافون سوءَ الحساب﴾: مناقشته، فيحاسبون أنفسهم قبل أن يُحاسبوا.

(١) في قوله تعالى: (وإذ أخذ ربك من بني آدم..) الآية ١٧٢ من سورة الأعراف.

﴿ والذين صَبرُوا ﴾ على مشاق الطاعة وترك المخالفة، أو على ما تكرهه النفوس، ويخالفه الهوى. فعلوا ذلك ﴿ ابتغاء وَجه ربهم ﴾؛ طلباً لرضاه، أو لرؤية وجهه وشهود ذاته، لا فخراً ورياء، وطلباً لحظ نفساني. ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ المفروضة، بحيث حافظوا على شروطها وأركانها، وحضور السر فيها، ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم ﴾ من الأموال فرضاً ونفلا، ﴿ سِراً وعلانيةً ﴾؛ إن تحقق الإخلاص، وإلا تعيَّن الإسرار. أو سراً لمن لا يعرف بالمال، وجهراً لمن يعرف به؛ لئلا يُتهم، أو ليُقتدى به. ﴿ ويدرءُونَ بالحسنة السيئةَ ﴾ أى: يدفعون الخصلةَ السيئة بالخصلةِ الحسنة، فيجازون الإساءة بالإحسان؛ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ﴾(١)، أو: يدفعون الشرك بقول: «لا إله إلا الله»، أو يفعلون الحسنات فيدرءون بها السيئات، كقوله: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾(٢). قيل: نزلت فى الأنصار. وهى عامة.

ثم ذكر جزاءهم، فقال: ﴿ أولئك لهم عُقْبَى الدارِ ﴾ أى: عاقبة دار الدنيا وما يؤول إليه أهلُها. وهى: الجنة التى فسَّرها بقوله: ﴿ جناتُ عَدنٍ ﴾ أى: إقامة، ﴿ يدخُلُونها ﴾ مخلدين فيها. والعدْن: الإقامة، وقيل: هى بطنان الجنة، أى: مداخلها لا ربضُها، فيدخلونها ﴿ ومن صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ أى: يلْحَقُ بهم مَنْ صلح من أهلهم، وإن لم يبلغ فى العمل مبلغهم، تبعاً لهم وتعظيماً لشأنهم، أو بشفاعتهم لهم. وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة، وأن الموصوفين بتلك الصفات يقرب بعضهم من بعض، لما بينهم من القرابة والوصلة فى دخول الجنة؛ زيادة فى أُنسهم، لكن يقع التفاوت فى الدرجات والنعيم والقرب، على قدر اجتهادهم فى التحقق بتلك الصفات، والدءوب عليها. والتقييد بالصلاح يدل على أن مجرد الانتساب لا ينفع من غير عمل.

﴿ والملائكةُ يدخلون عليهم من كل بابٍ ﴾ من أبواب المنازل، أو من أبواب الفتوح والتحف، قائلين: ﴿ سلامٌ عليكم ﴾؛ بشارة بدوام السلامة، هذا ﴿ بما صبرتم ﴾، أو سلامة لكم بسبب صبركم . ﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى الدار ﴾ التى سكنوها ورحلوا عنها دارهم هذه .

الإشارة : أفمن تَصفَّتْ مرآة قلبه من الأكدار والأغيار، حتى أبصرت أمطار العلوم والأسرار النازلة من سماء الملكوت على النبى المختار، فتضلع منها حتى امتلأ منها قلبه وسره، ونبع بأنهار العلوم لسانه وفكره، كمن هو أعمى القلب والبصيرة، فلم يرفع بذلك رأسا؟ إنما ينتفع بتلكِ العلوم أولوا القلوب الصافية التى ذهب خبثها، فصفت علومها وأعمالها وأحوالها من زبد المساوئ والعيوب، الذين دخلوا تحت تربية المشايخ، فأوفوا بعهودهم، وواصلوهم،

(١) من الآية ٩٦ من سورة المؤمنون.
(٢) من الآية ١١٤ من سورة هود.

وخافوا ربهم أن يبعدهم من حضرته، أو يناقشهم الحساب؛ فحاسبوا أنفسهم على الأنفاس والأوقات، وصبروا على دوام المجاهدات، حتى أفضوا إلى فضاء المشاهدات، وأقاموا صلاة القلوب ـ وهي العكوف في حضرة الغيوب ـ وأنفقوا مما رزقهم من سعة العلوم ومخازن الفهوم، ويقابلون الإساءة بالإحسان؛ لأنهم أهل مقام الإحسان. أولئك لهم عقبى الدار؛ وهي العكوف في حضرة الكريم الغفار، تدخل على أبواب قلوبهم المواهب والأسرار، تقول بلسان الحال: سلام عليكم بما صبرتم في مجاهدتكم، فنعم عقبى الدار.

ثم شفع بضدهم، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والذين ينقُضُون عهدَ الله... ﴾ الذي أخذه عليهم في عالم الذر، حيث قال: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾[1]، ثم كفروا به بعد بعث الرسل المنبهين عليه. أو ينقضون العهود فيما بينهم وبين عباد الله، إن أعطوا ذلك من أنفسهم، ﴿ ويقطعونَ ما أمر الله به أن يوصل ﴾ من الأرحام، أو ممن يدل على الله من الأنبياء، والعلماء الأتقياء؛ فإنّ الله أمر بوصلهم، ﴿ ويُفسدون في الأرض ﴾ بالظلم والمعاصي، وتهييج الفتن، ﴿ أولئك لهم اللعنةُ ﴾: البُعد والطرد من رحمة الله، ﴿ ولهم سُوءُ الدَّارِ ﴾: سوء عاقبة الدار، وهو العذاب والهوان، حيث اغتروا في الدنيا بسعة الأرزاق، وظنوا أن ذلك من علامة إقبال الحق.

ولم يدروا أن الله ﴿ يبسُطُ الرزقَ لمن يشاءُ ﴾، ولو كان من أهل الشقاء، ﴿ ويَقْدِرُ ﴾؛ يُضيقه على من يشاء، ولو كان من أهل السعادة والعناية، ﴿ وفرِحُوا بالحياة الدنيا ﴾ واطمأنوا بها ، وقنعوا بنعيمها الفاني، ﴿ وما الحياةُ الدنيا ﴾ في جنب الآخرة ﴿ إلا متاعٌ ﴾؛ إلا متعة لا تدوم، كعُجالَة الراكب وزاد الراعي. وفي الحديث عنه ﷺ: «مَالِي وللدُّنيا، إنَّما مَثَلِي ومَثَلُ الدُّنيا كَراكِبٍ سَافَرَ في يَوْمٍ صَائِفٍ، فاستَظَلَّ تَحتَ شَجَرَةٍ، ثم رَاحَ عنْها وتَرَكَهَا»[2]. والمعنى: أنهم أشروا بما نالوا من الدنيا، ولم يصرفوها فيما يستوجبون به نعيم الآخرة، واغتروا بما هو في جنبه نزر قليل النفع، سريع الزوال. قاله البيضاوي.

---

(١) من الآية ١٧٢ من سورة الأعراف.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٠١/١) والحاكم (٣٠٩/٤) وصححه ووافقه الذهبي من حديث ابن عباس رضي الله عنه، قال: دخل عمر على رسول الله ﷺ وهو على حصير، قد أثر في جنبه، فقال: يانبي الله لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا؟ فقال: مالي وللدنيا..» الحديث.

الإشارة: لا شيء أفسد على المريد من نقض عهود المشايخ، والرجوع عن صحبتهم؛ فإنه لمَّا دخل في حماهم انقبض عنه الشيطان والدنيا والهوى، وأسفوا عليه، فإذا رجع إليهم، واتصلوا به، فعلوا به مالم يفعلوا بغيره؛ كمن هرب من عدوه ثم اتصل به. وتنسحب عليه الآية من قوله: ﴿والذين ينقضون عهد الله﴾ إلى قوله: ﴿أولئك لهم اللعنة﴾؛ أي: البُعد عن الحضرة، (ولهم سوء الدار) وهو: غم الحجاب والبقاء من وراء الباب. فإذا رجعت إليه الدنيا يقال له: (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر)؛ فلا تغتر ولا تفرح بالعرض الفاني، فما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع قليل، ثم التحسر الوبيل.

ثم أجاب عمن طلب المعجزة ليؤمن، فقال:

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ويقولُ الذين كفروا﴾ من أهل مكة: ﴿لولا أُنزل عليه آيةٌ﴾ ظاهرة ﴿من ربه﴾ كما أنزلتْ على مَنْ قبله فنؤمن حينئذ؟ ﴿قل﴾ لهم: ﴿إنَّ الله يُضلُّ مَن يشاء﴾ بعد ظهور الآيات والمعجزات. وليس الإيمان والهداية بيد العبد في الحقيقة. ﴿ويهدي إليه من أناب﴾ أي: من أقْبل ورجع عن عناده من غير احتياج إلى معجزة. قال البيضاوي: وهو جواب يجري مجرى التعجب من قولهم، كأنه قال: قل لهم ما أعظم عنادكم! ﴿إن الله يُضِلُّ من يشاء﴾ ممن كان على صفتكم، فلا سبيل إلى اهتدائه، وإن نزلت كل آية، ويهدي إليه من أناب لما جئت به، بل بأدنى منه من الآيات. هـ.

الإشارة: تقدم مراراً أن من سبقت له من الله عناية الخصوصية، لم يتوقف على ظهور آية. ومن لم يسبق له شيء في الخصوصية لا ينفع فيه ألف آية. فالله تعالى يضل من يشاء عن دخول حضرته، ولو رأى من أولياء زمانه ما رأى، ويهدي إلى حضرته من أناب، ورجع بلا سبب. وبالله التوفيق.

ثم وصف أهل الإنابة، فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾

قلت: الموصول: بدل ممن أناب، أو خبر عن مضمر، أي: هم. والموصول الثاني بدل ثان، أو مبتدأ، وجملة ﴿طوبى﴾: خبر، وهي فُعْلى، من الطيب، كبشرى من البشارة، قلبت ياؤها واواً؛ لضم ما قبلها، ومعناها: أصبت خيراً وطيباً. وقيل: شجرة في الجنة. وسوغ الابتداء بها: ما فيها من معنى الدعاء.

يقول الحق جل جلاله، في وصف من سبقت له الهداية واتصف بالإنابة: هم ﴿ **الذين آمنوا** ﴾ بالله وبرسوله إيماناً تمكَّن من قلوبهم، واطمأنت إليه نفوسُهم؛ فإذا حركتهم الخواطر والهواجم، أو فتن الزمان وأهواله ﴿ **تطمئن قلوبُهم بذِكْرِ الله** ﴾، وترتاح بذكر الله؛ أُنساً به، واعتماداً عليه ورجاء منه، أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته، أوبذكر آلائه ودلائله الدالة على وجوده ووحدانيته، أو بكلامه القرآن، الذى هو أقوى المعجزات. قاله البيضاوى. وقال فى القوت: معنى تطمئن بذكر الله: تهش وتستأنس به. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى بعد كلام: والحاصل أن المراد من الطمأنينة: السكون إلى المذكور، والأُنس به، ووجود الرَّوْحِ والفرح والانشراح، والغنى به. هـ.

قال تعالى: ﴿ **ألا بذِكْرِ الله تطمئن القلوبُ** ﴾ لا بغيره، فلا تسكن إلا إليه، ولا تعتمد إلا عليه؛ فإن سكنت إلى غيره ذهب نورها، وعظم قلقها. ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات طُوبَى لهم** ﴾ أى: لهم عيش طيب وحياة طيبة. أو الجنة، أو شجرة فيها، ﴿ **وحُسنُ مآب** ﴾ أى: مرجع يرجعون إليه بعد الموت.

الإشارة: الطمأنينة على قسمين: طمأنينة إيمان، وطمأنينة شهود وعيان. قوم اطمأنوا إلى غائب موجود، وقوم إلى آخر مشهود. قوم اطمأنوا بوجود الله من طريق الإيمان على نعت الدليل والبرهان، وقوم اطمأنوا بشهود الله من طريق العيان على نعت الذوق والوجدان. وهذه ثمرة الإكثار من ذكر الله.

قال الشيخ الشاذلى رضي الله عنه: حقيقة الذكر: ما اطمأن بمعناه القلب، وتجلى فى حقائق سحاب أنوار سمائه الرب. هـ. وقال الورتجبى: إنْ كان الإيمان من حيث الاعتقاد، فطمأنينة القلب بالذكر، وإن كان من حيث المشاهدة فطمأنينة القلوب بالله وكشف وجوده. هـ. فطمأنينة الإيمان لأهل التفكر والاعتبار من عامة أهل اليمين. وطمأنينة العيان لأهل الشهود والاستبصار من خاصة المقربين. أهل الأولى يستدلون بالأشياء على الله، وأهل الثانية يستدلون بالله على الأشياء؛ فلا يرون إلا مظهر الأشياء. وشتان بين من يستدل به أو يستدل عليه؛ المستدل به عرف الحق لأهله، وأثبت الأمر من وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه. وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه! ومتى بَعُدَ حتى تكون الآثار هى التى توصل إليه؟!. كما فى الحِكَم.

وقال فى المناجاة: «إلهى كيف يُستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك؟!. أيكون لغيرك من الظهور ماليس لك، حتى يكون هو المظهر لك؟! متى غِبْتَ حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك؟!».

وقال الشيخ أبو الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «كيف يُعرف بالمعارف من به عُرفت المعارف؟! أم كيف يُعرف بشيء مَنْ سَبَقَ وجودُه كُلَّ شيء؟ أي: وظهر بكل شيء». وفي ذلك يقول الشاعر:

عَجِبْتُ لِمَنْ يَبْغِي علَيْكَ شَهَادَةً وأَنْتَ الَّذِي أَشْهَدْتَه كُلَّ شَـاهِدِ

وقال آخر:

لَقَدْ ظَهَرْتَ فَمَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ إِلاَّ عَلَى أَكْمَـهٍ لاَ يُبْصِرُ القَمَرَا

لَكِنْ بَطَنْتَ بِمَا أَظْهَرْتَ مُحْتَجِباً وَكَيْفَ يُبْصِرُ مَنْ بِالْعِزَّةِ اسْتَتَرَا

وأهل طمأنينة الإيمان على قسمين؛ باعتبار القرب والبُعد: فمنهم من يطمئن بوجود الحق على نعت القرب والأنس، وهم أهل المراقبة من الزهاد والصالحين، والعلماء العابدين المجتهدين، وهم متفاوتون فى القرب على قدر تفرغهم من الشواغل والعلائق، وعلى قدر التخلية والتحلية. ومنهم من يطمئن إليه على نعت البعد من قلبه، وهم أهل الشواغل والشواغب، والعلائق والعوائق. وعلامة القرب: وجود حلاوة المعاملة، كلذيذ المناجاة، والأنس به فى الخلوات، ووجود حلاوة القرآن والتدبر فى معانيه، حتى لا يشبع منه فى كل أوان. وعلامة البعد: فقد الحلاوة المذكورة، وعدم الأنس به فى الخلوة، وفقد حلاوة القرآن، ولو كان من أعظم علماء اللسان.

وأهل طمأنينة الشهود على قسمين أيضاً: فمنهم من تشرق عليه الأنوار، وتحيط به الأسرار، فيغرق فى الأنوار وتطمس عنه الآثار، فيسكر ويغيب عن الأثر فى شهود المؤثر، ويسمى عندهم هذا المقام: مقام الفناء. ومنهم من يصحو من سكرته، ويفيق من صعقته، فيشهد المؤثر، لا يحجبه جمعه عن فرقه، ولا فرقه عن جمعه، ولا يضره فناؤه عن بقائه، ولا بقاؤه عن فنائه، يعطى كل ذى حق حقه، ويوفى كل ذى قسط قسطه، وهومقام البقاء، ولايصح وجوده إلاَّ بعد وجود ما قبله، فلا بقاء إلا بعد الفناء، ولا صحو إلا بعد السكْر. ومن ترامى على هذا المقام ـ أعنى مقام البقاء ـ من غير تحقيق مقام السكر والفناء فهو لم يبرح عن مقام أهل الحجاب.

واعلمْ أن طمأنينة الإيمان تزيد وتنقص، وطمأنينة العيان، إن حصلت، تزيد ولا تنقص. فمواد أسباب زيادة طمأنينة الإيمان أشياء متعددة، فمنهم من تزيد طمأنينته بالتفكر والاعتبار، إمَّا فى عجائب المصنوعات وضروب المخلوقات، فيطمئن إلى صانعِ عظيم القدرة باهر الحكمة. وإما بالنظر فى معجزات الرسول ﷺ، وباهر علمه، وعجائب حكمه وأسراره، وإخباره بالأمور الغيبية السابقة والآتية، مع كونه نبياً أُميا. فإذا تحقق بمعرفة الرسول فقد

تحقق بمعرفة الله، واطمأن به؛ لأنه الواسطة العظمى، بين الله وبين عباده. ومنهم من تزيد طمأنينته بموالاة الطاعات وتكثير القربات، كالذكر وغيره. ومنهم من تزيد طمأنينته بزيارة الأولياء أحياء أو ميتين. ومادة الأحياء أكثر، ونور طمأنينتهم أبهر، لاسيما العارفين، وفى الأثر: تعلموا اليقين بمجالسة أهل اليقين.

وأما طمأنينة أهل الشهود: فزيادتها باعتبار زيادة الكشف وحلاوة الشهود، والترقى فى العلوم والأسرار، والاتساع فى المقامات إلى مالا نهاية له، فى هذه الدار الفانية وفى الدار الباقية، ففى كل نَفَس يُجدد لهم كشوفات وترقيات ومواهب وتُحف، على قدر توجههم وتحققهم. حققنا الله بمقامهم، وأتحفنا بما أتحفهم. آمين.

ولابد فى تحصيل طمأنينة الشهود من صُحبة شيخ عارف طبيبٍ ماهر، يقدح عين البصيرة حتى تنفتح؛ فما حجب الناس عن شهود الحق إلا طمسُ البصيرة، فإذا اتصل بشيخ عارفٍ كحل عين بصيرته أولاً بإثمد علم اليقين، فيدرك شعاع نور الحق قريباً منه، ثم يكحل عينه ثانياً بإثمد عين اليقين، فيدرك عدمه لوجود الحق، أى: يغيب عن حسه بشهود معناه القائم به. ثم يكحل عينه بإثمد حق اليقين؛ فيدرك وجود الحق - بلا واسطة قدرة وحكمة، معنى وحساً، لا يتحجب بأحدهما عن الآخر. وإلى هذا أشار فى الحِكَم بقوله: «شعاع البصيرة يُشهدك قرب الحق منك، وعين البصيرة يُشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة يُشهدك وجود الحق، لا عدمك ولا وجودك. كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما كان عليه».

وأهل طمأنينة الشهود هم خاصة ورثة الرسول - عليه الصلاة والسلام - الذى أشار إليه بقوله:

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾

قلت: ﴿كذلك﴾: مفعول مطلق بأرسلناك، أى: مثل ذلك الإرسال المتقدم أرسلناك. وقال ابن جزى: الكاف تتعلق بالمعنى الذى فى قوله: ﴿ يضل من يشاء ويهدى اليه من أناب ﴾ . هـ. أى: كما أن الإضلال والهداية بيده كذلك اختصاصك بالرسالة إلى أمة... إلخ، وجملة: ﴿وهم يكفرون﴾: حال من ضمير ﴿عليهم﴾ أى: لتتلو عليهم فى حال كفرهم لعلهم يؤمنون. و﴿متاب﴾: مفعل، من التوبة.

يقول الحق جل جلاله: قد أرسلنا قبلك رسلاً فأنذروا وبشروا قومهم، ﴿ **كذلك أرسلناك** ﴾ أى: مثل ذلك الإرسال أرسلناك فى أمة، أو كما هدينا من أناب إلينا اختصصناك برسالتنا، ﴿ **فى أُمة قد خلتْ** ﴾؛ مضت ﴿ **من قبلها** ﴾ أى: تقدمها ﴿ **أممٌ** ﴾ أرسل إليهم رسلهم؛ فليس ببدع إرسالك إلى هذه الأمة الأمية، ﴿ **لتتْلُوَا عليهم الذي أوحينا إليك** ﴾: لتقرأ عليهم الكتاب، الذى أوحينا إليك، والحالة أنهم ﴿ **يكفرون بالرحمن** ﴾ أى: بالبليغ

الرحمة الذى أحاطت بهم نعمته، ووسعت كل شيء رحمته، فلم يشكروا ما أنعم به عليهم، وخصوصًا إرسالك إليهم، وإنزال القرآن عليهم، الذى هو مناط المنافع الدينية والدنيوية. قيل: نزلت فى أبى جهل، وقيل: فى قريش حين قالوا: لا نعرف الرحمن، والمعنى: أرسلناك إليهم رحمة لتتلوَ عليهم ما هو مناط الرحمة، ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ ـ، والحال: أنهم يكفرون ببليغ الرحمة. ﴿ قل هو ربى ﴾ أى: الرحمن خالقى ومتولى أمرى، ﴿ لا إله إلا هو ﴾ ؛ لامستحق للعبادة غيره، ﴿ عليه توكلتُ ﴾ فى أمورى، ومن جملتها نصرى عليكم. ﴿ وإليه متَاب ﴾ ؛ مرجعى فى أمورى كلها،، لا أرجع إلى أحد غيره، ولا أتعلق بشيء سواه.

الإشارة: قد بعث الله فى كل عصر عارفًا بالله يحيى به الدين، ويعرف الطريق إلى رب العالمين؛ فالأرض لاتخلو ممن يقوم بالحجة، غير أنهم تارة يخفون؛ لفساد الزمان، وتارة يظهرون؛ رحمة للأنام. فإذا وقع الإنكار عليهم، أو استغرب وجودهم، يقال لهم: كذلك أرسلنا فى كل أمة نذيرًا، وداعيًا، فإرسالكم أنتم وإظهاركم ليس ببدع، لتعلموا الناس ما أوحى إليكم من طريق الإلهام؛ فإظهاركم رحمة، وهم يكفرون هذه النعمة. فاعتمدوا على الرحمن، وثقوا بالواحد المنان، وارجعوا إليه فى كل حال وشأن. فمن توكل عليه كفاه، ومن التجأ إليه حماه.

ثم رجع إلى تتميم الجواب عن قول الكفار: (لولا أُنزل عليه آية من ربه)، فقال:

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ ﴾

قلت: جواب ﴿لو﴾: محذوف، أى: لم يؤمنوا؛ لسابق الشقاء، أو: لكان هذا القرآن، وسيأتى بيانه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولو أن قرآناً ﴾ أنزل عليك، من صفته: ﴿ سُيِّرتْ به الجبالُ ﴾ أى: زعزعت عن مقارها، ﴿ أو قُطِّعَت به الأرضُ ﴾: تصدعت وتشققت من خشية الله عند قراءته، أو: تشققت فجعلت أنهارا وعيونا، ﴿ أو كُلِّمَ به الموتى ﴾ ؛ فتجيب من قبورها جهراً، لمَا آمنوا؛ لعنادهم وغلبة الحسد عليهم. فهذا كقوله تعالى: ﴿ ولَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾(١)،

(١) من الآية ١١١ من سورة الأنعام.

أو: ولو أن قرآناً بهذه الصفة: من تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وتكليم الموتى، لكان هذا القرآن؛ لأنه الغاية فى الإعجاز، والنهاية فى التذكير والإنذار، والأول أرجح؛ لمناسبة ما قبله وما بعده.

رُوى أن قريشاً قالوا: يامحمد، إنْ سَرَّك أن نتبعك فَسَيِّرْ بقرآنك الجبالَ عن مكة، حتى تتسع لنا فنتخذها بساتين وقطائع. أو سخر لنا به الريح لنركبها، فَنَتَّجِرَ بها إلى الشام. أو ابعث لنا قُصَيَّ بن كلاب فإنه كان شيخَ صِدْقٍ، أو غيره من آبائنا، فيكلمونا فيك، ويشهدوا لك بما تقول. فنزلت الآية.

﴿ بل لله الأمرُ جميعاً ﴾؛ ليس لى منه شىء، فهو القادر على الإتيان بما اقترحتموه من الآيات، إلا أن الإرادة لم تتعلق بذلك؛ لأنه علم أنه لا ينجع فيكم شىء من ذلك؛ لفرط عنادكم، فإذا رأيتموها قلتم: ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾(١). وبيَّن ذلك قولُه: ﴿ أفلم ييأسِ الذين آمنوا ﴾ من إيمانهم مع ما رأوا من أحوالهم، وفرط عنادهم، علماً منهم ﴿ أن لو يشاء الله لهدي الناس جميعاً ﴾، أو: ﴿ أفلم ييأس ﴾ أى: يعلم ﴿ الذين آمنوا ﴾ أن الهداية بيد الله، ومشيئته، فلو شاء لهدى الناس جميعا. وكون «ييأس» بمعنى «علم»: لغة هوازن؛ فقد علموا بما أعلمهم أن الله لايهدى من يضل. وقد قرأ على وابن عباس وجماعة: «أفلم يتبين الذين آمنوا» وهو يقوى تفسير ييأس بيعلم.

قال البيضاوى: وإنما استعمل اليأس بمعنى العلم، لأنه مسبب عن العلم، فإن الميئوس منه لا يكون إلا معلوماً. ولذلك علّقه بقوله: ﴿ أن لو يشاء اللهُ لهَدى الناس جميعاً ﴾؛ فإن معناه نفى هدى بعض الناس؛ لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم، وهو - على الأول - يتعلق بمحذوف تقديره: أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمانهم؛ علماً منهم أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا. أو: بآمنوا، على حذف الجار، أى: بأن الله... الخ. هـ.

﴿ ولا يزال الذين كفروا ﴾ من قريش والعرب، ﴿ تُصيبهُم بما صنعوا ﴾ من الكفر والمعاصى، ﴿ قارعةٌ ﴾: داهية تقرعهم؛ تقلقهم، وتصيبهم فى أنفسهم وأولادهم وأموالهم. أو غزوات المسلمين إليهم، إمّا أن تنزل بهم ﴿ أو تَحُلُ قريباً من دارهم ﴾ فيفزعون منها وتتطاير إليهم شررها. وقيل: نزلت فى كفار مكة، فإنهم لا يزالون مصابين بما صنعوا برسول الله ﷺ، كان لايزال يبعث السرايا، فتغير حواليهم وتختطف أموالهم. وعلى هذا يجوز أن يكون ضمير ﴿ تَحُل ﴾ خطابا للرسول ﷺ أى: تحل بجيشك قريباً من دارهم، ﴿ حتى يأتى وعد الله ﴾ بالموت أو بالبعث أو فتح مكة. ﴿ إنَّ الله لا يُخلف الميعاد ﴾؛ لامتناع الخلف فى وعده تعالى.

(١) كما جاء فى الآية ١٥ من سورة الحجر.

الإشارة: لو أن عارفًا بالله سيَّر الجبال عن أماكنها، وفجر الأرض عيوناً، وكلمه الموتى لما آمن بخصوصيته إلا من سبقت له عناية الخصوصية. فلو شاء الله لهدى الناس إلى معرفته جميعا. لكن الحكمة اقتضت وجود الخلاف، قال تعالى: ﴿ولايزالون مختلفين﴾(١)، فمن لم يهتد إلى معرفتهم لا يزال تطرقه قوارع الشكوك والأوهام، وخواطر السوء، أو تحل قريباً من قلبه، إن لم تتمكن فيه، حتى يأتي وعد الله بحضور موته، فقد يتداركه اللطف والرعاية، وقد يتسع الخرق عليه فيموت على الشك، والعياذ بالله. بخلاف من صَحِبَ أهل الطمأنينة واليقين، لا يموت إلا على اليقين؛ لأن همة الشيوخ قد حلّقتْ عليه، والعناية قد حفت به. والله ولي المتقين.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: (والله لا يكون الشيخ شيخًا حتى تكون يده مع الفقير أينما ذهب)، والمراد باليد: الهمة والحفظ. ووقت الموت أولى بالحضور، وقد شاهدنا ذلك من إخواننا ممن حضره الموت منهم، أخبر أنه يرى شيخه حاضراً معه. فلله الحمة والمنة.

ثم سلّى رسول الله ﷺ من إذاية قومه، فقال:

﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله، في تسلية رسوله ﷺ: **﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك﴾** فأوذوا وأهينوا، **﴿فأمْليتُ للذين كفروا﴾**: أمهلتهم في دعة ورغد عيش، مدة من الزمان، **﴿ثم أخذتهم﴾** بالهلاك والاستئصال، **﴿فكيف كان عقاب﴾**؟ أي: عقابي إياهم، وهو تهويل لما نزل بهم، وتخويف لغيرهم من المستهزئين بالرسول ﷺ والمقترحين عليه الآيات.

الإشارة: الاستهزاء بأهل الخصوصية في بدايتهم سُنة ماضية، ويتسلون بمن سلف من خصوص الأنبياء والأولياء. وماهدد به الكفار يهدد به أهل الإنكار. وبالله التوفيق.

ثم وبخهم على الشرك وأوعدهم عليه، فقال:

﴿ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٣٤﴾ ﴾

(١) من الآية ١١٨ من سورة هود.

قلت : ﴿أفمن﴾ مع صلته: مبتدأ ، والخبر محذوف، أى: أفمن هو رقيب على كل شىء أحق أن يعبد أم غيره. أو كمن ليس كذلك؟!.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ أَفَمَنْ هو قائمٌ على كل نَفْس ﴾ ؛ أى: حفيظ رقيب على عمل كل نفس ﴿ بما كسبتْ ﴾ من خير أو شر، لا يخفى عليه شىء من أعمالهم، ولا يفوت عنده شىء من جزائهم، أحق أن يُعبد أم غيره؟. أو كمن ليس كذلك ممن هو جماد لا يسمع، ولا يعقل!!. ﴿ وجعلوا لله شركاءَ ﴾ بعد هذا البيان التام، ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ سَمُّوهُم ﴾ أى: اذكروا أسماءهم، فلا تجدون إلا أسماء إناث؛ كاللات والعزى ومناة، أو أسماء أحجار وخشب؛ فبأى وجه تستحق أن تعبد، وتشرك مع الله فى ألوهيته؟.

﴿ أم تُنبئُونَه بما لا يعلمُ فى الأرضِ ﴾ ؛ بل أتخبرونه بما لا يعلم وجوده فى الأرض، وهذا تهكم بهم، كأنهم علموا استحقاق الأصنام العبادة، ولم يعلمها الحق تعالى، وهو محال. والمعنى: أن الله لا يعلم لنفسه شركاء وإذا لم يعلمهم فليسوا بشىء، فكيف تفترون الكذب فى عبادتهم؟ ﴿ أمْ ﴾ تسمونهم شركاء، ﴿ بظاهرٍ من القولِ ﴾، من غير حقيقةٍ واعتبار معنى، كتسمية الخبث مسكاً، والبول عطراً.

﴿ بل زُيِّن للذين كفروا مكرُهُم ﴾ أى: انخداعهم وغرورهم حتى توهموا الباطل حقًا، أو مكرهم بالإسلام وكيدهم لأهله، ﴿ وصدُّوا[1] عن السبيل ﴾ أى: وصدوا الناس عن طريق الحق، حيث منعوهم من الإسلام. ومن قرأ بضم الصاد مبنياً للمفعول فمعناه: صدَّهُم الشيطانُ عن طريق الحق وضلوا عنه. ﴿ ومن يُضلل اللهُ فما له من هادٍ ﴾ أى: من يخذله الله فليس له من يوفقه غيره. ﴿ لهم عذابٌ فى الحياة الدنيا ﴾ بالقتل والأسر، وسائر ما يصيبهم من المصائب، ﴿ ولعذابُ الآخرة أشقُّ ﴾ ؛ لشدته ودوامه، ﴿ ومالهم من الله ﴾ أى: من عذابه ﴿ من وَاقٍ ﴾ يقيهم ويعصمهم منه.

الإشارة : كل من تحقق أن الله قائم عليه استحيا منه أن يُسىء الأدب بين يديه، يقول الله تعالى فى بعض الأخبار: «إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم، فالخلل فى إيمانكم، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلِمَ جعلتمونى أهون الناظرين إليكم؟». وكل من وقف مع الأسباب واعتمد عليها، أو طمع فى الخلق وركن إليهم، فقد جعل لله شركاء، فيقال له: سمِّ هؤلاء تجدهم خلقاً عاجزين، لا قدرة لهم على شىء، ولا ينفعوك بشىء إلا ما قَسَم الله لك فى الأزل. بل زين لضعفاء اليقين مكرهم، حتى انخدعوا وافتتنوا برؤية الأسباب، أى: كفروا كفراً دون كفر؛ بأن شكّوا فى

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائى، بضم الصاد، على البناء للمفعول، وقرأ الباقون بالفتح على البناء للفاعل.. انظر الإتحاف (٢/١٦٢).

الرزق، والشكُّ في الرزق شكٌّ في الرزّاق، وصدوا عن طريق اليقين، والغنى برب العالمين، لهم عذاب في الحياة الدنيا بالذل والحرص والحرمان.

قال بعض العارفين: لو قيل للطمع: من أبوك؟ لقال: الشك في المقدور، ولو قيل له: ما حرفتك؟ لقال: الذل والهوان، ولو قيل له: ما غايتك؟ لقال: الحرمان. وفي الحِكَم: «ما بَسَقَتْ أغصانُ ذُلٍّ إلاَّ علَى بَذْرِ طَمَعٍ». وقال الشاعر:

العَبْـدُ حرٌّ ما قَنَـعْ والحرُّ عَبْدٌ مَا طَمَعْ

ولعذاب الآخرة أشق؛ حيث يسقط بضعف يقينه عن درجة المقربين على سبيل الدوام، وما لهم من الله من واق يقيهم من غم الحجاب، وعدم اللحوق بالأحباب الذين ترقوا إلى القرب من الحبيب. والله تعالى أعلم.

ثم وصف الجنة؛ تشويقاً وترغيباً في سلوك طريقها وهو الإيمان، فقال:

﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

قلت: ﴿مثل الجنة﴾: مبتدأ. قال سيبويه: الخبر محذوف، أي: فيما يتلى عليكم صفة الجنة. وقال الفراء: الخبر هو: ﴿تجرى...﴾ إلخ، وعلى قول سيبويه يكون ﴿تجرى﴾: حالاً من العائد المحذوف، أي: التي وُعدها المتقون حالَ كَوْنِهَا تجرى... إلخ. والمراد بالمثل هنا: الصفة، لا ضرب المثل. و ﴿ظِلُّها﴾: مبتدأ حُذِف خبِره، وظلها كذلك. والأُكُل بضم الهمزة: المأكول، ويجوز فيه ضم الكاف وإسكانها، وأما الأكل بالفتح فمصدر.

يقول الحق جل جلاله: صفة الجنة التي وُعدَها المتقون هي غرف وقصور ﴿تجري من تحتها الأنهارُ﴾ من ماء وخمر وعسل ولبن، ﴿أُكُلُهَا دائمٌ﴾؛ ما يؤكل من ثمارها وأنواع أطعمتها لا ينقطع، ﴿وظِلُّها﴾ دائم، لا ينُسخ بالشمس كظلال الدنيا، ﴿تلك﴾ الجنة الموصوفة بهذه الأوصاف هي ﴿عُقْبَى الذين اتقوا﴾ الشرك والمعاصي، هي مآلهم وعاقبة استقرارهم، ﴿وعُقْبَى الكافرين النار﴾ لا محيد عنها، هي مآلهم وإليها رجوعهم. وفي ترتيب العقبيين إطماع للمتقين، وإقناط للكافرين.

الإشارة: مثل جنة المعارف التي وعدها المتقون لكل ما يشغل عن الله هي حضرة مقدسة، يتنعم فيها أسرار العارفين، تجري من تحت قلوبهم أنهار العلوم والحكم، لذتها وقُوت الأرواح فيها دائم، وهي الفكرة في ميادين أنوار

التوحيد، وجولان الروح فى فضاء أسرار التفريد. وظل روحها وريحانها دائم، وهو: سكون القلب إلى الله، وفرح الروح بشهود الله. وإليه أشار ابن الفارض بقوله، رحمه الله، فى وصف خمرتها:

وإنْ خطَرَتْ يوماً على خاطِرامرئ   أقامتْ بهِ الأفراحُ وارْتَحلَ الْهَمّ

تلك عقبى الذين اتقوا السوى، وعقبى المنكرين لوجود أهل هذه الجنة نار القطيعة والبعد. أعاذنا الله من ذلك.

ثم ذكر حال الفريقين: أهل الفرح بالله، وأهل الإنكار على أحباء الله، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

قلت : ﴿حكْماً﴾: حال من ضمير ﴿أنزلناه﴾.

يقول الحق جل جلاله، فى حق من سبقت له السعادة: ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ ؛ كعبد الله بن سلام ومخيريق وأصحابهما، ومن أسلم من النصارى، وهم: ثمانون رجلا: أربعون بنجران، وثمانية باليمن، واثنان وثلاثون من الحبشة. أو: كل من آمن من أهل الكتاب، فإنهم كانوا ﴿ يفرحون ﴾ بما يوافق كتبهم. ثم ذكر ضدهم فقال : ﴿ ومن الأحزاب من يُنكرُ بعضه ﴾ أى: ومن كفرتهمْ الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة والشحناء؛ ككعب بن الأشرف وأصحابه من اليهود، والعاقب والسيد وأشياعهما من النصارى، ﴿ من يُنكر بعضه ﴾، وهو مايخالف شرائعهم التى نُسخت به، أو ما يوافق ما حرّفوا منها.

﴿ قل إنما أُمرتُ أن أعبدَ اللهَ ولا أُشركَ به ﴾ ، وهو جواب للمنكرين، أى: قل لهم: إنما أمرت فيما أنزل إلىّ أن أعبد الله وأوحده، وهو العمدة فى الأديان كلها، فلا سبيل لكم إلى إنكاره. وأما إنكاركم ما يخالف شرائعكم فليس ببدع مخالفة الشرائع والكتب الإلهية فى جزئيات الأحكام؛ لأنها تابعة للمصالح والعوائد، وتتجدد بتجددها . ﴿ إليه أدعو ﴾ لا إلى غيره، ﴿ وإليه مآب ﴾ أى: وإليه مرجعى بالبعث لا إلى غيره. وهذا هو القدْر المتفق عليه من الشرائع، وهو الأمر بعبادة الله وحده، والدعاء إليه، واعتقاد المآب إليه، وهو الرجوع بالبعث يوم القيامة؛ فلا يخالف ما قبله من الشرائع، فلا معنى للإنكار حينئذ.

﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ أى: ومثل هذا الإنزال المشتمل على أصول الدين المجمع عليها، ﴿ أنزلناه حُكْماً عربياً ﴾ أى: يحكم فى القضايا والوقائع، بما تقتضيه الحكمة، مترجماً بلسان العرب؛ ليسهل عليهم فهمه وحفظه. ﴿ ولئن اتبعتَ أهواءَهُم ﴾ التى يدعونك إليها؛ كتقرير دينهم، والصلاة إلى قبلتهم بعدما حُوِّلْتَ عنها، ﴿ بعد ما جاءكَ من العِلم ﴾ بنسخ ذلك، ﴿ مالك من اللهِ منْ وليّ ﴾ ينصرك، ﴿ ولاواق ﴾ يقيك عتابه. وهو حسم لأطماعهم، وتهييج للمؤمنين على الثبات فى دينهم. وبالله التوفيق.

الإشارة: الفرح بما أُنزل من عند الله هو مقدمات الفرح بالله، فإذا رفعت أكنة الغفلة عن القلب تلذذ بسماع الخطاب من وراء الباب، وذلك أمارة القرب. وهذا مقام أهل المراقبة من المحبين. فإذا جدَّ فى السير رُفعت عنه الحجب والأستار، وواجهته الأنوار والأسرار، فيكاشف بأسرار الذات وأنوار الصفات، فيتلذذ بشهود المتكلم، فيسمع حينئذ الكلام من المتكلم به بلا واسطة. وهذا مقام أهل الشهود من المحبين المقربين. (ومن الأحزاب)، وهم أهل الرئاسة والجاه، من ينكر وجود بعض هذه المقامات؛ تعصباً وحمية. أو ينسبها لنفسه غلطاً وجهلا، فيقول له من تحقق بهذا المقام: إنما أمرتُ أن أعبد الله ولا أشرك به، إليه أدعو وإليه مآب. ويغيب عنه بالاشتغال بالله، وبالدعاء إليه. فإن غفل واشتغل به، أو ركن إلى قوله، قيل له: ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم؛ مالك من الله من وليٍّ ولا واق.

ولما قالت اليهود ـ لعنهم الله ـ لو كان محمد رسولاً لما أُولع بالنساء، ردَّ الله عليهم بقوله:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد أرسلنا رُسُلاً من قَبلكَ ﴾ يامحمد، ﴿ وجعلنا لهم أزواجاً ﴾ كثيرة: كداود عليه السلام؛ كان له مائة امرأة، وابنه كان له ألف، على ما قيل، وغيرهما من الأنبياء والرسل. ﴿ و ﴾ جعلنا لهم منهن ﴿ ذُريةً ﴾، وأنت يامحمد منهم؛ فليس ببدع أن يكون الرسول بشراً، يتزوج النساء، ويحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر، إلا أنه لا يشغله ذلك عن أداء الرسالة، ونصيحة الأمة، وإظهار شريعة الدين، والقيام بحقوق رب العالمين. ولما أجابهم بشبهتهم قالوا: أظهر لنا معجزة كما كانت لهم، كالعصا وفلق البحر، وإحياء الموتى؟ فأنزل الله ﴿ وما كان لرسول ﴾؛ ما صح له ولم يكن فى وسعه ﴿ أن يأتى بآية ﴾ تُقترح عليه، ويظهرها ﴿ إلا بإذن الله ﴾ وإرادته؛ فإنه القادر على ذلك. ﴿ لكل أجل ﴾ من آجال بنى آدم وغيرهم، ﴿كتاب﴾ يُكتب فيه وقت موته، وانتقاله من الدنيا.

﴿ يمحو الله مايشاء ﴾ من ديوان الأحياء، فيكتب فى الأموات، ﴿ ويُثبتُ ﴾ من لا يموت. قيل: إن هذا الكتاب يُكتب ليلة القدر، أو ليلة النصف من شعبان، ويجمع بينهما بأن الكتابة تقع ليلة النصف، وإبرازه للملائكة ليلة القدر ، ﴿ وعنده أُمُّ الكتاب ﴾ أى: الأصل المنسوخ منه كتب الآجال، وهو اللوح المحفوظ، أو العلم القديم. وهذا التفسير يناسب اقتراح الآيات؛ لأنهم إذا أجيبوا بظهور الآية ولم يؤمنوا، عوجلوا بالهلاك، وذلك له كتاب محدود. قال الورتجبى: بيّن الحق ـ سبحانه ـ أن أوان إتيان الآية بأجل معلوم فى وقت معروف، بقوله: ﴿لكل أجل كتاب﴾ أى: لكل مقدور فى الأزل فى قضية مرادة وقت معلوم فى علم الله، لا يأتى إلا فى وقته هـ.

أو: ﴿ لكل أجل ﴾ أى: عصر وزمان ، ﴿ كتاب ﴾ فيه شريعة مخصوصة على ما يقتضيه استصلاحهم. ﴿ يمحو الله مايشاء ﴾: ينسخ ما يستصوب نسخه من الشرائع، ﴿ ويُثبت ﴾ ما تقتضى الحكمة عدم نسخه. ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ وهو: اللوح المحفوظ؛ فإنه جامع للكائنات. وهذا يترتب على قوله: ﴿ ومن الأحزاب من ينكر بعضه ﴾، وهو ما لا يوافق شريعتهم. قال سيدى عبد الرحمن الفاسى: ﴿ يمحو الله ما يشاء ﴾ مايستصوب نسخه، ﴿ ويُثبت ﴾ ما تقتضيه حكمته، فلا ينكر مخالفته للشرائع فى بعض الأحكام مع موافقته للحكم، وهو الأصول الثابتة فى أصول الشرائع، ولذا قال: ﴿ وعنده أُمُّ الكتاب ﴾ أى: لا يبدل. هـ. وقريب منه للبيضاوى.

وقيل: إن المحو والإثبات عام فى جميع الأشياء. قال ابن جزى: وهذا ترده القاعدة المتقررة بأن القضاء والقدر لا يتبدل، وعلم الله لا يتغير. هـ. **قلت** : أما القضاء المبرم وهو: علم الله القديم الذى استأثر الله به، فلا شك أنه لا يتبدل ولا يتغير، وأما القضاء الذى يبرز إلى علم الخلائق من الملائكة وغيرهم، فيقع فيه المحو والإثبات، وذلك أن الحق تعالى قد يُطلعهم على بعض الأقضية، وهى عنده متوقفة على أسباب وشروط، يخفيها عنهم بقهريته، ليظهر اختصاصه بالعلم الحقيقى، فإذا أراد الملائكة أن ينفذوا ذلك الأمر محاه الله تعالى، وأثبت ما عنده فى علم غيبه، وهو أمّ الكتاب، حتى قال بعضهم: إن اللوح الحفوظ له جهتان: جهة تلى عالَم الغيب، وفيه القضاء المبرم، وجهة تلى عالَم الشهادة، وفيه القضاء الذى يُرد ويُمْحى؛ لأنه قد تكتب فيه أمور، وهى متوقفة على شروط وأسباب فى علم الغيب، لم تظهر فى هذه الجهة التى تلى عالَم الشهادة، فيقع فيها المحو والإثبات، وبهذا يندفع إشكالات كقوله فى الحديث: «لا يَرُدُّ القَضَاءَ إلا الدُّعَاءُ، وصلة الرحم تزيد فى العُمُر»(١).

(١) أخرجه بنحوه الترمذى، فى (كتاب القدر، باب: ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء)، من حيث سلمان . وأخرج البخارى فى (الأدب باب، من بسط له فى الرزق) من حديث أبى هريرة قال ﷺ: «من سره أن يبسط له فى رزقه وأن ينسأ له فى أثره، فليصل رحمه» .

وقول ابن مسعود، وعمر ـ رضى الله عنهما ـ: اللهم إن كنت كتبتنا فى ديوان الشقاء فامحنا، واكتبنا فى ديوان السعادة، فإنك تمحو ماتشاء وتثبت. هـ. أى: إن كنت أظهرت شقاوتنا فامحها، وأظهر سعادتنا؛ فإنك تمحو ماتشاء. ..إلخ. وفى ابن عطية ما يشير إلى هذا، قال: وأصوب ما يفسر به أم الكتاب، أنه كتاب الأمور المجزومة التى سبق القضاء فيها بما هو كائن، وسبق ألا تبدل، ويبقى المحو والتثبيت فى الأمور التى سبق فى القضاء أن تبدل وتُمحى وتثبت. قال نحوه قتادة . هـ.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك...﴾ الآية، قد أثبت تعالى لأهل خصوصية النبوة والرسالة الأزواج والذرية، وكان ذلك كمالاً فى حقهم. وكذلك أهل خصوصية الولاية، تكون لهم أزواج وذرية، ولا يقدح فى مرتبتهم، بل يزيد فيها، وذلك بشرط أن يقع ذلك بعد التمكين، أو يكون فى صحبة شيخ عارف كامل عند أمره ونهيه، يكون فعل ذلك بإذنه، فإذا كان هذا الشرط فإن التزوج يزيد صاحبه تمكيناً من اليقين.

قال الورتجبى فى هذه الآية: أَعْلَمَ تَعالى، بهذه الآية، الجُهَّال أنه إذا شَرَّف وليًا أو صِدِّيقًا بولايته ومعرفته لم يَضُرّ بِه مباشرة أحكام البشرية من الأهل والولد، ولم يكن بسْط الدنيا له قدحاً فى ولايته . هـ.

وقال الغزالى فى الإحياء، فى الترغيب فى النكاح: قال تعالى فى وصف الرسل ومَدْحِهم: ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذُرية ﴾، فذكر ذلك فى معرض الامتنان وإظهار الفضل، ومَدح أولياءه بسؤال ذلك فى الدعاء، فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾(١) الآية، ويقال: إن الله تعالى لم يذكر فى كتابه من الأنبياء إلا المتأهلين. وقالوا: إن يحيى عليه السلام قد تزوج فلم يجامع. قيل: إنما فعل ذلك لنيل الفضل وإقامة السُّنة، وقيل: لغض البصر. وأما عيسى عليه السلام فإنه سينكح إذا نزل الأرض، ويولد له.

وأما الأخبار فقوله ﷺ : «النِّكَاحُ سُنَّتِي، فَمَنْ أَحَبَّ فِطْرَتِي فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِي». وقال أيضا ﷺ : «تَنَاكَحُوا تَكَاثَرُوا؛ فإنِّي أُبَاهِي بِكُم الأمم يَوْمَ القِيَامَة، حتَّى السِّقْطِ». وقال أيضا: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي، وإنَّ مِنْ سُنَّتِي النِّكَاحَ، فَمَنْ أَحَبَّنِي فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِي». وقال ﷺ: «مَنْ تَرَكَ التَّزَوُّجَ مَخَافَةَ العَيْلَة فَلَيْسَ مِنَّا». وقال ﷺ: «مَنْ نَكَحَ لله وأَنْكَحَ لله اسْتَحَقَّ ولايَةَ الله».

(١) من الآية ٧٤ من سورة الفرقان.

ثم قال[١]: وقال ابن عباس لابنه: لا يتم نسك الناسك حتى يتزوج. وكان ابن مسعود يقول: لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج، لا ألقى الله عَزَباً. وكان معاذ رضي الله عنه مطعوناً وهو يقول: زوجونى، لا ألقى الله عزباً. وكان ماتت له زوجتان بالطاعون. وكان عُمَرُ يكثر النكاح، ويقول: لا أتزوج إلا للولد. وكان لعليّ رضي الله عنه أربع نسوة، وسبع عشرة سرية، وهو أزهد الصحابة. فدل أن تزوج النساء لا يدل على الرغبة فى الدنيا.

قال سفيان: كثرة النساء ليس من الدنيا. واستدل بقضية عليّ رضي الله عنه قال: وكان أزهد الصحابة. ورُوى أن بشر الحافى رُئِىَ فى المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: رفعت إلى منازلى فى الجنة فأشرفت على مقامات الأنبياء، ولم أبلغ منازل المتأهلين. وفى رواية: قال لى: ما كنت أحب أن تلقانى عَزَباً، قال الرائى: فقلت له: ما فعل أبو نصير التمار؟ قال: رُفع فوقى بسبعين درجة؛ بصبره على بُنياته وعياله. وقد قيل: فضل المتأهل على العزب كفضل المجاهد على القاعد، وركعةٌ مِنْ متأهل أفضل من سبعين ركعة من عزب. هـ. كلام الغزالى باختصار.

وقوله تعالى: ﴿يمحو الله ما يشاء ويُثبت﴾، من جملة ما يقع فيه المحو والإثبات الواردات الإلهية التى ترد على القلوب من تجليات الغيوب؛ فإن القلب إذا تطهر من الأكدار، وصفا من الأغيار، كان كل ما يتجلى فيه من الغيوب فهو حق، إلا أنه ينسخ بعضها بعضًا؛ فقد يخبر الولى بأمر يكون، أو لا يكون على حسب ما تجلى فى قلبه، ثم يمحو الله ذلك، ويثبت فى قلبه خلافه. أو يظهر فى الوجود خلاف ما أخبر، وليس بكذب فى حقه، ولكن الحق تعالى يُظهر لخلقه أموراً من مقدوراته، متوقفًا وجودُها على أسبابٍ وشروطٍ أخفاها الحق تعالى عن خلقه، ليظهر عجزهم عن إحاطة علمه. فالنسخ إنما يقع فى فعله لا فى أصل علمه.

قال الأستاذ القشيرى: المشيئة لا تتعلق إلا بالحدوث، والمحو والإثبات لا يكون إلا من أوصاف الحدوث، فصفات ذات الحق ـ سبحانه ـ؛ من كلامه وعلمه، لا يدخل تحت المحو والإثبات، إنما يكون المحو والإثبات من صفات فعله. هـ. وقال سهل رضي الله عنه: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ الأسباب، ﴿وعنده أُمُّ الكتاب﴾؛ القضاء المبرم. هـ.

وقال شيخ شيوخنا، سيدى عبد الرحمن الفاسى: ﴿وعنده أم الكتاب﴾: العلم الأول الثابت الذى لا يطرأ عليه تغيير ولا تبديل، ولا يقبل النسخ والتحريف. ومطالعته: بالفناء عن الحقيقة الخَلْقِية، والبقاء بالأنوار الصمدانية، والأنفاس الرحمانية. قال فى القوت: والمحبة من أشرف المقامات، ليس فوقها إلا مقام الخُلة، وهو مقام فى المعرفة الخاصة، وهى: تخلل أسرار الغيب، فيطلع على مشاهدة المحبوب، بأن يعطى إحاطة بشىء من علمه بمشيئته، على مشيئته

(١) أى: الإمام الغزالى، رحمه الله تعالى.

التى لا تتقلب، وعلمه القديم الذى لا يتغير. وفى هذا المقام: الإشراف على بحار الغيوب، وسرائر ما كان فى القديم، وعواقب ما يدب. ومنه: مكاشفة العبد بحاله، وإشهاده من المحبة مقامه، والإشراف على مقامات العباد فى المآل، والاطلاع عليهم فى تقلبهم فى الأبد؛ حالا ومآلا . هـ.

قلت: هذا الاطلاع إنما هو إجمالي لا تفصيلي، وقد يقع فيه المحو والإثبات؛ لأنه من جملة المعلومات التى دخلت عالم التكوين، التى يقع فيها التبديل والتغيير.

ثم قال صاحب القوت: وقد قال أحسن القائلين : ﴿ **ولا يُحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء** ﴾[1]، والاستثناء واقع على إعطاء الإحاطة بشيء من شهادة علمه، بنورٍ ثاقبٍ من وصفه، وشعاع لائحٍ من سبحانه، إذا شاء، وذلك إذا أخرجت النفس من الروح، فكان روحانياً، خُروجَ الليلِ من النهار. هـ.

ثم تمّم الجواب عن اقتراحهم الآيات، فقال:

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾

قلت : ﴿وإما﴾: شرطية، اتصلت ما الزائدة بأن الشرطية؛ للتأكيد، والجواب: ﴿فإنما...﴾ إلخ، أو: فلا تحتفل فإنما... الخ، و﴿لا معقب﴾ : فى موضع الحال، أى: يحكم نافذاً حكمه، كقوله: جاء زيد لا سلاح معه، أى: حاسراً. و﴿من عنده﴾: عطف على ﴿بالله﴾.

يقول الحق جل جلاله لنبيه ﷺ؛ تسكيناً له: ﴿ **وإما نُرِيَنَّكَ بعضَ الذى نَعِدُهم** ﴾ من العذاب الذى استعجلوه، ﴿ **أو نَتوفَّينك** ﴾ قبل أن ترى ذلك، فلا تحتفل بشأنهم، ﴿ **فإنما عليك البلاغُ** ﴾ للرسالة لا غير، ﴿ **وعلينا الحسابُ** ﴾ : المجازاة. والمعنى: كيفما دار الحال دُرْ معه، أريناك بعض ما أوعدناهم فى حياتك، أو توفيناك قبله، فلا تهتم بإعراضهم، ولا تستعجل بعذابهم؛ فإنا فاعلون ذلك لا محالة، وهذا طلائعه، فقد فتحنا عليك كثيراً من بلادهم ونقصناها عليهم.

---

(١) من الآية: ٢٥٥ من سورة البقرة.

﴿ أوَ لم يروا أنا نأتي الأرضَ ﴾ أى: أرض الكفرة، ﴿ ننقُصُها من أطرافها ﴾ بما نفتحه على المسلمين منها، فيخافوا أن نُمَكّنك من أرضهم، وتنزل بساحتهم، منصوراً عليهم، فإذا نزلتَ بساحتهم، ولم يخضعوا لك، فساء صباح المنذرين. وقيل: الأرض جنس، ونقصها بموت الناس، وهلاك الثمرات، وخراب البلاد، وشبه ذلك. وذلك مقدمات العذاب الذى حَكَمَ به عليهم، ﴿ والله يحكُمُ لا مُعقبَ لحُكْمِه ﴾: لا راد له. والمعقب: الذى يعقب الشيء بالإبطال، ومنه قيل لصاحب الدَّيْن: معقب؛ لأنه يعقب غريمه للاقتضاء، والمعنى: أنه حكم للإسلام بالإقبال، وعلى الكفرة بالإدبار، وذلك كائن لا يمكن تغييره. ﴿ وهو سريعُ الحساب ﴾ فيحاسبهم عما قليل فى الآخرة، بعدما عذّبهم بالقتل والإجلاء فى الدنيا.

﴿ وقد مَكرَ الذين من قَبلهم ﴾ بأنبيائهم، وبمن تبعهم، ﴿ فلله المكر جميعاً ﴾، إذ لا يُؤبه بمكرٍ دون مكره، فإنه القادر على ما هو المقصود منه دون غيره. سمّى العقوبة باسم الذنب؛ للمشاكلة، ﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾ فينفذ جزاءها. ﴿ وسيعلم الكافر ﴾[1] أى: جنس الكافر، بدليل قراءة: «الكفار»، ﴿ لِمَنْ ﴾ هى ﴿ عُقْبى الدار ﴾ أى: لمن تكون العاقبة فى الدارين، دار الفناء ودار البقاء، هل لأهل الإسلام المعد لهم دار السلام؟ أو للكفار المعد لهم دار البوار؟ قال البيضاوى: وهذا كالتفسير لمكر الله بهم، واللام تدل على أن المراد بالعُقبى العاقبة المحمودة، مع ما فى الإضافة إلى الدار كما عرفت . هـ.

﴿ ويقول الذين كفروا ﴾ من رؤساء اليهود: ﴿ لستَ مرسلاً ﴾، ولم نجد لك ذكراً فى كتابنا، ولا ما يشهد لك عندنا. قال تعالى: ﴿ قل ﴾ لهم: ﴿ كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ﴾؛ فإنه أظهرَ من الأدلة على رسالتى مايغنى عن شاهد يشهد عليها منكم، ولا من غيركم. ﴿ و ﴾ يشهد لى أيضا: ﴿ مَنْ عنده علمُ الكتاب ﴾ الأول؛ العلم الحقيقى، كعبد الله بن سلام، ومن أسلم من اليهود والنصارى الذين علموا صفته ﷺ من التوراة والإنجيل، وعلماء المؤمنين الذين عندهم علم القرآن، وما احتوى عليه من النظم المعجز، والعلوم الغيبية الدالة على نبوته ﷺ. أو علم اللوح المحفوظ، وهو الله، أى: كفى بالله الذى لا يستحق العبادة غيره، وبمن لا يعلم ما فى اللوح المحفوظ إلا هو، شهيدا بيننا. ويؤيده قراءة من قرأ: «ومِنْ عِنْدِه»؛ بكسر الميم. وعلم الكتاب، على الأول: مرفوع بالظرف؛ فإنه معتمد على الموصول. ويجوز أن يكون مبتدأ، والظرف خبره. وهو متعين على الثانى. قاله البيضاوى.

الإشارة: قد قال تعالى فى الحديث القدسى: «مَنْ آذَى لِى وَلِيًا فَقَدْ آذَنَ بالْحَرْب». وجرت عادة الله تعالى أن ينتقم لأوليائه، ويغار عليهم، ولو بعد حين، فإذا أُوذى أحدهم، واستعجل ذلك يقول له الحق تعالى ما قال لنبيه ﷺ: ﴿فإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك﴾ قبل ذلك، فليس الأمر بيدك، فإنما عليك بلاغ ما جاء به

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى «الكفار» جمع تكسير. وقرأ الباقون. (الكافر) على الإفراد... انظر الإتحاف (٢/١٦٣).

نبيك؛ من نصح العباد، وإرشادهم إلى معالم دينهم، وتصفية بواطنهم، وعلينا الحساب؛ فنُجازى مَنْ أَقْبَلَ ومَنْ أَدْبَرَ. ومن جملة الانتقام: حَبْسُ الأمطار، ونقص الثمار، وتخريب البلاد، وكثرة موت العباد، فتنقص الأرض من أطرافها. أفلم يعتبروا بذلك، ويقصروا عن مكرهم بأولياء الله؟.

وقد مكر الذين من قبلهم بأولياء زمانهم، فلم يغنوا شيئًا، فمَكَرَ الله بهم، وخذلهم عن طاعته، وسيعلم أهل الإنكار لِمن تكون عاقبة الدار. ويقول الذين كفروا بخصوصية وليّ من أولياء الله: لست ولياً . فيقول لهم: كفى بالله شهيداً بينى وبينكم، ومن عنده علم الخصوصية، وهم: السادات الصوفية، فلا يعرف الولىَّ إلا ولىٌّ مثلُه، ولا يعرف أهلَ الخصوصية إلا مَنْ له الخصوصية. وبالله التوفيق. وهو الهادى إلى سواء الطريق.

❁ ❁ ❁





مكية. وهى إحدى وخمسون آية. ومناسبتها لما قبلها: قوله: ﴿قل كفى بالله شهيدا﴾[1]، مع قوله: ﴿كتاب أنزلناه﴾؛ فإنه تصريح بالشهادة له. أو: ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾، على تفسيره بالقرآن، مع قوله: ﴿كتاب أنزلناه إليك﴾.

﴿بسم الله الرحمن الرحيم الر ...﴾

الألف: آلاؤه، واللام: لطفه، والراء: رحمته. فكأنه يقول: بآلائنا ولطفنا ورحمتنا أنزلنا إليك كتابنا، ولذلك رتَّب عليه قوله:

﴿... كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾

قلت: (كتاب): خبر، أى: هذا كتاب، و (بإذن): متعلق بتخرج، أو حال من فاعله، أو مفعوله. و(إلى صراط): بدل من (النور). (الله الذى)؛ من رفعه فعلى الابتداء، والموصول خبره، أو خبر عن محذوف، ومن خفضه فبدل من (العزيز)، و(الذين يستحبون): صفة للكافرين أو نصب، أو رفع على الذم.

يقول الحق جل جلاله: أيها الرسول المحبوب، هذا ﴿كتابٌ أنزلناه إليك لتُخرج الناس﴾ بدعائك إياهم إلى العمل به، ﴿من الظلمات إلى النورِ﴾؛ من ظلمات الضلال والجهل إلى نور الهداية والعلم، ﴿بإذنِ ربهم﴾؛ بتوفيقه وهدايته وتسهيله، ﴿إلى صراط العزيزِ الحميد﴾ أى: لتخرجهم إلى نور العلم الذى هو سلوك طريق العزيز الحميد، التى توصل إلى رضوانه ومعرفته. وفى ذكر الوصفين إشارة إلى أنه لا يذل سالكه، ولا يخيب سائله، بل تحمد عاقبته.

ثم ذكر الموصوف بهما بقوله: ﴿اللهِ الذى له ما فى السموات وما فى الأرض﴾ أى: الموصوف بالعزة والحمد هو الله الذى استقر له ما فى السموات وما فى الأرض ملكاً وعبيداً. ثم ذكر وعيد من كفر بكتابه أو به،

---

(١) من الآية ٤٣ سورة الرعد.

فقال: ﴿ وويلٌ للكافرين ﴾ بكتابه، ولم يخرجوا به من ظلمات كفرهم، ﴿ من عذابٍ شديد ﴾، والويل: كلمة عذاب تقال لمن استحق الهلاك، أي: هلاك لهم من أجل عذاب شديد يلحقهم. وقيل: واد في جهنم.

ثم ذكر وجه استحقاقهم العذاب بقوله: ﴿ الذين يستحبون الحياةَ الدنيا ﴾؛ يختارونها ﴿ على الآخرةِ ﴾، فإنّ من أحب شيئاً اختاره وطلبه، ﴿ ويصُدُّون ﴾ الناس ﴿ عن سبيل الله ﴾؛ بتعويقهم عن الإيمان، ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ أي: ويبغون لها زيغاً، ونُكُوباً عن الحق، ليتوصلوا للقدح فيها، فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير، ﴿ أولئك في ضلال بعيد ﴾ أي: في تلف بعيد عن الحق، بحيث ضلوا عن الحق، وبعدوا عنه بمراحل. والبُعد في الحقيقة: للضال، ووُصف به فعله؛ للمبالغة.

الإشارة: قد أخرج ﷺ أمته من ظلمات عديدة إلى أنوار متعددة، أولها: ظلمة الكفر والشرك إلى نور الإيمان والإسلام، ثم من ظلمة الجهل والتقليد إلى نور العلم والتحقيق، ثم من ظلمة الذنوب والمعاصي إلى نور التوبة والاستقامة، ثم من ظلمة الغفلة والبطالة إلى نور اليقظة والمجاهدة، ثم من ظلمة الحظوظ والشهوات إلى نور الزهد والعفة، ثم من ظلمة رؤية الأسباب، والوقوف مع العوائد، إلى نور شهود المسبب، وخرق العوائد، ثم من ظلمة الوقوف مع الكرامات وحلاوة الطاعات إلى نور شهود المعبود، ثم من ظلمة الوقوف مع حس الأكوان الظاهرة إلى شهود أسرار المعاني الباطنة، فيغيب عن الأكوان بشهود المكون. وهذا آخر ظلمة تبقى في النفس، فتصير حينئذ روحاً، وسراً من أسرار الله، ويصير صاحبها روحانياً ربانياً عارفاً بالله، ولا يبقى حينئذ إلا الترقي في شهود الأسرار أبداً سرمداً. وهذا محل القطبانية والتهيؤ للتربية النبوية، ويصير ولياً محمدياً، يُخرج الناس من هذه الظلمات إلى هذه الأنوار.

وأما من لم يبلغ هذا المقام، فإنما له الإخراج من أحد هذه الأشياء؛ فالغزاة والمجاهدون يُخرجون من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، والعلماء يُخرجون من ظلمة الجهل إلى نور العلم، والعُباد والزهاد يُخْرِجون مَنْ صَحِبَهم من الذنوب إلى التوبة والاستقامة. وأما ما بقي من الظلمات فلا يُخْرِج منها إلا الربانيون الروحانيون، أهل التربية النبوية، بإذن ربهم، يدلهم على صراط العزيز الحميد، الموصل إلى العز المديد. وويل لمن أنكر هؤلاء، واشتغل بمتابعة حظوظه وهواه، واستحبَّ حياة دنياه على أخراه، أولئك في ضلال عن حضرة الحق بعيد. وبالله التوفيق.

ولمّا كان الإخراج من هذه الظلمات لا يكون إلا بالمقال والحال، بعث الله الرسلَ، وورثتهم من الأولياء الداعين إلى الله بلسان قومهم، كما قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما أرسلنا من رسولٍ﴾ قبلك ﴿إلا بلسانِ قومه﴾، وأنت بعثناك بلسان قومك. وإنما قال: بلسان قومه، ولم يقل بلسان أمته؛ لأن الأمة قد تكون أوسع من قومه، كما في حق نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد بُعث إلى العرب والعجم، والجن والإنس، فقومه الذين يفهمون عنه: يُتَرْجِمُونَ إلى من لا يفهم، فتقوم الحجة عليهم. وكذلك إعجاز القرآن يُدركه أهل الفصاحة والبلاغة، فإذا وقع العجز عن معارضته منهم قامت الحجة على غيرهم، كما قامت الحجة فى معجزة موسى عليه السلام بعجز السحرة، وفي معجزة عيسى بعجز الأطباء.

ثم بيَّن الحكمة، فى كون الداعي لا يكون إلا بلسان قومه، بقوله: ﴿ليُبيِّن لهم﴾ ما أُمروا به؛ فيفهمونه عنه بسرعة، ثم ينقلونه ويترجمونه لغيرهم، فتقوم الحجة عليهم و لذلك أُمِرَ النبى ﷺ بإنذار عشيرته أولاً، فإذا فهموا عنه بلَّغوا إلى غيرهم. قال البيضاوى: ولو نزل على من بعث إلى أمم مختلفة كتب على ألسنتهم استقل ذلك بنوع من الإعجاز، لكن أدى إلى اختلاف الكلمة وإضاعة فضل الاجتهاد فى تعلم الألفاظ ومعانيها، والعلوم المتشعبة منها، وما فى إتعاب القرائح وكد النفس من القرب المقتضية لجزيل الثواب. هـ.

فالرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ إنما عليهم البيان بلسانهم، والهداية بيد ربهم، ولذلك قال تعالى: ﴿فيُضِلُّ اللهُ من يشاءُ﴾ إضلاله، فيخذله عن الإيمان، ﴿ويهدي من يشاء﴾ بالتوفيق له، ﴿وهو العزيزُ﴾ الغالب على أمره، فلا يُغلَب على مشيئته، ﴿الحكيم﴾ فى صنعه، فلا يضل ولا يهدى إلا لحكمة أرادها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما بعث الله وليّاً داعياً إلا بلسان قومه، وقد يخرق له العادة، فيطلعه على جميع اللغات، كما قال المرسى رضي الله عنه: من بلغ هذا المقام لا يخفى عليه شيء. وذلك من باب الكرامة؛ كما كان ﷺ يخاطب كل قوم بلغتهم؛ معجزة له ﷺ؛ فقد اتسع علمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأحاط بحقائق الأشياء وأسمائها ومفهوماتها، وأصول اللغة وفروعها، فعلم ما علمه سيدنا آدم عليه السلام، أو أكثر، وإلى ذلك أشار القطب ابن مشيش فى تصليته المشهورة بقوله: «وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق». وقال البوصيرى فى همزيته:

لَكَ ذَاتُ العُلومِ مِنْ عالِمِ الغيْـ ... ـبِ وَمِنْهَا لآدَمَ الأَسْمَاءُ

ولمَّا كان علاج موسى عليه السلام فى إخراج أمته من الظلمات إلى النور، قريبًا من علاج نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذكره بإثره، كما فعل فى سورة طه، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾

قلت: (أنْ أخرج): إما تفسيرية لا محل لها، أي: وقلنا: أن أخرج؛ لأن في الإرسال معنى القول، أو على إسقاط الخافض، أي: بأن أخرج؛ فإنّ صيغ الأفعال سواء في الدلالة على المصدر، فيصح أن توصل بها «أن» الناصبة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾؛ كاليد والعصا، وسائر معجزاته التسع، وقلنا له: ﴿ أنْ أخرج قومَك ﴾؛ بني إسرائيل، وفرعون وملأه؛ ﴿ من الظلمات إلى النور ﴾؛ من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، أما فرعون وملؤه فظاهر، وأما بنو إسرائيل فقد كان فرعون فتَنَ جلّهم، وأضلهم مع القبط، فكانوا أشياعاً متفرقين، لم يبق لهم دين. فإن قلتَ: إذا كان موسى عليه السلام مبعوثاً إلى القبط، فلِمَ لَمْ يرجع إليهم بعد خروجه عنهم إلى الشام؟ فالجواب: أنه لما بلّغهم الرسالة قامت الحجة عليهم، فيجب عليهم أن يهاجروا إليه للدين.

ثم أمره بالتذكير فقال: ﴿ وذكّرْهُم بأيامِ الله ﴾: بوقائعه التي وقعت على الأمم الدارجة قبلهم، وأيام العرب: حروبها. أو ذكّرهم بنعَم الله وآلائه، وبنقمه وبلائه؛ فالأيام تطلق على المعنيَيْن. ﴿ إنَّ في ذلك لآياتٍ لكل صبارٍ ﴾ في بلائه، ﴿ شكور ﴾ لنعمائه. وإنما خصه؛ لأنه إذا سمع ما نزل على مَن قبله من البلاء، وأُفيض عليهم من النعماء، اعتبر وتنبه لما يجب عليه من الصبر والشكر. وقيل: المراد لكل مؤمن، وإنما عبَّر عنهم بذلك؛ تنبيهاً على أن الصبر والشكر عنوان الإيمان. قاله البيضاوي.

﴿ وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمةَ الله عليكم إذْ أنجاكم ﴾: حين أنجاكم ﴿ من آلِ فرعونَ ﴾: رهطه، ﴿ يسومونكم ﴾: يولونكم ﴿ سُوءَ العذابِ ﴾: أقبحه، يستعبدونكم ويُكلفونكم مشاق الأعمال، ﴿ ويُذبّحون

أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾، قال البيضاوى: المراد بالعذاب هنا غير المراد به فى سورتَىْ البقرة والأعراف؛ لأنه هناك مفسر بالتذبيح والقتل، ومعطوف عليه هنا، فهو هنا إما جنس العذاب، أو استعبادهم واستعمالهم بالأعمال الشاقة. هـ. ﴿وفي ذلكم﴾ الامتحان ﴿بلاء﴾ أى: ابتلاء ﴿من ربكم عظيم﴾ ؛ اختبركم به حتى أنقذكم منه، ليعظم شكركم، أو: فى ذلك الإنجاء بلاء، أى: نعمة واختبار عظيم، لينظر كيف تعملون فى شكر هذه النعمة.

ولذلك قال لهم موسى عليه السلام: ﴿وإذْ تأذَّنَ ربكُمْ﴾ أى: آذن، بمعنى أعلمَ، كتوعَّد وأوعد، غير أنَّ تأذن أبلغ من آذن؛ لما فى تفعّل من التكلف والمبالغة، أى: أعلمكم، وقال: والله ﴿لئن شكرتم﴾ يابنى إسرائيل ما أنعمتُ به عليكم من الإنجاء وغيره، بالإيمان والعمل الصالح، وبالإقرار باللسان، وإفراد النعمة للمنعم بالجنَان، ﴿لأزيدنَّكُم﴾ نعمة على نعمة. وهذا الخطاب، وإن كان لبنى إسرائيل، يعم جميع الخلق، والزيادة إما من خير الدنيا، أو ثواب الآخرة. وشكر الخواص يكون على السراء والضراء؛ فتكون الزيادة فى الضراء، إما فى الثواب أو فى التقريب. ثم ذكر ضده فقال: ﴿ولئن كفرتم﴾ ما أنعمتُ به عليكم، وقابلتموه بالكفر والعصيان، ﴿إنَّ عذابى لشديد﴾؛ فأعذبكم به على كفركم. قال البيضاوى: ومن عادة أكرم الأكرمين أن يصرح بالوعد ويُعرض بالوعيد. هـ. فصرح بوصول الزيادة إليهم، ولم يقل: أعذبكم عذاباً شديداً، بل عظم عذابه فى الجملة.

﴿وقال موسى﴾، فى شأن من لم يشكر: ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً﴾ من الثقلين، ﴿فإنَّ الله لغنىٌّ﴾ عن شكركم، ﴿حميد﴾: محمود على ألسنة خلقه، من الملائكة وغيرهم. فكل ذرة من المخلوقات ناطقة بحمده؛ حالاً أو مقالاً، فهو غنى أيضا عن حمدكم، فما ضررتم بالكفر إلا أنفسكم؛ حيث حرمتموها مزيد الإنعام، وعرضتموها لشديد الانتقام. وبالله التوفيق.

الإشارة: ذكر الحق تعالى فى هذه الآية مقامين من مقامات اليقين: الصبر والشكر، ومدح من تخلق بهما واستعملهما فى محلهما، فيركب أيهما توجه إليه منهما، ويسير بهما إلى ربه. فالصبر عنوان الظفر، وأجره لاينحصر، والشكر ضامن للزيادة، قال بعض العارفين: (لم يضمن الحق تعالى الزيادة فى مقام من المقامات إلا الشكر)، فدل أنه أفضل المقامات وأحسن الطاعات، من حيث إنه متضمن للفرح بالله، وموجب لمحبة الله. ولا شك أن مقام الشكر أعلى من مقام الصبر؛ لأن الشاكر يرى المنن فى طى المحن، فيتلقى المهالك بوجه ضاحك؛ لأنه لا يكون شاكراً حقيقة حتى يشكر فى السراء والضراء، ولا يشكر فى الضراء حتى يراها سراء، باعتبار ما يُواجَه به فى حال الضراء من الفتوحات القلبية، والمواهب اللدنية، فتنقلب النقمة نعمة. بخلاف مقام الصبر، صاحبه يتجرع مرارة الصبر؛ لأنه لم يترق إلى شهود المبلى فى حال بلائه، ولو ترقى إلى شهوده للَذّتْ لديه البلايا، كما قال صاحب العينية:

تَلَـذُّ لِيَ الآلامُ؛ إذْ كُنتَ مُسْـقِمِي　　وإنْ تَختبرْنِي فَهْي عِنْدى صنَائِعُ

لكن هذه الأحوال تختلف على العبد باعتبار القوة والضعف؛ فتارة تجده قوياً يتلقى المهالك بوجه ضاحك، وتارة تصادفه الأقدار ضعيفًا؛ فلا يبقى معه إلا الصبر وتجرع مرارة البلاء، والعياذ بالله. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه في كتاب القصد: «رأيت كأني مع النبيين والصديقين، فأردت الكون معهم، ثم قلت: اللهم اسلك بي سبيلهم مع العافية مما ابتليتهم، فإنهم أقوى ونحن أضعف منهم، فقيل لي: قل: وما قدّرت من شيء فأيّدنا كما أيدتهم».

ثم ذكّرهم بمن سلف قبلهم، فقال:

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ... ﴾

قلت: (شك): فاعل بالمجرور، و(فاطر): نعت له.

يقول الحق جل جلاله، حاكياً عن نبيه موسى عليه السلام في تذكير قومه، أو من كلامه؛ تذكيراً لهذه الأمة: ﴿ألم يأتكم نبأُ الذين من قبلكم﴾: ما جرى عليهم حين عصوا أنبياءهم؛ ﴿قومِ نوح وعادٍ وثمود والذين من بعدهم﴾ كقوم شعيب، وأمم كثيرة ﴿لا يعلمهم إلا اللهُ﴾؛ لكثرة عددهم، واندراس آثارهم. ولذلك قال ابن مسعود: كذب النسّابون. ﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾؛ بالمعجزات الواضحات، ﴿فردُّوا أيديَهُم في أفواههم﴾؛ ليعضوا عليها؛ غيظاً مما جاءت به الرسل، كقوله: ﴿عضوا عليكُم الأناملَ منْ الغيظ﴾[1]. أو: وضعوها عليها؛ تعجباً منهم، أو: استهزاءً بهم، كمن غلب عليه الضحك. أو إسكاتًا للأنبياء، وأمراً لهم بإطباق الأفواه، أو: ردوها في أفواه الأنبياء، يمنعونهم من التكلم، أو: ردوا أياديهم، أي: نعَم الأنبياء عليهم، وهي: مواعظهم والشرائع التي أتوهم بها من عند الله، ردوها في أفواه الأنبياء حيث كذبوها، ولم يعملوا بها، كما تقول لمن لم يمتثل أمرك: ترك كلامي في فمي وذهب. ﴿وقالوا إنا كفرنا بما أُرْسِلتُمْ به﴾ على زعمكم، ﴿وإنا لفي شكٍّ مما

(١) من الآية ١١٩ من سورة آل عمران.

تدعوننا إليه﴾ من التوحيد والإيمان، ﴿مُريب﴾: مُوقع في الريبة، أو: ذي ريبة، وهو: قلق النفس بحيث لاتطمئن إلى شيء.

فأجابتهم الرسل عن دعواهم الشك في الربوبية، ﴿قالت رُسُلُهم أفي الله شكٌ﴾: أفي وجوده شك، أو في ألوهيته، أو في وحدانيته شك؟ قال البيضاوي: أُدخلت همزة الإنكار على الظرف؛ لأن الكلام في المشكوك فيه، لا في الشك، أي: إنما ندعوكم إلى الله، وهو لا يحتمل الشك؛ لكثرة الأدلة، وظهور دلالتها عليه. هـ. وأشار إلى ذلك بقوله: ﴿فاطرِ السموات والأرض﴾ أي: خالقهما ومبدعهما على هذا الشكل الغريب، والإتقان العجيب؛ إذ لا يصدر إلا من إله عظيم القدرة، باهر الحكمة، واحد في ملكه؛ ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾(١)، وهو ﴿يدعوكم﴾ إلى الإيمان والتوحيد، ببعثه إيانا، والتصديق بنا، ﴿ليغفرَ لكم من ذُنُوبكم﴾ إن آمنتم، أي: يغفر لكم بعض ذنوبكم، وهو ما تقدم قبل الإسلام، ويبقى ما يُذنب بعده في المشيئة، أو: ما بينكم وبينه دون المظالم.

والجمهور: أنه يغفر للكافر ما سلف مطلقاً، وقيل: «من»: زائدة، على غير مذهب سيبويه. قال البيضاوي: وجيئ بمن، في خطاب الكفرة، دون المؤمنين في جميع القرآن؛ تفرقةً بين الخطابين، ولعل المعنى فيه أن المغفرة، حيث جاءت في خطاب الكفار، مرتبة على الإيمان، وحيث جاءت في خطاب المؤمنين مشفوعة بالطاعة، والتجنب عن المعاصي، ونحو ذلك؛ فيتناول الخروج عن المظالم. هـ. ﴿ويؤخِّرَكم إلى أجلٍ مسمىً﴾: إلى وقت سماه الله، وجعله آخر أعماركم. وقال الزمخشري تبعاً للمعتزلة: يؤخركم إن آمنتم إلى آجالكم، وإن لم تؤمنوا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت، وهذا على قولهم بالأجلين. وأهل السنة يأبون هذا؛ فإن الأجل عندهم واحد محتوم، والله تعالى أعلم.

الإشارة: التفكر والاعتبار أفضل عبادة الأبرار، وفي الحديث: «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة». فيتفكر العبد فيما سلف قبله من القرون الماضية والأمم الخالية، كيف رحلوا عن ديارهم المشيدة، وفروشهم الممهدة، واستبدلوها بضيق القبور، وافتراش التراب تحت الجُنوب، وجاءهم الموت وهم غافلون، وتجرعوا كأسها وهم كارهون، فلا ما كانوا أمّلوا أدركوا، ولا إلى مافاتهم رجعوا، قدِموا على ما قدّموا، وندموا على ما خلفوا، ولم ينفع الندم وقد جف القلم. فيوجب هذا التفكرُ الانحياش إلى الله، والمسارعة إلى طاعة الله، والزهد في هده الدار الفانية، والتأهب للسفر إلى الدار الباقية؛ فيفوز فوزاً عظيما. وفي تكذيب الصادقين تسلية للعارفين، وللمتوجهين من المريدين، إذا قُوبلوا بالإيذاء والتكذيب، وبالله التوفيق.

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء.

ثم ذكر ما أجاب به الكفارُ رسلَهم، فقال:

﴿ ... قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: وقال الذين كفروا لرسلهم: ﴿ إنْ أنتم إلا بشرٌ مثلُنا ﴾ لا فضل لكم علينا، فلِمَ تختصون بالنبوة دوننا، ولو شاء الله أن يبعث رسلا إلى البشر لأرسلهم من جنس أفضل، كالملائكة، أو: ما أنتم إلا بشر، والبشر لا يكون رسولاً. قال ابن جزى: يحتمل أن يكونَ استبعاداً لتفضيل بعض البشر على بعضٍ بالنبوة، أو يكون إحالة لنبوة البشر، والأول أظهر؛ لطلبهم البرهان بقولهم: ﴿ فأتونا بسلطانٍ مبينٍ ﴾، ولقول الرسل: ﴿ ولكن الله يَمُنُّ على من يشاءُ من عباده ﴾ . هـ. ثم قالوا للرسل: ﴿ تُريدون أن تَصدُّونا عما كان يعبدُ آباؤُنا ﴾ من الأصنام بهذه الدعوى، ﴿ فأتونا بسلطانٍ مبين ﴾: ببرهان بيِّن يدل على فضلكم، واستحقاقكم لهذه المرتبة التى هى مرتبة النبوة. كأنهم لم يعتبروا ما جاءوا به من البينات والحجج، فاقترحوا عليهم آية أخرى؛ تعنتاً ولجاجاً.

﴿ قالت لهم رُسلُهم إن نحن ﴾: ما نحن ﴿ إلا بشر مثلُكم ولكن الله يَمُنُّ على من يشاءُ من عباده ﴾ بالنبوة والرسالة، فمَنَّ علينا بذلك، وإن كنا بشراً مثلكم، سلّموا لهم مشاركتهم فى الجنس، وجعلوا الموجب لاختصاصهم بالنبوة فضل الله ومنَّه عليهم. وفيه دليل على أن النبوة مواهب عطائية لا كسبية. ثم أجابوهم عما اقترحوا بقولهم: ﴿ وما كان لنا أن نأتيكم بسلطانٍ إلا بإذنِ الله ﴾، فليس لنا الإتيان بآيات، ولا فى قدرتنا أن نأتيكم بما اقترحتموه، وإنما هو أمر متعلق بمشيئة الله، يخص من يشاء بها، على ما تقتضيه حكمته وسابق إرادته.

﴿ وعلى الله فليتوكَّلِ المؤمنون ﴾، فلنتوكل نحن عليه، فى الصبر على معاناتكم ومعاداتكم. عمموا الأمر بذكر المؤمنين؛ للإشعار بأن الإيمان موجب للتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصداً أوليا، ألا ترى قولهم: ﴿ ومالنا ألا نتوكل على الله ﴾ أى: أىُّ عذر لنا فى ترك التوكل على الله؟ ﴿ وقد هَدَانَا سُبلَنا ﴾ أى: طرقنا التى نعرفه بها، فنوحده، ونعلم أن الأمور كلها بيده، ﴿ ولنصْبِرَنَّ على ماآذيتمونا ﴾: على أذاكم حتى يحكم الله بيننا، وهو جواب عن قسم محذوف، أكدوا به توكلهم، وعدم مبالاتهم بما يجرى من الكفار عليهم. ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ أى: فليثبت المتوكلون على ما استحدثوه من توكلهم، المسبب عن إيمانهم. قاله البيضاوى تبعاً للزمخشرى.

قال ابن جزى: إن قيل: لِمَ كرر الأمر بالتوكل؟ فالجواب عندى: أن قوله: ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ راجع إلى ما تقدم من طلب الكفار: ﴿ فأتونا بسلطان مبين ﴾ أى: حجة ظاهرة، فتوكل الرسل فى ورود ذلك إلى الله. وأما قوله: ﴿ فليتوكل المتوكلون ﴾ فهو راجع إلى قولهم : (ولنصْبِرنَّ على ما آذيتمونا) أى: نتوكل على الله فى دفع أذاكم. هـ. وهو حسن، لكن التعبير بالمتوكلين يقتضى أن التوكل حاصل، والمطلوب الدوام عليه، وقد يقال: إنما عبَّر ثانياً بفظ المتوكلين؛ كراهية إعادة اللفظ بعينه، أى: من كان متوكلاً على الله فإنه الحقيق بذلك. وقال فى القوت: أى: ليتوكل عليه فى كل شىء مَنْ توكل عليه فى شىء. وهذا أحسن وجوهه. قال فى الحاشية: والوجه الآخر: وعليه فلْيتوكل، فى توكله مَنْ تَوَكَّلَ عليه فى الأشياء؛ لأن الوكيل فى كل شىء واحد، فينبغى أن يكون التوكل فى كل شىء واحد. هـ.

الإشارة: سر الخصوصية مستور بأوصاف البشرية، ولا فرق بين خصوصية النبوة، والولاية. سترها الحق تعالى غيرةً عليها أن يعرفها من لا يعرف قدرها؛ فلا يطلع عليها إلا من سبقت له من الله العناية، وهبت عليه ريح الهداية. وفى الحِكَم: «سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية، وظهر بعظمة الربوبية فى إظهار العبودية». وقال أيضاً: «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه». قال فى لطائف المنن: فأولياء الله أهل كهف الإيواء، فقليل من يعرفهم، ولقد سمعت شيخنا أبا العباس المرسى رضي الله عنه يقول: معرفة الولى أصعب من معرفة الله؛ فإن الله معروف بكماله وجماله، وحتى متى تعرف مخلوقاً مثلك، يأكل كما تأكل، ويشرب كما تشرب؟ قال فيه: وإذا أراد الله أن يعرفك بولى من أوليائه طوى عنك وجود بشريته، وأشهدك وجود خصوصيته. هـ.

قلت: ومعنى: «طوى عنك وجود بشريته»، هو: عدم الوقوف مع أوصافها اللازمة للنقائص، بل تنفذ منها إلى شهود خصوصيته، التى هى محل الكمالات. فأوصاف البشرية الذاتية للبشر لا تزول عن الولى، ولا عن النبى كالأكل والشرب، والنوم والنكاح، والضعف والفقر، وغير ذلك من نعوت البشر؛ لأنها فى حقهم رداء وصوان لستر خصوصيتهم؛ صيانةً لها أن تتبدل بالإظهار، وينادى عليها بلسان الاشتهار، ولذلك اختفوا عن كثير من الخلق. وإلى هذا أشار فى الحِكَم بقوله: «لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم البشرية».

وقال صاحب كتاب (أنوار القلوب): لله سبحانه عباد ضنَّ بهم عن العامة، وأظهرهم للخاصة، فلا يعرفهم إلا شكل، أو محب لهم، ولله عباد ضنَّ بهم عن الخاصة والعامة، ولله عباد يُظهرهم فى البداية ويسترهم فى النهاية، ولله عباد يسترهم فى البداية ويُظهرهم فى النهاية، ولله عباد لا يظهر حقيقة ما بينه وبينهم إلى الحفظة فمن سواهم، حتى يلقوه بما أودعهم منه فى قلوبهم، وهم شهداء الملكوت الأعلى، والصفْح[1] الأيمن مِنَ العرش؛ الذين

(١) الصفح: الجنب.

يتولى الله قبض أرواحهم بيده، فتطيب أجسادهم به، فلا يعدوا عليها الثرى، حتى يُبعثوا بها مشرقةً بنور البقاء الأبد مع الباقي الأحد عز وجل.هـ .

وقال أبويزيد رضي الله عنه : أولياء الله تعالى عرائس، ولا يرى العرائس إلا من كان مَحرماً لهم، وأما غيرهم فلا. وهم مخبُأون عنده في حجاب الأنس، لا يراهم أحد في الدنيا ولا في الآخرة. هـ. وجميع ما أجاب به الأنبياءُ قومَهم يجيب به الأولياءُ من أنكر عليهم، من قوله: (إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا)، من التعلق بالأسباب والانهماك في الحظوظ، ومتابعة الهوى، وحب الدنيا، ومن قولهم: (فأتونا بسلطان مبين) إلى تمام ما أجابوا به. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر تخويف الكفار للرسل بإخراجهم من الديار، فقال:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾

قلت : (وا ستفتحوا) : معطوف على (أوحى)؛ إن كان الضمير للرسل، واستئناف إن كان للكفار. و(يسقى) : معطوف على محذوف، أي: يلقي فيها ويسقى، و(صديد) : عطف بيان لماء، و(يتجرعه) : صفة لماء، أو حال من ضمير (يسقى).

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وقال الذين كفروا لرُسُلهم ﴾ ؛ تخويفاً لهم : والله ﴿ لنُخرجنّكم من أرضنا أو لتعودُنَّ في مِلَّتنا ﴾ ، حلفوا ليكونن أحد الأمرين؛ إما إخراج الرسل من ديارهم، أو عودهم إلى ملتهم، والعود هنا بمعنى الصيرورة؛ لأنهم لم يكونوا على ملتهم، كما تقدم في قصة شعيب عليه السلام. ويجوز أن يكون الخطاب لكل رسول، ولمن آمن معه، فغلّب الجماعة على الواحد، وقال الذين كفروا في كل عصر لكل رسول أتاهم: لنخرجنك، أو لتعودَن في ملتنا. ﴿ فأوحى إليهم ربُهم ﴾ أي: إلى رسلهم، مجتمعين أو مفترقين - على القولين - وقال في إيحائه : والله ﴿ لَنُهلكنَّ الظالمين ﴾ فتخلى بلادهم، ﴿ ولَنُسكِننَّكُم الأرضَ من بَعدِهم ﴾ أي: أرضهم وديارهم،

لقوله: ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها ﴾(١). ﴿ ذلك ﴾ الميراث والإسكان ﴿ لمن خاف مقامي ﴾ أي: قيامه للحساب بين يدى فى القيامة، أو قيامى على عبادى، وحفظى لأعمالهم، واطلاعى على سرهم وعلانيتهم. أو خاف عظمة ذاتى وجلالى، ﴿ وخاف وعيدِ ﴾ أي: وعيدى بالعذاب، أو عذابى الموعود للكفار.

﴿ واستفتحوا ﴾ أي: استفتح الرسل: طلبوا من الله الفتح على أعدائهم، أو القضاء بينهم وبين أعاديهم، كقوله: ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾(٢)، واستفتح الكفرة واستنصروا على غلبة الرسل، على نحو قول أبى جهل فى غزوة بدر: اللهم، أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا يعرف، فأحنه الغداة، أى: أهلكه. أو: استفتح الفريقان معًا، فكل واحد منهما سأل الله أن يُهلك المبطل وينصر المحق. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن: بكسر التاء؛ على الأمر للرسل بطلب الفتح. ﴿ وخاب ﴾: خسر ﴿ كلُّ جبارٍ ﴾: متكبر على الله، ﴿ عنيدٍ ﴾: معاند للحق ولمن جاء به. وهذا هو الفتح الذى فتح لهم، وهو: خيبة المتكبرين وفلاح المؤمنين.

ثم ذكر مآل خيبتهم بقوله: ﴿ من ورائه جهنمُ ﴾ أي: أمامه وبين يديه، فإنه مرْصد بها، واقف على شفيرها فى الدنيا، مبعوث إليها بعد الموت فيلقى فيها، ﴿ ويُسقى من ماءٍ صديد ﴾، وهو مايسيل من جلود الكفار من القيح والدم. ﴿ يتجرَّعه ﴾: يتكلف جرعه، أي: زهوقه فى حلقه. رُوى: «أن الكافر يؤتى بالشربة منه فيتكرهها، فإذا أُدنيت منه شوت وجهه، وسقطت فيها فروة رأسه، فإذا شربها قطعت أمعاءه»(٣). فيتجرعه ﴿ ولا يكاد يُسيغُه ﴾ أى: لا يقارب أن يُسيغه، أي: يبتلعه بصعوبة فكيف يُسيغه، بل يكلف به ويطول عذابه ثم يبتلعه؛ لأن نفى «كاد» يقتضى الوقوع. والسوغ: جواز الشراب على الحلق بسهولة، وهذا بخلافه. ﴿ ويأتيه الموتُ ﴾ أي: أسباب الموت ﴿ من كل مكانٍ ﴾؛ من أجل الشدائد التى تُحيط به من جميع الجهات. أو: من كل مكان من جسده حتى من أصول شعره وإبهام رجليه. ﴿ وما هو بميت ﴾ فيستريح، ﴿ ومن ورائه ﴾: من بين يديه ﴿ عذابٌ غليظ ﴾ أى: يستقبل فى كل وقت عذاباً أشد مما هو عليه، وقيل: هو الخلود فى النار، وقيل: حبس الأنفاس فى الأجساد. قاله الفضيل بن عياض. وقيل: قوله: ﴿ واستفتحوا ﴾: كلام منقطع عن قصة الرسل، بل نزل فى أهل مكة حين استفتحوا بطلب المطر فى السنة التى أخذتهم بدعوة الرسول ﷺ، فخيب الله رجاءهم ولم يسقهم، وأوعدهم أن يسقيهم - بَدَلاً من سقياهم المطر- صديدَ أهل النار. قال معناه البيضاوى.

---

(١) من الآية ١٣٧ من سورة الأعراف. (٢) من الآية ٨٩ من سورة الأعراف.
(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٥/٢٦٥) والترمذى فى (أبواب صفة جهنم، باب ما جاء فى صفة شراب أهل النار) والحاكم فى المستدرك (٢/٣٥١) وصححه ووافقه الذهبى، عن أبى أمامة مرفوعاً.

الإشارة: ما خوَّفت الكفارُ به رسلَهم خوفت به العوامُ فقراءَهم وأولياءهم، قال التجيبى، فى الإنالة، لما تكلم على خفاء الأولياء، قال: ومعلوم أن العصمة لم تثبت إلا للنبيين والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأنّ غيرهم يصيب ويخطئ، ويذنب ويتوب، لكن لما سُطرت مناقب الرجال، وكراماتهم، ولم تذكر سيئاتهم، وطال العهد بهم، ظن أكثر الخلق أن ليس لهم سيئات، وقد كان لهم فى أزمانهم المُحب والمُبغض، والمسلِّم والمنتقد. ثم قال: فمن يرضى يقول أحسن ما يعلم، ومن يسخط يقول أقبح ما يعلم، وقد رأى أولئك فى أزمانهم من الأذى والتنقص، وإساءة الظن بهم ما كان يقصر عنه صبر غيرهم، وقد أُخرِجَ أبو يزيد البسطامى من بسطام مراراً، ورُفِع الشبلى والخواص والنورى للسلطان، وتستر الجنيد بالفقه حين ضُيِّقَ على الفقراء، وقُبض على الحلاج ، وضُرب، ومُثِّل به، على أنه ساحر زنديق . هـ. المراد منه.

قلت: وقد وقع بنا في مدينة تِطوان أيام التجريد أمثال هذا، فقد خُوفنا بالضرب مراراً، وسُجِنا وأُخرجنا من زاويتنا، وقال لنا محتسبُهُم: والله لنخرجنكم من مدينتنا، ونركبكم فى سفينةٍ إلى بر النصارى، فقلت له: حباً وكرامة، ولعلنا نُذكرهم الله حتى يسلموا، ولما وصل الخبر بهذه المقالة إلى شيخنا، كتب لنا بهذه الآية: ﴿وقال الذين كفروا لرسلهم.... ﴾ الخ. وكل آية فى الكفار تجر ذيلها على من تشبه بهم، وإن كان مُسلماً. وبالله التوفيق.

ثم ضرب مثلاً لعمل الكفار، فقال:

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾

قلت: (مثل): مبتدأ، والخبر محذوف عند سيبويه، أى: فيما يتلى عليكم مثلهم. وقال الفراء: الخبر ما بعده، وهو جملة: (أعمالهم كرماد)، أو (أعمالهم): بدل، والخبر: (كرماد)، وعلى قول سيبويه تكون جملة: (أعمالهم): مستأنفة لبيان مثلهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿مَثَلُ﴾ أعمال ﴿الذين كفروا بربهم﴾؛ فى عدم الانتفاع بها وذهابها: ﴿كرمادٍ اشتدت به الريحُ﴾ فى الهوى بسرعة ﴿فى يومٍ عاصفٍ﴾: شديد ريحه. والعصْف: اشتداد الريح. وصف به زمانه؛ للمبالغة، كقولهم: نهاره صائم، وليله قائم. شبه صنائعهم؛ من الصدقة، وصلة الرحم، وإغاثة الملهوف، وعتق الرقاب، ونحو ذلك من مكارمهم؛ فى حبوطها ـ لبنائها على غير أساس من الإيمان بالله، والتوجه بها إليه ـ بغبار طارت به الريح العاصفة ﴿في يوم عاصفٍ، لا يقْدرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مما كسبوا﴾ من أعمالهم ﴿على شيءٍ﴾ من الانتفاع بها؛ لحبوطها، وتلاشيها، فلا يقدرون منها على شيء، ولا يجدون ثوابها،

وحيل بينهم وبين النفع، كما حالت الرياح بينك وبين ما تنسفه، فهو كما قيل: فذلكة التمثيل. ﴿ذلك﴾ ؛ إشارة إلى ضلالهم مع حسبانهم أنهم محسنون، ﴿هو الضلال البعيد﴾ أى: هو الغاية فى البُعد عن طريق الحق.

الإشارة: العمل الذى يثبت لصاحبه هو الذى يصحبه الإخلاص فى أوله، والإسرار فى آخره، والتبرى فيه من الحول والقوة، وفى الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إنَّ الإبقَاءَ علَى العمل أشَدُّ مِنَ العمل، وإنَّ الرجلَ ليَعْمَلُ العمل فيُكتب له عَمَلٌ صَالِحٌ، معمول به فى السر، يضعَّف أجره بسبعين ضِعفاً، فلا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس ويعْلنه، فيكتب علانيته، ويمحى تضعيف أجره كله، ثم لا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس ويُحب أن يُحمد عليه، فيُمحى من العلانية ويكتب رياء، فاتقى الله امرؤ صان دينه، وإن الرياء شرك» . رواه البيهقى[1].

وبهذا تظهر فضيلة عمل القلوب، كعبادة التفكر والاعتبار، أو الشهود والاستبصار، أو نية صالحة وهدى صالح، أو زهد فى القلب، وورع وصبر، وشكر وحلم، وغير ذلك من أعمال القلوب، التى لا يطلع عليها ملك فيكتبه، ولاشيطان فيُفسده، بل يتولى جزاءه أكرمُ الأكرمين. ولذلك قيل: ذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح. وقال عليه الصلاة والسلام: «تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة» ولهذا أمر به ـ أى: بالتفكر ـ بعد ضرب المثل للعمل الظاهر، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم ترَ﴾ يامحمد، أو أيها السامع، ﴿أن الله خلق السماوات والأرض بالحق﴾ ؛ لتدل على الحق، أو بالوجه الذى يحق أن تُخلق لأجله، وهو التعريف بخالقها، وبقدرته الباهرة التى تقدر على الإيجاد والإعدام، ولذلك قال: ﴿إن يشأ يُذهبكم ويأت بخَلْقٍ جديد﴾، أى: إن يشأ يعدمكم ويستبدل مكانكم خلقًا آخر. فإنَّ من قدر على إيجاد صورهم، وما تتوقف عليه مادتهم، قادر على أن يبدلهم بخلق آخر؛ ﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ أى: بمتعذر، أو ممتنع؛ لأن قدرته عامة التعلق، لا تختص بمقدور دون آخر، ومن كان هذا شأنه كان حقيقًا بأن يُفرد بالعبادة والقصد؛ رجاء لثوابه، وخوفا من عقابه يوم الجزاء، الذى أشار إليه بقوله: ﴿وبرزوا لله...﴾ إلخ.

---

(١) فى شعب الإيمان (باب فى إخلاص العمل لله وترك الرياء ح ٦٨١٣، ح ٦٨٦٤) من حديث أبى الدرداء، مرة بلفظ (إن الإبقاء) ومرة بلفظ «إن الاتقاء».

الإشارة : ألم تر أن الله خلق سماوات الأرواح، لشهود الحق في مقام التعريف، وأرض النفوس لعبادة الحق في مقام التكليف. الأرواح مستقرها سماء الحقائق، والأشباح مقرها أرض الشرائع. عالم الأرواح محل التعريف، وعالم الأشباح محله التكليف. والأرواح لا تنفك عن الأشباح في الصورة الخلقية، غير أنها تعرج عنها بالتصفية والذكر، حتى تترقى إلى عالم الأرواح، فلا تشهد إلا الأرواح في محل الأشباح؛ وهذا من أعظم أسرار الربوبية، التي يطلع عليها العارفون بالله، فإذا أطلعهم الله على هذا المقام؛ كُوشفوا بأسرار الذات العلية، وبعالم الأرواح الذي هو مظهر أرواح الأنبياء والرسل، فلا يغيبون عن الله ساعة، ولا عن رسول الله ﷺ، ولا عن مقام أرواح الأنبياء والأولياء. وفي هذا المقام قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: لي ثلاثون سنة، ما غاب عني الحق طرفة عين. وقال أيضاً: لو غاب عني رسول الله ﷺ ساعة ما عددتُ نفسي من المسلمين. وقال شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل العمراني رضي الله عنه : مما منّ الله به عليّ أني ما ذكرتُ رسولَ الله ﷺ ولا خطر على قلبي إلا وجدتني بين يديه... الخ كلامه. نفعنا الله بهم

وأهل هذا المقام موجودون في كل زمان، فإن القادر في زمانهم هو القادر في زماننا، وفي قوله تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم.. ﴾ الآية، إشارة إلى هذا، أي: إن يشأ يذهبكم عن شهود أنفسكم، ويأت بخلق جديد، تُشاهدون به أسرار ربكم، وماذلك على الله بعزيز. قال أبو المواهب التونسي رضي الله عنه : حقيقة الفناء محو واضمحلال، وذهاب عنك وزوال. هـ. فيبرزون من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح، كما قال تعالى:

﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾

قلت : (تَبعا) : جمع تابع، أو مصدر نُعت به؛ للمبالغة على حذف مضاف، أي: كنا لكم ذا تبع، و(من عذاب الله من شيء) : مِنْ، الأولى؛ للبيان، والثانية زائدة، هذا المختار. و(محيص) : إما مصدر، أو اسم مكان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وبرزوا لله﴾ أي: لأمر الله ﴿جميعاً﴾، فيبرزون من قبورهم يوم القيامة حفاةً عراةً، لفصل القضاء، أو: برزوا لله على ظنهم؛ فإنهم كانوا يرتكبون الفواحش خفية، ويظنون أنها تخفى على الله، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم. وإنما عبَّر بالماضي؛ لتحقق وقوعه. فيقول حينئذ ﴿الضعفاءُ﴾ وهم: الأتباع، لضعف رأيهم عندهم، ﴿للذين استكبروا﴾ وهم الرؤساء الذين استتبعوهم وغووهم: ﴿إنا كنا لكم

تَبَعاً ﴾ في الكفر، وتكذيب الرسل، والإعراض عن نصحهم، ﴿ فهل أنتم مُغْنون عنا من عذابِ الله من شيء ﴾ أي: فهل أنتم دافعون عنا شيئاً من عذاب الله؟.

﴿ قالوا ﴾، أي: رؤساؤهم، في جوابهم واعتذارهم: ﴿ لوهدانا الله لهديناكم ﴾ أي: لو هدانا الله للإيمان، ووفقنا إليه لهديناكم، ولكن ضللنا فأضللناكم، أي: اخترنا لكم ما اخترنا لأنفسنا، ولو هدانا الله لطريق النجاة من العذاب لهديناكم وأغنيناه عنكم، لكن سُدَّ دوننا طريق الخلاص، ﴿ سواءٌ علينا أجَزِعْنَا أمْ صَبَرْنَا ﴾، أي: مستوٍ علينا الجزع والصبر، ﴿ مالنا من محيص ﴾: من مهرب وملجى، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ سواءٌ علينا .. ﴾ إلخ، من كلام الفريقين معاً، ويؤيده ما رُوى أنهم يقولون: تعالوا نجزع، فيجزعون خمسمائة عام، فلا ينفعهم، فيقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون كذلك، ثم يقولون: ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص ﴾. نسأل الله العصمة بمنّه وكرمه.

الإشارة: إذا ترقى العارفون، ومن تعلق بهم، عن عالم الأشباح إلى عالم الأرواح، وبرزوا لشهود الله في كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، وعند كل شيء، وتنزهوا في حضرة الأسرار، ورُفعوا يوم القيامة مع المقربين الأبرار، بقى ضعفاء اليقين؛ الذين تعوقوا عن صُحبتهم، في غم الحجاب، وتعب الحس والخواطر، مسجونين في سجن الأكوان، فيقولون لمن عوّقهم عن صحبة العارفين من أهل الرئاسة والجاه: إنا كنا لكم تبعاً، فهل تمنعون شيئاً مما نحن فيه من غم الحجاب، وسقوط الدرجة؟ فيقولون: لو هدانا الله لصحبتهم لهديناكم. فإذا نظروا يوم القيامة إلى ارتفاع درجاتهم ضجوا، وفزعوا على مافاتهم، فلا ينفعهم ذلك؛ فما لهم من محيص عن تخلفهم عن مقام المقربين. رُوى أن أهل عليين إذا أشرفوا على الأسفلين تشرق منازلهم من أنوار وجوههم. وسيأتي - إن شاء الله - الحديث عند قوله: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾(1).

ثم ذكر خطبة الشيطان على أهل النار، فقال:

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ﴾

قلت: (إلا أن دعوتُكم): الاستثناء منقطع، ويجوز الاتصال، و(بما أشركتمون): مصدرية، أو موصولة إسمية، و(من قبل): يتعلق بأشركتمون، وعلى الثاني: بكفرت.

---

(1) الآية ١٧ من سورة السجدة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال الشيطانُ﴾، أي: إبليس الأقدم ﴿لَمَّا قُضِي الأمرُ﴾ أي: أمر الحساب، وفرغ منه، ودخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ. رُوِى أنه يُنصب له منبر من نار، فيقوم خطيباً في النار على أهل النار، يعني على الأشقياء من الثقلين، فيقول في خطبته: ﴿إنَّ الله وعدكم وعدَ الحق﴾، أي: وعداً حقاً أنجزه لكم، وهو وعد البعث والجزاء، ﴿ووعدتكم﴾ وعد الباطل، وهو: ألاّ بعث ولا حساب، وإن كان واقعاً شيء من ذلك فالأصنام تشفع لكم، ﴿فأخْلَفتكم﴾، أي: فظهر خلاف ما وعدتكم، جعل تبين خلف وعده كالإخلاف منه؛ مجازاً. ﴿وما كان لِيَ عليكم من سلطان﴾؛ من تسلط، فألجئكم إلى الكفر والمعاصي، ﴿إلا أن دعوتُكُم﴾؛ إلا دعائي إياكم إليها بتسويل وتزيين، ﴿فاستجبتمْ لِي﴾، وهو ليس من جنس التسلط، لكنه تهكم بهم، على طريقة قوله:

تَحِـيَّـةُ بَيْنِهِمْ ضَـرْبٌ وَجِـيعُ(١).

ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعًا، أي: ما تسلطت عليكم بالقهر، لكن دعوتكم فأسرعتم إجابتي، ﴿فلا تلوموني﴾؛ فإنَّ من اشتهر بالعداوة لا يُلام على أمثال ذلك، ﴿ولُوموا أنفسكم﴾؛ حيث أطعتموني حين دعوتكم، ولم تطيعوا ربكم لما دعاكم. ولا حجة للمعتزلة في الآية على أن العبد يخلق أفعاله؛ لأن كسب العبد مقدر في ظاهر الأمر، لقيام عالم الحكمة، وهو رداء لعالم القدرة، فالقدرة تبرز، والحكمة تستر، وهو ما يظهر من اختيار العبد، ولا اختيار له في الحقيقة؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾(٢)، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾(٣).

ثم قال لهم: ﴿ما أنا بمُصرِخِكُم﴾: بمغيثكم من العذاب، ﴿وما أنتم بمُصرِخِيَّ﴾: بمغيثي، ﴿إني كفرت بما أشركتمونِ من قبلُ﴾، أي: إني كفرت اليوم بإشراككم إياي من قبل هذا اليوم في دار الدنيا، بمعنى: تبرأت منه واستنكرته، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾(٤). أو: إني كفرت بالله الذي أشركتموني معه في طاعته من قبل، حين امتنعْتُ من السجود. والأول أظهر.

قال تعالى: ﴿إنَّ الظالمين لهم عذابٌ أليم﴾. ويحتمل أن يكون من تتمة خطبة الشيطان، قال البيضاوي: وفي حكاية أمثال ذلك لطف للسامعين، وإيقاظ لهم، حتى يُحاسبوا أنفسهم ويتدبروا عواقبهم. هـ.

الإشارة: ينبغي لك أيها العبد الصالح الناصح لنفسه أن تصغى بسمع قلبك إلى هذه المقالة، التي تصدر من الشيطان عند فوات الأوان، فتبادر إلى خلاص نفسك مادمت في قيد حياتك، قبل حلول رمسك(٥)، قبل أن تزل

(١) عَجُزُ بيت أوله: وخيل قد دلفت، لها نَجِيعٌ.

(٢) من الآية ١١٢ من سورة الأنعام.

(٢) من الآية ٣٠ من سورة الإنسان، ومن الآية ٢٩ من سورة التكوير.

(٤) من الآية ١٤ من سورة فاطر.

(٥) أي: دخول القبر.

بك القدم، حيث لا ينفعك الندم، فتحاسب نفسك، وتتدبر في عواقب أمرك، وتصحح عقائد توحيدك، وتعمل جهدك في طاعة ربك، وتجتنب مواقع غرور الشيطان، وتعتمد على فضل الكريم المنان، وتجعل الموت نصب عينيك، وما هو مستقبل تجعله حاصلاً، وما هو متوقع تجعله واقعًا؛ فكل ما هو آت قريب، و(إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين)(١) . وفي الحكَم: «لو أشرق نور اليقين في قلبك لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها، ولرأيت محاسن الدنيا وكسفة الفناء ظاهرة عليها». وبالله التوفيق.

ثم شفع بأضداد مَنْ غرّهم الشيطان، فقال:

﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأُدخل الذين آمنوا ﴾، أي: أدخلهم الله على أيدي الملائكة ﴿ جنات تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ﴾، فيدخلونها ﴿ بإذن ربهم ﴾؛ بأمره، فيأذن للملائكة أن تُدخلهم حين يقضي بينهم. ﴿ تحيتُهم فيها سلامٌ ﴾ أي: تحييهم الملائكة، أو الخدام، حين يتلقونهم يسلمون عليهم، ويهنئونهم، على ما في الحديث.

الإشارة: في ذكر هذه الآية بعد خطبة الشيطان تنبيه على وجه الخلاص منه، حتى لا يكون من أهل خطبته، وهو تصحيح الإيمان وتقوية مواده، وهو ماذكرنا قبل في مواد طمأنينة أهل الإيمان. وإن أسعده الله بصحبة عارف رقّاه إلى شهود العيان، فلا يكون للشيطان ولا لغيره عليه سلطان، لتحقيق عبوديته، وارتقائه إلى شهود عظمة ربوبيته؛ قال تعالى: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾(٢)، وهم الذين رسخت في قلوبهم شجرة الإيمان، وارتفعت أغصانها إلى الرحمن، الذي أشار إليها بقوله:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ

(١) من الآية ١٣٤ من سورة الأنعام. (٢) من الآية ٤٢ من سورة الحجر.

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ ﴿٢٦﴾

قلت: (كلمة طيبة): يجوز أن يكون مفعولاً بمحذوف، أي: جعل كلمة، وتكون الجملة تفسيرية لضرب المثل، وأن تكون (كلمة): بدلا من (مثلاً)، و(شجرة): صفة لها، أو خبراً عن مضمر، أي: هي شجرة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم ترَ﴾ يا محمد، أو أيها السامع، ﴿كيف ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً﴾ لأهل «لا إله إلا الله»، وهم: أهل التوحيد، الذين رسخ التوحيد في قلوبهم، وعبّروا عنه بألسنتهم. فمثال الكلمة الطيبة التي نطقوا بها، ورسخ معناها في قلوبهم؛ ﴿كشجرةٍ طيبةٍ﴾: كالنخلة مثلا، ﴿أصلُها ثابت﴾ في الأرض، غائص بعروقه فيها، ﴿وفرعها في السماء﴾؛ أي: أعلاها. أو يريد الجنس، أي: فروعها وأفنانها في السماء، ﴿تُؤتي أُكُلها﴾: تُعطي ما يؤكل من ثمرها ﴿كل حين﴾ وقّته الله لإثمارها، فقيل: سنة، وبه قال ابن عباس وجماعة من المفسرين والفقهاء، واستدلوا بها على من حلف لا يُكلم أخاه حيناً لزمه سنة، وعن ابن عباس أيضا والضحاك وغيرهما: ﴿كل حين﴾؛ أي: غدوة وعشية، ومتى أريد جناها. قلت: وهذا هو الظاهر.

واختُلف في هذه الشجرة الطيبة، التي ضرب الله بها المثل لكلمة الإخلاص، فقيل: غير معينة، وقيل: النخلة، وبه قال الجمهور. قال الشطيبي: وقيل: جوزة الهند، فإنها ثابتة الأصل، متصلة النفع، يكون طعمها أولاً لبناً، ثم عسلاً، ثم تنعقد طعاماً، ويصنع بلبنها ما يصنع بلبن المواشي، ثم يكون كالخل، ثم كالخمر، ثم كالزيت، كل هذا قبل عقد الطعم، وأما النخلة فهي: ستة أشهر طلع رخص، وستة أشهر رطب طيب، فنفعه متصل. وقال أبو حنيفة: إنه ببلاد اليمن نوعٌ من التمر، يقال له: الباهين، يطعم السنة كلها. هـ. قلت: وقد ذكر ابن مقشب جوزة الهند، ووصفها كما قال الشطيبي، وقوله: «في النخلة ستة أشهر..» إلخ، فيه نظر، وصوابه: ثلاثة، فإن المعاينة ترده.

والمشبه بهذه الشجرة: المؤمن الكامل الدائم نفعه، المتصل علمه، أوقاته معمورة بذكر الله، أو تذكير عباد الله، وحركاته وسكناته في طاعة الله، حيث أراد بها وجه الله، فكل حين وساعة يصعد منه عمل إلى الله.

ثم قال تعالى: ﴿ويضربُ اللهُ الأمثالَ للناسِ لعلهم يتذكرون﴾؛ لأن في ضربها زيادة إيضاح وإفهام وتذكير؛ فإنه تصوير للمعاني وتقريبها من الحس، لتفهم سريعاً.

ثم ذكر ضدها فقال: ﴿ومَثَلُ كلمة خبيثة﴾؛ كلمة الكفر (كشجرة) كمثل شجرة؛ ﴿خبيثة﴾، كالحنظلة مثلاً، ﴿اجتُثتْ﴾: استؤصلت، وأُخذت جثتها، وقُلعت بالكلية (من فوق الأرض)، أي: قطعت من فوق الأرض؛ لأن عروقها قريبة منه، ﴿ما لها من قرارٍ﴾: استقرار. وهذا في مقابلة قوله: ﴿أصلها ثابت﴾. قال البيضاوي:

واختُلف فى الكلمة والشجرة؛ ففُسرت الكلمة الطيبة بكلمة التوحيد - أى: (لا إله إلا الله)، ودعوة الإسلام والقرآن، والكلمة الخبيثة بالإشراك بالله تعالى، والدعاء إلى الكفر، وتكذيب الحق. ولعل المراد بهما ما يعم ذلك، فالكلمة الطيبة: ما أعرب عن حق، أو دعا إلى صلاح، والكلمة الخبيثة: ما كان على خلاف ذلك. وفُسرت الشجرة الطيبة بالنخلة، ورُوى ذلك مرفوعاً، وبشجرة فى الجنة، والخبيثة بالحنظلة، ولعل المراد بهما أيضاً ما يعم ذلك.هـ.

﴿ يُثبت اللهُ الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ وهو: لا إله إلا الله، أو كل ما يثبت فى القلب، ويتمكن فيه من الحق، بالحجة الواضحة ﴿ فى الحياة الدنيا ﴾ مدة حياتهم، فلا يزلون إذا افتتنوا فى حياتهم، أو عند موتهم، وهى حسن الخاتمة، ﴿ وفى الآخرة ﴾ عند السؤال، فلا يتلعثمون إذا سُئلوا عن معتقدهم فى القبر، وعند الموقف، فلا تدهشهم أهوال القيامة. رُوى أنه ﷺ ذكر قبض روح المؤمن فقال: «ثُمَّ تُعَادُ رُوحه فى جَسَدِه، فيأتِيه مَلَكَانِ، فيُجْلِسَانِه فِى قَبْرِه، ويَقُولاَنِ لَه: مَنْ رَبُّكَ، ومَادِينُكَ، ومَنْ نَبِيُّكَ؟ فيقولُ: رَبِّى الله، ودِينِى الإسْلاَمُ، ونَبِيى محمدٌ ﷺ. فينادى مُنَادٍ مِن السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِى. فذلك قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾»[1]. قلت: والقدرة صالحة لهذا كله. قال الغزالى: هو أشبه شيء بحال النائم.

﴿ ويُضلُّ اللهُ الظالمين ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والتقليد، فلا يهتدون إلى الحق، ولا يثبتون فى مواقف الفتن. ﴿ ويفعلُ الله مايشاء ﴾؛ من تثبيت بعض، وإضلال آخرين، من غير اعتراض عليه ولا تعقيب لحكمه.

الإشارة: الكلمة الطيبة، هى كلمة التوحيد، والشجرة الطيبة هى شجرة الإيمان، وأصلها هو: التوحيد الثابت فى القلب، وفروعها: الفرائض والواجبات، وأغصانها: السنن المؤكدات، وأوراقها: المندوبات والمستحبات، وأزهارها: الأحوال والمقامات، وأذواقها: الوجدان وحلاوة المعاملات، وانتهاء طيب أثمارها: العلوم وكشف أسرار الذات، الذى هو مقام الإحسان، وهى معرفة الشهود والعيان. فمن لم يبلغ هذا المقام لم يجْن ثمرة شجرة إيمانه. ومن نقص شيئًا من هذه الفروع نقص بقدرها من شجرة إيمانه، إمّا من فروعها، أو من أغصانها، أو من ورقها، أو من حلاوة أذواقها، أو مِنْ عَرْف أزهارها، أو من طيب ثمرتها. ومعلوم أن الشجرة إذا نبتت بنفسها فى الخلاء، ولم تُلَقَّحْ كانت ذكّارة، تورق ولا تثمر، فهى شجرة إيمان من لا شيخ له يصلح للتربية، فإن الفروع والأوراق كثيرة، والثمار ضعيفة، أىُّ ريح هاج عليها أسقطها. وراجع ما تقدم فى إشارة قوله تعالى: ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾[2]. وبالله التوفيق.

(١) أخرجه بنحوه مطولاً أبو داود فى (السُّنة، باب المسألة فى القبر) والحاكم فى المستدرك (١/٣٧) وصححه من حديث البراء بن عازب. وأصل الحديث فى الصحيحين.
(٢) من الآية ٣٥ من سورة المائدة.

ثم ذكر وبال من أنكر هذه النعمة ـ أعني نعمة الإيمان ـ فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم ترَ﴾ يا محمد ﴿إلى الذين بدَّلوا﴾ شكر ﴿نعمتَ الله كفراً﴾؛ بأن وضعوا الكفر مكان الشكر، أو: بدلوا نفس النعمة كفراً؛ فإنهم لما كفروها سُلبت منهم، فصاروا تاركين لها مُحصلين للكفر مكانها؛ كأهل مكة، خلقهم الله من نسل إسماعيل عليه السلام، وأسكنهم حرَمه، وجعلهم خُدّام بيته، ووَسّع عليهم أبواب رزقه، وعطف عليهم قلوب خلقه، وتمم شرفهم ببعْثة نبيه محمد ﷺ، فكفروا ذلك، فقحطوا، وجاعوا حتى أكلوا الميتة، وأُسِرُوا وقُتِلوا يوم بدر، وصاروا كذلك مسلوبي النعمة، موصوفين بالكفر، وعن عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ: أنها نزلت في الأفجرَيْن من قريش: بني المغيرة، وبني أمية؛ فأمّا بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمُتّعوا إلى حين. ﴿وأحلّوا قومَهم﴾: من أطاعهم في الكفر والتبديل، أي: أنزلوهم ﴿دارَ البوار﴾: دار الهلاك، بحملهم على الكفر معهم. ثم فسرها بقوله: ﴿جهنم يصلونها﴾: يحترقون فيها، ﴿وبئس القرارُ﴾؛ وبئس المستقر جهنم.

ثم بيّن كفرهم، فقال: ﴿وجعلوا لله أنداداً﴾: أشباهاً وأمثالا، يعبدونها معه، ﴿ليُضلّوا[1] عن سبيله﴾؛ عن طريق التوحيد، أي: ليكون عاقبتهم الضلال أو الإضلال، على القراءتين، أي: ليضلوا في أنفسهم، أو ليضلوا غيرهم. وليس الضلال أو الإضلال كان غرضهم في اتخاذ الأنداد، ولكن لمّا كان نتيجته وعاقبته جُعل كالغرض. ﴿قل تمتعوا﴾ بشهواتكم الدنيوية، فإنها فانية، أو بعبادتكم الأوثان، فإنها من قبيل الهوى، والأمر للتهديد. وفي التهديد بصيغة الأمر إيذان بأن المهدد عليه كالمطلوب؛ لإفضائه إلى المهدد به، وأن الأمرين كائنان لامحالة، فلابد من وقوع تمتعهم، ولابد من إفضائهم إلى النار. ولذلك علقه بقوله: ﴿فإنَّ مصيرَكم إلى النار﴾، وأن المخاطب، لانهماكه فيه، كالمأمور به من آمر مطاع. قاله البيضاوي.

الإشارة : ظهور أهل التربية في زمان الغفلة والجهل نعمة عظيمة، لكن لا يعرفها إلا من سقط عليها، ومن أنكرها، وسَدّ بابها، وعوّق الناس عن الدخول في طريقها، فقد بدل نعمة الله كفراً، وأحلّ الناس ـ من تبعه ـ دار

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو: بفتح الياء، وقرأ الباقون بضمها، من أضل. انظر: الإتحاف (٢/١٦٩).

البوار، وهي: الإقبال على الدنيا، والانهماك في الغفلة، وخراب الباطن من نور اليقين، وكثرة الخواطر والوساوس، والحرص والجزع والهلع، وغير ذلك من أمراض القلوب. وأيُّ عذاب للمؤمن أشد من هذا في الدنيا؟ ويسقط في الآخرة عن درجة المقربين، ومن لم يصحب أهل التوحيد الخالص لا يخلو من عبادة أنداد وأشباه؛ بمحبته لهم والركون إليهم. ومن أحب شيئاً فهو عبد له. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه ذات يوم: إنا لا نحب إلا الله، ولا نحب معه شيئاً سواه. فقال له بعض الحاضرين: قال جدك رسول الله ﷺ: «النفس مجبولة على حب من أحسن إليها». فقال له الشيخ: إنا لا نرى الإحسان إلا من الله، ولا نرى معه غيره. هـ. بالمعنى.

ثم ذكر ضد أهل الشرك، فقال:

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ ﴾

قلت: (يقيموا): جواب شرط مقدر، يتضمنه قوله: (قل)، تقديره: إن تقل لهم أقيموا يقيموا، ومعمول القول، على هذا، محذوف. وفيه تنبيه على أنهم لفرط مطاوعتهم للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، بحيث لا ينفك فعلهم عن أمره، وأنه كالسبب الموجب له، أي: مهما قلتَ أقاموا وأنفقوا. وقيل: جزم بإضمار لام الأمر. ولايصح أن يكون جواب الأمر من غير حذف؛ لأن أمر المواجهة لا يجاب بلفظ الغيبة. انظر البيضاوي. وقال ابن عطية: إلاّ إن ضمّن (قل) معنى: بلّغ أو أدّ، فيصح أن يكون (يقيموا): جواب أمره. و(سراً وعلانية): حالان، أو ظرفان، ومن قرأ: «لا بيع» بالبناء[1] فقد بنى «لا» مع اسمها بناء التركيب، ومن قرأ بالرفع فقد أهملها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل لعباديَ الذين آمنوا ﴾، خصهم بالإضافة إليه؛ تشريفاً لهم، وتنويهاً بقدرهم، وتنبيهاً على أنهم الذين قاموا بحقوق العبودية. قل لهم يامحمد: ﴿ يُقيموا الصلاة ﴾ التي هي عنوان الإيمان، بإتقان شروطها وأركانها وآدابها، ﴿ ويُنفقوا مما رزقناهم ﴾ من الأموال، فرضاً ونفلاً، ﴿ سراً وعلانيةً ﴾ أي: مُسرين ومعلنين، أو في سر وعلانية، والأحب: إعلان الواجب، وإخفاء المتَطَوّع به، إلا في محل الاقتداء لأهل الإخلاص. ﴿ من قبل أن يأتي يومٌ لا بيع فيه ﴾ فيبتاع المقصر ما يتدارك به تقصيره، أو ما يفدى به نفسه، ﴿ ولا خلالٌ ﴾: ولا مخاللة ومودة تنفع في ذلك اليوم، حتى ينفع الخليلُ خليلَهَ، وإنما ينفع العملُ الصالح، كالإنفاق لوجه الله، وإقام الصلاة، وغير ذلك.

الإشارة: قد مدح الله هاتين الخصلتين: الصلاة والإنفاق، وأمر بهما في مواضع من القرآن؛ لأنهما عنوان الصدق، أحدهما: عمل بدني، والآخر: عمل مالي. أما الصلاة فإنها طهارة للقلوب، واستفتاح لباب الغيوب، وهي

(١) قرأ ابن كثير وابن عمرو ويعقوب «لا بيعَ فيه ولا خلالَ»، وقرأ الباقون «لا بيعٌ فيه ولا خلالٌ». راجع الإتحاف (١٦٩/٢).

محل المناجاة، ومعدن المصافاة، تتسع فيها ميادين الأسرار، وتُشرق فيها شوارق الأنوار، كما فى الحِكَم. وفى بعض الأخبار: (إن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحُجُبَ بينه وبينه، وواجهه بوجهه، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء، يصلون بصلاته، ويؤمّنون على دعائه، وإن المصلي لينثر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه، ويناديه مناد: لو يعلم المناجى من يناجي ما انفتل[1]. وإن أبواب السماء لتفتح للمصلي. وإن الله تعالى يباهي ملائكته بصفوف المصلين) . وفى التوراة: يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدىَّ مصليًا باكيا، فأنا الذى اقتربتُ من قلبك، وبالغيب رأيتَ نورى. هـ. فكانوا يرون أن تلك المراقبة والبكاء، وتلك الفتوح التى يجدها المصلى فى قلبه من دنو الرب من القلب.

وأما الصدقة فإنها برهان على إيمان صاحبها، وفى الحديث: «الصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ» ، فهى تدل على خروج حب الدنيا من القلب، وعلى اتصاف صاحبها بمنقبة السخاء، التى هى أفضل الخصال، وفى الحديث: «السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ، قَرِيبٌ مِنَ الجَنَّةِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ، والبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ، بَعِيدٌ مِنَ الجَنَّةِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ، ولجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إلى اللهِ مِنْ عَالِمٍ بَخِيلٍ» .

ثم ذكّرهم بالنعم، ليقيدوها بالشكر قبل أن تُسلب منهم، كما سلبت ممن ذكر قبل، فقال:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

قلت: (الله) : مبتدأ، و(الذى) ،وما بعده: خبر، و(رزقاً لكم) : مفعول أخرج، و(من الثمرات) : بيان له، حال، ويجوز العكس، ويجوز أن يراد بالرزق: المصدر، فينصب على العلة أو المصدر؛ لأن (أخرج) فيها معنى «رزق»، و(دائبيْن) : حال، والدءوب: الدوام على عمل واحد، و(من كل ما سألتموه) : يحتمل أن تكون «ما» مصدرية، أو موصولة، أو موصوفة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض ﴾ من أجلكم، السماء تُظلكم، والأرض تُقلكم، ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾ ،تعيشون به وتتفكهون منه. ويشمل الملبوس،

---

(١) أى: ما انصرف.

كالقطن ، والكتان، وشبه ذلك ﴿ وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ﴾ : بمشيئته وقدرته، إلى حيث توجههم مع أسباب حكمته، تغطية لقدرته، وهو ما يتوقف عليه جريها وإرساؤها، من الجبال والقلاع، ﴿ وسخّر لكم الأنهار ﴾ مطردة لانتفاعكم بالسفن والشرب، وسائر منافعها، فجعلها مُعدّة لانتفاعكم وتصرفكم. وقيل: تسخير هذه الأشياء: تعليم كيفية اتخاذها والانتفاع بها.

﴿ وسخَّرلكم الشمسَ والقمرَ دائبين ﴾ ؛ متماديين فى الطلوع والغروب، يدأبان فى سيرهما وإنارتهما، وإصلاح ما يصلحانه من المكونات، بقدرة خالقهما، ﴿ وسخَّر لكم الليلَ والنهارَ ﴾ يتعاقبان لسكناتكم ومعايشكم. ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ أى: وآتاكم بعض جميع ما سألتموه، وهو مايليق بكم، وما سبق لكم فى مشيئته وعلمه. قال البيضاوى: ولعل المراد بما سألتموه: ما كان حقيقًا بأن يسأل؛ لاحتياج الناس إليه، سُئل أو لم يسأل.هـ. وقرأ الضحاك وابن عباس: «من كلٍّ» ؛ بالتنوين، أى: وآتاكم من كل شيء احتجتم إليه، وسألتموه بلسان الحال. ويجوز على هذا أن تكون «ما» نافية، فى موضع الحال، أى: وآتاكم من كل شيء غير سائليه.

﴿ وإن تعدوا نعمتَ الله لا تُحصوها ﴾ : لا تحصروها، ولا تطيقوا عدَّ أنواعها، فضلاً عن أفرادها، فإنها غير متناهية؛ فمنها ظاهرة، ومنها باطنة، كالهداية والمعرفة. قال طلق بن حبيب: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، ونعمه أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين، وأمسوا توابين. هـ. وقال أبو الدرداء: من لم ير نعمة الله إلا فى مطعمه ومشربه، فقد قلَّ علمه، وحضر عذابه.هـ. ﴿ إنَّ الإنسانَ لظلوم ﴾ ؛ يظلم النعمة لمَّا غفل عن شكرها، أو بظلم نفسه لمَّا عرضها للحرمان، بارتكاب المعاصى، ﴿ كفَّارٌ ﴾ : شديد الكفران، وقيل: ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع، كفَّار فى النعمة يجمع ويمنع. قاله البيضاوى.

الإشارة: الله الذى أنزل من سماء الملكوت علومًا وأسرارًا، تحيا به القلوب والأرواح، فأخرج به من أرض النفوس ثمرة اليقين والطمأنينة، رزقًا لأرواحكم. وسخر لكم فلك الفكرة تجرى فى بحر التوحيد، وفضاء التفريد بأمره. وسخر لكم أنهار العلوم، منها ما هو علم الرسوم لإصلاح الظواهر، ومنها ما هو علم الحقائق لإصلاح الضمائر. وسخر لكم شمس العرفان وقمر الإيمان، دائبين، يستضيء بقمر التوحيد فى السير إلى معرفة أنوار الصفات، وبشمس العرفان إلى أسرار الذات. وسخَّر لكم ليل القبض لتسكنوا فيه، ونهار البسط لتنشروا فى اقتباس العلوم، وربما أفادك فى ليل القبض ما لم تستفده فى نهار البسط؛ (لا تدرون أيهم أقرب نفعا). وآتاكم من كل ماسألتموه حين كمل تهذيبكم، وصح وصلكم، فيكون أمركم بأمر الله. وإن تعدوا نعمة الله لا تحصُوها؛ إذ نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد لا حدَّ لهما فى هذه الدار وفى تلك الدار، ففى كل نَفَسٍ يمدهم بمَدَدٍ جديد، ومع هذا كله يغفل العبد عن هذه النعم!! إن الإنسان لظلوم كفار. وشكرها: نسبتها لمعطيها، وحمد الله عليها. وفى الحكم: «لاتدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك؛ فإنَّ ذلك مما يحط من وجود قدرك».

قال سهل بن عبد الله رضي الله عنه: ما من نعمة إلا والحمد أفضل منها، والنعمة التى ألهم بها الحمد أفضل من الأولى؛ لأن الشكر يستوجب المزيد. وفى أخبار داود عليه السلام أنه قال: إلهى، ابنُ آدم ليس فيه شعرة إلا وتحتها نعمة، وفوقها نعمة، فمن أين يكافئها؟ فأوحى الله تعالى إليه: ياداود، إنى أُعطِى الكثيرَ وأَرْضَى باليسير، وإنّ شكر ذلك أن تعلم أن مابك من نعمة فمنى. هـ.

ومن جملة النعم التى يجب الشكر عليها ـ وهى التى بدّلها الكفار كفراً ـ عمارة بيت الله الحرام، ودعاء إبراهيم عليه السلام، الذى أشار إليه الحق تعالى بقوله:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾

قلت: قال هنا: ﴿ اجعل هذا البلد ﴾ بالتعريف، وقال فى سورة البقرة: ﴿ بَلَدًا ﴾(1) بالتنكير، قال البيضاوى: الفرق بينهما أن المسؤول فى الأول ـ أى: فى التعريف ـ إزالة الخوف وتصييره أمناً، وفى الثانى جعله من البلاد الآمنة. هـ. وفرّق السهيلى: بأن النبى ﷺ كان بمكة حين نزول آية إبراهيم؛ لأنها مكية؛ فلذلك قال فيه: «البلد»؛ بلام التعريف التى للحضور، بخلاف آية البقرة، فإنما هى مدنية، ولم تكن مكة حاضرة حين نزولها، فلم يعرفها بلام تعريف الحضور. هـ. قال ابن جزى: وفيه نظر؛ لأن ذلك كان حكاية عن إبراهيم عليه السلام، ولا فرق بين كونه بالمدينة أو بمكة. هـ.

قلت: لا نظر فيه؛ لأن الحق تعالى لم يحك لنا قصص الأنبياء بألفاظهم، وإنما ترجم عنها بلسان عربى، فينزل على رعاية مقتضى الحال. ولذلك اختلفت الألفاظ فى قصص الأنبياء؛ لأن كل قصة تنزل على ما يقتضيه المقام والحال، من تعريف وتنكير، واختصار وإطناب. وقد ذكر أبو السعود فى سورة الأعراف ما يؤيد هذا، فانظره. والله تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ إذْ قال إبراهيمُ ربِّ اجعل هذا البلد ﴾ يعنى: مكة، ﴿ آمناً ﴾ لمن فيها من أغدرة الناس عليها، أو من الخسف والعذاب، أو من الطاعون والوباء، ﴿ واجْنُبنى ﴾ أى: امنعنى

(1) فى الآية ١١٦.

واعصمني، ﴿ وبَنِيَّ ﴾ من بعدي، من ﴿ أن نعبد الأصنامَ ﴾ أي: اجعلنا منهم في جانب بعيد. قال البيضاوي: وفيه دليل على أن العصمة للأنبياء بتوفيق الله وحفظه إياهم، وهو بظاهره لا يتناول أحفاده وجميع ذريته، وزعم ابن عيينة أن أولاد إسماعيل لم يعبدوا الصنم، محتجاً به، وإنما كانت لهم حجارة يدورون بها، ويسمونها الدوار، ويقولون: البيت حجر، وحيثما نصبت حجراً فهو بمنزلته. هـ. قال ابن جزي: و﴿ بَنِيَّ ﴾ يعني: من صُلْبه، وفيهم أُجيبت دعوته، وأما أعقاب بنيه فعبدوا الأصنام. هـ. وقد قال في الإحياء: عنى إبراهيمُ عليه السلام بالأصنام، الذهب والفضة، بمعنى: حبهما والاغترار بهما، والركون إليهما. قال عليه الصلاة والسلام: «تَعِسَ عبدُ الدِّينَارِ والدِّرْهَمِ...» الحديث؛ لأن رتبة النبوة أجلّ من أن يُخْشى عليها أن تعتقد الألوهية في شيء من الحجارة. هـ.

قلت: الظاهر أن يبقى اللفظ على ظاهره، في حقه وفي حق بنيه. أما في حقه فلسعة علمه وعدم وقوفه مع ظاهر الوعد، كما هو شأن الأكابر، لا يزول اضطرارهم، ولا يكون مع غير الله قرارهم، وهذا كقوله: ﴿ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا ﴾(1). وتقدم هذا المعنى مراراً. وأما في حق بنيه فإنما قصد العموم في نسله، لكن لم يجب إلا فيما كان من صلبه؛ فإن دعاء الأنبياء - عليهم السلام - لا يجب أن يكون كله مجاباً، فقد يُجابون في أشياء، ويمنعون من أشياء. وقد سأل نبينا ﷺ لأمته أشياء، فأجيب في البعض، ومنع البعض. كما في الحديث(2).

ثم قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ ربِّ إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ أي: إن الأصنام أتلفت كثيراً من الخلق عن طريق الحق، فلذلك سألتُ منك العصمة، واستعذتُ بك من إضلالهن، وإسناد الإضلال إليهن باعتبار السببية، كقوله: ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾(3). ﴿ فمن تبعني ﴾ على ديني ﴿ فإنه مني ﴾؛ لا ينفك عني في أمر الدين، ﴿ ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾، تقدر أن تغفر له ابتداء، أو بعد التوفيق للتوبة. وفيه دليل على أن كل ذنب فلله أن يغفره، حتى الشرك، إلا أن الوعيد فرّق بينه وبين غيره. قاله البيضاوي. قال ابن جزي: ﴿ ومن عصاني ﴾؛ يريد: بغير الكفر، أو عصاه بالكفر ثم تاب منه، فهو الذي يصح أن يُدعى له بالمغفرة، ولكنه ذكر اللفظ بالعموم؛ لما كان فيه - عليه السلام - من التخلق بالرحمة للخَلْق، وحسن الخُلق. هـ.

﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي ﴾ أي: بعض ذريتي، وهو: إسماعيل عليه السلام، أو: أسكنت ذرية من ذريتي، وهو إسماعيل ومن وُلِد منه؛ فإن إسكانه متضمن لإسكانهم، ﴿ بوادٍ غير ذي زرع ﴾ يعني: وادي مكة، لأنها حجرية

(1) من الآية ٨٠ من سورة الأنعام.

(2) قال ﷺ: «سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني ثنتين، ومنعني واحدة. سألت ربي أن لايهلك أمتي بالسَّنة فأعطانيها، وسألته أن لايهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لايجعل بأسهم بينهم فمنعنيها» أخرجه مسلم في (كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض) من حديث عامر بن سعد عن أبيه.

(3) من الآية ٧٠ من سورة الأنعام.

لاتنبت، والوادى: ما بين الجبلين، وإن لم يكن فيه ماء. ولم يقل: ولا ماء، ولعله علم بوحى أنه سيكون فيه الماء، ﴿ عند بيتك المحرَّم ﴾ الذى حرّمه على الجبابرة من التعرض له والتهاون به، أو: لم يزل محترماً تهابُه الجبابرة، أو مُنع منه الطوفان، فلم يستأصله ويمح أثره. وهذا الدعاء وقع منه أول ما قدم، ولم يكن موجوداً، فلعله قال ذلك باعتبار ما كان، أى: عند أثر بيتك المحرم، أو باعتبار ما يؤول إليه من بنائه وعمارته واحترامه.

وقصةُ إنزاله ولده بمكة: أن هاجر كانت مملوكة لسارة، وهبها لها جبارٌ من الجبابرة؛ وذلك أن إبراهيم عليه السلام دخل مدينة، وكان فيها جبار يغصب النساء الجميلات، فأخذها، وأدخلها بيتاً، فلما دخل عليها دعت عليه، فسقط، ثم قالت: يارب إن مات قتلونى فيه، فقام. فلما دنا منها، دعت عليه، فسـقط، فقال فى الثالثة: ما هذه إلا شيطانة، أخرجوها عنى، وأعطوها هاجر، فعصمها الله منه، وأخدمها هاجر، ثم وهبتها لإبراهيم، فوطئها فحملت بإسماعيل، فلما ولدته غارت منها، فتعب إبراهيم معها، ثم ناشدته سارةُ أن يخرجها من عندها، فركب البراق، وخرج بها تحمل ولدها حتى أنزلها مكة، تحت دوحة، قريباً من موضع زمزم. فلما ولى تبعته، وهى تقول: لِمنْ تتركنا فى هذه البلاد، وليس بها أنيس؟ ثم قالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يُضيعنا. فرجعت تأكل من مِزود، ثم تركها لها، وتشرب من قربة ماء، فلما فرغ الماء نشف اللبن، وجعل الولدُ يتخبط من العطش، فجعلت تطوف من الصفا، وكان جبلاً صغيراً قريباً منها، وتذهب إلى المروة، وتسعى بينهما، لعلها ترى أحداً، فلما بلغت سبعة أطواف وسمعت صوتاً فى الهواء، فقالت: أغِثْ إن كان معك غياث، فتبدّى جبريلُ بين يديها حتى وصل إلى موضع زمزم، فهمز بعقبه ففار الماء، فلما رأته دهشت، وخافت عليه يذهب؛ فجعلت تحوطه، وتقول: زم زم، فانحصر الماء. قال ﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إِسْمَاعِيل، لَوْ تَرَكَتْهُ، كَانَ عَيْناً مَعِيناً»(1). فشربت، ودرَّ لبنُها.

ثم إن جرهم رأوا طيوراً تحوم ، فقالوا: لا طيور إلا على الماء. فقصدوا الموضع، فوجدوها مع ابنها، وعندها عين، فقالوا لها: أتشركيننا فى مائك، ونشركك فى ألباننا؟ ففعلت. وفى حديث البخارى: «قالوا لها: أتحبين أن نسكن معك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم فى الماء». فرحلوا إليها، وسكنوا معها، ثم زوجوا ولدها منهم. وحديث إتيان إبراهيم يتعاهد ابنه، وبنائهما الكعبة، مذكور فى البخارى(2) والسِّيَر.

ثم قال: ﴿ ربنا ليُقيموا الصلاة ﴾ أى: ما أسكنتهم بهذا الوادى البلقع(3) من كل مرتفق ومرتزق، إلا لإقامة الصلاة عند بيتك المحرم. وتكرير النداء وتوسيطه، للإشعار بأنها المقصودة بالذات من إسكانهم ثَمَّةَ. والمقصود من الدعاء: توفيقهم لها، وقيل: اللام للأمر، وكأنه طلب منهم الإقامة، وسأل من الله أن يوفقهم لها. ﴿ فاجعل أفئدةً

---

(1) أخرجه البخارى فى (أحاديث الأنبياء، باب : تزِفُّون : النَّسَلان فى المشى) من حديث ابن عباس ـ رضى الله عنه.
(2) فى الموضع السابق ذكره. (3) البلْقَع: هى الأرض القفْر التى لاشىء بها: انظر: اللسان (بلقع ١/٣٤٨).

من الناس ﴾ أى: اجعل أفئدة من بعض الناس، ﴿ تهوى إليهم ﴾ أى: تسرع إليهم شوقًا ومحبة، و«من»: للتبعيض، ولذلك قيل: لو قال: أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم، ولحجت اليهودُ والنصارى. وقيل: للبيان؛ أى: أفئدة ناس. ﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ مع كونهم بواد لا نبات فيه، ﴿ لعلهم يشكرون ﴾ تلك النعمة، فأجاب دعوته، فجعله حرمًا آمناً تُجبى إليه ثمرات كل شيء، حتى إنه يوجد فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية، فى يوم واحد.

﴿ ربنا إنك تعلم ما نُخفى وما نُعلن ﴾ أى: تعلم سرنا، كما تعلم علانيتنا، والمعنى: إنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا، وأرحم منا بأنفسنا، فلا حاجة لنا إلى الطلب، لكننا ندعوك إظهاراً لعبوديتك، وافتقاراً إلى رحمتك، واستجلاباً لنيل ما عندك . قاله البيضاوى. أى: فيكون مناسبًا لحاله فى قوله: «علمه بحالى يُغنى عن سؤالى». وقيل: ما نُخفى من وَجْد الفرقة، وما نعلن من التضرع إليك والتوكل عليك. وتكرير النداء؛ للمبالغة فى التضرع واللجوء إلى الله تعالى. ﴿ وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴾؛ لأن علمه أحاط بكل معلوم. و«من»: للاستغراق.

الإشارة: ينبغى للعبد أن يكون إبراهيميًا، فيدعو بهذا الدعاء على طريق الإشارة، فيقول: رب اجعل هذا القلب آمناً من الخواطر والوساوس، واجنبنى وبنِىَّ، أى: بَعِّدْنى ومن تعلق بى، أن نعبد الأصنام، التى هى الدنانير والدراهم، وكل ما يُعشق من دون الله، (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) فتلفوا فى حبها والحرص عليها، فلا فكرة لهم إلا فيهما، ولا شغل لهم إلا جمعهما، فمن تبعنى فى الزهد فيهما، والغنى بك عنهما، فإنه منى، ومن عصانى، واشتغل بمحبتهما وجمعهما، (فإنك غفور رحيم) .

وقوله: ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع ﴾ فيه: تعليم اليقين لمن طلب تربية اليقين. قال الورتجبى: فيه إشارة إلى تربية أهله بحقائق التوكل والرضا والتسليم، ونِعْم التربية ذلك، فأعلمنا بسنته القائمة الحنيفية السمحة السهلة، الخليلية الحبيبية، الأحمدية المصطفوية ـ صلوات الله عليهما ـ أن العارف الصادق ينبغى له ألا يكون معوله على الأملاك والأسباب ـ فى حياته وبعد وفاته ـ لتربية عياله، فإنه تعالى حسبه، وزاد فى تربيتهم بأن يؤدِّبهم بإقامة الصلاة، إظهاراً للعبودية، وإخلاصاً فى المعرفة، وطلباً للمشاهدة، ومناجاة فى القربة بقوله: «ربنا ليقيموا الصلاة». إلخ.

وقال القشيرى: أخبر عن صدق توكله وتفويضه، أى: أسكنت قوماً من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع، عند بيتك المحرّم. وإنما رد الرِّفق لهم فى الجِوارِ فقال: ﴿عند بيتك المحرم﴾، ثم قال: ﴿ليقيموا الصلاة﴾. أى: أسكنتُهم لإقامة

حقَّكَ، لا لطلَبِ حظوظهم. ويقال: اكتفى بأن يكونوا فى ظلال عنايته عن أن يكونوا فى ظلال نعيمهم. ثم قال: قوله: ﴿بوادٍ غير ذى زرع﴾ أى: أسكنتُهم هذا الوادى، ولا متعلق من الأغيار لقلوبهم، ولا متناول لأفكارهم وأسرارهم، فهم مطروحون ببابِكَ، مُقيمون بحضرتك، جارٍ فيهم حُكمك، إن رَاعيتَهم كَفَيْتَهُم، وكانوا أعزَّ خلْقِ الله، وإن أقصيتهم وأوبقتهم كانوا أضعف وأذلَّ خلْقِك. هـ.

وقوله تعالى: ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم﴾: قال القشيرى: ليشتغلوا بعبادتك، فأفْرِد قوماً يقومون لهم بكفايتهم، وارزقهم من الثمرات، فإنَّ من قام بحقِّ الله قام اللهُ بحقِّه. فاستجاب الله دعاءَه فيهم، فصارت القلوبُ من أهل كل برٍّ وبحرٍ كالمجبولة على محبة ذلك البيت، ومحبة أولئك المصلين من سُكانه. وقال الورتجبى: سأل أن يجعلهم مرادى جلاله وجماله، ويجعلهم آية الصادقين والعاشقين، بقوله: (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم)، تميل بوصف الإرادة والمحبة لك، والاقتداء بهم فى إقامة سُنتك، وألبسهم لباس أنوارك، وألق فى قلوب خلقك محبتهم بمحبتك. هـ. ومعنى قوله: مرادى جلاله وجماله: أى: مظهراً لجلاله وجماله، يعشقهم البرُّ والفاجر، والكامل والناقص، فقد ظهر فيهم الجلال والجمال. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر بقية كلام إبراهيم عليه السلام فقال:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾

قلت: (لسميعُ الدعاء): من إضافة أمثلة المبالغة إلى مفعوله، أى: لسميع دعاء من دعاه. و(من ذريتى): عطف على مفعول «اجعل»، أى: اجعلنى وبعض ذريتى مقيمين للصلاة.

يقول الحق جل جلاله، حاكياً عن خليله عليه السلام: ﴿الحمدُ لله الذى وهبَ لي على الكِبَر﴾ أى: مع كبر سنى عن الولد، ﴿إسماعيلَ وإسحاقَ﴾، رُوى أنه وُلد له إسماعيل لتسع وتسعين سنة، وإسحاق لمائة وثنتى عشرة سنة، وقيل: غير ذلك. وإنما ذكر كبر سنه؛ ليكون أعظم فى إظهار النعمة، وإظهاراً لما فيه من الآية، ولذلك قال: ﴿إنَّ ربى لسميعُ الدعاء﴾ أى: يجيب من دعاه، من قولك: سمع الملك كلامى، إذا اعتنى به. وفيه إشعارٌ بأنه تقدم منه سؤال الولد، فسمع منه، وأجابه حين وقع اليأس منه، ليكون من أجلِّ النعم وأجلاها.

ثم طلب الاستقامة له ولولده بقوله: ﴿ربِّ اجعلني مقيمَ الصلاة﴾ أي: متقنًا لها، مواظبًا عليها، ﴿ومن ذريتي﴾ فاجعل من يُقيمها. والتبعيض؛ لعلمه بالوحي أنَّ منْ ولده منْ لا يقيمها، أو باستقرار عادته في الأمم الماضية أن منهم من يكون كفاراً. ﴿ربنا وتقبل دعاءِ﴾ أي: استجب، أو تقبل عبادتي. ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي﴾، وكان هذا الدعاء قبل النهي، أو قبل تحقق موتهما على الكفر، أو يريد آدم وحواء. ﴿وللمؤمنين يوم يقوم الحسابُ﴾ أي: يثْبت ويتحقق وجوده، مستعار من القيام على الرِّجل، كقولهم: قامت الحرب على ساق. أو يقوم إليه أهله، فحذف المضاف، أي: يقوم أهل الحساب إليه، وأسند إليه قيامهم؛ مجازا.

الإشارة: إتيان النسل البشري، أو الروحاني، من أجلّ النعم وأكملها على العبد. وفي الحديث: «إذَا مَاتَ العَبْدُ انْقَطَعَ عَمَلُه إلاَّ منْ ثَلاَثٍ: صدقةٍ جَارِيَةٍ، أو علْمٍ بثَّه في صُدُورِ الرِّجَال، أوْ وَلَدٍ صَالحٍ يدْعُو له بعْدَ موْته». والولد الروحاني أتم؛ لتحقق استقامته في الغالب. وطلب ذلك محمود كما فعل الخليل وزكريا، وغيرهما، وقد مدح الله منْ فعل ذلك بقوله: ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين﴾(١). وقرة عين في الذرية: أن يكونوا على الاستقامة في الدين، وسلوك منهاج الصالحين. وكل ما أتوا به من الطاعة والإحسان فللوالدين حظ ونصيب من ذلك، ولا فرق بين الولد الروحاني والبشري، وفي ذلك يقول الشاعر(٢):

والمَرْءُ في ميزانه أتْبَــــاعُهُ فاقدرْ إذنْ قدر النبيِّ محمّـدِ

والله تعالى أعلم.

ثم تمم قوله: (يوم يقوم الحساب) بذكر أهواله، فقال:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(١) من آية ٧٤ من سورة الفرقان. (٢) وهو الإمام البوصيري. انظر ديوانه/١٢٢. وفيه: فاقدر إذن فضل النبي محمد ﷺ.

قلت: (يوم يأتيهم): مفعول ثان لأنذر، ولا يصح أن يكون ظرفاً. و(نُجبْ دعوتك)؛ جواب الأمر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولا تحسبنَّ﴾ أيها السامع، أن ﴿اللهَ غافلاً عما يعملُ الظالمون﴾، أو أيها الرسول، بمعنى: دُمْ على ما أنت عليه من أن الله مطلع على أفعالهم، لا تخفى عليه خافية، غير غافل عنهم. وهو وعيد بأنه معاقبهم على قليله وكثيره لا محالة. وقيل: إنه تسلية للمظلوم؛ وتهديد للظالم؛ فالحق تعالى يمهل ولا يهمل. ﴿إنما يؤخرهم﴾، أى: يؤخر عذابهم ﴿ليوم تشخصُ فيه الأبصارُ﴾، أى: تحد فيه النظر، من غير أن تطرف؛ من هول ما ترى.

﴿مُهطعين﴾: مسرعين إلى الداعي؛ مذلة واستكانة، كإسراع الأسير والخائف ونحوه. أو مقبلين بأبصارهم، لايطرفون؛ هيبة وخوفا، ﴿مُقنعى رؤوسهم﴾: رافعيها إلى السماء كرفع الإبل رأسها عند رعيها أعالى الشجر. وذلك من شدة الهول، أو من أجل الغل الذى فى عنقه، كقوله: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون﴾(١). وقال الحسن فى هذه الآية: وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد. هـ. ﴿لا يرتدُّ إليهم طرفهم﴾، بل تقف أعينهم شاخصة لا تطرف، أو: لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم، ﴿وأفئدتهم هواء﴾: خلاء، محترقة، فارغة من الفهم، لا تعى شيئاً؛ لفرط الحيرة والدهشة. ومنه يُقال للأحمق وللجبان: قلبه هواء، أى: لا رأى فيه ولا قوة. وقيل: خالية من الخير، خاوية من الحق.

﴿وأنذر الناس﴾ يامحمد، أى: خوفهم هذا اليوم، وهو: ﴿يوم يأتيهم العذابُ﴾، يعنى يوم القيامة، أو يوم الموت؛ فإنه أول مطلع عذابهم، ﴿فيقول الذين ظلموا﴾ بالشرك والتكذيب: ﴿ربنا أخِّرنا إلى أجل قريب﴾ أى: أخِّر العذاب عنا، وردنا إلى الدنيا، وأمهلنا إلى أجل قريب، ﴿نُجب دعوتك﴾ حينئذ ﴿ونتبعِ الرسلَ﴾، ونظيره: ﴿لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين﴾(٢). قال تعالى لهم: ﴿أوَ لمْ تكونوا أقسمتم من قبلُ﴾ أنكم باقون فى الدنيا، ﴿مالكم من زوال﴾ عنها بالموت ولا بغيره، ولعلهم أقسموا بطراً وغروراً. أو دل عليه حالهم؛ حيث بنوا مشيداً، وأمّلوا بعيداً. أو أقسموا أنهم لا يُنقلون إلى دار أخرى، وأنهم إذا ماتوا لا يُزالون عن تلك الحالة، ولا ينقلون إلى دار الجزاء، كقوله: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾(٣).

﴿وسكنتُم فى مساكن الذين ظلموا أنفسَهم﴾ بالكفر والمعاصى، من الأمم السالفة كعاد وثمود، ﴿وقد تبيَّن لكم كيف فعلنا بهم﴾ بما تُشاهدون من آثارهم الدارسة، وديارهم الخربة، وما تواتر عندكم من أخبارهم،

(١) الآية ٨ من سورة يس. (٢) الآية ١٠ من سورة المنافقون. (٣) الآية ٣٨ من سورة النحل.

﴿ و ﴾ قد ﴿ ضربنا لكم الأمثالَ ﴾ من أحوالهم، أى: بيَّنا لكم أنكم مثلهم فى الكفر واستحقاق العذاب، أو بيَّنا لكم صفات ما فعلوا، وما فُعل بهم، التى هى فى الغرابة كالأمثال المضروبة.

الإشارة: كما أمهل سبحانه الظالمين إلى دار الشدائد والأهوال، أمهل عباده الصالحين إلى دار الكرامة والنوال؛ لأن هذه الدار لاتسع ما أراد أن يعطيهم من الخيرات؛ لأنها ضيقة الزمان والمكان، فقد أجلَّ مقدارهم أن يجازيهم فى دار لا بقاء لها، وتلك الدار باقية لا نفاد لها، ففيها يتمحض الجمال والجلال. فبقدر ما ينزل على أهل الجلال من الأهوال ينزل على أهل الجمال من الكرامة والنوال. وتأمل ما تمناه أهل الجلال حين نزلت بهم الأهوال من قولهم: (ربنا أخِّرنا إلى أجل قريب نُجب دعوتك ونتبع الرسل)، ثم بادر إلى إجابة الداعي، واتباع الرسول الهادى، فى كل ما جاء به من الأوامر والنواهي، واعتبر بمساكن الذين ظلموا أنفسهم، كيف فعل بهم الزمان؟ وكيف غرتهم الأماني وخدعهم الشيطان، حتى أسكنهم دار الذل والهوان؟ فشد يدك على الطاعة والإحسان، والشكرلله على الهداية لنعمة الإسلام والإيمان، وعلق قلبك بمقام الإحسان؛ فإن الله يرزق العبد على قدر نيته. وبالله التوفيق.

ثم ذكر ما فعل بأهل المكر والخذلان، فقال:

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢) ﴾

قلت: (وإن كان مكرُهم)؛ «إن» نافية، واللام للجحود، ومن قرأ «لَتزول» بفتح اللام، فإن مخففة، واللام فارقة؛ و(يوم تُبدل): بدل من (يوم يأتيهم)، أو ظرف للانتقام، أو مقدر باذكر، أو (بمخلف وعده). ولا يجوز أن ينتصب بمخلف؛ لأن ما قبل «إن» لا يعمل فيما بعدها. و(السماوات): عطف على (الأرض)، أى: وتبدل السماوات.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقد مكروا ﴾ بك يامحمد ﴿ مكرَهُم ﴾ الكلى، واستفرغوا جهدهم فى إبطال الحق وتقرير الباطل، ﴿ وعند الله مكرُهُم ﴾ أى: مكتوب عنده فعلهم، فيجازيهم عليه. أو عند الله ما يمكرهم به

جزاء لمكرهم، وإبطالاً له، ﴿ وإن كان مكرُهم ﴾ في العظم والشدة ﴿ لتزولَ منه الجبال ﴾ الثوابت لو زالت؛ تقديراً، أو ما كان مكرهم لِتزولَ منه الجبال، أي: الشرائع والنبوات الثابتة كالجبال الرواسي. والمعنى على هذا تحقير مكرهم؛ لأنه لا تزول منه تلك الجبال الثابتة الراسخة، أو: وإن مكرهم لَتَزولُ منه الجبال من شدته، ولكن الله عصم ووقى. وقيل: الآية متصلة بما قبلها، أي: وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم، ومكروا مكرهم في إبطال الحق.

﴿ فلا تحسبَنَّ اللهَ مخلفَ وعدِه رسلَه ﴾، يعني: وعد النصر على الأعداء. وقدّم المفعول الثاني، والأصل: مخلف رسله وعده، فقدّم الوعد؛ ليُعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً على الإطلاق، ثم قال: ﴿ رسله ﴾؛ ليعلم أنه إذا لم يخلف وعد أحد من الناس، فكيف يخلف وعد رسله وخيرة خلقه؟! فقدّم الوعد أولاً بقصد الإطلاق، ثم ذكر الرسل لقصد التخصيص. ﴿ إن الله عزيز ﴾: غالب لا يماكر، قادر لا يدافع، ﴿ ذو انتقام ﴾ لأوليائه من أعدائه.

يظهر ذلك ﴿ يوم تُبدَّل الأرضُ غيرَ الأرضِ ﴾، أو اذكر ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾، فتبدل أرض الدنيا يوم القيامة بأرض بيضاء عفراء[1]، كقُرْصة النَّقِيّ[2]، كما في الصحيح[3]. ﴿ و ﴾ تبدل ﴿ السماوات ﴾ بأن تنشق وتُطوى كطي السجل للكتب، ويبقى العرش بارزاً، وهو سماوات الجنة.

قال البيضاوي: والتبديل يكون في الذات، كقوله: بدلت الدراهم بالدنانير، وعليه قوله: ﴿ بدلناهم جلوداً غيرها ﴾[4]، وفي الصفة، كقولك: بدلت الحلقة خاتماً، إذا أذبتها وغيرت شكلها. وعليه قوله: ﴿ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حسنات ﴾[5]. والآية تحتملها، فعن علي رضي الله عنه: تبدل أرضاً من فضة وسموات من ذهب، وعن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما -: هي تلك الأرض، وإنما تغير صفاتها، ويدل عليه ما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ فَتَنْبَسِط، وتُمَدّ مد الأديم العكاظِيّ؛ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا»[6].

قال ابن عطية: وأكثر المفسرين على أن التبديل يكون بأرض بيضاءَ عفراءَ، لم يُعْصَ اللهُ فيها، ولا سُفِكَ فيها دم، وليس فيها مَعْلم لأحد. ورُوي أن النبي ﷺ قال: «المؤمِنُ في وَقْتِ التبديلِ في ظل العرْش». ورُوي عنه ﷺ أنه قال: «الناسُ، وقتَ التبديل، عَلَى الصِّرَاط»[7]. ورُوي أنه قال: «الناس حينئذ أضيافُ الله؛ فلا يُعجزهم ما

(١) العفرة: بياض ليس بالناصع.. انظر النهاية (عفر).
(٢) قرصة النَّقِيّ: الدقيق النقي من الغش والنخال انظر فتح الباري (١١/٣٨٣).
(٣) قال ﷺ: (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقي، ليس فيها علَم لأحد). أخرجه البخاري في (الرقاق، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة). ومسلم في (صفات المنافقين، باب في البعث والنشور) من حديث سهل بن سعد الساعدي.
(٤) من الآية ٥٦ من سورة النساء. (٥) من الآية ٧٠ من سورة الفرقان.
(٦) جزء من حديث الصور المشهور المروي عن أبي هريرة.
(٧) أخرجه مسلم في (صفات المنافقين وأحكامهم، باب في البعث والنشور) من حديث السيدة عائشة - رضي الله عنها.
(٨) أخرجه بنحوه ابن أبي حاتم في تفسيره (٧/٢٢٥٣) من حديث أبي أيوب الأنصاري. وانظر تفسير ابن كثير (٢/٥٤٤).

وفى سراج المريدين لابن العربى: أن الله خلق الأرض مختلفة محدودبة؛ ويخلقها يوم القيامة مستوية، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، متماثلة بيضاء كخبزة النقى، كما فى الصحيح، وأما تبديل السموات فليس فى كيفيتها حديث، وإنما هو مجهول. وفى حديث مسلم: «أين يكون الناس يوم تبدل الأرض؟ قال: هم على الصراط» . قال: يحتمل أنه الصراط المعروف، ويحتمل أنه اسم لموضع غيره، تستقر الأقدام عليه، وكأنه الأظهر؛ للحديث الآخر. وقد سألته عائشة ـ رضى الله عنها ـ أين يكون الناس يوم تبدل الأرض؟ قال ﷺ: «هُمْ فى الظُّلْمَةِ دُونَ الجِسْرِ»[1]. والجسر: الصراط. هـ.

أما تبديل الأرض: فظاهر الآيات أنها قبل البعث والحشر، فلا يقع البعث والحشر، إلا على الأرض المبدلة؛ كقوله: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ ﴾[2]. وقوله: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾[3].. ثم قال: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ ﴾[4]. وقوله: ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾[5]، ثم قال: ﴿ إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا ﴾[6]، إلى غير ذلك من الآيات. والأرواح حينئذ أضياف الله، أو فى ظل العرش، أو دون الجسر، حيث يعلم الله. وأما تبديل السماوات فظاهر الأخبار أنه وقت وقوف الناس فى المحشر، حيث تشقق السماء بالغمام وتنزل الملائكة تنزيلا. والله تعالى أعلم.

﴿ وبرزوا لله الواحد القهار ﴾، أى: وبرزوا من أجداثهم؛ لمحاسبة الواحد القهار، أو لمجازاته. وتوصيفه بالوصفين؛ للدلالة على أنه فى غاية الصعوبة، كقوله: ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾[7]، وأن الأمر إذا كان لواحد غلاب لا يغالب فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار، ﴿ وترى المجرمين يومئذ مُقَرَّنين ﴾: قرن بعضهم إلى بعض ﴿ فى الأصفاد ﴾: فى القيود، أو الأغلال، كل واحد قُرن مع صاحبه، على حسب مشاركتهم فى العقائد والأعمال، كقوله: ﴿ وإذا النفوس زُوِّجتْ ﴾[8]. أو قُرنوا مع الشياطين، أو مع ما اكتسبوا من العقائد الزائغة والأهوية الفاسدة، أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال. فقوله: ﴿ فى الأصفاد ﴾: متعلق بمقرنين، أو حال من ضميره. والصفد: القيد أو الغل.

﴿ سرابيلُهم ﴾: قُمُصانُهم، والسربال: القميص، ﴿ من قَطِران ﴾، وهو الذى تهنأ به الإبل، أى: تدهن به. وللنار فيه اشتعال شديد، فلذلك جُعل قَميصَ أهل النار. قال البيضاوى: وهو أسود منتن، تشتعل فيه النار بسرعة،

---

(١) أخرجه مسلم مطولاً فى (الحيض، باب بيان صفة منى الرجل والمرأة) من حديث ثوبان، مولى رسول الله ﷺ.
(٢) من الآية ٤٧ من سورة الكهف.
(٣) الآيتان ١٠٥-١٠٦ من سورة طه.　(٤) من الآية ١٠٨ من سورة طه.　(٥) الآية الأولى من سورة الواقعة.
(٦) الآيتان: ٤ ـ ٥ من سورة الواقعة.　(٧) الآية ١٦ من سورة غافر.　(٨) الآية ٧ من سورة التكوير.

يُطلى به جلود أهل النار، حتى يكون طلاؤه لهم كالقميص، ليجتمع عليهم لذع القطران ووحشة لونه ونتن ريحه، مع إسراع النار في جلودهم. على أنَّ التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين. هـ.

﴿ وتغشى وجوهَهُم النار ﴾، أي: تكسوها وتأكلها؛ لأنهم لم يتوجهوا بها إلى الحق، ولم يخضعوا بها إلى الخالق، كما تطلع على أفئدتهم؛ لأنها فارغة من المعرفة والنور، مملوءة بالجهالات والظلمة. ونظيره قوله: ﴿ أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ﴾(٢).

فعل ذلك بهم؛ ﴿ ليجزي اللهُ كلَّ نفس ما كسبت ﴾ من الإجرام، أو ما كسبت مطلقاً؛ لأنه إذا بيَّن أن المجرمين معاقبون لإجرامهم؛ علم أن المطيعين يُثابون لطاعتهم. ويتعين ذلك إذا علق اللام ببرزوا. ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾، فيحاسب الناس في ساعة واحدة؛ لأنه لا يشغله حسابٌ عن حساب، فكل شخص يظهر له أنه واقف بين يديه، يُحاسب في وقتِ حسابِ الآخر؛ لأن ذلك وقت خرق العوائد.

﴿ هذا ﴾ القرآن، أو ما فيه من الوعظ والتذكير، أو ما وصفه من قوله: ﴿ ولا تحسبن الله غافلا... ﴾(٣) إلخ، ﴿ بلاغ للناس ﴾؛ أي: كفاية لهم عن غيره في الوعظ وبيان الأحكام، يقال: أعطيته من المال ما فيه بلاغ له، أي: كفاية. أو بلاغ؛ أي: تبليغ لهم، كقوله: ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾(٤)، ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ ﴾(٥)، وقوله: ﴿ ولِيُنذروا به ﴾: عطف على محذوف، أي: لِيُنصحوا به، ولينذروا به، أو متعلق بمحذوف، أي: ولينذروا به أنزلناه، ﴿ وليعلموا أنما هو إله واحد ﴾ بالنظر والتأمل فيما فيه من الآيات الدالة على وحدانيته تعالى، أو المنبهة على ما يدل عليه. ﴿ وليذَّكَّر ﴾ أي: ليتعظ به ﴿ أولوا الألباب ﴾ أي: القلوب الصافية بالتدبر في أسرار معانيه وعجائب علومه وحكمه، فيرتدعوا عما يُرديهم، ويتذرعوا بما يحظيهم. واعلم أنه سبحانه ذكر لهذا البلاغ ثلاث فوائد، هي الغاية والحكمة في إنزال الكتاب: تكميل الرسل للناس، واستكمالهم القوة النظرية التي منتهى كمالها التوحيد، وإصلاح القوة العملية التي هي التدرع بكمال التقوى. جعلنا الله من الفائزين بغايتها. قال معناه البيضاوي.

الإشارة: قد مكر أهلُ الغفلة بالأولياء، قديماً وحديثاً، واحتالوا على إطفاء نورهم، فأبى الله إلا نصرهم وعزهم؛ (إن الله عزيز ذو انتقام) فينتقم لهم وينصرهم. ووقت نصرهم هو حين يتحقق فناؤهم عن الرسوم والأشكال، فتبدل الأرض عندهم غير الأرض والسماوات؛ فتنقلب كلها نوراً مجموعاً ببحر الأنوار، وبمحيطات أفلاك الأسرار،

(١) من الآية ٢٤ من سورة الزمر.
(٢) من الآية ٤٨ من سورة القمر.
(٣) الآية ٤٢ من سورة إبراهيم.
(٤) من الآية ٤٨من سورة الشورى.
(٥) الآية ٥٤ من سورة النور.

فتذهب ظلمة الأكوان بتجلى نور المكون، ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾(١). ويبرزوا من سجن الأكوان لشهود الواحد القهار.

وقال الورتجبى: يريد أن أرض الظاهر وسماء الظاهر تبدل من هذه الأوصاف، وظلمة الخليقة، إلا أنها منورة بنور جلال الحق عليها، وأنها صارت مشْرِق عيان الحق للخلق حين بدا سطوات عزته، بوصف الجبارية والقهارية بقوله: ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾(٢) وهناك يأخى يدخل الوجود تحت أذيال العدم؛ من استيلاء قهر أنوار القدم، قال: ﴿ كل شئ هالك إلا وجهه ﴾(٣). قيل: فأين الأشياء إذ ذاك؟ قال: عادت إلى مصادرها. وقال: متى كانوا شيئاً حتى صاروا لا شىء؟! لأنهم أقل من الهباء فى الهواء فى جنب الحق. هـ.

وترى المجرمين، وهم الغافلون، مقرنين فى قيود الأوهام، والشكوك، مسجونين فى محيطات الأكوان، سرابيلهم ظلمة الغفلة، تغشى وجوههم نارُ القطيعة، لا تظهر عليها بهجة المحبين، ولا أسرار العارفين. فعل ذلك بهم؛ ليظهر فضيلة المجتهدين. هذا بلاغ للناس، ولِيُنذروا به وبال الغفلة والحجاب، وليتحقق أولوا الألباب أن الوجود إنما هو للواحد القهار. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

* * *

(١) من الآية ٣٥ من سورة النور.

(٢) من الآية ٦٩ من سورة الزمر.

(٣) من الآية ٨٨ من سورة القصص.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



مكيــة. وهى تسع وتسعون آية. ومناسبتها لما قبلها: قوله تعالى: ﴿ **هَذَا بَلاغٌ للناس** ﴾[1]، مع قوله جل جلاله: ﴿ **تلْكَ آيات الكتاب** ﴾؛ فهى تتميم لعنوان القرآن، وتفسير له.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥ ﴾

قلت: رُبّ: حرف جر، تدل على التقليل غالبًا. وفيها ثمانى لغات: التخفيف، والتثقيل مع ضم الراء وفتحها بالتاء، ودونها. وتدخل عليها (ما) فتكفها عن العمل، ويجوز دخولها حينئذ على الفعل، ويكون ماضيًا، أو منزلا منزلته فى تحقيق وقوعه، وقد تدخل على الجملة الإسمية؛ كقول الشاعر:

رُبَّمَا الجَامِلُ المُؤَبَّلُ فِيهِمْ ... وعَنَاجِيجُ بَيْنَهُنَّ المِهَارُ

وجملة: (إلا ولها): صفة لقرية، والأصل ألا يدخلها الواو، كقوله: ﴿ **إلا لها مُنْذِرون** ﴾[2]، لكن لما شابهت صورة الحال دخلت عليها؛ تأكيدا لوصفها بالموصوف.

يقول الحق جل جلاله: أيها الرسول المعظم، ﴿ **تلك** ﴾ الآيات التى تتلوها هى ﴿ **آياتُ الكتاب** ﴾ الذى أنزلناه إليك، ﴿ و ﴾ آيات ﴿ **قرآن** ﴾ عربى ﴿ **مبين** ﴾؛ واضح البيان، مبينًا للرشد والصواب، فمن تمسك به وآمن بما فيه كان من المسلمين الناجين، ومن تنكب عنه وكفر به كان من الكافرين الهالكين، وسيندم حين لا ينفع الندم، كما قال تعالى: ﴿ **ربَمَا يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ : متمسكين بما فيه حتى يكونوا من الناجين. وهذا التمنى قيل: يكون عند الموت، وقيل: فى القيامة، وقيل: إذا خرج العصاة من النار، وهذا أرجح؛ لحديثٍ فى ذلك[3]. ومعنى التقليل فيه: أنه تدهشهم أهوال يوم القيامة، فإن حانت منهم إفاقة فى بعض الأوقات تمنوا أن لو كانوا مسلمين.

---

(١) من الآية ٥٢ من سورة إبراهيم. (٢) من الآية ٢٠٨ من سورة الشعراء.

(٣) عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال: «إذا اجتمع أهل النار فى النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار لمن فى النار من أهل القبلة: ألستم مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وأنتم معنا فى النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا =

قال تعالى: ﴿ **ذرهم** ﴾ : دعهم اليوم ﴿ **يأكلوا ويتمتعوا** ﴾ بدنياهم، ﴿ **ويُلْهِهِمُ الأملُ** ﴾ : ويشغلهم توثقهم بطول الأعمار، واستقامة الأحوال، عن الاستعداد للمعاد، ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ سوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءهم. والأمر للتهديد، والغرض: حصول الإياس من إيمانهم، والإيذان بأنهم من أهل الخذلان، وأنّ نصحهم بعد هذا تعب بلا فائدة. وفيه إلزام الحجة لهم. وفيه التحذير عن إيثار التنعم، وما يؤدى إليه طول الأمل من الهلاك عاجلًا وآجلاً، ولذلك قال تعالى بعدُ: ﴿ **وما أهلكنا من قريةٍ إلا ولها كتابٌ معلوم** ﴾ أى: أجل مقدر كتب فى اللوح المحفوظ، ﴿ **ما تسبق من أمة أجلها** ﴾؛ أى: أجَل هلاكها، ﴿ **وما يستأخرون** ﴾ عنه ساعة. وتذكير الضمير فى ﴿**يستأخرون**﴾؛ للحمل على المعنى، لأن الأمة واقعة على الناس. والله تعالى أعلم.

الإشارة : انظر هذا التهديد العظيم، والخطر الجسيم لمن تمتع بدنياه، وعكف على حظوظه وهواه: (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) . ولله در القائل:

تَفَكَّرْتُ فِى الدُّنْيَا وَفِى شَهَوَاتِهَا ... وَلَذَّاتِهَا حَتَّى أَطَلْتُ التَّفَكُّرَا
وَكَيْفَ يَلَذُّ الْعَيْشَ مَنْ هُوَ سَالِكٌ ... سَبِيلَ الْمَنَايَا رَائِحًا أَوْ مُبَكِّرَا
فَلاَ خَيْرَ فِى الدُّنيا وَلا فِى نَعِيمِهَا ... لِحُرٍّ مُقِلٍّ كَانَ أَوْ مُكْثِرَا

ثم أجاب من اقترح الآيات، فقال:

﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **وقالوا** ﴾؛ أى: كفار قريش: ﴿ **يأيها الذين نُزّل عليه الذكْرُ** ﴾ فى زعمه، أو قالوه تهكمًا، ﴿ **إنك لمجنون** ﴾ أى: إنك لتقول قول المجانين، حين تدعى أنه ينزل عليك الذكر، أى: القرآن. ﴿ **لوْ ما** ﴾: هلا ﴿ **تأتينا بالملائكة** ﴾ ليصدقوك فيما تدعى، أو يعضدوك على الدعوى، أو للعقاب على تكذيبنا، ﴿ **إن كنت من الصادقين** ﴾ فى دعواك، قال تعالى: ﴿ **ما نُنزّلُ الملائكةَ** ﴾؛ لعذابهم أو لغيره ﴿ **إلا بالحق** ﴾ من الوحى، والمصالح التى يريدها الله، لا باقتراح مقترح، أو اختيار كافر، أو: إلا تنزيلاً ملتبساً بالحق، أى: بالوجه

= بها، فيغضب الله تعالى لهم، بفضل رحمته، فيأمر بكل من كان من أهل القبلة فى النار فيخرجون منها، فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين» . أخرجه ابن جرير فى التفسير، وابن أبى عاصم فى السُّنة (٤٠٥/١)، وابن أبى حاتم فى تفسيره (٢٢٥٥/٧) والحاكم فى المستدرك (٤٤٢/٢) وصححه.

الذى قدره فى الأزل، واقتضته الحكمة الإلهية، وهو أنه لا تنزل إلا باستئصال العذاب، وقد سبق فى العلم القديم أن من ذريتهم من سبقت كلمتنا له بالإيمان، أو يراد بالحق: العذاب، ويؤيده قوله: ﴿ وما كانوا إذاً منظَرين ﴾ ؛ أى: ولو نزلت الملائكة لعوجلوا، وما كانوا، إذا نزلت، مُؤخرين عن العذاب ساعة.

ثم رد إنكارهم نزولَ الذكر واستهزاءَهُمْ، فقال: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكرَ ﴾ ؛ أى: القرآن، وأكده بأن وضمير الفصل، وحفظه بعد نزوله، كما قال: ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ من التحريف، والزيادة والنقص، بأن جعلناه معجزاً، مباينًا لكلام البشر، لا يخفى تغيير نظمه على أهل اللسان. قال القشيرى: نزل التوراة، ووَكَلَ حفظها إلى بنى إسرائيل، بما استحفظوا من كتاب الله، فحرفوا وبدَّلوا، وأنزل القرآن، وأخبر أنه حافظه، فلا جرم أنه كتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ويقال: إنه أخبر أنه حافظ القرآن، وإنما يحفظه بقرائه، فقلوبُ القُرّاءِ هى خزائنُ كتابه؛ وهو لا يضيع حفظة كتابه، فإن فى ذلك تضييع كتابه. هـ.

وقال ابن عطية على قوله: ﴿ ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ﴾(١): ذهبت جماعة من العلماء إلى أنهم بدلوا ألفاظًا من تلقائهم، وأن ذلك ممكن فى التوراة؛ لأنهم استحفظوها، وغير ممكن فى القرآن؛ لأن الله تعالى ضمن حفظه. هـ.

الإشارة: كل ما جاء فى القرآن من الإنكار على الرسل على أيدى الكفرة وتنقيصهم، والاستهزاء بهم، ففيه تسلية لمن بعدهم من الأولياء. وكذلك ما ذكره الحق تعالى من مقالات أهل الجهل فى جانبه؛ كقوله: ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ﴾(٢)، وقوله: ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة ﴾(٣)، إلى غيرذلك من مقالات أهل الجهل، فكأن الحق تعالى يقول: لو سلِم أحد من الناس، لسلمتُ أنا وأنبيائى، الذين هم خاصة خلقى، فليكن بى وبرسلى أسوة لمن أُوذى من أوليائى. وبالله التوفيق.

ثم تمم تلك التسلية، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(١) من الآية ٧٥ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ١٨١ من سورة آل عمران.
(٣) من الآية ٦٤ من سورة المائدة.

يقول الحق جل جلاله في تسلية رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ **ولقد أرسلنا مِن قَبْلِك** ﴾ رسلا ﴿ **في شيَعِ** ﴾ : فرق ﴿ **الأولين** ﴾ أي: القرون الماضين، جمع شيعة، وهي: الفرقة المتفقة على طريق واحد، وتتشيع لمذهب أو رجل، من شاعه إذا تبعه، أي: نبأنا رجالاً فيهم، وجعلناهم رسلاً إليهم، فكذبوهم واستهزءوا بهم، فكانوا: ﴿ **ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون** ﴾ كما يفعل بك هؤلاء المجرمون.

﴿ **كذلك نَسْلُكُه** ﴾ أي: ندخل الاستهزاء ﴿ **في قلوب المجرمين** ﴾. والسلك: إدخال الشيء في الشيء كالخيط في المخيط، وفيه دليل على أنه تعالى يخلق الباطل في قلوبهم. وإذا سلك في قلوبهم التكذيب ﴿ **لا يؤمنون به** ﴾ أبداً. أو: نسلكه، أي: القرآن؛ مستهزءاً به، أي: مثل ذلك السلك نسلك الذكر في قلوب المجرمين؛ مُكَذَّباً غير مؤمن به، ثم هددهم على عدم الإيمان به، فقال: ﴿ **وقد خلت سُنَّةُ الأولين** ﴾ أي: تقدمت طريقتهم على هذه الحالة من الكفر والاستهزاء، حتى هلكوا بسبب ذلك، أو مضت سنته في الأولين بإهلاك من كذب الرسل منهم، فيكون وعيداً لأهل مكة.

﴿ **ولو فتحنا عليهم** ﴾ أي: على هؤلاء المقترحين المعاندين من كفار قريش، ﴿ **باباً من السماء فظلوا فيه يعرُجون** ﴾ : يصعدون إليها، ويرون عجائبها طول نهارهم، لكذبوا، أو فظلت الملائكة يعرجون فيها وهم يشاهدونهم لقالوا؛ من شدة عنادهم وتشكيكهم في الحق: ﴿ **إنما سُكِّرَتْ** ﴾ : حيرت ﴿ **أبصارُنا** ﴾ ، فرأينا الأمر على غير حقيقته؛ من أجل السكر الذي أصابنا بالسحر.

ويحتمل أن يكون مشتقاً من السَّكر بفتح السين، وهو السد، أي: سُدَّت أبصارنا، ومُنعنا من الرؤية الحقيقية. ﴿ **بل نحن قوم مسحورون** ﴾ ؛ سحرنا محمد، كما قالوا عند ظهور غيره من الآيات. قال البيضاوي: وفي كلمتي الحصر والإضراب دلالة على جزمهم بأن مايرونه لا حقيقة له، بل هو باطل خُيِّل ما خيل لهم بنوع من السحر. هـ. وذلك من فرط عنادهم، وشقاوتهم. والعياذ بالله.

الإشارة: هذا كله من قبيل التسلية لأهل الخصوصية، إذا قوبلوا بالإنكار والاستهزاء، فيرجعون إلى الله، والاكتفاء بعلمه، والاشتغال بالله عنه. وقد قال شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل رضي الله عنه : عداوة العدو حقًا هي اشتغالك بمحبة الحبيب، وأما إذا اشتغلت بعداوة العدو نال مراده منك، وفاتتك محبة الحبيب. وقال الولي الصالح سيدي أبو القاسم الخصاصي رضي الله عنه لبعض تلامذته: لا تشتغل قط بمن يؤذيك، واشتغل بالله يرده عنك، فإنه هو الذي حركه عليك، ليختبر دعواك في الصدق. وقد غلط في هذا الأمر خلق كثير اشتغلوا بإيذاء من آذاهم، فدام الأذى مع الإثم، ولو أنهم رجعوا إلى الله لردهم عنهم، وكفاهم أمرهم . هـ .

ثم دلهم على المعجزة الحقيقية، التى تدلهم على التوحيد الذى فيه نجاتهم، فقال:

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **ولقد جعلنا فى السماء بروجا** ﴾؛ اثنى عشر برجاً، وهى: الحمَل، والثور، والجوْزاء، والسرطان، والأسد، والسُنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدْى، والدلو، والحوت، والبرج عبارة عن قطعة فى الفلك تقطعها الشمس فى شهر؛ فتقطع البروج كلها فى سنة، ستة يمانية، وستة شمالية، وهى مختلفة الهيئات والخواص، على ما دل عليه الرصد والتجربة. وكل ذلك بقدرة المدبر الحكيم. قال تعالى: ﴿ **وزيَّناها** ﴾ بالأشكال والهيئات البهية ﴿ **للناظرين** ﴾ المعتبرين؛ ليستدلوا بها على قدرة مبدعها، وتوحيد صانعها. ﴿ **وحفظناها من كل شيطانٍ رجيم** ﴾: مرجوم، فلا يقدر أن يصعد إليها ليسترق السمع منها، أو يوسوس أهلها، أو يتصرف فى أمرها، أو يطلع على أحوالها.

﴿ **إلا من استَرَق السمعَ** ﴾ أى: حفظناها من الشياطين، إلا من استرق منها. والاستراق: الاختلاس، رُوى أنهم يركبون بعضهم بعضاً حتى يصلوا إلى السماء، فيسمعون أخبار السماء من الغيب، فيخطف الجن الكلمة قبل الرمى فيلقيها إلى الكهنة، ويخلط معها مائة كذبة، كما فى الصحيح. ورُوى عن ابن عباس: أنهم كانوا لا يحجبون عن السماوات، فلما ولد عيسى عليه السلام مُنعوا من ثلاث سماوات، فلما وُلد محمد ﷺ مُنعوا من كلها بالشهب. وقيل: الاستثناء منقطع، أى: ولكن من استرق السمع، ﴿ **فأتْبَعه** ﴾ لحقه ﴿ **شهابٌ مبين** ﴾؛ ظاهر للمبصرين. والشهاب: شُعلة نار يقتبسها الملك من النجم، ثم يضرب به المسترق، وقيل: النجوم هى التى تضرب بنفسها، فإذا أصابت الشيطان قتلته أو خبلته فيصير غولاً.

ثم ذكر معجزة الأرض فقال: ﴿ **والأرض مددناها** ﴾: بسطناها، ﴿ **وألقينا فيها رواسى** ﴾؛ جبالاً ثوابت، ﴿ **وأنبتنا فيها** ﴾؛ فى الأرض، أو فيها وفى الجبال ﴿ **من كل شيء موزون** ﴾؛ مقدر بمقدار معين تقتضيه

حكمته. فالوزن مجاز، أو ما يوزن حقيقة كالعشب النافعة، أو كالذهب والفضة وسائر الأطعمة. ﴿ **وجعلنا لكم فيها معايش** ﴾ تعيشون بها من المطاعم والملابس، ﴿ و ﴾ خلقنا لكم ﴿ **من لستم له برازقين** ﴾ من الولدان والخدمة والمماليك، وسائر ما تظنون أنكم ترزقونهم ظناً كاذبا؛ فإن الله يرزقكم وإياهم.

قال البيضاوى: وفذلكة الآية: الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بمقدار معين، مختلفة الأجزاء فى الوضع، محدثة فيها أنواع النباتات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة، مع جواز ألا تكون كذلك؛ على كمال قدرته، وتناهى حكمته، والتفرد فى ألوهيته، والامتنان على العباد بما أنعم فى ذلك ليوحدوه ويعبدوه. ثم بالغ فى ذلك فقال: ﴿ **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه** ﴾ أى: وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه، فضرب الخزائن مثلاً لاقتداره، أو شبه مقدوراته بالأشياء المخزونة التى لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد. هـ. قال ابن جزى: ﴿ **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه** ﴾؛ قيل: المطر، واللفظ أعم من ذلك، والخزائن: المواضع الخازنة، وظاهر هذا أن الأشياء موجودة قد خلقت. هـ. ﴿ **وما نُنَزِّله** ﴾ أى: نبرزه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، ﴿ **إلا بقَدَرٍ معلوم** ﴾: بمقدار محدود فى وقت معلوم اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة، لا يزيد ولا ينقص على ما سبق به العلم.

﴿ **وأرسلنا الرياحَ لواقحَ** ﴾: حوامل للماء فى أوعية السحاب، يقال: لقحت الناقة والشجرة إذا حملت، فهى لاقحة، وألْقَحَتْ الريحُ الشجرَ فهى ملقحة. ولواقح: جمع لاقحة، أى: حاملة، أو جمع ملقحة على حذف الميم الزائدة، فهى على هذا ملقحة للسحاب أو الشجر، ونظيره: الطوائح، بمعنى المطيحات فى قوله:

ومُخْتَبِــط ممَّــا تُطِيــحُ الطَّــوائحُ(١)

والرياح أربعة: صبًا، ودبُور، وجَنوب، وشمال. والعرب تسمى الجنوب الحامل واللاقحة، وتسمى الشمال الحائل والعقيم. وفى البخارى ﷺ: « نُصِرْتُ بالصَّبَا، وأُهْلِكَتْ عَادٌ بالدَّبُور»(٢). وروى أبو هريرة رضي الله عنه، عنه ﷺ أنه قال: «الرِّيحُ الجنوب من الجنة، وهى اللواقح التى ذكرالله، وفيها منافع للناس»(٣) . وفى حديث: «الرِّيحُ مِنْ نفس الرحمن»(٤). والإضافة هنا إضافة خلق إلى خالق، كما قال: ﴿ **من روحى** ﴾ (٥). ومعنى نفس الرحمن، أى:

---

(١) عجز بيت صدره: (لبيك يزيد ضارع لخصومة). وينسب البيت لأكثر من واحد، والمختبط: طالب العرف المحتاج، تطيح: تذهب وتهلك، والطوائح: جمع المطيحة، بمعنى السنين أو الجوائح. انظر حاشية الشهاب (٥/٢٨٩).

(٢) أخرجه البخارى؛ (كتاب الاستسقاء، باب إذا هبت الريح) من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما -.

(٣) أخرجه ابن جرير فى تفسيره. ووزاد السيوطى، فى الدر المنثور (٤/١٧٩)، عزوه لابن أبى الدنيا فى كتاب السحاب، وأبى الشيخ فى العظمة، والديلمى فى المسند، وابن مردويه، من حديث أبى هريرة.

(٤) أخرجه أبو داود فى (الأدب، باب: ما يقول إذا هاجت الريح)، عن أبى هريرة، مرفوعاً، بلفظ: (الريح من روح الله)؛ مطولاً.

(٥) من الآية ٢٩ من سورة الحجر.

من تنفيسه وإزالة الكرب والشدائد، فمن التنفيس بالريح: النصر بالصبا، وذر الأرزاق بها، وجلب الأمطار، وغير ذلك مما يكثر عده. قاله ابن عطية.

والمختار في تفسير اللواقح: أنها حاملة للماء، بدليل قوله: ﴿ **فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه** ﴾ أي: جعلناه لكم سقيا. يقال: سقى وأسقى بمعنى واحد عند الجمهور. ﴿ **وما أنتم له بخازنين** ﴾: بممسكين له في الجبال، والغدران، والعيون، والآبار، فتخرجونه متى شئتم، بل ذلك من شأن المدبر الحكيم، فإن طبيعة الماء تقتضي الغور، فوقوفه دون حد لابد له من مسبب مخصص، وجريه بلا انتهاء لا يكون إلا بقدرة السميع العليم، الذي لا تتناهى قدرته. أو: ﴿ **وما أنتم له بخازنين** ﴾؛ بقادرين متمكنين من إخراجه وقت الاحتياج إليه. نفى عنهم ما أثبته لنفسه بقوله: ﴿ **عندنا خزائنه** ﴾.

﴿ **وإنا لنحن نُحيي ونُميت** ﴾ أي: نحيي من نريد إحياءه بإيجاد الحياة فيه، ونميت من نريد إماتته بإزالة الحياة منه. وقد أول الحياة بما يعم الحيوان والنبات. وتكرير الضمير؛ للدلالة على الحصر. ﴿ **ونحن الوارثون** ﴾: الباقون إذا مات الخلائق كلهم.

﴿ **ولقد علمنا المستقدِمين منكم ولقد علمنا المستأخرين** ﴾ أي: علمنا من تقدم؛ ولادةً، ومن تأخر، أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعدُ، أو من تقدم إلى الإسلام والجهاد وسبق إلى الطاعة، ومن تأخر، لا يخفى علينا شيء من أحوالكم. وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته، فإنّ ما يدل على كمال قدرته دليل على كمال علمه. قيل: رغّب رسولُ الله ﷺ في الصف الأول، فازدحموا عليه، فنزلت، وقيل: إن امرأة حسناء كانت تصلي خلف رسول الله ﷺ، فتقدم بعض القوم؛ لئلا ينظر إليها، وتأخر بعض؛ ليبصرها، فنزلت[1]. قاله البيضاوي.

﴿ **وإن ربك هو يحشرهم** ﴾ لا محالة للجزاء، كأن هذا هو الغرض من ذكر العلم بالمتقدمين والمتأخرين؛ لأنه إذا أحاط بهم علماً لم تصعب عليه إعادتهم وحشرهم. ﴿ **إنه حكيمٌ** ﴾ باهر الحكمة، ﴿ **عليم** ﴾؛ واسع العلم والإحاطة بكل معلوم. قال البيضاوي: وفي توسيط الضمير - يعني في قوله: ﴿ **هو يحشرهم** ﴾؛ للدلالة على أنه القادر والمتولي لحشرهم لا غيره، وتصدير الجملة بأن؛ لتحقيق الوعيد والتنبيه على أن ما سبق من الدلالة على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الأشياء يدل على صحة الحكم. هـ.

الإشارة: ولقد جعلنا في سماء قلوب العارفين بروجًا، وهي المقامات التي ينزلون فيها بشموس عرفانهم، وهي: التوبة، والخوف، والرجاء، والورع، والزهد، والصبر، والشكر، والرضى، والتسليم، والمحبة، والمراقبة،

والمشاهدة. وزيناها للناظرين؛ أى: السائرين حتى يقطعوها جملة محمولين بعناية الجذب، حتى يَحْلُو لهم ما كان مُراً على غيرهم، وحفظنا سماء قلوبهم من طوارق الشيطان، إلا ما كان طيفاً خيالياً لا يثبت، بل يتبعه شهاب الذكر فيحرقه، وأرضَ النفوس مددناها لقيام رسم العبودية، وظهور عالم الحكمة وآثار القدرة، وألقينا فيها جبال العقول الرواسى، لتعرف الرب من المربوب الذى اقتضته الحكمة. وأنبتنا فيها من العلوم الرسمية والعقلية، ما قدر لها فى العلم المكنون، وجعلنا لكم فيها من علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين ما تتقوت به قلوبكم، وتعيش به أرواحكم وأسراركم، وتعولون به من لستم له برازقين من المريدين السائرين.

سُئل سهل رضي الله عنه عن القوت، فقال: هو الحى الذى لا يموت، فقيل: إنما سألناك عن القوام. فقال: القوام هو العلم، فقيل: سألناك عن الغذاء، فقال: الغذاء هو الذكر، فقيل: سألناك عن طعام الجسد، فقال: مالَكَ وللجسد، دع من تولاَّه أولاً يتولاه آخراً، إذا دخلت عليه علة رده إلى صانعه، أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردوها إلى صانعها حتى يصلحها. وأنشدوا:

يَا خَادِمَ الجِسْمِ كَمْ تَشْقَى بِخِدْمَتِهِ ... وَتَطْلُب الرِبْحَ ممـا فيه خُسْرَانُ

عليك بالنفسِ فاستكمل فضيلتها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسانُ

واستكمال فضيلة النفس هو تزكيتها وتحليتها حتى تشرق عليها أنوار العرفان، وتخرج من سجن الأكوان. وبالله التوفيق. ثم قال تعالى: ﴿وإن من شيء﴾ من الأرزاق المعنوية والحسيه، أو العلوم اللدنية، والفتوحات القدسية، ﴿إلا عندنا خزائنه﴾؛ فمن توجه بكليته إلينا فتحنا له خزائن غيبنا، وأطلعناه على مكنون سرنا شيئاً فشيئا، ﴿وما نُنزله إلا بقدر معلوم﴾. وقال الورتجبى: عِلْم الإشارة فى الآية: دعوة العباد إلى حقائق التوكل، وهى: قطع الأسباب، والإعراض عن الأغيار، قيل: كان الجنيد رضي الله عنه إذا قرأ هذه الآية ؛ ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ ، قال : فأين تذهبون؟. وقال حمدون: قطع أطماع عبيده عمن سواه بقوله: ﴿وإن من شئ إلا عندنا خزائنه﴾ ، فمن رفع بعد هذا حاجته إلى غيره، فهو لجهله ولؤمه. هـ.

وأرسلنا رياح الهداية لواقح، تلقح الطمأنينة والمعرفة فى قلوب المتوجهين، وتلقح اليقين والتوفيق فى قلوب الصالحين، وتلقح الإيمان والهداية فى قلوب المؤمنين، فأنزلنا من سماء الغيب ماء العلم اللدنى، فأسقيناكموه على أيدى وسائط الشيوخ، أو بلا واسطة، وما أنتم له بخازنين، بل يفيض على قلوبكم عند غلبة الحال، أو لهداية مريد، أو عند الاحتياج إليه عند استفتاح القلوب، وإنا لنحن نُحيى قلوباً بالمعرفة واليقين، ونُميت قلوباً بالجهل والكفر، ونحن الوارثون؛ لبقاء أنوارنا على الأبد. ولقد علمنا المستقدمين منكم إلى حضرة قدسنا بالاستعداد، وإعطاء الكلية

من نفسه، ولقد علمنا المستأخرين عنها بسبب ضعف همته، وإن ربك هو يحشرهم؛ فيُقرب قومًا لسبقهم، ويبعد آخرين لتأخرهم. إنه حكيم عليم.

ثم ذكر أول نشأة الثقلين، ليدل بها على الحشر والإعادة، فقال:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾

قلت: قال فى الصحاح: الحَمأُ المَسْنُونُ: المنتن المتغير. وسُنَّةُ الوجه: صورته، ثم قال: والمسْنُونُ: المصوَّرُ، وقد سَنَنْتُهُ أَسُنُّه سنًّا إذا صوَّرتُه، والمسْنُونُ: المُمَلَّسُ. وفى القاموس: الحَمأُ المسْنُونُ: المنْتِنُ، ورجلُ مَسْنُونُ الوجه: مُمَلَّسُهُ، حَسَنُهُ، سَهْلُهُ. أو فى وَجْهِهِ وأَنْفِهِ طُولٌ. وسنن الطين: عمله فخاراً. هـ. وفى ابن عطية: هو من سننت السكين والحجر: إذا أحكمت تلميسه. انظر بقية كلامه. وموضع ﴿من حمأ﴾: نعت لصلصـــال، أى: كائن من حمأ. و(الجان): منصـوب بمحذوف يفسره ما بعده.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**ولقد خلقنا الإنسانَ**﴾؛ أى: أصله، وهو آدم، ﴿**من صَلصَال**﴾ أى: طين يابس يصلصل. أى: يصوت إذا نقر فيه وهو غير مطبوخ، فإذا طُبخ فهو فخار، ﴿**من حمأ**﴾ : من طين أسود ﴿**مسنون**﴾ : متغير منتن، من سننت الحجر على الحجر إذا حككته به؛ فإنَّ ما يسيل بينهما يكون منتناً، ويسمى سنيناً . أو مسنون: مصور، أو مصبوب لينصور، كالجواهر المذابة تصب فى القوالب، من السن، وهو الصب، كأنه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف، فيبس حتى إذا نقر صلصل، ثم غير ذلك طوراً بعد طور حتى سواه ونفخ فيه من روحه.

﴿ **والجانَّ** ﴾وهو: إبليس الأول، ومنه تناسلت الجن، ﴿**خلقناه من قبلُ**﴾ أى: من قبل خلق الإنسان، ﴿**من نار السَّمُوم**﴾: من نار الحر الشديد النافذ فى المسام، ولا يمتنع خلق الحياة فى الأجرام البسيطة، كما لم يمتنع خلقها فى الجواهر المجردة، فضلاً عن الأجساد المؤلفة، التى الغالب فيها الجزء النارى، فإنها أقبل منها لها من التى الغالب فيها الجزء الأرضى. وقوله : ﴿**من نار**﴾ : لاعتبار الغالب، كقوله: ﴿**خلقكم من تراب**﴾(١). ومساق الآية كما هو للدلالة على قدرة الله تعالى، وبيان بدء خلق الثقلين، فهو للتنبيه على المقدمة الثانية التى يتوقف عليها إمكان الحشر، وهو قبول المواد للجمع والإحياء. قاله البيضاوى.

---

(١) من الآية ١١ من سورة فاطر.

الإشارة : اعلم أن الخمرة الأزلية، حين تجلت فى مرائى جمالها، تلونت فى تجليها، فتجلت نورانية ونارية، ومائية وترابية، وسماوية وهوائية، إلى غير ذلك من ألوان تجلياتها، فكانت الملائكة من النور، والجن من النار، والآدمى من التراب، إلا أن الآدمى فيه روح نورانية سماوية، فاجتمع فيه الضدان: النور والظلمة؛ فشرف قدره فى الجملة، فاستحق الخلافة، فإذا غلبت روحانيته على جسمانيته فضل على جميع التجليات، وما مثاله إلا كالمرآة التى خلفها الطلاءُ، فينطبع فيه الوجود بأسره، إذا صقلت مرآة قلبه، فتكون معرفته بالحق أجلى وأنصع من معرفة غيره؛ لأن المرآة التى خلفها الطلاء يتجلى فيها ما يقابلها أكثر من غيرها. وأيضا بشرية الآدمى كالياقوتة السوداء إذا صقلت كانت أعظم اليواقيت. وسيأتى بقية الكلام عند قوله تعالى: ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم** ﴾(١) إن شاء الله.

ثم ذكر تشريف آدم الملائكة بالسجود له، فقال:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾

قلت : (وإذْ قال): ظرف لاذكر، وقوله: (فقَعُوا): أمْرٌ، من وقَع، يقع، قَعْ، فهو مما حُذفت فاؤه. وقوله: ﴿فسجد﴾ معطوف على محذوف، أى: فخلقه، وأمر الملائكة فسجدوا.

---

(١) من الآية ٧٠ من سورة الإسراء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر يا محمد ﴿ **إذْ قال ربك للملائكة** ﴾، قبل خلق آدم: ﴿ **إني خالق بشرًا من صلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ** ﴾، وصفه لهم بذلك ليظهر صدق من يمتثل أمره، قال تعالى: ﴿ **فإذا سويتُه** ﴾: عدلت خلقته وهيأتها لنفخ الروح فيها، ﴿ **ونفختُ فيه من روحى** ﴾؛ حين جرى آثاره فى تجاويف أعضائه فحيى، وأصل النفخ: إجراء الروح فى تجويف جسد آخر. ولما كان الروح يتعلق أولاً بالبخار اللطيف المنبعث من القلب، وتفيض عليه القوة الحيوانية فيسرى فى تجاويف الشرايين إلى أعماق البدن، جعل تعلقه بالبدن نفخًا. قاله البيضاوى. وأضاف الروح إلى نفسه إضافة ملك إلى مالك، أى: من الروح الذى هو لى، وخلق من خلقى.

فإذا نفختُ فيه ﴿ **فقَعُوا** ﴾: فاسقطوا ﴿ **له ساجدين. فسجد الملائكةُ** ﴾ حين أكمل خلقته، وأمرهم بالسجود، وقيل: اكتفى بالأمر الأول، ﴿ **كلُّهم أجمعون** ﴾، أكد بتأكيدين للمبالغة فى التعميم ومنع التخصيص، ﴿ **إلا إبليس أبى** ﴾: امتنع ﴿ **أن يكون مع الساجدين** ﴾، قال البيضاوى: إن جُعِل الاستثناء منقطعاً اتصل به قوله: ﴿ **أبىَ** ﴾؛ أى: لكن إبليس أبَى أن يسجد(١)، وإن جُعِل متصلاً كان قوله ﴿ أبَى ﴾: استئنافاً، على أنه جواب سائل قال: هلا سجد؟ فقال: أبى.. الخ. **قلت**: والأحسن: أن يقدر السؤال بعد قوله: ﴿ **إلا إبليس أبى** ﴾ أى: وما شأنه؟ فقال: أبى أن يكون مع الساجدين.

قال تعالى: ﴿ **يا إبليسُ مالكَ** ﴾؛ أىّ شىء عرض لك، ﴿ **ألا تكونَ مع الساجدين** ﴾ لآدم؟ ﴿ **قال لم أكن لأسجُدَ** ﴾ أى: لا يصح منى، بل ينافى حالى أن أسجد ﴿ **لبشرٍ** ﴾ جسمانى كثيف، وأنا روحانى لطيف، وقد ﴿ **خلقتَه من صلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ** ﴾، وهو أخس العناصر، وخلقتنى من نار وهى أشرفها. استنقص آدم من جهة الأصل، وغفل عن الكمالات التى خصه الله بها، منها: أنه خلقه بيديه بلا واسطة، أى: بيد القدرة والحكمة، بخلاف غيره، ومنها: أنه خصه بالعلوم التى لم توجد عند غيره من الملائكة، ومنها: أنه نفخ فيه من روحه المضافة إلى نفسه، ومنها: أنه جعله خليفة فى أرضه... إلى غير ذلك من الخواص التى تشرف بها فاستحق السجود.

---

(١) وهذا هو الصحيح؛ فإبليس، بنص الآية السابقة عن خلق الجان، قد خُلق من نار السموم، فهذا نص فى اختلاف خلقته، وخلقه، عن الملائكة، فهو جنس آخر غير الملائكة التى خلقها الله من نور، ولا يعصون الله ما أمرهم، فهذان دليلان قطعيان فى الثبوت والدلالة، على أن إبليس ليس، ولم يكن من الملائكة، لاخلْقاً ولاخلُقاً، فالاستثناء منقطع.

قال له تعالى لمَّا امتنع واستكبر: ﴿فاخرجْ منها﴾ أى: من السماء، أو من الجنة، أو من زمرة الملائكة، ﴿فإنك رجيمٌ﴾: مطرود من الخير والكرامة؛ فإنَّ من يُطرد يُرجم بالحجر، أو شيطان يرجم بالشهب، فهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته، أى: ليس الشرف بالأصل، إنما الشرف بالطاعة والقرب. ﴿وإن عليك اللعنةَ﴾: الطرد والإبعاد ﴿إلى يوم الدين﴾؛ يوم الجزاء، ثم يتصل باللعن الدائم. وقيل: إنما حد اللعن لأنه أبعد غاية يضربها الناس، أو لأنه يعذب فيه بما ينسى اللعن، فيصير كأنه زال عنه ذلك اللعن.

﴿قال ربِ فأنْظِرنى﴾: أخرنى ﴿إلى يوم يُبعثون﴾، أراد أن يجد فسحة فى الإغواء، ونجاة من الموت، إذ لا موت بعد وقت البعث، فأجابه إلى الأول دون الثانى، ﴿قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾: المعين فيه أجلك عند الله، وانقراض الناس كلهم، وهو النفخة الأولى عند الجمهور.

وهذه المخاطبة، وإن لم تكن بواسطة، لا تدل على منصب إبليس؛ لأن خطاب الله له على سبيل الإهانة والإذلال. قاله البيضاوى. وجزم ابن العربى، فى سراج المريدين، بأن كلام الحق تعالى إنما كان بواسطة، قال: لأن الله لا يكلم الكفار الذين هم من جند إبليس، فكيف يكلم من تولى إضلالهم. هـ. وتردد المازَرىُّ فى ذلك وقال: لا قاطع فى ذلك، وإنما فيه ظواهر، والظواهر لاتفيد اليقين. ثم قال: وأما قوله: ﴿ما منعك أن تسجد﴾: فيحتمل أن يكون بواسطة أو بغيرها، تقول العرب: كلمت فلاناً مشافهة، بالكلام، وتارة بالبعث. هـ. قلت: الظاهر أنه كلمه بلا واسطة من وراء حجاب، كلامَ عتابٍ وإهانة، كما يوبخ الكفار يوم القيامة، مع أن الواسطة محذوفة عند المحققين، وإن وُجِدَتْ، صُورةً.

ثم قال: ﴿ربِّ بما أغويتنى﴾ أى: بسبب إغوائك لى، ﴿لأُزَيّنَنَّ لهم فى الأرض﴾، وقيل: الباء للقسم، أى: بقدرتك على إغوائى، لأزينن لهم المعاصى والكفر فى الدنيا، التى هى دار الغرور. قال ابن عطية: قوله: ﴿ربِّ﴾: مع كفره، يُخرج على أنه يقر بالربوبية والخلق، وهذا لا يدفع فى صدر كفره. وقال، على قوله: ﴿لم أكن لأسجد﴾: ليس هذا موضع كفره عند الحذاق؛ لأن إبايته إنما هى معصية فقط، أى: وإنما كفره لاعتراضه لأمر الحق واستكباره. وأما قوله وتعليله فإنما يقتضى أن آدم مفضول، وقد أمره أن يسجد لمن هو أفضل منه، فرأى أن ذلك جور، فقاس وأخطأ، وجهل أن الفضائل إنما هى حيث جعلها الله تعالى المالك للجميع. هـ. مختصراً. وقال المازرى: أما كفر إبليس فمقطوع به؛ لقوله: ﴿استكبر وكان من الكافرين﴾[1] ثم قال: ويؤكده قوله: ﴿ربِّ بما أغويتنى﴾، وقوله: ﴿لأملأن جهنم منك...﴾ الآية[2]، وغير ذلك من ظواهر ما يدل على كفره.

---

(١) من آية ٣٤ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٨٥ من سورة (ص).

وأما: هلْ حدث هذا الكفر بعد إيمان سابق، أو لم يزل كافراً منذ كان؟ فهذا لا يحصله إلا نص قرآن، أو خبر متواتر، أو إجماع أمة، وهي المحصلة للعلم، وهذه الثلاثة مفقودة هنا. هـ. قلت: والظاهر أن كفره لم يظهر إلا بعد الأمر بالسجود لآدم، وإنما سبق به العلم القديم، وكان قد أظهر الإيمان والعبادة والله تعالى أعلم.

وقوله : ﴿ ولأُغوينَّهم أجمعين ﴾ ؛ أي: لأحملنهم على الغواية أجمعين، ﴿ إلا عبادكَ منهم المخلَصين ﴾ ؛ الذين أخلصتهم لطاعتك، وطهرتهم من الشهوات، فلا يعمل فيهم كيدي. ومن قرأ بالكسر فمعناه: الذين أخلصوا دينهم لله، وتحصنوا بالإخلاص في سائر أعمالهم. ﴿ قال ﴾ تعالى: ﴿ هذا صراطٌ عليَّ مستقيمٌ ﴾، الإشارة إلى نجاة المخلصين، أو إلى العبادة والإخلاص، أي: هذا الطريق الذي سلكه أهل الإخلاص في عبوديتهم هو طريق وارد عليَّ، وموصل إلى جِواري، لا سبيل لك على أهله؛ لأنه مستقيم لا عوج فيه. وقيل: الإشارة إلى انقسام الناس إلى غاو ومخلص، أي: هذا أمر إليَّ مصيره، والنظر فيه لي، عليَّ أن أراعيه وأبينه، مستقيم لا انحراف فيه. وقرأ الضحاك ومجاهد والنخعي، وغيرهم: «علِيٌّ»؛ بكسر اللام والتنوين، من العلو والشرف، والإشارة حينئذ إلى الإخلاص، أي: هذا الإخلاص طريق رفيع مستقيم لا تنال أنت بإغوائك أهلَه يا إبليس.

الإشارة: إنما يصعب الخضوع للجنس أو لمن دونه، في حق من يغلب حسه على معناه، وفرقُه على جمعه، وأما من غلب معناه على حســه، حتى رأى الأشـياء الحسية أواني حاملة للمعاني، أي : لمعاني أسرار الربوبية، بل رآها أنواراً بارزة من بحر الجبروت، لم يصـعب عليه الخضـوع لشيء من الأشــياء؛ لأنه يراها قائمة بالله، ولا وجود لهـا مع الله، فلا يخضـع حينئـذ إلا لله، فالملائكة ـ عليهم السلام ـ نفذت بصيرتهم، فرأوا آدم عليه السلام قبلة للحضرة القدسية، فغلب عليهم شهود المعاني دون الوقوف مع الأواني، فخضعوا لآدم صورةً، ولله حقيقة. وإبليس وقف مع الحس، وحجب بالفرق عن الجمع، فلم ير إلا حس آدم دون معناه، فامتنع عن السجود. وفي الحِكَم العطائية: «فمن رأى الكون، ولم يشـهد الحق فيـه، أو عنـده، أو قبله، أو بعـده، أو معـه، فقد أعـوزه وجود الأنـوار، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار». ولهذا المعنى صعب الخضوع للأشباح؛ لغلبة الفرق على الناس، إلا من سبقت له العناية، فإنه يخضع مع الفرق؛ محبةً لله، حتى يفتح الله عليه في مقام الجمع، فيخضع لله وحده. والتوفيق لهذا، والسير على منهاجه ـ أعني الخضوع لمن يوصل إلى الله ـ هو الصراط الذي أشار إليه الحق تعالى بقوله: (هذا صراط عَلَيَّ مستقيم). والله تعالى أعلم.

ثم ذكر من لا تسلط للشيطان عليه، فقال:

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ

جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

قلت: (إلا من اتبعك): يحتمل أن يكون منقطعاً، ويريد بالعباد: الخصوص من أهل الإيمان والإخلاص، أي: إن عبادى المخلَصين لا تسلط لك عليهم، لكن من اتبعك من الغاوين فهو من حزبك. ويحتمل الاتصال، ويريد بالعباد جميع الناس، أي: إن عبادى كلهم ليس لك عليهم سلطان، إلا من اتبعك من أهل الغواية، فإنك تتسلط عليه بالوسوسة والتزيين والتحريض فقط، فيتبعك؛ لقوله يوم القيامة: ﴿ **وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى** ﴾[1]. وعلى الإتصال يكون المستثنى منه أكثر من المستثنى، وإلا تَنَاقَضَ مع قوله: ﴿لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾. قال أبو المعالى: كون المستثنى أكثر من المستثنى منه ليس معروفاً في كلام العرب. انظر ابن عطية والبيضاوى.

و﴿منهم﴾: حال من جزء مقدم، أي: لكل باب جزء حاصل منهم مقسوم، أو من المستكن فى الظرف لا من مقسوم؛ لأن الصفة لا تعمل فيما تقدم موصوفها. و﴿إخواناً﴾: حال من الضمير المضاف إليه؛ لأنه جزء ما أضيف إليه، والعامل فيه: الاستقرار، أو معنى الإضافة، وكذا: ﴿على سُرُر متقابلين﴾، ويجوز أن يكونا صفتين لإخوان، أو حالين من ضميره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **إنَّ عبادى** ﴾ المتحققين بالعبودية لى، المخلصين فى أعمالهم، ﴿ **ليس لك** ﴾ يا إبليس ﴿ **عليهم سلطانٌ** ﴾ أي: غلبة وتسلط بالغواية والإضلال، ﴿ **إلا من اتبعك من الغاوين** ﴾ الذين سبقت لهم الغواية، وتنكبتهم العناية. ﴿ **وإنَّ جهنم لموعدهم** ﴾: لموضع إبعاد الغاوين أو المتبعين لك ﴿ **أجمعين** ﴾، ﴿ **لها سبعة أبواب** ﴾ يدخلون فيها لكثرتهم، أو طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم فى المتابعة، وفى كل طبقة باب يسلك منه إليها، فأعلاها: جهنم، وهى للمذنبين من الموحدين، ثم لظى لليهود، ثم الحُطمة للنصارى، ثم السعير للصابئين، ثم سقر للمجوس، ثم الجحيم للمشركين، وكبيرهم أبو جهل، ثم الهاوية، وهى الدرك الأسفل، للمنافقين،

(١) من الآية ٢٢ من سورة إبراهيم.

وعبَّر فى الآية عن النار؛ جملة، بجهنم؛ إذ هى أشهر منازلها وأولها، وهو موضع العصاة الذين لا يخلدون، ولهذا رُوى أن جهنم تخرب وتبلى، يعنى: حين يخرج العصاة منها. وقيل: أبواب الطبقات السبع كلها من جهنم، ثم ينزل من كل باب إلى طبقته التى تفضي إليه. قاله ابن عطية.

قال البيضاوى: ولعل تخصيص العدد بالسبعة، لانحصار مجامع المهلكات فى الركون إلى المحسوسات، ومتابعة القوة الشهوية والغضبية. هـ. فالقوة الشهوية محلها ست وهى: السمع والبصر والشم واللسان والبطن والفرج. والقوة الغضبية فى البطش باليد والرجل، فالمعاصى المهلكات جلها من هذه السبع، وملِكها القلب، إذا صلح صلحت، وإذا فسد فسدت. كما فى الحديث. ثم قال البيضاوى: أو لأن أهلها فرق سبع. هـ. يعنى: الفرق التى تقدمت للطبقات، قال تعالى: ﴿ لكل بابٍ منهم ﴾ أى: من الأتباع ﴿ جُزءٌ مَقْسومٌ ﴾ أفرد له، لا يدخل إلا منه، ولا يسكن إلا فى طبقته. وقد تقدم أهل كل طبقة، من عصاة الموحدين إلى المنافقين.

ثم شفع بضدهم، على عادته سبحانه وتعالى فى كتابه، فقال: ﴿ إنَّ المتقين ﴾ للكفر والفواحش، أو لمتابعة إبليس، ﴿ في جنات وعيون ﴾، لكل واحد جنة وعين، أو لكل واحد جنات وعيون، يقال لهم عند دخولهم: ﴿ ادخلُوها ﴾، وقرأ رويس عن يعقوب: «أُدخِلوها»؛ بضم الهمزة وكسر الخاء، على البناء للمفعول، فلا يكسر حينئذ التنوين، أى: تقول الملائكة لهم: ادخلوها، أو قد أدخلهم الله إياها. ﴿ بسلام ﴾ أى: سالمين من المكاره والآلام، أو مسلماً عليكم بالتحية والإكرام، ﴿ آمنين ﴾ من الآفة والزوال.

﴿ ونَزَعْنا ما فى صُدُورهم من غِلّ ﴾ أى: من حقد وعداوة كانت فى الدنيا، وعن على رضي الله عنه: (أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم)، أو من التحاسد على درجاتِ ومراتبِ القُرْبِ.

قلت: أما التحاسد على مراتب القرب فلا يكون؛ لاستغناء كل أحد بما لديه، وأما التأسف والندم على فوات ذلك بالتفريط فى الدنيا فيحصل، ففى الحديث: «ليس يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الجنَّةِ علَى شيء إلاَّ علَى ساعَةٍ مَرَّتْ لهمْ لَمْ يَذْكُرُوا الله فيهاَ»(١). ولا يحصل التحسر حتى يرى ما فاته باعتبار وقوفه. قال ابن عطية: ذكر هنا نزع الغل من قلوب أهل الجنة، ولم يذكر له موطناً، وجاء فى بعض الحديث أن ذلك على الصراط، وجاء فى بعضها: أن ذلك على أبواب الجنة، وفى بعضها: أن الغل يبقى على أبوابها كمعاطن الإبل. ثم قال: وجاء فى بعض الأحاديث: أن نزع الغل إنما يكون بعد استقرارهم فى الجنة. والذى يقال فى هذا: أن الله ينزعه فى موطن من قوم وفى موطن من آخرين. هـ.

---

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (باب فى محبة الله عز وجل ٥١٢) من حديث معاذ بن جبل، وعزاه السيوطى فى الجامع الصغير (٤٧١/٢) للطبرانى والبيهقى فى الشعب، ورمز له بالحسن.

قلت: والذى جاء فى الأحاديث الواردة فى أخبارالآخرة: أن أهل الجنة، إذا قربوا منها وجدوا على بابها عينين، فيغتسلون فى إحداهما، فتنقلب أجسادهم على صورة آدم عليه السلام، ثم يشربون من الأخرى فتطهر قلوبهم من الغل والحسد، وسائر الأمراض، وهو الشراب الطهور. قال القشيرى فى قوله تعالى: ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾(١) : يقال: يُطَهِّرُهم من محبة الأغيار، ويقال: ويُطهرهم من الغِلِّ والغِشِّ والدَّعْوَى... الخ ما يأتى إن شاء الله تعالى. والله تعالى أعلم، وسترى وتعلم.

ثم قال تعالى: ﴿ إخواناً ﴾، أى: لما نزعنا ما فى صدورهم من الغل صاروا إخواناً متوددين، لا تباغض بينهم ولا تحاسد، ﴿ على سُرُرٍ متقابلين ﴾ ؛ يقابل بعضهم بعضاً على الأسرة، لا ينظر أحد فى قفاء صاحبه. وقال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى: المتجه أن المقابلة معنوية، وهى عدم إضمار الغل والإعراض، سواء اتفق ذلك حساً أم لا، ومن أضمر لأخيه غلاً فليس بمقابله، ولو كان وجهه إلى وجهه، بل ذلك أخلاقُ نِفَاقٍ، ولذلك شواهد بذمه لا بمدحه. هـ. ﴿ لا يَمسُّهم فيها نَصَبٌ ﴾ أى: تعب، ﴿ وما هم منها بمخْرَجين ﴾، لأن تمام النعمة لا يكون إلا بالخلود والدوام فيها. أكرمنا الله بتمام نعمته، ودوام النظر إلى وجهه. آمين.

الإشارة: لا ينقطع عن العبد تسلط الشيطان حتى يدخل مقام الشهود والعيان، حين يكون عبداً خالصاً لله، حراً مما سواه، وذلك حين ينخرط فى سلك القوم، ويزول عنه لوث الحدوث والعدم، فيفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل، وذلك بتحقيق مقام الفناء، ثم الرجوع إلى مقام البقاء. قال الشيخ أبو المواهب رضي الله عنه: من رجع إلى البقاء أمن من الشقاء؛ وذلك أن العبد حين يتصل بنور الله، ويصير نوراً من أنواره، يحترق به الباطل ويدمغ، فلا سبيل للأغيار عليه. ولذلك قال بعضهم: نحن قوم لا نعرف الشيطان، فقال له القائل: فكيف، وهو مذكور فى كتاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾(٢) ؟. فقال: نحن قوم اشتغلنا بمحبة الحبيب، فكفانا عداوة العدو. وحين يتحقق العبد بهذا المقام ينخرط فى سلك قوله تعالى: ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون. ادخلوها بسلام آمنين. ونزعنا ما فى صدورهم من غل.. ﴾ الآية، وهذا لا ينال إلا بالخضوع لأهل النور، حتى يوصلوه إلى نور النور، فيصير قطعة من نور، غريقًا فى بحر النور. ومع هذا لا ينقطع عنه الخوف والرجاء، لقوله تعالى:

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾

---

(١) من الآية ٢١ من سورة الإنسان. (٢) من الآية ٦ من سورة فاطر.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ نبئ ﴾ : أخبر، ﴿ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾ لمن آمن بى، وصدق رسلى، ﴿ وأنَّ عذابى هو العذابُ الأليم ﴾ لمن كفر بى، وجحد رسلى، أو بعضهم. قال البيضاوى : هى فذلكة ما سبق من الوعد والوعيد، وتقرير له، وفى ذكر المغفرة دليل على أنه لم يرد بالمتقين متقى الذنوب بأسرها، كبيرها وصغيرها، وفى توصيف ذاته بالغفران والرحمة دون التعذيب. أى: لم يقل وأنا المعذب المؤلم. ترجيح الوعد. هـ.

وذكر ابن عطية أن سبب نزولها: أن رسول الله ﷺ جاء إلى جماعة من أصحابه، عند باب بنى شَيْبَةَ فى الحرم، فوجدهم يضحكون، فزجرهم ووعظهم، ثم ولى، فجاءه جبريل عن الله، فقال: يامحمد أتُقَنِّط عبادى؟ وتلى عليه الآية، فرجع بها رسول الله ﷺ إليهم وأعلمهم[1]. هـ. ثم قال: ولو لم يكن هذا السبب لكان ما قبلها يقتضيها؛ إذ تقدم ذكر ما فى النار وذكر ما فى الجنة، فأكّد تعالى تنبيه الناس بهذه الآية.هـ.

قيل : وهذه الآية أبلغ ما في القرآن في إثارة الخوف والرجاء، من الآى التى لا تشبهها فى الإجمال؛ لما فيها من التصريح، ثم الرجاء فيها أغلب؛ لأجل التقديم، مع ذكره فى آية الرجاء، لصفاته العلية وأسمائه الحسنى، وذلك يؤذن بالتهمم به وترجيحه، وهو مذهب الصوفية فى حال الحياة والممات.

الإشارة : الخوف والرجاء يتعاقبان على الإنسان، فتارة يغلب عليه الخوف، وتارة يغلب عليه الرجاء. هذا قبل الوصول، وأما بعد الوصول فالغالب عليهم الاعتدال، قال فى التنبيه: أما العارفون الموحدون فإنهم على بساط القرب والمشاهدة، ناظرون إلى ربهم، فانون عن أنفسهم، فإذا وقعوا فى ذلة، أو أصابتهم غفلة، شهدوا تصريف الحق تعالى لهم، وجريان قضائه عليهم. كما أنهم إذا صدرت منهم طاعة، أو لاح منهم لائح من يقظة، لم يشهدوا فى ذلك أنفسهم، ولم يروا فيها حولهم ولا قوتهم؛ لأن السابق إلى قلوبهم ذكر ربهم، فأنفسهم مطمئنة تحت جريان أقداره، وقلوبهم ساكنة بما لاح لهم من أنواره، ولا فرق عندهم بين الحالين؛ لأنهم غرقى فى بحار التوحيد، قد استوى خوفهم ورجاؤهم، فلا ينقص من خوفهم ما يجتنبونه من العصيان، ولا يزيد فى رجائهم ما يأتون من الإحسان. هـ. قلت: بل طرق الرجاء عندهم أرجح، كما تقدم؛ لأن الرجاء ناشئ عن غلبة المحبة، وهى غالبة. والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه بنحوه الطبرى فى تفسيره (١٤ / ١٠٢) عن رجل من أصحاب النبى ﷺ، وذكره الواحدى فى أسباب النزول (٢٨٣) بدون سند.

ثم ذكر قصة إبراهيم مع أضيافه؛ لاشتمالها على الرحمة، وهى البشارة بالولد، وعلى النقمة، وهى الإعلام بتعذيب قوم لوط، فقال:

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) ﴾

قلت : ﴿سلامًا﴾: مفعول بمحذوف، أي: سلمنا سلامًا، أو نسلم عليكم سلاماً. والضيف يطلق على الواحد والجماعة، والمراد هنا: جماعة من الملائكة. و(تبشرون) : قرئ بشد النون؛ بإدغام نون الرفع فى نون الوقاية، وبالتخفيف؛ بحذف إحدى النونين، وبالفتح، على أنها نون الرفع. و(يقنط) : بالفتح والكسر، يقال: قنط كضرب وعلِم.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ونبِّئهم ﴾ أى: وأخبر عبادى ﴿ عن ضيفِ إبراهيمَ ﴾ حين بشروه بالولد، وأعلموه بعذاب قوم لوط، لعلهم يعتبرون فيرجون رحمته ويخافون عذابه. أو: ونبئهم أن من اعتمد منهم على كفره وغوايته، فالعذاب لاحق به فى الدنيا، كحال قوم لوط. ثم ذكر قصتهم من أولها فقال: ﴿ **ونبئهم عن ضيف إبراهيم** ﴾ ، وذلك حين ﴿ دخلوا عليه ﴾، وهم أربعة: جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، ﴿ **فقالوا سلاماً** ﴾ أى: نُسلم عليكم سلامًا، قال: سلام، ثم أتاهم بعجل حنيذ، فلما قربه إليهم، قالوا: إنا لا نأكل طعاماً إلا بثمن، فقال إبراهيم: إن له ثمناً، قالوا: وما ثمنه ؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله، وتحمدونه على آخره، فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حق لهذا أن يتخذه ربه خليلاً، فلما رأى أنهم لا يأكلون فزع منهم. ومن طريق آخر: أن جبريل مسح بجناحه العجْل، فقام يدرج حتى لحق بأمه فى الدار. هـ. هكذا ذكر القصة المحشى الفاسى عن ابن حجر.

فلما أحس إبراهيم عليه السلام بالخوف منهم ﴿ **قال إنا منكم وَجِلون** ﴾ : خائفون؛ إما لامتناعهم من أكل طعامه، أو لأنهم دخلوا بغير إذن، أو فى غير وقت الدخول. والوجل: اضطراب النفس لتوقع مكروه. ﴿ **قالوا لا توْجَلْ** ﴾ :

لا تخف، ثم عللوا نهيه عن الخوف فقالوا: ﴿ إنا نُبشِّرك بغلام ﴾ وهو إسحاق، لقوله: ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ﴾(١)، ﴿ عليم ﴾ إذا بلغ أوان العلم. ﴿ قال أبشَّرتُموني على أن مَسَّني الكِبَرُ ﴾ أي: أبشرتموني بالولد مع أني قد كبر سني، وكان حينئذ من مائة سنة وأكثر، ﴿ فبِمَ تُبَشِّرونِ ﴾ ؟ أي: فبأي أعجوبه تبشرون؟ أو فبأي شيء تبشرون؟ فإن البشارة بما لا يتصور وقوعه عادة بشارة بغير شيء. قال ذلك على وجه التعجب من ولادته في كِبَرِهِ.

﴿ قالوا بشرناك بالحق ﴾: باليقين الثابت الذي لا محالة في وقوعه، فلا تستبعده، ولا تشك فيه، ﴿ فلا تكن من القانطين ﴾: من الآيسين، فإن الله تعالى قادر على أن يخلق بشراً من غير أبوين، فكيف من شيخ فانٍ وعجوز عاقرٍ. وكان استعجاب إبراهيم باعتبار العادة دون القدرة؛ ولذلك ﴿ قال ومن يَقْنَطُ من رحمة ربه ﴾ أي: لا ييأس من رحمة ربه ﴿ إلا الضالون ﴾: المخطئون طريق المعرفة، فلا يعرفون سعة رحمته تعالى، وكمال قدرته. قال القشيري: أي: مَنْ الذي يقنط من رحمة الله إلا من كان ضالاً، فكيف أخطأ ظنكم بي، فتوهمتم أني أقنط من رحمة ربي؟. هـ. وفيه دليل على تحريم القنوط؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾(٢).

﴿ قال فما خَطْبُكم أيها المرسلون ﴾ أي: ما شأنكم الذي أُرسلتم لأجله سوى البشارة؟ ولعله علم أن كمال المقصود ليس هو البشارة فقط، لأنهم كانوا عدداً، والبشارة لا تحتاج إلى عدد، ولذلك اكتفى بالواحد في بشارة زكريا ومريم. أو لأنهم بشروه في تضاعيف الحال؛ لإزالة الوجل، ولو كانت تمام المقصود لابتدروه بها. ثم أجابوه: ﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾؛ يعني: قوم لوط؛ لأن شأنهم الإجرام بفعل الفاحشة، ﴿ إلا آلَ لوطٍ ﴾ أي: لكن آل لوط لم نُرْسَل إلى عذابهم؛ إذ ليسوا مجرمين. أو أرسلنا إلى قوم أجرموا كلهم، إلا آل لوط، لنهلك المجرمين وننجي آل لوط، ويدل عليه قوله: ﴿ إنا لمنجُوهُم أجمعين ﴾ من العذاب الذي يهلك به قوم لوط.

قال ابن جزي: قوله: ﴿ إلا آل لوط ﴾: يحتمل أن يكون استثناء من قومه، فيكون منقطعاً؛ لوصف القوم بالإجرام، ولم يكن آل لوط مجرمين. ويحتمل أن يكون استثناء من الضمير في ﴿ مجرمين ﴾؛ فيكون متصلا، كأنه قال: إلى قوم أجرموا كلهم إلا آل لوط فلم يجرموا، وقوله: ﴿ إلا امرأته ﴾؛ استثناء من آل لوط، فهو استثناء من استثناء. قيل: وفيه دليل على أن الأزواج من الآل؛ لأنه استثنى امرأته من آله. وقال الزمخشري: إنما هو

---

(١) من الآية ٧١ من سورة هود. (٢) من الآية ٨٧ من سورة يوسف.

استثناء من الضمير المجرور في قوله: ﴿إنا لمنجوهم﴾، وذلك هو الذي يقتضيه المعنى. هـ. أي: إنا لمنجوهم من العذاب ﴿إلا امرأته قدَّرنا إنها لمن الغابرين﴾؛ الباقين في العذاب مع الكفرة؛ لتهلك معهم، وقرأ أبو بكر عن عاصم: «قدرنا» بالتخفيف، وهما لغتان، يقال: قدّر الله كذا وقدره. قال البيضاوي: وإنما علق، والتعليق من خواص أفعال القلوب؛ لتضمنه معنى العلم، ويجوز أن يكون (قدرنا): أجرى مجرى قلنا؛ لأن التقدير بمعنى القضاء قول، وأصله: جعل الشيء على مقدار غيره، وإسناد التقدير إلى أنفسهم، وهو فعل الله تعالى؛ لما لهم من القرب والاختصاص. هـ.

قلت : وفيه إشارة إلى حذف الوسائط، كما هو توحيد المحققين. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية، فالوجل والخوف والفرح والحزن والتعجب والاستعظام للأشياء الغريبة، كل ذلك من وصف البشر، يقع من الخصوص وغيرهم، لكن فرق بين خاطر وساكن؛ فالخصوص تهجم عليهم ولا تثبت، بخلاف العموم.

ويؤخذ من الآية: أن صحبة الخصوص لا تنفع إلا مع الاعتقاد والتعظيم، فإنَّ امرأة نبي الله لوط كانت متصلة به حساً، ومصاحبة له، ولم ينفعها ذلك، حيث لم يكن لها فيه اعتقاد ولا تعظيم. وكذلك صحبة الأولياء: لا تنفع إلا مع الصدق والتعظيم. وقول ابن عطاء الله: «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه. ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه»: مقيد بوصول التعظيم والاعتقاد، والاستماع والاتباع. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة هلاك قوم لوط، فقال:

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾

فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

قلت: ﴿**وقضينا إليه ذلك الأمر**﴾، القضاء هنا بمعنى القدر السابق، وضمنه معنى أوحينا، فعداه بإلى. و(أنَّ دابر): بدل من الأمر، وفي ذلك تفخيم الأمر وتعظيم له، و﴿**مُصبحين**﴾: حال من «هؤلاء»، أو من ضمير مقطوع، وجمعه؛ للحمل على المعنى؛ لأن دابر بمعنى دوابر، أي: قطعنا دوابرهم حال كونهم داخلين في وقت الصباح. و﴿**لعمرك**﴾: مبتدأ، والخبر محذوف، أي: قسمي، قال ابن عزيز: عَمْرٌ وعُمْرٌ واحد، ولا يقال في القسم إلا مفتوحاً، وإنما فتح في القسم فقط؛ لكثرة الاستعمال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**فلما جاء آلَ لوطٍ المرسلون**﴾، وهم أضياف إبراهيم، فلما دخلوا عليه ولم يعرفهم، ﴿**قال إنكم قومٌ منكَرون**﴾ لا نعرفكم. أو تنكركم نفسي؛ مخافة أن تطرقوني بشيء، ﴿**قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون**﴾ أي: ما جئناك بما تنكرنا لأجله، بل جئناك بما يسرك، وهو: قطع الفاحشة من بلدك، وإتيان العذاب لعدوك الذي توعدناهم، فكانوا يمترون فيه ويشكون في إتيانه، ﴿**وأتيناك بالحق**﴾؛ باليقين الثابت، وهو إتيان العذاب لا محالة، ﴿**وإنَّا لصادقون**﴾ فيما أخبرناك به.

﴿**فأسْرِ بأهلك**﴾: فاذهب بهم ﴿**بقِطْعٍ من الليل**﴾ أي: فاخرج بهم في طائفة من الليل، قيل: آخره، ﴿**واتّبع أدبارهم**﴾ أي: كن خلفهم في ساقتهم، حتى لا يبقى منهم أحد، أو: أمره بالتأخر عنهم؛ ليكونوا قدامه، فلا يشتغل قلبه بهم لو كانوا خلفه؛ لخوفه عليهم، أي: ليسرع بهم، ويطلع على أحوالهم. ﴿**ولا يلتفتْ منكم أحدٌ**﴾ خلفه، لينظر ما وراءه، فيرى من الهول ما لا يطيقه، أو: ولا ينصرف أحد منكم، ولا يتخلف لغرض فيصيبه ما أصابهم. وقيل: نُهوا عن الالتفات ليوطنوا أنفسهم على الهجرة. ﴿**وامضوا حيث تُؤمرون**﴾ أي: إلى حيث أمركم الله، وهو الشام أو مصر، وقال بعضهم: «ما من نبي هلك إلا لحق بمكة، وجاور بها حتى مات».

﴿**وقضينا**﴾: أوحينا ﴿**إليه ذلك الأمرَ**﴾، وهو هلاك قومه، ذكره مبهماً ثم فسره بقوله: ﴿**أنَّ دابر هؤلاء مقطوع**﴾ وهو كناية عن استئصالهم، والمعنى: أنهم يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد، حال كونهم وقت العذاب ﴿**مُصْبِحين**﴾: داخلين في الصباح.

﴿**وجاء أهلُ المدينة**﴾، وهي سدوم، ﴿**يستبشرون**﴾ بأضياف لوط؛ طمعاً فيهم في فعل الفاحشة، والظاهر: أن هذا المجيء إليه، وما جرى له معهم من المحاورة، كان قبل الإعلام بهلاكهم، كما تقدم في هود. وانظر ابن عطية. فلما جاءوه يراودونه عن ضيفه ﴿**قال إنَّ هؤلاء ضيفي فلا تَفْضَحُونِ**﴾؛ بهتك حرمة ضيفي، فإن

من فُضح ضيفه فقد فُضح هو، ومن أُسيء إلى ضيفه فقد أُسيء إليه، ﴿ واتقوا الله ﴾ في ركوب الفاحشة، ﴿ ولا تُخزُون ﴾: ولا تهينوني بإهانتهم. والخزى هو الهوان، أو: ولا تخجلون فيهم، من الخزاية وهو الحياء .

﴿ قالوا أو لم ننْهكَ عن العالمين ﴾؛ عن أن تجير منهم أحداً، أو تحول بيننا وبينهم، وكانوا يتعرضون لكل أحد، وكان لوط عليه السلام يمنعهم ويزجرهم عنه بقدر وسعه. وذكر السدى: أنهم إنما كانوا يفعلون الفاحشة بالغرباء، ولايفعلونها بعضهم ببعض، فكانوا يعترضون الطرق. هـ. أو: أوَ لم ننهك عن ضيافة العالمين وانزالهم؟ ﴿ قال هؤلاء بناتي ﴾ تَزَوّجُوهُنّ إياكم، وقد كان يمنعهم قبل ذلك؛ لكفرهم، فأراد أن يقى أضيافه بهن. ولعله لم يكن حراماً في شريعته. أو يريد بالبنات نساء القوم؛ فإن نبى كل أمة بمنزلة أبيهم، ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ قضاء الوطر، أو: ما أقول لكم من التزويج، فأبوا، ولجوا في عملهم.

قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ لعَمْرُكَ ﴾: لحياتك يامحمد، أقسم بحياته - عليه الصلاة والسلام - لشرف منزلته عنده. قال ابن عباس - رضى الله عنهما : «ما خلق الله خلقا أكرم عليه من محمد ﷺ، وما أقسم بحياة أحد إلا بحياته، فقال: ﴿ لعَمْرُكَ إنهم لَفِي سَكْرتهم يعمهون ﴾ قال القرطبى: وإذا أقسم الله بحياة نبيه فإنما أراد التصريح لنا أنه يجوز لنا أن نحلف بحياته. وقد قال الإمام أحمد فيمن أقسم بالنبى ﷺ: ينعقد به يمينه، وتجب الكفارة بالحنث، واحتج بكون النبى ﷺ أحد ركنى الشهادة. قال ابن خُويْز مَنْدَاد: هذا إذ استدل من جوّز الحلف به عليه الصلاة والسلام، بأن أيمان المسلمين جرت من عهده ﷺ حتى إن أهل المدينة إلى يومنا هذا إذا جاء صاحبه قال له: احلف لى بما حوى هذا القبر، وبحق ساكن هذا القبر، يعنى النبى ﷺ. هـ[1].

قلت: ومذهب مالك أنه لا ينعقد يمين بغير الله، وصفاته، وأسمائه. وقيل: إن قوله تعالى: ﴿ لعمرك ﴾: هو من قول الملائكة للوط، أو لحياتك يا لوط، ﴿ إنهم لَفِي سَكْرتهم يَعمهون ﴾: أى: لفى غوايتهم، أو شدة غلمتهم التى أزالت عقولهم وتمييزهم بين الخطأ والصواب، يتحيرون. والغلمة: شهوة الوقاع. والعمه: الحيرة، أى: إنهم لفى عماهم يتحيرون، فكيف يسمعون نصح من نصحهم؟ والضمائر لقوم لوط، وقيل: لقريش، والجملة: اعتراض.

قال تعالى: ﴿ فأخذتهم الصيحةُ ﴾، يعنى: صيحة هائلة مهلكة. قال ابن عطية: هذه الصيحة صيحة الرجعة، وليست كصيحة ثمود. هـ . وقيل: صاح بهم جبريل فأهلكتهم الصيحة، ﴿ مُشْرِقينَ ﴾: داخلين فى وقت شروق الشمس؛ فابتدئ هلاكهم بعد الفجر مصبحين، واستوفى هلاكهم مشرقين. ﴿ فجعلنا عاليَها ﴾ أى: عالى المدينة، أو قراها، ﴿ سافلَها ﴾، فصارت منقلبة بهم .

---

(١) مُلَخّصاً.

رُوى أن جبريل عليه السلام اقتلعَ المدينة بجناحيه ورفعها، حتى سمعت الملائكة صراخ الديكة ونباح الكلاب، ثم قلبها وأرسل الكل، فمن كان داخلَ المدينة أو القرى مات، ومن كان خارجاً عنها أرسلت عليه الحجارة، كما قال تعالى: ﴿ وأمطرنا عليهم حجارةً من سجيل ﴾ : من طين متحجر مطبوخ بالنار. وقد تقدم فى سورة هود[1] مزيد بيان لهذا. ﴿ إنَّ فى ذلك لآيات للمتوسِّمين ﴾ : المتفكرين المعتبرين المتفرسين فى الأمور، الذين يتثبتون فى نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشيء بسمته، ﴿ وإنها ﴾ أى: المدينة أو القرى، ﴿ لَبِسَبيلٍ مُقيم ﴾ : لفى طريق ثابت يسلكه الناس، ويمرون به، ويرون آثارها. ﴿ إنَّ فى ذلك لآيةً ﴾ : لعبرة ﴿ للمؤمنين ﴾ بالله ورسله؛ فإنهم هم المهتدون للتفكر والاعتبار، دون من غلبت عليه الغفلة والاغترار، كحال الكفار والفجار. والله تعالى أعلم.

الإشارة : ما بعث الله داعياً يدعو إليه إلا وكان أول ما يدعوهم إليه، بعد الإيمان، الخروج من العوائد والحظوظ النفسانية، وما هلك من هلك من الأمم إلا بالبقاء معها، وعدم الخروج عنها، وما نجى من نجى إلا بالخروج عنها. وكذلك فى طريق الخصوصية: ما بعث الله ولياً مربياً إلا وكان أول ما يأمر: بخرق، العوايد؛ لاكتساب الفوائد، فلا طريق لخصوصية الولاية إلا منها. وفى الحكم: «كيف تخرق لك العوائد، وأنت لم تخرق من نفسك العوائد». فمن تربى فى الرئاسة والجاه فلا مطمع له فى الخصوصية حتى يبدلهما بالخمول والذل، وكذلك من تعود جمع الدنيا واحتكارها، فلابد من الزهد فيها والخروج عنها، وكذلك سائر العوائد النفسانية، والحظوظ الجسمانية، فمن جاور قوماً منهمكين فيها، ولم يجد من يساعده على خرقها، فليهاجر منها، ويقال له: فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم، ولا يلتفت منكم أحد إلى الرجوع، إلا بعد الرسوخ والتمكين فى معرفة الحق تعالى، وليمض حيث يجد من ينهض معه إلى الله فى نقل عوائدها وعوائقها.

وقوله تعالى: ﴿وجاء أهل المدينة يستبشرون﴾: هذه عادة أهل الغفلة، إن جاءهم من يجدون فيه موافقة هواهم، هرعوا إليه مستبشرين، وإن جاء من ينصحهم ويأمرهم بالخروج عن أهوائهم أدبروا عنه، ومقتوه، وربما أخرجوه من بلدهم، قال تعالى فى أمثالهم: (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) . وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة شعيب عليه السلام، فقال:

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾

قلت: «إن»: مخففة، واللام فارقة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإن كان أصحابُ الأيكة لظالمين ﴾ ، وهم قوم شعيب، كانوا يسكنون غيضة. وهى الأيكة. والأيكة: الشجر الملتف، قيل: كانت من الدوح، وقيل: من السدر، فكانوا يسكنون فيها، ويرتفقون بها

(١) راجع تفسير الآيات ٨١ ـ ٨٣.

فى معايشهم، فبعث الله لهم شعيباً عليه السلام فكفروا به، فسلط الله عليهم الحر سبعة أيام، ثم رأوا سحابة فخرجوا فاستظلوا تحتها، فاضطرمت عليهم ناراً، فاحترقوا. قال تعالى: ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ بالهلاك بالحر، ﴿ وإنهما ﴾، يعنى: سدوم مدينة قوم لوط، والأيكة قرية شعيب. وقيل: الأيكة ومدين؛ لأن شعيبا عليه السلام كان مبعوثاً إليهما، وكان ذكر أحدهما مغن عن الآخر، ﴿ لَبِإمامٍ مبينٍ ﴾: لبطريق واضح يسلك منه إلى الشام، فيعتبر كل من وقف بآثارهم. والإمام: ما يؤتم به، ويوصل إلى المقصود من طريق أو غيره. وقيل: ﴿وإنهما﴾ أى: لوط وشعيب، على طريق مِن الشرع واضح. والله تعالى أعلم.

الإشارة : ما أهلكَ اللهُ قوماً إلا كانوا عبرة لمن بعدهم، فالعاقل يبحث عن سبب هلاكهم، فيعمل جهده فى التحرز منه، والغافل منهمك فى غفلته، لا يلقى لذلك بالاً، حتى يأتيه ما يوعد. وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة صالح عليه السلام، فقال:

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

قلت: (بيوتا): مفعول (ينحتون)، بمعنى يتخذون، أو يصنعون. و(آمنين): حال من فاعل (ينحتون) .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ولقد كذَّب أصحاب الحِجْرِ المرسلين ﴾؛ هم قوم ثمود، والحِجْر: واديهم الذى يسكنونه، وهو بين المدينة والشام. كذبوا صالحاً عليه السلام، ومن كذَّب واحداً من الرسل فكأنما كذَّب الجميع؛ لأنهم جاءوا بأمر متفق عليه، وهو التوحيد، أو يراد به الجنس، كما تقول: فلان يركب الخيل، وإنما يركب فرساً واحداً، أو يراد به صالح ومن معه من المؤمنين؛ لموافقتهم له فيما يدعو إليه. ﴿ وآتيناهم آياتنا ﴾ يعنى: الناقة، وما كان فيها من العجائب، كسقيها وشربها ودرها، أو مانزل على نبيهم من الكتب، أو ما نصب لهم من الأدلة. ﴿ فكانوا عنها معرضين ﴾: لم ينظروا فيها، ولم يعتنوا بأمرها.

﴿ وكانوا ينحتون ﴾: يصنعون، والنحت: النقر بالمعاول فى الحجر والعود وشبهه، فكانوا يتخذون ﴿ من الجبال ﴾؛ بالنقر فيها، ﴿ بيوتاً ﴾ يسكنونها ﴿ آمنين ﴾ من الانهدام، ونقب اللصوص، وتخريب الأعداء؛ لوثوقها. أو من العذاب؛ لفرط غفلتهم، أو حسبانهم أن الجبال تحميهم منه. ﴿ فأخذتهم الصيحةُ مصبحين ﴾ : داخلين فى وقت الصباح، ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ من بناء البيوت الوثيقة، واستكثار الأموال والعدد.

الإشارة: من علامة الغفلة عن الله: الإنكار على أولياء الله، والإعراض عما خصهم الله تعالى به من الآيات وخوارق العادات، كالعلوم اللدنية والمواهب القدسية، وكمال المعرفة، والرسوخ في اليقين، وشهود رب العالمين، مع الاشتغال بعمارة هذه الدار، ونسيان دار القرار؛ كأنه أمن من الموت؛ من شدة الاغترار. وسبب ذلك: عدم التفكر والاعتبار. ولذلك قال تعالى بإثر قصص من أهلكهم من الأمم الغافلة:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما** ﴾ من الكائنات ﴿ **إلا بالحق** ﴾ أي: إلا خلقًا ملتبسًا بالحق، وهو الدلالة على كمال قدرتنا وباهر حكمتنا، فمن كمال القدرة: إهلاك أهل الفساد، ودفع شرورهم وإبطال فسادهم، ومن باهر حكمته أنه لم يهلكهم إلا بسبب عتوهم وفسادهم. فالحكمة رداء للقدرة، القدرة تبرز، والحكمة تستر، فإظهار الكائنات يدل على كمال القدرة، وترتيبها على أسباب وشروط يدل على باهر الحكمة. ومن مقتضيات الحكمة: ترتيب الجزاء على العمل، بحيث لا يهمل عملاً، فأهل الإكرام يترتب إكرامهم وإنعامهم على عملهم الصالح، واعتقادهم الصحيح، وما قاسوه من المجاهدة والمكابدة. وأهل الانتقام يترتب الانتقام منهم على عملهم الفاسد، واعتقادهم الباطل، وعلى ما قالوا في الدنيا، التي هي مزرعة الآخرة، من الدعة والحظوظ الفانية، ولذلك رتَّب عليه قوله:

﴿ **وإنَّ الساعة لآتيةٌ** ﴾ فيجازى فيها من يستحق الإكرام، ويعاقب من يستحق الانتقام، وينتقم لك فيها ممن يكذبونك، ﴿ **فاصفح** ﴾ اليوم ﴿ **الصفحَ الجميل** ﴾ ولا تعجل بالانتقام، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم. وكان هذا قبل الأمر بالقتال. ﴿ **إنَّ ربك هو الخلاق** ﴾ الذي خلقك وخلقهم، وبيده أمرك وأمرهم، ﴿ **العليمُ** ﴾ بحالك وبحالهم، فهو الحقيق بأن تتكل عليه حتى يحكم بينك وبينهم. أو: هو الخلاق لأشباحكم وأرواحكم، العليم بما هو الأصلح لكم في الوقت، وقد علم أن الصفح اليوم أصلح. والخلاق أبلغ من الخالق باعتبار اللغة، وأفعال الله تعالى كلها عظيمة كثيرة.

الإشارة : ما نصبت لك الكائنات لتراها بعين الفرق، بل لترى فيها مولاها بعين الجمع. وما جعل لك هذه الدار لتتخذها دار القرار، وإنما جعلها قنطرة ومعبرا لدار القرار. إنما جعل لك الدنيا الفانية مزرعة للدار الباقية. وإن الساعة لآتية، فاصبر في هذه الدار اللمحة اليسيرة على شدائد الزمان، وجفوة الإخوان، واصفح الصفح الجميل،

حتى ترد النعيم الباقي، والجزاء الجزيل. وتخلق بأخلاق الحليم الكريم، إن ربك هو الخلاق العليم، فلا قدرة لك على شيء إلا بقدرة السميع العليم.

ثم أمر نبيه بالغنى بالله وبكلامه، عن التطلع إلى زهرة الدنيا، والمراد: الأمر بدوامه على ما كان عليه، فقال:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ (٨٩) كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٩٣) فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ (٩٥) ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٩٨) وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ (٩٩) ﴾

قلت: السبع المثاني: هي الفاتحة عند الجمهور، و(من المثاني): للبيان، وعطف القرآن عليها من عطف العام على الخاص. و(أنزلنا): نعت لمفعول النذير، أي: أنا النذير عذاباً مثل العذاب الذي أنزل على المقتسمين. وقيل: صفة لمصدر محذوف يدل عليه: (ولقد آتيناك)؛ فإنه بمعنى أنزلنا إليك إنزالاً مثل ما أنزلنا على المقتسمين، وهم، على هذا، أهل الكتاب. و(عِضين): جمع عِضة. وأصله: عِضْوة، من عَضَوْتَ الشيء: فَرَّقْتَه، حُذفت لامه، وعوض منها هاء التأنيث، فجمع على عضين، كعِزةٍ وعزين. وقيل: أصله: عضة؛ من عضهته: رميته بالبهتان، قال في الصحاح: عَضَهَهُ عضْها: رماه بالبهتان. وقد أعْضَهْتَ، أي: جئتَ بالبهتان. فهما قولان في أصل عِضة. هل هو واوي أو هائي. والموصول مع صلته نعت للمقتسمين.

يقول الحق جل جلاله، لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ **ولقد آتيناك سبعاً من المثاني** ﴾، وهي فاتحة الكتاب؛ لأنها سبع آيات، وتثنى ـ أي: تكرر ـ في كل صلاة، فالمثاني من التثنية، وقيل: من الثناء؛ لأن فيها الثناء على الله تعالى، وقيل: السبع المثاني هي السبع الطوال، وهي البقرة وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال مع براءة. ولذلك تركت البسملة بينهما. وكونها مثاني؛ لتثنية قصصها، أو ألفاظها، وقيل: هي الحواميم السبع. ﴿ و ﴾ آتيناك ﴿ **القرآنَ العظيم** ﴾، ففيه الغنية والكفاية عن كل شيء.

﴿ **لا تَمُدَّنَّ عينيك** ﴾ : لا تطمح ببصرك طموح راغب ﴿ **إلى ما متعنا به أزواجاً منهم** ﴾ أي: أصنافًا من الكفار، من زهرة الحياة الدنيا، فإنه مستحقر بالإضافة إلى ما أوتيته . وفي حديث أبي بكر: «من أوتي القرآن، فرأى أن أحدا أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي، فقد صغر عظيماً وعظم صغيراً».(١) قال ابن جزي: أي: لا تنظر إلى ما متعناهم به في الدنيا، ومعنى الآية: تزهيد في الدنيا، كأنه يقول: قد آتيناك السبع المثاني والقرآن العظيم؛ فلا تنظر إلى الدنيا، فإن الذي أعطيناك أعظم منها . هـ .

وروى أنه ﷺ وافى مع أصحابه أَذْرِعَات، فرأى سبعَ قوافل ليهود بني قُرَيْظَة والنَّضِير، فيها أنواع البُرّ، والطيب والجواهر، وسائر الأمتعة، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقرينا بها، ولأنفقناها في سبيل الله، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «قد أعطيتم سبع آيات هي خير من هذه السبع القوافل» .(٢) .

﴿ **ولا تحزنْ عليهم** ﴾ : لا تتأسف على كفرهم؛ حيث أنذرتهم فلم ينزجروا ولم يؤمنوا. أو: حيث متعناهم بالدنيا فلم ينتفعوا بها، ولم يصرفوها في مرضاة الله، ﴿ **واخفضْ جناحك للمؤمنين** ﴾ ؛ أي: تواضع وألن جانبك للمؤمنين، وارفق بهم. والجناح، هنا، استعارة. ﴿ **وقل إني أنا النذيرُ المبين** ﴾ : البين الإنذار، أنذرتكم ببيان وبرهان أن عذاب الله نازل بكم إن لم تؤمنوا، وفي الحديث: «أنا النذير، والموت مغير، والقيامة الموعد» . أو كما قال عليه الصلاة والسلام، وفي حديث آخر: «أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ» . وكانت العرب، إذا رأى أحدُهم جيشاً يقصدهم، تجرد من ثيابه، ثم أنذر قومه ليصدقوه، أي: وقل: إني أنذرتكم أن ينزل بكم عذابه.

﴿ **كما أنزلنا على المقتسمين** ﴾ ، أي: مثل العذاب الذي أنزل على المقتسمين، وهم أهل الكتاب، الذين آمنوا ببعض الكتب وكفروا ببعض، فاقتسموا قسمين. والعذاب الذي نزل بهم هو الذل والهوان وضرب الجزية، أوتسليط عدوهم عليهم. وقيل: هم كفار قريش؛ اقتسموا أبواب مكة في الموسم، فوقف كل واحد منهم على باب، وكانوا اثنى عشر رجلاً، لينفروا الناس عن الإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام، يقول أحدهم: هو ساحر، والآخر: هو شاعر، فأهلكهم الله يوم بدر. وقيل: هم الرهط الذين اقتسموا، أي: تقاسموا ليبيتوا صالحاً، فأسقط الله عليهم الغار الذي كمنوا فيه، فشدخهم.

أو: آتيناك القرآن، وأنزلناه عليك كما أنزلنا التوراة على المقتسمين، وهم اليهود، ﴿ **الذين جعلوا القرآن عضين** ﴾ أي: أجزاء متفرقة، وقالوا فيه أقوالاً مختلفة، فقالوا؛ عناداً وكفراً: بعضه موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه

---

(١) قال الولي العراقي: لم أقف عليه، وقال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف: لم أجده من حديث أبي بكر.
وأخرجه ابن عدي في الكامل (٧٨٧/٢)، ولفظه: (من تعلم القرآن وظن أن أحداً...) فذكره من حديث ابن مسعود مرفوعاً..
وراجع الفتح السماوي (٧٥٠/٢).
(٢) قال المناوي في الفتح السماوي: لم أقف عليه. وذكره الواحدي في الأسباب (٢٨٣) عن الحسين بن الفضل؛ مرسلاً.

باطل مخالف لهما. وإذا قلنا المقتسمين: هم كفار قريش، حيث اقتسموا أبواب مكة، فقد جعلوا القرآن عضين؛ أجزاء متفرقة، فقد قسموه إلى شعر وسحر وكهانة وأساطير الأولين، أو جعلوه بهتاناً متعدداً، على تفسير العضة بالبهت. وفى الحديث: «لعن رسول الله ﷺ العاضهة والمستعضهة» (١) أى: الباهتة، والمستبهتة: الطالبة له.

قال تعالى فى وعيد المقتسمين: ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ من التقسيم والتكذيب، أو عن كل ما عملوه من الكفر والمعاصى، وفى البخارى: «لنسألنهم عن لا إله إلا الله». فإن قيل: كيف يجمع بين هذا وبين قوله: ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾؟(٢) فالجواب: أن السؤال المثبت هو على وجه الحساب والتوبيخ، والسؤال المنفى هو على وجه الاستفهام المحض؛ لأن الله تعالى يعلم الأعمال، فلا يحتاج إلى سؤال. وقيل: فى القيامة مواطن وخوارق، فموطن يقع فيه السؤال، وموطن يذهب بهم إلى النار بغير سؤال.

قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾: فاجهر، وصرح به، وأنْفِذْه، من صدع بالحجة: إذا تكلم بها جهاراً. أو: فَرّقْ، بما تؤمر به، بين الحق والباطل، وأصله: الشق والإبانة، و ﴿ما﴾: مصدرية، أو موصولة، والعائد محذوف، أى: بما تؤمر به من الشرائع. ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ فلا تلتفت إلى مايقولون، ولا يمنعك ذلك من تبليغ الوحى والصدع به وإظهاره.

﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ بك، وبما أنزلنا إليك؛ بأنْ أهلكنا كل واحد منهم بمصيبة تخصه، من غير سعى من النبى ﷺ فى ذلك. وكانوا خمسة من أشراف قريش: الوليد بن المغيرة، والعاصى بن وائل، وعدى بن قيس، والأسود بن المطلب، والأسود بن يغوث، كانوا يبالغون فى إيذاء النبى ﷺ، والاستهزاء به، فقال جبريلُ للنبى ﷺ: «أُمرتُ بأن أكفيكهم» فأومأ إلى ساق الوليد فمرَّ بنبَّالٍ فتعلق بثوبه سهم، فلم ينعطف لأخذه، تعظماً، فأصاب عرقاً فى عقبه فمات. وقيل: خدش بأسفل رجله فمات من تلك الخدشة. وأومأ إلى أخمص العاص؛ فدخلت فيها شوكة، فانتفخت حتى صارت كالرحى، فمات. وأشار إلى أنف الحارث فامتخط قيحاً فمات. وأومأ إلى الأسود ابن عبد يغوث، وهو قاعد فى أصل شجرة، فجعل ينطح رأسه بالشجرة، ويضرب وجهه بالشوك حتى مات. وقيل: استسقى بطنه فمات، ولعله جمع بينهما. وأومأ إلى عينى الأسود بن المطلب فعمي. وفى السيرة، بدل عدى بن قيس، الحارث بن الطلاطلة، وأن جبريل أشار إلى رأسه فامتخط قيحاً فقتله(٣).

(١) عزاه فى الفتح السماوى (٢/٧٥٢) لابن عدى فى الكامل من حديث ابن عباس، وفى إسناده ضعف.
وقوله: العاضهة والمستعضهة: أى: الساحرة والمستسحرة... انظر النهاية (٣/٢٥٥).

(٢) الآية ٣٩ من سورة الرحمن.

(٣) أخرجه الطبرانى فى الأوسط، كما فى المجمع (٧/٤٦)، وأبو نعيم فى الدلائل، (باب قوله: فاصدع بما تؤمر ٢/٣١٦) والبيهقى فى الدلائل (باب المستهزئون وأسماؤهم) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

وقيل: هم الذين قُتلوا ببدر؛ كأبى جهل، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبى معيط. والأول أرجح؛ لأن الله تعالى كفاه أمرهم بمكة قبل الهجرة. إلا أن يكون عبّر بالماضى عن المستقبل؛ لتحققه، أى: إنا سنكفيك المستهزئين ﴿ **الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر** ﴾ يعبدونه من دون الله ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ عاقبة أمرهم فى الدارين.

ثم سلّى نبيه عن أذاهم فقال: ﴿ **ولقد نعلمُ أنك يضيق صدرُك بما يقولون** ﴾ فى جانبنا؛ من الشرك والطعن فى القرآن، والاستهزاء بك، فلا تعبأ بهم، ولا تلتفت إليهم. ﴿ **فسبِّح بحمد ربك** ﴾ أى: فنزه أنت ذاتنا وصفتنا، مكان مقالتهم فينا؛ فإن مثلك منزهنا لا غير، ﴿ **وكن من الساجدين** ﴾ أى: المصلين، أو: فافزع إلى الله فيما نابك وضاق منه صدرك بالتسبيح والتحميد. ﴿ **وكن من الساجدين** ﴾ ؛ من المصلين، يكفك، ويكشف الغم عنك، وعنه ﷺ: «أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة»[1] أو: فنزهه عما يقولون، حامداً له على أن هداك للحق، وكن من الساجدين له شكراً.

﴿ **واعبدْ ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ أى: الموت، فإنه متيقن لحاقه، وليس اليقين من أسماء الموت، وإنما العلم به يقين، لا يمترى فيه، فسمي يقينا؛ تجوزاً. أو: لما كان يحصل اليقين بعده بما كان غيباً سمي يقيناً. والمعنى: فاعبده مادمت حياً، ولا تُخِلّ بالعبادة لحظة. وفى بعض الأحاديث عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: «إن الله لم يُوحِ إلىَّ أن أجمع المال، وأكون من التاجرين، وإنما أوحى إلىَّ أن: سبح بحمد ربك وكن من الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين»[2] . أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

الإشارة: يقال للعابد، أو الزاهد: ولقد آتيناك سبعًا من المثانى والقرآن العظيم، تتمتع بحلاوته، وبالتهجد بتلاوته، ففيه كفايتك وغناك، فلا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أصنافاً من أهل الدنيا، الراغبين فيها، المشتغلين بها عن عبادة خالقها. قيل: لما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «إياكم والنظر فى أبناء الدنيا، فإنه يقسى القلب ويورث حب الدنيا، ولا تكثروا الجلوس مع أهل الثروة، فتميلوا لزينة الدنيا؛ فوالله لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء» . وقال ﷺ: «من تواضع لغنى لأجل غناه اقترب من النار مسيرة سنة، وذهب ثلثا دينه» . هذا إن تواضع بجسمه فقط، فإن تواضع بجسمه وقلبه ذهب دينه كله.

ويقال للعارف: ولقد آتيناك شهود المعانى، وغيبناك عن حس الأوانى، حتى شهدت المتكلم بالسبع المثانى، فسمعت القرآن من مُنزله دون واسطة. وذلك بالفناءِ، عن الوسائط، فى شهود الموسوط، حتى يفنى عن نفسه فى حال قراءته.

---

(١) أخرجه بنحوه أبو داود فى (الصلاة، باب وقت قيام النبى ﷺ الليل) عن حذيفة، وأخرجه الإمام أحمد (٣٨٨/٥) فى قصة الخندق مطولاً.

(٢) أخرجه ابن عدى فى الكامل (١٨٩٧/٥) والواحدى: فى الوسيط (٥٤/٣) والبغوى فى تفسيره (٣٩٧/٤) عن جبير بن نفيل، مرسلاً..

ويقال له: لا تمدن عينيك إلى شهود الحس، ولا إلى ما متعنا به أصنافاً من أهل الحس، الواقفين مع شهود الحس؛ فإن ذلك يحجبك عن شهود المعاني القائمة بالأواني، بل المفنية للأواني عند سطوع المعاني. ولا تحزن عليهم حيث رأيتهم منهمكين في الحس؛ فإن قيام عالم الحكمة لا يكون إلا بوجود أهل الحس، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين بخصوصيتك، وقل: إني أنا النذير المبين من الاشتغال بالبطالة، والغفلة، حتى ينزل بأهلهما ما نزل على المقتسمين، الذين جعلوا القرآن عِضين؛ أجزاء متفرقة؛ فما كان فيه مما يدل على التسهيل لجواز جمع الدنيا واحتكارها والاشتغال بها أخذوا به، وما كان فيه مما يدل على الزهد فيها، والانقطاع إلى الله عنها، والتجريد عن أسبابها، رفضوه. فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون.

فاصدع، أيها العارف الواعظ، بما تُؤمر؛ من الأمر بالزهد، والانقطاع إلى الله، ولرفض كل ما يشغل عن الله، ولا تراقب أحداً في ذات الله، وأعرض عن المشركين، الذين أشركوا في محبة الله سواه، وشهدوا الأكوان موجودة مع الله، وهي ثابتة بإثباته، ممحوه بأحدية ذاته، فلا وجود لها في الحقيقة مع الله. فإن استهزءوا بك، وصغروا أمرك، فسيكفيكهم الله. فاشتغل بالله عنهم، فلا يضيق صدرك بما فيه يخوضون، (فسبح بحمد ربك) أي: نزهه عن شهود السّوى معه، حامداً الله على ما أولاك من نعمة توحيده، (وكن من الساجدين) لله شكراً، وقياماً برسم العبودية، أو: كن من الساجدين بقلبك في حضرة القدس، حتى يأتيك اليقين[1].

وفي الورتجبي، في قوله: (ولقد نعلم أنك يضيقُ صدرك)، قال: واسى الحقُّ حبيبَه بما سمع من أعدائه، وقال له: أنت بمرأىً منا، يضيق صدرك؛ من لطافتك، بما يقول الجاهلون بنا في حقنا، مما لا يليق بتنزيهنا، فنزه أنت صفتنا مكان مقالتهم فينا، فإنَّ مثلك منزهنا لا غير، وكن من الساجدين حتى ترانا بوصف ما علمت منا، وتخرج من ضيق الصدر بما تشاهد من جمالنا، فإذا كنت تعايننا سقط عنك ضيق صدرك من جهة مقالتهم. هـ.

وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

❁ ❁ ❁

(١) اليقين ـ هنا ـ هو الموت. أي: اعبد ربك إلى آخر لحظة من عمرك.



مكية، إلا قوله: ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به... ﴾ الآية، نزلت فى غزوة أحد. وهى مائة وثمان وعشرون آية. ومناسبتها لما قبلها قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(١)؛ وهو الموت وما بعده من البعث والحساب، وهو أمر الله الذى أشار إليه بقوله:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ①﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أتى أمرُ الله ﴾ أى: البعث والحساب. وعبّر بالماضى؛ لتحقق وقوعه، أو: ثبت أمره وقضاؤه، وقد جف القلم بما يكون، لا عن سؤال واستعجال، وتدبير من الخلق، ولو كان كذلك لنافى انفراده بتدبير ملكه، ولذلك نزه نفسه بقوله: ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾. أو: إهلاك الله إياهم يوم بدر، وكانوا يستعجلون ما أوعدهم الرسول من قيام الساعة، وإهلاكهم ونصره عليهم، استهزاء وتكذيباً؛ ولذلك قال: ﴿ فلا تستعجلوه ﴾، والمعنى: أن الأمر الموعود به بمنزلة الماضى، لتحقق وقوعه من حيث إنه واجب الوقوع؛ فلا تستعجلوا وقوعه، فإنه لا خير لكم فيه، ولا خلاص لكم منه.

ورُوى لما نزل قوله: ﴿ أتى أمر الله ﴾، وثب رسولُ الله ﷺ قائماً، ورفع الناس رؤوسهم، فلما قال: ﴿ فلا تستعجلوه ﴾، سكن. وكان المشركون يقولون: إن صح ما يقول محمد من قيام الساعة، فالأصنام تشفع لنا وتخلصنا، فقال تعالى: ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ أى: تنزه وجلّ عن أن يكون له شريك، فيدفع ما أراد بهم. هـ.

وقرأ الأخوان بالخطاب، على وفق قوله: (فلا تستعجلوه)، والباقون بالغيب، على تلوين الخطاب، أو على أن الخطاب للمؤمنين، أى: أتى أمر الله أيها المؤمنون فلا تستعجلوه، سبحانه وتعالى عما يشركه به المشركون. أو: لهم ولغيرهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا أشرق نورُ اليقين فى صميم القلوب تحقق وقوع ما وعد الله به من أمر الغيوب، فصار الماضى آتيا، والمستقبل واقعاً. وفي الحكم: «لو أشرق نور اليقين فى قلبك، لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها، ولرأيت الدنيا وكسفةُ الفناء ظاهرة عليها». وكذلك المقادير المستقبلة والمواعيد الغيبية، كلها عند أهل اليقين محققة الوقوع، واجبة الحصول، ينتظرون وقوعها فى مواقيتها، شيئًا فشيئًا، ويتلقونها بالمعرفة والأدب؛ فإن كانت جلالية فبالرضى والتسليم، وإن كانت جمالية فبالحمد والشكر، هكذا نظرهم دائماً إلى ما يبرز من عنصر القدرة، ليس لهم

(١) من الآية الأخيرة من سورة الحِجْر.

وقت دون ما هم فيه، ولا أمل دون ما أقامهم الحق تعالى فيه، ليس لهم عن أنفسهم إخبار، ولا مع غير الله قرار، ولا يستعجلون ما تأخر وقوعه من أقداره، ولا يشركون مع الله فى تدبيره واختياره. قد هجم عليهم اليقين، فهم، فى عموم أوقاتهم، مستغرقون فى شهود المحبوب، غائبون عن كل مرغوب ومطلوب، سوى شهود وجه المحبوب، جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه. آمين.

وسبب وجود هذا فى قلوبهم حياة روحهم بالإيمان التام، والمعرفة الكاملة، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) ﴾

قلت: (أن أنذروا): مفسرة، بمعنى أى؛ لأن الوحى فيه معنى القول. أو مصدرية فى موضع الجر، بدلا من الروح، أو النصب بنزع الخافض، أو مخففة من الثقيلة. وقوله: (لا إله إلا أنا): جرى على المعنى، ولم يجر على اللفظ، وإلا لقال: لا إله إلا الله. انظر ابن عطية. قال المحشى الفاسى: وسر ذلك هنا: التصريح بالمقصود، وأن الإله الواحد هو المتكلم لا غيره، كما قيل فى قوله: ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾[1]، أى: ولم يقل: فإياه فارهبوا، بل نقل الكلام من الغيبة إلى التكلم؛ مبالغة فى الترهيب، وتصريحاً بالمقصود، كأنه قال: فأنا ذلك الإله الواحد، فإياى فارهبون لا غير. هـ.

قلت: وكأنه قال هنا: يُنزل الملائكةَ بالوحى أن أعلموا أنه لا يُعبد إلا إله واحد، وأنا ذلك الواحد.

يقول الحق جل جلاله، تحقيقاً لِماَ وعدهم به ، وأن ذلك الوعد، مع دنوه وقربه بالوحى، فلا خلف فيه، فقال: ﴿ يُنَزِّلُ الملائكةَ ﴾ أى: جبريل، جمعه؛ تعظيماً، أو: لأنه قد ينزل معه غيره من الملائكة، فيحضرون الوحى؛ حرَسا له. أو: لأنه قد ينزل بالوحى غيره من الملائكة، كما فى صحيح مسلم: «إن سورة الحمد نزل بها ملك لم ينزل إلى الأرض قبل ذلك»[2]. وقال عليه الصلاة والسلام: «إن إسرافيل وُكّل بى فى ثلاث سنين، فكان يأتينى بالكلمة والكلمتين، ثم كان جبريل يأتينى بالقرآن فى كل وقت». ورُوى أن خالد بن سنان كان نبيًا، وكان يأتيه بالوحى مالك خازن النار، وكان بعد عيسى عليه السلام، ولم يبق فى النبوة إلا عشرين يوماً، ثم مات، فلقصر مدته لم يُعد نبياً، بعد عيسى ونبينا محمد ﷺ، وإنما كانت فترة خمسمائة عام. وذكر ابن العربى أن ذا القرنين كان ينزل عليه ملك، يقال له: رفائيل، فكان يلقى إليه الوحي، ويطوى له الأرض. هكذا نقل الشطيبى عنه فى اللباب، فانظره.

---

(١) من الآية ٥١ من سورة النحل.

(٢) أخرجه بطوله مسلم فى (صلاة المسافرين، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله: ﴿ بالروح ﴾ أي: بالوحي، أو القرآن؛ فإنه سبب حياة القلوب والأرواح الميتة بالجهل والحجاب، أو سبب حياة الدين بعد موته واندراسه بالكفر؛ فإن الوحي يقوم في الدين مقام الروح من الجسد. يُنزل ذلك ﴿ من أمره ﴾ أي: من أجل أمره وبيان شأنه، أو بأمره وإذنه، ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ أن يصطفيه للرسالة، قائلاً لهم: ﴿ أنْ أنذروا ﴾: خوفوا أهل الشرك، أو أعلِموا عبادي ﴿ أنه ﴾ أي: الأمر والشأن، ﴿ لا إله إلا أنا فاتقون ﴾؛ بترك الكفر والمعاصي، أي: اجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية، بأن تُوحدوه، وتطيعوه فيما أمر به.

قال البيضاوي: والآية تدل على أن نزول الوحي بواسطة الملائكة، وأن حاصله: التنبيه على التوحيد، الذي هو القوة العلمية، والأمر بالتقوى الذي هو أقصى كمالات القوة العملية. وأن النبوة عطائية – أي: لا كسبية –، والآيات التي بعدها دليل على وحدانيته، من حيث إنها تدل على أنه تعالى هو الموجد لأصول العالم وفروعه، على وفق الحكمة والمصلحة، ولو كان له شريك لقَدَرَ على ذلك، فيلزم التمانع. هـ.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿ بالروح ﴾: قال الورتجبي: الروح: الوحي الإلهي، سماه بالروح؛ لأنه كلامه صدر من ذاته، وهو حياة قلوب الصديقين من المكلَّمين والمحدَّثين، وهو سبب حياة قلوب المؤمنين، يحييهم بعلمه من موت الجهالة. هـ.

وقال القشيري في قوله: ﴿ على من يشاء من عباده ﴾: على الأنبياء بالوحي والرسالة، وعلى أسرار أرباب التوحيد، وهم المُحَدَّثون بالتعريف والعلم. فالتعريف للأولياء من حيث الإلهام والخواطر، أي: الواردات. وإنزال الملائكة على قلوبهم غير ممنوع، ولكنهم لا يؤمَرُون أن يتكلموا بذلك، ولا يحمِلون الرسالة إلى الخلق. هـ.

قلت: وكأنه ينظر إلى قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»، فهم يشاركون الأنبياء في الوحي الإلهامي، ولا يبلغون ذلك إلا لمن صدقهم وتبعهم في طريقهم. والله تعالى أعلم.

ثم عرَّف بنفسه، بما أظهر من تجلياته العلوية والسفلية، فقال:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾

قلت : (والأنعام) : منصوب بمحذوف، يفسره : (خلقها)، أو معطوف على «الإنسان»، و(خلقها لكم) : بيان لما خُلقتْ لأجله، وما بعده تفصيل له. و(منها تأكلون) : إنما قدّم المعمول؛ للمحافظة على رؤوس الآى، أو: لأن الأكل منها هو المعتمد عليه فى المعاش، وأما الأكل من غيرها من سائر الحيوانات المأكولات فعلى سبيل التداوى والتفكه. قاله البيضاوى. قلت : ولعله، عند مالك، للاختصاص، أى: منها تأكلون لا من غيرها؛ إذ لا يؤكل عنده غيرها من البهائم الإنسية.

وقوله: (لكم) : يحتمل أن يتعلق بما قبلها أو بما بعدها، ويختلف الوقف باختلاف ذلك. (إلا بشق) : فيه لغتان: الكسر والفتح، بمعنى التعب والكلفة، وقيل: المفتوح مصدر شقَّ الأمرُ عليه، أى: صعُبَ، والمكسور بمعنى: النصف، كأنه ذهب نصف قُوّتِهِ بالتعب. (والخيل) : عطف على «الأنعام». و(زينة) : مفعول من أجله، عطف على موضع «لتركبوها»: أى: للركوب والزينة، أو مفعول مطلق، أى: لتتزينوا بها زينة.

يقول الحق جل جلاله : ﴿خلق السمواتِ والأرضَ﴾ : أوجدهما ﴿ بالحق ﴾ أى: ملتبسًا بالحق؛ لتدل على وحدانية الحق، وكمال قدرته وباهر حكمته، حيث أوجدهما على مقدار مخصوص، وشكل بديع، وأوضاع مختلفة، وهيئات متعددة. أوْ: خلقهما بقضائه وتدبيره الحق، لا بمشاركة وتدبيرِ أحد معه، ولا بمعاونة شريك ولا ظهير، ولذلك نزه نفسه بقوله: ﴿ تعالى عما يشركون ﴾ ، كما نزه نفسه، ابتداءً، لمّا نفَى الاستعجال؛ لأنه من تدبير الخلق أيضا والصدور عن رأيهم، وفى معناه: تنزيل الوحى على ما يشاء، لا على ما يشاء غيره؛ لانفراده أيضا فى ملكه. وفى إبرازه ذلك، على ما يخالف آراء الخلق، أدل دليل على وحدانيته فى ملكه، وإنما وضع كل شيء ودبره؛ دلالةً على وحدانيته وهدايته لخلقه إليه.

ثم شفع بخلق الإنسان فقال: ﴿ خلق الإنسان ﴾ أى: جنسه ﴿ من نُطفة ﴾ : من ماء مهين يخرج من مكان مهين، ﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾ : مجادل، كثير الجدل والخصام، مبين لحجته، أو: خصيم: مكافح لخالقه، قائل: (من يحيى العظام وهى رميم) . رُوى أن أُبيَّ بن خلَف أتى النبى ﷺ بِعظْمٍ رَمِيمٍ، فقال: يا محمد، أترَى الله يُحيِي هذا بعد ما قد رمَّ؟ فقال: «نعم» . فنزلت. فعلى الأول: تكون الآية عامة لكل إنسان، وعلى الثانى: خاصة بالكافر. والأول أظهر.

ولمَّا ذكر نعمة الإيجاد ذكر نعمة الإمداد، فقال: ﴿ والأنعامَ ﴾ وهى: الإبل والبقر والغنم، ﴿ خلقها ﴾ : أوجدها ﴿ لكم فيها دِفءٌ ﴾ ؛ ما يُدْفَأُ به فيقى البرد، يعنى: ما يتخذ من جلود الأنعام وأصوافها من الثياب، ﴿ و ﴾ لكم

فيها أيضا ﴿ منافعُ ﴾ أُخر؛ كنسلها وظهورها. وإنما عَبر بالمنافع؛ ليتناول عوضها. ﴿ ومنها تأكلون ﴾ أى: تأكلون ما يؤكل منها؛ من اللحوم والشحوم والألبان. ﴿ ولكم فيها جَمَالٌ ﴾ أى: زينة وبهجة ﴿ حين تُريحون ﴾؛ تردونها من مراعيها إلى مرَاحِها بالعشى، ﴿ وحين تسرحون ﴾؛ تخرجونها إلى المرعى بالغداة؛ فإن الأفنية والمشارعَ والطرق تتزين بها فى الذهاب والرواح، ويجل أهلها فى أعين الناظرين إليها. وقَدَّم الإراحة؛ لأن الجمال فيها أظهر؛ لأنها تقبل ملأى البطون، حاملة الضروع، ثم تأوى إلى الحظائر حاضرة لأهلها.

﴿ وتحمل أثقالكم ﴾: أحمالكم عليها من الأمتعة وغيرها ﴿ إلى بلدٍ ﴾ بعيد، ﴿ لم تكونوا بالغيه ﴾ عليها، فضلاً عن أن تحملوها على ظهوركم، ﴿ إلا بِشِقِ الأنفس ﴾؛ إلا بكلفة ومشقة فديحة، أو: إلا بذهاب شِقها، أى: نصف قوتها من التعب. ﴿ إن ربكم لرؤوف رحيم ﴾؛ حيث رحمكم بخلقها وذللها للحمل، والركوب عليها، وأنعم عليكم بالأكل من لحومها وألبانها.

﴿ و ﴾ خلق لكم ﴿ الخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها ﴾، ﴿ و ﴾ تتزينوا بها ﴿ زينةً ﴾، أو للركوب والزينة. قال البيضاوى: وتغيير النظم ـ أى: حيث لم يقل: وللزينة ـ؛ لأن الزينة بفعل الخالق، والركوب من فعل المخلوق ـ أى: باعتبار الحكمة ـ، ولأن المقصود خلقها للركوب، وأما التزين بها فحاصل بالعَرَضِ. وقرئ بغير واو، فيحتمل أن يكون علة لركوبها، أو مصدراً فى موضع الحال من الضمير، أى: متزينين، أو متزيناً بها. واستُدِلَّ به على حرمة لحومها، ولا دليل فيه؛ إذ لا يلزم من تعليل الفعل بما يقصد منه، غالباً، ألا يقصد منه غيره أصلا، ويدل عليه أن الآية مكية. وعامة المفسرين والمحدثين أن الحمر الأهلية حرمت عام خيبر. هـ. ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ مما لا يُحيط البشرُ بعلمها؛ من عجائب المخلوقات، وضروب المصنوعات، مما يؤكل ومما لا يؤكل، وما خلقَ فى الجنة والنار، مما لا يخطر على قلب بشر.

﴿ وعلى الله قصدُ السبيل ﴾ أى: وعلى الله بيان السبيل القصد، أى: الطريق الموصل إلى المقصود. أو: على الله تقويم طريق الهدى؛ بنصب الأدلة وبعث الرسل، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، أى: السبيل القصد، أى: القاصد المستقيم الموصل إلى المطلوب؛ كأنه يقصد الوجه الذى يقصده السالك لا يميل عنه. والمراد من السبيل: الجنس، ولذلك أضاف إليه القصد، وقال: ﴿ ومنها جائرٌ ﴾ عن القصد، أو عن الله، كطريق اليهود والنصارى وغيرهم. والسبيل بمعنى الطريق، يُذكر ويؤنث، وأُنِثَ هنا. وتغيير الأسلوب ـ أى: حيث لم يقل: قصد السبيل والجائر ـ؛ لأنه ليس بحق على الله أن يبين طريق الضلالة، ولأن المقصود، بالأصالة، بيان سبيله، وتقسيمُ السبيل إلى القصد والجائر إنما جاء بالعرض. ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ أى: ولو شاء هدايتكم أجمعين لهداكم إلى قصد السبيل، هداية مستلزمة للاهتداء. قاله البيضاوى.

الإشارة: هذه العوالم من العرش إلى الفرش كلها نُصبت للآدمي، وخلقت من أجله، السماوات تُظله، والأرض تُقله، والحيوانات تخدمه وتنفعه، يتصرف فيها؛ خليفة عن الله في ملكه. فالواجب عليه شكر هذه النعم، وألا يقف معها، ويشتغل بها عن خدمة خالقها. يقول الحق تعالى، في بعض كلامة بلسان الحال أو المقال: «يا ابنَ آدم، خَلَقتُ الأشياءَ مِن أجلكَ، وخلَقْتُكَ مِنْ أجلي، فَلا تَشْتَغِل بما خُلِق لأجلِك عمَّا خُلقتَ لأجْله» . والواجب عليه أيضاً من طريق الخصوص: ألا يقف مع حس أجرامها، دون النفوذ إلى أسرار معاني خالقها ومُظهرها؛ لئلا يبقى مسجوناً بمحيطاته، محصوراً في هيكل ذاته، بل ينفذ إلى فضاء شهود بحر المعاني، المحيط بالأواني، والمفني لها، بصحبة شيخ كامل، يُخرجه من سجن الأكوان إلى فضاء شهود المُكَوِّن. وبالله التوفيق.

وقوله: ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ : اعلم أن الحق ـ جل جلاله ـ بيَّن طريق الوصول إلى نعيمه الحسي والفوز برضوانه، وطريق الوصول إلى حضرة قدسه ومحل شهوده وعيانه، وأرسل الرسل ببيان الطريقين. فوكل ببيان الأولى العلماء، ووكل ببيان الثانية الأولياء. فالعلماء قاموا ببيان الشرائع الموصلة إلى نعيم الأشباح، والأولياء العارفون قاموا ببيان الحقائق الموصلة إلى نعيم الأرواح، وهو النعيم الأكبر؛ قال تعالى: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾(١) . فالرضوان على قسمين: قوم نالهم الرضوان من طريق الخطاب مع سدْل الحجاب ، وهم أهل الشرائع، وقوم نالهم الرضوان بمكافحة الخطاب ورفع الحجاب، وهم أهل الحقائق، وهم المقربون، نفعنا الله بهم، وخرطنا في سلكهم. آمين .

ثم ذكر بقية التجليات، فقال:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى

---

(١) من الآية ٧٢ من سورة التوبة.

ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

قلت : (لكم منه شراب) : يحتمل أن يتعلق بأنزل، أو يكون فى موضع خبر (شراب) ، أو صفة لماء؛ و(مواخر) : جمع ماخرة، يقال: مخرت السفينة الماء مخراً: شقته، وقيل: المخر: صوت جَرْيِ الفلك فى البحر من هبوب الريح. وقيل: معناه : تجيىء وتذهب بريح واحدة. و(لتبتغوا) : عطف على «لتأكلوا» ، و(أن تميد) : مفعول من أجله، أى: كراهة أن تميد بكم. و(أنهاراً وسُبلاً) : مفعول بمحذوف، أى: وخلق أو وجعل أنهاراً، وقيل: معطوف على «رواسى»؛ لأن ألقى، فيه معنى الجعل، و(علامات) : عطف على (أنهاراً وسبلاً) ، أو نصب على المصدر، أى: ألقى ذلك؛ لعلكم تعتبرون، وعلامات دالة على وحدانيته.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ هو الذى أنزل من السماء ﴾ أى: السحاب، أو جانب السماء، ﴿ ماء ﴾ : مطراً ﴿ لكم منه شراب ﴾ تشربونه بلا واسطة، أو بواسطة العيون والأنهار والآبار؛ لأنه يُحبس فيها، ثم يشرب منها، لقوله: ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ﴾[1]، وقوله: ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ ﴾[2]، ﴿ ومنه شجرٌ ﴾ أى: ومنه يكون شجر، يعنى: الشجر الذى ترعاه المواشى، وقيل: كل ما نبت على الأرض فهو شجر، ﴿ فيه تُسِيمُون ﴾ : ترعون مواشيكم، من أسام الماشية: رعاها، وأصلها: السومة، التى هى العلامة؛ لأنها تؤثر بالرعى علامات.

﴿ يُنبتُ لكم به الزرعَ ﴾ ، وقرأ أبو بكر بالنون؛ على التفخيم، ﴿ والزيتونَ والنخيلَ والأعناب ومن كل الثمرات ﴾ أى: ومن بعض كل الثمرات؛ إذْ لم ينبت فى الأرض كل مايمكن من الثمار. قال البيضاوى: ولعل تقديم ما يسام فيه على ما يؤكل منه؛ لأنه سيصير غذاءً حيوانياً هو أشرف الأغذية ـ يعنى اللحم ـ، ومن هذا: تقديم الزرع، والتصريح بالأجناس الثلاثة وترتيبها. هـ.

﴿ إنّ فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ ، فيستدلون على وجود الصانع وباهر قدرته، فإن من تأمل الحبة تقع فى الأرض يابسة، ويصل إليها نداوة تنفذ فيها، فينشق أعلاها، ويخرج منه ساق الشجر، وينشق أسفلها فيخرج منه عروقها، ثم ينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار، والأكمام والثمار، ويشتمل كل منها على أجسام مختلفة الأشكال والطبائع، مع اتحاد المواد، علِمَ أن ذلك ليس إلا بفعل فاعل مختار، مقدس عن منازعة الأضداد والأنداد، ولعل وصل الآية به؛ لذلك. قاله البيضاوى باختصار.

(١) من الآية ٢١ من سورة الزمر. (٢) من الآية ١٨ من سورة المؤمنون.

﴿ وسخَّر لكم الليلَ والنهارَ والشمس والقمرَ والنجومَ ﴾(١)؛ بأن هيأها لمنافعكم، ﴿ مسخرات بأمره ﴾، أي: مذللات لما يريد منها، وهو حال من الجميع، أي: نفعكم بها حال كونها مسخرات لله، منقادة لحكمه، أو لما خلقن له، ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ أي: لأهل العقول السليمة الصافية من ظلمة الغفلة والشهوات، وإنما جمع هنا، دون ما قبله وما بعده؛ لأن الأولى راجعة إلى إنزال المطر، وهو متحد، والثالثة راجعة إلى ما ذرأ في الأرض، وهو متحد في الجنس والهيئة، بخلاف العوالم العلوية، فإنها مختلفة في الجنس والهيئة. وقال البيضاوي: جمع الآية وذكر العقل؛ لأنها تتضمن أنواعاً من الدلالة ظاهرة لذوي العقول السليمة، غير مُحْوِجَةٍ إلى استيفاء فكر، كأحوال النبات. هـ.

﴿ وما ذرأ ﴾ أي: وسخر لكم ما ذرأ، فهو عطف على الليل، أي: سخر لكم ما خلق لكم في الأرض من حيوانات ونبات، ﴿ مختلفًا ألوانه ﴾؛ أبيض وأسود، أحمر وأصفر، مع اتحاد المادة، فالماء واحد والزهر ألوان، ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يذَّكرون ﴾؛ يتذكرون أن اختلافها في الألوان والطبائع، والهيئات والمناظر، ليس إلا بصنع صانع حكيم.

﴿ وهو الذي سخَّر البحرَ ﴾: ذلله بحيث هيأه للتمكن من الانتفاع به؛ بالركوب فيه، والاصطياد، والغوص، ﴿ لتأكلوا منه لحمًا طريًا ﴾ هو السمك، ووصفه بالطراوة؛ لأنه أرطب اللحوم، فيسرع إليه الفساد، فيسارع إلى أكله طرياً، ولإظهار قدرته في خلقه؛ عذباً طرياً في ماء زُعاق(٢) أجاج، واحتَجَّ به مالك على أن من حلف ألا يأكل لحماً حنث بأكل السمك، وأجيب بأن مبنى الأيْمان على العُرف، وهو لا يُفهم منه عند الإطلاق؛ ألا ترى أن الله سمى الكافر دابة، ولا يحنث من حلف ألا يركب دابة بركوبه. قاله البيضاوي. ويجاب بالاحتياط للحنث؛ فالحنث يقع بأدنى شيء، بخلاف البر، لا يقع إلا بأتم الأشياء.

﴿ وتستخرجوا منه حِلْيةً ﴾؛ كاللؤلؤ والمرجان، ﴿ تلْبسونها ﴾؛ يلبسها نساؤكم، وأسند اللباس إليهم؛ لأن لباس النساء تزين للرجال(٣)، فكأنه مقصودٌ لهم، ﴿ وترى الفلك ﴾: السفن ﴿ مواخر فيه ﴾؛ جواري فيه تمخر الماء، أي: تشقه، أو تُصوت من هبوب الريح، ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾: من سعة رزقه؛ بركوبه للتجارة، أو: وترى الفلك جواري فيه؛ لتركبوها، ولتبتغوا من سعة رزقه. قال ابن عطية: فيه إباحة ركوب البحر للتجارة وطلب الأرباح. هـ. ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي: تعرفون نعم الله فتقوموا بشكرها. ولعل تخصيصه بتعقيب الشكر؛ لأنه أقوى في باب الإنعام؛ من حيث جعل المهالك سبباً للانتفاع، وتحصيل المعاش. قاله البيضاوي.

---

(١) قرأ حفص وابن عامر: (والنجومُ مسخراتٌ)؛ بالرفع على الابتداء، وقرأ الباقون بالنصب.. انظر الإتحاف (٢/١٨١).
(٢) الزُّعاق من الماء: المرُّ الغليظ، لا يطاق شربه... انظر: لسان العرب (زعق).
(٣) هذا في المنزل، وللأزواج فقط، وأما ما سوى ذلك فهو ـ أي: اللباس ـ للتستر والاحتشام، تعبداً لله، وطاعة لأمره، ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن...﴾ الآية.

﴿ وألقى فى الأرض رواسى ﴾؛ جبالاً رواسى أرست الأرض؛ كراهة ﴿ أن تميد بكم ﴾؛ تميل وتضطرب؛ لأن الأرض قبل أن تُخلق فيها الجبال كانت كرة خفيفة بسيطة، وكان من حقها أن تتحرك كالسفينة على البحر، فلما خُلقت الجبال تقاومت جوانبها؛ بثقلها نحو المركز، فصارت كالأوتاد التى تمنعها عن الحركة. وقيل: لما خلق الله الأرض جعلت تمور ـ أى: تتحرك ـ فقالت الملائكة: ما يستقر أحد على ظهرها، فأصبحت وقد أُرْسِيَتْ بالجبال. ﴿ وأنهـارًا ﴾ أى: وجعل فيها أنهاراً تطرد؛ لسقى الناس والبهائم، وسائر المنافع، وذكره بعد الجبال؛ لأن الغالب انفجارها منها، ﴿ وسُبلاً ﴾ أى: وجعل فيها طُرقًا ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ لمقاصدكم، أو لمعرفة ربكم، بالنظر فى دلالة هذه المصنوعات المتقدمة، على صانعها.

﴿ و ﴾ جعل فيها ﴿ علامات ﴾: معالم يَسْتَدِلُّ بها السابلة على معرفة الطرق؛ من الجبال، والمناهل، والرياح، وغير ذلك، ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ إلى الطرق بالليل، فى البرارى والبحار، والمراد بالنجم: الجنس، بدليل قراءة: «وبالنُّجُمِ» بضمتين؛ على الجمع. وقيل: المراد: الثريا، والفرقدان وبنات نعش[1] ، والجَدْى. والضمير لقريش؛ لأنهم كانوا كثيري الأسفار للتجارة، مشهورين بالاهتداء فى مسايرهم بالنجوم، وإخراج الكلام عن سنن الخطاب، وتقديم النجم، وإقحام الضمير؛ للتخصيص، كأنه قيل: وبالنجم خصوصاً، هؤلاء خصوصاً يهتدون، يعنى: قريشاً، فالاعتبار بذلك، والشكر عليهم ألزم لهم وأوجب عليهم. هـ. وأصله للزمخشرى.

الإشارة: هو الذى أنزل من سماء الغيوب ماء، أى: علماً لدنيًا تحيا به القلوب، وتتطهر به النفوس من أدناس العيوب. لكم منه شراب، أى: خمرة تحيا بها الأرواح، وتغيب عن حضرة الأشباح، ويخرج منه على الجوارح أشجار العمل، تثمر بالأذواق، فيه تسيمون، أى: فى أذواق العمل ترعون بنفوسكم وقلوبكم، ثم ترحلون عنه إلى حلاوة شهود ربكم، فمن وقف مع حلاوة العمل، أو المقامات أو الكرامات، بقى محجوباً عن ربه، وعليه نبّه صاحب البردة بقوله:

وَراعِها، وهْىَ فى الأعْمَالِ سَائِمَةٌ		وإنْ هِىَ اسْتَحْلَتِ المَرْعَى فلا تُسِمِ

وقال فى الحكم: «ربما وقفت القلوب مع الأنوار، كما حُجِبَتْ النفوس بكثائف الأغيار».

وقال الششترى:

وقد تحْجُبُ الأنوار للعبدِ مثْـل ما		تبعد[2] من إظلام نفْس حوتْ ضِغنا .

---

(١): الفَرْقَدان: نجمان فى السماء لا يَغْرُبَانِ، انظر اللسان (فرقد). وبنات نعش: سبعة كواكب، تشاهد جهة القطب الشمالى. انظر (المعجم الوسيط/نعش).

(٢) فى ديوان الششترى: تقيد.

يُنبت بذلك العلم طعام نَفوسكم من قوت الشريعة، ومصباح قلوبكم من عمل الطريقة، وثمرة الأعمال فى عوالم الحقيقة، وفواكه العلوم من مخازن الفهوم. وسخر لكم ليل القبض، ونهار البسط؛ لتسكنوا فيه؛ لِماَ خصكم فيه من مقام التسليم والرضا، ولتبتغوا من فضله؛ من فيض العلوم وكشف الغطاء، فتشرق حينئذ شمس العرفان، ويستدير قمر الإيمان، وتطلع نجوم العلم، كل مسخر فى محله، لا يستتر أحد بنور غيره، وهذا مقام أهل التمكين، يستعملون كل شيء فى محله. وما ذرأ لكم فى أرض نفوسكم من أنواع العبادات وأحوال العبودية، متلونة باعتبار الأزمنة والأمكنة، وهو الذى سخر بحر المعانى؛ لتأكلوا منه لحماً طريًا؛ علماً جديداً لم يخطر على قلب بشر، وتستخرجوا منه جواهر ويواقيت من الحِكَم، تلبسونها وتتزين قلوبكم وألسنتكم بها.

وترى الفلك، أى: سفن الفكرة، فيه مواخر؛ عائمة فى بحر الوحدة، بين أنوار الملكوت وأسرار الجبروت؛ لتبتغوا من فضله، وهى معرفة الحق بذاته وأسمائه وصفاته، ولعلكم تشكرون، فتقيدوا هذه النعم الجسام؛ لئلا تزول. وألقى فى أرض البشرية جبال العقول؛ لئلا يلعب بها ريحُ الهوى، وأجرى عليها أنهاراً من العلوم حين انزجرت عن هواها، وجعل لها طُرقاً تهتدى بها إلى معرفة ربها، فَتهتدى أولاً إلى نجم الإسلام، ثم إلى قمر توحيد البرهان، ثم إلى شهود شمس العرفان. وبالله التوفيق.

ولما ذكر دلائل التوحيد، أنكر على من أشرك بعد هذا البيان، فقال:

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

قلت: (وما يشعرون أيان يبعثون)، الضمير الأول للأصنام، والثانى للكفار الذين عبدوهم، وقيل: للأصنام فيهما، وقيل: للكفار فيهما، و(لاجرم): إما أن يكون بمعنى لا شك، أو لابد، أو تكون «لا» نفيًا لِماَ تقدم. و«جَرَم»: فعل، بمعنى وجب، أو حق، و(أن الله): فاعل بجَرَم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أفمن يَخلُقُ﴾ كل شيء، ويقدر على كل شيء، ﴿كمن لا يَخلُق﴾ شيئاً، ولا يقدر على شيء، بل هو أعجز من كل شيء؟ وهو إنكار على من أشرك مع الله غيره، بعد إقامة الدلائل

ثم ذكر سبب إصرارهم على الكفر ـ وهو إنكار البعث والتكبر ـ فقال: ﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم مُنْكِرةٌ وهم مستكبرون ﴾ أي: فالمنكرون للبعث قلوبهم منكرة لوحدانيته تعالى، وهم مستكبرون عن اتباع الرسل فيما جاءوا به، والخضوع لهم؛ لأن المؤمن بالآخرة يكون طالباً للدلائل، متأملاً فيما يسمع، فينتفع به، خاضعاً للحق، متبعاً لمن جاء به، بخلاف الكافر، يكون حاله بالعكس؛ منهمكاً في الغفلة، متبعاً للهوى، يُنكر بقلبه ما لا يعرف إلا بالبرهان[1]، اتباعاً للأسلاف، وتقليداً لهم، وركوناً إلى المألوف.

قال تعالى؛ تهديداً لمن هذا وصفه: ﴿ لا جَرَمَ ﴾: لابد، أو لا شك، أو حقّ ﴿ أنَّ الله يعلم ما يُسرون وما يعلنون ﴾، فيجازيهم عليه؛ ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ مطلقاً، فضلاً عن الذين استكبروا عن توحيده واتباع رسوله. ومفهومه: أنه يحب المتواضعين الخاضعين للحق، ولمن جاء به، وهم المؤمنون. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد تضمنت الآية ثلاث خصال من خصال أهل التوحيد: **الأولى**: رفع الهمة عن الخلق، وتعلقها بالخالق في جميع المطالب والمآرب؛ إذ لا يترك العبد من هو خالق كل شيء، قادر على كل شيء، دائم لا يموت، ويتعلق بعبد عاجز ضعيف، لا يقدر على نفع نفسه، فكيف ينفع غيره؟ (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون)، (والذين تدعون من دون الله لا يَخلقون شيئاً وهم يُخلقون أموات غير أحياء). وأنشدوا في هذا المعنى:

حَرَامٌ عَلى مَنْ وَحّد الله ربَّهُ ... وأفْرَدَهُ أنْ يَجْتَدِي أحَدًا رِفْدَا

فيَا صَاحِبِي قفْ بي علَى الحَقّ وَقْفةً ... أمُوتُ بهَا وَجْدًا، وأحْيَا بِهَا وَجْدا

وقُلْ لمُلوكِ الأرْضِ تَجْهَدُ جُهْدها ... فَذَا المُلك مُلكٌ لا يُباع ولا يُهدى

والخصلة الثانية: تذكر البعث وما بعده، وتقريبُه وجعله نصب العين؛ إذ بذلك يحصل الزهد في هذه الدار الفانية، والاستعداد والتأهب للدار الباقية، وبه تلين القلوب، وتتحقق بعلم الغيوب، وبه يحصل الخضوع للحق، والتعظيم لمن جاء به. بخلاف من أنكره، أو استبعده، قال تعالى: (فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون).

---

(١) هذا من سمات المؤمنين، وليس الكافرين، فالكافرون: لا برهان لهم؛ (..لا برهان له به..)، (قل هاتوا برهانكم..) .. (قل هل عندكم من علم..) (لولا يأتون عليهم بسلطان).
ويرحم الله أسلافنا، علمونا ذلك، فنقلنا عنهم هذه القاعدة: (إن كنت ناقلاً ـ فالصحة، وإن كنت مدّعياً: فالدليل)، والله ـ تقدس وتعالى ـ أمرنا ألا نتبع إلا ما قام عليه الدليل، (ولا تقف ماليس لك له علم)، والعلم هو ما قام عليه البرهان الجلي.

المتكاثرة على كمال قدرته، وباهر حكمته، بذكر ما تقدم من أنواع المخلوقات وبدائع المصنوعات، وكان حق الكلام: أفمن لا يخلق كمن يخلق، لكنه عكس؛ تنبيهاً على أنهم، بالإشراك بالله، جعلوه من جنس المخلوقات العجزة، شبيهاً بها. والمراد بمن لا يخلق، كل ما عُبد من دون الله، وغلب أولى العلم منهم، فعبَّر بمن، أو يريد الأصنام، وأجراها مجرى أولى العلم؛ لأنهم سموها آلهة، ومن حق الإله أن يعلم، أو للمشاكلة بينه وبين من يخلق. ﴿ أفلا تذكَّرون ﴾ ؛ فتعرفوا فساد ذلك؛ فإنه لظهوره كالحاصل للعقل الذى يحضر عنده بأدنى تذكر والتفات.

ولما ذكر أنواعاً من المخلوقات على وجه الاستدلال على وحدانيته ـ وفى ضمنها: تعداد النِعم على خلقه ـ أعقبها بقوله: ﴿ وإن تعدوا نعمةَ الله لا تُحصوها ﴾ أى: لا تطيقوا عدها، فضلاً أن تطيقوا القيام بشكرها. ثم أعقبها بقوله: ﴿ إنَّ الله لغفور رحيم ﴾ ؛ تنبيهاً على أن العبد فى محل التقصير، لولا أن الله يغفر له تقصيره فى أداء شكر نعمه، ويرحمه ببقائها مع تقصيره فى شكرها.

﴿ والله يعلم ما تُسِرُّون وما تُعلنون ﴾ من عقائدكم وأعمالكم، وهو وعيد لمن كفر النعم وأشرك مع الله غيره، سراً أو علانية، ثم قال تعالى: ﴿ والذين تدعون ﴾[1] أى: والأصنام الذين تعبدونهم﴿ من دون الله لا يَخلُقون شيئاً ﴾ ؛ لظهور عجزهم. لمَّا نفى المشاركة بين من يخلق ومن لا يخلق، بيَّن أنها لا تخلق شيئاً؛ ليتحقق نفي الألوهية عنها؛ ضرورةً. ثم علل عجزها، وعدم استحقاقها للألوهية بقوله: ﴿ وهم يُخلقون ﴾ أى: وهم مخلوقون مفتقرون فى وجودهم إلى التخليق، والإله لابد أن يكون واجب الوجود.

وهم، أيضا، ﴿ أمواتٌ غير أحياء ﴾ أى: لم تكن لهم حياة قط، ولا تكون، وذلك أغرق فى موتها ممن تقدمت له حياة، ثم مات. والإله ينبغى أن يكون حياً بالذات لا يعتريه الممات. ﴿ وما يشعرون أيَّان يُبعثون ﴾ أى: لا يعلمون وقت بعثهم، أو بعثِ عبدَتِهم، فكيف يكون لهم وقت يجازون فيه من عبدهم، والإله ينبغى أن يكون عالماً بالغيوب، قادراً على الجزاء لمن عبده؟ وفيه تنبيه على أن البعث من توابع التكليف. قاله البيضاوى.

قال ابنُ جُزَيْ: نفى عن الأصنام صفة الربوبية، وأثبت لهم أضدادها؛ وهى أنهم مخلوقون غير خالقين، وغير أحياء، وغير عالمين وقت البعث، فلما قام البرهان على بطلان ربوبيتهم، أثبت الربوبية لله وحده، فقال: ﴿ إلهكم إله واحد ﴾ . هـ. وهو تصريح بما أقام عليه الحجج والبراهين بما تقدم.

(١) قرأ عاصم ويعقوب: «يدعون»: بالياء. على الالتفات. وقرأ الباقون «تدعون» بتاء الخطاب انظر الإتحاف (٢/١٨٢).

الخصلة الثالثة: التواضع والخضوع لله، ولمن دعا إلى الله، وهو سبب المحبة من الله، ورفع الدرجات عند الله؛ قال ﷺ: «مَنْ تَواضَعَ لله رَفَعَهُ، ومَنْ تَكبَّر وضَعَهُ الله». وقال أيضا: «مَنْ تواضَعَ دُونَ قَدْرِه، رَفَعَهُ الله فوق قَدْرِه». بخلاف المتكبر؛ فإنه ممقوت عند الله، مطرود عن باب الله؛ قال تعالى: (إنه لا يحب المستكبرين). وفي الحديث: «لاَ يَدْخُلُ الجنَّةَ مَنْ فى قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَرْدلٍ مِنْ كِبْرٍ»(١)، أو كما قال ﷺ، والتكبر: بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس، أي: جحد الحق، واحتقار الناس. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وصف المتكبرين، ووبال تكبرهم، فقال:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قلت: (ماذا)، يجوز أن يكون اسماً واحداً مركباً منصوباً بـ (أنزل)، وأن تكون (ما): استفهامية في موضع رفع بالابتداء، و(ذا): بمعنى «الذي» :خبر، وفي أنزل ضميرٌ محذوف، أي: ما الذي أنزله ربكم؟ واللام في (ليحملوا): لام العاقبة والصيرورة، أي: قالوا: هو أساطير الأولين؛ فأوجب ذلك أن يحملوا أوزارهم وأوزار غيرهم، وقيل: لام الأمر، و(بغيرعلم): حال من المفعول في (يُضلونهم)، أو من الفاعل، و(تشاقُّون): من قرأه بالكسر؛ فالمفعول: ضمير المتكلم، وهو الله تعالى، ومن قرأه بالفتح؛ فالمفعول محذوف، أي: تشاقون المؤمنين من أجلهم. و(ظالمي أنفسهم): حال من ضمير المفعول في: «تتوفاهم».

---

(١) أخرجه مسلم في (الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه)، من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أي: كفار قريش: ﴿ ماذا أنزل ربكم ﴾ على رسوله محمد - عليه الصلاة والسلام -؟ ﴿ قالوا ﴾: هو ﴿ أساطيرُ الأولين ﴾ أي: ماسطره الأولون وكتبوه من الخرافات. وكان النضر بن الحارث قد اتخذ كتب التواريخ، ويقول: إنما يُحدِّث مُحمدٌ بأساطير الأولين، وحديثي أجمل من حديثه. والقائل لهم هم المقتسمُون، وتسميته، حينئذ، مُنزلاً؛ إما على وجه التهكم، أو على الفَرض والتقدير، أي: على تقدير أنه منزل، فهو أساطير لا تحقيق فيه. ويحتمل أن يكون القائل لهم المؤمنين، فلا يحتاج إلى تأويل.

﴿ ليحملوا أوزارَهم كاملةً يوم القيامة ﴾ أي: قالوا ذلك؛ ليُضلوا الناس، فكان عاقبتهم أن حملوا أوزار ضلالهم كاملة، ﴿ ومن أوزارِ الذين يُضلونهم ﴾: وبعض أوزار ضلال من كانوا يضلونهم - وهو حصة التسبب في الوقوع في الضلال - حال كونهم ﴿ بغيرعلم ﴾ أي: يضلون من لا يعلم أنهم ضُلاَّل. وفيه دليل على أن الجاهل في العقائد غير معذور؛ إذ كان يجب عليه أن يبحث عن الحق وأهله، وينظر في دلائله وحُججه(١).

قال البيضاوي: (بغيرعلم): حال من المفعول؛ أي: يضلون من لا يعلم أنهم ضُلاَّل، وفائدتها: الدلالة على أن جهلهم لا يعذرهم؛ إذ كان عليهم أن يبحثوا، ويميزوا بين المحق والمبطل. هـ. وقال المحشي: ففيه ذم تقليد المبطل، وأن مقلده غير معذور، بخلاف تقليد المحق الذي قام بشاهد صدقه المعجزة، أو غير ذلك، كدليل العقل والنقل فيما تعتبر دلالته. هـ. **قلت**: ويجوز أن يكون حالاً من الفاعل، أي: يُضِلُّون في حال خلوهم من العلم، فقد جمعوا بين الضلال والإضلال.

قال تعالى في شأن أهل الإضلال: ﴿ ألاَ سَاءَ ما يَزِرُونَ ﴾، أي: بئس شيئاً يزرونه فعلهم هذا.

﴿ قد مكر الذين من قَبلهم ﴾ أي: دبروا أموراً ليمكروا بها الرسل، ﴿ فأتى اللهُ بُنيانهم من القواعد ﴾ أي: قصد ما دبروه من أصله، فهدمه، ﴿ فخرَّ عليهم السَّقْفُ من فوقهم ﴾، وصار ما دبروه، وبنوه من المكر، سبب هلاكهم، ﴿ وأتاهم العذابُ من حيث لا يشعرون ﴾؛ لا يحتسبون ولا يتوقعون، وهو على سبيل التمثيل. وقال ابن عباس وغيره: المراد به نمرود بن كنعان، بنى الصرح ببابل، سُمْكُه خمسة آلاف ذراع؛ ليترصَّد أمر السماء، فبعث الله ريحاً فهدمته، فخرَّ عليه وعلى قومه، فهلكوا، وقيل: إن جبريل عليه السلام هدمه، فألقى أعلاه في البحر، وانجعف(٢) من أسفله.

---

(١) ما ذكر الشيخ هو كلام المعتزلة - عموما - أما كلام أهل السنة - فيما يختص بمن ثبت له عقد الإسلام - فهو إعذاره بالجهل، وتبليغه الحجة حتى يتبين له الحق بياناً لا يغيب على مثله، وحتى يعرف الحق ويميزه، كما يميز الشمس.. فإن أصر على فعل الشرك أو الكفر بعد هذا فهو كافر، لا عذر له، يقول الشوكاني تعليقا على حديث سجود معاذ للنبي ﷺ: «وفي هذا الحديث دليل على أن من سجد - جاهلا - لغير الله، لم يكفر، وقال في السيل الجرار: «فلابد من شرح الصدر بالكفر، فلا اعتبار بما يقع من طوارىء عقائد الشرك، لاسيما مع الجهل بمخالفتها لعقائد الإسلام، إلى غير ذلك مما قرره ابن العربي، والقاسمي، وابن القيم وغيرهم، في هذه المسائل. فتأملها؛ لأنها خطيرة جداً، فعدم إحكام هذه الأصول يوقعنا في جحيم تكفير جهلة المسلمين. والأمر لله.

(٢) يقال: جعفه جعفاً: قلبه وقلعه. فانجعف. انظر اللسان: (جعف).

﴿ثم يَوْمَ القيامة يُخزيهم﴾: يذلهم ويعذبهم بالنار، ﴿ويقول أين شركائِيَ﴾، أضافها إلى نفسه؛ استهزاء، أو حكاية لإضافتهم إياها إليه في الدنيا؛ زيادةً في توبيخهم، أي: أين الشركاء ﴿الذين كنتم تُشاقون فيهم﴾: تعادون المؤمنين في شأنهم، أو تشاقونني في شأنهم؛ فإن مُشاقة المؤمنين كمشاقته، أو تحاربون وتخارجون، فتكونون في شق والحق في شق، ﴿قال الذين أُوتوا العلم﴾؛ وهم الأنبياء والعلماء الذين كانوا يدعونهم إلى التوحيد، فيشاقونهم ويتكبرون عليهم، أو الملائكة: ﴿إنّ الخزى اليوم والسُوءَ﴾: الذلة والعذاب ﴿على الكافرين﴾. وفائدة قولهم ذلك لهم: إظهارُ الشماتة وزيادة الإهانة، وحكايته، ليكون لطفاً لمن سمعه من المؤمنين، فيزيد حذراً وحزماً في الطاعة، وقال الواحدي: إن الخزي اليوم والسوء عليهم لا علينا. هـ. أي: فيقولونه؛ اعترافاً واستبشاراً بإنجاز ما وعدهم الله، كما قالوا: الحمد لله الذي هدانا لهذه الهداية.

ثم وصفهم بقوله: ﴿الذين تتوفاهم الملائكةُ﴾؛ تقبض أرواحهم ﴿ظالمي أنفسهم﴾؛ بأن عرضوها للعذاب المخلد، ﴿فألقَوُا السَّلَمَ﴾ أي: استسلموا، وألقوا القياد من أنفسهم، حين عاينوا الموت، قائلين: ﴿ما كنا نعملُ من سُوءٍ﴾: من كفر وعدوان، يحتمل أن يكون قولهم ذلك قصدوا به الكذب؛ اعتصاماً به، كقولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾(١)، أو يكونوا أخبروا على حساب اعتقادهم في أنفسهم، فلم يقصدوا الكذب، ولكنه كذب في نفس الأمر. قال الحسن: هي مواطن، فمرة يُقرون على أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾(٢)، ومرة يجحدون كهذه الآية، فتجيبهم الملائكة بقولهم: ﴿بلى﴾ قد كنتم تعملون السوء والعدوان، ﴿إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾ فهو يجازيكم عليه. وقيل: إن قوله: ﴿فألقَوُا السَّلَمَ﴾ إلى آخر الآية، راجع إلى شرح حالهم يوم القيامة، فيتصل في المعنى بقوله عز وجل: ﴿أين شركائي الذين كنتم تُشاقون فيهم﴾ إلخ، فيكون الرادُّ عليهم بقوله: (بلى)، هو الله تعالى، أو: أولوا العلم، ويُقوي هذا قوله بعده: ﴿فادخلوا أبواب جهنم﴾؛ لأن دخولها لا يكون إلا بعد البعث والحساب، لا بعد الموت؛ إذ لا يكون بعد الموت إلا العرض عليها غُدواً وعشيا، والمراد بدخول أبوابها، أي: التي تفضي إلى طبقاتها، التي هي بعضها على بعض، وأبوابها كذلك، كل صنف يدخل من بابه المُعَدّ له، ﴿خالدين فيها فلبئس مثوى﴾ أي: مقام ﴿المتكبرين﴾ جهنم.

الإشارة: وإذا قيل لأهل الغفلة والإنكار: ماذا أنزل ربكم، على قلوب أولياء زمانكم؛ من المواهب وأسرار الخصوصية؟ قالوا: أساطير الأولين، ثم عوّقُوا الناس عن الدخول في طريقهم؛ لتطهير قلوبهم، فيحملوا أوزارهم

---

(١) كما حكى عنهم الله تعالى في الآية ٢٣ من سورة الأنعام.
(٢) من الآية ١٣٠ من سورة الأنعام.

كاملة يوم القيامة؛ حيث ماتوا مصرين على الكبائر وهم لا يشعرون. ويحملون من أوزار الذين يضلونهم عن طريق الخصوص بغير علم، بل جهلاً وعناداً وحسداً، ألا ساء ما يزرون.

قلت : الذي أتلف العوام عن الدين ثلاثة أصناف: علماء السوء، وفقراء السوء ـ وهم أهل الزوايا والنسبة ـ، وقراء السوء؛ لأن هؤلاء هم المقتدى بهم، والمنظور إليهم، فإذا رأوهم أقبلوا على الدنيا، وقصروا فى الدين، تبعوهم على ذلك؛ فضلوا معهم، فقد ضلوا وأضلوا، وإذا أنكروا على أولياء الله، ومكروا بهم، اقتدوا بهم فى ذلك، فيتولى الله حفظ أوليائه، ويهدم مكرهم؛ قال تعالى: (فأتى الله بنيانهم من القواعد) .. الآية، فإذا كان يوم القيامة أبعدهم عن حضرته، وأسكنهم مع عوام خلقه. فإذا أنكروا ما فعلوا فى الدنيا، يقال لهم: (بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون)، فيخلدون فى عذاب القطيعة والحجاب، فبئس مثوى المتكبرين. والله تعالى أعلم .

ثم ذكر أضدادهم، فقال:

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) ﴾

قلت : (خيراً) : منصوب بفعل محذوف، أى: أنزل خيراً، فهو مطابق للسؤال؛ لأن المؤمنين معترفون بالإنزال، بخلاف قوله: (أساطير الأولين)؛ فهو مرفوع على الخبر؛ لأنهم لا يُقرون بالإنزال، فلا يصح تقدير فعله. وإنما عدلوا بالجواب عن السؤال؛ لإنكارهم له، وقالوا: هو أساطير الأولين ولم ينزله الله. و(للذين) : خبر، و(حسنة) : مبتدأ، والجملة: بدل من (خيراً)، أو تفسير الخير الذى قالوه، والظاهر أنه استئناف من كلام الحق. (جنات عدن) : يحتمل أن يكون هو المخصوص بالمدح، فيكون مبتدأ، وخبره فيما قبله، أو خبر ابتداء مضمر، أو مبتدأ، وخبره: (يدخلونها)، أو محذوف، أى: لهم جنات عدن. و(طيبين) : حال من مفعول «توفاهم».

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وقيل للذين اتقوا ﴾ الشرك، وهم المؤمنون: ﴿ ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً ﴾، أى: أنزل خيراً، مقرين بالإنزال، غير مترددين فيه ولا متلعثمين عنه، على خلاف الكفرة؛ لمَّا ذكر الحق تعالى مقالة الكفار الذين قالوا: أساطير الأولين، عادل ذلك بذكر مقالة المؤمنين من أصحاب النبى ﷺ، وأوجب لكل فريق ما يستحق من العقاب أو الثواب، رُوى أن العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بأخبار النبى ﷺ، فإذا جاء الوفد، وسأل المقتسمين من الكفار، قالوا له: أساطير الأولين، وإذا سأل المؤمنين: ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: خيراً. فنزلت الآية فى شأن الفريقين.

ثم ذكر جزاء المؤمنين فقال: ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا ﴾ بالإيمان والطاعة، ﴿ حسنة ﴾ أى: حالة حسنة؛ من النصر، والعز، والتمكين فى البلاد، مع الهداية للمعرفة والاسترشاد. ﴿ ولَدارُ الآخرة خيرٌ ﴾ أى: ولثواب الآخرة خير مما قدّم لهم في الدنيا؛ لدوامه، وصفائه، وعظيم شأنه، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ المُؤْمِنَ حَسَنَةً، يُثَابُ عليها الرزْقَ فِي الدُّنيَا، ويُجَازَى بِهَا فِي الآخِرَة»(١). ﴿ ولنعم دارُ المتقين ﴾ دار الآخرة، حذفت، لتقدم ذكرها، أو هى: ﴿ جناتُ عــدنٍ يدخلونها ﴾على الأبد، ﴿ تجرى من تحتها الأنهارُ لهم فيها ما يشاؤونَ ﴾ من أنواع المشتهيات؛ حسية ومعنوية، وفي تقديم الظرف فى قوله: (فيها)؛ تنبيه على أن الإنسان لا يجد جميع ما يريد إلا فى الجنة. قاله البيضاوى.

﴿ كذلك يَجزى اللهُ المتقين ﴾ الذين قالوا خيراً وفعلوا خيراً، وأحسنوا فى دار الدنيا حتى ماتوا على الإحسان، كما قال: ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ﴾: طاهرين من ظُلم أنفسهم بالكفر والمعاصى؛ لأنه فى مقابلة ظالمى أنفسهم، وقيل: فرحين؛ لبشارة الملائكة إياهم بالجنة، أو طيبين بقبض أرواحهم؛ لتوجه نفوسهم بالكلية إلى الحضرة القدسية. قاله البيضاوى. وقال ابن عطية: (طيبين): عبارة عن صلاح حالهم، واستعدادهم للموت. وهذا بخلاف ما قال فى الكفرة: (ظالمى أنفسهم)، والطيب لا خبث معه، ومنه قوله تعالى: ﴿ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا ﴾(٢).هـ.

وقال الترمذى الحكيم: (طيبين) أى: مستعدين للقاء، يُسلَّم عليهم، ويقال لهم: ادخلوا الجنة بلا هول ولاحساب، بخلاف غير المستعد للقاء، فإنما يسلم عليه، ويقال له: ادخل الجنة بعد أهوال القبر وأهوال القيامة. هـ. وهذا معنى قوله: ﴿ يقولون سلام عليكم ﴾؛ لا يلحقكم بعدُ مكروهٌ. وهذا لأجل الاستعداد كما تقدم. ثم تقول لهم: ﴿ ادخُلوا الجنة ﴾ بعد بعثكم، أو بأرواحكم فى عالم البرزخ، إن كانوا من الشهداء أو الصديقين، ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ فى دار الدنيا.

فإن قلت: كيف التوفيق بين الآية وبين الحديث: «لن يَدْخُلَ أحدُكُم الجنَّةَ بعمَلِه، قالوا: ولا أنْتَ؟ قَالَ: ولا أنَا، إلاَّ أنْ يَتَغَمَّدَنِى اللهُ بِرَحْمَتِه»؟ فالجواب: أن الهداية لصالح العمل، والتوفيق له، هو برحمة الله أيضا، فالعمل الصالح رحمة من رحمات الله، فما دخل أحد الجنة إلا برحمته، فرجعت الآية إلى الحديث. ومقصد الحديث: نفى وجوب ذلك على الله تعالى بالعقل، كما ذهب إليه فريق من المعتزلة. وهنا جواب آخر صوفى؛ وهو الجمع بين الحقيقة والشريعة، فنسبة العمل إلى العبد شريعة، ونفيه عنه، بإجراء الله ذلك عليه، حقيقة. فالآية سلكت مسلك الشريعة فى

(١) أخرجه مسلم بنحوه فى (صفات المنافقين وأحكامهم، باب: جزاء المؤمن بحسناته فى الدنيا والآخرة). من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٢) من الآية ٧٣ من سورة الزمر.

نسبة العمل للعبد؛ فضلاً ونعمة؛ «من تمام نعمته عليك أن خلق فيك ونسب إليك». والحديث سلك مسلك الحقيقة؛ لأن الدين كله دائر بين حقيقة وشريعة، فإذا شرَّع القرآنُ حققته السُّنة، وإذا شرَّعت السُّنةُ حققها القرآن. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وقيل للذين اتقوا التقوى الكاملة: ماذا أنزل ربكم من المقادير؟ قالوا: خيراً، فكل ما ينزل بهم من قدر الله وقضائه، جلاليًا كان أو جماليًا، جعلوه خيراً، وتلقوه بالرضا والتسليم. يقولون: إذا كنتَ أنتَ المبْتَلِي، فافعل ما شئت، لا يتضعضعون ولا يسأمون، ولا يشكون لأحد سوى محبوبهم؛ لأن الشكوى تنافي دعوى المحبة، كما قال الشاعر:

إنْ شَكَوْتَ الهَوَى فما أنت منّا ... احمْلِ الصَّدَ والجفا يا مُعَنّا

تَدَّعِي مَذْهبَ الهوى ثم تَشْكُو ... أين دَعْوَاك في الهوى، قَل لِي: أيْنَا؟

لَو وجَدْناك صابراً لِهَوانا ... لأعْطيناك كُلَّ ما تتمنى.

وإنما قالوا، في كل ما ينزل بهم: خيراً، أو جعلوه لطفًا وبرًا؛ لما يجدون في قلوبهم، بسببه، من المزيد والألطاف، والتقريب وطي مسافة النفس، ما لا يجدونه في كثير من الصلاة والصيام سنين؛ لأن الصلاة والصيام من أعمال الجوارح، وما يحصل في القلب من الرضا والتسليم، وحلاوة القرب من الحبيب، من أعمال القلوب، وذرة منها خير من أمثال الجبال من أعمال الجوارح[1].

وفي الخبر: «إذا أحبَّ اللهُ عبدَ ابتلاه، فإنْ صبرَ اجتباه، وإن رضِيَ اصطفاه». وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «عجبًا لأمر المؤمن، إنّ أمرَه كُلُّه له خير، وليس ذلك لأحد إلاّ للمؤمن. إن أصابته سرَّاء شكر، فكان خيراً له، وإنْ أصابته ضرَّاء صبرَ، فكان خيراً له»[2]، وفي البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «ما يصيب المؤمنَ من وَصَب، ولا نَصَبٍ، ولا سَقَمٍ، ولا حزَنٍ، حتى الهمُّ يهمُّه، إلا كفر له من سيئاته»[3]، وقال أيضًا: ﷺ: «ما مِنْ مسلم يصيبه أذىً من مرض فما سواه، إلا حطَّ به عنه سيئاته كما تَحطُّ الشجَرةُ ورقَها»[4]. وروى عن عيسى عليه السلام أنه كان يقول: لا يكون عالماً من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله؛ لما يرجو بذلك من كفارة خطاياه. هـ. فتحصل أن ما ينزل بالمؤمن كلُّه خير، فإذا سئل: ماذا أنزل ربكم؟ قال: خيراً.

---

(١) ليس هذا مفيداً لتقليل شأن الصلاة والصوم.. إلخ، وإنما يريدك الشيخ أن تجعل عمل القلب مع عمل الجارحة.

(٢) رواه مسلم في (الزهد، باب المؤمن أمره كله خير)، عن صهيب رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري في (المرض، باب ماجاء في كفارة المرض)، ومسلم في (البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في (المرض، باب قول المريض: إني وجع)، ومسلم في (البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض..) من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه.

ثم قال تعالى: ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا ﴾؛ أي: بالرضا عنى فى جميع الأحوال، والاشتغال بذكرى فى كل حال، لهم فى الدنيا ﴿ حسنةٌ ﴾: حلاوة المعرفة، ودوام المشاهدة، ﴿ ولدارُ الآخرة خيرٌ ﴾؛ لصفاء المشاهدة فيها، واتصالها بلا كدر؛ إذ ليس فيها من شواغل الحس ما يكدرها، بخلاف الدنيا؛ لأن أحكام البشرية لا ينفك الطبع عنها، كغلبة النوم، وتشويش المرض وغيره، بخلاف الجنة، ليس فيها شيء من الكدر، ولذلك مدحها بقوله: ﴿ ولنِعْم دارُ المتقين ﴾.

ثم قال: ﴿ كذلك يجزي الله المتقين ﴾ لكل ما يشغل عن الله؛ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين، طاهرين، مطهرين من شوائب الحس، ودنس العيوب، طيبة نفوسهم بحب اللقاء، قد طيبوا أشباحهم بحسن المعاملة، وقلوبهم بحسن المراقبة، وأرواحهم بتحقيق المشاهدة. تقول لهم الملائكة الكرام: سلام عليكم، ادخلوا جنة المعارف إثر موتكم، وجنة الزخارف إثر بعثكم؛ بما كنتم تعملون من تطهير أجسامكم من الزلات، وتطهير قلوبكم من الغفلات، وتطهير أرواحكم من الفترات. وبالله التوفيق.

ثم ذكر وعيد أضدادهم، الذين قالوا فيما أنزل لهم: (أساطير الأولين)، فقال:

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ هل ينظرون ﴾ أي: ما ينظر هؤلاء الكفرة، الذين قالوا فيما أنزل الله من الوحي: هو أساطير الأولين، ﴿ إلا أن تأتيهم الملائكة ﴾؛ لقبض أرواحهم، ﴿ أو يأتى أمرُ ربك ﴾: قيام الساعة، أو العذاب المستأصل لهم فى الدنيا، ﴿ كذلك ﴾ أي: مثل ذلك التكذيب والشرك، ﴿ فعل الذين من قبلهم ﴾، فأصابهم ما أصابهم، ﴿ وما ظلمهم الله ﴾ بإهلاكهم، ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾؛ لكفرهم ومعاصيهم، المؤدية إلى عذابهم.

﴿ فأصابهم ﴾ جزاء ﴿ سيئاتُ ما عملوا ﴾ من الكفر والمعاصي، وهو العذاب، ﴿ وحاقَ ﴾ أي: وأحاط ﴿ بهم ما كانوا به يستهزؤون ﴾ أي: نزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزءون به. والحيْق لا يكون إلا في الشر.

﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولاحرَّمنا من دونه من شيء ﴾ ؛ كالبحائر والسوائب والحوامي. قالوا ذلك على وجه المجادلة والمخاصمة، والاحتجاج على صحة فعلهم، أي: إنَّ فعْلَنَا هو بمشيئة الله، فهو صواب، ولو شاء الله ألا نفعله ما فعلناه. والجواب: أن الاحتجاج بالقدر لا يصح في دار التكليف، وقد بعث الله الرسل بالنهي عن الشرك، وتحريم ما أحل الله، ونحن مكلفون باتباع الشريعة، لا بالنظر إلى فعل الحقيقة من غير شريعة؛ فإنه زندقة؛ فالشريعة رداء الحقيقة، فمن خرق رداء الشريعة، وتمسك بالحقيقة وحدها، فقد استحق العقاب، ولذلك قال تعالى: ﴿ كذلك فَعل الذين من قَبلهم ﴾ ؛ فأشركوا بالله، وحرموا ما أحل الله، وردوا رسله. ﴿ فهل على الرسلِ إلا البلاغُ المبين ﴾ أي: الإبلاغ الموضح للحق؛ فمن تمسك بما جاءوا به فهو على صواب، ومن أعرض عنه فهو على ضلال، ولا ينفعه تمسكه بالحقيقة من غير اتباع الشريعة. والحقيقة هي أنه لا يقع في ملكه إلا ما يريد، طاعة كان أو معصية، كفراً أو إيماناً، لكن الأمر غير تابع للإرادة، ونحن مكلفون باتباع الأمر فقط.

ثم بيَّن أن البعثة أمر جرت به السنة الإلهية في الأمم الماضية، جعلها سببًا لهدى من أراد اهتداءه، وزيادة الضلال لمن أراد إضلاله، كالغذاء الصالح، فإنه ينفع المزاج السوي ـ أي: المعتدل ـ ويقويه، ويضر المزاج المنحرف ويعييه، فقال: ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ﴾ قائلاً: ﴿ أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوتَ ﴾ ؛ أي: يأمر بعبادة الله وحده واجتناب ما سواه، ﴿ فمنهم من هدى الله ﴾ ؛ وفقهم للإيمان وأرشدهم إليه، ﴿ ومنهم من حقتْ عليه الضلالةُ ﴾ ؛ فلم يوفقهم، ولم يُرد إرشادهم؛ فليس كل من تمسك بشيء وأُمْهل فيه يدل أنه على صواب، كما ظن المشركون، بل النظر إلى ما جاءت به الرسل من الشرائع، وكلها متفقة على وجوب التوحيد وإبطال الشرك.

ثم أمرهم بالنظر والاعتبار بحال من أشرك وكذب الرسل، فقال: ﴿ فسيروا في الأرض ﴾ يا معشر قريش، ﴿ فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ ؛ كعاد وثمود وغيرهم، لعلكم تعتبرون.

ثم نهى نبيه عن الحرص عليهم فقال: ﴿ إنْ تَحرِص ﴾ يا محمد ﴿ على هُداهم فإن الله لا يَهدي من يُضلُّ ﴾ أي: من يريد إضلاله وقضى بشقائه؛ وهو الذي حقت عليه الضلالة، وقرأ غير الكوفيين بالبناء للمفعول(١)، وهو أبلغ، أي: فإن الله لا يُهدى من يضله، أي: لا يهدي غيرُ الله من يريد اللهُ إضلاله. ﴿ ومالهم من ناصرين ﴾ ؛ ليس لهم من ينصرهم؛ يدفع العذاب عنهم.

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي: «يهدي»؛ بفتح الياء وكسر الدال، على البناء للفاعل، أي: لا يهدي الله من يضله. وقرأ الباقون: «يُهْدَى» بضم الياء وفتح الدال، على البناء للمفعول، يعني: من أضله الله فلا هادي له. انظر الإتحاف (٢/ ١٨٤) والبحر المحيط (٥/ ٤٧).

الإشارة: هل ينظر من عكف على دنياه، وأكب على متابعة حظوظه وهواه، إلا أن تنزل الملائكة لقبض روحه، فيندم حيث لا ينفع الندم، وقد زلت به القدم، فيتمنى ساعة تُزاد فى عمره فلا يجدها، أو يأتى أمر ربك؛ أمرٌ يحول بينه وبين العمل الصالح؛ كمرض مزمن، أو فتنة مضلة. كذلك فعل من قبله، اغتر بدنياه حتى اختطف لأخراه. وما ظلمهم الله، بل بعث الرسل وأخلفهم بأهل الوعظ والتذكير، فحادوا عنهم، فأصابهم جزاء سيئات ما عملوا من الغفلة والبطالة، وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون، من وبال التقصير، وفوات مقام أهل الجد والتشمير.

وقال الذين أشركوا فى محبة الله سواه؛ من الحظوظ وزهرة الدنيا: لو شاء الله ما فعلنا ذلك، محتجين بالقدر، مع الإقامة على البطالة والخذلان. كذلك فعل مَنْ قَبْلَهُمْ من أهل الغفلة، فهل على الرسل وخلفائهم إلا البلاغ المبين؟ فقد حذَّروا من متابعة الدنيا، وبلَّغوا أن الله غيور لا يُحب من أشرك معه غيره فى محبته، فقد بعث فى كل أمة وعصر نذيراً، يأمر بعبادة الله وحده، واجتناب كل ما سواه؛ فمنهم من هداه الله، فاختاره لحضرته، فلم يُحب سواه. ومنهم من حقت عليه الضلالة عن مقام الخصوص، فبقى فى مقام البعد؛ مُكَذِّباً بطريق الخصوص. فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين؛ كان عاقبتهم الحرمان ولزوم الخذلان. ويقال للعارف المذكِّر لمثل هؤلاء: (إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل).. الآية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مقالة أخرى لأهل الشرك، وهو إنكار البعث، فقال:

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾

قلت: (وأقسموا): عطف على (وقال الذين أشركوا)؛ إيذاناً بأنهم، كما أنكروا التوحيد، أنكروا البعث، مقسمين عليه؛ زيادةً فى القطع على فساده، فرد الله عليهم بأبلغ رد، فقال: (بلى). قاله البيضاوى. وتقدم الكلام على «بلى»، فى البقرة والأعراف[1]، و (وعداً): مصدر مؤكد لنفسه، وهو ما دل عليه «بلى»؛ فإن «يبعث» وعد، أى: بلى، وعدهم ذلك وعداً حقا، ونصب ابن عامر، فيكون عطفاً على «نقول»، أو جواباً للأمر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وأقسموا﴾ أى: المشركون، ﴿بالله جهد أيمانهم﴾ أى: أبلغها وأوكدها، ﴿لا يبعثُ الله من يموت﴾، فردَّ الله عليهم بأبلغ رد، فقال: ﴿بلى﴾ يبعثهم؛ ﴿وعداً عليه﴾ إنجازه

(١) راجع تفسير الآية ٨١ من سورة البقرة، والآية ١٧٢ من سورة الأعراف.

﴿ حقًا ﴾، لا يخلف؛ لامتناع الخلف فى وعده، أو: لأن البعث مقتضى حكمته؛ لتنزيه فعله عن العبث، ﴿ ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون ﴾ أنهم يُبعثون، إما لعدم علمهم بأنه من موجبات الحكمة، التى جرت عادته بمراعاتها، وإما لقصور نظرهم باعتبار المألوف، ووقوفهم مع العوائد، فتوهموا امتناعه، وقالوا: ﴿ أئذَا كُنَّا تُرَابًا أئِنَّا لفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾(١)، ولم ينظروا إلى قدرة الله التى لا يعجزها شىء.

ثم بيَّن حكمة البعث، فقال: ﴿ ليُبيِّن لهم ﴾ أى: يبعثهم؛ ليبين لهم ﴿ الذى يختلفون فيه ﴾ ؛ وهو الحق من الباطل؛ فإن الناس مختلفون فى أديانهم ومذاهبهم؛ فيبعثهم الله؛ ليُبين لهم الحق فيما اختلفوا فيه، فيظهر من كان على الحق ممن كان على الباطل، ﴿ وليَعْلَم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾ فيما كانوا يزعمون؛ من عدم البعث، وتمسكهم بالحق، وهو إشارة إلى السبب الداعى إلى البعث، المقتضى له من حيث الحكمة، وهو التمييز بين الحق والباطل، والمحق والمبطل.

ثم بيَّن كمال قدرته الموجبة للبعث وغيره فقال: ﴿ إنما قولُنا لشىء إذا أردناه أن نقولَ له كن فيكون ﴾، فأمره بين الكاف والنون، فإذا كان إيجاد الأشياء من العدم بلفظ «كن»، فأولى إعادتها. وكون أمره بين الكاف والنون كناية عن السرعة، وإلاَّ فلايحتاج إلى لفظ «كن». بل مهما أراد شيئاً، أظهره؛ أقرب من لحظ العيون، وإنما جاءت العبارة على قدر ما تفهم العقول، وعلى هذا فلا يحتاج إلى ما تَعسّفَه ابن عطية وغيره؛ من كون القول فى الأزل، وإظهاره فيما لا يزال ـ يعنى: فى وقت إظهاره ـ؛ فإن الكلام إنما خرج مخرج الاستعارة أو المجاز، فلا يتوقف إيجاد الأشياء على «كن». والله تعالى أعلم.

الإشارة: ترى بعض الجهال يقسمون بالله جهد أيمانهم: أن الله لا يفتح على فلان، لِما يرون فيه من الجهل والغباوة، أو من الطغيان والمعاصى، فلا يبعث الله روحه بإحيائها بعد موتها، وتلفها فى عالم الحس، مع أن القدرة صالحة؛ قال فى الحكم: «من استغرب أن ينقذه الله من شهوته، وأن يخرجه من وجود غفلته، فقد استعجز القدرة الإلهية، وكان الله على كل شىء مقتدرا». فإن سبقت له العناية يقل الحقُّ تعالى فى شأنه: بلى، يبعثه، ويحيى روحه بالمعرفة واليقين، وعداً عليه حقاً، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن قدرته عامة. فكم من جاهل غبى يخرج منه عالمٌ ولي، وكم من خصوص خرجوا من اللصوص، والله يختص برحمته من يشاء. يبعثهم؛ ليُبين لهم الذى يختلفون فيه؛ من نفوذ قدرته تعالى وعموم تعلقها، وليعلم الذين كفروا بطريق الخصوص أنهم كانوا كاذبين فيما زعموا؛ (إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون).

(١) من الآية ٥ من سورة الرعد.

ثم ذكر الطريق الموصلة إلى إحياء الأرواح، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

قلت: (الذين صبروا): نعت للذين هاجروا، أو على تقدير: (هم)، أو نصب على المدح.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**والذين هاجروا فى الله**﴾ أى: طلب رضا الله، أو: فى نصر دينه، أو: طلب معرفته، ﴿**من بعد ما ظُلموا**﴾؛ من بعد ما ظلمهم الكفار بالإيذاء والتضييق، وهم: رسول الله ﷺ وأصحابه المهاجرون. ظلمهم قريش وضيقوا عليهم، فهاجر بعضهم إلى الحبشة، وبعضهم إلى المدينة. قال ابن عطية: الجمهور أنها نزلت فى الذين هاجروا إلى أرض الحبشة؛ لأن الآية مكية، وهجرة المدينة لم تكن وقت نزول الآية.هـ . **قلت:** والمختار: العموم، ويكون من جملة الإخبار بما سيقع، أو: هم المحبوسون المعذبون بمكة، بعد هجرة رسول الله ﷺ؛ وهم بلال، وصُهَيب، وعمَّار، وخبَّاب، وأبو جَنْدَل بن سُهَيل[1]، أو: كل من هاجر من بلده؛ لإقامة دينه.

﴿**لنبوئَنَّهم فى الدنيا حسنةً**﴾ أى: لننزلنهم فى الدنيا بقعة حسنة، وهى المدينة، أو منزلة حسنة، وهى العز والتمكين فى البلاد، وكل أمل بلَّغَهُ المهاجرون، أو حياة حسنة، وهى الاستقامة والمعرفة. ﴿**ولأجرُ الآخرة أكبرُ**﴾ مما يُعجل لهم فى الدنيا؛ من سعة الأموال، وتعظيم الشأن والحال، وهو النعيم الدائم. وعن عمر رضي الله عنه: أنه كان، إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاءه من قسمْ الغنائم، يقول له: (خذ، بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله فى الدنيا، وما ادخر لك فى الآخرة أفضل)[2]. والضمير فى قوله: ﴿**لو كانوا يعلمون**﴾ لكفار قريش، أى: لو علموا أن الله يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم. أو للمهاجرين، أى: لو علموا أن أجر الآخرة خير مما عجل لهم لزادوا فى اجتهادهم وصبرهم.

ثم وصفهم بالصبر والتوكل فقال: ﴿**الذين صبروا**﴾ على الشدائد، كأذى الكفرة، ومفارقة الوطن، ونزول الفاقة، ﴿**وعلى ربهم يتوكلون**﴾ فيما نزل بهم، منقطعين إلى الله، مفوضين إليه الأمر كله، فآواهم إليه، وكفاهم كل مؤونة، ورزقهم من حيث لا يحتسبون.

الإشارة: والذين هاجروا حظوظهم وهواهم، وكل ما نهى الله عنه؛ ابتغاء مرضات الله، أو فارقوا أوطانهم

---

(١) فى الأصول: وأبو جندل وسهيل.   (٢) ذكره البغوى فى تفسيره (٥/٢٠).

وديارهم فى طلب معرفة الله، كما فعل كثير من الصوفية، فقلَّ أن تجد وليًا إلا وهاجر من بلده؛ لإقامة دينه وجبر قلبه، وإفراغ سره لربه، من بعد ما ظُلموا بإيذاء الخلق ـ كما هو سنة الله فى خواصه ـ لنبوئنهم فى الدنيا حسنة، وهى معرفة الشهود والعيان فى الباطن، واستقامة الدين والعافية فى الظاهر. هذا فى الدنيا، ولأجر الآخرة أكبر وأكبر؛ إذ فيه مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. الذين صبروا على مجاهدة النفوس، وحط الرءوس، ودفع الفلوس، أو على ضروب الفاقات، ونزول البليات، وركوب الأهوال والآفات، إذ لا يأتى الجمال إلا بعد الجلال، ولا تأتى الحلاوة إلا بعد المرارة.

لا تَحْسَبِ المجْدَ تمراً أنت آكلُه لنْ تبلُغَ المجْدَ حتَّى تلْعقَ الصبْرا[١]

وعلى ربهم يتوكلون، أى: مفوضين فى أمورهم كلها لله، ليس لهم مع الله اختيار، ولا لهم عن أنفسهم إخبار، بل هم كالميت بين يدى الغاسل. حققنا الله من هذا المقام بالحظ الأوفر.. آمين.

ولابد من الواسطة فى الوصول إلى هذا، إما رسول أو خليفته، كما قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قلت: (بالبينات): يتعلق بأرسلنا الذى فى أول الآية، على التقديم والتأخير، أى: وما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات، فاسألوا أهل الذكر، أو بأرسلنا؛ مضمراً، وكأنه جواب سائل قال: بم أُرسلوا به؟ فقال: بالبينات، أو: صفة لرجال، أى: رجالاً ملتبسين بالبينات، أو: بيوحى. انظر البيضاوى.

يقول الحق جل جلاله، فى الرد على قريش ،حيث قالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً: ﴿ **وما أرسلنا من قبلك** ﴾ يا محمد ﴿ **إلا رجالاً** ﴾ بشراً، ﴿ **يوحى إليهم** ﴾[٢] كما يُوحى إليك. فليس ببدع أن يكون الرسول بشراً، بل جرت السنة الإلهية بأن لا يبعث للدعوة العامة إلا بشراً يوحى إليه على ألسنة الملائكة؛ إذ لا يطيق كل البَشر رؤية الملائكة ولا التلقى منهم. فإن شككتم ﴿ **فاسألوا أهل الذكر** ﴾: أهل الكتاب، أو علماءهم الأحبار، أى: الذين لم يسلموا، لأنهم لا يتهمون فى شهادتهم، من حيث إنهم مدافعون فى صدر ملة محمد ﷺ، وأنتم إلى

(١) من قصيدة لأبى الطيب أحمد بن الحسين، المعروف بالمتنبى.
(١) قرأ الجمهور: (يوحى) بالياء وفتح الحاء، وقرأ حفص (نوحى) بالنون وكسر الحاء .. انظر الإتحاف (٢/ ١٨٤).

تصديق من لم يؤمن من أهل الكتاب أقرب من تصديقكم المؤمنين منهم، فاسألوهم؛ ليخبروكم: هل كانت الرسل ملائكة أو بشراً، ﴿إن كنتم لا تعلمون﴾ ذلك.

قال البيضاوى: وفى الآية دليل على أنه تعالى لم يرسل امرأة ولا ملكاً للدعوة العامة. وأما قوله: ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً﴾(١)؛ فمعناه: رسلاً إلى الأنبياء. وقيل: لم يُبعثوا إلى الأنبياء إلا متمثلين بصورة الرجال. ورُدَّ بما رُوى أنه عليه ﷺ رأى جبريل عليه السلام على صورته التى هو عليها مرتين. وعلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم. هـ. ومفهوم قوله: «الدعوة العامة»: أن الدعوة الخاصة؛ كالأنبياء ـ عليهم السلام ـ، فإن الله يبعث إليهم الملك ليعلمهم أمر دينهم.

ثم قال تعالى: ﴿بالبينات والزُبر﴾ أى: أرسلناهم بالمعجزات والكتب. ﴿وأنزلنا إليك الذكر﴾ أى: القرآن؛ لأنه تذكير ووعظ، ﴿لتُبَيِن للناس ما نُزِّل إليهم﴾ من الأحكام، مما أمروا به ونهوا عنه، ومما تشابه عليهم منه. والتبيين أعم من أن ينص على المقصود، أو يرشد إلى ما يدل عليه، كالقياس ودليل العقل. قاله البيضاوى. قال ابن جزى: يحتمل أن يريد: لتبين القرآن بسردك نَصَّهُ وتعليمه، أو لتُبين معانيه بتفسير مُشكله، فيدخل فى هذا ما سنته السنة من الشريعة. هـ. ﴿ولعلهم يتفكرون﴾ فى عجائبه وأسراره، فيخوضون بسفن أفكارهم فى تيار بحر معانيه وأنواره، فينتبهون للحقائق والشرائع.

الإشارة: كما لم يبعث الله فى الدعوة العامة ـ وهى دعوة الرسالة ـ إلا رجالاً من البشر، كذلك لم يبعث الله فى الدعوة الخاصة ـ وهى دعوة الولاية إلى سر الخصوصية ـ إلا رجالاً من البشر أحياء، يُربون التربية النبوية العرفية، فلا يصلح للتربية النساء؛ لقلة عقلهن(٢)، ولا الجن؛ لانحرافه عن الاعتدال الذى فى البشر، ولا الميت؛ لعدم وجود بشريته؛ فإنّ بشرية الحى تمد البشرية، والروحانية تمد الروحانية. فلا تتهذب البشرية إلا بشهود بشرية الشيخ، ولا تصفى الروحانية إلا بالقرب من روحانية الشيخ. ولذلك قالوا: الثدى الميتة لا تُرضع. وقولنا: «التربية العرفية»؛ أعنى: بالصحبة العرفية، وأما التربية الغيبية، على وجه خرق العادة، كطيران الشيخ إلى المريد، أو المريد إلى الشيخ، فلا تجد صاحب هذه التربية إلا منحرفًا لإحدى الجهتين، إما إلى الحقيقة أو إلى الشريعة، بخلاف التربية العرفية، فلا يكون صاحبها، فى الغالب، إلا معتدلاً كاملا.

---

(١) من الآية الأولى من سورة فاطر.
(٢) هذا رأى الشيخ المفسر، لكن تاريخ المسلمين لايمنع من هذا، وسير الصالحات الزاهدات تبرهن على عكس ذلك، إقرأ مثلاً كتاب ذكر النسوة التعبدات الصوفيات، لأبى عبدالرحمن السلمى، وتراجم الصالحات فى سير أعلام النبلاء، وفى حلية الأولياء وفى صفة الصفوة. وعلى أية حال: من يقوم بتربية الأولاد فى بيوت المسلمين الصالحين؟ ورب امرأة صالحة تربى رجلاً، بل رجالاً.

وقوله تعالى: (فاسألوا أهل الذكر)؛ هم العارفون بالله، فإذا أشكل علينا أمر من أمر القلوب؛ كأسرار التوحيد، وأمر الخواطر، رجعنا إليهم؛ لأنهم أهل الذوق والكشف، يُجيبون سائلهم بالهمة والحال، حتى يقلعوا عروق ما أشكل على السائل، إن أتاهم متعطشًا لهفاناً، وكذا ما أشكل في أمر الدنيا، من فعلٍ تريد أن تفعله أو تتركه، فينبغي الرجوع إليهم؛ لأنهم ينظرون بنور الله، فلا ينطقهم الله إلا بما هو حق سبق به القدر. وأما أمور الدين، فإن كان له علم بالشريعة الظاهرة فالرجوع إليه، وإن لم يكن له علم بالظاهر، فالعلماء قائمون بهذا الأمر.

وقوله تعالى: (إن كنتم لا تعلمون)؛ يُفهم منه أن من كان من أهل الفهم عن الله، يأخذ العلم عن الله بإلهام أو تجل حقيقي، فلا يحتاج إلى سؤالهم، حيث صفت مرآة قلبه، وقد يكون الولي ذاكراً، باعتبار قوم، وغيرذاكر، باعتبار آخرين، الذين هم أنهض منه حالاً، وأصوب مقالاً. والله تعالى أعلم.

ثم هدد أهل المكر بأهل الخصوصية، فقال:

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

قلت: (مكروا السيئات): صفة لمحذوف، أي: المكرات السيئات، والتخوف، قيل: معناه: التنقص، وهو أن تنقصهم شيئاً فشيئا. رُوي أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ توقف في معناها، فقال على المنبر: ما تقولون فيها؟ فسكتوا، فقام شيخ من هذيل، فقال: هذه لغتنا، التخوف: التنقص. فقال: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ فقال: نعم. قال شاعرنا أبو كثير يصف ناقته:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكًا قَرِداً كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السفَنُ[1]

فقال عمر: عليكم بديوانكم؛ لا تضلوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية؛ فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم. هـ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أفأمن الذين مكروا﴾ المكرات السيئات برسول الله ﷺ وبالمؤمنين، حيث قصدوا ردَّ دينه، وصدوا الناس عن طريقه، ﴿**أن يخسفَ اللهُ بهم الأرض**﴾ كما خسف بقارون، ﴿**أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون**﴾ أي: بغتة من حيث لا يظنون، كما فعل بقوم لوط، ﴿**أو يأخذهم في**

(١) اختلف في نسبة البيت، فنسبه الزمخشري في تفسيره لزهير، وأبو حيان لأبي كثير الهذلي، ونسبه ابن منظور لابن مقبل، مرة، ولذي الرمة، أخرى، وقوله: تامكاً قرداً، أي: سناماً مرتفعاً، والنبعة: واحدة النبع، وهو من شجر الجبال، والسفن: المبرد.

تقلبهم﴾؛ في متاجرهم ومسايرهم في طلب معاشهم، ﴿**فما هم بمعجزين**﴾؛ بفائتين قدرتنا حتى نعجز عن أخذهم، ﴿**أو يأخذهم على تَخَوُّف**﴾: على تنقص، بأن ينقص أموالهم وأنفسهم، شيئاً فشيئاً، حتى يهلكوا جميعًا من غير أن يهلكهم جملة واحدة. وعليه يترتب قوله: ﴿**فإن ربكم لرؤوف رحيم**﴾ حيث لم يهلكهم دفعة واحدة، أو: على تخوف: على مخافة بأن يهلك قوماً قبلهم، فيتخوفوا، فيأتيهم العذاب وهم متخوفون. وهو قسيم قوله: (وهم لا يشعرون)، وقوله: ﴿**فإن ربكم لرؤوف رحيم**﴾ أي: حيث لم يعاجلكم بالعقوبة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما خوف به أهل المكر بالأنبياء والرسل، يُخوف به أهل المكر بالأولياء والمنتسبين، وقد تقدم هذا مراراً.

ثم أمر بالتفكر والاعتبار؛ لأنه سبب النجاة من الاغترار، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾

قلت: الاستفهام للإنكار، و(من شيء): بيان لـ «ما». والضمير في (ظلاله) يعود على (ما)، أو على (شيء). و(سُجَّداً): حال من الظلال، وكذا جملة: (وهم داخرون)، وجمعه بالواو؛ لأنه من صفة العقلاء. وقال الزمخشري: هما حالان من الضمير في (ظلاله)؛ إذ هو بمعنى الجمع؛ لأنه يعود على قوله: (من شيء)، فعلى الأول يكون السجود من صفة الظلال، وعلى الثاني يكون من صفة الأجرام. و (من دابة): يحتمل أن يكون بياناً لـ (ما في السموات وما في الأرض) معًا؛ لأن كل حيوان يصح أن يوصف بأنه يدب، ويحتمل أن يكون بياناً لـ(ما في الأرض) خاصة، فعلى الأولى: يكون عطف الملائكة عليه، من عطف الخاص على العام؛ تشريفًا لهم، وعلى الثاني: من عطف المباين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿**أو لم يروا**﴾ أي: أهل المكر والخدع بالرسل والمؤمنين، ﴿**إلى ما خلق الله من شيء**﴾؛ من الأجرام والأشكال؛ كالجبال والأشجار والبحار؛ ليظهر لهم كمال قدرته وقهره، فيخافوا سطوته وبطشه، حتى لا يمكروا بخواصه. حال كون ما خلق من الأجرام ﴿**يتفيؤا**﴾ أي: يميل ﴿**ظلاله عن اليمين والشمائل**﴾ أي: يرجع الظل من جانب إلى جانب، أي: يميل عن الأيمان والشمائل، وذلك أن الظل من وقت

طلوع الشمس إلى الزوال يكون إلى جهة، ومن الزوال إلى الغروب يكون إلى جهة أخرى. ثم يمتد الظل ويعم بالليل إلى طلوع الشمس. والتفيؤ :من الفيء، وهو: الظل الذى يرجع بعكس ما كان غدوة. وقال رُوبة بن العجاج: يقال بعد الزوال: ظل وفيء، ولا يقال قبله إلا ظل. ففى لفظ «يتفيأ» هنا، تجوز.

وقال فى سلوة الأحزان: فاء الظل: معناه: رجع بعكس ما كان من بكرة إلى الزوال؛ وذلك أن الشمس من وقت طلوعها إلى الزوال، إنما هى فى نسخ الظل العام قبل طلوعها، فإذا زالت، ابتدأ رجوع الظل العام، ولا يزال ينمو حتى تغيب الشمس فيعم. والظل الممدود فى الجنة لم يذكر الله تعالى فيها فيئاً؛ لأنه لا مُذهِبَ له، ولا تكون الفيأة إلا بعد ذهاب الظل، ولا ذهاب لظل الجنة، فلا يتعقل له فيأة. هـ. واستعمال اليمين والشمال، فى غير الإنسان، تجوز؛ فإنهما فى الحقيقة خاص بالإنسان. هـ.

حال كون تلك الأجرام، أو الظلال ﴿ سُجَّداً لله ﴾ ، قيل: حقيقة. قال الضحاك: إذا زالت الشمس سَجد كل شيء قبلَ القبلة، من نباتٍ أو شجر، ولذلك كان الصالحون يستحبون الصلاة فى ذلك الوقت. وقال مجاهد: إنما تسجد الظلال، لا الأشخاص. وقيل: هو عبارة عن الخضوع والطاعة، وميلان الظلال ودورانها بالسجود، كما يقال للمشير برأسه نحو الأرض، على جهة الخضوع: ساجداً، ثم استشهد لذلك. هـ. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى: والمتَّجَهُ: أنه خضوع وطاعة للمشيئة وانقياد، لا حقيقة؛ لأنه لا يقال فيه، كذلك: أو لم يروا، وإنما يُرَى الانقياد. وخص الظل؛ لأنه مشهود ذلك فيه، ولو حاول صاحبه عدمه أو ضده، لم يستطع، بخلاف الأفعال الاختيارية، فإن الجبر فيها غير محسوس، فظهر سر الإشارة للظلال. والله أعلم. هـ.

قال البيضاوى: المراد من السجود: الاستسلام، سواء كان بالطبع أو الاختيار، يقال: سجدت النخلة، إذا مالت لكثرة الحمل، وسجد البعير، إذا طأطأ رأسه ليركب. أو ﴿ سُجداً ﴾ : حال من الظلال ﴿ وهم داخرون ﴾ : حال من الضمير، والمعنى: ترجع الظلال، بارتفاع الشمس وانحدارها، بتقدير الله تعالى، من جانب إلى جانب، منقادة إلى ما قُدِّر لها من التفيؤ، أو واقعة على الأرض، ملتصقة بها، على هيئة الساجد، والأجرام فى أنفسها أيضا داخرة، أى: صاغرة منقادة لأفعال الله. هـ.

﴿ ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ أى: ينقاد لإرادته، وتأثير قدرته؛ طبعاً، ولتكليفه وأمره؛ طوعًا؛ ليصح إسناده إلى عامة أهل السموات والأرض. وقوله: ﴿ من دابة ﴾: بيان لهما؛ لأن الدبيب هو الحركة الجسمانية، سواء كان فى أرض أو سماء، ﴿ والملائكةُ ﴾ ؛ عطف على المبين به، عطف خاص على عام،

أو عطف المجردات على الجسمانيات، وبه احتج من قال: إن الملائكة أرواح مجردة. قاله البيضاوى. قلت: وهو خلاف الجمهور. بل الملائكة : أجسام لطيفة نورانية متحيزة، لها مادة نورانية وتشكيل مخصوص، غير أن الله تعالى أعطاها قوة التشكيل؛ لأنها قريبة من أسرار المعانى الأزلية. وعبَّر الحق تعالى بـ «ما»؛ ليشمل العقلاء وغيرهم.

ثم قال تعالى فى وصف الملائكة: ﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ عن عبادته، ﴿ يخافون ربَّهم من فوقهم ﴾؛ هو تقرير، وبيان؛ لنفى الاستكبار عنهم، أى: يخافون عظمة ربهم من فوقهم؛ إذ هم محاطون بأفلاك أسرار الجبروت، مقهورون تحت القدرة والمشيئة، أو: يخافون عذاب ربهم أن يُرْسَل عليهم من فوقهم، أو: يخافون ربهم وهو من فوقهم بالقهر والغلبة. والجملة: حال من الضمير فى (يستكبرون)، أو بيان له وتقرير؛ لأن من خاف ربه لم يستكبر عن عبادته، ﴿ ويفعلون ما يُؤمرون ﴾ من الطاعة وتدبير الأمور التى أمرهم بتدبيرها. وفيه دليل على أن الملائكة مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء. قاله البيضاوى.

الإشارة: كل ما دخل تحت عالم التكوين لزمته العبودية، وأحاطت به القهرية، فلابد من الخضوع لأحكام الواحد القهار، تكليفية كانت أو تعريفية، فمن لم ينقد لها بملاطفة الإحسان، قيد بسلاسل الامتحان. وبهذا امتاز الخصوص من العموم، فالخصوص علموا أن سلسلة الأقدار فى عنقهم، تجرهم إلى مراد ربهم، فاستسلموا لها، وانقادوا، وخضعوا، وتأدبوا لها، فاستحقوا التقريب والاصطفائية. والعموم جهلوا هذه السلسلة، أو علموها، ولم يقدروا على الاستسلام لها؛ فاستحقوا البُعد من حضرة الحق؛ إذ لا يدخلها إلا أهل التهذيب والتأديب. وبالله التوفيق.

ثم نهى عن الشرك الجلى والخفى، فقال:

﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

قلت: (إلهين اثنين)، إلهين: مفعول أول، واثنين: تأكيد، والثانى: محذوف، أى: معبودين لكم، وفائدة التأكيد: التنبيه على أن المقصود هو النهى عن الاثنينية؛ تنبيهًا على أن الاثنينية تنافى الألوهية، كما ذكر الواحد فى قوله: ﴿ إنما هو إله واحد ﴾؛ إثبات الوحدانية دون الإلهية. قاله البيضاوى. وعبارة صاحب المطول: لفظ إلهين حامل لمعنى الجنسية ـ أعنى: الإلهية ـ ومعنى العدد ـ أعنى: الاثنينية ـ وكذا لفظ «الله» حامل لمعنى الجنسية والوحدة،

والغرض المسوق له الكلام في الأول: النهي عن اتخاذ الاثنين من الإله؛ لا إثبات جنسه، فوصف الإلهين باثنين وإله بواحد؛ إيضاحاً لهذا الغرض وتفسيراً له. هـ. ويحتمل أن يكون «اثنين» مفعولاً أولا، و«إلهين» مفعولاً ثانياً.

وقوله: (فإياى): مفعول بفعل محذوف، أى: ارهبوا، ولا يعمل فيه (ارهبون)؛ لأنه أخذ مفعوله، وهو: ياء المتكلم، و(واصباً): حال من (الدين). و(ما بكم): إما شرطية، أو موصولة متضمنة معنى الشرط؛ باعتبار الإخبار دون الحصول؛ فإن استقرار النعمة بهم يكون سبباً للإخبار بأنها من الله، لا سبباً لحصولها منه؛ لأن جواب الشرط يكون مسبباً عن فعله، واستقرار النعمة بهم ليس سبباً فى حصولها من الله، وإنما هو سبب فى الإخبار بأنها من الله. فتأمله. وأصله للبيضاوى، والجملة: يحتمل أن تكون استئنافية، أو حالية، فيتصل الكلام بما قبله، أى: كيف تتقون غير الله، والحال أن ما بكم من نعمة فمنه وحده؟ واللام فى (ليكفروا): لام الأمر على وجه التهديد، كقوله بعدُ: (فتمتعوا)، فعلى هذا يبتدأ بها، وقيل: هى لام العاقبة، فعلى هذا توصل بما قبلها؛ لأنها فى الأصل لام كى، وهو بعيد.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين** ﴾ ، بأن تعبدوا الله تعالى، وتعبدوا معه الأصنام، ﴿ **إنما هو إله واحد** ﴾ لا شريك له ولا ظهير، ولا معين ولا وزير، ﴿ **فإياى فارهبون** ﴾ ، عدَلَ من الغيبة إلى التكلم؛ مبالغةً فى الترهيب، وتصريحاً بالمقصود، كأنه قال: فأنا ذلك الإله الواحد، فإياى فارهبون، لا غيرى، ﴿ **وله ما في السموات والأرض** ﴾ ؛ خلقاً وملكاً وعبيداً، ﴿ **وله الدين** ﴾ أى: الطاعة والانقياد ﴿ **واصباً** ﴾ : لازماً، أو: واجباً وثابتاً؛ لما تقرر أنه الإله وحده، والحقيق بأن يرهَبَ منه، فلا يُدان لأحد إلا هو. وقيل: ﴿ **وله الدِّين** ﴾ أى: الجزاء ﴿ **واصباً** ﴾ أى: دائماً، فلا ينقطع ثوابه لمن آمن، ولا عقابه لمن كفر. ﴿ **أفغير الله تتقون** ﴾ مع أنه ليس بيد غيره نفع ولا ضر؟!

كما قال: ﴿ **وما بكم من نعمةٍ فمن الله** ﴾ أىْ: وأىّ شىء اتصل بكم من نعمة فهو من الله وحده، ﴿ **ثم إذا مسكم الضرُّ فإليه تجأرون** ﴾ أى: فلا تتضرعون عند الشدة إلا إليه، ولا تستغيثون إلا به. والجؤار: رفع الصوت فى الدعاء والاستغاثة، ﴿ **ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريقٌ منكم بربهم يشركون** ﴾ وهم: كفاركم، ففى وقت الشدة ينسون أصنامهم، وفى الرخاء يرجعون إليها. فعلوا ذلك؛ ﴿ **ليكفروا بما آتيناهم** ﴾ من نعمة الكشف عنهم، كأنهم قصدوا بشركهم كفران النعمة، أو يكون تهديداً، أى: ليكفروا ما شاءوا فسوف يعلمون، كقوله: ﴿ **فتمتعوا** ﴾ بكفركم ﴿ **فسوف تعلمون** ﴾ عاقبة أمركم.

الإشارة : قال فى التنوير: أبى المحققون أن يشهدوا غير الله؛ لما حققهم به من شهود القيومية، وإحاطة الديمومية. هـ. فمن فتح الله بصيرته، لم يشهد مع الحق سواه؛ إذ الأكوان ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته، فما حجبك عن الحق وجود موجود معه؛ إذ لا شيء معه، وإنما حجبك توهم موجود معه،. فمن غاب عن ثنوية نفسه غاب عن ثنوية الأكوان، ووقع على عين الشهود والعيان. فما ظهر فى الوجود إلا أسرار ذاته وأنوار صفاته. وبالله التوفيق.

ثم ذكر جهالة أهل الشرك وسفاهة رأيهم، فقال:

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) ﴾

قلت : الضمير فى (يجعلون) للكفار، وفى (يعملون) لهم، أو للأصنام. و(لهم ما يشتهون): يجوز أن يكون (ما يشتهون) مبتدأ، وخبره: (لهم)، وأن يكون مفعولاً بفعل مضمر، أى: ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون، وأن يكون معطوفاً على البنات، وهذا منعه البصريون؛ لاتحاد الفاعل والمفعول، وهو الواو، وضمير لهم فى الغيبة، فلا يقال: زيد ضربه، وإنما يقال: ضرب نفسه، ولا يقال: أنا ضربتنى، ويجوز ذلك فى أفعال القلوب. وقال البيضاوى: ولا يبعد تجويزه فى المعطوف، كما فى الآية.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **ويجعلون** ﴾ أى: كفار العرب ﴿ **لما لا يعلمون** ﴾ إلاهيتهم ببرهان ولا حجة، وهم الأصنام. أو: لما لا علم لهم من الجمادات التى يعبدونها، ﴿ **نصيبا مما رزقناهم** ﴾ من الزرع والأنعام، بقولهم: هذا لله وهذا لشركائنا، ﴿ **تالله لتسألن** ﴾؛ سؤال توبيخ وعتاب ﴿ **عما كنتم تفترون** ﴾ من أنها آلهة بالتقرب إليها، أو عما كنتم تفترون على الله من أنه أمركم بذلك.

﴿ **ويجعلون لله البنات** ﴾؛ من قولهم: الملائكة بنات الله، وكانت خزاعة وكنانة يقولون ذلك. ﴿ **سبحانه** ﴾؛ تنزيهاً له عن ذلك، ﴿ **ولهم ما يشتهون** ﴾ أى: ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون، وهم البنون، والمعنى: أنهم يجعلون لله البنات التى يكرهونها ـ وهو منزه عن الولد ـ، ويختارون لأنفسهم ما يشتهون من الذكور. ﴿ **وإذا بشر أحدهم بالأنثى** ﴾

أى: أُخبر بولادتها عنده، ﴿ ظلّ ﴾ أى: صار ﴿ وجههُ مُسوداً ﴾: متغيراً تغير مغتم؛ من الكآبة والحياء من الناس، ﴿ وهو كظيم ﴾: ممتلئ غيظاً، ﴿ يتوارى ﴾؛ يختفى ﴿ من القوم ﴾ أى: من قومه؛ حياء منهم، ﴿ من سوء ما بُشِر به ﴾؛ من قُبح المبشر به، متفكراً فى نفسه، ﴿ أيُمسكُه على هُون ﴾ أى: يتركه، عنده، على ذل وهوان، ﴿ أم يدُسه فى التراب ﴾ أى: يخفيه فيه ويئده، وهى: الموءودة، وتذكير الضمير؛ للفظ «ما»، ﴿ ألا ساءَ ﴾: بئس ﴿ ما يحكمُون ﴾ حكمهم هذا؛ حيث نسبوا لله تعالى البنات، التى هى عندهم بهذا المحل.

﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ أى: صفة السوء، وهى: الحاجة إلى الولد المنادية بالموت، واستبقاء الذكور؛ استظهاراً بهم، وكراهة البنات ووأدهن خشية الإملاق، ﴿ ولله المَثَلُ الأعلى ﴾ أى: الصفة العليا، وهو الوجوب الذاتى والغنى المطلق، والجود الفائق، والنزاهة عن صفات المخلوقين، والوحدانية فى الذات والصفات والأفعال. وقال الأزهرى: المثل الأعلى، أى: التوحيد والخلق والأمر، ونفى كل إله سواه. ويترجم عن هذا كله بقول: «لا إله إلا الله». هـ. ﴿ وهو العزيز ﴾ فى ملكه، ﴿ الحكيم ﴾ فى صنعه، أى: المنفرد بكمال القدرة والحكمة، فالقدرة مُظهرة للأشياء فى أوقاتها، والحكمة تسترها برداء أسبابها وشروطها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغى لأهل التوحيد الكامل أن يتنزهوا عن شبهة الشرك فى أعمالهم وأموالهم، فلا يشركون فيما رزقهم الله، من الأموال، أحداً من المخلوقين، يجعلون لهم نصيباً فى أموالهم، على قصد الحفظ، أو إصلاح النتاج، كما تفعله العامة مع الصالحين، فإن ذلك مما يقدح فى صفاء التوحيد؛ إذ لا فاعل سواه. وقوله تعالى: ﴿ وإذا بُشر أحدهم بالأنثى... ﴾ الآية، فيه ذم وتهديد لمن يكره البنات، وينقبض من زيادتهن؛ لأن فيه نزغة من فعل الجاهلية، بل ينبغى إظهار البسط والبرور بهن أكثر من الذكور، ولا شك أن النفقة عليهن أكثر ثواباً من الذكور، وفى الحديث: «مَنِ ابْتُلِىَ بهذه البنَاتِ، فأحْسَنَ إليهِنَّ، كُنَّ لَهُ حِجَاباً مِنَ النَّارِ».[1] إلى غير ذلك من أحاديث كثيرة تُرغب فى الإحسان إليهن. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكمة إمهاله تعالى للكفار، فقال:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) ﴾

---

(١) أخرجه البخارى فى (الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة)، ومسلم فى (البر والصلة، باب فضل الإحسان إلى البنات) عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ولو يُؤاخذ اللهُ الناسَ بظلمهم﴾ أى: بكفرهم ومعاصيهم الصادرة من بعضهم، ﴿ماترك عليها﴾ أى: على الأرضِ ﴿من دابة﴾ : نسمة تدب عليها، بشؤم ظلمهم. وعن ابن مسعود: (كاد الجُعَل[1] يهلك فى جُحره بذنب ابن آدم) . وقيل: لو هلك الآباء بكفرهم لم يكن الأبناء، ﴿ولكن يُؤخرهم إلى أجل مسمى﴾ سماه لأعمارهم، أو لعذابهم، ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون﴾ عنه ﴿ساعة ولايستقدمون﴾ عليه، بل يهلكون، أو يُعذبون حينئذ لا محالة، فالحكمة فى إمهال أهل الكفر والمعاصى؛ لئلا يعم العذاب، كقوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[2]، و(لعل الله تعالى يُخرج من أصلابهم من يُوحد الله) . والله تعالى أعلم.

الإشارة: إن الله يهم أن ينزل إلى أهل الأرض عذاباً؛ لمايرى فيهم من كثرة الظلم والفجور، فإذا رأى حلق الذكر ومجالس العلم رفع عنهم العذاب. وفى بعض الأخبار: «لَوْلاَ شُيوخٌ ركع، وصِبْيانٌ رُضَّعٌ، وبهائم رُتَّعٌ، لصُبَّ علَيْكُمُ العَذَابُ صبّاً» .[3].

ثم ذكر وعيد الكفار، فقال:

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

قلت: (أن لهم الحسنى) : بدل من (الكذب) ، ومن قرأ (مفرطون) ؛ بالكسر، فاسم فاعل من الإفراط، وهو: تجاوز الحد، ومن قرأها بالفتح؛ فاسم مفعول، من أفرط فى طلب الماء، إذا قدمه. ومن قرأ بالتشديد؛ فمن التفريط.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾ لأنفسهم من البنات، والشركاء فى الرئاسة وأراذل الأموال، ﴿وتصف ألسنتُهم الكذبَ﴾ مع ذلك، وهو ﴿أن لهم الحسنى﴾ عند الله، وهى الجنة. وهذا كقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾[4] . قال تعالى: ﴿لا جرَمَ أنَّ لهم النارَ﴾ أى: لاشك، أو حقا أن لهم النار، ﴿وأنهم مُفْرَطُون﴾ ؛ مقدّمون إليها، أو متركون فيها، أو مفرطون فى المعاصى والظلم، متجاوزون الحد فى ذلك. أو مفرطون فى الطاعة؛ من التفريط.

---

(١) الجُعَل: حيوان كالخنفساء... انظر: النهاية (جعل، ١/٢٧٧) .

(٢) من الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

(٣) أخرجه البيهقى فى الكبرى (صلاة الاستسقاء، باب استحباب الخروج بالضعفاء والصبيان ٣/٣٤٥) والطبرانى فى الأوسط (ح ٦٥٣٩) ، وابن عدى فى الكامل (١٦٢٢/٤) عن مالك بن عبيدة الديلي، عن أبيه، عن جده.

(٤) من الآية ٥٠ من سورة فصلت.

الإشارة: الواجب فى حق الأدب أن ما كان من الكمالات ينسب إلى الله تعالى، كائناً ما كان، وما كان من النقائص ينسب إلى العبد، وإن كان، فى الإيجاد والاختراع، كل من عند الله، وهو بهذا الاعتبار فى غاية الحسن.

كما قال صاحب العينية رضي الله عنه:

وكُلُّ قَبيحٍ إنْ نَسَبْتَ لِحُسْنِهِ أَتَتْكَ مَعَانِي الحُسْنِ فيهِ تُسَارِعُ

يُكَمِّلُ نُقْصَانَ القَبيحِ جَمَالُهُ فَمَا ثَمَّ نُقْصَانٌ ولاَ ثَمَّ بَاشِعُ

ثم سلّى نبيه ﷺ بقوله:

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

قلت: (وهدى ورحمة): معطوفتان على «لتبين»، وانتصبا على المفعولية من أجله، أى: لأجل البيان والهدى والرحمة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ تالله لقد أرسلنا ﴾ رسلاً ﴿ إلى أمم من قبلك ﴾ يامحمد، ﴿ فزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ السوء، فرأوها حسنة، فأصروا على قبائحها، وكذبوا الرسل، فصبروا حتى نُصروا. فاصبر كما صبروا، حتى تنصر كما انتصروا. فكان عاقبة من اتبع الشيطان الهلاك والوقوع فى العذاب، ﴿ فهو وليهم ﴾ أى: متولى أمورهم ﴿ اليوم ﴾ فى الدنيا، ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ فى الآخرة، أو: فهو وليهم يوم القيامة، على أنه حكاية حال آتية، أى: لا ولى لهم غيره فى ذلك اليوم، وهو عاجز عن نصر نفسه، فكيف ينصر غيره؟ ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب ﴾: القرآن ﴿ إلا لتبين لهم ﴾: للناس ﴿ الذى اختلفوا فيه ﴾؛ من التوحيد، والقدر، وأحوال المعاد، وأحكام الأفعال، ﴿ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ به، فإنهم المنتفعون بإنزاله.

الإشارة: كل من وقف دون الوصول إلى مشاهدة الحق، فهو مُزين له فى عمله، مُستدرج به وهو لا يشعر، وحظه يوم القيامة الندم والأسف. وفى ذلك يقول أبو المواهب(١):

مَنْ فَاتَهُ مِنْكَ وَصْلٌ حَظُّهُ النَّدَمُ وَمَنْ تَكُنْ هَمَّهُ تَسْمُو به الهِمَمُ

(١) التونسى، صاحب «قوانين حكم الإشراق».

وناظرٌ فى سوى مَعْنَاكَ حقٌّ لَهُ يَقْتَصُ مِنْ جَفْنِهِ بالدَّمْعِ وهْوَ دَمُ

والسَّمْعُ إنْ جَالَ فِيهِ مَنْ يُحدِّثُهُ سوَى حديثك أمْسَى وَقْرُهُ الصَّمَمُ

فهذه علامات الوصول إلى الحق، بحيث ترتفع همته إلى حضرة الحق، ويصرف نظره فى معانى أسرار التوحيد، وسمعه فيما يقرب إلى صريح التفريد، ومن لم يبلغ هذا المقام، لم ينقطع عنه تزيين الشيطان، فيُزين له عمله، فيقف معه . وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل توحيده وباهر قدرته، وفى معرفتهما معرفة ذاته، فقال:

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **والله أنزل من السماء ماءً** ﴾؛ مطراً ﴿ **فأحيا به الأرض بعد موتها** ﴾؛ أنبت فيها أنواع النبات بعد يبسها، فكانت هامدة غبْراء، غير منبتة، شبيهة بالميت، فصارت، بعد إنزال المطر، مخضرة مهتزة رابية شبيهة بالحى. ﴿ **إن فى ذلك لآيةً لقوم يسمعون** ﴾ سماع تدبر وإنصاف؛ فإن هذه الآية ظاهرة، تُدرك بأدنى تنبيه وسماع، غير محتاجة إلى كثرة تفكر واعتبار.

الإشارة: والله أنزل من سماء الغيوب ماء العلوم النافعة، فأحيا به أرض النفوس الميتة بالغفلة والجهل، فصارت مبتهجة بأنوار التوحيد وأسرار التفريد، وفى ذلك يقول الشاعر:

إنَّ عرفَان ذى الجلالِ لعزٌّ وضياءٌ وبهجةٌ وسُرور

وعلى العارفين أيضًا بهاءٌ وعليهمْ من المحبَّة نُور

فَهنيئًا لمن عرفك، إلهى هو، والله، دهرَه، مسرورْ

ثم ذكر دليلاً آخر، فقال:

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

قلت: سقى وأسقى: لغتان، على المشهور. والضمير فى (بطونه): للأنعام، وذكَّره باعتبار ما ذكر(١)، كقوله: ﴿ **كلاَّ إنها تذكرةٌ ، فمن شاء ذكره** ﴾(٢)، أو: باعتبار الجنس، وعدّه سيبويه فى المفردات المبنية على: أفعال،

(١) أي: مما فى بطون ماذكرناه. (٢) الآيتان: ١١ ـ ١٢ من سورة عبس.

كأخلاق وأكباش، فهو، عنده، اسم جمع، كقوم ورهط، فلفظه مفرد ومعناه جمع، فذكَّره هنا؛ مراعاة للفظه، وأنثه، في سورة المؤمنين؛ مراعاة لمعناه. ومن قال: إنه جمع «نعم»، جعل الضمير للبعض؛ فإن اللبن لبعضها دون جميعها.

و(من) في قوله: «مما»؛ للتبعيض، و «من بين فرث»؛ لابتداء الغاية، و(من ثمرات): يتعلق بمحذوف، أي: ونسقيكم من ثمرات النخيل، يدل عليه (نُسقيكم) الأول. و(تتخذون): استئناف لبيان الإسقاء، أو يكون (ثمرات): عطفاً على (مما في بطونه)، أو يتعلق (من ثمرات) بتتخذون، أي: تتخذون من ثمرات النخيل سكَرًا. وكرر (منه) للتأكيد، أو يكون (تتخذون): صفة لمحذوف، أي: شيء تتخذون منه سكرا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **وإنَّ لكم** ﴾ أيها الناس، ﴿ **في الأنعام** ﴾ وهي: الإبل والبقر والغنم، ﴿ **لعبرةً** ﴾ ظاهرة تدل على كمال قدرته، وعجائب حكمته، وهي أنا ﴿ **نُسْقيكم مما في بطونه** ﴾ أي: بعض ما استقر في بطونه من الغذاء، ﴿ **من بين فَرْث** ﴾؛ وهو ما في الكرش من القذر، ﴿ **ودم** ﴾؛ وهو ما تولد من لباب الغذاء، ﴿ **لبناً خالصاً** ﴾ من روائح الفرث، صافياً من لون الدم. والمعنى: أن الله يخلق اللبن متوسطاً بين الفرث والدم يكتنفانه، ومع ذلك فلا يُغير له لوناً ولا طعماً ولا رائحة. وعن ابن عباس: (إن البهيمة إذا اعتلفت، وانطبخ العلف في كرشها، كان أسفله فرثاً، وأوسطه لبناً، وأعلاه دماً). ثم وصفه بقوله: ﴿ **سائغاً للشاربين** ﴾؛ سهل المرور في حلقهم، حتى قيل: لم يغصّ أحدٌ قط من اللبن. وروى ذلك عن النبي ﷺ[1].

﴿ و ﴾ نُسقيكم، أيضا، ﴿ **من ثمرات النخيل والأعناب** ﴾ أي: من عصيرهما. ثم بيَّن كيفية الإسقاء فقال: ﴿ **تتخذون منه** ﴾ أي: مما ذكر ﴿ **سكَرًا** ﴾ يعني الخمر، سميت بالمصدر، ونزل قبل تحريم الخمر، فهي منسوخة بالتحريم. وقيل: هي على وجه المنة بالمنفعة التي في الخمر، ولا تعرُّض فيها لتحليل الخمر ولا تحريم، وهذا هو الصحيح. وفي دعوى النسخ نظر؛ لأن النسخ إنما يكون في الأحكام المشروعة المقررة، وهنا ليس كذلك، إنما فيه امتنان واعتبار فقط. ﴿ و ﴾ تتخذون من ثمراتها ﴿ **رزقًا حسنًا** ﴾؛ كالتمر، والزبيب، والدبْس ـ وهو ما يسيل من الرطب ـ، والخلُّ، والربُّ[2]، وقيل: السُّكْر: المانع من هاتين الشجرتين؛ كالخل، والرُّب، والرزق الحسن: العنب والتمر. ﴿ **إنَّ في ذلك لآية** ﴾ دالة على كمال قدرته تعالى، ﴿ **لقوم يعقلون** ﴾؛ يستعملون عقولهم بالتأمل، والنظر في الآيات.

---

(١) روى ذلك بلفظ: «ماشرب أحدٌ لبناً فيشرق»، عزاه السيوطي، في الدر (٤/٢٨)، لابن مردويه عن يحيى بن أبي كبشة عن أبيه عن جده؛ مرفوعاً.

(٢) الرُّبُّ: ما يطبخ من التمر... انظر: النهاية (ربب ٢/١٨١).

الإشارة : كما استخرج الحق، جل جلاله، من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين، استخرج مذهب أهل السنة، القائلين بالكسب، من بين مذهب الجبرية ومذهب المعتزلة، بين قوم أفرطوا، وقوم فرطوا. واستخرج أيضاً مذهب الصوفية ـ أعني: المحققين منهم ـ من بين الواقفين مع ظاهر الشريعة والمتمسكين بمجرد الحقيقة، بين قوم تفسقوا وقوم تزندقوا، بين قوم وقفوا مع عالم الحكمة، وقوم وقفوا مع شهود القدرة من غير حكمة، وهو، إن لم يكن عن غلبة سُكْرٍ، كُفْرٌ. واستخرج، أيضاً، مذهب أهل التربية من بين سلوك محض وجذب محض، فأهل السلوك المحض محجوبون عن الله، وأهل الجذب المحض غائبون عن طريق الله، وأهل التربية برزخ بين بحرين، الجذب في بواطنهم، والسلوك على ظواهرهم. ولا يعرف هذا إلا من شرب مشربهم، قد أخذوا من ثمرات نخيل الشرائع وأعناب الحقائق، سكراً في قلوبهم، بشهودِ محبوبهم، ورزقًا حسناً؛ معرفة في أسرارهم، وعبودية في ظواهرهم، فصاروا جامعين بين جذب الحقائق وسلوك الشرائع، كل واحد في محله. وبالله التوفيق.

ثم ذكر دليلاً آخر، فقال:

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

قلت : (أن اتخذي) : مفسرة للوحي الذي أوحي إلى النحل، أو مصدرية، أي: بأن اتخذي. و(من) : للتبعيض في الثلاثة مواضع، (ثم كُلِي) : عطف على (اتخذي). و(من) : للتبعيض؛ لأنها لا تأكل من جميع الشجر، وقيل: من كل الثمرات التي تشتهيها، فتكون للبيان. و (ذُللاً) : حال من السبل، أو من الضمير في (اسلكي).

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ أي: ألهمها، وقذف في قلوبها ذلك. والوحي على ثلاثة أقسام: وحْيُ إلهام، ووحْيُ منام، ووحْيُ أحكام. وقال الراغب: أصل الوحي: الإشارة السريعة، إما بالكلام؛ رمزاً، وإما بصوت مجرد عن التركيب، أو بإشارة ببعض الجوارح، والكناية. ويقال للكلمة الإلهية التي تُلقى إلى الأنبياء: وحي، وذلك أضْرُبٌ؛ إما برسول مشاهَد، وإما بسماع كلام من غير معاينة، كسماع موسى كلام الله، وإما بإلقاءٍ في الروع، وإما بإلهام، نحو: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ ﴾[1]، وإما تسخير، كقوله: ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾، أو بمنام، كقوله ﷺ: «انقطع الوحي، وبقي المبشرات؛ رؤيا المؤمن»[2].

---

(١) من الآية ٧ من سورة القصص.

(٢) أخرجه البخاري في (التعبير، باب المبشرات)، بلفظ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم بيَّن ما أوحى إليها فقال: ﴿ أن اتخذى ﴾ ، أو بأن اتخذى ﴿ من الجبال بيوتاً ﴾ تأوين إليها، كالكهوف ونحوها، ﴿ ومن الشجر ﴾ بيوتاً، كالأجْبَاح(١) ونحوها، ﴿ ومما يعرشون ﴾ أى: يهيئون، أو يبنون لك الناس من الأماكن، وإلا لم تأو إليها. وذكرها بحرف التبعيض؛ لأنها لا تُبنى فى كل جبل، وكل شجر، وكل ما يعرش؛ من كرْم أو سقف، ولا فى كل مكان منها. وإنما سمى ما تبنيه، لتتعسل فيه، بيتاً؛ تشبيهاً ببناء الإنسان؛ لما فيه من حسن الصنعة وصحة القِسْمة، التى لا يقوى عليها حُذَّاق المهندسين إلا بآلات وأنظار دقيقة. ولعل ذكره: للتنبيه على ذلك. قاله البيضاوى. **قلت**: وليس للنحل فعل فى الحقيقة، وإنما هو صنع العليم الحكيم فى مظاهر النحل.

ثم قال لها: ﴿ ثم كُلى من كل الثمرات ﴾ التى تشتهيها، حلوها ومرها. قيل: إنها ترعى من جميع النوار إلا الدفلة(٢) . ﴿ فاسْلُكى ﴾ أى: ادخلى ﴿ سُبل ربك ﴾ ؛ طُرقه فى طلب المرعى، أو: فاسلكى؛ راجعة إلى بيوتك، سبلَ ربك، لا تتوعر عليك ولا تلتبس. وأضافها إليه؛ لأنها خلقه ومِلْكه. ﴿ ذُللاً ﴾: مطيعة منقادة لما يراد منك، أو اسلكى طرقَه؛ مذللة مسخرة لك، فلا تعسر عليك وإن توعرت، ولا تضل عن العَود منها وإن بعُدت. قال مجاهد: لم يتوعَّر على النحل قط طريق.

﴿ يخرجُ من بطونها شرابٌ ﴾ وهو العسل، عدَل عن خطاب النحل إلى خطاب الناس: لأنه محل الإنعام عليهم، والمقصود من خلق النحل وإلهامه؛ لأجلهم. وسماه شراباً؛ لأنه مما يُشرب. وظاهر الآية أن العسل يخرج من بطون النحل، وهو ظاهر كلام سيدنا على بن أبى طالب رضي الله عنه فى تحقيره للدنيا، قال: (أشرف لباس ابن آدم فيها نفثة دود، وأشرف شراب فيها رجيع نحلة ـ أو قىء نحلة ـ، وأشرف لذة فيها مبال فى مبال) . وجمهور الناس على أن العسل يخرج من أفواه النحل. قاله ابن عطية. قلت: والذى ألفيناه، ممن يتعاطاهم، أنه يخرج من دبرهم.

وقوله: ﴿ مختلفٌ ألوانه ﴾ أى: أبيض، وأحمر، وأسود، وأصفر، بحسب اختلاف سن النحل، ومراعيها. وقد يختلف طعمه ورائحته باختلاف مرعاه. ومنه قول عائشة للنبى ـ عليه الصلاة والسلام: (جَرَستْ نحلُه العُرْفُطَ)(٣) وهو نبت مُنتن الرائحة، شُبهت رائحته برائحة المغافير(٤) .

ثم قال تعالى: ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ ؛ إما بنفسه، كما فى الأمراض البلغمية، أو مع غيره، كما فى سائر الأمراض، إذ قلما ما يكون معجون إلا والعسل جزء منه. قاله البيضاوى. قال السيوطى: قيل: لبعضها، كما دل

---

(١) الجُبْحُ: هي مواضع النحل فى الجبل، وفيها تعسِّلُ، وقيل: الأجباح: حجارة الجبل.. انظر اللسان ـ جبح.

(٢) الدفلة : نبت مرٌ، أخضر، حسن المنظر انظر.. اللسان (دخل، ٢/١٣٩٧) .

(٣) جاء ذلك فى حديث شرب النبى ﷺ العسل. وأخرجه البخارى فى (الطلاق، باب لم تُحرم ما أحل الله لك) . والعُرفط ـ بالضم ـ : شجر الطَّلح، وله صمغ كريه الرائحة، فإذا أكلته النحلة حصل فى عسلها من ريحه. انظر النهاية (عرفط) .

(٤) المغافير : جمع مغفور ومغفار، وهو صمغ حلو، له رائحة كريهة، يسيل من شجر العرفط، يؤكل، أو يوضع فى ثوب، ثم ينضح بالماء، فيشرب. انظر اللسان (غفرة ٥/٣٢٧٥) .

عليه تنكير شفاء، أو لكلها بضميمةٍ إلى غيره - أقول: وبدونـها، بنيـة - وقد أمر به ﷺ من استطلق بطنه، رواه الشيخان. هـ. قال ابن جزى: لأن أكثر الأدوية مستعملة من العسل؛ كالمعاجن، والأشربة النافعة من الأمراض. وكان ابن عمر يتداوى به من كل شيء، فكأنه أخذه من العموم. وعلى ذلك يدل الحديث عن النبى ﷺ: «أن رجلا جاء إليه فقال: أَخِي يَشْتَكِي بَطْنَه ،فقال: اسْقِه عَسَلاً، فَذَهَب ثُم رجع، فقال: قَدْ سَقَيْتُهُ فما نفع، قال: فاذْهَبْ فَاسْقِه عَسَلاً، فَقَدْ صَدَقَ الله وكَذَبَ بَطْنُ أَخِيك، فسقاه، فَشَفَاه الله عز وجل»(١).

﴿ إِنَّ فِي ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾؛ فإن من تدبر اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة حق التدبر، علِم، قطعاً، أنه لابد له من قادر مدبر حكيم، يلهمها ذلك ويحملها عليه، وهو الحق تعالى.

الإشارة: إنما كان العسل فيه شفاء للناس؛ لأن النحل ترعى من جميع العشب، فتأخذ خواص منافعها. وكذلك العارف الكامل يأخذ النصيب من كل شيء، ويعرف الله فى كل شيء، فإذا كان بهذه المنزلة، كان فيه شفاء للقلوب، كل من صحبه، بصدق ومحبة، شفاه الله، وكل من رآه، بتعظيم وصدق، أحياه الله. وقد قالوا فى صفة العارف: هو الذى يأخذ النصيب من كل شيء، ولا يأخذ النصيب منه شيئاً، يصفو به كدر كل شيء، ولا يكدر صفوه شيء، قد شغله واحد عن كل شيء، ولم يشغله عن الواحد شيء.. إلى غير ذلك من نعوته. وقال الورتجبى: قال أبو بكر الوراق: النحلة لمَّا تبعت الأمر، وسلكت سبيلها على ما أمرت به، جعل لعابها شفاء للناس، كذلك المؤمن، إذا اتبع الأمر، وحفظ السر، وأقبل على مولاه، جعل رؤيته وكلامه ومجالسته شفاء للخلق، ومن نظر إليه اعتبر، ومن سمع كلامه اتعظ، ومن جالسه سعد. هـ.

ثم ذكر دلالة أخرى على قدرته، وهى الإحياء والإماتة، فقال:

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والله خلقكم ﴾: أظهركم إلى عالم الشهادة، ﴿ ثم يتوفاكم ﴾: يردكم إلى عالم الغيب عند انتهاء آجالكم، ﴿ ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذَلِ العُمر ﴾ أى: أخسه، يعنى: الهرَم والخرف، الذى يشابه الطفولية فى نقصان القوة والعقل. وقيل: هو خمس وتسعون سنة، وقيل: خمس وسبعون سنةً، والتحقيق: أن ذلك لا ينضبط بسن. ﴿ لكي لا يعلم بعد علم شيئا ﴾؛ ليصير إلى حالة شبيهة بحالة الطفولية، فى نقصان العقل والنسيان وسوء الفهم. وليس المراد نفى العلم بالكلية، بل عبارة عن قلة العلم؛ لغلبة النسيان. وقيل: المعنى: لئلا يعلم زيادة على علمه شيئاً. قال عكرمة: (من قرأ القرآن لم يصر بهذه المنزلة).

---

(١) أخرجه البخارى فى (الطب، باب الدواء بالعسل)، ومسلم فى (السلام، باب التداوى بسقى العسل) عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه.

قلت: جاء فى بعض الأحاديث ما يقتضى تخصيص القارئ للقرآن بالمتبع له، وأنه الذى يُمتعه الله بعقله حتى يموت، وهو الذى يشهد له الحس، أى: الوجود فى الخارج، بالصدق، لوجود الخرف فى كثير ممن يحفظه. قاله فى الحاشية.

﴿إن الله عليم قدير﴾ أى: عليم بمقادير الأشياء وأوقاتها، قدير على إيجاد الأشياء وإعدامها، عند انتهاء آجالها، فيميت الشاب النشط عند تمام أجله، ويبقى الهرم الفانى إلى انقضاء أجله. قال البيضاوى: وفيه تنبيه على أن تفاوت أعمار الناس ليس إلا بتقدير قادر حكيم، ركب أبنيتهم، وعدل أمزجتهم، على قدر معلوم، ولو كان ذلك بمقتضى الطبائع لم يقع التفاوت إلى هذا المبلغ. هـ.

الإشارة: الخلق والتوفى هو من جملة الظهور والبطون، عند أهل التوحيد الخاص، والرد إلى أرذل العمر لا يلحق العارفين بالله. وقد قيل، فى استثناء قوله: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾[1] من الرد إلى أسفل سافلين: إن الصالح لا يدركه الخَرَف وإن أدركه الهرم. وذلك دليل على سعادته، وعدم تشويه صورته فى الآخرة، والله تعالى قادر على وقاية أوليائه مما يشين به أعداءه عاجلاً. وفى الحديث: «إذا قرأ الرجلُ القرآنَ، واحتشَى من أحاديث رسول الله ﷺ - أى: امتلأ - وكانتْ هناك غزيرةٌ - يعنى: فقه نفس ومعرفة -، كان خليفةً من خلفاء الأنبياء»[2].

ثم سفه رأى من أشرك بعد هذه الدلائل، فقال:

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿والله فضَّل بعضكم على بعض فى الرزق﴾، فمنكم غنى ومنكم فقير، ومنكم ملوك مستغنون عن غيرهم، ومنكم مماليك محتاجون إلى غيرهم، ﴿فما الذين فُضّلوا﴾؛ وهم الموالى، أى: السادات، ﴿برادّى رزقهم﴾: بمعطى رزقهم ﴿على ما ملكتْ أيمانُهم﴾: على مماليكهم، أى: ليس الموالى بجاعلى مارزقناهم من الأموال وغيرها، شركة بينهم وبين مماليكهم، ﴿فهُم﴾ أى: المماليك ﴿فيه سواءٌ﴾ مع

(١) من الآية ٦ من سورة البلد.
(٢) عزاه السيوطى فى الجامع الصغير (٧٩٤) للرافعى فى تاريخه، عن أبى أمامة، وضعّفه. وانظر: فيض القدير، للمناوى (٤١٦/١).

ساداتهم. وهو احتجاج على وحدانيته تعالى، وإنكارٌ ورد على المشركين، فكأنه يقول: أنتم لا تسوّون بين أنفسكم وبين مماليككم فى الرزق، ولا تجعلونهم شركاء لكم، بل تأنفون من ذلك، فكيف تجعلون عبيدى شركاء لى فى ألوهيتى؟! وهذا كقوله: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾(١). ويحتمل أن يكون ذماً وعتاباً لمن لا يحسن إلى مملوكه، حتى يرد ما رزقه الله عليه، كما فى الحديث: « أطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون»(٢).

﴿ أفبنعمة الله يجحدون ﴾، حيث يجعلون له شركاء، فإنه يقتضى أن يضاف إليهم بعض ما أنعم الله عليهم، ويجحدوا أنه من عند الله، أو حيث أنكروا هذه الحجج، بعد ما أنعم الله عليهم بإيضاحها، أو حيث بخسوا مماليكهم مما يجب لهم من الإنفاق. على التفسير الثانى.

الإشارة: والله فضّل بعضكم على بعض فى أرزاق العلوم، والأسرار والمواهب، فمنكم غنى بالله، ومنكم فقير منه فى قلبه، ومنكم عالم به ومنكم جاهل، ومنكم قوى اليقين ومنكم ضعيف، فما الذين فُضلوا بالعلوم اللدنية والأسرار الربانية برادّى تلك العلوم على الجهلة وضعفاء اليقين، بأن يطلعوهم على أسرار الربوبية قبل استحقاقها. فإن ذلك بخس بحقها. حتى يرونهم أهلاً لها؛ بأن يبذلوا لهم أنفسهم وأموالهم، ويملكون لهم رقابهم يتصرفون فيها تصرف المالك فى مملوكه، فحينئذ يشاركونهم فيما منحهم الله من أرزاق العلوم وأسرار الفهوم، وقد قيل: لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم.

وفى هذا المعنى يقول الشاعر:

سأكْتُمُ عِلْمِى عَنْ ذَوِى الجَهْلِ طَاقَتِى ... ولا أَنْثُرُ الدُّرَّ النَّفِيسَ عَلى البَهم
فإنْ قَدَّرَ اللهُ الكَرِيمُ بِلُطْفِه ... ولاقَيْتُ أهلاً للعُلُومِ وللحِكَمْ
بَذَلْتُ عُلُومِى واستَفَدْتُ عُلومَهم ... وإلاَّ فمخْزُونٌ لَدَىَّ ومُكْتَتَمْ
فَمَنْ مَنَحَ الجُهَّالَ عِلْماً أضَاعَهُ ... ومَنْ مَنَعَ المُستَوجِبين فقَدْ ظَلَمْ

ثم ذكّرهم بالنعم التى لا قدرة لأحد عليها، فقال:

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) ﴾

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة الروم.
(٢) أخرجه مسلم فى (الزهد، باب حديث جابر الطويل)، من حديث أبى اليسر.

قلت : الحفدة: جمع حافد، وهو الخديم المسرع فى الخدمة، والحفْد فى اللغة: الخدمة، ومنه فى القنوت: «وإليك نسعى ونحفد»، أي: نسرع في خدمتك. وسموا أولاد الأولاد حفدة؛ لأنهم يُسرعون فى خدمة جدهم، حين كبر ولزم الدار، وقيل: هم البنات؛ لأنهن يخدمن الدار.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ ؛ حيث خلق حواء من ضلع آدم، وسائر النساء من نطفة الرجال، والنساء خلقهن لكم، لتتأنسوا بهن، ولتتمتعوا بهن فى الحلال، وليكون أولادكم مثلكم. ﴿ وجعل لكم من أزواجكم بَنين ﴾ من صلبكم ﴿ وحفَدةً ﴾ ؛ أولاد أولادكم أو بناتكم؛ فإن البنات يخدمن فى البيوت أشد الخدمة، أو الأصهار من قِبل النساء، أو الخدَم، ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ ؛ من اللذائذ والمشتهيات؛ كأنواع الثمار والحبوب والفواكه، والحيوان؛ أكلاً وركوباً وزينة، أو الحلالات، و«من»: للتبعيض؛ فإن طيبات الدنيا أنموذج من نعيم الآخرة. ﴿ أفَبالباطلِ يؤمنون ﴾ وهو أن الأصنام تنفعهم؛ لأن الأصنام باطلة لا حقيقة لوجودها، وإضافة النفع لها: كفرٌ بنعمة الله، ولذلك قال: ﴿ وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ ؛ حيث أضافوها إلى أصنامهم، أو حيث حرَّموا منها ما أحله الله لهم كالبحائر والسوائب. والله تعالى أعلم.

الإشارة : والله جعل لكم من أنفسكم المطهرة أصنافاً من العلوم اللدنية. قال أبو سليمان الدارانى: (إذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام، جالت فى الملكوت، ثم عادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة، من غير أن يؤدى إليها عالم علماً). وجعل لكم من تلك العلوم بنين روحانيين، وهو التلامذة، يحملون تلك العلوم، وحفدة: من ينقل ذلك عنهم إلى يوم القيامة، ورزقكم من الطيبات، وهى حلاوة المعرفة عند العارفين، وحلاوة الطاعات عند المجتهدين. أفبالباطل ـ وهو ما سوى الله ـ يؤمنون، فيقفون مع الوسائط والأسباب، ويغيبون عن مسبب الأسباب، وبنعمة الله ـ التى هى شهود الحق بلا وسائط ـ هم يكفرون.

ثم عاب على من وقف مع غير الله، فقال:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

قلت : ﴿ رِزْقاً ﴾: مفعول بيملك، فيحتمل أن يكون مصدراً، أو اسماً لما يرزق، فإن كان مصدراً، فشيئاً مفعول به؛ لأن المصدر ينصب المفعول، وإن كان اسماً، فشيئاً بدل منه. وجمع الضمير فى ﴿يستطيعون﴾، وأفرده فى ﴿يمْلك﴾؛ لأن (ما) مفردة؛ لفظاً، واقعة على الآلهة، فراعى أولاً اللفظ، وفى الثانى المعنى .

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ويعبدون من دون الله ﴾ أي: غيره ﴿ مالا يملك لهم رزقًا من السموات ﴾؛ بالمطر ﴿ والأرض ﴾؛ بالنبات، فلا يرزقونهم من ذلك ﴿ شيئًا ولا يستطيعون ﴾: لا يقدرون على شيء من ذلك؛ لعجزهم، وهم الأصنام، ﴿ فلا تضربوا لله الأمثالَ ﴾؛ لا تجعلوا له أشباهاً تشركونهم به، أو تقيسونهم عليه، فإنَّ ضرب المثل تشبيه حال بحال، ﴿ إنَّ الله يعلمُ ﴾ ألاَّ مِثلَ لهَ، أو فساد ما يقولون عليه من القياس، ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ ذلك، ولو علمتموه لما تجرأتم عليه، فهو تعليل للنهي، أي: إنه يعلم كنه الأشياء، وأنتم لاتعلمون، فدعوا رأيكم، وقفوا عندما ما حد لكم.

الإشارة: كل من ركن إلى شيء دون الحق تعالى، أو اعتمد عليه في إيصال المنافع أو دفع المضار، تصدق عليه الآية، وتجر ذيلها عليه، فلا تجعلوا لله أمثالاً تعتمدون عليهم وتركنون إليهم، فالله يعلم من هو أولى بالاعتماد عليه والركون إليه، وأنتم لا تعلمون ذلك، أو تعلمون ولا تعملون، ولقد قال من علِمَ ذلك وتحقق به:

حَرَامٌ عَلَى مَنْ وَحَّدَ اللهَ رَبَّهُ　　وأَفْرَدَهُ أَنْ يجتدى أَحَداً رِفْدا
فَيَا صَاحِبِي، قِفْ بِي عَلَى الحَقِّ وَقْفَةً　　أَمُوتُ بِهَا وَجْداً، وأَحْيَا بِهَا وَجْدا
وَقُلْ لِمُلوكِ الأَرْضِ تَجْهَدَ　　فَذَا المُلْكُ مُلْكٌ لا يُبَاعُ ولا يُهْدَى

قال سهل رضي الله عنه: «ما من قلب ولا نفس إلا والله مطلع عليه في ساعات الليل والنهار، فأيما نفس أو قلب رأى فيه حاجة إلى غيْرِهِ، سلط عليه إبليس». وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رضي الله عنه: من علامة المعرفة: ألا تسأل حوائجك، قلّتْ أو كثُرت، إلا من الله سبحانه، مثل موسى عليه السلام؛ اشتاق إلى الرؤية، فقال: رب أرني أنظر إليك، واحتاج مرة إلى رغيف، فقال: رب إني لما أنزلتَ إلي من خير فقير. هـ. وقال في التنوير: اعلم، رحمك الله، أن رفع الهمة عن المخلوقين، وعدم التعرض لهم، أزين لهم من الحلي للعروس، وهم أحوج إليه من الماء لحياة النفوس... إلخ كلامه رضي الله عنه.

ثم ضرب مثلاً لنفسه، ولمن يُعبد معه، فقال:

﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

قلت : «عبداً» : بدل من «مثَلاً» ، «ومن» : نكرة موصوفة ، أى : عبداً مملوكاً ، وحراً رزقناه منا رزقاً حسناً ، وقيل : موصولة . و«سرا وجهرا» : على إسقاط الخافض ، وجمع الضمير فى «يستوون» ؛ لأنه للجنسين ، و«رجلين» : بدل من : «مثَلاً» .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مثلاً ﴾ لضعف العبودية ، وعظمة الربوبية ، ثم بيَّنه فقال : ﴿ عبداً مملوكًا لا يقدرُ على شيء ﴾ ، وهذا مثال للعبد ، ﴿ ومن رزقناه ﴾ أى : وحراً رزقناه ﴿ منا رزقًا حسناً ، فهو ﴾ يتصرف فيه كيف يشاء ، ﴿ يُنفق منه سراً وجهراً ﴾ ، وهذا : مثال للرب تبارك وتعالى ، مثَّلَ ما يشرك به من الأصنام بالمملوك العاجز عن التصرف رأسًا ، ومثَّل لنفسه بالحر المالك الذى له مال كثير ، فهو يتصرف فيه ، وينفق منه كيف شاء .

وقيل : هو تمثيل للكافر المخذول والمؤمن الموفق . وتقييد العبد بالمملوك ؛ للتمييز من الحر ؛ فإنه أيضا عبدٌ لله . وبسلْب القدرة عن المكاتب والمأذون فى التصرف ، فإن الأصنام إنما تشبه العبد القِنّ[1] الذى لا شوب حرية فيه ، بل هى أعجز منه بكثير ، فكيف تضاهى الواحد القهار ، الذى لا يعجزه مقدور ؟ ولذلك قال : ﴿ هل يستوون ﴾ ؟ أى : العبيد العجزة ، والمتصرف بالإطلاق . ﴿ الحمد لله ﴾ على بيان الحق ووضوحه ؛ لأنها نعمة جليلة يجب الشكر عليها ، أو الحمد كله لله لا يستحقه غيره ، فضلاً عن العبادة ؛ لأنه مولى النعم كلها . ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أى : لا علم لهم : فيضيفون النعم إلى غيره ويعبدونه لأجلها ، أو لا يعلمون ما يصيرون إليه من العذاب فيشركون به .

ثم ضرب الله مثلاً آخر فقال : ﴿ وضربَ اللهُ مثلاً ﴾ ، ثم بيَّنه بقوله : ﴿ رجلين أحدهما أبْكَمُ ﴾ ؛ وُلد أخرس ، لا يَفهم ولا يُفهم ، ﴿ لا يقدر على شيء ﴾ من الصنائع والتدابير ؛ لنقصان عقله ، ﴿ وهو كَلٌّ ﴾ أى : ثقيل عيال ﴿ على مولاه ﴾ الذى يلى أمره ، ﴿ أينما يُوجهه ﴾ : يرسله فى حاجة أو أمر ﴿ لا يأتِ بخير ﴾ ؛ بنجح وكفاية مهم . وهذا مثال للأصنام . ﴿ هل يستوى هو ﴾ أى : الأبكم المذكور ، ﴿ ومن يأمر بالعدل ﴾ ؛ ومن هو منطيقٌ متكلم بحوائجه ، ذو كفاية ورشد ، ينفع الناس ويحثهم على العدل الشامل لمجامع الفضائل ، ﴿ وهو على صراط مستقيم ﴾ أى : وهو فى نفسه على طريق مستقيم ، لا يتوجه إلى مطلب إلا ويحصله بأقرب سعْى ؟

وهذا مثال للحق تعالى ، فضرب هذا المثل لإبطال المشاركة بينه وبين الأصنام ، وقيل : للكافر والمؤمن . والأصوب : كون المثَلَيْن معًا فى الله مع الأصنام ؛ لتكون الآية من معنى ما قبلها وما بعدها فى تبيين أمر الله ، والرد على أمر الأصنام . والله تعالى أعلم

(١) العبد القِنّ : الذى مُلِكَ هو وأبواه ، ويقابله : عبد المملكة ، الذى مُلِك هو دون أبويه . انظر : النهاية (قنن) .

الإشارة: الحق تعالى موصوف بكمالات الربوبيه، منعوت بعظمة الألوهية، وعبيده موسومون بنقائص العبودية، وقهرية الملكية. فمن أراد أن يمده الله فى باطنه بكمالات الربوبية؛ من قوة وعلم، وغنى وعز، ونصر وملك، فليتحقق فى ظاهره بنقائص العبودية؛ من ذل، وفقر، وضعف، وعجز، وجهل. فبقدر ما تجعل فى ظاهرك من نقائص العبودية يمدك فى باطنك بكمالات الربوبية؛ «تحقق بوصفك يمدك بوصفه»، والتحقق بالوصف إنما يكون ظاهراً بين خلقه، لا منفرداً وحده؛ إذ ليس فيه كبير مجاهدة؛ إذ كل الناس يقدرون عليه، وإنما التحقق بالوصف ـ الذى هو ضامن للمدد الإلهى ـ هو الذى يظهر بين الأقران. وبالله التوفيق.

ثم بيَّن كمال علمه وقدرته، بعد أن ذكر كمالات ذاته، فقال:

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

قلت: أمهات: جمع أم، زيدت فيه الهاء؛ فرقاً بين من يعقل ومن لا يعقل، قاله ابن جزى. والذى لغيره حتى ابن عطية: إنما زيدت؛ للمبالغة والتأكيد. وقرئ بضم الهمزة، وبكسرها؛ إتباعاً للكسرة قبلها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولله غيبُ السموات والأرض﴾ أى: يعلم ما غاب فيهما، كان محسوساً أو غير محسوس؛ قد اختص به علمه، لا يعلمه غيره. ثم برهن على كمال قدرته فقال: ﴿وما أمرُ الساعةِ﴾ أى: قيام القيامة، فى سرعته وسهولته، ﴿إلا كلمح البصر﴾؛ كرد البصر من أعلى الحدقة إلى أسفلها، ﴿أو هو أقرب﴾: أو أمرها أقرب منه؛ بأن يكون فى زمان نصف تلك الحركة، بل أقل؛ لأن الحق تعالى يحيى الخلائق دفعة واحدة، فى أقل من رمشة عين، و «أو» للتخيير، أو بمعنى بل. ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾؛ فيقدر على أن يُحيى الخلائق دفعة، كما قدر أن يوجدهم بالتدريج.

ثم دلَّ على قدرته فقال: ﴿والله أخرجكم من بُطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا﴾؛ جهالاً، ﴿وجعل لكم السمعَ﴾ أى: الأسماع ﴿والأبصارَ والأفئدة﴾ أى: القلوب، فتكتسبون، بما تُدركون من المحسوسات، العلوم البديهية، ثم تتمكنون من العلوم النظرية بالتفكر والاعتبار، ثم تُدركون معرفة الخالق ﴿لعلكم تشكرون﴾ نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد، أظهركم أولاً من العدم، ثم أمدكم ثانياً بضروب النعم، طوراً بعد طور، حتى قدمتم عليه.

وقدَّم فى جميع القرآن نعمة السمع على البصر؛ لأنه أنفع للقلب من البصر، وأشد تأثيراً فيه، وأعم نفعاً منه فى الدين؛ إذ لو كانت الناس كلهم صماً، ثم بُعِثت الرسل، فمن أين يدخل عليهم الإيمان والعلم؟ وكيف يدركون آداب العبودية وأحكام الشرائع؟ إذ الإشارة تتعذر فى كثير من الأحكام. وإنما أفرده، وجمع الأبصار والأفئدة؛ لأن متعلق السمع جنس واحد، وهى الأصوات، بخلاف متعلق البصر، فإنه يتعلق بالأجرام والألوان، والأنوار والظلمات، وسائر المحسوسات، وكذلك متعلق القلوب؛ معاني ومحسوسات، فكانت دائرة متعلقهما أوسع مع متعلق السمع. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما غاب فى سماوات الأرواح من علوم أسْرار الربوبية، وفى أرض النفوس من علوم أحكام العبودية، هو فى خزائن الله، يفتح منهما ما شاء على من يشاء؛ إذ أمره تعالى بين الكاف والنون. وما أمر الساعة، التى يفتح الله فيها الفتح على عبده، بأن يميته عن نفسه، ثم يحييه بشهود طلعة ذاته، إلا كلمح البصر أو هو أقرب. لكن حكمته اقتضت الترتيب والتدريج، فيُخرجه إلى هذا العالم جاهلاً، ثم يفتح سمعه للتعلم والوعظ، وبصره للنظر والاعتبار، وقلبه للشهود والاستبصار، حتى يصير عالماً عارفاً بربه، من الشاكرين الذين يعبدون الله، شكراً وقياماً برسم العبودية. وبالله التوفيق.

ثم حضّ على التفكير، الذى هو سبب المعرفة وشبكة العلوم، فقال:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

قلت: ﴿مسخرات﴾: حال من ﴿الطير﴾، و﴿سكناً﴾: مصدر وُصف به، أى: شيئاً سكناً، أو: فعَلٌ؛ بمعنى مفعول. و﴿أثاثاً﴾: مفعول بمحذوف، أى: وجعل من أوبارها أثاثاً .

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم يروا﴾، وفي قراءة: ﴿ألم تروا﴾[1]؛ بتوجيه الخطاب لعامة الناس، ﴿إلى الطير مسخراتٍ﴾: مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية، ﴿في جو السماء﴾؛ في الهواء المتباعد من الأرض. ﴿ما يُمسكهنَّ﴾ فيه ﴿إلا اللهُ﴾؛ فإن ثِقَلَ جسدها يقتضي سقوطها، ولا علاقة فوقها ولا دعامة تحتها تمسكها، ﴿إنَّ في﴾ تسخيره ﴿ذلك﴾ لها ﴿لآيات﴾؛ لعبراً ودلالة على قدرته تعالى؛ إذ لا فاعل سواه؛ فإنّ إمساك الطيران في الهواء هو على خلاف طباعها، لولا أن القدرة تحملها، ففيه آيات ﴿لقوم يؤمنون﴾؛ لأنهم هم المنتفعون بها.

﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكنًا﴾: موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتكم، كالبيوت المتخذة من الحجر والمدَر. ومِنْ؛ للبيان، أي: جعل لكم سكناً، أي: موضعاً تسكنونه، وهو بيوتكم، ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتًا﴾، هي القباب المتخذة من الأدم، ويجوز أن يتناول المتخذة من الوبَر والصوف والشعر، فإنها، من حيث إنها نابتة على جلودها، كأنها من جلودها، ﴿تستخفونها﴾ أي: تجدونها خفيفة، يخف عليكم حملها وثقلها ﴿يوم ظَعنكم﴾ أي: سفركم، وفيه لغتان: الفتح والسكون[2]، ﴿ويوم إقامتكم﴾: حضوركم، أو نزولكم، ﴿و﴾ جعل ﴿من أصوافها﴾ أي: الغنم، ﴿وأوبارها﴾ أي: الإبل، ﴿وأشعارها﴾ أي: المعز، ﴿أثاثًا﴾: متاعاً لبيوتكم؛ كالبسُط والأكسية، ﴿ومتاعًا﴾ تمتعون به ﴿إلى حين﴾؛ إلى مدة من الزمان، فإنها ؛لصلابتها، تبقى مدة مديدة، أو: إلى مماتكم، أو: إلى أن تقضوا منها أوطاركم، أو: إلى أن تبلى.

﴿والله جعل لكم مما خلق﴾ من الشجر والجبال والأبنية، وغيرها، ﴿ظِلالاً﴾ تتقون بها حر الشمس، ﴿وجعل لكم من الجبال أكنانًا﴾؛ جمع: كَن، ما تكنون، أي: تستترون به من الحر والبرد، كالكهوف والغيران والبيوت المجوفة فيها، ﴿وجعل لكم سرابيل﴾ جمع: سربال؛ ثياباً من الصوف والكتان والقطن وغيرها، ﴿تقيكم الحرَّ﴾ والبرد، وخص الحر بالذكر، اكتفاء بأحد الضدين، أو لأن وقاية الحر كانت أهم عندهم. ﴿وسرابيل تقيكم بأسكم﴾: حربكم، كالطعن والضرب. وهي: الدروع، وتسمى: الجواشن، جمع جَوشن، وهو الدرع، ﴿كذلك﴾؛ كإتمام هذه النعم؛ بخلق هذه الأشياء المتقدمة، ﴿يُتم نعمتَه عليكم﴾ في الدنيا؛ بخلق ماتحتاجون إليه، ﴿لعلكم﴾ يا أهل مكة ﴿تُسْلمون﴾ أي: تنظرون في نعمه، فتؤمنون به، أو تنقادون لحكمه. وفي قراءة: بفتح التاء، أي: تَسلمون من العذاب بالإيمان، أو تنظرون فيها، فتوحدون، وتَسلمون من الشرك، أو من الجراح؛ بلبس الدروع.

---

(١) وهي قراءة ابن عامر وحمزة ويعقوب. وقرأ الباقون: (يروا)؛ بالغيب لقوله «يعبدون». انظر الإتحاف (٢/١٨٧).
(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بإسكان العين، والباقون بفتحها.

﴿ فإن تولوا ﴾ : أعرضوا، ولم يقبلوا منك، أو لم يُسلموا. ﴿ فإنما عليك ﴾ يامحمد ﴿ البلاغُ المبين ﴾ أى: الإبلاغ البين، فلايضرك إعْراضهم حيث بَلَّغْتَهُمْ.

﴿ يعرفون نِعْمتْ الله ﴾ أى: يُقرون بأنها من عنده، ﴿ ثم يُنكرونها ﴾ بإشراكهم وعبادتهم غيرَ المنعِم بها، وبقولهم: إنها بشفاعة آلهتنا، أو بسبب كذا، أو بإعراضهم عن حقوقها. وقيل: نعمة الله: نبوة نبينا محمد ﷺ، عرفوها بالمعجزات، ثم أنكروها؛ عناداً. ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ ؛ الجاحدون؛ عناداً. وذكر الأكثر؛ إمَّا لأن بعضهم لم يعرف الحق؛ لنقصان عقله، أو لتفريطه فى النظر، أو لم تقم عليه الحجة؛ لأنه لم يبلغ حد التكليف، أو كان فيهم من داخله الإسلام، ومن أسلم بعد ذلك. وإما لأنه أقام الأكثر مقام الكل، كقوله: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾(١). قال بعضه البيضاوى .

الإشارة: قال الورتجبى: بيَّن الحقُّ تعالى قدرته فى إمساكه أطيار الأرواح فى هواء الملكوت وسماء الجبروت، حتى ترفرفت بأجنحة العرفان والإيقان، على سرادق مجده وبساط كبريائه، مسخرات بأنوار جذبه، ما يمسكهن إلا الله، بكشف جماله لها، أمسكها به عن قهر سلطانه وسُبحات جلاله، حتى لا تفنى ـ أى: تتلاشى ـ فى بهائه. هـ.

والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ـ وهى العبودية ـ، تسكنون فيها وتأوون إليها، بعد طيران الفكرة فى جو أنوار الملكوت، وميادين أسرار الجبروت. أو الحضرة تسكن فيها قلوبكم، فتصير مُعَشِّشَ أرواحكم، إليها تأوون، وفيها تسكنون. وجعل لكم منازل تنزلون فيها عند السير إلى حضرة ربكم، وهى المقامات التى يقطعها المريد، ينزل فيها ويرتحل عنها. وجعل لكم من أردية الأكوان وألوانها واختلاف أصنافها، تمتعًا بشهود أنوار مكونها فيها، إلى انطوائها وظهور أضدادها بقيام الساعة، فتظهر القدرة وتبطن الحكمة، ويظهر المعنى ويبطن الحس.

والله جعل لكم مما خلق من الأكوان ظلالاً، والظلال لا وجود لها من ذاتها، فكذلك الأكوان لا وجود لها مع الحق، وإنما هى ظلال. والظلال ليست بموجودة ولا مفقودة. وجعل لكم من جبال العقل أكناناً، تستترون بنوره من جذب الاصطلام؛ بمواجهة أنوار الحضرة. وجعل لكم سرابيل الشرائع تقيكم حرَّ الحقيقة، وسرابيل الحقائق تقيكم بأس سهام الأقدار، فإنَّ من عرف الله؛ حقيقة؛ هان عليه ما يُواجَهُ به من المكاره. وفى هذا المعنى أنشد بعضهم:

نِلْبسْ عـمَـامْ مِنِ الماءْ ... ونِشْـدُّهَا شَـدّْ مَـائِـلْ
ونِلْبِسْ مِنِ الثَّلْجِ بِرْنُسْ ... إذا حـمت الْقَـوائِـلْ
ونِشْـعِلْ مِنِ الرِّيحْ قَنْدِيلْ ... ومِنْ الضَّـبَـابْ فَـتَـائِل(٢)

---

(١) من الآية ٧٥ من سورة النحل.
(٢) هذا شعر عامى، أو زجل، وهو جيد المعنى، ويعبر عن همة عالية عند قائله. وقوله: إذا حمت القوائل، يعنى: إذا اشتد الحر فى أوقات الظهيرة. وبقية الزجل واضح المعنى.

والمراد بعمامة الماء: كناية عن الحقيقة؛ لأنها كالماء لحياة النفوس. وميل شدها: كناية عن قوتها، وتكبيرها؛ على الشريعة. والمراد ببرنس الثلج: برد التشريع، فإذا قويت الحقيقة، وخاف من الاحتراق، نزل إلى برد التشريع. والمراد بالريح: هبوب نسيم الواردات الإلهية، يشعل منها قنديل الفكرة ـ التي هي سراج القلب ـ، فإذا ذهبت فلا إضاءة له، وهذه حالة السائر، وأما الواصل فقد سكن النور في قلبه، فلا يحتاج إلى سراج غيره تعالى. وفي ذلك يقول الشاعر:

كُلُّ بيْتٍ أنت سَـــاكِنُهُ غَيْرُ مُحْتَــاجٍ إلى سُرُجِ
وَجْهك المحمُـودُ حُجَّتنا يوم يأتي النــاس بالحجج

والمراد بالضباب: وجود السوى، فإنه يحترق عند اشتعال الفكرة. والله تعالى أعلم. وباقي الآية ظاهر إشارته.

ثم ذكر وعيد من أعرض عن هذه النعم، التي هي دلائل قدرته، فقال:

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

قلت: «تبيانا»: حال من الكتاب، وهو مصدر، قال في القاموس: والتبيان: مصدر شاذ. وفي ابن عطية: والتبيان: اسم، لا مصدر. والمصادر في مثله مفتوحه، كالترداد والتكرار. هـ. وقال في الصحاح: لم يجئ على الكسر إلا هذا، والتِّلقاء. هـ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿يومَ نبعثُ من كل أمة﴾ من الأمم ﴿شهيداً﴾ أي: رسولا يشهد لها أو عليها، بالإيمان أو بالكفر، وهو يوم القيامة، ﴿ثم لا يُؤْذَنُ للذين كفروا﴾ في الاعتذار؛ إذ لا عذر لهم.

(١) في باب أحوالهم عند الخروج من الدنيا، حكى القشيري في الرسالة، عن أبي محمد الهروي ،أنه قال: ومكثت عند الشبلي، الليلة التي مات فيها، فكان يقول ـ طول ليله ـ: هذين البيتين:

كل بيت أنت ساكنة غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا يوم يأتي النـاس بالحجج

أو: في الرجوع إلى الدنيا. وعبَّر بثم؛ لزيادة ما يحيق بهم من شدة المنع من الاعتذار، مع ما فيه من الإقناط الكلي. ﴿ ولا هم يُستعتَبون ﴾ : لايطلب منهم العتبى، أى: الرجوع إلى ما يرضى الله. والمعنى: أنهم لا يؤذن لهم فى الاعتذار عما فرطوا فيه مما يرضى الله، ولا يطلب منهم الرجوع إلى تحصيله. ﴿ وإذا رأى الذين ظلموا ﴾: كفروا ﴿ العذاب ﴾: جهنم ﴿ فلا يُخفف عنهم ﴾ العذابُ ﴿ ولا هم يُنظرون ﴾؛ يُمهلون عنه إذا رأوه .

﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءَهم ﴾ : أوثانهم التى دعوها شركاء لله، أو الشياطين الذين شاركوهم فى الكفر؛ بالحمل عليه، ﴿ قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعُوا من دونك ﴾ أى: نعبدهم ونطيعهم من دونك. وهو اعتراف بأنهم كانوا مخطئين فى ذلك. ﴿ فألْقَوا إليهم القولَ ﴾ قالوا لهم: ﴿ إنكم لكاذبون ﴾ أى: أجابوا بالتكذيب فى أنهم شركاء الله، أو أنهم عبدوهم حقيقة، وإنما عبدوا أهواءهم؛ كقوله: ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾(١)، وقوله: ﴿ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾(٢)، أو لأنهم، لما كانوا غير راضين بعبادتهم، فكأن عبادتهم لم تكن لهم.﴿ وألْقَوا إلى الله يومئذ السَّلَم ﴾ أى: الاستسلام، أى: استسلموا لحكمه (يومئذ)، بعد أن تكبروا عنه فى الدنيا، ولا ينفع يومئذ، ﴿ وضلّ عنهم ﴾ أى: غاب وضاع وبطل ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ من أن آلهتهم تنصرهم وتشفع لهم.

﴿ الذين كفروا وصدُّوا ﴾ الناس ﴿ عن سبيل الله ﴾؛ بالمنع من الإسلام، والحمل على الكفر، ﴿ زدناهم عذابًا ﴾؛ بصدهم، ﴿ فوق العذابِ ﴾ المستحق بكفرهم. قال ابن مسعود: «عقارب، أنيابها كالنخل الطوال، تلسعهم». وعن عبيد بن عمير: عقارب كالبغال الدُّلْم ـ أى: السود جداً، والأدلم: الشديد السواد. وذلك العذاب ﴿ بما كانوا يُفسدون ﴾ أى: بكونهم مفسدين؛ بصدهم عما فيه صلاح العالم.

﴿ و ﴾ اذكر أيضا: ﴿ يومَ نبعثُ في كل أمةٍ شهيداً عليهم من أنفسهم ﴾؛ يعنى: نبيهم؛ فإنَّ نبى كل أمة بعث منها. ﴿ وجئنا بك ﴾ يامحمد ﴿ شهيداً على هؤلاء ﴾؛ على أمتك، أو على هؤلاء الشهداء، ﴿ ونزّلنا عليك الكتابَ ﴾ : القرآن ﴿ تبيانًا ﴾؛ بيانًا بليغًا ﴿ لكل شيء ﴾ من أمور الدين على التفصيل، أو الإجمال؛ بالإحالة على السنة أو القياس. ﴿ وهُدىً ﴾ من الضلالة، ﴿ ورحمة ﴾ بنور الهداية لجميع الخلق. وإنما حُرم المحروم؛ لتفريطه، ﴿ وبُشرى ﴾ بالجنة، وغيرها، ﴿ للمسلمين ﴾ الموحدين خاصة. وبالله التوفيق.

الإشارة: قد بعث الله فى كل دهر وعصر شهيداً يشهد على أهله، ويكون حجة عليهم يوم القيامة، وهم صنفان: صنف يشهد على من فرط فى أحكام الشريعة، وهم: العلماء الأتقياء، وصنف يشهد على من فرط فى

(١) من الآية ٨٢ من سورة مريم. (٢) من الآية ٦٣ من سورة القصص.

أسرار الحقيقة، وهم: الأولياء الكبراء، أعنى: العارفين بالله ، فمن فرط فى شىء منهما قامت عليه الحجة؛ فإذا اعتذر لا ينفعه، وإذا طلب الرجوع لا يجده، وإذا أحاط به عذاب الحجاب لا ينفك عنه. وكل من أحب شيئا من دون الله، تبرأ منه يوم القيامة، وكل من أنكر الخصوصية على أولياء زمانه، وصد الناس عنه؛ تضاعف عذابه، وكثف حجابه يوم القيامة. والله تعالى أعلم

ولما ذكر أن القرآن فيه تبيان كل شىء، ذكر آية تضمنت أصول الأحكام، فيها تبيان كل شىء؛ إجمالاً، فقال:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنَّ الله يأمر بالعدل﴾ أى: التوحيد، أو الإنصاف، أو فعل الفرائض، ﴿والإحسان﴾، وهو: فعل المندوبات. وذلك فى حقوق الله تعالى، وفى حق عباده، أو العدل فى الأحكام، كل واحد فيما ولى فيه؛ «كلكم راع»، والإحسان إلى عباد الله برِّهم وفاجرهم. قال ابن عطية: العدل: هو فعل كل مفروض؛ من عقائد وشرائع، وسير مع الناس فى أداء الأمانات، وترك الظلم، والإنصاف، وإعطاء الحق. والإحسان هو: فعل كل مندوب إليه.

وقال البيضاوى: ﴿إن الله يأمر بالعدل﴾: بالتوسط فى الأمور؛ اعتقاداً، كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك، والقول بالكسب، المتوسط بين محض الجبر والقدر، وعملاً، كالتعبد بأداء الواجبات، المتوسط بين البطالة والترهب، وخلقاً، كالجود المتوسط بين البخل والتبذير، والإحسان: إحسان الطاعات، وهو إما بحسب الكمية، كالتطوع بالنوافل، أو بحسب الكيفية، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». ﴿وإيتاء ذى القربى﴾: وإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه، وهو تخصيص بعد تعميم؛ للمبالغة.

﴿وينهى عن الفحشاء﴾: عن الإفراط فى متابعة القوة الشهوية، كالزنى؛ فإنه أقبح أحوال الإنسان وأشنعها، ﴿والمنكر﴾: ما ينكر على متعاطيه فى إيثاره القوة الغضبية، ﴿والبغى﴾: الاستعلاء والاستيلاء على الناس، والتجبر عليهم، فإنها الشيطنة التى هى مقتضى القوة الوهمية، ولا يوجد من الإنسان شر إلا وهو مندرج فى هذه الأقسام، صادر بتوسط إحدى هذه القوى الثلاث، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: «هى أجمع آية فى القرآن للخير والشر. وصارت سبب إسلام عثمان بن مظعون، فلو لم يكن فى القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شىء، وهدى ورحمة للعالمين، ولعل إيرادها عقب قوله: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾؛ للتنبيه عليه .هـ.

وفى القوت: هى قطب القرآن. هـ. وعن عثمان بن مظعون: أنه قال: لَمَّا نزلت هذه الآية؛ قرأتها على أبى طالب، فعجب، وقال: آلَ غالبٍ، اتبعوه تُفلحوا، فوالله إن الله أرسله ليأمر بمكارم الأخلاق. هـ. قال ابن عطية:

﴿وإيتاء ذى القربى﴾: لفظ يقتضى صلة الرحم، ويعم جميع إسداء الخير إلى القرابة، وتركه مبهماً أبلغ؛ لأن كل من وصل فى ذلك إلى غاية ـ وإن علت ـ يرى أنه مقصر، وهذا المعنى المأمور به فى جانب ذى القربى داخل تحت العدل والإحسان، لكنه تعالى خصه بالذكر؛ اهتماماً به وحضاً عليه. هـ.

﴿ يَعِظُكُم ﴾ بما ذكر من التمييز بين الأمر والنهى، والخير والشر، ﴿ لعلكم تذكَّرون ﴾: تتعظون فتنهضون إلى ما أمرتكم به وندبتكم إليه، وتتكفوا عما نهيتكم عنه وحذرتكم منه.

الإشارة: (إن الله يأمر بالعدل)؛ بالتوسط فى الأمور كلها، كالتوسط فى السير والمجاهدة؛ فإن الإسراف يوقع فى الملل، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لا يكن أحدكم كالمنبت؛ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى». وقال ﷺ أيضاً: «إنَّ اللهَ لا يملّ حتى تَملوا». والله ما رأيت أحداً أسرف فى الأحوال فوصل إلى مقصد، إلا النادر، وخير الأمور أوسطها. ويأمر بالإحسان، وهو: مقام الشهود والعيان. (وإيتاء ذى القربى)؛ قرابة الدين، وهم: الإخوان فى الله، ما يستحقونه من النصح والإرشاد، (وينهى عن الفحشاء): الركون لغير الله، (والمنكر): التكبر على عباد الله، (والبغى): ظلم أحد من خلق الله، من الفيل إلى الذرة.

وقال فى الإحياء: بين التبذير والإقتار المذمومين وسط، وهو المحمود المأمور به، والواجب منه شيئان: واجب بالشرع، وواجب بالمروءة. والسخى هو الذى لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة، فإن منع واحداً منهما فهو بخيل، كالذى يمنع أداء الزكاة، ويمنع أهله وعياله النفقة، أو يؤديها لا بطيب نفسه، بل بتكلف ومشقة. وكالذى يتيمم الخبيث من ماله، ولا يعطى من أطيبه وأوسطه، فهذا كله بُخل. وأما واجب المروءة فهو: ترك المضايقة والاستقصاء فى المحقرات، وذلك يختلف؛ فيستقبح من الغنى ما لا يستقبح من الفقير، ويستقبح من الرجل مع أقاربه مالا يستقبح مع الأجانب، وكذلك الجار والمماليك والضيف. هـ.

وقال الورتجبى: إن الله تعالى دعا عباده إلى الاتصاف بصفته، منها: العدل والإحسان والشفقة والرحمة، والقدس، والطهارة عما لا يليق به. فهو العادل والمحسن، والرحمن الرحيم، غير ظالم جائر، وهو مُنزه عن جميع العلل، فمن كُسِي أنوار هذه الصفات، بنعت الذوق والمباشرة، واستحلى تربْيتها يخرج عادلاً محسناً، رؤوفاً رحيماً، طاهراً مطهراً، صادقاً مصدقا، ولياً، حبيباً محبوباً ، مريداً مراداً، مُراعًى محفوظاً، يعدل بنفسه فيدفعها عن الشك والشرك، ورؤية الغير وطلب العوض فى العبودية، ويأخذ منها الإنصاف بينها وبين عباد الله، ويحسن إلى من أساء إليه، ويعبد الله بوصف الرؤية وشهود غيبه، ويراعى ذوى القرابة، فى المعرفة والمحبة؛ من المريدين والصادقين، ويرحم الجهال من المسلمين، وينهى نفسه عن مباشرة فواحش الأُنانية، ومباشرة الهوى والشهوة،

ويدفعها عن الظلم؛ باستكباره عن العبودية، ويأمرها بإذعانها عند تراب أقدام أولياء الله؛ لتكون مطمئنة فى عبودية الحق، ذاكرة لسلطان ربوبيته، وقهر جبروته وملكوته وإحاطته بكل ذرة، وفناء الخليقة فى حقيقته. هـ.

ومن مكارم الأخلاق الداخلة تحت العدل: الوفاء بالعهد، كما قال تعالى:

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾

قلت: ﴿وقد جعلتم﴾: حال، و﴿أنكاثا﴾: حال من الغزل، وهو: جمع نِكْث - بالكسر - بمعنى منكوث، أى: منقوض. و﴿أن تكون﴾: مفعول من أجله، و﴿تتخذون﴾: جملة حالية من ضمير «تكونوا».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأوفوا بعهد الله ﴾ ؛ كالبيعة للرسول - عليه الصلاة السلام - وللأمراء، والأيمان، والنذور، وغيرها، ﴿ إذا عاهدتم ﴾ الله على شىء من ذلك، ﴿ ولا تنقضوا الأيمان ﴾ ؛ أيمان البيعة، أو مطلق الأيمان، ﴿ بعد توكيدها ﴾ ؛ بعد توثيقها بذكر الله، أو صفته، أو أسمائه، ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ ؛ شاهداً ورقيباً، بتلك البيعة؛ فإن الكفيل مراع لحال المكفول رقيب عليه، ﴿ إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ فى نقض الأيمان والعهود. وهو تهديد لمن ينقض العهد، وهذا فى الأيمان التى فى الوفاء بها خير، وأما ما كان تركه أولى فيُكفِّرْ عن يمينه، وليفعل الذى هو خير، كما فى الحديث.

﴿ ولا تكونوا كالتى نَقَضَتْ غزلها ﴾ : أفسدته ﴿ من بعد قوة ﴾ أى : إبرام وإحكام؛ ﴿ أنكاثاً ﴾ أى: طاقات، أى: صيرته طاقات كما كان قبل الغزل، بحيث حلت إحكامه وإبرامه، حتى صار كما كان، والمراد :

تشبيه الناقض بمَن هذا شأنه، وقيل: هى «ريطة بنت سعد القرشية»؛ فإنها كانت خرقاء ـ أى: حمقاء ـ تغزل طول يومها ثم تنقضه، فكانت العرب تضرب بها المثل لمن قال ولم يُوف، أو حلف ولم يَبر فى يمينه. ﴿ تتخذون أيمانكم دَخَلا بينكم ﴾ أى: لا تكونوا متشبهين بامرأة خرقاء، متخذين أيمانكم مفسدة ودخلا بينكم. وأصل الدخل: ما يدخل الشيء، ولم يكن منه، يقال: فيه الدخل والدغل، وهو قصد الخديعة.

تفعلون ذلك النقض؛ لأجل ﴿ أن تكون أُمةٌ هى أربى من أمة ﴾: بأن تكون جماعة أزيد عدداً وأوفر مالاً، من جماعة أخرى، فتنقضون عهد الأولى لأجل الثانية؛ لكثرتها. نزلت فى العرب، كانت القبيلة منهم تحالف الأخرى، فإذا جاءها قبيلة أقوى منها، غدرت الأولى، وحالفت الثانية. وقيل: الإشارة بالأربى هنا إلى كفار قريش؛ إذ كانوا حينئذ أكثر من المسلمين، فحذر من بايع على الإسلام أن ينقضه لما يرى من قوة كفار قريش.

﴿ إنما يبلوكم ﴾: يختبركم ﴿ اللهُ به ﴾؛ بما أمر من الوفاء بالعهد؛ لينظر المطيع منكم والعاصى. أو: بكون أمة هى أربى، لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله، أم تَغْتَرُّونَ بكثرة قريش وشوكتهم، وقلة المؤمنين وضعفهم؟ ﴿ وليُبَيِّننَّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ فى الدنيا؛ حين يجازيكم على أعمالكم بالثواب والعقاب. ﴿ ولو شاء اللهُ لجعلكم أمةً واحدة ﴾؛ أهل دين واحد متفقين على الإسلام، ﴿ ولكن يُضل من يشاء ﴾ بعدله، ﴿ ويهدى من يشاء ﴾ بفضله، ﴿ ولتُسألُنَّ يوم القيامة ﴾؛ سؤال تبكيت ومجازاة، ﴿ عما كنتم تعملون ﴾ فى الدنيا؛ لتُجازوا عليه .

﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دَخَلاً بينكم ﴾، كرره؛ تأكيداً؛ مبالغة فى قبح المنهى عنه من نقض العهود، ﴿ فتزِلَّ قدمٌ ﴾ عن محجة الإسلام ﴿ بعد ثُبوتها ﴾ : استقامتها عليه، والمراد: أقدامهم، وإنما وُحد ونُكِّر؛ للدلالة على أن زلل قدم واحد عظيم، فكيف بأقدام كثيرة؟ ﴿ وتذوقوا السُّوءَ ﴾ : العذاب فى الدنيا ﴿ بما صددتم عن سبيل الله ﴾ أى: بصدكم عن الوفاء بعهد الله، أو بصدكم غيركم عنه؛ فإن من نقض البيعة، وارتد، جعل ذلك سُنَّة لغيره، ﴿ ولكم عذابٌ عظيم ﴾ فى الآخرة.

﴿ ولا تشتروا بعهد الله ﴾ أى: لا تستبدلوا عهد الله وبيعة رسوله ﷺ بأخذكم ﴿ ثمناً قليلاً ﴾: عرضاً يسيراً من الدنيا، بأن تنقضوا العهد لأجله. قيل: هو ما كانت قريش يعدونه لضعفاء المسلمين، ويشترطون لهم على الارتداد، ﴿ إنَّما عند الله ﴾ من النصر والعز، وأخذ الغنائم فى الدنيا، والثواب الجزيل فى الآخرة، ﴿ هو خيرٌ لكم ﴾ مما يعدونكم، ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ ذلك فلا تنقضوا، أو إن كنتم من أهل العلم والتمييز.

﴿ما عندكم﴾ من أعْرَاضِ الدنيا ﴿يَنْفَدُ﴾ ؛ ينقضي ويفنى، ﴿وما عند الله﴾ من خزائن رحمته، وجزيل نعمته ﴿باقٍ﴾ لا يفنى، وهو تعليل للنهى عن نقض العهد؛ طمعًا فى العَرَضِ الفانى، ﴿وليجزين(١) الذين صبروا﴾ على الوفاء بالعهود، أو على الفاقات وأذى الكفار، أو مشاق التكاليف، ﴿أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون﴾ بما يرجح فعله من أعمالهم، كالواجبات والمندوبات، أو بجزاء أحسن من أعمالهم . وبالله التوفيق.

الإشارة: الوفاء بالعهود، والوقوف مع الحدود، من شأن الصالحين الأبرار، كالعباد والزهاد، والعلماء الأخيار. وأما أهل الفناء والبقاء من العارفين: فلا يقفون مع شيء، ولا يعقدون على شيء، هم مع ما يبرز من عند مولاهم فى كل وقت وحين، ليس لهم عن أنفسهم إخبار، ولا مع غير الله قرار . يتلونون مع المقادير كيفما تلونت، وذلك من شدة قربهم وفنائهم فى ذات مولاهم. قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(٢)، فهم يتلونون مع الشئون البارزة من السر المكنون؛ فمن عقد معهم عقداً، أو أخذ منهم عهداً، فلا يعول على شيء من ذلك؛ إذ ليست أنفسهم بيدهم، بل هى بيد مولاهم. وليس ذلك نقصاً فى حقهم، بل هو كمال(٣)؛ لأنه يدل على تغلغلهم فى التوحيد حتى هدم عزائمهم، ونقض تدبيرهم واختيارهم. ولا يذوق هذا إلا من دخل معهم، وإلاَّ فحسْبه التسليم، وطرح الميزان عنهم، إن أراد الانتفاع بهم. والله تعالى أعلم .

وهذه الحالة التى أقامهم الحق تعالى فيها هى الحياة الطيبة، التى أشار إليها الحق تعالى بقوله:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿من عَمِل صالحاً﴾ ؛ بأن صحبه الإخلاص، وتوفرت فيه شروط القبول، ﴿من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن﴾ ؛ إذ لااعتداد بأعمال الكفرة في استحقاق الثواب، وإنما المتوقع عليها تحقيق العقاب، ﴿فلنحيينَّهُ حياةً طيبةً﴾ فى الدنيا، بالقناعة والكفاية مع التوفيق والهداية. قال البيضاوى: يعيش عيشاً طيباً، فإنه، إن كان موسراً، فظاهر، وإن كان معسراً يطيبُ عيشه بالقناعة، والرضا بالقسمة، وتوقع الأجر العظيم، بخلاف الكافر، فإنه، إن كان معسرا، فظاهر، وإن كان موسراً لم يدعه الحرص وخوف الفوات أن يهنأ بعيشه، وقيل: فى الآخرة، أى: فى الجنة .هـ. ﴿ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ من الطاعة، فيجازيهم على الحسن بجزاء الأحسن. وبالله التوفيق.

---

(١) قرأ ابن كثير وعاصم وأبو جعفر: (ولنجزين)؛ بالنون، وقرأ الباقون بالياء على الغيب.
(٢) من الآية ٢٩ من سورة الرحمن.
(٣) العارف الحق هو الذى يلتزم أمر الله ويجتنب مناهيه، وهو شاهد بقلبه مولاه، فانٍ عما سواه.

الإشارة: الحياة الطيبة إنما تتحقق بكمالها عند أهل التجريد؛ حيث انقطعت عنهم الشواغل في الظاهر، والعلائق في الباطن، فاطمأنت قلوبهم بالله، وسكنت أرواحهم في حضرة الله، وتحققت أسرارهم بشهود الله، فدام سرورهم، واتصل حبورهم بحلاوة معرفة محبوبهم، وهذه نتيجة شرب الخمرة الأزلية، كما قال ابن الفارض في مدحها:

وإنْ خَطَرَتْ يوماً على خاطرِ امرىءٍ أقامتْ به الأفـراحُ، وارتحلَ الهمّ

هذا في الخطور، فما بالك بالسكون ودوام الحضور؟ وقال أيضا في شأنها:

فمـا سـكنَتْ والهـمَّ يوماً، بموضع كـذلك لا يسـكُنْ مع النَّغَم الغَـم

وإنما تحقق لهم هـذا الأمر العظيم؛ لرسوخ قدمهم في مقام الإحسان، وسكونهم في جنة العرفان، فَهبَّ عليهم نسيم الرضا والرضوان، وترقت أرواحهم إلى مقام الروح والريحان، فقلوبهم بحار زاخرة لا تكدرها الدلاء، وأرواحهم أنوار ساطعة لا يؤثر فيها ليل القبض والابتلاء، وأسرارهم بأنوار المواجهـة مشرقة، فدام سرورها بـكل ما يبرز من عنصر القضاء. والحاصل: أن أهل هذا المقام عندهم من الإكسير والقوة ما يقلبون به الأعيان، فيقلبون الشريات خيريات، والمعاصي طاعات، والإساءة إحسانا، والجلال جمالا .. وهكذا، فأنَّى تغير قلوبَ هؤلاء الأكدارُ؟ وأنى تنزل بساحتهم الأغيارُ، وهم في حضرة الكريم الغفار؟ نفعنا الله بذكرهم، وخرطنا في سلكهم، آمين.

ومن جملة الحياة الطيبة: التنعمُ بحلاوة القرآن، ولا يتحقق ذلك إلا بالبعد والحفظ من خوض الشيطان، ولذلك أمر بالتعوذ منه عند قراءته، فقال:

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فإذا قرأتَ القرآنَ ﴾؛ أردت قراءته، كقوله: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ ﴾[1]، ﴿ **فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم** ﴾ أي: فسل الله أن يعيذك من وسواسه؛ لئلا يوسوسك في القراءة، فيحرمك حلاوة التلاوة؛ فإنه عدو لا يحب لابن آدم الربح أبداً، والجمهور على أنه مستحب عند التلاوة، وعن عطاء: أنه واجب. ومذهب مالك: أنه لا يتعوذ في الصلاة. وعند الشافعي وأبي حنيفة: يتعوذ في كل ركعة؛ تمسكاً بظاهر

(١) من الآية ٦ من سورة المائدة.

الآية؛ لأن الحكم المرتب على شرط يتكرر بتكرره، وأخذ مالك بعمل أهل المدينة فى ترك التعوذ فى الصلاة. وهو تابع للقراءة فى السر والجهر، وعن ابن مسعود: قرأتُ على النبى ﷺ فقلت: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال: «قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»(١).

ثم قال تعالى: ﴿ إنه ليس له سلطانٌ ﴾ أى: تسلط وولاية ﴿ على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أى: لا تسلط له على أولياء الله المؤمنين به، والمتوكلين عليه، فإنهم لا يطيعون أوامره، ولا يصغون إلى وساوسه، إلا فيما يحتقر، على ندور وغفلة. ﴿ إنما سلطانه ﴾ أى: تَسَلُّطُهُ ﴿ على الذين يتولونه ﴾: يحبونه ويطيعونه، ﴿ والذين هم به ﴾ أى: بالله، أو: بسبب الشيطان، ﴿ مشركون ﴾؛ حيث حملهم على الشرك فأطاعوه.

الإشارة: الاستعاذة الحقيقية من الشيطان هى: الغيبة عنه فى ذكر الله أو شهوده، فلا ينجح فى دفع الشيطان إلا الفرار منه إلى الرحمن. قال تعالى: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾(٢). فإن الشيطان كالكلب، كلما اشتغلت بدفعه قوى نبحه عليك، فإما أن يخرق الثياب، أو يقطع الإهاب، فإذا رفعت أمره إلى مولاه كفه عنك. وقد قال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عداوة العدو حقًا هو اشتغالك بمحبة الحبيب حقا، وأما إذا اشتغلت بعداوة العدو، فاتتك محبة الحبيب، ونال مراده منك. هـ.

فالعاقل هو الذى يشتغل بذكر الله باللسان، ثم بالقلب، ثم بالروح، ثم بالسر، فحينئذ يذوب الشيطان ولا يبقى له أثر قط، أو يذعن له ويسلم شيطانه، فإنما حركه عليك؛ ليوحشك إليه. وفى الحكم: إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك، فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده. فإذا تعلقتَ بالقوى المتين، هرب عنك الشيطان اللعين. وسيأتى مزيد كلام إن شاء الله عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ.. ﴾(٣) الآية. وبالله التوفيق.

ومن أقبح وسوسة الشيطان: الطعن فى القرآن، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(١) عزاه المناوى فى الفتح السماوى (٢/٧٥٨) للثعلبى.
(٢) من الآية ٥٠ من سورة الذاريات.
(٣) من الآية ٦ من سورة فاطر.

قلت: ﴿والله أعلمُ بما يُنَزِّل﴾: معترض بين الشرط، وهو: ﴿إذا﴾ وجوابه، وهو: ﴿قالوا﴾؛ لتوبيخ الكفار، والتنبيه على فساد سندهم. و﴿هدى وبشرى﴾: عطف على: «ليثبت».

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإذا بدّلنا آيةً مكان آيةٍ﴾؛ بأن نسخنا الأولى؛ لفظاً أو حكماً، وجعلنا الثانية مكانها، ﴿والله أعلم بما ينزّل﴾ من المصالح، فلعل ما يكون في وقت، يصير مفسدة بعده، فينسخه، وما لا يكون مصلحة حينئذ، يكون مصلحة الآن، فيثبته مكانه. فإذا نسخ، لهذه المصلحة، ﴿قالوا﴾ أي: الكفرة: ﴿إنما أنت مُفتَرٍ﴾: كذاب مُتَقَوِّل على الله، تأمر بشيء ثم يبدو لك فتنهى عنه، قال تعالى: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ حكمة النسخ ولا حقيقة القرآن، ولا يميزون الخطأ من الصواب.

﴿قل نزّله روحُ القُدُس﴾ يعني: جبريل. والقدس: الطهر والتنزيه؛ لأنه روح مُنزه عن لوث البشرية. نزله ﴿من ربك﴾ ملتبساً ﴿بالحق﴾: بالحكمة الباهرة، أو مع الحق في أمره ونهيه وإخباره، أو أنزله حقاً، ﴿ليُثبّتَ الذين آمنوا﴾ على الإيمان؛ لأنه كلام الله، ولأنهم إذا سمعوا الناسخ والمنسوخ، وتدبروا ما فيه من رعاية المصالح، رسخت عقائدهم، واطمأنت قلوبهم. ﴿و﴾ أنزله ﴿هدى وبُشرى للمسلمين﴾ المنقادين لأحكامه، أي: نزله؛ تثبيتاً وهداية وبشارة للمسلمين.

﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يُعلّمه بَشَرٌ﴾ يعنون: غلاماً نصرانياً اسمه: جَبر، وقيل: يعيش . قيل: كانا غلامين، اسم أحدهما: جَبر، والآخر يَسار، وكانا يصنعان السيوف، ويقرآن التوراة والإنجيل، فكان النبي ﷺ يجلس إليهما، ويدعوهما إلى الإسلام، فقالت قريش: هذان هما اللذان يعلمان محمداً ما يقول. قال تعالى في الرد عليهم: ﴿لسانُ الذي يُلحدون إليه أعجمي﴾ أي: لغة الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه، وينسبون إليه تعليم القرآن، أعجمي، ﴿وهذا﴾ القرآن ﴿لسانٌ عربي مبين﴾؛ ذو بيان وفصاحة. قال البيضاوي: والجملتان مستأنفتان؛ لإبطال طعنهم، وتقريره يحتمل وجهين؛ أحدهما: أن ما سمعه منه كلام أعجمي لا يفهمه هو ولا أنتم، والقرآن عربي تفهمونه بأدنى تأمل، فكيف يكون، ـ أي: القرآن ـ ما تلقفه منه؟ وثانيهما: هب أنه تلقف منه المعنى باستماع كلامه، لكن لم يتلقف منه اللفظ؛ لأن ذلك أعجمي وهذا عربي، والقرآن، كما هو معجز باعتبار المعنى، معجز باعتبار اللفظ، مع أن العلوم الكثيرة التي في القرآن لا يمكن تعلمها إلا بملازمة معلم فائق في تلك العلوم مدة متطاولة، فكيف يعلم جميع ذلك من غلام سُوقي، سمع منه، بعض أوقات، كليمات عجمية، لعله لم يعرف معناها؟! فطعنهم في القرآن بأمثال هذه الكلمات الركيكة دليل على غاية عجزهم. هـ.

الإشارة: كما وقع النسخ في وحي أحكام، يقع في وحي إلهام؛ فقد يتجلى في قلب الولي شيء من الأخبار الغيبية، أو يأمر بشيء يليق، في الوقت، بالتربية، ثم يُخبر أو يأمر بخلافه؛ لوقوع النسخ أو المحو، فيظن من لامعرفة له بطريق الولاية أنه كذب، فيطعن أو يشك، فيكون ذلك قدحاً في بصيرته، وإخماداً لنور سريرته، إن كان داخلاً تحت تربيته. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وبال من طعن في كلام الله، فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥) مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) ﴾

قلت: «من كفر» : شرطية مبتدأ، وكذلك ﴿من شرح﴾. و﴿فعليهم غضب﴾: جواب عن الأولى والثانية؛ لأنهما بمعنى واحد، ويكون جواباً للثانية، وجواب الأولى: محذوف يدل عليه جواب الثانية. وقيل: ﴿من كفر﴾: بدل من ﴿الذين لا يؤمنون﴾، أو من المبتدأ في قوله:﴿ أولئك هم الكاذبون ﴾ ، أو من الخبر. و﴿إلا من أكره﴾: استئناف من قوله: ﴿من كفر﴾.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ إنَّ الذين لا يؤمنون ﴾ ؛ لا يُصدِّقون ﴿ بآيات الله ﴾ ، ويقولون: هي من عند غيره، ﴿ لا يهديهم الله ﴾ إلى سبيل النجاة، أو إلى اتباع الحق، أو إلى الجنة. ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ في الآخرة. وهذا في قوم عَلِمَ أنهم لا يؤمنون، كقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[1]. وقال ابن عطية: في الآية تقديم وتأخير، والمعنى: إن الذين لا يهديهم الله لا يؤمنون بالله. ولكنه قدَّم وأخر؛ تهمماً بتقبيح أفعالهم. هـ.

قال البيضاوي: هددهم على كفرهم، بعد ما أماط شبهتهم، ورد طعنهم فيه، ثم قلب الأمر عليهم، فقال: ﴿ إنما يفترى الكذبَ الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ ؛ لأنهم لا يخافون عذاباً يردعهم عنه، ﴿ وأولئك هم الكاذبون ﴾ على الحقيقة، أو الكاملون في الكذب؛ لأن تكذيب آيات الله، والطعن فيها، بهذه الخرافات أعظم الكذب. وأولئك الذين عادتهم الكذب لا يصرفهم عنه دين ولا مروءة. أو الكاذبون في قولهم: ﴿ إنما أنت مفتر ﴾ ، ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ . هـ. والكلام كله مع كفار قريش.

(١) من الآية ٩٦ من سورة يونس.

ثم ذكر حكم من ارتد عن الإيمان؛ طوعاً أو كرهاً، فقال: ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه ﴾ فعليهم غضب من الله، ﴿ إلا من أُكْرِه ﴾ على التلفظ بالكفر، أو على الافتراء على الله، ﴿ وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ ؛ لم تتغير عقيدته، ﴿ ولكنْ من شرح بالكفر صدراً ﴾ أي: فتحه ووسعه، فاعتقده، وطابت به نفسه، ﴿ فعليهم غضبٌ من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ ؛ إذ لا أعظم من جرمه.

رُوى أن قريشاً أكرهوا عماراً وأبويه - وهما ياسر وسمية -على الارتداد، فربطوا سمية بين بعيرين، وطعنوها بحربة فى قلبها، وقالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال، فماتت - رحمة الله عليها - وقتلوا ياسراً زوجها، وهما أول قتيلين فى الإســــلام. وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا؛ مُكرهاً، فقيل: يا رسول الله؛ إن عماراً كفر، فقال: «كَلا، إن عمَّاراً مُلئ إيمَانَاً من قَرْنه إلى قَدَمِه، واختَلَطَ الإيمَانُ بلَحْمه ودَمه». فَأَتَى عمَّار رسولَ الله ﷺ وَهُوَ يَبْكى، فَجَعَل رَسُولُ الله ﷺ يَمْسَحُ عَيْنَيْه، ويقول: «مَالك، إنْ عَادُوا لَكَ فَعُدْ لَهُمْ بِما قُلْتَ»(١).

وهو دليل على جواز التكلم بالكفر عند الإكراه. وإن كان الأفضل أن يجتنب عنه، إعزازا للدين، كما فعل أبواه. لما رُوى أنَّ مسيلمة أخذ رجلين، فقال لأحدهما: ما تقول فى محمد؟ فقال: رسول الله. وقال: ماتقول فىَّ؟ فقال: أنت أيضا، فخلى سبيله، وقال للآخر: ما تقول فى محمد؟ فقال: رسول الله، فقال: ما تقول فىَّ؟ فقال: أنا أصم، فأعاد عليه ثلاثاً، فأعاد جوابه، فقتله، فبلغ رسول الله ﷺ، فقال: أما الأول فقد أخذ برخصة الله، وأما الآخر فقد صدع بالحق، فهنيئاً له(٢). هـ. قاله البيضاوى.

قال ابن جزى: وهذا الحكم فيمن أكره على النُطق بالكفر، وأما الإكراه على فعل وهو كفر، كالسجود للصنم، فاختلف؛ هل يجوز الإجابة إليه أو لا؟ فأجازه الجمهور، ومنعه قوم. وكذلك قال مالك: لا يلزم المكره يمين، ولا طلاق، ولا عتاق، ولا شيء فيما بينه وبين الله، ويلزمه ما كان من حقوق الناس، ولا تجوز له الإجابة إليه؛ كالإكراه على قتل أحدٍ أو أخذ ماله. هـ. وذكر ابن عطية أنواعاً من الأمور المكره بها، فذكر عن مالك: أن القيد إكراه، والسجن إكراه، والوعيد المخوف إكراه، وإن لم يقع، إذا تحقق ظلم ذلك المتعدى، وإنفاذه فيما يتوعد به. ثم ذكر خلافاً فى الحنث فى حق من حلف؛ للـــدرء عن ماله، لظـــالم، بخــلاف الدرء عن النفس والبــدن، فإنه لايحنث، قولاً واحداً، إلا إذا تبرع باليمين، ففى لزومه خلاف. وانظرالمختصر فى الطلاق.

---

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (٢٢٨) عن ابن عباس. وأخرجه بنحوه الحاكم فى المستدرك (٢/٣٥٧) من حديث محمد بن عمار بن ياسر، وصححه، ووافقه الذهبى. وانظر تفسير الطبرى (١٤/١٨٠).
(٢) عزاه السيوطى فى الدر (٤/٢٥٠) لابن أبى شيبة عن الحسن؛ مرسلاً.

ثم علل نزول العذاب بهم، فقال: ﴿ ذلك ﴾ الوعيد ﴿ بأنهم استحبُّوا الحياةَ الدنيا على الآخرة ﴾ أى: بسبب أنهم آثروها عليها، ﴿ وأنَّ الله لايهدى القوم الكافرين ﴾، الذين سبق لهم الشقاء، فلا يهديهم إلى ما يوجب ثبات الإيمان فى قلوبهم، ولا يعصمهم من الزيغ. ﴿ أولئك الذين طَبَعَ اللهُ على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ﴾؛ فغابت عن إدراك الحق والتدبر فيه، ﴿ وأولئك هم الغافلون ﴾ الكاملون فى الغفلة، حتى أغفلتهم الحالة الزائفة عن التأمل فى العواقب. ﴿ لاجَرَمَ ﴾: لاشك ﴿ أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾؛ حيث ضيعوا أعمارهم، وصرفوها فيما أفضى بهم إلى العذاب المخلد. قاله البيضاوى.

الإشارة: من سبق له البِعاد لا ينفعه الكد والاجتهاد، ومن سبقت له العناية لا تضره الجناية. ففى التحقيق: ماثَمَّ إلا سابقة التوفيق. فمن كان فى عداد المريدين السالكين، ثم أكره على الرجوع إلى طريق الغافلين، ﴿فمن أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾، أى: بالتصديق بطريق الخصوص، وهومصمم على الرجوع إليها؛ فلا بأس عليه أن ينطق بلسانه، ما يُرى أنه رجع إليهم. فإذا وجد فسحة فرَّ بدينه. وكذلك إذا أخذه ضعف أو فشل وقت القهرية، ثم أنهضته العناية، ففرّ إلى الله، التحق بأولياء الله، وأما من شرح صدره بالرجوع عن طريق القوم، وطال مقامه مع العوام، فلا يفلح أبداً فى طريق الخصوص، والتحق بأقبح العوام، إلا إن بقى فى قلبه شىء من محبة الشيوخ والفقراء، فلعله يحشر معهم، ودرجته مع العوام.

قال القشيرى: إذا علِمَ اللهُ صدقَ عبده بقلبه، وإخلاصَه فى عقْده، ثم لحقته ضرورة فى حاله، خَفَّفَ عنه حُكْمَه، ورفع عنه عناءه، فإذا تلفظ بكلمة الكفر؛ مُكْرَهاً، وهو بالتوحيد محقق، عُذر فيما بينه وبين ربه. وكذلك الذين عقدوا بقلوبهم، وتجردوا لسلوك طريق الله، ثم اعْتَرَضَت لهم أسبابٌ، فاتفقت لهم أعذارٌ، فنفذ ما يوجبه الحال، وكان لهم ببعض الأسباب اشتغالٌ، أو إلى شىء من العلوم رجوعٌ، لم يقدح ذلك فى حجة إرادتهم، ولا يُعَدُّ ذلك منهم شكاً وفَسْخاً لعهودهم، ولا تنتفى عنهم سِمَةُ الفيئة إلى الله. هـ. **قلت:** هذا إن بقوا فى صحبة الشيوخ، ملازمين لهم، أو واصلين إليهم، وأما إن تركوا الصحبة، أو الوصول، فلا شك فى رجوعهم إلى العمومية.

ثم قال فى قوله: ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدراً ﴾: من رجع باختياره، ووضع قدمًا فى غير طريق الله، بحُكْمِ هواه، فقد نَقَضَ عَهْدَ إرادته لله، وفَسَخَ عقد قصده إلى الله، وهو مُسْتَوْجِبُ الحَجْبَةَ، إلى أن تتداركه الرحمة. هـ. قال شيخ شيوخنا، سيدى عبد الرحمن الفاسى، ما نصه: وفى مكاتبة لشيخنا العارف أبى المحاسن يوسف بن محمد: فإن اختلفت الأشكال، وتراكمت الفتن والأهوال، وتصدعت الأحوال، ربما ظهر على العارف وصف لم يكن معهوداً، وأمر لم يكن بالذات مقصوداً، فيكون معه قصور فى جانب الحق، لا فى جانب الحقيقة، فلا يضر، إن رجع فى ذلك لمولاه؛ فراراً، وإلى ربه؛ اضطراراً. ﴿ففروا إلى الله﴾. هـ.

ثم رغب فى التوبة، فقال:

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَٰهَدُوا وَصَبَرُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

قلت : ﴿إن﴾ الثانية: تأكيد، والخبر للأول .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا ﴾ من دار الكفر إلى المدينة ﴿ من بعد ما فُتنوا ﴾ أى: عُذبوا على الإسلام؛ كعمار بن ياسر، وأشباهه؛ من المعذبين على الإسلام. هذا على قراءة الضم. وقرأ ابن عامر: «فتنوا»؛ بفتح التاء، أى: فتنوا المسلمين وعذبوهم، فتكون فيمن عذب المسلمين، ثم أسلم وهاجر وجاهد، كعامر ابن الحضرمى، أكره مولاه جبراً حتى ارتد، ثم أسلما وهاجرا ثم جاهدا، وصبرا على الجهاد وما أصابهم من المشاق، ﴿ إن ربك من بعدها ﴾؛ من بعد الهجرة والجهاد والصبر، ﴿ لغفور رحيم ﴾ أى: لغفور لما مضى قبلُ، رحيم؛ يجازيهم على ما صنعوا بعدُ.

الإشارة: من نزلت به قهرية، أو حصلت له فترة، حتى رجع عن طريق القوم، ثم تاب وهاجر من موطن حظوظه وهواه، وجاهد نفسه فى ترك شواغل دنياه، واستعمل السير إلى من كان يدله على الله؛ ﴿إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾؛ يغفر له ما مضى من فترته، ويلحقه بأصحابه وأبناء جنسه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر يوم الجزاء لمن صبر وهاجر، أو الخسران لمن جحد وكفر، فقال:

﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

قلت : ﴿يوم﴾: منصوب باذكر، أو بغفور رحيم.

يقول الحق جل جلاله : واذكر ﴿ يوم تأتى كلُّ نفس تُجادلُ عن نفسها ﴾؛ عن ذاتها، وتسعى فى خلاصها، لايهمها شأن غيرها؛ ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾[1]، ﴿ وتُوفَّى كلُّ نفس ﴾ جزاء ﴿ ما عملت ﴾ على التمام، ﴿ وهم لا يُظلمون ﴾ : لا يُنقصون من أجورهم مثقال ذرة.

الإشارة: النفس التى تجادل عن نفسها، وتوفى ما عَمِلَتْ من خير أو شر، إنما هى النفس الأمارة أو اللوامة. وأما النفس المطمئنة بالله، الفانية فى شهود ذات الله، لا ترى وجوداً مع الله؛ فلا يتوجه عليها عتاب، ولا يترتب عليها حساب؛ إذ لم يبق لها فعل تُحاسب عليه. وعلى تقدير وجوده فقد حاسبت قبل أن تحاسَب، بل هى فى عداد

(١) الآيات: ٣٤ ـ ٣٦ من سورة عبس.

السبعين ألفا، الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وهم المتوكلون. أو تقول: هي في عداد من يلقى الله بالله، فليس لها شيء سوى الله، فحجته،ا يوم تجادل النفوس، هو الله. كما قال الشاعر:

وجهك المحمود حُجتنا — يوم يأتي الناسُ بالحُجج

وبالله التوفيق.

ثم ضرب مثلاً لمن كفر النعم، فقال:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

قلت: ﴿قرية﴾: بدل من: ﴿مثلا﴾.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وضرب الله مثلاً﴾، ثم فسره بقوله: ﴿قريةً﴾: مكة، وقيل: غيرها. ﴿كانت آمنة﴾ من الغارات، لا تُهَاج، ﴿مطمئنة﴾ لا تحتاج إلى الانتقال عند الضيق أو الخوف، ﴿يأتيها رزقها﴾: أقواتها ﴿رغداً﴾: واسعا ﴿من كل مكان﴾ من نواحيها، ﴿فكفرتْ بأنعُمِ الله﴾؛ بطرت بها، أو بنبي الله، سيدنا محمد ﷺ، ﴿فأذاقها الله لُباسَ الجوع والخوف﴾، استعار الذوق لإدراك أثر الضرر، واللباس لِمَا غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف، أما الإذاقة فقد كثر استعمالها في البلايا حتى صارت كالحقيقة، وأما اللباس فقد يستعيرونه لما يشتمل على الشيء ويستره؛ يقول الشاعر:

غمرُ الرِّدَاءِ إذا تبسَّمَ؛ ضاحِكا — غَلِقَتْ لِضحْكته رِقابُ المَالِ

فقد استعار الرداء للمعروف، فإنه يصون عِرْضَ صاحبه صون الرداء؛ لما يلقى عليه، والمعنى: أنهم لما كفروا النعم أنزل الله بهم النقم، فأحاط بهم الخوف والجوع إحاطة الثوب بمن يستتر به، فإن كانت مكة، فالخوف من سرايا النبي ﷺ وغاراته عليهم، وإن كان غيرها، فمن كل عدو، وذلك بسبب ما كانوا يصنعون من الكفر والتكذيب.

﴿ولقد جاءهم رسولٌ منهم﴾، يعني: محمداً ﷺ، والضمير لأهل مكة. عاد إلى ذكرهم بعد ذكر مَثَلِهم. ﴿فكذَّبوه فأخذهم العذاب﴾: الجوع والقحط، ووقعه بدر، ﴿وهم ظالمون﴾؛ ملتبسون بالظلم، غير تائبين منه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ضرب الله مثلاً؛ قلباً كان آمناً مطمئناً بالله، تأتيه أرزاق العلوم والمواهب من كل مكان، فكفر نعمة الشيخ، وخرج من يده قبل كماله، فأذاقه الله لباس الفقر بعد الغنى بالله، والخوف من الخلق، وفوات الرزق، بعد اليقين؛ بسبب ما صنع من سوء الأدب وإنكار الواسطة، ولو خرج إلى من هو أعلى منه؛ لأن من بان فضله عليك وجبت خدمته عليك، ومن رزق من باب لزمه. وهذا أمر مُجرب عند أهل الذوق بالعيان، وليس الخبر كالعيان، هذا إن كان أهلاً للتربية، مأذوناً له فيها، جامعاً بين الحقيقة والشريعة، وإلا انتقل عنه إلى من هو أهل لها. وبالله التوفيق.

ثم أمر بالشكر، الذي هو قيد النعم، فقال:

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾

قلت: ﴿الكذب﴾: مفعول بتقولوا، و ﴿هذا حلال وهذا حرام﴾: بدل منه، أي: لا تقولوا الكذب، وهو قولكم: ﴿هذا حلال وهذا حرام﴾، و﴿ما﴾ في قوله: ﴿لما تصف﴾؛ موصولة، ويجوز أن ينتصب الكذب بـ ﴿تصف﴾، ويكون «ما» مصدرية. ويكون قوله: ﴿هذا حلال وهذا حرام﴾ معمولاً لتقولوا، أي: لا تقولوا: هذا كذا وهذا كذا؛ لأجل وصف ألسنتكم الكذب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فكُلوا مما رزقكم الله حلالاً طيبًا﴾، أمرهم بأكل ما أحل لهم، وشُكر ما أنعم عليهم، بعد ما زجرهم عن الكفر، وهددهم عليه، بما ذكر من التمثيل والعذاب الذى حل بهم؛ صداً لهم عن صنيع الجاهلية ومذاهبها الفاسدة. قاله البيضاوى. ﴿واشكروا نعمتَ الله﴾؛ لتدوم لكم ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ فلا تنسبوا نعمه إلى غيره، كشفاعة الأصنام وغيرها. ﴿إنما حرّم عليكم الميتةَ والدمَ ولحمَ الخنزيرِ وما أُهل لغير الله به، فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فإن الله غفور رحيم﴾، تقدم تفسيرها فى البقرة

والمائدة[1] . قال البيضاوى: أمرهم بتناول ما أحل لهم، وعدد عليهم محرماته، ليعلم أن ما عداها حل لهم. ثم أكد ذلك بالنهى عن التحريم والتحليل بأهوائهم بقوله: ﴿ ولا تقولوا لما تَصفُ ألسنتُكم الكذبَ هذا حلالٌ وهذا حرام ﴾ لما لم يحله الله ولم يحرمه، كما قالوا : ﴿ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا . . . ﴾[2] الآية.هـ. تقولون ذلك؛ ﴿ لتفتروا على الله الكذب ﴾ بنسبة ذلك إليه. ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ أبداً؛ لأنهم تعجلوا فلاح الدنيا بتحصيل أهوائهم، فحُرموا فلاح الآخرة، ولذلك قال: ﴿ متع قليل ﴾ أي: لهم تمتع فى الدنيا قليل، يفنى ويزول. ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ فى الآخرة.

﴿ وعلى الذين هادوا حرّمنا ما قصصنا عليك من قبل ﴾ فى سورة الأنعام بقوله: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ . . ﴾[3] الآية، ﴿ وما ظلمناهم ﴾ بالتحريم، ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ ؛ حيث فعلوا ما عوقبوا به عليه. ذكر الحق تعالى ما حرم على المسلمين، وما حرم على اليهود؛ ليعلم أن تحريم ما عدا ذلك افتراء على الله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يقول الحق ـ جل جلاله ـ، لمن بقى على العهد؛ من شكر النعم؛ بالإقرار بفضل الواسطة: ﴿فكلوا مما رزقكم الله﴾ من قوت اليقين وفواكه العلوم، ﴿واشكروا نعمة الله﴾ إن كنتم تخصونه بالعبادة وإفراد الوجهة. إنما حرّم عليكم مايشغلكم عنه، كجيفة الدنيا والتهارج عليها، ونجاسة الغفلة، وما يورث القساوة والبلادة، وقلة الغيرة على الحق، وما قبض من غير يد الله، أو ما قصد به غير وجه الله، إلا وقت الضرورة فإنها تبيح المحذور. والله تعالى أعلم.

ثم حضّ على التوبة لمن وقع فى شيء من هذا، فقال:

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ثم إن ربك للذين عملوا السُّوء ﴾ ؛ كالشرك، والافتراء على الله، وغير ذلك، ﴿ بجهالة ﴾ أى: ملتبسين فى حال العمل بجهالة، كالجهل بالله وبعقابه، وعدم التدبر فى عواقبه؛ لغلبة الشهوة عليه ، ﴿ ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ﴾ عملهم، ﴿ إن ربك من بعدها ﴾ أى: التوبة، أو الجهالة، ﴿ لغفور ﴾ لذلك السوء، ﴿ رحيمٌ ﴾ بهم؛ يثيبهم على الإنابة.

---

(١) راجع تفسير الآية ١٧٣ من سورة البقرة، والآية ٣ من سورة المائدة.
(٢) من الآية ١٣٩ من سورة الأنعام.
(٣) من الآية ١٣٦ من سورة الأنعام.

الإشارة: كل من أساء الأدب، ثم تاب وأناب، التحق بالأحباب. قال بعضهم: «كل سوء أدب يثمر أدباً فهو أدب». والتوبة تتبع المقامات؛ فتوبة العوام: من الهفوات، وتوبة الخواص: من الغفلات، وتوبه خواص الخواص: من الفترات عن شهود الحضرات. وبالله التوفيق.

ولمّا رغّب في الشكر ذكر أنه من ملة خليله إبراهيم عليه السلام، ودين حبيبه ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ؛ تحريضاً عليه، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنَّ إبراهيم كان أمةً ﴾ أي: إماماً قدوة؛ قال تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾(١)، قال ابن مسعود: «الأُمة: معلّم الناسِ الخيرَ»، أو أمة وحده، اجتمع فيه ما افترق في غيره، فكان وحده أمة من الأمم؛ لكماله واستجماعه لخصال الكمال التي لا تكاد تجتمع إلا في أشخاص كثيرة، كقول الشاعر:

وليْسَ علَى الله بمسْـــتنْكَرٍ أنْ يجمعَ العالَمَ في واحِدِ(٢)

وهو رئيس الموحـدين، وقـدوة المحققين، جـادل فرق المشركين، وأبطل مـذاهبهم الزائغة بالحـجج الدامـغة. ولذلك عقّب ذكره بتزييف مذاهب المشركين. أو: لأنه كان وحده مؤمناً وسائر الناس كفاراً. قاله البيضاوي. وكان ﴿ قانتاً لله ﴾؛ مطيعاً قائماً بأوامره، ﴿ حنيفاً ﴾؛ مائلاً عن الباطل، ﴿ ولم يَكُ من المشركين ﴾، وأنتم يا معشر قريش تزعمون أنكم على دينه، وأنتم مشركون.

وكان ﴿ شاكراً لأنعُمِه ﴾، لا يخل بشكر قليل منها ولا كثير. ولذلك ذكرها بلفظ جمع القلة، ﴿ اجتباه ﴾: اختاره للنبوة والرسالة والخلة. ﴿ وهداه إلى صراط مستقيم ﴾؛ التي توصل إلى حضرة النعيم، ودعا إليها، ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾؛ بأن حببناه إلى كافة الخلق، ورزقناه الثناء الحسن في الملل كلها، حتى إنّ أرباب

---

(١) من الآية ١٢٤ من سورة البقرة.
(٢) البيت للحسن بن هانئ، المعروف بأبي نُواس.

الملك والجبابرة يتولونه ويثنون عليه. ورزقناه أولاداً طيبة، وعمراً طويلا في الطاعة والمعرفة، ومالاً حلالا. ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ لحضرتنا، المقربين عندنا، اللذين لهم الدرجات العلا؛ كما سأله ذلك بقوله: ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾(١).

﴿ ثم أوحينا إليك ﴾ يا محمد ﴿ أن اتبعْ ملةَ إبراهيم ﴾ ؛ دينه ومنهاجه في التوحيد، والدعوة إليه بالرفق، والمجادلة بالتي هي أحسن، كل واحد بحسب فهمه. وكان ﴿ حنيفاً ﴾ ؛ مائلاً عما سوى الله، ﴿ وما كان من المشركين ﴾ ، بل كان قدوة الموحدين. كرره؛ رداً على اليهود والنصارى والمشركين في زعمهم أنهم على دينه مع إشراكهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من تمسك بطاعة الله ظاهراً، أو مال عما سوى الله باطناً، وشكر الله دائماً، ودعا الناس إلى هذا الأمر العظيم: كان ولياً إبراهيمياً، محمدياً، خليلاً حبيباً، مقرباً، قد اجتباه الحق تعالى إلى حضرته، وهداه إلى صراط مستقيم، وعاش في الدنيا سعيداً، ومات شهيداً، وألحق بالصالحين. جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه.

ولما ادَّعَتِ اليهود أنها على ملة إبراهيم دون غيرها، ردّ الله عليهم بأن السبت ليس من ملته، فقال:

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنما جُعِلَ السبتُ ﴾ أي: فُرض تعظيمه وإفراده للعبادة، ﴿ على الذين اختلفوا فيه ﴾ على نبيهم، وهم: اليهود؛ أمرهم موسى عليه السلام أن يتفرغوا للعبادة يوم الجمعة، فأبوا وقالوا: نريد يوم السبت؛ لأنه تعالى فرغ فيه من خلق السموات والأرض، فألزمهم الله السبت، وشدّد عليهم فيه. وقيل: لما أمرهم بيوم الجمعة، قَبِلَ بعضهم، وأبى أكثرهم، فاختلفوا فيه. وقيل: اختلافهم: هو أن منهم من حرَّم الصيد فيه، ومنهم من أحله، فعاقبهم الله بالمسخ. والتقدير على هذا: إنما جعل وبال السبت ـ وهو المسخ، (على الذين اختلفوا) ؛ فأحلوا فيه الصيد تارة، وحرموه أخرى، أو أحله بعضهم، وحرمه بعضهم، وذكرهم هنا؛ تهديداً للمشركين، كذكر القرية التي كفرت بأنعم الله، ﴿ وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ ؛ فيجازي كل فريق بما يستحقه، فيثيب المطيع، ويعاقب العاصي.

الإشارة: الاختلاف على الأكابر؛ كالشيوخ والعلماء، والتقدم بين أيديهم بالرأي والكلام، من أقبح المساوىء، وسو الأدب يوجب لصاحبه العطب؛ كالقطع عن الله، والبعد من ساحة حضرته. قال بعضهم: إذا جالست الكبراء؛ فدع ما تعلم لما لا تعلم؛ لتفوز بالسر المكنون. والله تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٨٣ من سورة الشعراء.

ثم أمر نبيه بالدعوة إلى الله، فقال:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ادْعُ ﴾ يامحمد الناسَ ﴿ إلى سبيل ربك ﴾؛ إلى طريقه الموصل إليه، وهو: الإسلام والإيمان، والإحسان؛ لمن قدر عليه، ﴿ بالحكمة ﴾؛ بسياسة النبوة، أو بالمقالة المحكمة، وهو الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة، ﴿ والموعظة الحسنة ﴾؛ مواعظ القرآن ورقائقه، أو الخطابات المقنعة والعبر النافعة، ﴿ وجادلهم ﴾ أي: جادل معاندتهم ﴿ بالتي هي أحسن ﴾؛ بالطرق التي هي أحسن طرق المجادلة؛ من الرفق واللين، وإيثار الوجه الأيسر، والمقدمات التي هي أشهر؛ فإن ذلك أنفع في تليين لهبهم، وتبيين شغبهم، فالأولى: لدعوة خواص الأمة الطالبين للحق. والثانية: لدعوة عوامهم، والثالثة: لدعوة معاندهم.

قال ابن جزي: الحكمة هي: الكلام الذي يظهر جوابه، والموعظة: هي: الترغيب والترهيب. والجدال هو: الرد على الخصم. وهذه الأشياء الثلاثة يسميها أهل العلوم العقلية بالبرهان والخطابة والجدل، وهذه الآية تقتضي مهادنة نُسخت بالسيف. وقيل: إن الدعاء بهذه الطريقة، من التلطف والرفق، غير منسوخ، وإنما السيف لمن لا تنفعه هذه الموعظة من الكفار، وأما العصاة فهي في حقهم مُحكمة إلى يوم القيامة باتفاق. هـ.

﴿ إنّ ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ أي: إنما عليك البلاغ والدعوة. وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فليس من شأنك، بل الله أعلم بالضالين والمهتدين، وهو المجازي للجميع.

الإشارة: الدعاء بالحكمة هو الدعاء بالهمة والحال، يكون من أهل الحق والتحقيق؛ لأهل الصدق والتصديق. والدعاء بالموعظة الحسنة هو الدعاء بالمقال من طريق الترغيب والتشويق، يكون لأهل التردد في سلوك الطريق. والدعاء بالمجادلة الحسنة هو الدعاء بالوعظ والتذكير. وذِكْرُ بيانِ الطريق، وفضيلة علم التحقيق، يكون لأهل الإنكار؛ إن وصلوا إلى أهل التحقيق. والحاصل: أن الدعاء بالحكمة: لأهل المحبة والتصديق. والدعاء بالموعظة: لأهل التردد في الطريق. والدعاء بالمجادلة: لأهل الإنكار؛ حتى يعرفوا الحق من الباطل. وإن شئت قلت: الدعاء بالحكمة هو للعارفين الكبار، والدعاء بالموعظة الحسنة هو لأهل الوعظ والتذكار من الصالحين الأبرار، والدعاء بالمجادلة الحسنة هو للعلماء الأخيار. وقد تجتمع في واحد؛ إن جمع بين الظاهر والباطن. والله تعالى أعلم.

ولما أمره بالدعوة العامة أمره بالصبر العام؛ لأن الدعوة لا تنفك عن الأذى، فيحتاج صاحبها إلى صبر كبير، فقال:

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإنْ عاقبتم ﴾ من آذاكُمْ ﴿ فعاقبوا بمثل ما عُوقبتم به ﴾ أي: إن صنع بكم صنيع سوء فافعلوا مثله، ولا تزيدوا عليه. والعقوبة، في الحقيقة، إنما هي في الثانية. وسميت الأولى عقوبة؛ لمشاكلة اللفظ. وقال الجمهور: إن الآية نزلت في شأن حمزة بن عبدالمطلب، لما بقَر المشركون بطنه يوم أحد، قال النبي ﷺ: «لئن أظفرَني الله بِهِمْ لأُمَثِّلَنَّ بسبْعِينَ منهم». فنزلت الآية(١)، فكفَّر النبيُّ ﷺ عن يمينه، وترك ما أراد من المُثْلَةِ. ولا خلاف أن المثلة حرام، وقد وردت أحاديث بذلك. ومقتضى هذا: أن الآية مدنية. ويحتمل أن تكون الآية عامة، ويكون ذكرهم حمزة على وجه المثال. وتكون، على هذا، مكية كسائر السورة.

واختلف العلماء فيمن ظلمه رجل في مال، ثم ائتمن عليه، هل يجوز خيانته، في القدر الذي ظلمه فيه؟ فأجاز ذلك قوم؛ لظاهرالآية، ومنعه مالك؛ لقوله ﷺ: «أَدِّ الأَمَانَةَ لِمَنْ ائْتَمَنَك، ولا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»(٢). قاله ابن جزي.

﴿ ولئن صبرتم ﴾، ولم تعاقبوا من أساء إليكم، ﴿ لهو ﴾ أي: الصبر ﴿ خيرٌ للصابرين ﴾؛ فإن العقوبة مباحة، والصبر أفضل من الانتقام، ويحتمل أن يريد بالصابرين هنا العموم، أو يريد المخاطبين، كأنه قال: فهو خير لكم.

ثم صرح بالأمر لرسوله به؛ لأنه أولى الناس به؛ لزيادة علمه بالله، فقال: ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾؛ إلا بتوفيقه وتثبيته. رُوي أنه ﷺ قال لأصحابه: «أما أنا فأصبر كما أمرت، فماذا تصنعون؟» قالوا: نصبر كما ندبنا. ﴿ ولا تحزنْ عليهم ﴾؛ على الكافرين؛ حيث لم يؤمنوا؛ حِرْصاً عليهم. أو على المؤمنين؛ لأجل ما فعل بهم. ﴿ ولا تَكُ في ضيق مما يمكرون ﴾ أي: لا يضيق صدرك بمكرهم، ولا تهتم بشأنهم، فأنا ناصرك عليهم. والضيق ـ بفتح الضاد مُخَفَّفاً ـ من ضيِّقٍ؛ كمَيْتٍ ومَيِّتٍ. وقرئ بالكسر، وهو مصدر. ويجوز أن يكون الضيق والضيق مصدرَيْن، معاً، لِضاق.

---

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٩١) عن ابن عباس. وأخرجه البزار (كشف الأستار، ٣٢٧/٢) في سياق أطول، عن أبي هريرة، وراجع طبقات ابن سعد (١٢/٣ ـ ١٣) وتفسير ابن كثير (٥٩٢/٢).

(٢) أخرجه أبو داود في (البيوع والإجارات، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده)، والترمذي في (البيوع، ح ١٢٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ إنَّ الله مع الذين اتقوا ﴾ الكفر والمعاصى، ﴿ والذين هم محسنون ﴾ فى أعمالهم، فهو معهم بالولاية والنصر والرعاية والحفظ. أو مع الذين اتقوا الله بتعظيم أمره. والذين هم محسنون بالشفقة على خلقه. أو مع الذين اتقوا ما يقطعهم عن الله، والذين هم محسنون بشهود الله كما قال النبى ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه». فهو معهم بالمحبة والوداد؛ «فإذا أحببته كنت له». والله تعالى أعلم.

الإشارة: من شأن الصوفية: الأخذ بالعزائم، والتمسك بالأحسن فى كل شيء، ممتثلين لقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾(١). ولذلك قالوا: الصوفي: دمه هدر، وماله مباح؛ لأنه لا ينتصر لنفسه، بل يدفع بالتى هى أحسن السيئة. فالصبر دأبهم، والرضى والتسليم خُلقهم.

وحقيقة الصبر هى: حبس القلب على حكم الرب، من غير جزع ولا شكوى. **ومواطنه أربعة**: الطاعة، والمعصية، والنعمة، والبلية. فالصبر على الطاعة: بالمبادرة إليها، وعن المعصية: بتركها، وعلى النعمة: بشكرها، وأداء حق الله فيها، وعلى البلية: بالرضى وعدم الشكوى بها.

وأقسام الصبر ستة: صبر فى الله، وصبر لله، وصبر مع الله، وصبر بالله، وصبر على الله، وصبر عن الله. أما الصبر فى الله: فَهُوَ الصبر فى طلب الوصول إلى الله، بارتكاب مشاق المجاهدات والرياضات. وهو صبر الطالبين والسائرين. وأما الصبر لله: فهو الصبر على مشاق الطاعات وترك المذهبات ونزول البليات، يكون ذلك ابتغاء مرضاة الله، لا لطلب أجر ولا نيل حظ. وهو صبر المخلصين. وأما الصبر مع الله: فهو الصبر على حضور القلب مع الله، على سبيل الدوام؛ مراقبة أو مشاهدة. فالأول: صبر المحبين، والثانى: صبر المحبوبين.

وأما الصبر بالله: فهو الصبر على ما ينزل به من المقادير، لكنه بالله لا بنفسه، وهو صبر أهل الفناء من العارفين المجذوبين السالكين. وأما الصبر على الله: فهو الصبر على كتمان أسرار الربوبية عن غير أهلها، أو الصبر على دوام شهود الله. وأما الصبر عن الله: فهو الصبر على الوقوف بالباب عند جفاء الأحباب، فإذا كان العبد فى مقام القرب واجداً لحلاوة الأنس، مشاهداً لأسرار المعانى، ثم فقد ذلك من قلبه، وأحس بالبعد والطرد ـ والعياذ بالله ـ فليصبر، وليلزم الباب حتى يمن الكريم الوهاب، ولا يتزلزل، ولا يتضعضع، ولا يبرح عن مكانه، مبتهلاً، داعياً إلى الله، راجيًا كرم مولاه، فإذا استعمل هذا فقد استعمل الصبر؛ قياماً بأدب العبودية. وهو أشد الصبر وأصعبه، لا يطيقه إلا العارفون المتمكنون، الذين كملت عبوديتهم، فكانوا عبيداً لله فى جميع الحالات، قرَّبهم أو أبعدهم.

رُوِىَ أن رجلا دخل على الشبلى رضي الله عنه، فقال: أى صبر أشد على الصابر؟ فقال له الشبلى: الصبر فى الله، قال:

(١) من الآية ١٨ من سورة الزمر.

لا، قال: الصبر لله، قال: لا، قال: الصبر مع الله، قال: لا، فقال له: وأي شيء هو؟ فقال: الصبر عن الله. فصاح الشبلي صيحة عظيمة، كادت تتلف فيها روحه. هـ. لأن الحبيب لا يصبر عن حبيبه. لكن إذا جفا الحبيب لا يمكن إلا الصبر والوقوف بالباب، كما قال الشاعر:

إنْ شَكَوْتَ الهوَى، فما أنت منّا ... احْمِلِ الصَّدَ والجفاء، يا مُعَنّا

وقال رجل لأبى محمد الحريرى رضي الله عنه: كنت على بساط الأنس، وفتح على طريق البسط، فزلت زلة، فحجبت عن مقامى، فكيف السبيل إليه؟ دلنى على الوصول إلى ما كنت عليه. فبكى أبو محمد وقال: يا أخى، الكل فى قهر هذه الخطة، لكنى أنشدك أبياتاً لبعضهم، فأنشأ يقول:

قف بالديار؛ فهـذه آثارهم ... تبكى الأحبة؛ حسرة وتشوقا

كم قد وقفتُ بربعها مستخبرا ... عن أهله؛ أو سائلا، أو مشفقا

فأجابنى داعى الهوى فى رسمها ... فارقتَ من تهوى؛ فعز الملتقَى

ومن هذا المعنى قضية الرجل الذى بقى فى الحرم أربعين سنة يقول: لبيك. فيقول له الهاتف: لا لبيك ولا سعديك، وحجك مردود عليك. فقيل له فى ذلك، فقال: هذه بابه، وهل ثَمّ باب أخرى أقصده منها؟ فقبله الحق تعالى، ولبى دعوته. وكذلك قضية الرجل الذى قيل له، من قِبل الوحى: إنك من أهل النار؛ فزاد فى العبادة والاجتهاد. فهذا كله يصدق عليه الصبر عن الله. لكن لا يفهم كماله إلا من كملت معرفته، وتحقق بمقام الفناء، فحينئذ قد يسهل عليه أمره؛ لكمال عبوديته، كما قال القائل:

وَكُنْتُ قَدِيمًا أَطْلُبُ الوَصْلَ مِنْهُمُ ... فَلَمَّا أَتَانِى العِلْمُ وارْتَفَعَ الجَهْلُ

تَيَقنت أَنَّ العَبْدَ لا طَلَبَ لَهُ ... فَإِنْ قَرّبوا: فَضْلٌ، وإِنْ بَعّدُوا: عَدْلُ

وإنْ أظْهَرُوا لَمْ يُظْهِرُوا غَيْرَ وَصْفِهِمْ ... وإِنْ سَتَرُوا فالسَتْرُ مِنْ أَجْلِهِمْ يَحْلُو

وأما من لم تكمل معرفته، فقد ينكره ويذمه، كالعباد والزهاد والعشاق، فإنهم لا يطيقونه، فإما أن يختل عقلهم، أو يرجعون إلى الانهماك فى البطالة. والله تعالى أعلم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

• • •


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



سورة الإسراء

مكية، إلا قوله: ﴿ وإن كادوا ليفتنونك . . . ﴾ الآيات الثمان. وهي: مائة وعشر آيات. وكأنّ وجه المناسبة لِمَا قبله قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾[1]، إشارة إلى أن مَن اتقى الله، وحصَّل مقام الإحسان، أسرى بروحه إلى عالم الملكوت وأسرار الجبروت. وافتتح السورة بالتنزيه، لئلا يتوهم الجهال أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عرج به للقاء الحق تعالى فى جهة مخصوصة، فنزه الحقُّ تعالى نفسه، فى افتتاح سورة الإسراء؛ دفعاً لهذا الإيهام، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (١) ﴾

قلت: «سبحان»: مصدر غير متصرف، منصوب بفعل واجب الحذف، أى: أسبحُ سبحان. وهو بمعنى التسبيح، أى: التنزيه، وقد يستعمل علَماً له، فيقطع عن الإضافة ويمنع الصرف، كقول الشاعر:

قَدْ أَقُولُ لَمَّا جَاءَنِى فَخْرُهُ ... سُبْحَانَ مِنْ عَلْقَمَةَ الْفَاخِرِ[2]

و «ليلاً»: منصوب على الظرفية لأسرى. وفائدة ذكره، مع أن السرى هو السير بالليل، ليفيد التقليل، ولذلك نكّره، كأنه قال: أسرى بعبده مسيرة أربعين ليلة فى بعض الليل، وذلك أبلغ فى المعجزة. ويقال: أسرى وسرى، رباعياً وثلاثيا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ﴾ وهو: نبينا محمد ﷺ، أى: تنزيهًا له عن الأماكن والحدود والجهات، إذ هو أقرب من كل شيء إلى كل شيء. وإنما وقع الإسراء برسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليقتبس أهلُ العالم العلوي، كما اقتبس منه أهل العالم السفلي، فأسرى به ﴿ ليلاً من المسجد الحرام ﴾ بعينه؛ لِمَا رُوى أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: « بَيْنَما أنَا فى المسْجِدِ الحرَامِ فى الحِجْرِ، عِنْدَ البَيْتِ، بيْنَ النَّائِمِ واليقْظَانِ، إذْ أتَانِى جِبْرِيلُ بالبرَاقِ»[3].

(١) من الآية ١٢٨ من سورة النحل.
(٢) البيت للأعشى. انظر ديوانه، ص٩٣، ولسان العرب (سبح).
(٣) أخرجه بطوله البخارى فى مواضع، منها: (مناقب الأنصار، باب المعراج)، ومسلم فى (الإيمان، باب الإسراء)، من حديث أنس ابن مالك عن مالك بن صعصعة.

أو: من الحرم؛ لِمَا رُوي أنه كان نائماً في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء، فأُسْرِيَ به، وسماه مسجداً؛ لأن الحرم كله مسجد. قاله البيضاوي. قلت: والظاهر أنه وقع مرتين: مرة بجسده من البيت، ومرة بروحه من بيت أم هانئ. والله تعالى أعلم بما كان.

قال في المستخْرج من تفسير الغزنوني وغيره: قيل: كان رؤيا صادقة، وقيل: أسرى بروحه، وهو خلاف القرآن، وإن أسند إلى عائشة - رضي الله عنها -، والجمهور على ما رواه عامة الصحابة، دخل كلام بعضهم في بعض، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أتاني جبريل عليه السلام، وإذا دابة فوق الحمار ودون البغل، خطوها مد بصرها، فمرّ بي بين السماء والأرض إلى بيت المقدس، فنَشِرَ لي رَهْط من الأنبياء، فصليت بهم. وإذا أنا بالمعراج، وهو أحسن ما رأيت، فعرج بي، فرأيت في سماء الدنيا رجلاً أعظم الناس وجهاً وهيكلاً، فقيل: هذا أبوك آدم، وفي السماء الثانية شابيْن، فقيل: هما يحيى وعيسى، وفي الثالثة رجلاً أفضل الناس حُسناً، فقيل: أخوك يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون، وفي السادسة موسى، وفي السابعة إبراهيم - صلوات الله على جميعهم. فانتهيتُ إلى سدرة المنتهى، فَغَشيَتْهَا ملائكةٌ، كأنهم جراد من ذهب، فرأيتُ جبريل عليه السلام يتضاءل كأنه صَعْوة - أي: عصفور- فتخلف، وقال: وما منا إلا له مقام معلوم، فجاوزت سبعين حجاباً، ثم احتملني الرفرف إلى العرش، فنُوديتُ: حَيِّ ربك. فقلت: لا أُحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»(١). فلما أخبر بما رأى كذَّبه أهل مكة، ولو كان في النوم ما أنكره المشركون. وقيل: كانا معراجين، بمكة والمدينة، في النوم واليقظة .هـ.

قلت: وقوع المعراج بالمدينة غريب. قال المهدوي: مرْتَبة الإسراء بالجسم إلى تلك الحضرات العلِيَة خاصة بنبينا، لم يكن لغيره من الأنبياء. وعدَّه السيوطي من الخصائص. قال ابن جزي: وحجة الجمهور: أنه لو كان مناماً، لم تُنكره قريش، ولم يكن في ذلك ما يُكذَّبُ، ألا ترى أن أُم هانئ قالت له - عليه الصلاة والسلام: (لا تُخبر بذلك أحدا). وحجة من قال إنه كان مناماً: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾(٢)، وإنما يقال: الرؤيا، في المنام، ويقال، فيما يرى بالعين: رؤية، وقوله، في آخر حديث الإسراء: «فاستيقظتُ وأنا في المسجد الحرام». ثم قال: وقد يجمع بينهما بأنه وقع مرتين(٣). هـ.

وقوله تعالى: ﴿إلى المسجد الأقصى﴾ هو: بيت المقدس؛ لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد، ﴿الذى باركنا حوله﴾ ببركات الدين والدنيا؛ لأنه مهبط الوحي ومتعبد الأنبياء، ومحفوف بالأنهار والأشجار والثمار. أسرينا

---

(١) أخرج حديث الإسراء والمعراج، برواياته المتعددة، وطرقه؛ البخاري في (الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء)، و(بدء الخلق، باب ذكر الملائكة)، و(مناقب الأنصار، باب المعراج). ومسلم في (الإيمان، باب الإسراء).

(٢) من الآية ٦٠ من سورة الإسراء. (٣) وهذا هو الصواب.

به؛ ﴿ لِنُرِيَه من آياتنا ﴾ الدالة على عجائب قدرتنا، ونكشفَ له عن أسرار ذاتنا، فأطْلعه الله على عجائب الملكوت، وأراه سنَا الجبروت. روَى عكرمةُ عن ابن عباس: أنه قال: قد رأى محمدٌ ربه، قلت: أليس الله يقول: ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ﴾(١)، قال: ويحك، ذلك إذا تجلى بنوره الذى هو نوره، وقد رأى ربه مرتين.هـ. قلت: معنى كلامه: أنه إذا تجلى بنوره الأصلى، من غير واسطة، لا يمكن إدراكه، وأما إذا تجلى بواسطة المظهر فإنه يُمكن إدراكه، والحاصل: أن الحق تعالى إنما يتجلى على قدر الرائى، لا على قدره؛ إذ لا يطيقه أحد. وسيأتى، فى الإشارة، بقية الكلام عليه، إن شاء الله.﴿ إنه هو السميعُ البصير ﴾ أى: السميع لأقوال حبيبه فى حال مناجاته، البصيرُ بأحواله، فيكرمه ويُقربه على حسب ذلك.

الإشارة: قال بعض الصوفية: إنما قال تعالى: ﴿ بعبده ﴾، ولم يقل: بنبيه: ولا برسوله؛ ليدل على أن كل من كملت عبوديته كان له نصيب من الإسراء. غير أن الإسراء بالجسد مخصوص به ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وأما الإسراء بالروح فيقع للأولياء؛ على قدر تصفية الروح، وغيبتها عن هذا العالم الحسى، فتعرج أفكارهم وأرواحهم إلى ما وراء العرش، وتخوض فى بحار الجبروت، وأنوار الملكوت، كلٌ على قدر تخليته وتحليته. وإنما خص الإسراء بالليل؛ لكونه محل فراغ المناجاة والمواصلات، ولذلك رتب بعثه مقاماً محموداً على التهجد بالليل فى هذه السورة. قاله المحشى.

وقوله تعالى: ﴿ سبحان الذى أسرى ﴾، قال الورتجبى: أى: تنزه عن إشارة الجهات والأماكن فى الفوقية، وما يتوهم الخلق؛ من أنه إذ أوْصل عبده إلى وراء الوراء، أنه كان فى مكان، أى: لا تتوهموا برفع عبده إلى ملكوت السموات، أنه رفع إلى مكان، أو هو فى مكان، فإن الأكوان والمكان أقل من خردلة فى وادى قدرته، أى: فى بحر عظمته؛ ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «الكون فى يمين الرحمن أقل من خردلة». والعِندية والفوقِية منه، ونزّه نفسه عن أوهام المشبّهات، حيث توهموا أنه أسرى به إلى المكان، أى: سبحان من تنزه عن هذه التهمة . هـ. وقال القشيرى: أرسله الحق تعالى؛ ليتعلم أهلُ الأرض منه العبادة، ثم رقَّاه إلى السماء ليتعلمَ منه الملائكةُ ـ عليهم السلام ـ آدابَ العبادة، قال تعالى: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾(٢)، وما التفتَ يميناً ولا شمالا، ما طمع فى مقام، ولا فى إكرام، تحرر عن كلِّ طلبٍ وأربٍ، تلك الليلة. هـ.

(١) من الآية ١٠٣ من سورة الأنعام.
(٢) من الآية ١٧ من سورة النجم.

قلت: ولذلك أكرمه الله تعالى بالرؤية، التي مُنع منها نبيه موسى عليه السلام، حيث وقع منه الطلب ، ربما دلهم الأدب على ترك الطلب ،، وقال الورتجبي: أسرى به عن رؤية فعله وآياته، إلى رؤية صفاته، ومن رؤية صفاته إلى رؤية ذاته، وأشهده مَشاهد جماله، فرأى الحق بالحق، وصار هنالك موصوفًا بوصف الحق، فكان صورتُه روحَه، وروحُه عقلَه، وعقلُه قلبَه، وقلبُه سرّه، فرأى الحق بجميع وجوده؛ لأن وجوده فانٍ بجميعه، فصار عيناً من عيون الحق، فرأى الحق بجميع العيون، وسمع خطابه بجميع الأسماع، وعرف الحق بجميع القلوب.هـ.

وقال، في قوله تعالى: ﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾: سبب بداية المعراج بالذهاب إلى المسجد الأقصى، لأن هناك الآية الكبرى؛ من بركة أنوار تجليه لأرواح الأنبياء وأشباحهم، وهناك بقربه طور سيناء، وطور زيتا، والمصيصة، ومقام إبراهيم وموسى وعيسى، وفي تلك الجبال مواضع كشوف الحق، ولذلك قال: (باركنا حوله)، انظر تمامه.

ولمّا كان لسيدنا موسى عليه السلام مزيد كلام ومراجعة مع نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ في قضية الإسراء، ذكره بإثره، فقال:

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾

قلت: (ذرية): منادى، أي: يا ذرية من حملنا مع نوح، والمراد: بني إسرائيل. وفي ندائهم بذلك: تلطف وتذكير بالنعم، وقيل: مفعول أول بتتخذوا، أي: لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دوني وكيلاً، فتكون كقوله: ﴿ ولا يَأْمُرَكُمْ أن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾ (١).

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وآتينا موسى الكتابَ ﴾ التوراة ﴿ وجعلناه ﴾ أي: التوراة ﴿ هُدىً لبني إسرائيل ﴾ ، وقلنا: ﴿ ألا تتخذوا من دوني وكيلاً ﴾ تُفوضون إليه أموركم، وتُطيعونه فيما يأمركم. بل فوضوا أُموركم إلى الله، واقصدوا بطاعتكم وجه الله، يا ﴿ ذريةَ مَنْ حملنا مع نوح ﴾ ، فاذكروا نعمة الإنجاء من الغرق، وحملَ أسلافكم في سفينة نوح، ﴿ إنه كان عبداً شكوراً ﴾ ؛ يحمد الله ويشكره في جميع حالاته. وفيه إيماء بأن إنجاءه ومن معه كان ببركة شكره، وحَثٌّ للذرية على الاقتداء به. والله تعالى أعلم.

الإشارة: المقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب هو، إفراد الوجهة إلى الحق، ورفعُ الهمة عن الخلق، حتى لا يبقى الركون إلا إليه، ولا الاعتماد إلا عليه، وهو مقتضى التوحيد. قال تعالى: ﴿ لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴾(٢). وبالله التوفيق.

---
(١) من الآية ٨٠ من سورة آل عمران.
(٢) من الآية ٩ من سورة المزمل.

ثم ذكر ما أحدث بنو إسرائيل، وما جرى عليهم في القضاء السابق، فقال:-

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل ﴾ أي: أخبرناهم وأوحينا إليهم ﴿ في الكتاب ﴾؛ التوراة، وقلنا: والله ﴿ لتُفسدُنّ في الأرض مرتين ﴾ الخ. أو: قضينا عليهم ﴿ في الكتاب ﴾؛ اللوح المحفوظ، ﴿ لتفسدُنّ في الأرض مرتين ﴾ أي: إفسادتين، أُولاهُمَا: مخالفة أحكام التوراة وقتل أشعياء، وقيل: أرمياء. وثانيتهما: قتل زكريا ويحيى، وقَصْدُ قتل عيسى عليه السلام، ﴿ ولتَعلُنّ علواً كبيراً ﴾؛ ولتستكبرن عن طاعة الله، أو لتظلمن الناس وتستعلون عليهم علواً كبيرا.

﴿ فإذا جاء وعدُ ﴾؛ عقاب ﴿ أُولاهما ﴾ أي: أول مرتي الإفساد؛ بأن أفسدوا في الأرض المرة الأولى ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا ﴾؛ بختنصر وجنوده ﴿ أولي بأس شديد ﴾؛ ذوي قوة وبطش في الحرب شديد، ﴿ فجاسوا ﴾؛ فترددوا لطلبكم ﴿ خلال الديار ﴾؛ وسطه، للقتل أو الغارة، فقتلوا كبارهم وسبوا صغارهم، وحرقوا التوراة، وخربوا المسجد. وفي التذكرة للقرطبي: أنه سلّط عليهم في المرة الأولى بخُتنصر، فسباهم، ونقل ذخائر بيت المقدس على سبعين ألف عَجَلَة، وبقوا في يده مائة سنة. ثم رحمهم الله تعالى وأنقذهم من يده، على يد ملك من ملوك فارس، ثم عصوا، فسلط عليهم ملك الروم قيصر. هـ. قال تعالى: ﴿ وكان وعداً مفعولاً ﴾ أي: وكان وعد عقابهم وعداً مقضياً لابد أن يُفعل.

﴿ ثم رددنا لكم الكرة ﴾ أي: الدولة والغلبة ﴿ عليهم ﴾ أي: على الذين بُعثوا عليكم، فرجع المُلك إلى بني إسرائيل، واستنقذوا أسراهم، فقيل: على يد «بهمَن بن اسفنديار»؛ ملك فارس، فاستنقذهم، ورد أسراهم إلى الشام، وملّكَ دَانْيال عليهم، فاستولوا على من كان فيها من أتباع بختنصر، وقيل: على يد داود عليه السلام حين قتل جالوت. قال تعالى: ﴿ وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثرَ نفيراً ﴾ أي: عدداً مما كنتم. والنفير: من ينفر مع الرجل من قومه، وقيل: جمع نَفَر، وهم: المجتمعون للذهاب إلى الغزو.

ثم قال تعالى لهم: ﴿ إنْ أحسنتم ﴾ بفعل الطاعة والعمل الصالح، ﴿ أَحْسَنْتُمْ لأنفسكم ﴾؛ لأن ثوابه لها، ﴿ وإن أسأتم فلها ﴾؛ فإنَّ وبالها عليها. وذكر باللام للازدواج. ﴿ فإذا جاء وعدُ الآخرة ﴾ أي: وعد عقوبة المرة الأخيرة، بأن أفسدوا في المرة الآخرة، بعثنا عليكم عباداً لنا آخرين، أولي بأس شديد ﴿ لِيَسُوؤا وجوهكم ﴾، يجعلوها تظهر فيها آثار السوء والشر، كالكآبة والحزن، كقوله: ﴿ سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾(١) ﴿ وليدخلوا المسجد ﴾؛ بيت المقدس ﴿ كما دخلوه أول مرة وليُتبروا ﴾؛ وليُهلكوا ﴿ ما عَلَوا ﴾ عليه ﴿ تتبيراً ﴾؛ إهلاكا، أو مدة علوهم. قال البيضاوي: وذلك بأن الله سلَّط عليهم الفرس مرة أخرى، فغزاهم ملكُ بابِل، اسمه «حَرْدُون»، وقيل: «حرْدوس»، قيل: دخل صاحب الجيش مَذبح قرابينهم، فوجد دماً يغلي، فسأل عنه، فقالوا: دم قربان لم يُقبل منا. فقال: ماصدقتموني، فقتل عليه ألوفًا منهم، فلم يهدأ الدم. ثم قال: إن لم تصدقوني ما تركت منكم أحداً، فقالوا: دم يحيى، فقال: لِمثل هذا ينتقم منكم ربكم، ثم قال: يا يحيى، قد علم ربي وربك ما أصاب قومك، فاهدأ بإذن الله، قبل ألاّ أُبقي منهم أحداً، فهدأ. هـ.

وقال السهيلي في كتاب «التعريف والإعلام»: المبعوث في المرة الأولى هم أهل بابل، وكان إذ ذاك عليهم «بختنصر»، حين كذَّبوا أرمياء وجرحوه وحبَسوه. وأما في المرة الأخيرة: فقد اختلف فيمن كان المبعوث عليهم، وأن ذلك كان بسبب قتل يحيى بن زكريا. فقيل: بختنصر، وهذا لا يصح؛ لأن قتل يحيى كان بعد رفع عيسى، وبختنصر كان قبل عيسى بزمان طويل.هـ. وقول الجلال السيوطي: وقد أفسدوا في الأولى بقتل زكريا، فبعث عليهم جالوت وجنوده، ولا يصح؛ لأنه يقتضي أن داود تأخر عن زكريا، وهو باطل.

ثم قال تعالى لبني إسرائيل: ﴿ عسى ربُكم أن يرحَمكم ﴾ بعد المرة الأخرى ويجبر كسركم، ﴿ وإن عُدتُم عُدْنَا ﴾ إلى عقوبتكم، وقد عادوا بتكذيب نبينا محمد ﷺ، وقصد قتله، فعاد إليهم بتسليطه عليهم، فقتل من بني قريظة سبعمائة في يوم واحد، وسبى ذراريهم، وباعهم في الأسواق، وأجلى بني النضير، وضرب الجزية على الباقين. هذا في الدنيا، ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين ﴾ منهم ومن غيرهم ﴿ حصيراً ﴾؛ محبسًا، لا يقدرون على الخروج منها، أبدَ الآباد. وقيل: بساطاً كبسط الحصير، كقوله: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾(٢). والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد قضى الحقُّ جل جلاله ما كان وما يكون في سابق علمه، فما من نفَس تُبديه إلا وله قدر فيك يُمضيه. فالواجب على العبد أن يكون ابن وقته، إذا أصبح نظر ما يفعل الله به. فأسرار القدر قد استأثر الله بعلمها،

(١) من الآية ٢٧ من سورة الملك.
(٢) من الآية ٤١ من سورة الأعراف.

وأبهم على عباده أمرها، فلو ظهرت لبطل سر التكليف. ولذلك لما سُئل عنه سيدنا على ـ كرم الله وجهه ـ قال للسائل: (بحر عميق لا تطيقه)، فأعاد عليه السؤال، فقال: (طريق مظلم لا تسلكه)؛ لأنه لا يفهم سر القضاء والقدر، إلا من دخل مقام الفناء والبقاء، وفرّق بين القدرة والحكمة، وبين العبودية والربوبية، فإذا تحقق العارف بالوحدة، علِم أنّ الحق تعالى أظهر من خلقه مظاهر أعدهم للإكرام، وأظهر خلقاً أعدهم للانتقام، وأبهم الأمر عليهم، ثم خلق فيهم كسباً واختياراً فيما يظهر لهم، وكلفهم؛ لتقوم الحجة عليهم، وتظهر صورة العدل فيهم. ﴿ولا يظلم ربك أحدا﴾. فالقدرة تُبرز ما سبق في الأزل، والحكمة تستر أسرار القدر. لكن جعل للسعادة علامات كالتوفيق والهداية للإيمان، وللشقاوة علامات؛ كالخذلان والكفران. نعوذ بالله من سوء القضاء وحرمان الرضا. آمين.

ومن علامة السعادة: التمسك بما جاء به القرآن العظيم، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

قلت: «وأنّ الذين»: إما عطف على «أن» الأولى، أو على «ويبشر» بإضمار يخبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنّ هذا القرآن يهدى للتى﴾؛ للطريق التى ﴿هى أقوم﴾ الطرق وأعدلها، ﴿ويُبشِّرُ المؤمنين الذين يعلمون﴾ الأعمال ﴿الصالحاتِ أنّ لهم أجراً كبيراً﴾ وهو: الخلود فى النعيم المقيم، وزيادة النظر إلى وجهه الكريم. ﴿و﴾ يخبر ﴿أنّ الذين لا يُؤمنون بالآخرة أعتدنا﴾ أى: أعددنا ﴿لهم عذاباً أليماً﴾، أو: ويبشر المؤمنين ببشارتين: ثوابهم، وعقاب أعدائهم.

الإشارة: لا شك أن القرآن يهدى إلى طريق الحق؛ إما إلى طريق تُوصل إلى نِعم جنانه، أو إلى طريق تُوصل إلى شهوده ودوام رضوانه، فالأولى طريق الشرائع والأحكام، والثانية طريق الحقائق والإلهام، لكن لا يدرك هذا من القرآن إلا من صفت مرآة قلبه بالمجاهدة والذكر الدائم، ولذلك أمر شيوخُ التربية المريد بالاشتغال بالذكر المجرد، حتى يُشرق قلبه بأنوار المعارف، ويرجع من الفناء إلى البقاء، ثم بعد ذلك يُمر بالتلاوة، ليذوق حلاوة القرآن، ويتمتع بأنواره وأسراره، وقد أنكر بعضُ من لا معرفة له بطريق التربية على الفقراء هذا الأمر ـ أعنى: ترك التلاوة فى بدايتهم ـ؛ محتجاً بهذه الآية، ولا دليل فيها عليهم؛ لأن كون القرآن يهدى للتى هى أقوم يعنى: التمسك والتدبر فى معانيه، ولا يصح ذلك على الكمال إلا بعد تصفية القلوب، كما هو مجرب، ولا ينكر هذا إلا من لا ذوق له فى علوم القوم، وربما يُذكر وجود التربية من أصلها، ويسد البابَ فى وجوه الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فإذا اتصل العبد بأهل هذا الطريق، ثم تأخر الفتح عنه، فلا يقنط ولا يستعجل، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله:

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

قلت: (دعاءه): مفعول مطلق. والإضافة في قوله: (آية الليل) و (آية النهار): بيانية، أي: فمحونا الآية التي هي الليل، وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة. وإذا أريد بالآيتين الشمس والقمر؛ تكون للتخصيص، أي: وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين، أو: وجعلنا الليل والنهار ذوى آيتين.. الخ، و (كل شيء): منصوب بفعل مضمر، يفسره ما بعده، وكذا: (وكل إنسان) و (يلقاه منشوراً): صفتان لكتاب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ويدعُ الإنسانُ ﴾ على نفسه وولده وماله ﴿ بالشرِّ ﴾ عند الغضب والقنط. ﴿ دعاءَهُ بالخير ﴾؛ مثل دعائه بالخير. وهو ذم له يدل على عدم صبره، وربما وافق وقت الإجابة فيهلك، ﴿ وكان الإنسانُ عَجُولاً ﴾؛ يسارع إلى كل ما يخطر بباله، لا ينظر عاقبته. ويجوز أن يريد بالإنسان الكافر، وبالدعاء استعجاله بالعذاب؛ استهزاء، كقول النضر بن الحارث: اللهم انصر خير الحزبين؛ ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ.. ﴾ الآية(١). وقيل: المراد بالإنسان: آدم عليه السلام، فإنه لما انتهى الروح إلى سُرَّته ذهب ليقوم، فسقط، وهو بعيد. فإذا نزلت بالإنسان قهرية فلا يقنط ولا يستعجل، فإنَّ وقت الفرج محدود، فالليل والنهار مطيتان، يُقربان كل بعيد، ويبليان كل جديد، ويأتيان بكل موعود.

ولذا قال تعالى إثره: ﴿ وجعلنا الليلَ والنهارَ آيتين ﴾ دالتين على كمال قدرتنا، وباهر حكمتنا، يتعاقبان على الإنسان، يُقربان له كل بعيد، ويأتيان له بكل موعود. ﴿ فمحونا آيةَ الليل ﴾ أي: فمحونا الآية التي هي الليل؛ بأن جعلناها مظلمة، لتسكنوا فيه، ﴿ وجعلنا آيةَ النهار مُبصرةً ﴾ أي: مضيئة مشرقة لتبتغوا؛ من فضله، أو: وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين، وهما: الشمس والقمر، ﴿ فمحونا آية الليل ﴾، وهو القمر؛ بأن جعلناه أطلس، لا نور فيه من ذاته، بل نوره مستمد من نور الشمس، ﴿ وجعلنا آية النهار ﴾، وهي الشمس ﴿ مبصرةً ﴾ للناس، أو مبصراً فيها بالضوء الذاتي، ﴿ لتبتغوا فضلاً من ربكم ﴾؛ لتطلبوا في بياض النهار أسباب معاشكم، ﴿ ولتعلموا ﴾؛

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال.

باختلافهما وبحركتهما، ﴿ عددَ السنينَ والحسابَ ﴾؛ وحساب الأوقات من الأشهر والأيام، في معاملتكم وتصرفاتكم، ﴿ وكلَّ شيء ﴾ تفتقرون إليه في أمر الدين والدنيا ﴿ فصَّلناه تفصيلاً ﴾؛ بيَّناه تبييناً لا لبس فيه، أو: وكل شيء يظهر في الوجود، فصّلناه وقدّرناه في اللوح المحفوظ تفصيلاً، فلا يظهر في عالم الشهادة إلا ما فُصل في عالم الغيب.

﴿ وكل إنسانٍ ألزمناه طائره ﴾ أي: حظه وما قُدر له من خير وشر، فهو لازم ﴿ في عُنقه ﴾؛ لاينفك عنه. ويقال لكل ما لزم الإنسان: قد لزم عنقه. وإنما قيل للحظ المقدر في الأزل من الخير والشر: طائر؛ لقول العرب: جرى لفلان الطائر بكذا من الخير والشر، على طريق الفأل والطيرة، فخاطبهم الله بما يستعملون، وأعلمهم أن ذلك الأمر الذي يجعلونه بالطائر هو ملزم لأعناقهم، لا محيد لهم عنه، كالسلسلة اللازمة للعنق، يُجر بها إلى ما يُراد منه. ومثله: ﴿ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾(١)، وقال مجاهد: «ما من مولود يولد إلا في عنقه ورقة، مكتوب فيها شقي أو سعيد». أو: وكل إنسان ألزمناه عمله؛ يحمله في عنقه، ﴿ ونُخرج له يوم القيامة كتاباً ﴾ مكتوب فيه عمله، وهو صحيفته. ﴿ يلقاه منشوراً ﴾، ويقال له: ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليومَ عليك حسيباً ﴾؛ محاسباً، لا تحاسبك إلا نفسك، أو: رقيباً وشهيداً على عملك، أو: لا يعّد عليك أعمالك إلا نفسك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للإنسان أن يكون داعياً بلسانه، مفوضاً لله في قلبه، لا يعقد على شيء من الحظوظ والمآرب، فقد يدعو بالخير في زعمه، وهو شر في نفس الأمر في حقه، وقد يدعو بالشر وهو خير. وقد تأتيه المضار من حيث يرتقب المسار، وقد تأتيه المسار من حيث يخاف الضرر؛ ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾. فالتأني والسكون من علامة العقل، والشَرَّهُ والعَجلَة من علامة الحمق. فما كان من قسمتك لابد يأتيك في وقته المقدر له، وما ليس من قسمتك لا يأتيك، ولو حرصت كل الحرص. فكل شيء سبق تفصيله وتقديره، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلوم إلا نفسه، كما قال تعالى:

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

(١) من الآية ١٣١ من سورة الأعراف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿من اهتدى﴾ وآمن بالله وبما جاءت به الرسل ﴿فإنما يهتدى لنفسه﴾؛ لأن ثواب اهتدائه له، لا يُنجي اهتداؤه غيره، ﴿ومن ضلَّ﴾ عن طريق الله ﴿فإنما يضلُّ عليها﴾؛ لأن إثم إضلاله على نفسه، لا يضر به غيره في الآخرة، ﴿ولا تزر﴾ أي: لا تحمل نفس ﴿وازرةٌ﴾؛ آثمة ﴿وِزرَ﴾ نفس ﴿أخرى﴾ أي: ذنوب نفس أخرى، بل إنما تحمل وزرها، إلا من كان إماماً فى الضلالة، فيحمل وزره ووزر مَن تبعه، على ما يأتى فى آية أخرى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾(١).

ومن كمال عدله تعالى: أنه لا يُعذِّب حتى يُنذر ويُعذر على ألسنة الرسل، كما قال تعالى: ﴿وما كنا مُعذبين﴾ أحداً فى الدنيا ولا فى الآخرة ﴿حتى نبعث رسولاً﴾ يُبين الحجج، ويمهد الشرائع، ويلزمهم الحجة.

وفيه دليل على أن لا حُكم قبل الشرع، بل الأمر موقوف إلى وروده، فمن بلغته دعوته، وخالف أمره، واستكبر عن اتباعه، عذبناه بما يستحقه. وهذا أمر قد تحقق بإرسال آدم عليه السلام ومن بعده من الأنبياء الكرام ـ عليهم السلام ـ فى جميع الأمم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً﴾(٢)، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(٣)، فإن دعوتهم إلى الله قد انتشرت، وعمت الأقطار، واشتهرت، انظر إلى قول قريش الذين لم يأتهم نبى بعد إسماعيل عليه السلام: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ﴾(٤)، فإنه يُفهم منه أنهم سمعوه فى الملة الأولى، فمن بلغته دعوة أحد منهم، بوجه من الوجوه، فقصَّر، فهو كافر مستحق للعذاب. فلا تغتر بقول كثير من الناس بنجاة أهل الفترة، مع إخبار النبى ﷺ أن آباءهم، الذين مضوا فى الجاهلية، فى النار، وأن ما يدحرج من الجُعَل(٥) خير منهم، إلى غير ذلك من الأخبار. قاله البقاعى.

وقال الإمام أبو عبدالله الحليمى ـ أحد أجلاء الشافعية، وعظماء أئمة الاسلام ـ فى أول منهاجه، فى باب: «من لم تبلغه الدعوة»: وإنما قلنا: إن من كان منهم عاقلاً مميزاً إذا رأى ونظر، إلا أنه لا يعتقد ديناً فهو كافر؛ لأنه، وإن لم يكن سمع دعوة نبينا محمد ﷺ، فلا شك أنه سمع دعوة أحد من الأنبياء قبله، على كثرتهم وتطاول أزمان دعوتهم، ووفور مَددِ الذين آمنوا واتبعوهم، والذين كفروا بهم وخالفوهم، فإنَّ الخبر قد يبلغ على لسان المخالف، كما

(١) من الآية ١٢ من سورة العنكبوت.
(٢) من الآية ٣٦ من سورة النحل.
(٣) من الآية ٢٤ من سورة فاطر.
(٤) من الآية ٧ من سورة ص.
(٥) الجعل: حيوان معروف كالخنفساء ... انظر: النهاية فى غريب الحديث (جعل).

يبلغ على لسان الموافق، وإذا سمع أيَّةَ دعوة كانت إلى الله تعالى، فترك أن يستدل بعقله، كان مُعْرِضاً عن الدعوة فكفر، والله أعلم. وإن أمكن أن يكون لم يسمع قط بدين، ولا بدعوة نبي، ولا عرف أن في العالم من يُثبت إلهاً، وما نرى أن ذلك يكون، فأمره على الاختلاف، يعني: عند من يُوجب الإيمان بمجرد العقل، ومن لا يُوجبه إلا بانضمام النقل.هـ.

وقال الزركشي، في آخر باب النيات، من شرحه على المنهاج: وقد أشار الشافعي إلى عسر تصور عدم بلوغ الدعوة، حيث قال: وما أظن أحداً إلا بلغته الدعوة، إلا أن يكون قوم من وراء النهر. وقال الدميري: وقال الشافعي: ولم يبق أحد لم تبلغه الدعوة. انتهى؛ على نقل شيخ شيوخنا سيدي عبدالرحمن الفاسي رضي الله عنه.

ثم قال تعالى: ﴿ وإذا أردنا أن نُهلك قريةً ﴾ أي: تعلقت إرادتنا بإهلاكها؛ لإنفاذ قضائنا السابق، ودنا وقتُ إهلاكها، ﴿ أمرنا مُتْرفيها ﴾؛ منعميها، بمعنى رؤسائها؛ بالطاعة على لسان رسول بعثناه إليهم، ويدل على ذلك ما قبله وما بعده، فإن الفسق هو الخروج عن الطاعة، لقوله: ﴿ ففسقُوا فيها ﴾؛ خرجوا عن أمرنا. وقيل: أمرناهم: ألهمناهم الفسق وحملناهم عليه، أو: جعلنا لهم أسباب حملهم على الفسق؛ بأن صببنا عليهم من النعم ما أبطرهم، وأفضى بهم إلى الفسوق، ﴿ فحقَّ عليها القولُ ﴾؛ وجب عليها كلمة العذاب السابق بحلوله، أو بظهورِ معاصيهم. ﴿ فدمرناها تدميراً ﴾؛ أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريبها. ﴿ وكم أهلكنا ﴾ أي: كثيراً أهلكنا ﴿ من القُرون ﴾ أي: الأمم ﴿ من بعد نوح ﴾؛ كعاد وثمود وأصحاب الأيكة، ﴿ وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴾؛ عالماً ببواطنها وظواهرها، فيعاقب عليها أو يعفو. وبالله التوفيق.

الإشارة: من اهتدى إلى حضرة قدسنا فإنما يهتدي لينعم نفسه بأسرار قدسنا، ومن ضل عنها فإنما يضل عليها؛ حيث حرمها لذيذ المعرفة. فإن كان في رفقة السائرين، ثم غلبه القضاء، فلا يتعدى وبال رجوعه إلى غيره، بل ما كان يصل إليه من المدد يرجع إلى أصحابه، وما كنا معذبين أحداً؛ بإسدال الحجاب بيننا وبينه، حتى نبعث من يُعَرِّف بنا، ويكشف الحجاب بيننا وبين من يريد حضرتنا. والمراد بالحجاب: حجاب الوهم؛ بإثبات حس الكائنات، فلو انهتك حجاب الوهم لوقع العيان على فقد الأعيان، ولو أشرق نورُ الإيقان لغطى وجودَ الأكوان. وإذا أردنا أن نتلف قلوباً أمرنا أربابها بالتنعم بالحظوظ والشهوات، فخرجوا عن طريق المجاهدة والرياضة، فحق عليها القول بغم الحجاب، فدمرناها تدميراً، أي: تركناها تجول في أودية الخواطر والشكوك، فتلفت وهلكت، نعوذ بالله من شر الفتن ودرك المحن.

وسَبَبُ الهلاك هو حب الدنيا، كما قال تعالى:

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾

قلت : (لمن نُريد): بدل من ضمير (له)؛ بدل بعض من كل. و (كُلاً): مفعول (نُمد)، و (هؤلاء): بدل منه. و(كيف): حال، و (درجات) و(تفضيلا): تمييز.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ من كان يُريد ﴾ بعمله الدنيا ﴿ العاجلةَ ﴾، مقصوراً عليها همه، ﴿ عجَّلنا له فيها ما نشاء لمن نُريد ﴾ التعجيل له. قيِّد المعجل والمعجل له بالمشيئة والإرادة؛ لأنه لا يجد كل متمن ما يتمناه، ولا كل واحد جميع ما يهواه. قاله البيضاوى. ﴿ ثم جعلنا له ﴾ فى الآخرة ﴿ جهنم يصلاها ﴾؛ يدخلها ويحترق بها، حال كونه ﴿ مذموماً مدحوراً ﴾؛ مطروداً من رحمة الله. والآية فى الكفار، وقيل: فى المنافقين، الذين يغزون مع المسلمين لقصد الغنائم. والأصح: أنها تعم كل من اتصف بهذا الوصف.

﴿ ومن أراد الآخرةَ وسعى لها سعيها ﴾؛ عمل لها عملها اللائق بها، وهو: الإتيان بما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه، لا التقرب بما يخترعون بآرائهم. وفائدة اللام فى قوله: «لها»: اعتبار النية والإخلاص. والحال أن العامل ﴿ مؤمن ﴾ إيماناً صحيحاً لا شرك معه ولا تكذيب، فإنه العمدة، ﴿ فأولئك ﴾ الجامعون للشروط الثلاثة ﴿ كان سعيهم مشكوراً ﴾ عند الله، مقبولاً مثاباً عليه؛ فإن شُكر الله هو الثواب على الطاعة.

﴿ كُلاًّ نُمدُّ ﴾ أى: كل واحد من الفريقين نُمد بالعطاء مرة بعد أخرى، ﴿ هؤلاء ﴾ المريدين للدنيا، ﴿ وهؤلاء ﴾ المريدين للآخرة، نُمد كلاً ﴿ من عطاء ربك ﴾ فى الدنيا، ﴿ وما كان عطاءُ ربك ﴾ فيها ﴿ محظوراً ﴾؛ ممنوعاً من أحد، لا يمنعه فى الدنيا مؤمن ولا كافر، تفضلاً منه تعالى. ﴿ أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾ فى الرزق والجاه، ﴿ وللآخرةُ أكبرُ درجاتٍ وأكبرُ تفضيلاً ﴾ من الدنيا، فينبغى الاعتناء بها دونها، والتفاوت فى الآخرة حاصل للفريقين، فكما تفاوتت الدرجات فى الجنة تفاوتت الدركات فى النار.

وسبب التفاوت: زيادة اليقين، والترقى فى أسرار التوحيد لأهل الإيمان، أو الانهماك فى الكفر والشرك لأهل الكفران. ولذلك قال تعالى: ﴿ لا تجعلْ مع الله إلهًا آخر ﴾ تعبده. والخطاب لكل سامع، أو للرسول ﷺ، والمراد أمته، ﴿ فتقعد ﴾؛ فتصير حينئذ ﴿ مذموماً مخذولاً ﴾؛ جامعاً على نفسك الذم من الملائكة والمؤمنين، والخذلان من الله. ومفهومه: أن الموحد يكون ممدوحاً منصوراً فى الدارين.

الإشارة: قال ﷺ: «مَنْ كانَت الدُّنيَا همَّهُ، فرَّقَ اللهُ عليْه أمْرَهُ، وجعَلَ فقْرَهُ بيْنَ عيْنيْه، ولَمْ يأته مِنَ الدُّنيَا إلاَّ مَا قُسِمَ لَهُ. ومَنْ كانَتِ الآخِرةُ نيَّتَهُ، جمعَ اللهُ عليه أمْرَهُ، وجَعَلَ غِنَاهُ فِى قلْبِه، وأتَتْهُ الدُّنْيَا وهِىَ صَاغِرةٌ»(١)، واعلم أن الناس على قسمين؛ قوم أقامهم الحق لخدمته، وهم: العباد والزهاد، وقوم اختصهم بمحبته، وهم: العارفون بالله؛ أهل الفناء والبقاء، قال تعالى: ﴿كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظوراً. انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾؛ فى الكرامات والأنوار، وفى المعارف والأسرار. وفضلُ العارفين على غيرهم كفضلِ الشمس على سائر الكواكب، هذا فى الدنيا، ﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾، يقع ذلك بالترقى فى معارج أسرار التوحيد، ويتفاوت اليقين فى معرفة رب العالمين. وقال القشيرى فى تفسير الآية: منهم من لا يغيب عن الحضرة لحظة، ثم يجتمعون فى الرؤية، ويتفاوتون فى النصيبِ لكلٍ. وليس كلُّ أحد يراه بالعين الذى يراه به صاحبه. وأنشدوا:

لو يَسْمَعُون ـ كما سمعتُ ـ حديثها ... خَرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعاً وسجودا (٢)

وقال الورتجبى: فضَّل العابدين بعضهم على بعض فى الدنيا بالطاعات، وفضَّل العارفين بعضهم على بعض بالمعارف والمشاهدات، فالعباد فى الآخرة فى درجات الجنان متفاوتون، والعارفون فى درجات وصال الرحمن متفاوتون. وقال القشيرى أيضاً: من كانت مشاهدته اليوم على الدوام، كانت رؤيته غداً على الدوام، ومن لا فلا. هـ. وقد تقدم تفاوت الناس فى الرؤية بأبسط من هذا، عند قوله تعالى: ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾(٣). والله تعالى أعلم.

ثم بيَّن السعى للآخرة، فقال:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٥/١٨٣)، وابن ماجة فى (كتاب الزهد، باب الهم فى الدنيا) من حديث زيد بن ثابت، وأخرجه الترمذى فى (القيامة، باب ٣٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٢) البيت لكثير عزة. انظر ديوانه (٤٤٢)، وتزيين الأسواق (١/٤١).
(٣) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام.

لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾

قلت: (قضى)، هنا، بمعنى حكم وأوجب وأمر، لا بمعنى القضاء؛ إذ لو كان كذلك لما عُبد غير الله. وفي مصحف ابن مسعود: «ووصى ربك ألا تعبدوا». و(أن): مفسرة، أو مصدرية، أي: بأن لا تعبدوا، و(إما): إن الشرطية دخلت عليها «ما» المؤكدة. و (فلا تقل): جوابها. وتوحيد ضمير الخطاب في (عندك)، وفيما سبق ـ مع أن ما سبق ضمير الجمع ـ؛ للاحتراز عن التباس المراد، فإنّ المقصود نهي كل أحد عن تأفيف والديه ونهرهما. ولو قوبل الجمع بالجمع، أو بالتثنية، لم يحصل هذا المرام.

و«أفُّ»: اسم فعل، معناها: قول مكروهُ، يقال عند الضجر ونحوه. قال الهروي: أي: لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرم، ويقال لكل ما يضجر منه ويستثقل: أُفّ لَهُ. وقال في القاموس: أفَّ، يؤفُّ، ويئفُّ: تأفف من كَرْبٍ أوْ ضَجَر. وأُفّ: كلمة تكره، وأفف تأفيفاً، وتأفّفَ، قالها(1)، ولغتها أربعون، ثم ذكرها. وحركتها للبناء، وتنوينها للتنكير.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقضى ربُّك ﴾؛ أَمَرَ أمْراً مقطوعاً به، بـ﴿ ألاّ تعبدوا إلا إياه ﴾؛ لأن غاية التعظيم لا يكون إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الإنعام، وهو الله وحده، ﴿ و ﴾ أحسنوا ﴿ بالوالدين إحساناً ﴾؛ لأنهما السبب الظاهر في وجود العبد، وبهما قامت نعمة الإمداد من التربية والحفظ في مظاهر الحكمة، وإلاّ فما ثَمَّ إلا تربية الحق تعالى، ظهرت في مظاهر الوالدين، لكن أمر بشكر الواسطة؛ «من لم يشكر الناس لم يشكر الله».

ثم أمر ببرهما، فقال: ﴿ إما يبلغنَّ عندك الكبَرَ أحدُهما أو كلاهما ﴾ أي: مهما بلغ زمن الكِبَرِ، وهما عندك في كفالتك، هما أو أحدهما، ﴿ فلا تقلْ لهما أفٍّ ﴾ أي: فلا تضجر فيما يستقذر منهما ويستثقل من مؤنتهما، ولاتنطق بأدنى كلمة توجعهما، فأحرى ألا يقول لهما ما فوق ذلك. فالنهي عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء؛ قياساً بطريق الأحْرى. وقال في الإحياء: الأُفّ: وسخ الظفر، والتف: وسخ الأذن، أي: لا تصفهما بما تحت الظفر من الوسخ، فأحرى غيره، وقيل: لا تتأذّ بهما كما يتأذى بما تحت الظفر.هـ.

﴿ ولاتنهرهما ﴾؛ ولا تزجرهما عما لا يعجبك بإغلاظٍ، فإن كان لإرشاد ديني فبرفق ولين. ﴿ وقل لهما قولاً كريماً ﴾؛ جميلاً ليناً لا غلظ فيه، ﴿ واخفض لهما جناحَ الذل ﴾؛ أَلِنْ لهما جانبك الذليل، وتذلل لهما وتواضع. استعار للذل جناحاً، وأضافه إليه؛ مبالغة؛ فإنّ الطير إذا تذلل أرخى جناحه إلى الأرض، كذلك الولد، ينبغي أن يخضع لأبويه، ويلين جانبه، ويتذلل لهما غايه جهده. وذلك ﴿ مِنَ الرحمة ﴾ أي: من إفراط الرحمة

(1) أي: قال كلمة «أف».

لهما والرقة والشفقة عليهما. ﴿ وقل ربِّ ارحمهما ﴾ أى: وادع الله أن يرحمهما برحمته الباقية، ولا تكتف برحمتك الفانية، وإن كانا كافرين؛ لأن من الرحمة أن يهديهما للإسلام، فقل: اللهم ارحمهما ﴿ كما ربياني صغيراً ﴾ أى: رحمة مثل رحمتهما علىّ وتربيتهما وإرشادهما لى فى صغرى، وفاء بعهدك للراحمين. فالكاف فى محل نصب؛ على أنه نعت لمصدر محذوف، أى: رحمة مثل تربيتهما، أو مثل رحمتهما لى، على أن التربية رحمة. ويجوز أن يكون لهما الرحمة والتربية معاً، وقد ذكر أحدهما فى أحد الجانبين والآخر فى الآخر، كما يلوح له التعرض لعنوان الربوبية، كأنه قيل: رب ارحمهما، وربِّهما كما ربيانى صغيرا. ويجوز أن يكون الكاف للتعليل، كقوله: ﴿ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾[1].

ولقد بالغ الحق تعالى فى التوصية بالوالدين؛ حيث شفع الإحسان إليهما بتوحيده سبحانه، ونظمهما فى سلك القضاء بعبادته، ثم ضيق فى برهما حتى لم يُرخص فى أدنى كلمة تنفلت من المتضجر، وختمها بأن جعل رحمته التى وسعت كلّ شيء مشبهة بتربيتهما. وعن النبى ﷺ أنه قال: «رِضَا الله فى رِضَا الوَالِدَين، وَسَخَطُهُ فى سَخَطِهِمَا»[2]. ورُوى: أن رجلا قال لرسول الله ﷺ: إن أبوىّ بلَغَا مِنْ الكِبَر إلى أنّى ألِي منهما ما وَلِيَا مِنّى فى الصغر، فهل قضيتهما حقهما؟ قال: «لا؛ فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك، وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما». ورُوى أن شيخاً أتى النبى ﷺ فقال: إن ابنى هذا له مال كثير، ولا ينفق علىّ من ماله شيئاً، فنزل جبريل وقال: إن هذا الشيخ أنشأ فى ابنه أبياتاً، ما قَرِعَ سَمْعٌ بمثلها، فاستنشدها، فأنشدها الشيخ، فقال:

غَـذَوْتُك مَـوْلُودا، ومُنْتُك يَافِـعـاً، ... تُعلُّ بما أُجْـرِى عليك، وتَنْهَلُ

إذاَ ليلَةٌ ضَـافَـتْك بالسُّقْمِ لَـم أَبِتْ ؛ ... لسُـقْـمِكَ، إلا بـاكِـيـاً أَتَمَلْمَلُ

كَـأَنِّي أنـا المَطْـرُوقُ دُونَـك بالذى ... طُرِقتَ به دُونى، وعَـيْنِى تَهـمُلُ

فَـلَمَّا بَـلَـغْـتَ السِّـنَّ والـغَـايَـةَ الَّـتى ... إلَيْـهـا مَـدَى مـاكُنْتُ فِـيك أُؤَمِّلُ

جَـعَـلْـتَ جَـزَائى غِـلْـظَةً وفَظَـاظَـةً ... كـأَنَّك أنتَ المُنْعِمُ المُـتَـفَـضِّلُ

فَـلَيْتَكَ، إذ لَـم تَـرْعَ حَـقَّ أُبُـوَّتِـى، ... فَعَلْتَ كَمَا الجَارُ المجاورُ يَفْعَلُ[3]

(١) من الآية ١٩٨ من سورة البقرة.
(٢) أخرجه الترمذى فى (البر، باب الفضل فى رضا الوالدين)، وابن حبان (الإحسان ـ البر والصلة ح ٤٣٠)، وصححه الحاكم فى المستدرك (١٥٢/٤) من حديث عبدالله بن عمرو.
(٣) أخرجه بنحوه البيهقى فى الدلائل (٣٠٤/٦)، والطبرانى فى الأوسط عن جابر بن عبدالله. وفى آخره: فأخذ النبى ﷺ بتلابيب ابنه وقال: «أنت ومالك لأبيك».

ومن تمام برهما: زيارتهما بعد موتهما، والدعاء لهما، والتصدق عليهما، ففي الحديث: « إنما الميت في قبره كالغريق، ينتظر دعوة تلحقه من ابنه أو أخيه أو صديقه، فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها» . وروى مالك في الموطأ عن سعيد بن المسيب أنه قال: (كان يقال: إن الرجل ليرفع بدعاء ولده من بعده، وأشار بيده نحو السماء)، وهو مرفوع إلى النبي ﷺ: من طريق أبي هريرة قال: «إن الله ليرفع العبد الدرجة، فيقول: يارب، أنّى لي بها؟! فيقول: باستغفار ابنك لك»[1]، وسأل رجل النبي ﷺ: هل بقي من بر أبويّ شيء أبرهما به، بعد موتهما؟ فقال: «نعم.. الصلاة عليهما ـ أي: الترحم والاستغفار لهما ـ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لاتوصل إلا بهما، وإكرام صديقهما»[2] .

قال تعالى: ﴿ ربكم أعلمُ بما في نفوسكم ﴾ من قصد البر إليهما، واعتقاد ما يجب لهما من التوقير. وكأنه تهديد على أن يُضمر لهما كراهة واستثقالا، ﴿ إن تكونوا صالحين ﴾ ؛ قاصدين للصلاح، أو طائعين لله، ﴿ فإنه كان للأوابين ﴾ : التوابين، أو الرجّاعين إلى طاعته، ﴿ غفوراً ﴾ لما فرط منهم عند حرج الصدر؛ من إذاية ظاهرة أو باطنة، أو تقصير في حقهما. ويجوز أن يكون عاماً لكل تائب، ويندرج فيه الجاني على أبويه اندراجاً أوليا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل ما أوحى الله تعالى به في حق والدي البشرية، يجري مثله في والد الروحانية، وهو الشيخ، ويزيد؛ لأنه أوكد منه؛ لأنّ أب البشرية كان السبب في خروجه إلى دار الدنيا، معرضاً للعطب أو السلامة، وأب الروحانية كان سبباً في خروجه من ظلمة الجهل إلى نور العلم والوصلة، وهما السبب في التخليد في النعيم الذي لا يفنى ولايبيد. وقد تقدم في سورة النساء تمام هذه الإشارة[3] . والله تعالى أعلم.

ثم أمر بالإحسان إلى القرابة؛ لقربهما من الوالدين، تعظيماً لهما، فقال:

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/٥٠٩)، وابن ماجة في (الأدب، باب بر الوالدين) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أبو داود في (الأدب، باب في بر الوالدين) وابن ماجة في (الأدب، باب صل من كان أبوك يصل) والحاكم في المستدرك (٢/٣٠٦٦)، وصححه ووافقه الذهبي من حديث مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاريّ.
(٣) راجع إشارة الآية ٣٦ من سورة النساء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وآتِ ذا القُربى حقه ﴾ أى: أعط ذا القربة حقه؛ من البر، وصلة الرحم، وحسن المعاشرة. وقال أبو حنيفة: إذا كانوا محاويج فقراء: أن ينفق عليهم. وقيل: الخطاب للرسول ﷺ أن يُؤتى قرابته من بيت المال، ﴿ و ﴾ آت ﴿ المسكينَ ﴾ حقه ﴿ وابنَ السبيل ﴾؛ الغريب، من برهما والإحسان إليهما، ﴿ ولا تبذرْ تبذيراً ﴾؛ بصرف المال فيما لا ينبغى، وإنفاقه على وجه السرف. قال ابن عزيز: التبذير فى النفقة: الإسراف فيها، وتفريقها فى غير ما أحل الله. هـ. وأصل التبذير: التفريق. رُوى عن النبى ﷺ أنه قال لسعد، وهو يتوضأ: «مَا هذَا السَّرَفُ؟ فقال: أَو فِي الوُضُوءِ سَرَفٌ؟ فقال: نَعَمْ، وإِنْ كنْتَ علَى نَهَرٍ جَارٍ»(١).

﴿ إنَّ المبذّرين كانوا إخوانَ الشياطين ﴾ أى: أمثالهم فى الشر؛ فإن التضييع والإتلاف شر. أو: على طريقتهم، أو: أصدقاؤهم وأتباعهم؛ لأنهم يطيعونهم فى الإسراف، رُوى أنهم كانوا ينحرون الإبل ويتياسرون عليها ـ أى: يتقامرون ـ من الميسر، وهو القمار، ويُبذرون أموالهم فى السمعة، فنهاهم الله تعالى عن ذلك، وأمرهم بالإنفاق فى القرابات. ﴿ وكان الشيطانُ لربِّه كفوراً ﴾؛ مبالغاً فى الكفر، فينبغى ألا يطاع.

﴿ وإما تُعْرِضنَّ عنهم ﴾ أى: وإن أعرضت عما ذكر من ذوى القربى والمسكين وابن السبيل؛ حياء من الرد، حيث لم تجد ما تُعطيهم، ﴿ ابتغاءَ رحمةٍ من ربك ترجوها ﴾أى: لطلب رزق تنتظره يأتيك لتعطيهم منه، ﴿ فقلْ لهم قولاً ميسوراً ﴾؛ فقل لهم قولاً ليناً سهلا، بأن تعدهم بالعطاء عند مجئ الرزق، وكان ﷺ إذا سأله أحد، ولم يجد ما يعطيه، أعرض عنه، حياء منه. فأَمرَ بحسن القول مع ذلك، مثل: رزقنا الله وإياكم، والله يُغنيكم من فضله، وشبه ذلك.

ثم أمره بالتوسط فى العطاء، فقال: ﴿ ولا تجعل يدكَ مغلولةً إلى عُنقك ﴾ أى: لا تمسكها عن الإنفاق كل الإمساك، ﴿ ولا تبسُطها كلَّ البسط ﴾، وهو استعارة لغاية الجود، فنهى الحقُّ تعالى عن الطرفين، وأمر بالتوسط فيهما، كقوله: ﴿ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ... ﴾(٢) الآية. ﴿ فتقعُدَ ملوماً محسوراً ﴾ أى: فتصير، إذا أسرفت، ملومًا عند الله وعند الناس؛ بالإسراف وسوء التبذير، محسورا: منقطعاً بك، لا شيء عندك. وهو من قولهم: حسر السفر بالبعير: إذا أتعبه، ولم يُبْقِ له قوة. وعن جابر ﷺ: بينا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ، أتاهُ صبى،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٢/٢٢١)، وابن ماجة فى (الطهارة، باب ماجاء فى القصد فى الوضوء) من حديث عبدالله بن عمرو.
(٢) من الآية ٦٧ من سورة الفرقان.

فقال له: إن أُمّي تستكسيك الدرع الذى عليك، فدخل داره ونزع قميصه وأعطاه، وقعد عريانا، وأذّن بلال، وانتظره للصلاة، فلم يخرج، فأنزل الله: ﴿ولا تجعل يدك...﴾ الآية(١).

ثم سلاّه بقوله: ﴿إنَّ ربك يبسط الرزق﴾؛ يوسعه ﴿لمن يشاءُ ويقْدرُ﴾؛ يضيقه على من يشاء. فكل ما يصيبك من الضيق فإنما هو لمصلحة باطنية، ﴿إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾؛ يعلم سرهم وعلانيتهم، فيعلم مِنْ مصالحهم ما يخفى عليهم؛ فيرزقهم على حسب مصالحهم، ويضيق عليهم على قدر صبرهم. والحاصل: أنه يُعطى كل واحد ما يَصلح به، والله أعلم.

الإشارة: أمر الحق ـ جل جلاله ـ رسوله ﷺ، وخلفاءه ممن كان على قدمه، أن يعطوا حق الواردين عليهم من قرابة الدين والنسب، والمساكين والغرباء، من البر والإحسان حساً ومعنى؛ كتعظيم ملاقاتهم وإرشادهم إلى ما ينفع بواطنهم، والإنفاق عليهم، من أحسن ما يجد، حساً ومعنى، وخصوصاً الإخوان فى الله. فكل ما يُنفق عليهم فهو قليل فى حقهم، ولا يُعد سرفًا، ولو أنفق ملء الأرض ذهبًا. قال فى القوت: دعا إبراهيمُ بن أدهم الثوريَّ وأصحابَه إلى طعام، فأكثر منه، فقال له سفيانُ: يا أبا اسحاق؛ أما تخاف أن يكون هذا سرفاً؟ فقال إبراهيم: ليس فى الطعام سرف. هـ. قلت: هذا إن قدّمه إلى الإخوان الذاكرين الله؛ قاصداً وجه الله، وأما إن قدمه؛ مفاخرة ومباهاة دخله السرف. قاله فى الحاشية الفاسية، ومثله فى تفسير القشيرى، وأنه لا سرف فيما كان لله، ولو أنفق ما أنفق. بخلاف ما كان لدواعى النفس ولو فلسًا. هـ. وأما الخروج عن المال كله فمذموم، إلا من قوى يقينه، كالصدّيق، ومن كان على قدمه. وكذلك الاستقراض على الله، واشتراؤه بالدَّين من غير مادة معلومة، إن كان قوى اليقين، وجرّب معاملته مع الحق، فلا بأس بفعل ذلك؛ وإلاَّ فليكف؛ لئلا يتعرض لإتلاف أموال الناس فيتلفه الله. وبالله التوفيق.

ولما أمر بما يُقربنا إليه نهى عما يُبعدنا عنه، فقال:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾

(١) ذكره البغوى فى تفسيره (٥/ ٩٠)، والواحدى فى أسباب النزول ص ٩٤). وقال الحافظ ابن حجر فى الكافى الشاف: لم أجده.

قلت: (خشية): مفعول من أجله؛ لأن الخشية قلبية، بخلاف الإملاق، فإنه حسي؛ فَجُرَّ بمن في سورة الأنعام.(١) وهذه الآية في أغنياء العرب، الذين كانوا يخشون وقوع الفقر، وما في «الأنعام» نزلت في فقرائهم، الذين كان الفقر واقعاً بهم، ولذلك قدّم هناك كاف الخطاب، وأخّره هنا، فتأمله. و«خِطأً» يقال: خطئ خطأ، كأثم إثماً. وقرأ ابن عامر: «خَطَأً»، بفتحتين، فهو إما اسم مصدر أخطأ، أو لغة في خطئ، كمِثل ومَثل، وحِذر وحَذر. وقرأ ابن كثير: «خِطاء»؛ بالمد، إما لغة، أو مصدر خاطأ. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولا تقتلوا أولادكم﴾ مخافة الفاقة المستقبلة، وقد كانوا يقتلون البنات ـ وهو الوأد ـ مخافة الفقر، فنهاهم عن ذلك، وضمن لهم أرزاقهم، فقال: ﴿نحن نرزقهم وإياكم ، إنَّ قتلهم كان خِطأً﴾؛ إثماً ﴿كبيراً﴾؛ لما فيه من قطع التناسل وانقطاع النوع وإيلام الروح. ﴿ولاتقربوا الزنا﴾، نهى عن مقاربته بالمقدمات. كالعزم، والنظر وشبهه، فأحرى مباشرته، ﴿إنه كان فاحشةً﴾ أي: فعلة ظاهراً فُحشها وقُبحها ، ﴿وساء سبيلاً﴾؛ قبح طريقاً طريقُهُ، وهو غصب الأبْضاع؛ لما فيه من اختلاط الأنساب وهتك محارم الناس، وتهييج الفتن.

﴿ولا تقتلوا النفسَ التي حرَّم اللهُ إلا بالحق﴾؛ إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، وزنى بعد إحصان، وقتل مؤمن معصوم؛ عمداً، كما في الحديث(٢). ويلحق بها أشياء في معناها: كالحِرابَة، وترك الصلاة، ومنع الزكاة. ﴿ومن قُتل مظلوماً﴾ أي: غير مستوجب للقتل ﴿فقد جعلنا لولَيِّه﴾ أي: الذي يلي أمره بعد وفاته، وهو الوارث، ﴿سُلطاناً﴾؛ تسلطاً بالمؤاخذة بمقتضى القتل بأخذ الدية، أو القصاص، وقوله: ﴿مظلوماً﴾: يدل على أن القتل عمد؛ لأن الخطأ لا يُسمى ظلماً. أو: جعلنا له حجة غالبة، ﴿فلا يُسرفْ في القتل﴾؛ بأن يقتل من لا يحق قتله، أو بالمثلة، أو قتل غير القاتل، ﴿إنه﴾ أي: الولي ﴿كان منصوراً﴾؛ حيث وجب القصاص له، وأمر الولاة بمعونته. أو: إنه، أي: المقتول، كان منصوراً في الدنيا؛ بثبوت القصاص ممن قتله، وفي الآخرة بالثواب.

﴿ولا تقربُوا مالَ اليتيم﴾ فضلاً عن أن تتصرفوا فيه ﴿إلا بالتي هي أحسنُ﴾؛ إلا بالطريقة التي هي أحسن، كالحفظ والتنمية، ﴿حتى يبلغ أشُدَّه﴾؛ حتى يتم رشده، ثم يدفع له، فإن دفعه لمن يتصرف فيه بالمصلحة فلا بأس، ﴿وأوفُوا بالعهد﴾ إذا عاهدتم الله أو الناس، ﴿إن العهدَ كان مسئولاً﴾ أي: مطلوباً الوفاء

---

(١) في قوله تعالى: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم...﴾ الآية ١٥١.
(٢) أخرجه البخاري في (الديات، باب قول الله تعالى: «أن النفس بالنفس...الخ)، ومسلم في (القسامة، باب مايباح به دم المسلم) عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئٍ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاثٍ: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

به، فيطلب من المعاهد ألا يُضيعه، أو: مسئولاً عنه، فيُسأل عنه الناكث ويُعاتب عليه، أو: يُسأل العهد نفسُه لِمَ نُكِثْتَ، تبكيتًا للناكث، ﴿ وأوفوا الكيل إذا كِلْتم ﴾ ولا تبخسوا فيه، ﴿ وزِنُوا بالقسطاس المستقيم ﴾؛ بالميزان السوى. والقسطاس: لغة رومية، ولا يقدح ذلك فى عربية القرآن؛ لأن غير العربى، إذا استعملته العرب، فأجرته مجرى كلامهم فى الإعراب والتعريف والتنكير، صار عربياً. قاله البيضاوى. ﴿ ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ﴾ أى: أحسن عاقبة ومآلاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ولا تقتلوا ما أنتجته الأفكار الصافية من العلوم؛ بإهمال القلوب فى طلب رزق الأشباح، خشية لحوق الفقر، فإنَّ الله ضامن لرزق الأشباح والأرواح. ولا تميلوا إلى الحظوظ، التى تُخرجكم عن حضرة الحق؛ فإن ذلك من أقبح الفواحش. ولا تقتلوا النفس بتوالى الغفلة والجهل، التى حرَّم الله قتلها وإهمالها، وأمر بإحيائها بالذكر والعلم، ومن قُتل بذلك مظلوماً؛ بحيث غلبته نفسه، ولم تساعده الأقدار، فقد جعلنا لعقله سلطاناً، أى: تسلطاً عليها؛ بمجاهدتها وقتلها وردها إلى مولاها، فلا يُسرف فى قتلها، بل بسياسة وحيلة، كما قال القائل:

وَاحْتَلْ عَلَى النَّفْسِ فَرُبَّ حِيلَهْ أَنْفَعُ فِى النُّصْرَةِ مِنْ قَبِيلَهْ

إنه كان منصوراً ، إن انتصر بمولاه، وآوى بها إلى شيخ كامل، قد فرغ من تأديب نفسه وهواه. وقد تقدم باقى الإشارة فى سورة الأنعام (١) وغيرها. وبالله التوفيق.

ثم قال تعالى :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

(١) راجع إشارة الآيتين: ١٥١ - ١٥٢ من سورة الأنعام.

قلت: قفا الشيء يقفوه: تبعه. والضمير في «عنه»: يجوز أن يعود لمصدر «لاتَقْفُ»، أو لصاحب السمع والبصر. وقيل: إن «مسئولاً» مسند إلى «عنه» كقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾(١)، والمعنى: يسأل صاحبه عنه، وهو خطأ؛ لأن الفاعل وما يقوم مقامه لا يتقدم. قاله البيضاوي.

قال ابن جزي: الإشارة في «أولئك»: إلى السمع والبصر والفؤاد، وإنما عاملها معاملة العقلاء في الإشارة بأولئك؛ لأنها حواس لها إدراك، والضمير في «عنه»: يعود على «كل»، ويتعلق «عنه» بمسئولا. هـ. وضمير الغائب يعود على المصدر المفهوم من «مسئولا». و(مَرَحا): مصدر في موضع الحال. و(مكروها): نعت لسيئة، أو بدل منها، أوخبر ثان لكان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولا تَقْفُ﴾؛ تتبع ﴿ما ليس لك به علمٌ﴾، فلا تقل مالا تحقيق لك به؛ من ذم الناس ورميهم بالغيب. فإذا قلت: سمعتُ كذا، أو رأيت كذا، أو تحقق عندي كذا، مما فيه نقص لأحد، فإنك تُسأل يوم القيامة عن سند ذلك وتحقيقه. وهذا معنى قوله: ﴿إنَّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئك كان عنه مسئولاً﴾. قال البيضاوي: ولا تتبع ما لم يتعلق علمك به؛ تقليداً، أو رجماً بالغيب. واحتج به من منع اتباع الظن، وجوابه: أن المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند، سواء كان قطعيًا أو ظنيًا؛ إذ استعماله بهذا المعنى شائع. وقيل: إنه مخصوص بالعقائد. وقيل: بالرمي وشهادة الزور، ويؤيده قوله ﷺ: «من قَفَا مُؤْمِناً بِمَا لَيْسَ فِيهِ، حَبَسَهُ اللهُ فِي رَدْغَةِ الخَبَالِ(٢)، حَتَّى يَأْتِيَ بِالمَخْرَجِ»(٣). ﴿إن السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئك﴾ أي: كل هذا الأعضاء الثلاثة ﴿كان عنه مسئولاً﴾؛ كل واحد منها مسئول عن نفسه، يعني: عما فعل به صاحبه. هـ. مختصرا.

﴿ولا تمشِ في الأرض مرحاً﴾ أي: ذا مرح، وهو: التكبر والاختيال، ﴿إنك لن تخرق الأرضَ﴾؛ لن تجعل فيها خرقاً؛ لشدة وطأتك ﴿ولن تبلغ الجبال طُولاً﴾؛ تتطاول عليها؛ عزاً وعلواً، وهو تهكم بالمختال، وتعليل للنهي، أي: إذا كنت لا تقدر على هذا، فلا يناسبك إلا التواضع والتذلل بين يدي خالقك، ﴿كلُّ ذلك﴾ المذكور، من قوله: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ إلى هنا، وهي: خمْسٌ وعشرون خصلة، قال ابن عباس: (إنها المكتوبة في ألواح موسى)، فكل ما ذكر ﴿كان سَيِّئةً عند ربك﴾(٤) أي: خصلة قبيحة ﴿مكروهاً﴾ أي: مذموماً مبغوضاً. والمراد بما ذكر: من المنهيات دون المأمورات.

---

(١) من الآية ٧ من سورة الفاتحة.

(٢) قال ابن الأثير: وردغة الخبال، جاء في الحديث أنها عصارة أهل النار.. انظر النهاية (خبل ـ ردغ).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٧٠) وأبو داود في (الأقضية، باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها)، من حديث ابن عمر، بلفظ: «من قال في مؤمن ماليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال، حتى يخرج مما قال».

(٤) قرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف «سيئه»، بضم الهمز والهاء مضافاً لهاء المذكر الغائب. اسم كان، وقرأ الباقون «سيئة» بفتح الهمزة ونصب تاء التأنيث مع التنوين على التوحيد خبر كان... انظر الإتحاف (٢/ ١٩٧) والبحر المحيط (٦/ ٣٥).

﴿ذلك مما أوحى إليك ربُّك من الحكمة﴾؛ التى هى علم الشرائع، أو معرفة الحق لذاته، والعلم للعمل به. ﴿ولا تجعلْ مع الله إلهاً آخر﴾، كرره، للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه، وأنه رأس الحكمة وملاكها، ومن عُدِمَهُ لم تَنْفَعْهُ علومه وحِكَمه، ولو جمع أساطير الحكماء، ولو بلغت عنان السماء. والخطاب للرسول ﷺ، والمراد: غيره ممن يتصور منه ذلك. ورتب عليه، أولاً: ما هو عاقبة الشرك فى الدنيا، وهو: الذم والخذلان، وثانيا: ما هو نتيجته فى العقبى. فقال: ﴿فتُلقى فى جهنم ملوماً﴾؛ تلوم نفسك، وتلومك الملائكة والناس، ﴿مدحوراً﴾؛ مطروداً من رحمة الله.

ثم قبّح رأيهم فى الشرك، فقال: ﴿أفأصفاكُم ربُّكم بالبنين﴾، وهو خطاب لمن قال: الملائكة بنات الله. والهمزة للإنكار، أى: أفخصَّكم ربكم بأفضل الأولاد، وهم البنون، ﴿واتخذَ من الملائكة إناثاً﴾؛ بناتٍ لنفسه، ﴿إنكم لتقولون قولاً عظيماً﴾ أى: عظيم النكر والشناعة، لا يُقْدَرُ قَدْرُهُ فى إيجاب العقوبة؛ لخرمه لقضايا العقول، بحيث لا يجترئ عليه أحد؛ حيث تجعلونه تعالى من قبيل الأجسام المتجانسة السريعة الزوال، ثم تضيفون إليه ما تكرهونه، وتُفضلون عليه أنفسكم بالبنين، ثم جعلتم الملائكة، الذين هم أشرف الخلق، أدونهم، تعالى الله عن قولكم علواً كبيرا.

الإشارة: ينبغى للإنسان الكامل أن يكون فى أموره كلها على بينة من ربه، فيُحَكِّمُ على ظاهره الشريعة المحمدية، وعلى باطنه الحقيقة القدسية، فإذا تجلى فى باطنه شيء من الواردات أو الخواطر فليعرضه على الكتاب والسُّنَّة، فإن قبلاه أظهره وفعله، وإلاَّ رده وكتمه، كان ذلك الأمر قولياً أو فعلياً، أو تركاً أو عقداً؛ فقد انعقد الإجماع على أنه لا يحل لامرئٍ مسلم أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم﴾، فإن لم يجد نصاً فى الكتاب أو السنة فليستفت قلبه، إن صفا من خوض الحس، وإن لم يَصْفُ فليرجع إلى أهل الصفاء، وهم أهل الذكر. قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(١)، ولا يستفت أهل الظنون، وهم أهل الظاهر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾(٢).

وقال القشيري فى تفسير الآية هنا: ﴿ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم﴾ أى: جانب محاذاة الظنون، وما لم يُطْلِعْكَ الله عليه، فلا تتكلف الوقوف عليه من غير برهان. فإذا أُشْكِلَ عليك شيءٌ فى حكم الوقت، فارجعْ إلى الله،

(١) من الآية ٤٣ من سورة النحل، ومن الآية ٧ من سورة الأنبياء.
(٢) من الآية ٣٦ من سورة يونس.

فإنْ لاحَ لقلبك وَجْهٌ من التحقيق فكن مع ما أريد، وإن بقى الحال على حدّ الالتباس فَكِلْ عِلْمَه إلى الله، وقِفْ حيثما وقفت. ويقال: الفرق بين من قام بالعلم، ومن قام بالحق: أنّ العلماء يعرفون الشيء أولاً، ثم يعملون بعلمهم، وأصحابُ الحقائق يجْرِى، بحكم التصريف عليهم، شىءٌ، ولا عِلمَ لهم به على التفصيل، وبعد ذلك يُكْشَف لهم وجهُه، فربما يجرى على لسانهم شىءٌ لا يدرون وَجْهَه، ثم بعد فراغهم من النطق به يظهر لقلوبهم برهان ما قالوه من شواهد العلم؛ إذ يتحقق ذلك بجريان الحال فى ثانى الوقت. انتهى. قلت: وإلى هذا المعنى أشار فى الحكم العطائية بقوله: "الحقائق ترد فى حال التجلى مُجْمَلَةً، وبعد الوعى يكون البيان، ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ ".

قوله تعالى: ﴿ ولا تمشِ فى الأرض مرحاً﴾، ورد فى بعض الأخبار، فى صفة مشى الصوفية: أنهم يدبون على أقدامهم دبيب النمل، متواضعين خاشعين، ليس فيه إسراع مُخل بالمروءة، ولا اختيال مُخل بالتواضع. والله تعالى أعلم.

ثم أمر بالرجوع إلى كتابه، فقال:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد صرّفنا ﴾؛ بيّنا ﴿ فى هذا القرآن ﴾ من الأمثال والعبر، والوعد والوعيد؛ ﴿ ليذَّكروا ﴾؛ ليتعظوا به، ﴿ وما يزيدُهم ﴾ ذلك ﴿ إلا نفوراً ﴾ عن الحق وعناداً له.

الإشارة: من شأن القلوب الصافية: إذا سمعت كلام الحبيب فرحت واهتزت، أو خشعت واقشعرت من هيبة المتكلم، كلٌّ على ما يليق بمقامه، ومن شأن القلوب الخبيثة المكدرة: نفورها من كلام الحق؛ إذ الباطل لا يُقاوم الحق، ولا يطيق مواجهته. والله تعلى أعلم.

ثم أبطل مذاهب أهل الشرك، فقال:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قلْ ﴾ يا محمد: ﴿ لو كان معه ﴾ فى الوجود ﴿ آلهةٌ ﴾ تستحق أن تُعبد، ﴿ كما تقولون ﴾ [1] أيها المشركون، أو كما يقول المشركون أيها الرسول، ﴿ إذاً لا بتغوا ﴾؛ لطلبوا

(١) قرأ حفص وابن كثير: (يقولون) بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء،، انظر الإتحاف (٢/١٩٩).

﴿إلى ذى العرش سبيلاً﴾؛ طريقًا يقاتلونه. وهذا جواب عن مقالتهم الشنعاء. والمعنى: لطلبوا إلى من هو ملك الملك طريقاً بالمعاداة، كما تفعل الملوك بعضهم مع بعض. وهذا كقوله: ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾(١). وقيل: لا بتغوا إليه سبيلاً بالتقرب إليه والطاعة؛ لعلمهم بقدرته، وتحققهم بعجزهم، كقوله: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾(٢). ثم نزه نفسه عن ذلك فقال: ﴿سبحانه﴾؛ تنزيهاً له ﴿وتعالى﴾؛ ترافع ﴿عمّا يقولون﴾ من الشركاء، ﴿عُلواً﴾؛ تعالياً ﴿كبيراً﴾ لاغاية وراءه. كيف لا؛ وهو تعالى فى أقصى غاية الوجود! وهو الوجوب الذاتي، وما يقولونه؛ من أنّ له تعالى شركاء وأولاداً، فى أبعد مراتب العدم، أعنى: الامتناع؛ لأنه من خواص المحدثات الفانية.

﴿يسبح له السمواتُ السبعُ﴾(٣) أى: تنزهه، ﴿والأرضُ ومن فيهن﴾ كلها تدل على تنزيهه عن الشريك والولد، ﴿وإنْ من شيء إلا يُسبح بحمده﴾؛ ينزهه عما هو من لوازم الإمكان، وتوابع الحدوث، بلسان الحال، حيث تدل بإمكانها وحدوثها على الصانع القديم، الواجب لذاته. قاله البيضاوى. وظاهره: أن تسبيح الأشياء حَالِيٌّ لا مقالى، والراجح أنه مقالى. ثم مع كونه مَقالياً لا يختص بقول مخصوص، كما قال الجلال السيوطى، أى: تقول: سبحان الله وبحمده. بل كل أحد يُسبح بما يناسب حاله. وإلى هذا يرشد كلام أهل الكشف، حتى ذكر الحاتمى: أن من لم يسمعها مختلفة التسبيح لمْ يسمعها، وإنما سمع الحالة الغالبة عليه. وورد فى الحديث: «ما اصطيد حوت فى البحر، ولا طائر يطير، إلاّ بما ضيع من تسبيح الله تعالى»(٤). وفى الحديث أيضا: «ما تطلع الشمس فيبقى خلق من خلق الله، إلا يسبح الله بحمده، إلا ما كان من الشيطان وأعتى بنى آدم».

ومذهب أهل السنة: عدم اشتراط البِنية للعلم والحياة، فيصح الخشوع من الجماد، والخشية لله والتسبيح منه له. وقد قال ابن حجر على حديث حنين الجذع: فيه دلالة على أن الجمادات قد يخلق الله لها إدراكًا كالحيوان، بل كأشرف الحيوان، وفيه تأييد لمن يحمل قوله: ﴿وإن من شيء إلا يُسبح بحمده﴾ على ظاهره. هـ.

وقال ابن عطية: اختلف أهلُ العلم فى هذا التسبيح؛ فقالت فرقة: هو تجوز، ومعناه: أن كل شيء تبدو فيه صفة الصانع الدالة عليه، فتدعو رؤية ذلك إلى التسبيح من المعتبر. وقالت فرقة: قوله: ﴿من شيء﴾: لفظه عموم،

(١) من الآية ٩١ من سورة المؤمنون.
(٢) من الآية ٥٧ من سورة الإسراء.
(٣) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص ويعقوب: (تسبح) بالتاء، وقرأ الآخرون بالياء، انظر: الاتحاف٢/١٩٩.
(٤) عزاه السيوطى فى الدر (٤/٣٣٣) لأبى الشيخ عن مرثد بن أبى مرثد.
(٥) ذكره السيوطى بنحوه فى الدر (٤/٣٣٢) وعزاه لابن مردويه، عن عمرو بن عبسة، عن النبى ﷺ.

ومعناه الخصوص في كل حي ونام، وليس ذلك في الجمادات الميتة. فمن هذا قول عكرمة: الشجرة تُسبح، والاسطوانة لا تُسبح. قال يزيد الرقاشي للحسن ـ وهما في طعام، وقد قدّم الخوان ـ: أيسبح هذا الخوان يا أبا سعيد؟ فقال: قد كان يُسبح مدة. يريد أن الشجرة، في زمان نموها واغتذائها، تُسبّح. وقد صارت خواناً أو نحوه، أي: صارت جمادا. وقالت فرقة: هذا التسبيح حقيقة، وكل شيء، على العموم، يُسبح تسبيحاً لا يسمعه البشر ولا يفقهه، ولو كان التسبيح ما قاله الآخرون؛ من أنه أثر الصنعة، لكان أمراً مفهوماً، والآية تنطق بأنه لا يُفقه، وينفصل عنه؛ بأن يريد بقوله: ﴿ لا تفقهون ﴾ : الكفار والغفلة، أي: أنهم يُعرضون عن الاعتبار؛ فلا يفقهون حكمة الله في الأشياء. هـ.

قال شيخ شيوخنا؛ سيدي عبد الرحمن العارف: وربما يدل للعموم تسبيح الحصى في يده ـ عليه الصلاة السلام ـ، وكذا حنين الجذع ومحبة أُحد، وكذا تسبيح الطعام. وأما التخصيص بالناميات؛ من نبات غير يابس، وحجر متصل بموضعه، فهو خصوص تسبيح بالاستمداد إلى الحياة، ولا ينتفي مطلق الاستمداد؛ لأن الجماد يستمد الوجود وبقاءه من الله، فهو عام، وقد قال تعالى: ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾[1]، وتدبر حنين الجذع.هـ. وسيأتي في الإشارة بقية كلام عليه، وقال البيضاوي أيضا في قوله: ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ أيها المشركون؛ لإخلالكم بالنظر الصحيح الذي به يفهم التسبيح. ويجوز أن يحمل التسبيح على المشترك من اللفظ والدلالة؛ لإسناده إلى ما يتصور منه اللفظ، وإلى مالا يتصور منه، وعليهما، أي: ويحمل ـ عند من جوز إطلاق اللفظ على معنييه .هـ.

﴿ إنه كان حليماً ﴾ ؛ حيث لم يُعاجلكم بالعقوبة، مع ما أنتم عليه من موجباتها؛ من الإعراض عن النظر في الدلائل الواضحة، الدالة على التوحيد، والانهماك في الكفر والإشراك، ﴿ غفوراً ﴾ لمن تاب منكم. وبالله التوفيق.

الإشارة: كل ما دخل عالم التكوين من العرش إلى الفرش، أو ما قُدر وجوده من غيرهما؛ كله قائم بين حس ومعنى، بين عبودية وربوبية، بين قدرة وحكمة. فالحس محل العبودية، فيه تظهر قهرية الربوبية، والمعنى هو أسرار الربوبية القائمة بالأشياء، فالأشياء كلها تنادي بلسان معناها، وتقول: سبحانه ما أعظم شأنه، ولكن لا يفقه هذا التسبيح إلا من خاض بحار التوحيد، وغاص في أسرار التفريد.

فالأشياء ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته، قائمة من حيث حسها، ممحوة من حيث معناها، ولا وجود للحس من ذاته، وإنما هو رداء لكبرياء ذاته. وفي الحديث، في وصف أهل الجنة: «وليس بينهم وبين أن ينظروا إلى الرحمن إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن» . فمن خرق حجاب الوهم، وفنى عن دائرة الحس في دار

(١) من الآية ١٠ من سورة سبأ.

الدنيا، لم يحتجب الحق تعالى عنه فى الدارين طرفة عين. فتحصل أن الأشياء كلها تُسبح من جهة معناها بلسان المقال، ومن جهة حسها بلسان الحال، وتسبيحها كما ذكرنا. ولايذوق هذا إلا من صحب العارفين الكبار، حتى يخرجوه عن دائرة حس الأكوان إلى شهود المكون. وحسب من لم يصحبهم التسليم، كما قال القائل:

إذا لَمْ تَرَ الْهِلالَ فَسَلِّمْ ... لأُنَاسٍ رَأَوْهُ بِالأَبْصَارِ

والله تعالى أعلم.

وسبب عدم فقه تسبيح الأشياء: غفلة القلوب، وطبع الأكنة عليها، كما قال تعالى:

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

قلت: (أن يفقهوه): مفعول من أجله، أى: كراهة أن يفقهوه، و(نفورا): مصدر فى موضع الحال. والضمير فى (به): يعود على «ما»، أى: نحن أعلم بالأمر الذى يستمعون به من الاستهزاء والسخرية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا قرأتَ القرآنَ ﴾ الناطق بالتنزيه والتسبيح، ودعوتهم إلى العمل بما فيه؛ من التوحيد، ورفض الشرك، وغير ذلك من الشرائع، ﴿ جعلنا ﴾ بقدرتنا ومشيئتنا المبنية على دواعى الحِكَمِ الخفية ﴿ بينَك وبين الذين لا يُؤمنون بالآخرة ﴾، خَصَّ الآخرة بالذكر من بين سائر ما كفروا به؛ دلالة على أنها معظم ما أمروا بالإيمان به، وتمهيداً لما سينقل عنهم من إنكار البعث، أى: جعلنا بينك وبينهم ﴿ حجاباً ﴾ يمنعهم عن فهمه والتدبر فيه، ﴿ مستوراً ﴾ عن الحس، خفياً، معنوياً، وهو الران الذى يَسْبَحُ على قلوبهم من الكفر، والانهماك فى الغفلة. أو: ذا ستر، كقوله: ﴿ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴾(١)، أى: آتياً، فهو ساتر لقلوبهم عن الفهم والتدبر.

(١) من الآية ٦١ من سورة مريم.

نَفَى عنهم فقه الآيات، بعد ما نفى عنهم فقه الدلالات المنصوبة في الأشياء؛ بياناً لكونهم مطبوعين على الضلالة، كما صرح به في قوله: ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنَّةً ﴾؛ أغطيةً تكنها، وتحول بينها وبين إدراك الحق وقبوله. فعلنا ذلك بهم؛ كراهة ﴿ أنْ يفقهوه ﴾، ﴿ و ﴾ جعلنا ﴿ في آذانهم وقراً ﴾؛ ثقلاً وصمماً يمنعهم من استماعه. ولمَّا كان القرآن معجزاً من حيث اللفظ والمعنى، أثبت لمنكريه ما يمنع عن فهم المعنى وإدراك اللفظ. قاله البيضاوي.

﴿ وإذا ذكرتَ ربك في القرآن وحده ﴾ أي: واحداً غير مشفوع به آلهتهم، ﴿ ولَّوْا على أدبارهم نُفوراً ﴾؛ هَرَبا من استماع التوحيد، والمعنى: وإذا ذكرت في القرآن وحدانية الله تعالى، فرَّ المشركون عن ذلك؛ لما في ذلك من رفض آلهتهم وذمها. قال تعالى: ﴿ نحن أعلم بما يستمعون به ﴾ أيْ: بالأمر الذي يستمعون به؛ من الاستهزاء، وكانوا يستمعون القرآن على وجه الاستهزاء، ﴿ وإذْ هم نجوى ﴾ أيْ: ونحن أعلم بغرضهم، حين همْ جماعة ذاتْ نجوى، يتناجون بينهم ويخفون ذلك. ثم فسر نجواهم بقوله: ﴿ إذْ يقول الظالمون ﴾، وضع الظالمين موضع الضمير؛ للدلالة على أن تناجيهم بقولهم هذا محض ظلم، أي: إذ يقولون: ﴿ إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾؛ مجنوناً قد سُحر حتى زال عقله.

﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثالَ ﴾، مثلوك بالساحر، والشاعر، والكاهن، والمجنون، ﴿ فضلُّوا ﴾ عن الحق في جميع ذلك، ﴿ فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ إلى الهدى، أو إلى الطعن فيما جئتَ به بوجه؛ فهم يتهافتون، ويخبطون، كالمتحير في أمره لا يدري ما يفعل. ونزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه من الكفار.

﴿ وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقًا جديداً ﴾، أنكروا البعث، واستبعدوا أن يجعلهم خلقاً جديداً، بعد فنائهم وجعلهم تراباً. والرفات: الذي بلِي، حتى صار غباراً وفتاتاً. و «أئذا»: ظرف، والعامل فيه: ما دل عليه قوله: (لمبعوثون)، لا نفسه؛ لأن ما بعد «إن»، والهمزة، لا يعمل فيما قبله، أي: أنُبعث إذا كنا عظاما.. الخ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد تقدم في سورة «الأنعام»(١) تفسير الأكنة التي تمنع من فهم القرآن والتدبر فيه، والتي تمنع من الشهود والعيان، فراجعه، إن شئت. وفي الآية تسلية لمن أوذي من الصوفية فرمي بالسحر أو غيره. وبالله التوفيق.

ثم أمر نبيه بالجواب عما أنكروه من البعث، فقال:

﴿ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾

(١) راجع إشارة الآية ٢٥ من سورة الأنعام.

قلت: (قريباً) : خبر كان، أو ظرف له؛ على أن «كان» تامة، أي: عسى أن يقع في زمن قريب. و(أن يكون): إما: اسم «عسى»، وهي تامة، أو خبرها، والاسم مضمر، أي: عسى أن يكون البعث قريباً، أو: عسى أن يقع في زمن قريب. و(يوم يدعوكم) : منصوب بمحذوف؛ اذكروا يوم يدعوكم. أو: بدل من «قريب»؛ على أنه ظرف. انظر أبا السعود. و(بحمده) : حال من ضمير (تستجيبون)، أي: منقادين له، حامدين له؛ لما فعل بكم.

يقول الحق جلا جلاله: ﴿ قلْ ﴾ يا محمد لمن أنكر البعث: ﴿ كُونوا حجارة أو حديداً ، أو خلقًا ﴾ آخر ﴿ مِّماَ يكْبُرُ ﴾ أي: يعظم ﴿ في صدوركم ﴾ عن قبول الحياة، فإنكم مبعوثون ومُعادون لا محالة، أي: لو كنتم حجارة أو حديداً، أو شيئاً أكبر عندكم من ذلك، وأبعد من الحياة، لقدرنا على بعثكم؛ إذ القدرة صالحة لكل ممكن. ومعنى الأمر هنا: التقدير، وليس للتعجيز، كما قال بعضهم. انظر ابن جزي، ﴿ فسيقولون من يُعيدنا ﴾ إلى الحياة مرة أخرى، مع ما بيننا وبين الإعادة، من مثل هذه المباعدة؟ ﴿ قل الذي فطركم أول مرة ﴾ ولم تكونوا شيئاً؛ لأن القادر على البدء قادر على الإعادة، بل هي أهون، ﴿ فسيُنْغِضُون ﴾ ؛ يُحركون ﴿ إليك رؤوسَهم ﴾ ؛ تعجباً واستهزاءً، ﴿ ويقولون ﴾ ؛ استهزاء: ﴿ متى هو ﴾ أي: البعث، ﴿ قل عسى أن يكون قريباً ﴾ ، فإنَّ كل ما هو آتٍ قريب.

واذكروا ﴿ يومَ يدعوكم ﴾ ؛ يناديكم من القبور على لسان إسرافيل، ﴿ فتستجيبونَ ﴾ أي: فتبعثون من القبور ﴿ بحمده ﴾ ؛ بأمره، أو ملتبسين بحمده، حامدين له على كمال قدرته، عند مشاهدة آثارها، ومعاينة أحكامها، كما قيل: إنهم يقومون ينفضون التراب عن رؤوسهم، ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، ﴿ وتظنون إن لبثتم ﴾ ؛ ما لبثتم في الدنيا ﴿ إلا قليلاً ﴾ ؛ لما تَرون من الهول، أو تستقصرون مدة لبثكم في القبور، كالذي مرَّ على قرية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من كان قلبه أقسى من الحجارة والحديد، واستغرب أن يُنقذه الله من شهوته، وأن يخرجه من وجود جهالته وغفلته، فقُل لهم: كونوا حجارة أو حديداً، أو خلقاً أكبر من ذلك، فإن الله قادر على أن يُحيي قلوبكم بمعرفته، ويُلينها بعد القساوة، بسبب شرب خمرته. فسيقولون: من يُعيدنا إلى هذه الحالة؟ قل: الذي فطركم على توحيده أول مرة، حين أقررتم بربوبيته، يوم أخذ الميثاق. فسيُنْغِضون إليك رؤوسهم؛ تعجباً واستغراباً، ويقولون: متى هو هذا الفتح؟! قل: عسى أن يكون قريبا؛ يوم يدعوكم إلى حضرته بشوق مقلق، أو خوف مزعج، بواسطة شيخ عارف، أو بغير واسطة، فتستجيبون بحمده ومنته، وتظنون إن لبثتم في أيام الغفلة إلا قليلا؛ فتلين قلوبكم، وتطمئن نفوسكم، وتنشرح صدوركم، وتحسُن أخلاقكم، فلا تخاطبون العباد إلا بالتي هي أحسن، كما قال تعالى:

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقلْ لعبادى ﴾ المؤمنين: ﴿ يقولوا ﴾ للمشركين الكلمة ﴿ التى هى أحسنُ ﴾ ولا تخاشنوهم، ﴿ إن الشيطان ينْزَغُ بينهم ﴾؛ يهيج بينهم الجدال والشر، فلعل المخاشنة لهم تُفضى إلى العناد وازدياد الفساد. وكان هذا بمكة، قبل الأمر بالقتال، ثم نُسخ(١). وقيل: فى الخطاب من المؤمنين بعضهم لبعض، أمرهم أن يقولوا، فيما بينهم، كلاماً ليناً حسنا. ﴿ إن الشيطانَ ينزَغ بينهم ﴾ العداوة والبغضاء؛ ﴿ إنَّ الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً ﴾؛ ظاهر العداوة.

يقولون لهم فى المخاطبة الحسنة: ﴿ ربكم أعلمُ بكم إن يشأ يرحمْكُم ﴾ بالتوبة والإيمان، ﴿ أو إن يشأ يعذبكُم ﴾ بالموت على الكفر. وهذا تفسير للكلمة التى هى أحسن، وما بينهما اعتراض، أى: قولوا هذه الكلمة ونحوها، ولا تصرحوا بأنهم من أهل النار؛ فإنه يثير الشر، مع أن ختام أمرهم غيب. ﴿ وما أرسلناك عليهم وكيلا ﴾؛ موكولاً إليك أمرهم، فتجبرهم على الإيمان، وإنما أرسلناك مبشراً ونذيراً، فَدارهِم، ومُر أصحابك باحتمال الأذى منهم. رُوى أن المشركين أفرطوا فى إيذائهم؛ فشكوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وقيل: شتم رجلٌ عمر رضي الله عنه، فهمّ به، فأمره الله بالعفو.

﴿ وربك أعلمُ بمن فى السموات والأرض ﴾ وبأحوالهم، فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء. وهو رد لاستبعاد قريش أن يكون يتيم أبى طالب نبياً، وأن يكون العُراة الجياع أصحابه. ﴿ ولقد فضّلنا بعض النبيين على بعض ﴾ بالفضائل النفسانية، والتفرغ من العلائق الجسمانية، لا بكثرة الأموال والأتباع، حتى يستبعدوا نبوة سيدنا محمد ﷺ لقلة ماله، وضعف أصحابه؛ فإن سيدنا داود عليه السلام كان مثله فى قلة ماله وأتباعه، ثم قواه بالملك والنبوة. ولذا قال: ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾؛ وقيل: هو إشارة إلى تفضيل نبينا محمد ﷺ؛ فإنه مذكور فى الزبور، وهو أنه خاتم الأنبياء، وأمته خير الأمم، وأنهم يرثون الأرض بالفتح عليهم؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بعد الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾(٢). والله تعالى أعلم.

---

(١) دعوى النسخ هنا، لابرهان عليها، ولامجال لها؛ فالأخلاق لاتنسخ.

(٢) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء.

الإشارة: من أوصاف الصوفية ـ رضى الله عنهم ـ أنهم هينون لينون كلفَّة حرير، لا ينطقون إلا بالكلام الحسن، ولا يفعلون إلا ما هو حسن، ويفرحون ولا يحزنون، وينبسطون ولا ينقبضون. من رأوه مقبوضاً بسطوه، ومن رأوه حزيناً فرّحوه، ومن رأوه جاهلاً أرشدوه بالتى هى أحسن. وهم متفاوتون فى هذا الأمر، مفضل بعضهم على بعض فى الأخلاق والولاية، فكل من زاد فى الأخلاق الحسنة زاد تفضيله عند الله. وفى الحديث: «إنَّ الرَّجُل ليُدرِكُ؛ بحُسْن الخلُق، درَجَةَ الصائِم النهار، القَائِمِ اللَّيْل»(١). وبالله التوفيق.

ثم رجع إلى الكلام مع المشركين والرد عليهم، فقال :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾

قلت: (أولئك): مبتدأ، و(الذين يدعون): صفته، و(يبتغون): خبره. وضمير «يدعون»: للكفار، وفى «يبتغون»: للآلهة المعبُودين. وقيل: الضمير فى «يدعون» و«يبتغون»: للأنبياء المذكورين قبلُ فى قوله: ﴿فضلّنا بعض النبيين على بعض﴾، والوسيلة: ما يتوسل به ويتقرب إلى الله، و(أيهم): بدل من فاعل (يبتغون)، و«أيّ»: موصولة، أى: يبتغى من هو أقرب إليه تعالى ـ الوسيلة، فكيف بمن دونه؟ أو ضمَّنَ معنى يبتغون: يحرصون، أى: يحرصون أيهم يكون إليه تعالى أقرب؟

يقول الحق جل جلاله: ﴿قلْ﴾ لهم: ﴿ادعوا الذين زعمتم﴾ أنهم آلهة تعبدونهم ﴿من دونه﴾ كالملائكة والمسيح وعُزير، أو كالأصنام والأوثان، ﴿فلا يملكون﴾؛ لا يستطيعون ﴿كشف الضر عنكم﴾، كالمرض والفقر والقحط، ﴿ولا تحويلاً﴾ لذلك عنكم إلى غيركم، قال تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون﴾ أنهم آلهة، هم فى غاية الافتقار إلى الله والتوسل إليه، كلهم ﴿يبتغون إلى ربهم الوسيلَة﴾ أى: التقرب بالطاعة، ويحرصون ﴿أيهم أقربُ﴾ إلى الله من غيره، فكيف يكونون آلهة؟ أو: أولئك الذين يدعونهم آلهة، يطلبون إلى ربهم الوسيلة

(١) أخرجه، بنحوه، أحمد فى المسند (٦/١٣٣) وأبو داود فى (الأدب، باب فى حسن الخلق) عن عائشة رضي الله عنها، وأخرجه الحاكم فى المستدرك (١/٦٠) عن أبى هريرة، وصححه، ووافقه الذهبى.

بالطاعة، يطلبها أيهم أقرب، أي: الذى هو أقرب، فكيف بغير الأقرب؟ ﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ كسائر العباد، فكيف يزعمون أنهم آلهة؟ ﴿ إنَّ عذاب ربك كان محذوراً ﴾؛ مخوفاً، أى: حقيقاً بأن يحذره كل أحد، حتى الرسل والملائكة. أعاذنا الله من جميعه. آمين.

الإشارة: كل ما دخل عالم التكوين لزمته القهرية والعبودية، فهو عاجز عن إصلاح نفسه، فكيف يصلح غيره؟ ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه، فكيف يدفع عن غيره؟ فارفع همتك، أيها العبد، إلى مولاك، وأنزل حوائجك كلها به دون أحد سواه، فكل ما سواه مفتقر إليه، والفقير المضطر لا ينفع نفسه، فكيف ينفع غيره؟ والله يتولى هداك.

ثم بيَّن قهريته تعالى، فقال:

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإن من قرية ﴾ أى: أهلها، ﴿ إلا نحن مُهلكوها قبلَ يوم القيامة ﴾؛ بالموت والاستئصال، ﴿ أو مُعذبوها عذاباً شديداً ﴾؛ بالقتل وغيره، ﴿ كان ذلك فى الكتاب ﴾؛ فى اللوح المحفوظ ﴿ مسطوراً ﴾؛ مكتوباً. وقال فى المستخرج: وإن من قرية إلا نحن مهلكوها؛ الصالحة بالإفناء، والطالحةُ بالبلاء، أو معذبوها بالسيف؛ إذا ظهر فيهم الزنى والربا. هـ. قال ابن جزى: رُوى أن هلاك مكة بالحبشة، والمدينة بالجوع، والكوفة بالترك، والأندلس بالخيل. ثم قال: وأما هلاك قرطبة وأشبيلية وطُليطلة وغيرها، فبأخذ الروم لها. هـ. قلت: قد استولى العدو على الأندلس كلها فهو خرابها. أعاد الله عِمارتها بالإسلام. آمين.

وقال فى حُسْن المحاضرة: وأخرج الحاكم فى المستدرك عن كعب قال: الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب أرمينية ـ والجزيرة أرض بالبصرة، وموضع باليمامة، لا جزيرة الأندلس ـ ثم قال: ومصر آمنة من الخراب حتى تخرب الجزيرة: والكوفة آمنة من الخراب حتى تخرب مصر، ولا تكون الملحمة حتى تخرب الكوفة، ولا تفتح مدينة الكفر حتى تكون الملحمة، ولا يخرج الدجال حتى تُفتح مدينة الكفر. قال: وأخرج الديلمى فى مسند الفردوس، وأورده القرطبى فى التذكرة من حديث حذيفة مرفوعاً: يبدو الخراب فى أطراف الأرض، حتى تخرب مصر، ومصر آمنة من الخراب حتى تخرب البصرة، وخراب البصرة من العراق، وخراب مصر من جفاف النيل، وخراب مكة من الحبشة، وخراب المدينة من الجوع، وخراب اليمن من الجراد، وخراب الأُبُلَّةِ من الحِصار، وخراب فارس من الصعاليك، وخراب الترك من الديلم، وخراب الديلم من الأرمن، وخراب الأرمن من الخَزَر، وخراب

الخرز من الترك، وخراب الترك من الصواعق، وخراب السند من الهند، وخراب الهند من الصين، وخراب الصين من الرمل، وخراب الحبشة من الرجفة، وخراب العراق من القحط. هـ .

قلت: وسكت عن المغرب، ولعله المعنيُ بقوله عليه الصلاة والسلام: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمّتِى ظَاهِرِينَ علَى الحقّ حتَّى يأتِى أمرُ اللهِ»(١). زاد فى رواية: وهم أهل المغرب، ورجحه صاحب المدخل(٢)، قال: لأنهم متمسكون بالسنة أكثر من المشرق(٣). والله تعالى أعلم بغيبه.

الإشارة: القرية محل تقرر السر، وهو القلب، فإما أن يُهلكه الله بالتلف والضلال، وإما أن يُعذبه عذاباً شديداً؛ بالمجاهدات والمكابدات، ثم ينعمه نعيماً كبيراً بالمشاهدات والمناجات. كان ذلك فى الكتاب مسطوراً، فريق فى الجنة وفريق فى السعير.

ثم أجاب عن تأخر الآيات بعد اقتراحها، فقال:

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾

قلت: (أنْ نرسل): مفعول «منعنا»، و(إلا أن كذَّب): فاعل.

يقول الحق جل جلاله: وما صرفنا عن إرسال الآيات التى اقترحتها قريش بقولهم: اجعل لنا الصّفا ذهباً، إلا تكذيب الأولين بها، فهلكوا، وهم أمثالهم فى الطبع، كعاد وثمود، وأنها لو أرسلت لكذبوها، فيهلكوا أمثالهم، كما مضت به سنتنا، وقد قضينا فى أزلنا ألا نستأصلهم؛ لأن فيهم من يؤمن، أو يلد من يؤمن.

ثم ذكر بعض الأمم المهلَكة بتكذيب الآيات المقترحة فقال: ﴿وآتينا ثمودَ الناقةَ﴾ بسبب سؤالهم، ﴿مُبصرةً﴾؛ بينة ذات إبصار، أو بصائر واضحة الدلالة، يُدركها كلُ من يبصرها. ﴿فظلموا بها﴾؛ فكفروا بها، أو: فظلموا أنفسهم بسبب عقرها، فهلكوا، ﴿وما نُرسل بالآياتِ﴾ المقترحة ﴿إلا تخويفاً﴾ من نزول العذاب المستأصِل، فإن لم يخافوا نزل بهم، أو: وما نرسل بالآيات غير المقترحة، كالمعجزات وآيات القرآن، إلا تخويفاً بعذاب الآخرة؛ فإن أمر من بعث إليهم مؤخر إلى يوم القيامة. قاله البيضاوى.

(١) أخرجه البخارى فى (المناقب. باب ٢٨) ومسلم فى (الإمارة، باب قوله ﷺ: لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٢) هو ابن الحاج العبدرى صاحب «المدخل إلى الشرع الشريف».

(٣) فى تعيين هذه الطائفة يقول الإمام النووى: يحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء محدثون، ومنهم زهاد، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولايلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين فى أقطار الأرض. هـ.

قال في الحاشية: ومقتضى حديث الكسوف، وقوله فيه: «ذلك يُخوف بهما عباده»: أن التخويف لا يختص بالخوارق، بل يعم غيرها، مما هو معتاد نفْيه، ويأتى غبا. وفى الوجيز: (بالآيات) أى: العبر والدلالات. وفى الورتجبى: الآيات هى: الشباب والكهولة والشيبة، وتقلب الأحوال بك، لعلك تعتبر بحال، أو تتعظ بوقت . هـ.

الإشارة: إمساك الكرامات عن المريد السائر أو الولى: رحمة واعتناء به، فلعله؛ حين تظهر له، يقف معها ويستحسن حاله، أو يزكى نفسه ويرفع عنها عصا التأديب، فيقف عن السير، ويُحرم الوصول إلى غاية الكمال، وفى الحكم: «ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها، إلا نادته هواتف الحقيقة: الذى تطلب أمامك» . وقال الششترى رضي الله عنه:

ومـهـمَـا ترى كلَّ المـراتِبِ تجْتـلـى　　　عليكَ، فـحُلْ عنهـا، فـعَن مِـثْلِهـا حُلْنا

وقُلْ: ليْس لى فى غَـيْـرِ ذاتِكَ مَطْلَبٌ　　　فـلا صـورةٌ تُجْلى، ولا طُرْفَـةٌ تُجْنـى

ولما نزّه تعالى نفسه فى أول السورة عن الجهة، التى تُوهمها قضيةُ الإسراء، صَرّحَ هنا بأنه محيط بكل مكان وزمان، لا يختص بمكان دون مكان، فقال:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذْ قلنا لك ﴾ فيما أوحينا إليك ﴿ إنَّ ربك أحَاطَ بالناس ﴾ علماً وقدرة، وأسراراً وأنوارا، كما يليق بجلاله وتجليه، فلا يختص بمكان ولا زمان، بل هو مظهر الزمان والمكان، وقد كان ولا زمان ولامكان، وهو الآن على ما عليه كان، ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك ﴾ فى قضية الإسراء، قال ابن عباس: «هى رؤيا عين، حيث رأى أنوار جبروته فى أعلى عليين، وشاهد أسرار ذاته أريناك ذلك فى ذلك المكان ﴿ إلا فتنةً للناس ﴾؛ اختباراً لهم، من يصدق بذلك ولا يكيف، ومن يجحده من الكفرة. ومن يقف مع ظاهره، فيقع في التجسيم والتحييز، ومن تنهضه السابقة إلى التعشق؛ فيجاهد نفسه حتى تعرج روحه إلى عالم الملكوت، فتكاشف بإحاطة أسرار الذات بكل شيء.

وإنما خص الحق تعالى إحاطته بالناس، مع أنه محيط بكل شىء، كما فى الآية الأخرى: ﴿ ألا إنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾(١)؛ لأنهم المقصودون بالذات من هذا العالم، وما خلق إلا لأجلهم. فاكتفى بالإحاطة بهم عن إحاطته بكل شيء.

---

(١) من الآية ٥٤ من سورة فصلت.

ثم قال تعالى: ﴿ والشجرةَ الملعونة فى القرآن ﴾ وهى: شجرة الزقوم، أى: ما جعلناها إلا فتنة للناس. وذلك أن قريشاً لما سمعوا أن فى جهنم شجرة الزقوم، سخروا من ذلك، فافتتنوا بها، حيث أنكروها، وكفروا بالقرآن، وقالوا: كيف تكون شجرة في النار، والنار تحرق الشجر؟! وقفوا مع الإلف والعادة، ولم ينفذوا إلى عموم تعلق القدرة. ومن قدر على حفظ وبر السَّمَنْدَل[1] منها، وهو يمشي فيها، قدر على أن يخلق فى النار شجرة، ولم تحرقها. وقال أبو جهل: ما أعرف الزقوم إلا التمر بالزبد. فإن قيل: أين لُعنت شجرة الزقوم فى القرآن؟ فالجواب: أن المراد لعنة آكلها، وقيل: إن اللعنة هنا بمعنى الإبعاد، وهى فى أصل الجحيم.

قال تعالى: ﴿ ونُخوِّفهم ﴾ بأنواع التخويف، أو بالزقوم، ﴿ فما يزيدُهُم إلا طغياناً كبيراً ﴾ ؛ عتواً مجاوزاً للحد.

الإشارة: الأكوان ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته. فإذا انمحت الأكوان ثبتت وحدة المكون. «كان الله ولاشيء معه، وهو الآن على ما كان عليه»، من قامت به الأشياء، وهو وجودها ونور ذاتها، ومحيط بها، كيف تحصره، أو تحيزه، أو تحول بينه وبين موجوداته؟ قيل لسيدنا علي ـ كرم الله وجهه ـ: يا ابن عم رسول الله ﷺ: أين كان ربنا قبل خلق الأشياء؟ فتغير وجهه، وسكت، ثم قال: قولكم: أين؟ يقتضي المكان، وكان الله ولا زمان ولامكان، وهو الآن على ما عليه كان. هـ.

وقال الشيخ الشاذلي: (قيل لي: يا علي؛ بي قُلْ، وعلى دُل، وأنا الكل). وفى الحديث: «لاَ تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإنَّ الله هُوَ الدَّهْرُ، بِيَدِه اللَّيْلُ وَالنَّهَار»، ولا يفهم هذا على التحقيق إلا أهل الذوق، بصحبة أهل الذوق. وإلا فسلّم تسلم، واعتقد التنزيه وبطلان التشبيه. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق.

ثم بيّن عداوة إبليس المتقدمة فى قوله: ﴿ إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبيناً ﴾ ، فقال:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾

(١) السَّمَنْدَل: طائر، إذا انقطع نسله، وهَرِمَ، ألقى نفسه فى الجمر، فيعود إلى شبابه. وقيل: هو دابة، يدخل النار فلا تحرقه.. انظر اللسان (سمندل/٣/٢١٠٥)

قلت: (طينا): منصوب على إسقاط الخافض، أو: حال من الراجع إلى الموصول، و(أرأيتك): الكاف للخطاب، لاموضع لها. وتقدم الكلام عليه في سورة الأنعام(١). و(هذا): مفعول «أرأيت»، و(جزاء): مصدر، والعامل فيه: «جزاؤكم»، فإنَّ المصدر ينصب بمثله أو فعله أو وصفه، وقيل: حال موطئة لقوله:«موفورا».

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿إذْ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليسَ﴾ امتنع، و﴿قال أأسجدُ لمن خلقتَ طيناً﴾ أي: من طين؛ فهو أصله من الطين، وأنا أصلي من النار، فكيف أسجد له وأنا خير منه؟! ثم ﴿قال﴾ إبليس: ﴿أرأيْتكَ هذا الذي كرمتَ عليَّ﴾ أي: أخبرني عن هذا الذي كرمته عليّ؛ بأمري بالسجود له، لِمَ كرمتَه عليّ؟ ﴿لئن أخرتنِ﴾ أي: والله لئن أخرتنِ ﴿إلى يوم القيامة لأحْتَنِكَنَّ﴾؛ لأستأصلن؛ من احتنكت السَّنةُ أموالَهم؛ أي: استأصلتها. أي: لأهلكن ﴿ذريته﴾؛ بالإغواء والإضلال، ﴿إلا قليلاً﴾؛ أو: لأميلنهم وأقُودنَّهُمْ، مأخوذ من تحنيك الدابة، وهو أن يشد على حنكها بحبل فتنقاد. أي: لأقودنهم إلى عصيانك، إلا قليلا، فلا أقدر أن أقاوم شكيمتهم؛ لما سبق لهم من العناية.

قال ابن عطية: وحَكَمَ إبليس على ذرية آدم بهذا الحكم؛ من حيث رأى الخِلْقَةَ مجوفةً مختلفةَ الأجزاءِ، وما اقترن بها من الشهوات والعوارض؛ كالغضب ونحوه، ثم استثنى القليل؛ لعلمه أنه لابد أن يكون في ذريته من يصلب في طاعة الله. هـ. قلت: إنما يحتاج إلى هذا: من وقف مع ظاهر الحكمة في عالم الحس، وأما من نفذ إلى شهود القدرة في عالم المعاني: فلا.

﴿قال﴾ تعالى: ﴿اذهبْ﴾؛ امض لما قصدته، وهو: طرد وتخلية لما بينه وبين ما سولت له نفسه. ﴿فمن تبعك منهم فإنَّ جهنم جزاؤكم﴾؛ التفت إلى الخطاب، وكان الأصل أن يقال: جزاؤهم، بضمير الغيبة؛ ليرجع إلى «من تبعك»، لكنه غلب المخاطب؛ ليدخل إبليس معهم، فتُجازون على ما فعلتم ﴿جزاء موفورا﴾؛ وافراً مكملا، لا نقص فيه. ﴿واستفزز﴾؛ استخفف، أو اخدع ﴿من استطعتَ منهم﴾ أن تستفز ﴿بصوتك﴾؛ بدعائك إلى الفساد، ﴿وأجلِبْ عليهم﴾ أي: صِحْ عليهم، من الجلبة، وهي: الصياح، ﴿بخيْلكَ ورَجلكَ﴾؛ أي: بأعوانك؛ من راكب وراجل، قيل: هو مجاز، أي: افعل بهم جهدك. وقيل: إن له من الشياطين خيلا ورجالاً. وقيل: المراد: بيان الراكبين في طلب المعاصي، والماشين إليها بأرجلهم. ﴿وشارِكهمْ في الأموال﴾؛ بحملهم على كسبها وجمعها من الحرام، والتصرف فيها على مالا ينبغي، كإنفاقها في المعاصي، ﴿والأولادِ﴾؛ بالحث على التوصل إلى الولد بالسبب الحرام، كالزنى وشبهه من فساد الأنكحة، وكتسمية الولد عبد شمس وعبدالحارث وعبدالعزى.

(١) راجع تفسير الآية ٤٠ من سورة الأنعام.

وقال فى الإحياء: قال يونس بن زيد: بلغنا أنه يُولد مع أبناء الإنس من أبناء الجن، ثم ينشأون معهم. قال ابن عطية: وما أدخله النقّاش؛ من وطء الجن، وأنه يحبل المرأة من الإنس، فضعيف كله. هـ. قال فى الحاشية: وضَعْفُهُ ظاهر، والآية مشيرة لرده؛ لأنها إنما أثبتت المشاركة فى الولد، لا فى الإيلاء، فإنه لم يرد، ولو قيل به لكان ذريعة لفساد كبير، ولكان شبهة يُدْرأ بها الحد، ولا قائل بذلك. وانظر الثعالبى الجزائرى؛ فقد ذكر حكاية فى المشاركة في الوطء عمن اتفق له ذلك، فالله أعلم. وأما عكس ذلك؛ إيلاء الإنسي الجنية، فأمر لا يحيله العقل، وقد جاء الخبر به فى أمر بلقيس(١). قاله المحشي الفاسي.

﴿ وعِدْهُمْ ﴾ بأن لا بعث ولا حساب، أو المواعد الباطلة؛ كشفاعة الآلهة، والاتكال على كرامة الآباء، وتأخير التوبة، وطول الأمل، ﴿ وما يعدُهم الشيطانُ إلا غروراً ﴾ وباطلاً. والغرور: تزيين الخطأ بما يُوهم أنه صواب. قاله البيضاوى.

الإشارة: ينبغى لك أيها الإنسان أن تكون مضاداً للشيطان، فإذا امتنع من الخضوع لآدم فاخضع أنت لأولاد آدم؛ بالتواضع واللين، وإذا كان هو مجتهداً فى إغواء بنى آدم بما يقدر عليه، فاجتهد أنت فى نصحهم وإرشادهم، وتعليمهم ووعظهم وتذكيرهم، بقدر ما يمكنك، واستعمل السير إليهم بخيلك ورجلك، حتى تنقذهم من غروره وكيده. وإذا كان هو يدلهم على الشرك الجلي والخفي، في أموالهم وأولادهم، فدلّهم أنت على التوحيد، والإخلاص، فى اعتقادهم وأعمالهم وأموالهم. وإذا كان يعدهم بالمواعد الكاذبة، فعدهم أنت بالمواعد الصادقة؛ كحسن الظن بالله، إن صحبه العمل بما يرضيه. فإن فعلت هذا كنت من عباد الله الذين ليس له عليهم سلطان، كما أشار إليهم بقوله:

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾

قلت: (أفأمنتم): الهمزة للتوبيخ، والفاء للعطف على محذوف، أى: أنجوتم من البحر فأمنتم.

---

(١) قصة سيدنا سليمان من أكثر القصص امتلاء بالإسرائيليات، فعليك بما هو فى القرآن، وما صح من حديث رسولنا الكريم ﷺ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنَّ عبادى﴾ المخلصين، الذين يتوكلون علىَّ فى جميع أمورهم، ﴿ليس لك عليهم سلطانٌ﴾ أى: تسلط وقدرة على إغوائهم؛ حيث التجأوا إلىَّ، واتخذونى وكيلا؛ ﴿وكفى بربك وكيلاً﴾؛ حافظاً لمن توكل عليه، فيحفظهم منك ومن أتباعك.

ثم ذكر ما يحث على التعلق به، والتوكل عليه فى جميع الأحوال الدينية والدنيوية، فقال: ﴿ربكم الذي يُزجي﴾؛ يجرى ﴿لكم الفلك﴾ ويسيرها ﴿في البحرَ لتبتغوا من فضله﴾ بالتجارة والربح، وجلْبِ أنواع الأمتعة التى لا تكون عندكم، ﴿إنه كان بكم رحيماً﴾ فى تسخيرها لكم؛ حيث هيأ لكم ما تحتاجون إليه فى سيرها، وسهل عليكم ما يعسر من أسباب معاشكم ومعادكم.

﴿وإذا مسَّكم الضُّر فى البحر﴾ يعنى: خوف الغرق، ﴿ضَلَّ﴾؛ غاب عنكم ﴿من تَدْعون﴾؛ من تعبدون من الآلهة. أو: من تستغيثون به فى حوادثكم، ﴿إلا إيَّاه﴾ وحده، فإنكم حينئذ لا يخطرُ ببالكم سواه، ولا تدعون، لكشفه، إلا إياه، فكيف تعبدون غيره، وأنتم لا تجدون فى تلك الشدة إلا إياه؟ ﴿فلما نجَّاكم﴾ من الغرق ﴿إلى البر أعرضتم﴾ عن التوحيد، أو عن شكر النعمة، ﴿وكان الإنسانُ كفوراً﴾ بالنعم، جحوداً لها، إلا القليل، وهو كالتعليل للإعراض.

﴿أفأمِنْتُم﴾ أى: أنجوتم من البحر، وأمنتم ﴿أن يَخْسفَ بكم جانبَ البَر﴾؛ بأن يقلبه عليكم وأنتم عليه، أو يخسف بكم فى جوفه، كما فعل بقارون، ﴿أو يُرسلَ عليكم حاصباً﴾ أى: ريحاً حاصباً، يرميكم بحصباء كقوم لوط، ﴿ثم لا تجدوا لكم وكيلاً﴾؛ حافظاً لكم منه، فإنه لاراد لفعله. ﴿أم أمنتم أن يُعيدكم فيه تارةً أخرى﴾؛ بأن يخلق فيكم دواعى تحملكم إلى أن ترجعوا لتركبوا فيه؛ ﴿فيُرسلَ عليكم قاصِفًا من الريح﴾ أى: ريحاً شديدة، لا تمر بشيء إلا قصفته، أى: كسرته، ﴿فيُغرقكم﴾، وعن يعقوب: «فتغرقكم»؛ على إسناده إلى ضمير الريح. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: بنون التكلم فى الخمسة. يفعل ذلك بكم ﴿بما كفرتم﴾؛ بكفركم، أى: بسبب إشراككم، أو كفرانكم نعمة الإنجاء، ﴿ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً﴾؛ مطالباً يتبعنا بثأركم، كقوله: ﴿وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾[(١)]، أو: لا تجدوا نصيراً ينصركم منه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: العباد الذين ليس للشيطان عليهم سلطان، هم الذين أضافهم إلى نفسه؛ بأن اصطفاهم لحضرة قدسه، وشغلهم بذكره وأُنسه، لم يركنوا إلى شيء سواه، ولم يلتجئوا إلاَّ إلى حماه. فلا جرم أنه يحفظهم برعايته، ويكلؤهم بسابق عنايته. فظواهرهم قائمة بآداب العبودية، وبواطنهم مستغرقة فى شهود عظمة الربوبية. فلمَّا قاموا بخدمة الرحمن، حال بينهم وبين كيد الشيطان، وقال لهم: ربكم الذى يُزجى لكم فلك الفكرة فى بحر الوحدة؛ لتبتغوا

---

(١) الآية ١٥ من سورة الشمس.

الوصول إلى حضرة الأحدية، إنه كان بكم رحيماً. ثم إذا غلب عليكم بحر الحقيقة، وغرقتم في تيار الذات، غاب عنكم كل ما سواه، وطلبتم منه الرجوع إلى بر الشريعة، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم عن شهود السِّوى، وجحدتم وجوده، لكن القلوب بيد الرحمن، يُقلبها كيف شاء؛ فلا يأمن العارف من المكر، ولو بلغ ما بلغ، ولذلك قال: أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر؛ فتغرقون في الحس، وتشتغلون بعبادة الحس، أو يُرسل عليكم حاصبًا: وارداً قهّاريًا، يُخرجكم عن حد الاعتدال، أم أمنتم أن يُعيدكم في بحر الحقيقة، تارة أخرى، بعد الرجوع للبقاء، فيرسل عليكم وارداً قهارياً يُخرجكم عن حد الاعتدال، ويحطكم عن ذروة الكمال، ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر كرامة بني آدم، وتفضيلهم؛ رداً لقول الشيطان «أرأيتك هذا الذي كرمت عليَّ»، فقال:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد كرَّمنا بني آدم﴾ قاطبة، برهم وفاجرهم، أي: كرمناهم بالصورة الحسنة، والقامة المعتدلة، والتمييز بالعقل، والإفهام بالكلام، والإشارة والخط، والتهدي إلى أسباب المعاش والمعاد، والتسلط على ما في الأرض، والتمتع به، والتمكن من الصناعات، وغير ذلك مما لا يكاد يُحيط به نطاق العبارة. ومن جملته: ما ذكره ابن عباس رضي الله عنه؛ من أن كل حيوان يتناول طعامه بفيه، إلا الإنسان يرفعه إليه بيده، وأما القرد فيده بمنزلة رجله؛ لأنه يطأ بها القاذورات؛ فسقطت حرمتها.

﴿وحملناهم﴾ أي: بني آدم، ﴿في البر والبحر﴾؛ على الدواب والسفن؛ فيمشون محمولين في البر والبحر. يقال: حملته حملاً: إذا جعلت له ما يركب. ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾؛ من فنون النعم، وضروب المستلذات مما يحصل بصُنعهم وبغير صنعهم، ﴿وفضلناهم﴾ بالعلوم والإدراكات، مما ركّبْنا فيهم ﴿على كثير ممن خلقنا﴾ وهم: من عدا الملائكة - عليهم السلام -. ﴿تفضيلاً﴾ عظيمًا، فحق عليهم أن يشكروا هذه النعم ولا يكفروها، ويستعملوا قواهم في تحصيل العقائد الحقِّيَّة، ويرفضوا ما هم عليه من الشرك، الذي لا يقبله أحد ممن له أدنى تمييز، فضلاً عمن فُضِّل على من عدا الملأ الأعلى، والمستثنى جنس الملائكة، أو الخواص منهم، ولا يلزم من عدم تفضيل الجنس؛ عدم تفضيل جنس بني آدم على الملائكة، عدم تفضيل بعض أجزائه؛ كالأنبياء والرسل، فإنهم أفضل من خواص الملائكة، وخواص الملائكة - كالمقربين مثلا - أفضل من خواص بني آدم، كالأولياء، والأولياء أفضل من عوام الملائكة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد كرّم الله هذا الآدمي، وشرفه على خلقه؛ بخصائص جعلها فيه، **منها:** أنه جعله نسخة من الوجود، فيه ما فى الوجود، وزيادة، قد انطوت فيه العوالم بأسرها، من عرشها إلى فرشها، وإلى هذا المعنى أشار ابن البنا، فى مباحثه، حيث قال:

يا سابقاً فى مَوكب الإبْداع ... ولاحِقاً فى جَيْش الاخْتِراع

اعْقِلِ فأَنْتَ نُسْخَةُ الوُجُود ... لله ماأعلاكَ مِن مَوْجُود

أَلَيْس فِيك العرشُ والكرسِيُّ ... والعالم العُلْوِيُّ والسُّفْلِيُّ

ما الكونُ إلا رَجلٌ كبيرُ ... وأنتْ كونٌ مِثْلُه صَغِيرُ

وقال آخر :

إذا كنتَ كُرْسِيّاً، وعَرْشًا، وَجنّةً، ... ونَاراً، وأفلاكاً تدُور، وأمْلاكا

وكُنْتَ من السِّرِّ المَصُون حَقِيقَةً ... وأدْرَكْتَ هذا بالحقِيقَةِ إدْرَاكا

فَفِيمَ التَّأنِّي فِي الحَضِيضِ؛ تثبُّطاً ... مُقيمًا معَ الأسْرَى، أمَا آن إسْرَاكا؟!

ومنها: أنه جعله خليفة فى ملكه، وجعل الوجود بأسره خادمًا له، ومنتفعًا به، الأرض تُقله، والسماء تُظله، والجهات تكتنفه، والحيونات تخدمه، والملائكة تستغفر له، إلى غير ذلك مما لا يعلمه الخلق. قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾(١).

ومنها: أن جعل ذاته مشتملة على الضدين: النور والظلمة، الكثافة واللطافة، الروحانية والبشرية، الحس والمعنى، القدرة والحكمة، العبودية وأسرار الربوبية، إلى غير ذلك. ولذلك خصه بحمل الأمانة.

ومنها: أنه جعله قلب الوجود، هو المنظور إليه من هذا العالم، وهو المقصود الأعظم من إيجاد هذا الكون، فهو المنعَّم دون غيره، إن أطاع الله، ألا ترى قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾(٢) ، فنعيم الجنان خاص بهذا الإنسان، أو: من التحق به من مؤمنى الجان. وقال الورتجبى: كرامة الله تعالى لبنى آدم سابقة

(١) من الآية ١٣ من سورة الجاثية.
(٢) من الآية ٧٥ من سورة الزمر.

على كون الخلق جميعا؛ لأنها من صفاته، واختياره، ومشيئته الأولية. أوجد الخلق برحمته، وخلق آدم وذريته بكرامته، الخلق كلهم فى حيز الرحمة، وآدم وذريته فى حيز الكرامة. الرحمة للعموم، والكرامة للخصوص. خلق الكلَّ لآدم وذريته، وخلق آدمَ وذريته لنفسه، ولذلك قال: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾(١)، جعل آدم خليفته، وجعل ذريته خلفاء أبيهم، الملائكة والجن فى خدمتهم، والأمر والنهى والخطاب معهم، والكتاب أُنزل إليهم، والجنة والنار والسموات والأرض والشمس والقمر والنجوم، وجميع الآيات، خُلِقَ لهم. والخلق كلهم طُفيل لهم، ألا ترى الله يقول لحبيبه ﷺ: «لولاك ما خلقت الكون»؟ ولهم كرامة الظاهر، وهي: تسوية خلقهم، وظرافة صورهم، وحسن نظرتهم، وجمال وجوههم، حيث خلق فيها السمع والأبصار والألسنة، واستواء القامة، وحسن المشي، والبطش، وإسماع الكلام، والتكلم باللسان، والنظر بالبصر، وجميع ذلك ميراث فطرة آدم، التى صدرت من حسن اصطناع صورته. الذى قال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (٢)، فنور وجوههم من معادن نور الصفة، وأنوار الصفات نوَّرت آدم وذريته، فتكون نوراً من حيث الصفات والهيئات، والحسن والجمال، متصفون متخلقون بالصفات الأزلية، لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «خَلَقَ آدَمَ على صُورَتِه»؛ من حيث التخلق لا من حيث التشبيه. انظر تمامه. والحاصل أنه فضلهم بالخلْق والخلُق، وذلك يجمع محاسن الصورة الظاهرة والباطنة.هـ. قاله المحشى الفاسى.

ثم ذكر محل ظهور كرامة بنى آدم، وهو يوم القيامة، فقال:

﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

قلت: يجوز فى (أعمى) ـ الثانى ـ: أن يكون وصفاً كالأول، وأن يكون من أفعل التفضيل، وهو أرجح؛ لعطف «وأضل» عليه، الذى هو للتفضيل. وقال سيبويه: لا يجوز أن يقال: هو أعمى من كذا، وإنما يقال: هو أشد عمى، لكن إنما يمتنع ذلك فى عمى البصر، لا فى عمى القلب. قاله ابن جزى.

يقول الحق جل جلاله: واذكر ﴿يوم ندعو كلَّ أناس بإمامهم﴾؛ بنبيهم. فيقال: يا أُمَّةَ فلان، يا أمة فلان، احضروا للحساب. أو: بكتاب أعمالهم، فيقال: يا صاحب الخير ويا صاحب الشر، فهو مناسب لقوله: (فمن أوتى...) إلخ.

(١) من الآية ٤١ من سورة طه.
(٢) من الآية ٧٥ من سورة ص.

وقال محمد بن كعب القرظى: بأسماء أمهاتهم، فيكون جمع «أم»، كخف وخفاف، لكن فى الحديث: «إنكُمْ تُدْعَوْنَ يوْمَ القِيَامَةِ بأسمَائِكُم وأسماءِ آبَائكمْ»(١)، ولعل ما قاله القرظى مخصوص بأولاد الزنا. وفى البيضاوى: قيل: بأمهاتهم، والحكمة فى ذلك: إجلال عيسى وإظهار شرف الحسن والحسين، وألا يفْتضح أولاد الزنى. هـ.

وقال أبو الحسن الصغير: قيل لأبى عمران: هل يدعى الناس بأمهاتهم يوم القيامة أو بآبائهم؟ قال: قد جاء فى ذلك شيء أنهم يدعون بأمهاتهم فلا يفتضحوا. وفى البخارى ـ باب يدعى الناس بآبائهم، وساق حديث ابن عمر: «يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادرٍ لِوَاءٌ يوْمَ القِيَامَةِ. يُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلانِ ابنُ فُلاَن»(٢)، فظاهر الحديث أنهم يدعون بآبائهم، وهو الراجح، إلا فيمن لا أب له. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿فمن أُوتى كتابه بيمينه﴾ أى: فمن أوتى صحيفة أعماله، يومئذ، من أولئك المدعويين بيمينه؛ إظهاراً لخطر الكتاب، وتشريفًا لصاحبه، وتبشيراً له من أول الأمر، ﴿فأولئك يقرأون كتابهم﴾ المؤتى لهم. والإشارة إلى «مَن»: باعتبار معناها؛ لأنها واقعة على الجمع؛ إيذانا بأنهم حزب مجتمعون على شأنٍ جليل، وإشعاراً بأن قراءتهم لكتبهم يكون على وجه الاجتماع، لا على وجه الانفراد؛ كما فى حال الدنيا. وأتى بإشارة البعيد؛ إشعاراً برفع درجاتهم، أى: أولئك المختصون بتلك الكرامة، التى يُشْعِرُ بها الإيتاء المذكور، يقرأون كتابهم ﴿ولا يُظلمون فتيلاً﴾؛ ولا ينقصون من أجور أعمالهم المرسومة فى صحيفتهم أدنى شيء، فإن الفتيل ـ وهو: قشر النواة ـ مَثَلٌ فى القلة والحقارة.

ثم ذكر أهل الأخذ بالشمال فقال: ﴿ومن كان فى هذه﴾ الدنيا، التى فَعَلَ بهم ما فعل من فنون التكريم والتفضيل، ﴿أعمى﴾؛ فاقد البصيرة، لا يهتدى إلى رشده، ولا يعرف ما أوليناه من نعمة التكرمة والتفضيل، فضلاً عن شكرها والقيام بحقوقها، ولا يستعمل ما أودعنا فيه؛ من العقل والقوى، فيما خلق له من العلوم والمعارف، ﴿فهو فى الآخرة أعمى﴾ كذلك، لا يهتدى إلى ما ينجيه مما يرديه؛ لأن النجاة من العذاب والتنعم بأنواع النعم الأُخروية مرتب على العمل فى الدنيا، ومعرفة الحق، ومن عمى عنه فى الدنيا فهو فى الآخرة أشد عمى عما ينجيه، ﴿وأضلُّ سبيلاً﴾ عنه؛ لزوال الاستعداد الممكن لسلوك طريق النجاة. وهذا بعينه هو الذى أخذ كتابه

(١) أخرجه أحمد فى المسند (١٩٤/٥)، وأبو داود فى (الأدب، باب فى تغيير الأسماء) عن أبى الدرداء، وصححه الهيثمى فى المجمع (٦٩/٣).
(٢) أخرجه البخارى فى (كتاب الأدب، باب يدعى الناس بآبائهم).

بشماله، بدلالة ما سبق من القبيل المقابل، ولعل العدول عن التصريح به إلى ذكره بهذا العنوان؛ للإشعار بالعلة الموجبة له، فإنَّ العمى عن الحق والضلال هو السبب في الأخذ بالشمال، وهذا كقوله فى الواقعة: ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴾(١)، بعد قوله: ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾(٢) . والله تعالى أعلم.

الإشارة: يدعو الحق تعالى، يوم القيامة، الأمم إلى الحساب بأنبيائها ورسلها، ثم يدعوهم، ثانياً، للكرامة بأشياخها وأئمتها التى كانت تدعوهم إلى الحق على الهُدَى المحمدى. فيقال: يا أصحاب فلان، ويا أصحاب فلان، اذهبوا إلى الجنة، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون. وهذا فى حق أهل الحق والتحقيق، الدالين على سلوك الشريعة، والتمسك بأنوار الحقيقة؛ ذوقًا وكشفا، فكل من تبعهم، وسلك منهاجهم، كان من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وهم: أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وأما من لم يكن من حزبهم، ولم يدخل تحت تربيتهم، فإن استعمل عقله وقُواه فيما يُنجيه يوم القيامة؛ كان من الذين يُؤتون كتابهم بيمينهم، ولا يظلمون فتيلاً. ومن أهمل عقله واستعمل قواه فى البطالة والهوى، كان من القبيل الذى عاش فى الدنيا أعمى، ويكون فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا، والعياذ بالله.

ثم ذكر نوعاً من هذا القبيل، الذى أعمى الله بصيرته، فقال:

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾

قلت: «وإن»: مخففة من الثقيلة فى الموضعين، واسمها: ضمير الشأن، واللام هى الفارقة بينها وبين النافية، أى: إن الشأن قاربوا أن يفتنوك. و(سُنَّة): مفعول مطلق، أى: سنَّ الله ذلك سُنة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإن كادُوا ﴾ أى: كفار العرب، ﴿ ليَفتنُونك عن الذى أوحينا إليك ﴾؛ من أمرنا ونهينا، ووعدنا ووعيدنا، ﴿ لتفترىَ علينا غيره ﴾؛ لتقول ما لم أقل لك، مما اقترحوا عليك. نزلت فى ثقيف،

(١) الآية ٩٢ من سورة الواقعة

(٢) الآية ٩٠ من نفس السورة.

إذ قالوا للنبى ﷺ: لا نَدْخُلُ فى أمْرِكَ حتى تُعْطِيَنَا خِصَالاً نَفْتَخِرُ بها على العرَبِ: لانُعْشَرُ، ولانُحشَرُ، ولاَ نَحْنِى فى صَلاَتِنا، وكلُّ رِباً لنَا فهُو لنَا، وكلُّ رِباً علَيْنَا فهو موْضُوعٌ، وأنْ تُمتّعنا باللات سَنَةً، وأن تُحَرِّمَ وَادِيَنا كما حرمت مكة، فإذا قالت العرَبُ: لِمَ فَعلْتَ؟ فقُل: الله أمَرَنِى بذلك. فأبى عليهم رسولُ الله ﷺ[1]، وخيّب سعيهم. فالآية، على هذا، مدنية. وقيل: في قريش، قالوا للنبى ﷺ: لا نُمكنك من استلام الحجر، حتى تلمّ بآلهتنا، وتمسّها بيدك[2]. وقيل: قالوا: اقْبَل بعض أمرنا، نقبل بعض أمرك، والآية، حينئذ، مكية كجميع السورة.

﴿ وإذاً لا تخذوكَ خليلاً ﴾ أى: لو فعلت ما أرادوا منك لصرت لهم وليًا وحبيبًا، ولخرجت من ولايتى، ﴿ ولولا أنْ ثبتناك ﴾ على ما أنت عليه من الحق؛ بعصمتنا لك، ﴿ لقد كِدتَ تركنُ إليهم شيئاً قليلاً ﴾ من الركون، الذى هو أدنى ميل، أى: لولا أن عصمناك، لقاربت أن تميل إليهم؛ لقوة خدعهم، وشدة احتيالهم. لكن عصْمتنا منعتك من المقاربة. وهو صريح فى أنه ـ عليه الصلاة السلام ـ ما همّ بإجابتهم، مع قوة الداعى إليها، ولا قارب ذلك. وهو دليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه. قاله البيضاوى. وفيه رد على ابن عطية، حيث قال: قيل: إنه همّ بموافقتهم، لكن كان ذلك خطرة، والصواب: عدم ذلك؛ لأن التثبيت والعصمة مانعٌ من ذلك.

وقد أجاد القشيرى فى ذلك، ونصه: ضربنا عليك سرادقات العصمة، وآويناك فى كنف الرعاية، وحفظناك عن خطر اتباع هواك، فالزَّلَلُ منك محال، والافتراءُ فى نعتك غير موهوم، ولو جنَحْتَ لحظةً إلى جانب الخلاف لتضاعفَتْ عليكَ شدائدُ البلاء؛ لكمالِ قَدْرِك وعلُوِّ شأنك؛ فإنَّ كل مَنْ هو أعلى درجةً فذَنْبُه ـ لو حصل ـ أشدُّ تأثيراً. ﴿ ولولا أن ثبتناك . . . ﴾ الآية: لو وكلناك ونفسَكَ، ورفعنا عنك ظِلَّ العصمة، لقاربت الإلمام بشىء مما لا يجوز من مخالفة أمرنا، ولكنَّا أفردناك بالحفظ، بما لا تتقاصر عنكَ آثارُه، ولا تَغْرُبُ عن ساحتك أنوارُه. ﴿ إذًا لأذقناك ضِعْفَ الحياة وضِعْف الممات ﴾، هبوطُ الأكابر على قدر صعودهم. هـ.

﴿ إذاً ﴾ أى: لو قاربت أن تركن إليهم أدنى ركون ﴿ لأذقناك ضِعف ﴾ عذاب ﴿ الحياة ﴾، ﴿ وضِعْفَ ﴾ عذاب ﴿ الممات ﴾، أى: مِثْلَىْ ما يُعَذَّبُ غيرك فى الدنيا والآخرة؛ لأن خطأ الخطير أخطر. وكأن أصل الكلام: عذاباً ضعفاً فى الحياة، وعذاباً ضعفا فى الممات، أى: مضاعفاً، ثم حذف الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه، ثم أضيفت

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الكافى الشاف: لم أجده، وذكره الثعلبى عن ابن عباس من غير سند. وذكره الواحدى فى الأسباب (ص ٢٩٧) بدون سند أيضاً.
(٢) أخرجه الطبرى (١٥/ ١٣٠) عن سعيد بن جبير، بسند ضعيف.

إضافة موصوفها. وقيل: الضعف من أسماء العذاب. وقيل: المراد بضعف الحياة: عذاب الآخرة؛ لأن حياته دائمة، وبضعف الممات: عذاب القبر. ﴿ثم لاتجدُ لك علينا نصيراً﴾ يدفع عنك العذاب.

﴿وإن كادوا﴾ أي: كاد أهل مكة ﴿لَيَسْتفزُّونك﴾؛ ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم ﴿من الأرض﴾ التي أنت فيها. وهي: أرض مكة، ﴿ليُخرجوكَ منها وإذاً لا يلبثون خِلافَكَ إلاَّ قليلاً﴾؛ إلا زمناً قليلا. وقد كان كذلك، فإنهم أُهلكوا ببدر بعد هجرته ﷺ، وقيل: نزلت في اليهود؛ فإنهم حسَدوا مقام النبي ﷺ بالمدينة، فقالوا: الشام مقام الأنبياء، فإن كنت نبياً فالحقْ بها حتى نؤمن بك. فوقع ذلك في قلبه ﷺ، فخرج مرحلة، فنَزَلَت[1]، فرَجَعَ ﷺ، ثم قتل منهم بني قريظة، وأجلى بني النضير بقليل، ﴿سُنَّة من قد أرسلنا قَبلك من رُسلنا﴾ أي: عادته تعالى: أن يُهلك من أُخْرِجَتْ رسلهم من بين أظهرهم، فقد سنَّ ذلك في خلقه، وأضافها إلى الرسل؛ لأنها سُنت لأجلهم. ﴿ولا تجد لسُنَّتنا تحويلاً﴾ أي: تغييراً وتبديلا.

الإشارة : من شأن العارف الكامل أن يأخذ بالعزائم، ويأمر بما يقتل النفوس، ويوصل إلى حضرة القدوس، وهو كل ما يثقل على النفوس، فإن أتاه من يفْتِنه ويرده إلى الهوى، حفظته العناية، واكتنفته الرعاية، فيقال له: وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك؛ وحْيِ إلهام، لتفتري علينا غيره، فتأمر بالنزول إلى الرخص والتأويلات، وإذاً لاتخذوك خليلا. ولولا أن ثبتناك؛ بالحفظ والرعاية، لقد كدت تركنُ إليهم شيئاً قليلاً، وهي: خواطر تخطر ولا تثبت. إذاً لأذقناك ضعف الحياة، وهو: الذل والحرص والطمع. وضعف الممات، وهو: السقوط عن مقام المقربين، أهل الرَّوح والريحان. وإن كادوا ليستفزونك من أرض العبودية، ليخرجوك منها إلى إظهار الحرية، ،من العز والجاه، وإذاً لا يلبثون خلافك ممن اتبعك إلا قليلا؛ لأن من رجع إلى مباشرة الدنيا والحس قلَّ مدده، فُيقل انتفاعه، فلا يتبعه إلا القليل. هذه سُنة الله في أوليائه، ولن تجد لسنة الله تحويلا.

ثم أمر بمراسم الشريعة، التي هي عنوان العناية، فقال:

﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٧/٢٣٤١) والبيهقي في الدلائل (باب ماروى في سبب خروج النبي ﷺ) إلى تبوك عن عبدالرحمن بن غنم، وضعف الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣/٥٣) هذا القول؛ لأن هذه الآية مكية. وسكنى المدنية بعد ذلك.

قلت: الدلوك: الميل. واشتقاقه من الدَّلْك؛ لأن من نظر إليها حينئذ يدلك عينه. واللام للتأقيت بمعنى: عند. و(قرآن): عطف على (الصلاة)، أو منصوب بفعل مضمر، أي: اقرأ قرآن الفجر، أو على الإغراء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أقم الصلاةَ لدلُوكِ﴾ أي: عند زوال ﴿الشمس﴾، وهو إشارة إلى إقامة الصلوات الخمس، فدلوك الشمس: زوالها؛ وهو إشارة إلى الظهر والعصر، وغسق الليل: ظلمته، وهو إشارة إلى المغرب والعشاء، ﴿وقرآنَ الفجر﴾؛ صلاة الصبح، وإنما عبَّر عن صلاة الصبح بقرآن الفجر؛ لأن القرآن يُقرأ فيها أكثر من غيرها؛ لأنها تُصلى بسورتين طويلتين، ثم مدحها بقوله: ﴿إنَّ قرآن الفجر كان مشهوداً﴾؛ تشهده ملائكةُ الليل وملائكة النهار، أو: يشهده الجم الغفير من المصلين، أو فيه شواهد القدرة؛ من تبدل الظلمة بالضياء، والنوم، الذي هو أخو الموت، بالانتباه.

ثم أمر بقيام الليل فقال: ﴿ومن الليل﴾ أي: بعض الليل ﴿فتهجدْ به﴾ أي: اترك الهجود، الذي هو النوم فيه، للصلاة بالقرآن، ﴿نافلةً لك﴾ أي: فريضة زائدة لك على الصلوات الخمس، أو فريضة زائدة لك؛ لاختصاص وجوبها بك، أو نافلة زائدة لك على الفرائض؛ غير واجبة. وكأنه، لما أمر بالفرائض، أمر بعدها بالنوافل. وتطوعه ـ عليه الصلاة والسلام؛ لزيادة الدرجات، لا لجبر خلل أو تكفير ذنب؛ لأنه مغفور له ما تقدم وما تأخر. و«من»: للتبعيض، والضمير في «به»: للقرآن. والتهجد: السهر، وهو: ترك الهجود، أي: النوم. فالتفعل هنا للإزالة؛ كالتأثم والتحرج، لإزالة الإثم والحرج.

ثم ذكر ثوابه في حقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال: ﴿عسى أنْ يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ عندك وعند جميع الناس، وهي: الشفاعة العظمى. وفيه تهوين لمشقة قيام الليل. رَوى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المَقَام المحمُود هُوَ المقَامُ الَّذِي أَشْفَعُ فِيهِ لأمَّتِي[1]». وقال ابن عباس رضي الله عنهما: مقاماً محموداً يحمده فيه الأولون والآخرون، ويشرف فيه على جميع الخلائق، يسأل فيُعطى، ويشفع فيُشَفَّع. وعن حذيفة: يُجْمع الناس في صعيد واحد، فلا تتكلم فيه نفس إلا بإذنه، فأول مدعو محمدٌ ﷺ، فيقول: «لبيك وسعديك. والشر ليس إليك، والمهدى من هديت، وعبدك بين يديك، وبك وإليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحانك رب البيت». ثم يأذن له في الشفاعة. والله تعالى أعلم.

وقال ابن العربي المعافري في أحكامه: وَاخْتُلِفَ في وجه كون قيام الليل سبباً للمقام المحمود على قولين، فقيل: إن البارئ تعالى يجعل ما يشاء من فضله سبباً لفضله، من غير معرفة منا بوجه الحكمة. وقيل: إن قيام الليل فيه

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/٤٤١)، والترمذي وحسّنه في (التفسير، سورة الإسراء)، والبيهقي في الدلائل (٥/٤٨٤)، وأصل الحديث عند البخاري ومسلم.

الخلوة به تعالى، والمناجاة معه دون الناس، فيعطى الخلوة به والمناجاة فى القيامة، فيكون مقاماً محموداً، ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم. وأجلُّهم فيه؛ درجةً: نبينا محمد ﷺ، فيعطى من المحامد ما لم يُعط قبل، ويُشَفَّع فيَشْفَع .هـ. قال شيخ شيوخنا سيدى عبدالرحمن الفاسي: وقد يقال: إن ذلك مرتب على قوله: (أقم الصلاة..) الآية، ولا يخص بقيام الليل، والصلاةُ، مطلقاً مفاتحةٌ للدخول على الله ومناجاةٌ له، ولذلك جاء فى حديث الشفاعة افتتاحه بأن «يخر ساجداً حامداً، فيؤذن حينئذ بالشفاعة». ومن تواضع رفعه الله. هـ.

الإشارة: قوم اعتنوا بإقامة صلاة الجوارح، وهم: الصالحون الأبرار، وقوم اعتنوا بإقامة صلاة القلوب، التى هى الصلاة الدائمة، وهم العارفون الكبار، وقوم اعتنوا بسهر الليل فى الركوع والسجود، وهم العباد والزهاد والصالحون، أولوا الجد والاجتهاد. وقوم اعتنوا بسهره فى فكرة العيان والشهود، وهم المقربون عند الملك الودود. الأولون يُوفَّون أجرهم على التمام بالحور والولدان، والآخرون يُكشف لهم الحجاب ويتمتعون بالنظر على الدوام، الأولون محبون، والآخرون محبوبون، الأولون يشفعون فى أقاربهم ومن تعلق بهم، والآخرون قد يشفع واحد منهم فى أهل عصره. وما ذلك على الله بعزيز.

ولما أمره بالقيام بوظائف العبودية، أمره بالتعلق فى أموره كلها بالربوبية، فقال:

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقل﴾ يا محمد: ﴿ربِّ أَدْخلنى﴾ فى الأمور كلها ﴿مُدْخلَ صدقٍ﴾؛ بأن أدخل فيها بك لا بنفسى، ﴿وأخرجنى﴾ منها ﴿مُخرجَ صدقٍ﴾ كذلك، مصحوباً بالفهم عنك، والإذن منك فى إدخالى وإخراجى. وقيل: أدخلنى قبرى مدخل صدق راضياً مرضياً، وأخرجنى منه عند البعث مخرج صدق، أى: إخراجاً مرضياً مُلقى بالكرامة. فيكون تلقيناً للدعاء بما وعده من البعث، المقرون بالإقامة للمقام المحمود، التى لا كرامة فوقها. وقيل: المراد: إدخال المدينة، والإخراج من مكة. وقيل: إدخاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ مكة؛ ظاهراً عليها، وإخراجه منها؛ آمناً من المشركين. وقيل: إدخاله الغار، وإخراجه منه سالماً. وقيل: إدخاله فيما حمله من أعباء الرسالة، وإخراجه منه مؤدياً حقه. وقيل: إدخاله فى كل ما يلائمه من مكان أو أمر، وإخراجه منه بالحفظ والرعاية، بحيث يدخل بالله ويخرج بالله. وهو الراجح كما قدمناه.

﴿واجعل لى من لدُنك﴾ أى: من مستبطَن أمورك، ﴿سُلطاناً نصيراً﴾ أى: حجة ظاهرة، تنصرنى على من يخالفنى ويعادينى، أو : عزاً ناصراً للإسلام، مظهراً له على الكفر. فأجيبتْ دعوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ

بقوله: ﴿ ألا إن حزبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾(١)، ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾(٢)، ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ... ﴾(٣) الآية، وبقوله: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ... ﴾(٤) الآية. وذلك حين يظهر الحق، ويزهق الباطل، كما قال: ﴿ وقل جاء الحق ﴾ أى: الإسلام أو الوحى، ﴿ وزهق الباطلُ ﴾ ؛ ذهب، وهلك الكفر والشرك، وتسويلات الشيطان؛ ﴿ إنَّ الباطلَ ﴾ كائنا ما ﴿ كان زهوقا ﴾ أى: شأنه أن يكون مضمحلاً غير ثابت. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ يَوْمَ الفَتْحِ، وحَوْلَ البَيْتِ ثلاثُمائةٍ وستُّون صنَماً، فَجَعَلَ يَطْعَنُ بمخْصَرةٍ(٥) كانت بيدِه في عين كُل واحد، ويقول: جاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ، فَيَنْكَبُّ لِوَجْهِه، حتَى أَلْقَى جميعَها، وبَقِى صَنَمُ خُزَاعَة فوْقَ الكَعْبَةِ، وكَانَ من صُفْرٍ،(٦) فقال: يا علِيُّ، ارْمِ بِهِ؛ فصَعَدَ إليه، ورَمَى به، فَكَسَرَهُ(٧). هـ.

الإشارة: إذا تمكن العارفون من شهود حضرة القدس ومحل الأنس، وصارت معشش قلوبهم؛ كان نزولهم إلى سماء الحقوق وأرض الحظوظ بالإذن والتمكين، والرسوخ فى اليقين. فلم ينزلوا إلى سماء الحقوق بسوء الأدب والغفلة، ولا إلى أرض الحظوظ بالشهوة والمتعة، بل دخلوا فى ذلك بالله ولله، ومن الله وإلى الله، كما فى الحكم. ثم قال: ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق ﴾ ؛ ليكون نظرى إلى حولك وقوتك إذا أدخلتنى، وانقيادى إليك إذا أخرجتنى. ﴿ واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيرا ﴾ ينصرنى ولا ينصر علىَّ، ينصرنى على شهود نفسى، حتى أغيب عنها وعن متعتها وهواها، ويفنينى عن دائرة حسى، حتى تتسع علىَّ دائرة المعانى عندى، وأفضى إلى فضاء الشهود والعيان، فحينئذ يزهق الباطل، وهو ما سوى الله، ويجىء الحق، وهو وجود الحق وحده، فأقول حينئذ: ﴿ وقل جاء الحق وزهقَ الباطل إنَّ الباطل كان زهوقًا ﴾ ، وإنما أثبته الوهم والجهل، وإلا فلا ثبوت له؛ ابتداء وانتهاء.

وثبوت الوهم والجهل فى القلب: مرض من الأمراض، وشفاؤه فى التمسك بما جاء به القرآن العظيم، كما قال تعالى:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) ﴾

---

(١) من الآية ٥٦ من سورة المائدة. (٢) من الآية ٣٣ من سورة التوبة. (٣) من الآية ٥٥ من سورة النور.
(٤) الآيتان: ١٧١ - ١٧٢ من سورة الصافات.
(٥) المخصرة: ما يختصره الإنسان بيده، فيمسكه؛ من عصاً ونحوها... انظر: مختار الصحاح، (خصر). (٦) أى: من نحاس.
(٧) أخرجه البخارى فى (التفسير، سورة الإسراء)، ومسلم فى (الجهاد، باب فتح مكة).

قلت : (من) : للبيان، قدمت على المُبيَّن؛ اعتناء، فالقرآن كله شفاء. وقيل: للتبعيض، والمعنى: أن منه ما يشفى من المرض الحسى، كالفاتحة وآية الشفاء، ومن المرض المعنوى، كآيات كثيرة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ونُنزِّلُ من القرآنِ ما هو شفاءٌ ﴾ لما فى الصدور، ومن سقام الريب والجهل، وأدواء الأوهام والشكوك، ﴿ ورحمة للمؤمنين ﴾ به، العاملين بما احتوى عليه من عجائب الأسرار وغرائب العلوم، المستعملين أفكارهم وقرائحهم فى الغوْص على درره ويواقيته، أى: وننزل ما هو تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم، ورفع الأوهام والشكوك عنهم، كالدواء الشافى للمرض، وعن النبى ﷺ : «من لم يستشف بالقرآن لا شفاه الله»(١). ﴿ ولا يزيدُ الظالمين ﴾ ؛ الكافرين المكذبين، الواضعين الأشياء فى غير محلها، مع كونه فى نفسه شفاء من الأسقام، ﴿ إلا خسارا ﴾ ؛ إلا هلاكاً بكفرهم وتكذيبهم به. ولا يفسر الخسران هنا بالنقصان؛ فإن ما بهم من داء الكفر والضلال حقيق بأن يُعبَّر عنه بالهلاك، لا بالنقصان المنبئ عن حصول بعض مبادئ الإسلام، فهم فى الزيادة فى مراتب الهلاك، من حيث إنهم، كلما جدّدوا الكفر والتكذيب بالآيات النازلة ازدادوا بذلك هلاكاً.

وفيه إيماء إلى أن ما بالمؤمنين من الشُّبَه والشكوك المعترية لهم فى أثناء الاهتداء والاسترشاد، بمنزلة الأمراض، وما بالكفرة؛ من الجهل والعناد بمنزلة الموت والهلاك، وإسناد زيادة الخسران إلى القرآن، مع أنهم هم المزدادون فى ذلك بسوء صنيعهم؛ باعتبار كونه سبباً لذلك، حيث كذّبوا به، وفيه تعجيب من أمره؛ حيث جعله مدار الشفاء والهلاك. قاله أبو السعود.

الإشارة: لا يحصل الاستشفاء بالقرآن إلا بعد التصفية والتطهير للقلب، بالتخلية والتحلية، على يد شيخ كامل، عارف بأدواء النفوس، حتى يتفرغ القلب من الأغيار والأكدار، ويذهب عنه وساوس النفوس وخواطر القلوب؛ ليتفرغ لسماع القرآن والتدبر فى معانيه. وأما إن كان القلب محشواً بصور الأكوان، مصروفاً إلى الخواطر والأغيار، لا يذوق له حلاوة، ولا يدرى ما يقول، فلا يهتدى لما فيه من الشفاء، إذ لا يستشفى بالقرآن إلا من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ولأجل ذلك كان من شأن شيوخ التربية أن يأمروا المريد بالذكر المجرد، حتى تُشرق عليه أنواره، وتذهب به عنه أغياره. وحينئذ يأمره بتلاوة القرآن؛ ليذوق حلاوته، فإذا كمل تطهيره، تمتع بحلاوة شهود المتكلم، فيسمعه من الحق بلا واسطة، وهو المراد بالرحمة المذكورة بعد الشفاء. والله تعالى أعلم.

وإذا أدرك العبدُ هذه النعمة العظمى، وجب عليه دوام الشكر، كما نبّه عليه تعالى بذكر ضدها، فقال:

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾

(١) عزاه فى الكنز (٢٨١١٠٦) للدارقطني فى الأفراد، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان﴾؛ بالصحة والعافية والنعمة، ﴿أعرضَ﴾ عن ذكرنا، فضلاً عن القيام بالشكر، ﴿ونَأى﴾ أي: تباعد ﴿بجانبه﴾؛ لوى عطفه وبعد بنفسه. فالنأى بالجانب: أن يلوى عن الشيء عِطفَه ويوليه عُرض وجهه، فهو تأكيد للإعراض. أو عبارة عن التكبر؛ لأنه من دِيْدن المستكبرين، ﴿وإذا مسَّه الشرُّ﴾؛ من فقر، أو مرض، أو نازلة من النوازل، ﴿كان يؤوساً﴾؛ شديد اليأس من روْحنا وفرجنا. وفي إسناد المسِّ إلى الشر، بعد إسناد الإنعام إلى ضمير الجلالة؛ إيذان بأن الخير مراد بالذات، والشر ليس كذلك. وهذا الوصف المذكور هنا هو وصف للإنسان باعتبار بعض أفراده ممن هو على هذا الوصف، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾(1)، ونظائره؛ فإن ذلك في نوع آخر من جنس الإنسان. وقيل: أريد به الوليد بن المغيرة.

قال تعالى: ﴿قُل كلٌّ﴾ أي: كل واحد منكم وممن هو على خلافكم ﴿يعملُ على شاكلته﴾؛ على طريقته التي تُشاكل حاله من الهُدى والضلالة، ﴿فربُّكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ أي: فربكم، الذي يراكم على هذه الأحوال والطرق، أعلم بمن هو أسدّ طريقاً وأبين منهاجاً. وقد فسرت الشاكلة أيضا بالطبيعة والعادة والدين والنية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للمؤمن المشفق على نفسه أن يمعن النظر في كلام سيده، فإذا وجده مدَحَ قوماً بعمل، بادر إلى فعله، أو بوصف، بادر إلى التخلق به، وإذا وجده ذم قوماً، بسبب عمل، تباعد عنه جهده، أو بوصف تطهر منه بالكلية. وقد ذم الحق تعالى هنا من بطر بالنعمة وغفل عن القيام بشكرها، ومن جزع عند المصيبة وأيس من ذهابها، فليكن المؤمن على عكس هذا، فإذا أصابته مصيبة أو بلية تضرع إلى مولاه، ورجى فضله ونواله، وإذا أصابته نعمة دنيوية أو دينية أكثر من شكرها، وشهد المنعم بها في أخذها وصرفها، ولا سيما نعمة الإيمان والمعرفة، وتصفية الروح من غبش الحس والوهم، حتى ترجع لأصلها، الذي هو سر من أسرار الله، الذي أشار إليه بقوله تعالى:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ويسألونك عن الروح﴾ أي: عن حقيقة الروح، الذي هو مدبر البدن الإنساني، ومبدأ حياته. رُوى أن اليهود قالوا لقريش: سلوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح،

(1) من الآية ٥١ من سورة فصلت.

فإن أجاب عنها كلها أو سكت فليس بنبي، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي. فبيّن لهم القصتين وأبهم أمر الروح، وهو مبهم في التوراة، فقال: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾، أظهر في مقام الإضمار؛ إظهاراً لكمال الاعتناء بشرفه، أي: هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأسرار الخفية، التي لا يكاد يحوم حولها عقولُ البشر. ﴿وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ لا يمكن تعلقه بأمثال هذه الأسرار.

رُوي أنه ﷺ لما قال لهم ذلك، قالوا: نحن مختصون بهذا الخطاب، قال عليه الصلاة والسلام: «بل نحن وأنتم». فقالوا: ما أعجب شأنك، ساعة تقول: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[1]، وتارة تقول هذا، فنزلت: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾[2] الآية. ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ...﴾[3] الآية. وهذا من ركاكة عقولهم؛ فإن من الحكمة الإنسانية أن يعلم من الخير ما تسعه الطاقة البشرية، بل ما نيط به المعاش والمعاد، وذلك بالإضافة إلى ما لا نهاية له من متعلقات علمه سبحانه، قليل ينال به خير: كثير في نفسه.

وقال ابن حجر: أخرج الطبراني عن ابن عباس أنهم قالوا: أخبرنا عن الروح، وكيف تُعذب الروح في الجسد؛ وإنما الروح من الله ؟. هـ. قلت: يُجاب بأنها لما برزت لعالم الشهادة لحقتها العبودية، وأحاطت به القهرية. وقال القشيري: أرادوا أن يُغالطوه فيما به يجيب، فأمَرَه أن ينطق بأمرٍ يُفصحُ عن أقسام الروح، لأنّ ما يُطْلَقُ عليه لفظ «الروح» يدخل تحت قوله: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾، ثم قال: وفي الجملة: الروح مخلوقة، والحق أجرى العادة بأن يخلق الحياة للعبد، ما دام الروح في جسده، والروح لطيفة تَقرب للكثافة في طهارتها ولطافتها. وهي مخلوقة قبل الأجساد بألوفٍ من السنين. وقيل: إن أدركها التكليف، كان للروح صفاء التسبيح، وضياء المواصلة، ويُمن التعريف بالحق. هـ. وقيل: المراد بالروح: خلق عظيم روحاني من أعظم الملائكة، وقيل: جبريل عليه السلام، وقيل: القرآن. ومعنى (من أمر ربي)؛ من وحيه وكلامه، لا من كلام البشر. والله تعالى أعلم بمراده.

الإشارة: قد أكثر الناسُ الكلام في شأن الروح، فرأى بعضهم أن الإمساك عنها أولى؛ لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - لم يجب عنها. وبيّن الحق تعالى أنها من أمر الله وسر من أسراره. ورأى بعضهم أن النهي لم يرد عن الخوض فيها صريحاً، فتكلم على قدر فهمه. فقال بعضهم: حقيقة الروح: جسم لطيف مشتبك بالبدن اشتباك الماء بالعود الأرطب، وقال صاحب (الرموز في فتح الكنوز) على حديث: «من عرف نفسه عرف ربه»: قد ظهر

(١) من الآية ٢٦٩ من سورة البقرة.
(٢) من الآية ١٠٩ من سورة الكهف.
(٣) من الآية ٢٧ من سورة لقمان، وعزاه الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف للثعلبي في التفسير، بغير سند ولا راو.

لى من سر هذا الحديث ما يجب كشفه ويستحسن وصفه، وهو: أن الله، سبحانه، وضع هذا الروح فى هذه الجثة الجثمانية، لطيفة لاهوتية، فى كثيفة ناسوتية، دالة على وحدانيته تعالى وربانيته، ووجه الاستدلال من عشرة أوجه: **الأول:** أن هذا الهيكل الإنسانى لمّا كان مفتقراً إلى محرك ومدبر، وهذا الروح هو الذى يدبره ويحركه، علمنا أن هذا العالم لابد له من محرك ومدبر. **الثانى:** لمّا كان مدبر الجسد واحداً؛ علمنا أن مدبر هذا العالم واحد لا شريك له فى تدبيره وتقديره. قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾(١). **الثالث:** لمّا كان لا يتحرك هذا الجسم إلا بتحريك الروح وإرادته؛ علمنا أنه لا يتحرك بخير أو شر إلا بتحريك الله وقدرته وإرادته. **الرابع:** لمّا كان لا يتحرك فى الجسد شىء إلا بعلم الروح وشعورها، لا يخفى على الروح من حركة الجسد شىء، علمنا أنه تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء. **الخامس:** لمّا كان هذا الجسد لم يكن فيه شىء أقرب إلى الروح من شىء؛ علمنا أنه تعالى قريب إلى كل شىء، ليس شىء أقرب إليه من شىء، ولا شىء أبعد إليه من شىء، لا بمعنى قرب المسافة؛ لأنه منزه عن ذلك. **السادس:** لمّا كان الروح موجوداً قبل الجسد، ويكون موجوداً بعد عدمه؛ علمنا أنه تعالى موجود قبل خلقه، ويكون موجوداً بعد عدمهم، ما زال، ولا يزال، وتقدس عن الزوال. **السابع:** لمّاكان الروح فى الجسد لا تعرف له كيفية؛ علمنا أنه تعالى مقدس عن الكيفية. **الثامن:** لمّا كان الروح فى الجسد لا تعرف له كيفية ولا أينية، بل الروح موجود فى سائر الجسد، ما خلا منه شىء فى الجسد. كذلك الحق سبحانه موجود فى كل مكان، وتنزه عن المكان والزمان. **التاسع:** لمّا كان الروح فى الجسد لا يحس ولا يجس ولا يُمس، علمنا أنه تعالى منزه عن الحس والجس والمس. **العاشر:** لمّا كان الروح فى الجسد لا يُدرك بالبصر، ولا يمثل بالصور، علمنا أنه تعالى لاتُدركه الأبصار، ولا يمثل بالصور والآثار، ولا يشبه بالشموس والأقمار، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾(٢) .هـ. وحديث «من عرف نفسه...، الخ»، قال النووى: غير ثابت، وقال السمعانى: هو من كلام يحيى ابن معاذ الرازى.والله تعالى أعلم.

وسئل أبو سعيد الخراز عن الروح، أمخلوقة هى؟ قال: نعم. ولولا ذلك لما أقرت بالربوبية حتى قالت: «بلى». قلت: لما انفصلت عن الأصل كستها أردية العبودية، فأقرت بالربوبية. وقال الورتجبى: الروح: شعاع الحقيقة، يختلف آثارها فى الأجساد. قال: ومن خاصيتها أنها تميل إلى كل حسن ومستحسن، وكل صوت طيب؛ وكل رائحة طيبة؛ لحسن جوهرها وروح وجودها، ظاهرها غيب الله، وباطنها سر الله، مصورة بصورة آدم، فإذا أراد الله

(١) من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء.
(٢) من الآية ١١ من سورة الشورى.

خلق آدمى أحضر روحه، فصور صورته بصورة الروح؛ فلذلك قال عليه الصلاة والسلام؛ إشارة وإبهاما: «خلق الله آدم على صورته» . هـ . قلت: يعني: أن إظهار الروح من بحر الجبروت، في التجلي الأول، كان على صورة آدم، ثم خلق آدم على صورة الروح الأعظم، وهو التجلي الأول من بحر المعاني، فكانت أول التجليات من ذات الرحمن، فقال في حديث آخر: «إن الله خلق آدم على صورة الرحمن» . والله تعالى أعلم. وقيل: الصوت الطيب روحاني، ولتشاكله مع الروح، صار يهيج الروح ويحثها للرجوع لأصلها، إذا كان صاحبها له ذوق سليم، يسمع من صوت طيب كريم. سمع أبو يزيد نغمة، فقال: أجد النغم نداء منه تعالى. وقيل: إن الروح لم تدخل في جسد آدم إلا بالسماع، فصارت لا تخرج من سجنه إلا بالسماع. والله تعالى أعلم.

ثم بيَّن قوله: ﴿ وما أُو تيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ ، فقال:

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾

قلت: قال ابن جزى: هذه الآية متصلة المعنى بقوله: ﴿ وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ أي: في قدرتنا أن نذهب بالذى أوحينا إليك، فلا يبقى عندكم شيء من العلم.هـ. (إلا رحمة): يحتمل أن يكون متصلاً، أي: لا تجد من يتوكل برده إلا رحمة ربك. أو منقطعا، أي: لو شئنا لذهبنا بالقرآن، لكن رحمة من ربك تمسكه من الذهاب، و(لا يأتون): جواب القسم؛ الدال عليه اللام الموطئة، وسد مسد جواب الشرط. ولولا اللام لكان جواباً للشرط، ولم يُجزَمْ؛ لكون الشرط ماضياً، كقول زهير:

فإنْ أتَاهُ خَلِيــلٌ يَوْمَ مَسْــأَلَةٍ ... يقُولُ لاَ غَائِبٌ مَا لِى وَلاَ حَرَمُ (١)

و(إلا كفورا): استثناء مفرغ منصوب بأبَى؛ لأنه في معنى النفي، أي: ما رضى أكثرهم إلا الكفر به.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ولئنْ شئنا لنَذْهَبنَّ بالذي أوْحَينا إليك ﴾ أي: بالقرآن الذى هو منبع العلوم التى أُوتيتموها، ومقتبس الأنوار، فلا يبقى عندكم من العلم إلا قليلا. والمراد بالإذهاب: المحو من المصاحف

(١) انظر ديوانه /٩١.

والصدور. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: (أول ما تفقدون من دينكم: الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة، وليصلين قوم ولادين لهم. وإن هذا القرآن تصبحون يوماً وما فيكم منه شيء. فقال رجل: كيف ذلك، وقد أثبتناه في قلوبنا، ودوناه في مصاحفنا، وعلمناه أبناءنا، وأبناؤنا يعلمه أبناءهم؟! فقال: يسرى عليه، ليلاً، فيصبح الناس منه فقراء، ترفع المصاحف، وينزع ما في القلوب)(١). ﴿ثم﴾ إن رفعناه ﴿لا تجدُ لك به﴾ أي: القرآن ﴿علينا وكيلاً﴾ أي: من يتوكل علينا استرداده مسطوراً محفوظاً، ﴿إلا رحمةً من ربك﴾؛ فإنها إن تأتك لعلها تسترده، أو: لكن رحمة من ربك أمسكته؛ فلم يذهب. ﴿إنَّ فضله كان عليك كبيراً﴾، كإرْسالك للناس كافة، وإنزال الكتاب عليك، وإنعامه في حفظك، وغير ذلك مما لا يحصى.

ثم نوّه بقدر الكتاب الذي أنزله فقال: ﴿قل لئن اجتمعت الإنسُ والجنُ﴾، واتفقوا ﴿على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ﴾ المنعوت بما لا تدركه العقول من النعوت الجليلة في البلاغة، وحسن النظم، وكمال المعنى، ﴿لا يأتون بِمثله﴾ أبداً؛ لما تضمنه من العلوم الإلهية، والبراهين الواضحة، والمعاني العجيبة، التي لم يكن لأحد بها علم، ثم جاءت فيه على الكمال، ولذلك عجزوا عن معارضته. وقال أكثر الناس: إنما عجزوا عنه؛ لفصاحته، وبراعته، وحسن نظمه. ووجوه إعجازه كثيرة. وإنما خص الثقلين بالذكر؛ لأن المنكر كونه من عند الله منهما، لا لأنّ غيرهما قادر على المعارضة. وإنما أظهر في محل الإضمار، ولم يقل: لا يأتون به؛ لئلا يتوهم أن له مثلا معينا، وإيذاناً بأن المراد نفي الإتيان بمثلٍ مّا، أي: لا يأتون بكلام مماثل له فيما ذكر من الصفات البديعة، وفيهم العرب العاربة، أرباب البراعة والبيان. فلا يقدرون على الإتيان بمثله ﴿ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً﴾ أي: ولو تظاهروا وتعاونوا على الإتيان بمثله ما قدروا. وهو عطف على مقدر، أي: لا يأتون بمثله لو لم يكن بعضهم ظهيراً لبعض، ولو كان.. الخ. ومحله النصب على الحالية، أي: لا يأتون بمثله على كل حال مفروض، ولو على هذه الحالة.

ثم قال تعالى: ﴿ولقد صرَّفنا﴾ أي: كررنا ورددنا على أنحاء مختلفة، توجب زيادة تقرير وبيان، ووكادة رسوخ واطمئنان، ﴿للناس في هذا القرآن﴾ المنعوت بما ذكر من النعوت الفاضلة، ﴿من كل مَثَلٍ﴾؛ من كل معنى بديع، هو، في الحسن والغرابة واستجلاب الأنفس، كالمثل؛ ليتلقوه بالقبول، أو بيَّنا لهم كل شيء محتاجون إليه من العلوم النافعة، والبراهين القاطعة، والحجج الواضحة. وهذا يدل على أن إعجاز القرآن هو بما فيه من

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (باب في الأمانات../٥٢٧٣) ببعض الاختصار، موقوفاً.

المعاني والعلوم، ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾؛ إلا جحوداً وامتناعاً من قبوله. وفيه من المبالغة ما ليس في نفي مطلق الإيمان؛ لأنّ فيه دلالة على أنهم لم يرضوا بخصلة سوى الكفور والجحود، وأنهم بالغوا في عدم الرضا حتى بلغوا مرتبة الإباء. وبالله التوفيق.

الإشارة: كما وقع التخويف بإذهاب خصوصية النبوة والرسالة، يقع التخويف بإذهاب خصوصية الولاية والمعرفة العيانية، فإن القلوب بيد الله، يُقلبها كيف يشاء. والخصوصية أمانة مودعة في القلوب، فإذا شاء رفعها رفَعها، ولذلك كان العارف لا يزول اضطراره. وما زالت الأكابر يخافون من السلب بعد العطاء، ويشدون أيديهم على الأدب؛ لأن سوء الأدب هو سبب رفع الخصوصية، والعياذ بالله.

قال القشيري: سُنَّةُ الحقِّ مع خيار خواصه؛ أن يُديم هم شهود افتقارهم إليه؛ ليكونوا في جميع الأحوال مُنْقادين بجريانِ حُكْمِه، ثم قال: والمرادُ والمقصودُ: إدامة تَفَرُّدِ سِرِّ حبيبه به، دونَ غيره .هـ. وأما سلب الأولياء بعضهم لبعض فلا يكون في خصوصية المعرفة بعد التمكين؛ إذ لا مانع لما أعطى الكريم، وإنما يكون في خصوصية التصريف وسر الأسماء، إذا كان أحدهما متمكناً فيه، وقابل من لم يتمكن، قد ينجذب إلى القوى بإذن الله، وقد يُزال منه إذا طغى به. والله تعالى أعلم.

ثم أظهر الحق تعالى جحودهم وعتوهم، فقال:

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

قلت: من قرأ «كسفاً» بالتحريك: فهو جمع. ومن قرأ بالسكون: فمفرد. و(قبيلا): حال من «الله». وحذف حال الملائكة؛ لدلالة الأول عليه. و(أن يؤمنوا): مفعول ثان لمنع. و(إلا أن قالوا): فاعل «منع».

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقالوا﴾ أي: كفار قريش، عند ظهور عجزهم، ووضوح مغلوبيتهم بالإعجاز التنزيلي، وغيره من المعجزات الباهرة، معلِّلين بما لا يمكن في العادة وجوده، ولا تقتضي الحكمة وقوعه، من الأمور الخارقة للعادة، كما هو ديْدن المبهوت المحجوج، قالوا للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ في جمع من أشرافهم: إن مكة قليلة الماء، فـفجر لنا فيها عيناً من ماء، وهو معنى قوله تعالى: ﴿لن نُّؤمن لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض﴾؛ أرض مكة ﴿يَنْبوعًا﴾؛ عيناً لا ينشف ماؤها. وينبوع: يفعول، من نبع الماء إذا خرج.

﴿أو تكون لك جنّةٌ﴾ أي: بستان يستر أشجاره ما تحتها من العرصة، ﴿من نخيلٍ وعِنَبٍ فتفجرَ الأنهارَ﴾ أي: تجريها بقوة، ﴿خلالها﴾؛ في وسطها ﴿تفجيراً﴾ كثيراً، والمراد: إما إجراء الأنهار خلالها عند سقيها، أو إدامة إجرائها، كما ينبيء عنه «الفاء»، ﴿أو تُسْقِطَ السماءَ كما زعمتَ علينا كِسَفًا[1]﴾؛ قطعاً متعددة، أو قطعاً واحداً، و(كما زعمت): يعنون بذلك قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾[2]، ﴿أو تأتي بالله والملائكة قَبيلاً﴾ أي: مقابلاً؛ نعاينه جهراً، أو ضامناً وكفيلاً يشهد بصحة ما تدعيه، ﴿أو يكون لك بيتٌ من زُخرف﴾ أي: ذهب. وقرئ به. وأصل الزخرفة: الزينة، ﴿أو ترْقَى في السماء﴾ أي: في معارجها؛ فحذف المضاف. ﴿ولن نؤمن لرُقيك﴾ أي: لأجل رُقيك فيها وحده ﴿حتى تنزل﴾ منها ﴿علينا كتابا﴾ فيه تصديقك، ﴿نقرؤه﴾ نحن، من غير أن يتلقى من قبلك. وعن ابن عباس رضي الله عنه: قال عَبْدُاللهِ بنُ أُميَّة لرسول ﷺ ـ وكان ابن عمته ـ: لن أؤمن لكَ حتّى تتّخذَ إلى السماء سلّماً، ثم ترقى فيه وأنا أنظر، حتّى تأتيها، وتأتي معك بصك منشور، معه أربعة من الملائكةِ يشْهَدُونَ أنك كما تقول. هـ. ثم أسلم عبدالله بعد ذلك. ولم يقصدوا بتلك الاقتراحات الباطلة إلا العناد واللجاج. ولو أنهم أوتوا أضعاف ما اقترحوا من الآيات، ما زادهم ذلك إلا مكابرة. وإلا فقد كان يكفيهم بعض ما شهدوا من المعجزات، التي تخر لها صُم الجبال.

قال تعالى لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿قلْ﴾؛ تعجباً من شدة شكيمتهم. وفي رواية «قال»: ﴿سبحان ربي﴾؛ تنزيهاً له من أن يتحكم عليه أو يشاركه أحد في قدرته. أو تنزيهاً لساحته ـ سبحانه ـ عما لا يليق بها، من مثل هذه الاقتراحات الشنيعة، التي تكاد السموات يتفطرن منها، أو عن طلب ذلك، تنبيهاً على بطلان ما قالوه، ﴿هل كنتُ إلا بشراً﴾ لاملَكاً، حتى يتصور مني الرقي في السماء ونحوه، ﴿رسولاً﴾؛ مأموراً من قبل ربي

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وعاصم: (كسفا) بفتح السين، أي: قطعاً، جمع كِسْفة، وقرأ الباقون: بسكون السين؛ على التوحيد، جمع «كسفة»؛ كسدرة وسدر. انظر: شرح الهداية (٢/ ٣٩٠)، والإتحاف (٢/ ٢٠٥).
(٢) من الآية ٩ من سورة سبأ.

بتبليغ الرسالة، كسائر الرسل. وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله على أيديهم، حسبما يلائم حال قومهم، ولم يكن أمر الآيات إليهم، ولا لهم أن يتحكموا على ربهم بشيء منها.

﴿ وما مَنَعَ الناسَ ﴾ أي: الذين حكيتْ أباطيلهم، ﴿ أنْ يُؤمنوا إذ جاءهم الهُدى ﴾ أي: الوحي، وهو ظرف لمنع، أو يؤمنوا، أي: وما منعهم وقت مجيئ الوحي المقرون بالمعجزات المستدعية للإيمان، أن يؤمنوا بالقرآن وبنبوتك، ﴿ إلا أن قالوا ﴾ أي: إلا قولهم: ﴿ أَبَعثَ اللهُ بشراً رسولاً ﴾، منكرين أن يكون الرسول من جنس البشر. وليس المراد أن هذا القول صدر من بعضهم؛ فمنع بعضاً آخر منهم، بل المانع هو الاعتقاد الشامل للكل، المستتبع بهذا المقول منهم. وإنما عبَّر عنه بالقول؛ إيذاناً بأنه مجرد قول يقولونه بأفواههم من غير روية، ولامصداق له في الخارج. وقصر المانع من الإيمان فيما ذكر، مع أن لهم موانع شتى، إما لأنه معظمها، أو لأنه المانع بحسب الحال، أعني: عند سماع الجواب بقوله تعالى: ﴿ هل كنتُ إلا بشراً رسولاً ﴾؛ إذ هو الذي يتشبثون به حينئذ، من غير أن يخطر ببالهم شبهة أخرى من شبههم الواهية.

﴿ قلْ ﴾ لهم من قِبَلنا؛ تثبيتاً للحكمة، وتحقيقاً للحق المزيح للريب: ﴿ لو كان ﴾ أي: لو وُجد واستقر ﴿ في الأرض ﴾؛ بدل البشر ﴿ ملائكةٌ يمشونَ مطمئنين ﴾ قارين ساكنين فيها، ﴿ لنزَّلنا عليهم من السماء مَلَكاً رسولاً ﴾ يهديهم إلى الحق؛ لتمكنهم من الاجتماع به والتلقي منه. وأما عامة البشر فهم بمعزل من استحقاق المفاوضة مع الملائكة؛ لأنها منوطة بالتناسُب والتجانس، فبعث الملائكة إليهم مناقض للحكمة التي يدور عليها أمر التكوين والتشريع. وإنما يبعث الملك إلى الخواص، المختصين بالنفوس الزكية، المؤيدة بالقوة القدسية، فيتلقون منهم ويُبلغون إلى البشر.

﴿ قل كفى بالله ﴾ وحده ﴿ شهيداً ﴾ على أني أديتُ ما عليَّ من مواجب الرسالة، وأنكم فعلتم ما فعلتم من التكذيب والعناد. فهو شهيد ﴿ بيني وبينكم ﴾، وكفى به شهيداً، ولم يقل: بيننا؛ تحقيقاً للمفارقة، وإبانة للمباينة، ﴿ إنه كان بعباده ﴾ من الرسل والمرسل إليهم، ﴿ خبيراً بصيراً ﴾؛ محيطاً بظواهر أعمالهم وبواطنها، فيجازيهم على ذلك. وهو تعليل للكفاية. وفيه تسلية للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتهديد للكفار، والله تعالى أعلم.

الإشارة: طلب الكرامات من الأولياء جهل بطريق الولاية، وسوء الظن بهم، إذ لا يشترط في تحقيق الولاية ظهور الكرامة، وأيُّ كرامة أعظم من كشف الحجاب بينهم وبين محبوبهم، حتى عاينوه وشاهدوه حقاً، وارتفعت عنهم الشكوك والأوهام، وصار شهود الحق عندهم ضرورياً، ووجود السِّوى محالاً ضرورياً، فلا كرامة أعظم من

هذه؟وكلامنا مع العارفين، وأما الصالحون والعباد والزهاد فهم محتاجون إلى الكرامة؛ ليزداد إيقانهم، وتطمئن نفوسهم؛ إذ لم يرتفع عنهم الحجاب، ولم تنقشع عنهم سحابة الأثر.

والهداية بيد الله، كما قال تعالى:

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴾

قلت: (على وجوههم): حال من ضمير «نحشرهم» .و(عُميًا..) الخ: حال أيضًا من ضمير «وجوههم». و(مأواهم): استئناف، وكذا: (كلما..) الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن يَهدِ اللهُ﴾ إلى الحق الذى جاء من قبله على أيدى الرسل، ﴿فهو المهتد﴾ إليه، وإلى ما يؤدى إليه من الثواب، أو فهو المهتدى إلى كل مطلوب، ﴿ومن يُضلل﴾ أى: يخلق فيه الضلال، كهؤلاء المعاندين، ﴿فلن تجد لهم أولياء من دونه﴾ ينصرونهم من عذابه، أو يَهدونهم إلى طريقه، ويُوصلونهم إلى مطالبهم الدنيوية والأُخروية. ووحد الضمير أولاً فى قوله: (فهو المهتد): مراعاة للفظ «من»، وجمع ثانياً فى (لهم)؛ مراعاة لمعناها؛ تلويحاً بوحدة طريق الحق، وتعدد طرق الضلال.

﴿ونحشرُهم﴾، فيه التفات من الغيبة إلى التكلم؛ إيذاناً بكمال الاعتناء بأمر الحشر، أى: ونسوقهم ﴿يوم القيامة على وجوههم﴾ أى: كابين عليها؛ سَحْباً، كقوله: ﴿يوم يسحبون فى النار على وجوههم﴾[1]، أو: مشياً إلى المحشر بعد القيام، فقد رُوى أنه قيل لرسول الله ﷺ: كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «الذي أمْشَاهُمْ عَلَى أَقْدَامِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ»[2]. حال كونهم ﴿عُمْيًا وبُكمًا وصُمًا﴾؛ لا يُبصرون ما يقر أعينهم، ولاينطقون بما يُقبل منهم، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم، لمّا كانوا فى الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر، ولا ينطقون بالحق ولا يستمعونه. ويجوز أن يُحشروا، بعد الحساب، من الموقف إلى النار، مؤَوفي[3] القُوى والحواس. وأن يُحشروا كذلك، ثم تعاد إليهم قواهم وحواسهم، فإنّ إدراكاتهم بهذه المشاعر فى بعض المواطن مما لا ريب فيه.

(١) من الآية ٤٨ من سورة القمر.
(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٣٥٤)، والترمذى وحسنه فى (التفسير ـ سورة الإسراء) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.
(٣) مؤوفي: صيغة جمع مضافة، من الآفة، وهى العاهة. وإيف الزرع: أصابته آفة، فهو مؤوف؛ على وزن: معوف. انظر مختار الصحاح (أوف).

﴿ مأواهم جهنم ﴾؛ هي مسكنهم، ﴿ كلما خَبَتْ ﴾؛ خمدت ﴿ زدناهم سعيراً ﴾؛ توقداً، أي: كلما سكن لهبها، وأكلت جلودهم ولحومهم، ولم يبق فيهم ما تتعلق به النار وتحرقه، زدناهم توقداً؛ بأن بدلناهم جلوداً غيرها فعادت ملتهبة ومسعرة. ولعل ذلك عقوبة على إنكارهم البعث مرة بعد مرة، ليروْها عياناً، حيث لم يعلموها برهاناً، كما يُفصح عنه قوله: ﴿ ذلك ﴾ أي: ذلك العذاب ﴿ جزاؤهم بأنهم ﴾؛ بسبب أنهم ﴿ كفروا بآياتنا ﴾ العقلية والنقلية، الدالة على وقوع الإعادة دلالة واضحة. ﴿ وقالوا ﴾؛ منكرين البعث أشد الإنكار: ﴿ أئذا كُنَّا عظامًا ورُفاتًا أئنا لمبعوثون خَلقًا جديداً ﴾ أي: أنوجدُ خلقًا جديداً بعد أن صرنا ترابا؟ و«خلقاً»: إما مصدر مؤكد من غير لفظه، أي: لمبعوثون مبعثا جديداً، أو حال، أي: مخلوقين مستأنفين.

الإشارة: من يهده الله إلى صريح المعرفة وسر الخصوصية فهو المهتد إليها، يهديه أولاً إلى صحبة أهلها، فإذا تربي وتهذب أشرقت عليه أنوارها. ومن يُضلله عنها، فلا ينظر ولا يهتدى إلى صحبة أهلها، فيُحشر يوم القيامة محجوباً عن الله، كما عاش محجوباً. يموت المرء على ما عاش عليه، ويُبعث على ما مات عليه، لا يُبصر أسرار الذات في مظاهر النعيم، ولا ينطق بالمكالمة مع الرحمن الرحيم، ولا يسمع مكالمة الحق مع المقربين؛ وذلك بسبب إنكاره لأهل التربية في زمانه، وقال: لا يمكن أن يبعث الله من يحيي الأرواح الميتة بالجهل؛ بالمعرفة الكاملة. وفيه إنكار لعموم القدرة الأزلية، وتحجير على الحق. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر دلائل عموم قدرته، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

قلت: (وجعل): عطف على «قادر»؛ لأنه في قوة قدر، أو استئناف. و(لو أنتم): الضمير: فاعل بفعل يفسره مابعده، كقول حاتم:

لَوْ ذَاتُ سِوَارٍ لطَمَتْني(١).

وفائدة ذلك الحذف والتفسير؛ للدلالة على الاختصاص والمبالغة. وقيل في إعرابه غير هذا.

---

(١) مثّل لحاتم الطائي، انظر ديوانه (٢٦).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أوَ لم يروا ﴾ أى: أوَلم يتفكروا ولم يعلموا ﴿ أنَّ الله الذى خلق السموات والأرضَ ﴾ من غير مادة، مع عِظمها، ﴿ قادرٌ على أن يخلُق مثلهم ﴾ فى الصِّغر والحقارة. على أن المثل مقحم، أى: على أن يخلقهم خلقاً جديداً؛ فإنهم ليسوا أشد خلقاً منهم، ولا الإعادة بأصعب من الإبداء، ﴿ وجعل لهم ﴾ أى: لموتهم وبعثهم ﴿ أجلاً ﴾ محققًا ﴿ لاريب فيه ﴾ وهو: القيامة. ﴿ فأبى الظالمون إلا كفوراً ﴾؛ إلا جحوداً، وضع الظاهر موضع الضمير؛ تسجيلاً عليهم بالظلم وتجاوز الحد فيه.

﴿ قلْ ﴾ لهم: ﴿ لو أنتم تملكونَ خزائنَ رحمةِ ربي ﴾؛ خزائن رزقه وسائر نعمه التى أفاضها على كافة الموجودات، ﴿ إذًا لأمْسَكْتم ﴾؛ لبخلتم، ﴿ خشيةَ الإنفاق ﴾؛ مخافة النفاد بالإنفاق، إذ ليس فى الدنيا أحد إلا وهو يختار النفع لنفسه، ولو آثر غيره بشيء فإنما يُؤثره لغرض يفوقه، فهو إذاً بخيل بالإضافة إلى جود الله سبحانه، إلا من تخلق بخلق الرحمن؛ من الأنبياء وأكابر الصوفية. ﴿ وكان الإنسانُ قَتوراً ﴾؛ مبالغًا فى البخل؛ لأن مبنى أمره على الحاجة والضنة بما يحتاج إليه، وملاحظة العوض فيما يبذل. يعنى: أن طبع الإنسان ومنتهى نظره: أن الأشياء تتناهى وتفنى، وهو لو ملك خزائن رحمة الله لأمسك خشية الفقر، وكذلك يظن أن قدرة الله تقف دون البعث، والأمر ليس كذلك، بل قدرته لا تتناهى، فهو يخترع من الخلق ما يشاء، ويخترع من الأرزاق مايريد، فلا يخاف نفاد خزائن رحمته. وبهذا النظر تتصل الآية بما قبلها. انظر ابن عطية.

قلت: ويمكن أن تتصل فى المعنى بقوله: (أبعثَ اللهُ بشراً رسولا)، فكأنَّ الحق تعالى يقول لهم: لو كانت بيدكم خزائن رحمته، لخصصتم بالنبوة من تريدون، لكن ليست بيدكم، ولو كانت بيدكم؛ تقديراً، لأمسكتم خشية الإنفاق؛ لأن طبع الإنسان البخل وخوف الفقر، فهو كقوله تعالى: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾(١)، بعد قوله: ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ (٢). والله تعالى أعلم.

الإشارة: الحق تعالى قادر على أن يخلق ألف عالمَ فى لحظة، وأن يفنى ألف عالم فى لحظة، فلا يعجزه شيء من الممكنات. وكما قدر أن يحيى الإنسان بعد موته الحسى؛ هو قادر على أن يحييه بعد موته المعنوى بالجهل والغفلة، على حسب ما سبق له فى المشيئة، وجعل لذلك أجلاً لاريب فيه، فلا يجحد هذا إلا من كان ظالماً كفورا. قل لمن يخصص الولاية بنفسه، أو بأسلافه، وينكر أن يفتح الله على قوم كانوا جُهالاً: لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم الخصوصية عندكم؛ خشية أن ينفد ما عندكم، وكان الإنسان قتوراً، لا يُحب الخير إلا لنفسه.

(١) الآية ٩ من سورة ص.
(٢) الآية ٤ من سورة ص.

ثم سلّى رسوله ﷺ عما اقترحوا عليه من الآيات؛ تشغيباً وعناداً، بما جرى لموسى عليه السلام مع قومه، بعد ظهور الآيات، فلم تنفعهم شيئاً، فقال:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

قلت: قال في الأساس: ثبره الله: أهلكه هلاكاً دائماً، لا ينتعش بعده، ومن ثَم يدعو أهلُ النار: واثبوراه. وما ثبرك عن حاجتك: ما ثبطك عنها. وهذا مثبَرُ فلانة: لمكان ولادتها، حيث يثبرها النفاس. وفي القاموس: الثبر: الحبْسُ والمنع، كالتثبير والصرف عن الأمر وعن الحبيب، واللعن والطرد. والثبور: الهلاك والويل والإهلاك .هـ. و(إذا جاءهم) : إما متعلق بآياتنا، أو بقلنا محذوف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد آتينا موسى تسعَ آيات بينات ﴾ ؛ واضحات الدلالة على نبوته، وصحة ما جاء به من عند الله. وهي: العصا، واليد، والجراد، والقُمل، والضفادع، والدم، والطوفان، والسنون، ونقص الثمرات. وقيل: انفجار الماء من الحجر، ونتق الطور، وانفلاق البحر، بدل الثلاث. وفيه نظر؛ فإن هذه الثلاث لم تكن لفرعون، وإنما كانت بعد خروج سيدنا موسى عليه السلام. وعن صفوان بْن عسال: أن يهودياً سأل النبي ﷺ عنها فقال: «ألاّ تُشْرِكُوا به شَيْئاً، ولا تَسرِقُوا، ولا تَزْنُوا، ولا تَقْتُلوا النَّفس التي حَرَّم اللهُ إلاَّ بالحَقّ، ولا تَسْحَرُوا، ولا تأكُلوا الرِّبَا، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سُلْطَانٍ ليَقْتُلَه، ولا تَقذفُوا المُحْصَنَةَ، ولا تَفِروُّا مِنَ الزَّحْفِ، وعليكم، خاصَّةَ اليهود، ألاَّ تَعْدُوا في السَّبْتِ» . فقبَّل اليهوديُّ يَدَهُ ورِجْلَهُ ـ عليه الصلاة والسلام[(١)] .

قلت: ولعل الحق تعالى أظهر لهم تسعاً، وكلفهم بتسع، شكراً لما أظهر لهم، فأخبر ـ عليه الصلاة والسلام ـ السائل عما كلفهم به؛ لأنه أهم، وسكت عما أظهر لهم؛ لأنه معلوم. وإنما قبَّل السائلُ يده؛ لموافقته لما في التوراة، وقد علم أنه ما علمه رسول الله ﷺ إلا بالوحي، وقوله عليه الصلاة والسلام: «وعليكم، خاصة اليهود، ألا تعدوا»، حكم مستأنف زائد على الجواب، ولذلك غيَّر فيه سياق الكلام.

---

(١) أخرجه الترمذي في (الاستئذان، باب ما جاء في قبلة اليد والرجل)، وقال: حسن صحيح. والنسائي في (تحريم الدم، باب السحر)، والإمام أحمد (٤/٢٣٩) والحاكم وصححه في (الإيمان١/٩).

قال تعالى: ﴿فسل[1] بني إسرائيل﴾ أي: سل، يا محمد، بني إسرائيل المعاصرين لك عما ذكرنا من قصة موسى؛ لتزداد يقينا وطمأنينة، أو: ليظهر صدقك لعامة الناس، أو: قلنا لموسى: سل بني إسرائيل مِن فرعون، أي: اطلبهم منه؛ ليرسلَهم معك، أو سل بني إسرائيل أن يعضدوك ويكونوا معك. ويؤيد هذا: قراءة رسول الله ﷺ «فَسَأل»؛ على صيغة الماضي، بغير همز، وهي لغة قريش. ﴿إذْ جاءهم﴾ أي: آتينا موسى تسع آيات حين جاءهم بالرسالة، أو قلنا له: سل بني إسرائيل حين جاءهم بالوحي. ﴿فقال له فرعونُ﴾ حين أظهر له ما آتيناه من الآيات، وبلغة ما أرسل به: ﴿إني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾ أي: سُحرت فتخبط عقلك.

﴿قال﴾ له موسى: ﴿لقد علمتَ﴾ يا فرعون، ﴿ما أنزل هؤلاء﴾ الآيات التي ظهرت على يدي ﴿إلا ربُّ السمواتِ والأرض﴾؛ خالقهما ومدبرهما، ولا يقدر عليها غيره، حال كونها ﴿بصائرَ﴾؛ بينات تبصرك صدقي، ولكنك تعاند وتكابر، وقد استيقنتها أنفسكم، فجحدتم؛ ظلمًا وعلوا، ﴿وإني لأظنك يافرعونُ مثبوراً﴾ أي: مهلكاً مقطوعاً دابرك، أو مغلوباً مقهوراً، أو مصروفاً عن الخير. قابل موسى عليه السلام قول فرعون: ﴿إني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾ بقوله: ﴿وإني لأظنك يا فرعون مثبورا﴾؛ وشتان ما بين الظنين؛ ظنُّ فرعون إفك مبين، وظن موسى حق اليقين؛ لأنه بوحي من رب العالمين، أو من تظاهر أماراته.

﴿فأراد فرعون أن يستفزهم﴾ أي: يستخفهم ويزعجهم ﴿من الأرض﴾؛ أرض مصر، ﴿فأغرقناه ومَنْ معه جميعاً﴾؛ فعكسنا عليه علمه ومكره، فاستفززناه وقومه من بلده بالإغراق. ﴿وقلنا من بعده﴾ من بعد إغراقه ﴿لبني إسرائيل اسكنُوا الأرضَ﴾ التي أراد أن يستفزكم هو منها. أو أرض الشام. وهو الأظهر، إذ لم يصح أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بالسكنى. وانظر عند قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[2] ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ أي: الحياة الآخرة، أو الدار الآخرة، أي: قيام الآخرة، ﴿جئنا بكم لفيفًا﴾؛ مختلطين إياكم وإياهم، ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم. واللفيف: الجماعات من قبائل شتى. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا ينفع في أهل الحسد والعناد ظهور معجزة ولا آية، ولا يتوقف عليها من سبقت له العناية، لكنها تزيد تأييداً، وطمأنينة لأهل اليقين، وتزيد نفوراً وعناداً، لأهل الحسد من المعاندين. وبالله التوفيق.

(١) قرأ ابن كثير والكسائي: «فسَلْ»؛ بنقل حركة الهمزة إلى السين. وقرأ الباقون: (فاسأل). انظر الإتحاف ٢/٢٠٦.
(١) الآية ٥٩ من سورة الشعراء.

ولما ذكر آية موسى عليه السلام ذكر آية نبينا محمد ﷺ وهو القرآن، فقال:

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾

قلت: تقديم المعمول، وهو (بالحق): يُؤذن بالحصر. و(قرآنا): مفعول بمحذوف يُفسره ما بعده.

يقول الحق جل جلاله في شأن القرآن: ﴿ وبالحقِّ أنزلناه وبالحق نَزَلَ ﴾ أى: ما أنزلنا القرآن إلا ملتبساً بالحق، المقتضى لإنزاله، وما نزل إلا بالحق الذى اشتمل عليه من الأمر والنهى، والمعنى: أنزلناه حقاً مشتملا على الحق. أو: ما أنزلناه من السماء إلا محفوظاً بالرصَد من الملائكة، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً من تخليط الشياطين. ولعل المراد: عدم اعتْراء البطلان له أولاً وآخراً. ﴿ وما أرسلناك إلا مبشراً ﴾ للمطيعين بالثواب، ﴿ ونذيراً ﴾ للعاصين بالعقاب، وهو تحقيق لحقّية بعثه ـ عليه الصلاة والسلام ـ إثر تحقيق حقية إنزال القرآن.

﴿ وقرآناً فَرَقْناهُ ﴾ أى: أنزلناه مفرقاً منجماً فى عشرين سنة، أو ثلاث وعشرين. قال القشيرى: فرّق القرآن؛ ليهون حفظه، ويكثر تردد الرسول عليه من ربه، وليكون نزوله فى كل وقت، وفى كل حادثة وواقعة؛ دليلا على أنه ليس مما أعانه عليه غيره. هـ. ﴿ لتقرأه على الناس على مُكْث ﴾؛ على مهلٍ وتؤدة وتثبتٍ؛ فإنه أيسر للحفظ، وأعون على الفهم، ﴿ ونزلناه تنزيلا ﴾ على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، والحوادث الواقعة.

﴿ قل ﴾ للذين كفروا: ﴿ آمِنُوا به أو لا تُؤمنوا ﴾، فإنّ إيمانكم لا يزيده كمالاً، وامتناعكم منه لا يزيده نقصاناً. أو: أُمِرَ باحتقارهم وعدم الاكتراث بهم، كأنه يقول: سواء آمنتم به أو لم تؤمنوا؛ لأنكم لستم بحجة، وإنما الحجة لأهل العلم، وهم: المؤمنون من أهل الكتاب، الذين أشار إليهم بقوله: ﴿ إن الذين أُوتوا العلم من قَبْلِه ﴾ أى: العلماء الذين قرأوا الكتب السالفة من قبل تنزيله، وعرفوا حقيقة الوحى وأمارات النبوة، وتمكنوا من التمييز بين الحق والباطل، والمحق والمبطل، ﴿ إذا يُتلى عليهم ﴾ القرآن ﴿ يَخرُّون للأذقان ﴾ أى: يسقطون على وجوههم ﴿ سُجَّدًا ﴾؛ تعظيماً لأمر الله، أو شكراً لإنجازه ما وعد فى تلك الكتب؛ من نعتك، وإظهارك، وإنزال القرآن عليك. والأذقان: جمع ذقن، وهو: أسفل الوجه حيث اللحية. وخصها بالذكر؛ لأنها أول ما تلقى فى الأرض من وجه الساجد. والجملة: تعليل لما قبلها من قوله: ﴿ آمِنُوا به أو لا تؤمنوا ﴾؛ من عدم المبالاة. والمعنى: إن لم تؤمنوا

فقد آمن منْ هو أعلى منكم وأحسن إيماناً منكم. ويجوز أن يكون تعليلاً لقُل، على سبيل التسلية للرسول- عليه الصلاة السلام، كأنه يقول: تسلَّ بإيمان العلماء عن إيمان الجهلة، ولا تكترث بإيمانهم وإعراضهم.

﴿ ويقولون ﴾ في سجودهم: ﴿ سبحان ربّنا ﴾ عن خلف وعده، ﴿ إن كان وعْدُ ربنا لمفعولاً ﴾ أي: إن الأمر والشأن كان وعد ربنا مفعولا لا محالة، ﴿ ويَخِرُّون للأذقان ﴾ كرره؛ لاختلاف السبب، فإن الأول: لتعظيم الله وشكر إنجاز وعده. والثاني: لِمَا أثر فيهم من مواعظ القرآن، ﴿ يبْكُونَ ﴾: حال، أي: حال كونهم باكين من خشية الله، ﴿ ويزيدهم ﴾ القرآنُ ﴿ خشوعًا ﴾، كما يزيدهم علماً بالله تعالى.

الإشارة: وبالحق أنزلناه، أي بالتعريف بأسرار الربوبية، وبالحق نزل؛ لتعليم آداب العبودية. أو: بالحق أنزلناه، يعني: علم الحقيقة، وبالحق نزل علم الشريعة والطريقة. وما أرسلناك إلا مبشراً لأهل الإخلاص بالوصول والاختصاص، ونذيراً لأهل الخوض بالطرد والبعد. وقرآنا فرقناه، لتقرأه نيابة عنا، كي يسمعوه منا بلا واسطة، عند فناء الرسوم والأشكال، ونزّلناه، للتعريف بنا تنزيلا، قل آمنوا به؛ لتدخلوا حضرتنا، أو لا تؤمنوا، فإن أهل العلم بنا قائمون بحقه، خاشعون عند تلاوته، متنعمون بشهودنا عند سماعه منا. وبالله التوفيق.

ولما كان القرآن مشتملاً على أسماء كثيرة من أسماء الله الحسنى، وكان عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه: «يا الله، يارحمن»، قالوا: إنه ينهانا عن عبادة إلهين، وهو يدعو إلهاً آخر. وقالت اليهود: إنك لتُقل ذكر الرحمن، وقد أكثر الله تعالى ذكره في التوراة، فأنزل الله رداً على الفريقين :

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ... ﴾

قلت: «أي»: شرطية، و(ما): زائدة؛ تأكيدا لما في «أياً» من الإبهام، وتقدير المضاف: أيَّ الأسماء تدعو به فأنت مُصيب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قلْ ﴾ يا محمد للمؤمنين: ﴿ ادعوا الله أو ادعوا الرحمنَ ﴾؛ نادوه بأيهما شئتم، أو سموه بأيهما أردتم. والمراد: إما التسوية بين اللفظين؛ فإنهما عبارتان عن ذاتٍ واحد، وإن اختلف الاعتبار، والتوحيد إنما هو للذات، الذي هو المعبود بالحق، وإما أنهما سيان في حسن الإطلاق والوصول إلى المقصود، فلذلك قال: ﴿ أيًّا مَا تدعوا ﴾؛ أيَّ اسم تدعوا به تصب، ﴿ فله الأسماءُ الحسنى ﴾ فيكون الجواب محذوفًا، دلَّ عليه الكلام. وقيل: التقدير أياما تدعو به فهو حسن، فوضع موضعه: ﴿ فله الأسماء الحسنى ﴾؛ للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه؛ إذ حسن جميع الأسماء يستدعي حسن ذَيْنِك الاسمين، وكونها حسنى؛ لدلالتها على صفات الكمال من الجلال والجمال؛ إذ كلها راجعة إلى حسن ذاتها، وكمالها؛ جمالاً وجلالاً.

قال فى شرح المواقف: ورد فى الصحيحين: «إنَّ للهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْماً، مائَةً إلاَّ وَاحِداً، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»(١)، وليس فيها تعيين تلك الأسماء. لكن الترمذى والبيهقى عيَّناها. وهى الطريقة المشهورة، ورواية الترمذى: «الله الذى لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ المصور، الغفار القهار، الوهاب الرزاق، الفتاح العليم، القابض الباسط، الخافض الرافع، المعز المذل، السميع البصير، الحكم العدل، اللطيف الخبير، الحليم العظيم، الغفور الشكور، العلى الكبير، الحفيظ المقيت، الحسيب الجليل، الكريم الرقيب، المجيب، الواسع الحكيم، الودود المجيد، الباعث الشهيد، الحق الوكيل، القوى المتين، الولى الحميد، المحصى المبدئ المعيد، المحيى المميت، الحى القيوم، الواجد الماجد، الواحد، الأحد الصمد، القادر المقتدر، المقدم المؤخر، الأول الآخر، الظاهر الباطن، الوالى المتعالى، البر التواب، المنتقم العفو الرؤوف، مالك الملك ذو الجلال والإكرام، المقسط الجامع، الغنى المغنى المانع، الضار النافع، النور الهادى، البديع الباقى، الوارث، الرشيد، الصبور»(٢).

وقد ورد التوقيف بغيرها، أمَّا فى القرآن؛ فكالمولى، والنصير والغالب، والقاهر والقريب، والرب والأعلى، والناصر والأكرم، وأحسن الخالقين، وأرحم الراحمين، وذى الطول، وذى القوة، وذى المعارج، وغير ذلك. وأما فى الحديث، فكالمنان، والحنان، وقدر ورد فى رواية ابن ماجة(٣) أسماء ليست فى الراوية المشهورة؛ كالقائم، والقديم، والوتر، والشديد، والكافى، وغيرها.

وإحصاؤها: إما حفظها؛ لأنه إنما يحصل بتكرار مجموعها وتعدادها مراراً، وإما ضبطها؛ حصراً وعلماً وإيماناً وقياماً بحقوقها، وإما تعلقاً وتخلقًا وتحققاً. وقد ذكرنا فى شرح الفاتحة الكبير كيفية التعلق والتخلق والتحقق بها. وفى ابن حجر: أن اسماء الله مائة، استأثر الله بواحد، وهو الاسم الأعظم، فلم يُطلع عليه أحداً، فكأنه قيل: مائة لكن واحد منها عند الله. وقال غيره: ليس الاسم الذى يكمل المائة مخفياً، بل هو الجلالة. وممن جزم بذلك البيهقى، فقال: الأسماء الحسنى مائة، على عدد درجات الجنة، والذى يكمل المائة: «الله»، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾(٤). فالتسعة والتسعون لله؛ فهى زائدة عليه وبه تكمل المائة. هـ.

---

(١) أخرجه البخارى (الدعوات، باب لله مائة اسم غير واحد)، ومسلم فى (الذكر، باب فى أسماء الله تعالى..) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه الترمذى فى (الدعوات، باب ٨٣). وأخرج البيهقى روايته فى (السنن الكبرى، كتاب الإيمان، باب أسماء الله عز وجل ثناؤه) من حديث أبى هريرة.
(٣) أخرجها فى (الدعاء، باب أسماء الله عز وجل).
(٤) من الآية ١٨٠ من سورة الأعراف.

قلت: ولعله ذكر اسماً آخر يكمل التسعة والتسعين. وإلا فهو مذكور في الرواية المتقدمة من التسعة والتسعين. والله تعالى أعلم.

الإشارة: (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن)، قال الورتجبي: إن الله سبحانه دعا عباده إلى معرفة الاسمين الخاصين، اللذين فيهما أسرار جميع الأسماء والصفات والذات، والنعوت والأفعال؛ فالله اسمُهُ، وهو اسمُ عَيْنِ جَمْعِ الجمعِ، والرحمن اسم عين الجمع؛ فالرحمن مندرج تحت اسمه: «الله»؛ لأنه عين الكل، وإذا قلت: الله؛ ذكرت عين الكل. ثم قال: وإذا قال «الله»؛ يفنى الكل، وإذا قال: «الرحمن»؛ يبقى الكل، من حيث الاتصاف والاتحاد، فالاتصاف بالرحمانية يكون، والاتحاد بالألوهية يكون. ثم قال: عن الأستاذ: من عظيم نعمه سبحانه على أوليائه: أنه يُنزههم بأسرارهم في رياض ذكره؛ بتعداد أسمائه الحسنى، فيتنقلون من روضة إلى روضة، ومن مأنس إلى مأنس، ويقال: الأغنياء تنزههم في بساتينهم، وتنزههم في منابت رياحينهم. والفقراء تنزههم في مشاهد تسبيحهم، ويستروحون إلى ما يلوح لأسرارهم من كشوفات جلاله وجماله.هـ. قلت: والعارفون تنزههم في مشاهدة أسرار محبوبهم، وما يكشف لهم من روض جماله وجلاله. وبالله التوفيق.

ثم أمره بإخفاء قراءته عن المشركين؛ لئلا يسبوا القرآن ومن جاء به، فقال:

﴿ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولا تجهرْ﴾ بقراءة صلاتك، بحيث تُسمع المشركين، فإن ذلك يحملهم على السب واللغو فيها، ﴿ولا تُخافت﴾ أي: تُسر ﴿بها﴾؛حتى لا تُسمع من خلفك من المؤمنين، ﴿وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾؛ واطلب بين المخافتة والإجهار طريقًا قصدا، فإنّ خير الأمور أوسطها. والتعبير عن ذلك بالسبيل باعتبار أنه طريق يتوجه إليه المتوجهون، ويؤمه المقتدون ليوصلهم إلى المطلوب. رُوى أن أبا بكر رضي الله عنه كان يخفت، ويقول: أُنَاجِي ربِّي، وَقَدْ عَلِمَ حَاجتِي. وعُمرُ رضي الله عنه كان يجهر، ويقول: أطردُ الشَّيْطَانَ وَأُوقِظُ الوسْنَانَ. فلما نزلت، أَمَرَ رسولُ الله ﷺ أبا بَكْرٍ أَنْ يَجْهَرَ قليلا، وعمر أن يَخْفِض قليلاً(١).

وقيل: المعنى: ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ كلها، ﴿ولا تُخافت بها﴾ بأسرها، ﴿وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾؛ بالمخافتة نهاراً والجهر ليلا. وقيل: (بصلاتك)؛ بدعائك. وذهب قوم إلى أنها منسوخة؛ لزوال علة السب واللغو؛

(١) أخرجه بنحوه أبو داود في (التطوع، باب في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل)، والترمذي في (المواقيت، باب ما جاء في قراءة الليل) عن أبي قتادة.

بإظهار الدين وإخفاء الشرك وبطلانه؛ فالحمد لله على ذلك كما قال تعالى: ﴿ وقل الحمدُ لله الذى لم يتخذ ولداً ﴾ كما يزعم اليهود والنصارى وبنو مدلج؛ حيث قالوا: عُزير ابن الله، والمسيح ابن الله، والملائكة بنات الله. تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ﴿ ولم يكن له شريك فى الملك ﴾؛ فى الألوهية؛ كما تقول الثنوية القائلون بتعدد الآلهة. ﴿ ولم يكن له وَلِيٌّ من الذُّلِّ ﴾ أى: لم يكن له ناصر ينصره (من الذل) أى: لم يذل فيحتاج إلى ولي يُواليه؛ ليدفع ذلك عنه. وفى التعرض فى أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة؛ إيذان بأن المستحق للحمد مَن هذه نعوته، دون غيره؛ إذ بذلك يتم الكمال، وما عداه ناقص حقير، ولذلك عطف عليه: ﴿ وكبِّره تكبيراً ﴾ عظيماً، وفيه تنبيه على أن العبد وإن بالغ فى التنزيه والتمجيد، واجتهد فى العبادة والتحميد، ينبغى أن يعترف بالقصور عن حقه فى ذلك. رُوى أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أفصح الغلام من بنى عبدالمطلب علّمه هذه الآية: (وقل الحمد لله...) الخ[1]. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الإجهار بالذكر والقراءة والدعاء، مباح لأهل البدايات؛ لمن وجد قلبه فى ذلك، وأما النهى الذى فى الآية فمنسوخ؛ لأن الصحابة، حين هاجروا من مكة، رفعوا أصواتهم بالقراءة والتكبير. لكن المداومة عليه من شأن أهل البُعد عن الحضرة، وأما أهل القُرب فالغالب عليهم السكوت أو المخافتة؛ قال تعالى: ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا ﴾[2]. وأما أمر الرسول عليه الصلاة والسلام لأبى بكر رضي الله عنه بالإجهار قليلاً، وعمر بالخفض قليلا؛ فإخراج لهم عن مرادهم؛ تربيةً لهم. وختم السورة بآية العز؛ إشارة إلى أن من أسرى بروحه، أو بجسده إلى الملأ الأعلى كان عاقبته العز والرفعة فى الدارين.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة (باب ما يلقن الصبى إذا أفصح بالكلام)، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده.
(٢) من الآية ١٠٨ من سورة طه.



مكية. وهي مائة وإحدى عشرة آية، أو خمس عشرة. ووجه المناسبة لما قبلها: أنه لمَّا أمر نبيه ﷺ بالحمد لله على كمال تنزيهه، أخبر أنه يستحق ذلك لإنعامه بأجلّ النعم، وهو إنزال الكتاب العزيز، الذى هو سبب الهداية الموصلة إلى النعيم المقيم. أو تكون تتميماً لقوله: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ ... ﴾(1) الخ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ۜ (1) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (3) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (5) ﴾

قلت: (قَيِّماً): حال من الكتاب، والعامل فيه: «أنزل»، ومنعه الزمخشرى؛ للفصل بين الحال وذى الحال، واختار أن العامل فيه مضمر، تقديره: جعله قيّماً، و«لينذر»: يتعلق بأنزل، أو بقيّماً. والفاعل: ضمير الكتاب، أو النبى ﷺ، و«بأساً»: مفعول ثان، وحذف الأول، أى: لينذر الناس بأساً، كما حذف الثانى من قوله: (ويُنذر الذين قالوا...) الخ؛ لدلالة هذا عليه، و(مِن عِلْم): مبتدأ مجرور بحرف زائد، أو فاعل بالمجرور؛ لاعتماده على النفى، و«كلمة»: تمييز.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الحمدُ لله ﴾ أي: الثناء الجميل حاصل لله، والمراد: الإعلام بذلك؛ للإيمان به، أو الثناء على نفسه، أو هما معا. ثم ذكر وجه استحقاقه له، فقال: ﴿ الذى أنزل على عبده الكتابَ ﴾ أى: الكتاب الكامل المعروف بذلك من بين سائر الكتب، الحقيق باختصاص اسم الكتاب، وهو جميع القرآن. رتّب استحقاق الحمد على إنزاله؛ تنبيهاً على أنه أعظم نعمائه، وذلك لأنه الهادى إلى ما فيه كمال العباد، والداعى إلى ما به ينتظم صلاح المعاش والمعاد.

وفى التعبير عن الرسول ﷺ بالعبد، مضافاً إلى ضمير الجلالة تنبيه على بلوغه ﷺ إلى معاريج العبادة وكمال العبودية أقصى غاية الكمال، حيث كان فانياً عن حظوظه، قائماً بحقوقه، خالصاً فى عبوديته لربه.

(1) الآية ١٠٦ من سورة الإسراء.

﴿ ولم يجعلْ له ﴾ أي: للكتاب ﴿ عِوَجاً ﴾؛ شيئاً من العوج، باختلافٍ في اللفظ، وتناقض في المعنى، وانحراف في الدعوة. قال القشيري: صانه عن التناقض والتعارض، فهو كتابٌ عزيزٌ من ربٍّ عزيز، ينزل على عبدٍ عزيز.

﴿ قَيِّماً ﴾: مستقيماً متناهياً في الاستقامة، معتدلاً لا إفراط فيه ولا تفريط، فهو تأكيد لما دل عليه نفي العوج، مع إفادته كون ذلك من صفاته الذاتية، حسبما تُنبئ عنه الصيغة. أو قيِّماً بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد، على ما ينبئ عنه ما بعده من الإنذار والتبشير، فيكون وصفاً له بالتكميل، بعد وصفه بالكمال، أو: قيِّمًا على ما قبله من الكتب السماوية، وشاهداً بصحتها ومهيمناً عليها. ﴿ ليُنذِر ﴾: ليُخوِّف اللهُ تعالى به، أو الكتاب، والأول أوْلى؛ لتناسب المعطوفين بعده، أي: أنزل الكتاب لينذر بما فيه الذين كفروا ﴿ بأساً ﴾: عذاباً ﴿ شديداً من لدنه ﴾ أي: صادراً من عنده، نازلاً من قِبَله، في مقابلة كفرهم وتكذيبهم.

﴿ ويُبشِّر ﴾ ـ بالتشديد والتخفيف، ﴿ المؤمنين ﴾: المصدقين به، ﴿ الذين يعملون ﴾ أي: العُمال ﴿ الصالحات ﴾ التي تَثْبتُ في تضاعيفه ﴿ أنَّ لهم ﴾ أي: بأن لهم في مقابلة إيمانهم وأعمالهم ﴿ أجراً حسناً ﴾، هو الجنة وما فيها من المثوبات الحسنى، ﴿ ماكثين فيه ﴾ أي: في ذلك الأجر ﴿ أبداً ﴾ على سبيل الخلود. والتعبير بالمضارع في الصلة ـ أعني: الذين يعملون ـ؛ للإشعار بتجدد الأعمال الصالحات واستمرارها، وإجراء الموصول على الموصوف بالإيمان؛ إيماءً بأن مدار قبول الأعمال هو الإيمان.

وتقديم الإنذار على التبشير؛ لإظهار كمال العناية بزجر الكفار عما هم عليه، مع مراعاة تقديم التخلية على التحلية. وتكرير الإنذار بقوله تعالى: ﴿ ويُنذرَ الذين قالوا اتخذ اللهُ ولداً ﴾: متعلق بفرقة خاصة، ممن عمَّه الإنذار السابق، من مستحقي البأس الشديد؛ للإيذان بكمال فظاعة حالهم، لغاية شناعة كفرهم وضلالهم، أي: وينذر، من بين سائر الكفرة، هؤلاء المتفوهين بمثل هذه القولة العظيمة، وهم كفار العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله، واليهود القائلون: عزير ابن الله، والنصارى القائلون: المسيح ابن الله.

﴿ ما لهم به من عِلْمٍ ﴾ أي: مالهم باتخاذه الولد شيء من علم أصلاً؛ لضلالهم وإضلالهم، ﴿ ولا لآبائهم ﴾ الذين قلدوهم، فتاهوا جميعًا في تيه الجهالة والضلالة، أو: ما لهم علم بما قالوا، أصواب أم خطأ، بل إنما قالوه؛ رمياً بقولٍ عن عمي وجهالة، من غير فكر ولا روية، كقوله تعالى: ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾(١) . أو: ما لهم علم بحقيقة ما قالوا، وبعظَم رتبته في الشناعة، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا، تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾(٢)، وهو الأنسب لقوله ﴿ كَبُرتْ كلمةً ﴾ أي: عظمت مقالتهم هذه في الكفر والافتراء؛ لما فيها من نسبته سبحانه إلى ما لا يكاد يليق بجناب كبريائه؛ لما فيه من التشبيه والتشريك، وإيهام احتياجه تعالى إلى ولد يُعينه ويخلفه. فما أقبحها مقالة ﴿ تخرج من أفواههم ﴾ أي: يتفوهون

(١) الآية ١٠٠ من سورة الأنعام. (٢) الآيات : ٨٨ - ٩٠ من سورة مريم.

بها من غير حقيقة ولا تحقيق لمعناها، ﴿ إن يقولون إلا كذبا ﴾ : ما يقولون في ذلك إلا قولاً كذبا، لا يكاد يدخل فيه إمكان الصدق أصلا.

الإشارة: من كملت عبوديته لله، وصار حراً مما سواه، بحيث تحرر من رق الأكوان، وأفضى إلى مقام الشهود والعيان، أنزل الله على قلبه علم التحقيق، وسلك به منهاج أهل التوفيق، منهاجاً قيماً، لا إفراط فيه ولا تفريط، محفوظاً في باطنه من الزيغ والإلحاد، وفي ظاهره من الفساد والعناد، قد تولى الله أمره وأخذه عنه، فهو على بينة من ربه فيما يأخذ ويذر. فإن أذن له في التذكير وقع في مسامع الخلق عبارته، وجليت إليهم إشارته، فبشّر وأنذر، ورغّب وحذّر، يُبشر أهل التوحيد والتنزيه بنعيم الجنان، وبالنظر إلى وجه الرحمن، ويُنذر أهل الشرك بعذاب النيران، وبالذل والهوان، نعوذ بالله من موارد الفتن.

ولمّا كانت قريش تتفوه بشيء من هذه الكلمات، التي شنّع الله على من تفوه بها، وكان عليه الصلاة والسلام يتأسف من ذلك، خفف عنه ذلك، وأمره بالتسلي عنهم، فقال:

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾

قلت: (أسفا): مفعول من أجله لباخع، أو حال، أي: متأسفاً، وجواب «إن»: محذوف، أي: إن لم يؤمنوا فلعلك باخع نفسك.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فلعلك ﴾ يامحمد ﴿ باخعٌ ﴾: مهلك ﴿ نفسَك ﴾ وقاتلها بالغم والأسف على تخلف قومك عن الإيمان وفراقهم عنك، ﴿ على آثارهم ﴾ إذا تولوا عنك، عندما تدعوهم إلى الله. شبهه، لأجل ما تداخله من الوجد على توليتهم، بمن فارقته أعزته، وهو يتحسر على آثارهم، ويبخع نفسه وجداً عليهم. ﴿ إن لم يؤمنوا بهذا الحديث ﴾ أي: القرآن الذي عبّر عنه في صدر السورة بالكتاب، صدر ذلك منك ﴿ أسفًا ﴾ أي: بفرط الحزن والتأسف عليهم.

ثم علل وجه إدبارهم عن الإيمان، وهو اغترارهم بزهرة الدنيا، فقال: ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض ﴾ ؛ من الأشجار والأزهار والثمار، وما اشتملت عليه من المعادن، وأنواع الملابس والمطاعم، والمراكب والمناكح، ﴿ زينة لها ﴾ أي: مبهجة لها، يستمتع بها الناظرون، وينتفعون بها مأكلاً وملبساً، ونظراً واعتباراً، حتى إن الحيّات والعقارب؛ من حيث تذكيرها بعذاب الآخرة، من قبيل المنافع، بل كل حادث داخل تحت الزينة من حيث دلالته على الصانع، وكذلك الأزواج والأولاد، بل هم من أعظم زينتها، داخلون تحت الابتلاء. جعلنا ذلك ﴿ لنبلوهم ﴾:

لنختبرهم، حتى يظهر ذلك للعيان، ﴿ أَيُّهم أَحسنُ عملاً ﴾ ، أيهم أزهد فيها، وأقبلهم على الله بالعمل الصالح؛ إذ لا عمل أحسن من الزهد فى الدنيا؛ إذ هو سبب للتفرغ لأنواع العبادة، بدنية وقلبية.

قال أبو السعود: وحسن العمل: الزهد فيها، وعدم الاكتراث بها، والقناعة باليسير منها، وصرفها على ما ينبغى، والتأمل فى شأنها، وجعلها ذريعة إلى معرفة خالقها، والتمتع بها حسبما أذن الشرع، وأداء حقوقها، والشكر على نعمها، لا جعلها وسيلة إلى الشهوات، والأغراض الفاسدة، كما يفعله الكفرة وأهل الأهواء.. انظر بقية كلامه.

﴿ وإنا لجاعلون ما عليها ﴾ ؛ عند تناهى الدنيا، ﴿ صعيداً جُرُزًا ﴾ أى: تراباً يابساً، لا نبات فيه، بعدما كان يَتَعجب من بهجته النظارُ، ويتشرف بمشاهدته الأبصار، فلا يغتر بما يذهب ويفنى إلا من لا عقل له، فلا تستغرب إدبارهم، إذ لا عقل لهم.

ويحتمل أن يكون تسليةً للنبى ﷺ؛ من حيث إنه أرشده إلى شهود تدبير الحق، فيسلو، بذلك، عن إعراضهم؛ لغيبته فى المصور المدبر عن الصور، وعن الزينة فى المُزَيِّن، فالكون مظهر الصفات ومرآتها، ويغيب فى الذات ـ التى هى معدنها ـ بإفناء الظاهر، وإفناء الأفعال، كما نبّه عليه بقوله: ﴿ وإنا لجاعلون . . . ﴾ الخ.

الإشارة: الخصوصية ـ من حيث هى ـ لها بداية ونهاية، فمن شأن أهل بدايتها: الحرص على الخير لهم ولعباد الله، فيتمنون أن الناس كلهم خصوص أو صالحون، فإذا رأوا الناس أعرضوا عنها تأسفوا عليهم، وإذا أقبلوا عليهم فرحوا من أجلهم، زيادة فى الهداية لعباد الله، فإذا تمكنوا منها ورسخت أقدامهم فيها، وحصل لهم الفناء الأكبر، لم يحرصوا على شيء، ولم يتأسفوا من فوات شيء، لهم ولغيرهم. وقد يتوجه العتاب لهم على الحرص فى بدايتهم؛ تكميلاً لهم، وترقية إلى المقام الأكمل.

وقوله تعالى: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض...﴾ إلخ، هو حكمة تخلف الناس عن الخصوصية، حتى يتميز الطالب لها من المعرض عنها، فمن أقبل على زينة الدنيا وزهرتها، فاتته الخصوصية، وبقى من عوام الناس، ومن أعرض عنها وعن بهجتها، وتوجه بقلبه إلى الله، كان من المخصوصين بها، المقربين عند الله.

وهذا هو أحسن الأعمال التى اختبر الله به عباده بقوله: ﴿لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾، وفى الحديث: «الدنيا مال مَنْ لاَ مَالَ لَهُ، لَهَا يَجْمَعُ مَنْ لاَ عَقْلَ لَه. وعليها يُعَادِى مَنْ لاَ عِلْمَ عِنْدَه»[1] . وفى الزهد والترغيب أحاديث كثيرة مفردة بالتأليف، وبالله التوفيق.

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٦/ ٧١)، والبيهقى فى شعب الإيمان (باب فى الزهد / ١٠٦٣٧) عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها، بدون العبارة الأخيرة.

ثم شرع فى قصة أهل الكهف المقصودة بالذات، فقال

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾

قلت: (أم): منقطعة مقدرة ببل، التى هى للانتقال من حديث إلى حديث، لا للإبطال، والهمزة: للاستفهام عند الجمهور، وبمعنى «بل»، فقط، عند غيرهم، و(عجبا): خبر كان، و(من آياتنا): حال منه، و(إذ أوى): ظرف لعجباً، لا لحَسِبْتَ، أو مفعول اذكر، أى: اذكر هذا الوقت العجيب، وهو حين التجأ الفتية إلى الكهف، و(لنا) و(مِنْ أمرنا) :يتعلق بـ (هيىء)، و(أى الحزبين): معلق لنعلم عن المفعولين؛ لما فيه من معنى الاستفهام، وهو مبتدأ، و«أحصى»: خبره، وهو فعل ماض، و(أمدا): مفعوله.

و(لِما لبثوا): حال منه، أو مفعول «أحصى»، واللام زائدة، و(ما): موصولة، و(أمدا): تمييز، وقيل: (أحصى): اسم تفضيل، من الإحصاء بحذف الزوائد، و(أمدا): منصوب بفعل دل عليه أحصى، أى: يحصى كقوله:

وأَضْرَبَ مِنَّا بالسُّيوفِ القَوَانِسَا(١)

لأن اسم التفضيل لا ينصب المفعول به، إجماعاً، ويجوز أن يكون تمييزاً بعد اسم التفضيل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أم حَسِبْتَ﴾ أى: ظننت يامحمد، والمراد: حسبان أمته ﴿أنَّ أصحاب الكهف﴾، وهو الغار الواسع فى الجبل. واختُلف فى موضعه؛ فقيل: بقرب فلسطين، وقيل: بالأندلس بمقربة من لوشة فى جهة غرناطة. وذكر ابن عطية أنه دخل كهفهم، وفيه موتى، ومعهم كلبهم، وعليهم مسجد، وقريب منه بناء يقال له الرَّقيم، قد بقى موضع جدرانه، وفى تلك الجهة آثار يقال لها: مدينة «دقيوس»، والله أعلم. وقال ابن جزى: ومما يُبعد ذلك ما رُوى أن معاوية مرَّ عليهم، وأراد الدخول إليهم ولم يدخل، هيبةً، ومعاوية لم يدخل الأندلس قط، وأيضاً: فإن الموتى فى لَوْشة يراهم الناس، ولا يدرك أحد الرعب الذى ذكر الله فى أهل الكهف. هـ.

(١) هذا عَجُز: صدره: أكرّ وأحمى للحقيقة منهم... وهو للعباس بن مِرْداس... وقوله: القوانسا: جمع قَوْنَس، وهو أعلى بيضة الرأس. انظر: اللسان (قنس ٥/٣٧٥١)، والمغنى لابن هشام (٢/٧٠٩).

والمشهور: أن الرقيم هو اللوح المكتوب فيه أسماؤهم وأنسابهم، وكان جُعل ذلك الكتاب في خزانة الملك، وهو لوح من رصاص أو حجر، أمر بكتب أسمائهم فيه لما شكا قومهم فقْدهم. وقيل: اسم كلبهم.

أي: أظننت أنهم ﴿ كانوا ﴾ في قصتهم ﴿ من ﴾ بين ﴿ آياتنا عَجَبًا ﴾ أي: كانوا عجباً دون باقي آياتنا، ليس الأمر كذلك. والمعنى: أن قصتهم، وإن كانت خارقة للعادة، ليست بعجيبة، بالنسبة إلى سائر الآيات التي من تعاجيبها ما ذكر من خلق الله تعالى على الأرض، من الأجناس والأنواع الفائتة الحصر من مادة واحدة، بل هي عندها كالنزر الحقير. وقال القشيري: أزال موضع الأعجوبة من أوصافهم، بما أضاف إلى نفسه بقوله: (من آياتنا)، وقَلْبُ العادة مِنْ قِبَلِ الله غيرُ مُستنكَرٍ ولا مُبْتَدَعٍ. هـ.

ثم ذكر أول قصتهم، فقال: ﴿ إذْ أوَى الفتيةُ ﴾ : جمع فتى، وهو الشاب الكامل، أي: اذكر حين التجأ الفتية إلى الكهف، هاربين بدينهم، خائفين على إيمانهم من كفار قومهم، ورأسهم «دقيانوس»، على ما يأتي في قصتهم. ﴿ فقالوا ﴾ ؛ حين دخلوا الغار: ﴿ ربَّنا آتنا من لدُنك ﴾ ؛ من مستبطن أمورك وخزائن رحمتك الخاصة المكنونة عن أعين العادات، ﴿ رحمةً ﴾ خاصة تستوجب الرفق والأمن من الأعداء، ﴿ وهَيِّىءْ ﴾ : أصلح ﴿ لنا من أمرنا ﴾ الذي نحن عليه من مفارقة الكفار ومهاجرتهم، ﴿ رَشَداً ﴾ : هداية نصير بها راشدين مهتدين، أو: اجعل أمرنا كله رشداً وصواباً، كقولك: لقيت منك أسداً، فتكون من باب التجريد، أو: إصابة للطريق الموصل إلى المطلوب، وأصل التهيئة: إحداث هيئة الشيء.

﴿ فَضَرَبْنَا على آذانهم ﴾ أي: أنَمْنَاهُمْ، شبَّه الإنامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها، وتخصيص الآذان بالذكر مع اشتراك سائر المشاعر لها في الحَجْب عن الشعور عند النوم؛ لأنها تحتاج إلى الحجب أكثر، إذ هي الطريقة للتيقظ غالباً. والفاء في (فضربنا): مثلها في قوله: ﴿ فاسْتَجَبْنَا لَه ﴾[1] ، بعد قوله: ﴿ إذ نادى ﴾ ، فإنَّ الضرب المذكور، وما ترتب عليه من التقليب ذات اليمين وذات الشمال، والبعث، وغير ذلك، إيتاء رحمةٍ لدُنِّيَّةٍ خفيةٍ عن أبصار المستمسكين بالأسباب العادية؛ استجابة لدعوتهم، أي: فاستجبنا لهم وأنمناهم، ﴿ في الكهف سنينَ عدداً ﴾ أي: ذوات عدد، أو تُعَدُّ عددا، أو معدودة، ووصْف السنين بذلك: إمّا للتكثير، وهو الأنسب بكمال القدرة، أو التقليل، وهو الأليق بمقام إنكار كون القصة عجباً من سائر الآيات العجيبة؛ فإن مدة لبثهم كبعض يوم عنده تعالى.

---

(١) من الآية ٩٠ من سورة الأنبياء.

﴿ ثم بعثناهم ﴾ ؛ أيقظناهم من تلك النومة الشبيهة بالموت، ﴿ لِنَعْلَمَ ﴾ علم مشاهدة، أي: ليتعلق علمنا تعلقاً حالياً كتعلقه أولاً تعلقاً استقبالياً، ﴿ أيُّ الحزبين ﴾ : الفريقين المختلفين في مدة لبثهم المذكور في قوله: ﴿قالوا لبثنا يوماً...﴾ الخ، ﴿ أحْصَى ﴾ أي: أضبط ﴿ لِمَا لَبِثُوا ﴾ : للبثهم، ﴿ أمداً ﴾ أي: غاية، فيظهر بذلك عجزهم، ويُفوضوا ذلك إلى العليم الخبير، ويتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، من حفظ أبدانهم وأديانهم، فيزدادوا يقيناً بكمال قدرته وعلمه، وليتيقنوا به أمر البعث، ويكون ذلك لطفاً بمؤمني زمانهم، وآية بينة لكفارهم، وعبرةً لمن يأتي بعدهم، فهذه حِكَمٌ لإيقاظهم بعد نومهم، والله عليم حكيم.

الإشارة: عادته تعالى فيمن انقطع إليه بكليته، وآوى إلى كهف رعايته، وأيس من رفق مخلوقاته، أن يكلأه بعين عنايته، ويرعاه بحفظ رعايته، ويُغَيِّبَ سمع قلبه عن صوت الأكدار، ويصون عين بصيرته عن رؤية الأغيار، حين انحاشوا إلى حِمى رحمته المانع، وتظللوا تحت ظل رشده الواسع. وبالله التوفيق.

ثم تمم قصتهم، فقال:

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾

قلت: (بالحق): إما صفة لمصدر محذوف، أو حال من ضمير «نقُصُّ»، أو من «نبأهم»، أو صفة له، على رأي من يرى حذف الموصول مع بعض صلته، أي: نقُصُّ قصصاً ملتبساً بالحق، أو نقصه متلبسين بالحق، أو نقص نبأهم ملتبساً بالحق، أو نبأهم الذي هو ملتبس بالحق. و﴿إذ قاموا﴾: ظرف لربطنا، ﴿وشططاً﴾: صفة لمحذوف، أي: قولاً شططاً، أي: ذا شطط، وُصف به؛ للمبالغة. و(هؤلاء): مبتدأ، وفي اسم الإشارة: تحقير لهم، و(قومنا): عطفُ بيانٍ له. و(اتخذوا): خبر، و(ما يعبدون): موصول، عطف على الضمير المنصوب، أو مصدرية، أي: وإذ

اعتزلتموهم ومَعْبُودِيهِمْ إلا الله، أو عبادتهم إلا عبادة الله، وعلى التقديرين: فالاستثناء متصل على تقدير أنهم كانوا مشركين يعبدون الله والأصنام. ومنقطع؛ على تقدير تمحضهم بعبادة الأوثان، ويجوز أن تكون (ما) نافية؛ على أنه إخبار من الله ـ تعالى ـ عن الفتية بالتوحيد، معترض بين «إذ» وجوابه العامل فيها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ نحن نقصُّ عليك نبأهم ﴾ ، والنبأ: الخبر الذى له شأن وخطر، قصصًا ملتبساً ﴿ بالحق ﴾ : بالصدق الذى لا يطرقه كذب ولا ريبة.

وخبرهم، حسبما ذكر محمد بن إسحاق: أنه قد مرج أهل الإنجيل، وظهرت فيهم الخطايا، وطغت ملوكهم، فعبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت، وكان مَنْ بَالَغَ فى ذلك وعتا عتواً كبيراً: «دقيانوس»؛ فإنه غلا فيه غلواً كبيرا، فجاس خلال الديار والبلاد؛ بالعبث والفساد، وقتل من خالفه ممن تمسك بدين المسيح، وكان يتتبع الناس فيُخيرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان، فمن رغب فى الحياة الدنيا الدنية: تبعه وصنع ما يصنع، ومن آثر عليها الحياة الأبدية: قتله وقطع آرابه[1] ، وعلقها بسور المدينة وأبوابها. فلما رأى الفتيةُ ذلك، وكانوا عظماء مدينتهم، وكانوا بنى الملوك، قاموا فتضرعوا إلى الله تعالى، واشتغلوا بالصلاة والدعاء، فبينما هم كذلك إذ دخل عليهم أعوان الجبار، فأحضروهم بين يديه، فقال لهم ما قال، فخيَّرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان، فقالوا: إن لنا إلهاً ملأ السماواتِ والأرض عظمَةً وجبروتاً، لن ندعو من دونه أحداً، ولن نُقر بما تدعونا إليه أبدا، فاقض ما أنت قاض، فأمر بنزع ما عليهم من الثياب الفاخرة، وأخرجهم من عنده. زاد فى رواية: وضمنهم أهلهم، وخرج إلى مدينة (نينوى)؛ لبعض شأنه، وأمهلهم إلى رجوعه؛ ليتأملوا فى أمرهم، وإلاَّ فعل بهم ما فعل بسائر المسلمين.

فأجمعت الفتيةُ على الفرار والالتجاء إلى الكهف الحصين، فأخذ كلٌّ منهم من بيت أبيه شيئاً، فتصدقوا ببعضه، وتزودوا بالباقى، فأَوَوْا إلى الكهف. وفى رواية: أنهم مروا بكلب فتبعهم، على ما يأتى فى شأنه، فجعلوا يُصلُّون فى ذلك الكهف آناء الليل وأطراف النهار، ويبتهلون إلى الله ـ سبحانه ـ بالأنين والجُؤار، ففوضوا أمر نفقتهم إلى «يمليخا»، فكان إذا أصبح يضع عنه ثيابه الحسان، ويلبس ثياب المساكين، ويدخل المدينة ويشترى ما يهمهم، ويتحسس ما فيها من الأخبار، ويعود إلى أصحابه، فلبثوا على ذلك إلى أن قَدِم الجبارُ المدينةَ فطلبهم، وأحضر آباءهم، فاعتذروا بأنهم عصَوْهم ونهبوا أموالهم، ويذروها فى الأسواق، وفروا إلى الجبل.

فلما رأى «يمليخا» ما رأى من الشر رجع إلى أصحابه وهو يبكى، ومعه قليل من الزاد، فأخبرهم بما شهد من الهول، ففزعوا إلى الله ـ عز وجل ـ وخروا له سُجداً، ثم رفعوا رؤوسهم وجلسوا يتحدثون فى أمرهم، فبينما هم كذلك

(١) أى أعضاءه. واحده: إرْبٌ .. انظر اللسان (أرب ١/٥٥).

إذ ضرب الله على آذانهم فناموا، ونفقتُهم عند رؤوسهم. فخرج «دقيانوس» فى طلبهم بخَيْله ورَجله، فوجدهم قد دخلوا الكهف، فأمر بإخراجهم فلم يُطق أحدٌ منهم أن يَدخله، فلما ضاق بهم ذرعاً، قال قائل منهم: أليس لو كنتَ قدرتَ عليهم قتلتهم؟ قال: بلى. قال: فابْنِ عليهم باب الكهف ودَعْهم يموتوا؛ جُوعاً وعطَشا، ففعل فكان شأنهم ما قص الله تعالى، إذ قال:

﴿ إنهم فتيةٌ ﴾ ، استئناف بيانى، كأن سائلا سأل عن حالهم، فقال: إنهم فتية شبان كاملون فى الفتوة ﴿ آمنوا بربهم ﴾ ، فيه التفات إلى ذكر الربوبية التى اقتضت تربيتهم وحفظهم، ﴿ وزدناهم هُدىً ﴾ ؛ بأن ثبّتناهم على ما كانوا عليه، وأظهرنا لهم من مكنونات محاسننا ما آثروا به الفناء على البقاء. وفيه التفات إلى التكلم؛ لزيادة الاعتناء بشأنهم، ﴿ وربطنا على قلوبهمْ ﴾ أى: قويناهم، حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الأهل والأوطان، والنعيم والإخوان، واجترأوا على الصدع بالحق من غير خوف ولا حذر، والرد على دقيانوس الجبار؛ ﴿ إذْ قاموا ﴾ أى: انتصبوا لإظهار شعار الدين، قال مجاهد: خرجوا من المدينة فاجتمعوا على غير ميعاد. فقال أكبرهم: إنى لأجد فى نفسى شيئاً، إن ربى هو رب السموات والأرض، فقالوا: نحن أيضاً كذلك، فقاموا جميعا ﴿ فقالوا ربُنا ربُّ السمواتِ والأرضِ ﴾ ، وعزموا على التصميم بذلك. وقيل: قاموا بين يدى الجبار من غير مبالاة به، حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام، فحينئذ يكون ما سيأتى من قوله تعالى: (هؤلاء...) إلخ: منقطعاً صادراً عنهم، بعد خروجهم من عنده.

ثم قالوا: ﴿ لن ندعوَ من دونه إلهًا ﴾ ، لا استقلالاً ولا اشتراكاً، ولم يقولوا: رباً؛ للتصميم على الرد على المخالفين، حيث كانوا يُسمون أصنامهم آلهة، وللإشعار بأن مدار العبودية على وصف الألوهية. ﴿ لقد قُلنا إذاً شَطَطًا ﴾ : قولاً ذا شطط، وهو الجور والتعدى، أى: لقد جُرنا وأفرطنا فى الكفر، وقلنا قولاً خارجاً عن حد المعقول، إنْ دعونا إلهاً غير الله جَزْماً.

﴿ هؤلاء قومُنَا ﴾ قد ﴿ اتخذوا من دونه آلهةً ﴾ ، فيه معنى الإنكار، ﴿ لولا ﴾ : هلا ﴿ يأتونَ عليهم ﴾ : على ألوهيتهم ﴿ بسلطان بيّن ﴾ : بحجة ظاهرة، ﴿ فمن أظلمُ ﴾ أى: لا أحد أظلم ﴿ ممن افترى على الله كذباً ﴾ بنسبة الشريك إليه؛ فإنه أظلم من كل ظالم.

﴿ وإذ اعتزلتموهم ﴾ أى: فارقتموهم ﴿ و ﴾ فارقتم ﴿ ما يعبدون إلا اللهَ فأووا إلى الكهف ﴾ : فالتجئوا إليه، والمعنى: وإذ اعتزلتموهم اعتزالاً اعتقادياً فاعتزلوهم اعتزالاً جسمانيا، ﴿ ينشرْ لكم ربُكم ﴾ : يبسط لكم ويوسع عليكم ﴿ من رحمته ﴾ فى الدارين، ﴿ ويهيئْ لكم من أمركم ﴾ الذى أنتم بصدده من الفرار بالدين، ﴿ مرفَقًا ﴾ : ما ترتفقون به، أى: تنتفعون، وجزمهم بذلك؛ لنصوع يقينهم، وقوة وثوقهم بفضل الله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد وصف الله ـ تعالى ـ أهلَ الكهف بخمسة أوصاف هى من شعار الصوفية؛ الإيمان، الذى هو الأساس، وزيادة الاهتداء بتربية الإيقان إلى الوصول الى صريح العرفان، وربط القلب فى حضرة الرب، والقيام فى إظهار الحق أو لداعى الوجد، والصدع بالحق من غير مبالاة بأحد من الخلق.

وقال الورتجبى فى قوله تعالى: ﴿ وزدناهم هُدىً ﴾ : أى: زدناهم نوراً من جمالى، فاهتدوا به طرق معارف ذاتى وصفاتى، وذلك النور لهم على مزيد الوضوح إلى الأبد؛ لأن نورى لا نهاية له. وقال عند قوله: ﴿ إذ قاموا ﴾ : قد استدل بهذه الآية بعضُ المشايخ على حركة الواجدين فى وقت السماع والذكر؛ لأن القلوب إذا كانت مربوطة بالملكوت ومحل القدس حرَّكها أنواعُ الأذكار وما يَرِد عليها من فنون السماع. والأصل قوله: ﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا ﴾ ، نعم هذا المعنى إذا كان القيام قياماً بالصورة، أى: الحسية فى القيام الحسى، وإذا كان القيام من جهة الحفظ والرعاية، والربط من جهة النقل من محل التلوين إلى محل التمكين، فالاستدلال بها فى السكون فى الوجد أحسن، إذا كان الربط بمعنى التسكين والقيام بمعنى الاستقامة. هـ.

قلت : الحاصل: أنا إذا حملنا القيام على الحسى ففيه دليل لأهل البداية على القيام فى الذكر والسماع. وإذا حملناه على القيام المعنوى، وهو النهوض فى الشىء، أو الاستقامة عليه كان فيه دلالة لأهل النهاية على السكون وعدم التحرك، وكأنه يشير إلى قضية الجنيد فى بدايته ونهايته. والله تعالى أعلم.

وقال ابن لب: قد اشتهر الخلاف بين العلماء فى القيام لذكر الله ـ تعالى ـ وقد أباحته الصوفية، وفعلته ودامت عليه، واستفادوه من كتاب الله تعالى من قوله ـ عز وجل ـ فى أصحاب الكهف: ﴿ إذ قاموا فقالوا ربُّنا ربُّ السموات والأرض ﴾ ، وإن كانت الآية لها محامل أخر سوى هذا. هـ. قلت : وقوله تعالى: ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً ﴾[1] : صريح فى الجواز.

وقال فى القوت : وقد روينا أنه ﷺ مرَّ برجل يظهر التأوه والوجد، فقال مَنْ كان معه: أتراه يارسولَ الله مُرائياً؟ فقال: «لا، بل أوَّاه منيب»[2]، وقال لآخر: أظهر صوته بالآية: «أَسْمِع الله عز وجل ولا تُسَمِّع» ، فأنكر عليه بما شهد فيه، ولم ينكر على أبى موسى قوله: (لو علمتُ أنك تَسمع لحبَّرته لك تحبيرا) ؛ لأنه ذو نية فى الخير وحسن قصد به، ولذا كل من كان له حسن قصد، ونية خير، فى إظهار عمل، فليس من السمعة والرياء فى شىء؛ لتجرده من الآفة الدنيوية، وهى الطمع والمدح. هـ.

---

(١) من الآية ١٥١ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد فى المسند (٤/١٥٩)، والطبرانى فى الكبير (١٧/٢٩٥)، عن عقبة بن عامر، وحسَّنه الهيثمى فى المجمع (٩/٣٧٢).

ثم ذكر حالهم في الكهف، فقال:

﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾

قلت: (تزاور) أصله: تتزاور، فأُدغمت التاء في الزاي. وقرأ الكوفيون بحذفها، وابن عامر ويعقوب: «تزْوَرُّ» كتَمرد، كلها من الزَّوْر بمعنى الميل. و(ذات اليمين): ظرف بمعنى الجهة. وجملة: (وهم في فجوة): حال، و(ذراعيه): مفعول «باسط»؛ لأنه حكاية حال، أي: يبسط، و(فرارا): مصدر؛ لأنه عبارة عن معنى التولية، أو حال، أي: لوليت فارًا، و﴿رُعْبًا﴾: مفعول ثان لملئت، أو تمييز.

يقول الحق جل جلاله، في بيان حالهم بعدما أووا إلى الكهف: ﴿وترى الشمسَ إذا طلعت تزَاورُ﴾ أي: تنتحي وتميل ﴿عن كهفهم﴾ الذي أووا إليه، والخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب. وليس المراد الإخبار بوقوع الرؤية تحقيقًا، بل الإنباء بكون الكهف بحيث لو رأيته ترى الشمس إذا طلعت تميل عن كهفهم ﴿ذاتَ اليمين﴾ أي: جهة ذات يمين الكهف، عند الداخل إلى قعره، ﴿وإذا غَرَبَت﴾ أي: وتراها إذا غربت ﴿تقرِضُهم﴾ أي: تقطعهم وتتعدى عنهم ﴿ذاتَ الشمال﴾ أي: جهته وجانبه الذي يلي المشرق. وكان ذلك بتصريف الله تعالى على منهاج خرق العادة؛ كرامة لهم. وقيل: كان باب الكهف شماليًا يستقبل بنات نعش[1]، ﴿وهم في فجوةٍ منه﴾: في موضع واسع منه، وذلك موقع لإصابة الشمس، ومع ذلك يُنحيها الله عنهم.

﴿ذلك من آيات الله﴾ أي: ما صنع الله بهم من ميل الشمس عنهم عند طلوعها وغروبها، من آيات الله العجيبة الدالة على كمال علمه وقدرته، وفضيلة التوحيد وكرامة أهله عنده سبحانه. قال بعضهم: هذا قبل سد دقيانوس باب الكهف، قلت: كان قبل السد وبعد هدم السد؛ لأنه هُدم بعدُ، فما قام أهل الكهف حتى وجدوه مهدومًا. وظاهر الآية يُرجح من قال: إنه من باب خرق العادة.

(١) بنات نعش: سبعة كواكب تُشاهد جهة القطب الشمالي.. انظر المعجم الوسيط (نعش).

﴿ من يهدِ الله فهو المهتدِ ﴾ الذى أصاب الفلاح . والمراد: إما الثناء عليهم، والشهادة بإصابة المطلوب، والإخبار بتحقيق ما أمّلوه من نشر الرحمة وتهيئة المرافق، أو التنبيه على أن أمثال هذه الآية كثيرة، ولكن المنتفع بها هو منْ وفقه الله وهداه للاستبصار بها، ﴿ ومن يُضلل ﴾ أى: يخلق فيه الضلال؛ بصرف اختياره إليه، ﴿ فلن تجد له ﴾ ، ولو بالغت فى التتبع والاستقصاء، ﴿ وليّاً ﴾ : ناصراً ﴿ مُرشداً ﴾ ، يهديه إلى ما ذكر من الفلاح. والجملة معترضة بين أجزاء القصة.

ثم قال: ﴿ وتحسبُهُم ﴾ بالفتح والكسر، أى: تظنهم ﴿ أيقاظاً ﴾ ، لانفتاح أعينهم، أو لكثرة تقلبهم، وهو جمع «يقظ» ؛ بضم القاف وكسرها، ﴿ وهم رقود ﴾ أى: نيام، ﴿ ونُقلّبهم ﴾ فى رقودهم ﴿ ذاتَ اليمين ﴾ أى: جهة تلى أيمانهم، ﴿ وذات الشمال ﴾ أى: جهة تلى شمائلهم؛ لكى لا تأكل الأرضُ ما يليها من أبدانهم. قال ابن عباس رضي الله عنه: لو لم يتقلبوا لأكلتهم الأرض. قيل: كانوا يتقلبون مرتين فى السنة. وقيل: مرة يوم عاشوراء. وقيل: فى تسع سنين.

﴿ وكلبهم باسطٌ ذراعيه ﴾ ، حكاية حال ماضية أى: يبسط ذراعيه، وهو من المرفق إلى رأس الأصابع. ﴿ بالوصيد ﴾ أى: بموضع من الكهف، وقيل: بالفناء من الكهف، وقيل: العتبة. وهذا الكلب، قيل: هو كلبٌ مَروا به فتبعهم، فطردوه مراراً، فلم يرجع، فأنطقه الله، فقال: يا أولياء الله لا تخشوا إصابتى؛ فإنى أُحب أحباء الله، فناموا حتى أحرُسَكم. وقيل: هو كلبُ راعٍ مروا به فتبعهم[1] على دينهم، ومر معه كلبه، ويؤيده قراءة: (وكَالِبُهُمْ) أى: وصاحب كلبهم، وقيل: هو كلب صيد لهم أو زرع، واختُلف فى لونه؛ قيل أحمر، وقيل: أصفر، وقيل: أصهب[2].

﴿ لو اطلعتَ عليهم ﴾ أى: لو عاينتهم وشاهدتهم. والاطلاع: الإشراف على الشيء بالمعاينة والمشاهدة، ﴿ لولّيتَ منهم فراراً ﴾ : هرباً بما شاهدت منهم، ﴿ ولمُلئتَ منهم رُعْباً ﴾ ، أى: خوفاً يملأ الصدور برُعبه، لِمَا ألبسهم الله من الرهبة، أو لعظم أجرامهم وانفتاح أعينهم، وكانت منفتحة كالمستيقظ الذى يريد أن يتكلم. وعن معاوية: أنه غزا الروم فمرّ بالكهف، فقال: لو كُشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال ابن عباس رضي الله عنه: ليس لك ذلك؛ قد منع الله تعالى منْ هو خير منك، حيث قال: ﴿لو اطلعت عليهم...﴾ الآية، فلم يسمع، وقال: ما أنتهى حتى أعلَمَ علمهم، فبعث ناساً، وقال: اذهبوا فانظروا، ففعلوا، فلما دخلوا بعث الله ريحاً فأحرقتهم. هـ[3].

الإشارة: للصوفية ـ رضى الله عنهم ـ تشبه قوى بأهل الكهف، فى الانقطاع إلى الله، والتجرد عن كل ما سواه، والانحياش إلى الله، والفرار من كل ما يشغل عن الله، والتماس الرحمة الخاصة من الله، وطلب التهيئة لكل رشد

---

(١) أى الراعى.
(٢) الأصهب: الأشقر. وقال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٣/٧٦): واختلفوا فى لونه على أقوال لا حاصل لها ولا طائل تحتها، ولا دليل ولا حاجة إليها، بل هى مما ينهى عنه، فإن مستندها رجم بالغيب.
(٣) عزاه المناوى فى الفتح السماوى (٢/٧٩٢) لابن أبى حاتم، وعبد بن حميد، وابن أبى شيبة، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وقال الحافظ ابن حجر فى الكافى الشاف: وإسناده صحيح.

وصواب، ولهذا المعنى ختم الشيخ القطب ابن مشيش تصليته المشهورة بما دَعَوْا به، حين أووا إلى كهف الإيواء؛ تَشَبُّهاً بهم في مطلق الانقطاع والفرار من مواطن الحس. ولذلك لمَّا تشبهوا بهم حفظهم الله ـ أي: الصوفية ـ ممن رام أذاهم، وغيّبهم عن حس أنفسهم، وأشهدهم عجائب لطفه وقدرته، ومن تمام التشبه بهم: أنك قلَّ أن تجد فرقة تُسافر منهم إلا ويتبعهم كلب يكون معهم، حتى شهدتُ ذلك في جُل أسفارنا مع الفقراء؛ تحقيقاً لكمال التشبيه. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر بعثهم من نومهم، فقال:

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامٗا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٖ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وكذلك ﴾ أي: وكما أنمناهم وحفظنا أجسادهم من البلاء والتحلل، وكان ذلك آية دالة على كمال قدرتنا، ﴿ بعثناهم ﴾ من النوم ﴿ ليتساءلوا بينهم ﴾ أي: ليسأل بعضُهم بعضاً، فيترتب عليه مافصّل من الحِكَم البالغة، أو: ليتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، فيزدادوا يقيناً على كمال قدرة الله، ويستبصروا أمر البعث، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم.

﴿ قال قائلٌ منهم ﴾ هو رئيسهم، واسمه: «مكْسَلَيمتيا»: ﴿ كم لبثتمْ ﴾ في منامكم؟ لعله قال ذلك؛ لِماَ رأى من مخالفة حالهم، لِماَ هو المعتاد في الجملة، ﴿ قالوا ﴾ أي: بعضهم: ﴿ لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ ، قيل: إنما قالوا ذلك؛ لأنهم دخلوا الكهف غُدوة، وكان انتباههم آخر النهار، فقالوا: ﴿ لبثنا يوما ﴾ ، فلما رأوا أن الشمس لم تغرب بعدُ قالوا: ﴿ أو بعض يوم ﴾ ، وكان ذلك إخباراً عن ظنٍ غالب، فلم يُعْزَوْا إلى الكذب.

﴿ قالوا ﴾ أي: بعضٌ آخر منهم، بما سنح له من الأدلة، ولِماَ رأى من طول أظافرهم وشعورهم: ﴿ ربكُم أعلمُ بما لبثتم ﴾ أي: أنتم لا تعلمون مدة لبثكم، وإنما يعلمها الله ـ سبحانه ـ، وهذا رد منهم على الأولين بأجمل ما يكون من حسن الأدب، ﴿ فابعثوا أَحَدكم بورقكم(١) هذه إلى المدينة ﴾ ، أعرضوا عن البحث عن المدة، وأقبلوا على

(١) قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر: بورْقكم ـ ساكنة الراء ـ والباقون بكسرها . راجع الإتحاف ٢/٢١٢ .

ما يهم فى الوقت، والورق: الفضة، مضروبة أو غير مضروبة، ووصْفُها باسم الإشارة يقتضى أنها كانت معينة ليشترى بها قوت ذلك اليوم، وحملها دليل على أن التزود لا ينافي التوكل، وقد كان نبينا ﷺ يتزود لغار حراء ليتعبد فيه. ثم قالوا: ﴿ فلينظر أيُّها ﴾ أىْ: أىُّ أهلها ﴿ أزكى طعاماً ﴾ أىْ: أحل وأطيب، أو أكثر وأرخص، ﴿ فليأتِكُمْ برزقٍ منه ﴾ أى: من ذلك الأزكى طعاماً، ﴿ وليتلطفْ ﴾ : وليتكلف اللطفَ فى دخول المدينة وشراء الطعام، لئلا يُعرف، ﴿ ولا يُشْعِرَنَّ بكم أحداً ﴾ ؛ ولا يخبر بكم ولا بمكانكم أحداً من أهل المدينة، أو: لا يفعل مايؤدى إلى ذلك.

ثم علل النهى بقوله: ﴿ إنهم إن يَظْهَرُوا عليكم ﴾ : يطلعوا عليكم، أو يظفروا بكم، والضمير: للأهل المقدر فى «أيها»، أىْ: إنّ أهل المدينة إن يظفروا بكم ﴿ يَرجُموكم ﴾ إن ثبتم على ما أنتم عليه، ﴿ أو يُعيدوكم في مِلَّتِهِمْ ﴾ أى: يصيروكم إليها ويدخلوكم فيها؛ كرهاً، كقوله تعالى: ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾[1] ، وقيل: كانوا على ملتهم ثم خالفوهم للحق. ﴿ ولن تُفلحوا إذاً ﴾ ؛ إن دخلتم فيها، ولو بالكره والجبر، ﴿ أبداً ﴾ ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، وفيه من التشديد والتحذير ما لا يخفى.

الإشارة : وكذلك بعثنا مَنْ توجه إلينا من نوم الغفلة والجهالة ليتساءلوا بينهم؛ ليتعرفوا ما أنعم الله به عليهم من اليقظة والنجاة من البطالة، فإذا انتبهوا من نوم الغفلة، استصغروا أيام البطالة؛ لأن أيام الغفلة قليلة أمدادها، وإن كثرت آمادها، وفى الحِكَم: «رب عمر اتسعت آماده، وقلّتْ أمداده» ، بخلاف زمان اليقظة، فإنه كثيرة أمداده، وإن قلّتْ آماده، فهو طويل؛ معنىً، وإن قلّ؛ حسًا، ولذلك قال فى الحِكَم أيضا: «ورب عمر قليلةٌ آماده، كثيرةٌ أمداده» . وقال أيضا: «من بورك له فى عمره : أدرك فى يسيرٍ من الزمان مِنْ مِنَن الله تعالى مالا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة» .

فإن توقفوا على قوت أشباحهم التمسوا أطيبه وأزكاه وأحله، فإنّ أكل الحلال يُنور القلوب وينشط الأعضاء للطاعة ، وتلطفوا فى أخذه من غير مزاحمة ولا حرص ولا تعب، فإنْ أطلعهم الله على سره المكنون من أسرار ذاته بالغوا فى إخفائه، حتى لا يُشْعروا به أحداً من خلقه، غير من هو أهلٌ له؛ لأنهم، إن أظهروه لغيرهم، رجموهم أو أعادوهم إلى ملتهم، بأن يقهروهم إلى الرجوع عن طريق القوم، ولن يفلحوا إذاً أبدا. وبالله التوفيق.

---

(١) من الآية ١٣ من سورة إبراهيم.

ثم ذكر اطلاع قوم أهل الكهف عليهم، فقال:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ... ﴾

قلت: ﴿إذ يتنازعون﴾: ظرف لقوله: (أعثرنا)، لا ليعلموا، أي: أعثرنا هم عليهم حين يتنازعون بينهم... إلخ، و(رجما): حال، أي: راجمين بالغيب، أو مفعول مُطلق، أي: يرجمون رجماً .

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وكذلك ﴾ أي: وكما أنمناهم وبعثناهم لازدياد يقينهم ﴿ أعْثَرْنا عليهم ﴾: أطلعنا الناس عليهم ﴿ ليَعْلموا ﴾ أي: ليعلم القوم الذين كانوا في ذلك الوقت ﴿ أنَّ وعد الله ﴾ أي: وعده بالبعث والثواب والعقاب ﴿ حقٌ ﴾ صادق لا خُلْف فيه، أو: ثابت لا مرد له؛ لأن نومهم وانتباههم كحال من يموت ثم يُبعث، ﴿ وأنَّ الساعة ﴾ أي: القيامة، التي هي عبارة عن وقت بعث الخلائق جميعاً؛ للحساب والجزاء، ﴿ لاريبَ فيها ﴾: لا شك في قيامها، فإنَّ مَنْ شاهد أنه جل وعلا توَفَّى نفوسهم وأمسكها ثلاثمائة سنة وأكثر، حافظاً لأبدانها من التحلل والفساد، ثم أرسلها كما كانت، لا يبقى معه ريب، ولا يختلجه شك، في أن وعده تعالى حق، وأنه يبعث مَنْ في القبور، ويجازيهم بأعمالهم.

وكان ذلك الإعثار ﴿ إذْ يتنازعون ﴾ : حين كانوا يتنازعون ﴿ بينهم أمْرَهُم ﴾ ، في أمر البعث مختلفين فيه؛ ففرقة أقرّت، وفرقة جَحَدَتْ، وقائل يقول: تُبعَث الأرواح فقط، وآخر يقول: تُبعث جميعُ الأجسام بالأرواح، قيل: كان ملك المدينة حينئذ رجلاً صالحاً، ملَكها ثمانياً وعشرين سنة، ثم اختلف أهلُ مملكته في البعث كما تقدم، فدخل الملِكُ بيته وغلق الباب، ولبس مسحاً وجلس على رماد، وسأل ربه أن يظهر الحق، فألقى الله ـ عز وجل ـ في نفس رجل من ذلك البلد الذي فيه الكهف، أن يهدم بنيان فم الكهف، فهدم ماسدَّ به «دقيانوس» بابَ الكهف؛ ليتخذه حظيرة لغنمه، فعند ذلك بعثهم الله ـ تعالى ـ فجرى بينهم من التقاول ما جرى.

رُوِى أنَّ المبعوث لمَّا دخل المدينة؛ ليشتري الطعام، أخرج دراهمه، وكانت على ضرب (دقيانوس)، فاتهموه أنه وجد كنزاً، فذهبوا به إلى الملك، فقص عليه القصة، فقال بعضهم: إن آباءنا أخبرونا أن فتية فروا بدينهم من

(دقيانوس)، فلعلهم هؤلاء، فانطلق الملكُ وأهلُ المدينة؛ من مسلم وكافر، فدخلوا عليهم وكلموهم، ثم قالت الفتية للملك: نُودعك الله ونعيذك به من الإنس والجن، ثم رجعوا إلى مضاجعهم، فماتوا، فألقى الملكُ عليهم ثيابه، وجعل لكل منهم تابوتاً من ذهب، فرآهم في المنام كارهين للذهب، فجعلها من الساج، وبنى على باب الكهف مسجدا. وقيل: لما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى: مكانَكم حتى أدخل أولاً؛ لئلا يفزعوا، فدخل، فعُمِّيَ عليهم المدخل، فبنوا ثَمَّةَ مسجداً.

وقيل: المتنازَع فيه: أمر الفتية قبل بعثهم، أي: أعثرنا عليهم حين يتذاكرون بينهم أمرهم، وما جرى بينهم وبين دقيانوس من الأحوال والأهوال، ويتلقون ذلك من الأساطير وأفواه الرجال. وعلى التقديرين: فالفاء في قوله: ﴿ فقالوا ابنُوا ﴾ فصيحة، أي: أعثرنا عليهم فرأوا ما رأوا، ثم ماتوا، فقال بعضهم: ﴿ ابنُوا عليهم ﴾: على باب كهفهم ﴿ بُنيانًا ﴾؛ لئلا يتطرق إليهم الناس، ففعلوا ذلك؛ ضناً بمقامهم ومحافظة عليهم.

ثم قالوا: ﴿ ربهم أعلمُ بهم ﴾، كأنهم لما عجزوا عن إدراك حقيقة حالهم؛ من حيث النسبة، ومن حيث العدد، ومن حيث بُعد اللبث في الكهف، قالوا ذلك؛ تفويضاً إلى علام الغيوب. أو: يكون من كلامه سبحانه؛ رداً لقول الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين، ﴿ قال الذين غلبوا على أمرهم ﴾، وهو الملك والمسلمون، وكانوا غالبين في ذلك الوقت: ﴿ لنَتَّخذَنّ عليهم مسجداً ﴾، فذكر في القصة أنه جعل على باب الكهف مسجداً يصلي فيه.

ثم وقع الخوض في عهد نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ بين نصارى نجران حين قدموا المدينة، فجرى بينهم ذكر أهل الكهف وبين المسلمين في عددهم، كما قال تعالى: ﴿ سيقولون ثلاثةٌ رابعُهُم كلبهم ﴾، وهو قول اليعقوبية من النصارى، وكبيرهم السيد، وقيل: قالته اليهود، ﴿ ويقولون خمسة سادِسُهم كلبهُم ﴾، هو قول النسطورية منهم، وكبيرهم العاقب، ﴿ رجماً بالغيب ﴾: رمياً بالخبر من غير اطلاع على حقيقة الأمر، أو ظناً بالغيب من غير تحقيق، ﴿ ويقولون سبعة وثامنهمْ كلبهم ﴾، وهو ما يقوله المسلمون بطريق التلقي من هذا الوحي، وعدم نظمه في سلك الرجم بالغيب، وتغيير سبكه؛ بزيادة الواو المفيدة لزيادة تأكيد النسبة فيما بين طرفيها، يقضي بصحته.

قال تعالى: ﴿ قلْ ﴾ يامحمد؛ تحقيقاً للحق، ورداً على الأولين: ﴿ ربي أعلم بعدَّتهم ﴾ أي: ربي أقوى علماً بعدتهم، ﴿ ما يعلمهم ﴾ أي: ما يعلم عددهم ﴿ إلا قليلٌ ﴾ من الناس، قد وفقهم الله تعالى للاطلاع عليهم بالدلائل أو بالإلهام. قال ابن عباس رضي الله عنه: «أنا من ذلك القليل»، قال: حين وقعت الواو انقطعت العدة، وأيضا حين سكت عنه تعالى ولم يقل: رجماً بالغيب، علم أنه حق. وعن علي ـ كرم الله وجهه ـ: أنهم سبعة، أسماؤهم: يمليخا، وهو الذي ذهب بورقهم، ومكسيلمينيا، وهو أكبرهم والمتكلم عنهم، ومشلينا، وفي رواية الطبري: ومجْسَيْسِيا بدله، وهؤلاء أصحاب يمين الملك، وكان عن يساره: مرنوش ودبرنوش وجشاذنوس، وكان يستشير هؤلاء الستة

فى أمره، والسابع: الراعى الذى تبعهم حين هربوا من دقيانوس، واسمه: كفشططيوش[1]. وذكر ابن عطية عن الطبرى غير هؤلاء، وكلهم عجميون، قال: والسند فى معرفتهم واهٍ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: عادة الحق تعالى فى أوليائه أن يُخْفِيهم أولاً عن أعين الناس، رحمةً بهم؛ إذ لو أظهرهم فى البدايات؛ لفتنوهم وردوهم إلى ما كانوا عليه، حتى إذا تخلصوا من البقايا، وتمكنوا من معرفة الحق وشهوده، أعثر عليهم من أراد سعادته ووصوله إلى حضرته؛ ليعلموا أن وعد الله بإبقاء العدد الذين يحفظ الله بهم نظام العالم فى كل زمان حق، وأنّ خراب العالم بانقراضهم، وقيام الساعة لا ريب فيه. وفى الآية تنبيه على ذم الخوض بما لا علم للعبد به، ومدح من رد العلم إلى الله فى كل شىء. والله تعالى أعلم.

ثم نهى نبيه عن المجادلة بعد وضوح الحق، فقال:

﴿ ... فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۖ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾

قلت: (إلا أن يشاء): استثناء مفرغ من النهى، أى: لا تقولن فى حال من الأحوال، إلا حال ملابسةٍ بمشيئته تعالى على الوجه المعتاد، وهو أن تقول: إن شاء الله، أو: فى وقت من الأوقات، إلا وقت إن شاء الله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلا تُمَارِ﴾ أى: لا تجادل ﴿فيهم﴾؛ فى شأن أهل الكهف ﴿إلا مِراءً ظاهراً﴾ قدر ما تعرض له الوحى من وصفهم، من غير زيادة عليه، مع تفويض العلم إلى الله، فلا تُصرح بجهلهم، ولاتفضح خطأهم، فإنه يُخل بمكارم الأخلاق، ﴿ولا تَستَفتِ فيهم﴾: فى شأنهم ﴿منهم﴾؛ من الخائضين ﴿أحداً﴾؛ فإن فيما أوحى إليك لمندوحة عن ذلك، مع أنهم لا علم لهم بذلك.

---

(١) فى النطق بهذه الأسماء اختلاف كثير، وقال الحافظ ابن كثير: فى تسميتهم بهذه الأسماء، واسم كلبهم، نظر فى صحته، والله أعلم، فإن غالب ذلك متلقى عن أهل الكتاب. وقد قال الله تعالى: ﴿فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهراً﴾ أى: سهلاً هيناً، فإن الأمر فى معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة. انظر تفسير ابن كثير ٣/٧٨.

﴿ ولا تقولنّ لشيء ﴾ أي: لأجل شيء تعزم عليه: ﴿ إني فاعلٌ ذلك ﴾ الشيء ﴿ غداً ﴾ : فيما يستقبل من الزمان مطلقاً، فيصدق بالغد وما بعده؛ لأنه نزل حين قالت اليهود لقريش: سلوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين. فسألوه ﷺ فقال: «غداً أخبركم» ، ولم يستثن، فأبطأ عليه الوحي، حتى شقّ عليه، وكذبته قريشٌ، ثم نزلت السورة بعد أربعة عشر يوماً، أو قريباً منها[1]، على ما ذكره أهل السِّيَر، أي: لا تَقُلْ إني فاعل شيئاً في حال من الأحوال إلا متلبساً بمشيئته على الوجه المعتاد، وهو أن تقول: إن شاء الله، أو في وقت من الأوقات، إن شاء الله أن تقوله، بمعنى: أن يأذن لك فيه، فإن النسيان بمشيئته تعالى.

﴿ واذكر ربكَ ﴾ بقولك: إلا أن يشاء الله؛ مستدركاً له، ﴿ إذا نسيتَ ﴾ : إذا فرط منك نسيان ثم ذكرته. وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه: ولو بعد سنة ما لم يحنث. ولذلك جوّز تأخير الاستثناء. وعامة الفقهاء على خلافه، إذ لو صح ذلك لما تقرر طلاق ولا عتاق، ولم يعلم صدق ولا كذب، وقال القرطبي: هذا في تدارك الترك والتخلص من الإثم، وأما الاستثناء المغير للحكم فلا يكون إلا متصلاً به، ويجوز أن يكون المعنى: واذكر ربك؛ بالتسبيح والاستغفار؛ إذا نسيت الاستثناء؛ مبالغة في الحث عليه، أو: اذكر ربك إذا اعتراك نسيان؛ لتستدرك ما فات، وحُمل على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها. وسيأتي في الإشارة بقية الكلام عليها.

﴿ وقل عسى أن يَهْدِيَنِ ربي ﴾ : يوفقني ﴿ لأقربَ من هذا ﴾ أي: لنبأ أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف، من الآيات والدلائل الدالة على نبوتي، ﴿ رَشَداً ﴾ أي: إرشاداً للناس ودلالة على ذلك. وقد فعل عز وجل ذلك؛ حيث آتاه من البينات ما هو أعظم وأبين لقصص الأنبياء، المتباعدة أيامهم، والإخبار بالغيوب والحوادث النازلة في الأعمار المستقبلة إلى قيام الساعة. أو: لأقرب رشداً وأدنى خيراً من المَنْسِي، أي: عسى أن يدلني على ما هو أصلح لي من الذي نسيته؛ إذ يجوز أن يكون نسيانه خيراً له من ذكره؛ إذ فيه إظهار قهريته تعالى، وغناه عن خلقه، وعدم مبالاته بإدبار من أدبر وإقبال من أقبل، أو: الطريق الأقرب من هذا الذي هدى إليه أهل الكهف؛ رشداً وصواباً، وقد فعل ذلك حيث هداه إلى الدين القيِّم الذي أظهره على الأديان كلها، ولو كره المشركون.

﴿ ولَبِثُوا في كهفهم ﴾ ؛ أحياءً، مضروباً على آذانهم، ﴿ ثلاث مائةٍ سنينَ وازدادوا تسعاً ﴾ ، رُوي عن علي ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال: عند أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية، والله تعالى ذكر السنة القمرية، والتفاوت بينهما في كل مائة ثلاثُ سنين، فيكون ثلاث مائة سنة وتسع سنين. هـ. ﴿ قُلِ اللهُ أعلم بما لَبِثُوا ﴾ أي: الزمان

---

(١) عزاه السيوطي في الدر (٤/٣٩٤) لابن المنذر عن مجاهد، في سياق طويل، وأخرج الطبري (١٥/١٩١) نحوه في سياق طويل، عن ابن عباس.

الذى لبثوا فيه. ﴿له غيبُ السموات والأرض﴾ أى: ما غاب فيهما، وخفى من أحوال أهلها، ﴿أبصِرْ به وأسمعْ﴾ أى: ما أسمعه وما أبصره. دل بصيغة التعجب على أن سمعه تعالي وبصره خارج عما عليه إدراك المدركين؛ لأنه تعالى لا يحجبه شيء، ولا يحول دونه حائل، ولا يتفاوت بالنسبة اليه اللطيف والكثيف، والصغير والكبير، والخفى والجلى. والتعجب فى حقه تعالى مجاز؛ لأنه إنما يكون مما خفي سببه، ولأنه دهشة وروعة تلحق المتعجب عند معاينة مالم يعتَدْه، وهو تعالى منزّه عن ذلك، فيُؤَوَّل بأنه مبالغة فى إحاطة سمعه وبصره بكل شيء، كما تقدم.

﴿ما لهم من دونه من وليّ﴾ أى: ما لأهل السموات والأرض من دونه تعالى من ولى؛ يتولى أمورهم وينصرهم إلا هو سبحانه، ﴿ولا يُشرِكُ في حُكمِهِ﴾ : فى قضائه فى علم الغيب ﴿أحداً﴾ منهم، ولا يجعل له فيه مدخلا، وقرئ بالخطاب لكل أحد، أى: ولا تشرك أيها السامع فى حكمه وتدبيره أحدا من خلقه، فإنه لا فعل له ولا تدبير. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد تضمنت إشارة الآية خمس خصال من خصال الصوفية:

الأولى: ترك المراء والجدال، إلا ما كان على وجه المذاكرة والمناظرة فى استخراج الحق أو تحقيقه، من غير ملاججة ولا مخاصمة، فى سهولة وليونة وسلامة القلوب.

الثانية: استفتاء القلوب فيما يعرض من الأمور؛ قال ﷺ: «واستَفْتِ قَلْبَكَ، وإنْ أفتاك المُفْتُونَ وأفتوك، فالبر مااطمأن القلب وسكن إليه، والإثم ما حاك فى الصدر وتردد»[1]، والمراد بالقلوب التى تُسْتَفْتَى. القلوب الصافية المنورة بذكر الله، الزاهدة فيما سوى الله، فإنها إذا كانت بهذه الصفة لا يتجلى فيها إلا الحق، ولا تسكن إلا إلى الحق، بخلاف القلوب المخوضة بحب الدنيا والهوى، فلا تفتى إلا بما يوافق هواها.

الثالثة: التفويض إلى مشيئة الله وتدبيره، والرضا بما يبرز به القضاء، بحيث لا يعقد على شيء، ولا يجزم بفعل شيء، إلا ملتبساً بمشيئة الله، فينظر ما يفعل الله. فالعاقل إذا أصبح نظر ما يفعل الله به، والجاهل إذا أصبح نظر ما يفعل بنفسه، كما قال صاحب الحِكَم.

الرابعة: الاشتغال بالذكر والفكر، حتى يغيب عما سوى المذكور؛ قال تعالى: (واذكر ربك إذا نسيت) أى: إذا نسيت ما سواه، حينئذ تكون ذاكراً حقيقة، فالذكر الحقيقي: هو الذى يغيب صاحبه عن شهود نفسه ورسمه وحسه، حتى يكون الحق تعالى هو المتكلم على لسانه؛ لشدة غيبته فيه، وهذا أمر مشاهد لمن عثر على شيخ التربية والتزم صحبته.

---

(١) أخرجه بنحوه الإمام أحمد فى المسند (٤/٢٢٤)، وابن عساكر فى تاريخ دمشق (تهذيب ٣/٢١٢) عن وابصة. وصححه محقق المسند. وزاد فى كشف الخفاء (٢/١٢٤) عزو الحديث لأبى يعلى وأبى نعيم.

الخامسة: التماس الترقي والزيادة في الاهتداء واليقين، فكل مقام يدركه ينبغي أن يطلب مقاماً أعلى منه، ولا نهاية لعلمه تعالى ولا لعظمته، (وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً)، وبالله التوفيق.

ثم أمره بتلاوة كتابه الذي هو أصل كل رشد وصواب، وأقرب هداية لذوي الألباب، فقال تعالى:

﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واتلُ ما أُوحي إليك من كتاب ربك ﴾ أي: اسرده على ما نزل، ولا تسمع لقولهم: ﴿ أئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا ﴾[1]، أو اتبع أحكامه، ﴿ لامُبدِّل لكلماته ﴾: لا قادر على تبديله غيره، أو: لامغير لما وعد بكلماته للمخالفين له، ﴿ ولن تجدَ ﴾ أبداً ﴿ من دونه مُلتحداً ﴾ أي: ملجأ، تعدل إليه عند إلمام مُلمة، أو: لن تجد، إن بدلت؛ تقديراً، وخالفت ما أنزل إليك، ملتحداً: ملجأ تميل إليه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: القرآن شفاء لكل داء فمن نزلت به شدة حسية أو معنوية، دنيوية أو دينية، ففزع إليه بالتلاوة أو الصلاة به، رأى فرَجاً، وقريباً، فالالتجاء إلى كلام الله هو الالتجاء إلى الله، فإنَّ الحق تعالى يتجلى في كلامه للقلوب على قدر صفائها، وأما من التجأ إلى غير الله فقد خاب رجاؤه وبطل سعيه؛ قال تعالى: (ولن تجد من دونه ملتحدا) تميل إليه فيأويك. والله تعالى أعلم.

ثم أمر بصحبة الفقراء، الذين يُعينونه على تلاوة كتابه ونصر دينه والتمسك به، فقال:

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾

قلت: (ولا تعد): نهي مجزوم بحذف الواو، و(عيناك): فاعل، و(تريد): حال من الكاف، أو من فاعل (تعْدُ).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واصبر نفسك ﴾ أي: احبسها ﴿ مع الذين يدعون ربهم ﴾ أي: يعبدونه ﴿ بالغداةِ والعَشيِّ ﴾، قيل: الصلوات الخمس، فالغداة: الصبح، والعَشيّ: الظهر وما بعده، وقيل: الصبح والعصر،

(١) من الآية ١٥ من سورة يونس.

قلت: والأظهر أنها الصلاة التي كانوا يُصلونها قبل فرض الصلاة، وهي ركعتان بالغداة والعشي. قال ابن عطية: ويدخل في الآية مَنْ يدعو في غير صلاة، ومن يجمع لمذاكرة علم، وقد رَوى عبدالله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «لَذِكْرُ اللهِ بالغَدَاةِ والعَشِيِّ أفْضَلُ مِنْ حَطْمِ السُّيُوفِ فِي سَبِيلِ اللهِ، ومِنْ إعْطَاءِ المَالِ سحا»(١).

وقيل: (يدعون ربهم) في جميع الأوقات، وفي طرفَيْ النهار، والمراد بهم فقراء المؤمنين؛ كعمار وصهيب وخباب وبلال، رُوي أن رؤساء الكفرة من قريش قالوا لرسول الله ﷺ: لو أبعدت هؤلاء عن نفسك لجالسناك وصحبناك، وقالوا: إن ريح جِبَابِهم تؤذينا، فنزلت الآية(٢). رُوي أنه ﷺ لما نزلت خرج إليهم وجلس بينهم، وقال: «الحمدُ لله الذي جَعَلَ في أمتي مَنْ أُمِرْتُ أنْ أصْبِرَ نَفْسِي معه»(٣). وقيل: نزلت في بيان أهل الصُفَّة، وكانوا نحو سبعمائة، فتكون الآية مدنية.

ثم وصفهم بالإخلاص، فقال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: معرفة ذاته، لاجنة ولا نجاة من نار، ﴿وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تجاوزهم بنظرك إلى غيرهم، من عداه: إذا جاوزه، وفي الوجيز: ولا تصرف بصرك عنهم إلى غيرهم من ذوي الهيئات والزينة، ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: تطلب مجالسة الأشراف والأغنياء وأصحاب الدنيا.

﴿وَلا تُطِعْ﴾ في تنحية الفقراء عن مجلسك ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: جعلناه غافلاً عن الذكر وعن الاستعداد له، كأولئك الذين يدعونك إلى طرد الفقراء عن مجلسك، فإنهم غافلون عن ذكرنا، على خلاف ما عليه المؤمنون من الدعاء في مجامع الأوقات، وفيه تنبيه على أن الباعث على ذلك الدعاء غفلة قلبية عن جناب الله - سبحانه - حتى خفي عليه أن الشرف إنما هو بتحلية القلب بالفضائل، لا بتحلية الجسد بالملابس والمآكل. ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾: ما تهواه نفسه، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾: ضياعاً وهلاكاً، وهو من التفريط والتضييع، أو من الإفراط والإسراف، فإن الغفلة عن ذكر الله - تعالى - تؤدي إلى اتباع الهوى المؤدي إلى التجاوز والتباعد عن الحق والصواب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الآية حثٌ على صحبة الفقراء والمُكْث معهم، وفي صحبتهم أسرار كبيرة ومواهب غزيرة، إذ بصحبتهم يكتسبُ الفقير آداب الطريق، وبصحبتهم يقع التهذيب والتأديب، حتى يتأهل لحضرة التقريب،

(١) عزاه في كنز العمال (٤٢٩/١ ح ١٨٥٠) لابن شاهين في الترغيب في الذكر عن ابن عمر. وأخرجه، بدون العبارة الأخيرة، الديلمي في الفردوس (٤٥٤/٣ ح ٥٤٠٢) عن أنس.. وحطم السيوف، أي: كسرها.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (باب في الزهد وقصر الأمل) عن سلمان، وزاد السيوطي عزوه في الدر (٣٩٦/٤) لابن مردويه، وأبي نعيم في الحلية.

(٣) أخرجه الطبري (٢٣٥/١٥) عن قتادة، وأخرجه البيهقي في الموضع السابق ذكره، ضمن الرواية ذاتها عن سلمان.

ويصحبتهم تدوم حياة الطريق، ويصل العبد إلى معالم التحقيق، وفي ذلك يقول الشيخ أبو مدين رضي الله عنه:

مَا لَذَّةُ العَيْشِ إلا صُحبةُ الفُقرا ... هُمُ السَّلاطِينُ والسَّادَاتُ والأُمَرا

فَاصْحَبْهُمُ وتَأَدَّبْ فِي مَجَالِسِهِم ... وَخَلِّ حظَّكَ مَهْمَا خَلَّفُوكَ وَرَا

إلى آخر كلامه.

وقوله تعالى: ﴿ واصبر نفسك ﴾ قال القشيري: لم يقل: واصبر قلبك؛ لأن قلبه كان مع الحق تعالى، فأمره بصحبة الفقراء جهْراً بجهر، واستخلص قلبه لنفسه سراً بسرٍّ. هـ. قال الورتجبي: اصبر نفسك مع هؤلاء الفقراء، العاشقين لجمالي، المشتاقين إلى جلالي، الذين هم في جميع الأوقات يسألون متى لقاء وجهي الكريم، ويريدون أن يطيروا بجناح المحبة إلى عالم وَصْلي، حتى يكونوا متسلين بصحبتك عن مقام الوصال، وفي رؤيتهم لك رؤية ذلك الجمال. هـ.

وقوله تعالى: ﴿ يريدون وجهه ﴾ ، بيّن أن دعاءهم وسؤالهم إنما هو رؤيته ولقاؤه، شوقاً إليه ومحبة فيه، من غير تعلق بغيره، أو شُغل بسواه، بل همتهم الله لا غيره، وإلاّ لمَا صدق قصر إرادتهم عليه. قال في الإحياء: من يعمل اتقاء من النار خوفاً ، أو رغبة في الجنة رجاء، فهو من جملة النيات الصحيحة؛ لأنه ميل إلى الموعود في الآخرة، وإن كان نازلاً بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله، لا لأمرٍ سواه. ثم قال: وقول رويم: الإخلاص: ألا يريد صاحبه عليه عوضاً في الدارين، هو إشارة لإخلاص الصديقين، وهو الإخلاص المطلق، وغيره إخلاص بالإضافة إلى حظوظ العاجلة. هـ. من الحاشية.

ثم أمره بالصدع بالحق، فقال:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) ﴾

قلت: «الحق»: خبر، أي: هذا الذي أُوحي إليَّ الحقُّ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقل ﴾ يامحمد لأولئك الغافلين المتبعين أهواءهم، أو: لمن جاءك من الناس: هذا الذي جئتكم به من عند ربي هو ﴿ الحقُّ من ربكم ﴾ أي: من جهة ربكم، لا من جهتي، حتى يتصور فيه التبديل، أو يمكن التردد في اتباعه. ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفرْ ﴾ ، وهو تهديد، أي: فمن شاء أن يؤمن فليؤمن كسائر المؤمنين، ولا يتعلل بما لا يكاد يصلح للتعليل، ومن شاء أن يكفر فليفعل، وفيه مع التهديد الاستغناء عن متابعتهم، وعدم المبالاة بهم وبإيمانهم.

ثم أوعدهم على الكفر، فقال: ﴿ إنا أعْتَدْنا للظالمين ﴾ أى: هيأنا للكافرين بالحق، بعد ما جاء من الله سبحانه، والتعبير عنهم بالظالمين؛ للتنبيه على أن اختيارهم الكفر ظلمٌ وتجاوزٌ عن الحد، ووضعٌ للشيء في غير محله، أي: هيأنا لهم ﴿ ناراً ﴾ عظيمة ﴿ أحاط بهم ﴾ أى: محيطٌ بهم ﴿ سُرادِقُها ﴾ أى: سورها المحيط بها، والتعبير بالماضى؛ لتحقق وقوعه، والسرادق: ما يحيط بالشيء، كالجدار ونحوه. قيل: هو حائط من نار، وقيل: دخانها. ﴿ وإن يستغيثوا ﴾؛ من العطش ﴿ يُغَاثوا بماء كالمهل ﴾: كمُذاب الحديد والرصاص في الحرارة. وقيل: كردىء الزيت في اللون، ﴿ يشوى الوجوه ﴾ إذا قُدم ليشرب؛ بحرارته. عن النبي ﷺ أنه قال: «هو كَعَكَرِ الزَّيْتِ، فَإِذَا قُرِّبَ مِنَ الكافر سَقَطَتْ فَرْوَةُ وَجْهِهِ فِيهِ، فإذا شَرِبَهُ تَقَطَّعَت أَمْعَاؤُهُ»(١).

﴿ بئسَ الشرابُ ﴾ ذلك، ﴿ وساءت ﴾؛ النار ﴿ مُرتفقاً ﴾: متكأً، وأصل الارتفاق: نصب المِرفق تحت الخد ليتكئ عليه، وأنى ذلك في النار، وإنما هو لمقابلة قوله في المؤمنين: ﴿ وحسنت مرتفقاً ﴾.

الإشارة: ينبغي للواعظ، أو المُذكر، أو العالم، ألا يحرص على الناس، بل يستغني بالله في أموره كلها، وإنما يُبين الحق من الباطل، ويقول: هذا الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن ومن يشاء فليكفر. هذا إذا كان لعامة الناس، وأما إن كان لخاصتهم؛ كأهل الرئاسة والجاه، فاختلف فيه؛ فقال بعضهم: يسلك هذا المنهاج، يُبين الحق ولا يبالى، محتجاً بالآية، قال: نحن أمة محمدية، قال تعالى له: ﴿ وقل الحق من ربكم... ﴾ الآية، وقال بعضهم: ينبغي أن يلين لهم القول؛ لقوله تعالى: ﴿ فقولا له قولاً لَيِّناً لعَلَّه يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾(٢)، وهو الأليق بطريق السياسة، فمن أعرض عن الوعظ، وبقي على ظلمه، فالآية تجر ذيلها عليه. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ضدهم، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١) ﴾

(١) أخرجه، دون العبارة الأخيرة، أحمد في المسند (٣/ ٧٠)، والترمذى فى (صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار)، والبغوى في تفسيره (٥/ ١٦٨)، عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه.
(٢) الآية ٤٤ من سورة طه.

قلت : جملة: (إنا لا نضيع) : خبر «إن»، والعائد محذوف، أى: أحسن عملاً، أو: وقع الظاهر موقعه؛ فإن من أحسن عملاً فى الحقيقة هو الذى آمن وعمل صالحا. و﴿أولئك﴾: استئناف؛ لبيان الأجر، أو: خبر «إن»، وما بينهما اعتراض، أو خبر بعد خبر. و(من أساور): ابتدائية، و(من ذهب) : بيانية، و(أساور) : جمع أسورة، أو أسوار جمع سوار، فهو جمع الجمع.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ أى: اختاروا الإيمان، من قوله: (فمن شاء فليؤمن)، وكأنه فى المعنى عطف على قوله: (أعتدنا للظالمين)، أى: والذين آمنوا هيأنا لهم كذا وكذا، ولعل تغيير سبكه: للإيذان بكمال تنافى مآلَيْ الفريقين، أى: إن الذين آمنوا بالحق الذى أُوحِي إليك ﴿ وعَمِلوا ﴾ الأعمال ﴿ الصالحات ﴾، حسبما بيِّن فيما أوحى إليك، ﴿ إنا لا نُضيعُ أجرَ من أحسن عملاً ﴾ ، وأتقنه على ما تقتضيه الشريعة.

﴿ أولئك ﴾ ؛ المنعوتون بهذه النعوت الجليلة ﴿ لهم جناتُ عدنٍ تجري ﴾ من تحت قصورهم ﴿ الأنهار ﴾ ؛ من ماء ولبن وخمر وعسل، ﴿ يُحلَّون فيها من أساورَ من ذهب ﴾ أى: كل واحد يُحلَّى بسوارين من ذهب. وكانت الأساور عند العرب من زينة الملوك، ﴿ ويَلْبَسُون ثياباً خُضْراً ﴾ ، وخصت الخضرة بثيابهم؛ لأنها أحسن الألوان وأكثرها طراوة. وتلك الثياب ﴿ من سُنْدُسٍ وإستبرقٍ ﴾ ، السندس: ما رقَّ من الديباج، والإستبرق: ما غلظ منه، جمع النوعين؛ للدلالة على أن فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين، ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ جمع أريكة، وهو السرير فى الحجَال، أى: متكئين على الأسرة المزينة بالستور الرفيعة، كحال العرائس المتنعمين. ﴿ نِعم الثوابُ ﴾ ذلك، ﴿ وحَسُنَتْ مُرتفقاً ﴾ : متكأ. والآية عامة وإن نزلت فى خصوص الصحابة رضى الله عنهم، وأماتنا على منهاجهم. آمين.

الإشارة: إن الذين آمنوا إيمان الخصوص، وعملوا الأعمال التى تقرب إلى حضرة القدوس؛ وهى تحمُّل ما يثقل على النفوس، أولئك لهم جنات المعارف، تجرى من تحت قلوبهم أنهار العلوم والمواهب، يُحلَّون فيها بمقامات اليقين، ويلبسون ثياب العز والنصر والتمكين، متكئين على سرر الهنا والسرور، قد انقضت عنهم أيام المحن والشرور، جعلنا الله فيهم بمنّه وكرمه.

ثم ضرب مثلاً لمن اغتر بدنياه، ولمن زهد فيها وأقبل على مولاه، فقال:

﴿ ۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

قلت : «رجلين»: بدل من «مثلا»، وجملة ﴿جعلنا...﴾ بتمامها: بيان للتمثيل، أو صفة لرجلين، و﴿ماشاء الله﴾: خبر، أي: هذا ما شاء الله، أو الأمر ماشاء الله، أو مبتدأ حُذف الخبر، أي: الذي شاء الله كائن، أو شرطية، والجواب محذوف، أيْ: أيّ شيء شاء الله كان، و(هنالك): ظرف مقدم، و(الولاية): مبتدأ، والظّرف: إشارة إلى الآخرة، وهذا أحسن.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ واضربْ لهم ﴾ أي: للفريقين؛ فريق المؤمنين والكافرين المتقدمين، ﴿ مَثَلاً ﴾ ؛ من حيث عصيان الكافر، مع تقلبه فى النعيم، وطاعة المؤمن، مع مكابدته مشَاقّ الفقر، وما كان مآلهما، لا من حيث ما ذكر من أن للكافر فى الآخرة كذا وللمؤمن كذا، أي: واضرب لهم حالى ﴿ رجُلَيْن ﴾ مقدرين أو محققين، هما أخوان من بنى إسرائيل، أو شريكان: كافر، واسمه قُطروس، ومؤمن، اسمه يهوذا، اقتسما ثمانية آلاف دينار، أو ورثاها من أبيهما، فاشترى الكافر بنصيبه ضياعاً وعقاراً، وصرف المؤمن نصيبه إلى وجوه البر.

رُوى: أن الكافر اشترى أرضًا بألف دينار، فقال صاحبه المؤمن: اللهم إن فلانا اشترى أرضاً بألف، وإنى أشترى منك أرضاً فى الجنة بألف، فتصدق بألف دينار، ثم إن صاحبه بنى داراً بألف دينار، فقال المؤمن: اللهم إن صاحبى بنى داراً بألف، وإنى أشترى منك داراً فى الجنة بألف، فتصدق بألف دينار، ثم إن صاحبه تزوج

امرأة بألف دينار، فقال: اللهم، إن فلاناً تزوج بألف دينار، وإني أخطب منك من نساء الجنة بألف، فتصدق بألف دينار، ثم إن صاحبه اشترى خادماً ومتاعاً بألف دينار، فقال: اللهم إن فلاناً اشترى خادماً ومتاعاً بألف، وإني أشترى منك خادماً ومتاعاً من الجنة بألف، فتصدق بألف دينار، ثم أصابته حاجة، فقال: لعل صاحبي يُداولني معروفه، فأتاه، فقال: ما فعل مالك؟ فأخبره قصته، فقال: أو إنك لمن المصدقين بهذا؟ والله لا أعطيك شيئاً، فلما توفيا آل أمرهما إلى ما ذكر الله في سورة الصافات بقوله: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ، يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ. . . ﴾(١) الآية.

وبيّن حالهما في الدنيا بقوله: ﴿ جعلنا لأحدهما ﴾ وهو الكافر، ﴿ جنتين ﴾ : بستانين ﴿ من أعناب ﴾ : من كروم متنوعة، ﴿ وحففناهما بنخلٍ ﴾ أي: جعلنا النخل محيطة بهما محفوظاً بها كرومهما، ﴿ وجعلنا بينهما ﴾ : وسطهما ﴿ زرعاً ﴾ ؛ ليكون كل منهما جامعاً للأقوات والفواكه، متواصل العمارة، على الهيئة الرائقة، والوضع الأنيق. ﴿ كلتا الجنتين آتت أُكلَها ﴾ : ثمرها وبلغ مبلغاً صالحاً للأكل، ﴿ ولم تَظْلِم منه شيئًا ﴾ أي: لم تنقص من أكلها شيئاً في كل سنة، بخلاف سائر البساتين، فإن الثمار غالباً تكثر في عام وتقل في عام، ﴿ وفجَّرْنا خِلالهما ﴾ : فيما بين كل من الجنتين ﴿ نَهَراً ﴾ على حدة، وقرئ بالسكون. والنهر: الماء الكثير، وكان لكل بستان نهر؛ ليدوم شربها ويدوم بهاؤها.

ولعل تأخير تفجير النهر عن ذكر إيتاء الأكل، مع أن الترتيب الخارجي العكس؛ للإيذان باستقلال كل من إيتاء الأكل وتفجير النهر في تكميل محاسن الجنتين، كما في قصة البقرة ونحوها، ولو عكس لأوهم أن المجموع خصلة واحدة بعضها مرتب على بعض.

﴿ وكان له ثمرٌ ﴾ أي: وكان لصاحب الجنتين أنواع من المال غير الجنتين، من ثَمَّرَ ماله: إذا كثر. قال ابن عباس: الثمر: جميع المال؛ من الذهب، والفضة، والحيوان، وغير ذلك. وقال مجاهد: هو الذهب والفضة خاصة. ﴿ فقال لصاحبه ﴾ المؤمن، أخيه أو شريكه، ﴿ وهو يُحاوره ﴾ : يراجعه في الكلام، من حَار إذا رجع، وذلك أنه سأله عن ماله فيما أنفقه، فقال: قدمته بين يدي، لأقْدُم عليه، فقال له: ﴿ أنا أكثرُ منك مالاً وأعزُ نفراً ﴾ : حشماً وأعواناً وأولاداً ذكوراً؛ لأنهم الذين ينفرون معه.

﴿ ودخل جَنَّتَهُ ﴾ : بستانه الذي تقدم وصفه، وإنما وحّده؛ إما لعدم تعلق الغرض بتعدده، أو لاتصال أحدهما بالآخر، أو لأن الدخول يكون في واحدٍ واحد. فدخله ﴿ وهو ظالمٌ لنفسه ﴾ ؛ ضارٌ لها بعُجْبه وكفره، ﴿ قال ﴾ حين دخوله: ﴿ ما أظنُ أن تَبِيدَ هذه ﴾ الجنة، أي: تفنى ﴿ أبدًا ﴾ ؛ لطول أمده وتمادي غفلته، وإنكاراً لفناء الدنيا

(١) الآيتان ٥٠ ـ ٥١ من سورة الصافات. وانظر تفسير البغوي ٥/ ١٧٠، وزاد المسير ٥/ ١٣٨.

وقيام الساعة، ولذلك قال: ﴿ وما أظنُّ الساعة قائمةً ﴾ أي: كائنة فيما سيأتي، ﴿ ولئن رُددتُ إلى ربي ﴾؛ بالبعث عند قيامها، كما تقول، ﴿ لأجدنَّ ﴾ حينئذ ﴿ خيراً منها ﴾ : من الجنتين ﴿ مُنقلبًا ﴾ أي: مرجعاً وعاقبة، أي: كما أعطاني هذا في الدنيا سيعطيني أفضل منه في الآخرة، ومدار هذا الطمع واليمين الفاجرة: اعتقاد أنه تعالى إنما أولاه ما أولاه في الدنيا؛ لاستحقاقه لذاته، وكرامته عليه، ولم يدْرِ أن ذلك استدراج.

﴿ قال له صاحبه ﴾ ؛ أخوه المسلم ﴿ وهو يُحاوره أكفرتَ بالذي خلقك ﴾ أي: أصلك ﴿ من تراب ﴾ ، فإن خلق آدم عليه السلام من تراب متضمن لخلق أولاده منه؛ إذ لم تكن فطرته مقصورة على نفسه، بل كانت أنموذجًا منطوياً على فطرة سائر أفراد الجنس، انطواءً مجانساً مُستتبعاً لجريان آثارها على الكل، فكان خلْقه عليه السلام من تراب خلقاً للكل منه، ﴿ ثم من نطفة ﴾ هي مادتك القريبة، ﴿ ثم سوَّاك رجلا ﴾ أي: عدلك وكملك إنساناً ذكراً، أو صيرك رجلاً، وفي التعبير بالموصول مع صلته: تلويح بدليل البعث، الذي نطق به قوله تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ﴾(1) .

قال البيضاوي: جعل كفره بالبعث كفراً بالله؛ لأنه منشأ الشك في كمال قدرة الله، ولذلك رتَّب الإنكار على خلقه إياه من التراب، فإن مَنْ قدر على إبداء خلقه منه قدر أن يعيده منه. هـ.

ثم قال أخوه المسلم: ﴿ لَكِنَّا ﴾ أصله: لكن أنا، وقُرئ به، فحُذفت الهمزة، فالتقت النونان فوقع الإدغام، ﴿ هو الله ربِّي ﴾ ، «هو»: ضمير الشأن، مبتدأ، خبره: «هو الله ربي»، وتلك الجملة: خبر «أنا»، والعائد منها: الضمير، وقرئ بإثبات «أنا» في الوصل والوقف، وفي الوقف خاصة، ومدار الاستدراك قوله تعالى: ﴿أكفرت﴾ ، كأنه قال: أنت كافر، لكني مؤمن موحد، ﴿ ولا أُشركُ بربي أحداً ﴾ ، وفيه تنبيه على أن كفره كان بالإشراك. قاله أبو السعود.

قال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي: والذي يظهر من قوله: ﴿ولولا اذ دخلت...﴾ الآية، ومن قوله: ﴿ياليتني لم أشرك...﴾ الآية، أنه إشراك بالله في عدم صرف المشيئة إليه، ودعوى الاستقلال بنفسه دونه، وقد قال وهب بن منبه: (قرأت في تسعين كتاباً من كتب الله أن من وَكل إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر)، ثم شكه في البعث تكذيب بوعد الله، وهو كفر صراح. هـ.

﴿ ولولا إذْ دخلتَ جنتك ﴾ : بستانك، ﴿ قلتَ ماشاء الله ﴾ أي: هلاَّ قُلتَ عند دخولها: ﴿ ماشاء الله ﴾ أي: الأمر ماشاء الله، أو ماشاء الله يكون، والمراد: تحضيضه على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله تعالى، إن شاء أبقاها، وإن شاء أخفاها، ﴿ لا قوةَ إلا بالله ﴾ أي: لا قوة لي على عمارتها وتدبير أمرها إلا بمعونة الله وإقداره.

---

(1) من الآية ٥ من سورة الحج.

قال النبي ﷺ: «مَنْ رأى شيئًا فأعجبه فقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، لم يضرّه شيء»(١). وقال لأبي هريرة: «ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة؟ قال: بلى يارسول الله، قال: لا قوة إلا بالله، إن قالها العبد قال الله عز وجل: أسلم عبدي واستسلم»(٢). وقال لعبد الله بن قيس: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ قال: بلى، يارسول الله، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله»(٣).

ثم قال له أخوه المسلم: ﴿إن ترنِ أنا أقلَّ منك مالاً وولداً﴾ في الدنيا، وفيه تقوية لمن فسر النفر بالولد، ﴿فعسى ربي أن يُؤتين﴾ في الآخرة أو في الدنيا ﴿خيراً من جنتك﴾ والمعنى: إن ترني أفقر منك فأنا أتوقع من صُنع الله سبحانه أن يقلب ما بي وبك من الفقر والغنى، فيرزقني جنة خيراً من جنتك، ويسلبك؛ لكفرك نعمته، ويخرب جنتك، ﴿ويُرسل عليها حُسبانًا﴾: عذاباً ﴿من السماء﴾ يُذهبها، من بَرَدٍ أو صاعقة، وهو جمع: حُسبانة، وهي: المرامي من هذه الأنواع المذكورة، وتطلق أيضاً، في اللغة، على سهام تُرمى دفعة واحدة، ﴿فتُصبح صعيداً زَلَقًا﴾ أي: أرضًا ملساء، يزلق عليها؛ لاستئصال ما عليها من النبات والشجر والبناء، ﴿أو يُصبح ماؤُها﴾ أي: النهر الذي خلالَها ﴿غوْرًا﴾: غائراً ذاهباً في الأرض، و«زلقاً» و«غوراً»: مصدران، عبّر بهما عن الوصف؛ مبالغةً. ﴿فلن تستطيعَ له طَلَبًا﴾ أي: لن تستطيع أبداً للماء الغائر طلباً، بحيث لا يبقى له أثر يطلبه به، فضلاً عن وجدانه ورده.

﴿وأُحيطَ بثَمَرِه﴾ أي: هلكت أشجاره المثمرة، وأمواله المعهودة، وأصله: من إحاطة العدو، وهو عطف على مُقدر، كأنه قيل: فوقع بعض ما وقع من المحذور، وأهلكت أمواله، رُوي أن الله تعالى أرسل عليها ناراً فأحرقتها وغار ماؤها. ﴿فأصبح يُقلِّب كفَّيه﴾ ظهراً لبطن، أو يضرب يديه واحدة على أخرى، يصفق بهما، وهو كناية عن الندم، كأنه قال: فأصبح يندم ﴿على ما أنفق فيها﴾ أي: في عمارتها من الأموال. وجعل تخصيص الندم بها دون ما هلك الآن من الجنة؛ لأنه إنما يكون على الأفعال الاختيارية. انظر أبا السعود.

﴿وهي﴾ أي: الجنة ﴿خاويةٌ﴾: ساقطة ﴿على عُرُوشها﴾ أي: دعائمها المصنوعة للكروم، فسقطت العروش أولاً ثم سقطت الكروم عليها. وتخصيص حالها بالذكر، دون الزرع والنخل، إمّا لأنها العمدة وهما من متمماتها، وإمّا لأن ذكر هلاكها مُغْنٍ عن ذكر هلاك الباقي؛ لأنها حيث هلكت، وهي مشتدة بعروشها فهلاك

---

(١) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (ح ٢٠٦) من حديث أنس؛ مرفوعاً، والبيهقي في شعب الإيمان (باب في تعديد نعم الله عز وجل، ح ٤٣٧٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٩٨/٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في (المغازي، باب غزوة خيبر)، ومسلم في (الذكر، باب استحباب خفض الصوت بالذكر) من حديث أبي موسى الأشعري.

ماعداها أولى، وإمَا لأن الإنفاق فى عمارتها أكثر. ﴿ ويقولُ ﴾ أى: يقلب وهو يقول: ﴿ ياليتني لم أشركْ بربي أحداً ﴾ ، كأنه تذكر موعظة أخيه، وعلِمَ أنه إنمـا أُتِيَ من قِبَلِ شِرْكِهِ، فتمنى أنْ لم يكن مشركاً فلم يصبه ماأ صابه.

﴿ ولم تكن له فئةٌ ﴾ : جماعة ﴿ ينصرونه ﴾ : يقدرون على نصره؛ بدفع الهلاك عن أمواله، ﴿ من دون الله ﴾، فإنه القادر على ذلك وحده، ﴿ وما كان منتصراً ﴾ أى: وما كان فى نفسه ممنوعاً بقوته من انتقامه سبحانه منه.

﴿ هنالك ﴾ ؛ فى ذلك المقام، وفى تلك الحال ﴿ الولايةُ لله الحقَ ﴾ أى: النصرة له وحده، لا يقدر عليها أحد غيره، وقُرِئ: «الحقِ» بالكسر، صفة لله، وبالرفع، نعت للولاية. ويُحتمل أن يكون: «هنالك» ظرفاً لمنتصراً، أى: وماكان ممتنعاً من انتقام الله منه فى ذلك الوقت، ففيه تنبيه على أن قوله: «ياليتنى لم أشرك»: كان عن اضطرار وجزع مما دهاه، فلذلك لم ينفعه، كقوله تعالى: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾[1] . وحينئذ استأنف تعالى الإخبار عن كمال حفظه لأوليائه فقال: ﴿ الولايةُ لله الحق ﴾ أى: الحفظ والرعاية والنصرة إنما هى من الله لأوليائه فى الدنيا والآخرة، لا يخذلهم فى حال من الأحوال، بل يتولى سياستهم ونصرهم وهدايتهم، كما هو شأن من اعتز بالله، دون من اعتز بغيره، فقوله: «ولم تكن له فئة»: رد لقوله: «وأعزُّ نفراً»؛ أى: بل النصرة لله لأوليائه، دون من تولى غيره.

والحاصل: أن من تولي اللهَ فعاقبته النصرة، ومن تولى غيره فعاقبتُه الخذلان. والعياذ بالله. ويحتمل أن يكون قد تَم الكلام على القصة، ثم أعاد الكلام إلى ما قبل القصة، فقال: ﴿ هنالك ﴾ عند ذلك، يعنى: يوم القيامة ﴿ الولايةُ لله الحق ﴾ ؛ يتولون الله ويُؤمنون به، ويتبرأون مما كانوا يعبدون، ﴿ هو خيرٌ ثواباً ﴾ أى: خير من يرجى ثوابه، ﴿ وخيرٌ عُقبًا ﴾ أى: عاقبة لأوليائه. والعُقب: العاقبة، يقال: عاقبة كذا وعُقْباه وعقبه، أى: آخره. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد ضرب الله مثلاً لمن عكف على هواه، وقصر همته على زخارف دنياه، ولمن توجه بهمته إلى مولاه، وقدّم دنياه لأخراه، فكان عاقبة الأول: الندم والخسران، وعاقبة الثانى: الهدا والرضوان، أوْلمن وقف مع علمه واعتمد عليه، ولمن تبرأ من حوله وقوته فى طلب الوصول إليه.

قال فى لطائف المنن: لا تدخل جنة علمك وعملك، وما أعطيت من نور وفتح فتقول كما قال من خذِل، فأخبر الله عنه بقوله: ﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا . . . ﴾ الآية. ولكن ادخلها كما بيّن

(١) من الآية ٨٥ من سورة غافر.

لك، وقل كما رَضي لك: ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لا قوة إلا بالله ﴾، وافهم ههنا قوله ﷺ: «لاحَـولَ ولاَ قُـوَّةَ إلاَّ بالله كَنْزٌ من كُنُوزِ الجنةِ»(١). وفي رواية أخـرى: «كنز من كنوز تحت العـرش». فالترجمة:(٢) ظاهر الكنز، والمكنوز فيها: صدق التبرى من الحول والقوة، والرجوع إلي حول الله وقوته.

ثم ضرب مثلاً في سرعة ذهابها وفنائها، فقال:

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

قلت: ﴿ كماءٍ ﴾ : خبر عن مضمر، أي: هي كماء، ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً لاضْرِبْ، على أنه بمعنى «صَيِّر».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واضربْ لهم مَثَل الحياة الدنيا ﴾ أي: واذكر لهم ما يشبهها في زهرتها ونضارتها، وسرعة انقراضها وفنائها؛ لئلا يطْمئنوا إليها ويغفلوا عن الآخرة، هي ﴿ كماءٍ أنزلناه من السماء ﴾ وهو المطر، ﴿ فاختلط به ﴾ أي: بسببه ﴿ نباتُ الأرض ﴾ بحيث التف وخالط بعضُه بعضاً؛ من كثرته وتكاثفه، ثم مرت مدة قليلة ﴿ فأصبح هشيماً ﴾ أي: مهشوماً مكسوراً، ﴿ تذروه الرياحُ ﴾ أي: تُفرقه وتطيره، كأن لم يَغْنَ بالأمس، ﴿ وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ : قادراً، ومن جملة الأشياء: الإفناء والإنشاء.

﴿ المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدنيا ﴾ أي: مما تذروه رياح الأقدار، ويلحقه الفناء والبوار، ويدخل في الزينة: الجاهُ، وجميعُ ما فيه للنفس حظ؛ فإنه يفني ويبيد، ثم ذكر ما لا يفنى فقال: ﴿ والباقياتُ الصالحاتُ ﴾ ؛ وهي أعمال الخير بأسرها، أو: الصلوات الخمس، أو: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»، زاد بعضهم: «ولا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم». قال عليه الصلاة السلام: «هي من كنز الجنة، وصفايا الكلام، وهن الباقيات الصالحات، يأتين يوم القيامة مقدمات ومعقبات »(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في (الدعوات، باب الدعاء إذا علا عَقَبَةً)، ومسلم في (الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر)، من حديث أبي موسى الأشعري. بلفظ: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ فقلت: بلى يا رسول الله. قال: لا حول ولا قوة إلا بالله».

(٢) أي: اللفظ والكلام المنطوق به.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/ ٢٢٠ ح ٤٠٤٧) بلفظ: «قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ فإنهن يأتين يوم القيامة مستقدمات ومنجيات ومجنبات، وهن الباقيات الصالحات»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أو: الهمات العالية والنيات الصالحة؛ إذ بها ترفع الأعمال وتُقبل. أو: كل ما أريد به وجه الله، وسميت باقية: لبقاء ثوابها عند فناء كل ما تطمح إليه النفس من حظوظ الدنيا وزينتها الفانية.

قال في الإحياء: كل ما تذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا، كالمال والجاه مما ينقضي على القرب، وكل ما لا يقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات، كالعلم والحرية؛ لبقائهما؛ كمالاً فيه، ووسيلة إلى القرب من الله تعالى، أما الحرية من الشهوات فتقطع عن غير الله، وتجرده عن سواه، وأما العلم الحقيقي فيفرده بالله ويجمعه عليه. هـ.

وهي، أي: الباقيات الصالحات ﴿خيرٌ عند ربك﴾ أي: في الآخرة ﴿ثوابًا﴾ أي: عائدة تعود على صاحبها، بخلاف ما شأنه الفناء من المال والبنين؛ فإنه يفنى ويبيد. وهذا كقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾[1]. وقوله: ﴿عند ربك﴾: بيان لما يظهر فيه خيريتها، لا لأفضليتها من المال والبنين مع مشاركتها لها في الخيرية؛ إذ لا مشاركة لهما في الخيرية في الآخرة. ثم قال تعالى: ﴿وخيرٌ أملاً﴾ أي: ما يؤمله الإنسان ويرجوه عند الله تعالى، حيث ينال صاحبها في الآخرة كل ما كان يؤمله في الدنيا، وأما ما مرّ من المال والبنين فليس لصاحبه فيه أمل يناله. وتكرير «خير»؛ للإشعار باختلاف حيثيتي الخيرية والمبالغة فيه.

الإشارة: قد تقدم، مراراً، التحذير من الوقوف مع بهجة الدنيا وزخارفها الغرارة؛ لسرعة ذهابها وانقراضها. رَوى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا هريرة تريد أن أريك الدنيا؟ قلت: نعم، فأخذ بيدي، وانطلق، حتى وقف بي على مزبلة، رؤوس الآدميين ملقاة، وبقايا عظام نخرة، وخِرَق بالية قد تمزقت وتلوثت بنجاسات الآدميين، فقال: يا أبا هريرة؛ هذه رؤوس الآدميين التي تراها، كانت مثل رؤوسكم، مملوءة من الحرص والاجتهاد على جمع الدنيا، وكانوا يرجون من طول الأعمار ما ترجون، وكانوا يَجِدُّون في جمع المال وعمارة الدنيا كما تَجِدُّونَ، فاليوم قد تعرّت عظامهم، وتلاشت أجسامهم كما ترى، وهذه الخرق كانت أثوابهم التي كانوا يتزينون بها، وقت التجمل ووقت الرعونة والتزين، فاليوم قد ألقتها الرياح في النجاسات، وهذه عظام دوابهم التي كانوا يطوفون أقطار الأرض على ظهورها، وهذه النجاسات كانت أطعمتهم اللذيذة التي كانوا يحتالون في تحصيلها، وينهبها بعضُهم من بعض، قد ألقوها عنهم بهذه الفضيحة التي لا يقربها أحد؛ من نتنها، فهذه جملة أحوال الدنيا كما تُشاهد وترى، فمن أراد أن يبكي على الدنيا فليبك، فإنها موضع البكاء. قال أبو هريرة رضي الله عنه: فبكى جماعة الحاضرين»[2].

(١) من الآية ٩٦ من سورة النحل

(٢) لم أقف على حديث بهذا السياق.

ثم ذكر ما يكون بعد فناء الدنيا التي تقدم مثالها من أهوال الحشر والحساب، فقال:

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾

قلت: ﴿ويوم﴾: معمول لمحذوف، أي: واذكر، أو عطف على قوله: «عند ربك»، أي: والباقيات الصالحات خير عند ربك ويوم القيامة، و(حشرناهم): عطف على (نُسيّر)؛ للدلالة على تحقق الحشر المتفرع على البعث الذى ينكره المشركون، وعليه يدور أمر الجزاء، وكذا الكلام فيما عطف عليه؛ منفيًا وموجباً، وقيل: هو للدلالة على أن حشرهم قبل التسْيير والبروز ؛ليعاينوا تلك الأهوال، كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك. و(نغادر): نترك، يقال: غادره وأغدره: إذا تركه، ومنه: الغدير؛ لما يتركه السيل في الأرض من الماء، و(صفًا): حال، أي: مصطْفين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ يوم نُسيِّرُ الجبالَ ﴾ أي: حين نقلعها من أماكنها ونسيرها في الجو، على هيئتها، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾(١) أو: نسير أجزاءها بعد أن نجعلها هباء منثوراً، والمراد من ذكره: تحذير الغافلين مما فيه من الأهوال، وقرئ: «تُسيَّر» بالبناء للمفعول؛ جرياً على سَنَن الكبرياء، وإيذاناً بالاستغناء عن الإسناد إلى الفاعل؛ لظهور تعينه، ثم قال: ﴿ وترى الأرضَ ﴾ أي: جميع جوانبها، والخطاب للرسول ﷺ، أو لكل من يسمع، ﴿ بارزةً ﴾: ظاهرة، ليس عليها جبل ولا غيره. بل تكون ﴿ قَاعًا صَفْصَفًا، لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾(٢). ﴿ وحشرناهم ﴾: جمعناهم إلى الموقف من كل حدب، مؤمنين وكافرين، ﴿ فلم نُغادرْ ﴾ أي: لم نترك ﴿ منهم أحداً ﴾.

﴿ وعُرِضُوا على ربك ﴾، شبهت حالتهم بحال جُنْدٍ عُرِضَ على السلطان، ليأمر فيهم بما يأمر. وفي الالتفات إلى الغيبة، وبناء الفعل للمفعول، مع التعرض لعنوان الربوبية، والإضافة إلى ضميره ـ عليه الصلاة والسلام ـ من

(١) الآية ٨٨ من سورة النمل.
(٢) الآيتان ١٠٧ - ١٠٨ من سورة طه.

تربية المهابة، والجرى على سَنَن الكبراء، وإظهار اللطف به ﷺ ما لايخفى. قاله أبو السعود. ﴿ صَفًّا ﴾ أى: مَصْطَفِّينَ غير متفرقين ولا مختلطين، كل أمة صَفٌّ، وفي الحديث الصحيح: «يَجْمَعُ اللهُ الأولين والآخرين فى صَعِيدٍ واحِدٍ، صفوفاً، يُسْمِعُهمُ الداعِي وَيَنْفُذُهُمُ البَصَرُ...»(١) الحديث بطوله. وفي حديث آخر: «أهل الجنة، يوم القيامة، مائة وعشرون صفاً، أنتم منها ثمانون صفا»(٢).

يقال لهم ـ أى: للكفرة منهم: ﴿ لقد جئتمونا كما خلقناكم أولَ مرة ﴾، وتركتم ما خولناكم وما أعطيناكم من الأموال وراء ظهوركم. أو: حفاة عراة غُرْلاً، كما فى الحديث.

وهذه المخاطبة، بهذا التقريع، إنما هى للكفار المنكرين للبعث، وأما المؤمنون المُقِرون بالبعث فلا تتوجه إليهم هذه المخاطبة، ويدل عليه ما بعده من قوله: ﴿ بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً ﴾ أى: زعمتم فى الدنيا أنه، أى: الأمر والشأن، لن نجعل لكم وقتاً يَتَنَجَّزُ فيه ما وعدته من البعث وما يتبعه. وهو إضراب وانتقال من كلام، إلى كلام، كلاهما؛ للتوبيخ والتقريع.

﴿ ووُضع الكتاب ﴾ أى: كتاب كل أحد، إما فى يمينه أو شماله، وهو عطف على: (عُرِضوا)، داخلٌ تحت الأمور الهائلة التى أريد بذكرها تذكير وقتها، وأورد فيه ما أورد فى أمثاله من صيغة الماضى؛ لتحقق وقوعه، وإيثار الإفراد؛ للاكتفاء بالجنس، والمراد: صحائف أعمال العباد. ووضعها إما فى أيدى أصحابها يميناً وشمالاً، أو فى الميزان. ﴿ فترى المجرمين ﴾ قاطبة، المنكرون للبعث وغيرهم، ﴿ مشفقين ﴾: خائفين ﴿ مما فيه ﴾ من الجرائم والذنوب، ﴿ ويقولون ﴾، عند وقوفهم على ما فى تضاعيفه؛ نقيراً أو قطميراً: ﴿ يا ويلتنا ﴾ أى: ينادون بتهلكتهم التى هُلكوها من بين التهلكات، ومستدعين لها؛ ليهلكوا، ولا يرون تلك الأهوال، أى: يا ويلتنا احضرى؛ فهذا أوان حضورك، يقولون: ﴿ ما لهذا الكتاب لا يُغادرُ ﴾: لا يترك ﴿ صغيرةً ولا كبيرةً ﴾ من ذنوبنا ﴿ إلا أحصاها ﴾ أى: حواها وضبطها، وجملة ﴿لايغادر﴾: حال محققة؛ لِمَا فى الاستفهام من التعجب، أو استئنافية مَبْنية على سؤال مقدر، كأنه قيل: ما شأنه حتى يتعجب منه؟ فقال: لا يغادر سيئة صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها، ﴿ ووجدوا ماعملواْ ﴾ فى الدنيا من السيئات، أو جزاء ماعملوا ﴿ حاضراً ﴾: مسطورا عتيدا، ﴿ ولايظلم ربُك أحداً ﴾، فيكتب مالم يعمل من السيئات، أويزيد فى عقابه المستحق له. والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه بطوله البخارى فى (تفسير سورة الإسراء، باب قوله تعالى: ﴿ذرية من حملنا مع نوح...﴾)، ومسلم فى (الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها)، عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (١/٤٥٣)، والبزاز (كشف الأستار/٣٥٣٤) عن ابن مسعود.

الإشارة: ويوم نُسير جبال الحس، أو الوهم، عن بساط المعاني، وترى أرض العظمة بارزة ظاهرة لا تخفى على أحد، إلا على أكْمَهَ لا يُبصر القمر في حال كماله، وحشرناهم إلى الحضرة القدسية، فلم نغادر منهم، أي: ممن ذهب عنه الحس والوهم، أحداً، وعُرضوا على ربك؛ لشهود أنوار جماله وجلاله، صفاً، للقيام بين يديه، فيقول لهم: لقد جئتمونا من باب التجريد، كما خلقناكم أول مرة، مُطَهَّرِينَ من الدنس الحسي، غائبين عن العلائق والعوائق، وكنتم تزعمون أن هذا اللقاء لا يكون في الدنيا، وإنما موعده الجنة، ومن مات عن شهود حسه، وعن حظوظه، حصل له الشهود واللقاء قبل الموت الحسي، ووضع الكتاب في حق أهل الحجاب، فترى المجرمين من أهل الذنوب مشفقين مما فيه، ووجود العبد: ذَنْبٌ لا يقاس به ذنب، فَنَصْبُ الموازين، ومناقشةُ الحساب؛ إنما هو لأهل الحجاب، وأما العارفون الفانون عن أنفسهم، الباقون بربهم، لم يبق لهم ما يُحاسبون عليه؛ إذ لايشهدون لهم فعلاً، ولا يرون لأحد قوة ولا حولا. والله تعالى أعلم.

ولمّا كان سبب العذاب ووجود الحجاب هو التكبر على رب الأرباب، ذكر وباله بإثر الحشر والحساب، أو تقول: لمّا ذكر قصة الرجلين ذكر قُبح صنيع من افتخر بنفسه، وأنه شبيه بإبليس، وكل من افتخر واستنكف عن الانتظام في سلك فقراء المؤمنين كان داخلاً في حزبه. وقال الواحدي: ثم أمر الله تعالى نبيه أن يذكر لهؤلاء المتكبرين عن مجالسة الفقراء قصة إبليس وما ورّثه الكِبْرُ، فقال:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

قلت: (إلا إبليس): استثناء منقطع، إذا قلنا: إن ابليس لم يكن من الملائكة، وإذا قلنا: إنه منهم يكون متصلا، ويكون معنى «كان»: صار، أي: إلا إبليس صار من الجن لمّا امتنع من السجود، أو بأن الملائكة كان منهم قوم يقال لهم الجن، وهم الذين خُلقوا من النار. وجملة (كان من الجن): استئنافية سيقت مساق التعليل، كأنه قيل: ما له لم يسجد؟ فقيل: كان أَصْلُهُ جنيا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ إذْ قلنا للملائكة ﴾ أي: وقت قولنا لهم: ﴿ اسجدوا لآدمَ ﴾ سجود تحية وتكريم، ﴿ فسجدوا ﴾ جميعاً؛ امتثالاً للأمر، ﴿ إلا إبليسَ ﴾ أبى واستكبر؛ لأنه ﴿ كان من الجنّ ﴾،

وكان رئيسهم فى الأرض، فلما أفسدوا أرسل الله عليهم جنداً من الملائكة، فغزوهم، فهربوا فى أقطار الأرض، وأُخذ إبليس أسيراً، فعرجوا به إلى السماء، فأسلم وتعبد فى أقطار السموات، فلما أُمرت الملائكة بالسجود امتنع ونزع لأصله، ﴿ ففسقَ ﴾ أى: خرج ﴿ عن أمر ربه ﴾ أى: عن طاعته، أو صار فاسقاً كافراً بسبب أمر الله تعالى؛ إذ لولا ذلك لَمَا أبى، والتعرض لوصف الربوبية المنافية للفسق؛ لبيان كمال قُبح ما فعله.

قال تعالى: ﴿ أفتتخذونه وذريَّته ﴾ أى: أولاده، أو أتباعه، وهم الشياطين، جُعلوا ذرية؛ مجازاً. وقال قتادة: إنهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم. وقيل: يُدْخِل ذنَبه فى دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين. والهمزة للإنكار والتعجب، والفاء للتعقيب، أى: أعَقبَ عِلْمِكُم بصدور تلك القبائح منه، تتخذونه وذريته ﴿ أولياءَ ﴾ ؛ أحباء ﴿ من دونى ﴾ ؛ فتستبدلونهم، وتطيعونهم بدل طاعتى، والحال أنهم، أى: إبليس وذريته ﴿ لكم عدو ﴾ أى: أعداء. وأفرد؛ تشبيهاً له بالمصدر، كالقبول والولوع، ﴿ بئس للظالمين ﴾ : الواضعين للشىء فى غير محله، ﴿ بدلاً ﴾ استبدلوه من الله تعالى، وهو إبليس وذريته. وفى الالتفات إلى الغيبة، مع وضع الظاهر موضع الضمير، من الإيذان بكمال السخط، والإشارة إلى أن ما فعلوه ظلم قبيح، ما لا يخفى.

﴿ ما أشهدتُهم ﴾ أى: ما أحضرت إبليس وذريته، أو: جميع الكفار ﴿ خلْقَ السمواتِ والأرضِ ﴾، حيث خلقتهما قبل خلقهم، ﴿ ولا خلقَ أنفسهم ﴾ : ولا أشهدت بعضهم خلق بعض، كقوله: ﴿ ولا تَقْتلُوا أنفُسَكُمْ ﴾(١). قاله البيضاوى.

قلت : الظاهر إبقاء الأنفس على ظاهرها، أى: ما أحضرتهم خلق أنفسهم، أى: ما كانوا حاضرين حين خلقت أنفسهم، بل هم مُحْدَثُونَ فى غاية العجز والجهل، فكيف تتخذونهم أولياء من دونى؟ وفى الآية رد على المنجِّمين الذين يخوضون فى أسرار غيب السموات بالتخمين، وعلى الطبائعيين من الأطباء ومن سواهم، من كل متخوض فى هذه الأشياء، وعلى الكهّان وكل من يتطلع على الغيب بطريق الحدس، والمصدقين لهم. انظر ابن عطية.

قال تعالى: ﴿ وما كنت مُتَّخِذَ المضلِّينِ ﴾ من الشياطين ﴿ عَضُداً ﴾ أى: أعواناً فى شأن الخلق، أو فى شأن من شؤونى، حتى تتخذوهم أولياء وتُشركوهم فى عبادتى، وكان الأصل أن يقول: وما كنت متخذهم، فوقع المظهر موقع الضمير؛ ذماً لهم، وتسجيلاً عليهم بالإضلال، وتأكيداً لما سبق من إنكار اتخاذهم أولياء، وفيه تهكم بهم وإيذان بكمال ركاكة عقولهم وسخافة آرائهم؛ حيث لا يفهمون هذا الأمر الجلى الذى لا يكاد يشتبه على أبلدِ الصبيان، فيحتاجون إلى التصريح به. انظر أبا السعود.

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة النساء.

الإشارة: فى الآية تنفيرٌ من الاستكبار والترفع على عباد الله تشبيهاً بإبليس، وحثٌ على التواضع والخضوع لله فى خلقه وتجلياته كيفما كانت، وفيها أيضا الحض على إفراد الوجهة والمحبة لله، والتبرى من كل ما سواه مما يشغل عن الله، وفيها أيضا: النهى عن التطلع إلى ما لم يَرِدْ به من أسرار القدر نصٌ صريح فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله من أسرار القدر، وفيها أيضا: النهى عن الاستعانة بأعداء الله فى أى شأن كان. وبالله التوفيق.

ثم ذكر وبال من اتخذ ولياً غير الله، فقال:

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢) وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) ﴾

قلت: «موْبقاً»: اسم مكان، أو مصدر، من: وَبَقَ وبوقاً، كوثب وثوباً، ووَبِقَ وبقاً، كفرح فرحاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ يومَ يقولُ ﴾ الحق تعالى للكفار؛ توبيخاً وتعجيزاً لهم: ﴿ نادُوا شركائيَ الذين زعمتم ﴾ أنهم شفعاؤكم؛ ليشفعوا لكم، والمراد بهم كل ما عُبد من دون الله، أو إبليس وذريته، ﴿ فَدَعَوْهم ﴾ أى: نادوهم للإغاثة، ﴿ فلم يستجيبوا لهم ﴾: فلم يغيثوهم، ﴿ وجعلنا بينهم ﴾ أى: بين الداعين والمدعوين ﴿ مَّوبقاً ﴾ أى: مهلكاً يهلكون فيه جميعاً، وهو النار، وقيل: العداوة، وهى نوع من الهلاك، لقول عمر رضي الله عنه: «لا يكن حُبك كلَفاً، ولا بُغضك تلفاً»(1). وقيل: المراد بالبيْن: الوصل، أى: وجعلنا وصلهم فى الدنيا هلاكاً فى الآخرة، كقوله: ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾(2)، وقيل: المراد بالشركاء: الملائكة، وعُزير، وعيسى ـ عليهم السلام ـ، ويراد حينئذ بالموبق: البرزخ البعيد، أى: وجعلنا بينهم وبين من عبدوهم برزخاً بعيداً؛ لأنهم فى قعر جهنم، وهم فى أعلى عليين.

﴿ ورأى المجرمون النارَ ﴾، وضع المُظْهَرَ موضع المُضْمَرِ؛ تصريحاً بإجرامهم، وذماً لهم، أى: ورأوا النار ﴿ فظنوا ﴾ أى: أيقنوا ﴿ أنهم مُّواقعوها ﴾؛ مخالطوها وواقعون فيها، ﴿ ولم يجدوا عنها مَصْرِفًا ﴾ أى: انصرافاً ومعدلاً ينصرفون إليه، نسأل الله السلامة من مواقع الهلاك.

---

(1) قال المناوى فى الفتح السماوى ٢/٧٩٦: «لم أقف عليه»، ومعنى المثل: لايكن حبك حباً مفرطا يؤدى إلى الولع والهيام، وبغضك بغضاً مفرطاً يجر إلى التلف.
(2) من الآية ٩٤ من سورة الأنعام.

الإشارة: من اتخذ الله ولياً، بموالاة طاعته وإفراد محبته، كان الله له ولياً ونصيراً عند احتياجه وفاقته، ومجيباً له عند دعائه واستغاثته، ومن اتخذ ولياً غير الله خاب ظنه ومناه، فإذا استغاث به جعل بينه وبين المستغيث به موبقاً وبرزخاً بعيداً، ومن والَى أولياء الله فإنما والى الله، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾(١). وبالله التوفيق.

ثم ذكر كفرهم بالقرآن، مع كونه آيةً واضحة للعيان، فقال:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا (٥٩) ﴾

قلت: ﴿جدلاً﴾: تمييز، و﴿ربك﴾: مبتدأ، و﴿الغفور﴾: خبره، و﴿ذو الرحمة﴾: خبر بعد خبر، وقيل: الخبر: (لو يؤاخذهم)، و﴿الغفور ذو الرحمة﴾: صفتان للمبتدأ، وإيراد المغفرة على جهة المبالغة دون الرحمة؛ للتنبيه على كثرة الذنوب، وأيضاً: المغفرة ترك المؤاخذة، وهي غير متناهية، والرحمة فعل، وهو متناهي، وتقديم الوصف الأول؛ لأن التخلية قبل التحلية، و(المُهْلَك)؛ بضم الميم وفتح اللام: اسم مصدر، من أهلك، فالمصدر، على هذا، مضاف للمفعول؛ لأن الفعل متعد، وقرئ بفتح الميم، من هلك، فالمصدر، على هذا، مضاف للفاعل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد صرَّفنا﴾ أي: كررنا وأوردنا على وجوهٍ كثيرة من النظر العجيب، ﴿في هذا القرآنِ للناس﴾؛ لمصلحتهم ومنفعتهم، ﴿من كل مَثَلٍ﴾؛ من كل خبر يحتاجون إليه، أو: من كل مثل

(١) من الآية ١٠ من سورة الفتح.

مضروب يعتبرون به، ومن جملته ما مر من مثل الرجلين، ومثل الحياة الدنيا. أو: من كل نوع من أنواع المعانى البديعة الداعية إلى الإيمان، التى هى، فى الغرابة والحسن واستجلاب القلوب، كالمثل المضروب، ليتلقوه بالقبول، فلم يفعلوا. ﴿ وكان الإنسانُ ﴾ بحسب جِبلّته ﴿ أكثرَ شيءٍ جدلاً ﴾ أى: أكثر الأشياء، التى يتأتى منها الجدل، جدلاً، وهو هنا شدة الخصومة بالباطل، والمعنى: أن جدله أكثر من جدل كل مجادل، وفيها ذم الجدل. وسببها: مجادلة النضر بن الحارث كما قيل، وهى عامة.

﴿ وما منع الناسَ ﴾ أى: أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم، من ﴿ أن يؤمنوا ﴾ بالله تعالى، ويتركوا ما هم فيه من الإشراك، ﴿ إذْ جاءهُم الهُدَى ﴾ أى: حين جاءهم القرآن الهادى إلى الإيمان، بسبب ما فيه من فنون العلوم وأنواع الإعجاز، فيؤمنوا، ﴿ ويستغفروا ربهم ﴾ عما فرط منهم من أنواع الذنوب، التى من جملتها: مجادلتهم للحق بالباطل، ﴿ إلا أن تأتيهم سُنَّةُ الأولين ﴾ أى: ما منعهم إلا إتيان سنة الأولين، وهو نزول العذاب المستأصل أو انتظاره، فيكون على حذف مضاف، أى: انتظار سنة الأولين، وهو الهلاك. قال ابن جزى: معناها أن المانع للناس من الإيمان والاستغفار هو القضاء عليهم بأن تأتيهم سُنَّة الأمم المتقدمة، وهى الإهلاك فى الدنيا، أو يأتيهم العذاب أى: عذاب الآخرة. هـ. قلت: والظاهر أن معنى الآية: ما منعهم من الإيمان إلا انتظار آية يرونها عياناً، كعادة الأمم الماضية، فيهلكوا كما هى سُنَّة الله فى خلقه، أو: عذاب ينزل بهم جهراً، وهو معنى قوله: ﴿ أو يأتيهم العذابُ قُبُلاً ﴾ أى: مقابلة وعياناً.

قال تعالى: ﴿ وما نُرسل المرسلين ﴾ إلى الأمم ﴿ إلا مبشرين ومنذرين ﴾ أى: مبشرين للمؤمنين بالثواب، ومنذرين للكافرين بالعقاب، دون إظهار الآيات واقتراح المعجزات، ﴿ ويُجادل الذين كفروا بالباطل ﴾؛ باقتراح الآيات؛ كالسؤال عن قصة أصحاب الكهف ونحوها. يفعلون ذلك ﴿ ليُدْحِضُوا به ﴾ أى: بالجدال ﴿ الحقَّ ﴾، أى: يزيلونه عن مركزه ويبطلونه، من إدحاض القدم وهو إزلاقها. وجدالهم: قولهم لرسلهم عليهم السلام: ﴿ مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾(١)، ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً ﴾(٢)، ونحوها. ﴿ واتخذوا آياتى ﴾ التى تخرّ لها صُمُّ الجبال، وهو القرآن، ﴿ وما أُنذروا ﴾ أى: وإنذارى لهم، أو: الذى أنذروا به من العذاب والعقاب، ﴿ هُزُواً ﴾؛ مهزوءا به، أو محل استهزاء.

---

(١) الآية ١٥ من سوة يس.
(٢) الآية ٢٤ من سورة المؤمنون.

﴿ ومن أظلمُ ممن ذُكِّرَ بآياتِ ربه ﴾ وهو القرآن العظيم، ﴿ فأعْرَضَ عنها ﴾ ؛ فلم يتدبرها ولم يؤمن بها، أي: لاأحد أظلم منه؛ لأنه أظلم من كل ظالم؛ حيث ضم إلى المجادلة التكذيب والإعراض، ﴿ ونَسِيَ ما قدمت يداه ﴾ من الكفر والمعاصي، ولم يتفكر في عاقبتها، ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكِنَّةً ﴾ : أغطية كثيرة تمنعهم من التدبر في الآيات، وهو تعليل لإعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم، فعل ذلك بهم كراهة ﴿ أن يفقهوه ﴾، أو: منعناهم أن يقفوا على كنهه. ﴿ و ﴾ جعلنا ﴿ في آذانهم وَقْراً ﴾ أي: ثِقلاً يمنعهم من استماعه، ﴿ وإن تَدْعُهُمْ إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ﴾ أي: فلن يكون منهم اهتداء ألْبَتةَ مدة التكليف؛ للطبع المتقدم على قلوبهم، وهذا في قوم مخصوصين سبق لهم الشقاء.

و«إذاً» : حرف جزاء وجواب، وهو، هنا، عن سؤال من النبي ﷺ المدلول عليه بكمال عنايته بإسلامهم، كأنه قال ﷺ: مالي لا أدعوهم؟ فقال: إن تدعهم... الخ. وجمع الضمير الراجع إلى الموصول في هذه المواضع الخمسة باعتبار معناه، كما أن إفراده في المواطن الخمسة المتقدمة باعتبار اللفظ.

﴿ وربُّك الغفور ﴾ : البليغ المغفرة ﴿ ذو الرحمة ﴾ الموصوف بها، ﴿ لو يُؤاخذهم بما كسبوا ﴾ من المعاصي، التي من جملتها: ما حكى عنهم من مجادلتهم بالباطل، وإعراضهم عن آيات ربهم، وعدم مبالاتهم بما اجترحوا من الموبقات، ﴿ لعجَّلَ لهم العذابَ ﴾ قبل يوم القيامة؛ لاستجلاب أعمالهم لذلك، والمراد: إمهال قريش، مع إفراطهم في عداوة رسول الله ﷺ، ﴿ بل لهم موعدٌ ﴾ وهو يوم القيامة، أو يوم بدر، والمعطوف عليه ببل: محذوف، أي: لكنهم ليسوا بمؤاخذين، ﴿ بل لهم موعدٌ لن يجدوا من دونه موئلاً ﴾ أي: ملجأ يلتجئون إليه، أو مَنْجىً ينجون به، يقال: وأَلَ: أي: نجا، ووأل إليه: أي: التجأ إليه.

﴿ وتلك القرى ﴾ ؛ أي: قرى عاد وثمود وأضرابها، أي: وأهل تلك القرى ﴿ أهلكناهم ﴾ بالعذاب ﴿ لَمَّا ظلموا ﴾ أي: وقت ظلمهم، كما فعلت قريش بما حكى عنهم، ﴿ وجعلنا لِمَهْلِكِهِم ﴾ أي: عيّناً لهلاكهم ﴿ موعداً ﴾ أي: وقتاً مُعيناً، لا محيدَ لهم عن ذلك، فلتعتبر قريش بذلك ولا تغتر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد صرَّف الله في كتابة العزيز كل ما يحتاج إليه العباد، من علم الظاهر والباطن، لكن خوض القلوب فيما لا يعني، وكثرة مجادلتها بالباطل، صرفتها عن فهم أسرار الكتاب واستخراج غوامضه. فمن صفت مرآة قلبه أدرك ذلك منه. وتصفيتها بصحبة أهل الصفاء، وهم العارفون بالله، ولا تخلو الأرض منهم حتى يأتي أمر الله، وما منع الناس من الإيمان بهم وتصديقهم إلا انتظارهم ظهور كرامتهم، ونزول العذاب على من آذاهم، وهو جهل بطريق الولاية؛ لأنهم رحمة للعباد، أرسلهم الحق تعالى في كل زمان، يُذكِّرون الناس بالتحذير والتبشير، وبملاطفة الوعظ والتذكير، فاتخذهم الناس وما ذكروا به هزواً ولعبا، حيث حادوا عن تذكيرهم، ونفروا عن

صحبتهم، فلا أحد أظلم ممن ذُكّر بالله وبآياته، فأعرض واستكبر ونسي ما قدمت يداه من المعاصي والأوزار، سَبَبُ ذلك: جَعْلُ الأكنة على القلوب، وسَفْحُ رَانِ المعاصي والذنوب، فلا يفقهون وعظاً ولا تذكيرا، ولا يستعمون تحذيراً ولا تبشيرا، وإن تدعهم إلى الهدى والرجوع عن طريق الردى، فلن يهتدوا إذاً أبداً؛ لِمَا سبق لهم في سابق القضاء، فلولا مغفرته العامة، ورحمته التامة، لعجل لهم العذاب، لكن له وقت معلوم، وأجل محتوم، لا محيد عنه إذا جاء، ولا ملجأ منه ولا منجا. نسأل الله العصمة بمنّه وكرمه.

ولمّا ذكر الحق جل جلاله قصة أهل الكهف، وكان وقع فيها عتاب للرسول - عليه الصلاة والسلام - حيث لم يستثن بتأخير الوحي، وبقوله: ﴿ولا تقولن لشيء ...﴾ الخ، ذكر هنا قصة موسى مع الخضر - عليهما السلام - وكان سَبَبُها عتابَ الحق لموسى عليه السلام؛ حيث لم يردّ العلم إليه، حين قال له القائل: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ فقال: لا، فذكر الحق تعالى قصتهما؛ تسليةً لنبينا عليه الصلاة والسلام بمشاركة العتاب، فقال:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾

قلت: ﴿لا أبرح﴾: ناقصة، وخبرها: محذوف: اعتماداً على قرينة الحال؛ إذ كان ذلك عن التوجه إلى السفر، أي: لا أبرح أسير في سفري هذا، ويجوز أن تكون تامة، من زال يزول، أي: لا أفارق ما أنا بصدده حتى أبلغ... الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ قال موسى لفتاه﴾ يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف عليه السلام، وكان ابن أخته، سُمي فتاه؛ إذ كان يخدمه ويتبعه ويتعلم منه العلم. والفتى في لغة العرب: الشاب، ولمّا كانت الخدمة أكثر ما تكون من الفتيان، قيل للخادم: فتى، ويقال للتلميذ: فتى، وإن كان شيخاً، إذا كان في خدمة شيخه، فقال موسى عليه السلام: ﴿لا أبرحُ﴾: لاأزال أسير في طلب هذا الرجل، يعني: الخضر عليه السلام، ﴿حتى أبلغَ مَجْمَعَ البحرين﴾، وهو ملتقى بحر فارس والروم مما يلي المشرق، وهذا مذهب الأكثر. وقال ابن جزي: مجمع البحرين: عند «طنجة»؛ حيث يتجمع البحر المحيط والبحر الخارج منه، وهو بحر الأندلس. قلت: وهو قول كعب بن محمد القرظي. ﴿أو أَمْضِيَ حُقُباً﴾ أي: زمناً طويلاً أتيقن معه فوات الطلب. والحقب: الدهر، أو ثمانون سنة، أو سبعون.

وسبب هذا السفر: أن موسى عليه السلام لما ظهر على مصر، بعد هلاك القبط، أمره الله تعالى أن يُذكر قومه هذه النعمة، فقام فيهم خطيباً بخطبة بليغة، رقّت بها القلوب، وذرفت منها العيون، فقالوا له: من أعلم الناس؟ فقال: أنا. وفي رواية: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ فقال: لا. فعتَبَ الله عليه؛ إذ لم يَرُدَّ العلم إليه عز وجل، فأوحى الله إليه: أعلم

منك عبدٌ لى بمجمع البحرين، وهو الخضر[١]، وكان قبل موسى ﷺ، وكان فى مُقَدّمَةِ ذى القرنين، فبقى إلى زمن موسى ﷺ، وسيأتى ذكر التعريف به فى محله، إن شاء الله.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: إن موسى ﷺ سأل ربه: أىُّ عبادك أحب إليك؟ قال: الذى يذكرنى ولا ينسانى، قال: فأى عبادك أقضى؟ قال: الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى، قال: فأى عبادك أعلم؟ قال: الذى يستقى علم الناس إلى علمه، عسى أن يصيب كلمةً تدله على هدى، أو ترده عن ردى، قال: يا رب إن كان فى عبادك من هو أعلم منى فدلنى عليه؟ قال: أعلم منك الخضر، قال: أين أطلبه؟ قال: على ساحل البحر عند الصخرة[٢]. قال: يارب، كيف لى به؟ قال: خُذ حُوتاً فى مِكْتَلٍ، فحيثما فقدتَه فهو هناك، فأخذ حُوتاً مشوياً، فجعله فى مِكْتَلٍ، فقال لفتاه: إذا فقدتَ الحوت فأخبرنى، وذهبا يمشيان إلى أن اتصلا بالخضر، على ما يأتى تمامه، إن شاء الله تعالى. وحديث الخطبة هو الذى فى صحيح البخارى[٣] وغيره. والله تعالى أعلم أىُّ ذلك كان.

الإشارة: قصة سيدنا موسى مع الخضر ـ عليهما السلام ـ هى السبب فى ظهور التمييز بين أهل الظاهر وأهل الباطن، فأهل الظاهر قائمون بإصلاح الظواهر، وأهل الباطن قائمون بتحقيق البواطن. أهل الظاهر مغترفون من بحر الشرائع، وأهل الباطن مغترفون من بحر الحقائق. قيل: هو المراد بمجمع البحرين، حيث اجتمع سيدنا موسى، الذى هو بحر الشرائع، والخضر ﷺ، الذى هو بحر الحقائق، ولا يُفهم أن سيدنا موسى ﷺ خالٍ من بحر الحقائق، بل كان جامعاً كاملاً، وإنما أراد الحق تعالى أن ينزله إلى كمال الشرف، بالتواضع فى طلب زيادة العلم؛ تأديباً له وتربية، حيث ادعى القوة فى نسبته العلم إلى نفسه، وفى الحِكَم: «منعك أن تدعى ما ليس لك مما للمخلوقين، أَفَيُبيح لك أن تدعى وصفه وهو رب العالمين!».

وهذه عادة الله تعالى مع خواصِّ أحبائه، إذا أظهروا شيئاً من القوة، أو خرجوا عن حد العبودية، ولو أنملة، أدبهم بأصغر منهم علماً وحالاً؛ عناية بهم، وتشريفاً لهم؛ لئلا يقفوا دون ذروة الكمال، كقضية الشاذلى مع المرأة التى قالت له: تَمُنُّ على ربك بجوع ثمانين يوما، وأنا لى تسعة أشهر ماذقت شيئاً. وكقضية الجنيد والسَّرِي فى جماعة من الصوفية، حيث تكلموا فى المحبة، وفاض كل واحد على قدر اتساع بحره فيها، فقامت امرأة بالباب، عليها جبة صوف، فردت على كل واحد ما قال، حيث أظهروا قوة علمهم، فأدبهم بامرأة.

ويؤخذ من طلب موسى الخضر ـ عليهما السلام ـ والسفر إليه: الترغيب فى العلم، ولاسيما علم الباطن، فطلبه أمر مؤكد. قال الغزالى رضي الله عنه: هو فرض عين؛ إذ لا يخلو أحد من عيب أو اصرار على ذنب، إلا الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وقد قال الشاذلى رضي الله عنه: من لم يتغلغل فى علمنا هذا مات مُصراً على الكبائر وهو لا يشعر. وبالله التوفيق.

---

(١) أخرج حديث موسى والخضر، البخارى فى مواضع منها: (العلم، باب ما ذكر فى ذهاب موسى ﷺ فى البحر إلى خضر)، و(أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر)، و(التفسير، سورة الكهف)، ومسلم فى (الفضائل، باب من فضائل الخضر).

(٢) أخرجه الطبرى فى التفسير (١٥/٢٧٧) وعزاه السيوطى فى الدر (٤/٤٢٣) لابن المنذر، وابن أبى حاتم فى التفسير.

(٣) أخرج البخارى حديث الخطبة فى (تفسير سورة الكهف، باب «فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما»)، عن أُبىِّ بن كعب.

ثم ذكر بقية القصة، فقال:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

قلت : ﴿بينهما﴾: ظرف مضاف إليه؛ اتساعًا، أو بمعنى الوصل، و﴿سَرَبًا﴾: مفعول ثان لاتخذ، و﴿إذ أوينا﴾: متعلق بمحذوف، أي: أخبرني ما دهاني حين أويتُ إلى الصخرة حتى لم أخبرك بأمر الحوت، فإني نسيتُ أن أذكر لك أمره. و﴿أن أذكره﴾: بدل من الهاء في (أنسانيه)؛ بدل اشتمال؛ للمبالغة، و﴿عجبا﴾: مفعول ثان لاتخذ، وقيل: إن الكلام قد تم عند قوله: (في البحر)، ثم ابتدأ التعجب فقال: (عجبا) أي: أَعْجَبُ عجبًا، وهو بعيد. قاله ابن جزي. قلت : وهذا البعيد هو الذي ارتكب الهبطي. و(قصصا): مصدر، أي: يقصان قصصا.

يقول الحق جل جلاله : ثم إن موسى ويوشع ـ عليهما السلام ـ حملا حوتاً مشوياً وخُبزاً، وسارا يلتمسان الخضر، ﴿ فلما بلغا مَجْمَعَ بينهما ﴾ ؛ بين البحرين، أو مجمع وصل بعضهما ببعض، وجدا صخرة هناك، وعندها عين الحياة، لا يصيب ذلك الماءُ شيئاً إلا حَيِيَ بإذن الله، وكانا وَصَلاَ إليها ليلاً، فناما، فلما أصاب السمكة رَوْحُ الماء وبردُه اضطرب في المِكْتَل، ودخل البحر، وقد كانا أكَلاَ منه، وكان ذلك بعد استيقاظ يوشع، وقيل: توضأ عليه السلام من تلك العين، فانتضح الماء على الحوت، فحيى ودخل البحر، فاستيقظ موسى، وذهبا، و﴿ نَسِيَا حوتَهما ﴾ أي: نسيا تفقد أمره وما يكون منه، أو نسي يوشع أن يعلمه، وموسى عليه السلام أن يأمر فيه بشيء، ﴿ فاتخذ ﴾ الحوت ﴿ سبيله ﴾ أي: طريقه ﴿ في البحر سَرَباً ﴾ ؛ مسلكاً كالطاق، قيل: أمسك الله جرية الماء على الحوت فجمد، حتى صار كالطاق في الماء؛ معجزة لموسى أو الخضر ـ عليهما السلام.

﴿ فلما جاوزا ﴾ مجمع البحرين، الذي جُعل موعداً للملاقاة، وسارا بقية ليلتهما ويومهما إلى الظهر، وجد موسى عليه السلام حرَّ الجوع، فـ ﴿ قال لفتاه آتنا غداءنا ﴾ أي: ما نتغدى به، وهوالحوت، كما يُنبئ عنه الجواب، ﴿ لقد لَقِينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ : تعباً وإعياء. قيل :لم يَنْصَبْ موسى ولم يَجُعْ قبل ذلك، ويدل عليه الإتيان بالإشارة، وجملة (لقد لقينا) : تعليل للأمر بإيتاء الغذاء، إما باعتبار أن النَّصَب إنما يعترى بسبب الضعف الناشئ عن الجوع، وإمَّا باعتبار ما في أثناء التغذي من استراحة مَّا.

﴿ قال ﴾ فتاه ﷺ: ﴿أرأيتَ إذْ أوينا إلى الصخرة ﴾ أي: التجأنا إليها ونمنا عندها، ﴿ فإنى نسيتُ الحوت ﴾ أي: أخبرني ما دهاني حتى لم أذكر لك أمر الحوت، فإني نسيتُ أن أذكر لك أمره، ومراده بالاستفهام تعجيب موسى ﷺ مما اعتراه من النسيان، مع كون ما شاهده من العظائم التي لا تكاد تنسى، ﴿ وما أنسانيهُ إلا الشيطانُ ﴾ بوسوسته الشاغلة له عن ذلك، ﴿ أن أذكره ﴾، ونسبته للشيطان؛ هضماً لنفسه، واستعمال الأدب في نسبة النقائص إلى الشيطان، وإن كان الكل من عند الله. وهذه الحالة، وإن كانت غريبة لا يعهد نسيانها، لكنه قد تعوّدَ بمشاهدة أمثالها من الخوارق مع موسى ﷺ، وألِفَهَا قبل اهتمامه بالمحافظة عليها، أو لاستغراقه وانجذاب سره إلى جناب القدس، حتى غاب عن الإخبار بها.

قلت: والظاهر أن نسيانه كان أمراً إلهيا قهرياً بلا سبب، وحكمته ما لقى من النصب؛ لتعظُم حلاوة العلم الذى يأخذه عن الخضر ﷺ، فإن المُساق بعد التعب ألذ من المساق بغير تعب، ولذلك: «حفت الجنة بالمكاره».

ثم قال: ﴿ واتخذ ﴾ الحوتُ ﴿ سبيلَه في البحر عَجَباً ﴾، فيه حذف، أي: فحيي الحوت، واضطرب، ووقع في البحر، واتخذ سبيله فيه سبيلاً عجباً، أو اتخاذاً عجباً يتعجب منه، وهو كون مسلكه كالطاق، ﴿ قال ﴾ موسى ﷺ: ﴿ ذلك ما كنا نبغ ﴾ أي: ذلك الذى ذكرت من أمر الحوت هو الذى كُنا نطلبه؛ لكونه أمارة للفوز بالمرام، ﴿ فارتدَّا ﴾ أي: رجعا ﴿ على ﴾ طريقهما الذى جاءا منه، يقُصَّان. يتبعان ﴿ آثارِهما قَصَصاً ﴾، حتى أتيا الصخرة ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا ﴾، التنكير؛ للتفخيم والإضافة؛ للتعظيم، وهو الخضر ﷺ عند الجمهور، واسمه: بلْيَا بن ملْكَان يُعْصوا، والخضر لقب له؛ لأنه جلس على فروةٍ بيضاء فاهتزّت تحته خضراء، كما في حديث أبي هريرة عنه ـ صلى الله عليه وسلم(١).

وقال مجاهد: سمى خضراً؛ لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله، ثم قال: وهو ابن عابر بن شالِخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، وكان أبوه ملكا. هـ. وفي الحديث أن النبي ﷺ ذكر قصة الخضر، فقال: كان ابن ملك من الملوك، فأراد أبوه أن يستخلفه من بعده، فأبى وهرب، ولحق بجزائر البحر، فلم يقدر عليه. قيل: إنه شرب من عين الحياة؛ فمتع بطول الحياة.

رُوى أن موسى ﷺ حين انتهى إلى الصخرة رأى الخضر ﷺ على طنْفَسَةٍ ـ أى: بساط ـ على وجه الماء، فسلم عليه. وعنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: انتهى موسى إلى الخضر، وهو نائم مُسَجى عليه ثوب، فسلَّمَ عليه فاستوى جالساً، وقال: عليك السلام يانبى بنى إسرائيل، فقال موسى: من أخبرك أنى نبى بنى اسرائيل؟ قال: الذى أدراكَ بى، وذلك علىَّ.

(١) أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى).

قال تعالى فى حق الخضر: ﴿آتيناه رحمةً من عندنا﴾ ، هى الوحى والنبوة، كما يُشعر به تنكير الرحمة، وإضافتها إلى جناب الكبرياء ،وقيل: هى سر الخصوصية، وهى الولاية. ﴿وعلَّمناه من لَدُنَّا عِلْماً﴾ خاصاً، لايكتنه كُنْهه، ولا يُقدر قدره، وهو علم الغيوب، أو أسرار الحقيقة، أو علم الذات والصفات، علماً حقيقياً. فالخضر عليه السلام قيل: إنه نبى؛ بدليل قوله فيما يأتى: ﴿وما فعلته عن أمري﴾ ، وقيل: وَلِيٌّ، واخْتُلف: هل مات، أو هو حى؟ وجمهور الأولياء: أنه حي، وقد لقيه كثيرٌ من الصلحاء والأولياء، حتى تواتر عنهم حياته(1) . والله تعالى أعلم.

الإشارة: إنما صار الحوت دليلاً لسيدنا موسى عليه السلام بعد موته وخروجه عن إلفه، ثم حيى حياة خصوصية لَمَّا أنفق عليه من عين الحياة، كذلك العارف لا يكون دالاً على الله، وإماماً يقتدى به حتى يموت عن شهود حسه، ويخرق عوائد نفسه، ويفنى عن بشريته، ويبقى بربه، حينئذ تحيا روحه بشهود عظمة ربه، ويصير إماماً ودليلاً موصلاً إليه، ويَظهر منه خرق العوائد، كما ظهر من الحوت، حيث أمسك عن الماء الجرية فصار كالطَّاق، وذلك اقتدار، وإلى ذلك تشير أحوال الخضر، فكان الحوت مظهراً لحاله فى تلك القصة. قاله فى الحاشية بمعناه.

وقال قبل ذلك فى قوله: ﴿واتخذ سبيله فى البحر عَجَبًا﴾: أى اتخذ الحوتُ، وُجوِّز كونُ فاعلِ (اتخذ): موسى، أى: اتخذ موسى سبيل الحوت فى البحر عجبا وخرقَ عادة؛ بأن مشى على الماء فى طريق الحوت، حتى وجد الخضر على كبد البحر. ثم قال: وعلى الجملة: فالقصة تشير من جهة الخضر: للاقتدار وإسقاط الأسباب، ومن جهة موسى: لإثبات الأسباب؛ حكمة، وحالة الاقتدار أشرف، وصاحب الحكمة أكمل ونفعه عام، بخلاف الآخر، فإن نفعه خاص. هـ.

وقوله تعالى: ﴿وعلمناه من لدنَّا علما﴾ ، العلم اللدنى: هو الذى يفيض على القلب من غير اكتساب ولا تعلم، قال عليه الصلاة والسلام: «من عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» . وذلك بعد تطهير القلب من النقائص والرذائل، وتفرغه من العلائق والشواغل، فإذا كمل تطهير القلب، وانجذب إلى حضرة الرب، فاضت عليه العلوم اللدنية، والأسرار الربانية، منها ما تفهمها العقول وتدخل تحت دائرة النقول، ومنها ما لا تفهمها العقول ولا تحيط بها النقول، بل تُسلم لأربابها، من غير أن يقتدى بهم فى أمرها، ومنها ما تفيض عليهم فى جانب علم الغيوب؛ كمواقع القدر وحدوث الكائنات المستقبلة، ومنها ما تفيض عليهم فى علوم الشرائع وأسرار الأحكام، ومنها فى أسرار الحروف وخواص الأشياء، إلى غير ذلك من علوم الله تعالى. وبالله التوفيق.

---

(1) بين أهل العلم خلاف فى شأن الخضر، هل هو نبى أم لا؟ وهل هو حى أم لا؟... راجع فى ذلك تفسير: ابن كثير (٣/٩٩)، وفتح البارى (٦/٤٣٤)، والمعالم الصوفية فى قصة سيدنا موسى والخضر، للأستاذ الدكتور جودة المهدى، فى حولية كلية أصول الدين بطنطا، العدد الأول، /١٩٨٧م.

ثم تمم قصتهما بعد التقائهما، فقال:

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٦٧﴾ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴿٧٠﴾ ﴾

قلت: «رُشْداً»: مفعول ثاني لعلمت، أو: علة لأتبعك، أو: مصدر بإضمار فعله، أو: حال من كاف «أتبعك»، أو: على إسقاط الخافض، أي: من الرشد، وفيه لغتان: ضم الراء وسكون الشين، وفتحهما، وهو: إصابة الخير، و﴿خُبْراً﴾: تمييز محول عن الفاعل، أي: لم يحط به خبرك. و«لا أعصى»: عُطِفَ على: «صابرا».

يقول الحق جل جلاله: ولما اتصل موسى بالخضر ـ عليهما السلام ـ استأذنه في صحبته ليتعلم منه، ملاطفة وأدباً وتواضعاً، وكذلك ينبغي لمن يريد التعلم من المشايخ: أن يتأدب ويتواضع معهم. ﴿قال له موسى هل أتبعك على أن تُعلِّمَنِ مما عُلِّمتَ رُشداً﴾ أي: مما علمك الله من العلم الذي يدل على الرشد وإصابة الصواب، لعلي أرشد به في ديني. ولا ينافي كونه نبياً ذا شريعة أن يتعلم من غيره من أسرار العلوم الخفية؛ إذ لا نهاية لعلمه تعالى، وقد قال له تعالى فيما تقدم: أعلم الناس من يبتغي علم غيره إلى علمه. رُوِي أنهما لما التقيا جلسا يتحدثان، فجاءت خُطافة أوعصفور فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، فقال الخضر: ياموسى خطر ببالك أنك أعلم أهل الأرض؟ ما علمك وعلمي وعلم الأولين والآخرين في جنب علم الله إلا أقل من الماء الذي حمله هذا العصفور.

ولمّا سأله صُحْبَتَهُ ﴿قال﴾ له: ﴿إنك لن تستطيع معيَ صبراً﴾؛ لأنك رسول مكلف بحفظ ظواهر الشرائع، وأنا أطلعني الله تعالى على أمور خفية، لا تتمالك أن تصبر عنها؛ لمخالفة ظاهرها للشريعة. وفي صحيح البخاري: «قال له الخضر: يا موسى، إني على علم من علم الله علّمَنيهِ، لا تعلمه أنت، وأنتَ على علمٍ من علم الله علّمكه الله، لا أعلمه»(١).

ثم علل عدم صبره بقوله: ﴿وكيف تصبرُ على ما لم تُحط به خُبْراً﴾؟ لأني أتولى أموراً خفية لاخُبر لك بها، وصاحب الشريعة لا يُسلم لصاحب الحقيقة العارية من الشريعة، ﴿قال﴾ له موسى ﷺ: ﴿ستجدني إن

(١) جاء ذلك في رواية البخاري، التي أخرجها في (العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سئل: أيّ الناس أعلم)؟ من حديث أُبيّ بن كعب.

شاء الله صابراً﴾ معك، غير مُعترض عليك. وتوسيط الاستثناء بين مفعولي الوجدان لكمال الاعتناء بالتيمن، ولئلا يتوهم تعلقه بالصبر، ﴿ولا أعصِي لك أمراً﴾، هو داخل في الاستثناء، أي: ستجدني إن شاء الله صابراً وغير عاص.

وقال القشيري: وَعَدَ من نفسه شيئين: الصبر، وألاّ يعصيه فيما يأمره به. فأما الصبر فَقَرَنَه بالمشيئة، حتى وجده صابراً، فلم يقبضْ على يدي الخضر فيما كان منه من الفعل. والثاني قال: ﴿ولا أعصى لك أمراً﴾، فأطلق ولم يستثن، فعصى، حيث قال له الخضر: ﴿فلا تسألني عن شيء﴾، فكان يسأله، فبالاستثناء لم يخالف، وبالإطلاق خالف. هـ. قال شيخ شيوخنا سيدي عبدالرحمن الفاسي: وفيه نظر؛ للحديث الصحيح: «يرحم الله موسى، لو صبر...» مع أن قوله: «ولا أعصى...» الخ، غير خارج عن الاستثناء، كما تقدم، وإن احتمل خروجه، والظاهر: أن الاستثناء، كالدعاء، إنما ينفع إذا صادف القدر، وهو هنا لم يصادف، مع أنه هنا عارضه علم الخضر بكونه لم يصبر من قوله: ﴿لن تستطيع معي صبراً﴾، وقد أراد الله نفوذ علم الخضر. هـ.

وقال ابن البنا: أن العهد إنما هو على قدر الاستطاعة، وإن الوفاء بالملتزم إنما يكون فيما لا يخالف الشرع، فلاطاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ لأن موسى ﷺ لم يلتزم إلا ذلك. ولما رأى ما هو محرم تكلم.. فافهم. هـ.

ثم شرط عليه التسليم لِمَا يرى، فقال: ﴿فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء﴾ تشاهده من أفعالي، فهمْتَه أم لا، أي: لا تفاتحني بالسؤال عن حكمته، فضلاً عن مناقشته واعتراضه، ﴿حتى أُحْدِثَ لك منه ذكراً﴾؛ حتى أبتدي بيانه لك وحكمته، وفيه إيذان بأن ما يصدر منه له حكمة خفية، وعاقبة صالحة. وهذا من أدب المتعلم مع العالم، والتابع مع المتبوع، أنه لا يعترض على شيخه بل يسأل؛ مُسترشداً بملاطفةٍ وأدب، وهذا في العلم الظاهر. وسيأتي في الإشارة ما يتعلق بعلم الباطن.

الإشارة: قد أخذ الصوفية ـ رضي الله عنهم ـ آداب المريد مع الشيخ من قضية الخضر مع موسى ـ عليهما السلام ـ؛ فطريقتهم مبنية على السكوت والتسليم، حتى لو قال لشيخه: لِمَ؟ لَمْ يفلح أبداً، سواء رأى من شيخه منكراً أو غيره، ولعله اختبار له في صدقه، أو اطلع على باطن الأمر فيه، فأحوالهم خضرية، فالمريد الصادق يُسلم لشيخه في كل ما يرى، ويمتثل أمره في كل شيء، فَهِم وجه الشريعة فيه أم لا، هذا في علم الباطن، وأما علم الظاهر فمبنى على البحث والتفتيش، مع ملاطفة وتعظيم.

قال الورتجبي: امتحن الحق تعالى موسى ﷺ بصحبة الخضر؛ لاستقامة الطريقة ولتقويم السنة في متابعة المشايخ، ويكون أسوة للمريدين والقاصدين في خدمتهم أشياخ الطريقة. هـ. قال القشيري في قوله: (فلا تسألن عن شيء): قال: ليس للمريد أن يقول لشيخه: لِمَ، ولا للمتعلم أن يقول لأستاذه، ولا للعامي أن يقول للمفتي فيما يفتي ويحكم: لِمَ. هـ.

وقال ابن البنا في تفسيره: يؤخذ من هذه القصة: ترك الاعتراض على أولياء الله إذا ظهر منهم شيء مخالف للظاهر؛ لأنهم فيه على دليل غير ظاهر لغيرهم، اللهم إلا أن يدعوك إلى اتباعه، فلا تتبعه إلا عن دليل، ويسلم له في حاله، ولا تعترض عليه، ولا يمنعك ذلك من طلب العلم والتعلم منه، وإن كنت لا تعمل بعمله؛ لأنه لا يجب عليك تقليده إلا عن دليل، فلا تعمل مثل عمله، وأنت ترى أنه مخالف لك في ظنك، ولاعلم لك بحقيقة باطن الأمر، فلا تقفُ ما ليس لك به علم . والله الموفق والمرشد. هـ.

قلت: ما ذكره إنما هو في حق من لم يدخل تحت تربيته، فإنما هو طالب علم أو تبرك، وأما من التزم صحبته على طريق التربية فلا يتأخر عن امتثال ما أمره به، كيفما كان، نعم، إن لم ينبغ التوقف والتأني في الاقتداء به.

وقال في القوت في قوله: ﴿فلا تسألن عن شيء﴾: الشيء في هذا الموضع وصف مخصوص من وصف الربوبية من العلم، الذي علمه الخضر ﷺ من لدنه، لا يصلح أن يسأل عنه، من معنى صفات التوحيد ونعوت الوحدانية، لا يوكل إلى العقول، بل يخص به المراد المحمول. هـ.

قال المحشي الفاسي: وهو ـ أي: المحمول ـ ما يرشقْ فيهم من وصف الحق وقدرته، فيتصرفون، وهم في الحقيقة مُصرَّفون، وهؤلاء هم أهل القبضة، الذين علّمهم سرَّ الحقيقة، فلهم قدرة لنفوذ شعاعها فيهم، فتتكوّن لهم الأشياء، وتنفعل لحملهم سر الحقيقة وظهورها لهم وفيهم، وهم كما قال: مرادون محمولون، فما يجري عليهم: قدر ﴿وما رميت...﴾ الآية. هـ.

ثم ذكر ما أراه من الخوارق، فقال:

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾

قلت : ضمّن ركوب السفينة معنى الدخول فيها، فعداه بفى، وقد تركه على أصله فى قوله: ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾(١).

يقول الحق جل جلاله : ﴿ فانطلقا ﴾ أى: موسى والخضر، وسكت عن الخادم؛ لكونه تبعاً، وقيل: إن يوشع لم يصحبهما، بل رجع، فصارا يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهم سفينة، فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوهم بغير نوْل، فلما لَجّجُوا البَحْرَ أخذ الخضرُ فأساً فخرق السفينة، فقلع لوحاً أو لوحين مما يلى الماء، فحشاها موسى بثوبه، و﴿ قال أخرقتها لتُغرق أهلَها ﴾ أو: ليَغرَق أهلُها(٢)، ﴿ لقد جئتَ ﴾ أى: أتيتَ وفعلت، ﴿ شيئاً إمْراً ﴾ أى: عظيماً هائلاً، يقال: أمِر الأمرُ: عظمُ ، ﴿ قال ﴾ الخضر: ﴿ ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً ﴾ ؛ تذكيراً لما قاله له من قبلُ، وإنكاراً لعدم الوفاء بالعهد، ﴿ قال ﴾ موسى ﷺ: ﴿ لا تُؤاخذنى بما نسيتُ ﴾ أى: بنسيانى، أو بالذى نسيته، وهو وصيته بأن لا يسأله عن حكمة ماصدر عنه من الأفعال الخفية الأسباب قبل بيانه، أراد: نسى وصيته، ولا مؤاخذة على الناسى، وفى الحديث: «كانت الأولى من مُوسى نسياناً» . أو: أراد بالنسيان الترك، أى: لا تؤاخدنى بما تركت من وصيتك أول مرة. ﴿ ولا تُرهقنى ﴾ أى: لا تُغْشِنِى ولا تُحمِّلْنِى ﴿ من أمرى ﴾ ، وهو اتباعك، ﴿ عُسراً ﴾ أى: لا تُعسِّرْ علىّ فى متابعتك، بل يسرها علىّ؛ بالإغضاء والمسامحة.

﴿ فانطلقا ﴾ أى: فقبل عذره؛ فخرجا من السفينة فانطلقا ﴿ حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ﴾ قيل: كان يلعب مع الغلمان ففتَلَ عنقه، وقيل: ضرب رأسه بحجر، وقيل: ذبحه، والأول أصح؛ لوروده فى الصحيح، رُوى أن اسم الغلام «جيسور» بالجيم، وقيل: بالحاء المهملة، فإن قلت: لِمَ قال «خرقها»؛ بغير فاءٍ، وقال «فقتله» بالفاء؟ فالجواب: أن «خَرَقَها»: جواب الشرط، و«قتله»: من جملة الشرط، معطوفاً عليه، والجزاء هو قوله: (قال أقتلت) ، فإن قلت: لِمَ خولف بينهما؟ فالجواب: أن خرق السفينة لم يتعقب الركوب، وقد تعقب القتل لِقاء الغلام. هـ . وأصله للزمخشرى. وقال البيضاوى: ولعل تغيير النظم بأن جعل خرقها جزاء، واعتراض موسى ﷺ مستأنفًا فى الأولى، وفى الثانية «فقتله» من جملة الشرط، واعتراضه جزاء؛ لأن القتل أقبح، والاعتراض عليه أدخل، فكان جديراً بأن يجعل عمدة الكلام، ولذلك وصله بقوله: «لقد جئت شيئًا نُكرا» أى: منكراً. هـ . وناقشه أبو السعود بما يطول ذكره.

---

(١) من الآية ٨ من سورة النحل.
(٢) بفتح الياء والراء، على الغيب، وأهلُها: بالرفع على الفاعلية، وهى قراءة حمزة والكسائى، وقرأ الباقون بضم التاء وكسر الراء، مخففة مع سكون الغين؛ على الخطاب، وأهلَها بالنصب على المفعولية.. انظر الإتحاف (٢/ ٢٢١) .

﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام في اعتراضه: ﴿ أقتلتَ نفسًا زاكية ﴾(١): طاهرة من الذنوب، وقرئ بغير ألف؛ مبالغةً، ﴿ بغير نَفْسٍ ﴾ أي: بغير قتلِ نفسٍ محرمةٍ، فيكون قصاصاً. وتخصيص نفي هذا القبيح بالذكر من بين سائر القبيحات من الكفر بعد الإيمان، والزنا بعد إحصان؛ لأنه أقرب إلى الوقوع؛ نظراً لحال الغلام. ﴿ لقد جئتَ شيئًا نُكرًا ﴾ أي: مُنكراً، قيل: أنكرُ من الأول، إذ لا يمكن تداركه، كما يمكن تدارك الأول؛ بالسد ونحوه. وقيل: «الإمْر» أعظم؛ لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة.

﴿ قال ﴾ له الخضرُ عليه السلام: ﴿ ألم أقل لك إنك لن تستطيعَ معي صبراً ﴾، زاد «لك»؛ لزيادة تأكيد المكافحة؛ بالعتاب على رفض الوصية وقلة التثبت والصبر، لما تكرر منه الإنكار، ولم يَرْعَوِ بالتذكير، حتى زاد في النكير في المرة الثانية بذكر المنكر. ﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام: ﴿ إنْ سألتك عن شيء بعدها ﴾؛ بعد هذه المرة ﴿ فلا تُصاحبني ﴾ إن سألتَ صُحبتَكَ، وقرأ يعقوب: «فلا تصحبني»؛ رباعياً، أي: لا تجعلني صاحباً لك، ﴿ قد بلغتَ من لدُنّي عُذراً ﴾ أي: قد أعذرتَ ووجدت مِنْ قِبَلي عذراً في مفارقتي، حيث خالفتك ثلاث مرات. وعن النبي ﷺ: «يرحم الله أخِي مُوسَى، استحيا، فقال ذلك، لَوْ لَبِثَ مع صَاحِبِهِ لأبْصَرَ أعْجَبَ الأعَاجِيب»(٢). وفي البخاري: «وددنا لو صبر موسى، حتى يقص الله علينا من أمرهما»(٣).

﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾، هي أنطاكية، وقيل: أيْلة، وقيل الأُبلّة، وهي أبعد أرض الله من السماء، وقيل: برقة، وقال أبو هريرة وغيره: هي بالأندلس. ويُذكر أنها الجزيرة الخضراء. قلت: وهي التي تسمى اليوم طريفة، وأصلها بالظاء المشالة. وذلك على قول أن مجمع البحرين عند طنجة وسبتة. وعن النبي ﷺ: «كانوا أهل قرية لِئاماً». وقال قتادة: شر القرى التي لا يُضاف فيها الضيف، ولا يعرف لابن السبيل حقه.

ثم وصف القرية بقوله: ﴿ استطعما أهلها ﴾ أي: طلبا منهم طعاماً، ولم يقل: استطعماهم، على أن يكون صفة لأهل؛ لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعهم، فإن الإباء من الضيافة، مع كونهم أهلها قاطنين بها، أشنع وأقبح.

رُوي أنهما طافا بالقرية يطلبان الطعام، فلم يطعموهما. واستضافاهم ﴿ فأبَوا أن يُضيفوهما ﴾ بالتشديد، وقرئ بالتخفيف. يقال: ضافه: إذا كان له ضيفًا، أضافه وضيّفه: أنزله ضيفاً. وأصل الإضافة: الميل، من: ضاف السهمُ

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر: «زاكية»؛ بألف بعد الزاي، وتخفيف الياء، اسم فاعل من «زكا»، وقرأ الباقون: «زكية»؛ بتشديد الياء من غير ألف... انظر الإتحاف ٢/٢٢١.

(٢) أخرجه، بنحوه، أبو داود في (الحروف والقراءات ح ٢٩٨٤)، وأصل الحديث في صحيح مسلم في (الفضائل، باب من فضائل الخضر).. في سياق طويل.

(٣) أخرجه البخاري في (التفسير، سورة الكهف).

عن الغرض: مال، ونظيره: زاره، من الازْوِرَار، أي: الميل. فبينما هما يمشيان، ﴿فوجدا فيها جداراً﴾، قال وهب: كان طوله مائة ذراع، ﴿يُريد أن ينقضَّ﴾ أى: يسقط، استعار الإرادة للمشارفة؛ للدلالة على المبالغة في ذلك، والانقضاض: الإسراع في السقوط، وهو انفعال، من القض، يقال: قضضته فانقض، ومنه: انقضاض الطير والكوكب؛ لسقوطه بسرعة. وقرئ: أن ينقاض، من انقاضت السنُّ: إذا سقطت طولاً. ﴿فأقامه﴾ قيل: مسحه بيده فقام، وقيل : نقضه وبناه، وهو بعيد. ﴿قال﴾ له موسى: ﴿لو شئتَ لاتخذتَ عليه أجراً﴾ نتعشى به، وهو تحريض له على أخذ الجُعل، أو تعريض بأنه فُضول، وكأنه لَمَّا رأى الحِرمَان ومساس الحاجة كان اشتغاله بذلك في ذلك الوقت مما لا يعني، فلم يتمالك الصبر عليه.

قال ابن التين: إن الثالثة كانت نسياناً؛ لأنه يبعد الإنكار لأمر مشروع، وهو الإحسان لمن أساء. هـ. وفيه نظر؛ فقد قال القشيرى فى تفسير الآية: لم يقل موسى: إنك أَلْمَمْتَ بمحظور، ولكن قال: لو شئتَ، أى: فإن لم تأخذ بسببك فهلا أخذت بسببنا، فكان أَخْذُ الأجر خيراً من الترك، ولئن وَجَبَ حقُّهم فَلِمَ أخللت بحقنا؟ ويقال: إنَّ سَفَرَه ذلك كان سفرَ تأديب، فَرُدَّ إلى تَحَمُّلِ المشقة، وإلاَّ فهو نسى، حيث سقى لبنات شعيب، وكان ما أصابه من التعب والجوع أكثر، ولكنه كان فى ذلك الوقت محمولاً، وفى هذا الوقت مُتَحَمِّلاً. هـ.

قلت: لأن الحق تعالى أراد تأديبه فلم يحمل عنه، فكان سالكاً محضاً، وفى وقت السقى: كان مجذوباً محمولاً عنه.

ثم قال القشيرى: وكما أن موسى كان يُحب صحبة الخضر؛ لما له فيه من غرض استزادةٍ من العلم، كان الخضر يحب ترك صحبته؛ إيثاراً للخلوة بالله عنه. هـ. قاله فى الحاشية الفاسية.

الإشارة: يُؤخذ من خرق السفينة أن المريد لا تفيض عليه العلوم اللدنية والأسرار الربانية حتى يخرق عوائد نفسه، ويعيب سفينة وجوده، بتخريب ظاهره، حتى لا يقبله أحد[1]، ولا يُقبل عليه أحد، فبذلك يخلو بقلبه ويستقيم على ذكر ربه، وأما مادام ظاهره متزيناً بلباس العوائد، فلا يطمع فى ورود المواهب والفوائد.

ويُؤخذ من قتل الغلام: أنه لابد من قتل الهوى، وكل ما فيه حظ للنفس والشيطان، والطريق فى ذلك أن تنظر ما يثقل على النفس فتُحمله لها، وما يخف عليها فتحجزها عنه، حتى لايثقل عليها شيء من الحق. ويؤخذ من إقامة الجدار رسم الشرائع؛ قياماً بآداب العبودية، وصوناً لكنز أسرار الربوبية. ويؤخذُ منه أيضاً: الإحسان لمن أساء إليه، فإن أهل القرية أساءوا؛ بترك ضيافة الخضر، فقابلهم بالإحسان؛ حيث أقام جدارهم. والله تعالى أعلم.

(١) فى هذا الكلام نظر.

ثم ذكر افتراقهما، وبيان الحكمة فى تلك الخوارق التى فعل، فقال:

﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

قلت: ﴿هذا﴾، الإشارة إما إلى نفس الفراق، كقولك: هذا أخوك، أو إلى الوقت الحاضر، أى: هذا وقت الفراق. أو إلى السؤال الثالث. و(بينى): ظرف مضاف إليه المصدر؛ مجازاً، وقرئ بالنصب، على الأصل، و﴿غَصْبًا﴾: مصدر نوعي ليأخذ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال﴾ الخضر عليه السلام: ﴿هذا فراقُ بينى وبينك﴾ فلا تصحبنى بعد هذا، ﴿سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً﴾ أى: سأخبرك بالخبر الباطن، فيما لم تستطع عليه صبراً؛ لكونه منكراً فى الظاهر، فالتأويل: رجوع الشيء إلى مآله، والمراد هنا: المآل والعاقبة، وهو خلاص السفينة من اليد العادية، وخلاص أبَوَىْ الغلامِ من شره، مع الفوز بالبدل الأحسن، واستخراج اليتيمين للكنز، وفى جعل صلة الموصول عدم استطاعته، ولم يقل: «بتأويل ما رأيت»؛ نوعُ تعريضٍ به، وعتابه عليه السلام.

ثم جعل يفسر له، فقال: ﴿أما السفينةُ﴾ التى خرقتُها، ﴿فكانت لمساكين﴾: ضُعفاء، لا يقدرون على مدافعة الظلمة، فسماهم مساكين؛ لذلهم وضعفهم، ومنه قوله ﷺ: «اللهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِيناً، وأَمِتْنِي مِسْكِيناً، واحْشُرْنِي فى زُمرةِ المَسَاكِينِ»(1). فلم يُرد مسكنة الفقر، وإنما أراد التواضع والخضوع، أى: احشرنى مخبتاً متواضعاً، غير جبار ولا متكبر، وقيل: كانت السفينة لعشرة إخوة: خمسة زَمْنَى(1)، و خمسة ﴿يعملون فى

---

(1) أخرجه الترمذى فى (الزهد، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم) ، وابن ماجة (فى الزهد، باب مجالسة الفقراء).

البحر ﴾. وإسناد العمل إلى الكل، حينئذ، بطريق التغليب، ولأن عمل الوكيل بمنزلة الموكل. ﴿ فأردتُ أن أعيبها ﴾ : أجعلها ذات عيب، ﴿ وكان وراءهم ملكٌ ﴾ أى: أمامهم، وقرئ به، أو خلفهم، وكان رجوعهم عليه لامحالة، وكان اسمه: «جلندى بن كركر» وقيل: «هُدَدُ بن بُدَد»، قال ابن عطية: وهذا كله غير ثابت، يعنى: تسمية الملك. ﴿ يأخذُ كلَّ سفينة ﴾ صالحة، وقرئ به، ﴿ غَصْبًا ﴾ من أصحابها.

وكان حق النظم أن يتأخر بيانُ إرادةِ التعيُّب عن خوف الغصب، فيقول: فكانت لمساكين، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة، فأردت أن أعيبها؛ لأن إرادة التعيب مُسَبَّبٌ عن خوف الغصب، وإنما قدّم؛ للاعتناء بشأنها؛ إذ هى المحتاجة إلى التأويل، ولأن فى التأخير فصلاً بين السفينة وضميرها، مع توهم رجوعه إلى الأقرب. قال البيضاوى: ومبنى ذلك ـ أى: التعيب وخوف الغصب ـ على أنه متى تعارض ضرران يجب حمل أهونهما بدفع أعظمهما، وهو أصل ممهد، غير أن الشرائع فى تفاصيله مختلفة. هـ.

﴿ وأما الغلامُ ﴾ الذى قتلتُه، ﴿ فكان أبواه مؤمنين ﴾ وقد طُبِع هو كافراً، وإنما لم يصرح بكفره؛ لعدم الحاجة إليه؛ لظهوره من قوله: ﴿ فخشينا أن يُرهقهما ﴾ : فخفنا أن يغشى الوالدَيْنِ المؤمنَيْنِ ﴿ طغيانًا ﴾ عليهما ﴿ وكفرًا ﴾ بنعمتهما؛ لعقوقه وسوء صنيعه، فيُلْحِقُهُمَا شراً، أو لشدة محبتهما له فيحملهما على طاعته، أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره، فيجتمع فى بيت واحد مؤمنان وطاغٍ كافر، فلعله يميلهما إلى رأيه فيرتدا. وإنما خشى الخضر عليه السلام منه ذلك؛ لأن الله سبحانه أعلمه بحاله وأطلعه على عاقبة أمره، وقرئ: «فخاف ربك»، أى: كره سبحانه كراهية من خاف سوء عاقبة الأمر. ويجوز أن يكون القراءة المشهورة من قول الله سبحانه على الحكاية، أى فكرهنا أن يرهقهما طغياناً وكفراً؛ ﴿ فأردنا أنْ يُبدلهما ربُّهما خيراً منه ﴾ ؛ بأن يرزقهما بدله ولداً ﴿ خيراً منه زكاةً ﴾ : طهارة من الذنوب والأخلاق الردية، ﴿ وأقربَ رُحْمًا ﴾ أى: رحمة وعطفاً، وفى التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إليهما ما لا يخفى؛ من الدلالة على وصول الخير إليهما، فلذلك قيل: ولدت لهما جارية، تزوجها نبى من الأنبياء فولدت نبيًا، هدى الله تعالى على يديه أمة من الأمم، وقيل: ولدت سبعين نبيًا، وقيل: أبدلهما ابناً مؤمناً مثلهما.

﴿ وأما الجدارُ ﴾ الذى أقمتُ ﴿ فكان لغلامين يتيمين فى المدينة ﴾ أى: القرية المذكورة فيما سبق، ولعل التعبير عنها بالمدينة؛ لإظهار نوع اعتداد بها، باعتداد ما فيها من اليتيمين وأبيهما الصالح، قيل: اسم اليتيمين: أصرم وصريم. ﴿ وكان تحته كنزٌ لهما ﴾ من فضة وذهب، كما فى الحديث(٢)، والذم على كنزهما إنما هو لمن لم يؤد زكاته، مع أن هذه شريعة أخرى. قال ابن عباس: (كان لوحًا من ذهب، مكتوب فيه: عجبت لمن يؤمن

(١) أى: مرضى بمرض مزمن.
(٢) أخرجه الترمذى فى (تفسير سورة الكهف)، والحاكم فى المستدرك (٢/٣٦٩)، عن أبى الدرداء؛ مرفوعاً.

بالقدر كيف يحزن؟ وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب؟ وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح؟ وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل؟وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ لا إله الا الله، محمد رسول الله)(١) . وقيل: كانت صحفا فيها علم مدفون.

﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾ ، فيه تنبيه على أن سَعْيَهُ في ذلك كان لصلاح أبيهما، وفيه دليل على أن الله تعالى يحفظ أولياءه في ذريتهم، قيل: كان بينهما وبين الأب الذى حُفظا به سبعة أجداد. قال محمد بن المنكدر: (إن الله تعالى ليحفظ بالرجل الصالح ولده، وولد ولده، ومَسْرِيته التى هو فيها، والدويرات التى حولها، فلا يزالون فى حفظ الله وستره) . وكان سعيد بن المسيب يقول لولده: إنى لأزيد فى صلاتى من أجلك، رجاء أن أُحْفَظَ فيك، ويتلو هذه الآية. وفى الحديث: «ما أحسن أحدٌ الخلافة فى ماله إلا أحسن الله الخلافة فى تركته»(٢) . ويؤخذ من الآية: القيام بحق أولاد الصالحين؛ اذ قام الخضر عليه السلام بذلك.

﴿ فأراد ربك ﴾ أى: مالكك ومُدبر أمرك. وفى إضافة الرب إلى ضمير موسى عليه السلام، دون ضميرهما، تنبيه له عليه السلام على تحتم كمال الانقياد، والاستسلام لإرادته سبحانه، ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما برز من القدرة فى الأمور المذكورة وغيرها. أراد ﴿ أن يبلغا أشُدَّهما ﴾ : حلمَهُمَا وكمالَ رأيِهِمَا، ﴿ ويستخرجا كنزهما ﴾ من تحت الجدار، ولولا أنى أقمته لانقض، وخرج الكنز من تحته، قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته، وضاع بالكلية؛ ﴿ رحمةً من ربك ﴾ مصدر فى موضع الحال، أى: يستخرجا كنزهما مَرْحُومَيْنِ به من الله تعالى. أو: يتعلق بمضمر، أى: فعلت ما فعلت من الأمور التى شاهدتها، ﴿ رحمة من ربك ﴾ ؛ بمن فُعِل له أو به.

وقد استعمل الخضر عليه السلام غاية الأدب فى هذه المخاطبة؛ فنسب ما كان عيباً لنفسه، وما كان ممتزجاً له ولله تعالى؛ فإن القتل بلا سبب ظاهرُه عيبٌ، وإبداله بخير منه خير، فأتى بضمير المشاركة، وما كان كمالاً محضاً، وهو إقامة الجدار، نسبه لله تعالى.

ثم قال: ﴿ وما فعلتهُ ﴾ أى: ما رأَيْتَ من الخوارق ﴿ عن أمري ﴾ أى: عن رأيى واجتهادى، بل بوحى إلهى ملَكى، أو إلهامي، على اختلافٍ فى نبوته أو ولايته، ﴿ ذلكِ ﴾ أى: ما تقدم ذكره من التأويلات، ﴿ تأويلُ ﴾ أى: مآل وعاقبة ﴿ مالم تَسْطِع عليه صبراً ﴾ أى: تفسير مالم تستطع عليه صبراً، فحذف التاء؛ تخفيفاً، وهو فذلكة لِماَ تقدم، وفى جعل الصلة غير ما مرّ تكرير للتنكير عليه وتشديد للعتاب. قيل: كل ما أنكر سـيدنا موسى

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (١٦/٦) . وانظر تفسير ابن كثير (٣/٩٩) .
(٢) عزاه فى كنز العمال (١٦٠٧١) لابن المبارك، عن ابن شهاب، مرسلاً. وذكره؛ مرفوعاً: ابن عدى فى الكامل (٦/٢٢٩١) عن ابن عمر، وضعّفه.

ﷺ على الخضر قد جرى له مثله، ففي هذه الأمثلة حجة عليه، وذلك أنه لما أنكر خرق السفينة، نودي: يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت مطروح في اليم؟ فلما أنكر قتل الغلام قيل له: أين إنكارك من وكْزك القبطي وقضائك عليه؟ فلما أنكر إقامة الجدار، نودي: أين هذا من رفعك الحجر لبنات شعيب دون أجر؟ والله تعالى أعلم.

رُوي أنه قال له: لو صبرتَ لأتيتُ بك على ألفي عجيبة، كلها مما رأيت. ولما أراد موسى ﷺ أن يفارقه، قال له: أوصني، قال: لا تطلب العلم لتحدث به، واطلبه لتعمل به. هـ.

وفي رواية: قال له: اجعل همتك في معادك، ولا تخض فيما لا يعنيك، ولا تأمن الخوفَ، ولا تيأس الأمْن، وتدبر الأمور في علانيتك، ولا تذر الإحسان في قدرتك. فقال له: زدني يا ولي الله، فقال: ياموسى إياك واللجاجة، ولا تمش في غير حاجة، ولا تضحك من غير عَجَب، ولا تُعير أحداً بخطيئة بعد الندم، وابك على خطيئتك يا ابن عمران، وإياك والإعجاب بنفسك، والتفريط فيما بقي من عمرك، فقال له موسى: قد أبلغت في الوصية، أتم الله عليك نعمته، وغمرك في رحمته، وكلأك من عدوه. فقال الخضر: آمين. فأوصني أنت يانبي الله، فقال له موسى: إياك والغضب إلا في الله، ولا ترضى عن أحد إلا في الله، ولا تحب لدنيا ولا تبغض لدنيا، فإنك تخرج من الإيمان وتدخل في الكفر، فقال له الخضر: قد أبلغت في الوصية يا ابن عمران، أعانك الله على طاعته، وأراك السرور في أمرك، وحببك إلى خلقه، وأوسع عليك من فضله، قال موسى: آمين.

تنبيه: قد تقدم أن الجمهور على حياة الخضر ﷺ. وسبب تعميره أنه كان على مقدمة ذي القرنين، فلما دخل الظلمات أصاب الخضر عين الحياة، فنزل فاغتسل منها، وشرب من مائها، فأخطأ ذو القرنين الطريق، فعاد، فلم يصادفها، قالوا: وإلياس أيضاً في الحياة، يلتقيان في كل سنة بالموسم، واحتج من قال بموت الخضر بقوله ـ عليه الصلاة والسلام، كما في الصحيح، بعد صلاة العشاء: «أرأيْتكمْ ليْلتَكمْ هذِهِ، فإنّه علَى رأسِ مِائةَ سنَةٍ، لا يبْقى ممنْ هُوَ اليوْمَ علَى ظَهْرِ الأرْضِ أحَدٌ»[1]، ويجاب بأن الخضر ﷺ كان في ذلك الوقت في السحاب، أو يخصص الحديث به؛ كما يخص بإبليس ومن عمّر من غيره. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الاعتراض على المشايخ موجب للبُعد عنهم، والبُعد عنهم موجب للبُعد عن الله، فلا وصول إلى الله إلا بالوصول إليهم مع التعظيم والاحترام؛ «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه»؛ كما في الحِكَم. فالواجب على المريد، إذا كان بين يدي الشيخ، السكوت

---

(١) أخرجه البخاري في (العلم، باب السمر في العلم)، ومسلم في (فضائل الصحابة، باب قوله ﷺ: لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم)، من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنه.

والتسليم والاحترام والتعظيم، إلا أن يأمره بالكلام، فيتكلم بآداب ووقار وخفض صوت، فإذا رأى منه شيئًا يخالف ظاهر الشريعة فليسلم له، ويطلب تأويله، فإن الشريعة واسعة، لها ظاهر وباطن، فلعله اطلع على مالم يفهمه المريد.

وكذلك الفُقراء لا ينكر عليهم إلا ما كان محرّمًا مجمعاً على تحريمه، ولا تأويل فيه، كالزنا بالمعينة أو اللواط، وأما ما اختلف فيه، ولو خارج المذهب، فلا ينكر عليه، وكذلك ما فيه تأويل. هذا إن صحت عدالته، فقد قالوا: إن صحت عدالة المرء فليترك وما فعل. وتأمل قضية شيخ شيوخنا سيدى عبدالرحمن المجذوب فى مسألة الثور الذى أمر الفقراء بذبحه، فلما ذبحوه تبين أنه كان صدقة عليه، وكذلك غيره من أرباب الأحوال، يُلتمس لهم أحسن المخارج، فإن أحوالهم خضرية، وما رأينا أحداً أولع بالإنكار فأفلح أبدا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة ذى القرنين، الذى وقع السؤال عنه مع الروح وأهل الكهف، فقال:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ويسألونك﴾ أى: اليهود، سألوه على وجه الامتحان، أو قريش، بتلقينهم. والتعبير بالمضارع؛ للدلالة على استمرارهم على ذلك إلى ورود الجواب، والمراد: ذو القرنين الأكبر، وكان على عهد إبراهيم عليه السلام، ويقال: إنه الذى قضى لإبراهيم حين تحاكم إليه فى بئر السبع بالشام، واسمه تبرس، وقيل: هرديس[1]، وأما ذو القرنين الأصغر، بالقرب من زمن عيسى عليه السلام، واسمه الإسكندر، وهو صاحب أرسطو الفيلسوف، وقيل: المراد به هنا الأصغر، واقتصر عليه المحلّى.

قال الإمام الرازى: والأول أظهر؛ لأن من بلغ مُلكه من السعة والقوة إلى الغاية التى نطق بها التنزيل إنما هو الأكبر، كما شهدت به كتب التواريخ. قلت: كلاهما بلغا الغاية القصوى، وملكا المشارق والمغارب، أما ذو القرنين الأكبر، فقيل: إنه كان ملِكاً عادلاً صالحاً، ملك الأقاليم، وقهر أهلها من الملوك، ودانت له البلاد، وإنه كان داعياً

(١) ليس فى هذا الشأن خبر عن الرسول الأعظم ﷺ.

إلى الله تعالى، سائراً فى الخَلْق بالمعونة التامة والسلطان المؤيد المنصور، وكان الخضر على مقدمة جيشه، بمنزلة المستشار الذى هو من الملك بمنزلة الوزير. وقيل: كان ابن خالته. وذكر الأزرقى وغيره أنه أسلم على يد إبراهيم عليه السلام، فطاف معه بالكعبة مع إسماعيل. ورُوى أنه حج ماشياً، فلما سمع إبراهيم عليه السلام بقدومه تلقاه ودعا له، وأوصاه بوصايا. ويقال: إنه أُتي بفرس ليركب، فقال: لا أركب فى بلد فيه الخليل، فعند ذلك سخّر له السحاب، وطوى له الأسفار، فكانت السحاب تحمله وعساكيره وجميع آلاتهم، إذا أرادوا غزو قوم. وسئل عنه عليّ رضي الله عنه: أكان نبياً أو ملَكًا – بالفتح؟ فقال: لم يكن نبياً ولا ملكًا، ولكن كان عبداً أحبَّ الله فأحبه الله، وناصحَ الله فناصحه، فسخر له السحاب، ومدّ له الأسباب(١).

وقال مجاهد: ملك الأرض أربعةٌ: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان وذو القرنين، والكافران: نمرود وبختنصر. هـ.

وأما ذو القرنين الأصغر، وهو الإسكندر اليوناني، فروى أنه لما مات أبوه جمع مُلْكَ الروم بعد أن كان طوائف، ثم قصد ملوك العرب وقهرهم، ثم مضى حتى أتى البحر الأخضر، ثم عاد إلى مصر، فبنى الإسكندرية وسماها باسمه، ثم دخل الشام وقصد بنى إسرائيل، وورد بيت المقدس وذبح فى مذبحة، ثم انعطف الى أرمينية وباب الأبواب، ودان له العراقيون والقبط والبربر، واستولى على ملوك الفرس، وقصد السند وفتحه، وبنى مدينة سرنديب وغيرها، ثم قصد الصين، وغزا الأمم البعيدة، ورجع إلى العراق ومرض ومات.

رُوى أن أهل النجوم: قالوا له: إنك تموت على أرض من حديد، وتحت سماء من خشب، فبلغ بابل، ورعُف، وسقط عن دابته، فبسطت له دروع من حديد، فنام عليها، فآذته الشمس، فأظلوه بترس من خشب، فنظر، فقال: هذه أرض من حديد وسماء من خشب، فمات، وهو ابن ألف وستمائة سنة، وقيل: ثلاثة آلاف، قال ابن كثير: وهو غريب. قلت: والذى لابن عساكر: أنه عاش ستًا وثلاثين سنة، وأنه كان بعد داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ ثم قال ابن عساكر بعد كلام: وإنما بيّنا هذا؛ لأن كثيراً من الناس يعتقدون أنهما واحد، وأن المذكور فى القرآن العظيم هو المتأخر، فيقع بذلك خطأ كبير. كيف لا، والأول كان عبداً صالحًا مؤمناً، ملِكاً عادلاً، وزيره الخضر عليه السلام، وقد قيل: إنه كان نبياً، وأما الثاني فقد كان كافراً، وزيره أرسْطَاطَاليس الفيلسوف، وقد كان بينهما من الزمان أكثر من ألفىْ سنة، فأين هذا من ذلك؟!.هـ فتأمله مع ما ذكر فى اللُباب من تعزيته أمه، مما يدل على إسلامه، قال فيه: لما علم ذو القرنين أن الموت استعجله، دعا بكاتبه، فقال له: أكتب تعزيتى لأمى، بسم الله

---

(١) انظر تفسير الطبرى ١٦/٨، والبغوى ٥/١٩٧.

الرحمن الرحيم، من الإسكندر ابن فيصر، رفيق أهل الأرض بجسده وأهل السماء بروحه، إلى أمي رومية ذات الصفا، التي لم تتمتع بثمرتها في دار الفناء، وعما قريب تجاوره في دار البقاء، يا أماه؛ أسألك بودك لي وودي لك، هل رأيت لِحَيٍّ قراراً في الدار الدنيا؟ وانظري إلى الشجر والنبات يخضر ويبتهج، ثم يهشم ويتناثر، كأن لم يغنَ بالأمس، وإني قد قرأت في بعض الكتب فيما أنزل الله: يادنياي ارحلي بأهلكِ، فإنك لستِ لهم بدار، إنما الدنيا واهبة الموت، موروثة الأحزان، مفرقة الأحباب، مخربة العمران، وكل مخلوق في دار الأغيار ليس له قرار. انظر بقية كلامه فيه. ولا يلزم من صحبته أرسطاطاليس أن يكون على دينه. والله تعالى أعلم.

واختُلِفَ في ذي القرنين المذكور في القرآن: هل كان نبياً أو ملَكاً ـ بفتح اللام ـ أو ملِكاً ـ بالكسر ـ وهو الصحيح، واختلف في وجه تسميته بذي القرنين؛ فقيل: كان في رأسه أو تاجه ما يشبه القرنين، وقيل: لأنه كان له ذؤابتان، وقيل: لأنه دعا الناس إلى الله عز وجل، فضُرب بقرنه الأيمن، ثم دعا إلى الله فضرب بقرنه الأيسر، وقيل: لأنه رأى في منامه أنه صعد الفلك فأخذ بقرني الشمس، وقيل: لأنه انقرض في عهده قرنان، وقيل: لأنه سخر له النور والظلمة، فإذا سرى يهديه النور من أمامه، وتحوطه الظلمة من ورائه. هـ.

ثم ذكر الحق تعالى الجواب، فقال: ﴿ قل سأتلو عليكم ﴾ أي: سأذكر لكم ﴿ منه ذكراً ﴾ أي: خبراً مذكوراً، أو قرآناً يخبركم بشأنه، والسين؛ للتأكيد، والدلالة على التحقق المناسب لمقام تأييده ﷺ، وتصديقه بإنجاز وعده، لاللدلالة على أن التلاوة ستقع في المستقبل؛ لأن هذه الآية نزلت موصولة بما قبلها، حين سألوه ﷺ عنه، وعن الروح، وعن أهل الكهف، فقال: غداً أُخبركم، فتأخر الوحي كما تقدم، ثم نزلت السورة مفصلة.

ثم شرع في تلاوة ذلك الذكر، فقال: ﴿ إنا مكنّا له في الأرض ﴾ أي: مكنا له فيها قوة يتصرف فيها كيف يشاء، بتيسير الأسباب وقوة الاقتدار، حيث سخر له السحاب، ومدّ له في الأسباب، وبسط له النور، فكان الليل والنهار عليه سواء، وسهل له السير في الأرض، وذللت له طرقها، ﴿ وآتيناه من كل شيء ﴾ أراده من مهمات ملكه ومقاصده المتعلقة بسلطانه ﴿ سبباً ﴾ أي: طريقاً يوصله إليه؛ من علم، أو قدرة، أو آلة، فأراد الوصول إلى الغرب ﴿ فأتْبَع سبباً ﴾ : طريقاً يوصله إليه.

﴿ حتى إذا بلغ مَغْرِب الشمس ﴾ أي: منتهى الأرض من جهة المغرب، بحيث لا يتمكن أحد من مجاوزته، ووقف على حافة البحر المحيط الغربي، الذي فيه الجزاير المسماة بالخالدات، التي هي مبدأ الأطوال على أحد القولين. ﴿ وجدَها ﴾ أي: الشمس، ﴿ تغربُ في عينٍ حَمِئَة ﴾ أي: ذات حمأ، وهو الطين الأسود،

وقرئ: حامية، أي: حارة، رُوي أن معاوية رضي الله عنه قرأ حامية، وعنده ابن عباس، فقال ابن عباس: حمئة، فقال معاوية لعبد الله بن عمرو بن العاص: كيف تقرأ؟ قال: كما يقرأ أمير المؤمنين، ثم وجه إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: في ماء وطين، كذا نجده في التوراة، فوافق قول ابن عباس رضي الله عنه.

وليس بينهما تنافٍ، لجواز كون العين جامعة بين الوصفين، وأما رجوع معاوية إلى قول ابن عباس بما سمعه من كعب الأحبار، مع أن قراءته أيضاً متواترة، فلكون قراءة ابن عباس قطعية فى مدلولها، وقراءته محتملة، ولعله لمَّا بلغ ساحل البحر المحيط رآها كذلك، إذ ليس فى مطمح نظره غير الماء، كما يلوح به قوله تعالى: ﴿وجدها تغرب﴾، ولم يقل: كانت تغرب؛ فإن الشمس فى السماء لا تغرب فى الأرض.

﴿ ووجد عندها ﴾ أي: تلك العين ﴿ قوماً ﴾ ؛ قيل: كان لباسهم جلود الوحش، وطعامهم ما لفظه البحر، وكانوا كفاراً، فخيَّره الله تعالى بين أن يعذبهم بالقتل، وأن يدعوهم إلى الإيمان، فقال: ﴿ قلنا ياذا القرنين إما أن تُعذِّبَ ﴾ بالقتل من أول الأمر، ﴿ وإمّا أن تتخذ فيهم حُسناً ﴾ ؛ أمراً ذا حُسْنٍ، وذلك بالدعوة إلى الإسلام والإرشاد إلى الشرائع، واستدل بهذا على نبوته، ومن لم يقل بها قال: كان بواسطة نبي كان معه فى ذلك العصر، أو إلهاماً، بعد أن كان التخيير موافقًا لشريعة ذلك النبي، ﴿ قال ﴾ ذو القرنين، لمن كان عنده: مختاراً للشق الأخير، وهو الدعاء إلى الإسلام: ﴿ أمّا من ظَلَم ﴾ فى نفسه، وأصرّ على الكفران، ولم يقبل الإيمان ﴿ فسوف نُعذِّبُه ﴾ بالقتل. وعن قتادة: أنه كان يطبخ من كفر فى القدور[(١)]، ﴿ ثم يُردُّ إلى ربه ﴾ فى الآخرة ﴿ نُعَذِّبُهُ ﴾ فيها ﴿ عذاباً نُكْراً ﴾ ؛ منكراً فظيعاً، لم يُعهد مثله، وهو عذاب النار. وفيه دلالة ظاهرة على أن الخطاب لم يكن بطريق الوحي إليه، أي: حيث لم يقل: «ثم يرد إليك»، وأن مقاولته كانت مع النبي، أو مع من عنده من أهل مشورته.

﴿ وأما مَنْ آمن ﴾ بموجب دعوته ﴿ وعَمِلَ ﴾ عملا ﴿ صالحا ﴾ حسبما يقتضيه الإيمان ﴿ فله ﴾ فى الدارين ﴿ جزاء الحُسنى ﴾[(٢)]، أي: المثوبة الحسنى، أو الفعلة الحسنى جزاء، على قراءة النصب، على أنه مصدر مؤكد للجملة، قُدّم عليه المبتدأ؛ اعتناءً، أو حال، أو تمييز. ﴿ وسنقول له من أمرنا ﴾ أي: مما تأمر به ﴿ يُسْراً ﴾ : سهلاً ميسراً، غير شاق عليه. والله تعالى أعلم.

---

(١) لايصح نسبة هذا ـ إطلاقاً ـ لذي القرنين ـ رحمه الله.

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب: «جزاءً» بفتح الهمزة؛ منونةً، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: بالرفع؛ من غير تنوين، على الابتداء، والخبر: الظرف قبله، والحسنى مضاف إليها... انظر: شرح الهداية (٢/٤٠٢)، والإتحاف (٢/٢٢٤).

الإشارة: ذو القرنين لمَّا أقبل بكليته على مولاه، ودعا إلى الله، ونصح لله، مكّنه الله تعالى من الأرض، ويسر له أموره، حتى قطع مشارقها ومغاربها، وكذلك من انقطع إلى الله، ورفع همته إلى مولاه، وأرشد الخلق إلى الله، تكون همته قاطعة، يقول للشيء كن فيكون، بقدرة الله وقدره. وسخر له الكون بأسره، يكون عند أمره ونهيه «أنت مع الأكوان مالم تشهد المكون، فإذا شهدته كانت الأكوان معك». يقول الله تعالى، فى بعض كلامه: «يا عبدى كن لى كما أريد، أكن لك كما تريد».

قال القشيرى: ذو القرنين مكّن له فى الأرض جهراً، فكانت تُطوى له إذا قطع أحوازها، وسُهل له أن يندرج فى مشارقها ومغاربها، ويحظر أقطارها ومناكبها، ومن كان فى محل الإعانة من الأولياء؛ فالحق سبحانه يُمكنه فى المملكة، ليحصل عند همته ما أراد من حصول طعام أو شراب، أو غيره من قطع مسافة، أو استتار عن أبصار، وتصديق مأمول، وتحقيق سؤال، وإجابة دعاء، وكشف بلاء، وفوق ذلك تمكينه من تحقيق همه له فى أمره، ثم فوق ذلك فى التمكين فى أن يُحضر بهمتهم قوماً بما شاءوا، ويمنع قوماً عما شاءوا، فلهم من الحق تحقيق أمل، إذا تصرفوا فى المملكة بإرادات فى سوانح وحادثات، وفوق هذا التمكين فى المملكة إيصال قوم إلى منازل ومحالّ، فالله يحقق فيهم همتهم.هـ. قلت: وفوق ذلك كله تمكينهم من شهود ذاته، فى كل وقت وحين، حتى لو طلبوا الحجاب لم يُجابوا، ولو كُلفوا أن يروا غيره لم يستطيعوا، وهؤلاء هم الذين لهم التمكين فى الإيصال إلى منازل السائرين ومحالّ الواصلين. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر سيْر ذى القرنين إلى جهة المشرق، فقال:

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾

قلت: ﴿مَطْلِع﴾ فيه لغتان: الكسر والفتح، و﴿كذلك﴾: خبر عن مضمر، أى: أمر ذى القرنين كما وصفنا لك، أو صفة مصدر محذوف لِوَجَد، أو ﴿نجعل﴾ أى: وجدا أو جعلا كذلك، أو صفة لقوم، أى: على قوم مثل ذلك القبيل، الذى تغرب عليهم الشمس فى الكفر والحكم، أو صفة لستر، أى: ستراً مثل ستركم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ثم أتْبَع﴾ ذو القرنين ﴿سبباً﴾: طريقاً راجعاً من مغرب الشمس، موصلاً إلى مشرقها، ﴿حتى إذا بلغ مَطْلِعَ الشمس﴾ أى: الموضع الذى تطلع عليه الشمس أولاً من معمورة الأرض، قيل: بلغه فى اثنتى عشرة سنة، وقيل: فى أقل من ذلك.

﴿ وجدها تطلُع على قوم ﴾ عراة ﴿ لم نجعلْ لهم من دونها ستراً ﴾ من اللباس والبنيان، قيل: هم الزنج، وفى اللباب: قيل: إنهم بنو كليب، وقيل: إن بنى كليب طائفة منهم، وهم قوم بآخر صين الصين، على صور بنى آدم، إلاَّ أنهم لهم أذناب كأذناب الكلاب، ووجوه كوجوه الكلاب، وأكثر قُوتِهم الحوت، ومَن مات منهم أكلوه، وملأوا موضع دماغه مسكاً وعنبرا، وحبسوه عندهم؛ تبركاً بآبائهم وأبنائهم. ثم قال: وليس لهم لباس إلا الجلود على عورتهم .هـ.

وعن كعب: أن أرضهم لا تمسك الأبنية، وبها أسراب، فإذا طلعت الشمس دخلوا الأسراب أو البحر، فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معايشهم، يتراعون فيها كما ترعى البهائم. قال رجل من سمَرْقَنْد: خرجت حتى جاوزت الصين، فقالوا لى: بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة، فاستأجرت رجلاً حتى بلغتهم، فإذا أحدهم يفرش أذنه، ويلبس الأخرى، وكان صاحبى يُحسن لسانهم، فسألهم فقالوا: جئتنا تنظر كيف تطلع الشمس. قال: فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة، فغشي عليَّ، ثم أفقت وهم يمسحوننى بالدهن، فلما طلَعت الشمس على الماء، إذا هى فوق الماء كهيئة الزيت، فأدخلونا سرباً لهم، فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر يصطادون السمك فيطرحونه فى الشمس فينضج(١) . هـ. وعن مجاهد: من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض .هـ.

وقوله تعالى: ﴿ كذلك ﴾ أى: أمر ذى القرنين كما وصفنا، فى رفعة المحل وبسط الملك، أو أمره فيهم كأمره فى أهل مغرب الشمس، من التخيير والاختيار، أو وجد قوماً عند مطلع الشمس كذلك، وحكم فيهم، بحكم أولئك. أو: (لم نجعل لهم) ستراً مثل ستركم من اللباس والأكنان والجبال. قال الحسن: كانت أرضهم لا جبل فيها ولا شجر، ولا تحمل البناء، فإذا طلعت الشمس هربوا إلى البحر .هـ. قال تعالى: ﴿ وقد أحطْنا بما لديه ﴾ من الأسباب والعُدَد، وما صدر عنه وما لاقاه ﴿ خُبْراً ﴾ : علماً تعلق بظواهره وخفايا أمره، يعنى: أن ذلك بلغ من الكثرة بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير.

الإشارة: كان ذو القرنين فى الظاهر يلتمس مطلع الشمس الحسية، وفى الباطن يلتمس مطلع الشمس المعنوية، وهى شمس القلوب، التى تكشف أستار الغيوب، ثم أتبع سبَباً يُوصل إلى شمس العيان، فوجدها تطلع على قلوب أهل العرفان، لم يجعل لهم من دونها سِتْراً على الدوام، لما أتحفهم به من غاية الوصال والإكرام، حتى قال قائلهم: لو حجب عني الحق تعالى طرفة عين ما أعددت نفسي من المسلمين، وكذلك رسول الله ﷺ، أو تقول: وجدها تطلع على أهل التجريد، الخائضين فى بحار التوحيد، وأسرار التفريد، وفيهم قال المجذوب رضي الله عنه:

أَقَارِئِينَ عِلْمَ التَّوْحِيدَ ... هُنَا الْبُحُورُ إِلَىَّ تُنْبِي
هَذَا مَقَامُ أَهْلِ التَّجْرِيدَ ... الْوَاقِفِينَ مَعَ رَبِّي

(١) قال الألوسى معقباً: (وأنت تعلم أن مثل هذه الحكايات لاينبغى أن يلتفت إليها ويعول عليها، وما هى إلا أخبار عن هيان بن بيان، تحكيها العجائز لصغار الصبيان) . انظر روح المعانى (١٦/ ٣٦) .

قد تجردوا من لباس الزينة والافتخار، ولبسوا لباس المسكنة والافتقار، فعوضهم الله تعالى فى قلوبهم لباس الغنى والعز والاقتدار، صبروا قليلاً، واستراحوا زمناً طويلاً، تذللوا قليلاً، وعزّوا عزاً طويلا، جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه.

ثم أخذ ذو القرنين من الجنوب إلى الشمال، كما قال تعالى:

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾

قلت: ﴿بين السدين﴾: مفعول، لا ظرف؛ لأنه يستعمل متصرفا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ثم أَتْبَعَ ﴾ ذو القرنين ﴿ سبباً ﴾: طريقاً ثالثاً بين المشرق والمغرب، سالكاً من الجنوب إلى الشمال، ﴿ حتى إذا بلغ بين السدين ﴾: بين الجبلين، اللذين سدّ ما بينهما، وهو منقطع أرض الترك، مما يلى المشرق، لا جبال أرمينية وأذربيجان، كما توهم، وفيه لغتان: الضم والفتح، وقيل: ما كان من فعل الله فهو مضموم، وما كان من عمل الخلق فهو مفتوح. ﴿ وجد من دونهما ﴾ أى: من ورائهما: مما يلى بر الترك، ﴿ قوماً ﴾: أمة من الناس ﴿ لا يكادون يفقهون ﴾: يفهمون ﴿ قولاً ﴾؛ لغرابة لغتهم، وقلة فطنتهم، وقرئ بالضم؛ رباعياً، أى: لا يُفصحون بكلامهم، واختلف فيهم، قيل: هم جيل من الترك؛ قال السدى: الترك سَرِيّة من يأجوج ومأجوج، خرجت، فضرب ذو القرنين السد، فبقيت خارجة. قلت: ولعلهم طلبوا منه ذلك، حين اعتزلوا قومهم، ثم قال: فجميع الترك منهم. وعن قتادة: أنهم، ـ أى: يأجوج ومأجوج ـ اثنتان وعشرون قبيلة،

سد ذو القرنين على إحدى وعشرين، وبقيت واحدة، فسُموا الترك؛ لأنهم تُرِكُوا خارجين. قال أهل التاريخ: أولاد نوح عليه السلام ثلاثة: سام وحام ويافث، فسام أبو العرب والعجم والروم، وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة، ويافث أبو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج. هـ.

وقرئ بالهمز فيهما؛ لأنه من أجيج النار، أى: ضوؤها وشررها، شُبهوا به فى كثرتهم وشدتهم، وهو غير منصرف؛ للعجمة والعلَمية.

﴿ قالوا ياذا القرنين ﴾، إما أن يكون قالوه بواسطة ترجمان، أو يكون فَهِم كلامهم، فيكون من جملة ما آتاه الله تعالى من الأسباب، فقالوا له: ﴿ إن ياجوج وماجوج ﴾(١)، قد تقدم أنهم من أولاد يافث. وما يقال: إنهم من نطفة احتلام آدم لم يصح، واختلف فى صفاتهم، فقيل: فى غاية صغر الجثة وقصر القامة، لا يزيد قدمهم على شبر، وقيل: فى نهاية عِظم الجسم وطول القامة، تبلغ قدودهم نحو مائة وعشرين ذراعاً، وفيهم من عرضه كذلك.

قال عبد الله بن مسعود: سألتُ النبى ﷺ عن يأجوج ومأجوج، فقال: «هم أمم، كل أمة أربع مائة ألف، لايموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذَكَر من صلبه، كلهم قد حمل السلاح»، قيل: يارسول الله صفهم لنا، قال: «هم ثلاثة أصناف: صنف منهم أمثال الأرز ـ وهو شجر بالشام طول الشجرة عشرون ومائة ذراع ـ وصنف عرضه وطوله سواء، عشرون ومائة ذراع، وصنف يفرش أذنه ويلتحف بالأخرى، لا يمرون بفيل ولا وحش ولاخنزير إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه، مُقَدِّمتهُمْ بالشام، وسَاقَتُهمْ بخراسان، يشربون أنهار المشرق، وبُحيرة طبرية».(٢).

فقالوا له: ﴿ إنَّ ياجوج وماجوج مفسدون فى الأرض ﴾ أى: فى أرضنا، بالقتل، والتخريب، وإتلاف الزرع، قيل: كانوا يخرجون أيام الربيع، فلا يتركون أخضر إلا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه، وكانوا يأكلون الناس أيضا. ﴿ فهل نجعلُ لك خَرْجًا ﴾ أى: جُعْلاً من أموالنا ﴿ على أن تجعلَ بيننا وبينهم سداً ﴾؛ بالفتح وبالضم، أى: حاجزاً يمنعهم منا؟

﴿ قال ما مكَّنى ﴾ ـ بالفك وبالإدغام ـ أى: ما مكننى ﴿ فيه ربى ﴾ ،وجعلنى فيه مكيناً قادراً من الملك والمال وسائر الأسباب، ﴿ خيرٌ ﴾ من جُعْلِكم، فلا حاجة لى به، ﴿ فأعينونى بقوة ﴾ الأبدان وعمل الأيدى، كصنَّاع يحسنون البناء والعمل، وبآلاتٍ لابد منها فى البناء، ﴿ أجعلْ بينكم وبينهم رَدْمًا ﴾ أى: حاجزاً حصيناً، وبرزخاً مكيناً، وهو أكبر من السد وأوثق، يقال: ثوب مُردم؛ إذا كان ذا رقاع فوق رقاع، وهذا إسعاف لهم فوق ما يرجون.

---

(١) هذه قراءة الجماعة؛ (بدون همز)، وقرأ عاصم بالهمز.. انظر إتحاف فضلاء البشر (٢/ ٢٢٥).
(٢) عزاه السيوطى فى الدر (٤/ ٤٥٠) لابن أبى حاتم، وابن مردويه وابن عدى، وابن عساكر، وابن النجار، وفيه أن السائل هو حذيفة.

﴿ آتُونِى زُبَرَ الحديد ﴾ : جمع زبرة، وهى القطعة الكبيرة، وهذا لا ينافى رد خراجهم؛ لأن المأمور الإيتاء بالثمن أو المناولة، كما ينبئ عنه قراءة: «ائتونى»؛ بوصل الهمزة، أى: جيئونى بزبر الحديد، على حذف الباء، ولأن إيتاء الآلة من قبيل الإعانة بالقوة، دون الخراج على العمل.

قال القشيرى: استعان بهم فى الذى احتاج إليه منهم، ولم يأخذ منهم عُمالة؛ لما رأى أن من الواجب عليه حق الحماية على حسب المُكْنَة. هـ.

ولعل تخصيص الأمر بالإتيان بها دون سائر الآلات؛ من الفحم والحَطب وغيرهما؛ لأن الحاجة إليها أمسُّ؛ لأنها الركن فى السد، ووجودها أعز. قيل: حفر الأساس حتى بلغ الماء، وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب، والبنيان من زبر الحديد، وجعل بيْنهما الفحم والحطب، حتى سد ما بين الجبلين إلى أعلاهما، وكان بينهما مائة فرسخ، وذلك قوله تعالى: ﴿ حتى إذا سَاوى بين الصَّدَفَيْنِ ﴾، وقرئ بضمهما[1]، أى: مازال يبنى شيئاً فشيئاً حتى إذا جعل ما بين ناصيتى الجبلين من البنيان مساوياً لهما فى السَّمْك. قيل: كان ارتفاعه: مائتى ذراع، وعرضه: خمسون ذراعا. وقرئ (سوّى)؛ بالتشديد، من التسوية.

فلما سوّى بين الجبلين بالبناء، ﴿ قال ﴾ للعَمَلَة: ﴿ انفخوا ﴾ النيران فى الحديد المبنى، ففعلوا ﴿ حتى إذا جعله ﴾ أى: المنفوخ فيه ﴿ ناراً ﴾ أى: كالنار فى الحرارة والهيئة. وإسناد الجعل إلى ذى القرنين، مع أنه من فعل العملة؛ للتنبيه على أنه العمدة فى ذلك، وهم بمنزلة الآلة. ﴿ قال ﴾ للذين يتولون أمر النحاس من الإذابة وغيرها: ﴿ آتُونِى أُفرغ عليه قِطْراً ﴾ أى: آتونى نحاساً مُذاباً أُفرغه عليه، وإسناد الإفراغ إلى نفسه، لِمَا تقدم.

﴿ فما اسطاعوا ﴾ أى: استطاعوا ﴿ أن يَظْهَرُوه ﴾ أىْ: يعلوه بالصعود لارتفاعه، والفاء فصيحة، أى: ففعلوا ما أمرهم به من إيتاء القطر، فأفرغوه عليه، فاختلط والتصق بعضه ببعض، فصار جبلاً صلْدًا، فجاء يأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه أو ينتقبوه ﴿ فما اسطاعوا أن يَظْهَرُوه ﴾؛ لارتفاعه وملاسته، ﴿ وما استطاعوا له نَقْباً ﴾؛ لصلابته، وهذه معجزة له؛ لأن تلك الزُبَرَ الكبيرة إذا أثرت فيها حرارة النار لا يقدر أحد أن يجول حولها، فضلاً عن إفراغ القطر عليها، فكأنه تعالى صرف النار عن أبدان المباشرين للأعمال. والله على كل شىء قدير.

﴿ قال ﴾ ذو القرنين، لمن عنده من أهل تلك الديار وغيرهم: ﴿ هذا ﴾ أى: السد، أو تمكينه منه، ﴿ رحمةٌ ﴾ عظيمة ﴿ من ربى ﴾ على كافة العباد، لا سيما على مجاوريه، وفيه إيذان بأنه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق، بل هو إحسان إلهى محض، وإن ظهر بمباشرتى. والتعرض لوصف الربوبية؛ لتربية معنى الرحمة.

---

(١) أى: الصاد والدال فى «الصدفين». وهى قراءة ابن كثير، وأبى عمرو، وابن عامر، ويعقوب. وقرأ أبو بكر: بضم الصاد وإسكان الدال، وقرأ الباقون بفتحهما.. انظر الإتحاف (٢/٢٢٧).

﴿ فاذا جاء وعدُ ربى ﴾ : وقت وعده بخروج يأجوج ومأجوج، أو بقيام الساعة؛ بأن شارف قيامُها ،﴿ جعله ﴾ أى: السد المذكور، مع متانته ورصانته، ﴿ دكَّاءَ ﴾ : مدكوكاً مبسوطاً مستوياً بالأرض، وفيه بيان عظمة قدرته تعالى، بعد بيان سعة رحمته، ﴿ وكان وعد ربى حقًا ﴾ : كائناً لا محالة.

رُوِى عنه ﷺ أنه قال: «إنَّ يأجُوجَ ومأجُوجَ يَحْفِرُونَ السد، حتَّى إذَا كَادُوا يرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ، قَالَ الَّذِى عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونه غداً، فيُعِيدُهُ اللهُ كأشَدِّ مَا كَانَ، حتَّى إذَا بلَغَتْ مُدَّتُهُمْ، حفَرُوا، حتَّى إذَا كَادُوا يرَوْنَ شُعاعَ الشَّمْسِ، قَالَ الذِى علَيْهم: ارْجِعُوا فَسَتَحفِرُونَهُ غداً إنْ شَاءَ الله، فيَعُودُونَ إلَيْه، وهُوَ على هَيْئَتِه كما ترَكُوه، فيَحفِرُونَهُ فيخْرُجُونَ عَلَى النَّاس»[1]. وسيأتى فى الأنبياء تمام قصة خروجهم، إن شاء الله، وهذا آخر كلام ذى القرنين.

قال تعالى: ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ ﴾ : يوم مجيء الوعد، ويخرجون، ﴿ يموجُ فى بعض ﴾ ؛ يزدحمون فى البلاد، أو: يموج بعض الخلق فى بعض، فيضطربون ويختلطون إنسهم وجنهم، حيارى من شدة الهول. رُوى أنهم يأتون البحر فيشربونه ويأكلون دوابه، ثم يأكلون الشجر وما ظفروا به، ممن لم يتحصن منهم من الناس، ولايقدرون على دخول مكة والمدينة وبيت المقدس، ثم يبعث الله عليهم مرضاً فى رقابهم، فيموتون مرة واحدة، فيرسل الله طيراً فترميهم فى البحر، ثم يرسل مطراً تغسل الأرضَ منهم، ثم تُوضع فيها البركة، وهذا بعد خروج الدجال ونزول عيسى ﷺ، ثم تنقرض الدنيا، كما قال تعالى:

﴿ ونُفخ فى الصُّور ﴾ ؛ لقيام الساعة، ﴿ فجمعناهم جمعاً ﴾ ، وسكت الحق تعالى عن النفخة الأولى؛ اكتفاء بذكرها فى موضع آخر، أى: جمعنا الخلائق بعدما تفرقت أوصالهم، وتمزقت أجسادهم، فى صعيد واحد؛ للحساب والجزاء، جمعاً عجيباً لا يُكْتَنَهُ كُنْهُهُ، ﴿ وعرَضْنَا جهنم ﴾ ؛ أظهرناها وأبرزناها ﴿ يومئذ ﴾ أى: يوم إذ جمعنا الخلائق كافة، ﴿ للكافرين ﴾ منهم، بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظاً وزفيراً، ﴿ عَرضاً ﴾ فظيعاً هائلاً لا يقدر قدره، وخص العَرض بهم، وإن كان بمرأىً من أهل الموقف قاطبة؛ لأن ذلك لأجلهم.

ثم ذكر وصفهم بقوله: ﴿ الذين كانت أعيُنهم ﴾ وهم فى الدنيا ﴿ فى غطاء ﴾ كثيف وغشاوة غليظة ﴿ عن ذكرى ﴾ : عن سماع القرآن وتدبره، أو: عن ذكرى بالتوحيد والتمجيد، أو كانت أعين بصائرهم فى غطاء عن ذكرى على وجه يليق بشأنى، ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾ أى: وكانوا مع ذلك؛ لفرط تصامُمِهم عن الحق وكمال عداوتهم للرسول ﷺ، لايستطيعون استماعاً منه لذكرى وكلامى، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه، وهذا تمثيل لإعراضهم عن الأدلة السمعية، كما أن الأول تصوير لتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار.

---

(١) أخرجه بنحوه، مطولاً، أحمد فى المسند (٢/ ٥١٠)، والترمذى فى (التفسير)، وابن ماجة فى (الفتن، باب فتنة الرجال)، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

الإشارة: السياحة فى أقطار الأرض مطلوبة عند الصوفية فى بداية المريد، أقلها سبع سنين، وقال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أقلها أربع عشرة سنة. وفيها فوائد، منها: زيارة الإخوان، والمذاكرة معهم، وهى ركن فى الطريق، ومنها: نفع عباد الله، إن كان أهلاً لتذكيرهم، (فلأن يهدى الله به رجلاً واحداً خير له مما طلعت عليه الشمس). ومنها: تأسيس باطنه وتشحيذ معرفته، ففى كل يوم يلقى تجليًا جديداً، وتلويناً غريباً، يحتاج معه إلى معرفة كبيرة وصبر جديد، فالمريد كالماء، إذا طال مُكثه فى مكانه أنتن وتغيّر، وإذا جرى عَذُبَ وصَفَى. ومنها: أنه قد يلقى فى سياحته من يربحُ منه، أو يزيد به إلى ربه.

رُوى أن ذا القرنين بينما هو يسير فى سياحته إذ رُفع إلى أمة صالحة، يهدون بالحق وبه يعدلون، يقسمون بالسوية، ويحكمون بالعدل، وقبورهم بأبواب بيوتهم، ولَيْسَتْ لبيوتهم أبواب، وليس عليهم أُمراء، وليس بينهم قضـاة، ولا يختلفون ولا يتنازعون، ولا يقتتلون، ولا يضحكون ولا يحزنون، ولا تُصيبهم الآفات التى تُصيب الناس، أطول الناس أعماراً، وليس فيهم مسكين ولا فظ ولا غليظ، فعجب منهم، وقال: خبّرونى بأمركم، فلم أر فى مشارق الأرض ومغاربها مثلكم، فما بال قبوركم على أبواب بيوتكم؟ قالوا: لئلا ننسى الموت؛ ليمنعنا ذلك من طلب الدنيا، قال: فما بال بيوتكم لا أبواب لها؟ قالوا: ليس فينا متهم، ولا فينا إلا أمين مؤتمن. قال: فما بالكم ليس فيكم حكّام؟ قالوا: لا نختصم، قال: فما بالكم ليس فيكم أغنياء؟ قالوا: لا نتكاثر. قال: فما بالكم ليس فيكم ملوك؟ قالوا: لا نفتخر، قال: فما بالكم لا تتنازعون ولا تختلفون؟ قالوا: من أُلفة قلوبنا وصلاح ذات بيننا، قال: فما بال طريقتكم واحدة وكلمتكم مستقيمة؟ قالوا: من أجل أننا لا نتكاذب، ولا نتخادع، ولا يغتاب بعضنا بعضا. قال: أخبرونى من أين تشابهت قلوبكم واعتدلت سيرتكم؟ قالوا: صلحت صدورنا فنزع منها الغل والحسد، قال: فما بالكم ليس فيكم فقير ولا مسكين؟ قالوا: من قِبَل أنّا نقسم بيننا بالسوية. قال: فما بالكم ليس فيكم فظ ولا غليظ؟ قالوا: من قِبَل الذلة والتواضع، قال: فما جعلكم أطول الناس أعمارا؟ قالوا: من قِبَـل أنّا لا نتعاطى إلا الحق ونحكم بالسـوية. قال: فما بالكم لا تضحكون؟ قالوا: لا نغفُل عن الاستغفار. قال: فما بالكم لا تحزنون؟ قالوا: من قِبَل أنّا وطّنّا أنفسنا للبلاء. فقال: فما بالكم لا تصيبكم الآفاتُ كما تصيب الناس؟ قالوا: لأنا لا نتوكل على غير الله، قال: هل وجدتم آباءكم هكذا؟ قالوا: نعم، وجدنا آباءنا يرحمون مساكينهم، ويُواسون فقراءهم، ويعفون عمن ظلمهم، ويُحسنون إلى من أساء إليهم، ويحلمون عمن جهل عليهم، ويَصلُون أرحامهم، ويُؤدون أماناتهم، ويحفظون وقت صلاتهم، ويُوفون بعهدهم، ويَصدُقون فى مواعدهم، فأصلح الله تعالى بذلك أمرهم وحفظهم، ما كانوا أحياءاً، وكان حقًا علينا أن نخلفهم فى تركتهم. فقال ذو القرنين: لو كنت مُقيماً لأقمت فيكم، ولكن لم أُومر بالمقام. هـ. ذكره الثعلبى.

وقال في القوت: قوله تعالى، في صفة أعدائه المحجوبين: ﴿كانت أعينهم في غطاء عن ذكري﴾: دليل الخطاب في تدبر معناه أن أولياءه المستجيبين له سامعون منه مكاشفون بذكره، ناظرون إلى غيبه، قال تعالى في ضده: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾(١)، وقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ...﴾(٢) الآية. هـ.

وسبب غطاء القلوب عن الاستماع والاستبصار هو اتباع الهوى ومحبة غير المولى، فلذلك أنكره الحق تعالى على الكفار بقوله:

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾

قلت: ﴿أن يتخذوا﴾: سد مسد المفعولين، أو حذف الثاني، أي: أحَسِبُوا اتخاذهم نافعهم و﴿نزلا﴾: حال من جهنم.

يقول الحق جل جلاله؛ منكراً على الكفار المتقدمين: ﴿أفَحَسِبَ الذين كفروا﴾ حين أعرضوا عن ذكري، وكانت أعينهم في غطاء عن رؤية دلائل توحيدي، ﴿أن يتخذوا عبادي﴾ كالملائكة والمسيح وعزير، أو الشياطين؛ لأنهم عباد، ﴿من دُونِي أولياءَ﴾ أي: معبودين من دوني، يُوالونهم بالعبادة، أن ذلك ينفعهم، أو: ألا نعذبهم على ذلك، بل نعذبهم على ذلك، ﴿إنا أعتدنا﴾؛ يسَّرنا وهيأنا ﴿جهنمَ للكافرين نُزُلاً﴾ أي: شيئاً يتمتعون به أول ورودهم القيامة. والنزُل: ما يقدم للنزيل أي: الضيف، وعدل عن الإضمار؛ ذماً لهم على كفرهم، وإشعاراً بأن ذلك الإعتاد بسبب كفرهم، وعبَّر بالإعْتاد؛ تهكمًا بهم، وتخطئة لهم، حيث كان اتخاذهم أولياء من قبيل العتاد، وإعداد الزاد ليوم المعاد، فكأنه قيل: إنا أعتدنا لهم، مكان ما أعدوا لأنفسهم من العدة والذُّخْرِ، جهنم؛ عدة لهم. وفي ذكر النُزل: إيماء إلى أن لهم وراء جهنم من العذاب ما هو أنموذج له، وتستحقر دونه، وقيل: النزل: موضع النزول، أي: أعتدناها لهم منزلاً يقيمون فيه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما أحببتَ شيئاً إلا وكنتَ له عبداً، وهو لا يُحب أن تكون لغيره عبدا، فأَفْرِد قلبك لله، وأَخْرِج منه كلَّ ما سواه، فحينئذ تكونُ عبداً لله، حراً مما سواه، فكل ما سوى الله باطلٌ، وظل آفل، فكن إبراهيمياً، حيث قال: ﴿لاأحب الآفلين﴾(٣)، فارفع أيها العبد همتك عن الخلق، وعلقها بالملك الحق، فلا تُحب إلا الله، ولا تطلب شيئاً

(١) مِن الآية ٢٠ من سورة هود.
(٢) الآية ٢٤ من سورة هود.
(٣) مِن الآية ٧٦ من سورة الأنعام.

سواه، كائناً ما كان، من جنس الأشخاص، أو من جنس الأحوال أو المقامات أو الكرامات؛ لئلا تنخرط فى سلك من اتخذ من دون الله أولياء، فتكون كاذباً فى العبودية.

رُوى عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضي الله عنه أنه قال: قرأتُ الفاتحة، فقلت: الحمد لله رب العالمين. فقال لى الهاتف مِنْ قِبلَ الله تعالى: صدقت، فقلت: الرحمن الرحيم، فقال: صدقت. فقلت: مالك يوم الدين، فقال: صدقت. فلما قلتُ: إياك نعبد، قال كذبتَ؛ لأنك تعبد الكرامات، قال: ثم أدبنى، وتبت لله تعالى. ذكره ابن الصباغ مُطولاً. قلت : ولعله قبل ملاقاة الشيخ، ولذلك عاتبه بقوله: يا أبا الحسن عِوضَ ما تقول: «سخّر لى خلقك»، قل: يارب كن لى، أرأيت إن كان لك أيفوتك شيء؟ نفعنا الله بجميعهم .

وهذا الغلط يقع للمتوجهين ولغيرهم، يظنون أنهم يُحسنون صُنعاً، وهم يسيئون، كما قال تعالى:

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

قلت: ﴿أعمالا﴾: تمييز، و﴿فى الحياة﴾: متعلق بسعيهم.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قل ﴾ يامحمد: ﴿ هل نُنبئكم ﴾ يامعشر الكفرة ﴿ بالأخسرين أعمالاً ﴾ أى: بالذين خسروا من جهة أعمالهم؛ كصدقةٍ، وعتق، وصلة رحم، وإغاثة ملهوف، حيث عملوها فى حال كفرهم فلم تُقبل منهم، وهم: ﴿ الذين ضلَّ سعيُهُم ﴾ أى: بطل بالكلية ﴿ فى الحياة الدنيا ﴾ أى: بطل ما سعَوْا فيه فى الحياة الدنيا وعملوه، ﴿ وهم يَحسبون ﴾ : يظنون ﴿ أنهم يُحسنُون صُنعًا ﴾ أى: يأتون بها على الوجه الأكمل، وقد تركوا شرط صحتها وكمالها، وهو الإيمان، واختلف فى المراد بهم، فقيل: مشركو العرب، وقيل: أهل الكتابين، ويدخل فى الأعمال ما عملوه فى الأحكام المنسوخة المتعلقة بالعبادات. وقيل: الرهبان الذين يحبسون أنفسهم فى الصوامع ويحمّلونَها على الرياضات الشاقة.

والمختار: العموم فى كل من عمل عملاً فاسداً، يظن أنه صحيح من الكفرة، بدليل قوله: ﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ﴾ : بدلائل التوحيد، عقلاً ونقلاً، ﴿ ولقائه ﴾ : البعث وما يتبعه من أمور الآخرة، ﴿ فحَبِطَتْ ﴾ لذلك ﴿ أعمالُهم ﴾ المعهودة حبوطاً كلياً، ﴿ فلا نُقيم لهم ﴾ أى: لأولئك الموصوفين بحبوط

الأعمال، ﴿ يومَ القيامة وزنًا ﴾ أى: فنُهينهم، ولا نجعل لهم مقداراً واعتبارا؛ لأن مدار التكريم: الأعمالُ الصالحة، وقد حبطت بالمرة؛ قال ﷺ: «يُؤتى بالرَّجُل السَّمين العَظِيم يوْمَ القيَامة، فلا يَزنُ جنَاحَ بَعُوضَةٍ؛ اقْرأوا إن شِئْتُمْ: ﴿فلا نُقيمُ لَهُمْ يوْمَ القِيَـامَةِ وَزْنًا﴾»(١). أو: لا نضعُ لأجل وزن أعمالهم ميزاناً؛ لأن الكفر أحبطها. أو: لا نقيم لهم وزناً نافعاً. قال أبوسعيد الخدرى رضي الله عنه : يأتى أناسٌ بأعمالهم يوم القيامة، هى عندهم فى العِظَم كجبال تهامة، فإذا وزنوها لا تزن شيئاً، فذلك قوله: ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾.

ثم بيَّن مآل كفرهم بعد أن بيَّن مآل أعمالهم، فقال: ﴿ ذلك ﴾ الصنف الذين حبطت أعمالهم ﴿ جزاؤُهم جهنمُ ﴾، أو الأمر ذلك، ثم استأنف بقوله: ﴿ جزاؤُهم جهنمُ بما كفروا ﴾ أى: بسبب كفرهم المتضمن لسائر القبائح، التى من جملتها ما تضمنه قوله: ﴿ واتَّخذُوا آياتى ﴾ الدالة على توحيدى أو كلامى، أو معجزاتى، ﴿ ورسلُى هُزُوًا ﴾ أى: مهزواً بهم، فلم يقتنعوا بمجرد الكفر، بل ارتكبوا ما هو أعظم، وهو الاستهزاء بالآيات والرسل. عائذاً بالله من ذلك.

الإشارة: كل آية فى الكفار تجر ذيلها على الغافلين، فكل من قنع بدون عبادة فكرة الشهود والعيان، ينسحب عليه من طريق الباطن أنه ضل سعيه، وهو يحسب أنه يُحسن صُنعاً، فلا يقام له يوم القيامة وزن رفيع، فتنسحب الآية على طوائف، منها: منْ عَبَدَ اللهَ لطلب المنزلة عند الناس، وهذا عين الرياء؛ رُوى عن عثمان أنه قال على المنبر: (الرياء سبعون باباً، أهونها مثل نكاح الرجل أمه). ومنها: من عَبَدَ الله لطلب العوض والجزاء عند الخواصّ، ومنها: من عبدالله لطلب الكرامات وظهور الآيات، ومنها: من عبدالله بالجوارح الظاهرة، وحجب عن الجوارح الباطنة، وهى عبادة القلوب، فإن الذرة منها تعدل أمثال الجبال من عبادة الجوارح، ومنها: من وقف مع الاشتغال بعلم الرسوم، وغفل عن علم القلوب، وهو بطالة وغفلة عند المحققين، ومنها: من قنع بعبادة القلوب، كالتفكر والاعتبار، وغفل عن عبادة الأسرار، كفكرة الشهود والاستبصار، والحاصل: أن كل من وقف دون الشهود والعيان فهو بطّال، وإنْ كان لا يشعر، وإنما ينكشف له هذا الأمر عند الموت وبعده، وسيأتى عند قوله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾(٢)، زيادة بيان على هذا إن شاء الله. فقد يكون الشيء عبادة عند قوم وبطالة عند آخرين؛ حسنات الأبرار سيئات المقربين. ولايفهم هذا إلا من ترقى عن عبادة الجوارح إلى عبادة القلوب والأسرار. وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه البخارى فى (تفسير سورة الكهف)، ومسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم، باب صفة القيامة والجنة والنار)، عن أبى هريرة رضي الله عنه.
(٢)الآية ٤٧ من سورة الزمر.

ثم ذكر ضد من تقدم من الكفرة، فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين آمنوا﴾ بآيات ربهم ولقائه، ﴿وعملوا﴾ الأعمال ﴿الصالحات، كانت لهم﴾؛ فيما سبق من حكم الله تعالى ووعده، ﴿جنَّاتُ الفردوسِ﴾، وهي أعلى الجنان. وعن كعب: أنه ليس في الجنة أعلى من جنة الفردوس، وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، أي: أهل الوعظ والتذكير من العارفين. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «في الجنَّةِ مائةُ دَرَجَةٍ، ما بَيْنَ كُلِّ دَرَجتين كما بَيْنَ السَّماءِ والأرْضِ، أعْلاها الفِرْدَوس، ومِنْها تَفَجَّرُ أنْهارُ الجنَّةِ، فَوْقَها عَرْشُ الرحْمن، فإذَا سأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوه الفِرْدَوْسَ»(1).

وقال أيضا ﷺ: «جنان الفردوس أربع: جنتان من فضَّةٍ، أبنيتهما وآنيتهما، وجنَّتان من ذهب، أبنيتهما وما فيهما، وما بين القومِ وبين أن ينظُروا إلى ربهمْ إلا رِداءُ الكبْرياءِ على وَجْهِهِ»(2)، وقال قتادة: الفردوس: ربوة الجنة. وقال أبو أمامة: هي سرة الجنة. وقال مجاهد: الفردوس: البستان بالرومية. وقال الضحاك: هي الجنة الملتفة الأشجار.

كانت لهم ﴿نُزُلاً﴾ أي: مقدمة لهم عند ورودهم عليه، على حذف مضاف، أي: كانت لهم ثمار جنة الفردوس نُزلا، أو جعلنا نفس الجنة نُزلا؛ مبالغةً في الإكرام، وفيه إيذان بأن ما أعدَّ الله لهم على ما نطق به الوحي على لسان النبوة بقوله: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطَرَ على قلب بشر». هو بمنزلة النُّزُل بالنسبة إلى الضيافة وما بعدها، وإن جُعِلَ النُّزل بمعنى المنزل؛ فظاهر. ﴿خالدين فيها لا يَبْغُون عنها حِوَلاً﴾ أي: لا يطلبون تحولاً عنها؛ إذ لا يتصور أن يكون شيء أعز عندهم، وأرفع منها، حتى تنزع إليه أنفسهم، أو تطمح نحوه أبصارهم. ونعيمهم مجدد بتجدد أنفاسهم، لا نفادَ له ولا نهاية؛ لأنه مكون بكلمة «كن»، وهي لاتتناهى.

---

(1) أخرجه، بنحوه، البخاري في (كتاب التوحيد، باب: وكان عرشه على الماء)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(2) أخرجه البخاري في (تفسير سورة الرحمن، باب ومن دونهما جنتان)، ومسلم في (الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى)، من حديث عبدالله بن قيس.

قال تعالى: ﴿قل لو كان البحرُ﴾ أي: جنس البحر ﴿مِدَادًا﴾، وهو ما تمد به الدواة من الحبْر، ﴿لِكلماتِ ربي﴾ وهي ما يقوله سبحانه لأهل الجنة، من اللطف والإكرام، مما لا تكيفه الأوهام، ولا تحيط به الأفكار، فلو كانت البحار مداداً والأشجار أقلاماً لنفدت، ولم يبق منها شيء، ﴿قبل أن تنفد كلماتُ ربي﴾؛ لأن البحار متناهية، وكلمات الله غير متناهية. ثم أكده بقوله: ﴿ولو جئنا بمثله مَدَدًا﴾ أي: لنفد البحر من غير نفاد كلماته تعالى، هذا لو لم يجئ بمثله مدداً، بل ولو جئنا بمثله ﴿مددًا﴾؛ عوناً وزيادة؛ لأن ما دخل عالم التكوين كله متناهٍ.

﴿قل﴾ لهم: ﴿إنما أنا بشرٌ مثلكم﴾ يتناهى كلامي، وينقضي أجلي، وإنما خُصصت عنكم بالوحي والرسالة؛ ﴿يُوحى إليَّ﴾ من تلك الكلمات: ﴿أنما إلهكم إله واحد﴾ لا شريك له في الخلق، ولا في سائر أحكام الألوهية، ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾: يتوقعه وينتظره، أو يخافه، فالرجاء: توقع وصول الخير في المستقبل، فمن جعل الرجاء على بابه، فالمعنى: يرجو حسن لقاء ربه وأن يلقاه لقاء رضىً وقبول. ومن حمله على معنى الخوف، فالمعنى: يخاف سوء لقائه. قال القشيري: حَمْلُه على ظاهره أَوْلى؛ لأن المؤمنين قاطبةً يرجون لقاءَ الله، فالعارفون بالله يرجون لقاءه والنظر إليه، والمؤمنون يرجون لقاءه وكرامته بالنعيم المقيم.هـ بالمعنى.

والتعبير بالمضارع في (يرجو)؛ للدلالة على أن اللائق بحال المؤمنين: الاستمرار والاستدامة على رجاء اللقاء، أي: فمن استمر على رجاء لقاء كرامة الله ورضوانه ﴿فليعملْ﴾؛ لتحصيل تلك الطلبة العزيزة ﴿عملاً صالحًا﴾، وهوالذي توفرت شروط صحته وقبوله، ومدارها على الإتقان؛ ظاهراً، و الإخلاص؛ باطناً. وقال سهل: العمل الصالح: المقيد بالسنَّة، وقيل: هو اعتقاد جواز الرؤية وانتظار وقتها. ﴿ولا يُشركْ بعبادةِ ربه أحدًا﴾ إشراكاً جلياً، كما فعل الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا؛ حيث كفروا بآيات ربهم ولقائه، أو إشراكاً خفياً، كما يفعله أهل الرياء، ومن يطلب به عوضاً أو ثناءً حسنا.

قال شهر بنُ حَوشب: جاء رجل إلى عبادة بن الصامت، فقال: أرأيت رجلا يُصلي يبتغي وجه الله، ويحب أن يُحمد عليه، ويتصدق يبتغي وجه الله ويُحب أن يُحمد عليه، ويحج كذلك؟ قال عبادة: ليس له شيء، إن الله تعالى يقول: «أنا خيرُ شريك، فمن كان له شريك فهو له». ورُوي أن جُنْدبَ بْنَ زُهَيْرٍ قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ: إنِّي لأَعْمَلُ العَمَلَ للهِ تَعَالى، فإذا اطُّلِعَ عَلَيْهِ سرَّني، فقال له عليه الصلاة والسلام: «لَكَ أَجْرَانِ: أَجْرُ السِّرِّ، وأَجْرُ العَلاَنِيَةِ»(١)

---

(١) أخرجه الترمذي في (الزهد، باب عمل السر)، وابن ماجة في (الزهد، باب الثناء الحسن)، عن أبي هريرة بدون ذكر جندب ابن زهير.

وذلك إذا قصد أن يُقتدَى به، وكان مُخلصاً في عمله. وعنه ﷺ أنه قال: «اتقوا الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء»(١).

وقال ﷺ - لما نزلت هذه الآية -: «إن أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي، وإياكم وشرك السرائر، فإنّ الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء». فشق ذلك على القوم، فقال النبي ﷺ: «ألا أدلكم على ما يذهب الله عنكم صغير الشرك وكبيره؟ قالوا: بلى، قال: قولوا: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك من كل ما لا أعلم».

وعنه ﷺ أنه قال: «مَنْ قَرأَ آخرَ سورة الكهف - يعني: ﴿إن الذين آمنوا ...﴾ إلى آخره - كَانَتْ لَهُ نُوراً من قَرْنِه إلى قَدَمِه، وَمَنْ قرأَهَا كلَّها كانَتْ له نُوراً من الأرْضِ إلى السَّمَاء»(٢). وعنه ﷺ: «مَنْ قَرأَ عِنْدَ مَضْجعِه: ﴿قل إنما بشر مثلكم...﴾ الخ، كَانَ لَهُ مِنْ مَضْجَعِه نُوراً يَتَلأْلأُ إِلى مَكَّةَ، حَشْوُ ذلكَ النُّور ملائكةٌ يُصلُّون حَتَّى يَقُوم، وإنْ كَانَ بِمكَّةَ كانَ لَهُ نُورا إلى البَيْتِ المعْمُور». قلت: ومما جُرِّب أن من قرأ هذه الآية؛ (إن الذين آمنوا...) الخ، ونوى أن يقوم في أي ساعة شاء، فإن الله تعالى يُوقظه بقدرته. وانظر الثعلبي.

الإشارة: إن الذين آمنوا إيمان الخصوص، وعملوا عمل الخصوص - وهو العمل الذي يقرب إلى الحضرة - كانت لهم جنة المعارف نُزلا، خالدين فيها لا يبغون عنها حولا؛ لأنَّ من تمكن من المعرفة لا يُعزل عنها، بفضل الله وكرمه، كما قال القائل:

مُذْ تَجَمَّعْتُ مَا خَشِيتُ افْتِرَاقاً ... فَأَنَا اليَوْمَ وَاصِلٌ مَجْمُوعُ

ثم يترقّون في معاريج التوحيد، وأسرار التفريد، أبداً سرمدا، لا نهاية؛ لأن ترقيتهم بكلمة القدرة الأزلية، وهي كلمة التكوين، التي لا تنفد؛ (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي...) الآية. هذا مع كون وصف البشرية لا يزول عنهم، فلا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية. قل: إنما أنا بشر مثلكم يُوحى إليّ وحي إلهام، ويلقى في روعي أنما إلهكم إله واحد، لا ثاني له في ذاته ولا في أفعاله، فمن كان يرجو لقاء ربه في الدنيا لقاء الشهود والعيان، ولقاء الوصول إلى صريح العرفان؛ فليعمل عملاً صالحا، الذي لا حظ فيه للنفس؛ عاجلاً ولا آجلا، ولايشرك بعبادة ربه أحدا، فلا يقصد بعبادته إلا تعظيم الربوبية، والقيام بوظائف العبودية، والله تعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم*.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/٤٢٨)، والبغوي في شرح السنة (١٤/٣٢٤).
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/٤٣٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (باب ما يستحب أن يقرأ في اليوم والليلة) من حديث معاذ. قال الحافظ ابن حجر: وفي إسناده ابن لهيعة.
* في آخر نسخة د. حسن عباس: انتهى الجزء الثاني من تفسير القرآن المجيد، للعلامة الأديب، فريد عصره، ووحيد دهره، سيدي أحمد بن عجيبة الشريف، غفر الله له، ولكاتبه، وللمسلمين أجمعين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.. آمين.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



سورة مريم

مكية ـ وهى ثمان وتسعون آية. والمقصود من السورة الرد على النصارى فى إشراكهم عيسى عليه السلام لله تعالى فى ألوهيته، فهى كالتتميم لقوله: ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾[1].

قال تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿كهيعص ۝١﴾

قيل: هى مختصرة من أسماء الله تعالى، فالكاف من كافٍ، والهاء من هادٍ، والياء من يمين، والعين من عليم أو عزيز، والصاد من صادق. قاله الهروي عن ابن جبير.

قال أبو الهيثم: جعل الياء من يمين، من قولك: يَمَن الله الإنسانَ يَيْمنُهُ يَمناً فهو ميْمون. هـ. ولذا ورد الدعاء بها، فقد رُوى عن عليّ ـ كرم الله وجهه ـ أنه كان يقول: (يا كهيعص؛ أعوذ بك من الذنوب التى تُوجب النقم، وأعوذ بك من الذنوب التى تغير النعم، وأعوذ بك من الذنوب التى تهتك العِصَم، وأعوذ بك من الذنوب التى تحبس غيث السماء، وأعوذ بك من الذنوب التى تُديل الأعداء، انصرنا على من ظلمنا)[2]. كان يقدم هذه الكلمات بين يدى كل شدة. فيحتمل أن يكون توسل بالأسماء المختصرة من هذه الحروف، أو تكون الجملة، عنده، اسماً واحداً من أسماء الله تعالى، وقيل: هو اسم الله الأعظم. ويحتمل أن يشير بهذه الرموز إلى معاملته تعالى مع أحبائه، فالكاف كفايته لهم، والهاء هدايته إياهم إلى طريق الوصول إلى حضرته، والياء يُمنه وبركته عليهم وعلى من تعلق بهم، والعين عنايته بهم فى سابق علمه، والصاد صدقه فيما وعدهم به من الإتحاف والإكرام. والله تعالى أعلم.

وقيل: هى مختصرة من أسماء الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أي: يا كافى، يا هادى، يا ميمون، يا عين العيون، أنت صادق مصدق. وعن ماضى بن سلطان تلميذ أبى الحسن الشاذلى ـ رضى الله عنهما ـ: [أنه رأى فى منامه أنه اختلف مع بعض الفقهاء فى تفسير قوله: (كهيعص. حم. عسق)، فقلت: هى أسرار بين الله تعالى وبين رسوله ﷺ، وكأنه قال: «كاف»؛ أنت كهف الوجود، الذى يؤم إليه كلُّ موجود، «ها»؛ هبنا لك الملك، وهيأنا لك الملكوت، «يعَ»؛ يا عين العيون، «ص»؛ صفات الله (من يُطع الرسولَ فقد أطاع الله)، «حاء»؛ حببناك، «ميم»

---

(١) من الآية ١١٠ من سورة الكهف.

(٢) أخرجه بنحوه الإمام أحمد فى المسند (١/ ١١٢).

ملَّكناك، «عين» علمناك، «سين»؛ ساررناك، «قاف»؛ قربناك. فنازعونى فى ذلك ولم يقبلوه، فقلت: نسير إلى النبى ﷺ ليفصل بيننا، فسرنا إليه، فلقينا رسول الله ﷺ، فقال لنا: الذى قال محمد بن سلطان هو الحق]. وكأنه يشير إلى أنها صفات أفعال.

قال تعالى:

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ ﴾

قلت: (ذكر): خبر عن مضمر، أى: هذا ذكر، والإشارة للمتلو فى هذه السورة؛ لأنه باعتبار كونه على جناح الذكر فى حكم الحاضر الشاهد. وقيل: مبتدأ حُذف خبره، أى: فيما يتلى عليك ذكر رحمت ربك. وقيل: خبر عن (كهيعص)، إذا قلنا؛ هى اسم للسورة، أى: المسمى بهذه الحروف ذكر رحمة ربك، و(عبده): مفعول لرحمة ربك، على أنها مفعول لما أضيف إليها، أو لذكر، على أنه مصدر أضيف إلى فاعله على الاتساع. ومعنى ﴿ذكر الرحمة﴾: بلوغها إليه، و(زكريا): بدل منه، أو عطف بيان، و(إذ نادى): ظرف لرحمة، وقيل: لذكْر، على أنه مضاف إلى فاعله، وقيل: بدل اشتمال من زكريا، كما فى قوله: ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ** . . ﴾[1]، و(منّى): حال من العظْم، أى: كائناً منى، و(شيئًا): تمييز.

يقول الحق جل جلاله: هذا الذى نتلوه عليك فى هذه السورة هو ﴿ **ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا** ﴾. قال الثعلبى: [فيه تقديم وتأخير]. أى: ذكر ربك عبده زكريا برحمته، ﴿ **إِذْ نادى ربه** ﴾ وهو فى محرابه فى طلب الولد ﴿ **نداءً خفياً** ﴾: سراً من قومه، أو فى جوف الليل، أو مخلصاً فيه لم يطلع عليه إلا الله. ولقد راعى عليه السلام حسن الأدب فى إخفاء دعائه، فإنه أدْخَلُ فى الإخلاص وأبْعَدُ من الرياء، وأقرب إلى الخلاص من كلام الناس، حيث طلب الولد فى غير إبّانه ومن غائلة مواليه الذين كان يخافهم.

﴿ **قال** ﴾ فى دعائه: ﴿ **ربِّ إِنى وَهَنَ العظمُ منى** ﴾ أى: ضعف بدنى وذهبت قوتى. وإسناد الوهن إلى العظْم؛ لأنه عماد البدن ودعامة الجسد، فإذا أصابه الضعف والرخاوة أصاب كله، وإفراده للقصد إلى الجنس المنبىء عن شمول الوهن إلى كل فرد من أفراده. ووهن بدنه عليه السلام: لكبر سنه، قيل: كان ابن سبعين، أو خمساً وسبعين، وقيل: مائة، وقيل: أكثر.

---

(١) الآية ١٦ من السورة نفسها.

﴿ واشتعل الرأسُ شيبًا ﴾ أي: ابيــضَّ شَمَطاً. شبه عليه السلام الشيب من جهـة البياض والإنارة بشواظ النار، وانتشاره في الشعر وفُشوّه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعالها، ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى محل الشعر ومنبته وهو الرأس، وأخرجه مخرج التمييز، ففيه من فنون البلاغة وكمال الجزالة ما لا يخفى، حيث كان الأصل: واشتعل شيب رأسي، فأسند الاشتعال إلى الرأس؛ لإفادة شموله لكلها، فإن وِزَانَهُ: اشتعل بيته ناراً بالنسبة إلى اشتعلت النار في بيته، ولزيادة تقريره بالإجمال أولاً، والتفصيل ثانياً، ولمزيد تفخيمه بالتكثير من جهة التنكير.

ثم قال: ﴿ ولم أكن بدعائك ربِّ شقيًا ﴾ أي: لم أكن بدعائي إياك خائباً في وقت من أوقات هذا العمر الطويل، بل كنت كلما دعوتك استجبتَ لي. توسل إلى الله بسابق حسن عوائده فيه، لعله يشفع له ذلك بمثله، إثر تمهيد ما يستدعي ويستجلب الرأفة من كبر السن وضعف الحال. والتعرض في الموضعين لوصف الربوبية لتحريك سلسلة الإجابة بالمبالغة في التضرع، ولذلك قيل: من أراد أن يُستجاب له فليدعُ الله بما يناسبه من أسمائه وصفاته.

ثم قال: ﴿ وإني خفتُ الموالي ﴾ أي: الأقارب، وهم: بنو عمه، وكانوا أشرار بني إسرائيل، فخاف ألا يحسنوا خلافته في أمته، فسأل الله تعالى ولداً صالحًا يأمنه على أمته. وقوله: ﴿ من ورائي ﴾ : متعلق بمحذوف، أي: جور الموالي، أو مما في الموالي من معنى الولاية، أي: خفت أن يلوا الأمر من ورائي، ﴿ وكـانت امرأتي عـاقراً ﴾ : لا تلد من حين شبابها، ﴿ فهبْ لي من لدنك ﴾ أي: أعطني من محض فضلك الواسع، وقدرتك الباهرة، بطريق الاختراع، لا بواسطة الأسباب العادية؛ لأن التعبير بِلَدُنْ يدل على شدة الاتصال والالتصاق، ﴿ وليًا ﴾ : ولداً من صلبي، يلي الأمر من بعدي.

والفاء: لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإن ما ذكره عليه السلام من كبر السن وعقر المرأة موجب لانقطاع رجائه عن الولد بتوسط الأسباب، فاستوهبه على الوجه الخارق للعادة، ولا يقدح في ذلك أن يكون هناك داعٍ آخر إلى الإقبال على الدعاء المذكور، من مشاهدته للخوارق الظاهرة عند مريم، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾[1]. وعدم ذكره هنا اكتفاء بما تقدم، فإن الاكتفاء بما ذكر في موطن عما ترك في موطن آخر من النكتة التنزيلية. وقوله: ﴿ يرثني ﴾ : صفة لوليًا، وقرئ بالجزم هو وما عطف عليه جواباً للدعاء، أي: يرثني من حيث العلم والدين والنبوة، فإن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لا يورثون من جهة المال. قال: ﷺ «نحن معاشر الأنبياءِ لا نُورَثُ»[2]. وقيل: يرثني في الحبورة، وكان عليه السلام حبرًا.

(١) من الآية ٣٨ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢/٤٦٣).

﴿ ويرثُ من آل يعقوب ﴾ النبوة والمُلك والمال. قيل: هو يعقوب بن إسحاق. وقال الكلبي ومقاتل: هو يعقوب ابن ماثان، أخو عمران بن ماثان، أبى مريم، وكانت زوجة زكريا أخت أم مريم، وماثان من نسل سليمان عليه السلام، فكان آل يعقوب أخوال يحيى. قال الكلبي: كان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وملوكهم، وكان زكريا رئيس الأحبار يومئذ، فأراد أن يرث ولده حبورته، ويرث من بني ماثان ملكهم. هـ.

﴿ واجعله ربِّ رَضِيّاً ﴾ أي: مرضياً، فعيل بمعنى مفعول، أي: ترضى عنه فيكون مرضياً لك، ويحتمل أن يكون مبالغة من الفاعل، أي: راضياً بتقديرك وأحكامك التعريفية والتكليفية. والله تعالى أعلم.

الإشـارة: طلب الوارث الروحاني - وهو وارث العلم والحال - جائز ليبقى الانتفاع به بعد موته. وقيل: السكوت والاكتفاء بالله أولى، ففي الحديث: «يرحمَ اللَّهُ أخانا زكريا، وما كان عليه من يرثه»(١). وقوله تعالى: ﴿نداء خفياً﴾. الإخفاء عند الصوفية أولى في الدعاء والذكر وسائر الأعمـال، إلا لأهل الاقتداء من الكمَلة، فهم بحسب ما يبرز في الوقت.

وقوله تعالى: ﴿ ولم أكن بدعائك رب شقيا ﴾. فيه قياس الباقي على الماضي، فالذي أحسن في الماضي يحسن في الباقي، فهذا أحد الأسباب في تقوية حسن الظن بالله؛ وأعظم منه من حسن الظن بالله؛ لما هو متصف به تعالى من كمال القدرة والكرم، والجود والرأفة والرحمة، فإن الأول ملاحظ للتجربة، والثاني ناظر لعين المنة. قال في الحكم: «إن لم تحسن ظنك به لأجل وصفه، حسِّن ظنك به لوجود معاملته معك، فهل عوَّدك إلا حسناً؟ وهل أسدى إليك إلا مِنناً؟».

ثم ذكر إجابته لزكريا عليه السلام، فقال:

﴿ يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/٢)، وابن جرير (٤٨/١٦) عن قتادة.

قلت : «عتيًا»: مصدر، من عتا يعتو، وأصله: عتوو، فاستثقل توالى الضمتين والواوين، فكسرت التاء، فقلبت الأولى ياء؛ لسكونها وانكسار ما قبلها، ثم قُلبت الثانية أيضًا؛ لاجتماع الواو والياء، وسبق إحداهما بالسكون. (قال كذلك): خبر، أي: الأمر كذلك، فيوقف عليه، ثم يقول: (قال ربك)، أو مصدر لقال الثانية، أي: مثل ذاك القول قال ربك. و(سويًا): حال من فاعل (تكلم).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا زكريا ﴾، كلمهُ بواسطة الملَك: ﴿ إنا نُبشرك ﴾ ونجيب دعوتك ﴿ بغُلامٍ اسمه يَحيى ﴾؛ لأنه حيى به عُقْمُ أمه. أجاب نداءه في الجملة، لا من كل وجه، بل على حسب المشيئة، فإنه طلب ولداً يرثُه، فأجيب في الولد دون الإرث؛ فإن الجمهور على أن يحيى مات قبل موت أبيه ـ عليهما السلام ـ وقيل: بقي بعده برهة، فلا إشكال حينئذ. وفي تعيين اسمه تأكيد للوعد وتشريف له، وفي تخصيصه به ـ كما قال تعالى: ﴿ لم نجعل له من قبلُ سَميًا ﴾ أي: شريكاً في الاسم، حيث لم يتسم به أحد قبله ـ مزيد تشريف وتفخيم له عليه السلام؛ فإن التسمية بالأسماء البديعة الممتازة عن أسماء الناس تنويه بالمسمى لا محالة[1]. وقيل: (سميًا): شبيهاً في الفضل والكمال، كما قال تعالى: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾[2] فإنه عليه السلام لم يكن قبله أحد مثله في بعض أوصافه، لأنه لم يهم بمعصية قط، وأنه ولد لشيخ فانٍ، وعجوز عاقر، وأنه كان حصوراً، ولم تكن هذه الخصال لغيره.

﴿ قال ربَ أنّى يكونُ لى غلامٌ ﴾ أي: من أين وكيف يحدث لى غلام، ﴿ وكانت امرأتى عاقرًا ﴾: عقيمة، ﴿ وقد بلغتُ من الكِبَر عتيًا ﴾: يبسًا في الأعضاء والمفاصل، ونحولاً في البدن، لِكِبَرِه، وكان سنُّه إذ ذاك مائة وعشرين، وامرأته ثمان وتسعين. وتقدم الخلاف فيه. وإنما قاله عليه السلام مع سبق دعائه وقوة يقينه، لاسيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة في آل عمران؛ استعظاماً لقدرة الله تعالى، وتعجيباً منها، واعتداداً بنعمته تعالى عليه في ذلك، بإظهار أنه من محض فضل الله وكرمه، مع كونه في نفسه من الأمور المستحيلة عادة. وقيل: كان دهشًا من ثمرة الفرح، وقيل: كان ذلك منه استفهامًا عن كيفية حدوثه. وقيل: بل كان ذلك بطريق الاستبعاد، حيث كان بين الدعاء والبشارة ستُّون سنة، وكان قد نسي دعاءه، وهو بعيد.

﴿ قال كذلك ﴾ أي: الأمر كما ذكر من كبر السن وعقم المرأة، لكن هو على قدرتنا هين، ولذلك قال: ﴿ قال ربك هو عليَّ هيّنٌ ﴾، أو مثل ذلك القول البديع قال ربك، ثم فسره بقوله: ﴿ هو عليَّ هيّن ﴾، أو «مثل» مقحمة، أي: ذلك قال ربك. والإشارة إلى مصدره، الذى هو عبارة عن إيجاد الولد السابق، أو كذلك قضى ربك.

---

(١) وجه الفضيلة: أن الله تعالى تولى تسميته، ولم يكل ذلك إلى أبويه، فسمّاه باسم لم يُسبق إليه... راجع: زاد المسير (٥/ ٢١٠).

(٢) من الآية ٦٥ من سورة مريم.

ثم قال: ﴿ هو عليَّ هيِّن وقد خلقتُك من قبلُ ولم تكُ شيئًا ﴾ أى: وقد أوجدت أصلك «آدم» من العدم، ثم نشأتَ أنت من صلبه، ولم تك شيئًا، فإن نشأة آدم عليه السلام وتصويره منطوية على نشأة أولاده، ولذلك قال فى آية أخرى: ﴿ ولَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾(١) الآية. انظر تفسير أبى السعود.

﴿ قال ربِّ اجعلْ لى آية ﴾ أى: علامة تدلنى على تحقق المسئول، وبلوغ المأمول، وهو حمل المرأة بذلك الولد، لأتلقى تلك النعمة العظيمة بالشكر حين حدوثها، ولا أؤخر الشكر إلى وقت ظهورها، وينبغى أن يكون سؤاله الآية بعد البشارة ببرهة من الزمان؛ لما يُروى أن (يحيى كان أكبر من عيسى ـ عليهما السلام ـ بستة أشهر، أو بثلاث سنين)، ولا ريب فى أن دعاء زكريا عليه السلام كان فى صغر مريم، لقوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾(٢)، وهى إنما ولدت عيسى عليه السلام وهى بنت عشر سنين، أو ثلاث عشرة سنة، أو يكون تأخر ظهورُ الآية إلى قرب بلوغ مريم ـ عليها السلام.

﴿ قال ﴾ له تعالى: ﴿ آيتك ألاَّ تُكلِّم الناس ﴾ أى: أن لا تقدر على أن تُكلم الناسَ مع القدرة على الذكر، ﴿ ثلاثَ ليالٍ ﴾ بأيامهن، للتصريح بها فى آل عمران(٣)، حال كونك ﴿ سويًا ﴾ أى: سَوِيَّ الخَلْق سليم الجوارح، مابك شائبة بَكَمٍ ولا خَرَس، وإنما مُنعت بطريق الاضطرار مع كمال الأعضاء. وحكمة منعه؛ لينحصر كلامه فى الشكر والذكر فى تلك الأيام.

﴿ فخرج على قومِه من المحراب ﴾ : من المصلى، وكان مغلقاً عليه، فالمحراب مكان التعبد، أو من الغرفة، وكانوا من وراء المحراب ينتظرونه أن يفتح لهم الباب، ليدخلوا ويُصلوا، إذ خرج عليهم متغيراً لونه، فأنكروه، وقالوا له: مالَك؟ ﴿ فأوحى إليهم ﴾ أى: أومأ إليهم، وقيل: كتب فى الأرض: ﴿ أن سبِّحُوا ﴾ أى: صلوا ﴿ بُكرةً وعَشيًا ﴾ : صلاة الفجر وصلاة العصر، ولعلها كانت صلاتهم. أو: نزهوا ربكم طرفى النهار، ولعله أُمِر أن يُسبح فيها شكراً، ويأمر قومه بذلك. والله تعالى أعلم.

الإشـارة: إجابة الدعاء مشروطة بالاضطرار، قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾(٤) وفى الحِكَم: «ما طَلَبَ لك شىءٌ مثلُ الاضطرار، ولا أسرع بالمواهب مثل الذلة والافتقار». فإذا اضطررت إلى مولاك، فلا محالة يجيب دعاك، لكن فيما يريد لا فيما تريد، وفى الوقت الذى يريد، لا فى الوقت الذى تريد. فلا تيأس ولا تستعجل (والله يعلم وأنتم لا تعلمون). فإذا رأيت مولاك أجابك فيما سألته، فاجعل كلامك كله فى شكره وذكره، واستفرغ أوقاتك، إلا من شهود إحسانه وبره. وبالله التوفيق.

---

(١) الآية ١١ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٣٨ من سورة آل عمران.

(٣) فى قوله تعالى: ﴿قال آيتك ألا تُكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزًا﴾ الآية ٤١.

(٤) من الآية ٦٢ من سورة النمل.

ثم ذكر وصيته ليحيى عليه السلام ونعوته، فقال:

﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾

قلت: «صبيا»: حال من مفعول «آتيناه»، و«حناناً» و«زكاة»: عطف على «الحُكْم». و«من لدنا»: متعلق بمحذوف، صفة له مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية، أي: وآتيناه الحكم وتحنُّناً عظيماً واقعاً من جنابنا، أوشفقة في قلبه ورحمة على أبويه وغيرهما. قال ابن عباس: (ما أدرى ما حناناً إلا أن يكون تعطف رحمة الله على عباده). ومنه قولهم: «حَنَانَيْكَ»، مثل سعديْك، وأصله: من حنين الناقة على ولدها، و(براً): عطف على «تقياً».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا يحيى ﴾ أي: قلنا يا يحيى، وهذا استئناف طُوى قبله جمل كثيرة، مما يدل على ولادته ونشأته، حتى أوحى إليه، ثم قال له: ﴿ يا يحيى خُذِ الكتابَ ﴾ أي: التوراة، وقيل: كتاب خُص به، فدلت الآية على رسالته. وفي تفسير ابن عرفة: أن يحيى رسول كعيسى. هـ. وقوله: ﴿ بقوةٍ ﴾ أي: بجد واجتهاد، وقيل: بالعمل به، ﴿ وآتيناه الحُكم صبياً ﴾، قال ابن عباس: (الحكم هنا النبوة، استنبأه وهو ابن ثلاث سنين)، قلت: كون الصبي نبياً جائز عقلاً، واقع عند الجمهور، وأما بعثه رسولاً فجائز عقلاً، وظاهر كلام الفخر[1] هنا أنه واقع، وأن يحيى وعيسى بُعثا صغيرين. وقال ابن مرزوق في شرح البخاري ما نصــه: (الأعم: بعث الأنبيـاء بعد الأربعين)؛ لأنه بلوغ الأشــد، وقيل: أرسل يحيى وعيسى - عليهما السـلام - صبيين. وقال ابن العربي: يجوز، ولم يقع.

وقول عيسى عليه السلام: (إني عبد الله) إخبار عما وجب في المستقبل، لا عما حصل. واستُشْكِلَ جواز بعث الصبي بأنه تكليف، وشرطُه: البلوغُ، إن كانت الشرائع فيه سواء. انظر المحشي الفاسي. قلت: والذي يظهر أن يحيى وعيسى - عليهما السلام - تنبئا صغيرين، وأرسلا بعد البلوغ. والله تعالى أعلم. وقيل: الحكم: الحكمة وفهم التوراة والفقه في الدين. رُوى أنه دعاه الصبيان إلى اللعب، فقال: ما لِلَعِبٍ خُلقت.

﴿ و ﴾ آتيناه ﴿ حنانًا ﴾ أي: تحنُّنًا عظيـمًا ﴿ من لَدُنَّا ﴾: من جناب قدسنا، أو تحنناً من الناس عليه. قال عوف: الحنان المحبَّب، ﴿ وزكاة ﴾: طهـارة من العيوب والذنوب، أو صدقة تصدقنا به على أبويه، أو: وفقناه للتصدق على الناس. ﴿ وكان تقياً ﴾؛ مطيعاً لله، متجنباً للمعاصي، ﴿ وبراً بوالديه ﴾: لطيفاً بهما محسناً إليهما،

(١) أي الفخر الرازي في تفسيره.

﴿ولم يكن جباراً عصياً﴾؛ متكبراً عاقاً، فالجبّار: هو المتكبر، لأنه يجبر الناس على أخلاقه. وقيل: من لا يقبل النصيحة، أو عاصيًا الله تعالى. ﴿وسلامٌ عليه﴾ أي: سلامة من الله تعالى عليه، ﴿يوم وُلِدَ﴾ من أن يناله الشيطان بما ينال بني آدم، ﴿ويومَ يموتُ﴾ من عذاب القبر، ﴿ويوم يُبعث حيًا﴾ من هول القيامة وعذاب النار.

رُوِى أن يحيي وعيسى ـ عليهما السلام ـ التقيا، فقال له يحيى: استغفر لى، فأنت خيرمنى، فقال له عيسى: أنت خير منى، أنا سلمت على نفسى وأنت سلم الله عليك.

الإشـارة: أخذ الكتاب بالقوة ـ وهو الجد والاجتهاد فى قراءته ـ هو أن يكون متجرداً لتلاوته، منصرف الهمة إليه عن غيره، فلا يصدق على العبد أن يأخذ كتاب ربه بقوة، حتى يكون هكذا عند تلاوته. قال الورتجبى: ﴿خُذ الكتابَ بقـوة﴾ أى: خـذ كتابنا بنا لابك، والكتاب كلام الحق الأزلى، أى: خـذ الكتـاب الأزلى بالقوة الأزلية. هـ. ومعناه أن يكون التالى فانيًا عن نفسه، متكلمًا بربه، ويسمعه من ربه، فهذا حال المقربين. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة مريم ـ عليها السلام ـ فقال:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾

قلت: (إذ انتبذت): بدل اشتمال من مريم، على أن المراد بها نبؤها، فإن الظرف مشتمل على ما فيها، وقيل: بدل الكل، على أن المراد بالظرف ما وقع فيه. وقيل: «إذ» ظرف لنبأ المقدر، أى: اذكر نبأ مريم حين انتبذت؛ لأن الذكر لا يتعلق بالأعيان، لكن لا على أن يكون المأمور به ذكر نبأها عند انتباذها فقط، بل كل ما عطف عليه وحكى بعده بطريق الاستئناء داخل فى حيز الظرف متمم للنبأ. و(مكانًا): مفعول بانتبذت، باعتبار ما فيه من معنى الإتيان، أى: اعتزلت وأتَتْ مكاناً شرقياً، أو ظرف له، أى: اعتزلت فى مكان شرقى. و(بَشراً): حال. وجواب (إن كنت): محذوف، أى: إن كنت تقيًا فإنى عائذة بالرحمن منك. و(بغيًا) أصله: بغوي، على وزن فعول،

فأدغمت الواو ـ بعد قلبهـا ياء ـ في الياء، وكسرت الغين للياء[١]، و(لنجعله): متعلق بمحذوف، أي: ولنجعله آية فعلنا ذلك، أو معطوف على محذوف، أي: لنُبين لهم كمال قدرتنا ولنجعله.. الخ. أو على جملة: (هو على هين)؛ لأنها في معنى العلة، أي: كذلك قال ربك؛ لقدرتنا على ذلك؛ ولنجعله.. إلخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **واذكرْ** ﴾ يا محمد ﴿ **في الكتاب** ﴾: القرآن، والمراد هذه السورة الكريمة؛ لأنها هي التي صُدرت بذكر زكريا، واستتبعت بذكر قصة مريم؛ لما بينهما من الاشتباك. أي: اذكر في الكتاب نبأ ﴿ **مريم إذ انتبذتْ** ﴾؛ حين اعتزلت ﴿ **من أهلها** ﴾ وأتت ﴿ **مكانًا شرقيًا** ﴾ من بيت المقدس، أو من دارها لتتخلى فيه للعبادة، ولذلك اتخذت النصارى المشرق قبلة. وقيل: قعدت في مشربة لتغتسل من الحيْض، محتجبة بشيء يسترها، وذلك قوله تعالى: ﴿ **فاتخذتْ من دونهم حجابًا** ﴾، وكان موضعها المسجد، فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها، وإذا طهرت عادت إلى المسجد. فبينما هي تغتسل من الحيض، محتجبةً دونهم، أتاها جبريل عليه السلام في صورة آدمي، شاب أمرد، وضيء الوجه.

قال تعالى: ﴿ **فأرسلنا إليها رُوحنا** ﴾: جبريل عليه السلام، عبَّر عنه بذلك؛ توْفية للمقام حقه. وقرىء بفتح الراء؛ لكونه سببًا لما فيه روح العباد، يعني اتباعه والاهتداء به، الذي هو عدة المقربين في قوله: ﴿ **فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ، فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ** ﴾[٢]. ﴿ **فتمثَّل لها بشرًا سويًا** ﴾: سويَّ الخلق، كامل البنية، لم يفقد من حِسان نعوت الآدمية شيئًا، وقيل: تمثل لها في صورة شاب ترِبٍ[٣] لها، اسمه يوسف، مِنْ خدَم بيت المقدس، وإنما تمثل لها في تلك الصورة الجميلة لتستأنس به، وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلامه تعالى؛ إذ لو ظهر لها على صورة الملَكية، لنفرت منه ولم تستطع مقاومته.

وأما ما قيل من أن ذلك لتَهيج شهوتُها، فتنحدر نطفتها إلى رحمها، فغلط فاحش، ينحو إلى مذهب الفلاسفة، ولعلها نزعة مسروقة من مطالعة كتبهم، يُكذبه قوله تعالى: ﴿ **قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا** ﴾، فإنه شاهد عدل بأنه لم يخطر ببالها ميل إليه، فضلاً عن ما ذكر من الحالة المترتبة على أقصى مراتب الميل والشهوة. نعم يمكن أن يكون ظهر على ذلك الحُسن الفائق والجمال اللائق؛ لابتلائها واختبار عِفتها، ولقد ظهر منها من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه. وذِكْرُ عنوان الرحمانية؛ للمبالغة في العِياذ به تعالى، واستجلاب آثار الرحمة الخاصة، التي هي العصمة مما دهمها. قاله أبو السعود. وقولها: ﴿ **إن كنتَ تقيًا** ﴾ أي: تتقي الله فتُبَالي بالاستعاذة به.

---

(١) أي لمناسبة الياء.		(٢) الآيتان ٨٨ - ٨٩ من سورة الواقعة.

(٣) أي: في مثل سنها: فالتِّرْبُ: اللِّدَةُ والسِّنُّ... انظر: اللسان (ترب ١/٤٢٥).

﴿ قال إنما أنا رسولُ ربك ﴾ أى: لستُ ممن يتوقع منه ما توهمت من الشر، وإنما أنا رسول من استعذت برحمانيته؛ ﴿ لأهَبَ لك غُلامًا ﴾ أى: لأكون سبباً فى هبة الغلام، أو: ليهب لك ربُك غُلاماً - فى قراءة الياء -. والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها؛ لتشريفها وتسليتها، والإشعار بعلية الحكم؛ فإن هبة الغلام لها من أحكام تربيتها. وقوله: ﴿ زكيًا ﴾ أى: طاهراً من العيوب صالحاً، أو تزكو أحواله وتنمو فى الخير، من سن الطفولية إلى الكبر.

﴿ قالت أنَّى يكونُ لى غلامٌ ﴾ كما وصفتَ، ﴿ و ﴾ الحال أنه ﴿ لم يَمْسَسنى بشرٌ ﴾ بالنكاح، ﴿ ولم أكُ بغيًا ﴾؛ زانية فاجرة تبتغى الرجال؟ ﴿ قال ﴾ لها الملك: ﴿ كذلك ﴾ أى: الأمر كما قلتُ لك ﴿ قال ربكِ هو علىَّ هيِّنٌ ﴾ أى: هبة الغلام من غير أن يمسسك بشرٌ هين سهل على قدرتنا، وإن كان مستحيلاً عادة؛ لأنى لا أحتاج إلى الأسباب والوسائط، بل أمرنا بين الكاف والنون، ﴿ و ﴾ إنما فعلنا ذلك ﴿ لنجعله آيةً للناس ﴾ يستدلون به على كمال قدرتنا. والالتفات إلى نون العظمة؛ لإظهار كمال الجلالة، ﴿ و ﴾ لنجعله ﴿ رحمةً ﴾ عظيمة كائنة ﴿ منا ﴾ عليهم، ليهتدوا بهدايته، ويُرشدوا بإرشاده. ﴿ وكان ﴾ ذلك ﴿ أمراً مقضيًا ﴾ فى الأزل، قد تعلق به قضاء الله وقدره، وسُطِّر فى اللوح المحفوظ، فلا بُدَّ من جريانه عليك، أو: كان أمراً حقيقاً بأن يقضى ويفعل؛ لتضمنه حِكماً بالغة وأسراراً عجيبة. والله تعالى أعلم.

الإشـارة: لا تظهر النتائج والأسرار إلا بعد الانتباذ عن الفجار، وعن كل ما يشغل القلب عن التذكار، أو عن الشهود والاستبصار، فإذا اعتزل مكاناً شرقيًا، أى: قريباً من شروق الأنوار والأسرار، بحيث يكون قريباً من أهل الأنوار أو بإذنهم، أرسل الله إليه روحاً قدسيًا، وهو وارد ربانى تحيا به روحُه وسرُه وقلبُه وقالبُه، فيهب له علماً لدنيا، وسراً ربانياً، يكون آية لمن بعده، ورحمة لمن اقتدى به وتبعه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر حملها وولادتها وما كان من شأنها مع قومها، فقال:

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾

قلت : (رُطباً) : تمييز، فيمن أثبت التاءين[1]، أو حذف إحداهما، ومفعول به، فيمن قرأ بتاء واحدة مع كسر القاف.

يقول الحق جل جلاله : ﴿فحملَتْهُ﴾ بأن نفخ جبريل فى درعها، فدخلت النفخة فى جوفها. قيل: إن جبريل عليه السلام رفع درعها فنفخ فى جيبه، وقيل: نفخ عن بُعد، فوصل الريح إليها فحملت فى الحال، وقيل: إن النفخة كانت فى فيها، وكانت مدة حملها سبعة أشهر، وقيل: ثمانية. ولم يعش ولد من ثمانية. وفى ابن عطية: تظاهرت الروايات أنها ولدت لثمانية أشهر، ولذلك لا يعيش ابن ثمانية أشهر؛ حفظاً لخاصية عيسى، فتكون معجزة له. هـ. وقيل: تسعة أشهر. وقيل: ثلاث ساعات، حملته فى ساعة، وصُور فى ساعة، ووضعته فى ساعة حين زالت الشمس. وقيل: ساعة، ما هو إلا أن حملت فوضعت، وسنها حينئذ ثلاث عشرة سنة، وقيل: عشر سنين، وقد حاضت حيضتيْن.

﴿فانتبذتْ به﴾ أى: فاعتزلت ملتبسة به حين أحست بقرب وضعها، ﴿مكانًا قصيًا﴾ : بعيداً من أهلها وراء الجبل، وقيل: أقصى الدار. ﴿فأجاءها المخاضُ﴾ ؛ فألجأها المخاض. وقرئ بكسر الميم. وكلاهما مصدر، مَحضت المرأة: إذا تحرك الولد فى بطنها للخروج، ﴿إلى جِـذْعِ النخلة﴾ لتستتر به، أو لتعتمد عليه عند الولادة، وهو ما بين العِرق والغصن. وكانت نخلة يابسة، لا رأس لها ولا قعدة، قد جيىء بها لبناء بيت، وكان الوقت شتاء، والتعريف فى النخلة إما للجنس أو للعهد، إذ لم يكن ثَمَّ غيرها، ولعله تعالى أُلهمها ذلك ليريها من آياتها ما يسكن روعتها، وليطعمها الرطب، الذى هو من طعام النفساء الموافق لها.

﴿قالت﴾ حين أخذها وجع الطلْق: ﴿يا ليتنى متُّ﴾[2] بكسر الميم، من مات يَمَاتُ، وبالضم، من مات

---

(١) فى قوله تعالى: (تساقط).
(٢) قرأ نافع وحفص وحمزة والكسائى وخلف: «مِت» بكسر الميم، والباقون بالضم.

يموت، ﴿ قبل هذا ﴾ الوقت الذى لقيتُ فيه ما لقيت، وإنما قالته، مع أنها كانت تعلم ما جرى لها مع جبريل عليه السلام من الوعد الكريم؛ استحياء من الناس، وخوفاً من لائمتهم، أو جرياً على سنن الصالحين عند اشتداد الأمر، كما رُوى عن عمر رضي الله عنه أنه أخذ تِبْنَةً من الأرض، فقال: «ليتني هذه التبنة ولم أكن شيئا» . وقال بلال: (ليت بلالاً لم تلده أمه) . ثم قالت: ﴿ وكنتُ نَسْيًا ﴾[1] أى: شيئًا تافهًا شأنه أن يُنسى ولا يُعتد به، ﴿ منسياً ﴾ لا يخطر ببال أحد من الناس. وقُرئ بفتح النون، وهما لغتان؛ نِسي ونَسْي، كالوَتْر والوِتْر. وقيل: بالكسر: اسم ما ينسى، وبالفتح: مصدر.

﴿ فناداها ﴾ أى: جبريل عليه السلام ﴿ مِنْ تحتها ﴾، قيل: إنه كان يقبل الولد من تحتها، أى: من مكان أسفل منها. وقيل: من تحت النخلة، وقيل: ناداها عيسى عليه السلام، ويرجحه قراءة من قرأ بفتح الميم، أى: فخاطبها الذى تحتها: ﴿ أن لا تحزنى ﴾، أو: بألا تحزنى، على أنَّ «أنْ» مفسرة، أو مصدرية، حذف عنها الجار. ﴿ قد جعل ربك تحتك ﴾ أى: بمكان أسفل منك ﴿ سَرِيًا ﴾ أى: نهراً صغيراً، حسبما رُوى مرفوعًا.[2] قال ابن عباس رضى الله عنهما: (إن جبريل عليه السلام ضرب برجله الأرض، فظهرت عين ماء عذب، فجرى جدولا) . وقيل: فعله عيسى، أى: ضرب برجله فجرى، وقيل: كان هناك نهر يابس - أجرى الله تعالى فيه الماء، كما فعل مثله بالنخلة، فإنها كانت يابسة لا رأس لها، فأخرج لها رأسًا وخُوصًا وتمراً. وقيل: كان هناك نهرُ ماء. والأول أظهر؛ لأنه الموافق لبيان إظهار الخوارق، والمتبادر من النظم الكريم.

وقيل: (سريا) أى: سيداً نبيلاً رفيعَ الشأن جليلاً، وهو عيسى عليه السلام، والتنوين حينئذ للتفخيم. والجملة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهى. والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها؛ لتشريفها وتأكيد التعليل وتكميل التسلية.

ثم قال: ﴿ وهُزِّى إليك ﴾ أى: حركى النخلة إليك، أى: جاذبة لها إلى جهتك. فهزُّ الشىء: تحريكه إلى الجهات المتقابلة تحريكاً عنيفًا، والمراد هنا ما كان بطريق الجذب والدفع. والباء فى قوله: ﴿ بجذع النخلة ﴾: صلة للتأكيد، لقول العرب: هزَّ الشىء وهز به، أو للإلصاق. فإذا هززت النخلة ﴿ تَسَّاقَطْ ﴾[3] أى: تتساقط. وقُرئ: تساقطَ، وتُسقِط، أى: النخلة عليك إسقاطاً متواتراً بحسب تواتر الهز ﴿ رُطَبًا جنيًا ﴾ أى: طرياً، وهو ما قطع قبل يبسه. فعيل بمعنى مفعول، أى: مجنيًا صالحًا للاجتناء. ﴿ فكُلى ﴾ من ذلك الرطب

---

(١) قرأ حفص وحمزة بفتح النون، والباقون بكسرها.. انظر الإتحاف (٢/ ٢٣٥).

(٢) أخرج المرفوع الطبرانى فى المعجم الصغير (١/ ٢٤٤) من حديث البراء بن عازب، وأخرجه فى الكبير (١٢/ ٣٤٦ ح١٣٣٠٣) من حديث ابن عمر.

(٣) هذه قراءة نافع، وابن كثير، وأبى عمرو، وابن عمرو، والكسائى. وقرأ حفص «تُساقِط» بضم التاء وتخفيف السين وكسر القاف. وقرأ حمزة «تَساقَط» بفتح التاء والقاف وتخفيف السين، والأصل: تتساقط. انظر: التبصرة/ ٢٥٦، والإتحاف (٢/ ٢٣٥).

﴿ واشربى ﴾ من ذلك السرى، ﴿ وقرّى عيناً ﴾ ؛ وطيبى نفساً وارفضى عنك ماأحزنك وأهمك، فإنه تعالى قد نزه ساحتك عن التُهم، بما يفصح بـه لسان ولدك من التبرئة. أو: وقرى عيناً بحفظ الله ورعايته فى أمورك كلها. وقرة العين: برودتها، مأخوذ من القرّ، وهو البرد؛ لأن دمع الفرح بارد، ودمع الحزن سُخن، ولذلك يقال: قرة العين للمحبوب، وسُخنة العين للمكروه.

﴿ فإما تَرَيِنَّ من البشر أحداً ﴾ آدمياً كائناً من كان ﴿ فقولى ﴾ له إن استنطقك أو لامك: ﴿ إني نذرتُ للرحمن صوماً ﴾ أى: صمتاً، وقُرىء كذلك، وكان صيامهم السكوت، فكانوا يصومون عن الكلام كما يصومون عن الطعام. وذكر ابن العربى فى الأحوذى: أن نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ اختص بإباحة الكلام لأمته فى الصوم، وكان محرماً على من قبلنا، عكس الصلاة. هـ. قالت: ﴿ فلن أكَلِّمَ اليوم إنسياً ﴾ أى: بعد أن أخبرتكم بنذرى، وإنما أكلم الملائكة أو أناجى ربى. وقيل: أُمرت بأن تُخبر عن نذرها بالإشارة. قال الفراء: العرب تُسمى كل ما وصل إلى الإنسان كلاماً، ما لم يُؤكّد بالمصدر، فإذا أُكد لم يكن إلا حقيقة الكلام. هـ. وإنما أُمرت بذلك ونذرته؛ لكراهة مجادلة السفهاء ومقاولتهم، وللاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام؛ فإنه نص قاطع فى قطع الطعن.

﴿ فأتتْ به قومَها ﴾ عندما طَهُرت من نفاسها، ﴿ تحملُه ﴾ أى: حاملة له. قال الكلبى: احتمل يوسف النجار ـ وكان ابن عمها ـ مريمَ وابنها عيسى، فأدخلهما غاراً أربعين يوماً، حتى تعلّتْ من نفاسها، ثم جاءت به تحمله بعد أربعين يوماً، وكلمها عيسى فى الطريق، فقال: يا أمه، أبشرى، فإنى عبد الله ومسيحه. فلما رآها أهلُها، بكَوا وحزنوا، وكانوا قوماً صالحين. ﴿ قالوا يا مريمُ لقد جئتِ ﴾ أى: فعلت ﴿ شيئًا فَرِيًّا ﴾: عظيماً بديعاً منكراً، من فَرَى الجلد: قطعه. قال أبو عبيدة: (كل فائق من عجَب أو عمل فهو فرِىّ). قال النبى ﷺ: فى حق عمر رضي الله عنه: «فلم أرَ عبقرياً من النّاس يَفْرِى فَرِيَّه»(1) أى: يعمل عمله.

﴿ يا أخت هارون ﴾، عنوا هارون أخا موسى؛ لأنها كانت من نسله، أى: كانت من أعقاب من كان معه فى طبقة الأخوة، وكان بينها وبينه ألفُ سنة. أو يا أخت هارون فى الصلاح والنسك، وكان رجلاً صالحاً فى زمانهم اسمه هارون، فشبهوها به. ذُكر لما مات تبع جنازته أربعون ألفاً، كلهم يسمى هارون من بنى إسرائيل. وقيل: إن هارون الذى شبهوها به كان أفسق بنى إسرائيل، فشتموها بتشبيهها به. ﴿ ما كان أبوك ﴾ عمران ﴿ امْرأَ سَوْءٍ

(1) أخرجه البخارى فى مواضع، منها: (فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه) عن عبد الله بن عمر، وأخرجه مسلم فى (فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه) عن أبى هريرة، ولفظ الحديث كاملاً كما فى البخارى: قال ﷺ: «أريت فى المنام أنى أنزع بدلْو على بكرةِ على قليب، فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً، والله يغفر له، ثم جاء عمر بن الخطاب، فاستحالت غرباً، فلم أر عبقرياً يفرى فريه، حتى روى الناس وضربوا بعطنٍ».

وما كانت أُمك بغياً ﴾ ، فمن أين لك هذا الولد من غير زوْج؟. هذا تقرير لكون ما جاءت به فرياً منكراً، أو تنبيهٌ على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش الفواحش.

﴿ فأشارتْ إليه ﴾ أي: إلى عيسى أن كلموه، ولم تكلمهم وفاء بنذرها، وإشارتها إليه من باب الإدلال، رجوعاً لقوله لها: (وقرى عيناً)، ولا تقر عينها إلا بالوفاء بما وعُدت به؛ من العناية بأمرها والكفاية لشأنها، وذلك يقتضى انفرادها بالله وغناها به، فتـدل بالإشارة. وكان ذلك طوعَ يدها، وتذكّر قضية جريج. قاله فى الحاشية. ﴿ قالوا ﴾ منكرين لجوابها: ﴿ كيف نُكلم من كان فى المهد صبياً ﴾، ولم يُعهد فيما سلف صبى يكلمه عاقل. «كان» هنا: تامة. «صبياً»: حال. وقيل: زائدة، أى: من هو فى المهد.

﴿ قال ﴾ عيسى عليه السلام: ﴿ إنى عبد الله ﴾، أنطقه الله تعالى بذلك، تحقيقاً للحق، ورداً على من يزعم ربوبيته. قيل كان المستنطق لعيسى زكريا ـ عليهما السلام ـ وعن السدى: (لما أشارت إليه، غضبوا، وقالوا : لَسُخْرِيّتُهَا بنا أشدُّ علينا مما فعلت). رُوى أنه عليه السلام كان يرضع، فلما سمع ذلك ترك الرضاع، وأقبل عليهم بوجهه، واتكأ على يساره، وأشار بسبابته، فقال ما قال. وقيل: كلمهم بذلك، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان.

ثم قال فى كلامه: ﴿ آتانى الكتابَ ﴾: الإنجيل: ﴿ وجعلنى ﴾ مع ذلك ﴿ نبيًا ، وجعلنى مباركًا ﴾: نفّاعاً للناس، معلماً للخير ﴿ أينما كنتُ ﴾ أى: حيثما كنت، ﴿ وأوصانى بالصلاة ﴾ : أمرنى بها أمراً مؤكداً، ﴿ والزكاة ﴾؛ زكاة الأموال، أو بتطهير النفس من الرزائل ﴿ ما دُمت حيًا ﴾ فى الدنيا. ﴿ و ﴾ جعلنى ﴿ براً بوالدتى ﴾ فهو عطف على ﴿ مباركًا ﴾. وقرئ بالكسر، على أنه مصدر وُصف به مبالغةً، وعبّر بالفعل الماضى فى الأفعال الثلاثة؛ إما باعتبار ما سبق فى القضاء المحتوم، أو بجعل ما سَيَقع واقعاً لتحققه. ثم قال: ﴿ ولم يجعلنى جبارًا شقيًا ﴾ عند الله تعالى، بل متواضعًا ليناً، سعيداً مقرباً، فكان يقول : سلونى، فإن قلبى لين، وإنى فى نفسى صغير، لما أعطاه الله من التواضع.

ثم قال: ﴿ والسلام علىَّ يوم ولدتُ ويوم أموتُ ويوم أُبعث حيًا ﴾، كما تقدم على يحيى. وفيه تعريض بمن خالفه، فإن إثبات جنس السلام لنفسه تعريض بإثبات ضده لأضداده، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾[1]؛ فإنه تعريض بأن العذاب على من كذّب وتولى.

فهذا آخر كلام عيسى عليه السلام، وهو أحد من تكلم فى المهد، وقد تقدم ذكرهم فى سورة يوسف نظماً ونثراً. وكلهم معروفون، غير أن ماشطة ابنة فرعون لم تشتهر حكايتها. وسأذكرها كما ذكرها الثعلبى. قال: قال ابن عباس: (لما أسرى بالنبى ﷺ مرت به ريح طيبة فقال: يا جبريل ما هذه الرائحة؟ قال: رائحة ماشطة بنتِ فرعون، كانت

(١) الآية ٤٧ من سورة طه.

تمشطها، فوقع المشط من يدها، فقالت: بسم الله، فقالت ابنته: أبي؟ فقالت: لا، بل ربي وربك ورب أبيك. فقالت: أُخبر بذلك أبي؟ قالت: نعم، فأخبرته فدعاها، وقال: من ربك؟ قالت: ربي وربك في السماء، فأمر فرعون ببقرة - أي: آنية عظيمة من نحاس - فأُحْمِيَتْ، ودعاها بولدها، فقالت: إن لي إليك لحاجةً، قال: وما حاجتك؟ قالت: تجمع عظامي وعظامَ ولدي فتدفنها جميعاً، قال: وذلك لك علينا من الحقّ، سأفعل ذلك لك، فأمر بأولادها واحداً واحداً، حتى إذا كان آخر ولدها، وكان صبياً مرضعاً، قال: اصبري يا أمه.. فألقاها في البقرة مع ولدها[1] .هـ.

الإشارة: يؤخذ من الآية أمور صوفية، منها: أن الإنسان يُباح له أن يستتر في الأمور التي تهتك عرضه، ويهرب إلى مكان يُصان فيه عرضه، إلا أن يكون في مقام الرياضة والمجاهدة، فإنه يتعاطى ما تموت به نفسه، ومنها: أنه لا بأس أن يلجأ الإنسان إلى ما يخفف آلامه ويسهل شدته، ولا ينافي توكله. ومنها: أن لا بأس أن يتمنى الموت إذا خاف ذهاب دينه أو عرضه، أو فتنة تحول بينه وبين قلبه. ويُؤخذ أيضاً من الآية: أن فزع القلب عند الصدمة الأولى لا ينافي الصبر والرضا؛ لأنه من طبع البشر، وإنما ينافيه تماديه على الجزع.

ومنها: أن تحريك الأسباب الشرعية لا ينافي التوكل، لقوله تعالى: (وهُزِي إليك). لكن إذا كانت خفيفة مصحوبة بإقامة الدين، غير معتمد عليها بقلبه، فإن كان متجرداً فلا يرجع إليها حتى يكمل يقينه، ويتمكن في معرفة الحق تعالى. وقد كانت في بدايتها تأتي إليها الأرزاق بغير سبب كما في سورة آل عمران[2]، وفي نهايتها قال لها: (وهُزِي إليك). قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: كانت في بدايتها متعرفًا إليها بخرق العادات وسقوط الأسباب، فلما تكمل يقينها رجعت إلى الأسباب، والحالة الثانية أتم من الحالة الأولى، وأما من قال: إن حبها أولاً كان لله وحده، فلما ولدت انقسم حبها، فهو تأويل لا يرضى ولا ينبغي أن يلتفت إليه، لأنها صدّيقة، والصدّيق والصدّيقة لا ينتقلان من حالة إلا إلى أكمل منها.

ومنها: أن الإنسان لا بأس أن يوجب على نفسه عبادة، إذا كان يتحصن بها من الناس، أو من نفسه، كالصوم أو الصمت[3] أو غيرهما، مما يحجزه عن العوام، أو عن الانتصار للنفس.

وقوله تعالى: (والسلام عليّ يوم وُلدتُ...) الآية: قال: الورتجبي: سلام يحيى سلام تخصيص الربوبية على العبودية. ثم قال: وسلام عيسى من عين الجمع، سلام فيه مزية ظهور الربوبية في معدن العبودية. وأرفع المقامين سلام الحق على سيد المرسلين كفاحًا في وصاله وكشف جماله، ولو سلّم عليه بلسانه كان بلسان الحدث، ولا يبلغ رتبة سلامه بوصف قِدَمه. هـ.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/٣٠٩) مرفوعاً. والحديث في مجمع الزوائد (١/٦٥) وعزاه لأحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط.
(٢) في قوله تعالى: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله..﴾ الآية ٣٧.
(٣) قلت: ما قاله جائز في الصوم، وغير جائز في الصمت؛ لما ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر الذي نذر الصوم والصمت أن يتم صومه، وأن يتكلم. فتأمله؛ فإنه دقيق.

ثم شَرع في الرد على النصارى، وعلى من أشرك معه غيره، فقال تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

قلت : ﴿وإن الله﴾: عطف على قوله: (إني عبد الله) فيمن كسر، وعلى حذف اللام فيمن فتح، أي: ولأن الله ربي وربكم. وقال الواحدي وأبو محمد مكي: عطف على قوله: (بالصلاة) أي: أوصاني بالصلاة وبأن الله... الخ: وقال المحلي: بالفتح، بتقدير اذكر، وبالكسر بتقدير «قل» . و(قول الحق) : مصدر مؤكد لقال، فيمن نصب، وخبر عن مضمر، فيمن رفع، أي: هو، أو هذا. و(إذا قضى) : بدل من (يوم الحسرة) ، أو ظرف للحسرة . و(هم في غفلة وهم لا يؤمنون) : جملتان حاليتان من الضمير المستقر في الظرف في قوله: (في ضلال مبين) أي: مستقرين في الضلال وهم في تينك الحالتين.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **ذلك** ﴾ المنعوت بتلك النعوت الجليلة، والأوصاف الحميدة هو ﴿ **عيسى ابنُ مريم** ﴾، لا ما يصفه النصارى به من وصف الألوهية، فهو تكذيب لهم على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهاني، حيث جعله موصوفًا بأضداد ما يصفونه به. وأتى بإشارة البعيد؛ للدلالة على علو رُتبته وبُعد منزلته، وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره، ونزوله منزلة المشاهد المحسوس.

هذا ﴿ **قولُ الحق** ﴾، أو قال عيسى ﴿ **قولَ الحق** ﴾ الذي لا ريب فيه، وأنه عبد الله ورسوله، ﴿ **الذي فيه يمترون** ﴾ أي: يشكون أو يتنازعون، فيقول اليهود: ساحر كذاب، ويقول النصارى: إله، أو ابن الله. ﴿ **ما كان لله أن يتخذ من ولد** ﴾ أي: **ما** صح، أو ما استقام له أن يتخذ ولداً، ﴿ **سبحانه** ﴾ وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، فهو تنزيه عما بهتوه، ونطقوا به من البهتان، وكيف يصح أن يتخذ الله ولداً، وهو يحتاج إلى أسباب ومعالجة، وأمره تعالى أسرع من لحظ العيون، ﴿ **إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾.

ثم قال لهم عيسى عليه السلام: ﴿ **وإنَّ الله ربي وربكم فاعبدوه** ﴾، فهو من تمام ما نطق به في المهد، ومابينهما اعتراض، للمبادرة للرد على من غلط فيه، أي: فإني عبد، وإن الله ربي وربكم فاعبدوه وحده ولا تُشركوا معه غيره، ﴿ **هذا** ﴾ الذي ذكرت لكم من التوحيد ﴿ **صراط مستقيم** ﴾ لا يضل سالكه ولا يزيغ متبعه.

قال تعالى: ﴿ فاختلف الأحزابُ من بينهم ﴾، الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، تنبيهًا على سوء صنيعهم، بجعلهم ما يُوجب الاتفاق منشأً للاختلاف، فإن ما حكى من مقالات عيسى عليه السلام، مع كونها نصوصاً قاطعة فى كونه عبده تعالى ورسوله، قد اختلفت اليهود والنصارى بالتفريط والإفراط، وفرّق النصارى، فقالت النسطورية: هو ابن الله، وقالت اليعقوبية: هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء، وقالت الملْكَانية: هو ثالث ثلاثة. ﴿ فويلٌ للذين كفروا ﴾ وهم: المختلفون فيه بأنواع الضلالات. وأظهر الموصول فى موضع الإضمار؛ إيذاناً بكفرهم جميعًا، وإشعاراً بعِلِّيِّةِ الحكم، ﴿ من مَشْهَدِ يومٍ عظيم ﴾ أى: ويل لهم من شهود يوم عظيم الهول والحساب والجزاء، وهو يوم القيامة، أو: من وقت شهوده أو مكانه، أو من شهادة اليوم عليهم، وهو أن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء - عليهم السلام - وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم، بالكفر والفسوق.

﴿ أسمِعْ بهم وأبصِرْ ﴾ أى: ما أسمعهم وما أبصرهم، تعجب من حدة سمعهم وإبصارهم يومئذ. والمعنى: أن أسماعهم وأبصارهم ﴿ يوم يأتوننا ﴾ للحساب والجزاء جدير أن يُتعجب منها، بعد أن كانوا فى الدنيا صما عمياً. أو: ما أسمعهم وأطوعهم لما أبصروا من الهدى، ولكن لا ينفعهم يومئذ مع ضلالهم عنه اليوم، فقد سمعوا وأبصروا، حين لم ينفعهم ذلك. قال الكلبى: لا أحد يوم القيامة أسمع منهم ولا أبصر، حين يقول الله لعيسى: ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾[1] .هـ. ويحتمل أن يكون أمر تهديد لا تعجب، أى: أسمعهم وأبصرهم مواعيد ذلك اليوم، وما يحيق بهم فيه، فالجار والمجرور، على الأول، فى موضع رفع، وعلى الثانى: نصب. ﴿ لكن الظالمونَ اليومَ ﴾ أى: فى الدنيا، ﴿ فى ضلال مبين ﴾ أى: لا يدرك غايته، حيث غفلوا عن الاستماع والنظر بالكلية. ووضع الظالمين موضع الضمير؛ للإيذان بأنهم فى ذلك ظالمون لأنفسهم حيث تركوا النظر.

﴿ وأنذرهم يوم الحسرة ﴾ يوم يتحسر الناس قاطبة، أما المسيء فعلى إساءته، وأما المحسن فعلى قلة إحسانه، ﴿ إذ قُضى الأمر ﴾ أى: فرغ من يوم الحساب، وتميز الفريقان، إلى الجنة وإلى النار.

رُوى أن النبى ﷺ سُئل عن ذلك، فقال: «حين يجاء بالموت على صورة كبش أملح، فيُذبح، والفريقان ينظرون، فينادى؛ يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم، وأهل النار غمًا إلى غمهم، ثم قرأ ﷺ: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذْ قُضى الأمر وهم فى غفلة﴾، وأشار بيده إلى الدنيا»[2] قال مقاتل: (لولا ما قضى الله من تعميرهم فيها، وخلودهم؛ لماتوا حسرة حين رأوا ذلك). ﴿ وهم ﴾ فى

(١) الآية ١١٦ من سورة المائدة.

(٢) أخرجه البخارى فى (التفسير، باب: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾). ومسلم فى (الجنة وصفة نعيمها، باب: النار يدخلها الجبارون)، من حديث أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه -.

هذا اليوم ﴿ فى غفلة ﴾ عما يراد بهم فى الآخرة، ﴿ وهم لا يُؤمنون ﴾ بهذا؛ لاغترارهم ببهجة الدنيا، فلابد أن تنهد دعائمها، وتمحى بهجتها، ويفنى كل ما عليها، قال تعالى: ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومَنْ عليها ﴾ لا ينبغى لأحد غيرنا أن يكون له عليها وعليكم ملك ولا تصرف، أو: إنا نحن نتوفى الأرض ومن عليها، بالإفناء والإهلاك، توفى الوارث لإرثه، ﴿ وإلينا يُرجعون ﴾ ؛ يُردون إلى الجزاء، لا إلى غيرنا، استقلالاً أو اشتراكاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للعبد المعتنى بشأن نفسه أن يحصِّن عقائده بالدلائل القاطعة، والبراهين الساطعة، على وفاق أهل السُنَّة، ثم يجتهد فى صحبة أهل العرفان، أهل الذوق والوجدان، حتى يُطلعوه على مقام الإحسان، مقام أهل الشهود والعيان. فإذا فرط فى هذا، لحقه الندم والحسرة، في يوم لا ينفع فيه ذلك. فكل منْ تخلف عن مقام الذوق والوجدان؛ فهو ظالم لنفسه باخس لها، يلحقه شيء من الخسران، ولابد أنْ تبقى فيه بقية من الضلال، حيث فرط عن اللحوق بطريق الرجال، قال تعالى: ﴿لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين﴾.

(وأنذرهم يوم الحسرة) أي: يوم يرفع المقربون ويسقط المدعون. فأهل الذوق والوجدان حصل لهم اللقاء فى هذه الدار، ثم استمر لهم في دار القرار. رُوى أن الشيخ أبا الحسن الشاذلى رضي الله عنه قال يوماً بين يدى أستاذه: (اللهم اغفر لى يوم لقائك). فقال له شيخه - القطب ابن مشيش - رضى الله عنهما: هو أقرب إليك من ليلك ونهارك، ولكن الظلم أوجب الضلال، وسبقُ القضاء حَكَمَ بالزوال عن درجة الأُنْس ومنازل الوصال، وللظالم يومٌ لا يرتاب فيه ولايخاتل، والسابق قد وصل فى الحال، «أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين». هـ. كلامه رضي الله عنه.

ثم استتبع بذكر قصص الأنبياء، تتمة للرد على أهل الشرك، بأن الملل كلها متفقة على إبطاله، وقدّم الخليل؛ لأنه إمام أهل التوحيد، فقال:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) ﴾

قلت: (إذ قال): بدل اشتمال من (إبراهيم)، وما بينهما: اعتراض، أو متعلق بكان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **واذكر فى الكتاب** ﴾؛ القرآن أو السورة، ﴿ **إبراهيم** ﴾ أى: أتل على الناس نبأه وبلغه إياهم، كقوله: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ** ﴾[1]؛ لأنهم ينتسبون إليه عليه السلام، فلعلهم باستماع قصته يقلعون عما هم عليه من الشرك والعصيان. ﴿ **إنه كان صدّيقًا** ﴾؛ ملازما للصدق فى كل ما يأتى ويذر، أو كثير التصديق؛ لكثرة ما صدق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله، فالصدّيق مبالغة فى الصدق، يقال: كل من صدق بتوحيد الله وأنبيائه وفرائضه، وعمل بما صدق به فهو صدّيق، وبذلك سُمى أبو بكر الصدّيق، وسيأتى فى الإشارة تحقيقه عند الصوفيه، إن شاء الله.

والجملة: استئناف مسوق لتعليل موجب الأمر؛ فإن وصفه عليه السلام بذلك من دواعى ذكره، وكان أيضا ﴿ **نبيًا** ﴾، أى: كان جامعاً بين الصديقية والنبوة، إذ كل نبى صِدّيق، ولا عكس. ولم يقل: نبياً صديقاً؛ لئلا يتوهم تخصيص الصديقية بالنبوة.

﴿ **إذْ قال لأبيه** ﴾ آزر، متلطفا فى الدعوة مستميلاً له: ﴿ **يا أبتِ** ﴾، التاء بدل من ياء الإضافة، أى: يا أبى، ﴿ **لِمَ تعبدُ ما لا يسمع** ﴾ ثناءك عليه حين تعبده، ولا جُؤَارك إليه حين تدعوه، ﴿ **ولا يُبْصِرُ** ﴾ خضوعك وخشوعك بين يديه، أو: لا يسمع ولا يبصر شيئاً من المسموعات والمبصرات، فيدخل فى ذلك ما ذكر دخولاً أولياً، ﴿ **ولا يُغْنِي عنك شيئاً** ﴾ أى: لا يقدر أن ينفعك بشىء فى طلب نفع أو دفع ضرر.

انظر؛ لقد سلك عليه السلام فى دعوته وموعظته أحسن منهاج وأقوم سبيل، واحتج عليه بأبدع احتجاج، بحسن أدب، وخلق جميل، لكن وقع ذلك لسائر ركب متن المكابرة والعناد، وانتكب بالكلية عن محجة الصواب والرشاد، أى: فإنَّ من كان بهذه النقائص يأبى مَن له عقل التمييز من الركون إليه، فضلاً عن عبادته التى هى أقصى غاية التعظيم، فإنها لا تحقُّ إلا لمن له الاستغناء التام والإنعام العام، الخالق الرازق، المحيى المميت، المثيب المعاقب، والشىء لو كان مميزاً سميعاً بصيراً قادراً على النفع والضر، لكنه ممكن، لاستنكف العقل السليم عن عبادته، فما ظنك بجماد مصنوع من حجر أو شجر، ليس له من أوصاف الأحياء عين ولا أثر.

ثم دعاه إلى اتباعه؛ لأنه على المنهاج القويم، مُصدّرًا للدعوة بما مرَّ من الاستعطاف والاستمالة، حيث قال: ﴿ **يا أبتِ إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتِكَ** ﴾، لم يَسِمْ أباه بالجهل المفرط، وإن كان فى أقصاه، ولا نفسه بالعلم الفائق، وإن كان فى أعلاه، بل أبرز نفسه فى صورة رفيق له، أعرفَ بأحوال ما سلكاه من الطريق،

---

(١) من الآية ٦٩ من سورة الشعراء.

فاستماله برفق، حيث قال: ﴿ فاتَّبِعْنِي أَهدِكَ صراطًا سوِيًا ﴾ أي: مستقيمًا موصلاً إلى أسمى المطالب، منجياً من الضلال المؤدى إلى مهاوى الردى والمعاطب.

ثم ثبّطه عما كان عليه من عبادة الأصنام، فقال: ﴿ يا أبتِ لا تعبدِ الشيطانَ ﴾، فإن عبادتك للأصنام عبادة له، إذ هو الذى يُسولها لك ويغريك عليها، ثم علل نهيه فقال: ﴿ إن الشيطان كان للرحمن عَصيًا ﴾، فهو تعليل لموجب النهى، وتأكيد له ببيان أنه مستعصٍ على ربك، الذى أنعم عليك بفنون النعم، وسينتقم منه فكيف تعبده ؟.

والإظهار فى موضع الإضمار؛ لزيادة التقرير، والاقتصارُ على ذكر عصيانه بترك السجود من بين سائر جناياته؛ لأنه ملاكها، أو لأنه نتيجة معاداته لآدم وذريته، فتذكيره به داعٍ لأبيه إلى الاحتراز عن موالاته وطاعته. والتعرض لعنوان الرحمانية؛ لإظهار كمال شناعة عصيانه.

وقوله: ﴿ يا أبتِ إني أخاف أن يمسّك عذابٌ من الرحمن ﴾ تحذير من سوء عاقبة ما كان عليه من عبادة الشيطان، وهو اقترانه معه فى الهوان الفظيع. و(من الرحمن): صفة لعذاب، أى: عذاب واقع من الرحمن، وإظهار (الرحمن)؛ للإشعار بأن وصف الرحمانية لا يدفع حلول العذاب، كما فى قوله تعالى: ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾[1]، ﴿ فتكونَ للشيطان وليًا ﴾ أى: فإذا قرنت معه فى العذاب تكون قريناً له فى اللعن المخلد. فهذه موعظة الخليل لأبيه، وقد استعمل معه الأدب من خمسة أوجه:

الأول: ندائه: بياأبت، ولم يقل ياآزر، أو ياأبى.

الثانى: قوله: (مالا يسمع...) الخ، ولم يقل: لِمَ تعبد الخشب والحجر.

الثالث: قوله: (إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك)، ولم يقل له: أنك جاهل ضال.

الرابع: قوله: (إنى أخاف)، حيث عبَّر له بالخوف ولم يجزم له بالعذاب.

الخامس: فى قوله: (أن يمسك)، حيث عبَّر بالمس ولم يُعبر باللحوق أو النزول. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد جمع الحق تبارك وتعالى لخليله مقام الصدِّيقية والنبوة مع الرسالة والخلة، وقدَّم الصديقية لتقدمها فى الوجود فى حال الترقى، فالصديقية تلى مرتبة النبوة، كما تقدم فى سورة النساء. فالصدّيق عند الصوفية هو الذى يَعْظُمُ صدقه وتصديقه، فيصدِّق بوجود الحق ومواعده، حتى يكون ذلك نصب عينيه، من غير تردد ولا تلجلج، ولا توقف على آية ولا دليل. ثم يبذل مهجته وماله فى مرضاة مولاه، كما فعل الخليل، حيث قدم

(١) الآية ٦ من سورة الانفطار.

بدنه للنيران وطعامه للضيفان وولده للقربان. وكما فعل الصدّيق، حيث واسى النبى ﷺ بنفسه فى الغار، وخرج عن ماله خمس مرار. وكما فعل الغزالى حيث قدم نفسه للخرابِ، حين اتصل بالشيخ وخرج عن ماله وجاهه فى طلب مولاه.، ولذلك قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي الله عنه: فى حقه: «إنا لنشهد له بالصدّيقية العظمى»، وناهيك بمن شهد له الشاذلى بالصدّيقية.

ومن أوصاف الصدّيق أنه لا يتعجب من شيء من خوارق العادة، مما تبرزه القدرة الأزلية، ولا يتعاظم شيئاً ولا يستغربه، ولذلك وصف الحق تعالى مريم بالصديقية دون سارة، حيث تعجبت، وقالت: ﴿ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾(١)، وأما مريم فإنما سألت عن وجه ذلك، هل يكون بنكاح أم لا، والله تعالى أعلم.

وفي الآية إشارة إلى حسن الملاطفة فى الوعظ والتذكير، لا سيما لمن كان معظماً كالوالدين، أو كبيراً في نفسه. فينبغي لمن يذكره أن يأخذه بملاطفة وسياسة، فيقر له المقام الذى أقامه الله تعالى فيه، ثم يُذكره بما يناسبه فى ذلك المقام، ويشوقه إلى مقام أحسن منه، وأما إن أنكر له مقامه من أول مرة، فإنه يفرّ عنه ولم يستمع إلى وعظه، كما هو مجرب. وبالله التوفيق.

ثم ذكر جواب أبيه له، فقال:

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾

قلت : هذا استئناف بيانى، مبنى على سؤال نشأ عن صدر الكلام، كأنه قيل: فماذا قال أبوه عندما سمع هذه النصائح الواجبة القبول؟ فقال مصراً على عناده: أراغب... الخ.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قال ﴾ له أبوه فى جوابه: ﴿ أراغبٌ أنتَ عن آلهتى ﴾ أى: أمعرض ومنصرف أنت عنها فوجّه الإنكار إلى نفس الرغبة، مع ضرب من التعجب، كأن الرغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل، فضلاً عن ترغيب الغير عنها، ثم هدده فقال: ﴿ لئن لم تَنْتَهِ ﴾ عن وعظك ﴿ لأرجُمنَّكَ ﴾ بالحجارة، أى: والله لئن لم تنته عما أنت عليه من النهى عن عبادتها لأرجمنك بالحجر، وقيل باللسان، ﴿ واهجرنى ﴾ أى: واتركنى ﴿ مَلِياً ﴾ أى: زمناً طويلاً، أو ما دام الأبد، ويسمى الليل والنهار ملَوان، وهو عطف على محذوف، أى: احذرنى واهجرنى.

---

(١) الآية ٧٢ من سورة هود.

﴿ قال ﴾ له إبراهيم عليه السلام : ﴿ سلامٌ عليك ﴾ منى، لا أصيبك بمكروه، وهو توديع ومُتاركة على طريق مقابلة السيئة بالحسنة، أي: لا أشافهك بما يؤذيك، ولكن ﴿ سأستغفر لك ربي ﴾ أي: أستدعيه أن يغفر لك. وقد وفى عليه السلام بقوله في سورة الشعراء: ﴿ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾(١). أو: بأن يوفقك للتوبة ويهديك للإيمان. والاستغفارُ بهذا المعنى للكافر قبل تبين أنه يموت على الكفر مما لا ريب في جوازه، وإنما المحظور استدعاء المغفرة مع بيان شقائه بالوحي، وأما الاستغفار له بعد موته فالعقل لا يحيله. ولذلك قال ﷺ لعمه أبي طالب: «لا أزال أستغفر لك مالم أنه عنك». ثم نهاه عنه كما تقدم في التوبة. فالنهي من طريق السمع، ولا اشتباه أن هذا الوعد من إبراهيم، وكذا قوله: ﴿ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾(٢) وقوله: ﴿ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾(٣) إنما كان قبل انقطاع رجائه من إيمانه، بدليل قوله: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿ إنه كان بي حَفيًا ﴾ أي: بليغًا في البر والألطاف، رحيماً بي في أموري، قد عوَّدني الإجابة. أو عالما بي يستجيب لي إن دعوتُه، وفي القاموس: حَفِيَ كرضِيَ، حَفاوةً. ثم قال: واحتفا: بالَغَ في إكْرامِه وأظْهَرَ السُّرُورَ والفَرَحَ به، وأكْثَرَ السُّؤالَ عن أحواله، فهو حافٍ وحفيٍ. هـ.

﴿ وأعتزلُكم ﴾ أي: أتباعد عنك وعن قومك، ﴿ وما تَدْعُون من دون الله ﴾ بالمهاجرة بديني، حيث لم تؤثر فيكم نصائحي، ﴿ وأدعو ربي ﴾ : أعبده وحده، أو أدعوه بطلب المغفرة لك - أي قبل النهي - أو: أدعوه بطلب الولد، كقوله: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(٥)، ﴿ عسى ألا أكون بدعاءِ ربي شقيًا ﴾ أي: عسى ألا أشقى بعبادته، أو: لا أخيب في طلبه، كما شقيتم أنتم في عبادة آلهتكم وخبتم. ففيه تعريض بهم، وفي تصدير الكلام بعسى من إظهار التواضع وحسن الأدب، والتنبيه على أن الإجابة من طريق الفضل والكرم، لا من طريق الوجوب، وأن العبرة بالخاتمة والسعادة، وفي ذلك من الغيوب المختصة بالعليم الخبير ما لا يخفى.

الإشارة: انظر كيف رفض آزرُ من رغب عن آلهته، وإن كان أقرب الناس إليه، فكيف بك أيها المؤمن ألاَّ ترفض من يرغب عن إلهك ويعبد معه غيره، أو يجحد نبيه ورسوله، بل الواجب عليك أن ترفض كل مايشغلك عنه، غيرةً منك على محبوبك، وإذا نظرت بعين الحقيقة لم تجد الغيرة إلا على الحق، إذ ليس في الوجود إلا الحق، وكل ما سواه باطل على التحقيق.

---

(١) الآية ٨٦ من سورة الشعراء. (٢) في الآية ٤ من سورة الممتحنة. (٣) من الآية ٨٦ من سورة الشعراء.
(٤) الآية ١١٤ من سورة التوبة. (٥) الآية ١٠٠ من سورة الصافات.

فمن اعتزل كل ما سوى الله، وأفرد وجهته إلى مولاه، لم يَشْقَ فى مَطلبه ومسْعاه، بل يطلعه الله على أسرار ذاته، وأنوار صفاته، حتى لا يرى فى الوجود إلا الواحد الأحد الفرد الصمد. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نتيجة الانفراد عمن يصد عن الله، فقال:

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾

قلت: (وكُلاً): مفعول أول لجعلنا، و(علِياً): حال من اللسان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **فلما اعتزلهم** ﴾ أى: اعتزل إبراهيمُ قومَه ﴿ **وما يعبدون من دون الله** ﴾ بأن خرج من «كوثى» بأرض العراق، مهاجراً إلى الشام واستقر بها، ﴿ **وهبنا له إسحاقَ** ﴾ ولده ﴿ **ويعقوبَ** ﴾ حفيده، بعد أن وهب له إسماعيل من أمَته هاجر، التى وُهبت لزوجه سارة، ثم وهبتها له، فوُلد له منها إسماعيل، ولما حملت هاجر بإسماعيل غارت منها سارة، فخرج بها مع ولدها إسماعيل حتى أنزلهما مكة، فكان سبب عمارتها. ثم حملت سارة بإسحاق، ثم نشأ عنه يعقوب، وإنما خصهما بالذكر لأنهما كانا معه فى بلده، وإسحاق كان متصلاً به يسعى معه فى مآربه، فكانت النعمة بهما أعظم.

ولعل ترتيب هبتهما على اعتزاله هاهنا لبيان كمال عظم النعمة التى أعطاها الله تعالى إياه، فى مقابلة من اعتزلهم من الأهل والأقارب، فإنهما شجرة الأنبياء، لهما أولاد وأحفاد، لكل واحد منهم شأن خطير وعدد كثير. ﴿ **وكُلاً جعلنا نبياً** ﴾ أى: وكل واحد منهما أو منهم جعلناه نبياً ورسولا.

﴿ **ووهبنا لهم من رحمتنا** ﴾ هى النبوة، وذكرها بعد ذكر جعلهم أنبياء؛ للإيذان بأنها من باب الرحمة والفضل. وقيل: الرحمة: المال والأولاد، وما بسط لهم من سعة الرزق، وقيل: إنزال الكتاب، والأظهر أنها عامة لكل خير دينى ودنيوى. ﴿ **وجعلنا لهم لسانَ صدقٍ علياً** ﴾: رفيعًا فى أهل الأديان، فكل أهل دين يتلونهم، ويثنون عليهم، ويفتخرون بهم؛ استجابة لدعوته بقوله: ﴿ **وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ** ﴾[1].

والمراد باللسان: ما يوجد به الكلام فى لسان العرب ولغتهم، وإضافته إلى الصدق، ووصفه بالعلو؛ للدلالة على أنهم أحقاء لما يثنون عليهم، وأن محامدهم لا تخفى على تباعد الأعصار، وتبدل الدول، وتحول الملل والنحل. والله تعالى أعلم.

---

(١) الآية ٨٤ من سورة الشعراء.

الإشارة : كل من اعتزل عن الخلق وانفرد بالملك الحق، طلباً في الوصول إلى مشاهدة الحق، لابد أن تفيض عليه المواهب القدسية والأسرار الوهبية والعلوم اللدنية، وهي نتائج فكرة القلوب الصافية، وفي الحكم: «مانفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة» . قال الجنيد رضي الله عنه : أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : (ثمار العزلة: الظفر بمواهب المنة، وهي أربعة: كشف الغطاء، وتنزل الرحمة، وتحقق المحبة، ولسان الصدق في الكلمة، قال الله تعالى: ﴿ **فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له . . .** ﴾ الآية) . وقال بعض الحكماء: من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا، فهلك كما هلكوا.

وقال بعض الصوفية: قلت لبعض الأبدال المنقطعين إلى الله: كيف الطريق إلى التحقيق؟ قال: لا تنظر إلى الخلق، فإن النظر إليهم ظلمة، قلت: لابد لي، قال: لا تسمع كلامهم، فإن كلامهم قسوة، قلت: لابد لي، قال: لا تعاملهم، فإن معاملتهم خسران ووحشة، قلت: أنا بين أظهرهم، لابد لي من معاملتهم، قال: لا تسكن إليهم، فإن السكون اليهم هلكة، قلت: هذا لعله يكون، قال: يا هذا أتنظر إلى اللاعبين، وتسمع كلام الجاهلين، وتعامل البطالين، وتسكن إلى الهلكى، وتريد أن تجد حلاوة الطاعة وقلبك مع الله؟! هيهات.. هذا لا يكون أبداً، ثم غاب عني.

وقال القشيري رضي الله عنه : فأرباب المجاهدات، إذا أرادوا صون قلوبهم عن الخواطر الردية لم ينظروا إلى المستحسنات - أي: من الدنيا - . قال: وهذا أصل كبير لهم في المجاهدات في أحوال الرياضة .هـ. وقال في «القوت» : ولا يكون المريد صادقاً حتى يجد في الخلوة من الحلاوة والنشاط والقوة ما لا يجده في العلانية، وحتى يكون أُنسه في الوحدة، وروحه في الخلوة، وأحسن أعماله في السر .هـ.

قلت : العزلة عن الخلق والفرار منهم شرط في بداية المريد، فإذا تمكن من الشهود، وأنس قلبه بالملك الودود، واتصل بحلاوة المعاني، ينبغي له أن يختلط بالخلق ويربي فكرته؛ لأنهم حينئذ يزيدون في معرفته ويتسع بهم؛ لأنه يراهم حينئذ أنواراً من تجليات الحق، ونواراً يرعى فيهم، فيجتني حلاوة الشهود، وفي ذلك يقول شيخ شيوخنا المجذوب:

الخَلْقُ نوارٌ وأنا رَعَيْتُ فيهِم هُمُ الحجَابُ الأكْبَرُ والمَدْخَلُ فيهِمْ.

وفي مقطعات الششتري:

عين الزحام هم الوصول لحيّنا.

وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة موسى عليه السلام، فقال:

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾ ﴾

قلت: «نَجِياً» : حال من أحد الضميرين فى (ناديناه) أو (قربناه) ، وهو أحسن. و«هارون»: عطف بيان.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واذكرْ فى الكتاب موسى ﴾ ، قدّم ذكره على ذكر اسماعيل لئلا ينفصل عن ذكر يعقوب؛ لأنه من نسله، ﴿ إنه كان مُخْلِصاً ﴾[1]: موحداً، أخلص عبادته من الشرك والرياء، وأسلم وجهه لله تعالى، وأخلص نفسه عما سواه. وقرئ بالفتح، على أن الله تعالى أخلصه من الدنس. قال القشيري أي: خالصاً لله، لم يكن لغيره بوجهٍ. ثم قال: ولم يُغْضِ فى اللهِ على شيءٍ.هـ.

﴿ وكان رسولاً نبيًا ﴾ أرسله الله تعالى إلى الخلق فأنبأهم عنه، ولذلك قدّم رسولا مع كونه أخص وأعلى، ﴿ وناديناه من جانب الطور الأيمن ﴾، الطور: جبل بين مصر ومدين، أي: ناديناه من ناحيته اليمنى، وهى التى تلى يمين موسى عليه السلام ، فكانت الشجرة فى جانب الجبل عن يمين موسى، أو من أيمن، أى: من جانبه الميمون، ومعنى ندائه منه: أنه سمع الكلام من تلك الناحية، ﴿ وقربناه نجيـاً ﴾ أى: مناجياً لنا نُكلمه بلا واسطة، فالتقريب: تقريبُ تكرمة وتشريف، مثّلَ حاله عليه السلام بحال من قرّبه الملك لمناجاته واصطفاه لمصاحبته. وقيل: (نجيا) من النجو، وهو العلو والارتفاع، أي: رفعناه من سماء إلى سماء، حتى سمع صريف القلم يكتب له فى الألواح.

﴿ ووهبنا له من رحمتنا ﴾ أي: من أجل رحمتنا ورأفتنا به، أو من بعض رحمتنا ﴿ أخاه هارون ﴾، أي: وهبنا له مؤازرة أخيه ومعاضدته، إجابةً لدعوته: ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ، هَرُونَ أَخِي ﴾[2] لا نفسَه؛ لأنه كان أكبر منه، وُجد قبله، حَال كونه ﴿ نبياً ﴾: رسولاً مُشْرَكاً معه فى الرسالة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كما وصف الحق تعالى خليله بالصـديقية وصف كليمه بالإخلاص، وكلاهما شرط فى حصـول سر الخصوصية، سواء كانت خصوصية النبـوة أو الولاية، فمن لا تصـديق عنده لا سير له، ومن لا إخلاص له لا وصول له. وحقيقة الإخلاص: إخراج الخلق من معاملة الحق، وهى ثلاث طبقات؛ سفلى، ووسطى، وعليا.

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائى وخلف (مخلَصاً) بفتح اللام.
(٢) الآيتان ٢ - ٣ من سورة طه.

فالسفلى: أن يفعل العبادة لله تعالى، طالباً لعوض دنيوى، كسعة الأرزاق، وحفظ الأموال والبدن، فهذا إخلاص العوام، وإنما كان إخلاصاً لأنهم لم يلاحظوا مخلوقاً فى عملهم.

والوسطى: أن يعبد الله مخلصاً، طالباً لعوض أخروى، كالحور والقصور.

والعليا: أن يفعل العبادة قياماً برسم العبودية، وأدباً مع عظمة الربوبية، غير ملتفت لجنة ولا نار، ولا دنيا ولا آخرة، مع تعظيم نعيم الجنان، لأنه محل اتصال الرؤية؛ كما قال ابن الفارض ﵁:

ليس شوقى من الجنان نعيماً غير أنى أريدها لأراكَ

فإذا تحقق للعبد مقام الإخلاص الكامل، صار مقرباً نجياً فى محل المشاهدة والمكالمة. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نبيه إسماعيل ﵇ فقال:

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿واذكر فى الكتاب إسماعيل﴾، فصل ذكره عن أبيه وأخيه؛ لإبراز كمال الاعتناء بأمره، لإيراده مستقلاً بترجمته، ﴿إنه كان صادق الوعد﴾، هذا تعليل لموجب الأمر بذكره. وإيراده ﵇ بهذا الوصف؛ لكمال شهرته به.

رُوى أنه واعد رجلا أن يلقاه فى موضع، فجاء إسماعيل، وانتظر الرجلَ يومه وليلته ـ وقيل: ثلاثة أيام ـ فلما كان فى اليوم الآخر، جاء الرجل، فقال له إسماعيل: مازلتُ هنا من أمس. وقال الكلبى: انتظره سنة، وهو بعيد. قال ابن عطية: وقد فعل مثل هذا نبينا ﷺ قبل مبعثه، ذكره النقاش وأخرجه الترمذى وغيره، وذلك فى مبايعة وتجارة[1] هـ. وقال القشيرى: وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه، فصبر على ذلك، إلى أن ظهر الفداء، وصدق الوعد دلالة حفظ العهد.هـ.

وقال ابن عطاء: وعد لأبيه من نفسه الصبر، فوفى به، فى قوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[2] .هـ. وهذا مبنى على أنه الذبيح، وسيأتى تحقيق المسألة إن شاء الله(٣).

---

(١) أخرج أبو داود فى (الأدب، باب فى العدة) عن عبد الله بن أبى الحمساء، قال: بايعتُ النبى ﷺ ببيع قبل أن يُبعث، وبقيتْ له بقية، فوعدته أن آتيه بها فى مكانه، فنسيت، ثم ذكرت بعد ثلاث، فجئت فإذا هو فى مكانه، فقال: «يافتى، لقد شققت علىّ، أنا هاهنا منذ ثلاثٍ أنتظرك».

(٢) الآية ١٠٢ من سورة الصافات.

(٣) سبق التعليق على هذه المسألة عند تفسير الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

﴿ وكان رسولاً نبيًا ﴾ أي: رسولاً لجرهُم ومن وَالاهم، مخبراً لهم بغيب الوحي، وكان أولاده على شريعته، حتى غيرها عَمرو بن لحي الخزاعي، فأدخل الأصنام مكة. فمازالت تُعبَد حتى محاها نبينا محمد ﷺ بشريعته المطهرة.

﴿ وكان ﴾ إسماعيل ﴿ يأمر أهله بالصلاة والزكاة ﴾، قدّم الأهل اشتغالاً بالأهم، وهو أن يُقبل بالتكميل على نفسه، ومن هو أقرب الناس إليه، قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾(١)، ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ ﴾(٢)، ﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾(٣)، وقصد إلى تكميل الكل بتكميلهم؛ لأنهم قدوة يُؤتسى بهم. وقيل: أهله: أمته؛ لأن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ آباء الأمم. ﴿ وكان عند ربه مَرْضِياً ﴾؛ لاتصافه بالنعوت الجليلة التي من جملتها ما ذكر من الخصال الحميدة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد وصف الحق ـ جل جلاله ـ نبيه إسماعيل بثلاث خصال، بها كان عند ربه مرضيا، فمن اتصف بها كان مرضيا مقرباً: الوفاء بالوعد، والصدق في الحديث؛ لأنه مستلزم له، وأمر الناس بالخير. أما الوفاء بالعهد فهو من شيم الأبرار، قد مدح الله تعالى أهله، ورغّب فيه وأمر به، قال تعالى: ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾(٥) فإخلاف الوعد من علامة النفاق، قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» وخلف الوعد إنما يضر إذا كان نيته ذلك عند عقده، أو فرط فيه، وأما إن كان نيته الوفاء، ثم غلبته المقادير، فلا يضر، لا سيما في حق أهل الفناء، فإنهم لا حكم لهم على أنفسهم في عقد ولا حل، بل هم مفعول بهم، زمامهم بيد غيرهم، كل ساعة ينظرون ما يفعل الله بهم، فمثل هؤلاء لا ميزان عليهم في عقد ولا حل. فمثلهم مع الحق كمثل الأطفال المحجر عليهم في التصرف، ولذلك قالوا: (الصوفية أطفال في تربية الحق تعالى). فإياك أن تطعن على أولياء الله إذا رأيت منهم شيئاً من ذلك، والتمس أحسن المخارج، وهو ماذكرته لك، فإنه عن تجربة وذوق. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر نبيه إدريس عليه السلام، فقال:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧ ﴾

(١) الآية ٢١٤ من سورة الشعراء.
(٢) الآية ١٣٢ من سورة طه.
(٣) الآية ٦ من سورة التحريم.
(٤) الآية ١٧٧ من سورة البقرة.
(٥) الآية ٩١ من سورة النحل.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **واذكر فى الكتاب إدريس** ﴾ وهو سبط شيث، وجَدّ أبى نوح، فإنه نوح بن لامك بن متوشلَخ بن أخنوخ، وهو إدريس عليه السلام، واشـتقاقه من الدرس؛ لكثرة دراسته لما أوحى إليه، وكثرة ذكره لله تعالى.

رُوى أنه كان خياطاً فكان لا يدخل الإبرة ولا يخرجها إلا بذكر الله. ورُوى أنه جاء إليه الشيطان يفتنه بفستق، فقال له: هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا فى هذه الفُسْتقة؟ فقال له عليه السلام: (الله قادر على أن يدخل الدنيا كلها فى سم هذه الإبرة، ونخس عينه) ذكره السنوسى فى شرح مقرأه. قال ابن وهب: إنه دعا قومه إلى لا إله إلا الله، فامتنعوا فهلكوا. وفى حديث أبى ذر: أنه رسول، وجمع بينه وبين حديث الشفاعة، وقولهم لنوح: إنك أول رسول، بأن تكون رسالته لقومه خاصة، كهود وصالح، وكذا آدم وشيث، فإنه أرسل لبنيه لتعليم الشرائع والإيمان، ولم يكونوا كفاراً، وخلفه فى ذلك شيث، قال المحشى الفاسى: والأظهر عندى فى نوح أنه أول رسول من أهل العزم، لا مطلقا.

قال ابن عطيـة: والأشهر أن إدريس عليه السلام لم يرسل، وإنما هو نبى فقط، وذهب إلى ذلك ابن بطال، ليسلم من المعارضة، وهى مدفوعة بما ذكرنا.هـ. فالمشهور أن إدريس رسول إلى قومه. رُوى أنه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفة، وأنه أول من خط بالقلم، ونظر فى علم النجوم والحساب، وخاط الثياب. قيل: وهو أول نبى بُعث إلى أهل الأرض.

قال تعالى فى وصـفه: ﴿ **إنه كان صِدّيقًا نبيا** ﴾ : خبران لكان، والثانى مخصص للأول؛ إذ ليس كل صدّيق نبى. ﴿ **ورفعناه مكانا عليا** ﴾، هو شرف النبوة والزلفى عند الله تعالى. وقيل: علو الرتبة بالذكر الجميل فى الدنيا، كما قال تعالى فى حق نبينا: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾[1]، وقيل: الجنة، وقيل: السماء الرابعة، وهو الصحيح.

رُوى عن كعب وغيره فى سبب رفعه أنه مشى ذات يوم فى حاجته، فأصابه وهج الشمس وحرها، فقال: يارب أنا مشيت يومًا، فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام فى يوم واحد!، اللهمَّ خَفِّفْ عنه من ثقلها، واحمل عنه حرها، فلما أصبح الملَك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرف، فقال: يارب كلفتنى بحمل الشمس، فما الذى قضيت فيه؟ فقال: إن عبدى إدريس سألنى أن أُخفف عنك حملها وحرّها فأجبته، قال: يارب اجعل بينى وبينه خُلَّـة، فأذن له، حتى أتى ادريس، فقال له إدريس: أخبرت أنك أكرم الملائكة عند مَلَك الموت، فاشفع لى ليؤخر

(١) الآية ٤ من سورة الشرح.

أجلى، لأزداد شكراً وعبادة، فقال له الملك: لا يؤخر الله نفساً اذا جاء أجلها، فقال: قد علمت ذلك، ولكنه أطيب لنفسى، قال: نعم، ثم حمله ملك الشمس على جناحه فرفعه إلى السماء[1]. رُوى أنه مات هناك وردت إليه روحه بعد ساعة، فهو فى السماء الرابعة حى. وهذه قصص الله أعلم بصحتها. وبالله التوفيق.

الإشارة: ارتفاع المكان والشأن يكون على قدر صفاء الجنان، والإقبال على الكريم المنان، فبقدر التوجه والإقبال يكون الارتفاع والوصال.

بقـــدر الكد تكســب المعـــالى   ومَـــنْ رَامَ العُلا سَهِرَ الليالـى

أتبغـــى العـز ثم تنـام ليـــلا   يَغُوصُ البحر منَ طلب اللآلى

قال بعضهم: من عامل الله على بساط الأنس: رفع، لا محالة، إلى حضرة القدس. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مدحهم فى الجملة، فقال:

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨) ﴾

قلت: «أولئك»: مبتدأ، و«الذين»: خبره، أو «الذين»: صفته، و«إذا تتلى»: خبره. والإشارة إلى المذكورين فى السورة، وما فيه من معنى البُعد؛ للإشعار بعلو رتبتهم وبُعد منزلتهم فى الفضل، و(من النبيين): بيان للموصول، و(من ذرية): بدل منه بإعادة الجار، و(سُجداً وبُكيًا): حالان من الواو، و(بكيا): جمع باك، كمساجد وسجود، وأصله: بكوى، فاجتمع الواو والياء، وسُبق إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء، وأدغمت فى الياء، وحركت الكاف بالكسر المجانس للياء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **أولئك** ﴾ المذكورون فى السورة الكريمة هم ﴿ **الذين أنعم الله عليهم** ﴾ بفنون النعم الدينية والدنيوية، ﴿ **من النبيين من ذرية آدم** ﴾، وهو إدريس عليه السلام ونوح، ﴿ **وممن حملنا مع نوح** ﴾ أى: ومن ذرية من حملناهم فى السفينة، وهو إبراهيم؛ لأنه من ذرية سام بن نوح، ﴿ **ومن ذرية إبراهيم** ﴾، وهم إسماعيل وإسحاق ويعقوب، وقوله: ﴿ **وإسرائيل** ﴾ أى: ومن ذرية إسرائيل، وهو يعقوب، وكان منهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى، وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية. ﴿ **وممن هدينا** ﴾ أى: ومن جملة من هديناهم إلى الحق واجتبيناهم إلى النبوة من غير هؤلاء.

(١) عقّب ابن كثير على هذه الرواية وأمثالها بأن فيها غرابة ونكارة، وهى من أخبار كعب الأحبار من الإسرائيليات.

﴿إذا تُتلى عليهم آياتُ الرحمن خَرُّوا سُجداً وبُكِيّاً﴾ ، هذا استئناف؛ لبيان خشيتهم من الله تعالى وإخباتهم له، مع مالهم من علو الرتبة وسمو الطبقة فى شرف النسب، وكمال النفس والزلفى من الله عز وجل، أى: إذا تتلى عليهم، آيات الرحمن، إما عند نزولها عليهم، أو بسماعها من غيرهم، لحديث: «أحب أن أسمعه من غيرى» . ثم بكى ﷺ عند قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾[1] فكان الأنبياء عليهم السلام مثله، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا ساجدين وباكين. عن النبى ﷺ قال: «اتْلُوا القُرْآنَ وابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا»[2] . وعن عمر رضي الله عنه أنه قرأ سورة مريم، فسجد فيها، فقال: (هذا السجود، فأين البكاء) ؟

قال بعضهم: ينبغى أن يدعو الساجد فى سجوده بما يليق بآيتها، فهاهنا يقول: اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم، المهديين الساجدين لك، الباكين عند تلاوة آياتك. وفى الإسراء يقول: اللهم اجعلنى من الخاضعين لوجهك، المسبحين بحمدك، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك، وهكذا. والذى ورد فى الخبر: يقول: «سَجَدَ وَجْهِى للذى خَلَقَه وصوَّره، وشقَّ سمعَه وبَصَرَه، بحوله وقُوته، اللهم اكتب لى بها أجراً، وضع عنى بها وزراً، واجعلها لى عندك ذخرا، وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود عليه السلام» . والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد أثنى الله تعالى على هؤلاء السادات المُنعَم عليهم بكونهم إذا سمعوا كلام الحبيب خضعوا ورقت قلوبهم، وهو أول درجة المحبة، وفوقه الفرح بكلام الحبيب من مكان قريب، وفوقه الفرح بشهود المتكلم، وهنا ينقطع البكاء؛ لدخول صاحب هذا المقام جنة المعارف، وليس فى الجنة بكاء.

وأيضاً: من شأن القلب فى أول أمره الرطوبة، يتأثر بالواردات والأحوال، فإذا استمر عليها اشتد وصلُب بحيث لا يؤثر فيه شىء من الواردات الإلهية. وفى هذا المعنى قال أبو بكر رضي الله عنه، حين رأى قومًا يبكون عند سماع القرآن: (كذلك كنا ثم قست القلوب)[3] ، فعبَّر عن تمكنه بالقسوة، تواضعاً واستتاراً، وإنما أثنى على هؤلاء السادات بهذه الخصلة؛ لأنها سُلَّم لما فوقها. والله تعالى أعلم.

---

(١) الآية ٤١ من سورة النساء، والحديث: أخرجه البخارى فى (التفسير ـ سورة النساء)، ومسلم فى (الصلاة، باب: فضل استماع القرآن) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) الحديث أخرجه بنحوه ابن ماجة فى (إقامة الصلاة، باب فى حسن الصوت بالقرآن) من حديث سعد بن أبى وقاص.

(٣) قال الحافظ أبو نعيم : «.. عن أبى صالح: لما قدم أهل اليمن ـ زمان أبى بكر ـ وسمعوا القرآن، جعلوا يبكون، قال: فقال أبو بكر: [هكذا كنا، ثم قست القلوب] . قال الشيخ أبو نعيم رحمه الله: «ومعنى قوله: قست القلوب: قويت، واطمأنت بمعرفة الله تعالى. أ.هـ. الحلية، جـ١ ، ص ٣٣ ـ ٣٤ ويحتمل أن يكون المعنى: أنهم كانوا أرقاء القلوب بمشاهدتهم لحضرة النبى صلى الله عليه وسلم.. ثم طال الأمد.. فقست القلوب.. وهذا منه تواضع، رضى الله عنه.

ثم ذكر أضدادهم، فقال:

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ ﴾

قلت : (جنات عدن) : بدل من الجنة، بدل بعض؛ لاشتمالها عليها، وما بينهما اعتراض، أو نصب على المدح. و(إلاسلامًا) : منقطع، أي: لكن يسمعون سلامًا، ويجوز اتصاله، على أن المراد بالسلام الدعاء بالسلامة، فإن أهل الجنة أغنياء عنه، فهو داخل في اللغو. و(بالغيب) : حال من عائد الموصول، أي: وعدها، أو من العباد، و(مأتِيًا) : أصله مأتوي، فأبدل وأدغم كما تقدم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **فخَلَفَ من بعدهم** ﴾ أي: جاء بعد أولئك الأكابر، ﴿ **خلْفٌ** ﴾ أي: عقب سوء، يقال لعقب الخير «خلَف» بفتح اللام ، ولعقب الشر «خلْف» بسكون اللام، أي: فعقبهم وجاء بعدهم عقب سوء، ﴿ **أضاعوا الصلاة** ﴾ أي: تركوها وأخروها عن وقتها، ﴿ **واتبعوا الشهوات** ﴾؛ من شرب الخمر، واستحلال نكاح الأخت، من الأب، والانهماك في فنون المعاصي، وعن علي رضي الله عنه: هم من بَنَى المُشيد، وركب المنضود، ولبس المشهور. قلت: ولعل المنضود: السُرج المرصعة بالجواهر والذهب. وقال مجاهد: هذا عند اقتراب الساعة، وذهاب صالح أمة محمد ﷺ، ينزو بعضهم على بعض في السكك والأزقة.هـ. ﴿ **فسوف يلقون غيًا** ﴾: شرًا، فكل شر عند العرب غيٌ، وكل خير رشاد. قال ابن عباس: الغيُّ: واد في جهنم، وإن أودية جهنم لتستعيذ من حرّه، أُعد للزاني المــصرّ، ولشارب الخمر المدمن، ولأهل الرياء والعقوق والزور، ولمن أدخلت على زوجها ولداً من غيره. هـ.

﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل صالحًا** ﴾، هذا يدل على أن الآية في الكفار. ﴿ **فأولئك** ﴾ المنعوتون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح، ﴿ **يدخلون الجنة** ﴾ بموجب الوعد المحتوم، أو يُدخلهم الله الجنة، ﴿ **ولا يُظلمون شيئًا** ﴾: لاينقصون من جزاء أعمالهم شيئًا، وفيه تنبيه على أن كفرهم السابق لايضرهم، ولاينقص أجورهم، إذا صححوا المعاملة مع ربهم.

﴿ جنات عدنٍ ﴾ أى: إقامة، لإقامة داخلها فيها على الأبد، ﴿ التى وعد الرحمنُ عبادَه بالغيب ﴾ أى: ملتبسين بالغيب عنها لم يروها، وإنما آمنوا بها بمجرد الإخبار، أو ملتبسة بالغيب، أى: غائبة عنهم غير حاضرة. والتعرض لعنوان الرحمانية؛ للإيذان بأن وعده وإنجازه لكمال سعة رحمته تعالى، ﴿ إنه كان وعده مأتياً ﴾ ؛ يأتيه من وعُد به لا محالة، وقيل: هو مفعول بمعنى فاعل، أى: آتياً لا محالة، وقيل: مأتيا: منجزاً، من أتى إليه إحسانا، أى: فعله.

﴿ لايسمعون فيها لغواً ﴾ أى: فضول كلام لا طائل تحته، وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها. وفيه تنبيه على أن اللغو ينبغى للعبد أن يجتنبه فى هذه الدار ما أمكنه. وفى الحديث: «مِنْ حُسْنِ إسْلاَمِ المَرْءِ تَرْكُهُ مالا يَعْنِيهِ»(١). وهو عَامٌ فى الكلام وغيره. ﴿ إلا سلامًا ﴾ ، أى: لايسمعون لغواً، لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم، أو تسليم بعضهم على بعض، ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ أى: على قدرهما فى الدنيا، إذ ليس فى الجنة نهار ولا ليل، بل ضوء ونور أبداً. قال القرطبى: ليلهم إرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، أى: ونهارهم رفع الحجب وفتح الأبواب.

قال القشيرى: الآية ضرب مثل لما عهد فى الدنيا لأهل اليسار، والقصد: أنهم أغنياء مياسير فى كل وقت. هـ. وسيأتى عند قوله: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾(٢) كيفية أرزاقهم.

قال تعالى: ﴿ تلك الجنة ﴾ : مبتدأ وخبر، جيء بهذه الجملة؛ لتعظيم شأن الجنة وتعيين أهلها، وما فى اسم الإشارة من معنى البعد؛ للإيذان ببُعد منزلتها وعلو رتبتها، أى: تلك الجنة التى وصفت بتلك الأوصاف العظيمة هى ﴿ التى نُورث ﴾ أى: نورثها ﴿ مِنْ عبادنا من كان تقياً ﴾ لله بطاعته واجتناب معاصيه، أى: نُديمها عليهم بتقواهم، ونمتعهم بها، كما يبقى عند الوارث مال مورثه يتمتع به، والوراثة أقوى ما يستعمل فى التملك والاستحقاق من الألفاظ؛ من حيث إنها لايعقبها فسخ ولااسترجاع ولا إبطال. وقيل: يرث المتقون من الجنة المساكن التى كانت لأهل النار، لو آمنوا وأطاعوا، زيادة فى كرامتهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف...﴾ الآية تنسحب على من كان أسلافه صالحين، فتنكب عن طريقهم، فضيّع الدين، وتكبر على ضعفاء المسلمين، واتبع الحظوظ والشهوات، وتعاطى الأمور العلويات، فإن ضم إلى ذلك الافتخار بأسلافه، أو بالجاه والمال، كان أغرق فى الغى والضلال، يصدق عليه قول القائل:

إن عاهدوك على الإحسان أو وعدُوا ... خانوا العهود ولكن بعد ما حلفوا

بل يفخرون بأجداد لهم سلفت ... نِعم الجدود، ولكن بئس ما خلّفوا

---

(١) أخرجه الترمذى فى (الزهد باب ١١)، وابن ماجة فى (الفتن، باب: كف اللسان فى الفتنة) عن أبى هريرة رضي الله عنه.
(٢) الآية ٧١ من سورة الزخرف.

إلا من تاب ورجع إلى ما كان عليه أسلافه، من العلم النافع والعمل الصالح، والتواضع للصالح والطالح، فيرافقهم فى جنة الزخارف أو المعارف، التى وعد الرحمن عباده المخصوصين بالغيب، ثم صارت عندهم شهادة ، إنه كان وعده مأتيا، لايسمعون فيها لغواً ؛ لأن الحضرة مقدسة عن اللغو، (إلا سلاماً)؛ لسلامة صدورهم، ولهم رزقهم فيها من العلوم والأسرار والمواهب، فى كل ساعة وحين، لايرث هذه الجنة إلا من اتقى ما سوى الله، وانقطع بكليته إلى مولاه. وبالله التوفيق.

ولما أبطأ الوحى عن النبى ﷺ قال:«يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» فنزل[1]:

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾

قلت : وجه المناسبة لما قبله ـ والله أعلم ـ: أن الحق جل جلاله لما سرد قصص الأنبياء وما نشأ بعدهم، وكان جبريل هو صاحب وحيهم الذى ينزل به عليهم، ذكر هنا أن نزوله ليس باختياره ، فقال: ﴿وما نتنزل...﴾ الخ.

يقول الحق جل جلاله ، حاكياً لقول جبريل عليه السلام: ﴿ وما نتنزَّلُ ﴾ عليك يا محمد ﴿ إلا بأمرِ ربك ﴾، وذلك حين أبطأ الوحى عنه ﷺ، لما سئل عن أصحاب الكهف وذى القرنين والروح، فلم يدر كيف يجيب، ورجا أن يوحى إليه فيه، فأبطأ عليه أربعين يوماً. قاله عكرمة. وقال مجاهد: ثنتى عشرة ليلة، أو خمس عشرة. فشقّ على النبى ﷺ مشقة شديدة. وقال: يا جبريل قد اشتقت إليك، فقال جبريل: إنى كنت أشْوَق، ولكنى عبد مأمور، إذا بُعثت نزلت، وإذا حُبست احتَبستُ، فأنزل الله هذه الآية وسورة الضحى[2]، والتنزل: النزول على مهَل، وقد يُطلق على مطلق النزول، والمعنى: وما نتنزل وقتاً غِبّ وقتٍ[3] إلا بأمر الله تعالى، على ما تقتضيه حكمته.

وقيل: هو إخبار عن أهل الجنة أنهم يقولون عند دخولها مخاطبين بعضهم لبعض بطريق التبجح والابتهاج، أى: ما نتنزل هذه الجنان إلا بأمر الله تعالى ولطفه، وهو مالك الأمور كلها، سالفها ومُتَرقَّبها وحاضرها ، فما وجدناه وما نجده هو من لطفه وفضله. هـ. قلت: ولايخفى حينئذ مناسبته.

ثم قال: ﴿ له ما بين أيدينا وما خَلْفَنا وما بين ذلك ﴾ أى: وما نحن فيه من الأماكن والأزمنة، فلا ننتقل من مكان إلى مكان، ولا ننزل فى زمان دون زمان، إلا بأمره ومشيئته، وعن مقاتل: ﴿ له ما بين أيدينا ﴾ من

---

(١) أخرجه البخارى فى (التفسير ـ سورة مريم) وفى (التوحيد، باب ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾) من حديث ابن عباس.
(٢) أخرجه الطبرى فى تفسيره (١٦/١٠٣)، وعزاه ابن حجر فى الكافى الشافى لأبى نعيم فى الدلائل.
(٣) غب بمعنى بعد، ومنه قولهم: غب سلام.

أمر الدنيا، ﴿ وماخلفنا ﴾ من أمر الآخرة، ﴿ وما بين ذلك ﴾ مما بين النفختين، وهو أربعين سنة. أو ما بين أيدينا بعد الموت، وما خلفنا قبل أن يخلقنا، وما بين ذلك مدة حياتنا، أى: له علم ذلك كله، ﴿ وما كان ربك نَسِيًّا ﴾: تاركاً لك ومهملاً شأنك، أو: ذَاهلاً عنك حتى ينسى أمر الوحي إليك؛ لأنه مُحال، يعني: أن عدم نزول جبريل لم يكن إلا لعدم الأمر به؛ لحكمة بالغة فيه، ولم يكن تركه تعالى لك إهمالاً وتوديعاً، كما زعمت الكفرة. وفي إعادة اسم الرب المضاف إلى ضميره ﷺ من تشريفه والإشعار بعلية الحكم ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿ ربُّ السموات والأرض وما بينهما ﴾ بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى؛ فإن من بيده ملكوت السموات والأرض وما بينهما كيف يتصور أن يحوم حول ساحته الغفلة والنسيان. والفاء في قوله:﴿ فاعبُدْهُ واصطَبِرْ لعبادته ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، من كونه تعالى رب السموات والأرض وما بينهما. أو من كونه تعالى غير تارك له عليه السلام، أو غير ناسٍ لأعمال العاملين، والمعنى على الأول: فحين عرفته تعالى بما ذكر من الربوبية الكاملة فاعبده، أو حين عرفته تعالى لاينساك، أو: ينسى أعمال العاملين فأقبل على عبادته واصطبر على مشاقها، ولاتحزن بإبطاء الوحي وهزْءِ الكفرة، فإنه يراقبك ويلطف بك في الدنيا والآخرة، ﴿ هل تعلم له سَمِيًّا ﴾ أي: شبيهاً ونظيراً، أو هل تعلم أحداً تسمى بهذا الاسم غير الله تعالى، والتسمية تقتضي التسوية بين المتشابهين، ولا مثل له، لا موجوداً ولا موهوماً، مع أن المشركين مع غلوهم في المكابرة لم يسموا الصنم بالجلالة أصلاً، ولم يتجاسر أحد أن يسمى بهذا الاسم، ولو تجاسر أحدٌ لهلك.

وقيل: إن أحداً من الجبابرة أراد أن يسمي ولده بهذا الإسم، فخسف به وبتلك البلدة. ذكره القشيري في التحبير. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما قاله جبريل عليه السلام من كونه لاينزل إلا بأمر ربه ليس خاصاً به؛ بل كل أحد لا حركة له ولاسكون إلا بالله وبمشيئته، فلا يصدر عن أحد من عبيده قول ولافعل، ولا حركة ولاسكون، إلا وقد سبق في علمه وقضائه كيف يكون، فلا انتقال ولانزول إلا بقدر سابق وتحريك لاحق؛ «ما من نفَس تبديه إلا وله قدر فيك يمضيه». وقال الشاعر:

مشـــيناها خطى كُتبت علينا ومن كُتبت عليه خطى مشـاها

ومن قســـمت منيتــه بأرض فليس يمـوت في أرض ســواها

فراحة الإنسان أن يكون ابن وقته، كل قت ينظر ما يفعل الله به، فبهذا ينجو من التعب، ويتحقق له الأدب. وبالله التوفيق.

ثم ردَّ على من أنكر البعث، بعد أن ردَّ على من اعتقد الشرك، وبهما كفرت العرب، فقال:

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾

قلت: (أئذا): ظرف، والعامل فيه محذوف، أى: أُخرج إذا مت، لا المتأخر عن اللام؛ لأنه لايعمل ما بعدها فيما قبلها، إلا أن يرخص فى الظروف. واللام فى «لَسَوْفَ» ليست للتأكيد، فإنه مُنْكِرٌ، وكيف يحقق ما ينكر، وإنما كلامه حكاية لكلام النبى ﷺ، كأنه الذى قال: والله إن الإنسان إذا مات لسوف يُخرج حيًا، فأنكر الكافر ذلك وحكى قوله، فنُزلت الآية على ذلك، قاله الجرجانى: و(الشياطين): عطف على ضمير المنصوب، أو مفعول معه. و(جثثياً): حال من ضمير (لنحضرنهم) البارز، أى: لنحضرنهم جاثين، جمع جاث، من جثى إذا قعد على ركبتيه، وأصله: «جثوو» بواوين، فاستثقل اجتماعهما بعد ضمتين، فكسرت الثاء تخفيفاً، وانقلبت الواو الأولى ياء؛ لانكسار ما قبلها، فاجتمعت واو وياء، وسبقت إحداهما بسكون، فقلبت الواو ياء، وأدغمت الأولى فى الثانية، ومن قرأ بكسر الجيم: فعلى الإتْبَاعِ.

و«أيُّهم»: مبنى عل الضم عند سيبويه، لأنه موصول، فحقه البناء كسائر الموصولات، لكنه أعرب فى بعض التراكيب للزوم الإضافة، فإذا حذف صدْرُ صِلَتِه زاد نقصُه فقوى شبه الحرف فيه، وهو منصوب المحل بلننزعن، وقرئ منصوباً على الإعراب، ومرفوعاً عند الخليل وغيره بالابتداء، وخبره: «أشد»، والجملة محكية، والتقدير: لننزعن من كل شيعة الذين يُقال لهم أيهم أشد... الخ. وقال يونس: علق عنها الفعل وارتفعت بالابتداء، و(عتيًا) و(صليًا) أصلهما: عتوى وصلوى، من عتى وصلى، بالكسر والفتح، فاعلاً بما تقدم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ويقول الإنسانُ ﴾ أى: جنس الإنسان، والمراد الكفرة، وإسناد القول إلى الكل لوجود القول فيما بينهم، وإن لم يقله الجميع، كما يقال: بنو فلان قتلوا فلاناً، وإنما القاتل واحد، وقيل: القائل: أُبىٌّ بن خلَف، فإنه أخذ عظامًا بالية، ففتتها، وقال: يزعم محمد أنا نُبعث بعد ما نموت ونصير إلى هذا الحال، فنزلت. أى: يقول بطريق الإنكار والاستبعاد: ﴿ أئذا ما متُّ لسوف أُخرج حيًا ﴾ أى: أأبعث من الأرض بعد ما مِتُّ وأُخرج حياً؟ قال تعالى: ﴿ أولا يذْكُرُ الإنسانُ ﴾، من الذِّكر الذى يُراد به التفكر، ولذلك قُرِىء بالتشديد من

التذكير. والإظهارُ فى موضع الإضمار؛ لزيادة التقرير والإشعار بأن الإنسانية من دواعى التفكر فيما جرى عليها من شؤون التكوين، فإذا ترك التفكر التحق بالبهائم، فهلاّ يذكر أصله!، وهو ﴿ أنا خلقناه من قبلُ ﴾ أى: من قبل الحالة التى فيها، وهى حالة حياته، ﴿ ولم يكُ شيئاً ﴾ أى: والحال أنه لم يك شيئاً أصلاً، وحيث خلقناه وهو فى تلك الحال فلأن نبعث الجمع بتفرقاته أولى وأظهر؛ لأن الإعادة أسهل من البدء.

قال تعالى: ﴿ فوربك لنحشرنهم ﴾ أى: لنجمعنهم بالسّوق إلى المحشر بعدما أخرجتهم من الأرض. وإقسامه سبحانه بربوبيته مضافة إلى ضميره ـ عليه الصلاة والسلام؛ لتحقيق الأمر، والإشعار بعلّيته، وتفخيم شأنه، ورفع منزلته ﷺ، وفيه إثبات البعث بالطريق البرهانى على أبلغ وجه وآكده، كأنه أمر واضح غنى عن التصريح به، وإنما المحتاج إلى البيان ما بعد ذلك من الأهوال، أى: حيث ذكر الحشر وما بعده. ولم يصرح بنفس البعث؛ لتحقق وضوحه، وإنما قال: ﴿ فوربك لنحشرنهم ﴾ أى: نجمعهم ﴿ والشياطينَ ﴾ المغوين لهم، إلى المحشر، وقيل: إن الكفرة يُحشرون مع قرنائهم من الشياطين التى كانت تغويهم، كل منهم مع شيطانه فى سلسلة، ﴿ ثم لنحُضِرنّهم حول جهنم جثيا ﴾: باركين على ركبِهم؛ لما يدهمُهم من هول المطلع، والجثو: جلسة الذليل الخائف.

والآيــة كمــا ترى، صريحة فى الكفرة، فهم الذين يُساقون من الموقف إلى شاطىء جهنم، جُثاة؛ إهانة بهم، أو لعجزهم عن القيام لما اعتراهم من شدة الخوف. وأما قوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾(١) فهى عامة للناس فى حال الموقف قبل التواصل إلى الثواب والعقاب، فإن أهل الموقف جاثون على الرُكب، كما هو المعتاد فى مقام التقاول والخصام، قلت: ولعل هذا فيمن يُناقش الحساب، وأما غيرهم فيلقى عليهم سحابة كنفه، ثم يقررهم بذنوبهم ويسترهم، كما فى الحديث.

﴿ ثم لننْزِعَنّ من كل شيعةٍ ﴾ أى: من كل أمة تشيعت ديناً من الأديان، ﴿ أيُهم أشدُ على الرحمن عِتيـاً ﴾ أى: من كان منهم أعصى وأعتى، فيطرحهم فيها. قال ابن عباس: أى: أيهم أشد جرأة، وقال مجاهد: فجوراً وكذباً، وقال مقاتل: علواً، أو غلواً فى الكفر، أو كبراً، وقال الكلبى: قائدهم ورأسهم، أى: فيبدأ بالأكابر فالأكابر بالعذاب، ثم الذى يليهم جرماً. وفى ذكر الأشدية تنبيه على أنه تعالى يعفو عن بعض أهل العصيان من غير الكفرة، إذا قلنا بعموم الآية، وأما إذا خصصناها بالكفرة، فالأشدية باعتبار التقديم للعذاب.

قال تعالى: ﴿ ثم لنَحنُ أعلمُ بالذين هم أولى بها صِليّـاً ﴾ أى: أولى بصليها وأحق بدخولها، وهم المنتزعون الذين هم أشدهم عتواً، أو رؤوسهم، فإن عذابهم مضاعف لضلالهم وإضلالهم.

(١) الآية ٢٨ من سورة الجاثية .

﴿ وإن منكم إلا واردُها ﴾ ، فيه التفات لإظهار مزيد الاعتناء، وقرىء: «وإن منهم». ويحتمل أن يكون الخطاب لجميع الخلق، أي: وإن منكم أيها الناس ﴿ إلا واردها ﴾ أي: واصلها وحاضرها، يمرُّ بها المؤمنون وهي خامدة، وتنهار بغيرهم. وعن جابر أنه ﷺ سُئل عن ذلك فقال: «إذَا دَخلَ أهْلُ الجنّةِ الجنّةَ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أليسَ قَدْ وعدنَا ربُّنا أنْ نَرِدَ النّارَ؟ فيَقَالُ لَهُمْ: قَدْ وَرَدْتُمُوهَا وَهِيَ خَامِدَةٌ». وأما قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ فالمراد به الإبعاد عن عذابها، وقيل: ورودها: الجواز على الصراط بالمرور عليها.

وعن ابن مسعود: الضمير في (واردها) للقيامة، وحينئذ فلا يعارض: ﴿ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾(1)، ولا ما جاء فيمن يدخل الجنة بغير حسابٍ، ولا مرور على الصراط، فضلاً عن الدخول فيها، على أنه اختلف في الورود، فقيل: الدخول وتكون برداً وسلاماً على المؤمن. وقيل: المرور كما تقدم، وقيل: الإشراف عليها والاطلاع. قال القشيري: كلٌ يَرِدُ النارَ، ولكن لا ضيرَ منها ولاإحساس لأحدٍ إلا بمقدار ما عليه من السيئات، والزلل، فأشدُّهم فيها انهماكاً: أشدهم فيها بالنار اشتعالاً واحتراقاً، وأما بريء الساحة، نقي الجانب بعيد الذنوب، فكما في الخبر: «إن النار عند مرورهم ربوة كربوة اللَّبَن - أي: جامدة كجمود اللبن حين يسخن - فيدخلونها ولايحسون بها، فإذا عبروها قالوا: أليس قد وعدنا جهنم على الطريق؟ فيقال لهم: عبرتم وماشعرتم» . هـ.

﴿ كان على ربك حتماً مقضياً ﴾ أي: كان وُرودهم إياها أمراً محتوماً أوجبه الله تعالى على ذاته، وقضى أنه لابد من وقوعه. وقيل: أقسم عليه، ويشهد له: «إلا تحلة القسم»(2).

﴿ ثم نُنـجّي الذين اتقـوا ﴾ الكفرَ والمعاصي، بأن تكون النار عليهم برداً وسلاماً، على تفسيرالورود بالدخول، وعن جابر أنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «الوُرُودُ الدُّخُولُ، لايَبْقَى بَرٌّ ولافَاجِرٌ إلاّ دخلَهَا، فَتَكُونُ علَى المُؤْمنِينَ بَرْدَاً وسَلاَمًا، كَمَا كَانَتْ علَى إبْرَاهِيم، حتّى إنّ للنّارِ ضَجِيجاً مِنْ بَرْدِهِمْ»(3). وإن فسرنا الورود بالمرور، فنجاتهم بالمرور عليها والسلامة من الوقوع فيها، ﴿ ونذرُ الظالمين فيها جثياً ﴾ : باركين على ركبهم، قال ابن زيد: الجثي شر الجلوس، لايجلس الرجل جاثياً إلا عند كرب ينزل به. هـ.

---

(1) من الآية ١٠١ من سورة الأنبياء.

(2) يقصد حديث: «لايموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار، إلا تحلة القسم» أخرجه البخاري في (الأيمان والنذر، باب قول الله تعالى: «وأقسموا بالله جهد أيمانهم») ومسلم في (البر والصلة، باب: فضل من يموت له ولد فيحتسبه).

(3) أخرجه أحمد في المسند (٣/٣٢٩) والحاكم في المستدرك (الأهوال ٤/٥٨٧)، والبيهقي في الشعب (١/٣٣٦)، من حديث جابر ابن عبدالله. والحديث: صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع (٧/٥٥): رواه أحمد، ورجاله ثقات.

الإشارة: من أراد كرامة الآخرة فَلْيُرَبِّ يقينه فيها، حتى تكون نصب عينيه، فإنه يرد على الله كريماً. ومن أراد السلامة من أهوالها فليخفف من أوساخها وأشغالها، ويلازم طاعة الله واتباع الرسول ﷺ. ومن أراد سرعة المرور على الصراط فليلزم اليوم اتباع الصراط المستقيم، فبقدر ما يستقيم عليها تستقيم أقدامه على الصراط، وبقدر ما يزل عنها يزلُّ عن الصراط.

قال في الإحياء، لما تكلم على العدل في الكيل والوزن، قال بعد كلامه: وكل مكلف فهو صاحب موازين في أفعاله وأقواله وخطراته، فالويل له إن عدل عن العدل، ومال عن الاستقامة، ولولا تعذُّر هذا واستحالته لما ورد قوله تعالى: (وإن منكم إلا واردها..) الآية، فلا ينفك عبدٌ ليس معصوماً عن الميل عن الاستقامة، إلا أن درجات الميل تتفاوت تفاوتاً عظيماً، فبذلك تتفاوت مدة إقامتهم في النار إلى أوان الخلاص، حتى لايبقى بعضُهم إلا بقدر تحلة القسم، ويبقى بعضهم ألفاً وألوف سنين، نسأل الله تعالى أن يقربنا من الاستقامة والعدل، فإن الاستداد على متن الصراط المستقيم من غير ميل عنه غير مطموع فيه؛ فإنه أدق من الشعرة، وأحدّ من السيف، ولولاه لكان المستقيم عليه لايقدر على جواز الصراط الممدود على متن النار، الذي من صفته أنه أدق من الشعر، وأحدَ من السيف، وبقدر الاستقامة على الصراط المستقيم يخف مرور العبد يوم القيامة على الصراط. هـ.

وقال الترمذي الحكيم: يجوز الأولياء والصديقون وهم لايشعرون بالنار، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾(١)، وإنما بعُدوا عنها لأن النور احتملهم واحتوشهم، فهم يمضون في النار، حتى إذا خرجوا منها قال بعضهم لبعض: أليس قد وُعدنا النار، فذكر ما تقدم. ثم قال: فأما ضجة النار فمن بردهم، وذلك أن الرحمة باردة تطفيء غضب الرب، فبالرحمة نالوا النور، حتى أشرق في قلوبهم وصدورهم، فكان نوره في قلوبهم، والرحمة مظلة عليهم، فخمدت النار من بردهم عندما لقُوها، فضجت من أجل أنها خلقت منتقمة، فخافت أن تضعف عن الانتقام. ولذلك رُوى أنها تقول: «جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورُك لهبي» .(٢) هـ.

وقال الورتجبي: إذا كان جمال الحق مصحوبهم، فلا بأس بالوقوف في النيران، فإن هناك أهل الجنان.

إذا نزلت سـلمى بواد فماؤها زلال وسَلسال، وسيحانها ورْدُ. هـ.

وقال جعفر الصادق: لولا مقاربة النفوس ما دخل أحد النار، فلما فارقتهم نفوسهم أوردهم النار بأجمعهم، فمَنْ كان أشد إعراضا عن خبث النفس كان أسرع نجاة من النار، ألا ترى الله يقول: (ثم نُنجي الذين اتقوا). هـ. قلت.

(١) من الآية ١٠١ من سورة الأنبياء.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٩/٣٢٩)، والخطيب في تاريخ بغداد (٥/١٩٤)، والطبراني في الكبير، وابن عدى في الكامل، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وفي سنده: سليم بن منصور بن عمار، وهو ضعيف، انظر: مجمع الزوائد (١٠/٣٦٠)، وكشف الخفاء (١/٣٧٣ - ٣٧٤).

وقد تقدم أن من لاحساب عليهم - وهم المقربون - يمرون على الصراط ولايحسون به، وهم الذين يمرون عليه كالطير أو كالبرق، جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه، وبجاه خير الخلق مولانا محمد نبيه وحبه، آمين.

ثم ذكر أحوال من سقط في جهنم ويبقى فيها جثياً، فقال:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَـٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾

قلت: «هم أحسن»: صفة لِكَمْ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **وإذا تُتلى عليهم** ﴾؛ على الكفرة ﴿ **آياتُنا** ﴾ الناعية عليهم فظاعة حالهم ووخامة مآلهم، والناطقة بحسن عاقبة المؤمنين، حال كونها ﴿ **بينات** ﴾: واضحات في نفسها، أو بينات الإعجاز، أو بينات المعاني، ﴿ **قال الذين كفروا** ﴾ أي: قالوا، ووضع الموصول موضع الضمير؛ للتنبيه على أنهم قالوا ما قالوا كافرين بما يُتلى عليهم رادين له، أو: قال الذين تمرّدوا في الكفر والعتو؛ وهم النضْر بن الحارث وأتباعه، قالوا ﴿ **للذين آمنوا** ﴾، اللام للتبليغ، أي: قالوا مبلغين الكلام لهم، وقيل: لام الأجل، كقوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ** ﴾[1] أي: لأجلهم وفي حقهم، والأول أولى؛ لأن الكلام هنا كان معهم بدليل قوله: ﴿ **أيُّ الفريقين** ﴾ أي: المؤمنين والكفار، ﴿ **خيرٌ** ﴾ كأنهم قالوا: أينا ﴿ **خيرٌ مقاماً** ﴾ أي: مكاناً: نحن أو أنتم، وقرىء بالضم، أي: موضع إقامة ومنزل، ﴿ **وأحسنُ ندِيّاً** ﴾؛ مجلساً ومجتمعاً، أو: أينا خير منزلاً ومسكناً، وأحسن مجلساً؟.

يُروى أنهم كانوا يُرجلون شعورهم ويدهنونها، ويتزينون بالزينة الفاخرة، ثم يقولون ذلك لفقراء المؤمنين، يريدون بذلك أن خيريتهم، حالاً، وأحسنيتهم، مقالاً، مما لايقبل الإنكار، وأنّ ذلك لكرامتهم على الله سبحانه وزلفاهم عنده، وأنّ الحال التي عليها المؤمنون ؛من الضرورة والفاقة ورثاثة الحال؛ لقصور حظهم عند الله. وما هذا القياس العقيم والرأى السقيم إلا لكونهم جهلةً لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، وذلك مبلغهم من العلم، فردَّ عليهم بقوله: ﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قَرْنٍ هم أحسنُ أثاثا** ﴾: مالاً ومتاعا ﴿ **ورِءْياً** ﴾؛ منظراً، أي: كثيراً من القرون التي كانوا أفضل منهم، فيما يفتخرون به من الحظوظ الدنيوية، كعاد وثمود وأضرابهم العاتية قبل هؤلاء،

(١) الآية ١١ من سورة الأحقاف.

أهلكناهم بفنون العذاب، ولو كان ما آتيناهم لكرامتهم علينا، لما فعلنا بهم ما فعلنا، وفيه من التهديد والوعيد ما لايخفى، كأنه قيل: فلينتظر هؤلاء أيضاً مثل ذلك.

و«أثاثا»: تمييز، وهو متـاع البيت، أو ما جد منه، و«رءْياً»: كذلك، فعْل من الرؤية بمعـنى المنظر، قال ابن عزيز: «رءيا» بهمزة ساكنة: ما رأيت عليه من شارة حسنة وهيئة، وبغير همز: يجوز أن يكون على معنى الأول[1]، ويجوز أن يكون من الريّ. أي: منظرهم مُرتو من النعمـة. وَزِيًّا، بالزاى المعجمـة، في قراءة ابن عباس، يعني هيئة ومنظرا. هـ.

الإشارة: رفعة القدر والمقام لاتكون بالتظاهر بمفاخر اللباس والطعام، ولا بحسن الهيئة ومنظر الأجسام، وأنما يكون باحتظاء القلوب بمعرفة الله، وتمكين اليقين من القلوب، واطلاعـها على أسرار الغيوب، مع القيام بوظائف العبودية، أدباً مع عظمة الربوبية، ونسيان النفوس والاشتغال عنها بالعكوف في حضرة القدوس، فأهل القلوب لايعبأون بظواهر الأشباح، وإنما يعتنون بحياة الأرواح.

كمـل حقيقتـك التي لم تَكْمُـلِ والجسم دعه في الحضيض الأسفل

فقوت قلوبهم التواجد والأذكار، وحياة أرواحهم العلوم والأسرار، وأنشدوا:

بالقوت إحيـاءُ الجسـوم، وذكره تحيـــا به الألبـاب والأرواح

هو عيشـهم ووجـودهم وحـياتهم حقـــاً ورَوْح نفوســـهم والرَّاح.

وأما من عَظُمَ جهلُه، وكَثُفَ حجابه، فإنما ينظر إلى بهجة الظواهر وتزيينها بأنواع المفاخر، أو إلى من عظم جاهه وكثرت أتباعه، وهذه نزعة جاهلية، حيث قالوا حين يتلى عليهم الوعظ والتذكير: (أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا)، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾[2]. وبالله التوفيق.

ثم ذكر الحق تعالى مدد الفريقين؛ أهل الضلال وأهل الإيمان، فقال:

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾

(١) أي: هو مهموز الأصل، أي: منظراً ، من الرؤية، سهلت همزته بإبدالها ياء، ثم أدغمت الياء في الياء.
(٢) الآية ٧ من سورة الروم.

قلت : «ويزيد» : عطف على «فليمدد» ؛ لأنه فى معنى الخبر، أى: من كان فى الضلالة يمده الله فيها، ويزيد فى هداية الذين اهتدوا مدداً لهدايتهم، أو عطف على «فسيعلمون»، وجمع الضمير فى (رأوا) وما بعدها؛ باعتبار معنى (مَنْ)، وأفرد أولاً باعتبار لفظها.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد: ﴿ **مَنْ كان** ﴾ مستقراً ﴿ **فى الضلالة** ﴾ مغموراً فى الجهل والغفلة عن عواقب الأمور، مشتغلاً بالحظوظ الفانية، ﴿ **فليَمْدُدْ له الرحمنُ مَداً** ﴾ أى: يمد له بطول العمر وتيسير الحظوظ، إما استدراجاً، كما نطق به قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا** ﴾(١)، أو قطعاً للمعاذير كما نطق به قوله تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ** ﴾(٢)، أو: (فليمدد له): يدعه فى ضلاله، ويمهله فى كفره وطغيانه، كقوله تعالى: ﴿ **وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾(٣). والتعرض لعنوان الرحمانية؛ لبيان أن أفعالهم من مقتضيات الرحمة مع استحقاقهم تعجيل الهلاك.

وكأنه جل جلاله لما بيّن عاقبة الأمم المهلَكة، مع ما كان لهم من التمتع بفنون الحظوظ العاجلة، أمر رسوله ﷺ أن يجيب هؤلاء المفتخرين بما لَهُم من الحظوظ بمآل أمر الفريقين، وهو استدراج أهل الضلالة ثم أخذهم، وزيادة هداية أهل الإيمان ثم إكرامهم، كما بيّن ذلك بقوله: ﴿ **حتى إذا رأوا ما يُوعدون** ﴾، فهو غاية للحد الممتد، أى: نمد لهم فى الحياة وفنون الحظوظ حتى ينزل بهم ما يوعدون؛ ﴿ **إمَّا العذابَ** ﴾ الدنيوى بالقتل، والأسر، وغلبة أهل الإيمان عليهم، ﴿ **وإما الساعةَ** ﴾، وهو يوم القيامة وما ينالهم فيه من الخزى والهوان، و«إما» هنا: لمنع الخُلو، لا لمنع الجمع؛ فإن العذاب الأخروى لا ينفك عنهم بحال.

﴿ **فسيعلمون** ﴾ حينئذ ﴿ **من هو شرٌّ مكانًا** ﴾ من الفريقين، بأن يشاهدوا الأمر على عكس ما كانوا يُقدّرون، فيعلمون أنهم شر مكاناً، لا خير مقاماً، ﴿ و ﴾ يعلمون أنهم ﴿ **أضعفُ جنداً** ﴾ أى: جماعة وأنصاراً، لا أحسن ندِيّاً، كما كانوا يدعونه، وليس المراد أن لهم يوم القيامة جنداً سيضعف، وما كان له من فئة ينصرونه من دون الله، وإنما ذكر ذلك رداً لما كانوا يزعمون أن لهم أعواناً وأنصاراً، يفتخرون بهم فى الأندية والمحافل، فردٌّ ذلك بأنه باطل وظل آفل، ليس تحته طائل.

ثم ذكر فريق أهل الإيمان فقال:﴿ **ويزيدُ اللهُ الذينَ اهتدوا هُدىً** ﴾ أى: كما يمد لأهل الضلالة؛ زيادة فى ضلالهم، كذلك يزاد فى هداية أهل الهداية؛ ثواباً على طاعتهم؛ لأن كلا يجزى بوصفه، فلا تزال الهداية تنمو فى

(١) من الآية ١٧٨ من سورة آل عمران.
(٢) من الآية ٣٧ من سورة فاطر. (٣) من الآية ١١٠ من سورة الأنعام.

قلوبهم حتى يردوا موارد الكرم، أمَّا في الدنيا فبكشف الحجاب وانقشاع السحاب حتى يشاهدوا رب الأرباب، فما كانوا يؤمنون به غيباً صار عيانا، وأمَّا في الآخرة فبنعيم الحور والقصور، ورؤية الحليم الغفور.

فقد بيَّن الحق تعالى حال المهتدين إثر بيان حال الضالين، وأن إمهال الكافر وتمتيعه بالحظوظ ليس لفضله، وأن منع المؤمن من تلك الحظوظ ليس لنقصه، بل قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا الفانية، وقوم ادخرت لهم طيباتهم للحياة الباقية، قال تعالى: ﴿ **والباقياتُ الصالحاتُ** ﴾ ؛ كأنواع الطاعات، ﴿ **خيرٌ عند ربك** ﴾ ؛ لبقاء فوائدها ودوام عوائدها.. وقد تقدم تفسيرها(١).

والتعرض لعنوان الربوبية والإضافة إلى ضميره ﷺ لتشريفه، أي: فهي أفضل ﴿ **ثواباً** ﴾ أي: عائدة مما يتمتع به الكفرة من النعم الفانية، التي يفتخرون بها؛ لأن مآلها الحسرة السرمدية والعذاب الأليم، ومآل الباقيات الصالحات النعيم المقيم في دار الدوام، كما أشير إليه بقوله: ﴿ **وخيرٌ مَرَدّاً** ﴾ أي: مرجعاً وعاقبة، وتكرير الخير لمزيد الاعتناء بشأن الخيرية وتأكيد لها في التفضيل، مع أن ما للكفرة بمعزل من أن يكون له خيرية في العاقبة، ففيه نوع تهكم بهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الحق ـ جل جلاله ـ يرزق العبد على قدر نيته، ويمده على قدر همته، فمن كانت همته في الحظوظ العاجلة والشهوات الفانية، أمده الله فيها، ومتعه بها ما شاء، على حسب القسمة، ثم أعقبه الندم والحسرة، ومن كانت همته الآخرة، أمده سبحانه في الأعمال التي تُوصله إلى نعيمها، كصلاة وصيام وصدقة وتدريس علم، وأذاقه من حلاوتها ما يُهون عليه مرارتها، ثم أعقبه النعيم الدائم من القصور والحور، وأنواع الطيبات، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

ومن كانت همته الله ـ أي: الوصول إلى حضرته دون شيء سواه ـ أمده الله في الأعمال التي توصله إليه، وهي أعمال القلوب؛ من التخلية والتحلية، كالتخلية من الرزائل والتحلية بالفضائل، وكقطع المقامات بأنواع المجاهدات، ورأس ذلك أن يُوصله إلى شيخ كامل جامع بين الحقيقة والشريعة، بين الجذب والسلوك، قد سلك الطريق على شيخ كامل، فإذا وصله إليه وكشف له عن سر خصوصيته فليستبشر بحصول المطلب وبلوغ الأمل. وبالله التوفيق.

ثم ذكر بعض من مدّ له في الضلالة وخصه بزيادة ضلالته، فقال:

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾

(١) راجع تفسير الآية ٤٦ من سورة الكهف.

يقول الحق جل جلاله في حق العاص بن وائل: ﴿ **أفرأيت الذى كفر بآياتنا** ﴾: القرآن المشتمل على البعث والحساب، قال خبَّاب بن الأرَت: كان لي على العَاص بن وائل دَيْنٌ، فاقْتَضَيْتُه، فقَالَ: لاَ، والله لا أَقْضِيكَ حتى تَكْفُرَ بمُحَمَّدٍ، فقُلْتُ: لاَ والله لا أكْفُرُ بمُحَمَّدٍ حتَّى تَمُوتَ ثم تُبعثَ، قال العاص: فإذا متُّ ثم بُعثتُ، جئتني وسيكون لي ثَمَّ مالٌ وولدٌ، فأعطيك، لأنكم تزعمون أن في الجنة ذهباً وفضة - استهزاء واستخفافًا - وفي رواية البخاري: «**كُنت قَيْنًا**(١) **في الجاهلية، فصنعتُ للعاصي سيفًا فجئتُ أتَقَاضَاه...**»(٢) **فذكر الحديث. فالهمزة للتعجيب من حاله، للإيذان بأنها من الغرابة والشناعة بحيث يقضي منها العجب، والفاء للعطف على مقدر** يقتضيه المقام، أي: أنظرت فرأيت الذى كفر بآياتنا الباهرة التي من حقها أن يؤمن بها كل من شاهدها.

﴿ **وقال** ﴾ مستهزءاً بها، مصدرًا باليمين الفاجرة: والله ﴿ **لأُوتَيَنَّ** ﴾ في الآخرة ﴿ **مالاً وولداً** ﴾ أي: انظر إلى حاله فتعجب من حالته البديعة وجرأته الشنيعة، ﴿ **أطَّلَع الغيبَ** ﴾ أي: أبلغ من عظمة الشأن إلى أن يرتقي إلى علم الغيب، الذي استأثر به العليم الخبير، حتى ادعى أن يؤتى في الآخرة مالاً وولداً، وأقسم عليه، ﴿ **أم اتخذ عند الرحمن عَهْداً** ﴾ بذلك، فإنه لايتوصل إلى العلم بذلك إلا بأحد هذين الطريقين، وهذا رد لكلمته الشنعاء، وإظهار لبطلانها إثر ما أشير إلى التعجب منها.

والتعرض لعنوان الرحمانية للإشعار بعلّية الرحمة للإيتاء، فإن الرحمة تقتضي الإعطاء على الدوام. والعهد: قيل: كلمة الشهادة، أو العمل الصالح، فإن وعده تعالى بالثواب عليها كالعهد، قال القشيري: ﴿ **أطَّلَع الغيبَ** ﴾ فقال بتعريف له منا، ﴿ **أم اتخذ عند الرحمن عهداً** ﴾ أي: ليس الأمر كذلك. ثم قال: ودليل الخطاب يقتضي أن المؤمن إذا أمَّلَ من الله شيئاً جميلاً، فالله تعالى يحققه له؛ لأنه على عهد مع الله تعالى، والله لا يُخلف الميعاد. هـ.

ثم أبطل ما أمله الكافر فقال: ﴿ **كلا** ﴾ أي: انزجر عن هذه المقالة الشنيعة، فهو ردع له عن التفوه بتلك العظيمة، وتنبيه على خطئه، قال تعالى: ﴿ **سنكتبُ ما يقول** ﴾ أي: سنظهر ما كتبنا عليه، فهو كقول الشاعر:

إذَا ما انْتَسَبْنَا لَمْ تَلِدْني لَئِيمَةٌ

أي: تبين أني لم تلدني لَئِيمَةٌ، أو: سنحفظ عليه ما يقول فنجازيه عليه في الآخرة، أو سننتقم منه انتقام من كتب جريمةً في الحال ويجازي عليها في المآل، فإن نفس الكتابة لم تتأخر عن القول لقوله تعالى: ﴿ **ما يَلْفِظُ من قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾(٣) قال ابن جزي: إنما جعله مستقبلاً؛ لأنه إنما يظهر الجزاء والعقاب في المستقبل. هـ.

---

(١) القيْن: الحدّاد والصانع، والجمع أقيان وقيون. انظر اللسان (قين ٥/٣٧٩٨).

(٢) أخرجه البخاري في (البيوع. باب ذكر القين والحدّاد)، وفي (تفسير سورة مريم)، ومسلم في (صفات المنافقين وأحكامهم، باب ٤).

(٣) الآية ١٨ من سورة ق.

قلت: والظاهر إنما أبرزه بصورة المستقبل، تنبيهاً على عدم نسخه، وأنه ماض نافذ. قاله في الحاشيه.

﴿ وَنَمُدُّ له من العذاب مَداً ﴾، مكان ما يدعيه لنفسه من الإمداد بالمال والأولاد، أي: نطول له من العذاب ونمد له فيه ما يستحقه، أو نزيد في مضاعفة عذابه، لكفره وافترائه على الله سبحانه، واستهزائه بآياته العظام، ولذلك أكده بالمصدر، دلالةً على فرط الغضب والسخط.

﴿ ونَرِثُه ما يقولُ ﴾، قال مكي: حرف الجر محذوف، أي: نرث منه ما يقول . هـ. والظاهر أن (ما): بدل من الضمير، وهو الهاء، أي: نرث ما يقول وما يدعيه لنفسه اليوم من المال والولد. وفيه إيذان بأنه ليس لما يقول مصداق موجود سوى القول، أي: ننزع منه ما آتيناه، ﴿ ويأتينا ﴾ يوم القيامة ﴿ فرْداً ﴾ لايصحبه مال ولاولد كان له في الدنيا، فضلا أن يؤتى ثَمَّةَ مالا وولداً زائدا. وقال القشيري: فرداً بلا حجة على قوله وقَسَمه: (لأوتين مالاً وولداً)، وذلك منه استهزاء ومحض كفر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يُفهم من الآية أن الانسان إذا آمن بآيات الله وعمل بما أمره الله يكون له عهد عند الله، فإذا تمنى شيئًا أو منّاه غيره لا يخيبه الله، ويتفاوت الناس في العهد عند الله، على قدر تفاوتهم في طاعته ومعرفته، وسيأتي في قوله: ﴿ لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾[1] زيادة بيانه. والله تعالى أعلم.

ثم رد على أهل الضلالة مازعموا، من نفع الأصنام لهم، فقال:

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: واتخذ المشركون الأصنام ﴿ آلهةً ﴾ يعبدونها من دون الله ﴿ ليكونوا لهم عِزاً ﴾ يوم القيامة، ووصلة عنده يشفعون لهم، ﴿ كلا ﴾ لايكون ذلك أبداً، فهو ردع لهم عن ذلك الاعتقاد الباطل، وإنكارٌ لوقوع ما علّقوا به أطماعَهم، ﴿ سيكفرون بعبادتهم ﴾ أي: تجحد الآلهة عبادتَهم لها، بأن يُنطقهم الله تعالى وتقول ما عبدتمونا، أو: سيكفر الكفرة عبادتهم لها حين شاهدوا سوء عاقبة عبادتهم لها، كقوله: ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾[2] ﴿ ويكونون عليهم ضداً ﴾ أي: تكون الآلهة، التي كانوا يرجون أن تكون لهم عزاً، ضداً للعز،

---

(١) الآية ٨٧ من هذه السورة.

(٢) من الآية ٢٣ من سورة الأنعام.

أى: ذلاً وهواناً ؛ لأنهم تعززوا بمخلوق بسخط الخالق، وقد قال ﷺ: «من طلب رضا المخلوق بمعصية الخالق عاد حامده من الناس ذاماً»(١). وتكون عوناً عليهم، وآلة لعذابهم، حيث تجعل وقود النار وحَصَب جهنم، أو تكون الكفرة ضداً وأعداء للآلهة، كافرين بها، بعد أن كانوا يُحبونها كحب الله،ويعبدونها من دون الله، وتوحيد الضد؛ لتوحيد المعنى الذى عليه تدور مضادتهم، فإنهم بذلك كشىء واحد، كقوله عليه الصلاة والسلام: «وهُمْ يدٌ على مَنْ سِواهُمْ»(٢).

وسبب عبادتهم للأصنام تزيين الشيطان، وفَاء بقوله: ﴿ لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾(٣) كما قال تعالى: ﴿ ألم تـر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين ﴾ أى: سلطهم عليهم ومكنهم من إغوائهم، بقوله تعالى: ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم ﴾(٤) الآية.

وهذا تعجيب لرسوله ﷺ مما نطقت به الآيات الكريمة عن هؤلاء الكفرة، العتاة المردة، من فنون القبائح من الأقاويل والأفاعيل، والتمادى فى الغى، والانهماك فى الضلال، والتصميم على الكفر، من غير صارف يلويهم، ولا عاطف يثنيهم، وإجماعهم على مدافعة الحق بعد اتضاحه، وتنبيه على أن جميع ذلك بإضلال الشياطين وإغوائهم، لا أن له مسوغًا فى الجملة، أى: ألم تر ما فعلت الشياطين بالكفرة حتى صدر منهم ما صدر من تلك القبائح والعظائم، وليس المراد تعجيبه عليه السلام من مطلق إرسال الشياطين عليهم، كما يوهمه تقليل الرؤية، بل عما صدر عنهم من حيث إنها من آثار إغواء الشياطين، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿ تَؤُزهُم أزاً ﴾ أى: تغريهم وتهيجهم على المعاصى تهييجًا شديداً، بأنواع الوساوس والتسويلات. فالأز والاستفزاز أخوان، معناهما: شدة الانزعاج، وجملة (تؤزهم): حال مقدرة من الشياطين، أو استئناف وقع جواباً عن صدر الكلام، كأنه قيل: ماذا تفعل بهم الشياطين؟ قال: (تؤزهم أزا).

﴿ فلا تعجلْ عليهم ﴾ بأن يهلكوا حسبما تقتضى جناياتهم ويبيدوا عن آخرهم، وتطهرُ الأرض من فسادهم، ﴿ إنما نعدّ لهم عَدًّا ﴾ أى: لاتستعجل بهلاكهم، فإنه لم يبق لهم إلا أيام وأنفاس قلائل نعدها عداً، ثم نأخذهم أخذاً. والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البزار (كشف الأستار ٤/٢١٨) من حديث السيدة عائشة. وقال الهيثمى فى المجمع: (١٠/٢٢٨): رواه البزار من طريق قطبة بن العلاء عن أبيه، وكلاهما ضعيف . و ورد معنى الحديث عند الترمذى، ولفظه: «من التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه، وأسخط الناس عليه».

(٢) طرف من حديث أخرجه أحمد فى المسند (١/١٢٢) وأبو داود فى: (الديات، باب أيُقاد المسلم بالكافر)، والنسائى فى (القسامة، باب القود بين الأحرار والعبيد) من حديث سيدنا على.

(٣) من الآية ٣٩ من سورة الحجر.

(٤) من الآية ٦٤ من سورة الإسراء ٤٣.

الإشارة: كل من اتخذ شيئاً يتعزز به من دون الله وطاعته انقلب عليه ذُلاً وهواناً، ولذلك قيل: «من تعزز بمخلوق مات عزه» . فإن أردت عزاً لايفنى فلا تتعزز بعز يفنى، وهو التعزز بالمال أو الجاه، أو غير ذلك مما يفنى، وسيأتى عند قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[1] . ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] زيادة بيان. وكما أرسل الحق تعالى الشياطين على الكافرين تزعجهم إلى المعاصى أرسل الملائكة والواردات الإلهية إلى المؤمنين تنهضهم إلى طاعة الله، وتزعجهم إلى السير لمعرفة الله. فالملائكة تحرك العبد إلى الطاعة، والواردات تزعجه إلى الحضرة، تخرجه عن عوائده وتدمغ له من علائقه، وعوائقه، حتى ينفرد لحضرة الحق: وفى الحكم: «الوارد يأتى من حضرة قهار، لأجل ذلك لايصادمه شيء إلا دمغه؛ ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾». وقال أيضا: «متى وردت الواردات الإلهية عليك هدمت العوائد لديك؛ ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها﴾» .

وقال القشيرى على قوله: (تؤزهم أزا) : أى: تزعجهم إزعاجاً، فخاطر الشيطان يكون بإزعاج وظلمة، وخاطر الحقّ يكون برَوْحٍ وسكون، وهذه إحدى الفوارق بينهمـا . هـ. قلت: ومن الفوارق أيضًا: أن خاطر الحق لا يأمر إلا بالخير مع برودة وانشراح فى القلب وسكون وأناة .. وفى الحديث «العجلة من الشيطان، والآناة من الرحمن»[3] . هـ. بخلاف خاطر الشيطان؛ فإنه لا يأمر إلا بالشر، وقد يأمر بالخير إذا كان يجرُّ به إلى الشر، وعلامته أن يكون فيه ظلمة ودَخن وعجلة وبطش، وقد استوفى الكلام عليهم فى النصيحة الكافية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مآل فريق الإيمان وفريق الضلال، فقال:

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾

قلت : (يوم نحشر) : إما ظرف لفعل مؤخر؛ للإشعار بضيق العبارة عن حصره؛ لكمال جماله أو فظاعته، والتقدير: يوم نحشر المتقين إلى الرحمن، ونسوق المجرمين، نفعل بالفريقين مالا يفى به نطاق المقال، أو ظرف لاذكر، و(وفْدا) و(وِرْدا) : حالان.

---

(١) من الآية ١٠ من سورة فاطر.

(٢) من الآية ٨ من سورة المنافقون.

(٣) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (١٠/ ١٠٤) بتقديم وتأخير، من حديث أنس بن مالك، وعزاه فى مجمع الزوائد لأبى يعلى عن أنس، وقال: ورجاله رجال الصحيح.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **يوم نحشرُ المتقين** ﴾: نجمعهم ﴿ **إلى الرحمن** ﴾ أي: إلى ربهم يغمرهم برحمته الواسعة، ﴿ **وَفْداً** ﴾ : وافدين عليه، كما يفد الوفود على الملوك، منتظرين لكرامتهم وإنعامهم. وعن على كرم الله وجهه: (لما نزلت هذه الآية، قلت: يا رسول الله، إنى قد رأيت الملوك ووفودهم، فلم أر وفداً إلا راكبًا، فما وفد الله؟ قال: «يا على؛ إذا حان المنصرَفُ من بين يدى الله، تلقت الملائكة المؤمنين بنُوقٍ بيض، رِحالُهَا وأزِمَّتها الذَهَبُ، على كل مركب حُلة لا تُساويها الدنيا، فيلبس كل مؤمن حلة، ثم يستوون على مراكبهم، فتهوى بهم النوق حتى تنتهى بهم إلى الجنة، فتتلقاهم الملائكة ﴿ **سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾».

﴿ **ونَسُوقُ المجرمين** ﴾ كما تُساق البهائم ﴿ **إلى جهنم وِرْداً** ﴾: عطاشا، فإن من يرد الماء لا يرده إلا للعطش، أو كالدواب التى ترد الماء، أى: يوم نحشر الفريقين نفعل ما نفعل مما لايفى به نطاق العبارة، لما يقع فيه من الدواهى الطامة، أو الكرائم العامة، أو: اذكر يوم نحشر الفريقين، على طريق الترغيب والترهيب.

وقوله تعالى: ﴿ **لا يملكون الشفاعة** ﴾: استئناف مبين لما فيه من الأمور الدالة على هوله، وضمير الواو: إما لجميع العباد المدلول عليهم بذكر الفريقين لانحصارهم فيها، أو إلى المتقين فقط، أو إلى المجرمين.

و(من اتخذ): منصوب على الاستثناء، أو بدل من الواو، أى: لايملك العباد أن يشفعوا لغيرهم إلا من استعد له بالتحلى بالإيمان والتقوى، ففيه ترغيب للعباد فى تحصيل الإيمان والتقوى، المؤدى إلى نيل هذه الرتبة العليا. أولا يملك المتقون الشفاعة إلا شفاعة من اتخذ العهد بالإسلام والعمل الصالح، أو لا يملك المجرمون أن يشفع لهم إلا من كان منهم مسلما، فيشفع فى مثله. فَمَن، على هذا الثالث، بدل من الواو فقط. والأول أحسن؛ لعمومه.

قال ابن مسعود رضي الله عنه : سمعت النبى ﷺ يقول: «أما يَعْجزُ أحدكُم أنْ يتَّخذَ كُلَّ صباحٍ ومَساءٍ عهداً عند الله، يقولُ كُلَّ صبَاحٍ ومسَاءٍ: اللهمَّ فَاطِرَ السمواتِ والأرْض، عالِمَ الغيْبِ والشَّهادة، إنِّى أعْهَدُ إليْكَ فى هذه الحياةِ الدنيا، بأنى أشْهَدُ أنْ لا إله إلاَّ أنت، وَحْدَك لاشريكَ لَكَ، وأنَّ محمَّداً عبْدُك ورسولُك، فلا تكلنى إلى نفسى، فإنكَ إنْ تَكلْنى إلى نفسى تُقرِّبْنى مِنَ الشرِّ وتُباعِدْنى منَ الخيْرِ، وإنّى لا أثِقُ إلاَّ برحْمَتك، فاجْعَلْ لى عنْدكَ عهْداً تُوفِّينيه يَوْمَ القيامَة، إنَّكَ لاتُخْلفُ الميعادَ. فإذا قال ذلكَ طُبِعَ عليْهِ طابَع ووُضِعَ تحْتَ العرْشِ، فإذَا كَانَ يوْمُ القيامَةِ نَادَى مُنادٍ: أيْنَ الذينَ لهُمْ عنْدَ الله عهْدٌ فيدْخُلُون الجنّة». هـ.

الإشارة: ورود العباد على الله يوم القيامة يكون على قدر ورودهم إليه اليوم فى الدنيا، فبقدر التوجه إليه اليوم تعظم كرامة وروده فى الآخرة، فمن ورد على الله تعالى من باب الطاعة الظاهرة حملته صور الطاعات إلى الآخرة، ومن ورد من باب الطاعات القلبية حملته الأنوار إلى الفراديس العالية، ومن ورد من باب الطاعات

السرية- كالفكرة والنظرة فى مقام المشاهدة ـ حمله الحق إلى الحضرة القدسية، فيكون فى مقعد صدق عند مليك مقتدر. قال شيخ شيوخنا، سيدى عبدالرحمن العارف في قوله تعالى: (وفدا): قيل: ركباناً على نجائب طاعتهم، وهم مختلفون، فمن راكب على صور الطاعات، ومن راكب على نجائب الهمم، ومن راكب على نجائب الأنوار، ومن محمول يحمله الحق فى عقباه، كما يحمله اليوم فى دنياه، وليس محمول الحق كمحمول الخلق. هـ.

وقوله تعالى: (لايملكون الشفاعة...) الآية، اعلم أن العهد الذى تكون به الشفاعة يوم القيامة هو الطاعة وتربية اليقين والمعرفة، فتقع الشفاعة لأهل الطاعات على قدر طاعتهم وإخلاصهم، وتقع لأهل اليقين على قدر يقينهم، وهم أعظم من أهل المقام الأول، وتقع لأهل المعرفة على قدر عرفانهم، وهم أعظم من القسمين، حتى إن منهم من يشفع فى أهل عصره كلهم، وقد سَمِعْتُ من شيخنا الفقيه، شيخ الجماعة سيدى التاودى بن سودة، أن بعض الأولياء قال عند موته: يارب شفعنى فى أهل زمانى، فقال له الحق تعالى ـ من جهة الهاتف ـ : لم يبلغ قدرك هذا، فقال: يارب إن كان ذلك من جهة عملى واجتهادى فلَعَمْرِى إنه لم يبلغ ذلك، وإن كان من جهة كرمك وجودك فوعزتك وجلالك لهو أعظم من هذا، فقال له: إنى شفعتك فى أهل عصرك. هـ. بالمعنى. فمن رجع إلى كرم الله وجوده، ودخل من هذا الباب، وجد الإجابة أقرب إليه من كل شيء. وبالله التوفيق.

ثم كرر الرد على أهل الشرك والضلال وشنّع عليهم، فقال:

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾

قلت: «هدًا»: مصدر مؤكد لمحذوف، هو حال من الجبال، أى: تهد هدًا. و«أن دعوا»: على حذف اللام، أى: لأن دعوا، وفيه احتمالات أُخر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقالوا اتخذ الرحمنُ ولداً ﴾ هذه المقالة صدرت من اليهود والنصارى، ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله، لعن الله جميعهم، فسبحان الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، فحكى جنايتهم إثر جناية عَبَدة الأصنام، وعطف القصة على القصة لاشتراكهم فى الضلالة، قال تعالى فى شأنهم: **﴿ لقد جئتم شيئاً إدًّا ﴾** أى: فعلتم أمراً منكراً شَديداً، لايقادر قدره، فهو رد لمقالتهم الباطلة، وتهويل لأمرها بطريق الالتفات

المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب، المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح، وتسجيل عليهم بغاية الوقاحة والجهل. و(جاء) يستعمل بمعنى فعل، فيتعدى تعديته، والإد ـ بكسر الهمزة وفتحها، وقُرئ بهما في الشاذ ـ: العظيم المنكر، الإدُّ: الشدة، قيل: الأدُّ: في كلام العرب: أعظم الدواهي.

ثم وصفه وبيّن هوله فقال: ﴿ تكادُ السمواتُ يتفطَّرنَ منه ﴾: يتشققن مرة بعد أخرى، من عظم ذلك الأمر وشدة هوله، وهو أبلغ من «ينفطرن» كما قرئ به، ﴿ وتنشقُّ الأرضُ ﴾ أي: وتكاد تنشق وتذهب، ﴿ وتخرُّ الجبالُ ﴾ أي: تسقط وتنهدم ﴿ هدًّا ﴾ بحيث لايبقى لها أثر. والمعنى: أن هول تلك الكلمة الشنعاء وعظمها، بحيث لو تصورت بصورة محسوسة، لم يُطق سمعها تلك الأجرام العظام، ولتفتتت من شدة قبحها، أو: إن فظاعتها واستجلاب الغضب والسخط بها بحيث لولا حلمه تعالى، لخر العالم وتبددت قوائمه، غضبًا على من تفوه بها. قال محمد بن كعب: كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة، يعني: لأن ما ذكر أوصاف الساعة.

وذلك ﴿ أن دَعَوا للرحمنِ ولداً ﴾ أي: تكاد تنفطر السموات وتنشق الأرض، وتنهدم الجبال؛ لأجل أن دعوا، أي: نسبوا أو سموا للرحمن ولدا، ﴿ وما ينبغي للرحمنِ أن يتخذَ ولداً ﴾ أي: قالوا اتخذ الرحمن ولداً، أو دعوا له ولداً، والحال أنه مما لايليق به تعالى اتخاذ الولد؛ لاستحالته عليه تعالى. ووضع الرحمن موضع الضمير؛ للإشعار بعلية الحكم؛ لأن كل ما سواه تعالى منعَم عليه برحمته، أونعمة من أثر الرحمة، فكيف يتصور أن يجانس من هو مبدأ النعم ومولى أصولها وفروعها، حتى يتوهم أن يتخذه ولداً، وقد صرح به قوله عز قائلاً: ﴿ إن كل من في السموات والأرض ﴾ أي: ما منهم من أحد من الملائكة أو الثقلين ﴿ إلا آتي الرحمنِ عبداً ﴾؛ مملوكًا لله في الحال بالانقياد وقهرية العبودية. ﴿ لقد أحصاهم ﴾ أي: حصرهم وأحاط بهم، بحيث لايخرج أحد من حيطة علمه، وقبضة قدرته وقهريته، ما وجد منهم وما سيوجد، وما يقدر وجوده لو وجد، كل ذلك في علمه وقضائه وقدره وتدبيره، لاخروج لشيء عنه، وفي ذلك تصوير لقيام ربوبيته على كل شيء، وأنه عالم بكل شيء، جملة وتفصيلاً، ﴿ وكلهم آتيه يومَ القيامة فرداً ﴾ أي: وكل واحد منهم يأتي يوم القيامة فرداً من الأموال والأنصار والأتباع، متفرداً بعمله، فإذا كان شأنه تعالى وشأنهم كذلك فأنى يتوهم احتمال أن يتخذ شيئاً منهم ولداً؟!.

وفي الحديث القدسي: «قال الله تعالى: كذَّبني عبدي، ولم يكن له ذلك، وشتمني عبدي ولم يكن له ذلك، أما تكذيبُه إياي؛ فأن يقولَ: من يُعيدُنا كما بدَأنا؟ وأما شَتمُه إياي؛ فأن يقول: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحدُ الصمدُ، لم ألِد ولم أُولَد، ولم يكن لي كُفواً أحد»[(١)]. وهو في البخاري. وفي صيغة اسم الفاعل في قوله: ﴿آتيه﴾ من الدلالة على إتيانهم كذلك ألبتة ما ليس في صيغة المضارع لو قيل يأتيه. والله تعالى أعلم.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري (في تفسير سورة الإخلاص) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الإشارة: إذا علمت أيها المؤمن أن الحق جل جلاله يغضب هذا الغضب الكلي على من أشرك مع الله، أو اعتقد فيه ما ليس هو عليه من التنزيه وكمال الكمال، فينبغي لك أن تخلص مَشربَ توحيدك من الشرك الجلي والخفي، علماً وعقداً وحالاً وذوقاً، حتى لايبقى في قلبك محبة لشيء من الأشياء ولا خوف من شيء، ولاتعلق بشيء، ولاركون لشيء، إلا لمولاك، وحينئذ يصفى مشرب توحيدك، وتكون عبداً لله خالصاً حراً مما سواه، ومهما بقى فيك شيء من محبة الهوى نقص توحيدك بقدره، ولم تصل إليه مادمت تميل إلى شيء سواه. وفي ذلك يقول الششترى رضي الله عنه:

إنْ تُرِدَ وَصْلَنَا فَمَوْتك شَرْطٌ لا ينَالُ الوِصَالَ مَنْ فِيه فَضْلَه

فكن عبداً لله حقيقة، وانخرط في سلك قوله: ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا ﴾. فحينئذ تكون حراً مما سواه، ويُملكك الوجود بأسره، يكون عند أمرك ونهيك. وفي ذلك يقول القائل:

دَعَـوْنى لملـكهم فلما أجبتهم قالوا دعـوناك للمُلك لا للمِـلك

وإذا فتحت عين القدرة وعين الحكمة وضعت كل شيء في محله، فتتنزه بعين القدرة في رياض الملكوت وبحار الجبروت، وتتنزه بعين الحكمة في بهجة الملك وأسرار الحكمة. فعين القدرة تقول: كل من في السموات والأرض نور من أنوار الرحمن، وسر من أسرار ذاته، وعين الحكمة تقول: كل من في السموات والأرض عبد مملوك تحت قهرية ذاته، فاعرف الضدين، وأنزل كل واحد في محله، تكنْ عارفاً بالله، فإن أردت أن تعرفه بضد واحد بقيت جاهلاً به. فالحكمة تثبت العبودية صورة؛ صوناً لكنز الربوبية، والقدرة تغيبك عنها بشهود أسرار الربوبية، وفي الحكم: «سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية، وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية».

فالعبودية لازمة من حيث العبد، والغيبة عنها واجبة من حيث الرب، فإثبات العبودية، حكمةٌ، فرق، والغيبة عنها في شهود أنوار الربوبية: جمع، فالعارف مجموع في فرقه، مفروق في جمعه.

ولما ذكر قبائح الكفرة أتبعه بذكر محاسن المؤمنين، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾

قلت: لما استحقر الكفرةُ أحوالَ المؤمنين حتى قالوا: ﴿ أينا خير مقاماً وأحسن نديا ﴾، أخبر الله تعا المؤمنين وبشرهم أنهم سيعزهم ويلقى مودتهم في قلوب عباده.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعلُ لهم الرحمنُ ﴾ في قلوب الناس مودة وعطفاً، حتى يحبهم كل من سمع بهم، فيحبهم ويحببهم إلى عباده من أهل السموات والأرض، أي: سيحدث

لهم فى القلوب مودةً من غير تعرض لأسبابها، سوى ما لهم من الإيمان والعمل الصالح، أو ﴿ وُدًّا ﴾ فيما بينهم، فيتحابون ويتواددون ويحبهم الله.

قال القشيرى: يجعل فى قلوبهم ودّاً لله، وهو نتيجة أعمالهم الخالصة، وفى الخبر: «لايزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى يحبنى وأحبه». والتعرض لعنوان الرحمانية؛ لمَا أنَّ الموعود من آثارها، وأن مودتهم رحمة بهم وبمن أحبهم. وعن النبى ﷺ أنه قال لعلىّ رضي الله عنه: «قل اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي عِنْدَكَ عَهْداً، واجعل لِي فى صُدُورِ المؤمنين مَوَدَّةً» فنزلت الآية[1]. وفى حديث البخارى وغيره: «إذا أَحَبَّ اللهُ عبداً قال لجبْرِيل: إنِّي أُحِبُّ فُلاناً فأَحِبَّهُ، فيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادَى فى أَهْلِ السَّمَاءِ إنَّ اللهَ قَدْ أحَبَّ فُلاناً فأَحِبُّوه، فيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يَضع لَهُ المحبة فِي الأَرْض»[2].

وقال قتادة: (سيجعل لهم الرحمن ودا) قال: أى والله وداً فى قلوب أهل الإيمان. وإن هرم بن حيان يقول: ماأقبل عبدٌ بقلبه على الله إلا أقبل الله بقلوب أهل الإيمان إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم. قلت: ولفظ الحديث: «ما أَقْبَلَ عبدٌ بقلْبِه إلى اللهِ عز وجل إلا جَعَلَ اللهُ قلوبَ المؤمنين تَفِدُ إليه بالودِّ والرحمةِ، وكان الله إليه بكل خيرٍ أسْرَعَ»[3]. نقله فى الترغيب. وفى حديث آخر: «يعطى المؤمنُ وداً فى صدور الأبرار، ومهابة فى صدور الفجار». فتَوَدُّد الناس للعبد دليل على قبوله عند مولاه. أنتم شهداء الله فى أرضه. وفى بعض الأثر: «لايموت العبد الصالح حتى يملأ مسامعه مما يُحب، ولا يموت الفاجر حتى يملأ مسامعه مما يكره». بالمعنى.

وأتى الحق جل لجلاله بالسين؛ لأن السورة مكية، وكانوا إذ ذلك ممقوتين عند الكفرة، فوعدهم ذلك، ثم أنجزه لهم حين جاء الإسلام، فعزّوا وانتصروا، وتعشقت إليهم قلوب الخلق من كل جانب، كما هو مسطر فى تواريخهم. وقيل: الموعود فى القيامة، حين تعرض حسناتهم على رؤوس الأشهاد كأنها أنوار الشمس الضاحية[4]، ولعل إفراد هذا بالوعد من بين مالهم من الكرامات السنية؛ لأن الكفرة سيقع بينهم يومئذ تقاطع وتباغض وتضاد. والله تعالى أعلم.

(١) عزاه فى المنثور (٥١٢/٤) لابن مردويه والديلمى، عن البراء.

(٢) أخرجه البخارى فى (بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة)، ومسلم فى (البر والصلة، باب إذا أحب الله عبدا) من حديث أبى هريرة.

(٣) أخرجه الطبرانى فى الأوسط (١٨٦/٥ ح٥٠٢٥) بزيادة فى أوله، من حديث أبى الدرداء، وقال الهيثمى فى المجمع: (٢٤٧/١٠): رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط. وفيه محمد بن سعيد بن حسان المصلوب، وهو كذاب.

(٤) التعبير بالاستقبال بالنسبة إلى الله تحقيق، كالماضى، والحاضر، فليس عند الله زمن كما هو عندنا. والأحسن فى تأويل الآية أن نجعل السين حرف توكيد. والله أعلم.

الإشارة: سُنَّة الله تعالى فى أوليائه، فى حال بدايتهم، أن يُسلط عليهم الخلق، وينزل عليهم الخمول والذل بين عباده، حتى يمقتهم أقرب الناس إليهم، رحمة بهم واعتناء بقلوبهم؛ لئلا تسكن إلى غيره. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى ﷺ: اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا.. إلخ. فإذا تطهروا من البقايا وكملت فيهم المزايا، وتمكنوا من معرفة الحق، أعزهم وألقى مودتهم فى قلوب عباده، هذا دأبه معهم فى الغالب، وقد يحكم على بعضهم بالخمول حتى يلقاه على ذلك، ولا يكون ذلك نقصاً فى حقه بل كمالاً، وهم شهداء الملكوت، لم يأخذوا من أجرهم شيئاً. والله تعالى أعلم.

ولما ختم السورة الكريمة، أمر نبيه ﷺ بتبليغها، فقال:

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾ ﴾

قلت: الفاء لتعليل أمر ينساق إليه النظم الكريم، كأنه قيل- بعد إيحاء السورة الكريمة: بلغ هذا المنزّل عليك، وبشر به، وأنذر؛ فإنما يسرناه.. الخ. قاله أبو السعود.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فإنما يسرناه ﴾ أى: القرآن ﴿ بلسانك ﴾ بأن أنزلناه على لغتك، والباء بمعنى «على»، وقيل: ضمّن التيسيرَ معنى الإنزال، أى: يسرنا القرآن وأنزلناه بلغتك ﴿ لتبشّر به المتقين ﴾ أى: السائرين إلى التقوى بامتثال ما فيه من الأمر والنهى، ﴿ وتُنذرَ به ﴾ أى: تخوف به ﴿ قوماً لُدّاً ﴾ لايؤمنون به، لجاجاً وعنادا، واللُّدُّ: جمع ألَدّ، وهو الشديد الخصومة، اللجوج المعاند.

﴿ وكم أهلكنا قَبْلَهم من قَرنٍ ﴾ أى: كثيراً من القرون الماضية أهلكنا قبل هؤلاء المعاندين، فهو وعد لرسول الله ﷺ بالنصر على الكفرة ووعيد لهم بالهلاك، وحث له ﷺ على الإنذار، أى: دُم على إنذارك لهم، فسيهلكون كما أهلكنا من قبلهم من القرون، ﴿ هل تُحِسُّ منهم من أحدٍ ﴾ أى: هل تشعر بأحد منهم، وترى له من باقية ﴿ أو تَسْمَعُ لهم رِكْزاً ﴾ أى: صوتاً خفيا، هيهات قد انقطع دابرهم وهدأت أصواتهم، وخربت قصورهم وديارهم، وكذلك نفعل بغيرهم، والمعنى: أهلكناهم بالكلية، واستأصلناهم بحيث لايُرى منهم أحد، ولا يسمع لهم صوت خفى ولا جلى. وجملة: (هل تحس) : استئناف مقرر لمضمون ما قبله، وأصل الرِّكز: الخفاء، ومنه: رَكَزَ الرمحَ؛ إذا غيب طرَفه فى الأرض، والرِّكاز: المال المدفون المخفى. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما أنزل الله القرآن وسهله على عباده إلا ليقع به الوعظ والتذكير، فأمر اللهُ رسوله فى حياته بالبشارة والإنذار به، وبقى الأمر لخلفائه، فالواجب على العلماء والأولياء أن يتصدوا للوعظ والتذكير، ولا يكفى عنه تعليم رسوم الشريعة، فإن الوعظ إنما هو التخويف والتبشير، كما قال تعالى: ﴿ لتُبشر به المتقين وتُنذر به قوما لُداً ﴾.

لكن لا يتصدى للوعظ إلا من له نور يمشي به في الناس، فيسبقه نورُ قلبه إلى القلوب المستمعة، فيقع كلامهم في قلوب السامعين. قال في الحكم: «تسبق أنوارُ الحكماء أقوالَهم، فحيثما صار التنوير وصل التعبير». هذا النور هو نور المعرفة الذي هي مقام الفناء، ويشترط فيه أيضا: أن يكون مأذونا له في الكلام من شيخ كامل، أو وحي إلهامي حقيقي، فحينئذ يقع كلامه في مسامع الخلق. وفي الحكم: «من أُذن له في التعبير حسنت في مسامع الخلق عبارته، وجليت إليهم إشارته».

وقال أيضا: «ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار، إذا لم يؤذن لك فيها بالإظهار». وفي أمثال هؤلاء المتصدين للوعظ والتذكير ورد الخبر القدسي: «إنَّ أودَّ الأوِدَّاء إليَّ من يُحببني إلى عبادي، ويُحبب عبادي إليَّ ويمشون في الأرض بالنصيحة».. جعلنا الله من خواصهم بمنّه وكرمه آمين. وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، وسلَّم تسليما.

* * *




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



سورة طه

مكية. وهي مائة وخمس وثلاثون آية. ووجه مناسبتها لما قبلها قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾(1) مع قوله: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾، كأنه يقول: فإنما سهلناه عليك لترتاح به لا لتتعب. ثم افتتحها برموز بينه وبين حبيبه، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾

قلت: عن ابن عباس أن «طه» من أسماء الله تعالى، وقيل: معناه: طوبى لمن هدى، وقيل: ياطاهر يا هادي، فالطاء تشير إلى طهارته ﷺ وتطهيره من دنس الحس، والهاء تشير إلى هدايته في نفسه، وهدايته غيره إلى حضرة القدس.

وروي عنه ﷺ أنه قال: «لي عشرة أسماء..» فذكر أن منها «طه ويس»، وقيل: معناه: طأ الأرض بقدمك؛ لأنه كان يرفع رِجلاً في الصلاة ويضع أخرى في طول تهجده، فأبدل الهمزة ألفاً، والضمير للأرض، ورُد بأنه لو كان كذلك لكُتبت بالألف، فإنّ الكتابة بصورة الحرف مع التلفظ بخلافه من خصائص حروف المعجم. وقيل: معناه: يارجل. وهو مروي عن ابن عباس والحسن ومجاهد وغيرهم، وهو عندهم على اللغة النبطية، أو السريانية(2). قيل: من جعل معنى «طه» يا رجل، لم يقف على طه، وكذا من جعله اسمًا للنبي ﷺ؛ لأن النداء تنبيه على ما بعده، ومن جعلها افتتاحاً، أو على وجه من الوجوه المذكورة في البقرة، وقف عليها، إلا في قول من جعلها قَسَماً، فإنه لا يقف عليها؛ لأن قوله: (ما أنزلنا...) الخ جواب قسم.

---

(1) من الآية 97 من سورة مريم.

(2) انظر تفسير البغوي (5/262)، وزاد المسير (5/269).

قلت: المتبادر من سبب نزولها ومن قوله: (ما أنزلنا): إما القسم أو النداء، فالقَسَم على أن ذلك من أسماء الله، والنداء على كون ذلك بمعنى يارجل، أو من أسمائه ﷺ. وأمّا غير ذلك فبعيد، إلا أن يكون ما بعد ذلك استئنافًا بعد الوقف على «طه». قاله في الحاشية.

و (إلاّ تذكرة): مفعول لأجله. والاستثناء منقطع، أي: ما أنزلناه لتتعب به، لكن أنزلناه للتذكرة والوعظ. و(تنزيلا): مصدر مؤكد لمضمر مستأنف مقرر لما قبله، أي: أنزل تنزيلاً، والأصح: أنه بدل من اللفظ بفعله الناصب له، فلا يجمع بينه وبين المبدل منه، وفيه معنى التأكيد لما قبله، أو هو نص في معناه، وإنما تلون الكلام بالالتفات، أو منصوب على المدح والاختصاص، أو مفعول بيخشى، أو حال من «القرآن»، و(الرحمن): رفع على المدح، وقد عرفت أن المرفوع مدحاً، في حكم الصفة الجارية على ما قبلها، وإن لم يكن تابعاً له في الإعراب، ولذلك ألزموا حذف المبتدأ؛ ليكون في صورة متعلقٍ من متعلقاته. وقرئ بالجر؛ صفةً للموصول، وما قيل من أن الموصولات لا توصف إلا بالذى وحده فمذهب كوفي، أو (الرحمن): مبتدأ، و (على العرش): خبره. و «على»: متعلقة باستوى، قُدمت للفواصل. و (إن تجهر): شرط، والجواب محذوف دل عليه (فإنه ...) الخ، أي: فالله غني عن جهرك، فإنه ... الخ.

يقول الحق جل جلاله؛ تسلية لرسوله ﷺ، أو ترويحاً له من التعب: يا محمد ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ أي: لتتعب نفسك بالمجاهدة في العبادة.

رُوى أنه ﷺ كانَ يقُومُ باللَيل حتّى تَوَرّمَتْ قَدَمَاه، فقال لَهُ جِبرِيلُ عليه السلام: «أبْقِ علَى نَفْسِكَ، فإنَّ لَها علَيْكَ حقّاً». أي: ما أنزلناه عليك لتتعب بنهك نفسك[1] وحملها على الرياضات الشاقة، والشدائد الفادحة، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة. أو: ما أنزلناه لتتعب نفسك في تبليغه بمكابدة الشدائد في مقاومة العتاة ومحاورة الطغاة، وفرط التأسف على كفرهم والتحسر على إيمانهم، كقوله: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[2]، بل للتبليغ، وقد فعلت. وإطلاق الشقاء في هذا المعنى شائع، ومنه قولهم: أشقى من رائض مُهر، وقيل: إن أبا جهل والنضر بن الحارث قالا لرسول ﷺ: إنك شقي، حيث تركت دين آباءك، وما نزل عليك هذا القرآن إلا لتشقى، فردَّ اللهُ ذلك عليهم. والأول أظهر، والعموم أحسن، فإنه نفى عنه جميع الشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿ إلا تذكرةً لمن يخشى ﴾ أي: ما أنزلناه لتتعب، لكن أنزلناه تذكرة وموعظة لمن يخشى الله ـ عز وجل ـ؛ ليتأثر بالإنذار، لرقة قلبه ولين عريكته، أو لمن علِمَ الله أنه يخشى بالتخويف، وتخصيصها بهم مع عموم التذكرة والتبليغ؛ لأنهم المنتفعون بها.

---

(١) أي: إجهاد نفسك.
(٢) الآية ٣ من سورة الشعراء.

﴿تنزيلاً﴾ أي: أنزل تنزيلاً، أو حالَ كَوْنِ القرآن تنزيلاً، أي: منزلاً ﴿ممن خلق الأرض والسموات العلى﴾، ونسبة التنزيل إلى الموصول بعد نسبته إلى نون العظمة بقوله: (ما أنزلنا)؛ لبيان فخامته تعالى بحسب الأفعال والصفات، إثر بيانها بحسب الذات بطريق الإبهام، ثم التفسير لزيادة تحقيق وتقرير. وتخصيص خلقهما بالذكر؛ لتضادهما. وتقديم الأرض لكونه أقرب إلى الحس، ووصف السموات بالعُلى، وهو جمع «عليا»؛ لتأكيد الفخامة مع ما فيه من مراعاة الفواصل. وكل ذلك إلى قوله: (له الأسماء الحسنى)، مسوق لتعظيم المنزل ـ عز وجل ـ المستتبع بتعظيم المنزَّل عليه، الداعي إلى تربية المهابة وإدخال الروعة، المؤدية إلى استنزال المتمردين عن رتبة العتو والطغيان، واستمالتهم إلى الخشية، المفضية إلى التذكير والإيمان.

ثم قال تعالى: ﴿الرحمنُ﴾ أي: هو الرحمن، ووصف تعالى بالرحمانية إثر وصفه بالخالقية؛ للإيذان بأن ربوبيته تعالى، وقيامَه بالأشياء، من طريق الرحمة والإحسان، لا بالإيجاب، وفيه إشارة إلى أن تنزيله القرآن أيضاً من رحمته ـ تعالى ـ، كما ينبئ عنه قوله عز من قائل: ﴿الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾(١). أو: (الرحمن على العرش استوى): مبتدأ وخبر، وجعل الرحمة عنوان الموضوع الذى من شأنه أن يكون معلوم الثبوت للموضوع عند المخاطب؛ للإيذان بأن ذلك أمر بيِّن لا خفاء فيه، غنى عن الإخبار صريحاً. والاستواء على العرش مجاز عن المُلك والسلطان، يقال: استوى فلان على سرير الملك؛ مراداً به ملّك الملك والتصرف، وإن لم يقعد على سرير أصلا، والمراد: تعلق قدرته وقهريته في جميع الكائنات بالتدبير والتصرف التام.

وسُئل أحمد بن حنبل عن الاستواء، فقال: استواء مَنْ غلَبَ وقهر، لا استواء كما يتوهم البشر. وسئل عنه مالك والشافعي ـ رضى الله عنهما ـ فقالا: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والإيمان به واجب، والسؤال عن هذا بدعة وضلالة، آمنوا بلا تشبيه، وصدّقوا بلا تمثيل، وأمسكوا عن الخوض فى هذا كل الإمساك.

وقال الجنيْد رضي الله عنه : خلق الله العرش فوق سبع سموات، وجعله قبلة لدعاء المخلوقات، وقابله بقلب عبده المؤمن، ليكون محلاً للتجليات والتنزلات والمخاطبات. هـ. وقد تقدم الكلام عليها في الأعراف مستوفياً(٢).

﴿له ما فى السموات وما فى الأرضِ﴾، سواء كان ذلك بالجزئية منهما أو بالحلول فيهما، ﴿وما بينهما﴾ من الموجودات الكائنة فى الجو دائما، كالهواء والسحاب، أو أكثريا؛ كالطير، أي: له ذلك وحده دون غيره، لا شركةً ولا استقلالاً، كل ما ذكر هو له؛ ملكاً وتصرفاً، وإحياء وإماتة، وإيجاداً واعداماً، ﴿وما تحت الثرى﴾: وما وراء التراب المتصل بالهوى السفلى. وعن محمد بن كعب: أنه ما تحت الأرضين السبع. وعن السدى: أن

(١) الآيتان: ١ ـ ٢ من سورة الرحمن.
(٢) راجع تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف.

الثرى هو الصخرة التي عليها الأرض السابعة، وذكره مع دخوله تحت مافي الأرض؛ لزيادة التقرير. ﴿ وإن تجهر بالقول ﴾ أي: وإن تجهر بذكره تعالى - أو دعائه، فاعلم أنه تعالى غني عن جهرك؛ ﴿ فإنه يعلم السرَّ وأخفى ﴾ أي: ما أسررته إلى غيرك، وشيئاً أخفى من ذلك، وهو ما أخطرته ببالك، من غير أن تتفوه به أصلاً أو: السر: ما أسررته في نفسك، وأخفى منه: ما ستسره في المستقبل. وهو إمّا نهي عن الحركة، كقوله تعالى: ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾(١) وإما إرشاد للعباد إلى أن الجهر ليس لإسماعه تعالى؛ بل لغرض آخر من تأنيس النفس بالذكر وتثبيته فيها، ومنعها من الاشتغال بغيره، وقطع الوسوسة عنها، وهضمها بالتضرع والجؤار. هذا والغرض من الآية: بيان إحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء، إثر بيان سعة سلطانه وشمول قدرته بجميع الكائنات.

ثم بيَّن الموصوف بتلك الكمالات، فقال: ﴿ الله ﴾ أي: ما ذكر من صفات الكمال، موصوفها الله المعبود بالحق، ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي: لا معبود بحق إلا هو، ولا مستحق للعبادة إلا هو. وهو تصريح بما تضمنه ما قبله من اختصاص الألوهية به سبحانه، فإنَّ ما أسند إليه تعالى من خلق جميع الموجودات، ومن الرحمانية والمالكية للكل، والعلم الشامل، يقتضي اختصاصه تعالى بالألوهية والربوبية، وقوله تعالى: ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ بيان لكون ما ذكر من الخالقية والرحمانية والمالكية والعالمية أسماءه تعالى وصفاته، من غير تعدد في ذاته تعالى؛ فالأسماء والصفات كثيرة، والمسمى والموصوف واحد. و(الحسنى): تأنيث الأحسن، فُعلى، يُوصف به الواحد المؤنث، والجمع المذكر والمؤنث، كـ ﴿ مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾(٢)، و ﴿ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴾(٣). والله تعالى أعلم.

الإشارة: من تأمل القرآن العظيم، وما جاء به الرسول - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - وجده يدل على مايُفضي إلى الراحة دون التعب، وإلى السعادة العظمى دون الشقاء، لكن لا يتوصل إلى الراحة إلا بعد التعب، ولا يُفضي العبد إلى السعادة الكبرى إلا بعد الطلب، فإذا اجتهد العبد في طلب ربه، وكله إلى شيخ ينقله من عمل الجوارح إلى عمل القلوب، فإذا وصل العمل إلى القلب استراحت الجوارح، وأفضى حينئذ إلى رَوْح وريحان، وجنة ورضوان، أعني جنة العرفان. ولذلك قال الشيخ أبو الحسن: «ليس شيخك من يدلك على تعبك، إنما شيخك من يريحك من تعبك»، كما في لطائف المنن.

وقال شيخنا القطب ابن مشيش: وقد سُئل عن قوله ﷺ: «يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا» فقال: دلوهم على الله، ولاتدلوهم على غيره، فإن من دلّك على الدنيا فقد غشك، ومن دلّك على العمل فقد أتعبك، ومن دلّك على الله فقد

(١) من الآية ٢٠٥ من سورة الأعراف. (٢) من الآية ١٨ من سورة طه.
(٣) من الآية ٢٣ من سورة طه.

نصحك.هـ. فإذا دلك على الله غيّبك عن وجود نفسك بشهود ربك، وهى السعادة العظمى، كما تقدم فى سورة هود. فمن اتخذ شيخاً ثم لم ينقله من مقام التعب، ولم يُرحله من مقام إلى مقام، فاعلم أنه غير صالح للتربية.

وقوله تعالى: ﴿ إلا تذكرة لمن يخشى ﴾، قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن العارف: قيل: أنزل اللهُ القرآنَ لتذكير سابق الوصال؛ لأن الأرواح لمّا دخلت الأشباح اكتسبت خشية ووحشة وفرقة عن معادنها، فأنزل الله القرآن تأنيساً؛ لأن المحب يأنس بكتاب حبيبه وكلامه. وقال جعفر الصادق: أنزل اللهُ القرآنَ موعظةً للخائفين، ورحمة للمؤمنين، وأنساً للمحبين. وأيضا: القرآن يُذَكّر عظمة الله الموجبة خشيته، فهو مُذهب للغفلة. ثم قال: وفى الشهود الحاصل بالتذكير رفعُ المشقة، ووجدان الراحة بالطاعة، لكونه يصير محمولاً، وقد قال: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ﴾[1]، أى: لشهودى فيها، وفى ذلك قرة عين، وراحةٌ، وأنس، وتشابه حال المصلى بحال موسى، بجامع النجوى، فلذلك ذكر فى سياقه. والله أعلم.هـ.

وقوله تعالى: ﴿ الرحمنُ على العرش استوى ﴾، تفسيرها هو الذى قصد ابن عطاء الله فى الحِكَم بقوله: «يا من استوى برحمانيته على عرشه، فصار العرش غيباً فى رحمانيته، كما صارت العوالم غيباً فى عرشه، محَقَتَ الآثار بالآثار، ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار. وأنت خبير بأن الرحمانية وصف لازم للذات، والصفة لا تفارق الموصوف، فإذا استوت الرحمانية على العرش وغمرته؛ فقد استوت عليه أسرار الذات وغمرته، وهى أفلاك الأنوار التى أحاطت بالعرش والآثار، ومحت كل شىء، حتى لم يبق إلا الذى ليس كمثله شىء، وليس معه شىء، وهو السميع البصير. وما نسبة حس الآثار بالنسبة إلى أفلاك الأسرار التى استوت عليه إلا كالهباء فى الهواء. والله تعالى أعلم وأعظم.

ثم ذكر قصص موسى عليه السلام، وتسليته لرسوله ﷺ، وعما لقى من التعب فى تبليغ الوحى، فقال:

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ

(١) من الآية ١٤ من سورة طه.

أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾

قلت: قال القشيرى: أجرى الله [سنته][1] فى كتابه أن يذكر قصة موسى فى أكثر المواضع التى يذكر فيها حديث نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتبعه بذكر موسى، تنبيهاً على علو شأنه، لأنه كما أن التخصيص بالذكر يدل على شرف المذكور، فالتكرير فى التفصيل يوجب التفضيل فى الوصف؛ لأن القضية الواحدة إذا أعيدت مراراً كثيرة كانت فى باب البلاغة أتم، ولاسيما فى كل مرة فائدة زائدة. هـ.

قلت: ولعل وجه تناسقهما فى الذكر قرب المنزلة، ومشاركة الصفة، وذلك باعتبار المعالجة وهداية الأمة، فإن أمة موسى عليه السلام كانت انتشرت فلم يقع لنبى هداية على يديه لقومه مثله، إلا لنبينا ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ فإن أمته انتشرت وشاعت مسير الشمس والقمر، وفى حديث البخارى ما يدل على هذا، حين عرضت عليه الأمم ﷺ مرة، فرأى أمة موسى عليه السلام كثيرة، ثم رأى أمته قد سدت الأفق. فانظر لفظه فيه[2].

وقال أبو السعود: المناسبة إنما هى تقرير أمر التوحيد الذى إليه انتهى مساق الحديث، وبيان أنه مستمر فيما بين الأنبياء، كابراً عن كابر، وقد خوطب به موسى عليه السلام، حيث قيل له: ﴿ إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ﴾، وبه ختم عليه السلام مقاله، حيث قال: ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾[3]، ثم ردَّ مناسبة التسلية بأن مساق النظم الكريم إنما هو لصرفه عليه السلام عن اقتحام المشاق. فانظره.

و (هل): لفظة استفهام، والمراد به التشويق لما يخبره به، أو التنبيه. و (إذ رأى): ظرف للحديث؛ لأن فيه معنى الفعل، أو لمضمر مؤخر، أى: حين رأى كان كيت وكيت، أو: لاذكر، أى: اذكر وقت رؤيته.. الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وهل أتاك حديثُ موسى ﴾ أى: قصته فى معالجة فرعون، فإنا سنذكرها لك تسلية وتقريراً لأمر التوحيد، ﴿ إذْ رأى ناراً ﴾ تلمع فى الوادى، وذلك أنه عليه السلام استأذن شعيباً عليه السلام فى

---

(١) مابين المعكوفتين زيادة ليست فى الأصول.

(٢) قال ابن عباس رضي الله عنه: خرج علينا النبى ﷺ يوماً، فقال: عرضت علىّ الأمم، فجعل يمر النبى معه الرجلان، والنبى معه الرهط، والنبى ليس معه أحد، ورأيت سواداً كثيراً سد الأفق، فرجوت أن تكون أمتى . فقيل: هذا موسى وقومه . ثم قيل لى: انظرْ، فرأيت سواداً كثيراً سد الأفق، فقيل لى: انظر هكذا وهكذا، فرأيت سواداً كثيراً سد الأفق، فقيل: هؤلاء أمتك، ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب...، الحديث أخرجه البخارى فى (الطب، باب من لم يرْقِ)

(٣) من الآية ٩٨ من سورة طه.

الخروج إلى أمه وأخيه، فخرج بأهله، وأخذ على غير الطريق، مخافةً من ملوك الشام، فلما وافى وادى طُوى، وهو بالجانب الغربى من الطور، وُلد له ولد في ليلة مظلمة شاتية مثلجة، وكانت ليلة الجمعة، وقد ضل عن الطريق، وتفرقت ماشيته، ولا ماء عنده، فقدحَ النار فلم تُورِ المِقْدَحة.

فبينما هو في ذلك ﴿ إِذْ رأى نارًا ﴾ على يسار الطريق من جانب الطور، ﴿ فقال لأهله امكثوا ﴾ أى: أقيموا مكانكم. أمرهم عليه السلام بذلك؛ لئلا يتبعوه، كما هو المعتاد من النساء. والخطاب للمرأة والخادم والولد، وقيل: لها وحدها، والجمع للتعظيم، ﴿ إنى آنستُ ﴾ أى: أبصرت ﴿ نارًا ﴾، وقيل: الإيناس خاص بإبصار ما يُؤنس به. ﴿ لعلى آتيكم منها بقَبَسٍ ﴾ أى: بشعلة مقتبسة من معظم النار، وهو المراد بالجذوة فى سورة القصص[1]، وبالشهاب القبس، [2] ﴿ أو أجدُ على النار هُدىً ﴾؛ هادياً يدلنى إلى الطريق، فهو مصدر بمعنى الفاعل، و (أوْ) فى الموضعين: لمنع الخلو، لا لمنع الجمع؛ إذ يمكن أن يقتبس من النار ويجد هادياً. ومعنى الاستعلاء فى قوله: ﴿على النار﴾؛ لأن أهلها يستعلون عليها عند الاصطلاء، ولما كان الإيتاء بها غير محقق، صدَّر الجملة بكلمة الترجي.

﴿ فلما أتاها ﴾ أى: النار التى آنسها. قال ابن عباس رضي الله عنه: رأى شجرة خضراء، حفت بها، من أسفلها إلى أعلاها، نارٌ بيضاء، تَتَقدُ كأضوء ما يكون، فوقف متعجباً من شدة ضوئها، رُوى أن الشجرة كانت عوسجة، وقيل: سَمُرَة[3].. بينما هو ينظر، ﴿ نُودى ﴾ فقيل: ﴿ يا موسى إنى أنا ربك ﴾، أو بأنى أنا ربك، وتكرير الضمير؛ لتأكيد الدلالة، وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة. يروى أنه لما نودى ياموسى، قال عليه السلام: مَنْ المتكلم؟ فقال الله عز وجل: (أنا ربك)، فوسوس إليه الخاطر: لعلك تسمع كلام شيطان، قال: فلما قال: (إننى أنا)، عرفت أنه كلام الله عز وجل. قيل: إنه سمعه من جميع الجهات بجميع الأعضاء.

ثم قال له: ﴿ فاخلعْ نعليك ﴾؛ لأنه أليق بحسن الأدب، ومنه أخذ الصوفية ـ رضى الله عنهم ـ خلع نعالهم بين يدى المشايخ والأكابر، وقيل: ليباشر الوادى المقدس بقدميه، ومنه يؤخذ تعظيم المساجد، بخلعها ولو طاهرة، وقيل: إن نعليه كانتا من جلد حمار غير مدبوغ. وقيل: النعلين: الكونين، أى: فرغ قلبك من الكونين إن أردت دخول حضرتنا. وقوله تعالى: ﴿ إنك بالوادِ المقدَّس ﴾: تعليل لوجوب الخلع، وبيان لسبب ورود الأمر بذلك. رُوى أنه عليه السلام خلعهما وألقاهما وراء الوادى، و« طُوى»: بدل من الوادى، وهو اسم له. وقُرأ منوناً؛ لتأوله بالمكان، وغير المنون؛ لتأوله بالبقعة.

---

(١) فى قوله: ﴿لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون﴾، من الآية ٢٩ من سورة القصص.
(٢) فى قوله: ﴿سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب؛ قبس لعلكم تصطلون﴾، من الآية ٧ من سورة النمل.
(٣) انظر تفسير الطبرى (١٦/١٤٣)، والبغوى (٤/٢٦٥).

﴿ وأنا اخترتُك ﴾ أي: اصطفيتُكَ للنبوة والرسالة، وقرأ حمزة: (وإنَّا اخترناك) بنون العظمة، ﴿ فاستمع لما يُوحى ﴾ أي: للذي يُوحى إليك، أو لوحينا إليك، وهو: ﴿ إنني أنا الله لا إله إلا أنا ﴾، فالجملة بدلَ من «ما».

﴿ فاعبدني ﴾؛ أفردني بالعبادة والخضوع، والفاء لترتيب ما بعدها على ماقبلها، فإن اختصاص الألوهية به سبحانه من موجبات تخصيص العبادة به تعالى. ﴿ وأقم الصلاة لذكرى ﴾: لتذكرني فيها؛ لاشتمالها على الأذكار، وأُفردت بالذكر، مع اندراجها في الأمر بالعبادة؛ لفضلها على سائر العبادات؛ لما نيطت به من ذكر المعبود، وشغل القلب واللسان بذكره، فإنَّ الذكر كما ينبغي لا يتحقق إلا في ضمن العبادة.

أو «لذكرى»: لإخلاص ذكرى وابتغاء وجهي، بحيث لا تُرائي بها غيرى. وقيل: لذكرى إياها، وأمرى بها في الكتب، أو لأن أذكرك فيها بالمدح والثناء، وقيل: لأوقات ذكرى، وهي مواقيت الصلوات، وقيل: لذكر صلاتي إذا نسيتها، لما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال: «مَنْ نَامَ عَنْ صَلاَةٍ، أَوْنَسِيَها، فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا؛ لأنَّ اللهَ تَعالى يقُول: ﴿وأقم الصلاة لذكرى﴾»(١).

قال بعضهم: [أصول العمل ثلاثة](٢): أقوال وأفعال وأحوال، فأفضل الأقوال: لا إله إلا الله، وأفضل الأفعال: الصلاة لله أو بالله، وأفضل الأحوال: الطمأنينة بشهود الله.

﴿ إن الساعةَ آتيةٌ ﴾: كائنة لا محالة، وهو تعليل لوجوب العبادة وإقامة الصلاة، وإنما عبَّر بالإتيان؛ تحقيقاً لحصولها، بإبرازها في معرض أمر محقق متوجه نحو المخاطبين. ﴿ أكادُ أُخفيها ﴾ أي: لا أظهرها، بأن أقول: آتية فقط، فلا تأتي إلا بغتة، أو أكاد أظهرها بإيقاعها، مِنْ أخفاه، إذا أظهره، فأخفى ـ على هذا ـ من الأضداد. وردّه ابن عطية، فإن الذي بمعنى الظهور هو: «خفى» الثلاثي، لا «أخفى». وقال الزمخشري: قد جاء في بعض اللغات: أخفى بمعنى خفى، أي: ظهر، فلا اعتراض.

ونقل الثعلبي عن ابن عباس وأكثر المفسرين أن المعنى: أكاد أخفيها عن نفسي، فكيف عن غيرى؟ وكذلك هو في مصحف أُبي، وفي مصحف عبد الله: فكيف يعلمها مخلوق، وفي بعض القراءات: وكيف أظهرها لكم؟ قال قطرب: فإن قيل: كيف يُخفي الله تعالى عن نفسه، وهو خلّق الأشياء؟ قلنا: إن الله تعالى كلم العرب بكلامهم الذى يعرفونه. انظر بقية كلامه.

---

(١) أخرجه بنحوه: البخاري في (مواقيت الصلاة، باب من نسى صلاة فليصل إذا ذكرها)، ومسلم في (المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة، واستحباب تعجيل قضائها)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) مابين المعكوفتين: مشتبه في المخطوطة الأم، وغير موجود في غيرها.

وظهور علاماتها لا يزيل إخفاءها. قال ابن عرفة في تفسيره: وإذا ظهرت عند وقوع الأشراط لم ينسلخ عنها معنى الخفاء المتقدم، غاية الأمر أنها بذكر الأشراط وسط بين الإخفاء والإظهار، فتكون مقاربة لكل واحد منهما.هـ.

وقوله تعالى: ﴿ لتُجزى كلُّ نفس بما تسعى ﴾ متعلق بآتية، أو بأُخفيها ـ على معنى: أظهرها، لتُجزى كل نفس بسعيها، أي: بعملها خيراً كان أو شراً. ﴿ فلا يَصُدَّنك عنها ﴾ أي: عن ذكر الساعة ومراقبتها والاستعداد لها ﴿ من لا يؤمن بها ﴾ حتى تكسلَ عن التزود لها. والنهي ـ وإن كان بحسب الظاهر متوجهاً للكافر عن صد موسى عليه السلام ـ لكنه في الحقيقة نهي له عليه السلام عن الانصداد عنها، على أبلغ وجه، فإنّ النهي عن أسباب الشيء المؤدية إليه نهي عنه بالطريق البرهاني، كقوله تعالى: ﴿ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ﴾(١)، أي: لا تتبع في الصد عنها من لا يؤمن بها ﴿ واتَّبعَ هواه ﴾ أي: ما تهواه نفسه من اللذات الفانية، ﴿ فتَرْدَى ﴾: فتهلك؛ فإنّ الإغفال عنها، وعن تحصيل ما يُنجي من أهوالها، مستتبع للهلاك لا محالة. وبالله التوفيق.

الإشارة: وهل أتاك أيها العارف حديث موسى، كيف سار إلى نور الحبيب، ومناجاة القريب، إذ رأى ناراً في مرأى العين، وهو نورُ تَجلّي الحبيب بلا بيْن، فقال لأهله ومن تعلق به: امكثوا، أقيموا في مقام الطلب، واصبروا وصابروا ورابطوا على قلوبكم، في نيل المُطَّلَب، إني آنست ناراً، وهو نور وجه الحبيب في مرائي تجلياته، وهذا مقام الفناء، لعلي آتيكم منها بقبس، تقتبسون منه أنواراً لقلوبكم وأسراركم. أو أجد على النار هدى يهديني إلى مقام البقاء والتمكين، فلما أتاها، وتمكن من شهودها، نودي يا موسى: إني أنا ربك، فلا نار ولا أثر، وإنما وجه الحبيب قد تجلى وظهر، في مرأى الأثر، فاخلع نعليك، أي: اخرج عن الكونين إن أردت شهود حضرة المكون، كما قال القائل:

واخلع النعلين، إن جئتَ إلى ذلك الحي؛ ففيه قدسنا

وعن الكونين كن منخلعـا وأزل ما بيننا من بيْننا

إنك بالواد المقدس، أي: بحر حضرة القدس ومحل الأنس، قد طويت عنك الأكوان، وأبصرت نور الشهود والعيان، وأنا اخترتك لحضرتي، واصطفيتك لمناجاتي، فاستمع لما يوحى إليك مني، فأنا الله لا إله إلا أنا وحدي، فإذا تمكنت من شهودي، فانزل لمقام العبودية؛ شكراً، وأقم الصلاة لذكري، إن الساعة آتية لا محالة، فأُكرم مثواك، وأُجل منصبك، وأرفعك مع المقربين، فلا يصدنك عن مقام الشهود أهلُ العناد والجحود، فتسقط عن مقام القرب والأنس، وتصير في جوار أهل حجاب الحس، ولعل هذا المنزع هو الذي انتحى ابنُ الفارض، حيث قال في كلام له:

---

(١) من الآية ٨٩ من سورة هود.

آنستُ في الحيِّ ناراً ... ليلاً فبشَّرتُ أهلي
قُلتُ: امكُثُوا، فلعلي ... أجدُ هُداي، لعلِّي
دنوتُ منها فكانتْ ... نارالتكلم قبلي
نوديتُ منها كفاحاً: ... رُدُّوا ليالي وَصْلي
حتى إذا ما تدانَى الـ ... ـميقاتُ في جَمْعِ شَملي
صارتْ جِبالِيَ دكاً ... منْ هَيبةِ المُتَجلِّي
ولاحَ سرٌّ خفيٌّ ... يدرِيهِ مَنْ كانَ مِثْلي
فالموتُ فيهِ حياتي ... وفي حياتِيَ قَتْلي
وصِرتُ مُوسَى زَمَاني ... مذ صار بَعْضِيَ كُلي

قوله: «صارت جبالي دكا»، أي: جبال وجوده، فحصل الزوال من هيبة نور المتجلي، وهو الكبير المتعال. وهذا إنما يكون بعد موت النفس وقهرها، فإنها حينئذ تحيا بشهود ربها، حياة لا موت بعدها. وقوله: «مذ صار بعضي كلي»، يعني: إنما حصلت له المناجاة والقرب الحقيقي حين فنيت دائرة حسه، فاتصل جزء معناه بكل المعنى المحيط به، وهو بحر المعاني المفنى للأواني. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مكالمته مع كليمه عليه السلام، فقال:

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ﴾

قلت: (وما): استفهامية، مبتدأ، و (تلك): خبر، أو بالعكس، فما: خبر، وتلك: مبتدأ، وهو أوفق بالجواب. و(بيمينك): متعلق بالاستقرار؛ حالاً، أي: وما تلك، قارةً أو مأخوذة بيمينك، والعامل معنى الإشارة. وقيل: (تلك): موصولة، أي: وما التي هي بيمينك، والاستفهام هنا: إيقاظ وتنبيه له عليه السلام على مما سيبدو له من العجائب، وتكرير النداء؛ لزيادة التأنيس والتنبيه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ ، إنما سأله؛ ليريه عظيم ما يفعل بها؛ من قلْبها حية، فمعنى السؤال: تقريره على أنها عصى، ليتبين له الفرق بين حالها قبل قلبها وبعده، وقيل: إنما سأله ليؤنسه وينبسط معه، فأجابه بقوله: ﴿ هي عَصَايَ ﴾ ، نسبها لنفسه تحقيقاً لوجه كونها بيمينه، رُوى أنها كانت عصا آدم عليه السلام ، فأعطاها له شعيب، حين قدمه لرعي غنمه، على ما يأتي في سورة القصص. وكان في رأسها شُعبتان، وفي أسفلها سنان، واسمها نبعة، في قول مقاتل(١) .

﴿ أتوكأ عليها ﴾ أي: أعتمد عليها إذا مشيت، وعند الإعياء، والوقوف على رأس قطيع الغنم، ﴿ وأهشُّ ﴾ أي: أخبط ﴿ بها ﴾ الورق من الشجر؛ ليسقط ﴿ على غنمي ﴾ فتأكله. وقرئ بالسين، وهو زجر الغنم، تقول العرب: هَس هَس، في زجرها، وعداه بعلي؛ لتضمنه معنى الإقبال والتوجه. ﴿ ولِيَ فيها مآرِبُ أُخرى ﴾ أي: حاجات أخرى من هذا الباب. قال ابن عباس: كان موسى عليه السلام يحمل عليها زاده وسقاءه، فجعلت تأتيه وتحرسه، ويضرب بها الأرض فتخرج ما يأكل يومه، ويركز بها فيخرج الماء، فإذا رفعها ذهب، وكان يرد بها عن غنمه ونعمه الهوام بإذن الله، وإذا ظهر له عدو حاربت وناضلت عنه، وإذا أراد الاستسقاء من البئر أدْلاَهاَ، فطالت على طول البئر وصارت شعبتاها كالدلو فيستقى بها، وكان يظهر على شعبتيها كالشمعتين بالليل فيستضئ بها، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فتغصّنت غصن تلك الشجرة وأورقت وأثمرت. فهذه المآرب(٢) .

وكأنه عليه السلام فهم أن المقصود من السؤال بيان حقيقتها، وتفصيل منافعها بطريق الاستقصاء، فلذلك أطنب في كلامه، فلما بدت منها خوارق بديعة علِمَ أنها آية باهرة ومعجزات قاهرة، وأيضاً: الإطناب في مناجاة الأحباب محمود.

﴿ قال ﴾ له تعالى: ﴿ ألْقِهَا يا موسى ﴾ لترى من شأنها ما لم يخطر ببالك، قيل: إنما أُمِر بإلقائها؛ قطعاً للسكون إليها، لِمَا كان فيها من المآرب، وبالغ الحق تعالى في ذلك بقلبها حية، حتى خاف منها، وحين قطعه عنها، وأخرجها من قلبه ،بالفرار منها ردها إليه بقوله: ﴿خذها ولا تخف﴾؛ ﴿ فألقاها ﴾ على الأرض ﴿ فإذا هي حيةٌ تَسْعَى ﴾ ، رُوى أنه عليه السلام ألقاها فانقلبت حية صفراء، في غلظ العصا، ثم انتفخت وعظمت، فلذلك شبهت بالجان تارة، وبالثعبان مرة أخرى، وعبَّر عنها هنا بالاسم العام للحالين، وقيل: انقلبت من أول الأمر ثعباناً، وهو أليق بالمقام، كما يفصح عنه قوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾(٣) ، وإنما سميت بالجان في الجلادة وسرعة المشي، لا في صغر الجثة. وقيل: الجان عبارة عن ابتداء حالها، والثعبان عن انتهائه.

---

(١) انظر تفسير البغوى (٥/٢٦٨) .
(٢) قال الحافظ ابن كثير عن هذه المآرب: الظاهر أنها ـ أي: العصا ـ لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه السلام صيرورتها ثعباناً، فما كان يفرّ منها هارباً، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية، انظر: تفسير ابن كثير (٣/١٤٥) .
(٣) من الآية ١٠٧ من سورة الأعراف

﴿ قال ﴾ تعالى: ﴿ خُذها ﴾ ياموسى، ﴿ ولا تخفْ ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: انقلبت ثعباناً ذكراً، يبتلع كل شيء من الصخر والشجر، فلما رآه كذلك خاف ونفر، ولحقه ما يلحق البشرعند مشاهدة الأهوال من الخوف والفزع، إذ لايلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية. ﴿ سنعيدُها سِيرَتَها الأولى ﴾ أى: سنعيدها، بعد الأخذ، إلى حالتها الأولى التى كانت عليها عصا، قيل: بلغ عليه السلام عند ذلك من الثقة وعدم الخوف إلى حيث كان يدخل يده فى فمها «ويأخذ بلَحْيَيْهَا». فلما أخذها عادت عصا، وحكمة قلبها وأخذها هنا؛ ليكون معها على ثقة عند مخاصمة فرعون، وطمأنينةٍ من أمره، فلا يعتريه شائبة دهش ولا تزلزل. والسيرة: فعلة من السير، يجوز بها إلى الطريقة والهيئة، وانتصابها على نزع الخافض.

ثم أراه معجزة أخرى، فقال: ﴿ واضممْ يدكَ إلى جناحك ﴾ أى: أدخلها تحت عضدك، فجناح الإنسان: جنباه، مستعار من جناح الطير، ﴿ تخرجْ بيضاءَ ﴾: جواب الأمر، أى: إن أدخلتها تخرج بيضاء شعاعية، ﴿ من غير سُوءٍ ﴾ أى: حال كونها كائنة من غير عيب بها؛ كبرص ونحوه. رُوى أنه عليه السلام كان ادم اللون، فأخرج يده من مدرعته بيضاء، لها شعاع كشعاع الشمس، تضيء حال كونها ﴿ آيةً أخرى ﴾ أى: معجزة أخرى غير العصا، ﴿ لنُرِيَكَ من آياتنا الكبرى ﴾ أى: فعلنا مافعلنا، لنريك بعض آياتنا العظمى، أو: لنريك الكبرى من آياتنا. قال ابن عباس: «كانت يد موسى أكبر آياته». والله تعالى أعلم.

الإشارة: يقال للفقير: وما تلك بيمينك أيها الفقير؟ فيقول: هى دنياى أعتمد عليها فى معاشى وقيام أمورى، وأُنفق منها على عيالى، ولى فيها حوائج أخرى؛ من الزينة والتصدق وفعل الخير، فيقال له: ألقها من يدك أيها الفقير، واخرج عنها، أو أخرجها من قلبك إن تيسر ذلك مع الغيبة عنها، فألقاها وخرج عنها، فيلقيها، فإذا هى حية كانت تلدغه وتسعى فى هلاكه وهو لا يشعر. فلما تمكن من اليقين، وحصل على غاية التمكين، قيل له: خذها ولا تخف منها، حيث رفضت الأسباب، وعرفت مسبب الأسباب، فاستوى عندك وجودها وعدمها، ومنعها وإعطاؤها، سنعيدها سيرتها الأولى، تأخذ منها مأربك، وتخدمك ولا تخدمها. يقول الله تعالى: «يادنياى، اخدمى من خدمنى، وأتبعى من خدمك» (١).

وأما قوله تعالى فى حديث آخر مرفوعًا: «تمررى على أوليائى ولا تحلو لهم فتفتنهم عنى»(٢) فالمراد بالمرارة: ما يصيبهم من الأهوال والأمراض وتعب الأسفار، وإيذاء الفجار وغير ذلك. وقد يلحقهم الفقر الظاهر شرفاً لهم، لقوله صلى الله عليه وسلم: «الفقر فخرى وبه أفتخر»(٣). أو كما قال عليه السلام إن صح. وقال شيخنا البوزيدى رضي الله عنه:

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادى فى تاريخه (٨/٤٤) عن ابن مسعود مرفوعاً. وقال الشوكانى فى الفوائد (ص/٢٣٨): «وفى إسناده الحسن بن داود والحديث موضوع». والحديث فى الإتحاف السنية (٢٥٧) للديلمى مختصراً.
(٢) أخرجه البيهقى فى الشعب (ح ٩٨٠٠) بنحوه ومطولاً عن قتادة بن النعمان، وقال البيهقى: لم نكتبه إلا بهذا الإسناد، وفيه مجاهيل. والحديث فى الإتحافات (٢٥٨) للديلمى.
(٣) قال القارى فى الأسرار المرفوعة (ص ٢٥٥، ح ٣٢٠) «قال الحافظ ابن حجر: موضوع لا أصل له».

الحديث الأول: في الصالحين المتوجهين من أهل الظاهر، والثاني ـ يعني تمرري..الخ ـ في الأولياء العارفين من أهل الباطن. هـ. ويقال له أيضا ـ إن تجرد وألقى الدنيا من يده وقلبه: اضمم يدَ فكرتك إلى قلبك، تخرج بيضاء نورانية صافية، لا تخليط فيها ولا نقص، هي آية أخرى، بعد آية التجريد والصبر على مشاقه.

وقال في اللباب: اليد: يدَ الفكر، والجيب: جيب الفهم، وخروجها بيضاء بالعرفان. هـ. قال الورتجبي: أرى الله موسى من يده أكبر آية، وذلك أنه ألبس أنوار يد قدرته يد موسى، فكان يدُ موسى يدَ قدرة الله، من حيث التخلق والاتصاف، كما في حديث: «كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً» .هـ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر ابتداء رسالة موسى عليه السلام، فقال:

﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَٰرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) ﴾

قلت: (هارون): مفعول أول، و(وزيرا): مفعول ثان، قُدِّم؛ اعتناء بشأن الوزارة، و (لِي): صلة، لاجعل، أو متعلق بمحذوف؛ حال من (وزيرا)؛ لأنه صفة له في الأصل. و (من أهلي): إما صفة وزيراً، أو صلة لاجعل، وقيل: إن (لي وزيراً): مفعولا اجعل، و (هارون): عطف بيان لوزير. و (أخي) في الوجهين: بدل من هارون، أو عطف بيان آخر.

يقول الحق جل جلاله، لنبيه موسى عليه السلام: ﴿ اذهبْ إلى فرعونَ ﴾ بما رأيته من الآيات الكبرى. وادعه إلى عبادتي وحدي، وحذره من نقمتي، ﴿ إنه طغى ﴾ أي: جاوز الحد في التكبر والعتو والتجبر، حتى تجاسر على دعوى الربوبية. ﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام مستعيناً بربه عز وجل: ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ أي: وسعه حتى لا يضيق بحمل أعباء الرسالة، ﴿ ويسِّرْ لي أمري ﴾ أي: سهّله حتى لا يصعب عليَّ شيء أقصده. والجملة استئنافية بيانية، كأن سائلاً قال: فماذا قال عليه السلام، حين أُمر بهذا الأمر الخطير والخطب العسير؟ فقيل: قال رب اشرح لي صدري...الخ.

كأنه، لما أُمر بهذا الخطاب الجليل، تضرع إلى ربه الجليل، وأظهر عجزه وضعفه، وسأل ربه تعالى أن يوسع صدره، ويفَسَح قلبه، ويجعله عليماً بشؤون الناس وأحوالهم، حليماً صفوحاً عنهم، ليلتقي ما عسى أن يرد عليه من

الشدائد والمكاره، بجميل الصبر وحسن الثبات، فيلقاها بصدر فسيح، وجأش رابط، وأن يسهل عليه مع ذلك أمره، الذي هو أجلّ الأمور وأعظمها، وأصعب الخطوب وأهولها، بتيسير الأسباب ورفع الموانع. وفي زيادةكلمة (لي)، مع انتظام الكلام بدونها، تأكيد لطلب الشرح والتيسير؛ بإبهام المشروح والميسّر أولاً، ثم تفسيرهما ثانياً، وفي تقديمهما وتكريرهما: إظهار مزيد اعتناء بشأن كل من المطلوبين، و فضل اهتمام باستدعاء حصولهما.

ثم قال: ﴿ واحْلُلْ ﴾ أي: امشط وافسح ﴿ عقدة من لساني ﴾، رُوي أنه كان في لسانه رتة من أثر جمرة أدخلها فاه في صغره. وذلك أنه كان في حجر فرعون ذات يوم، فلطمه ونتف لحيته، فقال فرعون لآسية امرأته: هذا عدو لي، فقالت آسية: على رسلك، إنه صبي لا يفرق بين الجمر والياقوت، ثم جاءت بطستين في أحدهما الجمر، وفي الآخر الياقوت، فأخذ جبريل بيد موسى فوضعها على النار، حتى رفع جمرة ووضعها على لسانه، فبقيت له رتة في لسانه، واختلف في زوال العقدة بكمالها؛ فمن قال به تمسك بقوله تعالى: ﴿ قال قد أوتيت سؤلك ياموسى ﴾، ومن لم يقل به احتج بقول: ﴿ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾(٢)

وأجاب عن الأول: بأنه لم يسأل حلّ عقدة لسانه بالكلية، بل حلّ عقدة تمنع الإفهام، فخفف بعضها لدعائه، لا جميعها، ولذلك نكّرها ووصفها بقوله: ﴿ من لساني ﴾ أي: عقدة كائنة من عقد لساني﴿ يفقهوا قولي ﴾ أي: إن تحل عقدة لساني يفقهوا قولي.

﴿ واجعل لي وزيراً ﴾ أي: مُعيناً ومقوياً ﴿ مِنْ أهلي هارونَ أخي ﴾؛ ليعينني على تحمل ما كلفتني به من أعباء التبليغ. ﴿ أُشدد به أزري ﴾ أي: قوِّ به ظهري، ﴿ وأشركه في أمري ﴾؛ واجعله شريكاً لي في أمر الرسالة، حتى نتعاون على أدائها كما ينبغي، ﴿ كي نُسبحك كثيراً ﴾، هو غاية للأدعية الثلاثة الأخيرة، من قوله: (واجعل لي وزيراً...) الخ، ولاشك أن الاجتماع على العبادة والذكر سبب في دوامهما وتكثيرهما. وفي الحديث: «يد الله مع الجماعة»(٣)، ولذلك ورد الترغيب في الاجتماع على الذكر: والجمع في الصلاة؛ ليقوى الضعيف بالقوي، والكسلان بالنشيط، وقيل: المراد بكثرة التسبيح والذكر ما يكون منها في تضاعيف أداء الرسالة ودعوة المردة العتاة، لأنه هو الذي يختلف في حالتي التعدد والانفراد، فإن كُلاً منهما يصدر منه، بتأييد الآخر، من إظهار الحق، مالا يصدر منه حال الانفراد. والأول أظهر.

و﴿كثيراً﴾: وصفٌ لمصدر أو زمن محذوف، أي: ننزهك عما لا يليق بجلالك وجمالك، تنزيهاً كثيراً، أو زمناً كثيراً، ومن جملة ذلك: ما يدعيه فرعونُ الطاغية، وتقبله منه الفئة الباغية من ادعاء الشرك في الألوهية.

---

(١) من الآية ٣٤ من سورة القصص. (٢) من الآية ٥٢ من سورة الزخرف.
(٣) أخرجه الترمذي في (الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة)، من حديث ابن عباس ﷺ، وقال الترمذي: حديث حسن.

﴿ ونذكُرَك ﴾؛ بأن نصفك بما يليق بك من صفات الكمال، ذكراً ﴿ كثيراً، إنكَ كنت بنا بَصيراً ﴾ أى: عالماً بأحوالنا، وبأن ما دعوناك به مما يصلحنا ويقوينا على ما كلفتنا من أداء الرسالة، و (بنا): متعلق ببصيرا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: فإذا انخلعت أيها الفقير عن الكونين، وألقيت عصاك بوادى البيْن، فاذهب إلى فرعون نفسك ووجود حسك، إنه طغى عليك، حيث حجبك عن شهود ربك، فلا حجاب بينك وبين ربك، إلا حجاب نفسك، ووقوفك مع شهود حسك، فهو أكبر الفراعين فى حقك، فاهدم وجوده، وأَغْرِقْ فى بحرالحقيقة شهودَه، وذلك بالغيبة عنه فى شهود مولاه، فإذا تعسر الأمر عليك فاستعن بمولاك، وقل: اللهم اشرح لى صدرى، ووسعه لمعرفتك، ويسر لى أمرى فى السير إلى حضرة قدسك، واحلل عقدة الكون من قلبى ولسانى، حتى لا أعقد إلا على محبتك، ولا أتكلم إلا بذكرك وشكرك، كما قال الشاعر:

فإن تكلمتُ لم أنطق بغيركم وإن صَمَتُّ فأنتم عقْدُ إضمارى.

واجعل لى وزيراً من أهلى، وهو شيخى، أشدد به أزرى، وأشركه فى أمرى، حتى يتوجه بكلية همته إلى سرى، كى ننزهك تنزيهاً كثيراً، بحيث لا نرى معك غيرك، ونذكرك كثيراً، بحيث لا نفتر عن ذكرك بالقلب أو الروح أو السر، إنك كنت بنا بصيرا. قال الورتجبى: قوله تعالى: (اذهب إلى فرعون..) الخ، لما علم موسى مراد الحق منه بمكابدة الأعداء، والرجوع من المشاهدة إلى المجاهدة، سأل من الحق شرح الصدر، وإطلاق اللسان، وتيسير الأمر، ليطيق احتمال صحبة الأضداد ومكابدتهم. ثم قال: فطلب قوة الإلهية وتمكيناً قادرياً بقوله: (رب اشرح لى صدرى)، عرف مكان مباشرة العبودية أنها حق الله، وحق الله فى العبودية مقام امتحان، وفى الامتحان حجاب عن مشاهدة الأصل، فخاف من ذلك، وسأل شرح الصدر، أى: إذا كنتُ فى غين الشريعة عن مشاهدة غيب الحقيقة، اشرح صدرى بنور وقائع المكاشفة، حتى لا أكون محجوباً بها عنك. ألا ترى إلى سيد الأنبياء والأولياء صلوات الله عليه، كيف أخبر عن ذلك الغين، وشكى من صحبة الأضداد فى أداء الرسالة، بقوله: «إنه ليغان على قلبى فاستغفر الله فى اليوم سبعين مرة» هـ. وفيه مقال[1]، إذ هو غين أنوار لا غين أغيار، فتأمله. والله تعالى أعلم.

ثم أجاب الحق جل جلاله سؤاله، فقال:

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ

(١) بل فيه مقالات، فالشريعة يستحيل أن تكون غيناً، والله تعالى يقول فيها ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها﴾ ويقول: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا..﴾. ويقول: ﴿وكذلك جعلناه نوراً﴾ فشريعته روح ونور.

يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ﴾

قلت: (مرة): منصوب على الظرفية الزمانية، وأصله: فعلة، من المرور، اسم للمرور الواحد، ثم شاع فى كل فرد واحد من أفراد أمثاله، ويقرب منها الكرة والرجعة. و (إذْ): ظرف لمننا، و (أنِ اقذفيه): مفسرة، أو مصدرية، و(يأخذه): جواب «أن اقذفيه». و(لتُصنع): متعلق بألقيتُ، عطف على علة مضمرة، أى: ليتعطف عليك ولتربى على حفظى ورعايتى. و(إذ تمشى): ظرف (لتصنع) على أن المراد وقت مشيها إلى بيت فرعون، وما يترتب عليه من القول والرجع إلى أمه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قال ﴾ الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ قد أوتيت سُؤْلك ﴾ أى: أعطيت مسؤولك، وبلغنا لك مأمولك فى كل ما طلبت منا. والإيتاء، هنا، عبارة عن تعلق الإرادة بوقوع تلك المطالب وحصولها، وإن كان وقوع بعضها مستقبلا، ولذلك قال: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾(١)، وإعادة النداء فى قوله: ﴿ ياموسى ﴾ تشريفاً له بتوجيه الخطاب بعد تشريفه بإجابة المطلب.

ثم ذكّره بنعمة أخرى قد سلفت، فقال: ﴿ ولقد مَنَنَّا عليك مرة أخرى ﴾ قبل أن يكون منك لنا طلب، فكيف لا نجيبك بعد الطلب؟ وتلك المنة: ﴿ إذْ أوحينا إلى أمك ﴾ حين تحيرت فى أمرك، وخافت عليك من عدوك، فأوحينا إليها وحى منام أو إلهام أو بملك كريم ـ عليهما السلام ـ فقلنا لها: ﴿ أنِ اقْذفيه فى التابوت ﴾ أى: ضعيه فيه، وأغلقي عليه حتى لا يصل الماء إليه، ﴿ فاقذفيه فى اليمِّ ﴾ أى: ألقيه فى البحر بتابوته، ﴿ فليُلقه اليمُّ بالساحل ﴾ أى: فسيرميه البحرُ بالساحل، ولمّا كان إلقاء البحر له بالساحل أمراً واجب الوقوع؛ لتعلُّق الإرادة الربانية به، جعل البحر كأنه مأمور بإلقائه، ذو تمييز، مطيع، فإنْ يُلقه ﴿ يأخُذْه عدوٌّ لى وعدوٌّ له ﴾ وهو فرعون. ولا تخافى عليه؛ ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾(٢). وتكرير عداوته والتصريح بها؛ للإشعار بأن عداوته له، مع تحققها، لا تضره، بل تؤدى إلى محبته، لأن الأمر بما فيه الهلاك؛ من القذف فى البحر، ووقوعه فى يد العدو، مشعر بأن هناك ألطافاً خفية، ومنناً كامنة مندرجة تحت قهر صورى.

---

(١) من الآية ٣٥ من سورة القصص.

(٢) كما جاء فى الآية ٧ من سورة القصص.

وليس المراد بالساحل نفس الشاطئ، بل ما يقابل الوسط، وهو ما يلي الساحل من البحر، حيث يجرى ماؤه إلى نهر فرعون، لِماَ رُوِى أنها جعلت فى التابوت قطناً محلوجاً، ووضعته فيه، ثم قيَّرته(١) وألقته في اليم. وقيل: كان التابوت من البردى، صنعته أمه. وقال مقاتل: صنعه لها رجل مؤمن اسمه «حزقيل»، ثم طلته بالقار ـ أى: الزفت ـ وألقته فى اليم، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهركبير، فدفعه الماء إليه، فأتى به إلى بركة فى البستان، وكان فرعون جالساً ثَمَّ مع آسية بنت مزاحم، فأمر به فأُخرج، فإذا فيه صبى أصبح الناس وجهاً، فأحبه فرعون حبًا شديداً لا يكاد يتمالك الصبر عنه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وألقيتُ عليك محبةً منى ﴾، قال ابن عباس: «أحبه وحبَّبه إلى خلقه». وقال قتادة: «ملاحة كانت فى عينى موسى، ما رآه أحد إلاَّ عشقه»، أى: وألقيتُ عليك محبة عظيمة كائنة منى، قد زرعت في القلوب، بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك، ولذلك أحبك عدو الله وأهله، وذلك ليتعطف عليك.

﴿ ولتُصنع على عينى ﴾ أى: ولتربَّى بالحنو والشفقة، وتغذى بمرأى منى، مصحوباً برعايتى وحفظى، فى أحسن تربية ونشأة. وكان ابتداء ذلك: ﴿ إذْ تمشي أُختك ﴾ تتبع تابوتك، فلما أُخرجتَ التمسوا لك المراضع، ﴿ فتقولُ ﴾ لفرعون وآسية، حين رأتهما يطْلُبَانِ له مُرضعة يقبل ثديها، وكان لا يقبل ثدياً. وصيغة المضارع فى الفعلين؛ لحكاية الحال الماضية، والأصل: إذ مشت فقالت: ﴿ هل أدلُّكم على من يكفله ﴾ ؟ يضمه إلى نفسه ويربيه، وذلك إنما يكون بقبول ثديها. رُوِىَ أنه فشا الخبر بمصر أن آل فرعون أخذوا غلاماً فى النيل لا يرتضى ثدى امرأة، واضطروا إلى تتبع النساء، فخرجت أُختُه مريم لتتعرف خبره، فجاءت متنكرة، فقالتْ ما قالت، وقالوا: نعم، فجاءت بأمه فقبِل ثديها.

قال تعالى: ﴿ فرَجَعْنَاك إلى أمك ﴾ ؛ وفاء بعهدنا، ﴿ كي تقرَّعينُها ﴾ بلقائك، ﴿ ولا تحزن ﴾ أى: ولا يطرأ عليها حزن بفراقك بعد ذلك، ﴿ وقتلتَ ﴾ بعد ذلك ﴿ نفساً ﴾، وهى نفس القبطى الذى استغاثه الإسرائيلى عليه. قال كعب: كان إذ ذاك ابن ثنتى عشرة سنة، ﴿ فنجيناك من الغَمّ ﴾ أى: غم قتله، خوفاً من عقاب الله تعالى بالمغفرة، ومن اقتصاص فرعون، بوحينا إليك بالمهاجرة، ﴿ وفتناك فتونًا ﴾ أى: ابتليناك ابتلاءً عظيماً، وخلصناك مرة بعد أُخرى، حتى صَلَحْتَ للنبوة والرسالة، وهو تحمل ما ناله فى سفره من الهجرة عن الوطن، ومفارقة الأحباب، والمشى راجلاً، وفقد الزاد، بعد ماخلصه من الذبح، ثم من البحر، ثم من القصاص بالقتل. وسُئل عنها ابن عباس، فقال: خلَّصناك من محنة بعد محنة، ولد فى عام كان يقتل فيه الغلمان، فهذه فتنة، وألقته

(١) أى: دهنته بالقار.

أمه في البحر، وهمّ فرعون بقتله، وقتل قبطياً، وأجّرَ نفسه عشر سنين، وضل الطريق، وتفرقت غنمه في ليلة مظلمة، فكل واحدة من هذه فتنة.هـ. لكن الذي يقتضيه النظم الكريم أن لا تعد إجارته نفسه وما بعدها من الفتون؛ لأن المراد: ما وقع له قبل وصوله إلى مدين، بدليل قوله تعالى: ﴿ فلبثتَ سنينَ في أهل مَدْيَنَ ﴾، إذ لا ريب أن الإجارة وما بعدها كانت بعد وصوله إلى مدين، أي: لبثت عشر سنين في أهل مدين.

وقال وَهْب: لبث عند شعيب ثمانياً وعشرين سنة، عشراً منها في مهر امرأته صفراء بنت شعيب، وثماني عشرة أقام عنده حتى وُلد له. وأشار باللبث في مدين، دون الوصول إليها، إلى ما أصابه في تضاعيفها، من فنون الشدائد والمكاره، التي كل واحدة منها فتنة. و « مدين» : بلدة شعيب عليه السلام، على ثماني بمراحل من مصر، ولم تبلغها مملكة فرعون، خوفاً على نفسه من هيبة النبوة أن يصيبه ما أصاب مَنْ خالفه.

﴿ ثم جئتَ ﴾ إلى المكان الذي آنستَ فيه النار، ورأيتَ فيه الخوارق، وخُصصتَ فيه بالرسالة، ﴿ على قَدَرٍ ﴾ قدرته لك في الأزل، ووقت عينته لك، لأكلمك وأرسلك فيه إلى فرعون، فما جئتَ إلا على ذلك القدَر، غير متقدم ولا متأخر، وقيل: على مقدار من الزمان، يُوحى فيه إلى الأنبياء، وهو رأس أربعين سنة. ﴿ واصْطَنعتُكَ لنفسي ﴾ أي: اختصصتك بالرسالة والمحبة والمناجاة، وهو تذكير لقوله: ﴿ وأنا اخترتك ﴾، وتمهيد لإرساله عليه السلام إلى فرعون مؤيّداً بأخيه، حسبما طلب، بعد تذكيره المنن السالفة، زيادة في وثوقه عليه السلام بحصول نظائرهم اللاحقة، والعدول عن نون العظمة الواقعة في قوله تعالى: ﴿ وفتناك ﴾ إلى تاء المتكلم؛ لمناسبتها للنفس؛ فإنها أدخل في تحقيق الاصطناع والاستخلاص. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال قد أوتيت سؤلك أيها الفقير، حيث وصلناك إلى من يأخذ بيدك، ويُرشدك إلى ربك ويُربيك. ولقد مننا عليك مرة أخرى، حيث أنشأناك بين أبوين مسلمين، فقذفناك في تابوت الإسلام، ثم في نهر الإيمان، ثم رميناك في بحر العرفان، وألقينا عليك محبة منا، فأحببناك وأحببتنا، وألقينا محبتك في قلوب عبادنا، فتربيت في حفظنا ورعايتنا، فلما فارقتَ الأوطان وهجرت الإخوان، في طلب تحقيق العرفان، رددناك إليهم بعد التمكين، لتنهضهم إلى الله، فتقرّ أعينهم بطاعة رب العالمين، وقتلت نفساً كانت تحجبك عن ربك، فنجيناك من غم الحجاب، وأخرجناك من سجن الأكوان، إلى فضاء الشهود والعيان، وفتناك بمجاهدة نفسك فتوناً عظاماً، فتنة الفقر، ثم فتنة الذل، ثم فتنة هجر الأوطان، حتى تخلصت من حبس الأكوان، وجئت إلينا على قدر قدرناه لك، ووقت عيناه لفتحك، فاصطنعتك لنفسي، واجتبيتك لحضرتي بسابق عنايتي، من غير حول منك ولا قوة، فعنايتنا فيك سابقة، فأين كنت حِين واجهتك عنايتنا، وقابلتك رعايتنا؟ لم يكن في أزلنا إخلاص أعمال، ولا وجود أحوال، بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال ووجود النوال، كما في الحكم. وأنشدوا:

فَلاَ عَملٌ مِنّى إليك اكتسبته سِوَى مَحْضِ فَضْلٍ لا بِشَىءٍ يُعَلّلُ

وقال آخر:

قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُ أَنّ وَصلَك يُشترى بنفائسِ الأموالِ والأرباحِ

وَظَنَنْتُ جهلاً أنّ حبّك هيّنٌ تُفْنَى عليه كرائمُ الأرواحِ

حتّى رأيْتُك تجتبى وتَخُصُّ مَنْ تختاره بلطائف الإمْنَاحِ

فعلمْتُ أنّك لا تُنال بحيلةٍ فلويْتُ رأسى تحت طىّ جناحِ

وَجَعَلْتُ فى عشّ الغرامِ إقامتى أبداً وفيه توطّنى ورواحِ

ثم أرسلهما الحق تعالى إلى فرعون، فقال:

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله لسيدنا موسى عليه السلام: ﴿ اذهب أنت وأخوك ﴾ أى: ليذهب معك أخوك ﴿ بآياتى ﴾ : بمعجزاتى التى أريتكها، من اليد والعصا، فإنهما وإن كانتا اثنتين، لكن فى كل واحدة منهما آيات، فإنّ فى انقلاب العصا حيواناً: آية، وكونها ثعباناً عظيماً: آية، وسرعة حركته، مع عِظَم جرمه: آية، وكذلك اليد؛ فإنّ بياضها فى نفسه آية، وشعاعها آية، ثم رجوعها إلى حالتها الأولى آية. والباء للمصاحبة، أى: اذهبا مصحوبَيْن بمعجزاتنا، مستمسكَيْن بها، ﴿ ولا تنيا ﴾ : لا تفترا ولا تقصرا ﴿ فى ذكرى ﴾ عند تبليغ رسالتى، ولا يشغلكما معاناة التبليغ عن ذكرى، بما يليق بحالكما؛ من ذكر لسان أو تفكر أو شهود، فلا تغيبا عن مشاهدتى باشتغالكما بأمرى، حتى لا تكونا فاترين فى عينى.

﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى ﴾ : تجبر وعلا .ولم يكن هارون حاضراً وقت هذا الوحى، وإنما جمعهما؛ تغليباً. رُوى أنه أوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى ـ عليهما السلام، وقيل: سمع بإقباله فتلقاه.

﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾؛ لأنّ تليين القول مما يكسر ثورة عناد العتاة، ويلين عريكة الطغاة. قال ابن عباس: أي: لا تعنفا في قولكما. وقيل: القول اللين: ﴿ هل لك إلى أن تزكى.. ﴾ الخ، ويعارضه قوله بعد: ﴿ فقولا إنا رسولا ربك ﴾ وقيل: كنّياه، وكان له ثلاثة كنىً: أبو العباس، وأبو الوليد، وأبو مرة. وقيل: عِدَاه على قبول الإيمان شباباً لا يهرم، ومُلكاً لا ينزع منه إلا بالموت، وتبقى عليه لذة المطعَم والمشرب والمنكح إلى الموت.وقيل: اللطافة في القول؛ فإنه رباك وأحسن تربيتك، وله عليك حق الأبوة، ﴿ لعله يتذكَّر ﴾ بما بلغتماه من ذكر، ويرغب فيما رغبتماه فيه، ﴿ أويخشى ﴾ عقابي.

ومحل الجملة: النصب على الحال من ضمير التثنية، أي: فقولاً له قولاً لينا، رَاجِيَيْن تذكرته، أي: باشرا وعظه مباشرةَ من يرجو ويطمع أن يُثمر علمُه ولا يخيب سعيُه. وفائدة هذا الإبهام: الحَثُّ على المبالغة في وعظه. هذا جواب سيبويه عن الإشكال، وهو أنه تعالى علِمَ أنه لا يؤمن، وقال: ﴿ لعله يتذكَّر ﴾، فصرف الرجاء إلى موسى وهارون، أي: اذهبا على رجائكما. وقال الوراق: قد تذكَّر حين ألجمه الغرق. وقال الزجاج: خاطبهم بما يعقلون. قلت: كونه تعالى علم أنه لا يؤمن هو من أسرار القدر الذي لايكشف في هذه الدار، وهو من أسرار الحقيقة، وإنما بُعثتْ الرسل بإظهار الشرائع، فخاطبهم الحق تعالى بما يناسب التبليغ في عالم الحكمة، والله تعالى أعلم. وجدوى إرسالهما إليه، مع العلم بإحالته، إلزام الحجة وقطع المعذرة.

﴿ قالا ربنا إننا نخاف أن يَفْرُطَ علينا ﴾ أي: يعجل علينا بالعقوبة، ولا يصبر إلى تمام الدعوة وإظهار المعجزة. وهو من «فَرطَ» إذا تقدم، ومنه: الفارط، للوليد الذي مات صغيراً. وقرئ بضم الياء، من «أفرط» إذا حَمله على العجلة، أي: نخاف أن يحمله حامل من الاستكبار و الخوف على المُلك أو غيرهما، على المعاجلة والعقاب، ﴿ أو أن يطغى ﴾؛ يزداد طغياناً، كأن يقول في شأنك مالا ينبغي، لكمال جرأته وقساوته، وإظهار «أن»؛ لإظهار كمال الاعتناء بالأمر، والإشعار بتحقيق الخوف من كل منهما، وهذا القول يحتمل أن يكون قاله موسى ودخل هارون بالتبع، إيذاناً بأصالة موسى عليه السلام في كل قول وفعل، وتبعية هارون عليه السلام، أو يكون هارون قال ذلك بعد تلاقيهما، فحكى الله قولهما عند نزول الآية، كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾(١)، فإن هذا الخطاب قد حكى لنا بصيغة الجمع، مع أن كلا من المخاطبين لم يخاطب إلا بطريق الانفراد؛ لاستحالة جمعهم في الوجود، فكيف باجتماعهم في الخطاب؟.

(١) من الآية ٥١ من سورة «المؤمنون».

﴿ قال ﴾ تعالى لهما: ﴿ لاتخافا ﴾، وهو استئناف بيانى، كأن قائلا قال: فماذا قال لهما ربهما عند تضرعهما إليه؟ فقيل: قال: لا تخافا ما توهمتما من الأمرين، ﴿ إننى معكما ﴾ بحفظى ورعايتى ونصرى ومعونتى، ﴿ أسمعُ وأرى ﴾ ما يجرى بينكما وبينه من قول وفعل، فأفعل فى كل حال ما يليق بها؛ من دفع ضر وشر، وجلب نفع وخير.

﴿ فأتياهُ ﴾، أمر بإتيانه، الذى هو عبارة عن الوصول إليه، بعد ما أمر بالذهاب إليه، فلا تكرار، ﴿ فقولا ﴾ له: ﴿ إنا رسولا ربك ﴾ إليك، أمر بذلك من أول الأمر، ليعرف الطاغية شأنهما، ويبنى جوابه على ذلك، ﴿ فأرسِلْ معنا بنى إسرائيل ﴾ أى: أطلقهم من الأسر والقهر، وأخرجهم من تحت يدك العادية. وليس المراد إرسالهم معه إلى الشام، بدليل قوله: ﴿ ولا تعذِّبْهم ﴾ بإبقائهم على ما كانوا عليه من العذاب، فإنهم كانوا تحت مملكة القبط، يستخدمونهم فى الأعمال الصعبة، من الحفر ونقل الأحجار، وضرب اللبن والطين، وبناء المدائن، وغير ذلك من الأعمال الشاقة، ويقتلون ذكور أولادهم عاماً دون عام، فكانت رسالة موسى إلى فرعون بالإيمان بالله وحده، وتسريح بنى اسرائيل. رُوى أنه لمّا رغبه فى الإيمان بذكر ما أعد الله لأهله من الخلود فى الجنة والملك الدائم، أعجبه، فقال: حتى أستشير هامان، وكان غائباً، فقدِم، فأخبره، فقال هامان: قد كنتُ أرى لك عقلاً، بينما أنت رب تصيرُ مربوباً، وبينما أنت تُعبَد تصير تعبد غيرك، فغلبه على رأيه.

فقال له موسى: ﴿ قد جئناك بآيةٍ من ربك ﴾، قال فرعون: وما هى؟ فأدخل يده فى جيب قميصه ثم أخرجها بيضاء، لها شعاع كشعاع الشمس، فعجب منها، ولم يُره العصا إلا بعد ذلك، يوم الزينة. قاله الثعلبى. قلت: والذى يظهر من سورة الشعراء [(١)] ـ بل هو صريح فيها ـ أنه أراه العصا واليد. وإنما أفردت فى اللفظ، هنا؛ لأن المراد اثبات الحجة بصحة الرسالة، لا تَعدد الآية، وكذلك قوله تعالى: ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [(٢)]، ﴿ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ [(٣)]، وأما قوله تعالى: ﴿ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [(٤)]؛ فالظاهر أن المراد بها آية من الآيات.

ثم قال له: ﴿ والسلامُ على من اتبعَ الهُدى ﴾ أى: وسلام الله وملائكته والمؤمنين المقتضى سلامة الدارين، على من اتبع الهدى، بتصديق آيات الله تعالى الهادية إلى الحق، دون من اتبع الغى والهوى، وفيه من الترغيب،

---

(١) فى قوله تعالى: ﴿قال أولو جئتك بشىء مبين. قال فأت به إن كنت من الصادقين. فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين. ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين﴾. الشعراء: ٣٠ ـ ٣٣.
(٢) من الآية ٤٩ من سورة آل عمران.
(٣) من الآية ٣٠ من سورة الشعراء.
(٤) من الآية ١٠٦ من سورة الأعراف.

فى اتباعها على ألطف وجه، مالا يخفى. ﴿ إنا قد أوحى إلينا ﴾ من جهة ربنا، ﴿ أنَّ العذابَ ﴾ الدنيوى والأخروى ﴿ على من كذَّب ﴾ بآيات الله ﴿ وتولى ﴾ أى: أعرض عن قبولها، وفيه من التلطف فى الوعيد حيث لم يصرح بحلول العذاب به مالا مزيد عليه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغى لأهل العلم ولأهل الوعظ والتذكير أن يتعاونوا على نشر العلم ووعظ العباد، ويتوجهوا إليهم فى أقطار البلاد، فإن ذلك فرض كفاية على أهل العلم، ولا يشغلهم نشر العلم عن ذكر الله، ولا تذكير العباد عن شهود الله، كما قال الله تعالى: ﴿ ولاتنيا فى ذكرى ﴾ أى: ولا تغفلا عن شهودى وقت إرشاد عبادى، فإن توجهوا إلى الجبابرة والفراعنة فليلينوا لهم المقال، وليدعوهم إلى أسهل الخلال، فإن ذلك أدعى إلى الامتثال، خلافاً لمن قال هذه ملة موسوية، وأما الملة المحمدية فقال تعالى فيها: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾(١)؛ فإنَّ بيان الحق لا ينافى أن يكون بملاطفة وإحسان، فإن خاف الواعظ من صولة المتجبر فإن الله معه، يحفظه ويرعاه، ويسمعه ويراه، فإن لم يسمع لقوله ولم يتعظ لوعظه، فقد بلغ ما عليه، وليقل بلسان الحال أو المقال: (والسلام على من اتبع الهدى). وبالله التوفيق.

ثم ذكر جواب فرعون، فقال:

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾

قلت: (خَلْقَه): يحتمل أن يكون اسماً بمعنى المخلوق، فيكون مفعولاً أولا، و (كل شيء): مفعولاً ثانيا، أو يكون مصدراً بمعنى الخلقة، فيكون مفعولاً ثانيا، أى: أعطى كل شيء خِلقته وصُورته التى هو عليها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قال ﴾ فرعونُ فى جواب موسى، لما أتاه مع أخيه وبلغا الرسالة، وقالا له ما أمرهما به ربهما، وإنما حذفه للإيجاز، وللإشعار بأنهما لما أمرا بذلك سارعا إلى الامتثال من غير تلعثم، أو بأن

(١) من الآية ٢٩ من سورة الكهف.

ذلك من الظهور بحيث لا حاجة إلى التصريح به، فقال لهما فرعون: ﴿فمن ربكما ياموسى﴾؟ لم يضف الرب إلى نفسه ؛لغاية عتوه وطغيانه، بل أضافه إليهما، وفى الشعراء: ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(١)، والجمع بينهما تعدد الدعوة، ففى كل مرة حكى لنا ما قال. وتخصيص النداء بموسى، مع توجيه الخطاب إليهما؛ لأنه الأصل فى الرسالة، وهارون وزيره.

﴿قال﴾ موسى عليه السلام مجيباً له: ﴿ربنا الذى أعطى كُلَّ شيءٍ خلقه﴾ أىْ: ربنا هو الذى أعطى كل شيء خلقه، أى: مخلوقاته؛ مما يحتاجون إليه ويرتفقون به فى قوام أبدانهم ومعايشهم، أو اعطى كل شيء خِلْقته وصورته التى يختص بها، ولم يجعل خلق الإنسان فى خلق البهائم، ولاخلق البهائم فى خلق الإنسان. ولكن خلق كل شيء فقدره تقديراً. أو أعطى كل شيء فعله وتصرفه، فاليد للبطش، والرجل للمشى، واللسان للنطق، والعين للنظر، والأذن للسمع، أو أعطى كل شيء شكله من جنسه، للإنسان زوجةً، وللبعير ناقةً، وللفرس رَمَكةً، وللحمار أتاناً. ﴿ثم هَدى﴾ إلى طريق الانتفاع والارتقاء، بما أعطاه وعرفه كيف يتوصل إلى بقائه وكماله، فألهمه الرضاع والأكل والشرب والجماع، وطلب الرعى وتوقى المهالك، وكيف يأتى الذكرُ الأنثى.

ولمّا كان الخلق ـ الذى هو عبارة عن تركيب الأجزاء وتسوية الأجسام ـ مقدماً على الهداية، التى هى عبارة عن إيداع القوى المحركة والمدركة فى تلك الأجسام، عطف بثم المفيدة للتراخى. ولقد ساق عليه السلام جوابه على نمط رائق، وأسلوب لائق؛ حيث بيّن أنه تعالى عالم قادر بالذات، خالق لجميع الكائنات، منعم عليهم بجميع النعم السابغات، هادٍ لهم إلى طرق المرتفقات.

﴿قال﴾ فرعون: ﴿فما بالُ القرونِ الأُولى﴾ أى: ما حالها بعد الموت، وما فعل الله بها؟ فقال له موسى: هذا غيب لا يعلمه إلا الله، وهو معنى قوله: ﴿علمها عند ربي﴾، أو ما حال القرون الماضية والأمم الخالية، وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة؟ فأجابه عليه السلام بأن العلم بأحوالهم مفصلةً مما لا ملامسة له بمنصب الرسالة، وإنما علمها عند الله عز وجل. وكأنّ عدو الله، لما خاف أن يُبهت، ويُفتضح، ويظهر للناس حجة موسى عليه السلام، أراد أن يصرفه عليه السلام إلى مالا يعنى، من ذكر الحكايات التى لامسيس لها بمنصب الرسالة؛ فلذلك أعرض عنه، و﴿قال علمها عند ربى﴾، وهذا أحسن من الأول؛ لأنه لو كان سؤاله عن أحوالها بعد الموت لأمكن أن يقول له: من اتبع الهدى منهم فقد سلم وتنعم، ومن تولى فقد عُذب وتألم، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾. وقيل: فما بالها لم تبعث كما يزعم موسى، أو: ما بالها لم تكن على دينك، أو: ما بالها كذبت ولم يُصبها عذاب، وكلها بعيدة.

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الشعراء.

قلت: والذى يظهر أن الطاغية فَهِمَ قوله تعالى: ﴿ثم هدى﴾ أى: إلى الإيمان، فاعترض بقوله: فما بال القرون الأولى لم تؤمن حتى هلكت؟ فأجابه موسى عليه السلام بقوله: ﴿علمها عند ربى﴾، فهو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بمن اهتدى. وقوله: ﴿فى كتاب﴾ أى: اللوح المحفوظ، فقد أُثبتتْ فيه بتفاصيلها، ويجوز أن يكون ذلك عبارة عن تمكنه وتقريره فى علم الله ـ عز وجل ـ تمكن من استحفظ الشىء، وقيده بالكتابة، كما يلُوح به قوله تعالى: ﴿لايَضِلُّ ربى﴾ أى: لا يخطئ ابتداء، ﴿ولا ينسى﴾ فيتذكر. وفيه تنبيه على أن كتابته فى اللوح المحفوظ ليس لحاجته إليه فى العلم به ابتداء أو بقاءاً. وإظهار (ربى) فى موضع الإضمار، للتلذذ بذكره، وللإشعار بعلّية الحكم؛ فإن الربوبية مما تقتضى عدم الضلال والنسيان.

ولقد أجاب عليه السلام عن السؤال بجواب عبقرى بديع، حيث كشف عن حقيقة الحق حجابها، مع أنه لم يخرج عما كان بصدده من بيان شُئونه تعالى، ووصف الحق تعالى بأوصاف لا يمكن عدو الله أن يتصف بشىء منها، لا حقيقة ولا مجازاً، ولو قال له: هو الخالق الرازق، وشبه ذلك، لأمكن أن يغالط ويدعى ذلك لنفسه.

ثم تخلص إليه؛ حيث قال، بطريق الحكاية عن الله عز وجل، أو من كلامه عليه السلام: ﴿الذى جعل لكمُ الأرضَ مِهاداً﴾(١) أى: كالمهد تتمهدونها بالسكن والقرار، أى: جعل كل موضع منها مهداً لكل واحد منكم. ﴿وَسَلَكَ لكم فيها سُبُلاً﴾ أى: طُرقاً تتوصلون بها من قطر إلى قطر، لتقضوا منها مآربكم، وتنتفعوا بمرافقها ومنافعها، ووسطها بين الجبال والأودية لتعرف أمارات سُبلها. ﴿وأنزل من السماء ماءً﴾ هو المطر، ﴿فأخرجنا به﴾، يحتمل أن يكون من كلام الله، وما قبله من كلام موسى، أو كله من كلام الله تعالى، حكاه موسى عليه السلام، وإنما التفت إلى التكلم؛ للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة، والإيذان بأنه لا يتأتى إلا من قادر مطاع عظيم الشأن، أى: فأخرجنا بذلك الماء ﴿أزواجًا﴾: أصنافاً، سميت أزواجاً؛ لازدواجها، واقتران بعضها ببعض، كائنة ﴿من نباتٍ شتى﴾: متفرقة، جمع شتيت: أى: متفرق، وهو، فى الأصل، مصدر، يستوى فيه الواحد والجمع، يعنى: أنها مختلفة فى الشكل واللون والطعم والرائحة والنفع، وبعضها صالح للناس على اختلاف صلاحها لهم، وبعضها للبهائم.

ومن تمام نعمته تعالى أن أرزاق عباده، لمّا كان تحصيلها بعمل الأنعام، جعل علَفَها مما يفضل عن حاجتهم، ولا يليق بكونه طعاماً لهم، وهو معنى قوله: ﴿كُلوا وارْعَوا أنعامكم﴾، والجملة: حالٌ، على إرادة القول، أى: أخرجنا منها أصناف النبات، قائلين: كلوا وارعوا أنعامكم، آذنين فى ذلك لكم.

(١) قرأ عاصم وحمزه والكسائى: (مَهْداً). وقرأ باقى السبعة: «مهاداً». انظر الإتحاف (٢/٢٤٧).

﴿ إن فى ذلك ﴾ المذكور، من شئونه تعالى، وأفعاله وأنعامه، ﴿ لآياتٍ ﴾ جليلة واضحة الدلالة على عظيم شأنه تعالى، فى ذاته وصفاته وأفعاله، وعلى صحة نبوة موسى وهارون ـ عليهما السلام، ﴿ لأولى النُّهَى ﴾ أى: العقول الصافية، جمع «نُهْيَة»، سمى بها العقل، لنهيه عن اتباع الباطل، وارتكاب القبيح، أى: لذوى العقول الناهية عن الأباطيل، التى من جملتها ما يدعيه الطاغية وما يقبله منه الفئة الباغية. وتخصيص كونها آيات لهم، مع أنها آية للعالمين؛ لأنهم المنتفعون بها.

﴿ منها خلقناكم ﴾ أىْ: من الأرض الممهدة لكم، خلقناكم بخلق أبيكم آدم عليه السلام، وأنتم فى ضمنه، إذ لم تكن فطرته مقصورة على نفسه عليه السلام، بل كانت أنموذجاً منطوياً على فطرة سائر أفراد الجنس، انطواء إجماليا، فكان خلقه عليه السلام منها خلقاً لكل منها، وقيل: خلقت أبدانكم من النطفة المتولدة من الأغذية المتولدة من الأرض. وقال عطاء: إن المَلَك الموكل بالرحم ينطلق، فيأخذ من تراب المكان الذى يُدفن فيه العبد، فيذره على النطفة، فتخلق من التراب ومن النطفة.هـ.

﴿ وفيها نُعيدكم ﴾ بالإماتة وتفريق الأجزاء، والكلام على الأشباح دون الأرواح، فإنها، بعد السؤال، تصعد إلى السماء، كما يأتى عند قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . . ﴾[1] الآية. ولم يقل: وإليها نُعيدكم؛ إشارة إلى استقرار العبد فيها، ﴿ ومنها نُخرجكم تارةً أخرى ﴾ بتأليف أجزائكم المتفتتة، المختلطة بالتراب، على الهيئة السابقة، ورد الأرواح إليها. وكون هذا الإخراج تارة أخرى: باعتبار أن خلقهم من الأرض إخراج لهم منها، وإن لم يكن على التارة الثانية. والتارة فى الأصل: اسم للتوْر، وهو الجريان، فالتارة واحدة منه، ثم أطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات المتحدة، كما مر فى المرة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه، مما سبق لهم فى أزله، ثم هدى إلى الأسباب الموصلة إليه، فمنهم من كان حظه فى الأزل قوت الأشباح، هداه إلى أسبابها، وهم أهل مقام البعد، ومنهم من كان حظه قوت القلوب، فهداه إلى أسبابها من المجاهدة فى الطاعات وأنواع القربات، وهم أنواع:

فمنهم من شغلهم بتدريس العلوم وتدقيق الفهوم، وتحرير المسائل وتمهيد النوازل، وهداهم إلى أسباب ذلك، وهم حملة الشريعة، إن صحت نيتهم وثبت إخلاصهم. ومنهم من شغلهم بتوالى الطاعات وتعمير الأوقات، وهداهم إلى أسبابها، وقواهم على مشاقها، وهم العباد والزهاد. ومنهم من شغلهم بإطعام الطعام والرفق بالأنام، وتعمير الزوايا وقبول الهدايا، وهداهم إلى أسباب عمارتها والقيام بها، وهم الصالحون. ومنهم: من كان حظه قوت الأرواح، وهم المريدون السائرون، أهل الرياضة والتصفية، والتخلية والتحلية، والتهذيب والتدريب، وهداهم إلى أسبابها، ووصلهم

(١) الآية ٨٨ من سورة الواقعة.

إلى شيخ كامل يُبينها ويسلكها، وهم في ذلك مقامات متفاوتة، على حسب صدقهم وجدهم، ومنهم من كان حظه قوت الأسرار، وهم العارفون الكبار، السابقون المقربون، أهل الفناء والبقاء، أهل الرسوخ والتمكين، فهداهم إلى ما أملوا، ووصلهم إلى ما طلبوا. نفعنا الله بهم، وخرطنا في سلكهم. آمين.

وقوله: ﴿ فما بال القرون الأولى... ﴾ الآية، فيه زجر للمريد عن الاشتغال بالحكايات الماضية، لأن في ذلك شُغلاً عن الله، إلا ما كان فيه زيادة إلى الله، فتلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم. وقوله تعالى: ﴿ الذى جعل لكم الأرض مهاداً ﴾ أي: جعل أرض النفوس مهاداً للقيام برسم العبودية، وسلك فيها سبلاً توصل إلى مشاهدة الربوبية، لمن سلكها بالرياضة والمجاهدة، وأنزل من سماء الملكوت ماء الواردات الآلهية، تحيا به الأرواح، فتخرج أصنافاً من العلوم والحكم شتى، كلُوا برعى القلوب في نوار تجلياتها، وارعوا لقوت أشباحكم من ثمار حسياتها، إن في ذلك لآيات لأولِي النُهى. (منها خلقناكم): من أرض نفوسكم أخرجناكم، بشهود عظمة الربوبية، وفيها نُعيدكم؛ للقيام برسم العبودية، ومنها نُخرجكم؛ لتكونوا لله، لا لشيء دونه. أو منها خلقناكم، أي: أخرجناكم من شهود ظلمتها إلى نور خالقها، بالفناء عنها، وفيها نُعيدكم بالرجوع إلى الأثر في مقام البقاء، (ومنها نُخرجكم تارة أخرى)؛ بعقد الحرية في مقام البقاء، فتكونوا عبيداً شُكُراً. وبالله التوفيق.

ثم إن فرعون لم تنفعه هذه الموعظة، ولا ما رأى من الآيات الباهرة، حتى طلب المعارضة، كما أبان ذلك الحق سبحانه بقوله:

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾

قلت: (موعداً): مصدر، مفعول أول لـ(اجعل). و(مكاناً): مفعول بفعل محذوف، أي: تعدنا مكاناً سُوى، لا بموعد؛ لأنه وصف، ويجوز نصبه على إسقاط الخافض، و(يوم الزينة): على حذف مضاف، أي: مكان يوم الزينة، و (أن يحشر): عطف على يوم، أو الزينة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد أريناه ﴾ أي: فرعون، ﴿ آياتنا ﴾، حين قال له: ﴿ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾(١)، وعبّر بالجمع، مع

(١) الآيات: ٣١ ـ ٣٣ من سورة الشعراء.

كونهما اثنتين، باعتبار ما في تضاعيفهما من الخوارق، التي كل واحدة منها آية. وقد رأى فرعونُ من هاتين الآيتين أموراً دواهي، فإنه روى أنه عليه السلام، لما ألقى العصا، انقلبت ثعباناً أشعر، فاغراً فاه، بين لَحْيَيْهِ ثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل على الأرض، والأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون، فهرب وأحدث، وانهزم الناس مزدحمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً من قومه، فصاح فرعون: يا موسى أُنشدك الذي أرسلك إلا أخذته، فأخذه، فعاد عصاً. ورُوي أنها، لما انقلبت حية ارتفعت في السماء قدر ميل، ثم انحطت مقبلة نحو فرعون، وجعلت تقول: يا موسى مُرني بما شئت، ويقول فرعون: أنشدك .. الخ. ونزع يده من جيبه، فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً خارجاً عن العادة. ففي تضاعيف كلٍّ من الآيتين آيات جمة، لكنها لما كانت غير مذكورة بالصراحة، أكدت بقوله تعالى: ﴿ كلَّها ﴾ ، كأنه قيل: أريناه آياتنا بجميع مستتبعاتها وتفاصيلها، قصداً إلى بيان أنه لم يبق له في ذلك عذر.

وقيل: أريناه آياتنا التسع، وهو بعيد؛ لأنها إنما ظهرت على يده عليه السلام بعد ما غلبت السحرة على مَهَل، في نحو من عشرين سنة، والكلام هنا قبل المعارضة، اللهم إلا أن يكون الحق تعالى أخبرنا أنه أراه الآيات التسع كلها، فأبى عن الإيمان، ثم رجع إلى إتمام القصة.

وأبعد منه: من عدّ في الآيات ما جُعِل لإهلاكهم، لا لإرشادهم إلى الإيمان؛ من فلق البحر، وما ظهر بعد مهلكه من الآيات الظاهرة لبني إسرائيل؛ من نتق الجبل والحجر، وغير ذلك، وكذلك من عدّ منها الآيات الظاهرة على يد الأنبياء ـ عليهم السلام ـ؛ حيث حكاها موسى عليه السلام لفرعون، بناء على أن حكايته إياها له في حكم إظهارها بين يديه؛ لاستحالة الكذب عليه، فإنّ حكايته إياها لفرعون مما لم يجر ذكره هنا، فكل هذا بعيد من سياق النظم الكريم.

قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبَ ﴾ فرعونُ موسى، ﴿ وأَبَى ﴾ الإيمان والطاعة، مع ما شاهد على يده من الشواهد الناطقة بصدقه. جحوداً وعناداً؛ لعتوه واستكباره، وقيل: كذّب بالآيات جميعاً، وأبَى أن يقبل شيئاً منها.

﴿ قال أجئتنا لتُخرِجَنا من أرضنا بسحرك يا موسى ﴾، هذا استئناف مُبين لكيفية تكذيبه وإبائه. والمجيء إما على حقيقته، أو بمعنى الإقبال على الأمر والتصدي له، أي: أجئتنا من مكانك الذي كنتَ فيه ترعى الغنم؛ لتُخرجنا من أرضنا؟ أو: أقبلت إلينا؛ لتُخرجنا من مصر؛ بما أظهرت لنا من السحر، فإن ذلك مما لا يصدر عن عاقل؛ لكونه من باب محاولة المحال، وإنما قاله؛ تحريضاً لقومه على مقت موسى والبعد عنه، بإظهار أن مراده عليه السلام إخراج القبط من وطنهم، وحيازة أموالهم، وإهلاكهم بالكلية، حتى لا يميل أحد إليه، (والله غالب على أمره). وسمي ما أظهره عليه السلام من المعجزة الباهرة سحراً، ثم ادعى أنه يعارضه، حيث قال: ﴿ فلنأتينك بسحرٍ مثله ﴾ أي: وإذا كان الأمر كذلك، فوالله لنأتينك بسحر مثل سحرك، ﴿ فاجعلْ بيننا وبينك موعداً ﴾ أي: وعداً ﴿ لا نُخلفه ﴾ أي: لا نخلف ذلك الوعد، ولا نجاوزه ﴿ نحنُ ولا أنتَ ﴾ ، بل نجتمع فيه وقت ذلك الموعد،

وإنما فوض اللعينُ أمرَ الوعد إلى موسى عليه السلام؛ للاحتراز عن نسبته إلى ضعف القلب ودخول الرعب إليه، وإظهار الجلادة، بإظهار أنه متمكن من تهيئة أسباب المعارضة، طال الأمر أو قصر، كما أن تقديم ضميره على ضمير موسى عليه السلام، وتوسيط كلمة «النفي» بينهما؛ للإيذان بمسارعته إلى عدم الاختلاف.

وقوله تعالى: ﴿مكانًا سُوىً﴾ أي: يكون ذلك الوعد ـ أي: وعد الاجتماع ـ في مكان مستوٍ، تستوي مسافته بيننا وبينك، عدلاً، لا ظلم على أحد في الإتيان إليه، منا ومنك، وفيه لغتان: ضم السين وكسرها.

﴿قال﴾ لهم موسى عليه السلام: ﴿موعدُكُم يومُ الزينة﴾ أي: مكان الزينة؛ لأن يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه في ذلك اليوم، وهو يوم عيد لهم، في كل عامٍ يتزينون ويجتمعون فيه، وقيل: يوم النيروز، .وقيل: يوم عاشوراء، وقيل: يوم سوق لهم. ﴿وأن يُحشر الناسُ ضحىً﴾ أي: موعدكم يوم الزينة، وحشرُ الناس ضحى، أو يوم حشر الناس في وقت الضحى، يجتمعون نهاراً جهاراً، أراد عليه السلام أن يكون أبلغ في إظهار الحجة وإدحاض الباطل، بكونه على رؤوس الأشهاد. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من سبق له البعد عن الرحمن، لا ينفع فيه خوارق معجزاتٍ، ولا قاطع برهان ودليل، أبعده التكبر والطغيان، ودفعُ الحق بالباطل. نعوذ بالله من موارد الخذلان.

ثم ذكر جمعهم، وما كان من شأنهم، فقال:

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾

قلت: (إن هذان لساحران): مَنْ خَفَّفَ (إن): جعلها نافية، أو مخففة، واللام فارقة. ومَنْ ثقّلها وقرأها: (هذان)؛ بالألف، فقيل: على لغة بلْحارث بن كعب وخثعم وكنانة، فإنهم يلْزَمُونَ الألف؛ رفعاً ونصباً وجرا، ويُعْرِبُونَها تقديراً، وقيل: اسمها: ضمير الشأن، أي: إنه الأمر والشأن هاذان لهما ساحران. وقيل: «إن» بمعنى «نعم»، لا تعمل، وما بعدها: جملة من مبتدأ وخبر. وقالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ: إنه خطأ من الكُتاب، مثل قوله: ﴿ والمقيمين الصلاة ﴾[1]، ﴿ وَالصَّابِئُونَ ﴾[2]، فى المائدة، ويرده تواتر القراءة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فتولَّى فرعونُ ﴾ أى: انصرف عن المجلس، ورجع إلى وطنه، ﴿ فجمعَ كيدَهُ ﴾ أى: حِيَلَه وسَحرته؛ ليكيد به موسى عليه السلام، ﴿ ثم أتى ﴾ الموعد، ومعه ما جمعه من كيده وسحرته، وسيأتى عددهم.

﴿ قال لهم موسى ﴾، حيث اجتمعوا من طريق النصيحة: ﴿ ويلكُم ﴾ أى: ألزمَكم اللهُ الويل، إن افتريتم على الله الكذب، ﴿ لا تفتروا على الله كذباً ﴾ بإشراك أُحد معه، كما تعتقدون فى فرعون، أو بأن تحيلوا الباطل حقاً، ﴿ فَيُسْحِتَكُمْ ﴾ أى: يستأصلكم، بسببه، ﴿ بعذابٍ ﴾ لا يُقَادَر قدره، وقرئ رباعياً وثلاثياً، يقال: سحت وأسحت. فالثلاثى: لغة أهل الحجاز، والرباعى: لغة بنى تميم ونجد. ﴿ وقد خاب ﴾ وخسر ﴿ من افترى ﴾ على الله، كائناً من كان، بأى وجه كان، فيدخل الافتراء المنهى عنه دخولاً أولياً، أو: قد خاب فرعون المفترى على الله، فلا تكونوا مثله فى الخيبة.

﴿ فتنازعوا ﴾ أى: السحرة، حين سمعوا كلامه عليه السلام، ﴿ أمرَهُم ﴾ أى: فى أمرهم الذى أُريد منهم؛ من مغالبته عليه السلام، وتشاوروا وتناظروا ﴿ بينهم ﴾ فى كيفية المعارضة، وتشاجروا، ورددوا القول فى ذلك، ﴿ وأسَرُّوا النجوى ﴾ أى: من موسى عليه السلام؛ لئلا يقف عليه فيدافعه، ونجواهم على هذا هو قوله: ﴿ قالوا إنْ هذان ﴾ أى: موسى وهارون، ﴿ لساحران ﴾ عظيمان ﴿ يُريدان أن يُخرجاكم من أرضكم ﴾؛ مصر، بالاستيلاء عليها ﴿ بسحرهما ﴾ الذى أظهره قبل، ﴿ ويَذْهبا بطريقتكُمُ المثلى ﴾ أى: بمذهبكم، الذى هو أفضل المذاهب وأمثلُها، بإظهار مذهبهما وإعلاء دينهما.

قال ابن عطية: والأظهر، فى الطريقة هنا، أنه السيرة والمملكة. والمُثلى: تأنيث الأمثل، أى: الفاضلة الحسنة.هـ. وقيل: الطريقة هنا: اسم لوجوه القوم وأشرافهم، لأنهم قدوة لغيرهم، والمعنى: يريدان أن يصرفا وجوه الناس وأشرافَهم إليهما، ويُبطلان ما أنتم عليه. وقال قتادة: (طريقتهم المثلى يومئذ: بنو إسرائيل، كانوا أكثر القوم

---

(١) من الآية ١٦٢ من سورة النساء.
(٢) من الآية ٦٩ من سورة المائدة. وللألوسى ـ رحمه الله ـ كلام طيب فى هذه القضية، راجعه فى تفسيره (١٦/ ٢٢٤).

عدداً وأموالاً، فقال فرعون: إنما يريدان أن يذهبا به لأنفسهما). ولا شك أن حمل الإخراج على إخراج بنى إسرائيل من بينهم، مع بقاء قوم فرعون على حالهم آمنين فى ديارهم: بعيد، مما يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله.

وقوله تعالى: ﴿ فأجمِعُوا كيدكم ﴾ : تصريح بالمطلوب، أى: إذا كان الأمر كما ذكر، من كونهما ساحرين يُريدان إخراجكم من بلادكم، فأجمعوا كيدكم، أى: اجعلوه مُجمعاً عليه، بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم، وارموه عن قوس واحدة. وقرأ أبو عمرو: (فاجْمَعُوا)، من الجمع، أى: فاجمعوا أدوات سحركم ورتبوها كما ينبغى، ﴿ ثم ائتُوا صفًا ﴾ أى: مصطفين، أمروا بذلك؛ لأنه أهْيَبُ فى صدور الرائين، وأدْخَلُ فى استجلاب الرهبة من المشاهدين. قيل: كانوا سبعين ألفاً، مع كل واحد منهم حبل وعصا، وأقبلوا عليه إقبالة واحدة، وقيل: كانوا اثنين وسبعين ساحراً؛ إثنان من القبط، والباقى من بنى إسرائيل، وقيل: تسعمائة؛ ثلاثمائة من الفُرس، وثلاثمائة من الروم، وثلاثمائة من الإسكندرية، وقيل: خمسة عشر ألفاً. والله تعالى أعلم. ولعل الموعد كان مكاناً متسعاً، خاطبهم موسى عليه السلام بما ذكر فى قطْر من أقطاره، وتنازعوا أمرهم فى قطر آخر، ثم أمروا أن يأتوا وسطه على الوجه المذكور.

ثم قالوا فى آخر نجواهم: ﴿ وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ ؛ فاز بالمطلوب مَنْ غلب، يريدون بما وعدهم فرعون من الأجر والتقريب، أو بالرئاسة والجاه والذكر الحسن فى الناس. وقيل: كان نجواهم أن قالوا ـ حين سمعوا مقاله موسى عليه السلام: ما هذا بقول ساحر، وقيل: كان ذلك أن قالوا: إنْ غلبنا موسى اتبعناه، وقيل: قالوا فيها: إنْ كان ساحراً غلبناه، وإن كان من السماء فله أمر. فيكون إسرارهم حينئذ من فرعون، ويحمل قولهم: ﴿ إنْ هذان لساحران... ﴾ الخ، على أنهم اختلفوا فيما بينهم على الأقاويل المذكورة، ثم أعرضوا عن ذلك بعد التنازع والتناظر، واستقرت آراؤهم على المغالبة والمعارضة. والله تعالى أعلم بما كان.

ثم طلبوا المعارضة، فقالوا: ﴿ ياموسى إما أن تُلقى ﴾ ما تلقيه أولاً، ﴿ وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ ما نلقيه. خيروه عليه السلام فيما ذكر؛ مراعاة للأدب، لما رأوا عليه من مخايل الخير، وإظهاراً للجلادة، ﴿ قال بل ألقُوا ﴾ أنتم أولاً، مقابلة لأدبهم بأحسن منه، فَبَتّ القول بإلقائهم أولاً، وإظهاراً لعدم المبالاة بسحرهم، ومساعدة لما أوهموا من الميل إلى البدء، وليستفرغوا أقصى جهدهم وسعيهم، ثم يُظهر اللهُ سبحانه سلطانه، فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه، كما تعودَ من ربه.

فألقوا ما عندهم، ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ أى: ففوجىء موسى، وتخيل سعى حبالهم وعصيهم من سحرهم، وذلك أنهم كانوا لطخوها بالزئبق، فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت، فخيل إليه أنها تتحرك. قلت: هكذا ذكر كثير من المفسرين. والذى يظهر أن تحريكها إنما كان

من تخييل السحر الذى يقلب الأعيان فى مرأى العين، كما يفعله أهل الشعوذة، وهو علم معروف من علوم السحر، ويدل على ذلك ما ورد أنها انقلبت حيات تمشى على بطونها، تقصد موسى عليه السلام، فكيف يفعل الزئبق هذا؟ قال ابن جزى: استدل بعضهم بهذه الآية أن السحر تخييل لا حقيقة له.هـ.

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً ﴾ أى: خوفاً، ﴿ موسى ﴾ أى: أضمر فى نفسه بعض خوف، من جهة الطبع البشرى المجبول على النفرة من الحيات، والاحتراز من ضررها. وقال مقاتل: إنما خاف موسى، إذ صنع القوم مثل صنيعه، بأن يشكُّوا فيه، فلا يتبعوه، ويشك فيه من تابعه. ﴿ قلنا لا تخف ﴾ ما توهمت، ﴿ إنك أنت الأعلى ﴾؛ الغالب عليهم، والجملة: تعليل لنهيه عن الخوف، وتقرير لغلبته، على أبلغ وجه، كما يُعرب عنه الاستئناف، وحرف التحقيق، وتأكيد الضمير، وتعريف الخبر، ولفظ العلو.

ثم قال له: ﴿ وألقِ ما فى يمينك ﴾ أى: عصاك، وإنما أبهمت؛ تفخيماً لشأنها، وإيذاناً بأنها ليست من جنس العصا المعهودة، بل خارجة عن حدود أفراد الجنس، مبهمة الكنه، مستتبعة لآثار غريبة، وأما حملُ الإبهام على التحقير، بمعنى: لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم، وألق العُويَد الذى فى يدك، فإنه بقدرة الله تعالى يتلقفُها مع وحدته وكثرتها، وصغره وكبرها، فيأباه ظهور حالها، وما وقع منها فيما مر من تعظيم شأنها.

وقوله تعالى: ﴿ تَلْقَفْ ما صنعوا ﴾: جواب الأمر، من لقفه، إذا ابتلعه والتقمه بسرعة، أى: تبتلع، وتلتقم بسرعة، ما صنعوا من الحبال والعصى، التى تخيل إليك، والجملة الأمرية معطوفة على النهى عن الخوف، موجبة لبيان كيفية غلبته عليه السلام وعلوه، وإدحاض الخوف عنه، فإن ابتلاع عصاه لأباطيلهم، التى منها أوجس فى نفسه ما أوجس، مما يقلع مادته بالكلية. وهذا، كما ترى، صريح فى أن خوفه عليه السلام لم يكن ـ كما قال مقاتل ـ من خوف شك الناس وعدم اتباعه له عليه السلام، وإلا لعلله بما يزيله من الوعد بالنصر الذى يُوجب اتباعه. فتأمله. قاله أبو السعود. وفيه نظر بأن قوله: ﴿ تلقف ما صنعوا ﴾ صريح فى عدم الالتباس؛ إذ لا ينبغى التباس مع ابتلاع عصاه لعصيهم، فتأمله. ﴿ إنما صنعوا كَيْدُ ساحرٍ ﴾ أى: إن الذى صنعوه كيد ساحر وحِيَلُه. وقرأ أهل الكوفة: (سِحْرٍ)؛ بكسر السين، فالإضافة للبيان، كما فى «علم فقه»، أو: كيد ذى سحر، أو يسمى الساحر سحراً؛ مبالغة. والجملة تعليل لقوله: (تلقف) أى: تبتلعه؛ لأنه كيد ساحر، ﴿ ولا يُفلح الساحرُ حيث أتى ﴾ أى: حيث وُجد، وأين أقبل، وهو من تمام التعليل. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يقال للفقير، المتوجه إلى الله تعالى، من قبل الحق: إمَّا أن تُلقى الدنيا من يدك، وإمَّا أن نكون أول من ألقاها عنك، أى: إما أن تتركها اختياراً، أو تزول عنك اضطرارا؛ لأن عادته تعالى، مع المتوجه الصادق، أن يدفع عنه كل ما يشغله من أمور الدنيا. فيقول ـ إن كان صادق القلب ـ: بل ألقها، ولا حاجة لى بها، فألقاها الحق تعالى،

وأخرجها من يده، عناية به، فإذا أشغالها وعلائقها كانت تسعى فى هلاكه وخراب قلبه وتضييع عمره، فأوجس فى نفسه خيفة من العيلة ولحوق الفاقة، قلنا: لا تخف، حيث توجهت إلى مولاك، فإن الله يرزق بغير حساب وبلا أسباب، وألق ما فى يمين قلبك من اليقين، تلقف ما صنعوا، أى: ما صنعت بكَ خواطر السوء والشيطان، لأنه يَعِدُ بالفقر ويأمر بالفحشاء، وإنما صنعوا ذلك؛ تخويفاً وتمويهاً، لا حقيقة له، كما يفعل الساحر، (ولا يُفلح الساحر حيث أتى).

ثم ذكر إسلام السحرة، وما كان من شأنهم، فقال:

﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾

قلت: (فى جذوع النخل)، قال المحلى: أي: عليها، وهو مذهب كوفى، وأما مذهب البصريين فيقولون: ليست «فى» بمعنى «على»، ولكن شبه المصلوب، لتمكنه فى الجذع، بالحالّ فى الشىء، وهو من الاستعارة التعبيرية. و(من خلاف): فى موضع الحال، أى: مختلفات.

يقول الحق جل جلاله: فلما ألقى موسى عصاه انقلبت حية عظيمة، فابتلعت تلك الحبال والعصى، ﴿ فأُلقي السحرةُ سُجداً ﴾ لما تيقنوا أن ذلك ليس من باب السحر، وإنما هى آية من آيات الله. رُوى أن رئيسهم قال: كنا نغلب أعين الناس، وكانت الآلات تُبقى علينا، فلو كان هذا سحراً، فأين ما ألقينا من الآلات؟ فاستدلوا بما رأوا على صحة رسالة موسى. فألقاهم ما شاهدوه على وجوههم، فتابوا وآمنوا، وأتوا بما هو غاية الخضوع، قيل: لم يرفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار، والثواب والعقاب. وعن عكرمة: لما خروا سُجداً، أراهم الله تعالى، فى سجودهم، منازلهم فى الجنة. ولا ينافيه قولهم: ﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ﴾، لأن كون تلك المنازل منازلهم هو السبب فى صدور هذا القول منهم.

﴿ قالوا آمنا برب هارون وموسى ﴾، قدّموا هارون؛ إما لكبر سنه، أو للمبالغة فى الاحتراز عن التوهم الباطل من جهة فرعون، حيث كان ربّى موسى عليه السلام فى صغره، فلو قدّموا موسى لربما توهم اللعين وقومه، من أول الأمر، أن مرادهم فرعون، فأزاحوا تلك الخطرة من أول مرة. ﴿ قال آمنتم له ﴾ أى: لموسى، واللام؛ لتضمن الفعل معنى الانقياد والخضوع، أى: أذعنتم له ﴿ قبل أن آذنَ لكم ﴾ أى: من غير أن آذن لكم، ﴿ إنه ﴾ أى: موسى ﴿ لكبيرُكُم ﴾ أى: أستاذكم وأعلمكم فى فنكم، ﴿ الذى علّمكُمُ السحرَ ﴾، فتواطأتم على ما فعلتم. وهذه منه شبهة واهية؛ أين كان موسى عليه السلام، وأين كان السحرة، حتى علمهم؟ ولكن صدر منه هذا؛ خوفاً على الناس أن يتبعوا موسى عليه السلام، ويقتدوا بالسحرة، فأوهم عليهم، مع ما سبق فى علم الله من ضلالتهم.

ثم أقبل على السحرة بالوعيد، فقال: ﴿ فلأقَطِّعَنَّ أيديَكم ﴾ أى: فوالله لأقطعن أيديكم ﴿ وأرجُلكم من خلاف ﴾ أى: اليد اليمنى والرجل اليسرى. وتعيين تلك الحال؛ للإيذان بتحقيق هذا الأمر وإيقاعه لا محالة، فتعيين تلك الحالة المعهودة من باب السياسة، أو لأنها معهودة لمن خرج عن حكم طاعته. ﴿ ولأصلبَنَّكم فى جذوع النخل ﴾ أى: عليها، وإتيان كلمة «فى»؛ للدلالة على إبقائهم عليها زمناً مديداً، تشبيهاً فى استمرارهم عليها باستقرار الظرف فى المظروف المشتمل عليه، وقيل: هو أول من صلب. ﴿ ولتعلمنّ أيُّنا ﴾، يريد نفسه أو موسى عليه السلام، حيث خافوا من عصاه فأسلموا، فهِم اللعين أن إيمانهم لم يكن للمعجزة، إنما كان خوفاً، حيث رأوا عصاه ابتلعت حبالهم وعصيهم، أو يريد (أينا) أى: أنا أو رب موسى وهارون، الذى آمنتم به، ﴿ أشدُّ عذاباً وأبقى ﴾ أى: أدوم. قالوا: لم يثبت فى القرآن أن فرعون فعل بأولئك المؤمنين ما أوعدهم به، ولم يثبت فى الأخبار، لكن رُوى عن ابن عباس، وغيره، أنه أنفذه. وروى أن امرأة فرعون كانت تسأل: من غلب؟ فيقال لها: موسى، فقالت: آمنت برب موسى وهارون، فأرسل إليها فرعون يهددها، وقال: انظروا أعظم صخرة، فإن استقرت على قولها فألقوها عليها، فلما ألقوها رفعت بصرها إلى السماء فأريت بيتها فى الجنة، فمضت على قولها، وانتزعت روحها منها، وألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه. قاله الثعلبى. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من سبقت له العناية، لا تضره الجناية. هؤلاء السحرة جاءوا يحادون الله ورسوله، فأضحوا أولياء الله. رُوى أن موسى عليه السلام لما قال لهم: ﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ﴾، سمع هاتفاً يقول: ألقوا يا أولياء الله، فتحير موسى عليه السلام، و أوجس فى نفسه خيفة، وقال: كيف أعارض أولياء الله، فلما ألقى عصاه ظهرت ولايتهم. فكم من لصوص خرج منهم الخصوص. ففى أمثال هؤلاء تقوية لرجاء أهل الجناية، إذا طلبوا من الله سرَّ العناية، وإدراكَ مقام الولاية، ولذلك ابتدأ القشيرى فى رسالته بذكر من تقدم له جنايات من الأولياء، كالفضيل، وابن ادهم، وأضرابهم ـ رضى الله عن جميعهم ـ.

ثم ذكر ثبوت السحرة على الإيمان، وعدم مبالاتهم بتهديد فرعون، فقال:

﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾

قلت : (هذه الحياة الدنيا) : نصب على إسقاط الخافض، اتساعاً، لا نصب على الظرفية؛ لأن الظرف المختص لا ينتصب على الظرفية، على المشهور، و(الذى فطرنا) : عطف على (ما جاءنا) ، أو قَسَمٌ حُذف جوابه، أى: وحق الذى فطرنا لا نؤثرك.. إلخ.

يقول الحق جل جلاله، حاكياً عن السحرة، لمَّا خوفهم فرعونُ: ﴿ قالوا ﴾ غير مكترثين بوعيده: ﴿ لن نُّؤْثِرَكَ ﴾ أى: لن نختارك، باتباعك ﴿ على ما جاءنا ﴾ من الله تعالى على يد موسى عليه السلام ﴿ من البينات ﴾ أى: المعجزات الظاهرة؛ لأن ما ظهر من العصا كان مشتملاً على معجزات جمة، كما تقدم. ﴿ والذى فَطَرَنَا ﴾: خلقنا وخلق سائر المخلوقات، أى: لن نختارك على ما ظهر لنا من دلائل صحة نبوة موسى، ولا على الذى خلقنا، حتى نتبعك ونترك الحق، وكان ما شاهدوه آية حسية، وهذه آية عقلية. وإيراده بعنوان فاطريته تعالى؛ للإشعار بعِلِّية الحكم، فإن خالقيته تعالى لهم ولفرعون ـ وهو من جملة مخلوقاته ـ مما يوجب عدم إيثارهم له عليه سبحانه، أو: وحق الذى فطرنا لانؤثرك على ما جاءنا، ﴿ فاقض ما أنت قاضٍ ﴾ أى: فاصنع ما أنت صانعه، أو: فاحكم ما أنت حاكمه. وهو جواب لقوله: (لأقطعن أيديكم..) إلخ. ﴿ إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾ أى: إنما تصنع ما تهواه، أو تحكم ما تراه فى هذه الحياة الدنيا الفانية، ولا رغبة لنا فى البقاء فيها، رغبة فى سكنى الدار الدائمة، بسبب موتنا على الإيمان.

﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ﴾ التى اقترفنا، من الكفر والمعاصى، ولايؤاخذنا بها فى الآخرة، فلا نغتر بتلك الحياة الفانية، حتى نتأثر بما أوعدتنا به من القطع والصلب، ﴿ و ﴾ يغفر لنا أيضا ﴿ ما أكرهتنا عليه من السحر ﴾ الذى عملناه فى معارضة موسى عليه السلام، بإكراهك وحشرك لنا من المدائن القاصية، وخصوه بالذكر، مع اندراجه فى خطاياهم؛ إظهاراً لغاية نفرتهم عنه، ورغبة فى مغفرته، وفى ذكره الإكراه: نوع اعتذار؛ لاستجلاب المغفرة، وقيل: أرادوا الإكراه على تعلم السحر، لما رُوى أن رؤساءهم كانوا اثنين وسبعين؛ إثنان منهم من القبط، والباقى من بنى إسرائيل، وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر، وقيل: إنه أكرههم على المعارضة، حيث رُوى أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائماً، ففعل، فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر، فإن الساحر إذا نام بطل سحره، فأبى إلا أن يعارضوه. لكن يأباه تصديهم للمعارضة بالرغبة والنشاط، كما يُعرب عنه قولهم: ﴿ إِنَّ لَنَا لأَجْراً.. ﴾[1] الخ، وقولهم: ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾[2]، إلا أن يُقال: لما رأوا جِدَّهُ طمعوا وطلبوا الأجر. ﴿ والله خيرٌ وأبقى ﴾ أى: وثواب الله خير من إيثار الدنيا الفانية، وأبقى فى الدار الباقية، أو: والله فى ذاته خير، وجزاؤه أبقى، نعيماً كان أو عذابا.

(١) من الآية ١١٣ من سورة الأعراف. (٢) من الآية ٤٤ من سورة الشعراء.

ثم عللوا خيريته وبقاءه فقالوا: ﴿ إنه من يأت ربه مجرماً ﴾ بأن يموت على الكفر والمعاصى، ﴿ فإنّ له جهنمَ لا يموتُ فيها ﴾ فيستريح وينتهى عذابه، وهذا تحقيق لقوله: (وأبقى)، ﴿ ولا يحيا ﴾ حياة ينتفع بها، وضمير (إنه): للشأن، وفيه تنبيه على فخامة مضمون الجملة؛ لأن مناط وضع الضمير موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره، مع ما فيه من زيادة التقرير، فإن الضمير لا يفهم منه أول الأمر إلا شأنٌ مبهمٌ له خطر، فيبقى الذهن مترقباً لما يعقبه، فيتمكن، عند وروده، فَضل تمكن، كأنه قيل الشأن الخطير هذا.

﴿ ومن يأتِه مؤمناً ﴾ به تعالى، وما جاء من عنده من المعجزات، التى من جملتها ما شهدناه، حال كونه ﴿ قد عمل الصالحات ﴾ أى: الأعمال الصالحات، وهى كل ما استقام شرعاً وخلص عقداً، ﴿ فأولئك ﴾ أى: من يأت مؤمنا.. الخ. وجمع الإشارة؛ باعتبار معنى «مَن»، كما أن الإفراد فى الفعلين السابقين باعتبار لفظها، وما فيه من معنى البُعد؛ للإشعار بعلو درجهتم وبُعد منزلتهم، أى: فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات، ﴿ لهم ﴾ بسبب إيمانهم وأعمالهم الصالحات ﴿ الدرجات العُلى ﴾ أى: المنازل الرفيعة، وليس فيه ما يدل على عدم اعتبار الإيمان المجرد عن العمل فى استتباع الثواب،؛ لأن ما نيط بالإيمان المقرون بالأعمال الصالحة هو الفوز بالدجات العلى، لا بالثواب مطلقا.

ثم فسر تلك الدرجات، فقال: ﴿ جناتُ عَدْنٍ ﴾ أى: إقامة على الخلود، حال كونها ﴿ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴾، الإشارة إلى ما أنتج لهم من الفوز بالدجات العلى. والبعد فى الإشارة؛ للتفخيم، أى: ما تقدم من الفوز بالدرجات العلى هو جزاء من تطهر من دنس الكفر والمعاصى، بما ذكر من الإيمان والأعمال الصالحة، وهذا تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقى. وتقدم ذكر حال المجرم، للمسارعة إلى بيان أشدية عذابه ودوامه، رداً على ما ادعاه فرعون بقوله: ﴿ أينا أشدُ عذابا وأبقى ﴾، هذا وقد قيل: إن قوله: ﴿ إنه من يأت .... ﴾ الخ، ابتداء كلام من الله عز وجل. والله تعالى أعلم.

الإشارة: فى الآية تحريض للفقراء أهل النسبة وأرباب الأحوال، على الثبوت فى طريق السلوك، وعدم الرجوع عنها، حين يكثر عليهم الإنكار والتهديد، والتخويف بأنواع العذاب، فلا يكترثون بذلك ولا يتضعضعون، وليقولوا كما قال سحرة فرعون: (لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا، فاقض ما أنت قاض، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا...) الآية. وقد جرى هذا على كثير من الصوفية، أُوذوا على النسبة، فمنهم من قُتل، ومنهم من طُوف، ومنهم من أُجلى عن وطنه، إلى غير ذلك مما جرى عليهم، ومع ذلك لم يرجعوا عما هم عليه، حتى وصلوا إلى حضرته تعالى وذاقوا. وما رجع من رجع إلا من الطريق، وأما من وصل فلا يرجع أبداً، ولو قُطع إرباً إرباً. والله ولي المتقين.

ثم ذكر خروج بني إسرائيل إلى الشام وغرق فرعون، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أنْ أسرِ بعبادى ﴾ بعدمالبث يدعو فرعون إلى الله تعالى ويُريه الآيات المفصلات، بعد غلبة السحرة، نحواً من عشرين سنة، كما فصّل ذلك فى الأعراف، فلما أيس من إيمانهم أوحى الله بالخروج عنهم، أي: والله لقد أوحينا إلى موسى أن أسر، أو بأن أسر بعبادى الذين أرسلتك لإنقاذهم من يد فرعون، أى: سر بهم من مصر ليلاً إلى بحر القلزم. والتصدير بالقسم؛ لإبراز كمال العناية بمضمونها، والتعبير عنهم بعبادى؛ لإظهار الرحمة والاعتناء بهم، والتنبيه على غاية قبح صنيع فرعون، حيث استعبدهم، وهم عباده عز وجل، وفعل بهم من فنون العذاب ما فعل. ﴿ فاضربْ لهم ﴾ أى: اجعل لهم، أو اتخذ لهم ﴿ طريقاً في البحر يبساً ﴾ أى: يابساً لا ماء فيه، ﴿ لا تخاف دَرَكاً ﴾ أى: حال كونك آمنا من أن يُدرككم العدو، ﴿ ولا تخشى ﴾ الغرق. وقرأ حمزة: "لا تخف" بالجزم، جواباً للأمر، فيكون (ولا تخشى): إما استئناف، أى: وأنت لا تخشى، أو عطف عليه، والألف للإطلاق، أو يقدر الجزم، كقوله:

ألَمْ يأتِيكَ والأنْباءُ تَنْمِي(١) ... إلخ.

وتقديم نفى خوف الدرك، للمسارعة إلى إزاحة ما كانوا عليه من الخوف، حيث قالوا: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾(٢).

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فرعونُ بجنوده ﴾ أى: تبعهم ومعه جنوده حتى لحقهم، يقال: اتبعتهم، أى: تبعتهم، إذا كانوا سبقوك ولحقتهم، ويؤيده قراءة: (فاتَّبَعَهُمْ) بالشد. وقيل: الباء زائدة، والمعنى: فأتبعهم فرعون جنودَه، أي: ساقهم خلفهم، وأيا ماكان، فالفاء فصيحة مُعْربة عن مضمر قد طوى ذكره، ثقة بظهوره، وإيذاناً بكمال مسارعة موسى إلى الامتثال، أى: ففَعل ما أُمر به من الإسراء بهم، وضرب الطريق فى البحر وسلكوه، فأتبعهم بجنوده براً وبحراً.

رُوى أن موسى عليه السلام خرج بهم أول الليل، وكانوا ستمائة وسبعين ألفاً، فأخبر فرعون بذلك، فأتبعهم بعساكره، وكانت مقدمته سبعمائة ألف، فقص أثرهم فلحقهم، بحيث تراءى الجمعان، فلما أبصروا رهجَ(٣) الخيل، قالوا: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ، قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾(٤). فلما قربوا، قالوا: ياموسى أين نمضى، البحر أمامنا، وخيل فرعون خلفنا، فعند ذلك ضرب موسى عصاه البحر فانفلق على ثنتى عشرة فرقة،

(١) هذا صدر بيت عجُزُه: بما لاقَتْ لَبُونُ بَنِي زِيادِ. وهو لقيس بن زهير العبسى.. انظر تفسير القرطبى.
(٢) الآية ٦١ من سورة الشعراء. (٣) الرهج: الغبار. (٤) الآيتان ٦١ ـ ٦٢ من سورة الشعراء.

﴿ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾(١) أى: كالجبل العظيم من الماء، وكانوا يمرون به، وكلهم بنو أعمام، لا يرى بعضهم بعضاً، فقالوا: قد غرق إخواننا، فأوحى الله إلى أطواد الماء: أن اشتبكي، وصارت شبابك، يرى بعضهم بعضا، ويسمع بعضهم كلامَ بعض، فلما أتى فرعونُ الساحلَ، وجد البحر منفلقا، فقال: سحر موسى البحر، فقالوا: إن كنت رباً فادخل كما دخل، فجاء جبريلُ على رَمَكَةٍ وديق، أى: تحب الفحل، وكان فرعون على حصان، فاقتحم جبريل بالرمكة الماء، فلم يتمالك حصان فرعون، فاقتحم البحر على إثره، ودخل القبط كلهم، فلما لَجّجُوا، أوحى الله تعالى إلى البحر أن أغرقهم، فعلاهم البحر وأغرقهم.

فَعبَر موسى عليه السلام بمن معه من الأسباط سالمين، وأما فرعون وجنوده ﴿ فغشيهم من اليمّ ما غشيهم ﴾ أى: علاهم منه وغمرهم من الأمر الهائل، الذى لا يُقادر قدره ولا يبلغ كنهه. قال القشيرى: فغرقوا بجملتهم، وآمن فرعونُ لما ظهر له البأس، فلم ينفعه إقراره، وكان ينفعه لو لم يكن إصرارُه، وقد أدركته الشقاوةُ التى سَبَقَتْ له من التقدير.هـ. وقال الكواشي: (وغشيهم) من الغضب والغرق، وغير ذلك، مالا يعلم حقيقته إلا الله تعالى. هـ. فإبهام الصلة؛ للتهويل والتفخيم، وقيل: (غشيهم من اليم) ما سمعت قصته فى غير هذه السورة، وليس بشىء؛ فإن مدار الإبهام على التهويل والتفخيم، بحيث يخرج عن حدود الفهم والوصف، لا سماع قصته فقط.

﴿ وأضلّ فرعونُ قومَه ﴾ أى: أتلفهم وسلك بهم مسلكاً أدى بهم إلى الخيبة والخسران، حيث ماتوا على الكفر، وأوصلهم إلى العذاب الهائل الدنيوى، المتصل بالعذاب الدائم الأخرى، ﴿ وما هدى ﴾ أى: ما أرشدهم قط إلى طريق توصلهم إلى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية. وهو تقرير لإضلاله وتأكيد له، وفيه نوع تهكم به فى قوله: ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾(٢)، فإن نفى الهداية عن شخص مشعر بكونه ممن يتصور منه الهداية فى الجملة، وذلك إنما يتصور فى حقه بطريق التهكم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: انظر عاقبة من شدّ يده على دينه، وصبر على شدائد زمانه، كيف خرقت له العوائد، وجاءه العز والنصر فأنساه تلك الشدائد، وأهلك الله من كان يؤذيه من الأعداء، وسلك به سبيل النجاة والهدى، وهذه عادة الله مع أوليائه، يُشدد عليهم أولاً بضروب البلايا والمحن، ثم يعقبهم العز والنصر وضروب المنن، ولذلك ذكّر الله بنى إسرائيل بما أنعم عليهم بعد البحر، فقال:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ (٨٠) كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ (٨٢) ﴾

---

(١) من الآية ٦٣ من سورة الشعراء. (٢) من الآية ٢٩ من سورة غافر.

يقول الحق جل جلاله لبنى إسرائيل، بعد ما أنجاهم من الغرق، وأفاض عليهم من فنون النعم الدينية والدنيوية: ﴿ يابنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ﴾؛ فرعون وقومه، حيث كانوا ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾(١)، ﴿ وواعدناكم جانبَ الطُّورِ الأيمنَ ﴾ أي: واعدناكم بواسطة نبيكم، إتيان جانب الطور، الجانب الأيمن منه للمناجاة وإنزال التوراة. وهل هو الطور الذى أبصر فيه النار ووقعت فيه الرسالة، أو غيره؟ خلاف. ونسبة المواعدة إليهم مع كونه لموسى عليه السلام خاصة، أو له وللسبعين المختارين، نظرٌ إلى ملابستها إياهم، وسراية منفعتها إليهم، وإعطاء لمقام الامتنان حقه. كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾(٢)؛ حيث نسب الخلق والتصوير للمخاطبين، مع أن المخلوق كذلك هو آدم عليه السلام.

ثم قال تعالى: ﴿ ونزّلنا عليكم ﴾ حين تُهتم ،﴿ المنَّ والسَّلْوى ﴾ أى: الترنجبين والطيْر السُّمانى، حيث كان ينزل عليهم المنّ وهم فى التيه، مثل الثلج، من الفجر إلى الطلوع، لكل إنسان صالح، ويبعث الجنوب عليهم السُّمانى، فيذبح الرجل منه ما يكفيه. وقلنا لهم: ﴿ كُلوا من طيباتِ ما رزقناكم ﴾ أى: من لذائذه، أو حلاله. وفى البدء بنعمة الإنجاء ثم بالنعمة الدينيه ثم بالنعمة الدنيوية من حسن الترتيب مالا يخفى. ﴿ ولا تطغَوا فيه ﴾ أى: فيما رزقناكم بالإخلال بشكره، والتعدى لما حدَّ لكم فيه، كالترفه والبطر والمنع من المستحق. وقال القشيرى: مجاوزة الحلال إلى الحرام، أو بالزيادة على الكفاف ومالابدَّ منه، فأزاد على سدّ الرمق، أو بالأكل على الغفلة والنسيان. هـ. وقيل: لا تدخروا، فادَّخَروا فتعودوا، وقيل: لا تنفقوه فى المعصية، ﴿ فيَحِلَّ عليكم غضبى ﴾ بفعل شيء من ذلك، أى: ينزل ويجب، من حلَّ الدينْ؛ إذا وجب. ﴿ ومن يَحْلِلْ عليه غضبى فقد هَوَى ﴾ أى: تردّى وهلك، أو وقع فى المهاوى.

﴿ وإني لغفارٌ ﴾ أى: كثير الغفران ﴿ لمن تابَ ﴾ عن الشرك والمعاصى، التى من جملتها الطغيان فيما ذكر، ﴿ وآمن ﴾ بما يجب الإيمان به، ﴿ وعَمِلَ صالحًا ﴾ أى: عملاً صالحاً مستقيماً عند الشرع، وفيه ترغيب وحث لمن وقع فى زلّة أو طغيان على التوبة والإيمان، ﴿ ثم اهتدى ﴾ أى: استقام على الهدى ودام عليها حتى مات. وفيه إشارة إلى أن من لم يستمر عليها بمعزل عن الغفران. قال الكواشى: (ثم اهتدى) أى: علم أن ذلك بتوفيق من الله تعالى. هـ.

الإشارة: إذا ذهبت عن العبد أيام المحن، وجاءت له أيام المنن، فينبغى له أن يتذكر ما سلف له من المحن، وينظر ما هو فيه الآن من المنن، ليزداد شكراً وتواضعاً، فتزداد نعمه، وتتواتر عليه الخيرات. وأما إن نسى أيام

(١) من الآية ٤٩ من سورة البقرة. (٢) من الآية ١١ من سورة الأعراف.

المحن، ولم يشكر ما هو فيه من المنن، فحقيق أن تزول عنه، ويرجع إلى ما كان عليه. وتَذَكَّرْ حديث الأبرص والأقرع والأعمى، حسبما في الصحيح[1]. فإن الأبرص والأقرع ،حين شفاهما الله وأغناهما، أنكرا ما كانا عليه، فرجعا إلى ما كانا عليه، والأعمى حين أقر بما كان عليه، وشكر الحال الذى حال إليه، دامت نعمته وكثر خيره. فالشكر قيد الموجود وصيد المفقود. فيقال لأهل النعم، إن قاموا بشكرها: كلُوا من طيبات ما رزقناكم، ولا تطغوا فيه، بأن تصرفوه فى غير محله، أو تمنعوه عن مستحقه، ﴿ فيحلَّ عليكم غضبى... ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿ وإنى لغفار لمن تاب.. ﴾ إلخ، قال القشيرى: ﴿وإني لغفار لمن تاب﴾ من الزَّلَّة ﴿وآمن﴾ فلم يرَ أعمالَه من نفْسه، بل جميع الحوادث من الحقِّ، ﴿وعمل صالحاً﴾ فلم يُخلّ بالفرائض، ﴿ثم اهتدى﴾ للسُّنَّة والجماعة. وقال أيضا: ثم اهتدى بنا إلينا.هـ.

قال الورتجبى: التائب: المنقطعُ إلى الله، والمؤمن: العارف بالله، والعمل الصالح: تركه ما دون الله، فإذا كان كذلك، فاهتدى بالله إلى الله، ويكون مغموراً برحمة الله، ومعصوماً بعصمة الله. هـ.

ثم ذكر فتنة بنى إسرائيل بالعِجْل، بعد ذهاب موسى إلى المناجاة، فقال:

﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي (٨٦) قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) ﴾

يقول الحق جل جلاله لموسى عليه السلام، لما ذهب إلى الطور، لموافاة الميقات، للعهد الذى عهد إليه، واختار سبعين من بنى إسرائيل، يحضرون معه؛ لأخذ التوراة بأمره تعالى، فلما دنا من الجبل حمله الشوق، فاستعجل إلى الجبل، وترك قومه أسفله، فقال له الحق جل جلاله: ﴿ وما أعْجَلَكَ عن قومك ياموسى ﴾ أى: ماحملك على

---

(١) أخرج حديث الثلاثة البخاريُّ فى (أحاديث الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع بنى إسرائيل)، ومسلم فى (الزهد، ح٢٩٦٤) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

العَجَلَة، وأيُّ شيء أعجلك منفرداً عن قومك، وقد أمرتك باستصحابهم، ولعل فى إفرادك عنهم عدم اعتناء بهم؟ فأجاب عليه السلام بقوله: ﴿ هُمْ أُولاءِ على أثَرى ﴾ أى: هم هؤلاء قريباً منى، فهم معى، وإنما سبقتهم بخطا يسيرة، ظننت أنها لا تُخلُّ بالمعية، ولا تقدح فى الاستصحاب، فإن ذلك مما لا يُعتد به فيما بين الرفقة.

قال الكواشى: ولما كان سُؤال الرب تعالى لموسى يقتضى شيئين: أحدهما: إنكار العَجَلة، والثانى: السؤال عن السبب والحامل عليها، كان أهم الأمرين إلى موسى بَسطَ العذر وتمهيد العلة فى نفس ما أنكر عليه، فاعتل أن قال: إن ما وُجِدَ منى تقدم يسير، لا يُعتد بمثله فى العادة لقربه، كما يتقدم الوفدَ رئيسُهم ومُتقدمُهم، ثم عقبه بجواب السؤال فقال: ﴿ عَجِلْتُ إليك رَبِّ لِترضَى ﴾؛ لتزداد عنى رضا؛ لمسارعتى إلى الامتثال لأمرك، واعتنائى بالوفاء بعهدك؛ لأنه ظن أن إسراعه إليه أبلغ فى رضاه. وفى هذا دليل على جواز الاجتهاد للأنبياء ـ عليهم السلام ـ والمعنى: لتعلم أنى أُحبك ولا قرار لى مع غيرك. هـ.

وقال القشيرى: (هم أولاء على أثرى)؛ ما خلّفتُهم لتضييعى إياهم، ولكن عَجِلْتُ إليك ربِّ لترضى. قال: يا موسى، رضائى فى أن تكون مَعهم، ولا تتقدمهم ولا تَسْبِقَهم، وكونَك مع الضعفاءِ، الذين استصحبتَهم فى حصول رضاى، أبلغُ مِن تقدُّمِكَ عليهم. هـ.

﴿ قال ﴾ له تعالى: ﴿ فإنا قد فتنَّا قومَك من بعدك ﴾ أى: ابتليناهم بعبادة العجل من بعد ذهابك من بينهم. رُوى أنهم أقاموا على ما وصاهم به موسى عليه السلام عشرين ليلة، بعد ذهابه، فحسبوها مع أيامها أربعين، وقالوا: قد أكْملنا العدة، وليس من موسى عين ولا أثر، وكان وعدهم أن يغيب عنهم أربعين يوماً، واستخلف هارون على من بقى منهم، وكانوا ستمائة ألف، فافتتنوا بعبادة العجل كلهم، ما نجا منهم إلا اثنا عشر ألفا. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وأضلَّهُمُ السامريُّ ﴾، حيث كان هو السبب فى فتنتهم، فقال لهم: إنما أخلف موسى عليه السلام ميعادكم؛ لِماَ معكم من حلى القوم، فهو حرام عليكم، فكان من أمر العجل ما يأتى تفسيره إن شاء الله. فإخباره تعالى بهذه الفتنة عند قدومه عليه السلام، قبل وقوعها، إما باعتبار تحققها فى علمه تعالى، وإما باعتبار التعبير عن المتوقع بالواقع، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾(1)، أو لأن السامرى كان قد عزم على إيقاع الفتنة عند ذهاب موسى عليه السلام، وتصدى لها بترتيب مبادئها، فكانت الفتنة واقعة عند الإخبار بها.

والسامرى منسوب إلى قبيلة من بنى إسرائيل، يقال لها: سامرة، وقيل: كان رجلاً من كرمان. وقال ابنُ عباس: كان من قرية يعبدون البقر، فدخل فى بنى إسرائيل وأظهر الإسلام، وفى قلبه ما فيه من حب عبادة البقر، فابتلى اللهُ به بنى إسرائيل، واسمه: موسى بن ظفر.

---

(1) من الآية ٤٤ من سورة الأعراف.

﴿ فرجع موسى إلى قومه ﴾ بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة، لا عقب الإخبار بالفتنة، كما يتوهم من قوله تعالى: ﴿ غضبانَ أسِفاً ﴾، فإن كون الرجوع بعد الأربعين أمر مقرر مشهور، يرفع كون الرجوع عقب الفتنة. والأسف: أشد الغضب، وقيل: أسفا: حزيناً جزعاً على ضلال قومه. ﴿ قال يا قوم ألم يَعِدْكُم ربُّكم وعداً حسناً ﴾؛ بأن يعطيكم التوراة فيها ما فيها من النور والهدى، ﴿ أفَطَالَ عليكم العهدُ ﴾ أي: مدة مفارقتي إياكم. والهمزة للإنكار، والمعطوف محذوف، أي: أوَعَدَكم ذلك فطال زمان الإنجاز، فأخطأتم بسببه، ﴿ أم أردتم أن يَحِلَّ عليكم غضبٌ ﴾ شديد كائن ﴿ من ربكم ﴾ أي: من مالك أمركم، ﴿ فأخلفتم موعدي ﴾ أي: وعدي إياكم بالثبات على ما أمرتكم به إلى أن أرجع من الميقات، أو وعْدَكم إياي بأن تثبتُوا على ماأمرتكم به، على إضافة المصدر إلى فاعله أو مفعوله، والفاء، لترتيب ما بعدها، كأنه قيل: أنسيتم الوعد بطول العهد فأخلفتموني خطأ ﴿أم أردتم﴾ حلول الغضب عليكم فأخلفتموه؛ عمداً. ؟

﴿ قالوا ما أخلفنا موعدك ﴾ أي: وعدنا إياك بالثبات على ما أمرتنا به، ﴿ بِمَلْكنا ﴾ أي: بسلطاننا وقدرتنا، ونحن نملك أمرنا .وفيه لغتان: فتح الميم وكسرها. يعنــون: لو خلينـا وأُمورَنا، ولم يسوِّل لنا الســامريُّ ما سوله، ما أخلفنا، ولكن غلبنا على أمرنا، واستغوانا السامري مع مساعدة الأحوال.

وقال القشيري: أي: لم نكن في ابتداءِ حالنا قاصدين إلى ما حَصَلَ منَّا، ولا عالمين بما آلَتْ إليه عاقبة أمرِنا، وإنَّ الذي حملنا عليه حُلِيّ القبط، صاغَ السامريُّ منه العجل، فآل الأمر إلى ما بلغ من الشر، وكذلك الحرامُ لا يخلو شؤمه من الفتنة والشر.هـ.

وقوله تعالى: ﴿ ولكِنَّا حُمِّلْنَـا أوزاراً من زينةِ القوم ﴾، استدراك عما سبق، واعتذار ببيان منشأ الخطأ، أي: حملنا أحمالا من حُلى القبط، التي استعرناها منهم، حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس. وقيل: كانوا استعاروها لعيد كان لهم، ثم لم يردوها إليهم، مخافة أن يقفوا على أمرهم. وقيل: لما رمى البحر أجساد القبط، وكان غالب ثيابهم الذهب والفضة، التقطها بنو إسرائيل، فهي زينة القوم التي صيغ منها العجل، ولعل تسميتها أوزاراً؛ لأنها تبعات وآثام، حيث لم تحل الغنائم لهم.

﴿ فقذفناها ﴾ أي: في النار رجاء الخلاص من عقوبتها، أو قذفناها إلى السامري وألقاها في النار، ﴿ فكذلك ألقى السامريُّ ﴾ ما كان معه منها كما ألقيناه، أو ألقى ما كان معه من تراب حافر فَرَس جبريل، كان قد صرّه في عمامته، وكان ألقى إليه الشيطان: أنه ما خالط شيئاً إلا حيي، فألقاه في فمه فصار يخور.

رُوي: أنه قال لهم: إنما تأخر موسى عنكم، لما معكم من الأوزار، فالرأي أن نحفر حفرة ويُسجر فيها نار، ونقذف فيها كل ما معنا، ففعلوا، ﴿ فأخرج لهم ﴾ من ذلك الحلي المذاب ﴿ عِجْلاً ﴾أي: صورة عجل

﴿جَسداً﴾ أى: جثة ذات لحم ودم، أو جسداً من ذهب لا روح فيه، ﴿له خُوار﴾ أى: صوت عِجْل، ﴿فقالوا﴾ أى: السامرى ومن افتتن به: ﴿هذا إلهكم وإله موسى فَنَسِيَ﴾ أى: غفل عنه وذهب يطلبه فى الطور. فقوله تعالى: (فَأخْرَجَ لهم...) الخ.. هو من كلام الله تعالى، حكاية لنتيجة فتنة السامرى، قولاً وفعلا، قصداً إلى زيادة تقريرها، وتمهيداً للإنكار عليهم، وليس من كلام المعتذرين، وإلا لقال: فَأخْرَجَ لنا.. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغى لرئيس القوم، إذا كان فى سفر، أن يكون وسَطهم، أو سائقاً لهم، ولا يتقدمهم أو يستعجل لأمر عنهم، فإن التأنى كله من الله، والعَجَلة كلها من الشيطان، والخير كله فى الاجتماع مع الضعفاء والمساكين، حتى يكون كأحدهم، فإن فارقهم، لأمر مهم، فليستخلف عليهم من يثق به فى دينه، وليكن اعتماده فى ذلك على ربه، ونظره كله إلى رعايته وحفظه. قال الكواشى: عن ابن عطاء: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: أتدرى من أين أُتيت؟ ـ يعنى فى فتنة قومه ـ قال: لا يارب، قال: حين قلت لهارون: اخلفنى فى قومى، أين كنتُ أنا حين اعتمدتَ على هارون؟. هـ.

فكل فتنة أو ضلال يُصيب الفقراء، فإنما ذلك من عدم الاجتماع مع أهل الفن، أو قلة الاستماع لهم، فإن أصابتهم فتنة الأسباب، والركون إلى شيء من الدنيا فى غيبة الشيخ، فليرجع إليهم غضبان أسفا، وليقل لهم: ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً، وهو الفتح الكبير لو صبرتم على السير والتجريد، أفطال عليكم العهد، فقد كانت الرجال تمكث فى خدمة الأشياخ العشرين والثلاثين سنة، أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم، بالإبعاد وإسْدَال الحجاب، حيث خالفتم عهود أشياخكم، فإن اعتذروا فليقبل عذرهم، وإن ركنوا إلى عبادة شيء من عجل الدنيا فليخرجه من أيديهم، وليقل: وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً، لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر الإنكار على عَبَدَة العجل، فقال:

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ ﴾

قلت: (ألا يرجع): «أن» مخففة، لأنَّ الناصبة لا تقع بعد أفعال اليقين، ومن قرأ بالنصب جعل الرؤية بصرية.

يقول الحق جل جلاله، مُنكراً على عبدة العجل ومقبحاً لرأيهم: ﴿ أفلا يَرَوْنَ ﴾ أي: أفلا يتفكرُ هؤلاء الضالون المضلون فيعلمون ﴿ أن ﴾ الأمر والشأن: ﴿ لا يرجع إليهم ﴾ العجل كلاماً، ولا يرد عليها جواباً، وإنما هو جماد لا روح فيه؟ فكيف يتوهمونه أنه إله؟ وتعليق الإبصار بما ذكر مع كونه عدمياً؛ للتنبيه على كمال ظهوره، المستدعى لمزيد تشنيعهم وتركيك عقولهم. ﴿ و ﴾ هو أيضاً ﴿ لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴾ أي: أفلا يرون أيضاً أن العجل لا يقدر أن يدفع عنهم ضراً، أو يجلب لهم نفعاً؟ أو لا يقدر على أن يضرهم إن لم يعبدوه، أو ينفعهم إن عبدوه.

﴿ ولقد قال لهم هارونُ من قبلُ ﴾ أي: والله لقد نصحهم هارون ونبههم على الحق، من قبل رجوع موسى عليه السلام إليهم، وقال لهم: ﴿ ياقوم إنما فُتنتم به ﴾ أي: وقعتم فى الفتنة بالعِجْل أو ضللتم به، والمعنى: إنما فعل بكم الفتنة، لا الإرشاد إلى الحق، ﴿ وإنَّ ربكم الرحمنُ ﴾ وحده، لا العِجْل، أرشدهم إلى الحق بعد أن زجرهم عن الباطل. والتعرض لعنوان الرحمانية؛ للاعتناء باستمالتهم إلى الحق المُفضى إلى الرحمة الشاملة، أي: إن ربكم الذى يستحق أن يُعبد هو الرحمن لا غير. ﴿ فاتبعونى ﴾ على الثبات على الدين، ﴿ وأطيعوا أمرى ﴾ من ترك عبادة ما علمتم شأنه.

﴿ قالوا ﴾ فى جواب هارون عليه السلام: ﴿ لن نبرحَ عليه عاكفين ﴾ أى: لن نزال على عبادة العجل مقيمين ﴿ حتى يرجع إلينا موسى ﴾، جعلوا رجوعه عليه السلام غاية لعكوفهم على عبادة العجل، لكن لا على طريق الوعد بتركها عند رجوعه، بل بطريق التعلل والتسويف، وقد دسُّوا تحت ذلك أنه عليه السلام لا يرجع بشيء مبين لإبطالها، تعويلاً على مقالة السامرى.

رُوى أنهم، لما قالوا ذلك، اعتزلهم هارون عليه السلام فى اثنى عشر ألفاً ممن لم يعبد العجل، فلما رجع موسى وسمع الصياح والجلَبة(١)، وكانوا يرقصون حول العجل، قال للسبعين الذين كانوا معه: هذا صوت الفتنة، فلما وصل إليهم قال لهم ما قال من قوله: (ألم يعدكم....)الخ. وسمع منهم ما قالوا من قولهم: (ما أخلفنا...)الخ. فلما رأى هارون أخذ شعره بيمينه، ولحيته بشماله، غضباً، ﴿ قال يا هارونُ ﴾، وإنما جرده من الواو؛ لأنه استئناف بيانى، كأنه قيل: ماذا قال موسى لهارون حين سمع جوابهم له؟ وهل رضى بسكوته بعدما شهد منهم ما شهد؟ فقيل: ﴿ قال ياهارونُ ما منعك إذْ رأيتهم ضلّوا ﴾ بعبادة العجل، وبلغوا من المكابرة إلى أن شافهوك بتلك المقالة الشنعاء، ﴿ ألا تتَّبعنِ ﴾ أى: أن تتبعنى. على أن «لا» مزيدة، أىْ: أىّ شيء منعك، حين رأيت ضلالتهم، من أن

(١) فى الأصول: والجبلة.

تتبعنى فيما أمرتك، وتعمل بوصيتى فتقاتلهم بمن معك؟. قال ابن عطية: والتحقيق: أن «لا» غير مزيدة، ويُقدر فعل، أى: ما منعك مجانبتهم وسوّل لك ألا تتبعن. هـ. قلت: وفيه نظر؛ لأن مجانبة هارون عليه السلام للقوم كانت حاصلة، وإنما أنكر عليه عدم مقاتلتهم، أو عدم لحوقه ليخبره، فتأمله. وقيل: المعنى: ما حملك على ألا تتبعن، فإن المنع من الشيء مستلزم للحمل على مقابله، وقيل: ما منعك أن تلحقنى وتُخبرنى بضلالهم، فتكون مفارقتك زجراً لهم، وهذا أظهر.

﴿ أفعَصَيتَ أمرى ﴾ بالصلابة فى الدين والمحاماة عليه، فإن قوله: (اخلفنى فى قومى) متضمن للأمر بهما حتماً، فإن الخلافة لا تتحقق إلا بمباشرة الخليفة ما كان يباشره المستخلِف لو كان حاضراً، والهمزة للإنكار، والفاء للعطف، أى: أخالفتنى فعصيتَ أمرى.

﴿ قال يابنَ أمَّ ﴾، خص الأم بالذكر؛ استعطافاً لحقها، وترقيقًا لقلبه، لا لما قيل من أنه كان أخاه لأمه، فإن الجمهور على أنهما شقيقان. قال له: ﴿ لا تأخذْ بلحيتى ولا برأسى ﴾ أى: بشعر رأسى. وقد كان عليه السلام أخذ بهما كما تقدم، من شدة غيظه وفرط غضبه لله، وكان حديداً متصلباً فى كل شيء، فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل، حتى فعل ما فعل. ثم اعتذر له أخوه بقوله: ﴿ إني خشيتُ ﴾ إن قاتلتُ بعضهم ببعض وتفرقوا، ﴿ أن تقول فرقتَ بين بنى إسرائيل ﴾ برأيك، مع كونهم أبناء رجل واحد، كما ينبئ عنه ذكرهم بذلك العنوان دون القوم ونحوه. وأراد عليه السلام بالتفريق ما يستتبعه القتال من التفريق: الذى لا يُرى بعده اجتماع، فخشيتُ أن تقول: فرقت بينهم، ﴿ ولم ترقبْ قولى ﴾ أى: قوله: (اخلفنى فى قومى وأصلح..)الخ، يعنى: إنى رأيت أن الأصلح هو فى حفظ الدماء والمداراة معهم، إلى أن ترجع إليهم، فلذلك استأنيتك؛ لتكون أنت المتدارك للأمر بما رأيت، لاسيما وقد كانوا فى غاية القوة، ونحن على القلة والضعف، كما يُعرب عنه قوله: ﴿ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ﴾(١). والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من اعتمد على غير الله، أو مال بمحبته إلى ما سوى الله، فهو فى حقه عجل بنى إسرائيل، فيقال له: كيف تركن إليه وهو لا يملك لك ضراً ولا نفعاً، وإنما فُتنت به عن السير إلى ربك، وانطمست به حضرة قدسك، فربك الرحمن الكريم المنان، فاتبع ما أمرك به من الطاعات، وكن عبداً له فى جميع الحالات، تكن خالصاً لله، حرّاً مما سواه. وبالله التوفيق.

(١) من الآية ١٥٠ من سورة الأعراف.

ثم وجه العتاب إلى السامرى، فقال:

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال﴾ موسى عليه السلام فى توبيخ السامرى: ﴿فما خطبُك يا سامرىُّ﴾ أى: ماشأنك، وما مطلوبك فيما فعلتَ من فتنة القوم؟ خاطبه بذلك؛ ليظهر للناس بطلانُ كيده باعترافه، وليفعل به وبما صنع من العقاب ما يكون نكالاً للمفتونين به، ولمن خلفهم من الأمم من بعده، ﴿قال﴾ السامرى فى جوابه: ﴿بَصُرْتُ بما لم يَبْصُرُوا به﴾ أى: علمت مالم يعلمه القوم، وفطنت لما لم يفطنوا به، أو رأيتُ مالم يروه، وهذا أنسب، وقد كان رأى جبريل عليه السلام، جاء راكباً فرساً، وكان كلما رفع الفرس يده أو رجله عن الطريق اليبس، اخضر ما تحت قدمه بالنبات، فعرف أن له شأناً، فأخذ من موطئه شيئاً من التراب. وذلك قوله تعالى: ﴿فقبضتُ قبضةً من أَثَرِ الرسولِ﴾ أى: أثر فرس الرسول، وهو جبريل، الذى أرسل إليك ليذهب بك إلى الطور.

وقال فى اللباب: كان السامرى من المقربين لموسى عليه السلام، فرأى جبريلَ راكباً على فرس، وقد دخل البحر فانفلق، فأخذ من أثره، ولم ير ذلك إلا من كان مع موسى. هـ. وقال قتادة: كان السامرى عظيماً فى بنى إسرائيل، من قبيلة يقال لها: سامرة، ولكن عدو الله نافق، بعدما قطع البحرَ مع بنى إسرائيل، فلما مرت بنو إسرائيل بالعمالقة، وهم يعكفون على أصنام لهم، وكانوا يعبدون البقر، ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾(١). فاغتنمها السامرى فاتخذ العجل. هـ.

وقال الكواشي: وإنما عرف السامرىُّ جبريلَ من بين سائر الناس؛ لأن أمه ولدته فى السنة التى يُقتل فيها الغلمان، فوضعته فى كهف؛ حذراً عليه، فبعث الله تعالى جبريل؛ ليربيه لِمَا قضى على يديْه من الفتنة. هـ. وضعّفه ابن عطية. قلت: ولعل تضعيفه من جهة النقل، وأما القدرة فهى صالحة ليقضى الله أمراً كان مفعولا.

(١) من الآية ١٣٨ من سورة الأعراف.

ثم قال: فأخذت تلك القبضة ﴿فنبذتُها﴾ في فم تلك الصورة المذابة من الحُلى، فصارت تخور، ﴿وكذلك سَوَّلَتْ لي نفسي﴾؛ أي: زينت. والإشارة: نعت لمصدر محذوف، أي: سَوَّلَتْ لى نفسى تسويلاً كائناً مثل ذلك التسويل البديع.

وحاصل جوابه: أن ما فعله إنما صدر منه بمحض اتباع هوى النفس الأمارة وإغوائها، لا لشيء آخر من البرهان العقلى أو الإلهام الإلهى، فعند ذلك ﴿قال﴾ له موسى عليه السلام: ﴿فاذهبْ﴾ أى: اخرج من بين الناس، ﴿فإنَّ لك في الحياة﴾ أى: فى مدة حياتك، ﴿أن تقولَ لا مِساس﴾ والمعنى: أن لك فى مدة حياتك أن تفارقهم مفارقة كلية، لا بحسب الاختيار، بل بحسب الاضطرار الملجىء إليه، وذلك أنه تعالى رماه بداء عقام[1]، لا يكاد يَمَسُّهُ أحد، أو يمسُّ أحداً، إلا حُمَّ من ساعته حمى شديدة، فتحامَى الناسَ وتحاموه، وكان يَصيح بأقصى طوقه: لامساس. وقيل: إن موسى عليه السلام نفاه من قومه، وأمر بنى إسرائيل ألا يخالطوه ولايقربوه. قال الحسن: (جعل الله عقوبة السامرى ألا يمَاس الناسَ ولا يماسوه. جعل ذلك له ولمن كان منه إلى يوم القيامة). فكأن الله تعالى شدَّد عليه المحنة، وجعل ذلك عقوبة له فى الدنيا. ويقال: ابتلى بالوسواس، وأصل الوسواس من ذلك الوقت. وقال قتادة: بقاياه اليوم يقولون ذلك: لا مساس. ويقال: إن موسى همَّ بقتل السامرى، فقال الله تعالى له: لا تقتله؛ فإنه سخى. ولعل الحكمة فى عقابه بهذه العقوبة: أن مخالطته للناس نشأت من هذه الفتنة، فعوقب بالطرد والبعد عنهم.

ثم قال له الله: ﴿وإنَّ لك موعداً﴾ أى: فى الآخرة، ﴿لن تُخْلَفه﴾ أى: لن يُخلفك الله ذلك الوعد، بل يُنجزه لك ألبتةَ، بعد ما عاقبك فى الدنيا. أو لن تجاوزه ولن تخطئه، بل لابد لك من ملاقاته. ﴿وانظر إلى إلهك﴾ العجل، ﴿الذي ظَلْتَ عليه عاكفًا﴾؛ مقيماً على عبادته، ﴿لنُحرِّقنه﴾ أى: والله لنحرقنه بالنار، وقيل بالمبْرد، مبالغةً فى الحرق، ويعضده قراءة: «لنحرُقنه»، ﴿ثم لنَنْسِفَنَّه﴾ أى: لنذرينه بالريح ﴿فى اليمِّ﴾؛ فى البحر، رماداً، أو مبروداً كأنه هباء، ﴿نَسْفاً﴾ بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر، وقد فعل عليه السلام ذلك كله حينئذ، كما يشهد بذلك الأمرُ بالنظر، وإنما لم يصرح به؛ تنبيهاً على كمال ظهوره، واستحالة الخلف فى وعده المؤكد باليمين.

ثم نبَّه على الحق فقال: ﴿إنما إلهكم الله﴾ أى: إنما معبودكم المستحق للعبادة هو الله. والجملة: استئنافية مسوقة لتحقيق الحق، إثر إبطال الباطل، بتلوين الخطاب وتوجيهه إلى الكل، ثم وصفه بقوله: ﴿الذى لا إله إلا هو﴾ وحده، من غير أن يُشاركه فى الألوهية شيء من الأشياء، ﴿وَسِعَ كل شيءٍ علما﴾ أى: وسع علمه كل ما من شأنه أن يُعلم. وجملة: (وسع): بدل من الصلة، أى: إنما إلهكم: الذى وسع كل شيء علماً لا غيره كائناً

(١) العُقام: الداء الذى لايبرأ منه.

ماكان، فيدخل فيه العجل دخولاً أولياً. وهذا ختم كلام موسى عليه السلام، بتقرير أمر التوحيد، كما كان افتتاح الوحي إليه به بقوله: ﴿ إننى أنا الله لا إله إلا أنا ﴾ . والله تعالى أعلم.

الإشارة: انظر أثر حافر فرس جبريل: كيف حييت به الأشباح، فكيف لا تحيا بتقبيل أثر وطء العارفين بالله، أو بتقبيل أقدامهم، بل كل من خضع لهم وقبّل أقدامهم حييت روحه، وشعشعت أنواره، وتحقق عرفانه، كما هو معلوم؛ لأن الخضوع لأولياء الله إنما هو خضوع لله؛ لأنهم يدلون على الله، ويبعدون عن كل ماسواه. وانظر السامرى؛ حين خضع لغير الله بمجرد هواه كيف طُرد وأُبعد، حتى صار مثلاً فى الناس. فقالت الصوفية: ينبغى للفقير أن يفر من أبناء جنسه، ويكون كالسامريِ، إذا رأى أحداً قال: لا مساس، وأنشدوا:

وخَفْ أبناءَ جنسك، واخش منهم ... كما تخشى الضراغم والسُّنْبتَا

وخالِطْهم، وزايلهم؛ حِذاراً ... وكن كالسامرى إذا لُمِسْتَ

والسنبتاء: كل حيوان جرىء، وقيل: اسم للنمر

ويقال، لمن ركن إلى شيء دون الله تعالى؛ مِنْ علم، أو عمل، أو حال، أو مقام، أو فنى فى مخلوق: (وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً لنُحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا) . وفى بعض الأثر: يقول الله: « يا عبدى، لا تركن لشيء دونى، فإنْ ركنتَ إلى علم جهّلناك فيه، وإن ركنتَ إلى عمل رددناه عليك، وإن ركنتَ إلى حال وقفناك معه، وإن ركنتَ إلى معرفة نكرناها عليك. فأى حيلة لك أيها العبد، فكن لنا عبداً أكن لك رباً» . أوكما قال. وإليه الإشارة بقوله: (إنما إلهكم الله...) الآية.

ثم ذكّر نبيه ﷺ بنعمة إطْلاعه على هذه القصص البديعة، فقال:

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ... ﴾

قلت: محل الكاف: نصب على أنه نعت لمصدر محذوف، أي: نقص عليك قصاً مثل ذلك القص المارّ. وما فى الإشارة من معنى البُعد؛ للإيذان بعلو درجته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبُعد منزلته فى الفضل. و(من أنباء): فى محل النصب، إما على أنه مفعول (نقُص)؛ باعتبار معناه، أى: نقص عليك بعض أنباء، وإما على أنه متعلق بمحذوف؛ صفة للمفعول، أى: نقص عليك خبراً كائناً من أخبار ما قد سبق.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ كذلك ﴾ أى: مثل ذلك القصص البديع الذى سمعته ﴿ نقصُّ عليك من أنباء ما قد سبق ﴾ أى: من أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية؛ ليكون تبصرة لك، وزيادة فى علمك، وتذكيراً لغيرك، وعبرة لمن يقف عليه ممن يأتى بعدك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: حكايات الصالحين وسِيَر العارفين جند من جنود القلب، فيها تنشيط لمن يريد اللحوق بهم، وتشويق لمقاماتهم، وتسلية لمن يُصاب في ذات الله بمثل ما أصابهم. وبالله التوفيق.

ثم ذكر وعيد من أعرض عن القرآن المشتمل على هذه الأنباء الحسان، فقال:

﴿... وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾

قلت: (من أعرض): شرطية أو موصولة، وعلى كلٍّ فهي صفة لذِكْراً، و(خالدين): حال من فاعل (يحمل)، أو الجمع، باعتبار معنى «مَن»، و (حِمْلاً): تمييز، تفسير لضمير (ساء)، والمخصوص محذوف، أي: ساء حملاً وزرهم، و (يوم يُنفخ): بدل من (يوم القيامة)، أو منصوب باذكر. و(يتخافتون): استئناف مبين لحالهم يومئذ، أو حال أخرى من (المجرمين). و(قاعاً): حال من ضمير (يذرها)، أو مفعول ثان ليذر. و(صفصفاً): حال ثانية، أو بدل من المفعول الثاني، وجملة: (لا ترى): استئناف مبين لما سبق من القاع الصفصف، أو حال أخرى، و(يومئذ): ظرف ليتبعون، أو بدل من (يوم القيامة).

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقد آتيناك﴾ يا محمد ﴿من لَّدُنا﴾؛ خصوص عنديتنا ﴿ذِكْراً﴾ عظيماً وقرآناً كريماً، جامعاً لكل كمال، مُخبراً بعجائب القصص والأمثال. ﴿مَنْ أعْرَضَ عنه﴾ أي: عن ذلك الذكْر العظيم الشأن، المستتبع لسعادة الدارين، بأن لم يؤمن به، ﴿فإنه يحملُ يومَ القيامة وِزْراً﴾ أي: عقوبة ثقيلة فادحة على كفره وسائر ذنونه. وتسميتها وزراً؛ لتشبيهها في ثقلها على المعاقَب، وصعوبة احتمالها، بالحمل الذي يُثقل الحامل ويُنقِض ظهره، وقيل: يُجسَّم، ويُجعل على ظهره في طريق الحشر، والأول أنسب لقوله:

﴿ خالدين فيه ﴾ أى: فى ذلك الوزر، وهو العذاب، أو فى ذلك الحمل الثقيل؛ لاستمراره فيه بعد دخول النار، ﴿ وساء لهم يوم القيامة حِملاً ﴾ أى: بئس حملهم هذا يوم القيامة، وإعادة يوم القيامة؛ لزيادة التهويل.

﴿ يوم يُنفَخُ فى الصُّور ﴾ أى: ذلك اليوم هو يوم يُنفخ فى الصور، أو: اذكر يوم ينفخ فى الصور نفخة البعث، ﴿ ونَحشُر المجرمين ﴾ أى: المشركين ﴿ يومئذ ﴾ أى: يوم ينفخ فى الصور، وأعاده، تهويلاً، حال كونهم ﴿ زُرْقًا ﴾ أى: زُرق العُيون. وإنما جُعلوا كذلك؛ لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب، وكانت تتشاءم بزرقة العين، كما قال الشاعر:

لَقَدْ زَرِقَتْ عَيْنَاكَ يا ابْنَ مُكَعْبَرٍ ... ألا كُلُّ ضَبِّيٍّ مِنَ اللؤْمِ أزرقُ.

وقيل زرقاً، أى: عُمياً؛ لأن حدقة العين تزرق من شدة العمى. وقيل: عِطاشاً؛ لأن سواد العين يتغير من شدة العطش ويزرق.

﴿ يَتخافَتُونَ بينهم ﴾ أى: يخفضون أصواتهم ويخفونها؛ لِمَا علا صدورهم من الرعب والهول. يقول فى تلك المخافتة بعضهم لبعض: ﴿ إن لبثتم إلا عَشْراً ﴾ أى: ما لبثتم فى الدنيا إلا عشر ليال؛ استقصاراً لمدة لبثهم فيها، لزوالها، أو لتأسفهم عليها، لما شهدوا الشدائد والأهوال، أو فى القبر، وهو الأنسب بحالهم، فإنهم، حيث يُشاهدون البعث الذى كانوا ينكرونه فى الدنيا ويعدونه من قبيل المحال لا يتمالكون من أن يقولوا ذلك؛ اعترافاً به، وتحقيقاً لسرعة وقوعه، كأنهم قالوا: قد بعثتم وما لبثتم فى القبر إلا مدة يسيرة. وقيل: ما بين النفختين، وهو أربعون سنة. رُوى أنه يرفع العذاب عن الكفار فى تلك المدة، فيستقصرون تلك المدة إذا عاينوا أهوال يوم القيامة، لأنهم فى طول مدتهم فى عذاب القبر لا يعقلون.

قال تعالى: ﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾، وهو مدة لبثهم، أو نحن عالمون اليوم بما يقولون فى ذلك الوقت قبل وقوعه، ﴿ إذْ يقولُ أمثلُهم طريقةً ﴾ أى: أعدلهم رأياً وأوفاهم عقلاً: ﴿ إن لبثتم إلا يوماً ﴾، ونسبة هذا القول إلى أمثلهم: استرجاع منه تعالى، لكن لا لكونه أقرب إلى الصدق، بل لكونه أدل على شدة الهول.

﴿ ويسألونك عن الجبال ﴾ أى: عن مآل أمرها، وقد سأل عنها رجل من ثقيف، وقيل: مشركو مكة، على طريق الاستهزاء، ﴿ فقلْ ﴾ لهم: ﴿ يَنسِفُها ربى نَسْفًا ﴾ أى: يجعلها كالرمل، ثم يُرسل عليها الرياح فتفرقها، أو يقلعها ويطرحها فى البحار كالهباء المنثور، ﴿ فيذَرُها ﴾ أى: يترك ماكان تحتها من الأرض ﴿ قاعًا

صفصفاً ﴾ أي: أرضاً مستوية؛ لأن الجبال إذا سُويت، وجُعل سطحها مساوياً لسائر أجزاء الأرض، فقد جعل الكل سطحًا واحدا. فالضمير في (يذرها) إما للجبال، باعتبار أجزائها السافلة، الباقية بعد النسف، وهي مقارها ومراكزها، وإما للأرض، المدلول عليها بقرينة الحال؛ لأنها الباقية بعد نسف الجبال.

والقاع والقيعة: ما استوى من الأرض وصلُب، وقيل: السهل، وقيل: مالانبات فيه. والصفصف: الأرض المستوية الملساء، فإن أجزاءها صف واحد من كل جهة، ﴿ لا ترى فيها ﴾ أي: في الأرض الذي نسفت جبالُها ﴿ عِوَجًا ﴾ أي: اعوجاجاً وانخافضاً، ﴿ ولا أمْتًا ﴾؛ نتوءاً وارتفاعاً. قال ابن عباس: العوج: الأودية، والأمت: الروابي. وقال مجاهد: العوج: الانخفاض، والأمت: الارتفاع؛ والمعنى: أنك، إن تأملت بالمقاييس الهندسية، وجدتها مستوية الجهات. والخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية.

﴿ يومئذ ﴾ أي: يوم إذ نسفت الجبال، ﴿ يتبعون الداعيَ ﴾ أي: يتبع الناسُ داعي الله تعالى إلى المحشر، وهو إسرافيل عليه السلام، يدعو الناس بعد النفخة الثانية، قائمًا على صخرة بيت المقدس: أيها الناس هلموا إلى ربكم، بعد أن يدعوهم إلى الخروج من قبورهم، قائلاً: أيتها العظام النخرة، والأوصال المتمزقة، واللحوم المتفرقة؛ قوموا إلى العرض والحساب، فيُقبلون من كل جانب منتشرين، كأنهم جراد منتشر، لا يدرون أين يذهبون، فيُنادى حينئذ من الصخرة للجمع للحساب. هذا ما تدل عليه الأحاديث والأخبار.

وقوله تعالى: ﴿ لا عِوَجَ له ﴾ أي: لا يعوجُ له مدعو ولا يعدل عنه، فلا يزيغ عنه، بل كلهم يقصدون صوته، من مشارق الأرض ومغاربها وجوانبها. والتقدير: لا عوج للصوت عن أحد، بل يصل إليه أينما كان، ويتوجه إليه حيث كان، ﴿ وخشعتِ الأصواتُ للرحمن ﴾ أي: خضعت وسكنت لهيبته ﴿ فلا تسمع إلا همساً ﴾ أي: صوتاً خفياً. والهمس: صوت وطء الأقدام في نقلها إلى المحشر، أي: انقطعت أصوات اللسان، فلا تسمع إلا همس الأقدام في مشيها إلى المحشر، من شدة الهيبة والخوف.

﴿ يومئذٍ لا تنفعُ الشفاعة ﴾ أي: يوم إذ يقع ما ذكر من الأمور الهائلة لا تنفع شفاعة أحد، ﴿ إلا من أذِنَ له الرحمنُ ﴾ في الشفاعة، كالأنبياء والأولياء والعلماء الأتقياء، ﴿ ورَضِيَ له قولاً ﴾ أي: ورضي قوله في المشفوع له بحيث يقبل شفاعته. وقيل: (ورضي له قولا) في الدنيا، وهو: لا إله إلا الله، مخلصا من قلبه.. أو: إلا من أذن له الرحمن أن يشفع فيه، ورضي لأجله قولاً من الشافع. وهذا أليق بمقام التهويل. وأما من عداه فلا تنفع، وإن وقعت؛ لقوله تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾(١).

(١) الآية ٤٨ من سورة المدثر.

﴿يعلم ما بين أيديهم﴾ أي: ما تقدمهم من الأحوال، أو من أمر الدنيا، ﴿وما خلفهم﴾: وما بعدهم مما يستقبلونه، أو من أمر الآخرة، ﴿ولا يُحيطون به علماً﴾ أي: لا تُحيط علومهم بذاته المقدسة، بحيث يدركون كنْه الربوبية، أو: لا تحيط علومهم بمعلوماته تعالى. قال القشيري: الكناية[1] في قوله: (به)، يحتمل أن تعود إلى (مابين أيديهم وما خلفهم)، ويحتمل أن تعود إلى الحقّ ـ سبحانه ـ وهو طريقة السَّلَف، يقولون: يُعلَم الحق ولا يحيط به العلم، كما قالو: إنه يُرى ولا يُدْرَك.هـ.

الإشارة: وقد آتيناك من لدُنّا ذِكْراً، أي: قرآناً يجمع القلوبَ على الله، ويدل على مشاهدة الله. من أعرض عنه ـ أي: عن الله ـ ولم يتوجه إليه بكليته، فإنه يحمل وِزراً، يثقله عن الترقى إلى مقام العارفين، فيبقى مُخلداً فى حضيض الغافلين، وذلك فى يوم يجمع اللهُ فيه الأولين والآخرين، فيُكرم المتقين، ويُهين المجرمين، حيث يزول عنهم ما كانوا فيه من الدعة والسعة، كأنهم مالبثوا فيه غير ساعة.

ويسألونك، أيها العارف، عن جبال العقل، حين تطلع على نور قمره شمسُ العرفان، فقل ينسفها ربى نسفا، فيذر أرض النفس، حين استولت عليها أسرار المعانى، قاعاً صفصفاً، لاتصالها بفضاء المعانى، حين ذهبت أغيار الأوانى، لاترى فيها انخفاضاً ولا ارتفاعا. وإنما ترى وجوداً متصلا، وبحراً طامساً، ليس فيه بُعدٌ ولا قُرب، ولا علو ولا سفل، وفى ذلك يقول الشاعر:

من أبصر الخلق كالسرابِ	فقد ترقى عن الحجابِ
إلى وجـود تراه رَتْقًـا	بـلا ابتعـاد ولا اقتراب
ولم يشاهد به سـواه	هناك يُهدى إلى الصواب
فلا خطـاب به إليـه	ولا مشير إلى الخطاب

والمراد بالخلق: جميع الكائنات، فلا خطاب من العبد إلى ربه، لمحو العبد من شدة القرب، ولم تبق له إشارة ولا عبارة. وفى الحِكَم: «ما العارفُ مَنْ إذا أشار وجد الحق أقرب إليه من إشارته، بل العارف من لا إشارة له؛ لفنائه فى وجوده، وانطوائه فى شهوده». وقالوا: من عرف الله كلّ لسانه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلاهمسا﴾. وهذا بعد اتباع الداعى إلى الله وصحبته، من غير عوج عنه، ولا خروج عن رأيه، حتى يقول له: ها أنت وربك. فحينئذ تحصل الهيبة والتعظيم، فلا يقدر أحد أن يرفع صوته، وهو فى حضرة الملك الكريم، وهذا شأن الصوفية، كلامهم كله تخافت وتسارر؛ لغلبة الهيبة عليهم.

(١) أى : الضمير.

قوله تعالى: ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة ﴾ أي: في دخول الحضرة، (إلا من أذن له الرحمن) في التربية والترقية، (ورضيَ له قولاً)، وهو ذكر الله، يأمر به من أراد شفاعته فيه، حتى تستولي عليه أنوار الذكر، فيدخل مع الأحباب، ويجلس على بساط الاقتراب، فحينئذ يحصل له العلم بالله، على نعت الذوق والوجدان، وشهود العيان، لا على نعت الدليل والبرهان.

وقوله تعالى: ﴿ ولا يُحيطون به علماً ﴾ إشارة إلى عدم الإحاطة بكُنْه الربوبية لمن دخل الحضرة، فلو حصل لهم الإحاطة بالكنْه لم يبق لهم ترَقٍّ، وكيف؟ وهم يترقون في أسرار الذات وأنوار الصفات دائماً سرمداً، في هذه الدار وفي تلك الدار!، ففي كل ساعة يتجدد لهم من لذيذ المشاهدات وأنوار المكاشفات، ماتعجز عنه العقول، وتكِلُّ عنه طروس النقول. نعم يحصل لهم العلم الضروري بالذات العلية، ويُشاهدون ما تجلى من أسرارها وأنوارها، وتسرح فكرتهم في بحر الأولية والآخرية، والظاهرية والباطنية، والعظمة الفوقية وما تحت الثرى، ويخوضون في بحار الأحدية، ويتفكرون في قاموس كنه الربوبية، فلا خوف ولا ملل، من غير إحاطة، كما تقدم. والله تعالى أعلم.

فإذا رجعوا إلى مشاهدة الرسوم خضعت وجوههم للحي القيوم، كما قال تعالى:

﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾

قلت: (وقد خاب..) الخ: استئنافٌ، تعليلٌ ما لأجله عنت وجوههم، أو اعتراض، كأنه قيل: خابوا وخسروا، أو حال من الوجوه، و(مَنْ): عبارة عنها، مُغنية عن ضميرها، أي: خضعت الوجوه، والحال أنها خابت حين حملت ظلما. وقيل: (الوجوه) على العموم، فالمعنى حينئذ: وقد خاب من حمل منهم ظلماً، ومن قرأ: «فلا يخف»: فعلى النهي، وهو جواب، ومن قرأ بالرفع: فعلى الخبر، أي: فهو لا يخاف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وعَنَتِ الوجوهُ للحي القيوم ﴾ أي: ذلت وخضعت خضوع العناة، أي: الأسارى في يد الملك القهار، ومنه قيل للأسير: «عانٍ»، أي: خاضع ذليل، وفي ذلك يقول أمية بن أبي الصلت:

مَلِيكٌ عَلَى عَرْشِ السَّماءِ مُهَيْمِنٌ لِعِزَّتِـه تَعْنُو الوُجُـوهُ وتَسْجُدُ

ولعلها وجوه المجرمين، كقوله تعالى: ﴿ سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾(١)، ويؤيده وصله بقوله: ﴿ وقد خابَ من حَمَلَ ظلماً ﴾ أي: وعنت الوجوه؛ لأنها قد خابت وخسرت حين حملت ظلما.

(١) من الآية ٢٧ من سورة الملك.

قال ابن عباس رضي الله عنه: (خسر من أشرك بالله ولم يتب)، فإنما تذل وجوه من أشرك بالله، وأما أهل التوحيد فأشار إليهم بقوله: (ومن يعمل من الصالحات...) الخ، فهو قسيمٌ لقوله: (وقد خاب من حمل ظلما)، لا لقوله: (وعنت الوجوه).

وإذا حملنا (عنَت) على مطلق الخضوع أو السجود كان عاماً؛ لأن الخلائق كلها تخضع لله فى ذلك الوقت. ثم فصلهم: فمن حمل ظلما فقد خاب وخسر، ﴿ومن يعمل من الصالحات﴾ أى: بعضها، ﴿وهو مؤمن﴾، فالإيمان شرط فى صحة الطاعات وقبول الحسنات، ﴿فلا يخاف ظُلماً﴾ أى: منع ثواب قد استحقه بموجب الوعد، أو زيادة عقاب على موجب سيئاته، ﴿ولا هَضْماً﴾ أى: كسراً ونقصاً من ثواب حسناته، وأصل الهضم: النقص والكسر؛ يقال: هضمت لك من حقك، أى: حططت، وهضمت الطعام: حططته إلى أسفل المعدة، وامرأة هضيمة الكشح: أى: ضامرة البطن، فالحق تعالى إنما تعرض لنفى الظلم والهضم عن عامل الصالحات؛ لأن نفى ذلك إنما يكون مع العمل، ففيه يتوهم الهضم والنقص، وأما بدونه فلا.. نعم، الإيمان المجرد نافع على مذهب أهل السنة، لكن صاحبه على خطر فى نفوذ الوعيد، ولو غفر له، فإنه ناقص عن درجة عامل الصالحات، كما علم شرعا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا سرحت الفكرة وجالت فى أقطار الملكوت وأسرار الجبروت، وتحققت بعدم الإحاطة، رجعت إلى عش العبودية، وخضعت للحى القيوم، وقد خاب وخسر من لم يبلغ إلى هذا المقام، حين حمل ظلماً بالميل إلى الشيء من السوى، بغلبة الطبع والهوى، وأما من نهض إلى مولاه، واشتغل بالأعمال التى تقربه إلى حضرته، فلا يخاف ظلماً ولا هضما؛ فإن الله يرفع العبد على قدر همته، وينعمه على قدر طاعته. وبهذا جاء الوحى والتنزيل، كما قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾

قلت: (وكذلك): عطف على قوله: (كذلك نقص)، و«ذلك»: إشارة إلى إنزال ما سبق من الآيات المتضمنة للوعيد، المنبئة عما سيقع من أهوال يوم القيامة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وكذلك ﴾ أي: ومثل ذلك الإنزال المتقدم، ﴿ أنزلناه ﴾ أي: القرآن كله، وإضماره، من غير سبقية ذكره؛ للإيذان بنباهة شأنه، وكونه مركوزاً في العقول، حاضراً في الأذهان، حال كونه: ﴿ قرآناً عربياً ﴾؛ ليفهمه العرب، ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز، الدال على كونه خارجاً عن طوق البشر، نازلاً من عند خلاّق القوى والقُدَر. ﴿ وصرَّفنا فيه من الوعيد ﴾ أي: كررنا فيه بعض الوعيد، أو من جنس الوعيد، ﴿ لعلهم يتقون ﴾ أي: كي يتقوا الكفر والمعاصي بالفعل، ﴿ أو يُحدِثُ لهم ذِكْراً ﴾؛ اتعاظاً واعتباراً يؤديهم إلى الاتقاء، ﴿ فتعالى اللهُ ﴾ أي: تعاظم شأنه عما يصفه الكفرة، وتهاون العصاة، الذين لم يحدث فيهم القرآن زجراً ولا وعظاً، أي: ارتفع بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأفعاله، ﴿ الملكُ ﴾ لها، النافذ أمره ونهيه، الحقيق بأن يُرجى وعده، ويُخشى وعيده، ﴿ الحقُّ ﴾ في ألوهيته لذاته، أو الثابت الذي لا يمكن عدمه، أزلاً وأبداً.

﴿ ولا تَعْجَلْ بالقرآنِ من قبل أن يُقضى إليك وحيُه ﴾ أي: وإذا كنا أنزلنا عليك قرآناً عربياً، وصرفنا فيه من الوعيد، فأَمْهِلْ عند نزوله، حتى يقرأه عليك الملك، ولا تعجل به قبل أن يتم وحيه، ويفرغ من قراءته عليك. كان ﷺ، إذا ألقى جبريلُ عليه الوحي، يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة، لكمال اعتنائه بالتلقي والحفظ، فنهى عن ذلك؛ لأنه ربما يشغله التلفظ بكلمة عن سماع ما بعدها، ولأنَّ المراد من الألفاظ فهم المعاني المتضمنة للعلوم التي لا حصر لها، ولذلك أمره باستفاضة العلم واستزادته منه فقال: ﴿ وقل ربِّ زِدْني علماً ﴾ أي: وقل في نفسك، أو بلسانك: رب زدني علما، والمراد: سل الله عز وجل زيادة العلم به وبأحكامه؛ إذ لا نهاية لعلمه كما لانهاية لذاته، فإنه الموصل إلى مطلبك دون الاستعجال. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً، يُعرب عن كمال ظهور ذاته وأنوار صفاته، وصرفنا فيه من الوعيد، لمن تخلف عن شهوده، بعد كمال ظهوره، لعلهم يتقون ما يحجبهم عن رؤيته، أو يُحدث لهم ذكراً، أي: شوقاً يُزعجهم إلى النهوض إلى حضرته، والوصول إليه، فتعالى الله الملك الحق أن يتصل بشيء، أو يتصل به شيء(١)، وإنما الوصول إليه: العلم بإحاطته ووحدة ذاته.

ولا تعجل، أيها العارف، بالقرآن الذي ينزل على قلبك من وحي الإلهام، من قبل أن يُقضى إليك وحيه، فإنَّ الورادات الإلهية تأتي مجملة، وبعد الوعي يكون البيان، (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه)، ولكن استزِد من ربك العلوم اللدنية والكشوفات الإلهية، أي: لا يكن همك استعجالَ الواردات أو بقاءها، وليكن همك استزادة العلوم ومعرفة واهبها، فإن العلوم وسائل لمعرفة المعلوم، والوصول للحي القيوم. وبالله التوفيق.

---

(١) رحم الله الشيخ ابن عجيبة، وأثابه على هذه الكلمة العظيمة. ولنا أن نفهم منها نفي الحلول والاتحاد، الذي هو مذهب أهل الزيغ والإلحاد.

ثم بيّن تصريف الوعيد على ارتكاب العصيان وبيان منشئه، وهو عداوة الشيطان فقال: (ولقد..) الخ.. أوتقول: لما نهاه عن العَجَلة لأجل خوف النسيان، قال له: قد نسى أبوك آدم، فالنسيان من طبع الإنسان، فقال:

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾

قلت: يقال: عهد إليه الملك، وأوعد إليه، وتقدم إليه: إذا أمره ووصاه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ الله ﴿لقد عَهِدْنا﴾ وتقدمنا ﴿إلى آدم﴾ من غرور الشيطان وعداوته، ووصيناه ألا يغتر به، ﴿فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك﴾، فلا تغتر بنصحه، ﴿فنَسِيَ﴾ ذلك العهد ولم يحتفل به، حتى غفل عنه، واغتر بإظهار نصحه، حتى أكل من الشجرة، متأولاً أن النهى للتنزيه، أو عن عين الشجرة، لا عن جنسها، فأكل من غيرها، ﴿ولم نَجِدْ له عَزْماً﴾ أي: ثبات قدم، وحزماً فى الأمور، إذ لو كان كذلك لما غرّه الشيطان بوسوسته، وقد كان ذلك منه عليه السلام فى بدء أمره، قبل أن يجرب الأمور؛ ويتولى حارها وقارها، ويذوق شريْها وأريها(١). وعن النبى ﷺ: «لو وُزنت أحلام بنى آدم ـ أى: عقولهم ـ بحلم آدم، لرجح حلمه»(٢).

وقيل: (ولم نجد له عزما) على الذنب، فإنه أخطأ، أو تأول، ولم يتعمد، وأما قوله: (وعصى...)؛ فلعلو شأنه وقُربه عُد عصياناً فى حقه، «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

ثم شرع في بيان المعهود، وكيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه، فقال: ﴿وإذْ قلنا﴾ أي: واذكر وقت قولنا ﴿للملائكة اسجدوا لآدم﴾، وتعليق الذكر بالوقت، مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث؛ للمبالغة فى إيجاب ذكرها، فإن الوقت مشتمل على تفاصيل الأمور الواقعة فيه، فالأمر بذكره أمر بذكر تفاصيل ما وقع فيه

(١) الشّري: الحنظل، والأَري: العسل.

(٢) أخرجه ابن جرير فى التفسير (١٦/٢٢١)، وسعيد بن منصور، وابن عساكر، وابن المنذر، كما عزاه لهم السيوطى فى الدر المنثور (٤/٥٥٣) عن أبى أمامة الباهلى، موقوفاً.

بالطريق البرهاني، أي: اذكر ماوقع في ذلك الوقت منا ومنه، حتى يتبين لك نسيانه وفقدان عزمه، فقد أمرنا الملائكة بالسجود ﴿ فسجدوا ﴾ كلهم﴿ إلا إبليس أَبَى ﴾ السجود واستكبر، أو فعل الإباء وأظهره.

﴿ فقلنا ﴾ عقب ذلك، اعتناء بنصحه، وهو العهد الذي عهدناه إليه: ﴿ يا آدمُ إنَّ هذا ﴾ الذي رأيته فَعَلَ ما فعل ﴿ عدوٌ لك ولزوجك ﴾ ؛ حيث لم يرض بالسجود لك، ﴿ فلا يُخرجنكما من الجنة ﴾ أي: لا يكونن سبباً لإخراجكما من الجنة، والمراد: نهيهما عن الاغترار به، ﴿ فتشقى ﴾: جواب النهي، أي: فتتعب بما ينالكما من شدائد الدنيا، من الجوع والعطش، والفقر والضر، وتعب الأبدان في تحصيل المعاش واللباس، فيكون عيشك من كد يمينك. قال ابن جبير: (أهبط إلى آدم ثور أحمر، فكان يَحرث عليه، ويمسح العرق عن جبينه، فهو شقاؤه). ولم يقل: فتشقيا؛ لأنه غلّب الذّكَرَ؛ لأن تعبه أكثر، مع مراعاة الفواصل.

قال تعالى له: ﴿ إنَّ لك ﴾ يا آدم ﴿ أن لا تجوع فيها ولا تَعْرى ﴾ من فقد اللباس، ﴿ وأنك لا تظمأ ﴾: لا تعطش ﴿ فيها، ولا تضحى ﴾ ؛ تبرُز للشمس فيؤذيك حرها، إذ ليس في الجنة شمس ولا زمهرير. والعدول عن التصريح له بما في الجنة من فنون النعم من المآكل والمشارب، والتمتع بأصناف الملابس البهية والمساكن المرضية ـ مع أن فيها من الترغيب في البقاء فيها مالا يخفى ـ إلى ما ذكر من نفي نقائضها، التي هي الجوع والعطش والعري والضحو؛ لتنفير تلك الأمور المنكرة؛ ليبالغ في التحامي عن السبب المؤدي إليها، على أن الترغيب قد حصل له بما أباح له من التمتع بجميع ما فيها، سوى ما استثنى من الشجرة، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾[1]، وقد طوى ذكرها هنا؛ اكتفاءً بما في موضع آخر، واقتصر هناك على ما ذكر من الترغيب المتضمن للترهيب، ونفيُ الجوع وما بعده عن أهل الجنة لأنهم لا يُعْوزون طعاماً ولا شراباً ولا كِنّاً، بل كلما تمتعوا بشيء مما ذكر، أتبعهم بأمثاله أو أفضل منه، من غير أن ينتهوا إلى حد الضرورة.

قال تعالى: ﴿ فوسوس إليه الشيطانُ ﴾ أي: أنهى إليه وسوسته، أو أسرها إليه، ﴿ قال ﴾ فيها: ﴿ يا آدمُ هل أدلُّكَ على شجرة الخُلْدِ ﴾ ؟ أي: شجرة من أكل منها خلد، ولم يمت أصلا، سواء كان على حاله، أو بأن يكون ملكاً، ﴿ و ﴾ أدلك على ﴿ مُلكٍ لا يَبلَى ﴾ أي: لا يفنى ولا يزول، ولا يَخْتَلُّ بوجه من الوجوه، ﴿ فأكلا منها فبدتْ لهما سوآتُهما ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: عريا عن النور الذي كان الله تعالى ألبسهما، حتى بدت فروجهما. ﴿ وطفقَا يَخْصِفَان ﴾ ؛ يرْقَعَانِ ﴿ عليهما من ورقِ الجنة ﴾ ، وقد تقدم في الأعراف[2].

(١) من الآية ٣٥ من سورة البقرة.

(٢) راجع تفسير الآية ٢٢ من سورة الأعراف.

الإشارة: ولقد عهدنا إلى آدم ألا ينسانا، وألا يغيب عن شهودنا بمُتْعَةِ جنتنا، فنسي شهودنا، ومال إلى زخارف جنتنا، فأنزلناه إلى أرض العبودية، حتى يتطهر من البقايا، وتكمل فيه المزايا، فحينئذ نُسكنه في جوارنا، ونكشف له عن حضرة جمالنا، على سبيل الخلود في دارنا.

قال جعفر الصادق: عهدنا إلى آدم ألا ينسانا، فنسي واشتغل بالجنة، فابتلى بارتكاب النهى، وذلك أنه ألهاه النعيم عن المنعم، فوقع من النعمة في البلية، فأُخرج من النعيم والجنة؛ ليعلم أن النعيم هو مجاورة المنعم، لا الالتذاذ بالأكل والشرب. فلا ينبغى لأحد أن ينظر إلى ما سواه، نسأل الله تعالى أن يمدنا وإياك بالتوفيق والعناية.هـ. قال بعض الحكماء: إنما نسى آدم العهد؛ لأنه لما خلقت له زوجته أوقع الله فى قلبه الأنس بها، وابتلاه بشهوات النفس فيها، فرأى فى وجهها شجرة الحسن بادية، وشهوة الوقاع عليه غالبة. هـ. أى: فترك النظر إلى جمال المعانى، واشتغل بحس الأوانى، فأفضى به إلى ترك الأدب، ولزمه التعب، فليحذر المريد جهده من الميل إلى الحظوظ، وليكن على حذر من الغفلة حين تناولها، والعصمةُ من الله.

وقوله تعالى: ﴿ ولم نجد له عزمًا ﴾، قال الحاتمى: أى: على انتهاك الحرمة، بل وقع بمطالعة قدَر سابق، أنساه ما توجه على التركيب من خطاب الحِجْر. هـ. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسي: وبما أشار إليه من مطالعة القدر يتضح لك قوله ﷺ: «فحج آدمُ موسى»(1)، وليس ذلك لغيره إن لم يكن مجبوراً ومأخوذاً عنه، وهذا القدر هو الفارق بين ما يجرى من المخالفة على الولى وغيره. وقد نبه على ذلك الجنيد بقوله: (وكان أمر الله قدراً مقدورا)، فأشار لغلبة القدر وقهره، من غير وجود عزم من العبد.هـ. قلت: احتجاج آدم وموسى ـ عليهما السلام ـ لم يكن فى عالم الأشباح، الذى هو محل التشريع، إنما كان فى عالم الأرواح، الذى هو محل التحقيق، فالنظر فى ذلك العالم الروحانى، إنما هو لسر الحقيقة، وهو ألا نسبة لأحد فى فعل ولا ترك، فمن احتج بهذا غلَب، بخلاف عالم الأشباح، لا يصح الاحتجاج بالقدر؛ لأن فيه خرق رداء الشريعة. فتأمله.

وقال فى التنوير: اعلم أن أكل آدم من الشجرة لم يكن عناداً ولا خلافاً، فإما أن يكون نسى الأمر، فتعاطى الأكل وهو غير ذاكر، وهو قول بعضهم، ونحمل عليه قوله سبحانه: (فَنَسِيَ)، وإن كان تناوله، ذاكراً للأمر، فهو إنما تناول لأنه قيل له: ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ... ﴾(2) الآية، فلحبه فى الله، وشغفه به، أحب مايؤديه إلى الخلود فى جواره والبقاء عنده، أو ما يؤديه إلى الملَكِية؛ لأن آدم ﷺ عاين قُرب الملائكة من الله،

(1) أخرجه البخارى فى (القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله)، ومسلم فى (القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام) عن أبى هريرة. واللفظ: «حاج موسى آدم، فقال له: أنت الذى أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: ياموسى أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومنى على أمر كتبه الله علىّ قبل أن يخلقنى؟ فحج آدم موسى».

(2) من الآية ٢٠ من سورة الأعراف.

فأحب أن يأكل من الشجرة؛ ليتناول الملَكية، التى هى فى ظنه أفضل ، لاسيما وقد قال سبحانه: ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾[1]، قال آدم ﷺ: (ما ظننتُ أن أحداً يحلف بالله كاذبا)، فكان كما قال الله سبحانه: ﴿ فدلاهما بغرور ﴾.هـ.

وسُئل ابن عطاء عن قوله تعالى: ﴿هل أدلك على شجرة الخلد﴾؟ فقال: قال آدم ﷺ: يارب لِمَ أدّبتنى، وإنما أكلتُ من الشجرة طمعًا فى الخلود فى جوارك؟ فقال الله: يا آدم طلبتَ الخلود من الشجرة لا منى، والخلود بيدى وملكى، فأشركْتَ بى، وأنت لا تعلم، ولكن نبهتك بالخروج من الجنة حتى لا تنسانى فى وقت من الأوقات.هـ. والحاصل: أنه إمَّا أن يُحمل النسيان على حقيقته، ويكون معه وقوع الأكل بمطالعة القدر وقبضة الجبر، ولا يُعارضه: ﴿مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة﴾؛ لأنه اتفق ذلك صورة وظاهراً، مع شهود الجبر باطناً، وإمَّا أن يُحمل النسيان على الترك، بتأويل أن النهى ليس على التحتم، فتركه لما أمل من جوار الحق وقربه فى الأكل، فقدمه؛ لأنه أرجح عنده. قاله المحشى.

وقوله تعالى: ﴿ فوسوس إليه الشيطان ... ﴾ الآية، يؤخذ منه سد باب التأويلات والرخص فى الأمر الممنوع شرعاً، فإن أُبيح بعضه ومُنع البعض فلا توسعة، فلأن تترك مباحاً خير من أن تقع فى محرم، وقد كان السلف يتركون مائة جزء من المباح، خوفاً من الوقوع فى المحرم. والله الهادى إلى سواء الطريق.

ثم قال تعالى:

﴿ ... وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾

---

(١) الآية ٢١ من سورة الأعراف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وعصى آدمُ ربَّه ﴾ بما ذكر من أكل الشجرة ﴿ فغوى ﴾ أي: ضل عن مطلوبه، الذي هو الخلود، بل ترتب عليه نقيضه، فكان تأميل ذلك باطلاً فاسداً؛ لأنه خلاف القدر، أو عن الرشد، حيث اغتر بقول العدو. وقال الكواشي: فعل فعلاً لم يكن له فعله، أو أخطأ طريق الحق، حيث طلب الخلد بأكل المنهي عنه، فخاب ولم ينل مراده. هـ. وفي وصفه ﷺ بالعصيان والغواية، مع صغر زلته، تعظيم لها، وزجر بليغ لأولاده عن أمثالها.

﴿ ثم اجتباه ربُّه ﴾، أي: اصطفاه وقرّبه إليه، بالحمل على التوبة والتوفيق لها. وفي التعرض لعنوان الربوبية، مع الإضافة إلى ضميره، مزيد تشريف له ﷺ، يعني: آدم. ﴿ فتاب عليه ﴾ أي: قَبِلَ توبته حين تاب هو وزوجته، قائلين: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ... ﴾[1] الآية. ﴿ وهَدَى ﴾ أي: هداه إلى الثبات على التوبة والتمسك بأسباب العصمة. وإفراد آدم ﷺ بقبول توبته واجتبائه؛ لأصالته في الأمور، واستلزام قبول توبته لقبول توبتها. ﴿ الرجالُ قوامون على النساءِ ﴾[2].

﴿ قال اهبطا منها جميعًا ﴾، وهو استئناف بياني، كأنّ سائلاً قال: فما قال تعالى بعد قبول توبته؟ فقيل: قال له ولزوجته: (اهبطا منها) أي: انزلا من الجنة إلى الأرض، حال كونكم ﴿ بعضُكم لبعضٍ عدوٌّ ﴾ أي: متعادين في أمر المعاش، كما عليه الناس من التجاذب والتحارب والاختلاف في الدين. والجمع؛ لأنهما أصل الذرية ومنشأ الأولاد. وفي اللباب: ولما أُهبطوا إلى الأرض ألقى آدمُ يده تحت خده، وبكى مائة سنة، وألقت حواءُ يدها على رأسها، وجعلت تصيح وتصرخ، فبقيت سنّة في النساء. ولم يزل آدم يبكي حتى صار بخديه أخاديد من كثرة الدموع، وجرى من عينيه على الأرض جدولان، يجريان إلى قيام الساعة. وأُهبط آدم على ورقة من ورق الجنة، كان يتستر بها، وفي يده قبضة من ريحان الجنة، فلما اشتغل بالبكاء أدارتها الرياحُ في أرض الهند، فصار أكثر نباتها طيباً. انظر بقية كلامه.

﴿ فإمّا يأتينكم مني هُدىً ﴾ أي: هداية من رسول وكتاب يهدي إلى الوصول إليَّ، أي: سيأتيكم مني رسل وكتاب. والخطاب لهما بما اشتملا عليه من ذريتهما. ﴿ فمن اتبع هُداىَ ﴾ بأن آمن بالرسل وبما جاءوا به من عند الله ﴿ فلا يضلُّ ﴾ في الدنيا ﴿ ولا يشقى ﴾ في الآخرة. ووضع الظاهر موضع المضمر يعني: من اتبع هداي، مع الإضافة إلى ضميره تعالى؛ لتشريفه والمبالغة في إيجاب اتباعه. وعن ابن عباس رضي الله عنه: (من قرأ الفرقان، واتبع ما فيه، هداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، وذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿فمن اتبع هداي﴾[3]؛ أي: كتابي ورسولي، ﴿فلا يضل﴾ في الدنيا، ﴿ولا يشقى﴾ في الآخرة.) وفي لفظ آخر: (أجار الله

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة الأعراف.
(٢) من الآية ٣٤من سورة النساء.
(٣) أخرجه الطبري في التفسير (١٦/٢٥٥) موقوفاً، وعزاه السيوطي في الدر (٤/٥٥٦) لابن أبي شيبة والطبراني وأبي نعيم في الحلية وابن مردويه، مرفوعاً.

تابع القرآن أن يضل فى الدنيا ويشقى فى الآخرة) . قال ابن عرفة: والعطف بالفاء فى قوله: (فإما..) الخ، إشارة إلى أن العداوة سبب فى أن يبعث لهم الرسل يهدونهم إلى طريق الحق، فضلاً منه تعالى، ولذلك أتى «بإن»، دون «إذا» المقتضية للتحقيق الموهم للوجوب . فانظره.

﴿ ومن أعرَضَ عن ذِكْرِى ﴾؛ عن القرآن، أو عن الهُدى الذاكر لى والداعى إلىّ، ﴿ فإنَّ له معيشةً ضنكًا ﴾: ضيقاً، مصدر وصف به، ولذلك يستوى فيه المذكر والمؤنث، يقال: منزل ضنك وعيشة ضنك. وقرئ: «ضنكى» كسكرى. وإنما كان عيشُهُ ضيقاً؛ لأن مجامع همته، ومطامح نظره مقصورة على أغراض الدنيا، وهو متهالك على ازديادها، وخائف من انتقاصها، بخلاف المؤمن الطالب للآخرة، فإنَّ نور الإيمان يُوجب له القناعة، التى هى رأس الغنى وسبب الراحة، فيحيى حياة طيبة . وقيل: هو عذاب القبر. ورُوى ذلك عن النبى ﷺ. قال أبو سعيد الخدرى: «يُضيق عليه قبره ، حتى تختلف أضلاعه، ويسلط عليه تسعة وتسعون تنينا...» الحديث، وقيل: الصبر على الزقوم والضريع والغسلين.

﴿ ونحشُره يومَ القيامةِ أعمى ﴾ : فاقد البصر كقوله: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا ﴾(١). لا أعمى عن الحجة كما قيل. ﴿ قال ربِّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كُنتُ بصيراً ﴾ فى الدنيا؟ ﴿ قال كذلك ﴾ أى: مثل ذلك فعلتَ أنتَ؛ ﴿ أتتك آياتُنا ﴾ أى: حججنا النيرة على أيدى رسلنا ﴿ فنسيتَها ﴾ أى: عميتَ عنها، وتركتها ترك المنسى الذى لا يذكر قط، ﴿ وكذلك اليومَ تُنسى ﴾: تُترك فى العمى والعذاب، جزاء وفاقاً. وحشره أعمى لايدل على دوامه، بل يزيله عنه فيرى أهوال الموقف ومقعده، وكذلك الصمم والبكم يزيلهما الله تعالى عنهم. ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾(٢)، فيومُ القيامة ألوان. ثم قال تعالى : ﴿ وكذلك ﴾ أى: مثل ذلك الجزاء الموافق للجنايات. ﴿ نجزي من أسرَفَ ﴾ وتعدى؛ بالانهماك فى الشهوات، ﴿ ولم يُؤمن بآياتِ ربه ﴾ ، بل كذّب بها وأعرض عنها، ﴿ ولعذابُ الآخرة ﴾ على الإطلاق، أو عذاب النار، ﴿ أشدُّ وأبقى ﴾ من ضنك العيش، أو منه ومن الحشر أعمى، عائذاً بالله من جميع ذلك.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿ وعصى آدمُ ربَّه ﴾ ، اعلم أن العصيان الحقيقى هو عصيان القلوب، كالتكبر على عباد الله وتحقير شيء من خلق الله، وكالاعتراض على مقادير الله، وعدم الرضا بأحكام الله. قال بعض الصوفية:(أذنبتُ ذنباً فأنا أبكى منه أربعين سنة، قيل: وما هو؟ قال: قلت لشيء كان: ليته لم يكن) . وأما معصية

---

(١) من الآية ٩٧ من سورة الإسراء.
(٢) من الآية ٣٨ من سورة مريم.

الجوارح، إن لم يكن معها إصرار، فقد تُوجب القرب من الكريم الغفار؛ «معصية أورثت ذُلاً وافتقاراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكبارا»، وربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول. وتأمل معصية إبليس حيث كانت من القلب أورثت طرداً وإبعاداً، ومخالفة آدم؛ حيث كانت بالجوارح أورثت قُرباً واجتباء.

والحاصل: أن كل ما يَردُّ العبد إلى مولاه، ويحقق له العبودية والانكسار، فهو شرف له وكمال، وكل ما يُقوى وجود النفس ورفعتها فهو نقص وإبعاد، كائناً ما كان، فالعصمة والحِفظة إنما هى من المعاصي القلبية، أو من الإصرار، وأما معاصي الجوارح فيجرى على العبد ما كتب، ولا تنقصه، بل تكمله، كما تقدم. فالتنزيه إنما يكون من النقائص، وهى التى تُوجب البعد عن الحق، لا مما يؤدى إلى الكمال، وبهذا تفهم أن ما وقع من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ مما صورته المعصية، ليس بنقص، إنما هو كمال. وكذا ما يصدر من الأولياء، على سبيل الهفوة، فتأمله، ولا تبادر بالاعتراض، حتى تصحب الرجال، فيعلموك النقص من الكمال.

قال الواسطى: العصيان لا يُؤثر فى الاجتبائية، وقوله: ﴿وعصى﴾ أى: أظهر خلافاً، ثم أدركته الاجتبائية، فأزالت عنه مذمة العصيان، ألا ترى كيف أظهر عذره بقوله: ﴿فنسى ولم نجد له عزما﴾.هـ. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي الله عنه: (نعمت المعصية أورثت الخلافة).

واعلم أن آدم عليه السلام قد أهبط إلى الأرض قبل أن يخلق، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(١)؛ فقد استخلفه قبل أن يخلقه، لكن حكمته اقتضت وجود الأسباب، فكان أكله سبباً فى نزوله للخلافة والرسالة وعمارة الأرض، فهو نزول حساً، ورفعة معنى، وكذلك زلة العارف تنزله لشرف العبودية، فيرتفع قدره عند الله.

وقوله تعالى: (بعضكم لبعض عدو)، هذا فيمن غلبت عليه الطينية الإمشاجية، وأما من غلبت عليه الروحانية فهم إخوان متحابون، أخلاء متقون، قال تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾(٢).

وقوله تعالى: (فإما يأتينكم منى هدى) أى: داع يدعو إلىَّ، ويهدى إلى معرفتى ودخول حضرتى، فمن تبعهم دخل تحت تربيتهم، فلا يضل ولا يشقى، بل يهتدى ويسعد السعادة العظمى. ومن أعرض عن ذكرهم ووعظهم، وتنكب عن صحبتهم، فإن له معيشة ضنكاً، مصحوبة بالحرص والطمع، والجزع والهلع، ونحشره يوم القيامة أعمى عن شهود ذاتنا، فلا يرى إلا الأكوان الحسية، والزخارف الحسية دون أسرار الذات القدسية. قال ربِّ لِمَ حشرتنى أعمى عن شهود أسرار المعانى، عند رؤية الأوانى، وقد كنتُ بصيراً فى الدنيا ببصر الحس؟ قال: كذلك أتتك آياتنا، وهم الأولياء العارفون، فنسيتَها، ولم تحتفل بشأنها، وكذلك اليوم تُنسى؛ لأن المرء يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه.

(١) من الآية ٣٠ من سورة البقرة.	(٢) الآية ٦٧ من سورة الزخرف.

قال الورتجبي: ونحشره يوم القيامة أعمى، يعني: جاهلاً بوجود الحق، كما كان جاهلاً في الدنيا، كما قال عليّ ـ كرم الله وجهه ـ: من لم يعرف الله في الدنيا لا يعرفه في الآخرة. وقيل: عن رؤية أوليائه وأصفيائه. هـ. وقال القشيري: في الخبر: «مَنْ كان بحالة لقي الله بها»(١). فَمَن كان في الدنيا أعمى القلب، يُحشر على حالته، يعيش على ما جهل، ويُحشر على ما جهل، ولذلك يقولون: (من بعثنا من مرقدنا) ؟ إلى أنْ تصيرَ معارفُهم ضرورية، كما يتركون التدبُّرَ في آياته يُتركون غداً في العقوبة من غير رحمةٍ على ضعفِ حالاتهم. هـ.

وكذلك نجزي من أسرف بالعكوف على شهواته، واغتنام أوقات لذاته، حتى انقضت أيام عمره في البطالة، نجزيه غم الحجاب والبعد عن حضرة الأحباب، حيث لم يصدق بوجود آيات ربه؛ وهم الدعاة إلى الله. ولعذاب حجاب الآخرة أشد وأبقى؛ لدوامه واتصاله، نعوذ بالله من غم الحجاب وسوء الحساب، والتخلف عن حضرة الأحباب. وبالله التوفيق.

ثم حضّ على الاعتبار في هذه الدار، فقال:

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾

قلت: (أفلم): الهمزة للإنكار التوبيخي، والفاء للعطف على محذوف، أي: أغفلوا فلم يهد لهم. وعدى الهداية باللام لتضمنها معنى التبيين، والفاعل مضمونُ (كم أهلكنا) ،أي: أفلم يُبين لهم مآل أمرهم كثرة إهلاكنا للقرون الأولى؟ وقيل: الفاعل ضمير عائد إلى الله. و (كم..) الخ: مُعلق للفعل سد مسد مفعوله. أي: أفلم يُبين الله لهم كثرة إهلاك القرون من قبلهم ؟ والأوجه: أنْ لا يُلاحظ له مفعول، كأنه قيل: أفلم يفعل الله لهم الهداية، ثم قيل بطريق الالتفات: كم أهلكنا.. الخ؛ بياناً لتلك الهداية. و (مِنَ القُرون): في محل نصب، نعت لمفعول محذوف، أي: قرناً كائناً من القرون.

---

(١) يؤيد هذا قوله ـ صلى الله عليه سلم: «من مات على شيء بعثه الله عليه». أخرجه أحمد في المسند (٣/٣١٤)، والحاكم في المستدرك (٤/٣١٢) من حديث جابر رضي الله عنه.

وجملة (يمشون): حال من القرون، أى: أهلكناهم وهم فى حال أمن وتقلب فى ديارهم، أو من الضمير فى «لهم»، مؤكد للإنكار، والعامل: «يهد»، والمعنى: أفلم يهد لهم إهلاكنا للقرون السالفة، كقوم نوح ولوط وأصحاب الأيكة، حال كونهم، أى: قريش ـ ماشين فى مساكنهم إذا سافروا إلى الشام، و (أجل مسمى): عطف على (كلمة)، أو استئناف، أى: وأجل مسمى حاصل لهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لهم ﴾ أى: أو لم يُبين لهم عاقبة أمرهم ﴿ كم أهلكنا قبلَهم من القرون ﴾ أي: كثرة إهلاكنا للقرون السالفة قبلهم، وهم ﴿ يمشون في مساكنهم ﴾ إذا سافروا إلى الشام، كأصحاب الحجر، وثمود، وفرعون، وقوم لوط، مشاهدين لآثار ديارهم خارية، مع علمهم بما جرى عليهم، بسبب تكذيبهم، فإنّ ذلك مما يُوجب أن يهتدوا إلى الحق، فيعتبروا، لئلا يحل بهم مثل ما حلّ بأولئك، أو: ﴿أفلم يهد لهم﴾ كثرة إهلاكنا للقرون السالفة قبلهم، حال كونهم آمنين، ﴿يمشون﴾ فى ديارهم ويتقلبون فى رباعهم ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾(١).

﴿ إنّ في ذلك ﴾ الإهلاك الفظيع ﴿ لآيات ﴾ كثيرة عظيمة واضحة الهداية، دالة على الحق ﴿ لأُولى النُّهى ﴾؛ لذوى العقول الناهية عن القبائح، التى من أقبحها ما يتعاطاه كفار مكة من الكفر بآيات الله، والتعامى عنها، وغير ذلك من فنون المعاصى.

﴿ ولولا كلمةٌ سبقتْ من ربك ﴾، وهو تأخير العذاب عن هذه الأمة إلى الآخرة؛ لحكمة، لعجلنا لهم الهلاك كما عجلنا لتلك القرون المهلكة، التى يمرون عليها ولا يعتبرون، فأصروا على الكفر والعصيان، فلولا تلك العدَة بتأخير العذاب ﴿ لكان لِزاماً ﴾ أى: لكان عقاب جناياتهم لازماً لهؤلاء الكفرة، بحيث لا يتأخرون عن جناياتهم ساعة، لزوم ما أنزل بأولئك الغابرين، وفى التعرض لعنوان الربوبية، مع الإضافة إلى ضميره ـ عليه الصلاة والسلام ـ تلويح بأن ذلك التأخير تشريف له ﷺ، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾(٢) واللزام: مصدر لازم، وصف به؛ للمبالغة، ﴿ وأجلٌ مسمىً ﴾ أي: لولا كلمة سبقت بتأخيرهم، وأجل مسمى لأعمارهم أو عذابهم، وهو يوم القيامة، أو يوم بدْرٍ، لَمَا تأخر عذابهم أصلاً. وإنما فصله عما عطف عليه، للمسارعة إلى بيان جواب «لولا»، وللإشعار باستقلال كل منهما بنفى لزوم العذاب المعجل، ومراعاة فواصل الآية الكريمة.

---

(١) كما جاء فى الآية ٧٨ من سورة الأعراف.

(٢) من الآية ٣٣ من سورة الأنفال.

﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ أي: إذا كان الأمر على ما ذكرنا؛ من أن تأخير عذابهم ليس بإهمال، بل إمهال، وأنه لازم لهم ألبتة. فاصبر على ما يقولون من كلمات الكفر؛ فإن علمه ﷺ بأنهم هالكون لا محالة مما يسليه ويحمله على الصبر، أو اصبر على ما يقولون، واشتغل بالله عنهم، ولا تلتفت إلى هلاكهم ولا بقائهم، فالله أدرى بهم. ﴿ وسبِّحْ بحمدِ ربك ﴾ أي: نزّهه عما ينسبون إليه، ما لا يليق بشأنه الرفيع، حامداً له على ما خصك به من الهدى، معترفاً بأنه مُولى النعم كلها.

قال الورتجبي: سماع الأذى يُوجب المشقة، فأزال عنه ما كان قد لحقه من سماع ما يقولونه بقوله: (وسبح بحمد ربك) أي: إن كان سماع ما يقولون يُوحشك، فتسبيحنا يُروحك. هـ. أو: صَلِّ وأنت حامد لربك، الذى يبلغك إلى كمال هدايتك، ويرجح هذا قوله: ﴿ قبل طُلوع الشمسِ وقبل غُروبها ﴾، فإن توقيت التنزيه غير معهود، فإنّ المراد بقبل طلوع الشمس: صلاة الفجر، وقبل غروبها: صلاة الظهر والعصر، وقيل: العصر فقط.

﴿ ومن آناء الليل ﴾ أي: ساعاته ﴿ فسبِّحْ ﴾ أي: صَلِّ، والمراد به المغرب والعشاء، وآناء: جمع «إِنَى»، بالكسر والقصر، أو «أناء» بالفتح والمد. وتقديم المجرور في قوله تعالى: ﴿ ومن آناء الليل فسبح ﴾؛ لاختصاصها بمزيد الفضل، فإن القلب فيها أجمع، والنفس إلى الاستراحة أميل، فتكون العبادة فيها أشق، ولذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾[1]. ﴿ و ﴾ سبح أيضا، ﴿ أطرافَ النهار ﴾ وهو تكرير لصلاتي الفجر والمغرب؛ إيذاناً باختصاصهما بمزيد مزية. وجمع (أطراف) بحسب اللفظ مع أمن اللبس، أو يراد بأطراف النهار :الفجر والمغرب والظهر؛ لأنها[2] نهاية النصف الأول من النهار وبداية النصف الثاني، أو يريد التطوع في أجزاء النهار.

قلت: وإذا حملناه على التنزيه ـ وهو أن يقول: سبحان الله، أو: لا إله إلا الله، أو كل ما يدل على تنزيه الحق ـ يكون تخصيص هذه الأوقات بالذكر؛ لشرفها. فقد وردت أحاديث في الترغيب في ذكر الله أول النهار وآخره، وآناء الليل حين ينتبه من نومه، بحيث يكون كلما تيقظ من نومه سبّح الله وهلّله وكبّره، قبل أن يعود إلى نومه. وهكذا كان أهل اليقظة من السلف الصالح. وقوله تعالى: ﴿ لعلك ترضى ﴾ أي: بما يعطيك من الثواب الجزيل، بالتسبيح في هذه الأوقات. أو ترضى بالشفاعة في جميع الخلائق، فتقر عينك حينئذ. وفي صحيح البخاري: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشمس ليس دونها سحاب، فَإِنِ اسْتَطَعْتُم أَلا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ

(١) الآية ٦ من سورة المزمل. (٢) أي: صلاة الظهر.

غروبها فافعلُوا، ثُم تَلا هذه الآية: «وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»»[1] ففيه ترجيح من فسرها بالصلاة، وفيه إشارة إلى أن الصلاة ذكر وإقبال على الله وانقطاع إليه، وذلك مزرعة المشاهدة والرؤية فى الآخرة. وقد جاء فى أهل الجنة: «أنهم يرون ربهم بكرة وعشياً» . هذا فى حق العموم، وأما خصوص الخصوص، ففى كل ساعة ولحظة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أفلَم يَهد لأهل الإيمان والاعتبار، وأهل الشهود والاستبصار، كم أهلكنا قبلهم من القرون الخالية، والأمم الماضية، فهم يمشون فى مساكنهم الدارسة، ويُشاهدون آثارهم الدائرة، كيف رحلوا عنها وتركوها ، واستبدلوا ما كانوا فيه من سعة القصور بضيق القبور، وما كانوا عليه من الفُرش الممهدة بافتراش التراب وتغطية اللحود الممددة، فيعتبروا ويتأهبوا للحوق بهم، فقد كانوا مثلهم أو أشد منهم، قد نما ذكرهم، وعلا قدرهم، وخسف بعد الكمال بدرهم. فكأنهم ما كانوا، وعن قريب مضوا وبانوا، وأفضوا إلى ما قدموا، وانقادوا؛ قهراً، إلى القضاء وسلموا، ففى ذلك عِبَر وآيات لأولى النُهى. لكن القلوب القاسية لا ينفع فيها وعظ ولا تذكير، فلولا كلمة الرحمة والحلم بتأخير العذاب، وأجل مسمى لأعمارهم؛ لعجل لهم العقاب.

فاصبر، أيها المتوجه إلى الله، المنفرد بطاعة مولاه، على ما يقولون، مما يُكدر القلوب، واشتغل بذكر ربك وتنزيهه، مع الطلوع والغروب وآناء الليل والنهار، حتى تغيب فى حضرة علام الغيوب، لعلك ترضى بمشاهدة المحبوب. وبالله التوفيق.

ولمّا كان محصل الاعتبار هو صرف الهمة عن هذه الدار، أمر به نبيه ﷺ ومن كان على قدمه، فقال:

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾

قلت: (زهرة): مفعول بمحذوف، يدل عليه (مَتَّعْنَا) أى: أعطينا، أو على الذم، وفيه لغتان: سكون الهاء وفتحها.

---

(١) أخرجه بنحوه البخارى (كتاب مواقيت الصلاه، باب فضل صلاة العصر) ، ومسلم (كتاب المساجد، باب فضل صلاتى الصبح والعصر) من حديث جرير بن عبدالله . ووقع عند مسلم أن الذى قرأ الآية هو جرير، راوى الحديث.

يقول الحق جل جلاله لنبيه ﷺ: ﴿ولا تمدنَّ عينيك﴾ أى: لا تطل نظرهما، بطريق الرغبة والميل ﴿إلى ما متعنا به﴾ من زخارف الدنيا ﴿أزواجًا منهم﴾ أى: أصنافاً من الكفرة، والمعنى: لا تنظر إلى ما أعطيناه أصناف الكفرة من زخارف الدنيا الغرارة، ولا تستحسن ذلك، فإنه فانٍ، وهو من ﴿زهرة الحياةِ الدنيا﴾ أى: بهجتها، ثم يفنى ويبيد، كشأن الزهر، فإنه فائق المنظر، سريع الذبول والذهاب.

متعناهم بذلك، وأعطيناهم الأموال والعز فى الدنيا؛ ﴿لنفتنهم فيه﴾ أى: لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم، هل يقومون بشكره فيؤمنوا بك، ويصرفوه فى الجهاد معك، وينفقوه على من آمن معك.. أم لا؟ أو لنعذبهم فى الآخرة بسببه، فلا تهتم بذلك. ﴿ورزقُ ربك﴾ أى: ما ادخر لك فى الآخرة ﴿خيرٌ﴾، أو: ورزقك فى الدنيا من الكفاف مع الهُدى، خير مما منحهم فى الدنيا، لأنه مأمون الغائلة؛ بخلاف ما منحوه، فعاقبته الحساب والعقاب. ﴿وأبقى﴾؛ فإنه لا ينقطع نفسُه أو أثره، بخلاف زهرة الدنيا، فإنها فانية منقطعة.

فالواجب: الاشتغال بما يدوم ثوابه، ولذلك قال له ﷺ: ﴿وَأْمُرْ أهلَك بالصلاةِ﴾، أمره بأن يأمر أهل بيته، أو التابعين له من أمته، بالصلاة، بعد ما أمر هو بقوله: (وسبح بحمد ربك) على ما مر؛ ليتعاونوا على الاستعانة على الخصاصة، ولا يهتموا بأمرِ المعيشة، ولا يلتفتوا لغنى أرباب الثروة. ﴿واصْطَبِر عليها﴾؛ وتكلف الصبر على مداومتها، غير ملتفت لأمر المعاش، ﴿لا نسألُكَ رزقًا﴾ أى: لا نُكلفك أن ترزق نفسك ولا أهلك، ﴿نحن نرزقك﴾ وإياهم، ففرغ قلبك لمشاهدة أسرارنا، ﴿والعاقبةُ﴾ المحمودة ﴿للتقوى﴾ أى: لأهل التقوى. رُوى أنه ﷺ كان إذا أصاب أهْلَه ضُر أو خصاصة أَمَرَهُمْ بِالصلاةِ، وتلا هذه الآية(١). والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما خوطب به نبينا ﷺ خوطب به خاصة أمته، فلا تمدن عينيك، أيها الفقير، إلى ما متع به أهل الدنيا، من زهرتها وبهجتها، بل ارفع همتك عن النظر إليها، واستنكف عن استحسان ما شيدوا وزخرفوا، فإن ذلك حمق وغرور. كان عروة بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا رأى أبناء السلاطين وشاراتهم دخل داره وتلا: (ولا تمدن عينيك) ... الآية. وكان يحيى بن معاذ الرازى يقول لعلماء زمانه: ياعلماء السوء؛ دياركم هامانية، ومراكبكم قارونية، وملابسكم فرعونية، فأين السنة المحمدية؟.

ولا تشتغل بطلب رزق، فرزق ربك ـ وهو ما يبرز لك فى وقتك من عين المنة، من غير سبب ولا خدمة ـ خير وأبقى، أما كونه خيراً؛ فلِماَ يصحبه من اليقين والفرح بالله وزيادة المعرفة، وأما كونه أبقى؛ لأن خزائنه لا تنفد،

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (باب فى الصبر، ح٩٧٠٥)، وأبو نعيم فى الحلية (١٧٦/٨) من حديث عبدالله بن سلام. وعزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦٧/٧) للطبرانى فى الأوسط، من حديث ابن سلام، وقال: رجاله ثقات.

مع بقاء أثره فى القلب من ازدياد اليقين، والتعلق برب العالمين. (وأمر أهلك بالصلاة)واصطبر أنت عليها، فإن رزقنا يأتيك لا محالة، فى الوقت الذى نريده، (لا نسألك رزقا) لك ولا لأهلك، (نحن نرزقك)، لكن رزق المتقين، لا رزق المترفين، (والعاقبة للتقوى). وبالله التوفيق.

ثم ذكر بعض أقاويل الكفرة، التى أمر عليه الصلاة والسلام بالصبر عليها. أو تقول: ثم رد على من طلب المعجزة، بعد هذا البيان التام، فقال:

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقالوا﴾ أى: كفار مكة: ﴿لولا﴾: هلا ﴿يأتينا بآية من ربه﴾ تدل على صدقه، أو بآية مما اقترحوها؛ من تفجير الأرض وتسيير الجبال، ولم يعدوا ما شهدوا من المعجزات التى تخر لها الجبال من قبيل الآيات؛ مكابرة وعناداً. قال تعالى: ﴿أولَم تأتِهم بينة ما فى الصُّحف الأولى﴾ أى: أو لَمْ يأتهم القرآن الذى فيه بيان ما فى الصحف الأولى؛ التوراة والإنجيل والزبور، وسائر الكتب السماوية؛ لاشتماله على ما فيها، وزيادة علوم وأسرار. وهذا رد من جهته تعالى لمقالتهم، وتكذيب لهم فيما دسوا تحتها، من إنكار إتيان الآية، بإتيان القرآن الكريم، الذى هو أبهر الآيات، وأسنى المعجزات، وأعظمها، وأبقاها؛ لأن حقيقة المعجزة: اختصاص مدعى النبوة بنوع من الأمور الخارقة للعادة، أىّ أمر كان، ولا ريب فى أن العلم أجلّ الأمور وأعلاها؛ إذ هو أصل الأعمال، ولقد ظهر، مع حيازته لعلوم الأولين والآخرين، على يد أمى، لم يمارس شيئاً من العلوم، ولم يدارس أحداً من أهلها أصلاً، فأىّ معجزة تراد بعد وروده؟ وأىّ آية ترام مع وجوده؟! وفى إيراده بعنوان كونه بينة لما فى الصحف الأولى، أى: شاهداً بحقية ما فيها من العقائد والأحكام، التى أجمعت عليها كافة الرسل، مالا يخفى من تنويه شأنه وإنارة برهانه، ومزيد تقرير وتحقيق لإتيانه. وقال بعض أهل المعانى: أو لم يأتهم بيان ما فى الكتب الأولى، من أنباء الأمم الذين أهلكناهم، لما سألوا الآيات، فأتتهم، فكفروا بها، كيف عجلنا لهم الهلاك؟ فما يؤمن هؤلاء، إن أتتهم البينة، أن يكون حالهم كأولئك.

﴿ ولو أنَّا أهلكناهم ﴾ في الدنيا ﴿ بعذاب ﴾ مستأصل، ﴿ من قَبْله ﴾ أي: من قبل إتيان البينة، وهو نزول القرآن ومجيء محمد ﷺ، ﴿ لقالوا ربنا لولا أرسلتَ إلينا رسولاً ﴾ يدعونا مع كتاب يهدينا، ﴿ فنتَّبِعَ آياتك ﴾ التي جاءنا بها، ﴿ من قبل أن نَّذلَّ ﴾ بالعذاب في الدنيا، ﴿ ونَخْزَى ﴾ بدخول النار يوم القيامة، ولكنا لم نهلكهم قبل إتيانها، فانقطعت حجتهم، فإذا كان يوم القيامة ﴿ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾(١).

﴿ قُلْ ﴾ لأولئك الكفرة المتمردين: ﴿ كُلٌّ ﴾ أي: كل واحد منكم ومنا، ﴿ متربصٌ ﴾: منتظر ما يؤول إليه أمرنا وأمركم، (فتربصوا)؛ فانتظروا. أو كُلٌّ منتظر دوائر الزمان، ولمن يكون النصر، ﴿ فتربصوا فستعلمون ﴾ عن قريب ﴿ من أصحابُ الصراطِ السَّوِيِّ ﴾ أي: المستقيم، أو السواء، أي: الوسط الجيد، ﴿ ومن اهتدى ﴾ من الضلالة، هل نحن أو أنتم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا يُشترط في الولي العارف بالله، الداعي إلى الله، إظهار الآيات، ويكفي، برهاناً عليهم، كونهم على بينة من ربهم، وهداية الخلق على أيديهم، وما أظهروه من علم أسرار التوحيد، ومن فنون علم الطريق، مع كون بعضهم أميين، لم يتقدم له مدارسة علم قط، كما شهدناهم، بعثهم الله في كل عصر، يُعرفون بالله، ويدلون على أسرار ذاته وأنوار صفاته، على سبيل العيان، لتقوم الحجة على العباد، فإذا بُعثوا يوم القيامة جاهلين بالله محجوبين عن شهود ذاته، متخلفين عن مقام المقربين، يقولون: لولا أرسلت إلينا رسولاً يُعرفنا بك، فنتبع آياتك حتى نصل إليك، من قبل أن نذل بالانحطاط عن درجة المقربين، أو نخزى بإسدال الحجاب. يقول الحق تعالى: قد بعثتهم، فأنكرتموهم، فإذا اغتروا اليوم، واحتجوا بقول من قال: انقطعت التربية، فقل: كلٌّ متربص فتربصوا، فستعلمون من أصحاب الصراط السَّوي ومن اهتدى. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق، وصلَّى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلَّمَ تسليما.

✿ ✿ ✿

(١) من الآية ٩ من سورة الملك.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



سورة الأنبياء

مكية. وهى مائة واثنتا عشرة آية. ومناسبتها لما قبلها: قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾(١)؛ لأن علم ذلك إنما يظهر، حقيقة، يوم الحساب الذى صدّر به السورة، فقال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ... ﴾

قلت: (وهم): مبتدأ، و(فى غفلة): خبر، و(معرضون): خبر بعد خبر، والجملة: حال من الناس. و(من ذكر): فاعل بيأتى. و(مِن): صلة، و(من ربهم): صفة لذكر، أى: حاصل من ربهم، أو متعلق بيأتيهم، أو صفة لذكر، وجملة (استمعوه): حال من مفعول «يأتيهم»، بإضمار (قد) أو بدونه، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال. و(هم يلعبون): حال أيضاً من فاعل «استمعوه»، و(لاهية): حال من واو «يلعبون»، و (قلوبهم): فاعل بلاهية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿اقتربَ للناس حسابُهم﴾ أى: قَرُب قيام الساعة التى هى محل حسابهم. قال ابن عباس: «المراد بالناس: المشركون، وهو الذى يفصح عنه ما بعده، ولم يقل تعالى: «اقترب حساب الناس»، بل قدّم لام الجر على الفاعل؛ للمسارعة إلى إدخال الروعة، فإن نسبة الاقتراب إليهم من أول الأمر مما يسوؤهم ويورثهم رهبة وانزعاجاً، كما أن تقديم اللام فى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾؛ (٢) لتعجيل المسرة؛ لأن كون الخلق لأجل المخاطبين مما يسرهم ويزيدهم رغبة وشوقاً إليه تعالى.

وفى إسناد الاقتراب إلى الحساب المنبئ عن التوجه نحوهم، مع صحة إسناد الاقتراب إليهم بأن يتوجهوا نحوه، من تفخيم شأنه، وتهويل أمره، مالا يخفى، لِما فيه من تصويره بشيء مقبل عليهم، لا يزال يطلبهم حتى يصيبهم لامحالة. ومعنى اقترابه: دنوه منهم شيئاً فشيئاً حتى يلحقهم؛ لأن كل آت قريب، أى: دنا حساب أعمالهم السيئة الموجبة للعقاب.

﴿وهم فى غفلة﴾ تامة منه، ساهون بالمرة عنه، غير ذاكرين له، لا أنهم غير مبالين به، مع اعترافهم بإتيانه، بل هم منكرون له، كافرون به، ﴿معرضون﴾ عن الآيات والنُذُر المنبهة لهم عن سِنة الغفلة. ﴿ما يأتيهم من ذكر﴾

(١) من الآية ١٣٥ من سورة طه.

(٢) من الآية ٢٩ من سورة البقرة.

أى: من طائفة نازلة من القرآن، تذكر ذلك الحساب، وتنبههم عن الغفلة عنه، كائن أو نازل ﴿ من ربهم ﴾، أو ذاكر ومذكر من ناحية ربهم. وفى إضافته إليه سبحانه دلالة على شرفه، وكمال شناعة ما فعلوه من الإعراض عنه، وفى التعبير بعنوان الربوبية تشنيع لكمال عتوهم، ومِنْ صفة ذلك الذكر ﴿ مُحْدَث ﴾ تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة، بمعنى أنه نزل شيئاً فشيئاً، أو قريب عهد بالنزول، فمعانى القرآن قديمة، وإظهاره بهذه الحروف والأصوات حادث. وقال ابن راهويه: قديم من رب العزة، محدث إلى أهل الأرض.

فما ينزل عليهم شيء من القرآن يذكرهم ويعظهم ﴿ إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾؛ لا يتعظون به، ولا يتدبرون فى معانيه، ﴿ لاهيةً قلوبُهم ﴾؛ ساهية، معرضة عن التفكر والتدبر فى معانيه. وتقدير الآية: ماياتيهم من ذكر من ربهم محدث، فى حال من الأحوال، إلا حال استماعهم إياه كانوا لاعبين مستهزءين به، لاهين عنه، حال كون قلوبهم لاهيةً عنه؛ لتناهى غفلتهم وفرط إعراضهم عن النظر والتفكر فى عواقب الأمور. والله تعالى أعلم.

الإشارة: حمل الآية على العموم هو الظاهر عند الصوفية. وقد ورد عن رجل من الصحابة أنه كان يبنى، فلقى بعض الصحابة فقال: ماذا نزل اليوم من القرآن؟ فقال له: ﴿اقترب للناس حسابهم﴾، فنفض التراب، وقال: والله لا بنيتُ.هـ. أى: اقترب للناس حسابهم على النقير والقطمير، وهم فى غفلة عن التأهب والاستعداد، معرضون عن اتخاذ الزاد، ما يأتيهم من ذكر من ربهم، يعظهم ويوقظهم، إلا استمعوه بآذانهم، وهم يلعبون ساهون عنه بقلوبهم؛ لحشوها بالوساوس الشيطانية والعلائق النفسانية. لاهية قلوبهم عن التفكر والاعتبار والتدبر والاستبصار.

قال القشيرى: ويقال: الغفلة على قسمين؛ غافلٍ عن حسابه؛ لاستغراقه فى دنياه، وغافلٍ عن حسابه؛ لاستهلاكه فى مولاه، فالغفلة الأولى سِمَةُ الهجر، والثانية صِفَةُ الوصل، فالأولون لا يستفيقون من غفلتهم إلا فى عسكر الموتى، وهؤلاء لا يرجعون عن غيبتهم أبدَ الأبد؛ لفنائهم فى وجود الحق. هـ. **قلت**: القسمة ثلاثية: قوم غفلوا عن حسابهم؛ لاشتغالهم بحظوظهم وهواهم، وهم: الغافلون الجاهلون، وقوم ذكروا حسابهم، وجعلوه نصب أعينهم، وتأهبوا له، وهم: الصالحون والعباد والزهاد، وقوم غفلوا عنه، وغابوا عنه؛ لاستغراقهم فى شهود مولاهم، وهم: العارفون المقربون. جعلنا الله منهم بمنِّه وكرمه.

ثم ذكر المنهمكين فى الغفلة، فقال:

﴿ ... وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

قلت : «الذين ظلموا» : بدل من الواو، مُنبئ عن كونهم موصوفين بالظلم فيما أسروا به. وقال الكلبى: فيه تقديم وتأخير، أراد الذين ظلموا أسروا النجوى. فيكون «الذين» : مبتداء و«أسروا» : خبر مقدم.

وقال قطرب: على لغة بعض العرب، يقولون: أكلونى البراغيث، وهى بلغة بلحارث وغيرهم. وقال الفراء: بدل من الناس، أى: اقترب للناس وهم الذين ظلموا. و(هل هذا..) إلخ: بدل من النجوى، أو مفعول بقول مضمر، كأنه قيل: ماذا قالوا فى نجواهم؟ فقيل: قالوا: هل هذا.. إلخ و(أنتم تبصرون): حال من واو «تأتون»؛ مقررة للإنكار، مؤكدة للاستبعاد. و(من قرية) : فاعل آمنت، و«من» : صلة للعموم. و(أهلكناها) : صفة لقرية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأسَرُّوا النجوى ﴾ : أخفوا تناجيهم بحيث لم يشعر أحد بما قالوا، وهم ﴿ الذين ظلموا ﴾ بالكفر والطغيان، قائلين فى تلك النجوى الشنيعة: ﴿ هل هذا ﴾ أى: ما هذا الرجل الذى يزعم أنه رسول ﴿ إلا بشرٌ مثلكم ﴾ أى: من جنسكم، وما أتى به سحر، ﴿ أفتأتون السحر وأنتم تُبصرون ﴾ أى: تعلمون ذلك فتأتونه، وتحضرونه على وجه الإذعان والقبول، وأنتم تعاينون أنه سحر؟. قالوا ذلك، بناء على ما ارتكز فى اعتقادهم الزائغ، أن الرسول لا يكون إلا مَلَكاً، وأنَّ كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق هو من قبيل السحر، وغاب عنهم أن إرسال البشر إلى البشر هو الذى تقتضيه الحكمة التشريعية. قاتلهم الله أنى يؤفكون. وإذا أسروا ذلك ولم يعلنوه؛ لأنه كان على طريق توثيق العهد؛ خفية، وتمهيداً لمقدمات المكر والكيد فى هدم أمر النبوة، وإطفاء نور الدين. ﴿والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾.

ثم فضح الله سرهم ونجواهم بقوله: ﴿ قل(١) ربى يعلم القولَ فى السماء والأرض ﴾ أى: قل يا محمد: ربى يعلم القول، سراً كان أو جهراً، سواء كان فى السماء أو الأرض، فلا يخفى عليه ما تناجيتم به، فيفضحكم به ويجازيكم عليه. وقرأ أكثر أهل الكوفة: (قال)؛ على الخبر، وهو حكاية من جهته تعالى لِمَا قاله - ﷺ - بعد ما أوحى إليه أحوالهم وأقوالهم؛ بياناً لظهور أمرهم وانكشاف سرهم، وإيثار القول المشتمل على السر والجهر؛ للإيذان بأن علمه تعالى بالسر والجهر على وتيرة واحدة، لاتفاوت بينهما بالجلاء والخفاء، كما فى علوم الخلق.

﴿ وهو السميعُ العليم ﴾ أى: المبالغ فى العلم بالمسموعات والمعلومات، التى من جملة ما أسروه من النجوى، فيجازيهم بأقوالهم وأفعالهم. ﴿ بل قالوا أضغاثُ أحلام ﴾ ، هو إضراب من جهته تعالى، وانتقال من حكاية قولهم السابق إلى حكاية قول آخر مضطرب فى مضارب البطلان، أى: لم يقتصروا على أن يقولوا فى حقه - عليه الصلاة والسلام -: هل هذا إلا بشر، وفى حق ما ظهر على يديه من القرآن الكريم: إنه السحر، بل قالوا: هو تخاليط

---

(١) قرأ حمزة والكسائى وحفص: «قال ربى». وقرأ الباقون : «قل» على الأمر. انظر الإتحاف (٢/ ٢٦١).

أحلام وأباطيلها، فهو أشبه شيء بالهذيان، ثم أضربوا عنه، وقالوا: ﴿ بل افتراه ﴾ من تلقاء نفسه، من غير أن يكون له أصل أو شبهة أصل. ثم قالوا: ﴿ بل هو شاعر ﴾، وما أتى به شعر يُخيل إلى السامع، لا حقيقة لها. وهكذا شأن المبطل المحجوج، متحير، لايزال يتردد بين باطل وأبطل، ويتذبذب بين فاسد وأفسد.

فالإضراب الأول، كما ترى، من جهته تعالى، والثانى والثالث من قِبلهم. وقد قيل: الكل من قِبلهم، حيث أضربوا عن قولهم: هو سحر، إلى أنه تخاليط أحلام، ثم إلى أنه كلام مفترى، ثم إلى أنه قول شاعر، وهو بعيد؛ لأنه لو كان كذلك لقال: قالوا: بل أضغاث أحلام ... الخ.

ثم قالوا: ﴿ فلْيأتِنا بآية ﴾؛ وهو جواب عن شرط محذوف، يُفصح عنه السياق، كأنه قيل: وإن لم يكن كما قلنا، بل كان رسولاً من الله تعالى، فليأتنا بمعجزة ظاهرة ﴿ كما أُرسل الأولون ﴾ أى: مثل الآية التى أُرسل بها الأولون؛ كاليد، والعصا، والناقة وشبه ذلك. فالكاف: صفة لمصدر محذوف، أى: إتياناً مثل إتيان الأولين.

قال تعالى: ﴿ ما آمنتْ قبلَهم من قرية أهلكناها ﴾ أى: أهلكنا أهلها، ﴿ أَفَهُمْ ﴾ أى: هؤلاء المقترحون عليك الآيات، ﴿ يؤمنون ﴾ أى: قد اقترحتْ الأمم السالفة الآيات على رُسلها، فأُعطوا ما اقترحوا، فلم يؤمنوا، فأهلكناهم، فكيف يؤمن هؤلاء، وهم أعتى منهم؟ فالهمزة: لإنكار الوقوع، والفاء: للعطف على مقدر، فأفادت إنكار وقوع إيمانهم. والمعنى: لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوه من الآيات، أهم لم يؤمنوا، فهؤلاء يُؤمنون، لو أُجيبوا إلى ما سألوا وأُعطوا ما اقترحوه، مع كونهم أعتى منهم وأطغى؟ فهم فى اقتراح الآيات كالباحث على حتفه فطلبه، وفى ترك إجابتهم إبقاء عليهم، كيف لا، ولو أعطوا ما اقترحوا، مع عدم إيمانهم قطعاً، لوجب استئصالهم، بجريان سُنَّةِ الله تعالى في الأمم السالفة أن المقترحين، إذا أُعطوا ما اقترحوا، فلم يؤمنوا، نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالة، وقد سبقت كلمة الحق منه تعالى أن هؤلاء لا يُعذبون بعذاب الاستئصال، فلذلك لم يُظهر لهم ما اقترحوا من الآيات. والله تعالى أعلم.

الإشارة: العلماء بالله، الداعون إلى الله، هم ورثة الأنبياء والرسل، فما قيل فى الأصل قد قيل فى الفرع، فكل عصر يُوجد من يُنكر على خواص ذلك العصر، ويرميهم بالسحر والجنون. والافتراء على الله سُنة ماضية. غير أن أولياء هذه الأمة على قدم نبيهم، رحمة للعالمين، فمن آذاهم لا يُعاجَل بالعقوبة فى الغالب، وقد تكون باطنية، كقسوة القلوب، والخذلان، والشكوك، والأوهام. وهذا الوصف فى العارفين الكملة، وأما الزهاد والعباد والصالحون: فمن آذاهم عُوجل بالعقوبة في الغالب؛ لنقص كمالهم، وعدم اتساع دائرة معرفتهم. وبالله التوفيق.

ثم ردّ على من أنكر رسالة البشر، فقال:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله في جواب قول الكفرة: ﴿ هَلْ هَٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾(١) بعد تقديم الجواب عن قولهم: ﴿ فليأتنا بآية ﴾؛ لأنهم قالوه بطريق التعجيز، فلابد من المسارعة إلى رده، كما تقدم مراراً في الكتاب العزيز، كقوله ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ .. ﴾(٢) الآية، ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ الآية(٣). إلى غير ذلك، فقال جل جلاله: ﴿ وما أرسلنا قَبلك ﴾ في الأمم السالفة ﴿ إلا رجالاً ﴾؛ بشراً من جنس القوم الذين أُرسلوا إليهم؛ لأن مقتضى الحكمة أن يُرسل البشر إلى البشر، والملك إلى الملك، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴾(٤) فإن عامة البشر لا تطيق المفاوضة مع الملك؛ لتوقفها على التناسب بين المفاوض والمستفيض؛ فبعث لكل جنس ما يناسبه؛ للحكمة التي يدور عليها فلك التكوين والتشريع، والذي تقتضيه الحكمة الإلهية أن يبعث الملك إلى خواص البشر المختصين بالنفوس الزكية، المؤيدين بالقوة القدسية، المتعلقين بالعالم الروحاني والجسماني، ليتلقوا من جانب العالم الروحاني، ويلقوا إلى العالم الجسماني، فبعث رجالاً من البشر يوحي إليهم على أيدي الملائكة أو بلا واسطة.

والمعنى: وما أرسلنا إلى الأمم، قبل إرسالك إلى أمتك، إلا رجالاً مخصوصين من أفراد الجنس، متأهلين للاصطفاء والإرسال، ﴿ نُوحي إليهم ﴾، بواسطة الملك، ما يُوحى من الشرائع والأحكام، وغيرهما من القصص والأخبار، كما يُوحى إليك من غير فرق بينهما، ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ أي: فاسألوا، أيها الجهلة، أهلَ العلم؛ كأهل الكتب الواقفين على أحوال الرسل السالفة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لتزول شبهتكم إن كنتم لا علم لكم بذلك. أُمروا بذلك؛ لأن إخبار الجم الغفير يُوجب العلم الضروري، لاسيما وهم كانوا يشايعون المشركين عداوته ﷺ، ويشاورونهم في أمورهم، فإذا أخبروهم أن الرسل إنما كانوا بشراً، ولم يكونوا ملائكة، حصل لهم العلم بالحق، وقامت الحجة عليهم.

(١) من الآية ٣ من سورة الأنبياء
(٢) من الآية ٣٣ من سورة هود.
(٣) الآية ٨ من سورة الحجر.
(٤) الآية ٩٥ من سورة الإسراء.

وتوجيه الخطاب إلى الكفرة فى السؤال، بعد توجيهه إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - فى الإرسال؛ لأنه الحقيق بالخطاب فى أمثال تلك العلوم والحقائق الأنيقة، وأما الوقوفُ عليها باستخبار من الغير فهو من وظائف العوام.

ثم بيّن كون الرسل - عليهم الصلاة والسلام - أسوة لأفراد الجنس فى أحكام البشرية، فقال: ﴿ وما جعلناهم جسدًا ﴾ أى: أجساداً، فالإفراد لإرادة الجنس، أو ذوى جسد، ﴿ لا يأكلون الطعامَ ﴾ أى: وما جعلناهم أجساداً صمدانيين، أغنياء عن الطعام والشراب، بل مُحتاجين إلى ذلك؛ لتحقيق العبودية التى اقتضت شرفهم. ﴿ وما كانوا خالدين ﴾؛ لأن كل من يفتقر إلى الغذاء لابد يتحلل بدنه بسرعة، حسبما جرت العادة الإلهية، والمراد بالخلود: المكث المديد، كما هو شأن الملائكة أو الأبدية. وهم معتقدون أنهم كانوا يموتون. والمعنى: بل جعلناهم أجساداً مفتقرة صائرة إلى الموت عند انقضاء آجالهم، لا ملائكة ولا أجساداً صمدانية.

﴿ ثم صَدَقْناهم الوعد ﴾ بالنصر وإهلاك أعدائهم، وهو عطف على ما يُفْهَمُ من وحيه تعالى إليهم، كأنه قيل: أوحينا إليهم ما أوحينا، ثم صدقناهم فى الوعد، الذى وعدناهم فى تضاعيف الوحى، بإهلاك أعدائهم، ﴿ فأنجيناهم ومَنْ نشاء ﴾ من المؤمنين وغيرهم، ممن تستدعى الحكمة إبقاءه، كمن سيُؤمن هو أو بعض فروعه، وهو السر فى حماية العرب من عذاب الاستئصال. أو يخص هذا العموم بغير نبى الرحمة ﷺ؛ فإن أمته لا تستأصل، وإن بقى فيها من يكفر بالله؛ لعل الله يُخرج من أصلابهم من يوحد الله تعالى. ﴿ وأهلكنا المسرفين ﴾ أى: المجاوزين الحد فى الكفر والمعاصى.

ولمّا ذكر برهان حَقِّيَّةِ الرسول - عليه الصلاة والسلام - ذكر حقية القرآن المنزل عليه، الذى ذكر فى صدر السورة إعراض الناس عما يأتيهم من آياته، فقال: ﴿ لقد أنزلنا إليكم ﴾، صدّره بالقسم؛ إظهاراً لمزيد الاعتناء بمضمونه، وإيذاناً بكون المخاطبين فى أقصى مراتب التنكير، أى: والله لقد أنزلنا إليكم، يا معشر قريش، ﴿ كتاباً ﴾ عظيم الشأن نيّر البرهان. فالتنكير للتفخيم، أى: كتاباً جليل القدر ﴿ فيه ذِكْرُكم ﴾ أى: شرفكم وحسن صيتكم، كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[1]، أو فيه تذكيركم وموعظتكم، أو ما تحتاجون إليه فى أمر دينكم ودنياكم، أو ما تطلبون به حسن الذكر والثناء من مكارم الأخلاق، ﴿ أفلا تعقلون ﴾ فتتدبروا فى معانيه حتى تُدركوا حقيته. فالهمزة للإنكار التوبيخى. وفيه حث لهم على التدبر فى أمر الكتاب، والتأمل فى تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر، التى من جملتها القوارع السابقة واللاحقة، والمعطوف: محذوف، أى: أَعَمِيَتْ بصائركم فلا تعقلون؟ والله تعالى أعلم.

(١) من الآية ٤٤ من سورة الزخرف.

الإشارة: ثبوت الخصوصية لا ينافي وصفَ البشرية، فنسبة أهل الخصوصية من البشر كاليواقيت بين الحجر. ولا فرق بين خصوصية النبوة والولاية في الاتصاف بأوصاف البشرية، التي لا تُؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية. وتتميز خصوصية النبوة من الولاية بوحي الأحكام، وتتميز خصوصية الولاية من العمومية بالتطهير من الرذائل والتحلي بالفضائل، وبالغيبة عن رؤية الأكوان، بإشراق شمس العرفان، وذلك بالفناء عن الأثر بشهود المؤثر، ثم بالبقاء بشهود الأثر؛ حكمةً، مع الغيبة عنه، قدرةً، ولا يعرف هذا إلا أهل الذكر الحقيقي، فلا يعرف مقام الأولياء إلا من دخل معهم، ولا يُسأل عنهم إلا أمثالُهم؛ (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون). فلا يشترط في الولي استغناؤه عن الطعام والشراب؛ إذ لم يكن للأنبياء، فكيف بالأولياء؟ ولا استغناؤه عن النساء، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾(١)، نعم؛ صاحب الخصوصية مالك لنفسه من غلبة الشهوة عليه، ينزل إلى أرض الحظوظ بالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين. جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه. وتقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ في سورة النحل(٢). وبالله التوفيق.

ثم بيّن ما أجمل في قوله: (وأهلكنا المسرفين)، فقال:

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

قلت: كم: خبرية مفيدة للتكثير، ومحلها نصب، مفعول بقصمنا، و(من قرية): تمييز، و(كانت..) الخ: صفة لقرية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وكم قَصَمْنَا من قرية ﴾ أي: كثيراً أهلكنا من أهل قرية ﴿ كانت ظالمةً ﴾ بآيات الله تعالى، كافرين بها. وفي لفظ القصم ـ الذي هو عبارة عن الكسر؛ بإبانة أجزاء المكسور وإزالتها بالكلية ـ من الدلالة على قوة الغضب والسخط مالا يخفى. ﴿ وأنشأنا ﴾ أي: أحدثنا ﴿ بعدها ﴾ أي: بعد إهلاكها ﴿ قوماً آخرين ﴾ ليسوا منهم نسباً ولاديناً، ففيه تنبيه على استئصالهم وقطع دابرهم بالكلية. ﴿ فلما أحسُّوا بأسنا ﴾ أي: أدركوا عذابنا الشديد إدراك المشاهَد المحسوس ﴿ إذا هم منها ﴾ أي: من القرية ﴿ يركُضُون ﴾: يهربون مدبرين راكضين دوابهم. فقيل لهم، بلسان الحال أو المقال من الملَك، أو ممن حضرهم من المؤمنين،

(١) من الآية ٣٨ من سورة الرعد. (٢) الآية ٤٣ من سورة النحل.

بطريق الاستهزاء والتوبيخ: ﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أُترفتم فيه﴾ من النعم والتلذذ ﴿و﴾ إلى ﴿مساكنكم﴾ التى كنتم تفتخرون بها، ﴿لعلكم تُسألون﴾؛ تُقصدون للسؤال، إذ كانوا أغنياء، أو للتشاور والتدبر فى المهمات والنوازل، أو تُسألون الفداء فتفتدوا من العذاب، أو تُسألون عن قتل نبيكم وفيم قتلتموه.

قيل: نزلت فى أهل حاضورا، قرية باليمن، وكان أهلها العرب، فبعث الله إليهم نبياً فكذبوه وقتلوه، فسلط الله تعالى عليهم بُختنصر، فقتلهم وسباهم، فلما انهزموا وهربوا قالت لهم الملائكة: لا تركضوا، وارجعوا إلى مساكنكم وأموالكم؛ استهزاءً بهم، وأتبعهم بُختنصر، فأخذتهم السيوف، ونادى مناد من السماء: يالثارات الأنبياء، فلما رأوا ذلك أقروا بالذنوب حين لم ينفعهم، فقالوا: ﴿يا ويلنا﴾؛ يا هلاكنا؛ ﴿إنا كنا ظالمين﴾ مستوجبين العذاب. وهذا اعتراف منهم وندم حين لم ينفعهم ذلك.

﴿فما زالت تلك دعواهم﴾ أى: فما زالوا يُرددون تلك الكلمة، ويدعون بها ، ويقولون: يا ويلنا، ﴿حتى جعلناهم حصيداً﴾ أى: مثل الحصيد، وهو المحصود من الزرع والنبات، فهو فعيل بمعنى مفعول، فلذلك لم يجمع، كجريح وقتيل. وجعلناهم ﴿خامدين﴾؛ ميتين، من خمدت النار إذا طفئت. وهو، مع «حصيداً»، فى حيز المفعول الثانى لجعل، كقولك: جعلته حلواً حامضاً، والمعنى: جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود، أو حال من الضمير المنصوب فى «جعلناهم»، ولفظ الآية يقتضى العموم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وكم من قرية من قرى القلوب قصمنا أهلها، أى: ما فيها من الشكوك والأوهام، كانت ظالمة بتلك الخواطر، فأخرجناهم منها، وأنشأنا بعدها أنواراً وأسراراً وعلوماً آخرين. فلما أحسوا بأسنا بورود الواردات الإلهية عليها، التى تأتى من حضرة القهار، إذا هم منها يركضون؛ لأن الواردات الإلهية تأتى من حضرة القهار، لأجل ذلك لا تصادم شيئاً من الظلمات إلا دمغته، فيقال لتلك الظلمات، التى هى الشكوك والأوهام: لا تركضوا، ولكن ارجعوا أنواراً، وانقلبوا وارداتٍ وأسراراً، وتنعموا فى محلكم بشهود الحق، لعلكم تُسألون، أى: تُسْتَفْتَوْنَ فى الأمور، لأن القلب إذا صفا من الأكدار استفتى فى العلوم، وفى الأمور التى تعرض، قالوا بلسان الحال - أى تلك الظلمات -: يا ويلنا إنا كنا ظالمين؛ بحجب صاحبنا عن الله، فما زالت تلك دعواهم حتى صاروا خامدين، هامدين، ساكتين تحت مجارى الأقدار، مطمئنين بالله الواحد القهار، وهذه إشارة دقيقة، لا يفهمها إلا دقيق الفهم غزير العلم. وبالله التوفيق.

ثم بيّن أن إهلاك تلك القرى الظالمة كان لحكمة بليغة ومصلحة بديعة، ولم يكن عبثاً؛ لأنه تعالى منزه عن اللعب فى خلقه، فقال:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

قلت: (لاعبين): حال من فاعل خلق، و«إن كنا»: شرط حُذف جوابه، أى: إن كنا فاعلين اتخذناه من لدُنا، وقيل: نافية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما خلقنا السماءَ والأرضَ وما بينهما ﴾ من المخلوقات التى لا تُحصى أجناسها، ولا تُعد أفرادها، ولا تُحصر أنواعها وآحادها، على هذا النمط البديع والأسلوب الغريب، ﴿ لاعبين ﴾؛ خالية عن الحِكم والمصالح، بل لحِكَم بديعة ومصالح عديدة، دينية تَقْضى بسعادة الأبد أو بشقاوته، ودنيوية لا تُعد ولاتُحصى، وهذا كقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ﴾(١)، فالمراد من الآية: إشارة إجمالية إلى أن تكوين العالم، وإبداع بنى آدم، مؤسس على قواعد الحِكَم البالغة، المستتبعة للغايات الجليلة، وتنبيه على أن ماحكى من العذاب الهائل، والعقاب النازل بأهل القُرى، من مقتضيات تلك الحِكم، ومتفرع عليها حسبما اقتضته أعمالهم. وإنما فعل ذلك؛ عدلاً منه، ومجازاة على أعمالهم، وأن المخاطبين المتقدمين - وهم قريش - على آثارهم؛ لأن لهم ذنوباً مثل ذنوبهم. وإنما عبَّر عن نفى الحكمة باللعب، حيث قال: ﴿لاعبين﴾؛ لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالِى عن الحكمة، بتصويره بصورة مالا يرتاب أحد فى استحالة صدوره منه سبحانه، وهو اللهو واللعب، بل إنما خلقناهما، وما بينهما؛ لتكون مبدأ الوجود الإنسانى وسبباً لمعاشه، ودليلاً يقوده إلى تحصيل معرفتنا، التى هى الغاية القصوى والسعادة العظمى.

ثم قرر انتفاء اللعب واللهو عنه، فقال: ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً ﴾ أى: ما يلهى به ويلعَب، ﴿ لاتَّخذناه من لدُنَّا ﴾ أى: من أنفسنا؛ لعلمنا بحقائق الأشياء، واستغنائنا عن جلب المصالح ودرء المفاسد. والمعنى: لو أردنا أن نخلق شيئاً، لا لتحصيل مصلحة لكم، ولا لدرء مفسدة عنكم، لفعلنا ذلك فى أنفسنا؛ بأن نخلق عوالم ومظاهر عارية عن الحكمة والمصلحة؛ لأنا أحق منكم بالاستغناء عما يجلب المصلحة ويدرأ المفسدة، لكن من عادتنا ربط الأسباب بمسبباتها، وأنا لم نخلق شيئاً عبثًا، بل خلقنا كل نوع من النبات والحيوانات والجمادات؛ لمصلحة ومنفعة، علِمها، من علِمها وجهِلها من جهِلها، فحصل من هذا نفي التحسين والتقبيح؛ عقلاً، بهذه الشرطية، وإثباته سمعا.

(١) من الآية ٢٧ من سورة ص.

أو: ﴿لاتخذناه من لدُنّا﴾ مما يليق بشأننا من المجردات، لا من الأجسام المرفوعة والأجرام الموضوعة، كعادة الجبابرة؛ مِنْ رفع العروش وتحسينها، وتمهيد الفرش وتزيينها، لأغراض عِراض، لكن يستحيل إرادتنا لذلك؛ لمنافاته للحكمة الإلهية المنزهة عن الأغراض. هـ. من أبى السعود، وأصله للزمخشرى. وفيه تكلف.

وسأل طاوسُ ومجاهدُ الحسنَ عن هذه الآية؟ فقال: اللهو: المرأة. وقال ابن عباس: «الولد». ومعنى (لاتخذناه من لدُنّا) : بحيث لا يطلعون عليه، وما اتخذنا نساءاً وولداً من أهل الأرض. نزلت في الذين قالوا: اتخذ الله ولدا. وتكون الآية، حينئذ تتميماً لِما قبلها، أى: ليس اللعب واللهو من شأننا، إذ لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا. قال شيخ شيوخنا، سيدى عبدالرحمن الفاسى: حمل الآية على الزوجة غير مفيد، إلا أن يراد بذلك مجرد الرحمة والشفقة، مما يمكنُ عقلاً، فيصح دخول النفى الشرعى عليه. انظر ابن عرفة، فقد جوّز، عقلاً، اتخاذه على معنى الرحمة. وكذا ابن عطية فى آية الزمر[1]. ومنع ذلك القشيرى. قلت: وكأنه لِما يشير إليه قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[2] فإن القهر لايناسب التبنى بوجه، وقد يقال: إنه مانع سمعى شرعى، لا عقلى، فلا يخالف ما قاله ابن عرفة ولا ابن عطية. وفيه نظر؛ لأنه يؤدى إلى تعطيل اسمه القهار ونحوه، وهو محال، والله أعلم هـ.

قلت: قد حمل النسفى الآية على الولد، فقال: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً﴾ أى: ولداً، أو امرأة، رد على من قال عيسى ابنه، ومريم صاحبته، ﴿لا تخذناه من لدُنّا﴾ من الولدان أو الحور، ﴿إن كنا فاعلين﴾ أى: إن كنا ممن يفعل ذلك، ولسنا ممن يفعله لاستحالته فى حقنا. هـ. قلت: والذى تكلف الحمل الأول رأى أن حمله على الولد يقتضى جواز الاتخاذ عقلاً؛ وإنما منعه عدم الإرادة. وأجاب ابن عرفة: بأن يحمل الاتخاذ على معنى الرحمة، لا على حقيقة البنوة. قلت: من خاض بحار التوحيد الخاص وحاز مقام الجمع، لا يترقف فى مثل هذا؛ إذ تجليات الحق لا تنحصر، لكن لم يوجد منها، ولم تتعلق إرادته إلا بما هو كمال فى حقه تعالى فى باب القدرة، وأما باب الحكمة، فهى رداء لمحل النقائص، فافهم، واصحب أهلَ الجمع حتى يفهموك ما ذكرتُ لك، والسلام.

ثم قال تعالى: ﴿بل نقذفُ بالحق على الباطل﴾ أى: نرمى بالحق، الذى هو الجد، على الباطل، الذى من جملته اللهو، وهو إضراب عن اتخاذ الولد، بل عن إرادته، كأنه قيل: لكنا لا نريده، بل شأننا أن نقذف بالحق على الباطل ﴿فيدْمَغُه﴾ : فيمحقه بالكلية، كما فعلنا بأهل القُرى المحكية وأمثالهم. وقد استعير، لإيراد الحق على الباطل، القذف، الذى هو الرمى الشديد، وللباطل الدمغ، الذى هو تشتيت الدماغ وتزهيق الروح، فكأنَّ الباطل حيوان له دماغ، فإذا تشتت دماغه مات واضمحل، ﴿فإذا هو زاهق﴾ أى: فإذا الباطل ذاهب بالكلية، متلاش عن أصله. وفى (إذا) الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال السُرعة فى الذهاب والبطلان ما لا يخفى.

---

(١) فى قوله تعالى: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق مايشاء...﴾ الآية.

(٢) من الآية ٤ من سورة الزمر.

ثم ردَّ على أهل الباطل فقال: ﴿ ولكم الويلُ مما تصفون ﴾ أي: وقد استقر لكم الويل والهلاك؛ من أجل ماتصفونه، سبحانه، بما لايليق بشأنه الجليل، من الولد والزوجة، وغير ذلك مما هو باطل. وهو وعيد لقريش ومن دان دينهم، بأنّ لهم أيضاً مثل ما لأولئك القرى المتقدمة من الهلاك، إن لم ينزجروا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما نصبتْ لك الكائنات لتراها كائنات، بل لتراها أنواراً وتجليات، الأكوان ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته، فالغير والسِّوى عند أهل الحق باطل، والباطل لايثبت مع الحق. قال تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق). قال القشيري: تَدْخلُ نهارَ التحقيق على ليالي الأوهام، أي: فتمحى، وتبقى شمس الأحدية ساطعة. هـ. وبالله التوفيق.

ثم قرر وحدانيته تعالى في ملكه وملكوته، فقال:

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وله من في السموات والأرض ﴾ أي: له جميع المخلوقات، خلقاً وملكاً، وتدبيراً وتصرفاً، وإحياء وإماتة، وتعذيباً وإثابة، من غير أن يكون لأحد في ذلك دخل، لا استقلالاً ولا استتباعاً، ولا فرق بين أهل العالم العلوى والسفلى، ﴿ ومَنْ عنده ﴾ وهم الملائكة - عليهم السلام - عبَّر عنهم بذلك إثر ما عبَّر عنهم بمن في السموات؛ تنزيلاً لهم - لكرامتهم عليه، وزلفاهم عنده - منزلة المقربين عند الملك، وهو مبتدأ وخبره: ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ﴾ أي: لا يتعاظمون عنها، ولا يَعُدون أنفسهم كبراء، ﴿ ولا يستحسرون ﴾ أي: لايكِلّون ولا يَعْيون، ﴿ يُسبِّحُون الليلَ والنهار ﴾ أي: ينزهونه في جميع الأوقات، ويُعظمونه ويمجدونه دائماً. وهو استئناف بياني، كأنه قيل: ماذا يصنعون في عبادتهم، أو كيف يعبدون؟ فقال: يُسبحون ... الخ. ﴿ لا يفْتُرون ﴾ أي: لا يتخلل تسبيحَهم فترة أصلاً، ولا شغل آخر.

ولمّا برهن على وحدانيته تعالى فى ملكه بأنه تعالى خلق جميع المخلوقات على منهاج الحكمة، وأنهم قاطبة تحت ملكه وقهره، وأنّ عباده مذعنون لطاعته، ومثابرون على عبادته، ومنزهون له عن كل مالا يليق بشأنه، أنكر على من أشرك معه بعد هذا البيان، فقال: ﴿ أم اتخذوا آلهةً ﴾ يعبدونها ﴿ من الأرض ﴾ أى: اتخذوها من جنس الأرض، أحجاراً وخشباً، ﴿ هم يُنْشِرُون ﴾ أى: يبعثون الموتى. وهـذا هو الذى يدور عليه الإنكار والتجهيل والتشنيع، لانفس الاتخاذ، فإنه واقع لا محالة، أى: بل اتخذوا آلهة من الأرض، هم مع حقارتهم، ينشرون الموتى، كلا.. فإن ما اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك، وهم، وإن لم يقولوا بذلك صريحاً، لكنهم حيث ادعوا لها الألوهية، فكأنهم ادعوا لها الإنشـار، ضرورة؛ لأنه من خصائص الإلهيـة، ومعنى التخصـيص فى تقديم الضـمير فى: ﴿هم يُنشرون﴾: التنبيه على كمال مباينة حالهم للإنشار، الموجبة لمزيد الإنكار، كما فى قوله تعالى: ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ﴾(١). وفى قوله تعالى: ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾(٢)، فإنّ تقديم الجار والمجرور؛ للتنبيه على كمال مباينة أمره تعالى لأن يشك فيه ويستهزأ به.

ثم أبطل الاشتراك فى الألوهية، فقال: ﴿ لو كان فيهما آلهةٌ إلا اللهُ ﴾ أى: لو كان فى السماوات والأرض آلهة غير الله، كما هـو اعتقادهـم الباطـل، ﴿ لفسدَتَا ﴾ أى: لفسد نظامهما بما فيهما، لوجود التمانع، كعادة الملوك، أو لبطلتا بما فيهما، ولم يوجد شيء منهما؛ للزوم العجز لهما، بيان ذلك: أن الألوهية مستلزمة للقدرة على الاسْتِبْدَادِ بالتصرف فيهما على الإطلاق، تغييراً وبديلاً، وإيجاداً وإعداماً، وإحياء وإماتة، فبقاؤهما على ما هما عليه من غير فساد، إما بتأثير كل منها، وهو محال؛ لاستحالة وقوع الأثر الواحد بين مؤثرين، وإما بتأثير واحد منها، فالباقى بمعزل عن الإلهية، والمسألة مقررة فى علم الكلام.

و(إلا): صفة لآلهة، كما يُوصف بغير، ولمّا كانت حرفاً، ظهر إعرابها فى اسم الجلالة، ولا يصح رفعه على البدل؛ لعدم وجود النفى. ثم قال تعالى: ﴿ فسبحان الله ﴾ أى: فسبحوا سُبحان الله اللائق به، ونزهوه عما لا يليق به من الأمور، التى من جملتها: أن يكون له شريك فى الألوهية. وإيراد الجلالة فى موضع الإضمار، حيث لم يقل فسبحانه؛ للإشعار بعلية الحكم، فإنّ الألوهية مناط لجميع صفات كماله، التى من جملتها: تنزهه تعالى عما لا يليق به، ولتربية المهابة وإدخال الروعة. ثم وصفه بقوله: ﴿ ربِّ العرش ﴾، وخصه بالذكر، مع كونه رب كل شيء؛ لعظم شأنه؛ لأنّ الأكوان فى جوفه كلا شيء، أى: تنزيهاً له عما يصفونه عن أن يكون من دونه آلهة.

ثم بيّن قوة عظمته وعز سلطانه القاهر، فقال: ﴿ لا يُسأل عما يَفعل ﴾ أى: لا يمكن لأحد من مخلوقاته أن يناقشه أو يسأله عما يفعل؛ هيبةً وإجلالاً، ﴿ وهم يُسألون ﴾ أى: وعباده يُسألون عما يفعلون، نقيراً وقطميراً؛ لأنهم مملوكون له تعالى، مستعبدون، ففيه وعيد للكفرة، فالآية تتميم لقوله: (لاعبين)، بل خلقنا الأشياء كلها

(١) من الآية ١٠ من سورة إبراهيم. (٢) من الآية ٦٥ من سورة التوبة.

لحكمة، فمنها ما أدركتم حكمته، ومنها ما غاب عنكم، فكلِوا أمره إلى الله، ولا تسألوه عما يفعل، فإنه لا يُسأل عن فعله، وأنتم تُسألون.

ثم قال تعالى: ﴿ أم اتخذوا من دونه آلهةً ﴾، هو إضراب وانتقال من إظهار بطلان كون ما اتخذوه آلهة؛ بإظهار خلوها من خصائص الألوهية، التي من جملتها إنشار الموتى، وإقامة البرهان القاطع على استحالة تعدد الإله، إلى إظهار بُطلان اتخاذهم تلك الآلهة، مع عرائها عن تلك الخصائص، وتبكيتهم بإلجائهم إلى إقامة البرهان على دعواهم الباطلة. والهمزة: لإنكار ما اتخذوه واستقباحه، أي: بل اتخذوا من دونه ـ أي: متجاوزين إياه تعالى، مع ظهور شؤونه الجليلة الموجبة لتفرده بالألوهية ـ آلهة، مع ظهور خلوهم عن خصوص الإلهية بالكلية.

﴿ قلْ ﴾ لهم، بطريق التبكيت: ﴿ هاتُوا برهانَكم ﴾ على ما تدَّعُونَهُ، من جهة العقل والنقل؛ فإنه لا صحة لقول لا دليل عليه في الأمور الدينية، لاسيما في هذا الأمر الخطير، فإن بُهتوا فقل لهم: ﴿ هذا ذكر مَنْ معي وذكر مَنْ قبلي ﴾ أي: بهذا نطقت الكتب السماوية قاطبة، وشهدت به سُنَّة الرسل المتقدمة كافة. فهذا الوحي الوارد في شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع ﴿ ذكرُ من معي ﴾ من أمتي، أي: عظتهم، ﴿ وذكرُ من قبلي ﴾ من الأمم السالفة، أي: بهذا أمَرنا ربنا ووعظنا، وبه أمر مَنْ قبلنا، يعني: انفراده سبحانه بالألوهية واختصاصه بها.

وقيل: المعنى: هذا كتاب أُنزل على أمتي، وهذا كتاب أُنزل على أمم الأنبياء ـ عليهم السلام ـ قبلي، فانظروا: هل في واحد منها غير الأمر بالتوحيد والنهي عن الإشراك، ففيه تبكيت لهم. ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون الحقَّ ﴾ أي: لا يفهمونه، ولا يميزون بينه وبين الباطل، فهو إضراب وانتقال من تبكيتهم بمطالبة البرهان، إلى بيان أنه لا ينجع فيهم المحاجة؛ لجهلهم وعنادهم، ولذلك قال: ﴿ فهم معرضون ﴾ أي: فهم؛ لأجل جهلهم وعتوهم مستمرون على الإعراض عن التوحيد واتباع الرسول، لا يرْعَوُونَ عما هم عليه من الغي والضلال، وإن كررت عليهم البينات والحجج. أو معرضون عما أُلقي عليهم من البراهين العقلية والنقلية؛ لانهماكهم.

﴿ وما أرسلنا مِن قَبْلِكَ من رسول إلا يوحى[1] إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾، هذا مقرر لِما قبله؛ من كون التوحيد مما نطقت به الكتب الإلهية، وأجمعت عليه الرسل ـ عليهم السلام ـ قاطبة. وصيغة المضارع في (يوحى)؛ لحكاية الحال الماضية؛ استحضاراً لصورة الوحي العجيبة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قوله تعالى: (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته)، العندية، هنا، عندية اصطفاء وتقريب، وهذه صفة العارفين المقربين، لا يستكبرون عن عبادته، بل خاضعون لجلاله وقهريته على الدوام، ولا يستحسرون:

(١) قرأ حمزة والكسائي وحفص: (نُوحي)؛ بالنون وكسر الحاء، على التعظيم، وقرأ الآخرون ـ بالياء وفتح الحاء.(انظر: الإتحاف ٢/٢٦٢).

لا يملُّون منها ولا يشبعون، غير أنهم يتلونون فيها؛ من عبادة الجوارح إلى عبادة القلوب؛ كالتفكر والاعتبار، إلى عبادة الأرواح؛ كالشهود والاستبصار، إلى عبادة الأسرار؛ كالعكوف في حضرة الكريم الغفار، يُنزهون الله تعالى في جميع الأوقات، لا يفترون عن تسبيحه بالمقال أو الحال.

وقوله تعالى: ﴿أم اتخذوا آلهة...﴾ الخ، تَصْدُق على من مال بقلبه إلى محبة الأكوان، أو ركن إلى الحظوظ والشهوات، **وقوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾، اعلم أن ثلاثة أشياء إذا تعدد مدبرها فسد نظامها؛** أولها: الألوهية، فلو تعددت لفسد نظام العالم، وثانيها: السلطنة، إذا تعددت في قُطْر واحد فسدت الرعية، وثالثها: الشيخوخة، إذا تعددت على مريد واحد فسدت تربيته، كالطبيب إذا تعدد على مريض واحد فسد علاجه. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾ قال الكواشي: يعني: لا يُسأل عن فعله وحُكمه؛ لأنه الرب، وهم يُسألون؛ لأنهم عبيده. وبعض الناس يقول: هذه آية الدبوس[1]. قلت: وقد تقلب السين زايا، ومعناها: أن كل ماتحكم به القدرة: يجب حنو الرأس له، من غير تردد ولا سؤال. ثم قال: ولو نظر النظر الصحيح لرآها أنصف آية في كتاب الله تعالى؛ وذلك لأنه جمع فيها بين صفة الربوبية وصفة العبودية. هـ.

وقوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يُوحَي إليه أنه لا إله إلا أنا﴾ يعني: أن التوحيد مما أجمعت عليه الرسل والكتب السماوية. والفناء فيه على ثلاثة أقسام: فناء في توحيد الأفعال، وهو ألا يرى الفعل إلا من الله، ويغيب عن الوسائط والأسباب، وفناء في توحيد الصفات، وهو أن يرى ألا قادر ولا سميع ولا بصير ولا متكلم إلا الله، وفناء في توحيد الذات، وهو أن يرى ألا موجود إلا الله، ذوقاً ووجداً وعقداً. كما قال صاحب العينية:

هُوَ الموجِدُ الأشْيَاءِ، وَهْوَ وُجُودُهَا وعَيْنُ ذَوَاتِ الكُلِّ، وَهْوَ الجَوَامِعُ[2]

وقد أشار بعضهم إلى هذه الفناءات، فقال:

فـيـفنى، ثم يفنى، ثم يفنى، فكان فنـاؤه عين البـقـاءِ

وهنا ـ أي: في مقام الفناء والبقاء ـ انتهت أقدام السائرين، ورسخت أسرار العارفين، مع ترقيات وكشوفات أبد الآبدين، جعلنا الله من حزبهم. آمين.

---

(١) هكذا في الأصول.

(٢) المراد: أن الحق تعالى قيوم الأشياء ومفيضها من العدم، والمتجلي عليها بمراده منها، إذ أنها في ذاتها فانية من قبلُ ومن بعدُ؛ لأنه لا قيومية لها من ذاتها. هذا هو المعنى الذي ينبغي أن يفهم من خلال هذا البيت وأشباهه.

ثم أنكر على من ادعى الولد له، فقال:

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقالوا اتخذ الرحمنُ ولداً ﴾، حكى الله تعالى جناية أخرى لبعض المشركين، جيء بها؛ لبيان بطلانها. والقائل بهذه المقالة حيٌ من خزاعة، وقيل: قريش وجهينة وبنو سلمة وبنو مليح، يقولون: الملائكة بنات الله، وأمهاتهم سروات الجن، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. والتعرض لعنوان الرحمانية المنبئة عن كون جميع ماسواه مربوباً له تعالى، نعمة أو منعمًا عليه؛ لإبراز كمال شناعة مقالتهم الباطلة، ﴿ سبحانه ﴾ أي: تنزه تنزيهاً يليق بكمال ذاته، وتقدّس عن الصاحبة والولد، ﴿ بل ﴾ هم ﴿ عبادٌ ﴾ لله تعالى، و«بل» إبطال لما قالوا، أي: ليست الملائكة كما قالوا، ﴿ بل عبادٌ مكرمون ﴾؛ مقربون عنده، ﴿ لا يسبقونه ﴾ أي: لا يتقدمونه ﴿ بالقول ﴾، ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم به. وهذه صفة أخرى لهم، منبهة على كمال طاعتهم وانقيادهم لأمره تعالى، أي: لا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به. وأصله: لا يسبق قولُهم قولَه، ثم أسند السبق إليهم؛ لمزيد تنزههم عن ذلك، ﴿ وهم بأمره يعملون ﴾ أي: لا يعملون إلا ما أمرهم به، وهو بيان لتبعيتهم له تعالى في الأفعال، إثر بيان تبعيتهم له في الأقوال، فإن نفي سبقيتهم له تعالى بالقول: عبارة عن تبعيتهم له تعالى فيه، كأنه قيل: هم بأمره يقولون وبأمره يعملون، لا بغير أمره أصلا.

﴿ يعلمُ ما بين أيديهم وما خلْفَهم ﴾ أي: ما عملوا وما هم عاملون، وقيل: ما كان قبل خلقهم وما يكون بعد خلقهم. وهو تقرير لتحقق عبوديتهم؛ لأنهم إذا كانوا مقهورين تحت علمه تعالى وإحاطته انتفت عنهم أوصاف الربوبية المكتسَبَة من مجانسة البنوة، ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ أن يشفع له، مهابة منه تعالى. قال ابن عباس: «هم أهل لا إله الا الله»، ﴿ وهم من خشيته ﴾ عز وجل ﴿ مشفقون ﴾: خائفون مرتعدون. قال بعضهم: أصل الخشية: الخوف مع التعظيم، ولذلك خص بها العلماء، وأصل الإشفاق: الخوف مع الاعتناء، فعند تعْديته بمن: يكون معنى الخوف فيه أظهر، وعند تعديته بعلى: ينعكس الأمر؛ فيكون معنى الإشفاق فيه أظهر.

﴿ ومن يَقُلْ منهم ﴾ أي: من الملائكة؛ إذ الكلام فيهم، ﴿ إني إلهٌ من دونه ﴾ أي: متجاوزاً إياه تعالى، ﴿ فذلك ﴾ الذي فرض أنه قال ذلك فرض المحال، ﴿ نَجْزِيه جهنم ﴾ كسائر المجرمين، ولا ينفى هذا عنهم

ماذكر قبلُ من صفاتهم السنية وأفعالهم المرضية؛ لأنه فرض تقدير، وفيه من الدلالة على قوة ملكوته تعالى، وعزة جبروته، واستحالة كون الملائكة بحيث يتوهم في حقهم ما توهمه أولئك الكفرة، مالا يخفى، ﴿ كذلك نجزى الظالمين ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى الظالمين، الذين يضعون الأشياء في غير مواضعها، ويتعدون أطوارهم.

قال الكواشي: هذا القول وارد على سبيل التهديد والوعيد الشديد على ارتكاب الشرك، كقوله: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1] .هـ. فالقصد: تفظيع أمر الشرك، وأنه لو صدر ممن صدر لأحبط عمله، وكان جزاء صاحبه جهنم، ومثل ذلك الجزاء نجزى الظالمين، وهم الكافرون، والحاصل: أنه على سبيل الفرض، مع علمه تعالى أنه لا يكون من الملائكة، فهو من إخباره عما لا يكون كيف يكون؛ لعلمه بما لايكون، مما جاز أن يكون، كيف يكون .هـ. من الحاشية الفاسية ببعض اختصار.

فالكاف من «كذلك»: في محل مصدر تشبيهي، مؤكد لمضمون ما قبله. والقصر، المستفاد من التقديم للمصدر، معتبر بالنسبة إلى النقصان دون الزيادة، أي: لا جزاء أنقص منه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أنوار الملكوت متدفقة من بحر أسرار الجبروت، من غير تفريع، ولا تولد، ولا علاج، ولا امتزاج، بل: كن فيكون، لكن حكمته تعالى اقتضت ترتيب الأشياء وتفريع بعضها من بعض، ليبقى السر مصوناً والكنز مدفوناً. فأسرار الذات العلية منزهة عن اتخاذ الصاحبة والولد، بل القدرة تبرز الأشياء بلا علاج ولا أسباب، والحكمة تسترها بوجود العلاج والأسباب. فكل ما ظهر في عالم التكوين قد عمَّتْهُ قهرية العبودية، وانتفت عنه نسبة البُنوة لأسرار الربوبية، فأهل الملأ الأعلى عباد مكرمون، مقدّسون من دنس الحس، مستغرقون في هَيَمان القرب والأنس، وأهل الملأ الأسفل مختلفون، فمن غلب عقلُه على شهوته، ومعناه على حسه، وروحانيته على بشريته، فهو كالملائكة أو أفضل. ومن غلبت شهوته على عقله، وحسه على معناه، وبشريته على روحانيته، كان كالبهائم أو أضل. ومن التحق بالملأ الأعلى، من الأولياء المقربين، انسحب عليه ما مدحهم به تعالى من قوله: (يُسبحون الليل والنهار لا يَفْتُرون)، ومن قوله: (لا يسبقونه بالقول)، بأن يدبروا معه شيئاً قبل ظهور تدبيره، وهم بطاعته يعملون، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهم من خشية هيبته مشفقون، (ومن يقل منهم إني إله من دونه)؛ بأن يدعي شيئاً من أوصاف الربوبية، كالكبرياء، والعظمة على عباده، فذلك نجزيه جهنم، وهي نار القطيعة، كذلك نجزى الظالمين. وفي الحِكَم: «منعك أن تدعى ما ليس لك مما للمخلوقين، أفيبيح لك أن تدعى وصفه وهو رب العالمين»؟.

---

(١) من الآية ٨٨ من سورة الأنعام.

ثم برهن على وحدانيته، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾

قلت: «فِجاجاً»: حال من «سُبل»، وأصله: وصف له، فلما تقدم أُعرب حالاً. وقيل «سُبُلاً»: بدل من «فِجاجاً». وفى إتيانه: إيذان أن تلك الفجاج نافذة؛ لأن الفج قد يكون نافذاً وقد لا. قاله المحشى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أوَ لَمْ يرَ الذين كفروا﴾ رؤية اعتبار ﴿أنّ السمواتِ والأرضَ﴾ أى: جماعة السموات وجماعة الأرض ﴿كانتا﴾، ولذلك لم يقل كُنّ، ﴿رتْقًا﴾ أى: ملتصقة بعضها ببعض. والرتق: الضم والالتصاق. وهو مصدر بمعنى المفعول، أى: كانتا مرتوقتين، أى: ملتصقتين، ﴿ففتقناهما﴾؛ فشققناهما، فالفتق ضد الرتق. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كانتا شيئاً واحداً متصلتين، ففصل الله بينهما، فرفع السماء إلى حيث هى، وأقرّ الأرض». وفى رواية عنه: أرسل ريحاً فتوسطتهما ففتقتهما. وقال السدى: (كانت السموات مؤتلفة طبقة واحدة، ففتقها، فجعلها سبع سموات، وكذلك الأرض، كانت طبقة واحدة، ففتقها، فجعلها سبع أرضين).

فإن قيل: متى رأوهما رتقاً حتى جاء تقريرهم بذلك؟ قلنا: مصب الكلام والتقرير هو فتق السماوات ورفعها، وهو مشاهد بالأبصار، وهم متمكنون من النظر والاعتبار، فيعلمون أن لها مدبراً حكيماً، فتَقَهَا ورفعها، وهو الحق جل جلاله، وذكر الرتق زيادة إخبار، فكأنه قال: ألم يروا إلى فتق السماوات ورفعها؟ وقال الكواشى: لمّا كان القرآن معجزاً، كان وروده برتقهما كالمشاهد المرئى، أو: لمّا كان تلاصق السماوات والأرضين، وما بينهما، وتباينهما، جائزاً عقلاً، وجب تخصيص التلاصق من التباين، وليس ذلك إلا لله تعالى. هـ.

وقيل: كانت السماوات صلبة لا تمطر، والأرض رتقاً لا تنبت، ففتق السماء بالأمطار، والأرض بالنبات. ورُوى هذا عن ابن عباس أيضاً، وعليه أكثر المفسرين، وعلْمُ الكفرةِ الرتقَ والفتق، بهذا المعنى، مما لا خفاء فيه. والرؤية على الأول رؤية علم، وعلى الثانى رؤية عين.

﴿وجعلنا من الماء كل شيءٍ حيّ﴾ أى: خلقنا من الماء كل حيوان، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ﴾[1]، وذلك لأنه من أعظم مواده، أو لفرط احتياجه إليه، وحبه له، وعدم صبره عنه، وانتفاعه به، ويدخل

(١) من الآية ٤٥ من سورة النور.

فى ذلك: النبات؛ مجازاً دون الملائكة، فألْ فيه للحقيقة والماهية، إلا أنه صرفه عن ذلك إلى العهد الذهنى قرينةُ الجعل، كما فى آية: ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾(١)، فإن القرينة تخلص ذلك للبعضية وإرادة الأشخاص. وقيل: المراد به: المنِيُّ. فألْ فيه، حينئذ، للعهد الذهنى فقط. قال القشيرى: كُلُّ مخلوقٍ حيٌّ فَمِنَ الماء خَلْقُه، فإنَّ أصلَ الحيوان الذى يحصل بالتناسل النطفةُ، وهى من جملة الماء. هـ. وتقدم أن الملائكة لا تناسل فيها. ﴿أفلا يؤمنون﴾ بالله وحده، وهو إنكار لعدم إيمانهم، مع ظهور ما يُوجبه حتماً من الآيات الآفاقية والأنفسية، الدالة على تفرده تعالى بالألوهية.

﴿وجعلنا في الأرض رواسيَ﴾ أى: جبالاً ثوابت، من رسا الشيءُ؛ إذا ثبت ورسخ، ﴿أن تميد بهم﴾ أى: كراهية أن تتحرك وتضطرب بهم، أو لئلا تميد بهم ـ بحذف اللام، و«لا»؛ لعدم الإلباس. ﴿وجعلنا فيها﴾ أى: فى الأرض، وتكرير الجعل؛ لاختلاف المجعولَيْن، ولتوفية مقام الامتنان حقه، أو فى الرواسى؛ لأنها المحتاجة إلى الطرق، ﴿فجاجًا﴾: جمع فج، وهو الطريق الواسع، نفذ أم لا، أى: جعلنا فى الأرض مسالك واسعة، و﴿سُبلاً﴾ نافذة. فالسبل هى الفجاج مع قيد النفوذ. فإن قيل: أيّ فرق بين هذا وبين قوله: ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا﴾(٢)؟ فالجواب: أنه هُنا بيَّن أنه خلقها على هذه الصفة، وهناك بيَّن أنه جعل فيها طُرقاً واسعة، وليس فيه بيان أنه خلقها كذلك، فما هنا تفسير لما هناك. انظر النسفى.

وقوله تعالى: ﴿لعلهم يهتدون﴾ أى: إلى البلاد المقصودة بتلك السبل، أو إلى مصالحهم ومهماتهم. ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾ من السقوط، كقوله: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾(٣)، أو من الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم، أو من استراق السمع بالشهب، كما قال: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾(٤). ﴿وهم﴾ أى: الكفار ﴿عن آياتها﴾ أى: عن الأدلة التى فيها، كالشمس والقمر والنجوم، وغير ذلك مما فيها من العجائب الدالة على وحدانيته تعالى وقدرته وحكمته، التى بعضها محسوس، وبعضها معلوم بالبحث فى علمى الطبيعة والهيئة، ﴿مُعْرِضُون﴾ لا يتدبرون فيها، فيقفون على ما هم عليه من الكفر والضلال، فيؤمنون.

﴿وهو الذي خلق الليلَ﴾ لتسكنوا فيه، ﴿والنهارَ﴾ لتتصرفوا فيه، ﴿والشمسَ﴾ لتكون سراجَ النهار، ﴿والقمرَ﴾ ليكون سراج الليل، وهذا بيان لبعض تلك الآيات التى هم عنها معرضون. وقوله: ﴿كلٌّ﴾ أى: كلهم، والمراد: جنس الطوالع، ﴿في فَلَكٍ يَسْبَحُون﴾ أى: يسيرون سير العائم فى الماء. عن ابن عباس رضي الله عنه: الفلك السماء، وقيل: موج مكفوف تحت السماء، يجرى فيه الشمس والقمر والنجوم. وجمهور أهل الهيئة أن الفلك:

---

(١) من الآية ١٧ من سورة يوسف.
(٢) من الآية ٢٠ من سورة نوح.
(٣) من الآية ٦٥ من سورة الحج.
(٤) الآيـة ٧ من سورة الصافات.

جسم مستدير، وأنهن تسعة، وهل هى السموات السبع، فيكون الكرسى ثامناً، والعرش تاسعاً، أو غيرهن، فتكون تحت السموات أو فوقها؟ قولان لهم. والمراد هنا: الجنس، كقولك: كَسَاهُمُ الأميرُ حلةً، أى: حُلة حُلةً، وجعل الضمير واو العقلاء؛ لأن السباحة حالُهم.

قال فى المستخرج من كتاب الغزنونى: «كلٌ» أى: كل واحد من الشمس والقمر وسائر السيارة، وإن لم تُذْكرن؛ **لأنه جمع قوله: (يَسْبَحُونَ) والمعنى: يجرون كالسابح، أو يدورون، والسيارة تجرى فى الفلك على عكس جرى** الفلك، ولها تسعة أفلاك، فالقمر فى الفلك الأدنى، ثم عطارد، ثم الزهرة، ثم الشمس، ثم المريخ، ثم المشترى، ثم زُحل، والثامن: فلك البروج، والتاسع: الفلك الأعظم. هـ. وقال فى سورة يس: خص الشمس والقمر هنا، وفى سورة الأنبياء؛ لأن سيرهما أبداً على عكس دوْر الفلك، وسَيْر الخمسة قد يكون موافقاً لسيره عند رجوعها. هـ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أوَلَم ير الذين كفروا بوجود التربية أن سموات الأرواح وأرض النفوس كانتا رتقًا صلبة، ميتة بالجهل، ففتقناهما بالعلوم وأسرار التوحيد؟ والمعنى: أن بعض الأرواح والنفوس تكون ميتة صلبة، فإذا صَحِبَتْ أهل التربية، انفتقت بالعلوم والأسرار، فهذا شاهد بوجود أهل التربية، ومن قال بانقطاعها فقوله مردود بالمشاهدة. وجعلْنا من ماء الغيب ـ وهى الخمرة الأزلية ـ كلَّ شيء حى، أفلا يؤمنون بوجود هذا الماء عند أربابه؟ وجعلنا فى أرض النفوس جبالاً من العقول؛ لئلا تميل إلى الهوى فتموت، وجعلنا فيها طُرقاً يسلك منها إلى الحضرة، وهى كيفية الرياضة وأنواع المجاهدة، وهى طرق كثيرة، والمقصد واحد، وهو الوصول إلى الفناء والبقاء، التى هى معرفة الحق بالعيان، وهو قوله تعالى: (لعلهم يهتدون) إلى الوصول إلى حضرتنا.

وجعلنا السماء، أى: سماء القلوب الصافية، سقفاً محفوظاً من الخواطر والوساوس والشكوك والأوهام والشياطين، قال بعضهم: (إذا كان الحق تعالى قد حفظ السماء بالشهب من الشياطين، فقلوب أوليائه أولى بالحفظ). وهم عن آياتها، أى: عن دلائل حفظها وصيانتها معرضون؛ لانهماكهم فى الغفلة. وهو الذى خلق ليل القبض ونهار البسط وشمس العرفان وقمر توحيد الدليل والبرهان، كلٌ فى موضعه، لا يتعدى أحد على صاحبه، ولكل واحد سير معلوم وأدب محتوم. وبالله التوفيق.

ولمّا قامت الحجة على الكفرة بما ذكرَ من الآيات والدلائل القاطعة، وانقطعوا، قالوا: ننتظر به ريب المنون، فنستريح منه، فأنزل الله تعالى:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله لنبيه - عليه الصلاة والسلام -: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ أى: البقاء الدائم؛ لكونه مخالفاً للحكمة التكوينية والتشريعية، ﴿أفإن مت﴾ بمقتضى حكمتنا ﴿فهم الخالدون﴾ بعدك؟ نزلت حين قالوا: نتربص به ريب المنون، فنفى عنه الشماتة بموته، فإن الشماتة بالموت مما لا ينبغي أن يصدر من عاقل، أي: قضى الله ألا يخلد فى الدنيا بشراً، فإن مت - يا محمد - أيبقى هؤلاء الكفرة؟ كلا؛ ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ أى: ذائقة مرارة مفارقتها جسدها، فتستوى أنت وهم فيها، فلا تتصور الشماتة بأمر عام.

﴿ونبلوكم﴾، الخطاب: إما للناس كافة بطريق التلوين، أو للكفرة بطريق الالتفات، وسمى ابتلاء، وإن كان عالماً بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم؛ لأنه فى صورة الاختبار، أى: نختبركم ﴿بالشر والخير﴾، أى: بالفقر والغنى، أو بالضر والنفع، أو بالعطاء والمنع، أو بالذل والعز، أو بالبلاء والعافية، ﴿فتنة﴾؛ اختباراً، هل تصبرون وتشكرون، أو تجزعون وتكفرون. و«فتنة»: مصدر مؤكد «لنبلوكم»، من غير لفظه. ﴿وإلينا ترجعون﴾ لا إلى غيرنا، فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم؛ من الصبر والشكر، أو الجزع والكفران. وفيه إيماء إلى أن المقصود من هذه الدنيا: الابتلاء والتعرض للثواب والعقاب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لابد لهذا الوجود بما فيه أن تنهد دعائمه، وتُسلب كرائمه، ولابد من الانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء، ومن دار التعب إلى دار الهناء، ومن دار العمل إلى دار الجزاء. فالعاقل من أعرض بكليته عن هذه الدار، وصرف وجهته إلى دار القرار، فاشتغل بالتزود للرحيل، وبالتأهب للمسير، فلا مطمع للخلود فى هذه الدار، وقد رحل منها الأنبياء والصالحون والأبرار، وتأمل قول الشاعر:

صبراً فى مجال الموت صبراً   فما نيل الخلود بمستطاع

وقوله تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾، إعلم أن تخالف الآثار وتنقلات الأطوار على العبد من أفضل المنن عليه، إن صَحِبَتْه اليقظة، فيرجع إلى الله تعالى فى كل حال تنزل به، إن أصابته ضراء رجع إلى الله بالصبر والرضا، وإن أصابته سراء رجع إليه بالحمد والشكر، فيكون دائماً فى السير والترقى، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾ أى: بهما. فالرجوع إلى الله فى السراء والضراء من أركان الطريق، والرجوع إلى الله فى الضراء بالصبر والرضا، وفى السراء بالحمد والشكر، ورؤية ذلك من الله بلا واسطة. وفى الحديث عنه ﷺ: «من ابتلى فَصَبَرَ، وأُعطى فَشَكَرَ، وظُلم فغفر أو ظَلَم فاستَغْفَرَ»، ثم سكت - عليه الصلاة والسلام - فقالوا: ماله يا رسول الله؟ قال: «أولئك لَهُمُ الأمْنُ وهم مُهتَدونَ»[1]. وقال ﷺ: «عَجَبًا لأمرِ المُؤمنِ، إنّ أمرَهُ كلَّهُ خيرٌ، وَلَيْسَ ذلكَ لأحَدٍ إلاّ للمؤمنِ، إن أصابَتْهُ سرّاءُ شكَرَ، فكانَ خيراً لَهُ، وإنْ أصابَتْهُ ضرّاءُ صبرَ، فكانَ خيراً لَهُ»[2].

(١) عزاه فى الجامع الصغير (ح ٨٢٨١)، للطبراني والبيهقي، عن سخبرة، وحسنه.
(٢) أخرجه مسلم فى (الزهد، باب: المؤمن أمره كله خير)، عن صهيب رضي الله عنه.

والرجوع إلى الله في الضراء أصعب، والسير به أقوى؛ لِمَا فيه من التصفية والتطهير من أوصاف البشرية، ولذلك قدّمه الحق تعالى. وفي الحديث: «إذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدا ابْتَلاَهُ، فإن صبر اجتباه، وإن رضي اصطفاه». وفي الخبر عن الله تعالى: «الفقر سجني، والمرض قيدي، أحبس بذلك من أحببتُ من عبادي». وبه يحصل على عمل القلوب؛ الذي هو الصبر والرضا والزهد والتوكل، وغير ذلك من المقامات، وذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح، ومن أعمال القلوب يُفضي إلى أعمال الأرواح والأسرار، كفكرة الشهود والاستبصار. وفكرة ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة، بل من ألْفِ سنة، كما قال الشاعر:

كُلُّ وَقْتٍ مِنْ حَبِيبِي ... قَــدْرُهُ كَـألْفِ حَجَّـهْ

لأن المقصود من الطاعات وأنواع العبادات: هو الوصول إلى مشاهدة الحق ومعرفته، فالفكرة والنظرة لاجَزاء لها إلا زيادة كشف الذات وأنوار الصفات، منحنا الله من ذلك، الحظ الأوفر. آمين.

ومن جملة الشر الذي ابتلى الله به عباده: إذاية الخلق، كما قال لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ :

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

قلت: (أهذا الذي): مقول لحال محذوفة، أي: قائلين: أهذا الذي، وحذف الحال، إذا كان قولاً، مطردٌ. (وهم بذكر الرحمن): حال، و(بل تأتيهم): عطف على (لا يكُفُّون) أي: لا يكفونها، بل تأتيهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا رآك الذين كفروا ﴾ أي: المشركون ﴿ إن يتخذونك ﴾؛ ما يتخذونك ﴿ إلا هُزُواً ﴾؛ مهزوءاً بك؛ على معنى قصر معاملتهم معه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على اتخاذهم إياه هزواً، كأنه قيل: ما يفعلون بك إلا اتخاذك هزواً. نزلت في أبي جهل ـ لعنه الله ـ، مرّ به النبي ﷺ، فضحك وقال: هذا نبيُّ بني عبد مناف[1]. قال القشيري: (لو شاهدوه على ما هو عليه من أوصاف التخصيص، وما رقَّاه الله من المنزلة،

(١) عزاه السيوطي في الدر (٤/٥٧٣) لابن أبي حاتم عن السدي.

لظلوا له خاضعين، ولكنهم حُجِبُوا عن معانيه وسريرته، وعاينوا فيه جسمه وصورته). فاستهزءوا بما لم يُحيطوا بعلمه، حَال كونهم يقولون: ﴿أهذا الذى يَذْكُرُ﴾ أى: يعيب ﴿آلهتكم﴾، فالذكر يكون بخير وبضده، فإنْ كان الذاكر صديقاً للمذكور فهو ثناء. وإن كان عدواً فهو ذم. ﴿وهم بذكر الرحمن﴾ أى: بذكر الله وما يجب أن يذكر به من الوحدانية، ﴿هم كافرون﴾؛ لا يصدقون به أصلاً، فهم أحق بالهزء والسخرية منك؛ لأنك مُحق وهم مُبطلون. والمعنى أنهم يعيبون ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يذكر آلهتهم، التى لا تضر ولا تنفع، بالسوء، والحال: أنهم بذكر الرحمن، المنْعم عليهم بأنواع النعم، التى هى من مقتضيات رحمانيته، كافرون، لا يذكرونه بما يليق به من التوحيد وأوصاف الكمال، أو: بما أُنزل من القرآن؛ لأنه ذكر الرحمن، ﴿هم كافرون﴾؛ جاحدون، فهم أحقاء بالعيب والإنكار. وكرر لفظ «هُم» للتأكيد، أو لأن الصلة حالت بينه وبين الخبر، فأعيد المبتدأ.

ثم قال تعالى: ﴿خُلِقَ الانسانُ من عَجَلٍ﴾، العَجَل والعَجَلة مصدران، وهو تقديم الشىء على وقته. والمراد بالإنسان: الجنس، جُعل لفرط استعجاله، وقلة صبره، كأنه خُلق من العَجَلة، والعرب تقول لمن يكثر منه الشىء: خُلق منه، تقول لمن يكثر منه الكرم: خُلق من الكرم. ومن عجلته: مبادرته إلى الكفر واستعجاله بالوعيد. رُوى أنها نزلت فى النضر بن الحارث، حين استعجل العذاب بقوله: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا..﴾ الآية[1]، كأنه قال: ليس ببدع منه أن يستعجل، فإنه مجبول على ذلك، وطبعُه، وسجيته.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: أن المراد بالإنسان آدم عليه السلام، فإنه حين بلغ الروح صدره أراد أن يقوم. ورُوى: أنه لما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة، ولمّا وصل جوفه اشتهى الطعام، فكانت العجلة من سجيته، وسرت فى أولاده. وإنما منَع الإنسان من الاستعجال وهو مطبوع عليه، ليتكمل بعد النقص، كما أمره بقطع الشهوة وقد ركّبها فيه؛ لأنه أعطاه القدرة التى يستطيع بها قمع الشهوة وترك العَجَلة. قال القشيرى: العَجَلَةُ مذمومةٌ، والمُسَارَعَةُ محمودةٌ. والفرق بينهما: أن المسارعة: البِدارُ إلى الشىء فى أول وقته، والعَجَلة: استقباله قبل وقته، والعَجَلةُ سمة وسوسة الشيطان، والمسارعةُ قضية التوفيق.هـ.

وقال الورتجبى: خلقهم من العَجَلة، وزجرهم عن التعجيل؛ إظهاراً لقهاريته على كل مخلوق، وعجزهم عن الخروج عن ملكه وسلطانه. وحقيقة العَجَلة متولدة من الجهل بالمقادير السابقة .هـ. قلت: مازالت الطمأنينة والرَّزانةُ من شأن العارفين، وبها عُرفوا، والعَجَل والقلق من شأن الجاهلين، وبها وُصفوا.

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال.

وقيل: العَجَل الطين، بلغة حمْير، ولا مناسبة له هنا.

قال تعالى، صارفاً للخطاب عن الرسول إلى المستعجلين: ﴿ سأُوريكم آياتي ﴾: نقَماتي، كعذاب النار وغيره، ﴿ فلا تستعجلون ﴾ بالإتيان بها، وهو نهى عما جُبلت عليه نفوسهم؛ ليقهروها عن مرادها من الاستعجال.

﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾: إتيان العذاب، أو القيامة، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في وعدكم بأنه يأتينا، قالوه استعجالاً بطريق الاستهزاء والإنكار، لا طلباً لتعيين وقته، والخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين الذين يتلون الآيات الكريمة المنبئة عن مجيء الساعة. قال تعالى: ﴿ لو يعلمُ الذين كفروا ﴾، هذا استئناف مسوق لبيان شدة هول ما يستعجلونه، وفظاعة ما فيه من العذاب، وأنهم يستعجلونه لجهلهم بشأنه. وقوله تعالى: ﴿ حين لا يكُفُّون عن وجوههم النارَ ولا عن ظهورهم ولا هم يُنصرون ﴾: مفعول «يعلم»، وهو عبارة عن الوقت الموعود، الذى كانوا يستعجلونه. وقوله: ﴿ لو يعلمُ الذين كفروا ﴾ أى: حين يرون ويعلمون حقيقة الحال، وهو معاينة العذاب. وجواب «لو» محذوف، أى: لو يعلمون الوقت الذى يستعجلونه بقولهم: متى هذا الوعد؟ وهو الوقت الذى تحيط بهم النار من ورائهم وقدامهم، فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم، ولا يجدون ناصراً ينصرهم، لَمَا كانوا بهذه الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ولكن جهلهم به هو الذى هوّنه عندهم.

﴿ بل تأتيهم بغتة ﴾ أى: بل تأتيهم النار أو الساعة فجأة، ﴿ فتبهتُهُم ﴾: فتحيّرهم أو تغلبهم، ﴿ فلا يستطيعون ردَّها ﴾؛ فلا يقدرون على دفعها عنهم، أى: النار أو الساعة، ﴿ ولاهم يُنظرون ﴾: يُمهلون؛ ليستريحوا طرفة عين.

ثم سلّى رسوله عن استهزائهم، فقال: ﴿ ولقد استُهزئَ برسل من قبلك فحاقَ ﴾: نزل أو أحاط أو حلّ ﴿ بالذين سخروا منهم ﴾ أى: من أولئك الرسل ـ عليهم السلام ـ جزاء ﴿ ما كانوا به يستهزِءُون ﴾، وهو العذاب الدائم. نسأل الله العافية.

الإشارة: كل من خرق عوائد نفسه، وخرج عن عوائد الناس، أو أمر بالخروج عن العوائد، رفضه الناس واتخذوه هُزواً، سنة الله التى قد خلت من قبل، لم يأت أحد بذلك إلا عُودى، فإن ظهر عليه أثر الخصوصية؛ من علم لدنى، أو هداية خلق على يده، استعجلوه بإظهار الكرامة، كما هو شأن الإنسان، خُلق من عَجَل، فيقول: سأوريكم آياتى، فإن الأمر إذا كان مؤسساً على الحق لابد أن تظهر أنواره وأسراره، فلو يعلم الذين كفروا بطريق الخصوص، حين ترهقهم الحسرة، وتُحيط بهم الندامة، إذا رأوا أهل الصفاء يسرحون فى أعلى عليين حيث شاءوا، وجوههم كالشموس الضاحية، لبادروا إلى الانقياد لهم، وتقبيل التراب تحت أقدامهم، ولكنهم اليوم فى غفلة ساهون.

ويقال لمن أنكر عليه أهلُ زمانه طريقَ التجريد وخرقَ العوائد: ولقد استُهزئ بمن كان قبلك ممن سلك هذه الطريق، فأُوذوا، وضُربوا، وأُخرجوا من بلادهم، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون، إما في الدنيا أو في الآخرة.

فإذا نزل بأسه فلا حافظ منه إلا الرحمن، كما قال تعالى:

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قلْ ﴾ لهم يا محمد: ﴿ من يكلؤكُم ﴾: يحفظكم ﴿ بالليل والنهار من ﴾ بأس ﴿ الرحمنِ ﴾ الذي تستحقونه، إذا نزل بكم ليلاً أو نهاراً. قال الواسطي: من يحفظكم بالليل والنهار من الرحمن أن يظهر عليكم ما سبق فيكم؟ وقال ابن عطاء: من يكلؤكم من أمر الرحمن سوى الرحمن، وهل يقدر أحد على الكلاءة سواه؟. وتقديم الليل؛ لأن الدواهي فيه أكثر وقوعاً وأشد وقْعاً. وفي التعرض لعنوان الرحمانية إيذان بأن كلاءتهم ليس إلا برحمته العامة. ﴿ بل هم عن ذِكْرِ ربهم معرضُون ﴾ أي: بل هم معرضون عن ذكره، ولايُخطِرونه ببالهم، فضلاً أن يخافوا بأسه، حتى إذا رزقوا الكلاءة عرفوا مَن الكالئ، وصلحوا للسؤال عنه.

والمعنى: أنه أمر رسوله - عليه الصلاة والسلام - بسؤالهم عن الكالئ، ثم أضرب عنه، وبيَّن أنهم لا يصلحون لذلك، لإعراضهم عن ذكر من يكلؤهم. هكذا للزمخشري ومن تبعه. وقال ابن جزي: والمعنى: أنه تهديد وإقامة حجة عليهم؛ لأنهم لو أجابوا عن هذا السؤال لاعترفوا بأنه ليس لهم مانع ولاحافظ غيره تعالى - يعني لِمَا جربوه في أحوال محنتهم - ثم قال: وجاء قوله: (بل هم عن ذكر ربهم معرضون،) بمعنى أنهم، إذا سُئلوا ذلك السؤال، لم يجيبوا عنه، لأنهم تقوم عليهم الحجة إن أجابوا، ولكنهم يعرضون عن ذكر الله. هـ. أي: يعرضون عن أن يقولوا: كالئنا الله عتواً وعناداً. وهو معنى قوله: (بل هم عن ذكر ربهم معرضون)، كأنه قال: لو سُئلوا، لم يجدوا جواباً، إلا أن يقولوا: هو الله، لكنهم يعرضون عن ذكره؛ مكابرة. قلت: وما قاله ابن جزي أحسن مما قاله الزمخشري ومن تبعه، وأقرب.

ثم قال تعالى: ﴿ أمْ لهم آلهةٌ تمنعُهم من دوننا ﴾، هذا انتقال من بيان جهلهم بحفظه تعالى، أو إعراضهم عن ذكره، إلى توبيخهم باعتمادهم على آلهتهم. والمعنى: ألهم آلهة تمنعهم من العذاب تجاوز منعنا وحفظنا، فهم يعولون عليها واثقون بحفظها؟ وفي توجيه الإنكار والنفي إلى وجود الآلهة بما ذكر من المنع، لا إلى نفس الصفة،

بأن يقال: أم تمنعهم آلهتهم ..إلخ، من الدلالة على سقوطها عن مرتبة الوجود، فضلاً عن رتبة المنع، مالا يخفى. ثم قال تعالى: ﴿ لا يستطيعون نصرَ أنفسهم ولا هم منّا يُصْحَبُون ﴾ أي: يُجارون. والصاحب: المُجير الوافي، يعني: أن الأصنام لا تُجير نفسها، ولا نُجيرهم نحن، أو لا يصحبُهم نصر من جهتنا، فهم لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم، ولا يُصحبون بالنصر والتأييد من جهتنا، فكيف يتوهم أن ينصروا غيرهم؟.

﴿ بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتي طال عليهم العُمُرُ ﴾، إضراب عما توهموه من منع آلهتهم وحفظها لهم، أي: ما هم فيه من الحفظ والكلاءة إنما هو منا، لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا، وما كلأناهم وآباءهم الماضين إلا تمتيعاً لهم بالحياة الدنيا وإمهالاً، كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم حتى طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وظنوا أنهم دائمون على ذلك، وهو أمل كاذب. ﴿ أفلا يَرَوْن أنَّا نأتي الأرضَ ننقُصُها من أطرافها ﴾ أي: ألا ينظرون فيرون أنَّا نأتي أرض الكفرة فننقصها من أطرافها؛ بإدخالها في أيدي المسلمين، فكيف يتوهمون أنهم ناجون من بأسنا. وهو تمثيل وتصوير لما يخربه الله من ديارهم على أيدي المسلمين، ويضيفها إلى دار الإسلام. وفي التعبير بنأتي: إشارة إلى أن الله تعالى يجْريه على أيدي المسلمين، وأن عساكرهم كانت تأتيهم لغزوهم غالبة عليهم، ناقصة من أطراف أرضهم. ﴿ أفهم الغالبون ﴾ على رسول الله ﷺ والمؤمنين، أي: أفكفار مكة يغلبون بعد أن نقصنا من أطراف أرضهم؟ أي: ليس كذلك، بل يغلبهم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأصحابه الكرام، وقد تحقق ذلك وأنجز الله وعده، والله غالب على أمره.

الإشارة: قل من يكلؤ قلوبكم وأسراركم من الرحمن، أن يذهب بما أودع فيها من المعارف وأنوار الإحسان؟ فلا أحد يحفظها إلا من رحمها بما أودع فيها، ولهذا كان العارفون لا يزول اضطرارهم، ولا يكون مع غير الله قرارهم، لا يعتمدون على عمل ولا حال، ولا على علم ولا مقال، وفي الحكم: «إلهي، حكمك النافذ، ومشيئتك القاهرة، لم يتركا لذي حال حالاً، ولا لذي مقال مقالا». وقال أيضا: «إلهي كم من طاعة بنيتُها وحالة شيدتُها، هدم اعتمادي عليها عدلك، بل أقالني منها فضلك». وكثير من الناس غافلون عن هذا المعنى، بل هم عن ذكر ربهم معرضون.

قال الورتجبي: قوله تعالى: (قل من يكلؤكم...) الآية، أخبر عن كمال إحاطته بكل مخلوق، وتنزيهه عن العَجَلة بمؤاخذتهم، كأنه يقول: أنا بذاتي تعاليت، أدفع بلطفي القديم عنكم قهري القديم، ولولا فضلي السابق وعنايتي القديمة بالرحمة عليكم، من يدفعه بالعلة الحدثانية؟ وهذا من كمال لطفي عليكم، وأنتم بعد معرضون عني يا أهل الجفا، وذلك قوله: (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) . هـ بلفظه مع تصحيف في النسخة.

وقوله تعالى: (بل متعنا هؤلاء...) الآية، تمتيع العبد بطول الحياة، إن كان ذلك فى طاعة الله، وازدياد فى معرفته، فهو من النعم العظيمة. وفى الحديث: «خَيْرُكُم مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وحَسُنَ عَمَلُهُ»[1]. لكن عند الصوفية: أنه لا ينبغي للمريد أن ينظر إلى ما مضى من عمره فى طريق القوم، فقد كان بعض الشيوخ يقول: لا يكن أحدكم عبد الدهور وعبد العدد. قال الشيخ أبو العباس المرسى رضي الله عنه: معنى كلامه: أنه لا ينبغي للفقير أن يعد كم له فى طريق القوم، ليقول: أنا لى كذا وكذا من السنين فى طريق القوم . هـ بالمعنى. ولعل علة النهى؛ لئلا يرى للأيام تأثيراً فى الفتح، فقد قالوا: هى لمن صدق لا لمن سبق.

وقوله تعالى: (أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) قال القشيرى: فيه إشارة إلى سقوط قوى العبد بمرور السنين، وتطاول العمر، فإن آخر الأمر[2] كما قيل:

آخِرُ الأمرِ ما تَرَى: القبرُ واللَّحدُ والثرى

وكما قيل:

طَوَى العَصْرانِ[3] مانَشَرَاهُ منى فأبلى جِدَّتى نَشْرٌ وطيٌ
أرانى كلَّ يوم فى انتقاصٍ ولا يبقى مع النقصان شيٌ[4]

وكأنه فسر الأرض بأرض النفوس من باب الإشارة. والله تعالى أعلم.

ولمَّا بيَّن الحق تعالى غاية هول ما يستعجله المستعجلون، ونهاية سوء حالهم، عند إتيانه، ونعى عليهم جهلهم بذلك، وإعراضهم عند ذكر ربهم، الذى يكلؤهم من طوارق الليل والنهار، أمَرَ نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأن يخبرهم أن ما ينذرهم به، مما يستعجلونه، إنما هو بالوحى، لا من عنده، فقال:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(١) أخرجه الترمذى (ح ٢٣٢٩) عن عبدالله بن بسر، وحسَّنه، بلفظ: «خير الناس من طال عمره وحَسُنَ عمله».
(٢) فى الأصول: إلى آخر الأمد.
(٣) فى الأصول: «العمران مانشاه»، والمثبت: من لطائف الإشارات... والعصران: الغداة والعشى، أو الليل والنهار. انظر: اللسان (عصر ٤/٢٩٦٨).
(٤) نسب البيتان إلى محمد بن يعقوب بن إسماعيل، انظر: الوافى بالوفيات (٥/٢٢٢)، كما نُسبا إلى أبى بكر بن أبى الدنيا، كما فى تاريخ بغداد (١٤/٣١١).

قلت: من قرأ: «يَسمع» بفتح الياء، فالصُّم: فاعل، والدعاء: مفعول، ومن قرأ بضم التاء، رباعي؛ فالصم: مفعول أول، والدعاء: مفعول ثان. ومن قرأ: «مثقال» بضم اللام، فكان تامة، وبالنصب: خبر كان، أي: وإن كان العمل المدلول عليه بوضع الموازين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد :﴿ إنما أُنذِرُكُم ﴾ وأخوفكم من العذاب الذى تستعجلونه، أو بالساعة الموعودة، ﴿ بالوحي ﴾ القرآني الصادق، الناطق بإتيانه، وفظاعة شأنه، أي: إنما شأني أن أُنذركم بالإخبار به، لابإتيانه؛ فإنه مخالف للحكمة الإلهية؛ إذ الإيمان برهاني لا عياني، فإذا أنذرتَهم فلا يسمع إنذارك إلا من سبقت له العناية، دون من سبق له الشقاء، ولذلك قال تعالى: ﴿ ولا يسمع الصمُ الدعاءَ ﴾ أي: الإنذار، أو لا تُسمع أنت الصمَّ الدعاءَ ﴿ إذا ما يُنذَرُون ﴾؛ يُخوَّفون، واللام في ﴿ الصم ﴾ للعهد، وهو إشارة إلى هؤلاء المنذرين، والأصل: ولا يسمعون إنذارك إذا يُنذرون، فوضع الظاهر موضع المضمر؛ إشارة إلى تصاممهم وسد أسْماعهم إذا أنذروا، وتسجيلاً عليهم بذلك. وفي التعبير بالدعاء، دون الكلام في الإنذار، إشارة إلى تناهي صممهم في حال الإنذار، فإن الدعاء من شأنه أن يكون بأصوات عالية مكررة مقارنة لهيئة دالة عليه، فإذا لم يسمعوا، مع هذه الحالة، يكون صممهم في غايةٍ لا غاية وراءها.

﴿ ولئن مستْهم نفحةٌ ﴾ أي: دفعة يسيرة ﴿ من عذاب ربك ﴾ أي: كائنة منه، ﴿ ليقولُنَّ ياويلنا إنا كنا ظالمين ﴾، وهذا بيان لسرعة تأثيرهم من مجيء نفس العذاب، إثر بيان عدم تأثرهم من مجرد الإخبار به، لانهماكهم في الغفلة، أي: والله لئن أصابهم أدنى شيء من هذا العذاب الذى يُنذرون به، لذلوا، ودَعوا بالويل على أنفسهم، وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم حين تصامموا وأعرضوا. وقد بُولغ في الكلام، حيث عبَّر بالمس والنفح؛ لأن النفح يدل على القلة، فأصل النفح: هبوب رائحة الشيء، يُقال: نفحه بعطية، إذا أعطاه شيئاً يسيراً، مع أن بناءها للمرة مؤكد لقلتها.

ثم بيَّن ما يقع عند إتيان ما أنذروه، فقال: ﴿ ونضع الموازينَ القسْطَ ﴾ أي: نقيم الموازين العادلة التى تُوزن بها الأعمال، وهو جمع ميزان، وهو ما يوزن به الشيء ليُعرف كميته. وعن الحسن: «هو ميزان له كفتان ولسان»، وإنما جمع الموازين؛ لتعظيم شأنها، والوزن لصحائف الأعمال في قول، وقيل: وضع الميزان كناية عن تحقيق العدل، والجزاء على حسب الأعمال. وإفراد القسط؛ لأنه مصدر وصف به؛ للمبالغة، كأنها في نفسها قسط، أو على حذف مضاف، أي: ذوات القسط. وقوله: ﴿ ليومِ القيامة ﴾ أي: لأهل يوم القيامة، أي: لأجلهم، أو في يوم القيامة، ﴿ فلا تُظلم نفسٌ شيئًا ﴾ من الظلم، ولا تنقص حقاً من حقوقها، بل يُؤتى كل ذي حق حقه، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشر.

﴿وإن كان مثقالَ حبةٍ من خَرْدَلٍ﴾ أي: وإن كان الشيء أو العمل مثقال حبة من خردل، ﴿أتينا بها﴾: أحضرناها وجازينا عليها، وأنث ضمير المثقال؛ لإضافته إلى حبة، ﴿وكفى بنا حاسبين﴾، إذ لا مزيد على علمنا وعدلنا، أو عالمين حافظين، لأن من حسب شيئاً علمه وحفظه، قاله ابن عباس ـ رضى الله عنهما.

الإشارة: كان ﷺ يُنذر الناس ويذكّرهم بالوحى التنزيلى، وبقى خلفاؤه يذكرون بالوحى الإلهامى، موافقاً للتنزيلى، ولا يسمع وعظهم ويحضر مجالسهم إلا من سبقت له سابقة العناية، وأما من انتكبت عنه العناية تنكب مجالسهم، وتصامم عن وعظهم وتذكيرهم، ولا يسمع الصمُّ الدعاء إذا ما ينذرون، ولا يندمون إلا حين تنزل بهم الأهوال، ولا ينفع الندم وقد جف القلم، وذلك حين تُوضع موازين الأعمال، فتثقل أعمال المخلصين، وتخف أعمال المخلّطين، ولا تُوضع الموازين إلا لأهل النفوس الموجودة، وأما من غاب عن نفسه فى شهود محبوبه، لفنائه في شهوده، وانطوائه في وجوده، فلا ينصب له ميزان؛ إذ لا يشهد لنفسه حساً ولا فعلاً ولا تركاً، وإنما الفعل كله للواحد القهار. ويكون من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، جعلنا الله من خواصهم بمنّه وكرمه. آمين.

ثم شرع في تفصيل ما أجمل في قوله: ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نُوحى إليهم﴾، إلى قوله: ﴿وأهلكنا المسرفين﴾[1]، فقال:

﴿لَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقانَ وضياءً وذِكْرًا للمتقين﴾، هذه الأوصاف كلها للتوراة، فهى فرقان بين الحق والباطل، وضياء يستضاء به، ويتوصل به إلى سبيل النجاة، وذِكْراً، أى: شرفاً، أو وعظاً وتذكيراً. وتوكيده بالقسم؛ لإظهار كمال الاعتناء به، أى: والله لقد آتيناهما وحيًا ساطعاً وكتاباً جامعاً بين كونه فارقاً بين الحق والباطل، وضياء يُستضاء به فى ظلمات الجهل والغواية، وذكراً ينتفع به الناس، أو شرفاً لمن عمل به، وتخصيص المتقين بالذكر؛ لأنهم المستضيئون بأنواره، المغتنمون لمغانم آثاره، أو ذكر ما يحتاجون إليه من الشرائع والأحكام، ودخلت الواو فى الصفات، كقوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا﴾[2]، وتقول: مررت بزيد الكريم والعالم والصالح.

---

(١) الآيات: ٧ ـ ٩.

(٢) من الآية ٣٩ من سورة آل عمران.

ثم وصف المتقين أو مدحهم بقوله: ﴿ الذين يخشـون ربهم ﴾، حال كونهم ﴿ بالغيب ﴾ أى: يخافون عذابه تعالى، وهو غائب عنهم غيرُ مشاهَدٍ لهم، ففيه تعريض بالكفرة، حيث لايتأثرون بالإنذار ما لم يُشاهدوا ما أنذروه. أو يخافون الله فى الخلاء كما يخافونه بين الناس، أو يخافونه بمجرد الإيمان به غير مشاهدين له، ﴿ وهُمْ من الساعة مشفقون ﴾ أى: خائفون معتنون بالتأهب لها. وتخصيص إشفاقهم منها بالذكر، بعد وصفهم بالخشية على الإطلاق؛ للإيذان بكونها أعظم المخلوقات، وللتنصيص على الاتصاف بضد ما اتصف به الكفرة الغافلون عنها، وإيثار الجملة الاسمية؛ للدلالة على ثبات الإشفاق ودوامه لهم.

﴿ وهذا ﴾ أى: القرآن الكريم، أشير إليه بهذا؛ إيذاناً بغاية وضوح أمره، ﴿ ذِكْرٌ ﴾ يتذكر به من تذكر، وصفه ببعض أوصاف التوراة؛ لموافقته له فى الإنزال، ولما مرّ فى صدر السورة من قوله: ﴿ ما يأتيهم من ذكرٍ... ﴾[1] إلخ، ﴿ مباركٌ ﴾؛ كثير الخير، غزير النفع، يتبرك به على الدوام. قال القشيرى: وصْفُه بالبركة هو إخبارٌ عن ثباته، من قولهم: بَرَكَ البعيرُ، وبَرَكَ الطائرُ على الماء، أى: دَاوَمَ. وهذا الكتاب دائم، لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلْفه، وهو دال على كلامه القديم، فلا انتهاء له، كما لا ابتداء له ولا انتهاء لكلامه. هـ. ﴿ أنزلناه ﴾ على محمد ﷺ، وهو صفة ثانية للكتاب ﴿ أفأنتم له منكرون ﴾؛ استفهام توبيخى، أى: جاحدون أنه منزل من عند الله، والمعنى: أبَعْدَ أن علمتم أن شأنه كشأن التوراة، فى الإنزال والإيحاء، أنتم منكرون؛ لكونه منزلاً من عندنا؛ فإن ذلك، بعد ملاحظة التوراة، مما لا مساغ له أصلاً. وبالله التوفيق.

الإشارة: كل ما وصف به التوراة وصف به كتابنا العزيز، قال تعالى ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾[2] وقال: ﴿ وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾[3]، وقال هنا: ﴿ وهذا ذكر مبارك ﴾، فزاده البركة؛ لعموم خيره ودوام نفعه، وخصوصاً للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب: قال القشيرى: والخشية بالغيب: إطراقُ السريرة فى أول الحضور، باستشعار الوَجَلِ من جريان سوء الأدب، والحذَرُ من أنْ يبدوَ من الغيبِ بغَتَات التقدير، مما يوجِبُ حجبة العبد. هـ.

ثم ذكر بقية المشاهير من الرسل، وبدأ بإبراهيم؛ لموافقة شريعتنا له، ولكونه أصل الجُلّ منهم، فقال:

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ

---

(١) الآية: ٢. (٢) من الآية الأولى من سورة الفرقان.
(٣) من الآية ١٧٤ من سورة النساء.

وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

قلت: «إذ قال»: ظرف لآتينا، أو لرُشْدَه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد آتينا إبراهيمَ رُشدَه﴾ أي: الرشد اللائق به وبأمثاله من كُبراء الرسل، وهو الاهتداء الكامل، المستند إلى الهداية الخاصة الحاصلة بالوحي، مع الاقتدار على إصلاح الأمة وإرشادها بسياسة النبوة والوحي الإلهي، ﴿من قبلُ﴾ أي: من قبل إيتاء موسى وهارون التوراة، وتقديم ذكرهما، لما بين التوراة والقرآن من الشبه التام. وقيل: من قبل إنزال القرآن، أو من قبل استنبائه، أو من قبل بلوغه، ﴿وكُنا به عَالمين﴾ أي: بأنه أهل لما آتيناه، أو عالمين برُشده، وما خصصناه به من الهداية الخاصة. ﴿إذ قال لأبيه وقومه﴾ أي: آتيناه ذلك حين قال لأبيه، أو اذكر وقت قوله لهم: ﴿ما هذه التماثيلُ﴾ أي: الأصنام المصورة على صورة السباع والطيور والإنسان، وفيه تجاهل بهم؛ تحقيراً لها، مع علمه بتعظيمهم لها؛ توبيخاً لهم على إجلالها مع كونها خشباً وأحجاراً لاتضر ولا تنفع، ﴿التي أنتم لها عاكفون﴾ أي: لأجل عبادتها مقيمون، فلما عجزوا عن الدليل ﴿قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين﴾ فقلدناهم، فأبطله عليه السلام، على طريقة التوكيد بالقسم، فقال: ﴿لقد كنتم أنتم وآباؤكم﴾ الذين سنُّوا لكم هذه السُّنَّة الباطلة، ﴿في ضلال مبين﴾: ظاهر بيِّن، بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء، أي: والله لقد كنتم مستقرين في ضلال عظيم ظاهر؛ لعدم استناده إلى دليل، فالتقليد إنما يجوز فيما يحتمل الحقِّية في الجملة، لا فيما اتضح بطلانه، سيما في أمر التوحيد.

﴿قالوا أجئتنا بالحق﴾ أي: بالجد، ﴿أم أنت من اللاعبين﴾، فتقول ما تقول على الملاعبة والمزاح. والمعنى: أجادٌّ أنتَ، أم لاعب فيما تقول؟ قالوا ذلك؛ استعظامًا منهم لإنكاره، واستبعاداً لكون ماهم عليه ضلال، وتعجيباً من تضليله إياهم.

ثم أضرب عنهم؛ مخبراً بأنه جاد فيما قال، غير لاعب، بإقامة البرهان على بطلان ما ادعوه فقال: ﴿بل ربُّكم ربُّ السمواتِ والأرض الذي فطرهنَّ﴾، لا التماثيل التي صورتم. وقيل: هو إضراب عما بنوا عليه مقالتهم؛ من اعتقاد كونها أرباباً لهم، كما يُفصح عنه قولهم: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾(١)، كأنه قال: ليس الأمر كذلك، بل ربكم رب السموات والأرض الذي خلقهن وأنشأهن، فالضمير للسماوات والأرض، وصفَهُ تعالى بإيجادهن، إثر وصفه تعالى بربوبيته لهن؛ تحقيقًا للحق، وتنبيهًا على أن ما لا يكون كذلك بمعزل من

(١) من الآية ٧١ من سورة الشعراء.

الربوبية، أي: أنشأهن بما فيهن من المخلوقات، التي من جملتها أنتم وآباؤكم وما تعبدونه، من غير مثال يحتذيه، ولا قانون ينتحيه. وقيل: الضمير للتماثيل، وهو أدخل في تضليلهم، وأظهر في إلزام الحجة عليهم؛ لما فيه من التصريح المغني عن التأمل في كون مايعبدونه من المخلوقات، والأول أقرب.

ثم قال عليه السلام: ﴿ **وأنا على ذلكم** ﴾ الذي ذكرتُ: من كون ربكم ربَّ السماوات والأرض، دون ماعداه، كائناً ماكان، ﴿ **من الشاهدين** ﴾ أي: العالمين به على سبيل الحقيقة، المبرهنين عليه، فإن الشاهد على الشيء: مَنْ تحققه وبرهن عليه، كأنه قال: وأنا أعلم ذلك، وأتحققه، وأُبرهن عليه، والله تعالى أعلم.

الإشارة : زخارف الدنيا وبهجتها، من تشييد بناء، وتزويق سقف وحيطان، وإنشاء غروس وبساتين، وجمع أموال، وتربية جاه، كلها تماثيل لاحقيقة لها، فانية لا دوام لها. فمن عكف عليها، وأولع بخدمتها وجمعها وتحصيلها، كان عابداً لها، فينبغي لذي الرشد والعقل الوافر، الذي تحرر منها، أن ينكر عليهم، ويقول لهم: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون، فإن قالوا: وجدنا آباءنا يفعلون هذا، وعلماءنا مثلنا، فليقل لهم: لقد كنتم وآباؤكم وعلماؤكم في ضلال مبين، عما كان عليه الأنبياء والأولياء والسلف الصالح. فإن قالوا: أجادٌ أنت أم لا؟ فليقل: بل ربكم الذي ينبغي أن يُفرد بالمحبة والخدمة، هو رب السماوات والأرض، لا ما أنتم عليه من محبة الدنيا وبهجتها، وأنا على ذلكم من الشاهدين.

ثم ذكر كسره للأصنام، وما ترتب عليه، فقال:

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

قلت : (مَن فَعَلَ): استفهام، وقيل: موصولة، و(إنه): خبرها، أي: الذي فعل هذا معدود من الظلمة، و(يذكُرهم): إما مفعول ثان لسمع؛ لتعلقه بالذات، على قول، أو صفة لفتى. و(يُقال): صفة أخرى لفتى. و(إبراهيم): نائب فاعل يُقال.

يقول الحق جل جلاله حاكياً عن خليله عليه السلام: ﴿ وتالله لأكيدنّ أصنامكم ﴾ أى: لأمكرنّ بها، وأجتهد فى كسرها، وفيه إيذان بصعوبة الانتهاز، وتوقفه على الحيل والسياسة، وذلك الكيد ﴿ بعد أن تُوَلُّوا مُدبرين ﴾؛ بعد ذهابكم عنها إلى عيدكم. قال مجاهد: إنما قاله سراً، ولم يسمعه إلا رجلٌ فأفشاه عليه، وقال: سمعت فتى يذكرهم. وقال السدى: كان لهم فى كل سنة مجمعٌ وعيد، فإذا رجعوا من عيدهم دخلوا على أصنامهم فسجدوا لها، وقال أبو إبراهيم: يا إبراهيم، لو خرجتَ معنا إلى عيدنا لأعجبك، فخرج إلى بعض الطريق، وقال: إنى سقيم، أشتكي رجلي. فلما مضوا نادى فى آخرهم - وقد بقي ضعفاء الناس -: ﴿ تالله لأكيدنَّ أصنامكم بعد أن تُوَلُّوا مدبرين ﴾ فسمعوه، ثم دخل بيت الأصنام، فوجد طعاماً كانوا يضعونه عندها للبركة، فإذا رجعوا أكلوه، فقال: ﴿ ألا تأكلون ﴾؟ استهزاءً بها، فلم يجبه أحد، فقال: ما لكم لا تنطقون ﴿ فَرَاغَ ﴾؛ مال ﴿ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾(١).

﴿ فجعلهم جُذاذًا ﴾ أى: قطعاً، جمع جذيذ. وفيه لغتان: الكسر، كخفيف وخِفاف، والضم؛ كحطيم وحُطام. رُوى أنها كانت سبعين صنماً مصطفة. وثَمَّ صنم عظيم مستقبل الباب، وكان من ذهب، وفى عينيه جوهرتان تضيئان بالليل، فكسر الكل بفأس كان بيده، ولم يُبق إلا الكبير، علّق الفأس فى عنقه، وذلك قوله تعالى: ﴿ إلا كبيرًا لهم ﴾ أى: للأصنام ﴿ لعلهم إليه ﴾ أى: إلى إبراهيم عليه السلام ﴿ يرجعون ﴾؛ فيحاجهم بما سيأتى فيغلبهم، أو إلى دينه؛ إذا قامت الحجة عليهم. وقيل: إلى الكبير يسألونه عن الكاسر؛ لأن من شأن الكبير أن يرجع إليه فى الملمات. وقيل: إلى الله تعالى وتوحيده، عند تحققهم بعجز آلهتهم عن دفع ما يصيبهم وعن الإضرار بمن كسرهم.

فلما رجعوا من عيدهم ،ورأوا ما صُنع بآلهتهم، ﴿ قالوا مَن فعلَ هذا بآلهتنا ﴾، على طريق الإنكار والتوبيخ، ﴿ إنه لَمِنَ الظالمين ﴾ أى: لشديد الظلم؛ لجرأته على الآلهة، التى هى عندهم فى غاية التوقير والتعظيم. أو لَمِنَ الظالمين حيث عرّض نفسه للهلكة، ﴿ قالوا ﴾ أى: بعضٌ منهم، وهو من سمع مقالته: ﴿ سمعنا فتىً يذكرهم ﴾ أى: يعيبهم، فلعله فعل ذلك بها، ﴿ يُقال له إبراهيم ﴾ أى: يقال له هذا الاسم. ﴿ قالوا ﴾ أى: السائلون: ﴿ فأتُوا به على أعين الناس ﴾ أى: بمرأى منهم، بحيث يكون نصبَ أعينهم، لا يكاد يخفى على أحد، ﴿ لعلهم يشهدون ﴾ عليه بما سُمع منه، أو بما فعله، كأنهم كرهوا عقابه بلا بينة، أو يَحضرون عقوبتنا له.

فلما أحضروه ﴿ قالوا أأنت فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴾؟ واختصر إحضاره؛ للتنبيه على أن إتيانهم به، ومسارعتهم إلى ذلك، أمر محقق غني عن البيان ﴿ قال ﴾ إبراهيم عليه السلام: ﴿ بل فعله كبيرُهُم هذا ﴾، غار أن

(١) كما جاء فى الآية ٩٣ من سورة الصافات.

يُعبدوا معه، مشيراً إلى الذى لم يكسره. وعن الكسائى: أنه يقف على (بل فعله) أى: فعله من فعله، ثم ابتدأ: كبيرهم هذا يُخبركم فسلوه ... إلخ، والأكثر: أنه لا وقف، والفاعل: كبيرهم. وهذا: بدل، أو وصف، ونسبَ الفعل إلى كبيرهم، وقصده تقريره لنفسه وإسناده لها، على أسلوب تعريضى؛ تبكيتاً لهم، وإلزاماً للحجة عليهم، لأنهم إذا نظروا النظر الصحيح علِموا عجز كبيرهم، وأنه لا يصلح للألوهية، وهذا كما لو كتبت كتاباً بخط أنيق، وأنت شهير بحسن الخط، ومعك صاحب أُمىّ، فقال لك قائل: أأنت كتبت هذا؟ فتقول: بل كتبه هذا، وهو يعلم أنه أُمىّ لا يُحسن الكتابة، فهو تقرير لإثبات الكتابة لك على أبلغ وجه.

قال الكواشى: ومن الجائز أن يكون أذِنَ الله تعالى له فى ذلك كما أذِنَ ليوسف حين نادى على إخوته: ﴿ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾[1]، ولم يكونوا سارقين؛ لِما فى ذلك من المصلحة؛ لأنهم إذا نظروا النظر الصحيح، وسألوا، علِموا أن كبيرهم لم يفعل شيئاً، وأنه عاجز عن النطق، فضلاً عن الفعل، فلا يجوز أن يُعبد، ولا يستحق العبادة إلا القادر الفعال. هـ.

وقيل: أسند الفعل إلى كبيرهم؛ لأنه الحامل له على كسرها، حيث رآه يُعظَّم أكثر منها، ويُعبد من دون الله، فاشتد غضبه حتى كسرها، وهو بعيد؛ إذ لو كان كذلك لكسره أولاً، فتحصل أنه عليه السلام إنما قصد التعريض بعبادتهم، لا الإخبار المحض، حتى يكون كذباً. فإن قلت: قد ورد فى الحديث أن إبراهيم كذب ثلاث كذبات[2]؟ فالجواب: أن معنى ذلك: أنه قال قولاً ظاهره الكذب، وإن كان القصد به معنى آخر. قاله ابن جزى.

ثم قال لهم: ﴿ فاسألوهم ﴾ عن حالهم، ﴿ إن كانوا ينطقون ﴾ فتجيبكم بمن كسرهم، وأنتم تعلمون عجزهم عنه، ﴿ فرَجعوا إلى أنفسهم ﴾ أى: رجعوا إلى عقولهم، وتفكروا بقلوبهم، وتذكروا أنَّ ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الإخبار بمن كسره، فكيف يستحق أن يكون معبوداً؟ ﴿ فقالوا ﴾ أى: قال بعضهم لبعض: ﴿ إنكم أنتم الظالمون ﴾ على الحقيقة، حيث عبدتم من لا ينطق ولا يضر ولا ينفع؛ لأنّ من لا يدفع عن رأسه الفأس، فكيف يدفع عن عابده البأس! فأنتم الظالمون بعبادتها؛ لا من ظلمتموه بقولكم: (إنه لمن الظالمين). أو: أنتم الظالمون لا من كسرها، ﴿ ثم نُكِسُوا على رؤوسهم ﴾، وردّوا إلى أسفل سافلين، أُجرى الحقُّ على لسانهم فى القول الأول، ثم أدركتهم الشقاوة، أى: انقلبوا إلى المجادلة، بعدما استقاموا بالمراجعة، شَبَّه عودَهم

(١) من الآية ٧٠ من سورة يوسف.
(٢) الحديث أخرجه االبخارى فى (أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾.) ومسلم فى الفضائل، باب من فضائل إبراهيم، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه، قائلين: ﴿لقد علمتَ﴾ يا إبراهيم ﴿ما هؤلاء ينطقون﴾، فكيف تأمرنا بسؤالها ؟.

﴿قال﴾؛ مبكتاً لهم وتوبيخاً: ﴿أفتعبدون من دون الله﴾ أي: متجاوزين عبادته تعالى إلى ﴿ما لاينفعكم شيئًا﴾ من النفع، ﴿ولا يضرُكم﴾ إن لم تعبدوه، فإنَّ العلم بالحالة المنافية للألوهية مما يُوجب اجتناب عبادته، ﴿أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله﴾، أفٍ: اسم صوت تدل على التضجر، تضجر عليه السلام من إصرارهم على الباطل، بعد انقطاع عذرهم ووضوح الحق، فأفّف بهم وبأصنامهم، أي: لكم ولأصنامكم هذا التأفف، ﴿أفلا تعقلون﴾ أن من هذا وصفه لا يستحق أن يكون إلهاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من أراد أن يكون إبراهيمياً حنيفياً فليكسر أصنام نفسه، وهي ما كانت تهواه وتميل إليه من الحظوظ النفسانية والشهوات الجسمانية، حتى تنقلب حقوقاً ربانية، فحينئذ يريه الحق ملكوتَ السمواتِ والأرض، ويكون من الموقنين. وأمُّ الشهوات: حب الدنيا، ورأسها: حب الرئاسة والجاه، وأكبر الأصنام: وجودك الحسي، فلا حجاب أعظم منه، ولذلك قيل:

وُجودُكَ ذَنْبٌ لاَ يُقَاسُ بِهِ ذَنْبُ

فإن غبتَ عنه، وكسرته، غابت عنك جميعُ العوالم الحسية، وشهدتَ أسرار المعاني القدسية، فشهدت أسرار الذات وأنوار الصفات، وإلى هذا المعنى أشار ابن العريف رضي الله عنه بقوله :

بَدَا لَكَ سِرٌّ طَالَ عَنْكَ اكْتِتَامُهُ ... وَلاَحَ صَبَاحٌ كُنْتَ أَنْتَ ظَلاَمُهُ

فَأَنْتَ حِجَابُ القَلْبِ عَنْ سِرِّ غَيْبِهِ ... وَلَوْلاَكَ لَمْ يُطْبَعْ عَلَيْهِ خِتَامُهُ

فَإِنْ غِبْتَ عَنْهُ حَلَّ فِيهِ، وَطَنَّبَتْ ... عَلَى مَوْكِبِ الكَشْفِ المَصُونِ خِيَامُهُ

وَجَاءَ حَدِيثٌ لا يُمَلُّ سَمَاعُهُ ... شَهِيٌّ إِلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ

إِذَا سَمِعَتْهُ النَّفْسُ طَابَ نَعِيمُهَا ... وَزَالَ عَنِ القَلْبِ المُعَنَّى غَرَامُهُ

فالغيبة عن وجود العبد فناء، والرجوع إليه لوظائف العبودية بقاء، وإليه الإشارة بقوله تعالى: (إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يَرجعون) أي: إلا كبير الأصنام، وهو وجودك الوهمي، فلا ينبغي الغيبة عنه بالكلية حتى يترك وظائف العبودية والقيام بحقوق البشرية، فإنَّ هذا اصطلام، بل ينبغي ملاحظته، لعله يقع الرجوع إليه في مقام البقاء، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة تحريقه وإنجائه، فقال:

﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قالوا حرِّقوه﴾ أي: قال بعضهم لبعض، لمَّا عجزوا عن المحاجة، وضاقت عليهم الحيل، وعييت بهم العلل، وهذا دَيْدَنُ المبطل المحجوج، إذا قُرِعَت شبهه بالحجة القاطعة وافتضح، لم يبق له حينئذ إلا المناصبة والمعاداة، فناصبوا إبراهيم عليه السلام، وقالوا حرِّقوه بالنار؛ لأنه أشد العقوبات، ﴿وانصرُوا آلهتكم﴾ بالانتقام لها ﴿إن كنتم فاعلين﴾ للنصر، أي: إن كنتم ناصرين آلهتكم نصراً مؤزراً، فاختاروا له أهول المعاقبات، وهو الإحراق، وإلاَّ فقد فرطتم في نصرتها، والذي أشار بالإحراق نمرود، أو رجل من أكراد فارس، اسمه «هيْزن»، وقيل: «هدير»، خسفت به الأرض، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة[1].

رُوي أنهم، لما أجمعوا على حرقه عليه السلام، بنوا له حظيرة بكُوثَى - قرية من قرى الأنباط بالعراق - فجمعوا صلاب الحطب من أصناف الخشب، مدة أربعين يوماً، وقيل: شهراً، حتى إن المرأة تنذر: لَئِنْ أصابت حاجتها لتَحطبَنَّ في نار إبراهيم. ثم أوقدوا ناراً عظيمة، لا يكاد يحوم حولها أحد، حتى إن كانت الطير لتمرُّ بها، وهي في أقصى الجو فتحترق من شدة وهجها، ولم يقدر أحد أن يقربها، فلم يعلموا كيف يُلقونه عليه السلام فيها، فأتى إبليس وعلمهم علمَ المنجنيق، فعملوه. وقيل: صنعه لهم رجل من الأكراد، فخسف الله تعالى به في الأرض مثل الآخر، ثم عمدوا إلى إبراهيم عليه السلام، فوضعوه فيه مغلولاً مقيداً مجرداً، فصاحت السماءُ والأرضُ ومن فيها من الملائكة: يا ربنا، إبراهيم، ليس في الأرض أحد يعبدك غيرُه، يُحرق فيك، فَأْذَنْ لنا في نصرته، فقال لهم: إن استغاث بواحد منكم فأغيثوه، فرموا به فيها من مكان شاسع، فقال له جبريل عليه السلام، وهو في الهواء: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا. قال: فسل ربك. فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي[2]، فرفع همته عن الخلق، واكتفى بالواحد الحق، فجعل الله الخطيرةَ روضة. وهذا معنى قوله: ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ أي: كوني ذات برد وسلام، أي: ابردي برداً غير ضار.

---

(١) أخرجه الطبري (١٧/٤٣) عن شعيب الجبائي.

(٢) انظر تفسير الطبري (١٧/٤٤) والبغوي (٥/٣٢٧) وابن كثير (٣/١٨٤). والوارد في ابن كثير: «أما إليك: فلا،وأما إلى الله، فَبَلَى».

قال ابن عباس: لو لم يقل «وسلاماً» لمات إبراهيم من بردها، ولم تبق يومئذ نار إلا طفئت، ظنت أن الخطاب توجه لها، فما انتفع أحد من أهل الأرض يومئذ بنار، ولم تبق دابة إلا أتت تطفئ عنه النار، إلا الوزغ[1]. فلذلك أمر نبينا ﷺ بقتلها[2]، وسماها فويسقا[3]. قال السدي: فأخذت الملائكة بضَبْعَي إبراهيم وأقعدوه على الأرض، فإذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس. قال كعب: ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه[4]. ورُوي أنه عليه السلام مكث فيها سبعة أيام، وقيل: أربعين، وقيل: خمسين، والأول أقرب.

قال إبراهيم عليه السلام: ما كنتُ أياماً قط أنعم مني من الأيام التي كنتُ فيها. قال ابن بسار: وبعث الله تعالى ملك الظل فقعد إلى جنبه يُؤنسه، قالوا: وبعث الله بقميص من حرير الجنة. قلت: وقد تقدم ذكره في سورة يوسف[5]. وأتاه جبريل فقال: إن ربك يقول: أما علمت أن النار لا تضر أحبائي. فنظر نمرود من صرحه، فأشرف عليه، فرآه جالساً في روضة مونقة، ومعه جليسٌ على أحسن ما يكون من الهيئة، والنار محيطة به، فنادى: يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها؟ قال: نعم، قال: فاخرج، فقام يمشي فخرج منها، فاستقبله نمرود وعظّمه. وقال: من الرجل الذي رأيتُه معك؟ قال ذلك ملك الظل، أرسله ربي ليؤنسني، فقال: إني مُقرب إلى إلهك قرباناً لِماَ رأيته من قدرته وعزته فيما صنع بك. فقال عليه السلام: لا يقبل الله منك مادمت على دينك هذا، حتى تفارقه إلى ديني، قال: لا أستطيع ترك ملكي، ولكن سأذبح له أربعة آلاف بقرة، فذبحها، وكف عن إبراهيم[6] عليه السلام.

قال شعيب الجبائي: أُلقِي إبراهيم في النار وهو ابن ست عشرة سنة، وذبح إسحاق[7] وهو ابن سبع سنين، وولدته سارة وهي بنت تسعين سنة، ولمّا علمت ما أراد من ذبحه بقيت يومين وماتت في الثالث[8]..هـ. وهذا كما ترى من أكبر المعجزات، فإنّ انقلاب النار هواء طيباً، وإن لم يكن بدعاً من قدرة الله، لكنه من أكبر الخوارق، واختلف في كيفية برودتها؛ فقيل: إن الله تعالى أزال ما فيها من الحر والإحراق، وقيل: دفع الله عن جسم إبراهيم حرها وإحراقها مع تَرْكِ ذلك فيها، والله على كل شيء قدير.

---

(١) قال في النهاية: الوزغ: جمع وزَغة وهي التي يقال لها: سامُّ أبْرَص، انظر النهاية (وزغ)، والأثر أخرجه الطبري.

(٢) جاء فيما أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾)، ومسلم في (السلام، باب استحباب قتل الوزغ) عن أم شريك.

(٣) أخرجه مسلم في الموضع السابق ذكره، عن السيدة عائشة وابن عامر بن سعد عن أبيه.

(٤) أخرجه الطبري (١٧/٤٤) عن كعب.

(٥) راجع تفسير الآية ٩٦ من سورة يوسف.

(٦) ذكره البغوي في تفسيره (٥/٣٢٩) وصاحب زاد المسير (٥/٣٦٧).

(٧) راجع: التعليق على تفسير الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

(٨) أخرجه الطبري (١٧/٤٥).

قال تعالى: ﴿ وأرادوا به كيداً ﴾؛ مكراً عظيماً فى الإضرار، ﴿ فجعلناهم الأخسرين ﴾ أى: أخسر من كل خاسر، حيث جاء سعيهم فى إطفاء نور الحق برهاناً قاطعاً على أنه عليه السلام على الحق، وهم على الباطل، وموجباً لارتفاع درجته واستحقاقهم للهلاك، فأرسل الله على نمرود وقومه البعوض، فأكلت لحومهم وشربت دماءهم، ودخلت بعوضة فى دماغ نمرود فأهلكته بعد المحنة الشديدة، وبالله التوفيق.

الإشارة: أجرى الله تعالى عادته فى المتوجه الصادق، إذا أراد الوصول إلى حضرته، أن يبْتَليه قبل أن يُمكنه، ويمتحنه قبل أن يُصافيه؛ لأنَّ محبته تعالى مقرونة بالبلاء، والداخل على الله منكور، والراجع إلى الناس مبرور. فإذا رُمي الولي فى منجنيق الابتلاء، وألقى فى نار الجلال، وتعرضت له الأكوان: ألك حاجة؟ فيقول - إن كان مؤيداً -: أمَّا إليك فلا، وأما إلى الله فبلى، فإذا قيل له: سله، فيقول: علمه بحالى يغنى عن سؤالى. فلا جرم أن الله تعالى يقول لنار الجلال: كونى برداً وسلاماً على وليى، فينقلب حرها برداً وسلاماً، فلا يرى أياماً أحلى من تلك الأيام التى ابتُلي فيها. وهذا أمر مجرب مَذُوق، وأما إن التفت إلى التعلق بغير الله تعالى، فإنَّ البلاء يُشدد عليه، أو يخرج من دائرة الولاية، والعياذ بالله. فالولى هو الذى يقلب الأعيان بهمته، وبالنور الذى فى قلبه، حسية كانت أو معنوية، فيقلب الخوف أمناً، والحزن سروراً، والقبض بسطاً، والفاقة غنىً، وهكذا.. فحينئذ تنفعل له الأشياء وتطيعه، وتخرق له العوائد، حتى لو ألقى فى النار الحسية لبردت. قال الورتجبى: كان الخليل منوراً بنور الله، وكان فعل النار من فعل الله، فغلب نور الصفة على نور الفعل، ولو بقيت النار حتى وصل إليها الخليل لصارت مضمحلة، فعلم الحق ذلك، فقال لها: (كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) حتى تبقى لظهور معجزته وبيان كرامته . هـ. ومصداق ماذكره: قول النار يوم للقيامة للمؤمن: جُز فقد أطفأ نورك لهبى[1]، كما ورد. والله أعلم

ثم ذكر هجرة إبراهيم إلى الشام، فقال:

﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

قلت: «إلى الأرض»: يتعلق بحال محذوفة، ينساق إليها الكلام، أى: ذاهباً بهما إلى الأرض.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ونجيناه ﴾ أى: إبراهيم ﴿ ولوطاً ﴾ ابن أخيه هاران، ذاهباً بهما من العراق ﴿ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾، وهى أرض الشام. وبركاته العامة: أنَّ أكثر الأنبياء بُعثوا فيها، فانتشرت فى العالمين شرائعهم، التى هى مبادئ الخيرات الدينية والدنيوية، وهى أرض المحشر، فيها يجمع الناس،

(١) أخرجه الخطيب فى تاريخ بغداد (٥/١٩٤) وأبو نعيم فى الحلية (٩/٣٢٩)، عن يعلى بن منبه، وقال فى مجمع الزوائد (١٠/٣٦٠): رواه الطبرانى، وفيه سليم بن منصور بن عمار، وهو ضعيف.

وفيها ينزل عيسى عليه السلام ،وقال أُبى بن كعب: ما من ماء عذب إلاّ وأصله من تحت صخرة بيت المقدس، وهى أرض خِصب، يعيش فيها الفقير والغنى.

قال ابن اسحاق: خرج إبراهيم من كُوثى من أرض العراق، وخرج معه لوط وسارة، فنزل حَرّان، ثم خرج منها إلى مصر، ثم خرج منها إلى الشام، فنزل السَّبُعَ من أرض فلسطين بزوجه سارة، بنت عمه هاران الأكبر، ونزل لوط عليه السلام بالمؤتكفة، وبينهما مسيرة يوم وليلة، وكلاهما من الشام.

﴿ ووهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ نافلةً ﴾ أى: وهبنا له إسحاق ولداً من صلبه، وزاد يعقوب، ولد ولده، نافلة؛ لأنه سأل ولداً بقوله: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(١) فأُعطيه، وأُعطى يعقوب نافلة، زائداً على ما سأل؛ لأنه أعطى من غير سؤال، فكأنه تبرعاً. قال ابن جزى: واختار بعضهم ـ على هذا ـ الوقف على «إسحاق» لبيان المعنى، وهذا ضعيف؛ لأنه معطوفٌ على كل قول. هـ. وقيل: (نافلة) يرجع لهما معاً، أى: أعطيناه ولداً وولد ولدٍ، عطيةً، فيكون حالاً منهما معاً، قيل: هومصدر، كالعاقبة من غير لفظ الفعل، الذى هو (وهبنا) وقيل: اسم، ﴿ وكُلاًّ ﴾ أى: كل واحد من هؤلاء الأربعة، ﴿ جعلنا صالحين ﴾ ؛ بأن وفقناهم لصلاح الظاهر والباطن، حتى استحقوا الخصوصية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الهجرة سُنَّة من سُنن الأنبياء والأولياء، فكل من لم يجد فى بلده من يعينه على دينه، يجب عليه الانتقال إلى بلدٍ يجد فيها ذلك. وكذلك المريد إذا لم يجد قلبه فى محل؛ لكثرة عوائده وشواغله، بحيث يشوش عليه قلبه، فلينتقل إلى بلد تقل فيها العلائق والشواغل، إن وجد فيها من يحرك معهم فنّه، كان بادية أو حاضرة. والغالب أن الحاضرة تكثر فيها العوائد والحظوظ والشهوات، فلا يدخلها المريد حتى يتقوى ويملك نفسه، يأخذ النصيب من كل شيء، ولا ينقص من نصيبه شيء، وقد تقدم هذا مراراً. وبالله التوفيق.

ثم مدحهم بالإمامة والاهتداء، فقال:

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وجعلناهم ﴾ أى: إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ﴿ أئمةً ﴾ يُقتدى بهم فى أمور الدين؛ إجابة لدعوته بقوله: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾(٢) أى: فاجعل أئمة، ﴿ يهدُون ﴾ الخلق إلى الحق، ﴿ بأمرِنا ﴾

(١) الآية ١٠٠ من سورة الصافات.

(٢) كما جاء فى الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

لهم بذلك، وإرسالنا إياهم حتى صاروا مكملين، أو يهدون الخلق بإرادتنا ومشيئتنا. ﴿ وأوحينا إليهم فعلَ الخيرات ﴾ وهى جميع الأعمال الصالحة، أى: أمرناهم أن يفعلوا جميع الخيرات، ليتم كمالهم بانضمام العمل الصالح إلى العلم، وأصله: أن يفعلوا الخيرات، ثم فعلَ الخيرات، ﴿ وإقامَ الصلاةِ وإيتاءَ الزكاة ﴾، وهو من عطف الخاص على العام؛ دلالة على فضله وشرفه، وأصله: وإقامة الصلاة، فحذفت التاء المعوضة من إحدى الألفين؛ لقيام المضاف إليه مقامها. ﴿ وكانوا لنا عابدين ﴾: قانتين مُطيعين، لا يخطر ببالهم غير عبادتنا ومشاهدتنا. وأنتم يا معشر العرب والعجم من ذريتهم، فاتبعوهم فى ذلك. وبالله التوفيق.

الإشارة: إنما يعظم جاه العبد عند الله بثلاثة أمور: انحياشه بقلبه إلى الله، ومسارعته إلى ما فيه رضا الله، وإرشاد العباد إلى الله، بدعائهم إلى الله بالحال والمقال، فبقدر ما يقع من هداية الخلق على يديه يعلو مقامه عند الله، إنْ حصلت المعرفة بالله، وبهذا تعرف شرف مرتبة مشيخة الصوفية، الدالين على الله، الداعين إلى حضرة الله، إن تكلموا وقع كلامهم فى قلوب الخلق، فيرجعون إلى الله من ساعتهم، مجالسهم كلها وعظ وتذكير، حالهم يُنهض إلى الله، ومقالهم يدل على الله، ففى ساعة واحدة يتوب على يديهم من الخلق ما لا يتوب على يد العالم فى سنين؛ وذلك لإنهاض الحال والمقال، فلا جَرَمَ أنهم أعز الخلق إلى الله، وأعظمهم قدراً عند الله.

قال السهروردى فى العوارف: ورد فى الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذى نفس محمد بيده لئن شئتم لأُقسمن لكم، إن أحب عباد الله إلى الله الذين يُحَبِّبُونَ الله إلى عباده، ويُحَبِّبُونَ عباد الله إلى الله، ويمشون فى الأرض بالنصيحة». وهذا الذى ذكر رسول الله ﷺ هو رتبة المشيخة والدعوة؛ فإن الشيخ يُحبب الله إلى عباده حقيقة، ويحبب عباد الله إلى الله.

فأما كونه يُحبب عباد الله إلى الله؛ لأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله ﷺ فى أفعاله وأخلاقه. ومن صح اقتداؤه واتباعه أحبه الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾(١)، ووجه كونه يُحبب اللهَ إلى عباده؛ لأنه يسلك بالمريد طريق التزكية، وإذا تزكت النفس انجلت مرآة القلب، ودخل فيها نور العظمة الإلهية، ولاح فيها جمال التوحيد، وذلك ميراث التزكية، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾(٢)، وفلاحها: الظفر بمعرفة الله، فإذا عرفه، قطعاً، أحبه وفنى فيه. فرتبة المشيخة من أعلى الرتب؛ لأنها خلافة النبوة فى الدعوة إلى الله.

(١) من الآية ٣١ من سورة آل عمران. (٢) من الآية ٩ من سورة الشمس.

ثم قال: فعلى المشايخ وقار لله، وبهم يتأدب المريد ظاهراً وباطناً، قال الله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾(١)، فالمشايخ، لَمَّا اهتدَوا، أُهِّلوا للاقتداء بهم، وجُعِلوا أئمة للمتقين، قال رسول الله ﷺ، حاكياً عن الله عز وجل: «إذا كان الغالبُ على عبدى الاشتغال بى، جعلت همته ولذَّتهُ فى ذكرى، فإذا جعلت همته ولذته فى ذكرى، أحبنى وأحببته، ورفعتُ الحجابُ فيما بينى وبينه، لايسهو إذا سَهَا الناس، أولئك كلامُهُم كلام الأنبياء، أولئك الأبطالُ حقاً، أولئك الذين إذا أردتُ بأهلِ الأرضِ عقوبةً أو عذاباً، ذكرتُهم فصرفتُه بهم عنهم»(٢). انتهى كلامه رضي الله عنه.

ومن كلام ذى النون المصرى ـ لمَّا تكلم على الأبدال ـ قال: فهممُهم إليه ثائرة، وأعينهم إليه بالغيب ناظرة، قد أقامهم على باب النظر من رؤيته، وأجلسهم على كراسى أطباء أهل معرفته، ثم قال لهم: إن أتاكم عليل من فقدى فداووه، أو مريض من فراقى فعالجوه، أو خائف منى فانصروه، أو آمن منى فحذّروه، أو راغب فى مواصلتى فمنوه، أو راحل نحوى فزودوه، أو جبان فى متاجرتى فشجعوه، أو آيس من فضلى فرجُّوه، أو راجٍ لإحسانى فبشروه، أو حسن الظن بى فباسطوه، أو مُعظِّم لقدرى فعظموه، أو مسيء بعد إحسانى فعاتبوه، أو مسترشد فأرشدوه.هـ. وهذه صفة مشايخ التربية على ما شهدناهم، وما شهدنا إلا بما علمنا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نبيه لوطاً ونوحاً ـ عليهما السلام ـ فقال:

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

قلت: «ولوطاً»: إما مفعول بمحذوف يُفسره قوله: «آتيناه»، أى: وآتينا لوطاً، أو: باذكر. «ونوحاً»: مفعول باذكر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولوطاً آتيناه حُكمًا ﴾ أى: حكمة، أو نبوة، أو فصلاً بين الخصوم بالحق، ﴿ وعلماً ﴾ بنا وبما ينبغى علمه للأنبياء ـ عليهم السلام ـ من علم السياسة، ﴿ ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث ﴾؛ اللواطة، وقذف المارة بالحصى، وغيرها، وُصفت بصفة أهلها، وأسندت إليها على حذف

---

(١) من الآية ٩٠ من سورة الأنعام.

(٢) عزاه فى كنز العمال (١٨٧٢/١) لأبى نعيم فى الحلية، عن الحسن، مرسلاً.

مضاف، أي: من أهل القرية، بدليل قوله: ﴿إنهم كانوا قوم سَوْءٍ فاسقين﴾: خارجين عن طاعة الله ورسوله. ﴿وأدخلناه في رحمتنا﴾ أي: في أهل رحمتنا، أو جنتنا، ﴿إنه من الصالحين﴾ الذين صلحت ظواهرهم وبواطنهم، فنجيناه؛ جزاء على صلاحه، كما أهلكنا قريته؛ عقاباً على فسادهم.

﴿و﴾ اذكر ﴿نوحًا﴾، وقدّم هؤلاء عليه؛ لتعلقهم بإبراهيم، أي: خبره، ﴿إذْ نادى﴾ أي: دعا الله تعالى على قومه بالهلاك، أي: اذكر نبأه الواقع وقت دعائه، ﴿من قبلُ﴾ هؤلاء المذكورين، ﴿فاستجبنا له﴾ دعاءه الذى من جملته قوله: ﴿أني مغلوب فانتصر﴾[1]، ﴿فنجيناه وأهله﴾ المؤمنين به، من ولده وقومه، ﴿من الكرب العظيم﴾، وهو الطوفان وتكذيب أهل الطغيان. وأصل الكرب: الغم الشديد، ﴿ونصرناه﴾ نصراً مستتبعاً للانتقام، ﴿من القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي: منعناه من إذايتهم، ﴿إنهم كانوا قومَ سَوْءٍ﴾، تعليل لما قبله، ﴿فأغرقناهم أجمعين﴾، صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم؛ لأن الإصرار على تكذيب الحق، والانهماك فى الشر والفساد، مما يُوجب الإهلاك العام. والله تعالى أعلم.

الإشارة: نبى الله لوط عليه السلام لمَّا هاجر من أرض الظلمة إلى الأرض المقدسة، أعطاه الله العلم والحكمة. فكل من هاجر من وطن الغفلة إلى محل الذكر واليقظة، وهجر ما نهى الله عنه عوَّضه الله علماً بلا تعلم، وأجرى على لسانه ينابيع الحكمة. قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: إذا اعتقدت النفس على ترك الآثام، جالت فى الملكوت، وعادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة، من غير أن يُؤدِّيَ إليها عالمٌ علماً. ومصداقه الحديث: «من عمل بما يعلم، ورثه الله علْمَ ما لم يعلم».

ولمَّا أجهد نفسه فى تغيير المنكر نجّاه الله من أذاهم وما لحق بهم، وكذلك نبيه نوح عليه السلام؛ لما دعا قومه إلى الله، وأجهد نفسه فى نصحهم، نجاه الله من شرهم، وجعل النسل من ذريته، فكان آدم الأصغر. وهذه عادة الله تعالى فى خواصه، يُكثر فروعهم، ويجعل البركة فى تركتهم. وبالله التوفيق.

ثم ذكر داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ فقال:

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا

(١) من الآية ١٠ من سورة القمر.

مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢) ﴾

قلت: (وداود): عطف على (نوحا)، أو معمول لاذكر، و(إذ يحكمان): ظرف للمضاف المقدر، أي: اذكر خبرهما، و(إذ نفشت): ظرف للحكم. (ففهمناها): عطف على (يحكمان)؛ فإنه في حكم الماضي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر خبر ﴿ داودَ وسليمانَ إذْ يحكمان ﴾ أي: وقت حكمهما ﴿ في الحرث ﴾ أي: في الزرع، أو في الكرم المتدلي عناقيده، والحرث يطلق عليهما، ﴿ إذ نَفَشَتْ ﴾: دخلت ﴿ فيه غنمُ القوم ﴾ فأفسدته ليلاً، فالنفش: الرعي بالليل، والهمَلُ بالنهار، وهما الرعي بلا راع. ﴿ وكنا لِحُكْمِهم ﴾ أي: لهما وللمتحاكمين إليهما، أو على أنَّ أقل الجمع اثنان، ﴿ شاهدين ﴾، كان ذلك بعلمنا ومرأى منا، لم يغب عنا شيء منه، ﴿ ففهمناها ﴾ أي: الحكومة، أو الفتوى، ﴿ سليمانَ ﴾، وفيه دليل على أن الصواب كان مع سليمان.

وقصتهما على ما قال ابن عباس وغيره: أن رجلين دخلا على داود عليه السلام، أحدهما: صاحب حرث، والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الزرع: إنَّ هذا نفشت غنمه ليلاً، فوقعت في حرثي، فلم تُبق منه شيئاً، فقال له داود: اذهب فإن الغنم لك، ولعله استوت قيمتاهما ـ أي: قيمة الغنم كانت على قدر النقصان في الحرث ـ فخرج الرجلان على سليمان، وهو بالباب، وكان ابن إحدى عشرة سنة، فأخبراه بما حكم به أبوه، فدخل عليه، فقال: يا نبي الله؛ لو حكمت بغير هذا لكان أرفق بالفريقين، قال: وما هو؟ قال: يأخذ صاحبُ الغنم الأرضَ ليُصلحها، حتى يعود زرعها كما كان، ويأخذ صاحب الزرعِ الغنمَ ينتفع بألبانها وصوفها ونسلها، فإذا كمل الزرع، رُدت الغنم إلى صاحبها، والأرض بزرعها إلى ربها، فقال داود: وُفقت يابُني، وقضى بينهما بذلك.

والذي يظهر: أن حكمهما ـ عليهما السلام ـ كان باجتهاد، ففيه دليل على أن الأنبياء يجتهدون فيما لم ينزل فيه وحي، فإنَّ قول سليمان عليه السلام: «هذا أرفق»، وقوله: «أرى أن تدفع..» الخ، صريح في أنه ليس بطريق الوحي، وإلا لبت القول بذلك، ولعله وجه حكم داود عليه السلام قياس ذلك على جناية العبد، فإنَّ العبد فيما جنى. وإذا قلنا: كان بوحي، يكون حكم سليمان ناسخاً لحكم داود عليه السلام.

وأما حُكْم إفساد المواشي للزرع في شرعنا: فقال مالك والشافعي: يضمن أربابُ المواشي ما أفسدت بالليل دون النهار؛ للحديث الوارد في ذلك[1]، على تفصيل في مذهب مالك فيما أفسدت بالنهار. وقال أبو حنيفة: لا يضمن ما أفسدت بالليل ولا بالنهار؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: ـ «العَجْماءُ جَرْحُها جُبَار»[2]، ما لم يكن معها سائق أو قائد، فيضمن عنده.

قال تعالى: ﴿ وكُلاًّ آتينا حُكماً وعلماً ﴾ أي: كل واحد منهما آتيناه حكماً، أي: نبوة، وعلماً: معرفة بمواجب الحكم، لا سليمان وحده. وفيه دليل على أن خطأ المجتهد لا يقدح في علمه ولا يرفع عنه صفة الاجتهاد.

ثم بيَّن ما اختص به كل واحد منهما من المعجزات، فقال: ﴿ وسخَّرنا ﴾ أي: ذللنا ﴿ مع داود الجبالَ ﴾، حال كونها ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ أي: مسبحات؛ ينزهْنَ الله تعالى بلسان المقال، كما سبّح الحصا في كف نبينا عليه الصلاة والسلام. ﴿ و ﴾ سخرنا له ﴿ الطيرَ ﴾؛ كانت تسبح معه. وقدّم الجبال على الطير؛ لأن تسخيرها وتسبيحها أغرب وأدخل في الإعجاز؛ لأنها جماد. قال الكواشي: كان داود إذا سبّح سبّح معه الجبالُ والطير، وكان يفهم تسبيح الحجر والشجر، وكان إذا فتَر من التسبيح، يُسمعه الله تعالى تسبيح الجبال والطير؛ لينشط في التسبيح ويشتاق إليه. ورُوي أنه كان إذا سار سارت الجبال معه مسبحة، قال قتادة: «يسبحن»، أي: يصلين معه إذا صلى، وهذا غير ممتنع في قدرة الله تعالى. وفي الأثر: «كان داود يمرُّ، وصِفَاح الروحاء تُجاوبه، والطير تساعده». ﴿ وكنا فاعلين ﴾ بالأنبياء أمثال هذا وأكثر، فليس ذلك ببدع منا ولا صعب على قدرتنا.

﴿ وعلمناه صنعةَ لَبُوسٍ ﴾ أي: صنعة الدروع. واللبوس لغة في اللباس، والمراد: الدرع، ﴿ لكم ﴾ أي: نافع لكم، ﴿ لِيُحْصِنَكُم ﴾[3] أي: اللبوس، أو داود. وقرئ بالتأنيث، أي: الصنعة، أو اللبوس بتأويل الدرع. وقرئ بنون العظمة، أي: الله تعالى، وهو بدل اشتمال من «لكم». وقوله: ﴿ من بأسكم ﴾ أي: من حرب عدوكم، أو من وقع السلاح فيكم، ﴿ فهل أنتم شاكرون ﴾ الله على ذلك؟ وهو استفهام بمعنى الأمر؛ للمبالغة والتقريع.

ثم ذكر ما اختص به سليمان عليه السلام فقال: ﴿ ولسليمانَ الريحَ ﴾ أي: وسخرنا له الريح. وإيراد اللام هنا، دون الأولى؛ للدلالة على ما بين التسخيرين من التفاوت، فإن تسخير ما سخر لسليمان عليه السلام كان بطريق الانقياد الكلي والامتثال لأمره ونهيه، بخلاف تسخير الجبال، لم يكن بهذه المثابة، بل بطريق التبعية والاقتداء. حال كون الريح

(١) عن البراء بن عازب: «كانت له ناقة ضارية، فدخلت حائطاً، فأفسدت فيه، فكلّمَ رسول الله ﷺ، فقضى بأن حفظ الحوائط بالنهار على أهلها، وأن حفظ الماشية بالليل على أهلها، وأن على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل» أخرجه أبو داود في (البيوع، باب المواشي تفسد زرع القوم) وابن ماجه في (الأحكام، باب الحكم فيما أفسدت المواشي).

(٢) أخرجه البخاري في (الزكاة: باب في الركاز الخمس)، ومسلم في (الحدود، باب جرح العجماء) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) قرأ أبو جعفر وابن عامر وحفص «لتحصنكم» بالتاء، وقرأ أبو بكر عن عاصم بالنون، وقرأ الآخرون (ليحصنكم) بالياء. انظر الإتحاف (٢/٢٦٦).

﴿ عاصفةً ﴾ شديدة الهبوب، من حيث إنها كانت تقطع مسافة بعيدة فى مدة يسيرة، وكانت رُخاء فى نفسها، طيبة، وقيل: كانت رُخاء تارة، وعاصفة أخرى، على حسب ما أراد منها. أو رُخاء فى ذهابه وعاصفة فى رجوعه؛ لأن عادة المسافرين: الإسراع فى الرجوع، أو عاصفة إذا رفعت البساط ورخاء إذا جرت به.

﴿ تجري بأمره ﴾ ؛ بمشيئة سليمان، ﴿ إلى الأرض التي باركنا فيها ﴾ بكثرة الأنهار والأشجار والثمار، وهى الشام. وكان منزله بها، وتحمله إلى نواحيها. قال وهب: كان سليمان إذا خرج من منزله عكفت عليه الطير، وقام له الجن والإنس حتى يجلس على سريره، وكان غزّاءً؛ لا يقصر عن الغزو، فإذا أراد غزواً أمر فضرب له بخشب، ثم يُنصب له على الخشب، ثم حَمَلَ عليه الناس والدواب وآلة الحرب، فإذا حمل معه ما يريد أمر العاصف فدخلت تحت الخشب فاحتملته، فإذا استقلت، أمر الرخاء فمرت به شهراً فى روحته وشهراً فى غدوته، إلى حيث أراد.هـ. ﴿ وكُنَّا بكل شيء عالمين ﴾ أى: أحاط علمنا بكل شىء، فنُجرى الأشياء على ما سبق به علمنا، واقتضته حكمتنا.

﴿ ومن الشياطين ﴾ ، قيل: لمَّا ذكر تسخير الريح ـ وهى شفافة لا تعقل ـ ذكر ما هو شفاف يعقل، وهم الشياطين، مع سرعة الحركة فى الكل، أى: وسخرنا له من الشياطين ﴿ من يغوصون ﴾ فى البحار، ويستخرجون ﴿ له ﴾ من نفائسه، كالدر والياقوت، ﴿ ويعملون عملاً دون ذلك ﴾ أى: غير ما ذكر؛ من بناء المدن والقصور والمحاريب والتماثيل والقدور الراسيات، وقيل: الحمام، والنورة، والطاحون، والقوارير، والصابون، مما استخرجوه له، ﴿ وكنا لهم حافظين ﴾ أن يزيغوا عن أمره، أو يُبدلوا، أو يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون فيه، على ما هو مقتضى جبلتهم. وقال الزجاج: كان يحفظهم من أن يُفسدوا ما عملوا، وكان دأبهم أن يُفسدوا بالليل ما عملوه بالنهار. وقيل: وكَّل بهم جمعاً من الملائكة، وجمعاً من مؤمنى الجن. رُوى أن المُسَخَّر له عليه السلام: كفارهم، لا مؤمنهم؛ لقوله تعالى: (ومن الشياطين) . والله تعالى أعلم.

الإشارة: قوله تعالى: (ففهمناها سليمان) ، قال الورتجبى: بيَّن، سبحانه، أن الفضل متعلق بفضله، لا يتعلق بالصغر والكبر والشيخوخة والاكتساب والتعلم، إنما الفهم تعريف الله أحكام ربوبيته بنور هدايته، وإبراز لطائف علومه الغيبية، فحيث يظهر ذلك فهناك مواضع الفهوم من العلوم، فهو سبحانه منَّ على سليمان بعلمه، ولمْ يمنّ عليه بشىء خارج عن نفسه؛ من الملك، والحدثان أفضل من العلم؛ فإنّ العلم صفة من صفاته تعالى، فلمَّا جعله متصفاً بصفاته منّ عليه بجلال كبريائه .هـ. وقال فى قوله: ﴿ وكُلاًّ آتينا حُكمًا وعلمًا ﴾ : حُكما؛ معرفة بالربوبية، وعلماً بالعبودية .هـ.

وقوله تعالى: (وسخرنا مع داود الجبال....) إلخ. (ولسليمان الريح...) الآية، لمّا كانا - عليهما السلام - مع المُكَوِّن كانت الأكوان معهمـا، «أنت مع الأكوان ما لم تشـهد المكون، فإذا شـهدته كانت الأكوان معك»، وذكر في القوت: أن سـليمان عليه السلام لبس ذات يوم قميصاً رفيعاً جديداً، ثم ركب البساط، وحملته الريح، فبينما هو يسير إذ نظر إلى عِطفه نظرةً، فأنزلته الريح، فقال: لِمَ أنزلتني ولم آمرك؟! فقالت: نطيعك إذا أطعت الله، ونعصيك إذا عَصَيْتَه. فاستغفر وحملته. هـ. بالمعنى. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر أيوب عليه السلام، فقال :

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر خبر ﴿أيوبَ﴾ عليه السلام ﴿إذْ نادى ربَّه﴾ : دعاه: ﴿أني﴾ أي: بأني ﴿مسَّنيَ الضرُّ﴾ وهو بالضم: ما يصيب النفس من مرض وهزال، وبالفتح: الضرر في كل شيء، ﴿وأنت أرحمُ الراحمين﴾، تلطف في السؤال؛ حيث ذكر نفسَه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة، ولم يصرح بالمطلوب؛ من كمال أدبه، فكأنه قال: أنت أهل أن تَرحم، وأيوب أهلٌ أن يُرحم، فارحمه، واكشف عنه ضره الذي مسه. عن أنس: أنه أخبر عن ضعفه حين لم يقدر على النهوض إلى الصلاة، ولم يشتك، وكيف يشكو، والله تعالى يقول: ﴿إنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ﴾(١).

وقيل: إنما اشتكى إليه؛ تلذذاً بالنجوى، لا تضرُّراً بالشكوى، والشكاية إليه غاية في القُرب، كما أن الشكاية منه غاية في البُعد، وسيأتي في الإشارة تكميله، إن شاء الله. رُوي أن أيوب عليه السلام، كان من الروم، وهو أيوب بن أُمُوص ابن تارَح بن رعويل بن عيص بن إسحاق. وكانت أمه من ولد لوط عليه السلام اصطفاه الله للنبوة والرسالة، وبسط عليه الدنيا؛ فكان له ثلاثة آلاف بعير، وسبعة آلاف شاة، وخمسمائة فدان، يتبعها خمسمائة عبد، لكل عبد امرأة وولد، وكان له سبعة بنين، وسبع بنات. قاله النسفي.

زاد الثعلبي: وكانت له المشيئةُ من أرض الشام كلها، وكان له فيها من صنوف المال ما لم يكن لأحد؛ من الخيل والبقر والغنم والحُمُر وغيره، وكان براً تقياً رحيماً بالمساكين، يكفل الأرامل والأيتام، ويُكرم الضيف، ويبلغ

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة ص.

ابن السبيل، شاكراً لأنعم الله، لا يصيب منه إبليس ما يصيب من أهل الغنى من الغفلة والغِرّة، وكان معه ثلاثةٌ قد آمنوا به: رجل من اليمن واثنان من بلده، كُهُولا. قال وهب: فسمع إبليس تَجَاوُبَ الملائكة بالصلاة عليه فى السماء فحسده، فقال: إلهى، عبدك أيوب أنعمتَ عليه فشكرك، وعافيته فحمدك، ولم تجرّبه بشدّة ولا بلاء، فلو جربته بالبلاء ليكفرنّ بك وبنعمتك، فقال له تعالى: انطلق، فقد سلطتك على ماله، فجمع عفاريته وأخبرهم، فقال عفريت من الجن: أُعطيتُ من القوة ما إذا تحوّلت إعصاراً من نار أحرقتُ كل شىء آتى عليه، فقال له إبليس: دونك الإبل ورعاتها، فجاءها حتى وثبت فى مراعيها، فأثار من تحت الأرض إعصاراً من نار فأحرقها وأحرق رعاءها. فلما فرغ منها تمثل إبليس براعيها، وجلس على قَعُودٍ منها، فأتاه، وقال: يا أيوب، إن ربك الذى عبدته قد أحرق إبلك ورُعَاءَها، فقال أيوب: هو ماله، أعارنيه، يفعل فيه ما يشاء، فرجع إبليس خاسئًا، حين حمد أيوبُ ربه، فقال عفريت آخر: عندى من القوة ما إذا صحتُ لم يسمع صوتى ذو رُوح إلا خرجت روحه، قال له إبليس: ائت الغنم ورعاءَها، فأتى، فصاح، فصارت أمواتاً ورعاتها، ثم خرج إبليس متمثلاً بقهْرَمان[1] الرعاة، فقال له كمقالته فى الإبل، فأجابه أيوب بمثل ما أجابه فيها، فرجع خاسئاً، فقال عفريت آخر: عندى من القوة ما إذا تحولتُ ريحاً عاصفاً نسفتُ كل شىء أتيت عليه، قال إبليس: فأتِ الفدادين والحرث، فجاءها، فهَبّتْ ريح عاصفة فنسفت كل شىء، حتى كأنه لم يكن ثَـمَّ شىء، فخرج إبليس متمثلاً بقهرَمان الحرث، فقال له مثل قوله الأول، وردّ عليه مثل رده، حتى أتى على جميع ماله، وأيوب يحمد الله تعالى.

فقال إبليس: إلهى؛ إن أيوب يقول: إنك ما متعتَه إلا بنفسه وولده، فهل تسلطنى على ولده، فإنها الفتنة؟ قال الله تعالى: قد سلطتك على ولده، فجاء إبليس فقلب عليهم القصر منكسين، وانطلق إلى أيوب متمثلاً بالمُعلم الذى يُعلمهم الحكمة، وهو جريح، فقال: يا أيوب؛ لو رأيت بنيك كيف عُذبوا؟ ونُكّسوا على رؤوسهم، وسال دماغهم من أنوفهم، فلم يزل من قوله حتى رقّ أيوبُ وبكى، وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه، فصعد إبليس مسروراً، ثم ذهب أيوب، فلما أبصر ذلك استغفر، وصعد قرناؤه من الملائكة، بتوبته فبادروا إلى الله تعالى، وهو أعلم، فوقف إبليس خاسئاً، فقال: إلهى؛ إنما هوّن أيوب خطر المال والولد، فهل أنت مسلطى على جسده؟ فإنى لك زعيم إن سلّطنى على جسده ليكفرنّ بك، قال الله تعالى: قد سلطتك على جسده، ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه وعقله، فجاءه إبليس فوجده ساجداً، فجاء من قِبل الأرض، فنفخ فى منخره نفخة اشتعل منها جسده، فَوَهِلَ، وخرج من قرنه إلى قدمه تآليل مثل آلياتِ الغنم، ووقعت به حكة لا يملكها، فحك بأظفاره، ثم بالمُسوح الخشنة، ثم بالحجارة، حتى نغل لحمه، وتغير، ونش، وتدود، فأخرجه أهل القرية، وجعلوه على كناسة، وجعلوا له عريشاً، ورفضه الخلق كلهم، إلا «رحمة»؛ امرأته بنت إفرائيم بن يوسف عليه السلام، فقامت عليه بما يصلحه.

(١) القهرمان: هو المسيطر الحفيظ على من تحت يديه، وهو فارسي معرب.. انظر اللسان (قهرم).

روى أنس أن النبى ﷺ قال : «إنَّ أيُّوبَ نبى الله لَبث به بَلاؤُه ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَة، فَرفَضه القَرِيبُ والبَعِيدُ[١]» . الحديث، وقال كعب: سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة، وما قاله - عليه الصلاة والسلام - إن ثبت، هو الصحيح. وقال الحسن: مكث أيوب مطروداً على كناسة، فى مزبلة بنى إسرائيل سبع سنين وشهراً، يختلف فيه الدود. ويمكن الجمع بين الأقوال بأن الشدة كانت سبعاً والباقى مقدمات لها.

رُوى أن امرأته قالت له يوماً: لو دعوتَ الله عز وجل؟ فقال لها: كم كانت مدة الرخاء؟ قالت: ثمانين سنة. فقال: إنى أستحيى من الله أن أدعوه وما بلغتْ مدة بلائى مدة رخائى. هـ . ورُوى أن الدود أكل جميع جسده حتى بقى عظاماً نخرة، وهو مع ذلك لا يفتر عن ذكر الله وحمده وشكره، فصرخ إبليس صرخة، وقال: أعيانى هذا العبد الذى سألتُ ربى أن يسلطنى عليه، فقالت له العفاريت: أرأيت آدم حين أخرجته من الجنة، ما أتيته إلا من قِبَلِ امرأته، فتمثل لها بصورة رجل طبيب، وفى رواية الحسن: فى هيئة ليست كهيئة بنى آدم، فى أحسن صورة، فقال لها: أين بعلك يا أمة الله؟ فقالت: هو ذاك ،يحك قروحه، ويتردد الدود فى جسده، فقال لها: أنا إله الأرض الذى صنعتُ بصاحبك ما صنعت؛ لأنه عبد إله السماء وتركنى، فلو سجد لى سجدة واحدة لرددت لكما ما كان لكما.

وقال وهب: قال لها: لو أكل طعاماً ولم يسمّ عليه لعُوفىَ من البلاء، فأخبرتْ أيوب، فقال: أتاك عدوُ الله ليفتنك عن دينك، ثم أقسم، إن عافاه الله، ليضربنها مائة ضربة. ثم حلف لا يأكل لها طعاماً، فبقى مهملاً لا يأتى إليه أحد، وقال عند ذلك: (مسنى الضر) من طمع إبليس فى سجودى له، (وأنت أرحم الراحمين)، فقيل له: (اركض برجلك) فركض، فنبعت عين ماء، فاغتسل منها، فلم يبق من دائه شيء، وسقطت الدود من جسده، وعاد شبابه وجماله. ثم ضرب برجله فنبعت عين أخرى، فشرب منها، فلم يبق فى جوفه داء إلا خرج، وكانت امرأته «رحمة» حين حلف، تركته مدة، ثم ندمت وعادت، فوجدته فى أحسن هيئة، فلم تعرفه، فقالت له: أين الرجل المبتلى الذى كان هنا؟ قال: أنا هو، شفانى الله، ثم عرفته بضحكه، فتعانقا، ثم أمره الله تعالى أن يأخذ جماعة من القضبان فيضربها ضربة واحدة ليبرّ فى يمينه .هـ[٢] .

(١) أخرجه فى حديث طويل ابن حبان (بترتيب ابن بلبان ٢٨٩٨/٧)، وابن أبى حاتم فى التفسير (٢٤٥٩/٨)، والبزار (كشف الأستار/٢٣٥٧)، وقال الهيثمى (٢٠٨/٨) : رواه أبو يعلى، والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح.

(٢) جل ما ذكره الشيخ المفسر من روايات فى قصة أيوب أخرجه الطبرى فى تفسيره (٦٥/١٧) وما بعدها، وذكره البغوى وغيره فى تفاسيرهم. وهذا مما يجب تنزيه الأنبياء عنه. وقد ردَّ العلماء المحققون هذه الأخبار، وقال الدكتور أبو شهبة فى كتابه (الإسرائيليات والموضوعات) : والذى يجب أن نعتقده أن أيوب عليه السلام ابتلى، ولكن بلاءه لم يصل إلى حد هذه الأكاذيب. فأيوب عليه السلام أكرم على الله من أن يلقى على مزبلة، وأن يصاب بمرض ينفر الناس من دعوته ويقززهم منه.. إلخ كلامه. انظر: كتاب الإسرائيليات والموضوعات. فهو كتاب نفيس.

قلت: تسليط الشيطان على بشرية الأنبياء الظاهرة: جائز وواقع. وأما الأمراض المنفرة، فإن كانت بعد التبليغ وتقرير الشرائع، فجائز عند بعضهم، وهو الصواب، جمعاً بين ما ثبت في الأخبار عن السلف وبين الدلائل العقلية في تنزيه الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، لأن العلة هي تنفير الخلق عنهم، وبعد التبليغ فلا يضر، وقد ورد أن شُعيباً عليه السلام عمى في آخر عمره، وكذلك يعقوب، وكان بعد تبليغ الرسالة، فلم يضر.

ثم قال تعالى في حق أيوب عليه السلام: ﴿ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضرّ ﴾؛ إنعاماً عليه، فلمّا قام من مرضه جعل يلتفت فلا يرى شيئاً مما كان له من الأهل، والمال، ثم أحيا الله أولاده بأعيانهم، ورزقه مثلهم، ورد عليه ماله، بأن أخلف له مثله، وذلك قوله تعالى: ﴿ وآتيناه أهلَه ومثلهم معهم ﴾ وقيل: كان ذلك بأن ولد له ضعف ما كان له. وقال عكرمة: آتيناه أهله في الآخرة، ومثلهم معهم في الدنيا، والأول هو ظاهر الآية، ردهم الله تعالى بأعيانهم؛ إظهاراً لكمال قدرته تعالى.

ثم قال ﴿ رحمةً من عندنا ﴾: مفعول من أجله، أي: آتينا ما ذكر لرحمتنا أيوب، ﴿ وذكرى للعابدين ﴾ أي: وتذكرة لغيره من العابدين؛ ليصبروا كما صبر، ويُثابوا كما أُثيب، أو لرحمتنا العابدين، الذين من جملتهم أيوب، وذكرنا إياهم بالإحسان، وعدم نسياننا لهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما ينزل بالمؤمن من الأوجاع والأسقام والشدائد والنوائب، في النفس، أو في الأهل، كله رحمة، عظيمة، ومنّة جسيمة، ويقاس عليه: مفارقة الأحباب والأوطان ومشاق الأسفار والمتاعب البدنية، ويُسمى عند الصوفية: التعرفات الجلالية؛ لأن الله تعالى يتعرف إليهم بها؛ ليعرفوه عياناً، ولذلك تجدهم يفرحون بها، وينبسطون عند ورودها؛ لما يتنسمون فيها، ويجدون بعدها، من مزيد الاقتراب وكشف الحجاب، وطي مسافة البُعد بينهم وبين رب الأرباب، فهم يؤثرونها على الأعمال الظاهرة؛ لِمَا يتحققون بها من وجود الأعمال الباطنية؛ كالصبر والزهد والرضا والتسليم، وما ينشأ عنها، عند ترقيق البشرية، من تشحيذ الفكرة والنظرة، وغير ذلك من أعمال القلوب.

وفي الحكم: «إذا فتح لك وجهة من التعرف، فلا تُبالي معها إن قلّ عملكَ؛ فإنه ما فتحها لك إلاّ وهو يريد أن يتعرف إليك منها، ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك، والأعمال أنت مهديها إليه، وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك؟». قال الشيخ ابن عباد رضي الله عنه: معرفة الله تعالى هي غاية المطالب، ونهاية الأماني والمآرب، فإذا واجه اللهُ عبده ببعض أسبابها، وفتح له باب التعرّف له منها، فذلك من النعم الجزيلة عليه، فينبغي ألا يكترث بما يفوته بسبب ذلك من أعمال البر، وما يترتب عليها من جزيل الأجر، وليعلم أنه سلك به مسلك الخاصة المقرّبين،

المؤدِّى إلى حقائق التوحيد واليقين، من غير اكتساب من العبد ولا تَعَمُّلٍ، والأعمالُ التى من شأنها أن يتلبس بها هى باكتسابه وتعمله، وقد لا يسلم من دخول الآفات عليها، والمطالبة بوجود الإخلاص فيها، وقد لا يحصل له ما أمّله من الثواب عند مناقشة الحساب، وأين أحدهما من الآخر؟.

ومثاله: ما يُصاب به الإنسان من البلايا والشدائد التى تُنَغِّصُ عليه لذات الدنيا، وتمنعه من كثير من أعمال البر، فإنّ مرادَ العبد أن يستمر بقاؤه فى الدنيا، طيِّبَ العيش ناعمَ البال، ويكون حاله فى طلب سعادة الآخرة حال المترفين؛ فلا تسخو نفسه إلا بالأعمال الظاهرة، التى لا كثير مُؤْنَةٍ عليه فيها ولا مشقة، ولا تقطع عنه لذة، ولا يفوته شهوة، ومراد الله منه أن يُطهره من أخلاقه اللئيمة، ويحول بينه وبين صفاته الذميمة، ويُخرجه من أَسْرِ وجوده إلى متسع شهوده، ولا سبيل إلى الوصول إلى هذا المقام على غاية الكمال والتمام، إلا بما يُضادُّ مراده، ويشوش عليه معتادَه، وتكون حاله حينئذ المعاملة بالباطن، ولا مناسبة بينها وبين الأعمال الظاهرة، فإذا فَهِم هذا عَلِم أن اختيار الله له، ومرادَه منه، خيرٌ من اختياره لنفسه ومراده لها.

وقد رُوى أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه: «إنى إذا أنزلت بعبدى بلائى، فدعانى، فماطلتُه بالإجابة، فشكانى، قلت: عبدى كيف أرحمك من شيء به أرحمك»؟ وفى حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: إذا ابتليت عبدى المؤمن فلم يشكنى إلى عُوّاده، أنشطته من عقالى، وبدّلته لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، ويستأنف العمل»[(١)].

ثم نقل عن أبى العباس ابن العريف رضي الله عنه قال: كان رجل بالمغرب يُدْعى أبا الخيّار، وقد عمّ جسده الجذامُ، ورائحة المسك تُوجد منه على مسافة بعيدة، لقيه بعضُ الناس، فقال له: يا سيدى كأن الله تعالى لم يجد للبلاء مَحلاً من أعدائه حتى أنزله بكم، وأنتم خاصة أوليائه!! فقال لى: اسكت، لا تقل ذلك؛ لأنا لمّا أشرفنا على خزائن العطاء، لم نجد عند الله أشرف ولا أقرب من البلاء، فسألناه إيّاه[(٢)]، وكيف بك لو رأيت سيِّد الزهّاد، وقطبَ العباد، وإمام الأولياء والأوتاد، فى غار بأرض طرطوس وجبالها، ولحمُه يتناثر، وجلده يسيل قيْحاً وصديداً، وقد أحاط به الذباب والنمل، فإذا كان الليل لم يقنع بذكر الله وشكره على ما أعطاه من الرحمة، حتى يشدّ نفسه بالحديد، ويستقبل القبلة عامّةَ ليله حتى يطلع الفجر.هـ.

---

(١) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (الجنائز، باب ما ينبغى لكل مسلم أن يستشعره من الصبر..)، والحاكم فى المستدرك (الجنائز ١/٣٤٩) عن أبى هريرة، وصححه الحاكم، وأقره الذهبى.

(٢) أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتداوى. وقال: «اسألوا الله العافية».

وقد تكلم الصوفية فى قول أيوب عليه السلام: ﴿مسنى الضر﴾؛ هل شكى ضرر جسمه، أو ضرر قلبه من جهة دينه؟ قال بعضهم: قيل: إنه أراد النهوض إلى الصلاة فلم يستطع، فقال: (مسنى الضر)، وقيل: إنه أكل الدود جميع جسده، حتى بقى عظاماً، فلما قصد الدودُ قلبَه ولسانَه غار على قلبه؛ لأنه موضع المعرفة والتوحيد، والنبوة والولاية، وأسرار الله تعالى، وخاف انقطاع الذكر، فقال: (مسنى الضر)، وقيل: خاف تبدد همه وتفرق قلبه، وليس فى العقوبة شىء أشد من تبدد الهم، فتارة يقول: لعلى ببلائى مُعاقب، وتارة يقول: بضرى مُستدرج، فلما خاف تشتيت خاطِره عليه، قال: (مسنى الضر) .هـ.

قلت: هذا المقام لا يليق بالأنبياء، وإنما يجوز على غيرهم؛ إذ الأولياء يترقون عن هذا المقام فكيف بالأنبياء! وقال بعضهم: قال: مسنى الضر من شماتة الأعداء، واقتصر عليه ابن جزى، وفيه شىء؛ إذ كثير من الأولياء سقط الناس من عينهم، فلا يبالون بخيرهم ولا شرهم، ولامدحهم ولا ذمهم، فكيف بالأنبياء - عليهم السلام -؟!

وقال القشيرى: كان ذلك منه إظهاراً للعجز، لا اعتراضاً، فلا يُنافى الصبر، مع ما فيه من التنفس عن الضعفاء من الأمة، ليكون أسوة. ويقال: إن جبريل أمره بذلك، وقال له: إن الله يغضب إن لم يُسأل، وسيان عنده البلاء والعافية، فسَله العافية. ويقال: إن أيوب كان مُكاشَفاً بالحقيقة، مأخوذاً عنه، وكان لا يُحسُّ بالبلاء، فسَتَر عليه، فردَّه إليه، فقال: مَسنى الضُّرُّ، وقيل: أُدخِل على أيوب تلك الحالة، فاستخرج منه تلك المقالة؛ ليظهر عليه سمة العبودية[1] .هـ.

وقال الورتجبى: سُئل الجنيد عن قوله: (مسنى الضر)، فقال عرّفه فاقة السؤال، ليمنّ عليه بكرم النوال، وفى الحديث المروى عن النبى ﷺ: أنه جاء إليه رجل فسأله عن قول أيوب «مسنى الضر»، فبكى - عليه الصلاة والسلام - وقال: والذى بعثنى بالحق نبياً ما شكى فقراً نزل من ربه، ولكن كان فى بلائه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات، فلما كان فى بعض الساعات وثب ليُصلى، فلم يستطع النهوض، فقال: (مسنى الضر) الخ. ثم قال عليه الصلاة والسلام -: أكل الدود عامة جسد حتى بقى عظاماً نخرة[2]، فكادت الشمس تطلع من قُبله وتخرج من دُبره، وما بقى إلا قلبه ولسانه، وكان قلبه لا يخلو من ذكر الله، ولسانه لا يخلو من ثنائه على ربه، فلما أحب الله له الفرج، بعث إليه الدودتين؛ إحداهما إلى لسانه والأخرى إلى قلبه، فقال: يا رب ما بقى إلا هاتان الجارحتان، أذكرك بهما، فأقبلت هاتان الدودتان إليهما ليشغلانى عنك ويطلعان على سرى، مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين .هـ.

وفى قوله تعالى: (رحمة من عندنا وذكرى للعابدين): تسلية لمن أصيب بشىء من هذه التعرفات الجلالية، وقد تقدم فى أول الإشارة الكلام على هذا. والله تعالى أعلم.

---

(١) باختصار. (٢) لم أقف عليه.

ثم ذكر ما بقى من مشاهير الأنبياء، فقال:

﴿ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ إسماعيلَ ﴾ بن إبراهيم، وكان أكبر من إسحاق، ﴿ وإدريسَ ﴾ واسمه: أخنوخ بن شيث بن آدم. قاله النسفى ﴿ وذا الكفل ﴾ وهو إلياس، أو زكريا، أو يوشع بن نون، قلت: كونه زكريا بعيد؛ لأنه سيذكره بخصوصه بعدُ. وسُمي ذا الكفل؛ لأنه ذو حظ من الله، والكفل: الحظ. أو تكفل بضعف عمل أنبياء زمانه، أو بصيام النهار وقيام الليل. وقال أبو موسى الأشعرى: إنَّ ذا الكفل لم يكن نبياً، ولكنه كان عبداً صالحاً، تكفل بعمل رجل صالح عند موته، وكان يُصلى لله تعالى، فى كل يوم، مائة صلاة، فأحسن الله عليه الثناء.هـ. وقال عمر بن عبدالله بن الحارث: إن نبياً من الأنبياء قال: من تكفل لى أن يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب؟ فقال شاب: أنا، فمات ذلك النبى، فجلس ذلك الشاب يقضى بين الناس، فجاءه الشيطان فى صورة إنسان؛ ليُغضبه وهو صائم، فضرب الباب ضرباً شديداً، فقال: من هذا؟ فقال: رجل له حاجة، فأرسل له رجلاً، فلم يرض، ثم أرسل معه آخر، فلم يرض، فخرج إليه فأخذ بيده فانطلق معه إلى السوق، ثم خلاه وذهبَ، فسُمي ذا الكفل. هـ.

﴿ كلٌّ من الصابرين ﴾ أي: كل واحد من هؤلاء موصوف بالصبر التام على مشاق التكليف وشدائد النوب، ﴿ وأدخلناهم في رحمتنا ﴾؛ فى النبوة، أو فى الآخرة، ﴿ إنهم من الصالحين ﴾ أى: الكاملين فى الصلاح الذى لا تحوم حوله شائبة الفساد، وهم الأنبياء، فإن صلاحهم معصوم من كدر الفساد. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد مدح الله هؤلاء السادات بخصلتين، من تحقق بهما: التحق بهم، وانخرط فى سلكهم: الصبر على مشاق الطاعة، وعلى ترك المعصية، وفى حال البلية. والصلاح، وهو: إصلاح الظاهر بالشريعة، وإصلاح الباطن بنور الحقيقة. فمن تحقق بهاتين الخصلتين كان من المقربين مع النبيين والصديقين. وبالله التوفيق.

ثم ذكر يونس عليه السلام، فقال:

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿ذا النُّون﴾ أى: صاحب الحوت، وهو يونس عليه السلام، ﴿إذ ذهبَ مُغاضِباً﴾ أى: مراغماً لقومه، فاراً عنهم، وغضب من طول دعوته إياهم، وشدة شكيمتهم، وتمادى إصرارهم، فخرج مهاجراً عنهم، قبل أن يُؤمر، وقيل: وعدهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم؛ لأجل توبتهم، ولم يشعر بها، فظن أنه كذبهم، فغضب من ذلك، فهو من باب المغالبة؛ للمبالغة؛ أو لأنه غضب لما رأى منهم من الإصرار، وغضبوا لمفارقته إياهم، وكان من حقه عليه السلام أن يصبر وينتظر الإذن الخاص من الله تعالى، فلما استعجل ابتلى ببطن الحوت، وقال ابن عباس: قال جبريلُ ليونس عليه السلام: انطلق إلى أهل نِينَوى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم، قال: ألتمس دابة، قال: الأمر أعجل من ذلك، فانطلق إلى السفينة فركبها، فاحتبست السفينة فساهموا فسُهِم، فجاءه الحوت يبصبص بذنبه، فنودى الحوت: إنا لم نجعل يونس لك رزقاً، إنما جعلناه لك حِرزاً، فالتقمه، ومرّ به على الأُبلَة، ثم على دجلة، ثم مرّ به حتى ألقاه بنِينَوَى . هـ.

وقال وهب بن منبه رضي الله عنه : إنّ يونس كان عبداً صالحاً ضيِّق الخلق،(٢) فلما حمل أثقال النبوة تفسخ منها تفسُّخَ الرّبَع(١) تحت الحمل الثقيل، فقذفها وخرج هارباً عنها، ولذلك أخرجه الله من أولى العزم، قال لنبيه ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾(٣) وقال :﴿وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾(٤) أى: لا تلق أمرى كما ألقاه .هـ. وأما قول الحسن: مغاضباً لربه، فلا يليق بمقام الأنبياء - عليهم السلام - إلا أن يحمل على أن خروجه بلا إذن كأنه مغاضب. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿فظنّ أن لن نقْدِرَ عليه﴾ أى: لن نضيق عليه، أو لن نقدر عليه بالعقوبة، فهو من القدَر، ويؤيده قراءة من شدّد، وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: دخلت يوماً على معاوية، فقال: لقد ضربتنى أمواج القرآن البارحة، فغرقت فيها، فلا أرى لنفسى خلاصاً إلا بك، قال: وما هى؟ فقرأ الآية... فقال: أو يظن نبى الله ألا يقدر عليه؟ قال: هذا من القدر لا من القدرة .هـ.

وقيل: إنه على حذف الاستفهام. أى: أيظن أن لن نقدر عليه، وقيل: هو تمثيل لحاله بحال من ظن أن لن يقدر عليه، أى: تعامل معاملة من ظن أن لن نقدر عليه؛ حيث استعجل الفرار. قلت: لإعلاء مقامه كثرت مطالبته بالأدب، فحين خرج من غير إذن خاص؛ عُدّ خروجه كأنه ظن ألا تنفذ فيه القدرة، وتمسك عليه السلام بالإذن العام، وهو الهجرة من دار الكفر، وهو لا يكفى فى حق أمثاله، فعوقب بالسجن فى بطن الحوت.

(١) الربع: ولد الناقة أول ما يُحمل عليه. (٢) هذا لايصح أن يوصف به سيدنا يونس، الذى قال فيه سيدنا محمد: «لاينبغى لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى».

(٣) من الآية ٣٥ من سورة الأحقاف.

(٤) من الآية ٤٨ من سورة القلم. وانظر تفسير الطبرى (١٧/٧٧)، والبغوى (٥/٣٥٠).

﴿ فنادى في الظلمات ﴾ أى: فى الظلمة الشديدة المتكاثفة كقوله: ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ... ﴾(١)، أو فى ظـلمة بطن الحـوت والبحر والليل: ﴿ أن لا إله إلا أنتَ ﴾ أى: بأنه لا إله إلا أنت، أو تفسيرية، أى: قال لا إله إلا أنت، ﴿ سبحانك ﴾ أى: أنزهك تنزيهاً لائقاً بك من أن يعجزك شىء، أو: تنزيهاً لك عما ظننتُ فيك، ﴿ إني كنتُ من الظالمين ﴾ لنفسى؛ بخروجى عن قومى قبل أن تأذن لى، أو من الظالمين لأنفسهم بتعريضها للهلكة، وعن الحسن: ما نجاه، والله، إلا إقراره على نفسه بالظلم.

﴿ فاستجبنا له ﴾ أى: أجبنا دعاءه الذى دعا فى ضمن الاعتراف بالذنب على ألطف وجه وأحسنه. عن رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَكْرُوبٍ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ إلاَّ اسْتُجِيبَ لَهُ»(٢). ﴿ ونجيناه من الغم ﴾: الذلة والوحشة والوحدة، وذلك بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات، وقيل: بعد ثلاثة أيام، ﴿ وكذلك نُنجي المؤمنين ﴾ أى: مثل ذلك الإنجاء الكامل نُنجى المؤمنين من غمومهم، إذا دعوا الله، مخلصين فى دعائهم. وعنه ﷺ أنه قال: «اسم الله الذى إذا دعُى به أجاب، وإذا سُئل به أعطى: دعوة يونس بن متى، قيل: يا رسول الله، أليونس خاصة؟ قال: بل هى عامة لكل مؤمن، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿وكذلك ننجى المؤمنين﴾. وهنا قراءات فى ﴿ نُنجي ﴾، مذكورة فى كتب القراءات، تركتها لطول الكلام فيها.

الإشارة: من تحققت له سابقة العناية لا تُبعده الجناية، ولا تخرجه عن دائرة الولاية، بل يؤدب فى الدنيا بالابتلاء فى بدنه أو ماله، على قدر الجناية وعلو المقام، ثم يرد إلى مقامه. وها هنا حكايات للصوفية - رضى الله عنهم - من هذا النوع، منها: حكاية خير النساج رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قيل له: أكان النسج صنعتك؟ قال: لا، ولكن كنتُ عاهدت الله واعتقدت ألا آكل الرطب، فغلبتنى نفسى واشتريت رطلاً منه، فجلستُ لآكله، فإذا رجل وقف علىَّ، وخنقنى، وقال: يا عبد السوء، أتهرب من مولاك - وكان له عبد اسمه: «خير، أبقَ منه، ألقى الله شبهه علىَّ - فحملنى إلى حانوته، وقال: اعمل عملك، أمرنى بعمل الكرباس - وهو القطن - فدليت رجلى لأنسجه، فكأنى كنت أعمله سنين، فبقيت معه أشهراً، فقمتُ ليلة إلى صلاة الغداة، وقلت: إلهى لا أعود، فأصبحت، فإذا الشبه قد زال عنى، وعُدتُ إلى صورتى التى كُنتُ عليها، فأُطلقت، فثبت علىَّ هذا الاسم، فكان سببُه اتباع شهوتى.

ومنها قضية أبى الخير العسقلانى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: اشتهيتُ السمك سنين، ثم ظهر له من وجه حلال، فلما مد يده ليأكل، أخذت شوكة من عظامه إصبعه، فذهبت فى ذلك، فقال: إلهى هذا لمن مد يده لشهوة من حلال، فكيف

(١) من الآية ١٧ من سورة البقرة.
(٢) أخرجه الترمذى فى (الدعوات باب ٨٢)، وأبو يعلى (٢/٦٥)، والحاكم فى المستدرك (١/٥٠٥)، وصححه ووافقه الذهبى، من حديث سعد بن أبى وقاص. وأخرجه أحمد فى قصة (١/١٧٠).

بمن مد يده لشهوة من حرام. ومنها: قضية إبراهيم الخواص رضي الله عنه قال: كنت جائعاً في الطريق، فوافيت الرِّي ـ اسم بلدة ـ فخطر ببالي أن لي بها معارف، فإذا دخلتها أضافوني وأطعموني، فلمّا دخلت البلد رأيت فيها مُنكراً احتجت أن آمر فيه بالمعروف، فأخذوني وضربوني، فقلتُ في نفسي: من أين أصابني هذا، على جوعي؟ فنُوديت في سري: إنك سكنت إلى معارفك بقلبك، ولم تسكن إلى خالقك.

وأمثال هذا كثير بأهل الخصوصية، يُؤدبون على أقل شيء من سوء الأدب؛ لشدة قربهم، ثم يُردون إلى مقامهم. ومن هذا النوع قصة سيدنا يونس عليه السلام؛ حيث خرج من غير إذن خاص، فأدَّبه، ثم رده إلى النبوة والرسالة، وقد كنتُ سمعت من بعض الأشياخ أن أيوب عليه السلام إنما أُصيب في ماله، لأنه كان بجوار ماله كافر، فكان يداريه؛ لأجل ماله، فأُصيب فيه وفي بدنه؛ تأديباً وتكميلاً له. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر زكريا عليه السلام فقال:

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر خبر ﴿ زكريا إذ نادى ربَّهُ ﴾ في طلب الولد، وقال: ﴿ ربِّ لاتذرني فَرْداً ﴾؛ وحيداً بلا ولد يرثني، ثم ردّ أمره إليه؛ مستسلماً، فقال: ﴿ وأنت خيرُ الوارثين ﴾، فحسبي أنت، وإنْ لم ترزقني وارثاً فلا أبالي؛ فإنك خير وارث، ﴿ فاستجبنا له ﴾ دعاءه، ﴿ ووهبنا له يحيى ﴾ ولداً ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ أي: أصلحناها للولادة بعد عُقمها، أو أصلحناها للمعاشرة بتحسين خُلُقها. وكانت قبل سيئة الخلق، ﴿ إنهم ﴾ أي: ما تقدم من الأنبياء، ﴿ كانوا يُسارعون في الخيرات ﴾ أي: إنما استحقوا الإجابة إلى مطالبهم، وأسعفناهم فيما أمّلوا؛ لمبادرتهم أبواب الخير، ومسارعتهم إلى تحصيلها، مع ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير كله، وهو السر في إتيان: «في»، دون «إلى»، المشعرة بخلاف المقصود؛ من كونهم خارجين عن أصل الخيرات، متوجهين إليها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾(١).

﴿ و ﴾ كانوا ﴿ يدعوننا رغَباً ورَهَباً ﴾؛ طمعاً وخوفاً، وهما مصدران في موضع الحال، أو المفعول له، أي: راغبين في الثواب أو الإجابة، وراهبين من العقاب أو الخيبة، أو للرغبة والرهبة، ﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾:

---

(١) من الآية ١٣٣ من سورة آل عمران.

متواضعين خائفين، أي: إنما نالوا هذه المراتب العلية، واستحقوا هذه الخصوصية؛ لاتصافهم بهذه الأوصاف الحميدة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الغالب في وراثة الخصوصية الحقيقية أن تكون لغير ورثة النسب، وأما الخصوصية المجازية، التي هي مقام الصلاح أو العلم، فقد تكون لورثة النسب، وتكون لغيرهم. والخصوصية الحقيقية هي مقام الفناء والبقاء، والتأهل للتربية النبوية، ولا بأس بطلب وارث هذه الخصوصية، لئلا ينقطع النفع بها. وقد قيل، في قول الشيخ ابن مشيش رضي الله عنه: اسمع نداءى بما سمعت به نداء عبدك زكريا، إنه أشار إلى طلب الوارث الروحاني. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات﴾، فيه إشارة إلى بيان سبب حصول الخصوصية؛ لأن بابها هو المسارعة إلى عمل الخيرات وأنواع الطاعات، وأوكدها ثلاثة: دوام ذكر الله، وحسن الظن بالله، وبعباد الله. وفي الحديث: «خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير: حسن الظن بالله، وحسن الظن بعباد الله». وقوله: ﴿ويدعوننا رَغَباً ورهباً﴾، هذه حالة الطالبين المسترشدين المتعطشين إلى الله، يدعونه رغبًا في الوصول، ورهباً من الانقطاع والرجوع، وقد تكون للواصلين؛ رغبًا في زيادة الترقي، ورهباً من الوقوف أو الإبعاد. وقال بعضهم: الرغب والرهب حاصلتان لكل مؤمن، إذ لو لم تكن رغبة لكان قنوطاً، وهو كفر، ولو لم تكن رهبة لكان أمناً، والأمن كفر. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر مريم وابنها ـ عليهما السلام ـ فقال:

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿التي أحصنتْ فرجَها﴾ على الإطلاق من الحلال والحرام، والتعبير عنها بالموصول؛ لتفخيم شأنها، وتنزيهها عما زعموه في حقها. ﴿فنفخنا فيها من رُوحنا﴾ أي: أجرينا روح عيسى فيه وهو في بطنها، أو نفخنا في درع جيبها من ناحية روحنا، وهو جبريل عليه السلام، فأحدثنا بذلك النفخ عيسى عليه السلام، وإضافة الروح إليه تعالى؛ لتشريف عيسى عليه السلام. ﴿وجعلناها وابنها﴾ أي: قضيتهما، أو حالهما، ﴿آيةً للعالمين﴾، فإن من تأمل حالهما تحقق بكمال قدرته تعالى. وإنما لم يقل آيتين، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾[1]، لأن مجموعهما آية واحدة، وهي ولادتها إياه من غير فحل. وقيل: التقدير: وجعلناها آية وابنها كذلك، فآيةً مفعول المعطوف عليه، فحذف أحدهما لدلالة الآخر عليه. والله تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ١٢ من سورة الإسراء.

الإشارة: مَنْ حَصَّلَ التقوى فى صغره، كان آية فى كِبَرِهِ. تقول العامة: الثور الحراث فى الربك يبان، وتقول الصوفية: البداية مجلاة النهاية. وقالت الحكماء: الصغر يخدم على الكبر. وبالله التوفيق.

ثم ذكر اتفاقهم فى التوحيد، فقال:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

قلت: «أمة»: حال من «أمتكم»، أى: متحدة أو متفقة، والعامل فيه ومعنى الإشارة، والإشارة إلى طريق الأنبياء المذكورين قبلُ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنّ هذه ﴾ الطريق والسيرة التى سلكها الأنبياء المذكورون، واتفقوا عليها، وهو التوحيد، هى ﴿ أُمتكم ﴾ أى: ملتكم التى يجب أن تكونوا عليها، ولا تخرجوا عنها، حال كونها ﴿ أمةً واحدةً ﴾، غير مختلفة فيما بين الأنبياء - عليهم السلام - وإن اختلفت شرائعهم. وفى الحديث: «الأنْبِيَاءُ أبناء عَلاَّتٍ، أُمهاتُهمْ شَتَّى، وأبوهم واحد» والعلات: الضرائر، أى: شرائعهم مختلفة، وأبوهم واحد، وهو التوحيد. قال القشيرى: ﴿ وأنا ربكم فاعبدون ﴾ أى: ربيتكم؛ اختياراً، فاعبدونى؛ شكراً وافتخاراً.هـ. والخطاب للناس كافة.

﴿ وتقطعوا أمرهم ﴾، أصل الكلام: وتقطعتم فى أمر دينكم وتفرقتم. إلاَّ أن الكلام صرف إلى الغيبة، على طريقة الالتفات؛ ليَنْعى عليهم ما أفسدوه فى الدين. والمعنى: فجعلوا أمر دينهم فيما ﴿ بينهم ﴾ قِطَعًا، وصاروا أحزاباً متفرقة، كأنه يُنْهِى إلى أهل التوحيد قبائح أفعالهم، ويقول: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء فى دين الله، الذى أجمعت عليه كافة الأديان؟ ثم توعدهم بقوله: ﴿ كُلٌّ إلينا راجعون ﴾ أى: كل واحد، من الفرق المتقطعة، راجع إلينا بالبعث، فنجازيهم حينئذ بحسب أعمالهم.

ثم فصَّل الجزاء فقال: ﴿ فمن يعملْ ﴾ شيئاً ﴿ من الصالحاتِ وهو مؤمنٌ ﴾ بالله ورسله وبما يجب الإيمان به. قال القشيرى: (وهو مؤمن، أى: فى المآل بأن يختم له به)، وكأنه يشير إلى الخاتمة؛ لأن من لم يختم له بالإيمان لا ثواب لأعماله، والعياذ بالله، ﴿ فلا كُفرَانَ لسَعْيِه ﴾ أى: لا حرمان لثواب عمله، بل سعيُه مشكور مقبول، فالكفران مَثَلٌ فى حرمان الثواب، كما أن الشكر مثلٌ فى إعطائه، وعبَّر عن ذلك بالكفران، الذى هو ستر النعمة

وجحدها؛ لبيان كمال تنزهه تعالى عنه. وعبّر عن العمل بالسعي؛ لإظهار الاعتداد به، ﴿ وإنَّا له ﴾ أي: لسعيه ﴿ كاتبون ﴾؛ مُثبتون في صحائف أعمالهم، نأمر الحفظة بذلك، لا نغادر من ذلك شيئا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الصوفية ـ رضي الله عنهم ـ، في حال سيرهم إلى الحضرة وسلوكهم في طريق التربية، مختلفون بحسب الأزمنة والأمكنة والأشخاص. وفي حال نهايتهم ـ وهو الوصول إلى حضرة الشهود والعيان، وإشراق شمس العرفان، الذي هو مقام الإحسان، ويُعبِّرون عنه بالفناء والبقاء، وهو التوحيد الخاص ـ متفقون، وفي ذلك يقول القائل:

عباراتنا شتى، وحسْنك واحد وكُلٌّ إلى ذاك الجمَالِ يُشير

لأن ما كان ذوقاً ووجداً لا يختلف، بل يجده كل من له ذوق سليم. نعم تتفاوت أذواقهم على حسب مشاربهم، ومشاربُهم على حسب إعطائهم نفوسَهم وبيعها لله، وتتفاوت أيضاً بحسب التخلية والتفرغ، وبحسب الجد والاجتهاد، وكلهم على بصيرة من الله وبينة من ربهم. نفعنا الله بذكرهم، وخرطنا في سلكهم، آمين.

ثم تمم قوله: ﴿كُلٌّ إلينا راجعون﴾، فقال:

﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) ﴾

قلت: «حرام»: مبتدأ، وفيه لغتان: حرام وحِرْم، كحلال وحِلّ. و«أنهم..» إلخ: خبر، أو فاعل سد مسده، على مذهب الكوفيين والأخفش. والجملة: تقرير لقوله: (كُلٌّ إلينا راجعون)، و«لا» نافية، أي: ممتنع على قرية أهلكناها عدمُ رجوعهم إلينا بالبعث، بل كل إلينا راجعون. وقيل: «لا» زائدة، والتقدير: ممتنع رجوع قرية أردنا إهلاكها عن غيهم، «فإنهم»: على هذا: فاعل بحرام. قاله القصار. و«حتى»: ابتدائية، غاية لما يدل عليه ما قبلها، أي: يستمرون على ما هم عليه من الهلاك، حتى إذا قامت القيامة يرجعون إلينا، ويقولون: ياويلنا. وقال أبو البقاء: «حتى»: متعلقة في المعنى بحرام، أي: يستقر الامتناع، أي: هذا الوقت. و«فإذا هي»: جواب «إذا». وفي الأزهري: وقد يجمع بين الفاء وإذا الفجائية؛ تأكيداً، خلافاً لمن منع ذلك. قال تعالى: (فإذا هي شاخصة)، فإنه لو قيل: إذا هي، أو فهي شاخصة لصح. هـ. وقيل: «ياويلنا»: على حذف القول، أي: إذا فتحت قالوا: ياويلهم. و«اقترب»: عطف على «فُتحت».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وحرامٌ ﴾ أي: ممتنع ﴿ على ﴾ أهل ﴿ قريةٍ أهلكناها ﴾؛ قدرنا هلاكها، أو حكمنا بإهلاكها؛ لعتوهم، ﴿ أنهم إلينا لا يَرجعون ﴾ بالبعث والحشر، بل لابد من بعثهم وحشرهم وجزائهم على أعمالهم. وتخصيص امتناع عدم رجوعهم بالذكر مع شمول الامتناع للكل؛ لقوله: ﴿كُلٌّ إلينا راجعون﴾؛ لأنهم المنكِرون للبعث والرجوع دون غيرهم. وقيل: المعنى: وممتنع على قرية، أردنا إهلاكها، رجوعهم إلى التوبة، أو ممتنع على قرية، أهلكناها بالفعل، رجوعهم إلى الدنيا. وفيه رد على مذهب القائلين بالرجعة من الروافض وأهل التناسخ، على أن «لا» صلة. وقُرئ بالكسر(١)، على أنه تعليل لما قبله، فحرام، على هذا، خبر عن مبتدأ محذوف، أي: ذلك العمل الصالح حرام على قرية أردنا إهلاكها؛ لأنهم لا يرجعون عن غيهم.

وقال الزجاج: المعنى: وحرام على قرية، أردنا إهلاكها، أن يُتَقَبَّلَ منهم عمل؛ لأنهم لا يرجعون، أي: لا يتوبون، ويجوز حمل المفتوحة على هذا بحذف اللام، ويستمرون على ما هم عليه من الهلاك، أو: فليستمر امتناعهم من الرجوع.

﴿ حتى إذا فُتحتْ يأجوجُ ومأجوج ﴾ ونُفخ في الصور، وقامت القيامة، فيرجعون، ولا ينفعهم الرجوع. ويأجوج ومأجوج قبيلتان، يقال: الناس عشرة أجزاء، تسعة منها يأجوج ومأجوج. والمراد بفتحها: فتح سدها، على حذف مضاف؛ أي: حتى إذا فُتح سد يأجوج ومأجوج، ﴿ وهم ﴾ أي: يأجوج ومأجوج، وقيل: الناس بعد البعث، ﴿ من كل حَدَب ﴾ أي: نشز ومرتفع من الأرض، ﴿ يَنسِلُونَ ﴾: يسرعون، وأصل النسل: مقاربة الخطو مع الإسراع. ويدل على عَود الضمير ليأجوج ومأجوج: قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «ويفتح ردم يأجوج ومأجوج، فيخرجون على الناس، كما قال الله تعالى: ﴿من كل حدب ينسلون...﴾» الحديث(٢)، ويؤيد إعادته على الناس قراءة مجاهد: «من كل جدث»؛ بالجيم، وهو القبر.

ثم قال تعالى: ﴿ واقتربَ الوعدُ الحقُّ ﴾ أي: ما بعد النفخة الثانية من البعث والحساب، ﴿ فإذا هي شاخصةٌ ﴾ أي: فإذا القصة أو الشأن، وهو ﴿ أبصارُ الذين كفروا ﴾ شاخصة، أي: مرتفعة الأجْفان، لا تكاد تطرق من شدة الهول، حال كونهم يقولون: ﴿ ياويلنا ﴾؛ ياهلكتنا، هذا أوانك، فاحضري، ﴿ قد كُنَّا في غفلة ﴾ تامة ﴿ من هذا ﴾ الذي دهمنا؛ من البعث، والرجوع إليه تعالى، للجزاء، ولم نعلم، حيث نُبِّهْنَا عليه بالآيات والنُّذر، أنه حق، ﴿ بل كنا ظالمين ﴾ بتلك الآيات والنذر، مُكذبين بها، أو ظالمين أنفسنا؛ بتعريضها للعذاب

---

(١) في قوله: «إنهم».
(٢) أخرجه، مطولاً، مسلم، في (الفتن، وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال)، من حديث النواس بن سمعان.

المخلد. وهو إضراب عما قبله، من وصف أنفسهم بالغفلة، أى: لم نكن غافلين عنه، حيث نُبِّهْنَا عليه بالآيات والنذر، بل كنا ظالمين بتكذيبهم، والله تعالى أعلم.

تذييل: روَى حذيفة أن النبى ﷺ قال: «أول الآية: الدَّجال، ونزول عيسى، ونار تخرج من قرن عدن، تسوق الناس إلى المحشر - أى الشام - تقيل معهم إذا قالوا، والدُّخان، والدَّابة، ثم يأجوج ومأجوج»(١). قلت: وبعد موت يأجوج ومأجوج، تبقى مدة عيسى عليه السلام، فى أمنَةٍ ورَغَدِ عَيْشٍ. قيل: سبع سنين، وقيل: أربعون. ثم يُقبض عيسى، ويُدفن فى روضته ﷺ، ثم تهب ريح تقبض المؤمنين، فلا يبقى من يقول الله الله، قيل: مائة سنة، وقيل: أقل، ثم تخرب الكعبة، ثم يُنفخ فى الصور للصعق، واقترب الوعد الحق. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الحضرة محرمة على قلبٍ خراب، أهلكه الله بالوساوس والخواطر، وفتحت عليه من الشواغل والشواغب والخواطر يأجوج ومأجوج، فأفسدته وخربته وجعلته مزبلة للشياطين. فحرام عليه رجوعه إلى الحضرة حتى يتطهر من هذه الوساوس والخواطر، ومن الشواغل والعلائق. قال بعض الصوفية: (حضرة القدوس محرمة على أهل النفوس). فإذا اقترب وعد الحق، وهو أجل موته، قال: ياويلنا إنا كنا عن هذا غافلين، لم نتأهب للقاء رب العالمين، حتى لقيتُه بقلب سقيم. والعياذ بالله.

ثم ذكر مآل الكفرة إذا وقع الوعد الحق، فقال:

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنكم﴾، يا كفار قريش ومن دان دينكم، ﴿وما تعبدون من دون الله﴾ من الأصنام والشياطين؛ لأنهم، لطاعتهم لهم واتباعهم خطواتهم، فى حكم عبادتهم، ويدخل فيه الشمس والقمر والنجوم، وكل ما عُبد من دون الله ممن لا يعقل، للحديث الوارد فى دخولهم النار، تبكيتاً لمن عبدهم؛ لأنهم لا

(١) أخرجه مسلم فى (الفتن، باب الآيات التى تكون قبل قيام الساعة). من حديث حذيفة بن أسيد. ولفظه كاملاً: «إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب، وخسف فى جزيرة العرب، والدخان، والدجال، ودابة الأرض، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ونار تخرج من قعر عدن ترحل الناس».

يتضررون بالنار. وأما من يعقل فلا يدخل؛ حيث عبَّر بما. وقيل: يدخل، ثم استثناه بقوله: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى...﴾، فكل من عبد شيئاً من دون الله فهو معه، ﴿حَصَبُ جهنم﴾ أى: حطبها، وقرئ بالطاء، أى: وقودها ﴿أنتم لها واردون﴾ أى: فيها داخلون.

﴿لو كان هؤلاء آلهةً﴾ كما زعمتم ﴿ما وردوها﴾؛ ما دخلوا النار، ﴿وكلٌّ فيها خالدون﴾ أى: وكل من العابد والمعبود فى النار خالدون. ﴿لهم فيها زفير﴾ أى: للكفار فى النار أنينٌ وبكاء وعويل، ﴿وهم فيها لا يسمعون﴾ شيئاً؛ لأن فى سماع بعضهم بعضاً نوع أُنس. قال ابن مسعود رضي الله عنه: يُجعلون فى توابيت من نار، ثم جعلت التوابيت فى توابيت أُخَر لها مسامير من نار، فلا يسمعون شيئاً.

رُوى أن النبى ﷺ دَخَلَ المَسْجِدَ الحَرام، وَصَنَادِيدُ قُرَيشٍ فِي الحَطِيمِ، وَحَوْلَ الكَعْبَةِ ثلاثمائة وَستون صَنَماً، فَجلَسَ إِلَيْهِمْ، فَعَرَض لَهُ النَّضْرُ بْنُ الحَارِث، فكلَّمهُ النبى ﷺ حَتَّى أَفْحَمَهُ، ثُمَّ تلا عليه وعليهم: ﴿إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم...﴾ الآيات الثلاث. ثم أَقْبَلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزِّبَعْرَى فرآهم يتساهمون، فقال: فيم خوضكم؟ فأخفى الوَلِيدُ ما قاله النبى ﷺ، ثم أخبره بعضهم بما قاله، عليه الصلاة والسلام، فقال ابن الزبعرى للنبى ﷺ: أأنت قلت: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾؟ قال: نعم، قال: قد خصمتك، ورب الكعبة، أَلَيْست اليَهُودُ تعبد عُزَيراً، والنصارى تعبد المَسِيح، وبنو مُلَيْح يعبدون الملائكة؟ فقال النبى ﷺ: «بَلْ هُمْ يَعْبُدُون الشَّيَاطِينَ الَّتى أَمَرَتْهُمْ بهذا، فأنزل الله تعالى: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى..﴾»[(١)].

قلت: كل من عَبَدَ شيئاً من دون الله فإنما عَبَدَ فى الحقيقة الشيطان؛ لأنه أمر به وزينه له، ويدل على ذلك أنهم يتبرؤون يوم القيامة، حين تتحقق الحقائق، من عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ، قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾[(٢)] مع قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾[(٣)]. والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه بنحوه الواحدى فى الأسباب (٤١٣). والطبرانى فى الكبير (١٢/١٥٣ ح ١٢٧٣٩)، عن ابن عباس وأخرجه، مختصراً، الطبرى (١٧/٩٧)، والحاكم فى (التفسير ٢/٣٨٥) وصححه، ووافقه الذهبى.

(٢) الآيتان: ١٧ - ١٨ من سورة الفرقان. (٣) من الآية ٣٨ من سورة العنكبوت.

الإشارة: من أحب شيئاً حُشر معه، من أحب أولياء الله حُشر معهم، ومن أحب الصالحين حُشر معهم، ومن أحب الفجار حُشر معهم، ومن أحب الدنيا بُعث معها، ثم بعث إلى النار، وهكذا.. المرء مع من أحب.

ثم استثنى بذكر حال أهل السعادة، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ أي: الخصلة الحسنى، أو المشيئة الحسنى، وهى السعادة، أو التوفيق للطاعة، أو البُشرى بالثواب، ﴿أولئك عنها﴾: عن جهنم ﴿مبعدون﴾؛ لأنهم فى الجنة، وشتان ما بينهما. قال القشيرى: لم يقل متباعدون؛ ليَعْلَم العابدون أن المدارَ على التقدير وسبق الحكم من الله، لا على تَبَاعُدِ العبد وتَقَرُّبه .هـ. وكأنه يشير لقوله: «هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى»[1]، أى: بأعمالهم.

﴿لا يسمعون حَسِيسَهَا﴾ أى: صوتها الذى يحس، وحركة تلهبها، وهذه مبالغة فى الإبعاد، أى: لا يقربوها حتى لا يسمعوا صوتها أو صوت من فيها. قال الكواشي: لا يسمعون صوت النار وحركة تلهبها إذا نزلوا منازلهم من الجنة .هـ. وقال ابن عطية: وذلك بعد دخولهم الجنة؛ لأن الحديث يقتضى أن فى الموقف تزفر جهنم زفرة لا يبقى نبى ولا ملك إلا خرَّ على ركبتيه. هـ. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى: محمل الحديث، إن صح فى حق الأنبياء والأكابر، على شهود الجلال والإجلال لله تعالى، ولذلك يقولون: «نفسى نفسى»، لا من خوف النار.هـ.

قلت: أما كون الناس يُصعقون يوم القيامة، فيكون المصطفى أول من يفيق، فثابت فى الصحيح، أما سبب الصعقة فقد ورد فى غير البخارى: «أنه يُؤتى بجهنم، ولها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها، ثم تزفر زفرة، فلا يبقى نبى ولا ملك إلا خرّ»[2] ... الحديث، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَجِيٓءَ يَوْمَئِذٍ

---

(١) بعض حديث، أخرجه الإمام أحمد فى المسند (١٨٦/٤) والحاكم فى المستدرك (٣١/١)، وابن حبان (١٨٠٦ موارد)، عن عبد الرحمن بن قتادة السلمى. والحديث، صححه الحاكم، ووافقه الذهبى.

(٢) أخرجه، بدون العبارة الأخيرة، مسلم فى (الجنة وصفه نعيمها، باب فى شدة حر نار جهنم..) من حديث ابن مسعود رضى الله عنه.

بِجَهَنَّمَ ﴾[١] والأنبياء ـ عليهم السلام ـ بَشَر عبيد، قد تعمهم القهرية، ولا تقدح في منصبهم، وليس صعقهم خوفاً، لكن غلبة ودهشًا، كما صعق موسى ـعَلَيْهِ السَّلَامُ عند الرؤية، ونبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين تجلى له جبريل على صورته. والله أعلم. وقال جعفر الصادق: وكيف يسمعون حسيسها، والنار تخمد بمطالعتهم، وتتلاشى برؤيتهم؟ ثم ذكر حديث قول النار للمؤمن: جُز.. إلخ

ويدل على أن هذه الحالة إنما هي بعد دخولهم الجنة، قوله تعالى: ﴿ وهم فيما اشتهت أنفُسُهُم ﴾ من النعيم ﴿ خالدون ﴾ : دائمون، والشهوة: طلب النفس للذة. وهو بيان لفوزهم بالمطالب، إثر بيان خلاصهم من المهالك والمعاطب، أي: دائمون في غاية التنعم، ﴿ لا يحزنهم الفزعُ الأكبر ﴾ ، وهو القيام من القبور عند صيحة البعث، بدليل قوله: ﴿ وتتلقاهم الملائكةُ ﴾ . قال ابن عباس: «تتلقاهم الملائكة بالرحمة، عند خروجهم من القبور»، قائلين: ﴿ هذا يومُكم الذي كنتم تُوعدون ﴾ بالكرامة والثواب، والنعيم المقيم فيه، أي: بعد دخولكم الجنة.

وقال الحسن: الفزع الأكبر: الانصراف إلى النار. وعن الضحاك: حين يُطبق على أهل النار. وقيل: حين نفخة الصعق، وقيل: حين يُذبح الموت. قلت: من سبقت له الحسنى ينجو من جميعها. وقيل: تتلقاهم الملائكة على أبواب الجنة، مُهنئين لهم قائلين: (هذا يومكم الذى كنتم توعدون) في الدنيا، ويُبشرون بما فيه من فنون المثوبات على الإيمان والطاعات. وهذا، كما ترى، صريح في أن المراد بالذين سبقت لهم الحسنى: كافةُ المؤمنين الموصوفين بالإيمان والأعمال الصالحة، لا من ذكر؛ من المسيح، وعُزير، والملائكة، كما قيل. قاله أبو السعود، قلت: وقد يجاب بأنها نزلت في شأنهم وتعم غيرهم؛ لأن سبب النزول لا يخصص. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال الجنيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ أي: سبقت لهم منا العناية في البداية، فظهرت لهم الولاية في النهاية. هـ. (أولئك عنها) أي: عن نار القطيعة، وهي أغيار الدنيا، مُبعدون، لا يسمعون حسيسها، ولا ما يقع فيها من الهرج والفتن، لغيبتهم عنها بالكلية في الشغل بالله تعالى، فهم فيما اشتهت أنفسهم؛ من لذة الشهود، والقُرب من الملك الودود، خالدون دائمون، لا يحزنهم الفزع الأكبر في الدنيا والآخرة، وتتلقاهم الملائكة بالبُشرى بالوصول، هذا يومكم الذى كنتم توعدون، وهو يوم ملاقاة الحبيب والعكوف في حضرة القريب، عند مليك مقتدر. منحنا الله من ذلك الحظ الأوفر بمنّه وكرمه.

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة الفجر.

ثم ذكر أوصاف ذلك اليوم، فقال:

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) ﴾

قلت: «يوم»: ظرف لاذكر، أو لقوله: «لا يحزنهم الفزع»، أو لتتلقاهم. والسجل: الصحيفة، والكتاب: مصدر، و«كما بدأنا»: منصوب بمضمر، يُفسره ما بعده، و«ما»: موصولة.

يقول الحق جل جلاله: واذكر ﴿يوم نَطْوِى السماءَ﴾؛ وذلك يوم الحشر والناس فى الموقف، فتجمع وتُكَوَّر وتُطوى ﴿كطَيِّ السِّجِلِّ﴾؛ الصحيفة ﴿للكتاب﴾ أى: لأجل الكتابة فيها؛ لأن الكاتب يطوى الصحيفة على اثنين؛ ليكتب فيها. فاللام للتعليل، أو بمعنى «على»، أى: كطى الصحيفة على الكتابة التى فيها، لتُصان، وقرأ أبو جعفر: «تُطوى»؛ بالبناء للمفعول. وذلك بمحو رسومها وتكوير نجومها وشمسها وقمرها. وأصل الطى: الدرج، الذى هو ضد النشر. وقرأ الأخوان وحفص: (للكتُبِ) بالجمع، أى: للمكتوبات، أى: كطى الصحيفة؛ لأجل المعانى الكثيرة التى تكتب فيها، أو كطيها عليها؛ لتُصان. فالكتاب أصله مصدر، كالبناء، ثم يوقع على المكتوب. **وقيل**: السجل: ملك يطوى كتب ابن آدم، إذا رفعت إليه، فالكتاب، على هذا، اسم للصحيفة المكتوب فيها، والطى مضاف إلى الفاعل، وعلى الأول: إلى المفعول.

﴿كما بدأنا أول خَلقٍ نُعيده﴾ أى: نعيد ما خلقنا حين نبعثهم، كما بدأناهم أول مرة، فالتنوين فى ﴿خَلقٍ﴾ مثله فى قولك: أول رجل جاءنى، تريد أول الرجال. والتقدير: كما بدأنا أول الخلائق، نعيدهم حفاةً عراة غُرلاً. قال ﷺ: «إنَّكُمْ تُحْشَرُونَ يَوْمَ القيامَة حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً. وأول مَنْ يُكْسَى إبْرَاهِيمُ خَلِيلُ الله»[1]، أى: لأنه جرد فى ذات الله، فقالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ: واسوءتاه! فلا يحتشم الناس بعضهم من بعض؟ فقال: «لكل امرئ منهم يومئذ شأن يُغنيه»[2]. ثم قرأ ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾.

---

(١) أخرجه البخارى فى (أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: «واتخذ الله إبراهيم خليلاً») ومسلم فى (الجنة وصفه نعيمها، باب فناء الدنيا)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) هذا ليس من الحديث السابق. بل هو حديث آخر، أخرجه مسلم فى الموضع السابق، عن السيدة عائشة، بلفظ: «يُحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً، قلت: يارسول الله؛ النساء والرجال جميعاً، ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «ياعائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض».

كما بدأناه من الماء نعيده كيوم ولدته أمه. قلت: قد استدل بعضهم، بظاهر الآية والحديث، أن أهل الجنة ليس لهم أسنان، ولا دليل فيه؛ لأن المقصود من الآية: الاستدلال على كمال قدرته تعالى، وعلى البعث الذى تُنكره الكفرة، لا بيان الهيئة، وعدمُ وجودها نقصان، ولا نقص فى الجنة.

ثم أكد الإعادة بقوله: ﴿ وعداً علينا ﴾ أى: نُعيده وعداً، فهو مصدر مؤكد لغير فعله؛ بل لِماَ فى «نعيده» من معنى العِدة، أى: وعدنا ذلك وعداً واجباً علينا إنجازه؛ لأنا لا نُخلف الميعاد، ﴿ إنا كنا فاعلين ﴾ لما ذكرنا لا محالة، فاستعدوا له، وقدّموا صالح الأعمال للخلاص من هذه الأهوال. وبالله التوفيق.

الإشارة: إذا أشرقت على القلب شموسُ العرفان، انطوت عن مشهده وجودُ الأكوان، وأفضى إلى فضاء العيان، فلا سماء تظله ولا أرض تحمله، وفى ذلك يقول الششترى رضي الله عنه:

لقد تجلى ما كان مخبى والكوْن كلُّ طويت طىْ

وهذا غاية من سبقت له من الله الحسنى، فأشرقت عليه أنوار التوجه فى البداية، وأنوار المواجهة فى النهاية، فزاحت عنه الأكوان، وفاضت عليه بحار أسرار العرفان، فصار يتصرف بهمته فى الوجود بأسره، كما قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد كتبنا في الزَّبور ﴾ كتاب داود عليه السلام، ﴿ من بعْد الذكْر ﴾: التوراة، أو اللوح المحفوظ، ﴿ أنَّ الأرض ﴾ أى: جنس الأرض، يعنى: مشارقها ومغاربها، ﴿ يرثُها عبادي الصالحون ﴾ وهم أمة نبينا محمد ﷺ، ففى الآية ثناء عليهم وبشارة لهم، وإخبار بظهور غيب تحقق ظهوره فى الوجود؛ مِن فَتْح الله على هذه الأمة مشارقَ الأرض ومغاربها، كقوله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾[1]. وقال القشيرى: على قوله: ﴿عبادى الصالحون﴾: هم أمة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهم بجملتهم قوم صالحون لنعمته، وهم المطيعون، وآخرون صالحون لرحمته وهم العاصون.هـ.

قال فى الحاشية الفاسية: والظاهر أن حديث: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله»، مفسر للآية، وموافق لوعدها. قيل: وهذه الطائفة مُفْتَرَقَةٌ من أنواع المؤمنين، ممن فيه عائدة على الدين ونفع له؛ من شجعان مقاتلين، وفقهاء ومحدِّثين، وزهاد وصالحين، وناهين وآمرين

(١) من الآية ٥٥ من سورة النور.

بالمعروف.هـ. قلت: وعارفين متمكنين، علماء بالله ربانيين. ثم قال: وغير ذلك من أنواع أهل الحسنى، ولا يلزم اجتماعهم، بل يكونون متفرقين فى أقطار. هـ. قلت: وفيه نظر؛ لأن مراد الآية الأمة كلها، كما قال القشيرى، ومراد الحديث بعضها، فلا يليق أن يكون تفسيراً لها، وهى أعم منه. وقيل: المراد بالأرض: أرض الشام، وقيل: أرض الجنة.

ثم قال تعالى: ﴿ إنَّ في هذا ﴾ أى: ما ذكر فى السورة الكريمة من الأخبار والمواعظ البالغة، والوعد والوعيد، والبراهين القاطعة الدالة على التوحيد وصحة النبوة، ﴿ لبلاغًا ﴾ أى: كفاية، أو سبب بلوغ إلى البغية، من رضوان الله تعالى، ومحبته، وجزيل ثوابه، فمن تبع القرآن وعمل به، وصل إلى ما يرجو من الثواب العظيم، فالقرآن زادُ الجنة كبلاغ المسافر، فهو بلاغ وزاد ﴿ لقومٍ عابدين ﴾ أى: لقوم همتُهم العبادة دون العادة. وبالله التوفيق.

الإشارة: قد أورث الله أرضه وبلاده لأهل التوجه إلى الله، والإقبال عليه. فوراثة كل أحد على قدر توجهه وإقباله على مولاه. والمراد بالوراثة: التصرف بالهمة ونفوذ الكلمة فى صلاح الدين وهداية المخلوقين، وهم على قسمين: قسم يتصرف فى ظواهر الخلق بإصلاح ظواهرهم، وهم العلماء الأتقياء، فهم يُبلغون الشرائع والأحكام، لإصلاح نظام الإسلام، وقد تقدم تفصيلهم في سورة التوبة عند قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ... ﴾[1] إلخ، وقسم يتصرفون فى بواطنهم؛ وهم أهل التصرف العارفون بالله، على اختلاف مراتبهم؛ من غوث وأقطاب وأوتاد، وأبدال، ونجباء، ونقباء، وصالحين، وشيوخ مربين، فهم يُعالجون بواطن الناس بالتربية بالهمة والحال والمقال، حتى يتطهر مَنْ يصحبهم من الرذائل، ويتحلي بأنواع الفضائل، فيتأهل لحضرة القدس ومحل الأنس. وهؤلاء حازوا الوراثة النبوية كلها، كما قال ابن البنا فى مباحثه:

تَبِعَـــه العَـــالِمِ فى الأقـــوال والعـــابـدِ الزاهـدِ فى الأفـــعـال
وبهـمـا الصـوفى فى السـبـاق لكنـــه قـــد زاد بالأخـــلاق .

ثم ختم ذكر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بذكر سيد الوجود، وعين الرحمة، ومنبع الكرم والجود، وهو نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ

(١) الآية ١٢٢ من سورة التوبة.

مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

قلت: ﴿رحمة﴾: مفعول لأجله، أو حال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **وما أرسلناك** ﴾ يا محمد ﴿ **إلا رحمةً للعالمين** ﴾ أي: ما أرسلناك بما ذكر من الشرائع والأحكام، وغير ذلك؛ مما هو مناط سعادة الدارين، لعلة من العلل، إلا لرحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة. أو ما أرسلناك فى حال من الأحوال، إلا حال كونك رحمة لهم، فإن ما بُعثتَ به سببٌ لسعادة الدارين، ومنشأ لانتظام مصالحهم فى النشأتين، ومن لم يضرب له فى هذه المغانم بسهم فإنما أُوتى من قِبل نفسه، حيث فرط فى اتباعه، وقيل: إنه رحمة حتى فى حق الكفار فى الدنيا؛ بتأخير عذاب الاستئصال، والأمن من المسخ والخسف والغرق، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾(١).

﴿ **قل إنما يوحى إليّ أنما إلهكم إلهٌ واحد** ﴾ أي: ما يوحى إليّ إلا أنه لا إله لكم إلا إله واحد؛ لأنه المقصود الأصلى من البعثة، وأما ما عداه فإنما هو من الأحكام المتفرعة عليه، لا يصح بدونه. و «إنما» الأولى: لقصر الحكم على الشيء، كقولك: إنما يقوم زيد، والثانية: لقصر الشيء على الحكم، كقولك: إنما زيد قائم، أى: إنما يُوحى إليّ وحدى أنما إلهكم واحد. ﴿ **فهل أنتم مسلمون** ﴾ أي: مخلصون العبادة لله وحده، أو منقادون لِمَا أمركم به من الإسلام؟ والاستفهام بمعنى الأمر، أي: أسلموا. ﴿ **فإن تولوا** ﴾ عن الإسلام، ولم يلتفتوا إلى ما يوجبه من استماع الوحى، ﴿ **فقل آذنتُكم** ﴾ أي: أعلمتكم ما أُمرت به، أو بمحاربتى لكم ومخالفتى لدينكم، لتكونوا ﴿ **على سواءٍ** ﴾، أو كائنين على سواء فى الإعلام به، لم أطوه عن أحد منكم، أو مستوين أنا وأنتم فى العلم بما أعلمتكم به من الشرائع، لم أظهر بعضكم على شيء كتمته عن غيره. وفيه دليل بطلان مذهب الباطنية. قيل: وهذه من فصاحة القرآن وبلاغته.

﴿ **وإنْ أدْرِى** ﴾ أى: ما أدرى ﴿ **أقريبٌ أم بعيدٌ ما تُوعدون** ﴾ من البعث والحساب متى يكون؛ لأن الله تعالى لم يُطلعنى عليه، ولكن أنبأنى أنه آت لا محالة، وكل آت قريب. ولذلك قال: ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾(٢)، أو: لا أدرى متى يحل بكم العذاب، أو ما توعدون من إظهار المسلمين وظهور الدين، ﴿ **إنه يعلم الجهرَ من القول ويعلم ما تكتمون** ﴾ أي: إنه عالم بكل شيء، يعلم ما تجهرون به؛ من الطعن فى الإسلام وتكذيب الآيات، وما تكتمونه فى صدوركم من الأحقاد للمسلمين، فيجازيكم عليه نقيراً وقطميرا. ﴿ **وإنْ أدري**

---

(١) الآية ٣٣ من سورة الأنفال.	(٢) من الآية ٩٧ من سورة الأنبياء.

لعله فتنةٌ لكم ﴾ أي: ما أدرى لعل تأخير العذاب عنكم في الدنيا امتحان لكم؛ لينظر كيف تعملون، أو استدراج لكم، وزيادة في افتتانكم، ﴿ ومتاعٌ إلى حين ﴾ أي: تمتع لكم إلى حين موتكم؛ ليكون حجة عليكم، أو إلى أجل مقدر تقتضيه المشيئة المبنية على الحِكَم البالغة.

﴿ قل[1] ربِّ احكُم بالحق ﴾ أي: اقض بيننا وبين كفار مكة بالعدل، المقتضى لتعجيل العذاب. فهو كقول شعيب عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾[2]، أو بما يحق عليهم من العذاب، واشدد عليهم، كقوله ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وطأَتَكَ عَلَى مُضَرَ»[3]، وقد استجيب دعاؤه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حيث عُذبوا ببدر أيَّ تعذيب. وقرأ الكسائي وحفص: ﴿ قال ﴾؛ حكاية لدعائه ﷺ. ثم استعان بالله على إبطال ما كانوا يؤملون من النصرة لهم، وتكذيبهم في ذلك، فقال: ﴿ وربُّنا الرحمنُ ﴾؛ كثير الرحمة على عباده، ﴿ المستعان على ما تصفون ﴾ من كون الغلبة لكم. كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه، وكانوا يطمعون أن تكون الشوكة والغلبة لهم، فكذب الله ظنونهم، وخيّب آمالهم، وغيّر أحوالهم، ونصر رسوله ﷺ عليهم، وخذلهم؛ لكفرهم. وبالله التوفيق.

الإشارة: قال الشيخ أبو العباس المرسى رضي الله عنه: الأنبياء ـ عليهم السلام ـ خُلقوا من الرحمة، ونبينا ﷺ هو عين الرحمة، قال تعالى: ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .هـ. وقال أيضاً: الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لأممهم صدقة، ونبينا ﷺ لنا هدية. قال ﷺ: «وأنا النعمة المهداة». فالصدقة للفقراء، والهدية للكبراء. ثم إن غاية الرحمة: الوصول إلى التوحيد الخاص؛ لأنه سبب الزلفى من الله والاختصاص، ولذلك أمره به، بعد أن جعله رحمة، فقال: ﴿قل إنما يُوحى إليَّ أنما إلهكم إله واحد ...﴾ إلخ. فمن أعرض عنه فقد أوذن بالبُعد والطرد. ولعل تأخير العقوبة عنه، في الدنيا، استدراج ومتاع إلى حين.

ثم إن الصارف عن الدخول إلى التوحيد الخاص ـ وهو توحيد العيان ـ: القواطع الأربع: النفس، والشيطان، والدنيا، والهوى. زاد بعضهم: الناس ـ أي: عوام الناس، فإذا حكم الله بين العبد وبين هذه القواطع، وصل إلى صريح المعرفة. ﴿قل ربِّ احكم بالحق﴾؛ أي: احكم بيني وبين عدوي بحكمك الحق، حتى تدفعه عني وتدمغه، ﴿وربنا الرحمن المستعان﴾ به ﴿على ما تصفون﴾ من التعويق والتشغيب. والله المستعان، وعليه أتوكل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

● ● ●

(١) قرأ حفص (قال) بصيغة الماضي ـ وقرأ الباقون (قل). انظر الإتحاف (٢/٢٦٨).
(٢) من الآية ٨٩ من سورة الأعراف.
(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري في (الدعوات، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة)، ومسلم في (المساجد، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة) عن أبي هريرة رضي الله عنه.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



سورة الحج

مكية إلا ست آيات نزلت بالمدينة، وهي: ﴿هذان خصمان...﴾ إلى: ﴿صراط الحميد﴾. وهي ثمان وسبعون آية. ومناسبتها لِمَا قبلها: قوله: ﴿ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾(١) من قيام الساعة، وهي التي خوّف بها في قوله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾

قلت: زلزلة: مصدر مضاف إلى فاعله على المجاز، أو إلى الظرف، وهي الساعة. و(يوم): منصوب بتذهل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾، الخطاب عام لجميع المكلفين ممن وُجد عند النزول، وينخرط في سلكهم من سيوجد إلى يوم القيامة. ولفظ «الناس» يشمل الذكور والإناث. والمأمور به مطلق التقوى، الذي هو امتثال الأوامر واجتناب النواهي ظاهراً وباطناً، والتعرض لعنوان الربوبية، مع إضافتها لضمير المخاطبين؛ لتأكيد الأمر، وتأكيد إيجاب الامتثال به؛ لأن الربوبية دائمة، والعبودية واجبة بدوامها، أي: احذوروا عقوبة مالك أموركم ومربيكم.

ثم علل وجوب التقوى بذكر بعض عقوبته الهائلة عند قيام الساعة، فقال: ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾، فإن ملاحظة عظمها وهولها وفظاعة ما هي من مبادئه ومقدماته، مما يوجب مزيد اعتناء بملابسة التقوى والتدرع بها. والزلزلة: التحرك الشديد والإزعاج العنيف، بطريق التكرير، بحيث تزيل الأشياء من مقارها، وتخرجها عن مراكزها، وهي الزلزلة المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ الآية(٢). واختُلِفَ في هذه الزلزلة وما ذكر بعدها، هل هي قيام الساعة عند نفخة الصعق، أو بعدها عند الحشر؟ فقال الحسن رضي الله عنه: إنها تكون يوم القيامة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: زلزلة الساعة: قيامها. وعن علقمة والشعبي: أنها قبل طلوع الشمس من مغربها، فإضافتها إلى الساعة؛ لكونها من أشراطها. قال الكواشي: وهذه الزلزلة تكون قبل قيام الساعة

(١) من الآية ١٠٩ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية الأولى من سورة الزلزلة.

من أشراطها. قالوا: ومن أشراط الساعة، قبل قيامها، ست آيات: بينما الناس فى أسواقهم، إذ ذهب ضوء الشمس، ثم تناثرت النجوم، ثم وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحركت واضطربت الأرض، ففزع الإنسُ والجن، وماج بعض فى بعض؛ خوفا ودهشاً، فقالت الجنُ للإنس : نحن نأتيكم بالخبر، فذهبوا، فرأوا البحار تأَجَّجُ ناراً، فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض إلى الأرض السابعة، ثم جاءتهم الريح فماتوا. هـ.وانظر ابن عطية. قاله المحشى. والتحقيق: ما قدمناه عند قوله: ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾[1]، وأنّ الريح إنما تقبض أرواح المؤمنين، وهذه الزلزلة إنما تقع عند نفخة الصعق. والله تعالى أعلم. وفى التعبير بـ(شيء عظيم) إيذان بأن العقول قاصرة عن إدراك كنهها، والعبارة ضيقة، لا تحيط بها إلا على وجه الإبهام

ثم هوّل شأنها، فقال: ﴿ يوم ترونها ﴾ أى: الزلزلة، وتُشاهدون هول مطلِعها، ﴿ تذهل كل مرضعة ﴾ أى: مباشرة للإرضاع، ﴿ عما أرضعت ﴾ أى: تغفل وتغيب، من شدة الدهش عما هى بصدد إرضاعه من طفلها، الذى ألقمته ثديها. فالمرضعة، بالتاء، هى المباشرة الإرضاع بالفعل، والمرضع ـ بلا تاء ـ لمن شأنها ترضع، ولو لم تباشر الإرضاع. والتعبير عنه «بما»، دون «من»؛ لتأكيد الذهول، كأنها من شدة الهول لاتدرى من هو بخصوصه، وقيل: «ما» مصدرية، أى: تذهل عن إرضاعها. والأول أدل على شدة الهول وكمال الانزعاج.

﴿ وتضع كل ذات حمل حِملها ﴾ أى: تلقى جنينها من غير تمام، كما أن المرضعة تذهل عن ولدها قبل الفطام. وهذا على قول من يقول: إنها قبل نفخة الصعق ظاهر، وأما على من يقول، إنها بعد قيام الساعة، فقد قيل: إنه تمثيل؛ لتهويل الأمر وشدته. ﴿ وترى الناس سُكارى ﴾ أى: وترى أيها الناظر الناس سكارى، على التشبيه، من شدة الهول، كأنهم سكارى لمّا شاهدوا بساط العزة وسلطنة القهرية، حتى قال كلُ نبى: نفسى نفسى. ﴿ وما هم بسُكارى ﴾ على التحقيق، ﴿ ولكنَّ عذاب الله شديد ﴾، فخوف عذابه هو الذى أذهل عقولهم، وطيّر تمييزهم، وردهم فى حال من يَذهب السكرُ بعقله وتمييزه. وعن الحسن: وترى الناس سكارى من الخوف، وما هم بسكارى من الشراب. وقرئ: (سكْرى)؛ كعطشى. والمعنى واحد، غير أن فعْلى يختص بما فيه آفة، كجرحى وقتلى ومرضى. والله تعالى أعلم

الإشارة: يا أيها الناس اتقوا ربكم وتوجهوا إليه بكليتكم، حتى تُشرق على قلوبكم أنوار ربكم، فتزلزل أرض نفوسكم، وتدك جبال عقولكم، عند سطوع شمس العرفان، والاستشراف على مقام الإحسان. إن زلزلة الساعة، التى تشرف فيها على أسرار الذات، شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، لو كانت أنثى،

(١) الآية ٩٧ من سورة الأنبياء.

وتضع كل ذات حمل حملها كذلك، أو تضع كل ذات حمل أثقالها؛ بالغيبة فى ربها، وترى الناس سكارى من خمر المحبة، وما هم بسكارى من شراب الدَّوالى[1]، لكن من خمر الكبير المتعالى، كما قال الشُشترى فى الخمرة الأزلية ـ بعد كلام:

لاَ شَرَابَ الدَّوالِي؛ إنَّهــا أرْضِيَّة خَمْرُهَا دُون خَمْرِى، خَمْرَتِي أَزَلِيَّة.

ولكن عذاب الله ـ الذى قدمه قبل دخول جنته المعنوية وحفت به، وهى جنه المعارف ـ شديد، ولكنه يحلو فى جانب ما ينال بعده، كما قال الشاعر:

والنَّفْسُ عَزَّتْ، ولكنْ فيكَ أَبْذُلُهَا والذُّلُّ مرٌّ، ولكن فى رضاكَ حَلاَ

يا من عذابى عَـذْبٌ فى محبته لاأشــتكى منك لاصدًا ولا مللا.

ثم ذكر حال من أنكرها، [2] ولم يتأهب للقائها، فقال:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤ ﴾

قلت: (ومن الناس): خبر، و(من يجادل): مبتدأ، و(بغير علم): حال من ضمير «يُجادل»، و(أنه): نائب فاعل (كُتب)، أى: كتب عليه إضلال من تولاه، و(فأنه): من فتح: عنده خبر عن مبتدأ مضمر، أى: فشأنه أن يضله، والجملة جواب «مَن»، إن جعلتها شرطية، وخبر، إنْ جعلتها موصولة متضمنة لمعنى الشرط، ومن كسر: فخبر، أو جواب «مَن».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن الناس من يُجادل﴾ ويخاصم ﴿في الله﴾ أى: فى شأنه، ويقول مالا يليق بجلال كبريائه وكمال قدرته، ملابساً ﴿بغير علم﴾، بل بجهل عظيم حمله على ما فعل. نزلت فى النضر ابن الحارث، وكان جَدِلاً، يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، ولا بعث بعد الموت، والله غير قادر على إحياء من بَلِى وصار رميما[3]. وهى عامة له ولأضرابه من العتاة المتمردين، وكل من يخاصم فى الدين بالهوى. ﴿ويتَّبعُ﴾ فى ذلك ﴿كلَّ شيطان مَرِيد﴾؛ عاتٍ متمرد، مستمر فى الشر. قال الزجاج: المريد والمارد: المرتفع الأملس، أى: الذى لا يتعلق به شىء من الخير، والمراد: إما رؤساء الكفرة الذين يدعونهم إلى الكفر، وإما إبليس وجنوده.

---

(١) أى : العنب. وراجع التعليق على إشارة الآية ٢١٩ من سورة البقرة. (٢) أى : الساعة.

(٣) ذكره البغوى فى تفسيره (٥/٣٦٥).

ثم وصف الشيطان المريد بقوله: ﴿ كُتِبَ عليـه ﴾ أي: قضى على ذلك الشيطان ﴿ أنه ﴾ أي : الأمر والشأن ﴿ من تولاه ﴾ أي: اتخذه وليًا وتبعه، ﴿ فأنه ﴾ أي: الشيطان ﴿ يُضِلُّه ﴾ عن سواء السبيل، ﴿ ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ أي: النار. والعياذ بالله.

الإشارة: ومِن الناس من تنكبت عنه سابقةُ الخصوصية، فجعل يجادل في طريق الله، وينكر على المتوجهين إلى الله، إذا خرقوا عوائد أنفسهم، وسدَّ الباب في وجوه عباد الله، فيقول: انقطعت التربية النبوية، وذلك منه بلا علمِ تحقيقٍ ولا حجةٍ ولا برهان، وإنما يتبع في ذلك كلَّ شيطانٍ مريد، سوَّل له ذلك وتبعه فيه. كُتب عليه أنه من تولاه، وتبعه في ذلك، فأنه يُضله عن طريق الخصوص، الذين فازوا بمشاهدة المحبوب، ويهديه إلى عذاب السعير، وهو غم الحجاب والحصر في سجن الأكوان، وفي أسر نفسه وهيكل ذاته، عائذاً بالله من ذلك.

ثم برهن على قيام الساعة، التي خوَّفَ منها، ورد من يجادل فيها، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث ﴾ أي: إن شككتم في أمر البعث، فمُزيل ريبكم أن تنظروا في بدء خلقكم، وقد كنتم في الابتداء تُراباً وماء، وليس سبب إنكاركم البعث إلا هذا، وهو صيرورة الخلق ترابًا وماء، فكما بدأكم منه يعيدكم منه، كما قال تعالى: ﴿ فإنا خلقناكم ﴾ أي: أباكم ﴿ من تراب، ثم ﴾ خلقناكم ﴿ من نطفة ثم من علقة ﴾ أي: قطعة دم جامدة، ﴿ ثم من مضغة ﴾ أي: لحمة صغيرة، بقدر ما يمضغ، ﴿ مُخلَّقة ﴾ أي: مصورة الخلقة، ﴿ وغيرِ مُخلَّقة ﴾ أي: لم يتبين خلقها وصورتها بعدُ.

والمراد: تفصيل حال المضغة؛ من كونها أولاً مضغة، لم يظهر فيها شيء من الأعضاء، ثم ظهرت بعد ذلك شيئاً فشيئا. وكان مقتضى الترتيب أن يُقدم غيرالمخلقة على المخلقة، وإنما أُخرت عنها؛ لأنها عدم الملكة، والملكة أشرف من العدم.

وإنما فعلنا ذلك؛ ﴿ لنُبيِّنَ لكم ﴾ ، بهذا التدريج، كمال قدرتنا وحكمتنا؛ لأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً، ثم من نطفة ثانياً، وقدر على أن يجعل النطفةَ علقةً، والعلقة مضغة، والمضغة عظاماً، قدر على إعادة ما بدأ، بل هو أهون في القياس ﴿ ونُقِرُّ ﴾ أي: نثبت ﴿ في الأرحام ما نشاء ﴾ ثبوته ﴿ إلى أجل مسمى ﴾: وقت الولادة، ومالم نشأ ثبوته أسقطته الأرحام. ﴿ ثم نُخرجُكم ﴾ من الرحم ﴿ طفلاً ﴾ ، أي: حال كونكم أطفالاً. والإفراد باعتبار كل واحد منهم، أو بإرادة الجنس، ﴿ ثم لتبلغوا أشدَّكم ﴾ أي: ثم نربيكم؛ لتبلغوا كمال عقلكم وقوتكم. والأشد: من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل له واحد. ووقته: قيل: ثلاثون سنة، وقيل: أربعون.

﴿ ومنكم من يُتوفى ﴾ قبل بلوغ الأشد أو بعده، ﴿ ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العُمُر ﴾ أي: أخسه، وهو الهرَمُ والخرف، ﴿ لكيلا يعلمَ من بعد علم شيئاً ﴾ أي: لكيلا يعلم شيئاً من بعد ما كان يعلمه من العلوم، مبالغة في انتقاص علِمه، وانتكاس حاله، أي: ليعود إلى: ما كان عليه في أوان الطفولية، من ضعف البنية، وسخافة العقل، وقلة الفهم، فينسى ما علمه، وينكر ما عرفه، ويعجز عما قدر عليه. قال ابن عباس: من قرأ القرآن، وعمل به، لا يلحقه أرذل العمر. ثم ذكر دليلاً آخر على البعث، فقال: ﴿ وترى الأرضَ هامدةً ﴾ : ميته يابسة، ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت ﴾ ؛ تحركت بالنبات ﴿ وربَتْ ﴾ ؛ انتفخت ﴿ وأنبتتْ من كل زوج ﴾: صنف ﴿ بهيج ﴾ : حسن رائق يسر ناظره.

﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ أي: ذلك الذي ذكرنا؛ من خلق بني آدم، وإحياء الأرض، مع ما في تضاعيف ذلك من أصناف الحِكَم، حاصل بهذا، وهو أن الله هو الحق، أي: الثابت الوجود. هكذا للزمخشري ومن تبعه، وقال ابن جُزَي: والظاهر: أن الباء ليست سببية، كما قال الزمخشري، وهو أيضا مقتضى تفسير ابن عطية، وإنما يُقدر لها فعل يتعلق به ويقتضيه المعنى، وذلك أن يكون التقدير: ذلك الذي تقدم من خلق الإنسان والنبات، شاهد بأن الله هو الحق، وبأنه يحيي الموتى ،وبأن الساعة آتية، فيصح عطف ﴿ وأن الساعة ﴾ على ما قبله، بهذا التقدير، وتكون هذه الأشياء المذكورة، بعد قوله: (ذلك) ، مما استدل عليه بخلقة الإنسان والنبات. هـ.

قال المحشي الفاسي: ويرد عليه: أن تقديره عاملاً خاصاً يمنع حذفه، وإنما يحذف إذا كان كوناً مُطلقاً، فلا يقال: زيد في الدار، وتريد ضاحكٌ مثلا، إلا أن يقال في الآية: دل عليه السياق، فكأنه مذكور. وعند الكواشي:

ليعلموا بأن الله هو الحق. وقال القرطبي: قوله: ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾، لمّا ذِكر افتقار الموجودات إليه، وتسخيرها على وفق اقتداره واختياره، قال بعد ذلك: ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾، نبه بهذا على أن كل ما سواه، وإن كان موجوداً؛ فإنه لاحقيقة له من نفسه؛ لأنه مسخر ومُصَرَّفٌ، والحق الحقيقي هو الموجود المطلق، الغني المطلق، وإنَّ وجود كل موجود من وجوب وجوده، ولهذا قال في آخر السورة: ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾(١)، والحق هو الوجود الثابت، الذي لا يزول ولا يتغير، وهو الله تعالى. ثم قال عن الزجاج: (ذلك) في موضع رفع، أي : الأمر ما وُصِفَ لكم وبُيِّن؛ لأن الله تعالى هو الحق، ويجوز كونه في مَوْضِعِ نصب، أي: فعل ذلك بأن الله هو الحق، قادر على ما أراد. هـ.

وذلك أيضا شاهد بأنه ﴿ يُحيي الموتى ﴾ كما أحيا الأرض، مرة بعد أخرى، ﴿ وأنه على كل شيء قدير ﴾ أي: مبالغ في القدرة، وإلاَّ لَمَا أوجد هذه الموجودات الفائتة الحصر. وتخصيص إحياء الموتى بالذكر، مع كونه من جملة الأشياء المقدور عليها؛ للتصريح بمافيه النزاع، وللطعن في نحور المنكرين. ﴿ وأنَّ الساعة آتيةٌ ﴾ : قادمة عليكم، ﴿ لاريبَ فيها ﴾ ، وإيثار اسم الفاعل على الفعل؛ للدلالة على تحقق إتيانها وتقريره أَلْبَتَّةَ. ومعنى نفي الريب عنها: أنها، في ظهور أمرها ووضوح دلائلها، بحيث ليس فيها مظنة الريب، ﴿ وأنَّ الله يبعثُ من في القبور ﴾ ؛ لأنه تعالى حكم بذلك ووعد به، وهو لا يخلف الميعاد، والتعبير بـ «من في القبور» خرج مخرج الغالب، وإلاَّ فهو يبعث كل من يموت. والله تعالى أعلم وأحكم.

الإشارة: يا أيها الناس المنكرون لوجود التربية النبوية، وظهور أهل الخصوصية في زمانهم، الذين يحيي الله الأرواح الميتة، بالجهل والغفلة، على أيديهم؛ إن كنتم في ريب من هذا البعث فانظروا إلى أصل نشأتكم وتنقلات أطواركم، فمن فعل ذلك وقدر عليه، قدر أن يحيي النفوس الميتة بالغفلة في كل زمان. وفي الحِكَم: «من استغرب أن ينقذه الله من شهوته، وأن يُخرجه من وجود غفلته، فقد استعجز القدرة الإلهية، وكان الله على كل شيء مقتدرا». وجرت عادته أنه لا يحييها في الغالب إلا على أيدي أهل الخصوصية. وترى أرض النفوس هامدة ميتة بالغفلة، فإذا أنزلنا عليها ماء الحياة، وهي الواردات الإلهية، وأسقيناها الخمرة القدسية، اهتزت فرحاً بالله، وربت، وارتفعت بالعلم بالله، وأنبتت من أصناف العلوم والحكم، ما تَبْهَجُ منه العقول، ذلك شاهد بوحدانية الحق، وأن ما سواه باطل. وبالله التوفيق.

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة الحج.

ثم ذكر نوعاً آخر من أهل الإنكار والجدل، فقال:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝١٠ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ومن النـاس من يُجادل في الله ﴾ أي: فى شـأنه ،فيصفه بغير ما هو أهله، وهو أبو جهل، كما قال ابن عباس رضي الله عنه ، وقيل: هو من يتصدى لإضـلال الناس، كائناً من كـان. حـال كونه ﴿ بغير علمٍ ﴾، بل بجهل وهوىً. والمراد بالعلم: الضرورى، كما أن المراد بالهدى فى قوله: ﴿ ولا هُدىً ﴾: هو الاستدلال والنظر الصحيح، الهادى إلى المعرفة. ﴿ ولا كتابٍ منير ﴾ أى: وحي يستند إليه، والحجة إنما تقوم بأحد هذه الثلاثة، أي: يجادل فى شأنه تعالى، من غير تمسك بمقدمة ضرورية، ولا بحجة نظرية، ولا ببرهان سمعي.

حـال كونه ﴿ ثانيَ عِطْفِه ﴾ أى: لاوياً عُنُقَهُ عن طاعة الله؛ كبراً وعتواً، أو عاطفًا بجانبه، وطاوياً كَشْحَهُ[1]، معرضاً متكبراً، فثنْى العطف كناية عن التكبر. وقرأ الحسن بفتح العين، أى: مانعاً تعطفه على المساكين؛ قسوةً. فعل ذلك الجدال ﴿ ليُضلَّ عن سبيل الله ﴾ أى: ليضل الناس عن سبيل الله؛ فإنَّ غرضه بالمجادلة إضلال المؤمنين، أو جميع الناس، وقرأ المكى وأبو عمر: بفتح الياء، أى: ليصير ضالاً عن سبيل الله. وجعل ضلاله غاية لجداله، من حيث إن المراد به الضلال المبين، الذى لاهداية بعده، مع تمكنه منها قبل ذلك، أى: ليرسخ فى الضلالة أىّ رسوخ، ﴿ له في الدنيا خزيٌ ﴾: هوان وذُل، وهو القتل يوم بدر، وهو بيانُ نتيجة ما سلكه من الطريقة، أى: يثبت له، بسبب ما فعل، خزى وصغار، وهو ما أصابه ببدر، ﴿ ونُذيقه يومَ القيامة عذابَ الحريق ﴾ أى: النار المحرقة.

﴿ ذلك ﴾ أى: ما ذكر من العذاب الدنيوى والأخروى. وما فى الإشارة من البُعد؛ للإيذان بكونه فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة، أى: ذلك العذاب الهائل ﴿ بما قدمتْ يداك ﴾ أى: بسبب ما اقترفْتَهُ من الكفر والمعاصى. وإسناده إلى يديه؛ لأن الاكتساب فى الغالب بهما. والالتفات؛ لتأكيد الوعيد وتشديد التهديد. أو يقال له يوم القيامه: ﴿ ذلك بما قدمت يداك وأنَّ الله ليس بظلاَّم للعبيد ﴾، فلا يأخذ أحداً بغير ذنب ولا بذنب غيره. وهو خبر عن مضمر، أى: والأمر أنَّ الله ليس بمعذبٍ لعبيده بغير ذنب، وأما عطفه على «بما» فغير سديد، ولفظ المبالغة؛ لاقترانه بلفظ الجمع فى العبيد، ولأن قليل الظلم منه، مع علمه بقبحه واستغنائه عنه، كالكثير منا. قاله النسفى.

---

(١) الكَشْح: الخَصْر.

وقيل: «ظلام» : بمعنى: ذى ظلم، فتكون الصيغة للنسب. والتعبير عن ذلك بنفى الظلم، مع أن تعذيبهم بغير ذنب، ليس بظلم قطعًا، على ماتقرر فى مذهب أهل السنة، فضلاً عن كونه ظلمًا بالغاً؛ لأن الحق تعالى إنما يُظهر لنا كمال العدل، وغاية التنزيه، وإن كان فى نفس الأمر جائز أن يعذب عباده بلا ذنب، ولا يسمى ظلماً؛ لأنه تصرف فى ملكه، لكنه تعالى لم يظهر لنا فى عالم الشهادة إلا كمال العدل. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من يخاصم فى طريق القوم، وينفيها عن أهلها، إما أن يكون تقليداً، وهو ما تقدم، أو يكون تكبراً وعتواً، بحيث لم يرض أن يحط رأسه لهم، وهو ما أشير إليه هنا. ولا شك أن المتكبر لابد أن يلحقه ذل، ولو عند الموت. ويوم القيامة يُحشر صاغراً كالذر، كما فى الحديث. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حال المذبذبين، بعد ذكر حال المجادلين المصمِّمين، فقال:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾

قلت: (لَمَن ضره): قال ابن عطية: جرى فيه إشكال؛ وهو دخول اللام على «مَنْ» ، وهو فى الظاهر مفعول، واللام لا تدخل على المفعول. وأجيب بثلاثة أوجه؛ أحدها: أن اللام متقدمة على موضعها، والأصل أن يقال: يدعو مَنْ لَضَرُّه أقرب، فموضعها الدخول على المبتدأ، وثانيها: أنَّ «يدعو» تأكيد ليدعو الأول، وتم الكلام عنده، ثم ابتدأ قوله: (لَمَن ضره) ، فمن مبتدأ، وخبره: (لبئس المولى) - قلت: وإياه اعتمد الهبطى فى وقفه، وثالثها: أن معنى «يدعو» : يقول يوم القيامة هذا الكلام، إذا رأى مضرة الأصنام، فدخلت اللام على مبتدأ فى أول الكلام.هـ.

قلت: والأقرب ما قاله الزجاج، وهو: أن مفعول (يدعو) محذوف، ويكون ضميراً يعود على الضلال، وجملة: (يدعو): حال، والمعنى: ذلك هو الضلال البعيد يدعوه، أى: حال كونه مدعوا له، ويكون قوله: (لمن ضره) مستأنفاً مبتدأ، خبره: «لبئس المولى» . نقله المحشى. وحكم المحلى بزيادة اللام.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حَرْف﴾ أى: على طرف من الدين لاثبات له فيه، كالذى ينحرف إلى طرف الجيش، فإن أحس بظفر قرّ، وإلا فر. وفى البخارى عن ابن عباس: «كان الرجل

يَقدمُ المدينة، فإن ولدت امرأتُهُ غلاماً ونُتجتْ خَيْلُه، قال: هذا دينٌ صالح، وإن لم تَلِد إمرأته، ولم تنتج خيله، قال: هذا الدين سُوء»(١). وكأن الحق تعالى سلك في الآية مسلك التدلي، بدأ بالكافر المصمم، يجادل جدالاً مجملاً، يتبع فيه كل شيطان مريد. والثاني: مقلد مجادل، من غير دليل ولا برهان، والثالث: كافر أسلم إسلاماً ضعيفاً. ثم قابل الأقسام الثلاثة بضدهم، بقوله: ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا...﴾الآية

ثم كمَّل حال المذبذب بقوله: ﴿ فإن أصابه خيرٌ ﴾ أي: دنيوي؛ من الصحة في البدن، والسعة في المعيشة، ﴿ اطمأن به ﴾ أي: ثبت على ما كان عليـــه ظاهراً، لا أنه اطمـــأن به اطمئنان المؤمنين، الذين لا يلويهم عنه صـــارف، ولايثنيهم عنه عاطف. ﴿ وإن أصابته فتنةٌ ﴾ : بلاء في جسده، وضيق في معيشته ، أو شيء يفتتن به، من مكروه يعتريه في بدنه أو أهله أو ماله، ﴿ انقلب على وجهه ﴾ أي: ارتد ورجع إلى الكفر، كأنه تنكس بوجهه إلى أسفل. أو انقلب على جهتـه التي كان عليها. وتقدم عن ابن عباس أنها نزلت في أعاريب قدموا المدينة، مهاجرين، فكان أحدهم إذا صحّ بدنه ونتجتْ فَرَسُهُ مُهْراً سريا، وولدت امرأته غلامًا سويًا، وكثُرَ مالُه وماشيته، قال: ما أصبتُ، مذ دخلت في ديني هذا، إلا خيراً، واطمأن، وإن كان الأمر خلافه، قال: ما أصبتُ إلاشراً، وانقلب عن دينه. وعن أبي سعيد رضي الله عنه : أنَّ يهودياً أَسْلَمَ فأصابتْهُ مَصَائِبُ، وتَشَاءمَ بالإِسْلامِ، فأَتَى النَّبِي ﷺ فقَال: أَقِلْنِي، فقال: «إنَّ الإِسْلاَمْ لا يُقالُ»، فنَزَلت(٢).

﴿ خَسِرَ الدنيا والآخرة ﴾ : فقَدَهُما، وضيعهما؛ بذهاب عصمته، وحبوط عمله بالارتداد. وقرأ يعقوب: خاسر، على الحال. ﴿ ذلك هو الخسران المبين ﴾؛ الواضح، الذي لا يخفى على أحد أنه لاخسران مثله.

ثم بيَّن وجه خسرانه بقوله: ﴿ يدعو ﴾ أي: يعبد ﴿ مِن دون الله ﴾ أي: متجاوزاً عنه تعالى، ﴿ مالا يضرُّه ﴾ إذا لم يعبده، ﴿ وما لا ينفعه ﴾ إذا عبده. ﴿ ذلك ﴾ الدعاء ﴿ هو الضلالُ البعيد ﴾ أي: التلف البعيد عن الحق.

﴿ يدعو ﴾ أي: يعبد ﴿ لَمَن ضَرُّهُ ﴾ أي : الصنم الجامد الذي ضرره ﴿ أقربُ من نفعه ﴾. وقرأ ابن مسعود: «يدعو من ضره» ، بحذف اللام. أو: ذلك هو الضلال البعيد يدعوه هذا المذبذب المنقلب على وجهه. قال ابن جزي: وهنا إشكال: وهو أنه تعالى وصف الأصنام بأنها لاتضر ولا تنفع، ثم وصفها بأن ضررها أكثر من نفعها، فنفى الضر ثم أثبته؟ والجواب : أن الضر المنفي أولاً يُراد به ما يكون من فعلها، وهي لاتفعل شيئاً، والضر الثاني، الذي أثبتـه لهـا، يُراد به مـا يكون بسببـهـا من العذاب وغيره. هـ . ﴿ لبئس المولى ﴾ أي: الناصر، ﴿ ولبئس العشيرُ ﴾ أي: الصاحب. أو: يدعو ويصرخ يوم القيامة، حين يرى استضراره بالأصنام، ولا يرى لها أثر الشفاعة، ويقول لِمَنْ ضره أقرب من نفعه: لبئس المولى هو ولبئس العشير. والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في (التفسير، سورة الحج) عن ابن عباس رضي الله عنه .
(٢) ذكره الواحدي في الأسباب (٣١٧)، بدون إسناد، عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري.

الإشارة: ومن الناس من يعبد الله على حرف؛ على طرف من الدين، غير متمكن فيه، فإنه أصابه خير، وهو ماتُسر به النفس من أنواع الجمال، اطمأن به، وإن أصابته فتنة، وهو ما يؤلم النفس وينغص عليها مرادها وشهوتها من أنواع الجلال، انقلب على وجهه. أوْ: ومن الناس من يعبد الله على طمع في الجزاء الدنيوى أو الأخروى، فإن أصابه خير فرح واطمأن به، وإن أصابته فتنة سخط وقنط وانقلب على وجهه. أو: ومن الناس من يعبد الله ويسير إليه على حرف، أى: حالة واحدة، فإن أصابه خير؛ كقوة ونشاط وورود حال؛ اطمأن به وفرح، وإن أصابته فتنة؛ كضعف وكسل وذهاب حال، انقلب على وجهه، ورجع إلى العمومية، أو وقف عن السير، خسر الدنيا والآخرة. خسران الدنيا: ما يفوته من عز الله ونصره لأوليائه، وحلاوة برد الرضا والتسليم، ولذيذ مشاهدته. وخسران الآخرة: ما يفوته من درجة المقربين، ودوام شهود رب العالمين. فالواجب على العبد أن يكون عبداً لله فى جميع الحالات، لا يختار لنفسه حالاً على حال، ولا يقف مع مقام ولا حال، بل يتبع رياح القضاء، ويدور معها حيث دارت، ويسير إلى الله فى الضعف والقوة.

قال بعضهم: سيروا إلى الله عَرْجَى ومكاسير. وفى الحكم: «إلهى؛ قد علمتُ، باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار، أن مرادك منى أن تتعرف إلىّ فى كل شىء، حتى لا أجهلك فى شىء». وقال أيضا: «لا تطلبن بقاء الواردات، بعد أن بسطت أنوارها، وأودعت أسرارها، فلك فى الله غنى عن كل شىء، وليس يغنيك عنه شىء». فكن عبد المحوِّل، ولا تكن عبد الحال، فالحال تَحوُلُ وتتغير، والله تعالى لا يحول ولا يزول، فكن عبداً لله، ولا تكن عبداً لغيره.

لِكُلِّ شَىْءٍ، إن فارقْتَهُ، عِوَضٌ ... وَلَيْسَ لِلّهِ، إنْ فَارَقْتَ مِنْ عِوَضِ

ثم شفع الحق تعالى بضد ماذكره قبلُ، فقال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الله يُدخلُ الذين آمنوا﴾، وتمكنوا من الإيمان، وعبدوا الله وحده فى جميع الحالات، ولم يعبدوه على حرف، ﴿وعملوا﴾ الأعمال ﴿الصالحات﴾، ﴿جنات تجري من تحتها﴾ أى: من تحت قصورها ﴿الأنهارُ﴾ الأربعة. وهذا بيان حال المؤمنين العابدين له تعالى فى جميع الحالات، وأنّ الله تفضل عليهم، بما لا غاية وراءه، إثر بيان سوء حال الكفرة، من المجاهرين والمذبذبين، وأنّ معبودهم لا ينفعهم،

بل يضرهم مضرة عظيمة. ثم قال تعالى: ﴿ إن الله يفعل ما يريد ﴾ من الأفعال المتقنة، المبنية على الحِكَم البالغة الرائقة، التي من جملتها: إثابة من آمن به، وصدّق رسوله، وعبده على كل حال، وعقابُ من أشرك به، وكذب رسول الله، أوعبده على حرف. وبالله التوفيق.

الإشارة: إن الله يُدخل الذين آمنوا، واطمأنوا به، وعبدوه في جميع الحالات، وقاموا بعمل العبودية في كل الأوقات، جنات المعارف، تجري من تحتها أنهار العلوم والحكم، إن الله يفعل ما يريد؛ فيقرب هذا، ويُبعد هذا، بلا سبب؛ «جَلّ حُكْمُ الأزلِ أن يُضَافَ إلى العِلَلِ». وبالله التوفيق.

ولمّا كان نفوذ هذا الوعيد في المشركين، وإنجاز وعد المؤمنين؛ تصديقاً لرسوله ﷺ، ونصرة له، ذكر حال من غاظه ذلك وكرهه، فقال:

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: لا تظنوا أن الله غير ناصر لرسوله ﷺ؛ بل هو ناصر له في الدنيا والآخرة لامحالة، فمن كان ﴿ يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة ﴾، ويغيظه ذلك من أعاديه وحُساده، ويفعل ما يدفع ذلك؛ من الخدع والمكائد، فليبالغ في استفراغ المجهود، وليجاوز كل حد معهود، فعاقبة أمره أن يختنق خنقاً من ضلال مساعيه، وعدم إنتاج مقدماته ومبادئه. ﴿ فليمدد بسبب إلى السماء ﴾ أي: فليمدُد حبلاً إلى سقف بيته، ﴿ ثم ليقطع ﴾ أي: ليختنق، من قَطَع: إذا اختنق؛ لأنه يقطع نفَسَه بحبس مجاريه. أو: ليقطع من الأرض، بعد ربط الحبل في العنق وربطه في السقف.

﴿ فلينظر هل يُذهِبَنَّ كيدُه ﴾ أي: فليصور في نفسه أنه إن فعل ذلك؛ هل يذهب نصر الله الذي يغيظه بسبب فعله، وسمى فعله كيداً، على سبيل الاستهزاء؛ لأنه لم يكدْ به محسوده، إنما كاد به نفسه. والمراد: ليس في يده إلا ماليْس بمُذهب لما يغيظه، فتَحَصَّل أن الضمير في (ينصره) يعود على النبي ﷺ، وإن لم يتقدم ذكره صراحة، لكنه معهود؛ إذ الوحي إنما ينزل عليه. وقيل: يعود على «مَن»، والمعنى على هذا: من ظن - بسبب ضيق صدره، وكثرة غمه - أن لن ينصره الله، فليختنق وليمت بغيظه، فإنه لا يقدر على غير ذلك، فموجب الاختناق، على هذا، القنوطُ والسخط من القضاء، وسوء الظن بالله تعالى، حتى يئس من نصره.

قال ابن جزى: وهذا القول أرجح من الأول؛ لوجهين: أحدهما : أن هذا القول مناسب لمن يعبد الله على حرف؛ لأنه، إذا أصابته فتنة، انقلب وقنط، حتى ظنّ أن لن ينصره الله. ويؤيده من فسّر (أن لن ينصره الله) أى: لن يرزقه؛ إذ لا خير فى حياة تخلو من عون الله عز وجل، فيكون الكلام، على هذا، متصلاً بما قبله. ويؤيده أيضا: قوله تعالى، قبله: ﴿إن الله يفعل ما يريد﴾ أى: الأمور بيد الله، فلا ينبغي لأحد أن يسخط من قضاء الله، ولا ينقلب إذا أصابته فتنة، والوجه الثانى: أن الضمير فى «ينصره» ، على هذا، يعود على ما تقدّمه ذكر، دون الأول. هـ. وانظر ابن عطية والكواشى، ففيهما ما يدفع درك ابن جزى، ورده للأول، بما فى سبب الآية ونزولها من المناسبة.

ثم قال تعالى: ﴿ وكذلك أنزلناه آيات ﴾ أى: ومثل ذلك الإنزال البديع، المنطوى على الحكَم البالغة، أنزلناه، أى: القرآن الكريم كله، حال كونه ﴿آيات بينات﴾: واضحات الدلالة على معانيها الرائقة، ﴿وأن الله يهدي به * من يريد﴾ هدايته؛ ابتداء، أو يثبته على الهدى دواماً، ومحل «أن» : إما الجار، أى: ولأن الله يهدى، أو الرفع، أى: والأمر أن الله يهدى من يريد.

الإشارة: من غلبته نفسُه، وملكته وأسرته فى يدها؛ فدواؤه: الفزع إلى الله، والاضطرار إليه آناء الليل والنهار، والمنهاج الواضح فى علاجها وقهرِها: هو الفزع إلى أولياء الله، العارفين به، الذين سلكوا طريق التربية على يد شيخ كامل، فإذا ظفر بهم، فليلزم صحبتهم، وليتبع طريقهم، وليسارِع إلى فعل كل ما يشيرون به إليه، من غير تردد ولا توقف، فهِم معناه، شرعاً ، أم لا، فلا شك أن الله ينصره ويؤيده، ويظفر بنفسه فى أسرع مدة. وليس الخبر كالعيان، وجرِّبْ.. ففى التجريب علم الحقائق، وكذلك من ابتلى بالوسواس وخواطر السوء فى أمر التوحيد، فليفزع إليهم، حتى يقلعوا من قلبه عروق الشكوك والأوهام، وتذهب عنه الأمراض والأسقام، بإشراق شمس العرفان على قلبه، ويفضى إلى طريق الذوق والوجدان، وغير هذا عناء وتعب، ولو فرض أنه يسكن عنه ذلك، فلا يذهب عنه بالكلية، فربما يهيج عليه فى وقت الضعف عند الموت، فلا يستطيع دفعه، فيلقى الله بقلب سقيم. والعياذ بالله.

فإن قلت: هذا الذى دللتنى عليه عزيز غريب، فقد دللتنى على عنَقاء مغرب؟ قلت: والله، إن حسنت الظن بالله وبعباد الله، واضطررت إليه اضطرار الظمآن إلى الماء، لوجدته أقرب إليك من كل شىء. والله، لقد وجدناهم وظفرنا بهم، على مناهج الجنيد وأضرابه، يغنون بالنظر، ويسيرون بالمريد حتى يقول له: ها أنت وربك. والمنة لله. فمن ترك ما قلنا له، وآيس من الدواء، وظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة، فليمت غيظاً وقنطا، فلا يضر إلا نفسه؛ لأن الله يهدى من يريد، فيوفقه للدواء، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مآل من آمن بالقرآن، الذى هو آيات بينات، ومآل من أعرض عنه، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾

قلت : إنّ ﴿ الله يفصل﴾ : خبر «إنّ» الأولى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين آمنوا﴾ بما ذكر من الآيات البينات، أو بكل ما يجب الإيمان به - فيدخل ما ذكر دخولاً أوليًا - أي: آمنوا بذلك، بهداية الله وإرادته، ﴿والذين هادوا والصابئين﴾، وهم قوم من النصارى، اعتزلوهم، ولبسوا المسوح، وقيل: أخذوا من دين النصارى شيئاً، ومن دين اليهود شيئا، وهم القائلون بأن للعالم أصلين: نوراً وظلمة، ويعتقدون تأثير النجوم. ﴿والمجوس﴾ وهم الذين يعبدون النار، ويقولون: إن الخير من النور، والشرمن الظلمة، ﴿والذين أشركوا﴾، وهم عبدة الأصنام؛ من العرب وغيرهم، فهذه ستة أديان، خمسة للشيطان، وواحد للرحمن. ﴿إن الله يفصِلُ بينهم يوم القيامة﴾؛ في الأحوال و الأماكن، فلا يجازيهم جزاء واحدا، ولا يجمعهم في موطن واحد. أو يحكم بين المؤمنين، وبين الفرق الخمسة المتفقة على ملة الكفر، بإظهار المحق من المبطل، فيُكْرِم المحق ويهين المبطل، ﴿إن الله على كل شيء شهيد﴾ أي: عالم بكل شيء، مراقب لأحواله، حافظ له، مطلع على سره وعقده. ومن قضية الإحاطة بتفاصيل كل فرد من أفراد الفرق المذكورة: إجراء جزائه اللائق عليه، وهو أبلغ وعيد. والله تعالى أعلم.

الإشارة : كما يفصل اللهُ يوم القيامة بين الملل المستقيمة والفاسدة؛ يفصل أيضا بين أرباب القلوب المستقيمة الصحيحة المعمورة بنور الله، وبين أرباب القلوب السقيمة الخارية من النور، المعمورة بالظلمة من الوساوس والخواطر، فيرفع الأولين مع المقربين الصديقين، ويسقط الآخرين في أسفل سافلين، أو مع عامة أهل اليمين. وبالله التوفيق،

ثم برهنَ على كونه شهيداً على الأشياء؛ بسجودها له، وخضوعها من هيبته، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨) ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ألم تر﴾، أيها السامع، أو من يتأتى منه الرؤية، أي: رؤية علم واستبصار، أو: يا محمد، علمًا يقوم مقام العيان، ﴿أنَّ الله يسجد له﴾ أي: ينقاد إليه انقياداً تامًا ﴿من في السموات﴾ من الملائكة، ﴿ومن في الأرض﴾ من الإنس والجن والملائكة. ويحتمل أن تكون «من» : عامة للعاقل وغيره،

فيدخل كل ما في السموات من عجائب المصنوعات، وكل ما في الأرض من أنواع المخلوقات. ويكون قوله: ﴿ والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدوابُّ ﴾ ، من عطف الخاص على العام؛ لاستبعاد ذلك منها عادة.. ويُحتمل أن يكون السجود على حقيقته، ولكن لا نفقه ذلك، كما لا نفقه تسبيحهم.

ونقل الكواشي عن أبي العالية: (ما في السماء نجم، ولا شمس، ولا قمر، إلا يقع ساجدا حين تغيب، ثم لا ينصرف حتى يُؤذن له) . وذكر في صحيح البخاري: «أن الشمس لا تطلع حتى تسجد وتستأذن»[1]. وقال مجاهد : (سجود الجبال والشجر والدواب: تَحَوُّلُ ظِلاَلِها) . أو سجودُها: طاعتها؛ فإنه ما من جماد إلا وهو مطيع لله تعالى، خاشع، يُسبح له. شبَّه طاعتها له وانقيادها لأمره بسجود المكلف الذى كلٌّ خضوعٍ دونه.

﴿ وكثيرٌ من الناس ﴾ يسجد لله تعالى سجود طاعة وعبادة ﴿ وكثيرٌ حقَّ عليه العذابُ ﴾ ؛ حيث امتنع من هذا السجود، الذى هو سجود عبادة؛ لكفره وعتوه. قال ابن عرفة: قوله: « وكثير» : يحتمل كونه مبتدأ، ويكون في الآية حذف المقابل، أي: وكثير من الناس مثاب، وكثير حق عليه العذاب. فلا يرد سؤال الزمخشري. هـ. وقدَّره غيرُه: وكثير من الناس يسجدون، وكثير يأبى السجود؛ فحق عليه العذاب. وقيل: وكثير حق عليه العذاب بإنكاره النبوة، وإن سجد للصانع؛ كالفلاسفة واليهود والنصارى. هـ.

﴿ ومن يُهنِ اللهُ ﴾ ؛ بأن صرفته الشقاوة عن الانقياد لأمره الشرعي، ﴿ فما له من مُكرمٍ ﴾ بالسعادة، أو يوم القيامة، بل يذل ويهان، ﴿ إن الله يفعل ما يشاء ﴾ في ملكه؛ يُكرم من يشاء بفضله، ويُهين من يشاء بعدله، لا معقب لحكمه. اللهم أكرمنا بطاعتك ومحبتك، واجعلنا منقادين لأمرك وحكمك، ونعِّمنا بحلاوة شهودك ومعرفتك، إنك على كل شيء قدير. هكذا يُدعى في هذه السجدة. وبالله التوفيق.

الإشارة: قد تجلى الحق جل جلاله بأسرار ذاته لباطن الأشياء، وبأنوار صفاته لظاهرها، فتعرف لكل شيء بأسرار ذاته وأنوار صفاته، فعرفه كلُّ شيء، ولذلك سجد له وسبح بحمده . وفي الحِكَم: «أنت الذى تعرَّفْتَ لكل شيء، فما جَهِلَكَ شيءٌ» . فظواهر الأواني ساجدة لأسرار المعاني، وخاضعة للكبير المتعالي، ولايفقه هذا إلا من خاض بحر المعاني، ولم يقف مع حس الأواني، ولم يمتنع من الانقياد والخضوع لجلال الحق وكبريائه في الظاهر والباطن، إلا من أهانه الله من عُصاة بني آدم. ومن يُهن الله فماله من مكرم، إن الله يفعل ما يشاء.

(١) أخرج البخاري في (التوحيد باب: وكان عرشه على الماء)، ومسلم في (الإيمان، باب: الزمن الذى لا يقبل فيه الإيمان)، عن أبي ذر قال: دخلت المسجد، ورسول الله ﷺ جالس، فلما غابت الشمس قال: «يا أبا ذر؛ تدري أين تذهب هذه؟، قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب، وتستأذن في السجود، فيؤذن لها...» الحديث.

ثم بيّن الفصْل، الذى يفصل به يوم القيامة بين المؤمنين والكفرة بفرقها الخمس، فقال:

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾

قلت : ﴿خصمان﴾: صفة لمحذوف، أى: فريقان خصمان، والمراد: فريق المؤمنين، وفريق الكفرة بأقسامه الخمسة. وقيل: اسم يقع على الواحد والاثنين والجماعة، والمراد هنا: الجماعة، بدليل قوله: (اختصموا) ؛ بالجمع.

يقول الحق جل جلاله: ﴿هذان خصمان﴾ أى: مختصمان ﴿اختصموا﴾ أى: فريق المؤمنين والكافرين. وقال ابن عباس رضي الله عنه : (راجع إلى أهل الأديان المذكورة) ؛ فالمؤمنون خصمٌ، وسائرُ الخمسة خصمٌ، تخاصموا ﴿في ربهم﴾ أى: فى شأنه تعالى، أو فى دينه، أو فى ذاته وصفاته. والكل من شؤونه تعالى، فكل فريق يصحح اعتقاده، ويُبطل اعتقاد خصمه. وقيل: تخاصمت اليهود والمؤمنون؛ فقالت اليهودُ: نحن أحق بالله وأقدمُ منكم كتاباً، ونبينا قبل نبيكم. وقال المؤمنون: نحن أحقُّ بالله منكم، آمنا بنبينا ونبيكم، وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا، ثم كفرتم به؛ حسداً[1] . وكان أبو ذر يُقسِمُ أنها نزلَتْ فى ستة نفر من قريش، تبارَزوا يوم بَدر؛ حمزةُ وعليٌّ، وعبيدة بن الحارث، مع عتبة، وشيبه ابنى ربيعةَ، والوليدُ[2] . وقال عليّ رضي الله عنه : إنى لأوّلُ من يجثو بين يدَي الله يومَ القيامة؛ للخُصومة[3] . هـ.

---

(١) أخرجه الطبرى فى التفسير (١٣٢/١٧) عن ابن عباس رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخارى فى (المغازى باب قتل أبى جهل)، وفى (تفسير سورة الحج.، باب هذان خصمان اختصموا فى ربهم)، ومسلم فى (التفسير، باب فى قوله تعالى: ﴿هذان خصمان اختصموا فى ربهم﴾).

(٣) أخرجه البخارى فى الموضعين السابق ذكرهما، وفى التفسير، عن قيس بن عبادة، عن سيدنا علىّ. كرم الله وجهه.

ثم بيّن الفصل بينهم، المذكور في قوله: ﴿ إن الله يفصل بينهم يوم القيامة﴾، فقال: ﴿ فالذين كفروا ﴾ بما أنزل على محمد ﷺ، ﴿ قُطِّعت لهم ثيابٌ من نار ﴾ أي: فصّلت وقُدرت على مقادير جثثهم، تشتمل عليهم، كما تقطع الثياب للبوس. وعبّر بالماضي؛ لتحقق وقوعه. ﴿ يُصَبُّ من فوق رؤوسهم الحميمُ ﴾ أي: الماء الحار. عن ابن عباس رضي الله عنه: «لو سقطت منه نقطة على الجبال الدنيا لأذابتها». ﴿ يُصهَرُ ﴾ : يُذاب ﴿ به ﴾ أي: بالحميم، ﴿ ما في بطونهم ﴾ من الأمعاء والأحشاء، ﴿ والجلودُ ﴾ تُذاب أيضاً، فيُؤثر في الظاهر والباطن، كلما نضجت جلودهم بُدلت. وتقديم ما في الباطن؛ للإيذان بأن تأثيرها في الباطن أقوى من تأثيرها في الظاهر، مع أن ملابستها على العكس.

﴿ ولهم مقامعُ من حديد ﴾ أي: ولتعذيب الكفرة، أو لأجلهم، مقامع: جمع مِقمعة، وهي آلة القمع، أي: سِياط من حديد، يُضربون بها. ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها ﴾ أي: أشرفوا على الخروج من النار، ودنوا منه، حسبما رُوي: أنها تضربهم بلهبها فترفعهم، حتى إذا كانوا بأعلاها ضُربوا بالمقامع، فَهَوَوْا فيها سبعين خريفا. وقوله: ﴿ من غمّ ﴾ : بدل اشتمال من ضمير (منها)؛ بإعادة الجار، والعائد: محذوف، أي: كلما أرادوا أن يخرجوا من غم شديد من غمومها ﴿ أُعيدوا فيها ﴾ أي: في قعرها، بأن رُدوا من أعاليها إلى أسافلها، من غير أن يخرجوا منها، ﴿ و ﴾ قيل لهم: ﴿ ذُوقوا عذابَ الحريق ﴾ أي: الغليظ من النار، العظيم الإحراق.

ثم ذكر جزاء الخصم الآخر، وهم أهل الحق، فقال: ﴿ إن الله يُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾، وغيّر الأسلوب فيه، بإسناد الإدخال إلى الله عز وجل، وتصدير الجملة بحرف التأكيد؛ إيذاناً بكمال مباينة حالهم لحال الكفرة، وإظهاراً لمزيد العناية بحال المؤمنين، ﴿ يُحلَّوْن فيها ﴾ من التحلية، وهو التزين، أي: تحليهم الملائكة بأمره تعالى ﴿ من أساورَ ﴾ أي: بعض أساور: جمع سوار، ﴿ من ذهب ﴾ للبيان، أي: يلبسون أساور مصنوعة من ذهب، ﴿ ولؤلؤاً ﴾، من جرّه: عطفَه على «ذهب»، أو «أساور»، ومَنْ نَصبه: فعلى محل «من أساور»، أي: ويُحلَّوْنَ لؤلؤا، أو بفعل محذوف، أي: ويُؤْتَوْنَ لؤلؤا. ﴿ ولباسُهُم فيها حريرٌ ﴾ : أبريسمْ، وغيّر الأسلوب، فلم يقل: ويلبسون حريراً؛ لأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غنيٌّ عن البيان، إذ لا يمكن عراؤهم عنه، وإنما المحتاج للبيان: أيُّ لباس هو، بخلاف الأساور واللؤلؤ، فإنها ليست من اللوازم الضرورية، فجعل بيان حليتهم بها مقصوداً بالذات. انظر أبا السعود.

﴿ وهُدُوا إلى الطيب من القول ﴾، وهو كلمة التوحيد: لا إله إلا الله أو: الحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، بدليل قوله: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾(١). ﴿ وهُدُوا إلى صراط الحميد ﴾ أي: المحمود، وهو الإسلام. أو:

(١) من الآية ١٠ من سورة فاطر.

ألهمهم اللهُ فى الآخرة أن يقولوا: الحمد لله الذى صدقنا وعده، وهداهم فيها إلى طريق الجنة. وقيل: إلى طريق الوصول إلى الله العزيز الحميد، والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد اختصم أهل الظاهر مع أهل الباطن فى شأن الربوبية، فقال أهل الظاهر: الحق تعالى لا يُرى فى دار الدنيا، ولا تُمكن معرفته، إلا من جهة الدليل والبرهان، على طريق الإيمان بالغيب. وقال أهل الباطن من أكابر الصوفية: الحق تعالى يُرى فى هذه الدار، كما يرى فى تلك الدار، من طريق العرفان، على نعت الشهود والعيان، لكن ذلك بعد موت النفوس وحط الرؤوس لأهل التربية النبوية، فلا يزال يحاذيه ويسير به، حتى يقول: ها أنت وربك، فحينئذ تشرق عليه شموسُ العرفان، فتُغطى عنه وجود حس الأكوان، فلا يرى حينئذ إلا المكون، حتى لو كُلف أن يرى غيره لم يستطع؛ إذ لا غير معه حتى يشهده.

وقال بعضهم: (مُحال أن تشهده، وتشهد معه سواه). وفى مناجاة الحكم العطائية: «إلهى، كيف يُستَدَلُّ عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غِبْتَ، حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟! ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك؟!». وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: (أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان). وهذه الطريق هى طريق التربية، لا تنقطع أبداً، فمن كفر بها وجحدها قُطعت له ثياب من نار القطيعة، فيبقى مسجوناً بسرادقات محيطاته، محصوراً فى هيكل ذاته، لا يرى إلا ظلمة الأكوان، يُصب من فوق رأسه، إلى قلبه، حرُّ التدبير والاختيار، وكلما أراد أن يخرج من سجن الأكوان وغم الحجاب ردته حيْرَةُ الدَّهَشِ، وهيبة الكبرياء والعظمة والإجلال؛ لأن فكرته مسجونة تحت أطباق الكائنات، مقيدة بعلائق العوائد والشواغل والشهوات. ويقال له: ذق عذاب الحريق، وهو حرِمانك من شهود التحقيق.

إن الله يدخل الذين آمنوا بطريق الخصوص، جنات المعارف، تجرى من تحتها أنهار العلوم، يُحلون فيها بأنواع المحاسن والفضائل، ويتطهرون من جميع المساوئ والرذائل، وهُدوا إلى الطيب من القول، وهو الذكر الدائم بالقلب الهائم، والمخاطبة اللينة من القلوب الصافية، وهُدوا إلى طريق التربية والترقية، حتى وصلوا إلى شهود الحبيب، الحامد المحمود، القريب المجيب. حققنا الله بمقامهم بمنّه وكرمه.

ثم شرع فى المقصود من السورة، وهو أحكام الحج، وبدأ بتعظيم البيت؛ تشويقاً وترغيباً فى حجه، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾

قلت : خبر «إن» : محذوف، يدل عليه ما بعده، أي: الذين كفروا نذيقهم من عذاب أليم؛ لأنه إذا كان الملحدُ في الحرم مُعَذَّباً فالجامع بين الكفر والصد أولى. ومن رفع « سواء» جعله خبراً مقدماً. و« العاكف» : مبتدأ. ومن نصبه: جعله مفعولَ «جعل» ، و«العاكف» فاعل به.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ إن الذين كفروا ويَصُدُّون ﴾ الناس ﴿ عن سبيل الله ﴾ ، أي: واستمروا على الصد، ولذلك حسُن عطفه على الماضي، ﴿ و ﴾ يصدون أيضا عن ﴿ المسجد الحرام ﴾ والدخول فيه، كأهل مكة مع المسلمين، ﴿ الذي جعلناه للناس ﴾ أي: مقامًا ومسكناً للناس، كائنًا من كان، لا فرق فيه بين مكى وآفاقى، وضعيف وقوى، حاضر وباد. فإن أُريد بالمسجد الحرام «مكة»، ففيه دليل على أن دور مكة لا تُباع، وأن الناس فيها سواء، فيجوز للقادم أن ينزل منها حيث شاء، وليس لأحد فيها ملك. وبه قال أبو حنيفة. وقال مالك وغيره: ليست الدور فيها كالمسجد، بل هي مُتَمَلَّكَة. وإن أُريد به البيت كان نصاً في إباحته لجميع المؤمنين. وهو مجمع عليه.

﴿ سواءً العاكفُ فيه ﴾ أي: مستوٍ المقيم فيه ﴿ والباد ﴾ ، أي: المسافر من أهل البادية، ﴿ ومن يُرِدْ فيه ﴾ أي: في المسجد، إحداث شيء ﴿ بإلحاد ﴾ أي: بسبب ميل عن القصد، ﴿ بظُلمٍ ﴾ ، وهما حالان مترادفان، أي: ومن يرد فيه إحداث شيء؛ مائلاً عن الحق، ظالماً فيه، ﴿ نذقْهُ من عذابٍ أليم ﴾ في الآخرة. وكل من ارتكب فيه ذنباً فهو كذلك.

﴿ و ﴾ اذكر يا محمد ﴿ إذْ بوّأنا ﴾ : حين هيأنا ﴿ لإبراهيم مكانَ البيت ﴾ وعيناه له، حتى بناه في مكانه مسامتاً للبيت المعمور، حيث كان بناه آدم عليه السلام، وقد كان رُفِعَ إلى السماء الرابعة، أيام الطوفان، وكان من ياقوتة حمراء، فأعلم اللهُ إبراهيم مكانه، بريح أرسلها، يقال لها: الخَجُوح، فكنست مكان البيت، وقيل: سحابة على قدر البيت، وقيل: كلمته، وقالت له: ابنِ على قَدرى. هـ. فبناه على أساسه القديم[1]، وفي ابن حجر: أنه جعل طوله في السماء تسعة أذرع، ودوره في الأرض ثلاثين ذراعاً بذراعه. وأدخل الحِجْر في البيت، وكان قبل ذلك لغنم

(١) راجع هذه الأقوال في تفسير الطبرى (١٧/١٤٣)، والبغوى (٥/٣٧٨).

إسماعيل. وبنى الحجارة بعضها على بعض، أى: بلا تراب، ولم يجعل له سقفا، وحفر له بئراً، عند بابه خزانة للبيت، يلقى ما يهدى له. هـ.

رُوى أن الكعبة الشريفة بُنيت خمس مرات، إحداها: بنتها الملائكة، وكانت من ياقوتة حمراء، ثم رُفعت أيام الطوفان. والثانية: بناها إبراهيم عليه السلام، وقيل: إن جُرهم كانت بنتها قبله، ثم هدمت، ويدل عليه: التجاء عادٍ إليها، حين نزل بهم القحط. فأرسل الله عليهم الريح، وكان ذلك قبل إبراهيم عليه السلام، والثالثة: بنتها قريش، وقد حضرها رسول الله ﷺ قبل النبوة. والرابعة: بناها ابن الزبير، والخامسة: الحجاج.

ثم قال تعالى: ﴿ أن لا تُشرك ﴾ أى: وقلنا له: ألا تشرك ﴿ بي شيئًا ﴾، بل خلص عملك فى بنائها وغيره، من شوائب حظ النفس، عاجلاً وآجلاً، لاطَمَعاً في جزاء، ولا خوفاً من عقوبة، بل محبة وشكراً وعبودية. قال القشيرى: أى: لا تلاحظ البيت ولا بنيانك. هـ. وقيل: في الآية طعن على من أشرك من قُطّان البيت، أى: هذا الشرط كان على أبيكم فمَنْ بعده وأنتم، فلم تقبلوه، بل أشركتم وصددتم وألحدتم، فاستحققتم التوبيخ والذم على سلوككم على غير طريق أبيكم.

﴿ وطهِّرْ بيتيَ ﴾ من الأصنام والأقذار، ﴿ للطائفين ﴾ به ﴿ والقائمين ﴾ للصلاة فيه، أو المقيمين فيه، ﴿ والركَّع السجود ﴾ أى: المصلين، جمعاً من راكع وساجد. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إن الذين كفروا بطريق الخصوصية، ويصدون الناس عن الدخول فيها، ويُعوقونهم عن مسجد الحضرة، الذى جعله للناس محلاً تسكن فيه قلوبهم، وتعشش فيه أرواحهم. فكل من قصده وباع نفسه وقلبه لله، وصله ودخله، وهو محل المشاهدة والمكالمة، والمساررة والمناجاة، محل شهود الحبيب والمساررة مع القريب، محل نزهة الأفكار فى فضاء الشهود والاستبصار، فمن عاق عنها نُذقه من عذاب أليم. وقوله تعالى: ﴿ سواء العاكفُ فيه و الباد ﴾، قال القشيرى: فيه إشارة إلى أن التفاوت إنما يكون فى الطريق، وأما بعد الوصول، فلا تفاوت. ثم إذا اجتمعت النفوس، فالموضع الواحد مجمعها، ولكنْ لكلِّ حالٌ يُعرف به[1] .هـ. قلت: مقام التوحيد الخاص، وهو الفناء، هو محل الاجتماع، وتتفاوت بعد ذلك أذواقهم ومواجيدهم، وازدياد كشوفاتهم وترقياتهم، تفاوتاً بعيداً، على حسب التفرغ والانقطاع، والتأهب والاتباع، حسبما سبقت به القسمة الأزلية.

وقال الورتجبى، على قوله تعالى: (وإذ بوأنا...) الآية: هيأ لخليله وجميع أحبائه بيته، ودلّه إلى ما فيه من الكرامات والآيات، وما ألبسه من أنوار حضرته؛ ليكون وسيلة لعبادته، ومرآة لأنوار آياته. هـ. قلت: الإشارة بالبيت

---

(١) بالمعنى.

إلى القلب؛ لأنه بيت الرب، أي: هيأنا لإبراهيم مكان قلبه؛ لمشاهدة أسرار جبروتنا وأنوار ملكوتنا، ليكون من الموقنين بشهود ذاتنا، وقلنا له: لا تشركْ بنا شيئاً من السِّوى، ولا ترى معنا غيرنا، وطهِّر بيتى، الذى هو القلب، من الأغيار والأكدار، ليكون محلاً للطائفين به من الواردات والأنوار، والعاكفين فيه من المشاهدات والأسرار، والركع السجود من القلوب التى تواجهك بالتعظيم والانكسار، فإنّ قلبَ العارف كعبة للواردات والأسرار، ومحل حج قلوب الصالحين والأبرار. وفى بعض الأثر: «ياداود؛ طهر لى بيتاً أسكنه، فقال: يارب.. وأىُّ بيت يسعك؟ فقال: لم يسعنى أرضى ولا سمائى، ووسعنى قلب عَبدى المؤمن». وفيه عند أهل الحديث كلام. ووسعه للربوبية بالعلم والمعرفة الخاصة. والله تعالى أعلم.

ولمّا فَرَغَ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت، أمَرَهُ ربه أن يُؤذن فى الناس بالحج، كما قال:

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ ... ﴾

قلت: ﴿وعلى كل ضامر﴾: حال معطوفة على حال، أى: يأتوك حال كونهم رجالاً وركباناً. و(يأتين): صفة لكل ضامر؛ لأنه فى معنى الجمع. وقرأ عبدالله: «يأتون»، صفة لرجال. و(رجال): جمع راجل؛ كقائم وقيام.

يقول الحق جل جلاله لإبراهيم عليه السلام: ﴿ وأذِّن في الناس بالحج ﴾ أى: نادِ فيهم ليحجوا. رُوى: أنه عليه السلام صعد أبا قبيس، فقال: يا أيها الناس، حجوا بيت ربكم، فأسمعه الله تعالى الأرواح، فأجاب من قُدِّر له أن يحج من الأصلاب والأرحام بلبيك اللهم لبيك . ﴿ يأتوك ﴾ إن أذنتَ ﴿ رجالاً ﴾ أى: مشاةً ﴿ و ﴾ ركباناً ﴿ على كل ضامر ﴾ أى: بعير مهزول، أتعبه بُعدُ الشُّقة، فهزّله، أو زاد هزاله. وقدّم الرجال على الركبان؛ لفضيلة المشاة، كما ورد فى الحديث ﴿ يأتين ﴾ تلك الضوامر بركبانها، ﴿ من كل فج ﴾؛ طريق ﴿ عميق ﴾؛ بعيد. قال محمد بن

ياسين: قال لي شيخٌ في الطواف: من أين أنت؟ فقلت: من خُراسان. فقال: كم بينك وبين البيت؟ فقلت: مسيرة شهرين أو ثلاثة. قال: فأنتم جيران البيت. فقلتُ: وأنت من أين سعيت؟ فقال: من مسيرة خمس سنوات، وخرجت وأنا شاب، فاكتهلت. فقلت: هذه واللهِ هي الطاعة الجميلة، والمحبة الصادقة، فضحك. وقال:

زُرْ من هَوَيْتَ، وإن شطتْ بِكَ الدارُ   وحالَ من دُونه حُجُبٌ وأستارُ
لايَمْنَعَنَّكَ بُعْدٌ عنْ زِيارته   إنَّ المُحب لمنْ يهواه زوّارُ

﴿ ليشهدوا منافعَ لهم ﴾ أي: يأتوك ليحضروا منافع لهم، دنيوية ودينية، لاتُوجد في غير هذه العبادة؛ كالطواف ونظر الكعبة، وتضعيف أمر الصلاة؛ لأن العبادة شرعت للابتلاء بالنفس كالصلاة والصوم، أو بالمال، وقد اشتمل الحج عليهما، مع ما فيه من تحمل الأثقال وركوب الأهوال، وقطع الأسباب وقطيعة الأصحاب، وهجرة البلاد والأوطان، ومفارقة الأهل والولدان. ولذلك ورد أنه يُكفر الذنوب كلها، كما في الحديث: «مَنْ حَجَّ هَذَا البَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ، ولَمْ يَفْسُقْ، رَجعَ من ذُنوبِه كيَوْمِ ولَدَتْهُ أُمُهُ»(1).

﴿ ويذكروا اسمَ الله ﴾ عند ذبح الضحايا والهدايا ﴿ في أيامٍ معلومات ﴾، وهي أيام النحر عند مالك، وعند الشافعي: اليوم الأول والثاني والثالث؛ لأن هذه هي أيام الضحايا عنده. ولم يجز ذبحها بالليل؛ لقوله: ﴿في أيام﴾. وقال أبو حنيفة: الأيام المعلومات: عشر ذي الحجة ويوم النحر، وهو قول ابن عباس رضي الله عنه، وأما الأيام المعدودات، فهي: الثلاثة بعد يوم النحر. فيوم النحر معلوم لا معدود، ورابعه: معدود لا معلوم، واليومان بعده: معلومان ومعدودان. فيذكروا اسم الله ﴿ على ما رزقهم ﴾ أي: على ذبح ما رزقهم ﴿ من بهيمة الأنعام ﴾، وهي الإبل والبقر والغنم، ﴿ فكُلُوا منها ﴾؛ من لحومها، والأمر: للإباحة، ولإزاحة ما كانت عليه الجاهلية من التحرج.

قال ابن جزي: ويُستحب أن يأكل الأقل من الضحايا، ويتصدق بالأكثر. هـ. وقال النسفي: ويجوز الأكل من هَدى التطوع والمتعة والقِران؛ لأنه دم نسك؛ لأنه أشبه الأضحية، ولا يجوز الأكل من بقية الهدايا. هـ. وهو حنفي، وفي مذهب مالك تفصيل يطول ذكره.

﴿ وأطعموا البائسَ ﴾، وهو الذي أصابه البؤس، أي: ضرر الحاجة، وقيل: المتعفف، وقيل: الذي يظهر عليه أثر الجوع، ﴿ الفقير ﴾: المحتاج الذي أضعفه الإعسار.

---

(1) أخرجه البخاري في (الحج، باب فضل الحج المبرور)، ومسلم في (الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة)، عن أبي هريرة.

﴿ ثم لْيَقْضُوا تَفَثَهم ﴾ أي: ليزيلوا عنهم أدرانهم، قاله نفطويه. وقيل: قضاء التفث: قصُّ الشارب والأظافر، ونتف الإبط، والاستحداد، وسائر خصال الفطرة. وهذا بعد أن يُحلوا من الحج؛ التحلل الأصغر بالنحر. ﴿ ولْيُوفُوا نذورَهم ﴾ أي: ما ينذرونه من البر في الحج وغيره، وقيل: مواجب حجهم من فعل أركانه، ﴿ وليَطَّوفُوا ﴾ طواف الإفاضة، الذي هو ركن لا يُجبر بالدم، وبه يتم الحج، ويكون ﴿ بالبيت العتيق ﴾: القديم؛ لأنه أول بيت وضع للناس، بناه آدم ثم جدَّده إبراهيم، أو الكريم، ومنه: عتاق الخيل لكرائمها، أو: لأنه عتق من الغرق، أو من أيدي الجبابرة، فكم من جبار رام هدمه فمنعه الله منه. وقيل: عتيق لم يملكه أحد قطُّ، وهو مَطاف أهل الغبراء، كما أن البيت المعمور مطاف أهل السماء.

﴿ ذلك ﴾ أي: الأمر ذلك، وهذا من فصل الكلام، كما يقدم الكاتبُ جملة من الكلام، ثم يقول: هذا، وقد كان كذا وكذا، إذا أراد أن يخرج من كلام إلى كلام آخر، وإن كان له تعلق بما قبله. والكلام هنا متصل بتعظيم حرمات البيت، فقال: ﴿ ومن يعظِّم حُرمات الله ﴾، جمع حرمة، وهو ما لا يحل هتكه من الشريعة، فيدخل ما يتعلق بالحج دخولاً أولياً، وقيل: حرمات الله: البيت الحرام، والمشعر الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام. وقيل: المحافظة على الفرائض والسنن واجتناب المعاصي، ﴿ فهو خيرٌ له ﴾ أي: فالتعظيم خير له ثواباً ﴿ عند ربه ﴾، ومعنى التعظيم: العلم بوجوب مراعاتها، والعمل بموجبه، والاهتمام بشأنه، والتأدب معه. والله تعالى أعلم.

الإشارة : قوله تعالى: ﴿ثم ليقضوا تفثهم﴾، قال القشيري: أي: حوائجهم، ويحققوا عهودهم، ويُوفوا نذورهم فيما عقدوه مع الله بقلوبهم، فَمَنْ كان عقدُه التوبةَ؛ فوفاؤه ألاَّ يرجعَ إلى العصيان، ومَنْ كان عَهْدُه اعتناقَ الطاعةِ، فَشَرْطُ وفائه ترك تقصيره، ومن كان عهدُه ألاَّ يرجع إلى طلب مقامٍ وتطلُّعِ إكرامٍ، فوفاؤه استقامته على الجملة، التي دخل عليها في هذه الطريق، بألا يرجع إلى استعجال نصيبٍ واقتضاءِ حظ. هـ. قلت: ومن كان عقده الوصول إلى حضرة القدس ومحل الأنس، فوفاؤه ألا يرجع عن صحبة من سقاه خمرة المحبة، وحمله إلى درجة المعرفة. ثم قال: ومَنْ عاهد الله بقلبه، ثم لا يفي بذلك، فهو من جملة قول الزور. هـ.وهو أيضا ليس بمُعَظِّم لحرمات الله، حيث طلبها ثم تهاون وتركها. والله تعالى أعلم.

ولمّا كان الإحرام يُحرم لحوم الصيد، فربما يتوهم أن اللحوم كلها تجتنب، رفعَ ذلك الإيهام، فقال:

﴿... وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وأُحِلتْ لكم الأنعامُ﴾ أي: أكلها، ﴿إلا ما يُتلىَ﴾ أي: سيتلى ﴿عليكم﴾ منها في آية المائدة(١)، كالميتة والموقوذة وأخواتهما. والمعنى: إن الله قد أحل لكم الأنعام إلاّ ما بيّن في كتابه، فحافظوا على حدوده، ولا تُحرِّموا شيئاً مما أحلّ لكم، كتحريم البحيرة وما معها، ولا تُحلوا ما حرّم، كإحلال المشركين الميتة والموقوذة وغيرهما.

ثم نهى عن الأوثان التي كانوا يذبحون لها، فقال: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾؛ لأن ذلك من تعظيم حرمات الله، و«من» : للبيان، أي: فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان. والرجس: كل ما يستقذر من الخبث، وسمى الأوثان رجساً على طريقة التشبيه، أي: فكما تنفرون بطباعكم من الرجس، فعليكم أن تنفروا عنها. والمراد: النهى عن عبادتها، أو عن الذبح تقرباً لها. ﴿واجتنبوا قولَ الزُّور﴾، وهو تعميم بعد تخصيص، فإنّ عبادة الأوثان رأس الزور، ويدخل فيه الكذب والبهتان وشهادة الزور. وقيل: المراد شهادة الزور فقط، لِمَا رُوى أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «عَدلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ الإِشْرَاكَ بِاللهِ تعالى» ثلاثا، وتلى هذه الآية(٢). والزور من الزَّوْر، وهو الانحراف والميل؛ لأن صاحبه ينحرف عن الحق، ولاشك أن الشرك داخل في الزور؛ لأن المشرك يزعم أن الوثن تحق له العبادة، وهو باطل وزور.

ثم قال تعالى: ﴿حنفاءَ لله﴾ : مائلين عن كل دين زائغ إلى دين الحق، مخلصين لله، ﴿غير مشركين به﴾ شيئاً من الأشياء، ﴿ومن يُشرك بالله﴾، أظهر الاسم الجليل؛ لإظهار كمال قبح الشرك، ﴿فكأنما خرَّ﴾ : سقط

---

(١) الآية الثالثة.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣٢١/٤)، وأبو داود في (الأقضية: باب في شهادة الزور)، والترمذي في (الشهادات، باب ما جاء في شهادات الزور)، وابن ماجة في (الأحكام، باب شهادة الزور)، عن خريم بن فاتك.

﴿من السماء﴾ إلى الأرض؛ لأنه يسقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر. وقيل: هو إشارة إلى ما يكون له حين يصعد بروحه عند الموت، فتطرح من السماء إلى الأرض. قاله ابن البنا. ﴿فتخطفه الطير﴾ أي: تتناوله بسرعة، فالخطف والاختطاف: تناول الشيء بسرعة؛ لأن الأهواء المردية كانت توزع أفكاره، ﴿أو تهوي به الريحُ﴾ أي: تسقطه وتقذفه. والهوى: السقوط. ﴿في مكان سحيق﴾: بعيد؛ لأن الشيطان قد طرحه في الضلال والتحير الكبير. والله تعالى أعلم.

الإشارة: جعل الحقُّ تعالى شكرَ النعم أمْرين: طهارة الباطن من شرك الميل إلى السِّوى، ولسانه من زور الدعوى، وهو الترامي على مراتب الرجال قبل التحقق بها، حنيفاً موحداً، شاكراً لأنعمة يجتبيه ربه، ويهديه إلى صراط مستقيم. ومن يشرك بالله؛ بأن يُحب معه غيره، فقد سقط عن درجة القرب والتحقيق، فتخطفه طيور الحظوظ والشهوات، وتهوى به ريح الهوى، في مكان سحيق. والعياذ بالله.

ثم حضَّ على الاعتناء بشأن الهدايا، فقال:

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۗ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ (٣٤) ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٧) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ذلك﴾ أي: الأمر ذلك، أو امتثلوا ذلك، ﴿ومن يُعَظِّمْ شعائرَ الله﴾ أي: الهدايا، فإنها معالم الدين وشعائره تعالى، كما يُنبيء عنه: ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله﴾ وتعظيمها: اعتقاد التقرب بها، وأن يختارها سِمَاناً حساناً غالية الأثمان، رُوى «أنه ﷺ أهْدَى مِائَةَ بَدَنَةٍ، فِيهَا جَمَلٌ لأبِي جَهْلٍ، فى

أنْفِهِ بُرَةٌ مِنْ ذَهَب[1]، وأن عمر رضي الله عنه ـ أهدى نجيبة طُلبت منه بثلاثمائة دينار[2]. وقيل: شعائر الله: مواضع الحج، كعرفة ومنى والمزدلفة. وتعظيمها: إجلالها وتوقيرها، والتقصد إليها. وقيل: الشعائر: أمور الدين على الإطلاق، وتعظيمها: القيام بها ومراعاة آدابها، ﴿ فإنها ﴾ أي: فإن تعظيمها ﴿ من تقوى القلوب ﴾ أي: من أفعال ذوي تقوى القلوب، فحذفت هذه المضافات. أو فإن تعظيمها ناشيء من تقوى القلوب؛ لأنها مراكز التقوى.

﴿ لكم فيها منافع ﴾؛ من الركوب عند الحاجة، ولبنها عند الضرورة، ﴿ إلى أجل مسمى ﴾؛ إلى أن تُنحر. ومن قال: شعائر الله: مواضع الحج، فالمنافع: التجارة فيها والأجر، والأجل المسمى: الرجوع إلى مكة لطواف الإفاضة.

﴿ ثم مَحِلُّها ﴾ منتهية ﴿ إلى البيت العتيق ﴾، قال ابن جزي: من قال: إن الشعائر الهدايا، فمحلها موضع نحرها، وهي مِنى ومكة. وخصّ البيت بالذكر؛ لأنه أشرف الحرم، وهو المقصود بالهدى. و«ثم»، على هذا، ليستْ للترتيب في الزمان؛ لأن محلها قبل نحرها، وإنما هي لترتيب الجمل. ومن قال: إن الشعائر مواضع الحج، فمحِلها مأخوذ من إحلال المحرم، أي: آخر ذلك كله: الطواف بالبيت، أي: طواف الإفاضة؛ إذ به يحل المحرم.هـ. أي: محل شعائر الحج كلها تنتهي إلى الطواف بالبيت، طواف الإفاضة. ومثله في الموطأ.

﴿ ولكلِّ أمة ﴾؛ جماعة مؤمنة قبلكم، ﴿ جعلنا منسَكاً ﴾ أي: مُتَعَبَّداً وقرباناً يتقربون به إلى الله ـ عز وجل ـ. والمنسَك ـ بالفتح: مصدر، وبالكسر: اسم موضع النُسك، أي: لكلٍّ جعلنا عبادة يتعبدون بها، أو موضع قربان، يذبحون فيه مناسكهم، ﴿ ليذكروا اسمَ الله ﴾ دون غيره، ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ أي: عند نحرها وذبحها، ﴿ فإلهكم إلهٌ واحدٌ ﴾ أي: اذكروا على الذبائح اسم الله وحده؛ فإن إلهكم إله واحد، ﴿ فله أسلِموا ﴾ أي: فإذا كان إلهكم إلهاً واحداً؛ فأخلصوا له التقرب، أو الذكر خاصة، واجعلوه له سالماً، لا تشوبوه بإشراك.

﴿ وبشِّر المخبتين ﴾؛ المطمئنين بذكر الله، أو المتواضعين، أو المخلصين، فإن الإخبات من الوظائف الخاصة بهم. والخَبْتُ: المطمئن من الأرض. وعن ابن عباس رضي الله عنه: هم الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا. وقيل: تفسيره ما بعده، وهو قوله: ﴿ الذين إذا ذُكرَ اللهُ وجِلَتْ قلوبُهم ﴾: خافت منه؛ هيبة؛ لإشراق أشعة جلاله عليها. ﴿ والصابرين على ما أصابهم ﴾ من مشاق التكاليف ومصائب الزمان والنوائب، ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ في أوقاتها، ﴿ ومما رزقناهم يُنفقون ﴾ في وجوه الخيرات.

---

(١) البُرة ـ بضم الموحدة ـ : الحلقة تجعل في أنف الجمل، وكانوا يتخذونها من نحاس أو غيره، انظر اللسان (برى ١/٢٧٢)، والحديث: أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (باب عدد حجات النبي ﷺ ٥/٤٥٤) عن جابر رضي الله عنه. وفيه: «من فضة»، بدلاً من «ذهب».

(٢) أخرجه أبو دواد في (المناسك، باب تبديل الهدى) عن سالم عن أبيه.

﴿ والبُدْنَ جعلناها لكم من شعائر الله ﴾ أي: من أعلام دينه، وأضافها إلى نفسه؛ تعظيمًا لها، وهي: جمع بدنة، سميت به؛ لعظم بدنها، ويتناول الإبل والبقر والغنم. ﴿ لكم فيها خيرٌ ﴾ أي: منافع دينية ودنيوية، النفع في الدنيا، والأجر في العقبى. ﴿ فاذكروا اسمَ الله عليها ﴾ بأن تقولوا عند ذبحها: بسم الله، اللهم منك وإليك. حال كونها ﴿ صوافَّ ﴾ أي: قائمات، قد صففن أيديهن وأرجلهن. ﴿ فإذا وَجَبَتْ جُنُوبُها ﴾: سقطت على الأرض، وسكنت حركتها، من وجب الحائط وجبة: سقط، وهي كناية عن الموت. ﴿ فكُلُوا منها ﴾ إن شئتم ﴿ وأطعِمُوا القانعَ ﴾: السائل، مِنْ: قنع إليه قنوعًا: إذا خضع، ﴿ والمُعْتَرَّ ﴾؛ الذي يُعَرِّضُ ولا يسأل. وقيل: القانع: الراضي بما عنده وبما يُعطى من غير سؤال، والمعترّ: المتعرض للسؤال. ﴿ كذلك سخرناها لكم ﴾ أي: كما أمرناكم بنحرها سخرناها لكم، أي: ذللناها لكم، مع قوتها وعظم أجرامها؛ لتتمكنوا من نحرها، ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ أي: لكي تشكروا إنعام الله عليكم.

﴿ لن ينال اللهَ لحومُها ﴾ المُتَصَدَّقُ بها، ﴿ ولادماؤها ﴾ المهراقة بالنحر، أي: لن يصل إلى الله اللحم والدم، ﴿ ولكن ينالُه التقوى منكم ﴾؛ فإنه هو الذي طلب منكم، وعليه يحصل الثواب. والمراد: لن تصلوا إلى رضا الله باللحوم ولا بالدماء، وإنما تصلون إليه بالتقوى، أي: الإخلاص لله، وقصد وجه الله، بما تذبحون وتنحرون من الهدايا. فعبَّر عن هذا المعنى بلفظ (ينال)؛ مبالغةً وتأكيدًا، كأنه قال: لن تصل لحومها ولادماؤها إلى الله، وإنما يصل إليه التقوى منكم، وقيل: كان أهل الجاهلية يلطخون الكعبة بدماء قربانهم، فهَمَّ المسلمون أن يفعلوا مثل ذلك، فنزلت الآية.

﴿ كذلك سخرها لكم ﴾ أي: البدن، وهو تكرير للتذكير والتعليل، لقوله: ﴿ لتكبِّروا الله على ماهداكم ﴾ أي: لتعرفوا عظمة الله، باقتداره على ما لايقدر عليه غيره، فتوحدوه بالكبرياء؛ شكرًا على هدايته لكم. وقيل: هو التكبير عند الذبح . ﴿ وبشر المحسنين ﴾: المخلصين في كل ما يأتون ويذرون في أمور دينهم. وبالله التوفيق.

الإشارة: أعظم شعائر الله التي يجب تعظيمها أولياء الله، الدالين على الله، ثم الفقراء المتوجهون إلى الله، ثم العلماء المعلمون أحكام الله، ثم الصالحون المنتسبون إلى الله، ثم عامة المؤمنين الذين هم من جملة عباد الله. ويجب تعظيم مَنْ نصبه الله لقيام خطة من الخطط؛ لإصلاح العباد؛ كالسلاطين، ولو لم يعدلوا، والقضاة والقواد، والمقدمين لأمور العامة، فتعظيم هؤلاء كله من تقوى القلوب. ويدخل في ذلك: الأماكن المعظمة؛ كالمساجد والزوايا، وأما الفقير فيُعَظِّمُ كل ما خلق الله حتى الكلاب، ويتأدب مع كل مخلوق.

وقوله تعالى: ﴿لكم فيها منافع﴾ أى: لكم فى هذه التجليات، إن عظمتموها وعرفتم الله فيها، منافع ، ترعوّن من أنوارها وتشربون من خمرة أسرارها، فتزدادوا معرفة وتكميلاً، إلى أجل مسمى، وهو مقام التمكين، فحينئذ تواجهه أنوار المواجهة، فتكون الأنوار له، لا هو للأنوار، لأنه لله لا لشيء دونه، ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾(١) . ثم محل هذه الأنوار إلى بيت الحضرة، فحينئذ يستغنى بالله عن كل ماسواه . وقوله تعالى: ﴿ولكل أمة جعلنا منسكا﴾ أى: لكل عصر جعلنا تربية مخصوصة، والوصول واحد؛ ولذلك قال: (فإلهكم إله واحد) . وقال القشيرى: الشرائعُ مختلفةٌ فيما كان من المعاملات، متفقة فيما كان من جملة المعارف. ثم قال: ذكّرهم الله بأنه هو الذى أمرهم ويُثيبهم، (فله أسلموا): استسلموا لحكمِه، من غير استكراهٍ من داخل القلب ولا من اللفظ.هـ.

وقوله تعالى: (والبدن...) الآية. قال الورتجبى: فيه إشارة إلى ذبح النفس بالمجاهدات، وزمها بالرياضات عن المخالفات، وفناء الوجود للمشاهدات، حتى لا يبقى للعارف فى طريقة حظ من حظوظه، ويبقى لله مفرداً من جميع الخلائق. هـ.

وفى قوله تعالى: ﴿فاذكروا اسم الله عليها صواف﴾، إشارة إلى أن النفس لا تموت إلا بصحبة من ماتت نفسه، فلا تموت النفس مع صحبة أهل النفوس الحية أبداً. فإذا ماتت وسقطت جنوبها، وظفرتم بها؛ فكلوا من أنوار أسرارها وعلومها؛ لأن النفس، إذا ماتت، حييت الروح، وفاضت عليها العلوم اللدنية، فكلوا منها، وأطعموا السائل والمتعرض لنفحاتكم. وقوله تعالى: ﴿ لن ينال الله لحومها..﴾ الآية، قال الورتجبى: الإشارة فيه إلى جميع الأعمال الصالحة من العرش إلى الثرى، لا يلحق الحق بحق المراد منه، ولكن يصل إليه قلب جريح من محبته، ذُبح بسيف شوقه، مطروح على باب عشقه. قال سهل فى قوله: (ولكن يناله التقوى): هو التبرى والإخلاص. هـ.

قال القشيرى: لا عِبْرةَ بإظهار الأفعال، سواء كانت بدنيةً أو ماليةً صِرفًا، أو مما يتعلق بالوجهيْن، ولكن العبرة بقرائنها من الإخلاص، فاذا انضافَ إلى الجوارح إخلاص القصود، وتَجَرّدَتْ عن ملاحظة أُصحابِها الأغيار، صَلُحَتْ للقبول، وينال صاحبها القرب، بشهود الحق بنعت التفرد. ثم قال: (لتكبروا الله على ماهداكم) وأرشدكم إلى القيام بحقِّ العبودية على قضية الشرع، (وبشر المحسنين)، الإحسان، كما فى الخبر: «أنْ تعبد الله كأنك تراه» . وأمارةُ صحته: سقوطُ تعب القلب عن صاحِبِه، فلا يستثقلُ شيئاً ولا يتبرم بشيءٍ. هـ. قلت: خواطر الاستثقال والتبرم لا تضر؛ لأنه طبع بشرى، وإنما يضر ما سكن فى القلب.

---

(١) من الآية ٩١ من سورة الأنعام.

وقال في الإحياء: ليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم، بل ميل القلب عن حب الدنيا، وبذلُها؛ إيثاراً لوجه الله تعالى، وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة، وإن عاق عن العمل عائق. فلن ينال الله لحومُها ولا دماؤها، ولكن يناله التقوى منكم، والتقوى هاهنا عمل القلب، من نية القربة، وإرادة الخير، وإخلاص القصد لله، وهو المقصود، وعمل الظاهر مؤكد له، ولذلك كانت نية المؤمن أبلغ من عمله؛ فإنَّ الطاعات غذاء القلوب، والمقصود: لذة السعادة بلقاء الله تعالى، والتنعم بها، وذلك فرع محبته والأنس به، ولا يكون إلاَّ بذكره، ولا يفرغ إلا بالزهد في الدنيا، وترك شواغلها، والانقطاع عنها. هـ.

ومن كانت هذه صفته كان من المحسنين، الذين يدفع الله عنهم المكارة والعوائق، كما قال تعالى:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الله يُدافع﴾ يدفع غائلة المشركين ﴿عن الذين آمنوا﴾؛ فلا يقدرون أن يعوقوهم عن شيء من عبادة الله، بل ينصرهم ويؤيدهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾(١)، وصيغة المفاعلة: إمَّا للمبالغة، أو للدلالة على تكرير الدفع، فإنها قد تجرد عن وقوع الفعل المتكرر من الجانبيْن، فيبقى تكرره من جانب واحد، كما في المُحارسة، أي: يبالغ في دفع ضرر المشركين وشوكتهم، التي من جملتها صدهم عن سبيل الله، مبالغةَ مَن يغالبُ فيه، أو يدفعها عنهم مرة بعد أخرى، بحسب تجرد قصد الإضرار بالمسلمين، كما في قوله: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾(٢). وقرأ المكي والبصري: «يدفع».

ثم علل ذلك الدفع بقوله: ﴿إن الله لا يُحب كل خوَّانٍ كفور﴾ أي: لأنَّ الله يبغض كل خوان في أمانة الله تعالى، وهي: أوامره ونواهيه، ومن أعظمها: الإيمان بالله ورسوله. أو في جميع الأمانات، كفورٌ لنعم الله. والمعنى: إن الله يدافع عنهم؛ لأنه يبغض أعداءهم، وهم: الخونة الكفرة، الذين يخونون الله والرسول، ويخونون أماناتهم. وصيغة المبالغة فيها؛ لبيان أنهم كذلك فيهما، لا لتقييد البعض بغاية الجناية؛ فإن الخائن ممقوت مطلقا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إن الله يدفع عن أوليائه، والمتوجهين إليه، كل عائق وشاغل، وغائلة كل غائل، الذين حازوا ذروة الإيمان، وقصدوا تحقيق مقام الإحسان. فمن رام صدّهم عن ذلك فهو خائن كفور، (إن الله لا يحب كل خوّانٍ كفور).

---

(١) من الآية ٥١ من سورة غافر. (٢) من آلآية ٦٤ من سورة المائدة.

ثم أمر بجهاد من صدهم وعاقهم عن سبيل الله، فقال:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١ ﴾

قلت: (إلا أن يقولوا) ، قيل: منقطع. وقال الزمخشري: في محل الجر، بدل من حق.هـ. وهو على طريق قول الشاعر:

لاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَـائِبِ

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أُذِنَ ﴾ أي: رُخص وشرع، أو أذن اللهُ ﴿ للذين يُقاتَلون ﴾ أي: يُقاتلهم الكفارُ المشركون، وحذف المأذون فيه ؛لدلالة « يُقاتَلون» عليه، أيْ: في قتالهم، ﴿ بأنهم ظُلموا ﴾ أي: بسبب كونهم مظلومين، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، كان مشركو مكة يؤذونهم أذىً شديدا، وكانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروبٍ ومشجوج، فيتظلمون إليه، فيقول لهم رسول الله ﷺ: «أصبروا؛ فإني لم أومر بالقتال» . حتى هاجر، فنزلت هذه الآية[1]. وهي أول آية نزلت في الجهاد، بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية.

﴿ وإنَّ الله على نصرهم لقديرٌ ﴾ . وعدٌ لهم بالنصر، وتأكيد لِما مرّ من العِدَة الكريمة بالدفع، وتصريح بأن المراد ليس مجرد تخليصهم من يد المشركين، بل بغلبتهم وإظهارهم عليهم. وتأكيده بكلمة التحقيق. واللام؛ لمزيد تحقيق مضمونه، وزيادة توطين نفوس المؤمنين.

ثم وصف الذين أُذن لهم، أو فسرهم، أو مدحهم بقوله: ﴿ الذين أُخرجوا من ديارهم ﴾ ، يعني مكة: ﴿ بغير حق ﴾ ؛ بغير ما يوجب إخراجهم ﴿ إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ أي: بغير موجب سوى التوحيد، الذي ينبغي أن يكون موجباً للإقرار لا للإخراج. ومثله: ﴿ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾[2].

﴿ ولولا دفعُ اللهِ الناسَ ﴾ : لولا أن يدفع الله الناس ﴿ بعضهم ببعض ﴾ ؛ بتسليط المؤمنين على الكافرين في كل عصر وزمان، وإقامة الحدود وكف الظالم، ﴿ لهُدِّمت ﴾ أي: لخربت؛ باستيلاء الكفرة على الملل، ﴿ صَوَامِعُ ﴾ :

(١) عزاه الواحدي في الأسباب (٣١٨) والبغوي في التفسير (٣٨٨/٥) للمفسرين. (٢) من الآية ٥٩ من سورة المائدة.

جمع صومَعة - بفتح الميم، وهى: متعبد النصارى والصابئين منهم، ويسمى أيضا الدير. وسُمى بها موضع الأذان فى الإسلام: ﴿ وبِيَعٌ ﴾: جمع بيعة - بكسر الباء - : كنائس النصارى، ﴿ وصلوات ﴾: كنائس اليهود، سميت بما يقع فيها، وأصلها: صَلَوتا بالعبرانية، ثم عُربت، ﴿ ومساجد ﴾ للمسلمين، ﴿ يُذْكَرُ فيها اسمُ الله كثيراً ﴾ أى: ذكراً كثيراً، أو وقتاً كثيراً، صفة مادحة للمساجد، خُصت بها؛ دلالةً على فضلها وفضل أهلها. وقيل يرجع للأربع، وفيه نظر؛ فإنَّ ذكر الله تعالى فى الصوامع والبيع والكنائس قد انقطع بظهور الإسلام، فَقَصْدُ بيانِه، بعد نسخ شرائعها مما لا يقتضيه المقام، ولا ترتضيه الأفهام. وقدمت الثلاثة على المساجد؛ لتقدمها وجوداً، أو لقربها من التهديم.

﴿ ولينصرنَّ اللهُ من ينصره ﴾ أى: وتالله، لينصرن الله من ينصر دينه ونبيه - عليه الصلاة والسلام - وأولياءه. ومن نصرِه: إشهاره وإظهاره، وتعليمه لمن لا يعلَمه، وإعزاز حامل لوائه من العلماء والأولياء. وقد أنجز الله وعده، حيث سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم، وأورثهم أرضهم وديارهم، ﴿ إن الله لقوي عزيز ﴾: غالب على كل ما يريد، ومن جملته: نصرهم وإعلاؤهم.

ثم وصف الذين أُخرجوا من ديارهم بقوله: ﴿ الذين إن مكانهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة وأمروا بالمعروف ونَهواْ عن المنكر ﴾ قلت: الصواب ما قاله مكى: أنه بدل من: «مَن ينصره»، فى محل نصب. قيل: المراد بهم: الصحابة - رضى الله عنهم -، وقيل: الأمة كلها. وقيل: الخلفاء الأربعة؛ لأنهم هم الذين مُكِّنوا فى الأرض بالخلافة، وفعلوا ما وصفهم الله به. وفيه دليل صحة أمرِ الخلفاء الراشدين؛ لأن الله - عز وجل - أعطاهم التمكين، ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة. وعن عثمان ﷺ: (هذا، والله، ثناء قبل بلاء)، يعنى: أن الله تعالى أثنى عليهم قبل ظهور الشر من الهرج والفتن فيهم. ﴿ ولله عاقبةُ الأمور ﴾؛ فإنَّ مرجعها إلى حكمه وتقديره فقط. وفيه تأكيد للوعد بإظهار أوليائه وإعلاء كلمته.

الإشارة: إذا اتصل الإنسان بشيخ التربية فقد أذن له فى جهاد نفسه، إن أراد الوصول إلى حضرة ربه؛ لأنها ظالمة تحول بينه وبين سعادته الأبدية. وإن الله على نصرهم لقدير؛ لأن همةَ الشيخ تحمله وتنصره بإذن الله. وأما إن لم يتصل بشيخ التربية، فإن مجاهدته لنفسه لا تُصيب مقَاتلها؛ لدخولها تحت الرماية، فلا يُصيبها ضربه، وأما الشيخ؛ فلأنه يريه مساوئها ويعينه على قتلها.

وقوله تعالى: ﴿ الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق ﴾؛ هم الذين أُمروا بقتل نفوسهم، فإنهم إذا خرقوا عوائد نفوسهم، وخرجوا عن عوائد الناس، رفضوهم وأنكروهم، وربما أخرجوهم من ديارهم، فقلّ أن تجد ولياً بقى فى وطنه الأول، ومانقموا منهم وأخرجوهم إلا لقصدهم مولاهم، وقولهم: ربُّنا الله دون شيء سواه، فحيث خرجوا عن

عوائدهم وقصدوا مولاهم، أنكروهم وأخرجوهم من أوطانهم، ولولا دفع الناس بعضهم ببعض؛ بأن شفع خيارهم في شرارهم، لهدمت دعائم الوجود؛ لأنَّ من آذى ولياً فقد آذن بالحرب.

قال القشيري: (ولولا دفع الله الناس)، أي: يتجاوز عن الأصاغر لِقَدْرِ الأكابر؛ استبقاء لمنازل العبادة، تلك سُنَّة أجراها. ثم قال: (الذين إن مكناهم في الأرض)، أي: لم يشتغلوا في ذلك بحظوظٍ، ولكن قاموا لأداء حقوقنا. هـ.

ولمّا بشّر نبيّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع المؤمنين، بالدفع والنصر على سائر الملل، سلّاه عن تكذيب قومه بقوله:

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإن يُكذبوك﴾ يا محمد، أي: أهل مكة، فلا تحزن؛ فلست بأول من كُذب، ﴿فقد كَذَّبت قبلهم﴾ أي: قبل قومك ﴿قومُ نوحٍ﴾ نوحاً، ﴿وعادٌ﴾ هوداً، ﴿وثمودُ﴾ صالحاً، ﴿وقومُ إبراهيم﴾ إبراهيم، ﴿وقومُ لوطٍ﴾ لوطاً، ﴿وأصحابُ مدين﴾ شعيباً، ﴿وكُذِّب موسى﴾؛ كذّبه فرعونُ والقبط. ولم يقل: وقوم موسى؛ لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل، وإنما كذبه القبطُ. أو: كأنه لمّا ذكر تكذيب كلِّ قومٍ رسولهم، قال: وكُذِّب موسى، مع وضوح آياته وظهور معجزاته، فماظنك بغيره؟ ﴿فأمليتُ للكافرين﴾ : أمهلتهم وأخرت عقوبتهم، ﴿ثم أخذتُهم﴾ : عاقَبْتُهم على كفرهم، أي: أخذت كل فريق من فِرَقِ المكذبين، بعد انقضاء مدة إملائه وإمهاله، ﴿فكيف كان نكير﴾ أي: إنكاري وتغييري؛ حيث أبدلتهم بالنعم نقماً، وبالحياة هلاكاً، وبالعمارة خراباً، فكان ذلك في غاية ما يكون من الهول والفظاعة.

﴿فكأيِّن من قريةٍ أهلكناها﴾ أي: كثيراً من القرى أهلكناها وخربناها بإهلاك أهلها، ﴿وهي ظالمةٌ﴾ أي: والحال أنها ظالمة بالكفر والمعاصي، ﴿فهي خاوية﴾ : ساقطة على ﴿عروشها﴾، من خوى النجم: سقط. والمعنى أنها ساقطة على سقوفها، أي: خربت سقوفُها على الأرض، ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف. ويجوز أن يكون «على عروشها»: خبراً بعد خبر، أي: فهي خالية من السكان، وهي على عروشها، أي: قائمة مشرفة على السقوف الساقطة. ﴿وبئرٍ مُعَطَّلة﴾ أي: وكم من بئر متروكة مهملة في البوادي والحواضر، لا يستسقى منها؛

لهلاك أهلها مع توفير مائها، ﴿وقصرٍ مَشيدٍ﴾: مرفوع البنيان، من شاد البنيان: إذا رفعه، أو مجصَّص بالشيد، أي: الجص، أي: مبنياً بالشيد والجندل.

وقال الضحاك: كانت هذه البئر المعطلة بحضرموت، في بلدة يقال لها: حاضوراء، وذلك أن أربعة آلاف ممن آمن بصالح، ونجوا من العذاب، أتوا حضرموت، ومعهم صالح، فلما حضروا ذلك الموضع، مات صالح، فسُمي حضرموت؛ لأن صالحاً لما حضره مات، فبنوا حاضوراء، وقعدوا على هذه البئر، فأقاموا دهراً طويلاً، وتناسلوا حتى كثروا، ثم عبدوا الأصنام وكفروا، فأرسل الله إليهم نبياً يقال له: «حنظلة بن صفوان»، فقتلوه فأهلكهم الله، وعطلت بئرهم وخربت قصورهم[1]. هـ.

وحاصل المعنى: وكم قرية أهلكناها، وكم بئر عطلناها عن سقاتها، وقصر مشيد أخليناه عن ساكنه، أي، أهلكنا البادية والحاضرة جميعاً، فخلت القصور عن أربابها، والآبار عن روادها. فالأظهر أن البئر والقصر على العموم.

الإشارة: ما سلّى به الرسل - عليهم السلام - تسلى به الأولياء - رضوان الله عليهم - فتكذيب أهل الخصوصية سُنَّة ماضية، غير أن مُكذبي الرسل يُعاجلون بالعقوبة، ومكذبي الأولياء يعاقبون بالبعد والحجاب. وقال القشيري: (وبئر معطلة)، الإشارة إلى العيون المفجرة من بواطنهم، (وقصر مشيد)؛ الإشارة إلى تعطيل أسرارهم عن ساكنيها، من الهيبة والأنس وسائر المواجيد. هـ. قلت: وكأنه فسر القرية بالقلب، وهلاكه: خلاؤه من نور التوحيد، فقلوب الغافلين خاوية على عروش عقولهم، المطموس نورها، وعيون بواطنهم معطلة من الفكرة، وأسرارهم خارية من نور النظرة. والله تعالى أعلم.

ثم أمر بالاعتبار بمن سلف من القرون المهلكة والآبار المعطلة، فقال:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾

(١) ذكر البغوي في التفسير (٥/ ٣٩٠).

قلت: (أفلم): الفاء عطف على مقدر؛ أى أغفلوا فلم يسيروا فيعتبروا، (فإنها): ضمير القصة، أو مبهم يُفسره ما بعده. و(لن يخلفَ الله وعده): حالية، أى: ينكرون مجيء العذاب الموعود، والحال: أنه تعالى لا يخلف وعده، أو اعتراضية مُبينة لما ذكر، و(إنّ يوماً): استئنافية، إن كانت الأولى حالية، ومعطوفة، إن كانت اعتراضية سيقت لبيان خطأهم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَفَلَم يسيروا في الأرض ﴾ فيروا مصارعَ من أهلكهم اللهُ بكفرهم، ويشاهدوا آثارهم الدارسة وقصورهم الخالية، وديارهم الخربة، فيعتبروا. وهو حث لهم على السفر ليشاهدوا ذلك. ﴿ فتكونَ لهم ﴾؛ بسبب ما شاهدوه من مظان الاعتبار ومواطن الاستبصار ﴿ قلوبٌ يعقلون بها ﴾ ما يجب أن يُعقل من التوحيد ونحوه، ﴿ أو آذانٌ يسمعون بها ﴾ ما يجبُ أن يُسمع من الوحى أو من أخبار الأمم المهلكة ممن يجاورهم من الناس؛ فإنهم أعرف بحالهم. قال ابن عرفة: لما تضمن الكلام السابق إهلاك الأمم السالفة، وبقيت آثارهم خراباً، عقبه بذم هؤلاء فى عدم اتعاظهم بذلك. والسير فى الأرض: إمّا حسى، أو معنوى باعتبار سماع أخبارها من الغير، أو قراءتها فى الكتب. فقوله: (فتكون لهم قلوب): راجع للسير الحسى، وقوله: (أو آذان) للسير المعنوى. هـ.

﴿ فإنها لا تعمى الأبصارُ ﴾ الحسية، ﴿ ولكن تعمى القلوبُ ﴾ عن التفكر والاعتبار، أى: ليس الخلل فى مشاعرهم، ولكن الخلل فى عقولهم، باتباع الهوى والانهماك فى الغفلة. وذكر الصدور؛ للتأكيد، ونفى توهم التجوز؛ لأن قلب الشيء: لبه، فربما يقال: إن القلب يُراد به غير هذا العضو، ولكل إنسان أربع أعين: عينان فى رأسه، وعينان فى قلبه، وتسمى البصيرة، فإن انفتح ما فى القلب، وعمى ما فى الرأس؛ فلا يضر، وإن انفتح ما فى الرأس وانطمس ما فى القلب لم ينفع، والتحق بالبهائم، بل هو أضل.

ثم ذكر علامة عمى القلوب، وهو الاستهزاء بالوعد الحق، فقال: ﴿ ويستعجلونك بالعذابِ ﴾ المتوعد به؛ استهزاء وإنكاراً وتعجيزاً، ﴿ ولن يخلف اللهُ وعده ﴾ أى: يستعجلون به، والحال أنه تعالى لا يخلف وعده أبداً، وقد سبق الوعد به، فمن لا يخلف وعده فلابد من مجيئه، ولو بعد حين. ﴿ وإن يومًا عند ربك كألفِ سنةٍ مما تعدُّون ﴾ أى: كيف يستعجلونك بعذاب مَن يومٌ واحد من أيام عذابه فى طول ألف سنة من سنيكم؛ لأن أيام الشدة طُوال. وقيل: تطول حقيقة، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «يَدْخُلُ الفُقَرَاءُ الجنَّةَ قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ، وذَلِكَ خَمْسمائَةَ سَنَةٍ»(١).

---

(١) أخرجه الترمذى فى (الزهد، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم)، وابن ماجة فى (الزهد، باب منزلة الفقراء)، من حديث أبى هريرة، وأبى سعيد الخدرى رضى الله عنهما. وبنحوه أخرجه أبو داود فى (العلم، باب فى القصص) من حديث أبى سعيد الخدرى.

﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمةٌ ثم أخذتُها ﴾ أى: كثيراً من أهل قرية كانوا ظالمين مثلكم، قد أمهلتهم حيناً وأمليت لهم، كما أمليت لكم، ثم أخذتهم بالعذاب والنكال بعد طول الإملاء والإمهال. والإملاء هو الإمهال مع إرادة المعاقبة. ﴿ وإليَّ المصيرُ ﴾ أى: المرجع إليَّ، فلا يفوتنى شىء من أمر المستعجلين وغيرهم، أو: إلى حكمى مَرجع الكل، لا إلى غيرى، لااستقلالاً ولا شركة، فأفعل بهم ما يليق بأعمالهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة : عمى القلوب هو انطماس البصيرة، وعلامة انطماسها أمور: إرسال الجوارح فى معاصي الله، والانهماك فى الغفلة عن الله، والوقيعة فى أولياء الله، والاجتهاد فى طلب الدنيا مع التقصير فيما طلبه منه الله. وفى الحِكَم: «اجتهادك فيما ضمن لك، وتقصيرك فيما طلب منك، دليل على انطماس البصيرة منك». وعلامة فتحها أمور: المسارعة إلى طاعة الله، واستعمال المجهود فى معرفة الله، بصحبة أولياء الله، والإعراض عن الدنيا وأهلها، والأنس بالله، والغيبة عن كل ماسواه. واعلم أن البصر والبصيرة متقابلان فى أصل نشأتهما، فالبصر لا يُبصر إلا الأشياء الحسية الحادثة، والبصيرة لا تُبصر إلا المعانى القديمة الأزلية، فإذا انطمست البصيرة كان العبد مفروقاً عن الله، لايرى إلا الأكوان الظلمانية الحادثة. وفى ذلك يقول المجذوب رضي الله عنه:

مَنْ نَظَرَ الكَوْنَ بِالْكَوْنِ؛ غرَّهُ: فى عمى البصيرة. ومن نظر الكون بالمكون: صادق، علاج السريرة

وإذا انفتحت البصيرة بالكلية استولى نورها على نور البصر، فانعكس نور البصر إلى البصيرة، فلا يرى العبدُ إلا أسرارالمعانى الأزلية، المفنية للأوانى الحادثة، فيغيب عن رؤية الأكوان بشهود المكون. وعِلاَجُ انفتاحها يكون على يد طبيب ماهر عارف بالله، يقدحها له بمرود التوحيد، فلايزال يعالجها بإثمد توحيد الأفعال، ثم توحيد الصفات، ثم توحيد الذات، حتى تنفتح. فتوحيد الأفعال والصفات يُشهد قُرب الحق من العبد، وتوحيد الذات يُشهد عدمه لوجود الحق، وهو الذى أشار إليه فى الحكم بقوله: «شعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق، لاعدمك ولا وجودك. كان الله ولا شىء معه، وهو الآن على ما عليه كان». فيرى حينئذ من أسرار الذات وأنوار الصفات مالايراه الناظرون، ويشاهد ما لا يشاهده الجاهلون. وفى ذلك يقول الحلاج:

قُلوبُ العَارِفِين لَهَا عُيُونٌ تَرَى مَا لا يُرَى للنَّاظِرِينَا
وأجْنِحَةٌ تَطِيرُ بِغَيْرِ رِيشٍ إلَى مَلَكُوتِ رَبِّ العَالَمِينَا
وألْسِنَةٌ بأسْرَارٍ تُنَاجِي تَغِيبُ عن الكِرَامِ الكَاتِبِينَا

وقال الورتجبي: الجهال يرون الأشياء بأبصار الظواهر، وقلوبهم محجوبة عن رؤية حقائق الأشياء، التي هي تلمع منها أنوار الذات والصفات، وأعماهم الله بغشاوة الغفلة وغطاء الشهوة .هـ.

ثم أمر نبيه بالجواب عن استعجالهم العذاب، فقال:

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قُل ﴾ يا محمد: ﴿ يا أيها الناس إنما أنا لكم نذيرٌ مبينٌ ﴾ أي: أنذركم إنذاراً مبيناً بما أُوحي إليّ من أخبار الأمم المهلَكة، من غير أن يكون لي دخل في الإتيان بما توعدونه من العذاب الذي تستعجلونه..وإنما لم يقل: نذير وبشير، مع ذكر الفريقين بعده؛ لأن الحديث مسوق إلى المشركين فقط. والمراد بالناس: الذين قيل فيهم: (أفلم يسيروا في الأرض)، ووصفوا بالاستعجال، وإنما ذكر المؤمنين وثوابهم؛ زيادة في غيظهم. ﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ﴾ لذنوبهم، ﴿ ورزقٌ كريمٌ ﴾ أي: حسن، وهي الجنة. والكريم من كل نعيم: ما يجمع فضائله ويحوز كمالاته.

﴿ والذين سَعَوا ﴾، يقال: سَعَى في أمر فلان: إذا أفسده بسعيه، أي: أفسدوا ﴿ في آياتنا ﴾ أي: القرآن؛ بسعيهم في إبطاله، ﴿ معاجزين ﴾ أي: مسابقين. وقرأ المكي والبصري: « معجّزين» . بالشد، أي: مثّبطين الناس عن الإيمان. يقال: عاجزه: سابقه؛ لأنّ كل واحد منهما يطلب عجز الآخر، واللحوق به، فإذا غلبه، قيل: أعجزه وعجزه. والمعنى: سعوا في معناها بالفساد؛ من الطعن فيها، حيث سمُّوها سحراً وشعراً وأساطير الأولين، مسابقين في زعمهم وتقديرهم، طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم. ﴿ أولئك أصحابُ الجحيم ﴾ أي: ملازمو النار الموقودة. وقيل: هو اسم دركة من دركاتها.

الإشارة: الدعاة إلى الله تعالى إنما شأنهم التحذير والتبشير، ثم ينظرون ما يفعل الله في ملكه وخلقه، من هداية أو إضلال، وليس من شأنهم طلب ظهور المعجزات، أو الكرامات، ولا الحرص على هداية الخلق بالكد والاجتهاد، إنما شأنهم التذكير، ويردون الأمر إلى الملك القدير، فلا يتأسفون على من تخلف عنهم.

وكان عليه الصلاة والسلام ـ يحرص على هداية قومه، فلما نهاه الحق تعالى عن ذلك، رجع وتأدب بكمال العبودية، وبه اقتدى خلفاؤه من بعده، فكان ﷺ في أول أمره يتمنى أن ينزل عليه ما يُقارب بينه وبين قومه، لعلهم يتدبرون فيما ينزل عليه فيُسلموا، فقرأ يوماً سُورةَ النَّجْمِ، فأُلقِيَ في مسامعهم ما يدل على مدح آلهتهم، فحزن

- عليه الصلاة والسلام - حين نسبوا ذلك له، فسلاه الله تعالى بقوله:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (٥٢) لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ (٥٣) وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٥٤) ﴾

قال ابن عباس وغيره من المفسرين الأولين - رضى الله عنهم -: لما رأى النبى ﷺ مباعدة قومه وتوليهم، وشق عليه ذلك تمنى أن يأتيه من الله تعالى ما يُقارب بينه وبين قومه، فجلس يوماً فى جمع لهم، فنزلت سوة النجم، فقرأها عليهم، فلما بلغ: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴾[1]، ألقى الشيطان على لسانه[2]: تلك الغرانيق العُلى وإنّ شفاعتهم لترجى هـ. **قلت**: بلى، ألقى ذلك فى مسامعهم فقط، ولم ينطق بذلك - عليه الصلاة والسلام - فلما سمعت ذلك قريش فرحوا، ثم سجد النبى ﷺ فى آخر السورة، وسجد المسلمون والمشركون، إلا الوليد بن المغيرة، رفع حفنة من التراب وسجد عليه، فقالت قريش: ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، وقالوا: قد عرفنا أن الله يُحيى ويميت، ويخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، فإذا جعل محمد لها نصيباً فنحن معه، فلما أمسى أتاه جبريل. فقال يا محمد؛ ما صنعتَ فقد تلوتَ على الناس مالم آتك به؟ فحزن النبى ﷺ حزناً شديداً، فنزلت الآيةُ؛ تسلية له عليه الصلاة والسلام.

فقال جل جلاله: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ﴾، يوحى إليه بشرع، ويؤمر بالتبليغ، ﴿ ولا نبى ﴾ يُوحى إليه، ولم يؤمر بالتبليغ، فالرسول مكلف بغيره، والنبى مقتصر على نفسه، أو الرسول: مَن بُعث بشرع جديد، والنبى: منْ قرر شريعة سابقة، ولذلك شبه ﷺ علماء أمته بهم، فالنبى أعم من الرسول، وقد سئل - عليه

(١) الآيتان : ١٩ ـ ٢٠ من سورة النجم.

(٢) النبى ﷺ معصوم من مثل ماجاء فى قصة الغرانيق، ونسبة هذا إلى سيدنا ابن عباس وغيره ـ رضى الله عنهما ـ لا يصح. وقد رد المحققون من المحدثين والمفسرين، القصة أصلاً، وبينوا زيفها، ونقدوها سنداً ومتناً. يقول القاضى عياض فى الشفاء (٢/ ٧٥٠): يكفيك فى توهين هذا الحديث أنه لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند صحيح سليم متصل. وإنما أولع به وبمثله المفسرون.
للمزيد راجع: تفسير القرطبى (١٢/ ٧٩) الألوسى (١٧/ ١٧٥ ـ ١٨٤) وكتاب الشفاء للقاضى عياض (٢/ ٧٥٠) والإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير: ص ٣١٤ وما بعدها.

الصلاة والسلام - عن الأنبياء، فقال: «مائَةُ ألفٍ وأربَعَةٌ وعِشْرُونَ ألفًا، قيل: فكم الرُّسُلُ منهُمْ؟ قال: ثلاثمائةٍ وثلاثةَ عشر، جمّاً غفيراً»(١).

﴿ إلاَّ إذا تَمَنَّى ﴾؛ هيأ فى نفسه ما يهواه؛ كهداية قومه ومقاربتهم له، ﴿ ألقى الشيطانُ في أُمنيته؛ ﴾ فى تشهيه ما يوجب حصول ما تمناه، أو مقاربته، كما ألقى فى مسامع قريش ما يُوجب مقاربتهم له - عليه الصلاة والسلام - ثم ينسخ الله ذلك. أو (إذا تمنى): قرأ، كما قال الشاعر:

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أوّلَ لَيْلَةٍ تَمَنِّيَ دَاوُدَ الزَّبُورَ عَلَى رِسْلِ

﴿ألقى الشيطان فى أُمنيته﴾: فى قراءته، حين قرأ سورة النجم بعد قوله: (ومناة الثالثة الأخرى)، تلك الغرانيق العُلى، كما تقدم.

قال القشيرى: كانت لنبينا ﷺ سكتات، فى خلال قراءته عند قراءة القرآن، عند انقضاء كل آية، فتلفظ الشيطان ببعض الألفاظ، فمن لم يكن له تحصيل توهم أنه من ألفاظ الرسول.هـ. وقال ابن البنا: التمنى هو التلاوة التى يُتمنى فيها، فيتلو النبى وهو يريد أن يفهم عنه معناها، فيلقى الشيطان فى فهوم السامعين غير المعنى المراد، وماقال الزمخشرى: قرأ تلك الغرانيق العلى، على جهة السهو والغلط، فباطل، لقول الله العظيم: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾(٢)، فهو معصوم من السهو والغلط فى تبليغ الوحى هـ.

قلت: فتحصل أنه - عليه الصلاة والسلام - لم ينطق بتلك الكلمات قط، لاسهواً ولا عمداً، وإنما أُلقيت فى مسامع الكفار ليحصل ما تمناه - عليه الصلاة والسلام - من المقاربة. ويدل على هذا أن من حضر من المسلمين لم يسمعوا من ذلك شيئاً، فإذا تقرر هذا علمت أن ماحكاه السلف الصالح من المفسرين وأهل السيَر من أصل القصة فى سبب نزول الآية صحيح، لكنه يحتاج إلى نظر دقيق وتأويل قريب، فلا تَحْسُن المبادرة بالإنكار والرد عليهم، وهم عدول، لا سيما حبر هذه الأمة، وإنما يحتاج اللبيب إلى التطبيق بين المنقول والمعقول، فإنْ لم يمكن، قدّم المنقول، إن ثبتت صحته، وحكم على العقل بالعجز. هذا مذهب المحققين من الصوفية - رضى الله عنهم - ونسبة الإلقاء إلى الشيطان أدب وتشريع؛ إذ لافاعل فى الحقيقة سواه تعالى.

﴿ فينسخ اللهُ ما يُلقي الشيطانُ ﴾ أى: يذهب به ويُبطله، أو يُرشد إلى ما يزيحه، ﴿ ثم يُحكِمُ اللهُ آياته ﴾ أى: يثبتها ويحفظها عن لحوق الزيادة من الشيطان، ﴿ والله عليمٌ حكيم ﴾ أى: عليم بما يوحى إلى نبيه، حكيم فى وحيه، لايدع الباطل يأتيه من بين يديه ولامن خلفه.

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/٢٦٥)، والطبرانى فى الكبير (٨/٢٥٩)، عن أبى أمامة، أن أبا ذر سأل رسول الله ﷺ ... الحديث، وفيه: «وخمسةعشر»، وأخرجه، بلفظ المفسر، ابن حبان فى (العلم، باب السؤال للفائدة، ح ٩٤ موارد)، والبيهقى فى السنن الكبرى (٩/٤) عن أبى ذر.

(٢) الآيتان: ٣ - ٤ فى سورة النجم.

ثم ذكر حكمة ذلك الإلقاء، فقال: ﴿ ليجعل ما يُلقي الشيطانُ فتنةً ﴾ أي: محنة وابتلاء ﴿ للذين في قلوبهم مرضٌ ﴾: شك وشرك، ﴿ والقاسيةِ قلوبهم ﴾؛ البعيدة من الخير، الخارية من النور، واليابسة الصلبة، لارحمة فيها ولاشفقة؛ وهم المشركون المكذبون، فيزدادون به شكاً وظلمة. ﴿ وإنَّ الظالمين ﴾ وهم الكفرة المتقدمة، ووضع الظاهر موضع المضمر؛ تسجيلا عليهم بالظلم، ﴿ لفي شقاقٍ بعيد ﴾ أي: عداوة شديدة ومخالفة تامة بعيدة عن الحق.

﴿ وليعلم الذين أُوتوا العلم ﴾ بالله ﴿ أنه ﴾ أي: القرآن ﴿ الحقُّ من ربك ﴾ أي: النازل من عنده ﴿ فيؤمنوا به ﴾ أي: بالقرآن ﴿ فتُخْبِتَ ﴾: تطمئن، أو تخشع ﴿ له قلوبُهم ﴾ بالانقياد إليه والإذعان لما فيه، ﴿ وإنَّ الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ بالنظر الموصل إلى الحق الصريح، فيتأولوا ما تشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة، ويطلبوا، لما أشكل منه، المحمل الذي تقتضيه الأصول المحكمة، حتى لا يلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا وقع التعبير من جانب الحق فكل واحد من المستمعين يسمع ما يليق بمقامه ويقويه فيه. فأهل الباطل يسمعون ما يليق بباطلهم ويمدهم فيه، وأهل الحق يسمعون ما يليق بحقهم ويرقيهم، فأهل الإيمان يسمعون ما يقوي إيمانهم ويزيدهم يقيناً، وأهل الوصول يسمعون ما يليق بمقامهم ويرقيهم فيه، وهكذا. وتأمل قضية الثلاثة الذين سمعوا قائلا يقول: ياسعترا بري. فسمع أحدهم: اسْعَ تَرَ بري، وسمع الآخر: الساعة ترى بري... وسمع الثالث: ما أوسع بري، فالأول: طالب للوصول، فقال له: اسع تر بري، والثاني: سائر مستشرف على الوصول، فقال له: الساعة ترى بري، والثالث: واصل قد اتسع عليه ميدان النعم، فقال له: ما أوسع بري. وكل من قَدِمَ على الأولياء فإنما يسمع بحسب ما عنده؛ فمن قَدِمَ عليهم بالميزان لا يسمع إلا ما يبعده، ومن قَدِمَ بالتصديق والتعظيم لا يسمع ولا يرى إلا ما يقربه من الكمالات والأنوار. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ضد الذين أوتوا العلم الذين تحققوا بحقية القرآن، فقال:

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٥٦) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥٧) وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية﴾: شك ﴿منه﴾؛ من القرآن، أو الصراط المستقيم، ﴿حتى تأتيهم الساعةُ بغتةً﴾: فجأة، ﴿أو يأتيهم عذاب يومٍ عقيم﴾، وهو عذاب يوم القيامة، كأنه قيل: حتى تأتيهم الساعة أو عذابها، فزاد «اليوم العقيم»؛ لمزيد التهويل. واليوم العقيم: الذى لا يوم بعده، كأنَّ كل يوم يلد ما بعده من الأيام، فما لا يوم بعده يكون عقيمًا. وقيل: اليوم العقيم: يوم بدر، فهو عقيم عن أن يكون للكافرين فيه فَرح أو راحة، كالريح العقيم؛ لا تأتى بخير، أو لأنه لا مثل له فى عِظم أمره؛ لقتال الملائكة فيه، ولكن لا يساعده ما بعده، من قوله: ﴿الملكُ يومئذٍ لله﴾ أى: السلطان القاهر، والتصرف التام، يومئذ لله وحده، ولامنازع له فيه، ولا تصرف لأحد معه، لاحقيقة ولامجازًا، ولا صورة ولا معنىً، كما فى الدنيا، فإنَّ للبعض فيه تصرفاً مجازياً صُورياً. ﴿يحكم بينهم﴾ أى: بين فريق أهل المرية وأهل الإيمان

ثم بيَن حكمه فيهم، فقال: ﴿فالذين آمنوا﴾ بالقرآن الكريم ولم يُماروا فيه، ﴿وعملوا الصالحات﴾ امتثالاً لما أمر به فى تضاعيفه ﴿في جنات النعيم﴾، ﴿والذين كفروا﴾ بالقرآن وشكوا فيه، أو بالبعث والجزاء، ﴿وكذَّبوا بآياتنا﴾ الدالة على كمال قدرتنا أو القرآن، ﴿فأولئك لهم عذابٌ مهين﴾، يُهينهم ويُخزيهم.

ثم خص قومًا من الفريق الأول بفضيلة، فقال: ﴿والذين هاجروا في سبيل الله﴾: خرجوا من أوطانهم مجاهدين، ﴿ثم قتلوا﴾ فى الجهاد، ﴿أو ماتوا﴾ حتف أنفهم، ﴿ليَرزقنَّهم الله رزقاً حسناً﴾، وهو ما لا ينقطع من نعيم الجنان. ومراتب الحسن متفاوته، فيجوز تفاوت حال المرزوقين، حسب تفاوت أرزاق الجنة. رُوى أن بعض أصحاب النبى ﷺ قالوا: يا نبى الله؛ هؤلاءِ الذين قُتلوا فى سبيل الله قَدْ علمْنَا ما أعْطَاهُمُ الله مِن الخَيْرِ، ونحنُ نُجَاهِدُ معَكَ كما جاهَدُوا، فَمَا لنَا معَكَ؟ فنزلت: (والذين هاجروا...) الآيتين. وقيل: نزلت فى طوائف خرجوا من مكة إلى المدينة، فتبعهم المشركون فقتلوهم.

ثم قال تعالى: ﴿وإ ن الله لهو خير الرازقين﴾، فإنه يرزق بغير حساب، مع أنَّ ما يرزقه لا يقدر عليه غيره، ﴿ليُدخلنَّهم مُدْخلاً يرْضَوْنَهُ﴾، وهو الجنة؛ لأنَّ فيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، قيل: لَمَّا ذكر الرزق ذكر المسكن، ﴿وإن الله لعليمٌ حليمٌ﴾، عليم بأحوال من قضى نحبه مجاهداً، وآمال من مات وهو ينتظره معاهداً، حليم بإمهال من قاتلهم معانداً.

الإشارة: من لم يصحب العارفين أهل الرسوخ واليقين، لا يمكن أن تنقطع عنه خواطر الشكوك والأوهام، حتى يلقى الله بقلب سقيم، فيُفضى إلى الهوان المقيم. والذين هاجروا فى طلب محبوبهم لتكميل يقينهم، ثم قتلوا قبل الوصول، أو ماتوا بعد الوصول، ليرزقنهم الله جميعاً رزقاً حسناً، وهو لذة الشهود والعيان، فى مقعد صدق مع

المقربين، (وإن الله لهو خير الرازقين) . والمدخل الذى يرضونه: هو القرب الدائم، والشهود المتصل. جعلنا الله من خواصهم بمنّه وكرمه.

ولمّا ذكر ثواب من هاجر وقُتل فى سبيل الله، أو مات، أخبر أنه لا يدع نصرتهم فى الدنيا على من بغى عليهم، فقال:

﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾

قلت: (ذلك): خبر، أى: الأمر ذلك. و(من عاقب): شرط سدّ مسد جوابه، أى: من عاقب بمثل ما عُوقب به ينصره الله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ذلك ﴾ أى: الأمر ذلك، كما أخبرتك فى بيان الفريقين، ثم استأنف فقال: ﴿ ومن عاقب بمثل ما عُوقبَ به ﴾ أى: لم يزد فى القصاص على ما فُعل به، وسمى الابتداء عقاباً؛ للمشاكلة ولملابسته له، من حيث إنه سبب له وهو مسبب عنه. ﴿ ثم بُغِيَ عليه لينصُرَنّه اللهُ ﴾ أى: من جازى بمثل ما فُعل به من الظلم، ثم ظُلم، بعد ذلك، وبُغى عليه بعد ذلك، فحق على الله أن ينصره؛ ﴿ إنّ الله لعفوٌّ ﴾ يمحو آثار الذنوب، ﴿ غفورٌ ﴾ يستر أنواع العيوب.

ومناسبة الوصفين لما قبلهما: أن المعاقب مأمور بالعفو من عند الله، بقوله: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾(١)، ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾(٢)، فحين لم يفعل ذلك، وانتصر لنفسه، فكأنه مُذنب، فمعنى العفو فى حقه أنه لا يلزمه على ترك الفضل شيء، وأنه ضامن لنصره فى الكرة الثانية، إذا ترك العفو وانتقم من الباغى عليه، وعَرّض، مع ذلك، بما كان أولى به من العفو بذكر هاتين الصفتين .

---

(١) من الآية ٤٠ من سورة الشورى.
(٢) الآية ٤٣ من سورة الشورى.

ثم ذكر دلائل قدرته على النصر وغيره بقوله: ﴿ ذلك بأن الله يُولِج الليلَ في النهار ويُولِجُ النهارَ في الليل وأنَّ الله سميع بصيرٌ ﴾ أي: ذلك النصر للمظلوم بسبب أنه قادر على ما يشاء. ومن آيات قدرته أنه (يُولجُ الليلَ فى النهار ويُولِجُ النهارَ فى الليل) أى: يُدخل أحدهما فى الآخر، فيدخل الليلَ فى النهارِ إذا طال النهار، ويُدخل النهارَ فى الليل إذا طال الليلُ، فيزيد فى أحدهما ما ينقص من الآخر. أو بسبب أنه خالق الليل والنهار ومصرفهما، بإدخال أحدهما على الآخر، فلا يخفى عليه ما يجرى فيهما على أيدى عباده من الخير والشر، والبغى والإنصاف. ﴿ وأن الله سميع ﴾ لما يقولون، لا يشغله سمع عن سمع، وإن اختلفت فى النهار الأصوات بفُنون اللغات، ﴿ بصير ﴾ بما يفعلون، فلا يستتر عنه شيء بشيء فى الليالى، وإن توالت الظلمات.

﴿ ذلك بأن الله هو الحقُّ ﴾ الواجب لذاته، الثابت فى نفسه، الواحد فى صفاته وأفعاله، فإن وجوب وجوده ووحدته يقتضيان كونه مُبدياً لكل ما يوجد من الموجودات، عالماً بكل المعلومات. وإذا ثبت أنه الحق فدينُه حق، وعبادته حق، ﴿ وأن ما تدعون[1] من دونه ﴾ إلهًا ﴿ هو الباطل ﴾ أى: المعدوم فى حد ذاته. أو الباطل ألوهيته، ﴿ وأن الله هو العليُّ الكبيرُ ﴾ أى: المتعالى عن مدارك العقول، وعن سمات الحدوث، أو المرتفع على كل شيء بقهريته، أو المتعالى عن الأنداد والأشباه، الكبير شأناً وعظمةً وكبرياء؛ إذ كل شيء يصغر دون كبريائه، فلا شيء أعلى منه شأناً وأكبر سلطانا؛ لأن له الوجود المطلق. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ومن عاقب نفسه وجاهدها وأدّبها فى أيام اليقظة، بمثل ما عاقبته وجنت عليه وطغت فى أيام الغفلة، ثم صرعته بعد ذلك وغلبته؛ لينصرنه اللهُ عليها، حتى يغلبها ويملكها، فكلما هاجت عليه هجم عليها، حتى يملكها؛ ذَلك بأن الله يُولج ليلَ المعصية فى نهار الطاعة، ويولجُ نهارَ الطاعة فى ليلِ المعصية، أى: يدخل أحدهما على الآخر، فلا يزال العبد يعصى ويطيع حتى يمنّ عليه بالتوبة النصوح. أو يولج ليل المعصية فى نفس الطاعة، فتنقلب الطاعة معصية، إذا صحبها علو واستكبار. ويولج نهار الطاعة فى عين المعصية، فتنقلب طاعة إذا صحبها ذل وافتقار. ذلك بأن الله هو الحق، وأن ما دونه باطل.

---

(١) قرأ أبو عمرو، وحمزة والكسائى وحفص ويعقوب، بالياء، على الغيب. وقرأ الباقون بالتاء، على الخطاب.. انظر الإتحاف (٢/٢٧٩)

ثم ذكر دليلاً آخر على قدرته، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾

قلت: (فتصبح) : عطف على «أنزل»، والعطف بالفاء أغنى عن الضمير، وإيثار صيغة الاستقبال؛ للإشعار بتجدد أثر الإنزال، وهو الاخضرار واستمراره، أو لاستحضار صورة الاخضرار، وإنما لم ينصب جواباً للاستفهام؛ لأنه لو نصب لبطل الغرض؛ لأن معناه في الرفع إثبات الاخضرار، فينقلب في النصب إلى نفيه، كما تقول لصاحبك: ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر، إن نصبته نفيت شكره، وشكوت من تفريطه، وإن رفعته أثبت شكره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم ترَ﴾ يا محمد، أو يا من يسمع، ﴿أن الله أنزل من السماء ماءً﴾؛ مطراً ﴿فتصبحُ الأرض مخضرةً﴾ بالنبات، بعدما كانت مسودة يابسةً، ﴿إنَّ الله لطيفٌ﴾ بعباده، أو في ذاته لايدرك، ﴿خبيرٌ﴾ بمصالح خلقه ومنافعهم، أو اللطيف المختص بدقائق التدبير، الخبير بكل جليل وحقير، قليل وكثير. ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾؛ مُلكاً ومِلْكاً، قد أحاط بهم؛ قدرةً وعلماً، ﴿وإنَّ الله لهو الغني﴾ عن كل شيء، المفتقر إليه كل شيء، ﴿الحميد﴾ : المحمود بنعمته، قبل ثناء من في السموات والأرض عليه، أو المستحق للحمد، أعطى أو لم يعط.

ثم ذكر موجب الحمد من عباده، فقال: ﴿ألم ترَ أن الله سخَّر لكم ما في الأرض﴾ من الأنعام؛ لتأكلوا منها، ومن البهائم؛ لتركبوها في البر، ﴿والفُلكَ تجري في البحر بأمره﴾ : بقدرته وإذنه، أي: وسخر لكم المراكب حال كونها جارية في البحر بإذنه، ﴿ويُمسكُ السماءَ أن تقعَ على الأرضِ﴾ أي: يحفظها من السقوط، بأن خلقها على هيئة متداعية إلى الاستمساك، ﴿إلا بإذنه﴾ : إلا بمشيئته، وذلك يوم القيامة، وفيه رد لاستمساكها بذاتها؛ فإنها مساوية لسائر الأجسام في الجسمية، فتكون قابلة للميل الهابط قبولَ غيرها. ﴿إنَّ الله بالناس لرؤوفٌ رحيمٌ﴾؛ حيث هيأ لهم هذه الأسباب لقيام معاشهم، وفتح لهم أبواب المنافع، ودفع عنهم أنواع المضار، فأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينية والتنزيلية، فله الحمد وله الشكر.

الإشارة : ألم تر أن الله أنزل من سماء المعانى ماء علم الغيوب، وهو علم أسرار الذات وأنوار الصفات، أعنى: التوحيد الخاص، فإذا نزل على أرض النفوس، اهتزت وربت، واخضرت بالعلوم والمعارف، إن الله لطيف خبير، لطيف؛ لسريان معانيه اللطيفة فى كل شىء، خبير ببواطن كل شىء، فمن كوشف بلطيف معانيه وإحاطة علمه فى كل شىء، وبكل شىء، حيى قلبه بمعرفة الله، واخضرت أرض نفسه بأنواع العلوم والمعارف .ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض، يكون عند أمركم ونهيكم، وفلك الفكرة تجرى فى بحر التوحيد بأمره، ويُمسك سماء الأرواح أن تقع على أرض الحظوظ إلا بإذنه، بعد الرسوخ فى معرفته، والتمكين من الفهم عنه، إن الله بالناس لرؤوف رحيم؛ حيث فتح لهم باب العلوم، وهيأ لهم أسباب الفهوم، وهى الرياضة والتأديب.

ثم ذكر دليلاً آخر على قدرته، فقال:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهو الذي أحياكم﴾ بعد أن كنتم جماداً، عناصر ونطفًا فى الأصلاب والأرحام، حسبما فُصل فى صدر السورة، ﴿ثم يُميتُكم﴾ عند مجىء آجالكم، ﴿ثم يُحييكم﴾ عند البعث، لإيصال جزائكم، ﴿إنَّ الإنسان لكفور﴾ : لَجَحُود لِمَا أفاض عليه من ضروب النعم، ودفع عنه من صنوف النقم، أو لا يعرف نعمة الإيجاد المُظهرة للوجود، ولانعمة الإمداد الممدة بعد الوجود، ولا نعمة الإفناء المقربة إلى الموعود، ولانعمة الإحياء الموصلة إلى المقصود، وهو التنعم فى جوار الملك الودود، فله الحمد دائماً وله الشكر.

الإشارة : وهو الذى أحياكم باليقظة بعد الغفلة، وبالعلم بعد الجهل، ثم يميتكم عن حظوظ نفوسكم وهواها، ثم يُحييكم بالمعرفة به، حياةً لا موت بعدها، فمن لم يعرف هذا فهو كنود.

ولايُمكن الوقوف على هذه النعم والقيام بشكرها، إلا بالتمسك بالشرع والوحي الإلهى، الذى أنزل اللهُ على كل أمة، كما أبان ذلك بقوله:

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى

ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ لكل أمة ﴾ من الأمم الخالية والباقية ﴿ جعلنا ﴾ أي: وضعنا، وعيّنا ﴿ منسكاً ﴾: شريعة خاصة يتمسكون بها، أي: عيّنا كل شريعة لأمة معينة من الأمم، بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى، لا استقلالاً ولا اشتراكاً، فكل جيل لهم شرع مخصوص، ﴿ هم ناسكوه ﴾: عاملون به، فالأمة التى كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى ـ عليهما السلام ـ منسكهم التوراة، هم عاملون به لاغيرهم. والتى كانت من مبعث عيسى ﷺ إلى مبعث النبى ﷺ منسكهم الإنجيل، هم ناسكوه وعاملون به. وأما الأمة الموجودة عند مبعث النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومن بعدهم إلى يوم القيامة؛ فهم أمة واحدة، منسكهم القرآن، ليس إلا.

والفاء فى قوله: ﴿ فلا ينازعنك في الأمر ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ فإن تعيين كل أمة بشرع مخصوص، يجب اتباعه، يُوجب اتباع هؤلا الموجودين لرسول الله ﷺ وعدم منازعتهم له فى أمر الدين، أى: فلا يجادلنك فى أمر الدين، بل يجب عليهم الاستسلام والانقياد لكل أمر ونهى. أو: فلا تلتفت إلى قولهم، ولا تمكنهم من أن ينازعوك في الأمر، أى: أمر الدين أو أمر الذبائح. قيل: نزلت حين قال المشركون للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتله الله؟ يعنى: الميتة، فأمر الله بالغيبة عنهم، وعدم الالتفات إلى قولهم. ﴿ وادع إلى ربك ﴾ أى: دم على الدعاء إلى الله، والتمسك بدينه القويم؛ ﴿ إنك لعلى هُدًى مستقيم ﴾: طريق قويم موصل إلى الحق.

﴿ وإن جادلوك ﴾ بعد ظهور الحق؛ مراء وتعنتاً، كما يفعله السفهاء، بعد اجتهادك ألاّ يكون بينك وبينهم تنازع وجدال، ﴿ فقل اللهُ أعلمُ بما تعملون ﴾ أى: فلا تجادلهم، وادفعهم بهذا القول، والمعنى: إن الله عالم بأعمالكم وماتستحقون عليها من الجزاء، فهو يُجازيكم به. وهذا وعيد وإنذار، ولكن برفق ولين، يُجيب به العاقلُ كلّ متعنت سفيه. قال تعالى: ﴿ اللهُ يحكمُ بينكم يومَ القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ من أمر الدين، وهو خطاب من الله تعالى للمؤمنين والكافرين، تسلية لرسول الله ﷺ مما كان يلقى منهم.

﴿ ألم تعلمْ أن الله يعلمُ ما في السماء والأرض ﴾، الاستفهام للتقرير، أى: قد علمت أن الله يعلم كل ما يحدث فى السماء والأرض، ولا يخفى عليه شيء من الأشياء، ومن جملتها: ما تقوله الكفرة وما يعملونه، ﴿ إنَّ ذلك في كتاب ﴾؛ فى اللوح المحفوظ، ﴿ إنَّ ذلك على الله يسير ﴾ أى: علمه بجميع ذلك عليه يسير، فلا يخفى عليه

معلوم، ولا يعسُر عليه مقدور. ﴿ ويعبدونَ من دون الله ﴾ أى: متجاوزين إياه، مع ظهور دلائل عظمته وقدرته وتوحيده، ﴿ مالم يُنزل به سلطاناً ﴾: حجة وبرهاناً، ﴿ وما ليس لهم به علمٌ ﴾ أى: وما ليس لهم بجواز عبادته علم؛ من ضرورة أو استدلال، أى: لم يتمسكوا فى عبادتهم لها ببرهان سماوى من جهة الوحى، ولا حملهم عليها دليل عقلى، بل لمجرد التقليد الردىء، ﴿ وما للظالمين من نصير ﴾ أى: وما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم العظيم من أحد ينصرهم، أو يصوب مذهبَهم، أو يدفع العذاب عنهم، حين يعتريهم بسبب ظلمهم. والله تعالى أعلم

الإشارة: كما اختلفت الشرائع باختلاف الملل، اختلفت التربية باختلاف الأشخاص والأعصار، وقد تقدم عند قوله: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾(١). وجملتها ترجع إلى الهمة والحال، وبهما كانت التربية فى الصدر الأول، فكانت الملاقاة والصحبة تكفى، ويحصل التهذيب والتصفية وكمال المعرفة. وذلك فى زمان الصحابة والتابعين إلى القرن الثالث؛ لقربهم من النور النبوى. فلما بَعُد الأمر، وأظلمت القلوب، أحدثوا تربية الاصطلاح، وهو التزيى بزى مخصوص، كالمرقعة وحمل السبحة فى العنق، والركوة، وغير ذلك من مسائل التجريد، وترتيب أمور تموت بها النفوس وتعالج بها القلوب، واستعمال أوراد مخصوصة، فكانت التربية حينئذ بالهمة والحال والاصطلاح. وقد تحصل التربية لمن له الهمة والحال بغير اصطلاح، إذا رآه ينجع فيه ذلك، فبقى الأمر كذلك إلى القرن التاسع، فتصدى للتربية بالاصطلاح قوم مُدَّعُون، لا همة لهم ولا حال، فقال الحضرمى حسمًا لهذه الدعوى: قد انقطعت التربية بالاصطلاح، وما بقى إلا الهمة والحال، فعليكم بالكتاب والسنة، أى: بظاهر الكتاب والسنة من غير زيادة ولا نقصان، يعنى طريق الأحوال والاصطلاح. ومراده بذلك: قطع التربية بالاصطلاح من غير همة ولا حال. وأما من له الهمة والحال فلا يقصد الحضرمى قطع تربيته بالاصطلاح. والحاصل: أن الحضرمى ما حكم إلا على وقته؛ لِمَا رأى من الفساد الذى دخل فى التربية. وقد وُجد بعده رجال مُربون بالاصطلاح مع الهمة والحال. والمراد بالهمة: العلم بالله على نعت الشهود والعيان، وبالحال: إنهاض القلوب عند رؤيته لذكر الله؛ لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ «خَيْرُكُمْ مَنْ إذا رُؤوا ذُكِر اللَّهُ» . ولابد من إذن خاص من الشيخ، أو من يقوم مقامه، وإلا فلا تنجح تربيته، ولا ينهض حاله. والله تعالى أعلم.

فإن تأهلتَ للتربية بإذن خاص، فلا ينازعنك فى الأمر، أى: لا تلتفت إلى من ينازعك ويحتج عليك بانقطاع التربية؛ تعنتًا وعناداً. وادع إلى ربك، إنك لعلى هدى مستقيم. قال القشيرى: قوله: (وإن جادلوك...) الخ، أى:

---

(١) من الآية ٤٨ من سورة المائدة.

كلِّهم إلينا، عندما راموا أمر الجدال، ولا تتكل على ما تختاره من الاحتيال، واحذر جنوحَ قلبك إلى الاستغاثة بالأمثال والأشكال؛ فإنهم قوالبُ خاوية. وأشباحٌ من رؤية المعاني خالية. هـ. ويوم القيامة يظهر المحق من المبطل، ويقال في شأن من يعبد هواه: (ويعبدون من دون الله...) الآية.

ثم ذكر وصفاً آخر لأهل الإنكار، فقال:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٧٢) ﴾

قلت: (وإذا تتلى): عطف على «يعبدون»، وصيغة المضارع؛ للدلالة على الاستمرار التجددي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإذا تُتلى عليهم﴾ أي: على المشركين ﴿آياتُنا﴾ القرآنية، حال كونها ﴿بينات﴾: واضحات الدلالة على العقائد الحقية، والأحكام الصادقة، ﴿تعرِفُ في وجوه الذين كفروا المنكرَ﴾ أي: الإنكار بالعبوس والكراهة، فالمُنكَر: مصدر بمعنى الإنكار. ﴿يكادون يسطُون﴾: يبطشون، والسطو: الوثب والبطش، أي. يثبون على الذين ﴿يتلُون عليهم آياتنا﴾؛ من فرط الغيظ والغضب، والتالون هم: النبي ﷺ وأصحابه. ﴿قلْ﴾ لهم: ﴿أفأنبئُكُم بشرٍ من ذلكم﴾؛ من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم، أو مما أصابكم من الكراهة والضجر، بسبب ما يتلى عليكم، هو ﴿النارُ وَعَدها اللهُ الذين كفروا﴾ مثلكم، ﴿وبئس المصيرُ﴾ النار، التي ترجعون إليها مخلدين.

الإشارة: من شأن أهل العتو والتكبر أنهم إذا وعظهم الفقراء عنفوا واستنكفوا، ويكادون يسطون عليهم من شدة الغضب، فما قيل لكبراء الكفار يجرُ ذيله على من تشبه بهم من المؤمنين.

ولمّا كان دعواهم الشريك لله تعالى جارية في الغرابة والشهرة مجرى الأمثال السائرة، ضرب لها الحق تعالى مثلاً، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ

﴿ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الناس ضُرب مثلٌ ﴾ أى: يُبين لكم حالٌ مستغربة، أو قصة بديعة رائقة حقيقة بأن تسمى مَثَلاً، وتنشر فى الأمصار والأعصار، ﴿ فاستمعوا له ﴾؛ لضرب هذا المثل؛ استماع تدبر وتفكر، وهو: ﴿ إنَّ الذين تدعُون ﴾، وعن يعقوب: بياء الغيبة، أى: إن الذين تدعونهم آلهة وتعبدونهم ﴿ من دون الله لن يخلقُوا ذُباباً ﴾ أى: لن يقدروا على خلقه أبداً، مع صغره وحقارته. و«لن»: لتأبيد النفى، فتدل على استحالته، ﴿ ولو اجتمعوا له ﴾ أى: الذباب. ومحله: نصب على الحال، كأنه قال: لا يقدرون على خلقه مجتمعين له، متعاونين عليه، فكيف إذا كانوا منفردين؟! وهذا أبلغ ما أُنزل فى تجهيل قريش، حيث وَصَفوا بالألوهية - التى من شأنها الاقتدار على جميع المقدورات، والإحاطة بكل المعلومات - صُوراً وتماثيل، يستحيل منها أن تقدر على أضعف ما خلقه الله تعالى وأذله، ولو اجتمعوا له.

﴿ وإن يسلبْهُمُ الذبابُ شيئاً ﴾ من الطيب وغيره، ﴿ لا يستنقذوه منه ﴾ أى: هذا الخلق الأرذل الأضعف، لو اختطف منهم شيئًا فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه، لم يقدروا، وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنهم كانوا يطلُونها بالعسل والطيب، ويغلقون عليها الأبواب، فيدخل الذبابُ مِن الكُوى[1] فيأكله، فتعجز الأصنام عن أخذه. ﴿ ضَعُفَ الطالبُ ﴾: الصنمُ بطلب ما سُلب منه، ﴿ والمطلوبُ ﴾: الذبابُ بما سَلَبَ. وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب فى الضعف، ولو حققت لوجدت الطالب أضعفَ وأضعفَ؛ فإنَّ الذباب حيوان والصنم جماد.

﴿ ما قَدَروا الله حقَّ قدره ﴾: ما عرفوه حق معرفته، حيث جعلوا هذا الصنم الضعيف شريكًا له، ﴿ إن الله لقويٌ عزيزٌ ﴾ أى: قادر غالب، فكيف يتجه أن يكون العاجز المغلوب شبيهاً له! أو: لقوى ينصر أولياءه، عزيز ينتقم من أعدائه. بَعْدَ أن ذكر تعالى أنهم لم يقدروا له قدراً؛ حيث عبدوا معه من هو منسلخ من صفاته، وسموه باسمه مع عجزه. ختم بصفتين منافيتين لصفات آلهتهم؛ وهى القوة والغلبة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من تعلق فى حوائجه بغير الله أوركن بالمحبة إلى شىء سواه، فقد أشرك مع الله أضعف شىء وأقله. فماذا يجدى تعلقُ العاجزُ بالعاجز، والضعيف بالضعيف، ضَعف الطالبُ والمطلوب. فما قدر الله حقَ قدره من تعلق فى أموره بغيره. قال الورتجبى: بيَّن سبحانه - بعد ذكر عجز الخلق والخليقة - جلال قدره الذى لا يعرفه غيره، بقوله: (ما قدروا الله حق قدره)، قال: وهذه شكاية عن إشارة الخلق إليه بما هو غير موصوف به، فذكر

---

(١) الكُوى: جمع كوَّة، ويجمع أيضا على كِواء. وهى الخرق فى الحائط. انظر: اللسان (كوى ٥/٣٩٦٤) . والخبر: ذكره البغوى فى تفسيره (٥/٤٠٠).

غيرته؛ إذ أقبلوا إلى غير من هو موصوف بالقوة الأزلية والعزة السرمدية. ألا ترى كيف قال: (إن الله لقوى عزيز)، ثم بيَّن أنه تعالى اصطفى من الملائكة رسلاً، يخبرون عنه ما يتعلق بعجز الخلق عن إدراكه من وصف ذاته وصفاته، بقوله:

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿الله يصطفي﴾: يختار ﴿من الملائكة رُسلاً﴾ يرسلهم إلى صفوة خلقه، كجبريل وميكائيل وإسرافيل وغيرهم، ﴿ومن الناسِ﴾، كإبراهيم وموسى وعيسى ونبينا محمد ﷺ، يُعرِّفون بجلال الله ومعرفة قدره، حتى يقدروه حق قدره باعتبارهم لاباعتباره؛ فإنَّ الله تعالى لا يمكن لأحد أن يقدرُه حق قدره. قال سيد العارفين: «لا أُحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك». وقيل: نزلت؛ رداً لما أنكروه من أن يكون الرسول من البشر، وبياناً أن رُسل الله على ضربين: ملك وبشر. وقيل: نزلت فى قولهم: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾(١). ﴿إن الله سميع بصير﴾ أى: سميع لقولهم، بصير بمن يختاره للرسالة. أو سميع لأقوال الرسل، بصير بأحوال الأمم فى الردّ والقبول. ﴿يعلم ما بين أيديهم﴾: ما مضى، ﴿وما خلفهم﴾: ما يأتى، أو ما عملوا وما سيعملونه، أو أمر الدنيا وأمر الآخرة، ﴿وإلى الله تُرجع الأمور﴾ أى: إليه مرجع الأمور كلها، ليس لأحد أن يعترض عليه فى حكمه وتدبيره واختياره مَن شاء مِن رُسلِه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: شرب الخمرة، وهى المحبة الحقيقية والمعرفة الكاملة، لاتكون إلاّ على أيدى الوسائط، والنادر لاحكم له، فالأنبياء وسائطهم الملائكة، والأولياء وسائطهم خلفاء الأنبياء، وهم أهل العلم بالله الذوقى العِيانى. وقال الورتجبى - إثرما تقدم عنه -: فالملائكة وسائط الأنبياء، والأنبياء وسائط العموم، والأولياء للأولياء خاصة. هـ. وتوسيط الأنبياء للعموم فى مطلق المحبة، وتعليم ما يقرب إليها، وأما المحبة الحقيقية فهى خاصة بالأولياء للأولياء، كما قال. وبالله التوفيق.

ثم ذكر سببها، وما يقرب إليها، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟

(١) من الآية ٨ من سورة ص.

﴿ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ (٧٨) ﴾

قلت : (ملة أبيكم) : منصوب بمحذوف، أي: اتبعوا ملة إبراهيم.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ﴾ في صلاتكم، وكانوا أول ما أسلموا يصلون بلا ركوع وسجود، فأمروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود، وفيه دليل على أن الأعمال ليست من الإيمان، وأن هذه السجدة للصلاة لا للتلاوة، قاله النسفي. ﴿ واعبدوا ربكم ﴾ أي: واقصدوا بعبادتكم وجه الله، وأخلصوا فيها، أو هو عطف عام على خاص؛ فإن العبادة أعم. ﴿ وافعلوا الخير ﴾ كله. قيل: لما كان للذكر مزية على غيره دعا المؤمنين أولاً للصلاة التي هي ذكر خالص؛ لقوله: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ﴾[1]، ثم إلى العبادة بغير الصلاة، كالصوم والحج، ثم عم بالحث على سائر الخيرات. وقال ابن عرفه: وافعلوا الخير: راجع للعبادة المتعدية، وما قبله يختص بالقاصرة. قال المحشي: وفيه نظر؛ لشمول العبادة لما هو متعدي النفع، كتعليم العلم، والصدقة، ونحو ذلك، بل أمر أولاً بالصلاة، وهي نوع من العبادة، وثانياً بالعبادة، وهي نوع من فعل الخير، وثالثاً بفعل الخير، وهو أعم من العبادة. فبدأ بخاص ثم عام ثم بأعم. هـ. ﴿ لعلكم تُفلحون ﴾: كي تفوزوا، أي: افعلوا هذا كله، وأنتم راجون للفلاح غير مستيقنين، فلا تتكلوا على أعمالكم.

﴿ وجاهدوا في الله ﴾ أي: في ذات الله ومن أجله ﴿ حقَّ جهاده ﴾، أمرٌ بالغزو وبمجاهدة النفس والهوى، وهو الجهاد الأكبر، ومنه: كلمة حق عند أمير جائر. قال ـ عليه الصلاة السلام ـ: «أعمال البر كلها، إلى جنب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كنفثة إلى جنب البحر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى جنب الجهاد في سبيل الله عز وجل كنفثة في بحر، والجهاد في سبيل الله عز وجل إلى جنب مجاهدة النفس عن هواها في أجتناب النهي، كنفثة في جنب بحر لجي» . وهذا على معنى الخبر الذي جاء: «جئتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[2]. يعني: مجاهدة النفس. قاله في القوت.

(١) من الآية ١٤ من سورة طه.

(٢) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (تسديد القوس، باب القاف، قدمت من الجهاد الأصغر)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٣/٥٢٣) من حديث جابر، بألفاظ مقاربة، وآخره: «وما الجهاد الأكبر؟ قال: مجاهدة العبد هواه». وإسناده ضعيف. راجع الفتح السماوي (٢/٨٥١)، وكشف الخفاء (١/٥١١).

قال القشيري: حق الجهاد ما يوافق الأمر في القَدْرِ والوقتِ والنوعِ، فإذا حَصَلَ في شيءٍ منه مخالفة فليس حَقَّ جهاده. هـ. قلت: موافقة القَدْر، في جهاد النفس، أن يكون بغير إفراط ولاتفريط، فالإفراط يُمل، والتفريط يُخل، وموافقة الوقت أن يكون قبل حصول المشاهدة؛ إذ لا تجتمع مجاهدة ومشاهدة في وقت واحد. والنوع أن يجاهدها بما يُباح في الشرع، لا بمحرم ولامكروه. وقال في الحاشية: هو الوفاء بالمشروع مع رفع الحرَج، بدليل ما بعده، فهو موافق لقوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾(١)، ومما هو ظاهر في الآية: الذب عن دينه وتغيير المناكر. هـ.

﴿ هو اجتباكم ﴾: اختاركم لدينه بإظهاره والذب عنه، وهو تأكيد للأمر بالجهاد، أي: وجب عليكم أن تجاهدوا؛ لأنَّ الله اختاركم لإظهار دينه، ﴿ وما جعلَ عليكم في الدين من حَرجٍ ﴾: ضيقٍ، بل وسع عليكم في جميع ما كلفكم به، من الطهارة، والصلاة والصوم والحج، بالتيمم والإيماء، وبالقصر في السفر، والإفطار لعذر، وعدم الاستطاعة في الحج. فاتبعوا ﴿ ملةَ أبيكم إبراهيم ﴾؛ فإن ما جاءكم به رسولكم موافق لملته في الجملة، لقوله ﷺ: «جئتكم بالحنيفية السمْحة»(٢).

وسماه أبًا، وإنْ لم يكن أبًا للأمة كلها؛ لأنه أبو رسول الله ﷺ فكان أبًا لأمته؛ لأن أمة الرسول في حكم أولاده. قال ﷺ: «إِنَّما أَنَا لكُمْ مِثْلُ الوَالِدِ»(٣).

﴿ هو سماكم المسلمين ﴾ أي: الله، بدليل قراءة أُبي: «الله سماكم» أو إبراهيم لقوله: ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾(٤) ﴿ من قبلُ ﴾ أي: سماكم من قبل ظهورهم في الكتب السالفة، ﴿ وفي هذا ﴾ أي: القرآن، فقد فضلكم على سائر الأمم، وسماكم بهذا الاسم الأكرم، ﴿ ليكون الرسولُ شهيداً عليكم ﴾ أنه قد بلغكم رسالة ربكم، ﴿ وتكونوا شهداء على الناس ﴾ بتبليغ الرسل رسالات الله إليهم. وإذاخصكم بهذه الكرامة والأثرة ﴿ فأقيموا الصلاة ﴾ بواجباتها، ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ لشرائطها، ﴿ واعتصموا بالله ﴾ أي ثقوا به وتوكلوا عليه، لا بالصلاة والزكاة. أو: ثقوا به في جميع أموركم، ولا تطلبوا الإعانة والنصر إلا منه. ﴿ هو مولاكم ﴾: مالككم وناصركم ومتولي أموركم، ﴿ فنعم المولى ﴾؛ حيث لم يمنعكم رزقكم بعصيانكم، ﴿ ونعمَ النصير ﴾ أي: الناصر؛ حيث أعانكم على طاعتكم ومجاهدة نفوسكم وأعدائكم.

---

(١) من الآية ١٦ من سورة التغابن.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/٢٦٦)، والطبراني في الكبير (٨/٢٥٧ رقم ٧٨٦٨) من حديث أبي أمامة بلفظ: «إني لم أبعث باليهودية ولا النصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة».

(٣) بعض حديث أخرجه أبو داود في (الطهارة، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة)، والنسائي في (الطهارة، باب النهي عن الاستطابة بالروث)، وابن ماجة في (الطهارة، باب الاستنجاء بالحجارة)، والدارمي في (الطهارة، باب الاستنجاء بالأحجار) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) من الآية ١٢٨ من سورة البقرة.

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا تقربوا إليّ بأنواع الطاعات وبالمسارعة إلى الخيرات، لعلكم تفوزون بمعرفة أسرار الذات وأنوار الصفات، وجاهدوا نفوسكم بأنواع المجاهدات، كى أجتبيكم وأنزهكم فى أسرار ذاتى، فإنى قد اجتبيتكم قبل كونكم فى أزل أزلى. وكأنه يشير إلى قوله: «لايزال عبدى يتقرب إليّ بالنوافل حتى أُحبه، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذى يسمع به...» الحديث.

والمأمورُ به من التقرب والمجاهدة قدر الاستطاعة، من غير تشديد ولاتعقيد، لقوله: (وما جعل عليكم فى الدين من حَرج)؛ لأن مبنى الشرع الكريم على السهولة، فالذى يتوصل إلى رضوانه أو صريح معرفته، لا يشترط أن يستغرق كنه إمكان العبد فيه. «لو كنت لاتصل إليه إلا بعد فناء مساوئك ومحو دعاويك، لم تصل إليه أبداً، ولكن إذا أراد أن يُوصلك إليه غطى وصفك بوصفه، ونَعْتَكَ بنعته، فوصلك بما منه إليك، لا بما منك إليه». كما فى الحِكَم.

وقال الورتجبى: (وما جعل..) الآية، أى: إذا شاهدتم مشاهد جمالى سهل عليكم فناؤكم فى جلالى، وسهل عليكم بذل مهجكم إليه. ألا ترى كيف قال: (ملةَ أبيكم إبراهيم)، ومن ملته: الاستسلام والانقياد، وبذل الوجوه بنعت السخاء والكرم، يا أسباط خليلى، رأى أبوكم استعداد هذه المراتب الشريفة فيكم، قبل وجودكم بنور النبوة، فسماكم المسلمين، أى: منقادين بين يديّ، عارفين بوحدانيتى. وفيما ذكرنا من أوصافكم، حبيبى شاهد عليكم، يعرف هذه الفضائل منكم، وهو بلغكم نشْر فضائلى عليكم. ثم قال: اطلبوا الاعتصام منى، استعينوا لأقويكم فى طاعتى. ثم قال: (فنعم المولى) حيث لا مولى غيره، (ونعم النصير) حيث لا يُخذل من نصره؛ فإن الله عزيز ممتنع من نقائص النقص. قال جعفر فى قوله: (حق جهاده): ألاّ تختارَ عليه شيئاً، كما لم يختر عليك؛ لقوله: (هو اجتباكم). هـ.

وقوله تعالى: (وتكونوا شهداء على الناس...) الآية، أى: اجتباكم واختاركم وسماكم مسلمين، لتكونوا مرضيين عدولاً، تشهدون على الأمم، كما يشهد محمد ﷺ عليكم ويزكيكم، فهو كقوله تعالى: ﴿ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ... ﴾[1] إلخ. وإذ قد خصكم بهذه الكرامة والأثرة فاعبدوه وثقوا به، ولاتطلبوا الولاية والنصرة إلا منه، فهو خير ولى وناصر، ومن كان الله تعالى مولاه وناصره فقد أفلح وفاز، ولذلك افتتح السورة التى تليها به. وبالله التوفيق. وهو الهادى إلى سواء الطريق.

❁ ❁ ❁

---

(١) من الآية ١٤٣ من سورة البقرة.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



سورة المؤمنون

مكية. وهى مائة وثمانى عشرة آية، قيل: مناسبة افتتاح السورة بالفلاح أنه قال فيما قبلها: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (1)؛ على سبيل الرجاء، وحققه هنا بشرطه فى الجملة، ثم لمَّا ذكر وراثة المتصف بتلك الأوصاف للفردوس، وذلك يتضمن المعاد، ذكر النشأة الأولى؛ دلالة على صحته، أى: المعاد، ثم لمَّا ذكر ابتداء خلق الإنسان وانتهاء أمره ذكّره بنعمه، فقال: ﴿لقد خلقنا فوقكم سبع طرائق﴾، ﴿وأنزلنا﴾، ﴿فأنشأنا﴾.. الآيات، ولمَّا كانت هذه النعم على الإنسان تقتضى منه الشكر بالطاعة والتوحيد للكريم المنّان، ثم إن أصنافاً من الكفرة قابلوها بالكفران، فلذلك ذكر قصصهم بعد ذكرها، بقوله: ﴿ولقد أرسلنا نوحا...﴾ إلخ. فهذا ما تضمنته السورة من الترتيب، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ أى: فازوا بكل مطلوب، ونالوا كل مرغوب، فالفلاح: الفوز بالمرام والنجاة من المكاره والآلام، وقيل: البقاء فى الخير على الأبد، وقد تقتضى ثبوت أمر متوقع، فهى هنا لإفادة ثبوت ما كان متوقع الثبوت من قبل، وكان المؤمنون يتوقعون مثل هذه البشارة؛ وهى الإخبار بثبوت الفلاح لهم، فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه. والإيمان فى اللغة: التصديق بالقلب، والمؤمن: المصدّق لِما جاء به الشرع، مع الإذعان بالقلب، وإلا.. فكم من كافر صدّق بالحق ولم يذعن، تكبُّراً وعناداً، فكل من نطق بالشهادتين،

---

(1) من الآية 77 من سورة الحج.

مواطئا لسانُه قلبَه فهو مؤمن شرعاً، قال عليه الصلاة السلام : «لمَّا خلَقَ اللهُ الجنَّةَ، قَالَ لَهَا: تَكَلَّمِي، فَقَالَتْ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤمنُونَ - ثلاثاً - أنا حرامٌ على كلّ بخيل مُرائى»(١)؛ لأنه بالرياء أبطل العبادات الدينية، وليس له أعمال صافية.

ثم وصف أهل الإيمان بست صفات، فقال: ﴿ الذين في صلاتهم خاشعون ﴾: خاضعون بالقلب ساكنون بالجوارح، وقيل: الخشوع فى الصلاة: جمع الهمة، والإعراض عما سواها، وعلامته: ألا يجاوز بصره مصلاه، وألاَّ يلتفت ولا يعبث. وعن أبى الدرداء: (هو إخلاص المقال، وإعظام المقام، واليقين التام، وجمع الاهتمام). وأضيفت الصلاة إلى المصلين؛ لانتفاع المصلِّى بها وحده، وهى عُدَّته وذخيرته، وأما المُصلَّى له فَغَنِىٌّ عنها.

﴿ والذين هم عن اللغو مُعرضون ﴾، اللغو: كل كلام ساقط، حقه أن يُلغَى، كالكذب والشتم ونحوهما. والحق أن اللغو: كل ما لا يَعنى من الأقوال والأفعال، وصفهم بالحزم والاشتغال بما يعنيهم وما يقربهم إلى مولاهم فى عامة أوقاتهم، كما ينبئ عنه التعبير بالاسم الدال على الثبوت والاستمرار، بعد وصفه لهم بالخشوع؛ ليجمع لهم بين الفعل والترك، الشاقَّين على النفس، اللَّذَيْن هما قاعدتا التكليف. ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾: مؤدون، والمراد بالزكاة: المصدر، الذى هو الإخراج، لا المخرج. ويجوز أن يراد به العين، وهو الشيء المُخْرَج، على حذف مضاف، أى: لأداء الزكاة فاعلون. وصفهم بذلك، بعد وصفهم بالخشوع فى الصلاة؛ للدلالة على أنهم بلغوا الغاية القصوى من القيام بالطاعة البدنية والمالية، والتجنب عن النقائص، وتوسيط الإعراض عن اللغو بينهما؛ لكمال ملابسته بالخشوع فى الصلاة؛ لأن من لزم الصمت والاشتغال بما يعنى عظم خشوعه وأنسه بالله.

﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾: ممسكون لها، ويشمل فرجَ الرجل والمرأة، ﴿ إلا علي أزواجهم ﴾، الظاهر أن «على» بمعنى «عن» أى: إلا عن أزواجهم، فلا يجب حفظها عنهن، ويمكن أن تبقى على بابها، تقول العرب: احفظ علىّ عنان فرسى، أى: أمسكه، ويجوز أن يكون ما بعد الاستثناء حالا، أى: إلا والين على أزواجهم، من قولك: كان زياد على البصرة، أى: والياً عليها، والمعنى: أنهم لفروجهم حافظون فى كافة الأحوال، إلا فى حالة تزوجهم أو تسريهم. أو يتعلق «على» بمحذوف يدل عليه: (غير ملومين)، كأنه قيل: يلامون إلا على أزواجهم، أى: يلامون على كل مباشرة إلا على ما أبيح لهم، فإنهم غير ملومين عليه، ﴿أو ما ملكت أيمانهم﴾ أى: سراريهم، وعبَّر عنهن بما؛ لأن المملوك يجرى مجرى غير العقلاء، لأنه يباع كما تباع البهائم. وقال فى الكشاف: وإنما قال «ما»، ولم يقل «مَن»؛ لأن الإناث يجرين مجرى غير العقلاء(٢). هـ. يعنى: لكونهن ناقصات عقل، كما فى الحديث. وفيه احتراس من الذكور بالملك، فلا يباح إتيانهم والتمتع بهم للمالك ولا للمالكة، بإجماع.

---

(١) ذكره بنحوه الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٩٧) من حديث ابن عباس - رضى الله عنهما، وقال: رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير، وأحد إسنادى الطبرانى فى الأوسط جيد.

(٢) فى هذا الكلام نظر.

وقوله تعالى: ﴿ فإنهم غير ملومين ﴾ أي: لا لوم عليهم في عدم حفظ فروجهم عن نسائهم وإمائهم ﴿ فمن ابتغي وراء ذلك ﴾، طلب قضاء شهوته في غير هذين، ﴿ فأولئك هم العادُون ﴾: الكاملون في العدوان، وفيه دليل على تحريم المتعة والاستمتاع بالكف لإرادة الشهوة؛ لأن نكاح المتعة فاسد، والمعدوم شرعاً كالمعدوم حساً، ويدل على فساده عدم التوارث فيه بالإجماع، وكان في أول الإسلام ثم نُسخ.

﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم ﴾ أي: لما يؤتمنون عليه، ويُعَاهَدون عليه من جهة الحق أو الخلق، ﴿ راعون ﴾: حافظون عليها قائمون بها، والراعي: القائم على الشيء بحفظ وإصلاح، كراعي الغنم. ﴿ والذين هم علي صلواتهم ﴾ المفروضة عليهم ﴿ يحافظون ﴾: يداومون عليها في أوقاتها. وأعاد الصلاة؛ لأنها أهم، ولأن الخشوع فيها زائد على المحافظة عليها، ووُحِّدَت أولاً؛ ليُفَاد أن الخشوع في جنس الصلاة أيَّة صلاة كانت، وجمعت ثانياً؛ ليُفاد المحافظة على أنواعها من الفرائض والواجبات والسنن والنوافل. قاله النسفي.

﴿ أولئك ﴾ الجامعون لهذه الأوصاف ﴿ هم الوارثون ﴾ الأحقاء بأن يُسَمَّوا وارثين، دون غيرهم ممن ورث رغائب الأموال والذخائر وكرائمها، وقيل: إنهم يرثون من الكفار منازلهم في الجنة، حيث فوَّتوها على أنفسهم، لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار، ففي الحديث: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ ولَهُ مَنْزِلاَنِ: مَنْزِلٌ فِي الجنَّةِ ومَنْزِلٌ في النَّارِ، فَإِن مَاتَ ودَخَلَ الجنَّةَ، وَرِثَ أَهْلُ النَّارِ مَنْزِله، وإِنْ مَاتَ وَدخَلَ النَّار، وَرِثَ أَهْلُ الجنَّةَ مَنْزِلَهُ»(١).

ثم ترجم الوارثين بقوله: ﴿ الذين يرثون الفردوس ﴾، هو في لغة الروم والحبشة: البستان الواسع، الجامع لأصناف الثمر، والمراد: أعلى الجنان، استحقوا ذلك بأعمالهم المتقدمة حسبما يقتضيه الوعد الكريم، ﴿ هم فيها خالدون ﴾، أنث الفردوس بتأويل الجنة، أو لأنه طبقة من طبقاتها، وهي العليا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال القشيري: الفلاح: الفوزُ بالمطلوب، والظَّفَرُ بالمقصود. والإيمان: انتسامُ الحقِّ في السريرة، ومخامرة التصديق بخُلاصة القلب، واستكمال التحقيق من تامور الفؤاد(٢). والخشوع في الصلاة: إطراق السِّرِّ على بساط النَّجوى، باستكمال نَعْتِ الهيبة، والذوبانِ تحت سلطان الكشف، والانمحاءِ عند غلبات التَّجلِّي. هـ.

قلت: كأنه فسر الفلاح والإيمان والخشوع بغايتهن، فأول الفلاح: الدخول في حوز الإسلام بحصول الإيمان، وغايته: إشراق شمس العرفان، وأول الإيمان: تصديق القلب بوجود الرب، من طرق الاستدلال والبرهان، وغايته:

---

(١) أخرجه ابن ماجة في (الزهد، باب: صفة الجنة)، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه.
(٢) أي: داخل القلب.

إشراق أسرار الذات على السريرة، فيصير الدليل محل العيان، فتبتهج السريرة بمخامرة الذوق والوجدان، وأول الخشوع: تدبر القلب فيما يقول، وحضوره عندما يفعل، وغايته: غيبته عن فعله في شهود معبوده، فينمحى وجود العبد عند تجلى أنوار الرب، فتكون صلاته شكراً لا قهراً، كما قال سيد العارفين ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

ولا تتحقق هذه المقامات إلا بالإعراض عن اللغو، وهو كل ما يشغل عن الله، وتزكية النفوس ببذلها فى مرضاة الله، وإمساك الجوارح عن محارم الله، وحفظ الأنفاس والساعات، التى هى أمانات عند العبد من الله.

قال فى القوت: قال بعض العارفين: إن لله - عز وجل - إلى عبده سرَّين يُسرهما إليه، يُوجده ذلك بإلهام يُلهمه، أحدهما: إذا وُلِد وخرج من بطن أمه، يقول له: عبدى، قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً، واستودعتك عُمرك، ائتمنتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة، وانظر كيف تلقانى كما أخرجتك، وسرٌّ عند خروج روحه، يقول له: عبدى، ماذا صنعت فى أمانتى عندك؟ هل حفظتها حتى تلقانى على العهد والرعاية، فألقاك بالوفاء والجزاء؟ أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب؟ فهذا داخل فى قوله عز وجل: (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون)، وفى قوله عز وجل: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾(١)، فعُمْر العبد أمانة عنده، إن حفظه فقد أدى الأمانة، وإنْ ضيَّعه فقد خان، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾(٢). هـ.

ثم ذكر ابتداء خلق الإنسان وأطواره وانتهاء أمره، فقال:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

قلت: «خلق»: إن كان بمعنى اخترع وأحدث؛ تعدى إلى واحد، وإن كان بمعنى صيَّر؛ تعدى إلى مفعولين، ومنه: (ثم خلقنا النطفة علقة)، وما بعده.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد خلقنا الإنسانَ ﴾؛ جنس الإنسان، أو آدم، ﴿ من سُلالة ﴾؛ «من»: للابتداء، والسلالة: الخُلاصة؛ لأنها تُسل من بين الكدر، وهو ما سُلَّ من الشيء واستخرج منه، فإن (فُعالة) اسم لما

(١) من الآية ٤٠ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٥٨من سورة الأنفال.

يحصل من الفعل، فتارة يكون مقصوداً منه، كالخُلاصة، وتارة غير مقصود، كالقُلامة والكناسة، والسلالة من قبيل الأول؛ فإنها مقصودة بالسَّل، وقيل: إنما سمي التراب الذى خُلق منه آدم سلالة، لأنه سُلَّ من كل تربة. وقوله: (من طين)، بيان، متعلقة بمحذوف، صفة للسلالة، أى: خلقناه من سلالة كائنة من طين.

﴿ثم جعلناه﴾ أى: الجنس، باعتبار أفراده المتغايرة لآدم عليه السلام، وجعلنا نسله، على حذف مضاف، إن أُريد بالإنسان آدم، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾(١) أى: جعلنا نسله ﴿نطفة﴾: ماءً قليلا ﴿فى قرار مكين﴾ أى: فى مستقر ـ وهو الرحم ـ (مكين): حصين، أو متمكن فيه، وَصف الرحم بصفة مااستقر فيه، مثل طريق سائر، أى: مسير فيه.

﴿ثم خلقنا النطفة علقة﴾ أى: دماً جامداً، بأن جعلنا النطفة البيضاء علقة حمراء، (فخلقنا العلقة مُضغة) أى: قطعة لحم لا استبانةَ ولا تمايز فيها، ﴿فخلقنا المضغة﴾ أى: غالبها ومعظمها، أو كلها ﴿عظاماً﴾، بأن صلبناها، وجعلناها عَموداً على هيئةٍ وأوضاعٍ مخصوصة، تقتضيها الحكمة، ﴿فكسونا العظام﴾ المعهودة ﴿لحما﴾ بأن أنبتنا عليها اللحم، فصار لها كاللباس، أو كسونا كل عظم من تلك العظام ما يليق به من اللحم، على مقدار لائق به، وهيئة مناسبة. وقرئ بالإفراد فيهما، اكتفاء بالجنس، وبتوحيد الأول فقط، وبتوحيد الثانى فحسب. ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ أى: خلقاً مبايناً للخلق الأول، حيث جعله حيواناً، وكان جماداً، وناطقاً وسميعاً وبصيرا، وكان بضد هذه الصفات، ولذلك قال الفقهاء: من غصب بيضة فأفرخت عنده ضمن البيضة، ولم يردَّ الفرخ؛ لأنه خلق آخر سوى البيضة.

﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ أى: فتعالى أمره فى قدرته الباهرة، وعلمه الشامل. والالتفات إلى الاسم الجليل؛ لتربية المهابة، وإدخال الروعة، والإشعار بأنَّ ماذكر من الأفاعيل العجيبة من أحكام الألوهية، وللإيذان بأنَّ من حق كل من سمع مافصَّل من آثار قدرته تعالى أو لاحظه، أن يسارع إلى التكلم به، إجلالاً وإعظامًا لشؤونه تعالى، وقوله: (أحسن الخالقين): بدل من اسم الجلالة، أو نعت، على أنَّ الإضافة محضة؛ ليطابقه فى التعريف، أو خبر، أى: هو أحسن الخالقين خلقاً، أى: أحسن المقدرين تقديراً، فحذف التمييز؛ لدلالة الخالقين عليه.

قيل: إنَّ عبدَ اللهِ بنَ أبى سَرْح كان يَكْتُبُ الوحىَ للنبى ﷺ، فلمَّا انتهى ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى قوله: ﴿خلقا آخَر﴾، سَارَعَ عبدُ الله إلى النُّطقِ بذَلِكِ، فَنَطَقَ بذلِك، قبل إملائه، فقَال له رسُولَ اللهِ ﷺ: «اكْتُبْ، هَكَذَا

---

(١) الآيتان ٧ - ٨ من سورة السجدة.

أُنْزِلَتْ» ، فَشَكَّ عبدُ الله، فقَالَ: إنْ كانَ مُحمدٌ يُوحَى إليْهِ، فأنَا يُوحَى إليَّ، فارتدَّ ولَحِق بمكَّةَ كافِراً، ثم أسْلَمَ يوْمَ الفَتْحِ. وقيل: الحكاية غير صحيحة؛ لأن ارتداده كان بالمدينة، والسورة مكية(١).

ثم قال تعالى: ﴿ ثم إنكم بعد ذلك ﴾ أى: بعد ما ذكر من الأمور العجيبة، حسبما ينبئ عنه ما فى اسم الإشارة من البُعد، المشعر بعلُوِّ مرتبة المشار إليه وبُعد منزلته فى الفضل، ﴿ لميتون ﴾ : لصائرون إلى الموت لا محالة، كما يُؤذن به صيغة الصفة، وقرئ «لمائتون» ، ﴿ ثم إنكم يوم القيامة ﴾ أى: عند النفخة، ﴿تبعثون﴾ فى قبوركم للحساب والمجازاة، فإن قلت: لِمَ أكدَّ الأول بإنَّ واللام، وعبَّر بالاسم دون الثانى، الذى هو البعث، والمتبادر للفهم العكس؛ لأن الموت لم ينكره أحد، والبعث أنكره الكفار والحكماء؟ فالجواب كما قال ابن عرفة: إنه مِن حَمل اللفظ على غير ظاهره، مثل:

جَاءَ شَقِيقٌ عَارِضاً رُمْحَهُ إنَّ بنى عمِّك فِيهِمْ رِمَاحُ

فَهُم، لعصيانهم ومخالفتهم، لم يعملوا للموت، فحالهم كحال المنكر لها، ولمّا كانت دلائل البعث ظاهرة صار كالأمر الثابت الذى لايُرتاب فيه. هـ.

الإشارة: اعلم أن الروح لها أطوار كأطوار البشرية، من الضعف والقوة شيئاً فشيئا، باعتبار قوة اليقين والترقى إلى العلم بالله ومشاهدته، فتكون أولاً صغيرة العلم، ضعيفة اليقين، ثم تتربى بقوت القلوب وغذاء الأرواح؛ فقوتُ القلوب : العمل الظاهر، وقوت الأرواح: العمل الباطن، فلا تزال تتقوت بالعمل الظاهر شيئاً فشيئا حتى تقوى على كمالِ غايته ، ثم تنتقل إلى قوت العمل الباطن؛ كالذكر القلبى، والتفكر والاعتبار، وجولان القلب فى ميادين الأغيار، ثم دوامِ حضور القلب مع الحق على سبيل الاستهتار، ثم يفتح لها ميادين الغيوب، ويوسع عليها فضاء الشهود، فيكون قُوتها حينئذ رؤية المحبوب، وهو غاية المطلوب، فتبلغ مبلغ الرجال، وتحوز مراتب الكمال، ومن لم يبلغ هذا بقى فى مرتبة الأطفال، ولا يمكن حصول هذا إلا بصحبة طبيب ماهر، يعالجها ويربيها، وينقلها من طور إلى طور، وإلاّ بقيت الروح مريضة لا تتقوت إلا بالمحسوسات، وهى لا تُشبع ولاتُغنى من جوع. وبالله التوفيق.

ولمّا ذكر ابتداء الإنسان وانتهاءه، ذكّره بنعمه، أو تقول: لما ذكر نعمة الإيجاد ذكر نعمة الإمداد، فقال:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ

(١) انظر روح المعانى (١٨ / ١٦).

مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

قلت: «سيناء»، مَنْ فتحها: جعل همزتها للتأنيث، فلم يصرفه؛ للتأنيث والوصف، كحمراء، أولألف التأنيث، لقيامه مقام علتين، ومن كسرها: لم يصرفه؛ للتعريف والعجمة، وهذا البناء ليس من أبنية التأنيث، وإنما ألفهُ ألف الإلحاق، كعلباء وحِرباء. ونبت وأنبت: لغتان بمعنى واحد، وكذلك سقى وأسقى.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبعَ طرائق ﴾، وهي السموات السبع، جمع طريقة؛ لأنها طرق الملائكة وتقلباتها، وطرق الكواكب، فيها مسيرها، ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾، أراد بالخلق السموات، كأنه قال: خلقناها وما غفلنا عن حفظها وإمساكها، أو الناس، أي: خلقناها فوقكم؛ لنفتح عليكم منها الأرزاق والبركات، وما كنا غافلين عنكم وعما يصلحكم، أو: خلقناها فوقكم، وما حالت بيننا وبينكم، بل نحن أقرب إليكم من كل شيء، فلا نغفل عن شيء من أمركم، قلّ أو جلّ.

﴿ وأنزلنا من السماء ماءً ﴾ هو المطر، وقيل: الأنهار النازلة من الجنة، وهي خمسة: سَيْحُون نهر الهند، وجَيْحونُ نهر بلخ، ودِجْلَةُ والفُرَاتُ نهرا العراق، والنيل نهر مصر، أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة. هـ . وقوله تعالى: ﴿ بقدرٍ ﴾ أي: بتقدير، يَسْلَمون معه من المضرة، ويصلون إلى المنفعة، أو بمقدار ما علمنا بهم من الحاجة، أو: بقدر سابق لا يزيد عليه ولا ينقص، ﴿ فأسكناه في الأرض ﴾ أي: جعلناه ثابتًا قاراً فيها، كقوله: ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ﴾(١)، فماء الأرض كله من السماء، ﴿ وإنا على ذهابٍ به ﴾ أي: إزالته بالإفساد والتغوير، بحيث يتعذر استنباطه، ﴿ لقادرون ﴾ كما كنا قادرين على إنزاله، وفي تنكير «ذهاب»: إيماء إلى كثرة طرقه، ومبالغة في الإيعاد به، ولذلك كان أبلغ من قوله: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾(٢).

ثم ذكر نتائجه، فقال: ﴿ فأنشأنا لكم به ﴾ أي: بذلك الماء ﴿ جنات من نخيلٍ وأعنابٍ، لكم فيها ﴾ أي: في الجنات، ﴿ فواكهُ كثيرةٌ ﴾ تتفكهون بها سوى النخيل والأعناب، ﴿ ومنها تأكلون ﴾ أي: من الجنات تأكلون

(١) من الآية ٢١ من سورة الزمر.	(٢) الآية ٣٠ من سورة الملك.

تغذياً وتفكهاً، أو تُرزقون وتحصلون معايشكم، من قولهم: فلان يأكل من حرفته، وهذه الجنة وجوه أرزاقكم منها ترزقون وتتمعشون، ويجوز أن يكون الضميران للنخيل والأعناب، أي: لكم في ثمرتها أنواع من الفواكه، الرطب والعنب، والتمر والزبيب، والعصير والدِّبْسُ،(١) وغير ذلك، وطعاماً تأكلونه،

﴿ و ﴾ أنبتنا به ﴿ شجرةً ﴾ هي الزيتون ﴿ تخرج من طُور سَيْناء ﴾ ، وهو جبل موسى عليه السلام بين مصر وأيلة، وقيل: بفلسطين، ويقال: فيه طور سينين، فإمّا أن يكون الطور اسم الجبل، وسيناء اسم البقعة أضيف إليها، أو المركب منهما علَمٌ له، كامرىء القيس، وتخصيصها بالخروج منه، مع خروجها من سائر البقع، إما لتعظيمها، أولأنه المنشأ الأصلي لها؛ لأن أصل الزيتون من الشام، وأول ما نبت في الطور، ومنه نُقل إلى سائر البلاد، ﴿ تَنْبُتُ بالدُّهن ﴾ أي: متلبسة بالدهن، أي: ما يدهن به، وهو الزيت، ﴿ وصِبْغٍ للآكلين ﴾ أي: إدام لهم، قال مقاتل: جعل الله في هذه إداماً ودُهنا، فالإدام: الزيتون، والدهن: الزيت. وقيل: هي أول شجرة تنبت بعد الطوفان، وخص هذه الأنواع الثلاثة؛ لأنها أكرم الشجر وأفضلها وأنفعها.

﴿ وإنَّ لكم في الأنعام ﴾ ، جمع نعم، وهي الإبل والبقر والغنم، ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ تعتبرون بها، وتستدلون بأحوالها على عظم قدرة الله تعالى، وسابغ نعمته، وتشكرونه عليه، ﴿ نُسقيكم مما في بطونها ﴾ من الألبان سائغة للشاربين، أو مما استقر في بطونها من العلَف؛ فإنّ اللبن يتكون منه، ﴿ ولكم فيها منافع كثيرةٌ ﴾، سوى الألبان، وهُي منافع الأصواف والأوبار والأشعار. ﴿ ومنها تأكلون ﴾ أي: من لحومها، ﴿ وعليها ﴾ أي: على الأنعام في البر، ﴿ وعلى الفُلك ﴾ في البحر ﴿ تُحملون ﴾ في أسفاركم ومتاجركم، والمراد بالأنعام في الحمل الإبل؛ لأنها هي المحمول عليها في البر، فهي سفائن العرب، كما قال ذو الرمة:

سَفِينَةُ بَرٍّ تَحْتَ خَدِّي زِمَامُهَا

يريد ناقته. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ولقد خلقنا فوق قلوبكم سبعة حجب، فمن خَرَقَهَا أفضى إلى فضاء شهود ذاتنا وأنوار صفاتنا، وهي حجاب المعاصي والذنوب، وحجاب النقائص والعيوب، وحجاب الغفلات، وحجاب العوائد والشهوات، وحجاب الوقوف مع حلاوة المعاملات، وحجاب الوقوف مع الكرامات والمقامات، وحجاب حس الكائنات، فمن خرق هذه الحجب بالتوبة والتزكية واليقظة والعفة والرياضة، والأنس بالله والغيبة عما سواه، ارتفعت عنه الحجب، ووصل

---

(١) الدِّبس : عسل التمر وعصارته .. انظر اللسان (دبس ٢/١٣٢٣) .

إلى المحبوب. قال الورتجبي: أوضح سبع طرائق لنا إلى أنوار صفاته السبعة. هـ. وقال القشيري: الحق - سبحانه - لا يستتر من رؤيته مُدْرَكٌ، ولا تخفى عليه من مخلوقاته خافية، وإنما الحُجُبُ على أبصارِ الخَلْق وبصائرهم، والعادةُ جاريةٌ أنه لا يخلق لنا الإدراك لِمَا وراء الحُجُب، ولذلك أدخلَتْ الغفلةُ القلوبَ، واستولى عليها الذهول، سدَّت بصائرها، وغيبت فهومها، ففوقها حجب ظاهرة وباطنة، ففي الظاهر: السموات حجبٌ تحول بيننا وبين المنازل العالية، وعلى القلوب أغشية وأغطية، كالشهوة والأمنية، والإرادات الشاغلة والغفلة المتراكمة.

ثم ذكر أن طرائق المريدين الفَتْرَة، وطرائق الزاهدين ترك عُروق الرغبة. قال: وأما العارفون فربما تظلُّهم في بعض أحيانهم وقفةٌ في تضاعيف سيرهم إلى ساحات الحقائق، فيصيرون موقوفين ريثما يتفضَّلُ الحقُّ - سبحانه - عليهم بكفاية ذلك، فيجدون نفاذاً، ويدفع عنهم ماعاقهم من الطرائق، وفي جميع ذلك فالحق - سبحانه - غير تاركٍ للعبد ولا غافلٍ عن الخلق. هـ.

وقوله: ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ أي: وما كنا غافلين عن إرسال من يخرجهم من تلك الحجب القهرية، بل بعثنا الرسل، وفي أثرهم العارفين الربانيين، يُخرجون من تعلق بهم من تلك الطرائق، ويوصلونهم إلى بحر الحقائق. وأنزلنا من سماء الغيوب ماء العلم اللدني، فأسكناه في أرض النفوس والقلوب، بقدر ما سبق لكل قلب منيب، وإنا على ذهاب به من القلوب والصدور لقادرون. ولذلك كان العارفون لا يزول اضطرارهم، ولا يكون مع غير الله قرارهم، فأنشأنا بذلك العلم في قلوب العارفين جنات المعارف من نخيل الأذواق والوجدان، وأعناب خمرة العيان، لكم فيها فواكه كثيرة، أي: تمتع كثير بلذة الشهود، ومنها تتقوت أرواحكم وأسراركم، وشجرة المعرفة تخرج من القلوب الصافية، التي هي محل المناجاة، كطور موسى، أي: تنبت فيها ويخرج أغصانها إلى ظاهر الجوارح، تنبت في القلب بدهن الذوق والوجد، وصبغ للآكلين، أي: المريدين الآكلين من تلك الشجرة، فتصبغ قلوبهم بالمعرفة واليقين.

وقوله تعالى: ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة ﴾، قال القشيري: الإشارة فيه: أنَّ الكدوراتِ الناجمةَ المتراكمةَ لا عِبْرَةَ بها ولا مبالاة، فإنَّ اللَّبنَ الخالصَ السائغَ يخرجُ من أخلاف الإبل والأنعام، من بين ما ينطوي حواياها عليها من الوحشة، ولكنه صافٍ لم يؤثر فيها بحُكم الجِوار، والصفا يوجد أكثره في عين الكُدروة؛ إذ الحقيقة لا يتعلق بها حقٌ ولا باطل. ومَنْ أشرفَ على سرِّ التوحيد تحقَّق بأنَّ ظهور جميع الحدثان من التقدير، فتسقُط عنه كلفة التمييز؛ فالأسرارُ عند ذلك تصفو، والوقت لصاحبه لا يجفو، (ولكم فيها منافع) لازمةٌ لكم، ومتعدية منكم إلى كلِّ متصلٍ بكم. انتهى على لحن فيه، فتأمله.

ولما ذكَّرهم بالنعم، ذكر من قابلها بالكفران فهلك، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾

فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

قلت: ذكر فى الحاشية وجوهاً من المناسبة، فقال: لمّا استطرد ذكر الفلك ناسب ذكر نوح إثره، لقوله: (اصنع الفلك)، وأيضا: هو أبو البشر الثانى، فذُكر كما ذكر أولاً آدم، فى ذكر خلق الإنسان، وأيضاً فى ذكر نجاة المؤمنين وفلاحهم، فناسب صدر السورة، وهلاك الكافر وهو ضد المؤمن، كما صرح بذلك فى قوله فى آخرها: (إنه لا يفلح الكافرون)، وفى النجاة فى الفلك مناسبة للنعم المقررة قبل ذكره. هـ. (وإن كنا لمبتلين): «إنْ» : مخففة، واسمها: ضمير الشأن، واللام فارقة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد أرسلنا ﴾: وتالله لقد أرسلنا ﴿ نوحاً إلى قومه ﴾، وقد مرّ فى الأعراف نسبه وكيفية بعثته(1)، ﴿ فقال ﴾ لقومه حين أُرسل إليهم، متعطفًا عليهم، ومستميلاً لهم إلى الحق: ﴿ يا قوم اعبدوا الله ﴾ وحده؛ إذ العبادة مع الإشراك لاعبرة بها، فلذلك لم يقيدها هنا، وقيدها فى هود، بقوله: ﴿ أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ ﴾(2) ﴿ مالكم من إلهٍ غيرُه ﴾ أى: مالكم فى الوجود إله يستحق أن يُعبد غيره، فالرفع على المحل، والجر على اللفظ. ﴿ أفلا تتقون ﴾؛ أفلا تخافون عقوبة الله، الذى هو ربكم وخالقكم، إذا عبدتم غيره مما ليس من استحقاق العبادة فى شيء، أو: أفلا تخافون عذابه الذى يستوجبه ما أنتم عليه، كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾(3).

---

(1) راجع تفسير الآية ٥٩ وما بعدها، من سورة الأعراف. (2) من الآية ٢٦ من سورة هود.
(3) الآية ٥٩ من سورة الأعراف.

﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ أي: أشرافهم لعوامهم: ﴿ ما هذا إلا بشرٌ مثلكُم ﴾ في الجنس والوصف، يأكل ويشرب مثلكم، من غير فرق بينكم وبينه، ﴿ يُريد أن يتفضَّل عليكم ﴾ أي: يطلب الفضل عليكم، ويتقدمكم بادعاء الرسالة مع كونه مثلكم، والعجب منهم أنهم رضوا بالألوهية والخضوع للحَجَر، ولم يرضوا بنبوة البشر. ثم قالوا: ﴿ ولو شاء اللهُ لأنزل ملائكة ﴾ أي: لو شاء الله إرسال الرسل لأرسل رسلاً من الملائكة. وإنما قال: لأنزل ولم يقل: لأرسل؛ لأنَّ إرسال الملائكة لايكون إلا بطريق الإنزال، فمفعول المشيئة مطلق الإنزال، أي: لو شاء ربنا إنزال شيء من الوحي لأنزل ملائكة يرسلهم إلينا، ﴿ ما سمعنا بهذا ﴾ أي: بمثل هذا الكلام، الذي هو الأمر بعبادة الله وحده، وترك عبادة ماسواه، أو: ما سمعنا بأنَّ البشر يكون رسولا، أو بمثل نوح عليه السلام في دعوى النبوة، ﴿ في آبائنا الأولين ﴾ أي: الماضين قبل بعثة نوح عليه السلام. وإنما قالوا ذلك؛ إما من فرط عنادهم، أو لأنهم كانوا في فترة متطاولة، وقيل: معناه: ما سمعنا به أنه نبي، ﴿ إنْ هو ﴾ أي: ما هو ﴿ إلا رجل به جِنَّةٌ ﴾ أي: جنون، أو جن يخبلونه، ولذلك يقول ما يقول. ﴿ فتربصوا به حتى حين ﴾ أي: انتظروا واصبروا إلى زمان حتى ينجلي أمره، فإن أفاق من جنونه، وإلا قتلتموه.

﴿ قال ربِّ انصرني بما كذَّبونِ ﴾، لمَّا أيس من إيمانهم دعا الله بالانتقام منهم، فالجملة استئناف نشأ عن سؤال، كأنه قيل: فماذا قال عليه السلام، بعدما سمع هذه الأباطيل؟ فقيل: قال، لما رآهم قد أصروا على الكفر والتكذيب، وتمادوا في الغواية والضلال، حتى أيس من إيمانهم بالكلية، وقد أوحى إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن: ﴿ رب انصرني ﴾ بإهلاكهم بالمرة، فهو حكاية إجمالية لقوله: ﴿ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾(1). ﴿ بما كذَّبون ﴾؛ بسبب تكذيبهم إياي، أو بدل تكذيبهم، كقولك : هذا بذاك، أي: بدل ذاك، والمعنى: أبدلني من غم تكذيبهم سلْوة النصر عليهم.

﴿ فأوحينا إليه ﴾؛ أجبنا دعاءه وأوحينا إليه عند ذلك ﴿ أنِ اصنع الفُلكَ بأعيننا ﴾ أي: ملتبسًا بحفظنا وكلاءتنا، كأنَّ معك حُفاظنا يكلؤونك بأعينهم، لئلا يتعرض لك أحد، يفسد عملك، ومنه قولهم: عليه من الله عيون كالئة، ﴿ ووَحْينا ﴾ أي: أمرنا وتعليمنا إياك صنعتها. رُوي: أنه أوحى إليه أن يصنعها مثل جُؤْجؤ الطائر. وفي القاموس جُؤجؤ- كهُدْهُد-: الصدْر. ﴿ فإذا جاء أَمْرُنا ﴾ أي: عذابنا بأمرنا، ﴿ وفار التنُّور ﴾ أي: فار الماء من تنور الخبز، فخرج سبب الغرق من موضع الحرق؛ ليكون أبلغ في الإنذار والاعتبار. رُوي أنه قيل لنوح: إذا رأيت الماء يفور من التنور؛ فاركب أنت وأهلك السفينة، فلما نبع الماء من التنور؛ أخبرته امرأته، فركب، وكان

(1) من الآية ٢٦ من سورة نوح.

التنور تنور آدم، فصار إلى نوح، وكان من حجارة. واختلف في مكانه، فقيل: في مسجد الكوفة عن يمين الداخل، وقيل: بالشام، وقيل: بالهند.

فإذا فار ﴿ فاسْلُكْ فيها ﴾: فأدْخِلْ في السفينة ﴿ من كل زوجين اثنين ﴾؛ من كل أمة اثنين مزدوجين، ذكر وأنثى. قال الحسن: لم يحمل نوح في السفينة إلا ما يلد ويبيض، فأما البق والدود والذباب، فلم يحمل منه شيئا، وإنما يخرج من الطير. هـ. ﴿ و ﴾ احمل في السفينة ﴿ أهلَك ﴾؛ نساءك وأولادك، أو من آمن معك، ﴿ إلا من سبق عليه القولُ منهم ﴾ أي: القول من الله بهلاكه، وهو ابنه وإحدى زوجتيه، وإنما جيء بعلى؛ لكون السابق ضاراً، كما جيء باللام في قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ... ﴾(١)، ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾(٢)؛ لكونه نافعاً، ونحوه: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾(٣)، ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ أي: لا تسألني نجاة الذين كفروا، إنهم مقضى عليهم بالإغراق لا محالة؛ لظلمهم بالإشراك والإصرار، ومَنْ هذا شأنه لا يُشفع له، وكأنه عليه السلام ندم على الدعاء عليهم، حين تحقق هلاكهم، فهمّ بمراجعة الحق فيهم؛ شفقة ورحمة، فنُهي عن ذلك.

ثم قال له: ﴿ فإذا استويتَ أنت ومن معك على الفُلْك ﴾؛ فإذا تمكنتم عليها راكبين ﴿ فقل الحمد لله الذي نجّانا من القوم الظالمين ﴾، أُمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم على طريق: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٤). ولم يقل: فقولوا، وإن كان أهله ومن معه قد استووا معه؛ لأنه نبيهم وإمامهم، فكان قوله قولهم، مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوة.

﴿ وقل ربِّ أنزلني ﴾ في السفينة، أو منها ﴿ مُنْزَلاً مباركاً ﴾ أي: إنزالاً مباركاً، أو موضع إنزال يستتبع خيراً كثيراً، ﴿ وأنت خير المُنزِلين ﴾؛ خير من ينزل في كل خير، أمر عليه السلام بأن يشفع دعاءه بما يطابقه من ثنائه عليه تعالى، توسلاً به إلى إجابة دعائه، فالبركة في السفينة: النجاة فيها، وبعد الخروج منها: كثرة النسل وتتابع الخيرات، ﴿ إنَّ في ذلك ﴾ فيما فعل بنوح وقومه ﴿ لآيات ﴾: لعبراً ومواعظ، ﴿ وإن كنا ﴾ أي: وإن الشأن والقصة كنا ﴿ لمبتلين ﴾: مُصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد، أو: مختبرين بهذه الآيات عبادنا، لننظر من يعتبر ويذّكر، كقوله: ﴿ ولقد تركناها آية فهل من مدكر ﴾(٥). والله تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ١٠١ من سورة الأنبياء.
(٢) الآية ١٧١ من سورة الصافات.
(٣) من الآية ٢٨٦ من سورة البقرة.
(٤) الآية ٤٥ من سورة الأنعام.
(٥) الآية ١٥ من سورة القمر.

الإشارة: تقدمت إشارة هذه القصة مراراً بتكررها، وفيها تسلية لمن أوذى من الأولياء بقول قبيح أو فعل ذميم. وقال القشيرى فى قوله: ﴿ وقل رب أنزلني منزلا مباركا ﴾ : الإنزال المبارك: أن تكون بالله ولله على شهود الله، من غير غفلة عن الله، ولا مخالفة لأمر الله. هـ.

ثم ذكر قصة هود أو صالح، فقال:

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم ﴾؛ من بعد قوم نوح ﴿ قرناً ﴾ أى: قوماً ﴿ آخرين ﴾ هم عادٌ قوم هود، حسبما رُوى عن ابن عباس، ويشهد له قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾(١)، ومجيء قصة هود على إثر قصة نوح فى الأعراف وهود والشعراء، ونقل ابن عطية عن الطبرى: أن المراد بهم ثمود قوم صالح، قال: والترتيب يقتضى قوم عاد، إلاّ أنهم لم يُهلكوا بالصيحة، بل بالريح. قال فى الحاشية: والظاهر أنهم صالح. كما قاله الطبرى. وحمل الواحدى الصيحة على صيحة العذاب، فيتجه لذلك أنهم عاد قوم هود، وقد تقرر أن ثمود بعد عاد. ثم قال: وفى السيرة: عادٌ بن عوص بن إرَم بن سام بن نوح، وثمود بن عابر بن أرَم بن سام بن نوح. هـ.

---

(١) من الآية ٦٩ من سورة الأعراف

﴿ فأرسلنا فيهم ﴾، الإرسال يُعَدّى بإلى، ولم يُعَدّ بها هنا وفى قوله: ﴿ كذلك أرسلناك فى أمة ﴾(١)، ﴿ وما أرسلنا فى قرية ﴾(٢)؛ لأن الأمة والقرية جعلت موضعاً للإرسال، إيذاناً بأن المرسَل إليهم لم يأتهم من غير مكانهم، بل إنما نشأ بين أظهرهم، كما ينبئ عنه قوله: ﴿ رسولاً منهم ﴾ أى: من جملتهم نسبًا، وهو: هود أو صالح، فإنهما ـ عليهما السلام ـ كانا منهم. قائلاً لهم: ﴿ أنِ اعبدوا الله مالكم من إلهٍ غيرُه أفلا تتقون ﴾ عذابه، الذى يقتضيه ما أنتم عليه من الشرك والمعاصى.

﴿ وقال الملأُ من قومه ﴾، ذكر مقال قوم هود، فى جوابه، فى الأعراف وهود بغير «واو» ؛ لأنه على تقدير سؤال سائل، قال: فما قال قومه؟ فقيل: قالوا: كيت وكيت، وهنا مع الواو؛ لأنه عطفٌ لما قالوه على ماقاله الرسول؛ ومعناه: حكاية قولهم الباطل إثر حكاية قول الرسول الحق، وليس بجواب للنبى متصل بكلامه، وجيء بالفاء فى قصة نوح عليه السلام؛ لأنه جواب لقوله، واقعٌ عقِبَه، أى: وقال الأشراف من قومه ﴿ الذين كفروا ﴾، وُصفوا بالكفر؛ ذمّاً لهم، وتنبيهاً على غلُوّهم فيه، ﴿ وكذّبوا بلقاء الأخرة ﴾ أى: بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب وغير ذلك، أو بمعادهم إلى الحياة الثانية، ﴿ وأترفناهم ﴾: نعّمناهم ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ بكثرة الأموال والأولاد، أى: قالوا لأتباعهم، مُضلين لهم: ﴿ ماهذا ﴾ النبى ﴿ إلا بشرٌ مثلكم ﴾ فى الصفة والأحوال، والاحتياج إلى القوام، ولم يقولوا: مثلنا؛ تهويناً لأمره عليه السلام.

ثم فسر المثلية بقوله: ﴿ يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾ أى: منه، فحذف؛ لدلالة ما قبله عليه، ﴿ ولئن أطعتم بشراً مثلكم ﴾ فيما يأمركم به وينهاكم عنه، ﴿ إنكم إذاً لخاسرون ﴾ بالانقياد لمثلكم، ومن حمقهم أنهم أبَوْ اتّباع مثلهم وعبدوا أعجز منهم.

﴿ أَيعدُكُمْ أنكم إذا مِتُّم ﴾ ـ بالكسر والضم ـ؛ من مات يمَات ويموت، ﴿ وكنتم تراباً وعظاماً ﴾ نخرة، ﴿ أنكم مُخرَجُون ﴾، فأنكم الثانية، توكيد للأولى؛ للفصل بينهما، والتقدير: أيعدكم أنكم مخرجون بالبعث إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً؟ ﴿ هيهاتَ هيهاتَ ﴾، تكرير؛ لتأكيد البُعد، وهو اسم فعل مبنى على الفتح، واقع موقع بَعُد، فاعلها مضمر، أى: بَعُد التصديق أو الوقوع ﴿ لما تُوعدون ﴾ من العذاب، أو فاعلها «ما توعدون»، واللام زائدة، أى: بعُد ماتعدون من البعث، وقيل: ماتوعدون من البعث. وقيل: مبتدأ، وهما اسم للبعد، و(لما توعدون): خبر، أى: بُعْدٌ بُعْدٌ لما توعدون، ﴿ إن ﴾: ما ﴿ هِيَ إلا حياتنا الدنيا ﴾، والضمير لايُعْلَمُ ما يُعْنَى به إلا بما بعده من بيانه، وأصله: إن الحياةُ إلا حياتنا، وأتى بالضمير؛ حذراً من التكرير، أى: لا حياة إلا هذه الحياة التى نحن فيها، ودنت منا، ﴿ نموت ونحيا ﴾ أى: يموت بعضنا ويولد بعضٌ، إلى انقراض العصر، ﴿ وما نحن بمبعوثين ﴾ بعد

(١) من الآية ٣٠ من سورة الرعد. (٢) من الآية ٩٤ من سورة الأعراف.

الموت، ﴿ إن ﴾ : ما ﴿ هو إلا رجل افترى على الله كَذِباً ﴾ فيما يدَّعيه من الإرسال، وفيما يَعدنا من البعث، ﴿ وما نحن له بمؤمنين ﴾ : بمصدِّقين بما يقول.

﴿ قال ﴾ هود، أو صالح ـ عليهما السلام ـ بعدما سلك في دعوتهم كل مسلك، متضرعاً إلى الله ـ عز وجل ـ : ﴿ ربِّ انصرني ﴾ عليهم ، وانتقم منهم ﴿ بما كذَّبونِ ﴾ أي: بسبب تكذيبهم إياي وإصرارهم عليه، ﴿ قال ﴾ تعالى؛ إجابة لدعائه: ﴿ عمَّا قليلٍ ﴾ أي: عن زمان قليل، زيدت «ما» ، بين الجار والمجرور؛ لتأكيد معنى القلة، أونكرة موصوفة، أي: عن شيء قليل ﴿ ليصبحنَّ نادمين ﴾ عما فعلوا من التكذيب، وذلك عند معاينتهم العذاب.

﴿ فأخذتهم الصيحةُ ﴾ ، لعلهم، حين أصابتهم الريح العقيم، أُصيبوا في تضاعيفها بصيحة هائلة من صوته. أو يراد بها: صرير الريح وصوته. وقد رُوي أن شدَّاداً حين أتم بناء إرم، سار إليها بأهله، فلما دنا منها بعث الله عليهم صيحة من السماء، فهلكوا، وقيل: الصيحة: العذاب المصطلِم، قال الشاعر:

صَاحَ الزَّمانُ بآلِ فُدَكِ صَيْحَةً	خرُّوا؛ لشِدَّتها، على الأذْقَانِ

وإذا قلنا: هم قوم صالح، فالصيحة صيحة جبريل عليه السلام، صاح عليهم فدمرهم. وقوله: ﴿ بالحق ﴾ أي: بالعدل من الله، يقال: فلان يقضي بالحق، أي: بالعدل، أو: أخذتهم بالحق، أي: بالأمر الثابت الذي لادفاع له، ﴿ فجعلناهم غثاء ﴾ أي: كغثاء السيل، وهو ما يحمله من الورق والحشيش، شبههم في دمارهم بالغثاء، وهو ما يرميه السيل، من حيث إنهم مَرْمِيٌّ بهم في كل جانب وسهب. ﴿ فبُعداً ﴾ : فهلاكاً، يقال بَعِدَ بَعْداً، أي: هلك هلاكاً، وهو من المصادر المنصوبة بأفعالها لا تظهر أفعالها، أي: فسحقاً ﴿ للقوم الظالمين ﴾ ، وهو إخبار، أو دعاء، واللام؛ لبيان من دعى عليه بالبعد، كقوله: ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾(١). والله تعالى أعلم.

الإشارة: من عادة الحق ـ سبحانه ـ، إذا أكب الناس على دنياهم، واتخذوا إلههم هواهم، بعث من يذكرهم بالله، فيقول لهم: اعبدو الله، مالكم من إله غيره، أي: أفردوه بالمحبة، واقصدوه بالوجهة، فما عبدَ اللهَ من عبد هواه، فيقول المترفون، وهم المنهمكون في الغفلة، المحجوبون بالنعمة عن المنعم، الذين اتسعت دائرة حسهم: ما هذا الذي يعظكم، ويريد أن يخرجكم عن عوائدكم، إلا بشر مثلكم، يأكل مما تأكلون، ويشرب مما تشربون، وما دروا أنّ وصف البشرية لا ينافي وجود الخصوصية، فإذا تمادوا في غفلتهم، وأيس من هدايتهم، ربما دعا عليهم، فأصبحوا نادمين، حين لا ينفعهم الندم، وذلك عند نزول هواجم الحِمَامِ. وبالله التوفيق.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(١) من الآية ٢٣ من سورة يوسف

قلت: القرن: أهل العصر، سُموا به؛ لقِران بعضهم البعض، و(تترا) : حال، فمن قرأه بالألف فهو كسَكرى، وهو من الوتر، واحداً بعد واحد ، فالتاء الأولى بدل من الواو، وأصله: وَترى، كتراث وتقوى، والألف للتأنيث، باعتبار أن الرسل جماعة، ومن نوّنَه جعله كأرطى ومعزى، فيقال: أرطيٌ ومعزىً، وقيل: مصدر بمعنى فاعل، أي: متتابعين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم ﴾ أي: من بعد قوم هود، ﴿ قروناً آخرين ﴾؛ قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم، ﴿ ما تسبق من أمة ﴾ ، «منْ»: صلة، أي: ما تتقدم أمة من الأمم المهلكة ﴿ أجلَها ﴾ الذى عُيّن لهلاكها فى الأزل، ﴿ وما يستأخرون ﴾ عنه ساعة. ﴿ ثم أرسلنا رسلَنا ﴾ ، عطف على «أنشأنا»، على معنى أن إرسالهم متراخ عن إنشاء القرون المذكورة، وما بينهما اعتراض، والمعنى: ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين، قد أرسلنا إلى كل قرن منهم رسولاً خاصاً به، والفصل بين الجملتين بالجملة المتعرضة الناطقة بعدم تقدم الأمم أجلها المضروب لهلاكهم؛ للمسارعة إلى بيان هلاكهم على وجهٍ إجمالى.

وقوله: ﴿ تَتْرَى ﴾ أى: متواترين واحداً بعد واحد، أو متتابعين يتبع بعضهم بعضا، ﴿ كلما جاء أمةً رسولها كذبوه ﴾ ، الرسول يلابس المرسِل والمرسَل إليه، والإضافة تكون بالملابسة، فأضافهم أولاً إلى نون العظمة، وهنا إلى المرسل إليهم؛ للإشعار بكمال شناعتهم وضلالتهم، حيث كذبت كلُّ أمة رسولها المعين لها، وعبّر عن التبليغ بالمجىء؛ للإيذان بأنهم كذبوه فى الملاقاة الأولى، ﴿ فأتبعنا بعضَهم بعضاً ﴾ فى الهلاك، كما تبع بعضهم بعضاً فى الكفر والتكذيب، الذى هو سبب الهلاك، ﴿ وجعلناهم أحاديث ﴾ ؛ أخبار، يُسمر بها ويتعجب منها، أي: لم يبق منهم إلا حكايات يعتبر بها المعتبرون، والأحاديث يكون اسم جمع للحديث، ومنه: أحاديث النبى ـ عليه الصلاة السلام ـ ويكون جمعاً للأحدوثة، وهى ما يتحدث به الناس؛ تلهياً وتعجبا، وهو المراد هنا، ﴿ فبعدا لقوم لا يؤمنون ﴾ به وبرسله، اقتصر هنا على عدم إيمانهم، وأما القرون الأولى، فحيث نقل عنهم ما مرّ من العتو وتجاوز الحد فى الكفر والعدوان، وصفهم بالظلم. والله تعالى أعلم وأحكم.

الإشارة: كل ما حكى الله تعالى عن القرون الماضية والأمم السابقة، فالمراد ترهيب هذه الأمة المحمدية، وإزعاجٌ لها عن أسباب الهلاك، وإنهاض لها إلى العمل الصالح، لتكون أحاديث حِساناً بين الأمم، فكل إنسان ينبغى له أن يجتهد فى تحصيل الكمالات العلمية والعملية، ليكون حديثاً حسناً لمن بعده ، كما قال القائل:

مَا المَرْءُ إلا حديثٌ من بَعْـــده ... فَكنْ حَدِيثاً حسَنَاً لِمَن وَعَـــا

وقال آخر:

ومَا المَرءُ إلا كالشّهابِ وضَـوْءِه ... يَحورُ رَماداً بَعْدَما هو سَاطِــعُ

ومَا الــمَالُ والأَهْلُونَ إلا وديعةٌ ... ولا بُدّ يوماً(١) أن تُردّ الْودَائِـعُ

وبالله التوفيق،

(١) فى الأصول: ولابد من يوم.

ثم ذكر رسالة موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ فقال:

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

قلت: «هارون» : بدل من «أخاه» .

يقول الحق جل جلاله: ﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا﴾ التسع؛ من اليد، والعصا، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، ونقص الثمرات، والطاعون. ولا مساغ لعدّ فلق البحر منها؛ إذ المراد الآيات التى كذبوها واستكبروا عنها، بدليل ما بعدها. ﴿وسلطانٍ مبين﴾؛ وحجة واضحة مُلزِمَة للخصم الإقرار بما دُعى إليه، وهى إمّا العصا، وإفرادها بالذكر مع اندراجها فى الآيات؛ لأنها أبهر آياته عليه السلام، وقد تضمنت معجزات شتى؛ من انقلابها ثعباناً، وتلقفها ما أفكته السحرة، كما تقدم. وأما التعرض لانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر؛ بضربها، وحراستها، وصيرورتها شمعة، وشجرة خضراء مثمرة، ودلْواً ورشاء، وغير ذلك مما ظهر منها فى غير مشهد فرعون وقومه، فغير ملائم لمقتضى المقام، وإمّا ما أتى به من الحجج الباهرة، فيشمل ما تقدم وغيره.

﴿إلى فرعون وملئه﴾ أى: أشراف قومه، خصهم بالذكر؛ ليرتب عليه ما بعده من قوله: ﴿فاستكبروا﴾ عن الانقياد وتمردوا. تكبراً وترفعًا، ﴿وكانوا قوما عالين﴾: متكبرين، متمردين ، ﴿فقالوا﴾ ، فيما بينهم، على طريق المناصحة: ﴿أنؤمن لبشرَين مثلنا﴾ ، «مثل» و«غير» يوصف بها الاثنان والجمع والمذكر والمؤنث، والبشر يطلق على الواحد، كقوله: ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾[1]، وعلى الجمع، كقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾[2]، وأراد به هنا الواحد، فثناه، أى: كيف نؤمن لبشرين مثلنا فى العجز والافتقار، ﴿وقومُهما لنا عابدون﴾ أى: خادمون منقادون لنا كالعبيد، وكأنهم قصدوا بذلك التعريض بهما ـ عليهما السلام ـ، وحط رتبتهما العلية عن منصب الرسالة من وجه آخر غير البشرية، بناء على زعمهم الفاسد، من قياس الرئاسة الدينية على الرئاسات الدنيوية، الدائرة على التقدم فى نيل الحظوظ الدنيوية، من المال والجاه، كدأب قريش، حيث قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾[3]. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[4]. وعلى جهلهم بأن مناط الاصطفاء

(١) من الآية ١٧ من سورة مريم.
(٢) من الآية ٢٦ من سورة مريم.
(٣) الآية ١١ من سورة الأحقاف.
(٤) الآية ٣١ من سورة الزخرف.

للرسالة هو السبق في حيازة النعوت العلية، وإحراز الكمالات السنية، جِبِلّةً أو اكتساباً، ﴿ فكذبوهما ﴾ أي: فتمادوا على تكذيبهما، وأصروا، واستكبروا استكباراً، ﴿ فكانوا من المهلَكِين ﴾ بالغرق في بحر القلزم.

﴿ ولقد آتينا ﴾ بعد إهلاكهم، وإنجاء بنى إسرائيل من ملِكِهم واسترقاقهم، ﴿ موسى الكتابَ ﴾: التوراة، ولمَّا نزلت لإرشاد قومه جُعلوا كأنهم أوتوها، فقيل: ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ إلى الحق بالعمل بما من الشرائع والأحكام، وقيل: على حذف مضاف، أي: آتينا قوم موسى، كقوله: ﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾(١)، أي: من آل فرعون وملئهم. والله تعالى أعلم

الإشارة: كل من طُرِد وأُبعد عن ساحة رحمة الله تعالى والوصول إليه، فإنما سببه التكبر والعلو، وكل من قرب ووصل إلى الله فإنما سببه التواضع والحنو، ولذلك ورد: «لا يَدْخُلُ الجنّةَ مَنْ كان في قَلْبِه مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»(٢). وحقيقة الكِبر: بَطَرُ الحَقِّ وغَمْطُ النَّاسِ، أي: إنكار الحق واحتقار الناس، وفي مدح التواضع والخمول مالا يخفى. فمن تواضع، دون قدره، رفَعَهُ اللهُ فوق قدره، فالتواضع مصيدة الشرف، به يصطاد وينال، ومن أوصاف أهل الجنة: «كل ضعيف مستضعف، لو أقسم على الله لأبره في قسمه»(٣)، إلى غير ذلك من الأخبار.

وكل من أنكر على أهل الخصوصية فسببه إما الحسد، أو الجهل بأن الخصوصية لا تنافي أوصاف البشرية، أو قياس الرئاسة الباطنية الدينية على الرئاسة الدنيوية، فأسقط من لا رئاسة له في الظاهر ولاجاه، أو لعدم ظهور الكرامة، وهي غير مطلوبة عند المحققين. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر عيسى عليه السلام، فقال:

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وجعلنا ابنَ مريَم وأمه آيةً ﴾ دالة على كمال قدرتنا؛ بولادته منها من غير مسيس بشر، ووحَّدها؛ لأن الأعجوبة فيهما واحدة. أو المراد: وجعلنا ابن مريم آية وأمه آية، فحذفت الأولى؛ لدلالة الثانية عليها، أي: وجعلنا ابن مريم وحده، من غير أن يكون له أب، آية، وأمه، من حيث إنها ولَدت من غير ذَكَر، آية، وتقديمه عليه السلام؛ لأصالته فيما ذُكر من كونه آية، كما أن تقديم أمه في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾(٤)، لأصالتها فيما نسب إليها من الإحصان والنفخ.

---

(١) من الآية ٨٣ من سورة يونس.
(٢) أخرجه مسلم في (الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه) عن عبدالله بن مسعود. رضي الله عنه.
(٣) أخرجه أحمد في المسند (١٤٥/٣) من حديث أنس بن مالك. وأخرجه ابن ماجة في (الزهد، باب من لايؤبه به) من حديث معاذ بن جبل، بلفظ : «ألا أخبركم عن ملوك الجنة؟، قلت: بلى، قال: رجل ضعيف مستضعف، ذو طمرين، لا يؤبه، لو أقسم على الله لأبره».
(٤) الآية ٩١ من سورة الأنبياء.

﴿ وآويناهما ﴾ أى: جعلنا مأويهما ومنزلهما ﴿ إلى ربوة ﴾ أى: أرض مرتفعة، وهو بيت المقدس؛ فإنها كبد الأرض، وأقرب الأرض إلى السماء، بمعنى أنه يزيد علوها على علو الأرض، فينتقص بُعدها عن السماء عن بُعد غيرها منها بثمانية عشر ميلاً، كما جاء، ولعل ذلك سر كونها أرض الحشر، وكون الإسراء وقع منها. قاله المحشى، وقيل: دمشق، وقيل: فلسطين، والرملة. ﴿ ذات قرار ﴾؛ مستقر من الأرض، مستوية، منبسطة، سهلة، أو ذات ثمار، يستقر؛ لأجل ثمارها، ساكنوها فيها، ﴿ ومَعِين ﴾ أى: ماء معين، ظاهر، جارٍ، فقيل: من معن، إذا جرى، أو مدرك بالعين لظهوره، من عانه، إذا أدركه بعينه، أو من الماعون، وهو النفع؛ لأنه نفاع لظهوره وجريه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كان عيسى عليه السلام منقطعاً عن هذا العالم، متبتلاً زاهداً، لم يتخذ فى هذه الدنيا قراراً، ولم يبن فيها مسكناً ولادارا، فكان آية للعباد والزهاد من الرجال. كما أن أمه كانت آية للنساء العابدات، فى التبتل والانقطاع، فآواهما إلى ربوة التقريب والاصطفاء، ذات قرار وتمكين ومصافاة ووفاء، وجعل، جل جلاله، أولياءه على قدم أنبيائه، فمنهم على قدم نوح عليه السلام فى القوةونفوذ الهمة، مهما دعا على أحد هلك. ومنهم على قدم إبراهيم عليه السلام فى الشفقة والرحمة وعلو الهمة، وتحقيق التوحيد، وإمام أهل التفريد، ومنهم على قدم موسى عليه السلام فى المناجاة والمكالمة والقوة والعزم، ومنهم على قدم عيسى عليه السلام فى الزهد والانقطاع، ومنهم على قدم نبينا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ وهو الجامع لما افترق فى غيره، وهو قطب الدائرة، نفعنا الله بهم جميعا.

ولمّا كان جُلُّ الأنبياء بالشام، التى هى ذات قرار وأنعام، أمرهم بالأكل من تلك النعم، والشكر بالعمل الصالح، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

قلت: (وإن هذه): مَن كسره استأنف، ومَن فتحه حذف اللام، أى: فاتقون؛ لأنَّ هذه، أو معطوف على ما قبله: (بما تعملون عليم)، وبأن هذه، أو بتقدير: واعلموا أن هذه. و(زُبُرا): حال من: «أمْرهم»، أو من «واو» (تقطعوا)، و(نُسارع): خبر «أن»، و«ما»: موصولة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الرسل كُلوا من الطيبات ﴾، هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما؛ لأنهم أرسلوا متفرقين فى أزمنة مختلفة، وإنما المعنى: الإعلام بأنّ كل رسول فى زمانه نُودى بذلك، ووصى به؛ للإيذان بأن إباحة الطيبات شرعٌ قديم، جرى عليه جميع الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ووُصّوا به، أي: وقلنا لكل رسول: كُلْ من الطيبات واعمل صالحاً. فعبّر عن تلك الأوامر المتعددة المتعلقة بالرسل بصيغة الجمع؛ للإيجاز، وفيه من الدلالة على بطلان ما عليه الرهابنة من رفض الطيبات مالا يخفى. قاله أبو السعود. وقيل: خطاب لعيسى عليه السلام؛ لاتصال الآية به، وكان يأكل من غزل أمه، وهو من أطيب الطيبات، وقيل: لنبينا محمد ﷺ؛ لفضله وقيامه مقام الكل، وكان يأكل من الغنائم، وما رزقه الله من غير اختيار على الله، والجمع: للتعظيم فيهما، والطيبات: ما يُستطاب ويُستلذ من مباحات المآكل والفواكه، حسبما يُنبىء عنه سياق النظم الكريم.

﴿ واعملوا ﴾ عملاً ﴿ صالحاً ﴾، فإنه المقصود منكم؛ شكراً لما أُسدى إليكم، ولا تشتغلوا بالنعم عن طاعة المنعم وشهوده، ﴿ إني بما تعملون ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة، ﴿ عليم ﴾، فأجازيكم عليه، وفيه تهديد للمذكورين، فما بالك بغيرهم ممن ألهته النعم عن شهود المنعم وشكره؟!

﴿ وأن هذه أمتكم ﴾[1] أى: ملتكم وشريعتكم التى أنتم عليها ﴿ أمةً واحدة ﴾ أى: ملة واحدة، متحدة فى أصول الشرائع، التى لاتبدل بتبدل الأعصار، وهو التوحيد وما يتبعه من أصول العقائد. ﴿ وأنا ربكم ﴾ من غير أن يكون لى شريك فى الربوبية، ﴿ فاتقون ﴾: فخافوا عتابى فى مخالفتكم أمرى، أوفى شق العصا، والمخالفة بالإخلال بمواجب ما ذكر من اختصاص الربوبية بى.

والخطاب للرسل والأمم جميعًا، على أن الأمر فى حق الرسل للتهييج، وفى حق الأمم للتحذير. قيل: وجاء هنا: «فاتقون»، الذى هو أبلغ فى التخويف والتحذير من قوله فى الأنبياء: ﴿ فَاعْبُدُونِ ﴾[2]؛ لأن هذه جاءت عقب إهلاك طوائف كثيرين، وفى الأنبياء، وإن تقدمت أيضاً قصة نوح وما قبلها، فإنه جاء بعدها ما يدل على الإحسان واللطف التام، فى قصة أيوب ويونس وزكريا ومريم، فناسب الأمر بالعبادة لمن هذه صفته.

ثم قال تعالى: ﴿ فتقطَّعوا أمرهم ﴾ أى: فتفرقوا فى أمر دينهم مع اتحاده، وجعلوه قطعًا متفرقة، وأديانا مختلفة، ﴿ بينهم زُبُراً ﴾ أي: قطعًا ـ جمع زَبور، بمعنى الفرقة، ويؤيده قراءة من قرأ: (زُبَرًا) بفتح الباء، جمع زُبْرة؛ كغُرْفة، أى: قطعًا مختلفة، كلٌ ينتحل كتاباً، وقيل: جمع زَبور، بمعنى كتاب، أى: كل فريق يزعم أن له كتاباً يتمسك به. وعن الحسن: قطعوا كتاب الله قطعًا وحرّفوه، والأول أقرب، أى: تفرقوا فى أصل الدين فرقًا،

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب «وأن» بفتح الهمزة. وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بكسر الهمزة على الاستئناف.. انظر الإتحاف (٢/٢٨٥).

(٢) أي : فى قوله تعالى: «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون» . الآية ٩٢ من سورة الأنبياء.

وتحزبوا أحزاباً، ﴿كل حزب﴾ من أولئك المتحزبين ﴿بما لديهم﴾ من الدين الذى اختاروه، أو من الهوى والرأى، ﴿فَرِحُون﴾: مُعجبون، يعتقدون أنه الحق.

﴿فذَرهم في غمرتهم﴾؛ فى جهالتهم وغفلتهم، شبَّه ما هم فيه من الجهالة بالماء الذى يغمر القامة؛ لأنهم مغمورون فيها، سابحون فى بحر الجهالة، والخطاب للرسول ﷺ؛ إيذاناً بأنهم مطبوع على قلوبهم، أى: اتركهم على حالهم ﴿حتى حين﴾: حتى نأمرك فيهم بما شئتَ من الجهاد أو غيره، أو: إلى أن يُقتلوا أو يموتوا على الكفر، أو: إلى وقت حلول العذاب بهم. فهو تهديد وتسلية لرسول الله ﷺ، ونهى عن استعجال عذابهم، وفى التنكير والإبهام مالا يخفى من التهويل.

﴿ أيحسبون أنما نُمدُّهم به﴾ أى: نعطيهم إياه ونجعله مدداً لهم، ﴿من مالٍ وبنين﴾؛ «من»: بيان، أى: أيظنون أن الذى نمدهم به من الأموال والبنين، ﴿نُسارعُ لهم﴾ بذلك ﴿فى الخيرات، بل لايشعرون﴾ أنه استدراج، قيل: استدراك لقوله: ﴿أيحسبون﴾ أى: بل هم أشباه البهائم، لا شعور لهم حتى يتأملوا فى ذلك، هل هو استدراج أو مسارعة فى الخيرات؟ وحاصل المعنى: أن هذا الإمداد ليس إلا استدراجًا لهم إلى المعاصى، وهم يحسبونه مسارعة لهم فى الخيرات، ومعاملة لهم بالثواب، جزاء على حسن صنيعهم.

وهذه الآية حجة على المعتزلة فى مسألة الأصلح؛ لأنهم يقولون: إن الله ـ تعالى ـ لا يفعل بأحد من الخلق إلا ما هو أصلح له فى الدين، وقد أخبر أن ذلك لا خير لهم فيه ولا صلاح، والله تعالى أعلم.

الإشارة: تناول الطيبات وما تشتهيه النفس من أنواع الملذوذات، مباح فى الشرع قديماً وحديثا، إن كان من وجه مباح وقارنه الشكر؛ لأن الحق تعالى ما خلق ذلك إلا لعباده؛ ليشكروه ويحمدوه، ويتذكروا بذلك نعيم الجنان، الذى لايفنى ولا يزول، وما هذا النعيم الدنيوى إلا أنموذج من نعيم الآخرة، قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيل﴾[1]. هذا باعتبار عامة المسلمين، وأما الخاصة؛ من العبَّاد والزهاد والمريدين السائرين، فهم يجتنبون ما تجنح إليه النفس، ويتعلق به القلب؛ خوفاً من الاشتغال بذلك عن العبادة أو السير؛ لأن القلب إذا توجه لأمر أعرض عن الآخر، فإذا توجه إلى طلب الشهوات أعرض عن الله، وتفتَّر عن السير، وتكَبَّل عن النهوض إلى الحضرة. ولذلك قال فى الحِكَم: «كيف يشرق قلب: صُوَرُ الأكوان منطبعة فى مرآته؟ أم كيف يرحل إلى الله وهو مُكبَّل بشهواته؟ أم كيف يدخل حضرة الله وهولم يتطهر من جنابة غفلاته؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟» وقال بعضهم: لَدغُ الزنابير على الأجسام المقَرحة، أيسر من لدغ الشهوات على القلوب المتوجهة. هـ.

---

(١) من الآية ٣٨ من سورة التوبة.

وأما خاصة الخاصة؛ وهم العارفون المتمكنون، فهم مع مولاهم، يأخذون من يده ما يعطيهم؛ لأن قلوبهم قد استغرقتها الأنوار، فلم يبق فيها متسع للأغيار، قد تهذبت نفوسهم، واطمأنت بالله قلوبهم، فلا تلتفت إلى غير مولاها. وبالله التوفيق.

وقوله تعالى: ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم..﴾ الخ، الاختلاف، إن كان فى التوحيد وما يرجع إليه من أصول العقائد، فهو مذموم ، وهو الذى نعاه الله على الكفرة المتحزبة، وأمَّا إن كان فى الفروع فهو مشروع، كاختلاف الشرائع والمذاهب، ولذلك قال ـ عليه الصلاة السلام ـ: «اختلاف أمتى رحمة» ، وقال بعض الصوفية: مازالت الصوفية بخير ما تنافروا، فإن توافقوا فلا خير فيهم. هـ. والمراد بالتنافر ـ فى حقهم ـ التناصح، و إنكار بعضهم على بعض؛ إذا رأى من أحد عيباً، فإن سكتوا عن بعضهم، وتوافقوا على مساوئ بعضهم بعضا، فلا خير فيهم، وأما قلوبهم فهى متوافقة مؤتلفة.

وقوله تعالى: ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ ، أما أهل الحق فهم فرحون؛ لسلوكهم على المنهاج المستقيم، المُفضى إلى رضوان الله ورحمته، وأما أهل الباطل فزين لهم الشيطان أعمالهم؛ ليتمكنوا من التقرر عليه حتى ينفذ مراد الله فيهم، ولو تحققوا أنهم على باطل لم يمكن قرارهم عليه، فتبطل حكمته وقهريته، وكل من أقامه الحق ـ تعالى ـ فى حرفة أو خُطة، زينها الله ـ تعالى ـ فى قلبه حتى يقوم بها، وكذلك أهل الأسباب من أرباب الدليل والبرهان، مع أهل التجريد من أهل الشهود والعيان، لو علموا بمقام أهل العيان ما أقاموا فى الأسباب، ولتجردوا كلهم، فتبطل الحكمة الإلهية. وكان إبراهيم بن أدهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: (لو يعلم الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف) : فسبحان من قرَّب قوماً وأبعد قوما، (وهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنعا) . والله تعالى أعلم وأحكم.

ثم ذكر أهل القرب، إثر بيان أهل البعد، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

قال في الحاشية: لمّا ذكر تعالى غفلةَ الكفار ووعيدهم، عقّب ذلك بوصف المؤمنين بضد ذلك ويقينهم بالرُّجْعَى، وإشفاقهم من جلال الحق وقهره. هـ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾ أي: من عذابه خائفون حذرون، ﴿ والذين هم بآيات ربهم ﴾ المنصوبة والمُنَزَّلة، (يؤمنون) بتصديق مدلولها، وبكتب الله كلها، لا يُفرقون بين كتبه، كالذين تقطعوا أمرهم بينهم ـ وهم أهل الكتاب وغيرهم، ﴿ والذين هم بربهم لا يشركون ﴾ شركاً جلياً ولا خفياً، بخلاف مشركي العرب والعجم.

﴿ والذين يُوتون ما آتَوْا ﴾ أي: يعطون ما أعطوا من الزكوات والصدقات. وقرئ: (يأتُونَ مَا أتَوا) بالقصر، أي: يفعلون من الطاعات، ﴿ وقلوبهم وَجِلةٌ ﴾: خائفة ألاّ تُقبل منهم؛ لتقصيرهم؛ بأن لا يقع على الوجه اللائق، فيُؤخذوا به ويُحرموا ثوابه؛ لأنهم ﴿ إلى ربهم راجعون ﴾ فيعاتبهم، أو من مرجعهم إليه، وهو يعلم ما يحيق عليهم، والموصولات الأربعة عبارة عن طائفة واحدة متصفة بما ذكر، في حيِّزِ صِلاتِهاَ من الأوصاف الأربعة، لا عن طوائف، كل واحدة منها متصفة بواحد من الأوصاف المذكورة، كأنه قيل: إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون، وبآيات ربهم يؤمنون...الخ.

وإنما كرر الموصول؛ إيذاناً باستقلال كل واحد من تلك الصفات بفضيلة باهرة على حِيالها، وتنزيلاً لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف بها، وخبر «إنّ»: ﴿ أولئك يسارعون ﴾، أشار إليهم بالجمع باعتبار اتصافهم بتلك النعوت، مع أنّ الموصول واقع على الجمع.

ومعنى البُعد؛ للإشعار ببُعد رُتبتهم في الفضل، أي: أولئك المنعوتون بتلك النعوت الجليلة يسرعون ﴿ في الخيرات ﴾ أي: يرغبون في الطاعات أشد الرغبة، فيبادرون إليها. أو يسارعون في نيل الخيرات العاجلة والآجلة الموعودة على الأعمال الصالحات؛ كما في قوله، تعالى: ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ﴾[1]، وقوله: ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[2]، فقد أثبت لهم ما نفى عن أضدادهم، غير أنه غيّر الأسلوب، حيث لم يقل: أولئك نسارع لهم في الخيرات؛ بل أسند المسارعة إليهم؛ إيماءاً إلى كمال استحقاقهم نيل الخيرات لمحاسن الأعمال. وإيثار كلمة «في»، عن كلمة «إلى»؛ إيذاناً بأنهم متقلّبون في فنون الخيرات، لا أنهم خارجون عنها متوجهون إليها، كما في قوله تعالى: ﴿ سَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ الآية[3].

---

(١) من الآية ١٤٨ من سورة آل عمران.
(٢) الآية ١٢٢ من سورة النحل.
(٣) الآية ١٣٣ من سورة آل عمران.

﴿ وهم لها ﴾ أي: لأجل نيل تلك الخيرات، ﴿ سابقون ﴾ الناس إلى الطاعات، أو: وهم إياها سابقون، واللام زائدة؛ لتقوية العامل، كقوله: (هم لها عاملون) أي: ينالونها قبل الآخرة، فتُعجل لهم في الدنيا، وعن ابن عباس: (هم لها سابقون) أي: سبقت لهم من الله السعادة، فلذلك سارعوا في الخيرات. هـ. فهو إشارة إلى تيسير كلٍّ لما خُلق له، وأنه يَسَّرهم القدرُ لما وصفهم به من الخير، كما أن الكفار أُمدوا بما يدعو للغفلة والإعجاب، مما هو استدراج ومكر من حيث لا يشعرون.

قال تعالى: ﴿ ولا نُكلف نفساً إلا وُسْعَها ﴾ أي: طاقتها، فهو تحريض على تحصيل ما وُصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدي إلى نيل الخيرات؛ ببيان سهولته، وأنه غير خارج عن حد الوسع والطاقة، أي: عادتنا جارية بأنْ لا نكلف نفساً من النفوس إلا ما في طاقتها، فإن لم يبلغوا في فعل الطاعة مراتب السابقين، فلاعليهم، بعد أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا وسعهم.

﴿ ولدينا كتابٌ ﴾ أي: صحائف الأعمال التي يرونها عند الحساب، حسبما يُعرب عنه قوله: ﴿ ينطق بالحق ﴾، كقوله: ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(١) أي: عندنا كتاب أُثبت فيه أعمال كل أحد على ما هو عليه، أو أعمال السابقين والمقتصدين جميعاً، وقوله: (بالحق): يتعلق بينطق، أي: يُظهر الحق المطابق للواقع على ما هو عليه، أو يظهره للسامع، فيظهر هناك جلائل أعمالهم ودقائقها، ويرتب عليها أجزيتها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وقيل: المراد بالكتاب: اللوح المحفوظ، وهو مناسب لتفسير ابن عباس بسبق السعادة، وقوله: ﴿ وهم لا يظلمون ﴾، بيان لفضله تعالى وعدله في الجزاء، إثر بيان لطفه في التكليف وكتب الأعمال، أي: لا يظلمون في الجزاء؛ بنقص الثواب أو بزيادة عذاب، بل يُجزون بقدر أعمالهم التي كُلفوها، ونطقت بها صحائف أعمالهم، أو: لا يُظلمون بتكليف مالا وسع فيه، أو: لا ينقصون مما سبق لهم في اللوح المحفوظ شيئاً، والله تعالى أعلم.

الإشارة: ذكر في هذه الآية أربعة أوصاف من أوصاف المقربين، **أولها:** الخوف والإشفاق من الطرد والإبعاد، **والثاني:** الإيمان الذي لا يبقى معه شك ولا وَهْم، بما تضمنته الآيات التنزيلية من الوعد والإيعاد، **والثالث:** التوحيد الذي لا يبقى معه شرك جلي ولا خفي، **والرابع:** السخاء والكرم، مع رؤية التقصير فيما يعطي. فمن جمع هذه الخصال كان من السابقين في الخيرات، ويسارع لهم في تعجيل الخيرات، وكل ذلك بقدر ما يطيق العبد، مع بذل المجهود في فعل الخيرات.

قال في الحاشية: والمسارعة إلى الخيرات إنما هو بقطع الشرور، وأول الشرور: حب الدنيا؛ لأنها مزرعة الشيطان، فمن طلبها وعمرّها فهو حراثه وعبده، وشر من الشيطان من يُعين الشيطان على عمارة داره، وما ذلك إلا أنه لم يهتم بأمر معاده ومنقلبه، لما جرى عليه في السابقة من الحكم، ولا كذلك من وصفه بالإشفاق من المؤمنين؛ إجلالاً لربهم، ورجوعاً لحكمه فيهم غيباً، فلا يأمنون مكره بحال، ولا يركنون إلى أعمال، بل عمدتهم

(١) من الآية ٢٩ من سورة الجاثية.

ربهم ورحمته فى كل حال. والله أعلم. والحاصل: أنهم مع كونهم يخشون ربهم ويؤمنون بآياته، ولا يشركون به شيئاً، ويودون طاعته، يخافون عدم قبوله لهم عند الرجوع إليه، ولقائهم له؛ لأنه يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وأحكامه لا تعلل، ومن استغرق فيه لم يقف مع وعده. هـ.

قوله: «ومن استغرق فيه لم يقف مع وعده»، أى: لأنه قد يرتب ذلك على شروط أخفاها عنه، ليدوم خوفه واضطراره، ولذلك كان العارف لا يزول اضطراره، وليس خوف العارف من السابقة ولا من الخاتمة؛ لأنه شغله استغراقه فى الحق والغيبة فيه عن الشعور بالسابقة واللاحقة، إنما خوفه من الإبعاد بعد التقريب، أو الافتراق بعد الجمع، وهذا أيضا قبل التمكين، وإلا فالكريم إذا أعطى لا يرجع. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر من اتصف بضد الأوصاف المتقدمة، فقال:

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) ﴾

قلت: «بل»: إضراب عما قبله من أوصاف المؤمنين، وانتقال إلى أضدادهم من الكافرين، والضمير للكفرة، و«حتى»: ابتدائية مختصة بالدخول على الجُمل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **بل قلوبُهم** ﴾ أى: الكفرة المستدرج بهم، وهم لا يشعرون، ﴿ **فى غَمْرَةٍ** ﴾؛ فى غفلة غامرة لها، مما عليه هؤلاء الموصوفون بما تقدم من الخشية وما بعده، أومما بيَّن فى القرآن من أن لديه كتاباً ينطق بالحق، ويُظهر لهم أعمالهم السيئة على رؤوس الأشهاد، فيُفضحون بها، كما ينبئ عنه ما بعده من قوله: ﴿قد كانت آياتى تتلى عليكم..﴾. ﴿ **ولهم أعمال من دون ذلك** ﴾ أى: ولهم أعمال خبيثة كثيرة، متجاوزة لذلك الذى وصف به المؤمنون، من الأعمال الصالحات، وهى فنون كفرهم ومعاصيهم، ﴿ **هم لها عاملون** ﴾، وعليها مقيمون، مستمرون عليها، حتى يأخذهم الله بالعذاب، كما قال: ﴿ **حتى إذا أخذنا مُترَفِيهم** ﴾ أى: منعميهم ﴿ **بالعذاب** ﴾ أى: عذاب الدنيا، وهو القحط سبع سنين، حين دعا عليهم النبى ﷺ بقوله: «اللهُمَّ اشْدُدْ وطْأَتَكَ علَى مُضَرَ، واجعلها عليْهِمَ سِنِينَ كَسِنِيّ يُوسُفَ»(١)، فقحطوا حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام. أو: القتل يوم

---

(١) أخرجه البخارى فى (الأذان، با ب يهوى بالتكبير حين يسجد)، ومسلم فى (المساجد، باب استحباب القنوت فى جميع الصلاة)، عن أبى هريرة رضي الله عنه.

بدر. والحق: أنه العذاب الأخروي؛ إذ هو الذي يُفاجأون عنده بالجؤار، فيجابون بالرد والإقناط عن النصر، وأما عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جؤار، حسبما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾(١)، فإنَّ المراد به ما جرى عليهم يوم بدر كما يأتي. وأما الجوع فإن أباسفيان، وإن تضرع إلى رسول الله ﷺ، فلم يرد عليه بالإقناط، بل دعا لهم فكشف عنهم. وقوله تعالى: ﴿ إذا هم يجأرون ﴾ أي: يصرخون؛ استغاثة، والجؤار: الصراخ باستغاثة. فيقال لهم: ﴿ لا تجأروا اليوم ﴾؛ فإن الجؤار غير نافع لكم، ﴿ إنكم منا لاتُنصرون ﴾ أي: لا يلحقكم من جهتنا نصرة تمنعكم مما دهمكم.

﴿ قد كانت آياتي ﴾ القرآنية ﴿ تُتلى عليكم ﴾ في الدنيا، ﴿ فكنتم على أعقابكم تَنكصُونَ ﴾ أي: ترجعون القهقرى، وتعرضون عن سماعها أشد الإعراض، فضلاً عن تصديقها والعمل بها، والنكوص: الرجوع القهقرى، وهي أقبح المشية؛ لأنه لا يرى ما وراءه، ﴿ مستكبرين به ﴾، الظاهر أن الضمير للقرآن؛ لتقدم ذكر آياته، والباء بمعنى «عن» أي: متكبرين عن سماعه والإذعان له، أوسببية، أي: فكنتم بسبب سماعه مستكبرين عن قبوله، وعمن جاء به، أو ضَمَّن مستكبرين معنى مُكذبين، وقيل: يعود إلى البيت الحرام، أو الحرم، وأضمر ولم يذكر؛ لأنه يفهم من السياق. والمعنى: أنهم يستكبرون بسبب المسجد الحرام؛ لأنهم أهله وأهل ولايته، وكانوا يقولون: لا يظهر علينا أحد؛ لأنا أهل الحرم، وقيل: تتعلق الباء بقوله: ﴿ سامراً ﴾ أي: تسمرون بذكر القرآن والطعن فيه، وكانوا يجتمعون حول البيت يسمرون، وكان عامة سمرهم ذكر القرآن والطعن فيه، وفي النبي ﷺ الذي جاء به، و« سامراً» : مفرد بمعنى الجمع، وقرئ سُمَّاراً، ﴿ تهجرون ﴾(٢)، إما من الهَجر بالفتح، بمعنى الهذيان، أي: تهذون في شأن القرآن كما يهذو الحالم أو السكران. أو من الترك، أي: تتركونه وتفرون منه، أو تهجرون النبي ﷺ والمؤمنين ، أو من «الهُجر» بالضم، وهو الفحش، ويؤيده قراءة من قرأ: « تُهجِرون» ، من أهجر في منطقه: إذا أفحش. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من كان قلبه في غمرة حظوظه وهواه، عاكفًا علي جمع دنياه، لا يطمع في دخول حضرة مولاه، ولو صلى وصام ألف سنة. قال القشيري: لا يَصْلُحُ لهذا الشأن إلا من كان فارغاً من الأعمال كلها، لا شغلَ له في شأن الدنيا والآخرة، فأمَّا من شُغل بدنياه، وعلى قلبه حديثٌ من عقباه، فليس له نصيبٌ من حديث مولاه. هـ. وفي الحديث: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ والفَرَاغُ»(٣).

---

(١) الآية ٧٦ من سورة المؤمنون.
(٢) قرأ نافع «تهجرون» بضم التاء وكسر الجيم، وقرأ الباقون بفتح التاء وضم الجيم. انظر الإتحاف (٢/٢٨٦).
(٣) أخرجه البخاري في (الرقاق، باب ما جاء في الرقاق، وأن لا عيش إلا عيش الآخرة) عن ابن عباس رضي الله عنه.

ثم أمر بالتدبر والنظر، لعله يقع التيقظ، فقال:

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

قلت: الهمزة للإنكار، والفاء للعطف على محذوف، أي: أفعلوا ما فعلوا من النكوص والاستكبار فلم يتدبروا القرآن، و«أم»: منقطعة، فيها معنى الإضراب والتوبيخ في الجميع.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾؛ يتدبروا القرآن ليعرفوا، بما فيه من إعجاز النظم وصحة المدلول، والإخبار عن المغيبات الماضية والمستقبلة، أنه الحق، فيؤمنوا به، ويُذعنوا لمن جاء به، ﴿أَمْ جَاءَهُم﴾؛ بل أجاءهم من الكتاب ﴿مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾، حتى استبعدوه واستبدعوه، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال، ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ أي: بل ألم يعرفوه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالأمانة والصدق، وحسن الأخلاق، وكمال العلم من غير تعلم ولا مدارسة، وغير ذلك مما حازه من الكمالات اللائقة بالأنبياء قبله، بل عرفوه بذلك ﴿فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ بغياً وحسداً.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾؛ جنون، وليس كذلك؛ لأنهم يعلمون أنه أرجحهم عقلاً، وأثقبهم ذهناً، وأتقنهم رأياً، وأوفرهم رزانة، ولقد شهد له بذلك كل من رآه من الأعداء والأحباب، ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: ليس الأمر كما زعموه في حق الرسول ـ عليه الصلاة السلام ـ ، وما جاء به من القرآن، بل جاءهم بالحق الأبلج والصراط المستقيم، وبما خالف أهواءهم، من التوحيد الخالص والدين القيم، ولم يجدوا له مرداً ولا مدفعاً، فلذلك نسبوه إلى الجنون، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ﴾ من حيث هو حق، لا لهذا بعينه، فلذلك أظهر في موضع الإضمار، ﴿كَارِهُونَ﴾؛ لِمَا في جبلّتهم من الزيغ والانحراف المناسب للباطل؛ ولذلك كرهوا هذا الحق الأبلج، وزاغوا عن الطريق الأبهج، وفي التعبير بالأكثر دليل على أن أقلهم ما كان كارهاً للحق، بل كان تاركاً للإيمان به، أنفةً واستنكافاً من توبيخ قومه، أو لقلة فطنته وعدم تفكره، كأبي طالب وأضرابه. قال أبو السعود: وأنت خبير بأن التعرض لعدم كراهة بعضهم للحق، مع اتفاق الكل على الكفر به، مما لا يساعده المقام أصلا. هـ. فحمل الأكثر على الكل.

﴿ ولو اتبع الحقُّ أهواءهم ﴾ بأن كان في الواقع آلهة شتى؛ ﴿ لفسدت السموات والأرضُ ومن فيهن ﴾ كما تقدم في قوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾(١)، فالاتباع هنا مجاز، أي: لو جاء الوحي على مايشتهون لفسدت السموات، فالحق هنا هو المذكور في قوله: (بل جاء هم بالحق وأكثرهم للحق كارهون)، والمعنى: لو كان ما كرهوه من الحق، الذي من جملته ما جاء به ﷺ، موافقًا لأهوائهم الباطلة؛ لفسد نظام العالم، وتخصيص العقلاء بالذكر حيث عبَّر بمن؛ لأنَّ غيرهم تبع.

﴿ بل أتيناهم بذكْرهم ﴾: بشرفهم، وهو القرآن الذي فيه فخرهم وشرفهم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ ولقومك ﴾(٢)؛ لأن الرسول منهم، والقرآن لغتهم، أو بتذكيرهم ووعظهم، أو بالذكر الذي كانوا يتمنونه، ويقولون: (لو أن عندنا ذكراً من الأولين)(٣)، ﴿ فهم عن ذِكْرهم معرضون ﴾ أي: فهم، بما فعلوا من النكوص، عن فخرهم وشرفهم معرضون، وهذا مما جُبِلَتْ عليه النفوس الأمّارة؛ الإعراض عما فيه خيرها، والرغبة فيما فيه هلاكها، إلا من عصم الله، وفي إسناد الإتيان إلى نون العظمة، بعد إسناده إلى ضميره عليه الصلاة والسلام، من التنويه بشأن النبي ﷺ ما لا يخفى. انظر أبا السعود.

﴿ أم تسألُهم خَرْجاً ﴾، هذا انتقال من توبيخهم بما ذكر من قولهم: (أم يقولون به جِنَّة)، إلى التوبيخ بوجه آخر، كأنه قال: أم يزعمون أنك تسألهم عن أداء الرسالة ﴿ خَرْجاً ﴾ أي: جعلاً، فيتهمونك، أو يثقل عليهم فلذلك لا يؤمنون، ﴿ فخراجُ ربك خيرٌ ﴾ أي: رزقه في الدنيا، وثوابه في الآخرة، خير لك من ذلك؛ لدوامه وكثرته، أي: لا تسألهم ذلك؛ فإن مارزقك الله في الدنيا والعقبى خير لك من ذلك، وفي التعرض لعنوان الربوبية، مع الإضافة إلى ضميره ـ عليه الصلاة والسلام ـ، من تعليل الحكم وتشريفه ﷺ مالا يخفى.

والخَرْج والخراج واحد، وهو: الأجر المأخوذ على العمل، ويطلق على الغلة والضريبة، كخراج العبد والأرض، وقال النضر بن شُميل: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخراج والخَرْج، فقال: الخراج مالزمك، والخرج ماتَبَرَّعْتَ به، وقيل: الخرج أخص من الخراج؛ لأنَّ الخراج يطلق على كل ما يستفيده المرء من غلة، أو أجرة، أو زكاة، والخرج خاص بالأجرة، وفي الخراج إشعار بالكثرة، فلذلك عبَّر به في جانبه ـ تعالى ـ والمعنى: أم تسألهم، على هدايتك لهم، قليلاً من عطاء الخلق، فالكثير من عطاء الخالق خير، ﴿ وهو خير الرازقين ﴾: أفضل المعطين.

﴿ وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم ﴾ تشهد العقول السليمة باستقامته، ليس فيه شائبة اعوجاج، توجب اتهامهم لك بوجه من الوجوه، ولقد ألزمهم الله ـ تعالى ـ الحجة، وأزاح عِللهم في هذه الآيات، حيث حصر أقسام ما يؤدي إلى الإنكار والاتهام من قوله: ﴿أم لم يعرفوا رسولهم...﴾ إلى هنا، وبيَّن انتفاءها، ولم يبق إلا كراهة الحق

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء. (٢) من الآية ٤٤ من سورة الزخرف.
(٣) كما حكى القرآن عنهم في الآية ١٦٨ من سورة الصافات.

وعدم الفطنة أو العناد والمكابرة، ﴿ وإنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط ﴾؛ عن طريق الحق ﴿ لناكبون ﴾ أى: لعادلون عن هذا الصراط المذكور، وهو الصراط المستقيم، وصفهم بعدم الإيمان بالآخرة، تشنيعاً لهم بما هم عليه من الانهماك فى الدنيا، وزعمهم ألاّ حياة إلاّ حياة الدنيا، وإشعاراً بعلِّيَة الحُكم؛ فإن الإيمان بالآخرة وخوف ما فيها من الدواهى من أمور الدعاوى إلى طلب الحق وسلوك سبيله . والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من أنكر على أهل الخصوصية، ولم يعرف خصوصيتهم؛ فسببه ثلاثة أمور: إما أنه لم يصحبهم ولم يتدبر ما يقولون، ولا ما يأمرون به وينهون عنه، وإنما يرميهم رجماً بالغيب، وإما أنه حسدهم وخاف على جاهه أن ينتقل لغيره، وإما أنهم أتوا بخرق عوائد النفوس التى لم تكن لأبائهم الأولين، فقالوا: (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون)، وإنما جاءهم بالحق، وأكثرهم للحق كارهون، وكيف تُخرق للعبد العوائد، وهو لم يخرق من نفسه العوائد؟. (ولو اتبع الحق أهواءهم)، بأن كانت التربية على طريق العوائد ، والاستمرار معها، لفسد النظام، ولبقى الكون كله ظلمة لجميع الأنام؛ إذ لا يمكن أن يصير الكون نوراً، بظهور الحق فيه، إلا بخرق عوائد النفوس، وإخراجها عن هواها، فحينئذ تخرق له ظلمة الكَون، فيفضى إلى شهود المكوِّن، (بل أتيناهم بذكرهم) أى: بشرفهم، بمعرفة الحق على نعت العيان، (وهم عن ذكرهم معرضون)؛ حيث انهمكوا فى عوائدهم، ولم يقبلوا من يخرجهم عنها ويعرفهم بالله لله، من غير خراج ولا طمع.

قال تعالى لنبيه ـ عليه الصلاة السلام ـ : (أم تسألهم خرجاً فخراج ربك خير) . قال القشيرى: أى: إنك لا تُطالبهم على تبليغ الرسالة بأجرة، ولا بإعطاء عِوضٍ، حتى تكون فى موضع التهمة فيما تأتيهم به من الشريعة، أم لعلك تريد أن يَعْقِدوا لك الرئاسة، ثم قال: والذى لَكَ من الله ـ سبحانه ـ من جزيل الثواب، وحسن المآب، يُغنيك عن التصدى لنيلِ ما يكون فى حصوله منهم مطمع. وهذه كانت سُنَّة الأنبياء والمرسلين ـ عليهم السلام ـ؛ عملوا لله فلم يطلبوا عليه أجراً من غير الله، والعلماء ورثة الأنبياء فى التنزه من التَّدنُّس بالأطماع، والأكل بالدين، فإنه ربا مُضِرٌ بالإيمان، إن كان العملُ لله فالأجر مُنتظَرٌ من الله، وهو موعودٌ من قِبَلِ الله. هـ.
وراجع ما تقدم فى سورة هود؛ فإنه أوفى من هذا(١).

وقوله تعالى: (وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم)، هو طريق الوصول إلى شهود الذات الأقدس، من طريق التربية، التى هى مخالفة الهوى والخروج عن العوائد. وقال القشيرى: الصراطُ المستقيمُ: هو شهودُ الحقِّ بنعت الانفراد فى جميع الأشياء، والإيجاف(٢)، والاستسلام لقضايا الإلزام، بمواطأة القلب من غير استكراه الحُكمْ. هـ.
وقال الورتجبى عن بعضهم: لولا أن الله ـ تعالى ـ أمر بمخالفة النفوس ومباينتها، لا تَّبع الخلق أهواءهم فى شهوات

---

(١) راجع إشارة الآية ٢٩ من سورة هود.
(٢) فى القشيرى: وفى الإيجاد.

النفوس، ولو فعلوا ذلك لضلوا عن طريق العبودية، وتركوا أوامر الله، وأعرضوا عن طاعته، ولزموا المخالفة، ألا ترى الله يقول: ﴿ولو اتبع الحق أهوائهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾.

ثم بيّن سبحانه أن حبيبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدعوهم إلى تلك المشاهدة بقوله: (وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم) أي: مما أوضحه أنوار جماله وشاهدته، وهي طريق معرفته في قلوب الصدّيقين للأرواح القدسية. وتلك الطريقة منتهاها المحبة، وبدايتها الأسوة والمتابعة؛ لقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(١). هـ. قلت: المراد بالمحبة محبة الحق لعبده؛ بدليل الآية التي ذكر. وقال ابن عطاء: إنك لتحملهم على مسالك الوصول، وليس كل أحد يصلح لذلك السلوك، ولا يوفق له إلا أهل الاستقامة، وهم الذين استقاموا مع الله ولم يطلبوا معه سواه، ولم يروا لأنفسهم درجة ولامقاماً. هـ.

قوله تعالى: ﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أي: لا يؤمنون بالحياة الآخرة، وهي حياة النفوس بالمعرفة العيانية، بعد موتها بالجهل والوقوف مع الحس والعوائد، ممن لا يصدق بهذه الحياة، وأنكر وجود من يوصل إليها عن طريق الحق الموصلة إليه، لناكبون، فهم في الحيرة والتلف تائهون، عائذاً بالله من ذلك.

ثم ذكر انهماكهم في الغفلة؛ لسبق القضاء عليهم، فقال:

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضُرّ﴾، كقحط وجدب، ﴿لَلَجُّوا﴾: لتمادوا ﴿في طغيانهم﴾: إفراطهم في الكفر والعتو والاستكبار وعداوة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ والمؤمنين، ﴿يعمهون﴾: يترددون عامهين عن الهدى. قال ابن عباس: لما أسلم ثُمامةُ بن أثال الحنفي، ورجع إلى اليمامة، منع الميرة عن أهل مكة، وأخذهم الله تعالى بالسنين حتى أكلوا العلهز(٢)، جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال له: أنشدك الله والرحم، ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ قال: بلى، قال: قتلت الآباء بالسيف، والأبناء بالجوع، فنزلت(٣). قال ابن جزي: وفيه نظر؛ فإن الآية مكية باتفاق، وإنما دعا النبي ﷺ على قريش بعد الهجرة، حسبما ورد في الحديث. هـ.

(١) فالآية ٣١ من سورة آل عمران
(٢) قال في النهاية: هي شيء يتخذونه في سني المجاعة، يخلطون الدم بأوبار الإبل، ثم يشوونه بالنار ويأكلونه. انظر النهاية (٢٩٣/٣). والقاموس المحيط (٩٠/٢).
(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل (باب سرية نجد)، والنسائي في الكبرى (التفسير، سورة المؤمنون)، وابن جرير في التفسير (٤٥/١٨).

قلت: والتحقيق: أن القحط نزل بهم مرتين، أحدهما قبل الهجرة، حين دعا عليهم ـ ﷺ ـ بقوله : «اللهم أعِنّى عليهم بسبع كسبع يوسف»، فأخذتهم سَنَةٌ حصدت كل شىء، حتى أكلوا الميتة والعظام، وكانوا يرون كهيئة الدخان من الجوع، فجاء أبو سفيان فقال: يا محمد، جئت تأمر بصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا، فادعُ اللّه يغيثنا، فدعا لهم.. الحديث. وفيه نزل تعالى: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾(١)، الآية، وقوله هنا: ﴿ولو رحمناهم وكشفنا...﴾ الآية. ومرة أخرى بالمدينة؛ حين استغاثوا به ﷺ وهو يخطب، ولعله هو الذى ذكره ابن عباس فى إسلام ثمامة، ولعل قوله: «فنزلت الآية» سهو؛ لأنها نزلت قبل الهجرة، إلاّ أن تكون الآية مدنية فى السورة المكية، وقول ابن جزى: «دعا عليهم بعد الهجرة»، التحقيق: أنه دعا عليهم قبلُ وبعدُ. والله أعلم.

والمعنى: لو رحمناهم، وكشفنا ما بهم من القحط والهزال؛ برحمتنا إياهم، ووجدوا الخصب، لارتدوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والاستكبار، ولذهب عنهم هذا الخلق والتعلق بك، وهذا كقوله تعالى فى الدخان: ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾(٢)، قيل: المراد بالضر: العذاب الأخروى، فيكون كقوله: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾(٣).

﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب ﴾، وهو ما أصابهم يوم بدر من القتل والأسر، وهو قوله ـ تعالى ـ فى الدخان : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى ﴾(٤). ﴿ فما استكانُوا لربهم ﴾ بذلك، أى: لم يخضعوا ولم يتذللوا. و«استكانوا»: افتعل من السكون، والألف زائدة، أو استفعل من الكون، أى: انتقل من كون إلى كون، كاستحال، إذا انتقل من حالٍ إلى حال؛ لأن الخاضع ينتقل من كون إلى كون. ﴿ وما يتضرعونَ ﴾ أى: وليس من حالهم التضرع إليه تعالى، وعبَّر بالمضارع، ليدل على الاستمرار، أى: ليس شأنهم التضرع فى هذه الحالة وغيرها، أو: فما استكانوا فيما مضى، وما يتضرعون فيما ينزل بهم فى المستقبل، والمعنى: تالله لقد أخذناهم بالعذاب، وقتلناهم بالسيوف، وما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم، فما وُجدت، بعد ذلك، منهم استكانة ولا تضرع.

﴿ حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذابٍ شديد ﴾، وهو عذاب الآخرة، ﴿ إذا هم فيه مبلسون ﴾ : متحيرون آيسون من كل خير، وهذا هو الصواب من حمل العذاب على عذاب الآخرة، بدليل وصفه بالشدة والإياس. والله تعالى أعلم.

---

(١) الآية ١٠ من سورة الدخان.
(٢) من الآية ١٥ من سورة الدخان.
(٣) من الآية ٢٨ من سورة الأنعام.
(٤) من الآية ١٦ من سورة الدخان

الإشارة: أهل الغفلة والبُعد لا يرجعون إلى الله فى السراء ولا فى الضراء؛ لانهماكهم فى الغفلة والقساوة، وأهل اليقظة يرجعون إلى الله فى السراء والضراء، فى السراء بالحمد والشكر، وفى الضراء بالصبر والرضا والتسليم، مع التضرع والابتهال؛ عبوديةً، والمقتصدون يرجعون إليه ـ تعالى ـ فى الضراء، ويغفلون عن الشكر فى السراء، والأول ظالم لنفسه، والثانى سابق، والثالث مقتصد. وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل قدرته ـ تعالى ـ وفى ضمنه استدعاؤهم إلى الرجوع إليه تعالى بالشكر، فقال:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿وهو الذي أنشأ﴾ : خلق ﴿لكم السمع والأبصار﴾ ؛ لتشاهدوا بها عجائب مصنوعاته ودلائل قدرته، أو لتتوصلوا إلى شهود آياته الكونية والتنزيلية، ﴿والأفئدة﴾ ؛ لتتفكروا بها فيما تشاهدونه منها وتعتبروا، وخصها بالذكر؛ لأنه يتعلق بها من المنافع مالا يتعلق بغيرها، وقدّم السمع؛ لأنّ أكثر العلوم إنما تُنال به، ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أى: شكراً قليلاً غير معتد به تشكرون تلك النعم الجليلة؛ لأن العمدة فى الشكر: صرف تلك القوى ـ التى هى فى أنفسها نِعَم باهرة ـ إلى ما خلقت له، وأنتم تنتحلون بها ضلالاً عظيما. ﴿وهو الذي ذرأكم في الأرض﴾ أى: خلقكم وبثكم فيها بالتناسل، ﴿وإليه تُحشرون﴾ أى: تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم، فيجازيكم على إحسانكم وإساءتكم .

﴿وهو الذى يُحيى ويميت﴾، من غير أن يشاركه فى ذلك أحد ولا شىء من الأشياء، ﴿وله اختلافُ الليل والنهار﴾ أى: المؤثر فى اختلافهما، ﴿أفلا تعقلون﴾ فتعرفون بالنظر والتأمل أن الكل منا، وأن قدرتنا تعم جميع الممكنات، التى من جملتها البعث والحساب، وقُرئ « يعقلون » ؛ بالغيب، على الالتفات؛ لحكاية سوء حال المخاطبين، ﴿بل قالوا﴾ عطف على مضمر يقتضيه المقام، أى: فلم يعقلوا ﴿بل قالوا مثلَ ما قال الأولون﴾ أى: آباؤهم ومن دان دينهم، ﴿قالوا أئذا متْنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾، هو تفسير لما أبهم قبله، أى: قالوا : أنُبعث بعد هذه الحالة، ﴿لقد وُعدنا نحن وآباؤنا هذا﴾ البعث ﴿من قبل﴾: متعلق بالفعل من حيث إسناده إلى آبائهم لا إليهم، أى: وُعِدَ هذا آباؤنا من قبلُ، أو حال من آبائنا، أى: كائنين من قبل، ﴿إنْ هذا﴾ أى:

ما هذا ﴿ إلا أساطير الأولين ﴾ أي: أكاذيبهم التي سطروها، وهي جمع أسطورة، كأُحدوثة وأُعجوبة، أو جمع أسطار، جمع سطر، فيكون جمع الجمع. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ذكر في الآية خمس نِعَم، يجب على العبد شكر كل واحدة منها، فشُكْر نعمة السمع: أن تسمع به ما ينفع، وتكفه عما لا ينفع، وإذا سمعت خيراً أفشيته، وإذا سمعت شراً دفنته. وشكر نعمة البصر: أن تنظر به في ملكوت السموات والأرض وما بينهما، فتعرف عظمة الصانع، أو تشاهده وتوحده فيها. وشكر نعمة القلوب: أن تعرف بها علام الغيوب، وتُفرده بالوجود في كل مرغوب ومرهوب. وشكر نعمة الإيجاد: أن تكون له عبداً في كل حال. وشكر نعمة الإعادة: أن تتأهب للقائه في كل لحظة وساعة. (وهو الذي يحيي ويميت)؛ يحيي قلوباً بالمعرفة بعد الجهل، ويميت قلوباً بالغفلة والجهل بعد العلم واليقظة، وذلك بالسلب بعد العطاء، والعياذ بالله. وله اختلاف ليل القبض ونهار البسط على العبد، ثم يُخرجه عنهما؛ ليكون مع الله لامع شيء سواه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل ما أنكروه من البعث، فقال:

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ﴾ يا محمد لمن أنكر البعث: ﴿ لمن الأرضُ ومن فيها ﴾ من المخلوقات؛ عاقلاً أو غيره، أي: من أوجدها، ودبر أمرها، ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ شيئاً؟ والجواب محذوف، أي: فأخبروني؛ فإن ذلك كاف في الجواب، ﴿ سيقولون لله ﴾؛ لأنهم مُقرُّون بأنه الخالق، فإن أقروا بذلك ﴿ فقل أفلا تذكرون ﴾ فتعلمون أنَّ من قدر على خلق السماوات والأرض وما فيهن، كيف لا يقدر على إعادة الخلق بعد عدومها؟ فإن الإعادة أهون من البدء. ﴿ قل من ربُّ السموات السبع وربُّ العرش العظيم ﴾، أعيد الرب؛ تنويهاً لشأن العرش، ورفعاً لمحله؛ لئلا يكون تبعاً للسماوات والأرض، وجوداً وذكراً، ولقد روعي في الأمر بالسؤال الترقي من الأدنى إلى الأعلى، فإن سألتهم (سيقولون لله) أي: هي لله، كقولك: مَن رب هذه الدار؟ فتقول: هي لفلان، وقال الشاعر:

إِذَا قِيلَ: مَن رَبُّ الْمَزَالِفِ والقُرَى ... وربُّ الْجِيادِ الجُرْدِ؟ قِيلَ: لِخَالِدِ

وقال الأخفش: اللام زائدة، أي: هو الله، وبعدمه قرأ أهل البصرة، فيه وفيما بعده، وا تفقوا على إثباته فى الأول، ليطابق السؤال، فإن أجابوا بذلك ﴿ فقل أفلا تتقون ﴾ أى: أتعلمون ذلك، ولا تتقون عذابه فى كفركم وجحودكم قدرته على البعث؟

﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء ﴾ أى: التصرف التام فى كل شيء بقهره وسلطانه، فالملكوت، فى أصل اللغة، مبالغة في الملك، زيدت الواو والتاء؛ للمبالغة، كالجبروت؛ مبالغةً فى الجبر، وفى عرف الصوفية، الملكوت: ما بطن من أسرار المعانى القائمة بالأوانى، أو نقول: ما غاب فى عالم الشهادة من أسرار الذات، فحس الأوانى مُلك، ومعانيها ملكوت، والجبروت: ما خرج عن دائرة الأكوان من بحر الأسرار، الفائض بأنوار الملكوت، وهذه أسماء لمسمى واحد، وهو بحر الوحدة.

ثم قال تعالى: ﴿ وهو يُجير ﴾ أى: يغيث، يقال: أجرت فلاناً على فلان: إذا أغثته منه، يعني: وهو يغيث من شاء ممن شاء، ﴿ ولا يُجار عليه ﴾: ولا يغيث أحد عليه، أى: لا يمنع أحدٌ أحداً بالنصر عليه. ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ شيئًا ما، أو تعلمون ذلك، فأجيبوني؟ ﴿ سيقولون لله ﴾ أى: لله ملكوت كل شيء، وهو يُجير ولا يُجار عليه، ﴿ قلْ فأني تُسحرون ﴾ أى: فمن أين تُخدعون وتُصرفون عن الرشد، وعن توحيد الله وطاعته؟ فإنَّ من لا يكون مسحوراً مختل العقل لا يكون كذلك، قال تعالى: ﴿ بل أتيناهم بالحق ﴾ الذى لا محيد عنه؛ من التوحيد والوعد بالبعث، ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ فيما قالوا من الشرك وإنكار البعث. وبالله التوفيق.

الإشارة: قل: لمن أرض النفوس، وما فيها من الأهوية والحظوظ والعلائق؟ سيقولون: هى لله يتصرف فيها كيف يشاء، فتارة يُملّكها لعبده، فتكون تحت قهره وسلطانه، فيكون حراً من رق الأشياء، وتارة يُملّكه لها بعدله، فيكون تحت قهرها وسلطانها، تتصرف فيه كيف تشاء، ويكون مملوكاً لها، ينخرط فى سلك من اتخذ إلهه هواه، قل: من رب سماوات الأرواح وعرش الأسرار والأنوار، وهو القلب الذى هو بيت الرب، قل: سيقولون: لله، يظهرها متى شاء، ويوصلها إلى أصلها كيف شاء، قل: من بيده ملكوت كل شيء، فيتصرف فى النفوس والأرواح؛ بالتقريب والتبعيد، وهو يجير من الحظوظ والأهوية مَن يشاء، ويسلطها على مَن يشاء، ولا يُجار عليه، لا يمتنع من قهره أحد، فأنّى تسحرون.

قال القشيرى: أولا قال: (أفلا تذكرون)، ثم قال بعده: (أفلا تتقون)؛ قدَّم التذكرَ على التقوى؛ لأن بتذكيرهم يَصلون إلى المعرفة[1]، وبعد أن عرفوه، علموا أنه يجب عليهم اتقاءُ مخالفته، ثم بعد ذلك قال: (فأنى تُسْحَرون)؟ أى: بعد وضوح الحجة، أيُّ شكٍّ بَقِيَ حتى تَنْسبُوه إلى السِّحر؟. هـ.

---

(١) فى القشيرى: المغفرة.

ثم أبطل دعوى الولد والشريك عليه تعالى، فقال:

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ما اتخذ اللهُ من ولد﴾، خلاف ما يقوله النصارى، والعرب التي قالت: الملائكة بنات الله، تعالى عن قولهم علواً كبيراً، ﴿وما كان معه من إله﴾ يُشاركه في ألوهيته، كما يقول عبدة الأوثان وغيرهم، ﴿إذاً لذهب كل إله بما خلق﴾ أي: لو كان معه آلهة، كما يزعمون، لذهب كل واحد منهم بما خلقه واستبد به؛ ليتميز ملكه من ملك الآخر، ووقع بينهم التغالب والتحارب، كما هو الجاري بين الملوك، ﴿ولعلا بعضهم على بعض﴾ : ولغلب بعضهم على بعض، وارتفع عليه، كما ترون حال ملوك الدنيا؛ ممالكهم متمايزة وهم متغالبون، وحين لم تروا أثراً لتمايز الممالك والتغالب؛ فاعلموا أنما هو إله واحد.

قال ابن جُزَيّ: وليس هذا البرهان بدليل التمانع، كما فهم ابن عطية وغيره، بل بدليل آخر. وقال في قوله: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) : قال كثير من الناس: إنه دليل التمانع الذي أورده المتكلمون، والظاهر من اللفظ أنه استدلال آخر أصح منه. هـ. قال النسفي: ولا يقال: «إذاً» لا تدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب، وهو هنا وقع لذهب؛ جزاءً وجوابا، ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل؛ لأن الشرط هنا محذوف، تقديره: لو كان معه آلهة كما يزعمون لذهب.. الخ، دل عليه: (وما كان معه من إله)، وهو جواب لمن حاجّه من المشركين. هـ.

﴿سبحان الله عما يصفون﴾ من الأنداد والأولاد، ﴿عالِم الغيب والشهادة﴾ أي: السر والعلانية، أو ما ظهر من حس الأكوان، وما غاب فيها وعنها، فمن جرّ «عالم» : فبدل من الجلالة، أو صفة له، ومن رفعه؛ فخبر عن مضمر، أي: هو عالم. ﴿فتعالى عمّا يُشركون﴾ من الأصنام وغيرها، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ فإنّ تفرده تعالى بالألوهية والعلم المحيط، موجب لتعاليه عن أن يكون له شريك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ثلاثة إذا تعددت فسد النظام: الإله، والسلطان، والطبيب؛ فلو تعدد الإله لفسد نظام العالم، ولو تعدد المْلك لفسدت الرعية بالهرج والفتن، ولو تعدد الطبيب لفسد العلاج. والطبيب على قسمين: طبيب الأبدان، وطبيب القلوب، وهو شيخ التربية، فإذا تعدد على مريد واحد فسدت تربيته؛ لانقسام محبته واختلاف علاجه، فالمريد، إذا علق قلبه بغير شيخه، لا ينهض نهوض من جمع همته على شيخه، بل لا يجيء منه شيء. والله تعالى أعلم.

قال القشيري: كل أمر نيط بين اثنين انتفى عنه النظام وصحةُ التربية . هـ. وقال الورتجبي: نزه الحق ـ سبحانه ـ ذاته عن مخايل الزنادقة، وكان منزهاً عن أباطيل إشارة المشبهة، وذاته ممتنعة بكمال أحديته، عن زعم الثنوية، كيف يجوز أن يكون القدم محل الحوادث؛ إذ القديم المنزه، إذا تجلى بنعت القدم للحدثان، صار معدوماً كالعدم، تعالى الله عن كل وهْم وإشارة. هـ.

ولما توعدهم بالعذاب على كفرهم، أمر نبيه ـ عليه الصلاة السلام ـ بالدعاء بالنجاة منه إذا نزل بهم، فقال:

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قل ربِّ إما تُريَنّي ﴾ أى: إذا كان لابد من أن تريني ما يوعدون من العذاب المستأصل في الدنيا أو عذاب الآخرة، ﴿ ربِّ فلا تجعلني في القوم الظالمين ﴾ أى: قريبًا لهم فيما هم فيه من العذاب، وفيه إيذان بفظاعة ما وُعِدوه من العذاب، وأنه يجب أن يستعيذ منه مَن لا يكاد أن يحيق به، وردٌّ لإنكارهم إياه واستعجالهم على طريقة الاستهزاء، وقيل: أمر به ﷺ هضماً لنفسه، وقيل: إن شؤم الكفرة قد يحيق بمن وراءهم؛ كقوله تعالى: ﴿ واتَّقُوا فتْنَة . . . ﴾[1] الخ، ورُوى عن الحسن (أنه ـ تعالى ـ أخبر نبيه ﷺ بأن فى أمته نقمة، ولم يطلعه على وقتها، فأمر بهذا الدعاء) ويجوز أن يسأل النبيُّ المعصوم ربه ما علم أنه يفعله، وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله؛ إظهاراً للعبودية وتواضعاً لربه. والفاء: جواب «إما» الشرطية، أى: إن نزلت بهم النقمة فاجعلنى خارجًا عنهم، وتكرير النداء، وتصدير كل من الشرط والجزاء به ـ أى: بالدعاء ـ؛ لإبراز كمال الضراعة والابتهال.

قال تعالى: ﴿ وإنا على أن نُريَكَ ما نَعِدُهم ﴾ من العذاب ﴿ لقادرون ﴾ ، ولكنا نؤخره؛ لعلمنا بأن بعضهم، أو بعض أعقابهم، سيؤمنون، أو: لأنا لا نعذبهم وأنت فيهم، وقيل: قد أراهم ذلك، وهو ما أصابهم يومَ بدر وفتح مكة،

(١) من الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

وهو بعيد؛ لأن المبادر أن يكون ما استحقوه من العذاب الموعود عذاباً هائلاً مستأصلا لا يظهر على يديه ﷺ؛ للحكمة الداعية إليه، وكانوا يضحكون، استهزاءً بهذا الوعد، وإنكاراً له، فقال لنبيه ـ عليه الصلاة السلام ـ: ﴿ ادفع بالتي هي أحسنُ السيئةَ ﴾ أي: ادفع الخصلة السيئة بالخصلة التي هي أحسن، وهو الصفح عنها والإحسان في مقابلتها، لكن بحيث لا يؤدي إلى وَهَنٍ في الدين وإهانةٍ له. وقيل: السيئة: الشرك، والتي هي أحسن: كلمة التوحيد، وقيل: السيئة: المنكر، والتي هي أحسن: النهي عنه، وقيل: هي منسوخة بآية السيف، وقيل: محكمة؛ إذ المداراة مأمور بها. قال ابن عطية: أمر بمكارم الأخلاق، وما كان منها بهذا المعنى، فهو محكم باق في الأمة أبداً، وما كان بمعنى المواعدة فمنسوخ بآية القتال. هـ.

وهذا التركيب أبلغ من «ادفع بالحسنة السيئة»؛ لما فيه من التنصيص على التفضيل، وتقديم الجار والمجرور على المفعول؛ للاهتمام. ﴿ نحن أعلم بما يصفون ﴾ من الشرك والولد، أو بما يصفك به، مما أنت على خلافه، من السحر وغيره، فسنجازيهم عليه، وفيه وعيد لهم، وتسلية لرسوله ﷺ، وإرشاد له إلى تفويض أمره إليه تعالى والاكتفاء بعلمه.

﴿ وقل ربِّ أعوذُ بك من هَمَزاتِ الشياطين ﴾ أي: وساوسهم المغرية على خلاف ما أمرت من المحاسن، التي من جملتها دفع السيئة بالحسنة، وأصل الهمز: النخس، ومنه: مهماز الرائض، شبه حثهم للناس على المعاصي بهمز الرائض الدوابَّ على الإسراع والوثب. وجمع همزات؛ لتنوُّع الوساوس وتعدد المضاف إليه، ﴿ وأعوذ بك ربِّ أن يحضرون ﴾، أمر بالتعوذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه، والتعوذ من أن يحضروه أصلاً في حال من الأحوال؛ مبالغة في التحذير من ملابستهم، أو أن يحضروه عند التلاوة أو الصلاة، أو عند النزع؛ تشريعاً. وإعادة الفعل، مع تكرير النداء؛ لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به.

ولا تزال الكفرة تصف الحق بما لا يليق به من الشرك، ﴿ حتى إذا جاء أحدَهم الموتُ ﴾ أي: لا يزالون مشركين حتى يموتوا، فحتى، هنا، ابتدائية، دخلت على جملة الشرط، وهي متعلقة بيصفون، وما بينهما اعتراض مؤكد للإغضاء، لكن لا بمعنى أنه العامل فيه؛ لفساد المعنى، بل بمعنى أنه معمول لمحذوف دل عليه ذلك، أي: تنزيهاً له تعالى عما يصفون، ويستمرون على الوصف المذكور، حتى إذا جاء أحداً منهم الموت الذي لا مرد له، وظهرت له أحوال الآخرة، ﴿ قال ﴾؛ تحسراً على ما فَرَّطَ فيه من الإيمان والطاعة: ﴿ ربِّ ارجعون ﴾ أي: ردني إلى الدنيا، والواو؛ لتعظيم المخاطب، كخطاب الملوك، ﴿ لعلي أعملُ صالحا فيما تركت ﴾ أي: في الإيمان الذي تركته، أو في الموضع الذي تركت فيه الإيمان والطاعة؛ وهو الدنيا؛ لأنه ترك الدنيا وصار إلى العقبى.

قال قتاده: ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا عشيرة، ولكن ليتدارك ما فرط. وعنه، ﷺ أنه قال: «إِذَا عَايَنَ المُؤْمِنُ المَلائكَةَ قَالُوا له: نُرجِعكَ إلى الدُّنيا؟ فيقول: إلىَ دارِ الهُمومِ والأحْزانِ؟ بَلْ قُدومًا إلى اللَّهِ تبارك، وتعالى، وأمَّا الكافر فيَقُولُ: ارجعون لعلي أعمل صالحاً..» (١). وقال القرطبي: ليس سؤالُ الرجعة مختصاً بالكافر، فقد يسألها المؤمن، كما في آخرسورة المنافقين(٢)، ودلت الآية على أن أحداً لا يموت حتى يعرف: اهو من أولياء الله أم من أعداء الله، ولولا ذلك لما سأل الرجعة، فيعلم ذلك قبل نزول الموت وذواقه . هـ. قال المحشي الفاسي: ولعل محمل الحديث في المؤمن الكامل غير المقصِّر، والآية في غيره. والله أعلم. هـ.

﴿ كَلاَّ ﴾ أي: لا رجوع له أصلاً، وهو ردع عن طلب الرجعة، واستبعاد لها، ﴿ إنها ﴾ أي: قوله: (رب ارجعون)، ﴿ كلمةٌ ﴾، والمراد: طائفة من الكلام، وهو (ربِّ ارجعون...) الخ، ﴿ هو قائلها ﴾، ولا فائدة له فيها، ولا حقيقة لها؛ لعدم حصول مضمونها، أوهو قائلها لا محالة؛ لتسليط الحسرة والندم عليه، فلا يقدر على السكوت عليها، (ومن ورائهم) أي: أمامهم، والضمير للجماعة؛ لأن أحدهم بمعنى كلهم، ﴿ برزخٌ ﴾: حائل بينهم وبين الرجعة، ﴿ إلى يوم يُبعثون ﴾: يوم القيامة، وهو إقناط كلي عن الرجوع إلى الدنيا، لما علِم أنه لا رجعة يوم القيامة إلى الدنيا، وإنما الرجوع فيه إلى الحياة الأخروية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما قاله ﷺ في تضرعه إلى الله تعالى ـ كما أمره الحق تعالى ـ يقوله كل عارف ومتيقظ، فيقول: ربِّ إما تُريني ما يُوعدهُ أهل الغفَلة والبطالة من التحسر والندم، عند انقراض الدنيا وإقبال الآخرة، فلا تجعلني في القوم الظالمين، أي: لا تسلك بي مسلكهم حتى أتحسر معهم، فإذا أوذي في الله ـ كما هو شأن أهل الخصوصية ـ يقال له: ادفع بالتي هي أحسنُ السيئةَ، وقابل الإساءة بالإحسان، وإياك والانتصار لنفسك، وتعوذ بالله من همزات الشياطين، إن قامت عليك نفسك وأرادت الانتصار، كما هو شأن أهل الغفلة، في كونهم منهمكين في الغفلة، مملوكين في أيدي أنفسهم، مستمرين على ذلك، حتى إذا حضر أجلهم طلبوا من الله الرجعة، هيهات هيهات، (كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبعثون)، وفي الأثر: «ما منكم من أحد إلا وسيندم عند الموت، إن كان محسناً أن لو زاد، وإن كان مسيئاً أن لو تاب» . أو كما قال.

ولأجل هذا المعنى شد أهل اليقظة الحُزُم، وشمروا عن ذراعهم في طاعة مولاهم، وعمروا أوقاتهم بما يقربهم إلى محبوبهم، وتنافسوا في ذلك أيَّ تنافس، وفي ذلك يقول القائل:

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٨/٥٢)، من حديث ابن جريج، مرسلاً.

(٢) في قوله تعالى «وأنفقوا مما رزقناكم من أن قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب...) الآية ١٠.

السَّبَاقَ، السَّبَاقَ، قولاً وفِعْلاً حَذَّرِ النَّفْس حسْرَةَ المَسْبُوقِ

وكان بعض العباد حفر قبراً فى بيته، فإذا صلى العشاء دخل فيه، وقرأ : (قال ربِّ ارجعون لعلى أعملُ صالحاً....) الآيه، فيقول لنفسه: ستطلبين الرجعة ولا تُمكنين منها، وأنت اليوم متمكنة من الرجوع، قومي إلى خدمة مولاك، قبل أن يحال بينك وبينها، فيبيت قائماً يُصلي. وهكذا شأن أهل اليقظة؛ يُقدمون الندم والجد قبل فوات إبِّانِه. أعاننا الله على اغتنام طاعته، وما يقربنا إلى حضرته. آمين.

ثم ذكر أهوال ذلك اليوم الموعود، فقال:

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فإذا نُفخ فى الصور﴾ لقيام الساعة، وهى نفخة البعث والنشور، وقيل: فإذا نفخ فى الأجسادِ أرواحها، على أن الصور جمع صورة، ويؤيده القراءة بفتح الواو مع الضم، وبه مع كسر الصاد. ﴿ فلا أنسابَ بينهم يؤمئذ﴾ تنفعهم، لزوال التراحم والتعاطف بينهم؛ من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة، بحيث يفر المرءُ من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه. قال ابن عباس: (لا يفتخرون بالأنساب والأحساب فى الآخرة، كما كانوا يفتخرون فى الدنيا، ﴿ولا يتساءلون﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً؛ لا شتغال كل منهم بنفسه، ولايناقضه قوله تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾[1] ؛ لأن هذا ـ أي: سكوتهم ـ عند ابتداء النفخة الثانية، وذلك بعدها؛ لأن يوم القيامة ألوان، تارة يبهتون ولا يتساءلون، وتارة يفيقون، فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون.

وقال ابن عباس: إنما عنى النفخة الأولى، حين يصعق الناس، (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون)، ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[2]، ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾. نقله الثعلبي.

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الصافات. (٢) الآية ٦٨ من سورة الزمر.

﴿ فمن ثَقُلَتْ موازينهُ ﴾ أى: موزونات حسناته من العقائد الصحيحة والأعمال الصالحة، ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ ؛ الفائزون بكل مرغوب، الناجون من كل مرهوب، ﴿ ومن خفت موازينُه ﴾ أى: ومن لم يكن له من العقائد والأعمال ما يوزن ـ وهم الكفار ـ لقوله: ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾[1]، وتقدم ما فيه. ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ : ضيعوها بتضييع زمان استكمالها، وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها، ﴿ في جهنم خالدون ﴾ ، وهو خبر ثان لأولئك، أو بدل من الصلة، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة، فينصب على رؤوس الأولين والآخرين، ثم ينادى مناد: هذا فلان بن فلان، من كان له حق فليأت إلى حقه، فتفرح المرأة أن يدور لها الحق على ابنها، أو على زوجها، أو على أبيها، أو على أخيها، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتسالون﴾، ثم يقول الرب تعالى: آت هؤلاء حقوقهم، فيقول: ربِّ، فنيت الدنيا؛ فمن أين آتيهم؟ فيقول للملائكة: خذوا من حسناته فأعطوا كل إنسان بقدر طلْبته .....) الخ الحديث[2]، انظر النسفي.

قال تعالى: ﴿ تلفح وجوهَهم النار ﴾ ؛ تحرقها، واللفح كالنفخ، إلا أنه أشد تأثيراً منه، وتخصيص الوجوه بذلك؛ لأنها أشرف الأعضاء. ﴿ وهم فيها كالحون ﴾ : عابسون من شدة الإحراق، والكلوح: تقلص الشفتين من الإنسان، قال النبى ﷺ فى كالحون: «تَشْوِيهِ النَّارُ فَتَقَلَّصُ شَفَتُهُ العُلْيَا حَتَّى تَبْلُغَ وَسَطَ رَأْسِهِ، وتَسْتَرخِي السُّفْلَى حَتَّى تَبْلُغَ سُرَّتَه» [3]. فيقال لهم ـ تعنيفاً وتذكيراً لما به استحقوا ما ابتلوا به: ﴿ ألم تكن آياتى ﴾ أى: القرآن ﴿ تتلى عليكم ﴾ فى الدنيا ﴿ فكنتم بها تُكذِّبون ﴾ حينئذ، فذوقوا وبال ما كنتم به تكذبون. نسأل الله التوفيق والهداية.

الإشارة : قال الترمذى الحكيم: الأنساب كلها منقطعة إلا من كانت نسبته صحيحة فى عبودية ربه، فإن تلك نسبة لا تنقطع أبدا، وتلك النسبة المفتخر بها، لا نسبة الأجناس من الآباء والأمهات والأولاد.هـ. وقال الورتجبى: عند المعاينة والمشاهدة بوجوده ونشر جوده، نسبهم هناك نسب المعرفة والمحبة الأزلية، واصطفائيته القدسية، لايفتخرون بشيء دونه، من العرش إلى الثرى، ولا يتساءلون؛ شغلاً بما هم فيه. هـ.

ومعنى كلام الشيخين: أن العبد، إذا صحت نسبته إلى مولاه، وانقطع بكليته إليه، ورفض كل ما سواه، اتصلت نسبته، ودامت محبته وأنسه، ومن تعلق بغيره، وتودد إلى ما سواه، انقطع ذلك وانفصل، ومن النسب التى تتصل وتدوم، النسبة إلى أولياء الله، والتحبب إليهم وخدمتهم، وهى فى الحقيقة من نسبة الله تعالى؛ لأنها سبب معرفته

---

(١) من الآية ١٠٥ من سورة الكهف.
(٢) أخرج رواية ابن عباس، وكذلك، ورواية ابن مسعود، الطبرى فى تفسيره.
(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٣/٨٨) لترمذى فى (التفسير ـ تفسير سورة المؤمنون)، وقال: حسن غريب صحيح، والحاكم (٢/٣٩٥) وصححه، ووافقه الذهبى)، عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه.

والتحقق بعبوديته، فهى عينها، فمن انتسب إليهم فقد انتسب إلى الله، ومن أحبهم فإنما أحب الله، فمحبتهم، والاجتماع معهم يؤدى إلى محبة الله ورضوانه، وهم الذين يكونون عن يمين الرحمن، يغشى نورُهم الناس يوم القيامة، يغبطهم النبيون والشهداء؛ لمنزلتهم عند الله. قال عليه الصلاة والسلام: لما سئل عنهم: «هم رجال من قبائل شتى، يجتمعون على ذكر الله ومحبته» أو كما قال ﷺ كما فى الحديث[1]. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر جواب أهل النار، فقال:

﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قالوا ﴾ أى: أهل النار: ﴿ ربنا غلبت علينا ﴾ أى: ملكتنا ﴿ شِقْوَتُنا ﴾: شقاوتنا التى اقترفناها بسوء اختيارنا، كما ينبئ عنه إضافتها إلى أنفسهم، أى: شقينا بأعمالنا السيئة التى عملناها، ولا يصح حمله على الشقاوة الأزلية؛ لأنهم غير مكلفين بصرفها عنهم؛ إذ ليس فى اختيارهم. ﴿ وكنا قوماً ضالّين ﴾ عن الحق، ولذلك فعلنا ما فعلنا من التكذيب، وهذا، كما ترى، اعتراف منهم بأن ما أصابهم إنما أصابهم بسوء صنعهم، وأمّا ما قيل: من أنه اعتذار منهم بغلبة ما كتب عليهم من الشقاوة الأزلية، فلا يصح؛ لأن الله تعالى ما كتب عليهم الشقاء حتى علم أنهم يفعلونه باختيارهم، بحسب الظاهر فى عالم الحكمة، فيكون اعترافهم إنما هو بما كان فى اختيارهم، لا بما كتب عليهم.

ثم قالوا: ﴿ ربنا أَخْرِجْنَا منها فإن عُدْنَا فإنا ظالمون ﴾ أى: أخرجنا من النار، وردنا إلى الدنيا، فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنا عليه من الكفر والمعاصى ،فإنا متجاوزون الحد فى الظلم، ولو كان اعتقادهم أنهم مجبورن على

---

(١) عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ : «ليبعثن الله أقواماً يوم القيامة، فى وجوههم النور، على منابر اللؤلؤ، يغبطهم الناس، ليسوا بأنبياء ولاشهداء» قال: فجثا أعرابى على ركبتيه فقال: يارسول الله، حلِّهم لنا نعرفهم؟ قال: «هم المتحابون فى الله من قبائل شتى، وبلاد شتى، يجتمعون على ذكر الله تعالى، يذكرونه» قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٧٧) رواه الطبرانى وإسناده حسن.

ما صدر عنهم لما سألوا الرجعة إلى الدنيا، ولما وعَدوا بالطاعة والإيمان. قال القرطبي: طلبوا الرجعة إلى الدنيا كما طلبوها عند الموت.

ثم يجيبهم الحق تعالى، بعد ألف سنة، بقوله: ﴿قال اخسئوا فيها﴾ أي: اسكتوا في النار سكوت ذل وهوان، وانزجروا انزجار الكلاب، يقال: خسأت الكلب، إذا زجرته، فخسأ، أي: انزجر. ﴿ولا تُكلّمونِ﴾ باستدعاء الإخراج من النار والرجوع إلى الدنيا، أو في رفع العذاب عنكم؛ فإنه لا يرفع ولا يخفف، رُوي أنه آخر كلام يتكلمون به، ثم لا كلام بعد ذلك إلاَّ الشهيق والزفير، ويصير لهم عُواء كعُواء الكلاب لا يفهمون ولا يُفهمون[1]. قيل: ويرده الخطابات الآتية، وقد يجاب: بأنها قبل هذه الكلمة.

ثم علل استحقاقهم لذلك العذاب بقوله: ﴿إنه﴾ أي: الأمر والشأن ﴿كان فريق من عبادي﴾ وهم المؤمنون، أو الصحابة، أو أهل الصفة ـ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ـ ﴿يقولون﴾ في الدنيا: ﴿ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. فاتخذتموهم سخريا﴾ أي: هزواً، وهو مصدر سخر، زيدت فيه ياء النسب؛ للمبالغة، وفيه الضم والكسر. وقال الكوفيون: المكسور بمعنى الهزء، والمضموم من السخرة، بمعنى الانقياد للخدمة، ولذلك اتفق عليه في الزخرف[2]، أي: اتخذتموهم؛ مهزواً بهم، وتشاغلتم بهم ﴿حتى أنسَوكم ذكري﴾، من فرط اشتغالكم بالاستهزاء بهم، ولم تخافوني في أوليائي، ﴿وكنتم منهم تضحكون﴾، وذلك غاية الاستهزاء.

قال تعالى: ﴿إني جزَيتُهُم اليوم﴾ جزاء على صبرهم على أذاكم، ﴿أنهم هُمُ الفائزون﴾ بكل مطلوب دونكم، فأنهم: مفعول «جزيتهم»؛ لأنه يتعدى إلى مفعولين، وقرأ حمزة بالكسر؛ على الاستئناف؛ تعليلاً للجزاء، وبياناً أنه في غاية الحسن، ﴿قال كم لبثتم﴾، القائل هو الله تعالى، أو الملك، وقرأ المكي وحمزة: «قل»؛ التي بلفظ الأمر للملك، يسألهم: كم لبثوا، ﴿في الأرض﴾ التي دعوا الله أن يردهم إليها، ﴿عدد سنين﴾، وهو تمييز، أي: كم لبثتم في الأرض من عدد السنين، ﴿قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم﴾، استقصار لمدة لبثهم فيها بالنسبة إلى خلودهم، ولمَا هم فيه من عذابها؛ لأن الممتحن يستطيل أيام محنته، ويستقصر ما مر عليه من أيام الدعة، ﴿فاسْئل العادّين﴾ أي: المتمكنين من العد؛ فإنا بما دهمنا من العذاب بمعزل من العد، أو الملائكة العادين لأعمار العباد وأعمالهم.

﴿قال﴾ الله تعالى، أو الملك، تصديقاً لهم في مقالهم: ﴿إن لبثتم إلاَّ قليلا﴾: ما لبثتم إلا زماناً قليلاً، أو لبثا قليلا بالنسبة لما بعده، ﴿لو أنكم كنتم تعلمون﴾ شيئاً، أو: لو كنتم من أهل العلم لعلمتم قلة لبثكم فيها، فالجواب محذوف. والله تعالى أعلم.

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٥/٤٣١) عن الحسن.
(٢) في قوله تعالى: ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً..﴾ الآية ٣٢ من سورة الزخرف.

الإشارة: إذا تميز المتحابون في الله، المجتمعون على ذكر الله ومحبته وطلب معرفته، وعُرفوا بأنوارهم وأسرارهم، وانحازوا إلى ظل العرش، يوم لا ظل إلا ظله، ورآهم البطالون المنكرون عليهم، وهم في حسرة الحساب، يقولون بلسان الحال أو المقال: (ربنا غلبت علينا شقوتنا)؛ حيث لم نصحب هؤلاء الأولياء، وكنا قوماً ضالين، ربنا أخرجنا من هذه الحسرة، وردنا إلى الدنيا، فإن عدنا إلى البطالة والإنكار عليهم فإنا ظالمون، فيقال لهم: اخسئوا فيها؛ فقد فات الإبان، إنه كان فريق من عبادي، وهم المنتسبون من أهل التجريد، المتزيون بزي الصوفيه أهل التفريد، يقولون: ربنا آمنا بطريق الخصوصية ودخلنا فيها، فاغفر لنا، أي: غط مساوئنا، وارحمنا رحمة تضمنا إلى حضرتك، وأنت خير الراحمين، فاتخذتموهم سخرياً، وانشغلتم بالوقوع فيهم، حتى أنسوكم ذكري، وكنتم منهم تضحكون، إني جزيتهم اليوم، بما صبروا، أنهم هم الفائزون بشهود ذاتي، والقرب من أحبابي، المتنزهون في كمال جمالي، في درجات المقربين من النبيين والصديقين.

قال القشيري: الحق ينتقم من أعدائه بما يُطيِّبُ به قلوبَ أوليائه، وتلك خَصْمَةُ الحق، فيقول لهم: كان فريقٌ من أوليائي يُفْصِحون بمدحي وإطرائي، فاتخذتموهم سخرياً، فأنا اليوم أُجازيهم، وأنتقم ممن كان يناويهم.هـ.

قوله تعالى: ﴿قال كم لبثتم....﴾ الخ، اعلم أن أيام الدنيا كلها تقصر عند انقضاء عمر العبد، فتعود كيوم واحد، أو بعض يوم، فإن أفضى إلى الراحة بعد الموت نسي أيام التعب، وغاب عنها، فتصير كأضغاث أحلام، وإن أفضى إلى التعب، نسي أيام الراحة، كأنها طيف منام. قال في الحاشية: الأشياء، وإن كانت كثيرة، فقد تنقص وتقل بالإضافة إلى ما يرجّى عليها، كذلك مدة مقامهم تحت الأرض، إن كانوا في الراحة فقد تقل، بالإضافة إلى الراحات التي يلقونها في القيامة، وإن كانت شديدة فقد تتلاشى في جنب رؤية ذلك اليوم؛ لما فيه من أليم تلك العقوبات المتوالية.هـ.

ثم تمم توبيخهم يوم القيامة بقوله:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

قلت: (أفحسبتم): المعطوف محذوف، أي: ألم تعلموا شيئاً فحسبتم، و (عبثاً): حال، أو مفعول من أجله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ﴾ أي: عابثين، أو للعبث من غير حكمة في خلقكم وإظهاركم حتى أنكرتم البعث، ﴿ وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ للحساب والجزاء، بل خلقناكم للتكليف، ثم للرجوع إلينا، فنُثيب المحسن، ونعاقب المسيء. ﴿ فتعالى الله ﴾ أن يخلق شيئاً عبثاً، وهو استعظام له تعالى ولشئونه التي يُصرِّف عليها عباده؛ من البدء والإعادة، والإثابة والعقاب، بموجب الحكمة، أي: ارتفع بذاته، وتنزه عن مماثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأفعاله، وعن خلو أفعاله عن الحِكَم والمصالح والغايات الحميدة.

﴿ الملك الحق ﴾؛ الذي يحق له الملك على الإطلاق، إيجاداً وإعداماً، وإحياء وإماتة، عذاباً وإثابة، وكل ما سواه مملوك له، مقهور تحت ملكوته، ﴿ لا إله إلا هو ﴾، فإنّ كل ما عداه عبيده، ﴿ ربُّ العرشِ الكريم ﴾، فكيف بما تحته من الموجودات، كائناً ما كان، ووصفه بالكرم: إمّا لأنه منه ينزل الوحي الذي منه القرآن الكريم، والخير والبركة، أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين.

﴿ ومن يدعُ مع الله إلهاً آخر ﴾، يعبده فرداً أو اشتراكاً، من صفته ﴿ لا برهان له به ﴾ على صحة عبادته. وفيه تنبيه على أن التدين بما لا دليل عليه باطل، فكيف بما شهدت بديهة العقول بخلافه؟ ﴿ فإنما حسابُه عند ربه ﴾، فهو مُجازٍ له على قدر ما يستحقه، ﴿ إنه ﴾ أي: الأمر والشأن ﴿ لا يُفلح الكافرون ﴾؛ لا فوز لهم ولا نجاة.

بدئت السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين، وختمت بنفي فلاح الكافرين؛ تحريضاً على الإيمان، وعلى ما يوجب بقاءه وتنميته، من التمسك بما جاء به التنزيل، وبما جاء به النبي الجليل، ليقع الفوز بالفلاح الجميل.

ثم علّمنا سؤال المغفرة والرحمة؛ لأن شؤم المعاصي يؤدي إلى سوء الختام، فقال: ﴿ وقل ربِّ اغفرْ وارحمْ وأنت خير الراحمين ﴾، وفيه إيذان بأنهما من أهم الأمور الدينية، حيث أُمر به من قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف بمن عداه؟ نسأل الله ـ تعالى ـ المغفرة الشاملة، والرحمة الكاملة، لنا ولإخواننا ولجميع المسلمين.. آمين.

روى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه مرّ بمصابٍ مبتلى، فقرأ في أذنه: (أفحسبتم أنما...) إلخ السورة، فبرئ من حينه. فقال النبي ﷺ: «ماذا قرأت في أذنه؟» فأخبره، فقال: «والذي نفسي بيده لو أن رجلاً مؤمناً قرأها على جبل لزال»(١).

الإشارة: ما أظهر اللهُ الكائنات إلا ليُعرف بها، ويُظْهِرَ فيها أسرار ذاته وأنوار صفاته، وفي الأثر القدسي: «كنت كنزاً لم أُعرف، فأحببتُ أن أعرف، فخلقت الخلق، فتعرفت لهم، فبي عرفوني». وفي إيجاد المخلوقات حِكَم بليغة وأسرار عجيبة، لا يحصيها إلا من خلقها ودبّرها. فمن المخلوقات من خلقهم ليظهر فيهم أثر رحمته وكرمه وإحسانه،

---

(١) أخرجه البغوي في تفسيره (٤٣٢/٥)، وأبو نعيم في الحلية (٧/١)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص٢٩٨) قال الذهبي في ميزان الاعتدال (١٧٥/٢) قال العقيلي: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال:.... وساق الحديث، فقال أبي: هذا موضوع، هذا حديث الكذابين.

وهم أهل الإيمان والطاعة، ومنهم من خلقهم ليظهر فيهم حلمه وعفوه، وهم أهل العصيان، ومنهم من خلقهم ليظهر فيهم عدله وقهره ونقمته، وهم أهل الكفر والطغيان. وقال الحكيم الترمذي رضي الله عنه: إن الله خلق الخلق عبيداً ليعبدوه، فيثيبهم على العبادة، ويعاقبهم على تركها، فإنْ عبدوه فهم اليوم له عبيد، أحرار كرام من رق الدنيا، ملوك في دار السلام، وإن رفضوا العبودية فهم اليوم عبيد أُبّاق، سُقاط، لئام، أعداء في السجون بين أطباق النيران. هـ.

وقال بعضهم: إنما أظهر الله الكون لأجل نبينا ﷺ تشريفًا له، فهو من نوره. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: يا عيسى بن مريم؛ آمن بمحمد، ومر أمتك أن يؤمنوا به، فلولا محمد ما خلقت آدم، ولولا محمد ما خلقت الجنة والنار... الحديث.

قال القشيري: حسابُه على الله في آجله، وعذابُه من الله له في عاجله، وهو ما أودعَ قلبَه حتى رَضِيَ أنْ يَعْبُدَ معه غيره، لقوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾(١)، كلامٌ حاصلٌ عن غير دليل عقل، ولا شهادة خبرٍ ونقل، فما هو إلا إفك وبهتان، وقول ليس يساعده برهان. هـ. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وآله وصحبه وسلم تسليما، والحمد لله رب العالمين*.

● ● ●



(١) من الآية ٣ من سورة الزمر.

(*) في خاتمة المجلد الثاني من النسخة الأم ما يلي: كَمُلَ السفر الثاني من (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد)، ووافق الفراغ من تبيضه عشية يوم الثلاثاء، سابع عشر صفر، عام ثمانية ومائتين وألف، على يد جامعه «أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني» لطف الله به في الدارين، بمنه وكرمه. وبسيدنا ومولانا محمد، نبيه وحبيبه ﷺ وعلى آله. وآخر دعوانا: أن الحمد لله رب العالمين. يتلوه الثالث من أول سورة النور. إن شاء الله..

انتهى استخراجه من نسخة من مبيضته بحمد الله ـ تعالى ـ على توفيقه لنا وتسديده، عشية يوم الاثنين، آخر يوم من الشهر المذكور، من العام المذكور، على يد كاتبه لشيخه ومؤلفه المذكور «عبد الغفور بن التهامي البناني»، راجياً رضا مؤلفه، والري من بحره، بمحض الفضل والكرم، والصلاة على النبي الأعظم، والرسول الأفخم، سيدنا محمد، عليه أفضل الصلاة والسلام.

فهرس المجلد الثالث

تفسير سورة الرعد ٥
تفسير سورة إبراهيم ٤١
تفسير سورة الحجْر ٧٧
تفسير سورة النَحْل ١٠٧
تفسير سورة الإسْراء ١٧٩
تفسير سورة الكهْف ٢٤٥
تفسير سورة مريم ٣١٧
تفسير سورة طه ٣٧١
تفسير سورة الأنبياء ٤٤١
تفسير سورة الحج ٥٠٩
تفسير سورة المؤمنون ٥٦١

* * *